شرح رياض الصالحين

الإمام

أبي زكريا يحيى بن شرف الدين النووي

٦٣١ - ٦٧٦ هـ

نسخة محققة المتن والشروح والمسائل الفقهية

شرح فضيلة الشيخ

محمد بن صالح العثيمين

رحمه الله

دار الغد الجديد

شرح

رياض الصالحين

للإمام النووي

شرح

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

رحمه الله

QAMAR-UL-ULOOM
QAMAR SIALVI ROAD
GUJRAT PAKISTAN
PH. 3522555

تحقيق

صلاح الدين محمود

نسخة محققة المتن والشروح والمسائل الفقهية

الجزء الأول

عربي، اردو، اسلامی کتب لاہور ریٹ پر
مکتبہ کاظمیہ سعیدیہ
عقب الفلاح بینک شاہ حسین روڈ گجرات
CELL: 030_-6293760

دار الغد الجديد
المنصورة

QAMAR-UL-ULOOM
QAMAR SIALVI ROAD
GUJRAT PAKISTAN
PH. 3522555

Marfat.com

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لـ
دار الغد الجديد

المنصورة - مصر

EXCLUSIVE RIGHTS
BY
DAR AL-GHAD AL-GADEED
EGYPT - AL-MANSOURA

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
دار الغد الجديد

القاهرة: ١٢ ش درب الاتراك خلف الجامع الأزهر
المنصورة: ش عبد السلام عارف أمام جامعة الأزهر
٠٠٢٠٥٠ /٢٢١٦٨٩٨
ت فاكس/ ٠٠٢٠٥٠٢٢٩٤٧٦٦
٠٠٢٠١٠٥٥٠٢٨٢٨
صندوق بريد: 35111

EMAIL: DAR-ALGHAD@YAHOO.COM

QAMAR-UL-ULOOM
QAMAR SIALVI ROAD
GUJRAT PAKISTAN
PH. 3522555

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٥٧٦٧

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977-372-048-9

QAMAR-UL-ULOOM
QAMAR SIALVI ROAD
GUJRAT PAKISTAN
PH. 3522555

Marfat.com

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء : ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١].

أما بعد :

فإن خير الكلام كلام الله وأحسن الهدى هدى النبى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار .

فهذا شرح لكتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين لمحيى الدين أبى زكريا يحيى ابن شرف النووى (٦٣١هـ - ٦٧٦هـ) .

والنووى إمام من أئمة العلم والهدى عند المسلمين وقد وصفه واصفوه بأنه (شيخ الإسلام وأستاذ المتأخرين وحجة الله على اللاحقين والداعى إلى سبيل السالفين) .

وقد كان شديد الاجتهاد فى طلب العلم يسهر به ليله ويشغل به نهاره ويقدمه على كل مطلوب إلا أن يكون طاعة لله تعالى ، ومما يدل على ذلك أنه كان يقرأ فى كل يوم اثنى عشر درسًا فى علوم مختلفة منها درسان فى الوسط للغزالى ودرس فى المهذب ودرس فى الجمع بين الصحيحين ودرس فى صحيح مسلم ودرس فى اللمع لابن جنى ودرس فى إصلاح المنطق لابن السكيت ودرس فى التصريف ودرس فى أصول الفقه ودرس فى أسماء الرجال ودرس فى أصول الدين وكان يعلق على جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل ووضوح عبارة وضبط لغة . وبارك الله له فى وقته حتى اتسع لهذه الدروس والعلوم جميعًا.

Marfat.com

* ولم يقتصر همه على طلب العلم بل إنه كان مع هذا التبحُر فى العلم وسعة المعرفة بالحديث والفقه واللغة وغير ذلك من العلوم « رأسًا فى الزهد وقدوة فى الورع عديم المثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قانعًا باليسير راضيًا عن الله تعالى متقصدًا - إلى الغاية - فى ملبسه ومطعمه وأثاثه . تعلوه سكينة وهيبة »[(١)] .

* وهكذا جمع بين العلم والعمل والعبادة والمجاهدة ورزقه الله الإخلاص والتقوى فأثمر له ذلك فقهًا وفهمًا ونورًا وكتب الله له محبة وقبولاً فأحبه الخلق ووثقوا بعلمه ودينه وأقبلوا على كتبه التى صنفها وألفها : قراءة ودرسًا وتلخيصًا وشرحًا وكان من فضل الله عليه أن كثيرًا منها قد سارت به الركبان واتخذ أصلاً فى بابه ومقدمًا فى ميدانه ومن ذلك: كتابه « المجموع » فى فقه الشافعية ؛ « والمنهاج » فى شرح صحيح مسلم ، « والأذكار » فى أعمال اليوم والليلة وسائر أنواع العبادات « والتقريب » فى الحديث ، « والتبيان فى آداب حملة القرآن » ، « والأربعون حديث النووية » إلى آخر ما فتح الله به عليه ومن عجيب أمره أن يتسع عمره لكل هذا العلم ولم يعش إلا خمسًا وأربعين سنة وبضعة أشهر: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة : ٤] .

وكان من هذه الكتب العظيمة التى كثر انتفاع الناس بها ورجوعهم إليها كتابه « رياض الصالحين» وهو كتاب جمع الخير من أطرافه . ففيه : آداب وأخلاق وتربية وتهذيب وحث على الطاعة وتحبيب فيها . ونهى عن المعاصى وتحذير منها . وهو يسوق قارئه إلى الخير سوقًا رقيقًا مستضيئًا فيما جمعه فيه بنور القرآن والسنة اللذين يقوم عليهما كتابه وهو ينبض فى كل أبوابه بهذا الإخلاص الذى بدأه كتابه وهو مقرون بصدق اليقين وطهارة النية وحسن الإقبال على الله ودوام التوجه إليه وكمال التوكل عليه .

وتكشف مقدمة الكتاب عن رغبته الصادقة فى دلالة الخلق على السنة ودعوتهم إلى الهدى طلبًا للمثوبة وعظيم الأجر من الله تعالى . وكان يرى أن ذلك من التعاون على البر والتقوى وكان يستحضر فى هذا المقام قول الرسول ﷺ : « **من دل على خير فله مثل أجر فاعله** »[(٢)] . وقوله : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا** »[(٣)] .

---

(١) انظر تذكرة الحفاظ (٥/ ١٤٧٠) .

(٢) رواه مسلم (١٩٨٣).

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٦٧٤) .

Marfat.com

* وقد أوضح منهجه لتحقيق هذه الغاية فقال : « فرأيت أن أجمع مختصرًا من الأحاديث الصحيحة مشتملاً على ما يكون طريقًا لصاحبه إلى الآخرة ومحصلاً لآدابه الباطنة والظاهرة جامعًا للترغيب والترهيب وسائر أنواع الآداب من أحاديث الزهد ورياضات النفوس وتهذيب الأخلاق وطهارات القلوب وعلاجها وصيانة الجوارح وإزالة اعوجاجها وغير ذلك من مقاصد العارفين » .

وقد انتقى هذه الأحاديث بعناية بالغة لأداء هذه المهمة الجليلة فى الدعوة إلى الله تعالى واختارها من كتب السنة الصحيحة [(١)]. وفى ذلك يقول : « وألتزم فيه ألا أذكر إلا حديثًا صحيحًا من الواضحات . مضافًا إلى الكتب الصحيحة المشهورات وأُصدِّر الأبواب من القرآن العزيز بآيات كريمات وأوشِّح ما يحتاج إلى ضبط أو شرح معنى خفى بنفائس من التنبيهات » .

وقد جعل الله لهذا الكتاب قبولاً عظيمًا وانتشارًا كبيرًا . وهو من الكتب التى يحرص المسلمون على اقتنائها والانتفاع بها لسهولة عرضه وقرب مأخذه واعتدال حجته وشمول أحاديثه لأهم ما يحتاج إليه المسلم فى أمر دينه وأمر دنياه .

ثم يضاف إلى ذلك بركة الإخلاص السارى فى عروق الكتاب ثم تلك المحبة الإلهية التى جعلها الله لصاحبه فى قلوب عباده مصداقًا لحديث الرسول ﷺ الذى يقول فيه : «**إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل : إن الله تعالى يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض**» [(٢)] .

ومن أجل ذلك تسابق الناس إلى طباعة الكتاب وتحقيقه وشرحه واختصاره : لو كان كل مهتم بالكتاب يبذل جهده فى خدمته تيسيرًا للإفادة منه وسعيًا لنوال شيء من فوائد هذا الكتاب المبارك .ومن هذه الجهود هذا الشرح الذى بين يديك أيها القارئ الكريم . وهو للشيخ العالم: محمد بن صالح بن عثيمين .

* **ترجمة الشارح :**

اسمه ونسبه : محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين المقبل وهيبى التميمى .

---

(١) لكن قد أورد رحمه الله بعض الأحاديث الضعيفة ـ عفا الله عنا وعنه .

(٢) صحيح : رواه البخارى / ٧٤٨٥) مسلم (٢٦٣٧) .

Marfat.com

كنيته : أبو عبد الله .

مولده ونشأته : ولد الشيخ ـ رحمه الله ـ تعالى فى مدينة (عنيزة) إحدى مدن (القصيم) عام ١٤٣٧ هجرية .

فى السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك . فى عائلة معروفة بالدين والاستقامة بل تتلمذ على بعض أفراد عائلته أمثال جده من جهة أمه الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل وامغ ـ رحمه الله ـ فقد قرأ عليه القرآن فحفظه ثم اتجه إلى طلب العلم . فتعلم الخط والحساب وبعض فنون الآداب .

وكان الشيخ قد رزق ذكاء وهمة عالية وحرصًا على التحصيل العلمى المفسر فى مزاحمة الركب لمجالس العلماء . وفى مقدمتهم الشيخ العلامة المفسر عبد الرحمن بن ناصر السعدى . وكان الشيخ عبد الرحمن قد أقام اثنين من طلاب لتعليم الصغار وهما الشيخ على العسالى والشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع فقرأ الشيخ محمد بن صالح العثيمين عليهما (مختصر العقيدة الواسطية) للشيخ عبد الرحمن السعدى . و(منهاج السالكين فى الفقه) للشيخ السعدى أيضًا و (الأجرومية) و (الألفية) فى النحو والصرف.

وهكذا كانت نشأة الشيخ بين أحضان العلماء ولم يرحل الشيخ لطلب العلم إلا إلى الرياض . حين فتحت المعاهد العلمية عام ١٣٧٢ هجرية فالتحق بها .

بعد وفاة شيخه عبد الرحمن السعدى رشح الشيخ محمد بن صالح العثيمين لإمامة الجامع الكبير . عندها تصدر للتدريس مكان شيخه . ولم يتصد للتأليف إلا عام ١٣٨٢هجرية حين ألف أول كتاب له وهو (فتح رب البرية بتلخيص الحموية) وهو تلخيص لكتاب شيخ الإسلام ابن تيمية (الحموية فى العقيدة) .

واستغل الشيخ وجوده فى الرياض بالدراسة على الشيخ عبد العزيز بن باز . فقرأ عليه من (صحيح البخارى) وبعض رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية . وبعض الكتب الفقهية وقد عرض على الشيخ تولى القضاء من قبل مفتى المملكة العربية السعودية الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمه الله ـ الذى ألح على فضيلته بتولى القضاء . بل أصدر قراره بتعيينه رئيسًا للمحكمة الشرعية بالأحساء فطلب منه الإعفاء . وبعد مراجعات

Marfat.com

واتصالات سمح بإعفائه من منصب القضاء .

مشايخه : استفاد الشيخ أبو عبد الله فى طلب العلم من عدة شيوخ منهم :

١ ـ الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى : المتوفى عام ١٣٧٦هـ . المفسر المشهود صاحب التفسير المعروف بـ (تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان) فى ثمان مجلدات .

٢ ـ الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكنى الشنقيطى المتوفى عام ١٣٩٣هـ . المفسر اللغوى . صاحب التفسير المشهور والمعروف بـ (أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن) .

٣ ـ الشيخ عبد العزيز بن باز المفتى العام للمملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء ـ رحمه الله .

٤ ـ الشيخ على بن حمد الصالحى ولا يزال على قيد الحياة . أطال الله عمره وأحسن عمله .

٥ ـ الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع ـ رحمه الله .

٦ ـ الشيخ عبد الرحمن بن على بن عودان ـ رحمه الله .

٧ ـ الشيخ عبد الرحمن بن سليمان آل دامغ ـ رحمه الله ـ جد الشيخ من جهة أمه .

منهجه العلمى :

لقد أوضح الشيخ منهجه وصرح به مرات عديدة . أنه يسير على الطريق التى انتهجها شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى .

يقول شيخنا أبو عبد الله : « لقد تأثرت كثيراً بشيخى عبد الرحمن السعدى فى طريقة التدريس وعرض العلم وتقريبه للطلبة بالأمثلة والمعانى » .

ومنهج الشيخ السعدى هو أنه كثيراً ما يتبنى آراء شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله ـ ويرجحهما على المذهب الحنبلى .

لم يكن عنده الجمود تجاه مذهب معين . بل كان متجرداً للحق . وقد انطبقت فيه

Marfat.com

هذه الصفة وانتقلت إلى تلميذه محمد بن صالح العثيمين .

طبيعة الدرس عن الشيخ :

إن طبيعة الدرس التى التزمها الشيخ وسار عليها واتخذها منهجًا له منذ توليه التدريس فى الجامع الكبير خلفًا لشيخه منذ أكثر من خمسة وثلاثين سنة تكمن فى نمط معين ذلك أن الشيخ يركز كثيرًا على حفظ المتون ويطالب التلميذ ويتابعه على الحفظ فى كل درس بل إن الشيخ ينكر على من يحضر درسه ولا يلتزم الحفظ .

مرضه ووفاته ـ رحمه الله :

توفى الشيخ يوم الأربعاء الموافق الخامس عشر من شوال ١٤٢١هـ بعد معاناة وصراع مع المرض الشديد والألم المرير حتى نزل وزنه إلى ٣٨ ك . وصارت درجة المناعة عنده صفرًا . وكل من استمع إليه فى رمضان هذا العام ـ عام وفاته ـ فى الحرم يعلم ذلك إذ كان المرض قد تمكن منه واشتد عليه أيما اشتداد . فنسأل الله عز وجل أن يتغمده برحمته وأن يعلى قدره ومنزلته ويحشره مع الصالحين والشهداء .

منهجى فى تحقيق الكتاب :

أولاً :قمت بتخريج الآيات القرآنية حيث ذكرت اسم السورة ورقم الآية .

ثانيًا :قمت بترقيم أحاديث الكتاب ترقيمًا مسلسلاً .

ثالثًا : قمت بتخريج جميع أحاديث الكتاب سواء الأصل أو الشرح . وكذلك تخريج الآثار والأقوال التى ذكرها الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله .

رابعًا :قمت بشرح غريب الكلمات التى لم يتطرق إليها الشارح ـ رحمه الله.

خامسًا : قمت بتوثيق المسائل الفقهية التى تعرض لها الشيخ ابن عثيمين من مراجعها الأصلية خاصة ما يتعلق بمذهب الإمام أحمد الذى يفتى الشيخ كثيرًا به .

سادسًا : قمت بإضافة وتكملة الأحاديث التى لم يشرحها الشيخ ـ رحمه الله ـ فذكرتها فى مواضعها حتى يكون الكتاب شاملاً لجميع أحاديث كتاب رياض الصالحين حيث قد لاحظت أن معظم النسخ أغفلت كثير من هذه الأحاديث .

سابعًا :قمت بعمل فهرس لأحاديث الكتاب سواء الأصل أو الشرح فى نهاية كل جزء .

Marfat.com

هذا وأسأل الله عز وجل أن ينفعنى والمسلمين بهذا الكتاب وأن يجعله فى ميزان حسناتنا إنه ولى ذلك والقادر عليه وصلى الله على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين .

تحقيق

أبو أنس صلاح الدين محمود السعيد

Marfat.com

مقدمة المؤلف

الحَمْدُ للّه الوَاحِد القَهَّار ، الْعَزيزِ الْغفَّارِ ، مُكورِ اللَّيلِ عَلَى النَّهَارِ ، تَذْكِرَةً لأولى القُلُوبِ وَالأبْصَارِ ، وتَبْصِرَةً لِذَوى الألْبَابِ وَالاعْتبَارِ ، الَّذى أيْقَظَ مِنْ خَلْقه مَن اصْطَفَاهُ فَزَهَّدَهُمْ فى هذِهِ الدَّارِ ، وَشَغَلَهُمْ بِمُرَاقَبَته وَإِدَامَة الأفكَارِ ، وَمُلازَمَة الاتعَاظ وَالادكَارِ ، ووَفَّقَهُمْ للدؤوب فى طَاعَته ، وَالتَّأَهُّبِ لدَارِ الْقَرَارِ ، وَالْحَذَرِ مِمَّا يُسْخطُهُ وَيُوجِبُ دَارَ البَوَارِ ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى ذلكَ مَعَ تَغَايُرِ الأحْوَالِ وَالأطْوَارِ ، أحْمَدُه أبْلَغَ حَمْدِ وَأزْكَاهُ ، وَأشْمَلَه وأنْمَاه .

وَأَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللّهُ الْبَرُّ الْكَرِيمُ ، الرؤوفُ الرَّحِيمُ ، وَأَشْهَدُ أنْ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَحَبيبُهُ وَخَليلُهُ ، الْهَادى إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَالدَّاعى إلَى دِينٍ قَوِيمٍ . صَلَوَاتُ اللّه وَسَلامُهُ عَلَيْه ، وَعَلَى سَائِرِ النَّبيينَ ، وَآلِ كُل ، وَسَائِرِ الصَّالِحينَ .

أما بعدُ : فقد قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجنَّ وَالإنس إلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِن رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ، ٥٧] وَهذَا تَصْرِيحٌ بأنَّهُمْ خُلِقُوا للعبَادَة ، فَحَقَّ عَلَيْهم الاعْتنَاءُ بِمَا خُلقُوا لَهُ وَالإعْرَاضُ عَنْ حُظُوظ الدُّنْيَا بالزَّهَادَة ، فإنها دَارُ نَفَاد لا مَحَلُّ إخْلادٍ ، وَمَرْكَبُ عُبُورٍ لا مَنْزِلُ حُبُورٍ ، وَمَشْرَعُ انفصَامٍ لا مَوْطنُ دَوَامٍ . فَلِهذَا كَانَ الأيْقَاظُ مِنْ أهْلها هم العُبَّادُ ، وَأعْقَلُ النَّاسِ فيهَا هُم الزُّهَّادُ . قال اللّه تعالى : ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] والآيات فى هذا المعنى كَثِيرةٌ . ولقد أحْسَنَ الْقَائلُ :

إنّ للّه عباداً فُطَنَا ... طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا
نَظَرُوا فيهَا فَلَمَّا عَلمُوا ... أنَّها لَيْسَتْ لِحَيّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا ... صَالِحَ الأعْمَالِ فيها سُفُنَا

فإذا كان حالُها ما وصفتُهُ ، وحَالُنَا لَهُ مَا قَدَّمْتُهُ ؛ فَحَق على الْمُكَلَّفِ أنْ يَذْهَبَ

Marfat.com

بَنفسه مَذهَبَ الأخيَارِ ، ويَسْلُكَ مَسلَكَ أُولِى النُّهَى وَالأبْصارِ ، وَيَتَأَهَّبَ لما أَشَرْتُ إلَيْه ، وَيَهتَمَّ بِمَا نَبَّهْتُ عَلَيْه . وأَصْوَبُ طريق له فى ذلكَ ، وأَرْشَدُ مَا يَسْلُكُهُ مِنَ المَسَالك : التَّأدُّبُ بمَا صَحَّ عَنْ نَبينَا سَيِّد الأوَّلينَ وَالآخرينَ ، وأكرَمِ السَّابقينَ وَاللَّاحقينَ . صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وعَلَى سَائِرِ النَّبيينَ. وَقَد قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَتعاوَنُوا على الْبِرِ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] وَقَدْ صَحَّ عَنْ رسول اللهِ ﷺ أنَّهُ قَالَ : « واللهُ فِى عَونِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِى عَونِ أخيهِ » (١) ، وأنَّهُ قَالَ : « مَنْ دَلَّ عَلَى خير فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِله » (٢) وأنَّهُ قَالَ : «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً» (٣) وأنَّهُ قَالَ لِعَلِىّ ﷺ : « فَوَاللهِ لأنْ يَهْدِىَ اللهُ بِكَ رَجلاً وَاحداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ» (٤) .

فَرَأَيْتُ أنْ أجْمَعَ مُخْتَصَراً مِنَ الأحَاديثِ الصَّحيحَةِ ، مُشْتَمِلاً عَلَى مَا يَكُونُ طَرِيقاً لِصَاحِبِهِ إلَى الآخرَةِ ، ومُحَصِّلاً لآدَابِهِ البَاطنَةِ وَالظَّاهرَةِ ،جَامعاً للتَّرْغيبِ والتَّرْهيبِ وَسَائِرِ أنْوَاعِ آدَابِ السَّالِكِينَ :مِنْ أحاديثِ الزُّهْدِ ،ورِيَاضَاتِ النُّفُوسِ ، وتَهْذِيبِ الأخْلاقِ ، وطَهَارَاتِ القُلُوبِ وَعِلاجِهَا ، وَصِيَانَةِ الجَوَارِحِ وَإزَالَةِ اعْوِجَاجِهَا ، وَغَيْرِ ذلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ العَارِفِينَ .

وَألْتَزِمُ فِيهِ أنْ لا أذْكُرَ إلا حَدِيثاً صَحِيحاً مِنَ الوَاضِحَاتِ ، مُضَافاً إلَى الكُتُبِ الصَّحِيحَةِ المَشْهُورَاتِ ، وأُصَدِّرَ الأبْوَابَ مِنَ القُرْآنِ العَزِيزِ بآيَاتٍ كَرِيمَاتٍ ، وَأُوَشِّحَ مَا يَحْتَاجُ إلَى ضَبْطٍ أوْ شَرْحِ مَعْنًى خَفِىٍّ بنَفَائِسَ مِنَ التَّنْبِيهَاتِ . وَإذَا قُلْتُ فِى آخِرِ حَدِيثٍ :

(١) صحيح : جزء من حديث رواه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبى هريرة ﷺ أبو داود (٤٩٤٦) والترمذى (١٢٤٥) وابن ماجه (٢٢٥) أحمد (٢/ ٢٧٤) .

(٢) صحيح : رواه مسلم (١٨٩٣) من حديث أبى مسعود ﷺ وأحمد (٤/ ١٢٠) .

(٣) صحيح : رواه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبى هريرة ﷺ والترمذى (٢٦٧٤).

(٤) صحيح : رواه البخارى (٤٢١٠) ، ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ﷺ .

Marfat.com

مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، فَمَعنَاهُ : رواه البخارى ومسلم .

وَأَرْجُو إنْ تَمَّ هذا الْكِتَابُ أَنْ يكُونَ سَائِقاً للْمُعْتَنى بِهِ إلَى الْخيرَاتِ ، حَاجِزاً لَهُ عَنْ أَنْوَاعِ الْقَبَائِحِ وَالْمُهْلِكَاتِ . وأَنَـا سَائِلٌ أخاً انْتَفَعَ بشىءٍ مِنْهُ أنْ يَدْعُـوَ لِى ، ولِـوَالِدَىَّ ، وَمَشَايِخِى ، وَسَائِرِ أحْبَابِنَا ، والْمُسْلِمِينَ أجْمَعِينَ ، وَعَلَى اللّهِ الْكَرِيمِ اعْتِمَادِى ، وَإِلَيْهِ تَفْوِيضِى وَاسْتِنَادِى ، وَحَسْبِىَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا باللّهِ الْعَزِيزِ الْحكيمِ .

❊ ❊ ❊

Marfat.com

١ ـ باب الإخلاص وإحضار النية
فى جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية

قَالَ اللَّه تَعَالَى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] ، وقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج:٣٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران:٢٩] .

الشرح

قال المؤلف « باب الإخلاص ..» :

« النية » محلها القلب ، ولا محل لها فى اللسان فى جميع الأعمال ولهذا كان من نَطَق بالنِّية عند إرادة الصلاة أو الصوم أو الحج أو الوضوء أو غير ذلك من الأعمال كان مبتدعًا قائلاً فى دين الله ما لَيس منهُ .

لأن النبى ﷺ كان يتوضأ ويصلى ويتصدَّق ويصوم ويحج ولم يكن ينطق بالنية ، وذلك لأن النية محلها القلب .

واللَّه عز وجل يعلم ما فى القلب ولا يخفى عليه شىء كما قال تعالى فى الآية التى ساقها المؤلف : ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٢٩] ويجب على الإنسان أن يُخلص النية للَّه فى جميع عباداته ، وألا ينوى بعبادته إلا وجه اللَّه والدار الآخرة .

وهذا هو الذى أمر اللَّه به فى قوله : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة : ٥] أى : مخلصين له العمل .

وينبغى أن يستحضر النية فى جميع العبادات .

فينوى مثلاً الوضوء وأنَّه توضأ للَّه وأنه توضأ امتثالاً لأمر اللَّه .

فهذه ثلاثة أشياء :

١ ـ نية العبادة .

Marfat.com

٢ - ونية أن تكون اللَّه .

٣ - ونيَّة أنه قام بها امتثالاً لأمر اللَّه .

هذا أكمل شيء فى النية كذلك فى الصلاة وفى كل العبادات .

وذكر المؤلف عدة آيات كلها تدل على أن النية محلها القلب ، وأن اللَّه سبحانه عالم بنية العبد . ربما يعمل عملاً يظهر أمام الناس أنَّه عمل صالح وهو عمل فاسد أفسدته النية لأن اللَّه يعلم ما فى القلب .

وما يجازى الإنسان يوم القيامة إلا على ما فى قلبه لقول اللَّه تعالى : ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ⑧ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ⑨ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق : ٨ - ١٠] .

أى يوم تختبر السرائر - البواطن - كقوله : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ⑨ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات : ٩ ، ١٠] ، ففى الآخرة يكون الثواب والعقاب والاعتبار بما فى القلب ، أما فى الدنيا فالعبرة بما ظهر ، فيعامل الناس بظواهر أحوالهم . ولكن هذه الظواهر إن وافقت ما فى البواطن صَلُحَ ظاهره وباطنه وسريرته وعلانيته . وإن خالفت وصار القلب منطويًا على نيَّةٍ فاسدةٍ فما أعظم خسارته .

يعمل ويتعب ولا حظَّ له فى العمل كما جاء فى الحديث الصَّحيح عن النبى - ﷺ - : « **إنَّ اللَّه قال أنا أغنى الشُّركاء عن الشركِ ، مَن عمل عملاً أشركَ فيه معى غيرى تركتهُ وشِركَه** » (١) . فاللَّه اللَّه أيها الإخوة بالإخلاص للَّه .

واعلم أن الشيطان قد يأتيك عند إرادة عمل الخير فيقول : إنك تعمل هذا رياءً ! فيُحبط همّتك ويُثبِّطها ولكن لا تلتفت إلى هذا ولا تُطعه بل اعمل ، لأنك لو سُئلت هل أنت الآن تعمل هذا رياءً وسمعة ؟ قلت : لا !

إذن فهذا الوسواس الذى أدخله الشيطان فى قلبك لا تلتفت له .

[١] **وَعَنْ أَميرِ المُؤمنينَ أبى حَفصٍ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ بنِ نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزَّى بنِ رِيَاحِ بنِ عبدِ اللهِ بْنِ قُرْطِ بْنِ رَزَاحِ بْنِ عَدِىِّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَىِّ بْنِ غَالِبٍ الْقُرَشِىِّ الْعَدَوِىِّ، ﷺ ، قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنياتِ ، وَإِنَّمَا لِكلِ امْرِئٍ مَا**

---

(١) رواه مسلم (٢٩٨٥) .

[١] صحيح : رواه البخارى (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

Marfat.com

نَوى» ، فَمَنْ كَانَتْ هِجرَتُه إلَى اللهِ ورَسوله ، فَهِجْرَتُهُ إلى الله ورسوله ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا ، أو امْرأةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إلَى مَا هَاجَر إلَيْهِ » مُتَّفَقٌ عَلَى صِحته .

رواهُ إمَاما المُحَدثِينَ : أَبُو عَبْد الله مُحمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْراهِيمَ بْنِ المُغِيرة ابْن بَرْدِزْبَهْ الجُعْفِىُّ البُخَارِىُّ ، وَأَبُو الحُسَيْنِ مُسْلمُ بْنُ الحَجَّاجِ بْن مُسْلِمِ القُشَيْرِىُّ النَّيسَابُورِىُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فى صَحِيحَيهِمَا اللَّذَيْنِ هُمَا أَصَحُّ الكُتُبِ المُصَنَّفَة .

الشرح

لما كان هذا الباب فى الإخلاص للَّه ، وأنَّه ينبغى أن تكون النية المخلصة للَّه فى كل قول وفى كل فعل وعلى كل حال وذكر المؤلف من الآيات ما يتعلَّق بهذا المعنى ، ذكر ـ رحمه اللَّه ـ من الأحاديث ما يتعلق به أيضًا ، وصدَّر هذا بحديث عمر بن الخطاب الذى قال فيه سمعت الرسول ـ ﷺ ـ يقول : « **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى** » .

هاتان الجملتان اختلف العلماء ـ رحمهم اللَّه ـ فيهما ، فقال بعض العلماء : إنهما جملتان بمعنى واحد ، وأن الجملة الثَّانية تأكيدٌ للجملة الأولى .

ولكن هذا ليس بصحيح وذلك لأن الأصل فى الكلام أن يكون تأسيسًا لا تأكيدًا ، ثمَّ إنَّهما عند التأمل يتبيَّن أن بينهما فَرقًا عظيمًا ، فالأولى سبب ، والثَّانية نتيجةٌ .

الأولى سبب يبين فيها النبى ﷺ أن كل عمل لابد فيه من نية ، كل عمل يعمله الإنسان وهو عاقل مختار فلابد فيه من نية ، ولا يمكن لأى عاقل مختار أن يعمل عملاً إلا بنية .

حتى قال بعض العلماء : « لو كلَّفنا اللَّه عملاً بلا نية لكان من تكليف ما لا يُطاق ! » .

وهذا صحيح ، كيف تعمل وأنت عاقل فى عقلك وأنت مختار غير مُكره عملاً بل نية ؟ هذا مستحيل لأن العمل ناتج عن إرادة وقدرة ، والإرادة هى النيَّة، إذًا فالجملة الأولى معناها أنَّه ما من عامل إلا وله نية ولكن النيات تختلف اختلافًا عظيمًا وتتباين تباينًا بعيدًا كما بين السماء والأرض .

من الناس من نيته فى القمة فى أعلى شىء ، ومن الناس من نيته فى القمامة فى

Marfat.com

أخس شيء وأدنى شيء .

حتى إنك لترى الرَّجلين يعملان عملاً واحدًا يتفقان فى ابتدائه وانتهائه وفى أثنائه وفى الحركات والسكنات والأقوال والأفعال ، وبينهما كما بين السماء والأرض كل ذلك باختلاف النية .

إذًا الأساس أنه : ما من عمل بلا نية .

نتيجة قوله : « **وإنما لكل امرئ ما نوى** » إن نويت اللَّه والدار الآخرة فى أعمالك الشرعية حصل لك ذلك ، وإن نويت الدُّنيا فقد تَحصل وقد لا تحصل.

قال اللَّه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء :١٨] . ما قال عجلنا له ما يريد ، بل قال ما نشاء - أى لا ما يشاء هو - لمن نريد - لا لكل إنسان - فقيد والمعجل له .

إذًا من الناس من يُعطى ما يُريد من الدُّنيا ومنهم من يُعطى شيئًا منه ومنهم من لا يعطى شيئًا أبدًا .

هذا معنى قوله : ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء : ١٨] أما ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩] .

لابد أن يجنى هذا العمل الذى أراد به وجه اللَّه والدار الآخرة .

وقوله : « **إنما الأعمال بالنيات** .. » إلخ . هذه ميزان لكل عمل ، لكنه ميزان الباطن . وقوله فيما أخرجه الشيخان عن عائشة ﵂ : « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ** »[1] . ميزان للأعمال الظاهرة .

ولهذا قال أهل العلم : « **هذان الحديثان يجمعان الدّين كله** » ، ثم ضرب النبى - ﷺ- مثلاً يطبق هذا الحديث عليه ، قال : « **فَمن كانت هجرتُه إلى اللَّه ورَسوله فَهجرتُه إلي اللَّهِ ورسوله ، ومن كانت هجرتُه لِدنُيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** » .

« الهجرة » : أن ينتقل الإنسان من دار الكفر إلى دار الإسلام . مثل أن يكون فى

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧١٨) ، وعلقه البخارى (ص٣٢٩/ فتح) ، ورواه البخارى (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) بلفظ « من أحدث فى أمرنا . . . » .

Marfat.com

أمريكا ـ وأمريكا دار كفر ـ فيُسلم ولا يتمكن من إظهار دينه هناك ، فينتقل منها إلى البلاد الإسلامية هذه هى الهجرة .

إذا هاجر النَّاس ، فهم يختلفون فى الهجرة ، منهم من يهاجر ويدَع بلده إلى اللَّه ورسوله ، يعنى إلى شريعة اللَّه التى شرعها اللَّه على لسان رسوله ـ ﷺ ـ هذا هو الذى ينال الخير ، وينال مقصوده ، ولهذا قال : « **فهجرته إلى اللَّه ورسوله** » أى فقد أدرك ما نوى .

الثانى : هاجر لدنيا يصيبها ، مثلاً رجل يحب جمع المال فسمع أن فى بلاد الإسلام مرتعًا خصبًا لاكتساب الأموال فهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فقط، لا يقصد أن يستقيم على دينه ولا يهتم لدينه ، إنما همُّه المال .

ثالثًا : رجل هاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام يريد امرأة يتزوجها، قيل له لا نزوجك إلا فى بلاد الإسلام ولا تسافر بها إلى بلاد الكفر ، فهاجر من بلده إلى بلاد الإسلام من أجل المرأة .

فمُريد الدنيا ومريد المرأة لم يُهاجر إلى اللَّه ورسوله ، ولهذا قال الرسول ـ ﷺ ـ : «**فهجرته إلى ما هاجر إليه** » ، وهنا قال : « **إلى ما هَاجرَ إليه**» ولم يقل فهجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فلماذا ؟

قيل لطول الكلام ، فإذا قيل فهجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها طال الكلام.

وقيل بل لم يُنص عليهما احتقارًا وإعراضًا عن ذكرهما لأنها نية فاسدة منحَطَّة .

وعلى كل حال فإن هذا الذى نوى بهجرته الدُّنيا أو المرأة لا شك أن نيته سافلة مُنحطَّة هابطة بخلاف الأول الذى هاجر إلى اللَّه ورسوله ـ ﷺ ـ .

أقسام الهجرة :

الهجرة تكون للعمل ، وتكون للعامل ، وتكون للمكان .

القسم الأول : هجرة المكان ، بأن ينتقل الإنسان من مكان تكثر فيه المعاصى، ويكثر فيه الفسوق ، وربما يكون بلد كفرٍ إلى بلد لا يوجد فيه ذلك .

وأعظمه الهجرة من بلد الإسلام ، وقد ذكر أهل العلم أنه تجب الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يُظهر دينه .

Marfat.com

وأمَّا إذا كان قادرًا على إظهار دينه ولا يُعارض إذا أقام شعائر الإسلام فإن الهجرة لا تجب عليه ولكنها تستحب ، وبناءً على ذلك يكونُ السَّفر إلى بلد الكفر أعظم من البقاء فيه ، فإذا كان بلد الكفر الذى كان وطن الإنسان إذا لم يستطع إقامة دينه فيه وَجَبَ عليه مغادرته والهجرة منه .

فكذلك إذا كان الإنسان من أهل الإسلام ومن بلاد المسلمين فإنه لا يجوز له أن يسافر إلى بلد الكفر لما فى ذلك من الخطر على دينه وعَلَى أخلاقه ولما فى ذلك من إضاعة ماله ولما فى ذلك من تقوية اقتصاد الكفار ونحن مأمورون بأن نغيظ الكفار بكل ما نستطيع كما قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣] . وقال تعالى : ﴿وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] .

فالكافر أيا كان ، سواء كان من النَّصارى أو من اليهود أو من الملحدين ، وسواء تسمى بالإسلام أم لم يتسم بالإسلام ، الكافر عدو للَّه ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين جميعًا، مهما تلبَّس بما يتلبس به فإنه عدو .

فلا يجوز للإنسان أن يسافر إلى بلد الكفر إلا بشروط ثلاثة :

الشرط الأول : أن يكون عنده علم يدفع به الشُّبهات ، لأن الكفار يوردون على المسلمين شُبَهًا فى دينهم وفى رسولهم وفى كتابهم وفى أخلاقهم ، فى كل شىء يُوردون الشُّبهة ليبقى الإنسان شاكًا متذبذبا ، ومن المعلوم أن الإنسان إذا شكَّ فى الأمور التى يجب فيها اليقين فإنه لم يقم بالواجب ، فالإيمان باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره يجب أن يكون يقينًا فإن شك الإنسان فى شىء من ذلك فهو كافر .

فالكفار يُدخلون على المسلمين الشك حتى أن بعض زعمائهم صرَّح قائلاً: « لا تحاولوا أن تخرجوا المسلم من دينه إلى دين النصارى ولكن يكفى أن تشككوه فى دينه ، لأنكم إذا شكَّكتموه فى دينه سلبتموه الدين وهذا كافٍ » .

أنتم أخرجوه من هذه الحظيرة التى فيها العزَّة والغلبة والكرامة ويكفى، أما أن تحاولوا أن تدخلوه فى دين النصارى المبنى على الضلال والسَّفاهة فهذا لا يمكن ، لأن النصارى

Marfat.com

ضالون كما جاء فى الحديث عن الرسول - ﷺ - [(١)] وإن كان فدين المسيح دين حق لكنه دين الحق فى وقته قبل أن يُنسخ برسالة النبى ﷺ .

الشرط الثانى : أن يكون عنده دين يحميه من الشهوات لأن الإنسان الذى ليس عنده دين إذا ذهب إلى بلاد الكفر انغمس لأنه يجد زهرة الدنيا هناك، من خمر وزنا ولواط وغير ذلك .

الشرط الثالث : أن يكون محتاجًا إلى ذلك مثل أن يكون مريضًا يحتاج إلى السفر إلى بلاد الكفر للاستشفاء ، أو يكون محتاجًا إلى علم لا يوجد فى بلاد الإسلام تَخَصُّص فيه فيذهب إلى هناك أو يكون الإنسان محتاجًا إلى تجارة، يذهب ويتَّجر ويرجع . المهم أن يكون هناك حاجة ، ولهذا أرى أن الذين يسافرون إلى بلد الكفر من أجل السِّياحة فقط أرى أنهم آثمون ، وأن كل قرش يصرفونه لهذا السفر فإنه حرام عليهم وإضاعةٌ لمالهم وسيحاسبون عنه يوم القيامة حين لا يجدون مكانًا يتفسَّحون فيه أو يتنزهون فيه : حين لا يجدون إلا أعمالهم لأن هؤلاء يضيعون أوقاتهم ويتلفون أموالهم ويفسدون أخلاقهم وكذلك ربما يكون معهم عوائلهم ، ومن عجب أن هؤلاء يذهبون إلى بلاد الكفر التى لا يسمع فيها صوت مؤذن ولا ذكر ذاكر وإنما يسمع فيها أبواق اليهود ونواقيس النصارى ، ثم يبقون فيها مدة هم وأهلوهم وبنوهم وبناتهم فيحصل فى هذا شرٌّ كثير نسأل الله العافية والسلامة .

وهذا من البلاء الذى يُحلُ الله به النَّكبات والنَّكبات التى تأتينا والتى نحن الآن نعيشها كلها بسبب الذنوب والمعاصى ، كما قال الله : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

نحن غافلون فى بلادنا كأنَّ ربنا غافل عنَّا كأنه لا يعلم ، كأنه لا يُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

والناس يعصرون فى هذه الحوادث ولكن قلوبهم قاسية والعياذ بالله ! وقد قال الله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾[المؤمنون: ٧٦]

أخذهم العذاب ونزل بهم ومع ذلك ما استكانوا إلى الله وما تضرَّعوا إليه بالدُّعاء وما خافوا من سطوته ، لكن قست القلوب نسأل الله العافية وماتت حتى أصبحت الحوادث

(١) حسن : رواه الترمذى (٢٩٥٣) وحسنه الالبانى فى صحيح الترمذى .

Marfat.com

المصيرية تمر على القلب وكأنها ماءٌ بارد .

نعوذ باللَّه من موت القلب وقسوته وإلا لو كان النَّاس فى عقل وصحوة وفى قلوب حية ما ساروا على هذا الوضع الذى عليه نحن الآن مع أننا فى وضع نعتبر أننا فى حال حرب مدمرة مهلكة ، حرب غازات الأعصاب والجنود وغير ذلك ومع هذا لا تجد أحدًا حرَّك ساكنًا إلا أن يشاء اللَّه .

إنَّ أناسًا فى هذه الظروف العصيبة ذهبوا بأهليهم يتنزهون فى بلاد الكفر وفى بلاد الفسق وفى بلاد المجون والعياذ باللَّه !

أقول مرة ثانية : إن الهجرة من بلد الكفر الذى لا يستطيع أن يقيم الإنسان فيه دينه واجبة : والسَّفر إلى بلاد الكفر للدَّعوة يجوز إذا كان له أثر وتأثير هناك فإنه جائز لأنه سفر لمصلحة ، وبلاد الكفر كثير من عوامهم قد عمى عليهم الإسلام لا يدرون عن الإسلام شيئًا بل قد ضُلِّلوا وقيل لهم : إن الإسلام دين وحشية وهمجية ورعاع ولا سيما إذا سمع الغرب هذه الحوادث التى جرت على يد أناس يقولون : إنهم مسلمون سيقولون: أين الإسلام ! هذه وحشية فينفرون من الإسلام بسبب المسلمين وأفعالهم ، نسأل اللَّه أن يهدينا أجمعين .

القسم الثانى : هجرة العمل ، وهى أن يهجر الإنسان ما نهاه اللَّه عنه من المعاصى والفسوق كما قال النبى ﷺ: « **المُسلم من سَلِمَ المسلمونَ من لسَانه ويَده والمهاجرُ من هَجَرَ مَا نَهى اللَّهُ عنه** »[(١)] فاهجر كل ما حرَّم الله عليك سواء كان مما يتعلق بحقوق الله أو مما يتعلق بحقوق عباد اللَّه فتهجر السَّب والشَّتم والقتل والغش وأكل المال بالباطل وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام وكل شيء حرَّم الله تهجره ، حتى لو أن نفسك دعَتك إلى هذا وألحت عليك فذكّرها أنَّ الله حرَّم ذلك حتى تهجره وتبعد عنه .

القسم الثالث : هجرة العامل ، فالعامل قد تجب هجرته أحيانًا ، قال أهل العلم : مثل الرَّجل المجاهر بالمعصية الذى لا يبالى بها فإنه يُشرع هجره إذا كان فى هجره فائدة ومصلحة .

والمصلحة والفائدة أنه إذا هجر عَرفَ قدر نفسه ورجع عن المعصية .

(١) صحيح: رواه البخارى (١٠،٢) مسلم (٤٠) .

Marfat.com

ومثال ذلك : رجل معروف بالغش بالبيع والشِّراء فيهجره الناس فإذا هجروه تاب من هذا ورجع وندم ، ورجل ثان يتعامل بالربا فيهجره الناس ولا يُسلمون عليه ولا يكلمونه فإذا عرف هذا خجل من نفسه وعاد إلى صوابه .

أما إذا كان الهجرُ لا يُفيد ولا ينفع وهو من أجل معصية لا من أجل كفر لأن الكافر المُرتدَّ يُهجر على كل حال - أفاد أم لم يفِد - لكن صاحب المعصية التى دون الكفر إذا لم يكن فى هجره مصلحة فإنَّه لا يحل هجره لأن الرسول ﷺ قال : « **لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام** » (١) .

ومن المعلوم أن المعاصى التى دون الكفر عند أهل السنة والجماعة لا تُخرج من الإيمان.

فيبقى النَّظر هل الهجر يفيد أم لا ، فإن أفاد فإنه يُهجر ودليل ذلك قصَّة كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع ﷺ ، الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فهجرهم النبى - ﷺ - ، وأمر المسلمين بهجرهم لكنهم انتفعوا فى ذلك انتفاعًا عظيمًا ، ولجئوا إلى اللَّه وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وأيقنوا ألاَّ ملجأ من الله لا إليه فتابوا وتاب اللَّه عليهم(٢) .

هذه أنواع الهجرة : هجرة المكان ، وهجرة العَمَل ، وهجرة العامل .

❊ ❊ ❊

[٢] ـ وَعَن أمِ المُؤْمنينَ أم عبْد الله عَائشَة رَضِىَ الله عَنْهَما قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّه - ﷺ - : « يَغزُو جَيْشٌ الكَعْبَةَ ، فَإذَا كَانُوا بِبيْدَاء من الأَرضِ يُخْسَفُ بأوَلِّهمْ وآخرِهمْ »، قَالَتْ : قُلتُ : يَا رَسُولَ الله ، كَيْفَ يُخْسَفُ بأوَلِّهمْ وآخرِهِمْ وَفيهمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيْس مِنهُمْ ؟! قَالَ : « يُخْسَفُ بأوَلِّهمْ وَآخرِهِمْ ، ثُمَّ يُبْعثُون عَلَى نِيَّاتِهِمْ » مُتَّفقٌ عَلَيْهِ . هذا لفظ البخارى .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٦٠٧٧) مسلم (٢٥٦٠) .

(٢) صحيح : انظر قصتهم من فى البخارى (١٦٧٧) مسلم (٢٧٦٩) .

[٢] صحيح : رواه البخارى (٢١٨) ، ومسلم (٢٨٨٤) .

Marfat.com

الشرح

قوله : « يغزو جيش الكعبة »الكعبة المشرَّفة حماها الله وأنقذها من كل شر .

هذه الكعبة هى بيت الله بناه إبراهيم وابنه إسماعيل ، وكانا يرفعان القواعد من البيت ويقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[البقرة : ١٢٧] .

هذا البيت أراد أبرهة أن يغزوه من اليمن فغزاه بجيش عظيم فى مقدمه فيل عظيم يُريد أن يهدم به الكعبة بيت اللَّه ، فلما قرب من الكعبة ووصل إلى مكان يقال له : المُغَمَّس حَرَنَ الفيل ، وأبى أن يتقدَّم فجعلوا ينهرونه ليتقدم إلى الكعبة فأبى ، فإذا صرفوه نحو اليمن هرول وأسرع ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام فى غزوة الحديبية لما أن ناقته حرنت وأبت أن تمشى فقال الصحابة : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ـ يعنى حرنت وبركت من غير علة ـ قال الرسول ـ ﷺ ـ : « **والله ما خلأت القصْواء وما ذاك لَها بخُلُق** » النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ يُدافع عن بهيمة ، لأن الظلم لا ينبغى ولو على البهائم . « **ما خلأت القصْواء ومَا ذاك لها بِخُلق** ـ أى عادة ـ **بَلْ حَبَسَها حابسُ الفيل** » ، وحابس الفيل : هو الرَّب سبحانه وتعالى : « **والذى نفسى بيده لا يَسْألونى خِطة يُعظّمُون فيها حُرُمَاتِ اللَّه إلا أجَبْتُهم عَلَيْها** » (١) .

المهم أن الكعبة غُزيت من قبل اليمن فى جيش عظيم يقوده هذا الفيل العظيم ليهدم الكعبة فلما وصلوا إلى المغمس أبى الفيل أن يَمْشى وحَرَن ، فانتهروه ولكن لا فائدة فبقوا هناك وانحبسوا فأرسل اللَّه عليهم طيرًا أَبَابيل ، والأبابيل : الجماعات الكثيرة من الطيور ، وكل طير يحمل حجرًا قد أمسكه برجله ثم يرسله على الواحد منهم حتى يضربه مع هامته حتى يخرُج إلى دُبره : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[الفيل : ٥] كأنهم زرع أكَلَتْهُ البهائم ، واندكوا فى الأرض ، وفى هذا يقول أُميَّة بن الصَّلْت :

حَبسَ الفيلَ بالمُغَمَّسِ حتَّى صار يَحْبُو كأنَّه معقُورُ

فحمى اللَّه عزَّ وجلَّ بيته من كَيد هذا الملك الظالم الذى جاء لكى يهدم بيت اللَّه وقد قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥].

فى آخر الزمان يغزو قوم الكعبة ، جيش عظيم .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢) .

Marfat.com

وقوله : « حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض » أى بأرض واسعة ، خسف الله بأولهم وآخرهم .

خسفت بهم الأرض وساخوا فيها هم وأسواقهم وكل من معهم .

وفى هذا دليلٌ على أنَّهم جيش عظيم لأنَّ معهم أسواقهم للبيع والشِّراء وغير ذلك .

فيخسف الله بأولهم وآخرهم . لما قال الرسول - ﷺ - هذا ورد على خاطر عائشة رضي الله عنها سؤال : « كَيْفَ يُخسفَ بأوَّلهم وآخرهم وَفيهم أسْواقهم ومَنْ ليْس منهم؟ » أسواقهم : الذين جاءوا للبيع والشِّراء ليس لهم قصد سيئ فى غزو الكعبة.

وفيهم أناس ليسوا منهم تَبِعُوهم من غير أن يعلموا بخطتهم فقال الرسول - ﷺ - : «يُخْسَفُ بأوَّلهم وآخرِهِم وأسْواقِهم ومَن ليْسَ منْهم ثُم يُبْعثُون يَوْمَ القيامة على نِيَّاتِهِم » كلٌّ له ما نوى .

هذا فرد من أفراد قول الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام : « إنَّما الأعمال بالنِّياتِ ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِىء ما نَوى » [(١)] .

وفى هذا الحديث عبرة : أنَّ من شارك أهل الباطل وأهل البغى والعدوان فإنَّه يكون معهم فى العقوبة الصَّالح والطَّالح ، العقوبة إذا وقعت تعمُّ ولا تترك أحدًا ثم يوم القيامة يبعثون على نيَّاتهم .

يقول اللَّه عزَّ وجلَّ : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

والشاهد من هذا الحديث قول الرسول ﷺ : « ثم يُبْعثُونَ علَى نِيَّاتهم» فهو كقوله: « إنَّما الأعمال بالنِّياتِ ، وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ ما نوى » .

❊ ❊ ❊

[٣] وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِىَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ النَّبِىُّ ﷺ : « لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، ولَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرتُمْ فَانفِرُوا » مُتَّفَقٌ عَلَيه .

وَمَعْنَاهُ : لا هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ لأَنَّهَا صَارَتْ دَارَ إِسْلامٍ .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (١) مسلم (١٩٠٧) .

[٣] صحيح : رواه البخارى (٣٩٠٠) ، ومسلم (١٨٦٤) .

Marfat.com

الشرح

فى هذا الحديث نفى رسول الله ﷺ الهجرة بعد الفتح فقال : « **لا هجرة** » وهذا النفى ليس على عمومه ، يعنى أن الهجرة لم تبطل بالفتح فإنه « **لا تَنْقطع الهجرة حتَّى تنْقطع التوبة ، ولا تَنْقطع التَّوبة حتَّى تَخرُج الشَّمْس من مَغْرِبها** »[١] كما جاء ذلك فى الحديث عن رسول الله- ﷺ - لكن المراد بالنفى هنا نفى الهجرة من مكة كما قال المؤلف - رحمه اللَّه - لأن مكة بعد الفتح صارت بلاد إسلام ولن تعود بعد ذلك بلاد كفر ولذلك نفى النبى- ﷺ - أن تكون هجرة بعد الفتح .

وكانت مكة تحت سيطرة المشركين وأخرجوا منها رسول الله- ﷺ - ، فهاجر بإذن ربَّه إلى المدينة وبعد ثمان سنوات رجع النبى- ﷺ - إلى مكة فاتحًا مظفرًا منصورًا صلوات اللَّه وسلامه عليه .

فصارت البلد بدل كونها بلد كفر صارت بلد إيمان وبلد إسلام ولم يكن منها هجرة بعد ذلك .

وفى هذا دليلٌ : على أن مكة لن تعود لتكون بلاد كفر بل ستبقى بلاد إسلام إلى أن تقوم السَّاعة أو إلى أن يَشاء الله .

ثم قال : « **ولكِن جِهَادٌ ونية** » أى الأمر بعد هذا جهاد ، أى يخرج أهل مكة من مكة إلى الجهاد .

و « النيَّة » أى النية الصَّالحة للجهاد فى سبيل الله وذلك بأن ينوى الإنسان بجهاده ، أن تكون كلمة الله هى العليا .

ثم قال عليه الصَّلاة والسلام : « **وإذا استُنفِرتُم فانفِروا** » يعنى : إذا استنفركم وَلِىُّ أمركم للجهاد فى سبيل اللَّه فانفروا وجوبًا ، وحينئذ يكون الجهاد فرض عين .

فلا يتخلف أحدٌ إلا من عَذره اللَّه ، لقول اللَّه تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة:٣٨، ٣٩] . وهذا أحد المواضع التى يكون فيها الجهاد فرضَ عين.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٤٧٩) وأحمد (١/ ١٩٢) وصححه الألبانى فى المشكاة (٢٣٤٦).

Marfat.com

والموضع الثانى : إذا حصر بلدة العدو ، أى جاء العدو حتى وصل إلى البلد وحصر البلد صار الجهاد فَرضَ عين ووجب على كل أحد أن يقاتل حتى على النساء والشُيوخ القادرين فى هذه الحال لأن هذا قتال دفاع .

وفرق بين قتال الدِّفاع وقتال الطَّلب .

فيجب فى هذه الحال أن ينفر الناس كلهم للدِّفاع عن بلدهم .

الحالة الثالثة : إذا حضر الصَّف ، والتقى الصَّفَّان ، صفُّ الكفار وصفُّ المسلمين صار الجهادَ حينئذ فَرْضَ عين ولا يجوز لأحد أن ينصرف كما قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الأنفال : ١٥ ، ١٦] .

وقد جعل النبى - ﷺ -التَّولى يومَ الزَّحف من السَّبع المُوبقات [1] .

الموضع الرابع :إذا احتيج إلى الإنسان بأن يكون السِّلاح لا يعرفه إلا فردٌ من الأفراد ، وكان الناس يحتاجون إلى هذا الرجل لاستعمال هذا السلاح الجديد مثلاً فإنه يتعيَّن عليه أن يُجاهد وإن لم يستنفره الإمام وذلك لأنه محتاج إليه .

ففى هذه المواطن الأربعة ، يكون الجهاد فرض عين .

وما سوى ذلك فإنه يكون فرض كفاية .

قال أهل العلم :ويجب على المسلمين أن يكون منهم جهاد فى العام مرة واحدة يجاهد أعداء الله لتكون كلمة الله هى العليا ، لا لأجل أن يدافعوا عن الوطن لأنه وطن، لأن الدِّفاع عن الوطن من حيث هو وطن يكون من المؤمن والكافر ، حتى الكفار يُدافعُون عن أوطانهم لكن المسلم يدافع عن دين اللّه ، فيدافع عن وطنه لا لأنَّه وطنه مثلاً ، ولكن لأنه بلد إسلامى فيدافع عنه حماية للإسلام .

ولهذا يجب علينا فى مثل هذه الظروف التى نعيشها اليوم يجب علينا أن نُذكر جميع العامَّة بأن الدعوة إلى تحرير الوطن وما أشبه ذلك دعوة غير مناسبة ، وأن يجب أن يُعبأ الناس تعبئة دينية ، ويُقال : إننا ندافع عن ديننا قبل كل شىء لأن بلدنا بلدُ دين وإسلام

(١) صحيح رواه البخارى (٢٧٦٦) مسلم (٨٩) وأبو داود (٢٨٧٤) .

Marfat.com

يحتاج إلى حماية ودفاع ، فلابد أن ندافع عنه بهذه النية .

أما الدفاع بنية الوطنية أو بنية القومية فهذا يكون من المؤمن والكافر ولا ينفع صاحبه يوم القيامة ، وإذا قتل وهو يدافع بهذه النية فليس بشهيد ، لأن الرسول ـ ﷺ ـ سُئِلَ عن الرَّجل يُقاتل حمية ويُقاتل شجاعة ويُقاتل لِيُرى مكانَه أيُّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال : «مَنْ قاتَل لتكون كَلِمَةُ اللَّه هي العليا ، فهُو في سبيل اللَّه»(١) انتبه إلى هذا القَيْد ! .

إذا كنت تُقاتل لوطنك فأنت والكافر سواءٌ ، لكن قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا ممثلةً في بلدك لأن بلدك بلد إسلام ففي هذه الحال ربما يكون القتال قتالاً في سبيل الله.

وثبت عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « ما من مَكْلُومٍ يُكْلَمُ في سبيل اللَّه ـ واللهُ أعلم بمَنْ يُكْلَم في سبيله ـ أي يُجْرَح ـ إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعبُ دمًا اللَّوْنُ لوْنُ الدَّم والرِّيح ريح المِسْك » (٢) .فانظر كيف اشترط النبي ـ ﷺ ـ للشهادة أن يكون الإنسان يُقاتل في سبيل الله .

فيجب على طلبة العلم أن يبينوا هذا والله الموفق .

* * *

[٤] وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه الأَنْصَارِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ في غزاة فَقَالَ : « إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مَسِيراً ، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِياً إِلا كَانُوا مَعَكُمْ ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ » وَفِي رِوايَةٍ : « إِلا شَرِكُوكُم فِي الأَجْرِ »رواه مسلم .

ورواهُ البُخَارِيُّ عَنْ أَنَس رَضِيَ اللَّه عنه قَالَ : رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوك مَعَ النَّبِي ﷺ ـ فَقَال: « إِنَّ أَقْوَاماً خَلْفَنَا بِالْمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً وَلا وَادِياً إِلا وَهُمْ مَعَنَا ،حَبَسَهُمُ الْعُذْرَ » .

الشرح

قوله « في غزاة » أي في غزوة .

فمعنى الحديث أن الإنسان إذا نَوَى العملَ الصَّالح ولكنه حبسه عنه حابس فإنَّه يكتب

(١) صحيح : رواه البخاري (٢٨١٠) مسلم (١٩٠٤) .

(٢) صحيح : رواه البخاري (٥٥٣٣) مسلم (١٨٧٦) .

[٤] صحيح : رواه البخاري (٦/ ٢٨٣٩) ، ومسلم (١٩١١) .

Marfat.com

له الأجر ، أجر ما نوى .

أما إذا كان يعمله فى حال عدم العذر ، أى : لما كان قادرًا كان يعمله ثم عجز عنه فيما بعد فإنه يكتب له أجر العمل كاملاً ، لأن النبى - ﷺ - قال : « **إذا مرض العبد أو سافر كُتِب له ما كانَ يعْملُ صحيحًا مُقيمًا** »(١) .

فالمتمنى للخير ، الحريص عليه إن كان من عادته أنَّه كان يعمله ولكنه حبَسه عنه حابس ، كتب له أجره كاملاً .

فمثلاً : إذا كان الإنسان من عادته أن يُصَلِّى مع الجماعة فى المسجد ولكنه حبسه حابس كنومٍ أو مرضٍ أو ما أشبهه فإنَّه يُكْتب له أجْرُ المصَلِّى مع الجماعة تمامًا من غير نقص .

وكذلك إذا كان من عادته أن يُصلِّى تطوُّعًا ولكنه منعه مانع ، ولم يتمكن مِنْهُ فإنَّه يُكْتَب له أجره كاملاً . وغيره من الأمثلة الكثيرة .

أما إذا كان ليس من عادته أن يفعله فإنَّه يُكتب له أجْرُ النيَّة فقط دون أجر العمل.

ودليله : أن فقراء الصَّحابة ﷺ قالوا : يا رسول الله ، سَبَقَنا أهلُ الدُّثور بالأجُور والنَّعيم المُقيم - يعنى أن أهل الأموال سبقوهم بالصَّدقة والعتق فقال النبى - ﷺ - : « **ألا أُخبركم بشىء إذا فَعَلتموه أدْرَكْتُم مَنْ سبَقكُم ولم يُدْرككم أحد إلا مَنْ عملَ مثْلَ ما عَملْتُم** » فقال : « **تُسبِّحُون وتُكبِّرون وتَحْمدونَ دبُر كلِّ صلاةِ ثلاثًا وثلاثين** » ففعلوا ، فَعلِمَ الأغنياء بذلك ففعلوا مِثلَما فَعَلُوا !!

فجاء الفقراء إلى الرسول - ﷺ - وقالوا : يا رسول اللّه ، سمع إخْواننا أهْل الأمْوال بما فَعَلْنا ففعلوا مِثْله .

فقال النبى - ﷺ - : « **ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء** »(٢) والله ذُو الفضل العظيم ، ولم يقل لهم : إنكم قد أدركتم أجر عملهم لكن لا شك أن لهم أجر نية العمل .

ولهذا ذكر النبى عليه الصلاة والسلام فيمن آتاه الله مالاً فجعل ينفقه فى سُبل الخير

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٩٩٦) وأبو داود (٣٠٩١) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧٤٣) مسلم (٥٩٥) .

Marfat.com

وكان رجل فقير يقول : لو أن لى مال فُلان لعملت فيه عمل فلان ، قال النبى - ﷺ - : « فهُو بنيَّته فَهُمَا فى الأجْر سواء » (١) .

أى : سواء فى أجر النّية أما العمل فإنّه لا يكْتب له أجره إلا إن كان من عادته أن يعمله .

وفى هذا الحديث : إشارة إلى أن من خرج فى سبيل الله فى الغزو والجهاد، فإن له أجر ممشاه ، ولهذا قال النبى - ﷺ - : « ما سرتُم مَسيراً ولا قطعتم واديًا ولا شعبًا إلا وهُم معَكم » .

ويدلُ لهذا قوله تعالى : ﴿ذَلكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّه وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ منْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إلاَّ كُتبَ لَهُم به عَمَلٌ صَالحٌ إنَّ اللَّهَ لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُحْسنينَ (١٢٠) وَلا يُنفقُونَ نَفَقَةً صَغيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَاديًا إلاَّ كُتبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠، ١٢١].

ونظير هذا : أنَّ الرجل إذا توضأ فى بيته فأسبغ الوضوء ثمَّ خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة فإنّه لا يخطو خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة .

وهذا من فضل الله عزَّ وجلَّ أن تكون وسائل العمل فيها هذا الأجر الذى بيَّنه الرَّسول - ﷺ - والله الموفق . ا هـ .

* * *

[٥] وَعَنْ أَبِى يَزِيدَ مَعْنِ بْنِ يزيد بن الأَخْنسَ رضى اللّه عَنْهُم ، وَهُوَ وأَبُوهُ وَجَدُّهُ صَحَابِيُّونَ ، قَالَ : كَانَ أَبى يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانير يَتَصدَّقُ بهَا فَوَضَعَهَا عنْدَ رَجُلٍ فى الْمَسْجد فَجِئْتُ فَأخَذْتُهَا فَأتَيْتُهُ بهَا ، فَقَالَ : وَاللّه مَا إِيَّاكَ أَرَدْتُ ، فَخَاصَمْتُهُ إِلَى رسَولُ اللّه - ﷺ - فَقَالَ : « لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزيدُ ، ولَكَ ما أَخَذْتَ يَا مَعْنُ » رواه البخارىُّ .

الشرح

هذا الحديث الذى ذكره المؤلف - رحمه الله - فى قصة معن بن يزيد وأبيه ﷺ ، أن

---

(١) صحيح: أحمد (٤/ ٢٣٠) والترمذى (٢٣٢٥) ابن ماجه (٤٢٢٨) صحيح الجامع (٣٠٢٤).
[٥] صحيح : رواه البخارى (١٤٢٢) .

Marfat.com

أباه يزيد أخرج دراهم عند رجل فى المسجد ليتصدّق بها على الفقراء فجاء ابنه معن فأخذها ، ربُما يكون ذلك الرَّجل الذى وكِّل فيها لم يعلم أنه ابن يزيد ، ويحتمل أنه أعطاه لأنَّه من المستحقين .

فبلغ ذلك أباه يزيد فقال : ما إياك أردْتُ ـ أى : ما أردت أن أتصدَّق بهذه الدَّراهم عليك ـ فذهب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « **لَكَ يا يَزيدُ ما نويت، ولَكَ يا مَعْنُ ما أخذت** » .

فقوله عليه الصلاة والسلام : « **لك يا يزيد ما نويت** » يدل على أن الأعمال بالنيات وأن الإنسان إذا نوى الخير حصل له ، وإن كان يزيد لم ينو أن يأخذ هذه الدراهم ابنه لكنه أخذها وابنه من المستحقين فصارت له ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **لك يا معن ما أخذت** » .

ففى هذه الحديث : دليل كما ساقه المؤلف من أجله على أن الأعمال بالنِّيات وأن الإنسان يُكتب له أجر ما نوى وإن وقع الأمر على خِلاف ما نَوى ، وهذه القاعدة لها فروع كثيرة :

منها : ما ذكره العلماء ـ رحمهم الله ـ أن الرَّجُل لو أعطى زكاته شخصًا يظن أنه من أهل الزكاة فتبين أنَّه غنى وليس من أهل الزكاة فإن زكاته تجزئ وتكون مقبولة تبرأ بها ذمته لأنَّه نوى أن يعطيها مَنْ هُو أهل لها ، فإذا نوى فله نيّته .

ومنها : أن الإنسان لو وَقف شيئًا ، كمثل أن يقف بيتًا صغيرًا ، فقال : وَقَفْتُ بيتى الفلانى وأشار إلى الكبير لكنه خلاف ما نَواه بقلبه ، فإنَّه على ما نوى وليس على ما سَبَقَ به لِسَانُهُ .

ومنها : لو أن إنسانًا جاهلاً لا يعرف الفرق بين العُمرة والحج ، فحج مع الناس فقال: لبيك حجًا وهو يُريد عمرة يتمتع بها إلى الحج فإنَّه لَهُ ما نوى ، مَا دَام أن قَصْدَهُ يقيم العمرة ، لكن قال: لبيك حجًا مع الناس فَلَهُ ما نوى ، ولا يَضرُّ سَبْقُ لسانه بشىء.

ومنها أيضًا : لو قال الإنسان لزوجته : أنت طالق وأراد أنت طالق من قيد لا من نكاح فله ما نوى ولا تُطَلَّق بذلك زوجته .

المهم أن هذا الحديث له فوائد كثيرة وفروع منتشرة فى أبواب الفقه.

Marfat.com

ومن فوائده : أنه يجوز للإنسان أن يتصدّق على ابنه وهو كذلك ، يعنى أنه يجوز! .

والدليل على هذا : ما فى حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - حينما قال لزوجته - وقد أرادتْ أن تتصدّق - قال لها : زَوْجُكِ ووَلَدُكَ أحقُّ مَنْ تَصدَّقت عليه.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر بالصدقة وحثَّ عليها ، فأرادت زينب زوجة عبد الله بن مسعود أن تتصدّق بشىء من مالها فقال لها زوْجها ما قال لأنه كان فقيرًا - رضي الله عنه - فقالت : لا ! حتى أسأل النبى - ﷺ - فسألت النبى - ﷺ - فقال : « صَدَقَ عبدُ اللَّه ، زَوْجُك وَوَلَدُكَ أحقُّ مَنْ تصدقتِ به عليهم ».

ومن فوائد الحديث : أنَّه يجوز أن يعطى الإنسان ولده من الزكاة بشرط ألا يكون فى ذلك إسقاط لواجب عليه .

يعنى مثلاً : لو كان الإنسان عنده زكاة وأراد أن يعطيها ابنه من أجل ألا يطالبه بالنَّفقة فهذا لا يجزئ لأنه أراد بالإعطاء أن يُسقط واجب نفقته .

أما لو أعطاه ليقضى دينًا عليه مثل أن يكون على الابن حادث ويعطيه أبوه من الزكاة ما يُسدِّد به هذه الغرامة فإن ذلك لا بأس به وتجزئه من الزكاة ، لأن ولده أقرب الناس إليه وهو الآن لم يقصد بهذا إسقاط واجب عليه ، إنما قصد بذلك إبراء ذمة وَلَدِهِ لا الإنفاق عليه ، والله الموفق . اهـ .

* * *

[٦] - وَعنْ أبى إسْحَاقَ سَعْدِ بْنِ أبى وَقَّاصٍ مَالِكِ بْنِ أُهَيْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زهْرَةَ ابن كلاب بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَىّ القُرَشىِّ الزُّهْرِىِّ رضِىَ اللَّه عَنْهُ ، أَحَدِ العَشَرَةِ المَشْهُودِ لَهُمْ بالجَنَّةِ ، رَضِىَ الله عنهُمْ ، قال : جاءَنى رسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَعُودُنى عَامَ حجَّةِ الوَدَاعِ منْ وَجعٍ اشْتَدَّ بى فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ،إنى قَدْ بَلَغَ بى منَ الوَجَعِ مَا ترى ، وأنا ذُو مَالٍ وَلاَ يَرِثُنى إلا ابْنَةٌ لى ، أفأتصدَّقُ بثُلُثَى مَالى ؟ قَالَ : « لا » ، قُلْتُ : فالشَّطْرُ يارسُولَ الله ؟ فَقَالَ « لا » ، قُلْتُ: فَالثُّلُثُ يَا رسول الله ؟ قَالَ: « الثُّلُثُ والثُّلُثُ كثيرٌ - أوْ كبيرٌ - إنَّك إنْ تذَرَ ورَثَتَكَ أغنياءَ خَيْرٌ منْ أنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتكففُونَ النَّاسَ ، وإنَّكَ لَنْ تُنْفقَ نَفَقَةً تبْتَغى بهَا وَجْهَ اللَّه إلا أُجِرْتَ عَلَيْهَا حتَّى مَا تَجْعَلُ فى فى امْرأتكَ » قال:فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه أُخَلَّفُ

[٦] صحيح : رواه البخارى (١٢٩٥) ، ومسلم (١٦٢٨) .

Marfat.com

بَعْدَ أصحابى ؟ قال : « إنَّك لنْ تُخلَّفَ فتَعمَلَ عَملاً تَبتَغى به وَجه الله إلا ازْدَدْت به دَرجَةً وَرِفْعَةً ، ولَعلَّكَ أنْ تُخلَّفَ حتّى ينْتَفعَ بك أقْوامٌ ويُضرَّ بك آخرون ، اللّهُمَّ أمْض لأصْحَابى هجْرَتَهمْ ، ولا تَرُدَّهُمْ على أعقابهمْ ، لكن البائسُ سَعْدُ بْنُ خوْلَةَ » يرْثى لَهُ رسول الله ﷺ - أنْ مَات بمكّة ، متفقٌ عليه .

الشرح

قال المولف ـ رحمه الله تعالى ـ: فيما نقله عن سعد بن أبى وقاص ـ رضي الله عنه ـ أن النبى - ﷺ - جاءه يعوده فى مرض ألمَّ به وذلك فى مكة ، ولكن سعد بن أبى وقاص ـ رضي الله عنه ـ من المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فتركوا بلدهم لله عزَّ وجلَّ ، وكان من عادة النبى- ﷺ - أنَّه يعُود المرْضى من أصحابه ، كما أنه يزور من يزور منهم لأنه- ﷺ - كان أحسن الناس خُلقًا على أنه الإمام المتبوع ـ صلوات اللّه وسلامُهُ عليه ـ كان من أحسن الناس خُلقًا وألينهم بأصحابه ، وأشدهم تحببًا إليهم .

فجاءه يعوده فقال : « يا رسول الله إنِّى قدْ بلغَ بِى مِن الوجعِ ما ترى » أى: أصابه الوجع العظيم الكبير ، « وأنا ذو مال كثيرٍ أو كبير » أى : أن عنده مالاً كبيرًا ، « ولا يرثنى إلا ابْنَةٌ لى » أى : ليس له ورثة بالفرض إلا هذه البنت ، « أفأتصدَّقُ بِثُلُثَىْ مالى » أى : اثنين من ثلاثة .

« قال : لا ، قُلتُ : الشطر يا رسول الله » أى : النصف ، « قال : لا . قُلتُ : فالثُّلُثُ قال : الثُّلُثُ والثلث كثيرٌ » .

قوله : « أفأتصدَّق » أى : أعطيه صدقة ، فمنع النبى- ﷺ - من ذلك لأن سعدًا فى تلك الحال كان مريضًا مرضًا يخشى منه الموت ، فلذلك منعه الرسول- ﷺ - أن يتصدَّق بأكثر من الثلث .

لأن المريض مرض الموت المخوف لا يجوز أن يتصدَّق بأكثر من الثلث ، لأن ماله قد تعلَّق به حقُّ الغير وهم الورثة . أما من كان صحيحًا ليس فيه مرض أو فيه مرض يسير لا يُخشى منه الموت فَلَهُ أن يتصدَّق بما شاء بالثلث أو بالنصف أو بالثلثين أو بماله كله لا حرج عليه .

لكن لا ينبغى إن يتصدَّق بماله كله إلا إن كان عنده شىء يعرف أنه سوف يَستُغنى به

Marfat.com

عن عباد الله .

المهم أن الرسول - ﷺ - منعه أن يتصدَّق بأكثر من الثلث، وقال : « **الثُّلُثُ، والثُّلُثُ كثير أو كبير** » .

وفى هذا دليلٌ على أنَّه إذا نقص عن الثلث فهو أحسن وأكمل ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : لَوْ أنَّ الناس غَضُّوا من الثُّلث إلى الرُّبع لأنَّ النبى - ﷺ - قال : « **الثُّلُثُ والثُّلثُ كثير** » (١) .

وقال أبو بكر رضي الله عنه : « أرْضَى ما رَضِيَهُ الله لنفسه » يعنى : الخمس ، فأوصى بالخمس - رضي الله عنه - (٢) .

وبهذا نعرف أن عمل الناس اليوم وكونهم يُوصون بالثُّلث خلاف الأولى وإن كان هو جائزًا لكن الأفضل أن يكون أدنى من الثلث إمَّا الربع أو الخُمس .

قال فقهاؤنا - رحمهم الله - : والأفضل أن يُوصى بالخُمس لا يزيد عليه اقتداءً بأبى بكر الصدِّيق رضي الله عنه .

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام: « **إنَّك إنّ تَذَرَ ورثَتك أغنياء خيْرٌ مِن أنْ تَذَرَهُم عَالَةً يتكَفَّفُونَ الناس** » .

أى كونك تبقى المال ولا تتصدق به حتى إذا مت وورثه الورثة صاروا أغنياء به ، هذا خيرٌ من أن تذرهم عالةً لا تترك لهم شيئًا « **يتكفَّفون الناس** » أى : يسألون الناس بأكُفهم أعطونا أعطونا .

وفى هذا : دليل على أن الميِّت إذا خلَّف مالاً للورثة فإن ذلك خيرًا له .

لا يظن الإنسان أنه إذا خلف المال وَوُرث منه قهرًا عليه أنه لا أجر له فى ذلك ، لا بل له أجر ، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « **خيرٌ من أن تذرهم عَالَةً** .. » إلخ ، لأنك إذا تركت المال للورثة انتفعوا به وهم أقارب وإن تصدقّت به انتفع به الأباعد.

والصَّدقة على القريب أفضل من الصدقة على البعيد لأن الصدقة على القريب صدقة

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٧٤٣) مسلم (١٦٢٩) .

(٢) عبد الرزاق فى المصنف (٩/ ٦٦) (١٦٣٦٣) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦/ ٢٧٠) .

Marfat.com

وصِلَةٌ .

وقوله : « يا رسول الله أخلَّفَ بَعْد أصحابى ؟ فقال : إنَّك لن تخلَّفَ » بل قال قبل ذلك : « وإنَّك لنّ تُنفق نفقةً تبتغى بها وجّه الله إلا أُجرْتَ عليها حتَّى ما تجْعَلُ فى فى امْرأتك» تنفق نفقة : أى مالاً إمَّا من الدَّراهم أو الدَّنانير أو الثَّياب أو الفرش أو طعامًا أو غير ذلك تبتغى به وَجْه الله إلا أُجرت عليه .

الشاهد من هذا قوله : « تَبْتغى به وجْه الله » أى : تقصد به وجه الله عزَّ وجلَّ ، بدخولك الجنة ورؤيته سبحانه وتعالى فيها .

لأن أهل الجنة - جعلنى الله وإيَّاكم منهم - يرون الله سبحانه وتعالى وينظرون إليه عيانًا بأبصارهم كما يرون الشمس صَحْوًا ليس دُونها سحاب وكما يرون القمر ليلة البدر . يعنى أنهم يرون ذلك حقًا .

فقال : « إنَّك لَنّ تُنفق نفقة تبتغى بها وجْه الله إلا أُجرت عليها حتى ما تجعل فى فِى امْرأتك » أى : حتى اللقمة التى تعطمها امرأتك تؤجر عليها إذا قصدت بها وجْه الله ، مع أن الإنفاق على الزَّوجة أمر واجب ، لو لم تنفق لقالت أنفق أو طلّق ، ومع هذا إذا أنفقت على زوجتك تُريد به وجْه الله آجرك الله على ذلك .

وكذلك إذا أنفقت على أولادك ، إذا أنفقت على أمك على أبيك ، بل إذا أنفقت على نفسك تبتغى بذلك وَجْهُ الله فإن الله يُثيبك على هذا .

ثم قال - ﷺ - « أخلَّفُ بعْدَ أصحابى ؟» يعنى : أؤخلَّف بعد أصحابى ، أى : هل أتأخر بعد أصحابى فاموت بمكة . فبيَّنِ النبىُّ - ﷺ - أنَّه لن يُخَلَّف فقال : « إنك لن تُخلف » وبيَّن له أن لو خُلِّف ثم عملَ عملاً يبتغى به وجه الله لازداد به عند الله درجة ورفْعة .

يعنى : لو فرض أنك خُلفت ولم تتمكن من الخروج من مكة وعملت عملاً تبتغى به وجه الله فإن الله سبحانه يزيدك به رِفعةً ودَرَجة ، رِفعة فى المقام والمرتبة ودرجة فى المكان فيرفعك الله عزَّ وجلَّ فى جنَّات النعيم درجات ، حتى لو عملت بمكة وأنت قد هاجرت منها .

ثم قال النبى - ﷺ - : « ولَعلَّكَ لنْ تُخلَّفَ » أن تُخلَّفَ : هنا غير أن تُخَلَّفَ الأولى .

Marfat.com

لعلك أن تُخلَّف : أى أن تعمر فى الدُّنيا وهذا هو الذى وقع فإن سعد بن أبى وقاص عُمِّر زمانًا طويلاً .

حتى أنه ـ رضي الله عنه ـ كما ذكر العلماء خلف سبعة عشر ذكرًا واثنتى عشرة بنتًا.

وكان فى الأول ما عنده إلا بنت واحدة ، ولكن بقى وعُمِّر ورزُق أولادًا .

وقوله : « حتى ينتفع بك أقوامٌ ويُضَرُّ بك آخرون » وهذا الذى حصل ، فإن سعدًا ـ رضي الله عنه ـ خُلِّف وصار له أثر كبير فى الفتوحات الإسلامية ، وفتح فتوحات عظيمة كبيرة فانتفع به أقوام وهم المسلمون وضُرَّ به آخرون وهم الكفار.

ثم قال النبىُّ - ﷺ : « اللَّهُمَّ أمْضِ لأصّحابى هِجْرَتَهم » سأل اللَّه أن يمضى لأصحابه هجرتهم وذلك بأمْرَيْن :

الأمر الأول : ثباتهم على الإيمان لإنه إذا ثبت الإنسان على الإيمان ثبت على الهجرة.

والأمر الثانى : ألا يرجع أحد منهم إلى مكة بعد أن خرج منها مهاجرًا إلى الله ورسوله .

لأنك إذا خرجت من البلد مُهاجرًا إلى الله ورسوله فهو كالمال الذى تتصدق به لا يمكن أن ترجع فيه .

وهكذا كل شيء تركه الإنسان لله لا يرجع فيه .

ومن ذلك : ما وُفق فيه كثير من الناس من إخراج التليفزيون من بيوتهم توبة إلى الله وابتعادًا عنه وعما فيه من الشُّرور فهؤلاء قالوا : هل يمكن أن نعيده الآن إلى البيت ؟

نقول : لا ، بعد أن أخرجتموه لله لا تعيدوه لأن الإنسان إذا ترك شيئًا لله وهجر شيئًا لله فلا يعود فيه ولهذا سأل الرسول عليه الصلاة والسلام ربَّه أن يمضى لأصحابه هجرتهم .

وقوله : « وَلا تَرُدَّهم على أعْقابهم » أى : لا تجعلهم ينتكسون عن الإيمان فيرتدون على أعقابهم ، لأن الكفر تأخُّر والإيمان تقدُّم وهذا على عكس ما يقوله الملحدون اليوم حيث يَصِفُون الإسلام بالرَّجعية ، ويقولون : إن التقدمية أن ينسلخ الإنسان من الإسلام وأن يكون علمانيا لا يفرق بين الإيمان والكفر والعياذ بالله ولا بين الفسوق والطاعة ، فالإيمان هو التقدم فى الحقيقة .

Marfat.com

المتقدمون هم المؤمنون والتقدُّم يكون بالإيمان ، والرِّدة تكون نكوصًا على العقبين كما قال النبى عليه الصلاة والسلام هنا : « ولا تَرُدَّهم على أعْقابهم» .

وفى هذا الحديث فوائد عظيمة كثيرة :

منها : أن من هدى الرَّسول ـ ﷺ ـ عيادة المرضى لأنه عَاد سعد بن أبى وقاص ـ رضي الله عنه ـ ، وفى عيادة المَرْضى فوائد للعائد وفوائد للمَعُود .

أما العائد فإنه يؤدى حق أخيه المسلم لأن من حق أخيك المسلم أن تعوده إذا مرض .

ومنها : أن الإنسان إذا عاد المريض فإنَّه لا يزال فى مَخرفَة الجنة يعنى يجنى ثمار الجنة حتى يعود .

ومنها : أن فى ذلك تذكيرًا للعائد بنعمة الله عليه بالصِّحة ، لأنَّه إذا رأى هذا المريض ورأى ما هو فيه من المرض ثم رجع إلى نفسه رأى ما فيها من الصِّحة والعافية عرف قدر نعمة الله عليه بهذه العافية لأن الشىء إنما يعرف بضده.

ومنها : أن فيها جَلْبًا للمحبة والمودة فإن الإنسان إذا عاد المريض صارت هذه العيادة فى قلب المريض دائمًا على قلبه يتذكَّرها ،وكلما ذكرها أحبَّ الذى يَعُوده وهذا يظهر كثيرًا فيما إذا برأ المريض وحَصلت منه مُلاقاة لك تجده يتشكْر منك وتجد أن قلبه ينشرح بهذا الشىء .

أما المعود : فإن له فيها فائدة أيضًا ؛ لأنها تُؤنِسُه وتشرح صدره ويزول عنه ما فيه من الهمِّ والغمِّ ومن المرض وربما يكون العائد موفقًا يذكره بالخير والتوبة والوصية إذا كان يريد أن يُوصى بشىء عليه من الديون وغيرها فيكون فى ذلك فائدة للمعود .

ولهذا قال العلماء : ينبغى لمن عاد المريض أن يُنفس له فى أجله أى يفرحه يقول : ما شاء الله أنت اليوم فى خير وما أشبهه ، ليس لازمًا أن يقول له : أنت طيب مثلاً لأنه قد يكون اليوم أشد مرضًا من أمس لكن يقول : أنت اليوم فى خير ، لأن المؤمن كل أمره خير ، إن أصابه ضراء فهو فى خير وإن أصابه سرَّاء فهو فى خير .

والأجل محتوم إن كان هذا المرض أجله مات ، وإن كان بقى له شىء من الدنيا بقى وينبغى أيضًا يذكّره التوبة لكن لا يقول له ذلك بصفة مباشرة لأنه ربما ينْزعج ، ويقول فى نفسه لو أن مرضى غير خطير ما ذكَّرنى بالتَّوبة .

Marfat.com

لكن يبدأ بذكر الآيات والأحاديث التى فيها الثَّناء على التَّائبين ما يتذكر به المريض ، وينبغى كذلك أن يذكّره الوصية ، لا يقول له أوص فإن أجلك قريب لو قال هكذا انزعج بل مثلاً يذكّره بقصص واردة عليه .

قال أهل العلم : وينبغى أيضًا إذا رأى منه تشوقًا إلى أن يقرأ عليه فليقرأ عليه ، ينفث عليه بما ورد عن النبى عليه الصلاة والسلام .

مثل قوله : « **اللَّهُمَّ ربَّ الناس أذهب البَاس ، اشْف أنت الشَّافى لا شفَاء إلا شفاؤك شفَاء لا يُغَادر سقمًا** »[1] ومثل قوله : « **ربنا الله الذى فى السماء تقدَّس اسمُك ، أمرُك فى السماء والأرض كما رحْمتُك فى السماء فاجْعَل رحْمَتَك فى الأرض أنت ربُّ الطيبين اغفر لنا حوْبَنا وخَطايانا ، أنزل رحْمة من رحْمتك ، وشفاءً من شفائك على هذا الوجع ، فيبرأ** »[2] ، أو يقرأ عليه بسورة الفاتحة لأن سورة الفاتحة رُقية يُقرأ بها على المرضى وعلى الذين لدغتهم العقرب أو الحية وما أشبه ذلك[3] .

المهم أنه إذا رأى من المريض أنَّه يحب أن يقرأ عليه فليقرأ عليه ؛ لئلا يُلجئه إلى طلب القراءة ، لأن النبى ﷺ قال : « رأيت مع أمَّتى سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » ، وقال : « هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطَّيرون وعلى ربِّهم يتوكلون »[4] .

فقوله : « لا يسترقون » أى : لا يطلبون أحدًا يقرأ عليهم .

كذلك أيضًا إذا رأيت أن المريض يحب أن تُطيل المقام عنده فأطل المقام ؛ فأنت على خير وعلى أجر .

أطل المقام عنده وأدخل عليه السُّرور ، وربما يكون فى دخول السُّرور على قلبه سببًا لشفائه لأن سرور المريض وانشراح صدره من أكبر أسباب الشفاء ، فأطل الجلوس عنده حتى تعرف أنَّه قد ملَّ .

(1) رواه البخارى (٥٦٧٥) مسلم / (٢١٩١) .

(2) رواه أبو داود (ح٣٨٩٢) فى الطب، باب: كيف الرقى ؟ من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه ، وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف :أبى داود (٨٣٩) ، وضعيف الجامع (٥٤٢٢) .

(3) رواه البخارى (٥٧٤٩) مسلم (٢٢٠١) .

(4) رواه البخارى (٥٧٠٥) مسلم (٢٢٠) .

Marfat.com

أما إذا رأيت أن المريض متكلف ولا يحب أنك تبقى ، أو يحب أن تذهب عنه لكى يبقى مع أهله ويأنس بهم فلا تتأخر ، اسأل عن حاله ثمَّ انصرف .

ففى حديث سعد بن أبىّ وقاص مشروعية عيادة المريض .

ومن وفوائده : حسن خلق النبى - ﷺ - ولا شكَّ أن النبى - ﷺ - أحسن الناس خلقًا لأن الله قال : ﴿ ن والقلم وما يسطرون (١) ما أنت بنعمة ربك بمجنون (٢) وإن لك لأجرا غير ممنون (٣) وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم : ١ - ٤] فأعظم الناس خلقًا وأحسن الناس خلقًا رسول الله - ﷺ - .

ولهذا كان يعُود أصحابَهُ ويَزُورهم ويُسلِّم عليهم حتى إنه يمر بالصبيان الصِّغار فيُسلم عليهم ، صلوات الله وسلامه عليه .

ومنها : أنه ينبغى للإنسان مشاورة أهل العلم لأنَّ سعد بن أبى وقاص - رضي الله عنه - استشار النبى - ﷺ - حينما أراد أن يتصرَّف بشىء من ماله فقال : « **يا رسول الله إنِّى ذو مالٍ كثير ولا يَرِثُنى إلا ابنةٌ لى أفأتصدق بثُلُثَى مَالى ؟ قال : لا** ...» الحديث .

ففيه استشارة أهل العلم والرأى ، وكل إنسان بحسبه فمثلاً إذا كنت تُريد أن تقْدم على شىء من أمور الدين فشاور أهل العلم لأنَّهم أعلم بأمور الدين من غيرهم ، إذا أردت أن تشترى بيتًا فشاور أصحاب المكاتب العقارية ، إذا أردت أن تشترى سيارة فاستشر المهندسين فى ميكانيكية السيارات وهكذا .

ولهذا يقال : « **ما خابَ من استَخار ولا ندَمَ من استَشَارَ** » [(١)] .

والإنسان بلا شك لا ينبغى له أن يكمل نفسه ، من ادَّعى الكمال لنفسه فهو الناقص، بل لابد أن يراجع خصوصًا فى الأمور الهامة التى تتعلق بمسائل الأمَّة فإن الإنسان قد يحمله الحماس والعاطفة على فعل شىء هو فى نفسه حق ولا بأس به لكن التَّحدث عنه قد يكون غير طيب إما فى الزمان أو فى المكان أو فى الحال .

ولهذا ترك النبى - ﷺ - بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفًا من الفتنة فقال لعائشة - رضي الله عنها - : « **لولا أنَّ قومَك حديثُو عَهَد بكُفْرٍ لَبنَيت الكعْبَة على قواعد إبراهيم ولجعلت لها بابين ، بابًا يَدْخل منه النَّاس وبابا يخرجون منه** » [(٢)] .

(١) صحيح : رواه مجمع الزوائد (٢/ ٢٨٠) الضعيفة (٦١١) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (١٥٨٥) مسلم (١٣٣٣) .

Marfat.com

من أجل أن يتمكَّن الناس من دخولِ بيت الله عزَّ وجلَّ ، لكن ترك ذلك خوف الفتنة مع كونه مَصْلحة .

بل أعظم من ذلك أن الله نهى أن نسُبَّ آلهة المشركين مع أن آلهة المشركين جديرة بأن تُسبَّ وتُعاب ويُنفَّر منها لكن لما كان سبّها يؤدى إلى سَبِّ الربِّ العظيم المُنَزه عن كل عيب ونقص ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، فالمهم أن ينبغى أن نعلم أن الشىء قد يكون حسنًا فى حد ذاته وفى موضوعه لكن لا يكون حسنًا ولا يكون من الحكمة ولا من العقل ولا من النُّصح ولا من الأمانة أن يذكر فى وقت من الأوقات أو فى مكان من الأماكن أو فى حال من الأحوال وإن كان هو فى نفسه حقًا وصدقًا وحقيقة واقعة ، ومن ثم كان ينبغى للإنسان أن يستشير ذوى العلم والرأى والنُّصح فى الأمر قبل أن يقدم عليه حتى يكون لديه برهان لأن الله قال لأشرف خَلْقه عليه الصلاة والسلام وأسدِّهم رأيًا وأبلغهم نصحًا محمد ـ ﷺ ـ قال : ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

هذا هو رسول الله ـ ﷺ ـ أسد النَّاس رأيًا وأرجحهم عقلاً وأبلغهم نصحًا .

الإنسان ربما تأخذه العاطفة فيندفع ويقول هذا لله هذا أنا سأفعله ، سأصدع بالحق سأقول سوف لا تأخذنى فى الله لومة لائم وما أشبه ذلك من الكلام ثم تكون العاقبة وخيمة ، ثم إن الغالب أن الذى يحكِّم العاطفة ويتبع العاطفة ولا ينظر للعواقب ولا للنتائج ولا يقارن بين الأمور الغالب أنه يحصل على يديه من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله عز وجل مع أن نيَّته طيبة وقَصْده حسن لكن لم يحسن أن يتصرف ، لأن هناك فرقًا بين حسن النيَّة وحسن التصرف قد يكون الإنسان حسن النية لكنه سيئ التصرف وقد يكون سيئ النية والغالب أن سيئ النية سيئ التصرف ، لكن مع ذلك قد يُحسن التصرف لينال غرضه السيئ .

فالإنسان يُحمد على حُسن نيته لكن قد لا يحمد على سوء فعله إلا أنه إذا علم منه أنه مَعْروف بالنصُح والإرشاد فإنه يعذر بسُوء تصرفُه ويُلْتَمس له العذر ولا ينبغى أيضًا أن يتخذ من فعله هذا الذى لم يكن موافقًا للحكمة بل لا يجوز أن يتخذ منه قدح فى هذا المتصرف وأن يحمل ما لا يتحمله لكن يعذر ويبين له ويُنصح ويُرشد ويقال يا أخى هذا

Marfat.com

كلامك أو فعلك حسن طيب وصواب فى نفسه لكنه غير صواب فى محله أو فى زمانه أو فى مكانه .

المهم أن فى حديث سعد بن أبى وقاص - رضي الله عنه - إشارة إلى أنَّه ينبغى للإنسان أن يستشير من هو أكمل منه رأيًا وأكثرُ منه علمًا .

وفيه من الفوائد : أنَّه ينبغي للمستشير أن يذكر الأمر على ما هو عليه حقيقة لا يلوذ يمينًا وشمالاً بل يذكر الأمر حقًا على ما هو عليه حتى يتبين للمستشار حقيقة الأمر ويبنى مشورته على هذه الحقيقة ولهذا قال سعد : « **إنِّى ذُو مال ولا يرثنى إلا ابنة** » .

فقوله : « **إنِّى ذو مال** » بيان لسبب العطية التى يريد أن يعطيها « **ولا يرثنى إلاَّ ابنة لى** » بيان لانتفاء المانع ، يعنى لا مانع من أن أوصى كثيرًا لانتفاء الوارث .

والمستشار عليه أن يتقى الله عزَّ وجل فيما أشار فيه وألا تأخذه العاطفة فى مراعاة المستشير لأن بعض الناس إذا استشاره الشخص ورأى أنه يميل إلى أحد الأمرين أو الرأيين ذهب يُشير عليه به .

ويقول : أنا أحب أن أوافق الذى يرى أنه يناسبه وهذا خطأ عظيم بل خيانة ، الواجب إذا استشارك أن تقول له ما ترى أنه حق وأنه نافع سواء أرضاه أم لم يرضه ، وأنت إذا فعلت هذا كنت ناصحا وأديت ما عليك ثم إن أخذ به ، ورأى أنه صواب فذاك وإن لم يأخذ به فقد برئت ذمتك .

مع أنك ربما تستنتج شيئًا خطأ ، قد تستنتج أنَّه يريد كذا وهو لا يريده فتكون خسرانًا من وجهين :

من جهة الفهم السيئ ، ومن جهة القصد السيىء .

وفى قول الرسول عليه الصلاة والسلام « لا » دليل على أنه لا حرج أن يستعمل الإنسان كلمة « لا » وليس فيها شيء ، فالنبى عليه الصلاة والسلام استعمل كلمة « لا» وأصحابه - رضي الله عنهم - عنهم استعملوا كلمة « لا » .

فجابر - رضي الله عنه - لما أعيا جمله ولحقه النبى عليه الصلاة والسلام ، كيف لحقه وهو هزيل هل الجمل قدام الناس ؟ لا ! . لكن من عادة الرسول عليه الصلاة والسلام أنه راعى أمته أن يمشى فى الآخر لا يمشى قدّامهم بل يمشى وراءهم لأجل أنه إذا احتاج أحدٌ

Marfat.com

إلى شىء يساعده عليه الصلاة والسلام ، انظر إلى التواضع وحُسن الرِّعاية .

لحق جابرًا وكان جمله قد أعيا لا يمشى فضربه النَّبى ـ ﷺ ـ ودَعا له وقال « بِعْنيه بِوُقيّة » قال جابر : « لا » (١) قال : لا للرسول عليه الصلاة والسلام ولم ينكر عليه الرسول عليه الصلاة والسلام .

فلا مانع من كلمة « لا » فإنها ليست سوء أدب وخُلق ، كثير من الناس الآن يأنف أن يقول « لا » يقول سلامتك ، هذا طيب أن تدعو له بالسَّلامة لكن إذا قلت « لا » فلا عيب عليك .

ومن فوائد الحديث : أنَّه لا يجوز للمريض مرضًا مخوفًا أن يعطى أكثر من الثُّلث إلا إذا أجازه الورثة لأن الورثة تعلَّق حَقُّهم بالمال لَمَّا مَرِضَ الرَّجل لقول النبى ﷺ : **«الثُّلث والثُّلث كثير »** .

وفيه : دليل على أنَّه ينبغى أن يكون عطاؤه أقل من الثُّلث كما قال ابن عباس رضي الله عنهما لو أنَّ النَّاس غضُّوا من الثُّلث إلى الرُّبع لأن النبى ـ ﷺ ـ قال : **« الثلث والثُّلث كثير»**(٢) .

ومنها أنَّه لا يجوز للإنسان إذا كان مريضًا مرضًا يُخشَى منه الموت أن يتبرع بأكثر من الثُّلث من مَاله ، لا صدقة ولا مشاركة فى بناء مسَاجد ولا هبة ولا غير ذلك، لا يزيد على الثُّلث لأن النبى ـ ﷺ ـ منع سعدًا من أن يتصدَّق بأكثر من الثلث .

والوصية كالعطية فلا يجوز أن يُوصى الإِنسان بشىء من ماله بعد موته زائدًا على الثُّلث .

والأفضل فى الوصيّة أن تكون بالخمس لأثر أبى بكر المتقدم آنفًا .

ومنها : إذا كان مال الإِنسان قليلاً وكانَ وَرَثته فقراء فالأفضل ألا يُوصى بشىء لا قليل ولا كثير لقوله عليه الصلاة والسلام : **« إنَّك إنّ تذر ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عَالَة »** خلافًا لما يظنُّه بعض العوام أنَّه لابد من الوصيّة هذا خطأ ، الإنسان الذى مَالُه قليل وورَثته فقراء ليس عندهم مال لا ينبغى له أن يُوصى ، الأفضل ألا يُوصى .

ويظن بعض العامة أنه إذا لم يُوص فإنه لا أجر له وليس كذلك بل إذا ترك المال

(١) صحيح رواه البخارى (٢٣٨٥) مسلم (٧١٥) وابو داود (٣٥٠٣) .
(٢) رواه البخارى (٢٧٤٣) مسلم (١٦٢٩) .

Marfat.com

لورثته فهو مأجور فى هذا ، وإن كان الورثة يرثونه قهرًا ، لكن إذا كان مسترشدًا بهدى النبى - ﷺ - لقوله : « **إنَّك إنْ تَذَر ورَثَتك أغنياء خَير من أنّ تذَرهم عَالَةً** » فإن أجره بذلك أفضل من أن يتصدَّق عنه بشىء من ماله .

ومنها : خوف الصحابة المهاجرين من مكة أن يموتوا فيها ، لأن سعدًا ؓ قال : «**أخلَّف بعد أصحابى** » وهذه الجملة استفهامية والمعنى « **أأُخلَّف ؟** » وهذا استفهام توقعى مفروض يعنى أنه لا يحب أن يتخلف فيموت فى مكة وقد خرج منها مهاجرًا إلى الله ورسوله .

ومنها : ظهور معجزة لرسول الله - ﷺ - وهو أن الرسول - ﷺ - قال له : « **إنَّك لن تُخلَّف وسوف تُخلف حتى يُضَرَّ بك أقوام ويَنتفع بك آخرون** » فإن الأمر كما توقَّعه النبى - ﷺ - فإن سعدًا عُمِّرَ إلى خلافة معاوية .

وهذه من آيات النبى - ﷺ - أن يخبر عن أمر مستقبل فيقع كما أخبر به ، ولكن هذا ليس خبرًا محضًا ولكن توقع لقوله : « **لعَلَّك أن تُخلَّف** » فلم يجزم ولكن كان الأمر كما توقعه النبى - ﷺ - .

ومنها : أنه ما من إنسان يعمل عملاً يبتغى به وجه الله إلا ازداد به رفعَة ودرجة حتى وإن كان فى مكان لا يحل له البقاء فيه ، لأن العمل شىء والبقاء شىء آخر .

ولهذا كان القول الرَّاجح من أقوال أهل العلم أن الإنسان إذا صلَّى فى أرض مغصوبة لكنه آثم ببقائه فى هذا المكان المغصوب ، نعم لو ورد عن الرسول - ﷺ - أنه قال : لا تُصل فى أرض مغصوبة ، لقلنا إذا صليت فى الأرض المغصوبة فصلاتك باطلة كما نقول إنك إن صليت فى المقبرة فصلاتك باطلة لأن الرسول - ﷺ - قال : « **الأرض كلُّها مَسْجِد إلاَّ المقبرة والحَمَّام** » (١) هذا غير صلاة الجنازة لأنها تجوز حتى فى المقبرة .

ومنها : أن الإنسان إذا أنفق نفقة يبتغى وجه الله فإنه يُثاب عليها ، حتى النفقات على أهله وعلى زوجته بل وعلى نفسه إذا ابتغى بها وَجه الله أثابه الله عليها .

وفيه : إشارة أنه ينبغى للإنسان أن يستحضر نيّة التَّقرب إلى الله فى كل ما ينفق حتى

(١) صحيح : أبو داود (٤٩٢) الترمذى (٣١٧) ابن ماجه (٧٤٥) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود والمشكاة (٧٣٧) .

Marfat.com

يكون له فى ذلك أجر .

وقوله : « اللهُمَّ أمضِ لأصْحابى هجرتَهم وَلا تردهم علىَ أعْقَابِهم » سأل النبى - ﷺ - ربَّه أن يمضى لأصحابه هجرتهم وذلك بثباتهم على الإيمان وبقائهم فى الأوطان التى هاجروا إليها من مكة ولهذا قال : « ولا تَرُدَّهُم على أعقابهم » الرَّد على العقب يعنى الكفر بعد الإسلام والعياذ بالله كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة : ٢١٧] ، وقوله : « لكن البائس سعْد بن خولة .. » يقوله النبى عليه الصلاة والسلام .

سعد بن خولة ﷺ من المهاجرين الذين هاجروا من مكة ولكن الله قدر أن يموت فيها فمات فيها فرثى له النَّبى عليه الصلاة والسَّلام أى توجع له أن مات بمكة وقد كانوا يكرهون للمهاجر أن يَمُوت فى الأرض التى هاجر منها .

هذا ما تيسَّر من الكلام على هذا الحديث ، والمؤلف - رحمه الله تعالى - ذكره فى باب النية لأن النبى- ﷺ - قال لسعد : « إنَّك لن تعمل عملاً تبتغى به وجه الله إلا ازددت به دَرَجه ورِفْعة » وقال له : « إنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلاَّ أجرتَ عليها » فأشار فى هذا الحديث إلى الإخلاص فى كون الإنسان يبتغى بعمله وبإنفاق ماله وجه الله حتى ينال على ذلك الأجر وزيادة الدَّرجات والرِّفعة عند الله عزَّ وجلَّ والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[٧] ـــ وَعَنْ أبى هُرَيْرَةَ عَبْد الرَّحْمن بْن صخْر رضى اللهُ عَنْهُ قَالَ : قال رسولُ اللّه ﷺ : « إنَّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إلَى أجْسَامِكُمْ ،ولاَ إلَىَ صُوَرِكمْ،ولكِن يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ» رواه مسلم .

الشرح

وقوله : « ولكن ينظر إلى قُلُوبكم » وفى لفظ : « قلوبكم وأعمالكم » هذا الحديث يدلُّ على ما يدل عليه قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات :١٣] .

[٧] صحيح : رواه مسلم (٢٥٦٤) .

Marfat.com

فالله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى العباد إلى أجسامهم هل هى كبيرة أو صغيرة أو صحيحة أو سقيمة ولا ينظر إلى الصُّور هل هى جميلة أو ذميمة .

كل هذا ليس بشىء عند الله ، وكذلك لا ينظر إلى الأنساب هل هى رفيعة أو دنيئة، ولا ينظر إلى الأموال ولا يَنظر إلى شىء من هذا أبدًا.

ليس بين الله وبين خلْقه صلة إلا بالتقوى ، فمن كات لله أتقى كان من الله أقرب وكان عند الله أكرم . إذًا لا تفتخر بمالك ولا بجمالك ولا ببدنك ولا بأولادك ولا بقصورك ولا بسياراتك ولا بشىء من هذه الدنيا أبدًا ، إنما إذا وَفَّقك للتَّقوى فهذا من فضل الله عليك فاحمد الله عليه .

واعلم أن الأعمال بالنيات ، والقلوب هى التى عليها المدار .

كم من إنسان ظاهر عمله أنَّه صحيح وجيِّد وصالح لكن لمَّا بنى على خَراب صار خَرابًا .

النية هى الأصل ، تجد رجلين يُصلِّيان فى صَفٍّ واحد مقتدين بإمام واحد يكون بين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب ، لأن القلب مختلف أحدهما قلبه غافل بل ربما يكون مُرائيًا فى صلاته والعياذ بالله يُريد بها الدُّنيا ، والآخر قلبه حاضر يريد بصلاته وجه الله واتباع سُنَّة الله - ﷺ - .

فبينهما فَرْقٌ عظيم ، فالعلم على ما فى القلب ، وعلى ما فى القلب يكون الجزاء يوم القيامة كما قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق : ٨ ، ٩] أى : تختبر السرائر لا الظواهر . فى الدنيا الحكم بين الناس على الظَّاهر لقول النبى - ﷺ - : « **إنما أقضى بنحو ما أسمع** »[١] لكن فى الآخرة العلم على ما فى السرائر نسأل الله أن يطهر سرائرنا وإيَّاكم .

فإذا كانت السريرة جيدة صحيحة فأبشر بالخير وإن كانت الأخرى فَقدت الخير كُلّه وقال الله عز وجل : ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩ ، ١٠] ، فالعلم على ما فى القلب .

وإذا كان الله فى كتابه وكان رسوله - ﷺ - فى سنته يؤكدان على إصلاح النيَّة

(١) صحيح : رواه البخارى (٦٩٦٧) مسلم (١٧١٣) (٢٦٨٠) .

Marfat.com

فالواجب على الإنسان أن يُصلح نيته ، يُصلح قلبه ، ينظر ما فى قلبه من الشّك فيزيله إلى اليقين كيف ذلك ؟

يكون ذلك بنظره إلى الآيات قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٠] . وقال : ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤] فأنت انظر فى آيات الله .

إذا ألقى الشيطان فى قلبك الشّك فانظر فى آيات الله ، انظر إلى هذا الكون من يُدبّره ، انظر كيف تتغير الأحوال ، كيف يداول الله الأيام بين الناس حتى تعلم أن لهذا الكون مدبرًا حكيمًا عز وجل .

الشّرك طهر قلبك منه ، كيف أطهر نفسى منه ؟

أطهر قلبى بأن أقول لنفسى : إن الناس لا ينفعوننى إن عصيت الله ولا ينقذونى من العقاب وإن أطعت الله لم يجلبوا إلىّ الثواب .

فالذى يجلب الثواب ويدفع العقاب هو الله ، إذا كان الأمر كذلك فلماذا تشرك بالله عز وجل ، لماذا تنوى بعبادتك أن تتقرب إلى الخلق ولهذا من تقرّب إلى الخلق بما يتقرب به إلى الله ابتعد الله عنه وابتعد عنه الخلق .

يعنى لا يزيده تقرُّبه إلى الخلق بما يقربه إلى الله إلا بُعدًا مِن الله ومن الخلق ، لأن الله إذا رضى عنك أرضى عنك الناس وإذا سخط عليك أسخط عليك الناس نعوذ بالله من سخطه ومن عقابه .

المهم يا أخى عالج القلب دائمًا ، كن دائمًا فى غسيل للقلب حتى يطهر كما قال الله عز وجل : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة :٤١] فتطهير القلب أمر مهم جدا أسأل الله أن يطهر قلبى وقلوبكم وأن يجعلنا له مخلصين ولرسوله متبعين .

❊ ❊ ❊

[٨] ــ وَعَنْ أبى مُوسَى عَبْد الله بْنِ قَيْسٍ الأشْعَرىّ رضى الله عنه قَالَ : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، ويُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً ، أى ذلِكَ فى

---

[٨] صحيح : رواه البخارى (١/ ١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) .

Marfat.com

سَبيلِ اللّه ؟ فَقَالَ رسول الله ﷺ : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللّهِ هى الْعُلْيا فَهُوَ فى سبيل الله » مُتَّفَقٌ عَلَيْه .

الشرح

وفى لفظ للحديث : ويقُاتل ليرى مكانه أىُّ ذلك فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العُلْيَا فهو فى سبيل الله » .

وقوله : « من قاتل لتكون » فى هذا إخلاص النّية لله عز وجل وهذا الذى ساق المؤلف الحديثَ من أجله .

فقد سئل الرسول ـ ﷺ ـ عن الذى يقاتل على أحد الوجوه الثلاثة :

شجاعة ، وحمية ، وليرى مكانه .

أما الذى يقاتل شجاعة : فمعناه أنَّه رجل شجاع يحب القتال لأن الرجل الشجاع متصف بالشجاعة ، والشجاعة لابد لها من ميدان تظهر فيه فتجد الشجاع يحبُّ أن الله يُيسِّر له قتالاً ليقاتل ويظهر شجاعته . فهو يقاتل لأنه شجاع يحب القتال .

الثانى يقاتل حميةً : حمية على قومية ، حمية على قبيلة ، حمية على وطن ، حمية لأى عصبية كانت .

الثالث يقاتل ليرى مكانه : أى ليراه الناس ويعرفوا أنه شجاع فعدل النبى ـ ﷺ ـ عن ذلك وقال كلمة موجزة ميزانًا للقتال فقال : « منْ قاتلَ لِتكُون كَلِمةُ الله هى العُلْيا فُهو فى سَبيل الله» .

وعدل النبى عليه الصلاة والسلام عن ذكر هذه الثّلاثة ليكون أعم وأشمل لأن الرجل ربما يقاتل من أجل الاستيلاء على الأوطان والبلدان ، يُقاتل من أجل أن يَحْصل على امرأة يسبْيها من هؤلاء القوم .

المهم أن النّيات ما لها حدٌّ لكن هذا الميزان الذى ذكره النبى عليه الصلاة والسلام ميزان تامٌ عدل ومن هنا نعلم أنَّه يجب أن تُعَدَّل اللهجة التى يتفوه بها اليوم كثير من الناس.

اللهجة لهجتان :

لهجة قوم يقاتلون للقومية ، القومية العربية والقتال للقومية العربية قتال جاهلى ، مَنْ قُتل فيه فليس شهيدًا ، فقد الدنيا وخسر الآخرة ، لأن ذلك ليس فى سبيل الله ، ولذلك

Marfat.com

على الرغم من قوة الدعاية للقومية العربية لم نستفد منها شيئًا !

اليهود استولوا على بلادنا ، نحن تفككنا ، دخل فى ميزان هذه القومية قوم كفار من النَّصارى وغير النَّصارى وخرج منها مسلمون من غير العرب فخسرنا ملايين العالم من أجل هذه القومية ، ودخل فيها قوم لا خير فيهم ، قوم إذا دخلوا فى شىء كُتب عليه الخذلان والخسارة .

واللَّهجة الثانية : قوم يقاتلون للوطن ، ونحن إذا قاتلنا من أجل الوطن لم يكن هناك فرق بيننا وبين الكافر لأنه أيضًا يقاتل من أجل وطنه .

والذى يقتل من أجل الدفاع عن الوطن فقط ليس بشهيد . ولكن الواجب علينا ونحن مسلمون وفى بلد إسلامى ولله الحمد ونسأل الله أن يثبتنا على ذلك ، الواجب أن نقاتل من أجل الإسلام فى بلادنا .

انتبه للفرق نقاتل من أجل الإسلام فى بلادنا ، فنحمى الإسلام الذى فى بلادنا سواء كان فى أقصى الشَّرق أو الغرب ، فيجب أن تُصحَّح هذه النقطة ، فيقال: نحن نقاتل من أجل الإسلام فى وطننا أو من أجل وطننا لأنه إسلامى ندافع عن الإسلام الذى فيه .

أما مجرد الوطنية فإنها نية باطلة لا تُفيد الإسلام شيئًا ، ولا فرق بين الإنسان الذى يقول إنه مسلم والإنسان الذى يقول إنه كافر إذا كان القتال من أجل الوطن لأنه وطن .

وما يذكر من أنَّ « حُبُّ الوطَن من الإِيمان » وأن ذلك حديث عن رسول الله - ﷺ - كذب .

حبُّ الوطن إن كان إسلاميًا فهذا تحبه لأنه إسلامى ، ولا فرق بين وطنك الذى هو مسقط رأسك أو الوطن البعيد عن بلاد المسلمين ، كلها وطن إسلامى يجب أن نحميه .

على كل حال يجب أن نعلم أن النية الصحيحة هى أن نُقاتل من أجل الإسلام فى بلادنا أو من أجل وطننا لأنَّه إسلامى لا لمجرد الوطنية .

أما قتال الدفاع : أى لو أن أحدًا صَالَ عليك فى بيتك يريد أخذ مالك أو يريد أن ينتهك عرض أهلك مثلاً فإنك تقاتله كما أمرك بذلك النبى عليه الصَّلاة والسلام .

فقد سُئل عن الرَّجل يأتيه الإنسان ويقول له : أعطنى مالك ؟ قال : **« لا تُعطه**. **قال**: أرأيت إن قاتلنى ؟ **قال : قاتله** ، قال : أرأيت إن قتلنى ؟ **قال : إن قتلك فأنت شهيد . قال**

Marfat.com

: أرأيت إن قَتَلْتُهُ ؟ **قال : إن قَتَلْتَهُ فهو فى النَّار** » (١)لأنه معتد ظالم حتى وإن كان مسلمًا ، إذا جاءَك المسلم يريد أن يقاتلك من أجل أن يخرجك من بلدك أو من بيتك إن قتلته فهو فى النَّار وإن قتلك فأنت شهيد .

لا تقل كيف أقتل مسلمًا ؟ هو المعتدى ولو كتَّفنا أيدينا أمام المعتدين الظالمين الذين لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ولا دينًا ، لكان المعتدون لهم السُّلطة ولأفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ولذلك نقول : هذه المسألة ليست من باب قتال الطلب .

قتال الطَّلب : معلوم أننى لا أذهب أقاتل مسلمًا أطلبه ، ولكن أدافع عن مالى ونفسى وأهلى ولو كان مؤمنًا مع أنه لا يمكن أبدًا أن يكون شخص معه إيمان يقدم على مسلم يقاتله ليستولى على أهله وماله أبدًا .

ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **سِبَابُ المُسلم فُسُوق وقتالُه كُفر** » (٢)لا إيمان لإنسان يقاتل المسلمين إطلاقًا فإذا كان الرجل فاقد الإيمان أو ناقص الإيمان فيجب أن نقاتله دفاعًا عن النفس وجوبًا لأن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **قاتله** » وقال : « **إن قَتَلْتَهُ فَهُو فى النار** » وقال : « **وإن قتلك فأنت شهيد** » .

الحاصل أن هناك قتالين : قتالاً للطَّلب أذهب أنا أُقاتل الناس مثلاً فى بلادهم هذا لا يجوز إلا فى شروط معينة .

مثلاً : قال العلماء إذا ترك أهل قرية الأذان وهو ليس من أركان الإسلام وجب على ولى الأمر أن يقاتلهم حتى يؤذنوا لأنهم تركوا شعيرة من شعائر الإسلام .

وإذا تركوا صلاة العيد ، وقالوا لا نُصَلِّيها لا فى بيوتنا ولا فى الصَّحراء يجب أن نقاتلهم ،حتى لو فُرض أن قومًا حاجُّونا وقالوا : هل الأذان من أركان الإسلام ؟ قلنا: لا ولكنه من شعائر الإسلام فنقاتلكم حتى تؤذنوا .

إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين وَجَب علينا أن نصلح بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى وجب أن نقاتلهما حتى تفىء إلى أمر الله مع أنها مؤمنة ، ولكن هناك فرق بين قتال الدِّفاع وقتال الطلب ، الطلب ما نطلب إلا من أباح الشارع قتاله وأمَّا الدِّفاع فلابد أن يدافع .

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٤٠) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٨) مسلم (٦٤) .

Marfat.com

والحاصل أنه لابد من تصحيح النّية ، ونرجو منكم أن تنبهوا على هذه المسألة لأننا نرى فى الجرائد والصُّحف : الوطن ! الوطن ! الوطن ! وليس فيها ذكر للإسلام وهذا نَقصٌ عظيم يجب أن توجه الأمة إلى النهج والمسلك الصَّحيح ونسأل اللّٰه لنا ولكم التوفيق لما يحب ويرضى .

* * *

[٩] وعَنْ أبى بَكْرَةَ نُفَيْعِ بْنِ الْحَارِث الثَّقفىّ رضىَ الله عنه أنَّ النَّبىَّ ﷺ قال : «إذَا الْتقى الْمُسْلمان بسَيْفَيْهمَا فالْقَاتلُ وَالْمقْتُولُ فى النّار » قُلْتُ: يا رسُولَ اللّه ،هَذَا الْقَاتِلُ ، فَمَا بَالُ الْمَقْتولِ : قال : « إنَّه كَانَ حَرِيصاً عَلَى قَتْل صَاحِبه » متفق عليه .

الشرح

قوله : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » أى : يريد كل واحد منهما أن يقتل الآخر فسلَّ عليه السَّيف وكذلك لو أشهر عليه السّلاح كالبندقية أو غيرهما مما يقتل لحجر ونحـوه !

فذكر السَّيف هنا على سبيل التمثيل وليس على سبيل اليقين بل إذا التقى المسلمان بأى وسيلة يكون بها القتل فقتل أحدهما الآخر فالقاتل والمقتول فى النار والعياذ بالله! فقال أبو بكرة للنبى - ﷺ - : هذا القاتل ؟ يعنى أن كونه فى النّار واضح لأنه قتل نفسًا مؤمنة متعمدًا والذى يقتل نفسًا مؤمنة متعمدًا بغير حقّ فإنّه فى نار جهنم .

قال الله تعالى : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب اللّٰه عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما﴾ [النساء : ٩٣] . فأبو بكرة ﷺ قال للنبى - ﷺ - « هذا القاتل » وهذه الجملة هى ما يُعرف فى باب المناظرة بالتسليم يعنى سلَّمنا أن القاتل فى النَّار فما بال المقتول كيف يكون فى النار ؟

فقال النبى - ﷺ - : « لأنَّه كان حَرِيصًا عَلى قَتل صاحبه » فهو حريص على قتل صاحبه ولهذا جاء بآلة القتل ليقتله ولكن تفوق عليه الآخر فقتله فيكون هذا والعياذ بالله بنيته القتل وعمله السبب الموصل للقتل يكون كأنه قاتل ولهذا قال لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه .

[٩] صحيح : رواه البخارى (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) .

Marfat.com

ففي هذا الحديث : دليلٌ على أن الأعمال بالنِّيات وأن هذا لما نوى قتل صاحبه صار كأنه فاعل ذلك أي كأنه قاتل وبهذا نعرف الفرق بين هذا الحديث وبين قوله ـ ﷺ ـ « مَنْ قُتِلَ دُون دَمه فَهُو شَهيدٌ ، ومنْ قُتِلَ دُون أهْله فَهُو شَهيدٌ ، ومنْ قُتِلَ دُون مَاله فَهُو شَهيدٌ»(١) وقوله فيمنَ أتى ليأخذ مالك :«إن قَتَلْتَهُ فهُو فى النَّار وإن قتلَكَ فأنتَ شَهيد » .

وذلك لأن الإنسان الذى يُدافع عن ماله وأهله ونفسه وعرضه إنما دافع رجلاً معتديًا صائلاً لا يندفع إلا بالقتل ، فهنا إذا قتل الصَّائل كان فى النار وإن قتل الدَّافع كان شهيدًا فى الجنة فهذا هو الفرق بينهما ، فبهذا عُلِمَ أن من قتل أخاه مريدًا لقتله فإنه فى النار ، ومن قتله أخوه وهو يُريد قتل أخيه لكن عجز فالمقتول أيضًا فى النار .

وفى هذا الحديث : دليل على عظم القتل وأنَّه من أسباب دخول النار والعياذ بالله .

وفيه : دليلٌ على أن الصحابة ﷺ كانوا يوردون على الرسول ـ ﷺ ـ الشُّبهة فيجيب عنها .

ولهذا لا نجد شيئًا من الكتاب والسُّنة فيه شبهة حقيقة إلا وقدْ وجد حلها ، إما أن يكون حلها بنفس الكتاب والسُّنة من غير إيراد سؤال وإما أن يكون بإيراد سؤال يجاب عنه .

ومن ذلك أن الرسول ـ ﷺ ـ لما أخبر أن الدَّجال يمكث فى الأرض أربعين يومًا اليوم الأول كسنة والثانى كشهر والثَّالث كالأسبوع وبقية الأيام كأيامنا سأله الصحابة هذا اليوم الذى كسنة هل تكفينا فيه صلاة يوم واحد ؟ قال : « لا ، لكن اقْدروا لَهُ قَدْرَه » (٢) ففى هذا أبين دليل على أنه لا يوجد ولله الحمد فى الكتاب والسنة شىء مشتبه لا حلَّ له لكن الذى يوجد قصور فى الأفهام تعجز عن معرفة الحل أو تقصير فى الطلب والتأمل والتفتيش فيشتبه عليه الأمر .

أما فى الواقع فليس فى الكتاب والسُّنة شىء مشتبه إلاَّ وجد حلُّه فى الكتاب أو السُّنة إمَّا ابتداءً وإمَّا جوابًا عن سؤال يقع من الصحابة والله الموفق .

[١٠] وعَنْ أبى هُريرَةَ رضِى الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « صلاة الرَّجُل فى

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (٤٧٧٢) الترمذى (١٤٢١) صحيح الجامع (٦٤٤٥) .

(٢) صحيح : رواه مسلم (٢٩٣٧) الترمذى (٢٢٤٠) .

[١٠] صحيح : رواه البخارى (٦٤٧) ، ومسلم (٦٤٩) .

Marfat.com

جَمَاعَةَ تَزِيدُ عَلَى صَلاته فى سُوقه وَبَيْته بِضْعاً وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ، وَذَلكَ أَنَّ أَحَدَهُم إذا تَوضَأَ فأحْسَنَ الوُضُوءَ ، ثُمَّ أتى المَسْجِدَ لا يُرِيدُ إلا الصَّلاة ، لايَنْهَزُهُ إلا الصَّلاةُ ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إلا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَة ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَة حَتَّى يَدْخُلَ المَسْجِدَ، فَإذَا دَخَلَ المَسْجِدَ كَانَ فِى الصَّلاة مَا كَانت الصَّلاةُ هِيَ تَحْبِسهُ ، وَالمَلائكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أحَدكُمْ مَا دَامَ فِى مَجْلِسه الَّذِى صَلَّى فيه يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ ارحَمْهُ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْه ، مَا لَمْ يُؤْذِ فيه ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فيه » متفقٌ عليه ، وَهذا لَفْظُ مُسْلم .

وَقَوْلُهُ ﷺ: « ينهزه » هُوَ بِفَتْحِ اليَاءِ والهاء وَبالزَّاي : أى يُخْرِجُهُ وَيُنْهِضُهُ .

الشرح

معنى الحديث : أنَّه إذا صلَّى الإنسان فى المسجد مع الجماعة كانت هذه الصَّلاة أفضل من الصَّلاة فى بيته أو فى سوقه سبعًا وعشرين مرة لأن الصَّلاة مع الجماعة قيام بما أوجب الله من صلاة الجماعة .

فإن القول الراجح من أقوال أهل العلم أن صلاة الجماعة فرض عَيْن وأنه يجب على الإنسان أن يصلى مع الجماعة فى المسجد لأحاديث وردت فى ذلك ولما أشار إليه الله سبحانه وتعالى فى كتابه حيث قال : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ [النساء : ١٠٢] .

فأوجب الله الجماعة فى حال الخوف فإذا أوجبها فى حال الخوف ففى حال الأمن من باب أوْلى وأحرى .

ثمَّ ذكر السبب فى ذلك : « بأن الرَّجل إذا توضَّأ فى بَيْته فأسْبَغ الوُضوء ثُم خرج من بَيْته إلى المسجد لاَ يَنْهزُهُ أو لا يُخرجه إلا الصَّلاة لم يخط خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحَطَّ عنه بها خطيئة » سواء أقرب مكانه من المسجد أم بَعُد ، كل خطوة يحصل به فائدتان :

الفائدة الأولى : أن الله يرفعه بها درجة .

والفائدة الثانية : أن الله يحطُّ عنه بها خطيئة وهذا فضل عظيم .

وقوله : « فإنّه فى صلاة ما انتظر الصَّلاة » وهذه أيضًا نعمة عظيمة لو بقيت منتظرًا للصَّلاة مدة طويلة وأنت جالس لا تصلّى بعد أن صلّيت تحية المسجد ومَا شاء الله . فإنه

Marfat.com

يُحسب لك أجر الصلاة لا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة .

وهناك أيضًا شيء رابع : أن الملائكة تصلى عليه ما دام فى مجلسه الذى صلَّى فيه تقول : « اللهم صَلِّ عليه ، اللهم اغفر له اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه » وهذا أيضًا فضل عظيم لمن حضر بهذه النية وبهذه الأفعال .

والشاهد من هذا الحديث قوله : « ثمَّ خرج من بيته إلى المسجد لا يخرجه إلاَّ الصلاة » فإنه يدلُّ على اعتبار النية فى حُصول هذا الأجر العظيم .

أما لو خرج من بيته لا يُريد الصَّلاة فإنه لا يكتب له هذا الأجر مثل أن يخرج من بيته إلى دكانه لما أذن ذهب يُصلى فإنه لا يَحّصل على هذا الأجر لأن الأجر إنَّما يحصل لمن خرج من البيت لا يخرجه إلا الصَّلاة .

لكن ربما يكتب له الأجر من حين أن ينطلق من دكانه أو من مكان بيعه وشرائه إلى أن يصل إلى المسجد ما دام انطلق من هذا المكان وهو على طهارة . والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[١١] وَعَنْ أبى الْعَبَّاس عَبْد الله بْن عَبَّاس بْن عَبْد الْمُطَّلب رضى اللهُ عنهما ، عَنْ رسول الله ﷺ ، فمَا يَرْوى عَنْ ربِّه ، تَبَارَكَ وتَعَالَى قَال : « إنَّ الله كَتَبَ الْحَسَنَات والسَّيِّئَات ثُمَّ بَيَّنَ ذلكَ : فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَة فَلَمْ يَعملْهَا كَتَبَها اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى عنْدَهُ حَسَنَةً كَاملَةً ، وَإنْ هَمَّ بهَا فَعَملَهَا كَتَبَها اللهُ عَشر حَسَنَات إلى سَبْعمائَة ضعْف إلَى أضْعَاف كَثيرَة، وَإنْ هَمَّ بسَيِّئَة فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عنْدَهُ حَسَنَةً كَاملَةً ، وَإنْ هَمَّ بهَا فَعَملَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحدَةً » متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « **إن الله كتب الحسنات والسيئات** » كتابته للحسنات والسَّيِّئات تشمل معنيين :

المعنى الأول : كتابة ذلك فى اللَّوح المحفوظ فإنَّ الله تعالى كتب فيه كل شيء كما قال الله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر : ٤٩] . وقال تعالى : ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر : ٥٣] . فالله سبحانه وتعالى كتب السيئات والحسنات فى اللوح المحفوظ .

[١١] صحيح : رواه البخارى (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) .

Marfat.com

الثاني : كتابته إيَّاهما إذا عملها العبد فإن الله تعالى يكتبها حسب ما تقتضيه حكمته وحسب ما يقتضيه عدلُه وفضله .

فهاتان كتابتان :

[illegible] : لا يعلمها إلا الله عز وجل فكل واحد منا لا يعلم ماذا كتب الله له من خير أو شر حتى يقع ذلك الشيء .

[illegible] إذا عمل الإنسان العمل كُتب له حسب ما تقتضيه الحكمة والعدل والفضل : « ثمَّ بيَّن ذلك » أى : ثم بيَّن النبى ـ ﷺ ـ ذلك كيف يكتب فبَين أن الإنسان إذا هم بحسنة فلم يعملها كتَبها الله حسنة كاملة .

مثاله : رجل هم أن يتوضأ ليقرأ القرآن ، ثم لم يفعل ذلك وعدل عنه فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة .

همَّ أن يتصدّق وعين المال الذى يُريد أن يتصدق به ثم أمسك ولم يتصدّق فيكتب له بذلك حسنة كاملة . همَّ أن يُصلِّى ركعتين فأمسك ولم يُصلّ فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة .

فإن قال قائل : كيف يُكتب له حسنة وهو لم يفعلها ؟

فالجواب على ذلك : أن يقال إن فضل الله واسع ، هذا الهم الذى حدث منه يعتبر حسنة لأن القلب همام إما بخير أو بشر ، فإذا همَّ بالخير فهذه حسنة تكتب له فإن عملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

وهذا التَّفاوت مبنى على الإخلاص والمتابعة فكلما كان الإنسان فى عبادته أخلص لله كان أجره أكثر وكلما كان الإنسان أتبع فى عبادته للرسول ـ ﷺ ـ كانت عبادته أكمل وثوابه أكثر .

وأما السيئة فقال : « وإن همَّ بسيئة فلَم يعملها كتبها الله حسنة كاملة » كرجل همَّ أن يسرق ولكن ذكر الله عز وجل فأدركه خوف الله فترك السرقة ، فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة لأنه ترك فعل المعصية لله فأثيب على ذلك كما جاء ذلك مفسراً فى لفظ آخر : «لأنه تركها من جرَّاى » أى من أجلى .

Marfat.com

فإن عمل السيئة كتبت سيئة واحدة فقط لا تزيد لقوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠] .

وهذا الحديث فيه : دليل على اعتبار النِّية وأن النِّية قد توصل صاحبها إلى الخير.

وسبق لنا أن الإنسان إذا نوى الشَّر وعمل العمل الذى يوصل إلى الشَّر ولكنه عجز عنه فإنه يكتب عليه إثم الفاعل كما سبق فيمن التقيا بسيفيهما من المسلمين : « إذا التقى المُسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتُولُ فى النَّار . قالوا : يا رَسولَ الله ، هذا القاتِلُ فما بالُ المقتُول ؟ قال : لأنَّه كان حريصًا على قتل صاحبه » والله الموفقُ.

❊ ❊ ❊

[١٢] وعن أبى عبد الرحمن عَبْد اللّه بْن عُمَرَ بْن الْخَطَّاب ، رضى اللّه عنهما قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « انطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفَر ممَّنْ كَانَ قَبْلَكُم حتَّى آوَاهُمُ المَبيتُ إلى غَارٍ فَدَخَلُوه ، فَانْحدَرَتْ صَخْرَةٌ منَ الجَبَلِ فَسدَّتْ عَلَيْهِمُ الغَارَ ؛ فَقَالُوا : إنَّهُ لا يُنْجيكُمْ منْ هذه الصَّخْرَة إلا أنْ تَدْعُوا اللّهَ بِصَالِحِ أعْمَالِكُمْ .

قال رجلٌ منهُمْ : اللَّهُمَّ كَانَ لى أبَوَان شَيْخَان كَبِيرَان ، وكُنْتُ لا أغْبقُ قَبْلَهُما أهْلاً ولا مالاً ، فَنأى بى طَلَب الشَّجَرِ يَوْماً فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوجَدْتُهُمَا نَائمَيْن فَكَرِهْتُ أنْ أوقظَهُمَا وأنْ أغْبقَ قَبْلَهما أَهْـلاً أو مَـالاً ، فَلَبثْتُ ــ والقَدَحُ عَلَى يَدى ــ أنْتَظرُ اسْتيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرقَ الفَجْرُ والصِّبْيَةُ يَتَضاغَوْنَ عنْدَ قَدَمى ، فاسْتَيْقَظَا فَشَربَا غَبُوقَهُما ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ ابْتغاءَ وَجْهكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيه مِنْ هذه الصَّخْرَة ، فَانْفَرجَتْ شَيْئاً لا يَسْتَطيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهُ .

قال الآخر : اللَّهُمَّ إنَّهُ كَانَتْ لى ابْنَةُ عَمٍّ كَانَتْ أحَبَّ النَّاس إلَيَّ » وفى رواية: « كُنْتُ أُحِبُّهَا كأشد مَا يُحبُّ الرِّجَالُ النساءَ ، فأرَدْتُها عَلَى نَفْسهَا فَامْتَنَعت منّى حتَّى ألَمَّتْ بها سَنَةٌ منَ السنين فَجَاءَتْنى فَأعطَيْتُهَا عشرينَ وَمائَةَ دينار عَلَى أنْ تُخلّىَ بَيْنى وبَيْنَ نَفْسهَا فَفَعلَتْ ، حَتَّى إذَا قَدرْتُ عَلَيْهَا » وفى رواية : « فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رجلَيْهَا ، قَالَتْ : اتّقِ اللّه ولا تَفُضَّ الخَاتمَ إلا بحقه ، فانصرَفْتُ عَنْهَا وَهِىَ أحَبُّ النَّاس إلَيَّ وتَركْتُ الذَّهَبَ الَّذى أعطَيْتُهَا ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعلتُ ذلكَ ابْتغَاءَ وَجْهكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فيه ، فانفرجَت الصَّخـرَةُ غَيْرَ أنَّهُمْ لا يَسْتَطيعُونَ الخُـرُوجَ منهَا .

[١٢] صحيح :رواه البخارى (٤/ ٢٢١٥) ، ومسلم (٢٧٤٣) .

Marfat.com

وَقَالَ الثَّالثُ : اللَّهُمَّ استَأجَرتُ أُجرَاءَ وَأَعطَيْتُهم أجرَهُمْ غَيْرَ رَجلٍ واحد تَرَكَ الّذى لَهُ وَذَهَبَ ، فَثَمَّرتُ أَجْرَه حَتَّى كَثُرَتْ منْهُ الأمْوَالُ ، فَجَاءَنى بَعْدَ حين فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللّه ، أدّ إلَيَّ أجْرِى ، فَقلْتُ : كلُّ مَا تَرى منْ أجْرِكَ : منَ الإبلِ وَالبَقرِ والغَنَمِ وَالرَّقيق ، فَقَالَ : يا عَبْدَ اللّه ، لا تَسْتَهزِئْ بى ! فقُلْتُ : لا أَسْتَهْزِئُ بك ، فَأَخذَهُ كُلَّهُ فاستَاقَهُ فَلَمْ يَترُكَ منْهُ شيْئاً ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلكَ ابْتغاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نحن فيه، فَانفَرجت الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ » متفقٌ عَلَيْه .

الشرح

قوله : « انطلق ثلاثة نفر » أى ثلاثة رجال .

« فآواهم المبيت فدخلوا فى غار » يعنى ليبيتوا فيه ، والغار هو ما يكون فى الجبل مما يدخله النَّاس يبيتون فيه أو يَتظلّلون فيه عن الشمس وما أشبه ذلك . فهم دخلوا حين آواهم المبيت إلى هذا الغار فتدحرجت عليهم صخرة من الجبل حتى سدَّت عليهم باب الغار، ولم يستطيعوا أن يزحزحوها لأنها صخرة كبيرة . فرأوا أن يتوسَّلوا إلى الله تعالى بصالح أعمالهم .

فذكر أحدهم برَّه التَّام بوالديه ،وذكر الثانى عفَّته التَّامة،وذكر الثالث روعه ونُصحه .

أمَّا الأول : يقول إنه كان له أبوان شيخان كبيران : « وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً » الأهل مثل الزوجة والأولاد والمال مثل الأرقاء وشبهه .

وكان له غنم يَسرحُ فيها ثم يرجع فى آخر النهار ويحلب الغنم ويعطى أبويه الشَّيخين الكبيرين ثم يُعطى بقية أهله ومَاله .

يقول: « فنأى به طلبُ الشجر ذات يوم » أى أبعد بى طلب الشجر الذى يرعاه. فرجع فوجد أبويه قد ناما ، فنظر هل يسقى أهله وماله قبل أبويه أو ينتظر حتى يستيقظ الأبوان ، فرجَّح الثانى يعنى أنَّه بقى فأمسك الإناء بيده حتى برق الفجر ، أى: حتى طلع الفجر وهو ينتظر أبويه فلما استيقظا وشربا اللبن أسقى أهله وماله .

قال : « اللَّهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وَجْهكَ ففرِّج عنا ما نحن فيه » والمعنى إنّ كنتُ مخلصًا فى عملى هذا فعلتُه من أجلك ففرج عنا ما نحن فيه .

وفى هذا : دليل على الإخلاص لله عز وجل فى العمل . وأن الإخلاص عليه مدار

Marfat.com

كبير فى قبول العمل ، فتقبلَّ الله منه هذه الوسيلة وانفرجت الصخرة لكن انفراجًا لا يستطيعون الخروج منه .

الثانى توسل إلى الله عزَّ وجلَّ بالعفَّة التَّامة : وذلك أنَّه كان له ابنة عم وكان يحبها حبًا شديدًا كأشد ما يحب الرِّجال النساء « **فأرادها عن نفسها** » أى : بالزِّنى ليزنى بها ولكنها لم توافق وأبت ، فألمت بها سنة من السنين ، أى : أصابها فقر وحاجة فاضطرت إلى أن تجود بنفسها فى الزنى من أجل الضرورة وهذا لا يجوز ، ولكن هذا الذى حصل فجاءت إليه فأعطاها مائة وعشرين دينارًا أى : مائة وعشرين جنيهًا من أجل أن تمكنه من نفسها .

ففعلت من أجل الحاجة والضرورة ، فلمَّا جلس منها الرجل مجلس الرجل من امرأته على أن يريد أن يفعل بها قالت له هذه الكلمة العجيبة العظيمة : « **اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه** » .

فخوَّفته بالله عز وجل وأشارت إليه إلا أنَّه إن أراد هذا بالحق فلا مانع عندها لكن كونه يفض الخاتم بغير حق ، هى لا تريده ، ترى أن هذا من المعاصى ، ولهذا قالت له : اتق الله ، فلما قالت له هذه الكلمة التى خرجت من أعماق قلبها دخلت فى أعماق قلبه وقام عنها وهى أحب الناس إليه ، يعنى ما زالت رغبته عنها ولا كرهها بل حبُّها باقٍ فى قلبه ، لكن أدركه خوف الله عز وجل فقام عنها وترك لها الذهب الذى أعطاها مائة وعشرين دينارًا ، ثم قال : « اللَّهمَّ إن كنت فَعَلْتُ هذا لأجلك فافرج عنَّا ما نحن فيه فانفرجت الصخرةُ إلا أنهم لا يستطيعون الخروج » وهذا من آيات الله لأن الله على كل شىء قدير ، لو شاء الله تعالى لانفرجت عنهم لأول مرة .

ولكنه سبحانه وتعالى أراد أن يبقى هذه الصخرة حتى يتم لكل واحد منهم ما أراد أن يتوسل به من صالح الأعمال .

أما الثَّالث فتوسل إلى الله عز وجل بالأمانة والإصلاح والإخلاص فى العمل فإنه يذكر أنه استأجر إجراء ، على عمل من الأعمال فأعطاهم أجورهم إلا رجلاً واحدًا ترك أجره فلم يأخذه ، فقام هذا المستأجر فثمَّر المال فصار يتكسَّب به بالبيع والشراء وغير ذلك حتى نما وصار منه إبل وبقر وغنم ورقيق وأموال عظيمة .

فجاءه بعد حين فقال له : **يا عبد الله أعطنى أجرى** . فقال له : كل ما ترى فهو لك

Marfat.com

من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : لا تستهزئ بى ، الأجرة التى لى عندك قليلة كيف لى كل ما أرى من الإبل والبقر والغنم لا تستهزئ بى . « فقلت : هو لك فأخذه واستاقه كله ولم يترك له شيئًا . اللَّهمَّ إن كنتُ فعلتُ ذلكَ من أجلِكَ فافرُج عنَّا ما نَحْنُ فيهِ فانفرجت الصخرة وانفتح الباب فخرجوا يمشون » لأنهم توسلوا إلى الله بصالح أعمالهم التى فعلوها إخلاصًا لله عز وجل .

في هذا الحديث من الفوائد والعبر : فضيلة بر الوالدين وأنه من الأعمال الصالحة التى يفرج بها الكربات ويزيل بها الظلمات .

فضيلة العفة عن الزِّنى وأن الإنسان إذا عفَّ عن الزِّنى مع قدرته عليه فإن ذلك من أفضل الأعمال وقد ثبت عن النبى - ﷺ - أن هذا من السبعة الذين يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رجـل دعته امـرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله »[1] .

فهذا الرجل مكَّنته هذه المرأة التى يحبها من نفسها فقام خوفًا من الله عز وجل فحصل عنده كمال العفة فيرجى أن يكون مِمَّن يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وفي هذا الحديث : دليل على فضل الأمانة وإصلاح العمل للغير فإن هذا الرجل بإمكانه لما جاءه الأجير أن يعطيه أجره ويبقى هذا المال له ، ولكن لأمانته وثِقته وإخلاصه لأخيه ونُصحه له أعطاه كل ما أثمر أجره .

ومن فوائد هذا الحديث : بيان قدرة الله عز وجل حيث إنه تعالى أزال عنهم الصخرة بإذنه لم تأت سيارة تزيلها ولم يأت رجال يزحزحونها وإنما هو أمر الله عز على كل شىء قدير .

وفيه من العبر : أن الله سميع الدُّعاء فإنه سَمع دعاء هؤلاء واستجاب لهم .

وفيه من العبر : أن الإخلاص من أسباب تفريج الكربات لأن كل واحد منهم يقول : « اللَّهُمَّ إن كُنت فَعلتُ ذلك من أجلك فافرج عنَّا ما نحن فيه » .

أما الرياء والعياذ بالله والذى لا يعمل الأعمال إلا رياءً وسُمعة حتى يُمدح عند الناس فإن هذا كالزَّبد يذهب جفاءً لا ينتفع منه صاحبه نسأل الله أن يَرزقنا وإيَّاكم الإخلاص له .

---

(1) صحيح : رواه البخارى (١٤٢٣) مسلم (١٠٣١) (٦٦٠) .

Marfat.com

الإخلاص هو كل شيء . لا تجعل نصيبًا من عبادتك لأحد، اجعلها كلها لله عز وجل حتى تكون مقبولة عند الله لأنه ثبت عن النبى - ﷺ - فيما يرويه عن الله أنه قال : « أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك مَنْ عمل عَمَلاً أشركَ فيه معى غيرى تركته وشركه» والله الموفق [١] .

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) .

Marfat.com

٢ ـ باب التوبة

قال العلماءُ : التَّوْبَةُ واجبَةٌ منْ كُلِّ ذَنْب ، فَإنْ كَانت المَعْصِيةُ بَيْن العَبْد وبَيْنَ اللّهِ تعالى لا تَتعلّقُ بحَقِّ آدمىّ ؛ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط :

أحَدُها : أنْ يُقْلِعَ عَن المَعْصِيَة .

والثانى : أنْ يَنْدَمَ على فِعْلِهَا .

والثالثُ : أنْ يَعْزِمَ أنْ لا يَعُودَ إلَيْهَا أبداً . فَإنْ فُقِدَ أحَدُ الثَّلاثَة لَمْ تصح تَوْبَتُهُ .

وإنْ كَانَت المَعْصيَةُ تَتَعلّقُ بآدَميّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ : هذه الثَّلاثَةُ ، وأنْ يَبْرأَ منْ حَقِّ صَاحبِهَا ؛ فَإنْ كَانَتْ مالاً أو نَحْوَهُ رَدَّهُ إلَيْه ، وإنْ كانتْ حَدَّ قَذْف ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ منْه أو طَلَبَ عَفْوَهُ ، وإنْ كَانَتْ غيبَةً اسْتَحَلَّهُ منْهَا ؛ ويَجبُ أنْ يَتُوبَ منْ جَميع الذُنُوب، فَإنْ تابَ منْ بَعْضها صَحَّتْ تَوْبَتُهُ عنْدَ أهْل الحَقِّ منْ ذلكَ الذَّنْب ، وبَقى عَلَى البَاقى . وقد تَظَاهَرَتْ دَلائلُ الكتاب ، والسُّنَّة ، وإجْمَاعُ الأمَّة عَلَى وجُوب التَّوْبَة :

قال الله تعالى : ﴿وتُوبُوا إلى اللَّه جَميعًا أَيُّها الْمُؤْمنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ﴾ [النور : ٣١]، وقال تعالى : ﴿وأَن اسْتَغْفرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْه﴾ [هود : ٣] ، وقال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إلَى اللَّه تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨] .

الشرح

التوبة لغة : من تاب يتوب إذا رجع ، وشرعا : الرجوع من معصية الله تعالى إلى طاعته .

وأعظمها وأوجبها التَّوبة من الكفر إلى الإيمان . قال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨] . ثم يليها التَّوبة من كبائر الذنوب .

ثم المرتبة الثالثة التوبة من صغائر الذنوب.

والواجب على المرء أن يتوب إلى الله سبحانه وتعالى من كل ذنب .

وللتوبة شُروط ثلاثة كما قال المؤلف ـ رحمه الله ـ ، ولكنها بالتتبع تبلغ خمسة:

الشرط الأول : الإخلاص لله ، بأنْ يكون قصد الإنسان بتوبته وجه الله عز وجل وأن

Marfat.com

يتوب الله عليه ، ويتجاوز عما فعل من المعصية . لا يقصد بذلك مُراءاة الناس والتقرب إليهم ، ولا يقصد بذلك دفع الأذية من السُّلطان وولى الأمر .

وإنما يقصد بذلك وجه الله والدَّار الآخرة وأن يعفو الله عن ذنوبه .

الشرط الثانى : النَّدم على ما فعل من المعصية لأن شعور الإنسان بالنَّدم هو الذى يدلُّ على أنَّه صادق فى التوبة ، يعنى بمعنى أن يتحسَّر على ما سبق منه ، وينكسر من أجله ولا يرى أنه فى حِلٍّ منه حتى يتوب منه إلى الله .

الشرط الثالث : أن يقلع عن الذَّنب الذى هو فيه وهذا من أهم شروطه . والإقلاع عن الذَّنب إن كان الذنب ترك واجب فالإقلاع عنه بفعله مثل أن يكون شخص لا يُزكِّى فأراد أن يتوب إلى الله فلابد من أن يخرج الزكاة التى مضت ولم يؤدِّها .

إذا كان الإنسان مقصرًا فى بر الوالدين فإنَّه يجب عليه أن يقوم ببرهما .

إذا كان مقصرًا فى صلة الرَّحم فإنَّه يجب عليه أن يصل الرحم . وإن كانت المعصية بفعل محرَّم فالواجب أن يقْلع عنه فورًا ولا يبقى فيه ولا لحظة .

إذا كان مثلاً من آكلى الرِّبا فالواجب أن يتخلص من الربا بتركه والبُعد عنه وإخراج ما اكتسبه عن طريق الرِّبا .

إذا كان المعصية بالغشِّ والكذب على الناس وخيانة الأمانة ، فالواجب أن يُقلع عن ذلك ، وإذا كان اكتسب مالاً من هذا الطريق المحرم فالواجب عليه أن يَرُدَّه إلى صاحبه أو يستحله منه .

إذا كانت غيبة فالواجب أن يقلع عن غيبة الناس والتكلُّم فى أعراضهم ، أما أنه يقول إنَّه تائب إلى الله وهو مُصِرٌّ على ترك الواجب أو مصرٌّ على فعل المحرَّم ، فإن هذه التوبة غير مقبولة ، بل إن هذه التوبة كالاستهزاء بالله عز وجل ، كيف تتوب إلى الله عز وجل وأنت مُصرٌّ على معصيته ؟!

لو أنك تُعامل بشرًا من الناس ، تقول أنا تبت إليك وأنا نادمٌ لا أعود ثم فى نيتَّك وقلبك أنك ستعود وعُدت ، فإن هذه سُخرية بالرَّجل فكيف بالله رب العالمين؟! فالإنسان التائب حقيقة هو الذى يُقلع عن الذَّنبِ .

من الغريب أن بعض الناس تجلس إليه ، وتجده يتأوَّه من وجود الرِّبا وهو فى نفسه

Marfat.com

يرابى والعياذ بالله !!

أو يتأوه من الغيبة وأكل لحوم الناس وهو من أكثر الناس غيبة نسأل الله العافية !!

أو يتأوه من الكذب وضياع الأمانة عند الناس ، وهو من أكذب النَّاس وأضيعهم للأمانة !!

على كل حال الإنسان لابد أن يُقلع عن الذَّنب الذى تاب منه فإن لم يقلع فتوبته مردودة ولا تنفعه عند الله عز وجل . والإقلاع عن الذَّنب إما أن يكون إقلاعًا عن ذنب يتعلق بحق الله عز وجل فهذا يكفى أن تتوب بينك وبين ربك ولا ينبغى بل قد نقول لا يجوز أن تحدث الناس بما صنعت من المحرم أو ترك الواجب . لأن هذا بينك وبين الله فإذا كان الله قد منَّ عليك بالستر ، وسترك عن العباد فلا تحدث أحدًا بما صنعت إذا تبت إلى الله . وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « كلُّ أمتى مُعَافى إلا المُجاهرين » (١) ومن المجاهرة كما جاء فى الحديث : « أن يفعل الذنب ثم يصبح يُحدِّث به النَّاس يقول فعلت كذا وكذا . . . » (٢) .

إلا أن بعض العلماء قال : إذا فعل الإنسان ذنبًا فيه حَدٌّ فإنه لا بأس أن يذهب إلى الإمام الذى يقيم الحدود مثل الأمير ويقول إنه فعل الذنب الفلانى ويريد أن يُطَهِّره منه ، ومع ذلك فالأفضل أن يستر على نفسه .

يعنى يباح له أن يذهب إلى ولى الأمر إذا فعل معصية فيها حدٌّ كالزِّنى مثلاً فيقول: إنَّه فعل كذا وكذا يطلب إقامة الحد عليه لأن الحد كفَّارة للذَّنب .

أمَّا المعاصى الأخرى فاسترها على نفسك كما سترها الله وكذلك الزنى وشبهه استره على نفسك ـ بالنسبة لغير ولى الأمر ـ لا تفضح نفسك .

ما دمت أنك تبت فيما بينك وبين الله فإن الله يقبل التَّوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

أمَّا إذا كان الذنب بينك وبين الخلق فإن كان مالاً فلابد أن تؤديه إلى صاحبه ولا تقبل التوبة إلا بأدائه . مثل أن تكون سرقت مالاً من شخص وتبت من هذا فلابد أن توصل المسروق إلى المسروق منه .

---

(١) رواه البخارى (٦٠٦٩) مسلم (٢٩٩٠) .

Marfat.com

جحدت حقًا لشخص كأن يكون فى ذمتك دين لإنسان وأنكرته ، ثم تبت فلابد أن تذهب إلى صاحب الدين الذى أنكرته عليه وتقرُّ عنده وتعترف حتى يأخذ حقَّه. فإن كان قد مات فإنك تعطيه ورثته ، فإن لم تعرفه أو غاب عنك هذا الرجل ولـم تعرف له مكانًا فتصدق به عنه تخلصًا منه والله سبحانه وتعالى يعلمه ويؤديه إليه .

أمَّا إذا كانت المعصية التى فعلتها مع البشر ضَرْبًا وما أشبهه فاذهب إليه ومكِّنه من أن يَضرب مثل ما ضربته إن كان على الظَّهر فعلى الظهر ، وإن كان على الرأس فعلى الرَّأس أو فى أى مكان ضربته فليقتص منك لقول الله سبحانه : [illegible] [الشورى : ٤٠] .لقوله ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل [illegible] [البقرة: ١٩٤] .

وإن كان بقول أى أذيَّة بالقول ، مثل أن تكون قد سببته بين الناس ووبَّخته وعيَّرته فلابد أن تذهب إليه وتستحل منه بما تتفقان عليه . حتى لو قال لا أسمح لك إلا بكذا وكذا من الدراهم فأعطه .

الرابع : أن يكون الحق غيبة ، يعنى أنك تكلمت فيه فى غيبته وقدحت فيه عند الناس وهو غائب .

فهذه اختلف فيها العلماء فمنهم من قال : لابد أن تذهب إليه تقول له : يا فلان إنى تكلمت فيك عند الناس فأرجوك أن تسمح عنى وتحللنى . وقال بعض العلماء : لا تذهب إليه بل فيه تفصيل : إن كان قد علم بهذه الغيبة فلابد أن تذهب إليه وتستحله ، وإن لم يكن علم فلا تذهب إليه واستغفر له وتحدث بمحاسنه فى المجالس التى كنت تغتابه فيها فإنَّ الحسنات يذهبن السيئات وهذا القول أصحّ وهو أن الغيبة إذا كان صاحبها لا يعلم بأنك اغتبته فإنه يكفى أن تذكره بمحاسنه فى المجالس التى اغتبته فيها وأن تستغفر له تقول: « اللَّهمَّ اغفر له » كما جاء فى الحديث : « كفارة من اغتبته أن تستغفر له » [١] . فلابد فى التوبة من أن تصل الحقوق إلى أهلها .

أما الشرط الرابع : فهو العزم على ألا تعود فى المستقبل إلى هذا العمل ، فإن كنت تنوى أن تعود إليه عندما تسمح لك الفرصة فإن التوبة لا تصحُّ مثل : رجل كان والعياذ بالله يستعين بالمال على معصية الله . يشترى به المسكرات ، يذهب إلى البلدان من أجل الزِّنى والعياذ بالله والسُّكر ! فاصيب بفقر وقال : اللَّهم إنِّى تبت إليك ، وهو كاذب ، وهو فى نيته أنه إذا عادت الأمور إلى مجاريها الأولى فعل فعله الأوَّل.

[١] انظر كشف الخفاء (٢/ ١٤٥) والموضوعات (٣/ ١١٩) .

Marfat.com

فهذه توبة عاجز ، تُبْتَ أم لم تتب لست بقادر على فعل المعصية لأنه يوجد بعض الناس يصاب بفقر فيقول : تركت الذنوب ، لكن يُحدِّث قلبه أنَّه لو عاد إليه ما افتقده لعاد إلى المعصية مرة ثانية فهذه توبة غير مقبولة .

الشرط الخامس : أن تكون فى زمن تقبل فيه التَّوبة فإن تاب فى زمن لا تقبل فيه التوبة لم تنفعه التوبة . وذلك على نوعين :

النوع الأول : باعتبار كل إنسان بحسبه .

والنوع الثانى : باعتبار العموم .

أما الأول : فلابد أن تكون التوبة قبل حلول الأجل يعنى الموت ، فإن كانت بعد حلول الأجل فإنها لا تنفع التائب لقول الله سبحانه : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ [النساء :١٨] هؤلاء ليس لهم توبة!

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] .

فالإنسان إذا عاين الموت وحضره الأجل فهذا يعنى أنه أيس من الحياة فتكون توبته فى غير محلها ! بعد أن يئس من الحياة وعرف أنه لا بقاء له يذهب فيتوب ! هذه توبة اضطرار فلا تنفعه ولا تقبل منه لابد أن تكون التوبة سابقة.

النوع الثانى :وهو العموم فإن الرَّسولَ عليه الصلاة والسلام أخبر بأن : « **الهجرة لا تنقطع حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١) .

فإذا طلعت الشمس من مغربها لم تنفع أحداً توبة . قال الله سبحانه : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] . وهذا البعض هو طلوع الشمس من مغربها كما فسَّر ذلك النبى عليه الصلاة والسلام .

إذًا فلابد أن تكون التوبة فى وقت تقبل فيه التوبة فإن لم تكن كذلك فلا توبة للإنسان . ثم اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره أو لا ؟ فى هذا ثلاثة أقوال لأهل العلم :

---

(١) سبق تخريجه ص٢٥ .

Marfat.com

١ ـ منهم من قال : إنها تصحُّ التوبة من الذنب وإن كان مصرًّا على ذنب آخر، فتقبل توبته من هذا الذنب ويبقى الإثم عليه فى الذنب الآخر بكل حال .

٢ ـ ومنهم من قال : لا تقبل التوبة من الذنب مع الإصرار على ذنب آخر .

٣ ـ ومنهم من فصَّل فقال : إن كان الذنب الذى أصر عليه من جنس الذنب الذى تاب منه فإنها لا تُقبل ، وإلا قُبِلت .

مثال ذلك : رجل تاب من الرِّبا ولكنه يَزنى والعياذ بالله أو يشرب الخمر ولنقل إنه يشرب الخمر ، تاب من الربا ولكنه مصر على شرب الخمر .

فهناك من العلماء من قال إن توبته من الربا لا تقبل ، كيف يكون تائبًا إلى اللهوهو مُصِرٌ على معصيته !

وقال بعض العلماء : بل تقبل لأن الربا شىء وشرب الخمر شىء آخر وهذا هو الذى مشى عليه المؤلف ـ رحمه الله ـ وقال : إنها تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره عند أهل الحق .

فهذا فيه الخلاف أما إذا كان من الجنس مثل أن يكون الإنسان والعياذ بالله مُبتلى بالزِّنى ومبتلى بالاطلاع على النساء والنظر إليهن بشهوة وما أشبه ذلك ، فهل تقبل توبته من الزِّنى وهو مُصِرٌ على النظر إلى النساء لشهوة أو بالعكس ؟

هذا فيه أيضًا خلاف فمنهم من يقول : تَصِحُّ ومنهم من يقول لا تصح التَّوبة.

ولكن الصحيح فى هذه المسألة أن التوبة تَصِحُّ من كل ذنب مع الإصرار على غيره لكن لا يُعطى الإنسان اسم التائب على سبيل الإطلاق ولا يستحق المدح الذى يُمدح به التائبون لأن هذا لم يَتُب توبة تامّة بل توبة ناقصة .

تاب من هذا الذَّنب فيرتفع عنه إثمه ، لكنه لا يستحق أن يُوصف بالتوبة على سبيل الإطلاق . فهذا هو القول الذى تطمئن إليه النفس أنه لا يعطى الوصف على سبيل الإطلاق ولا يحرم من التوبة التى تابها من هذا الذنب .

سبق أن المؤلف ـ رحمه الله ـ قال : إن النصوص من الكتاب والسنة تظاهرت وتضافرت على وجوب التوبة من جميع المعاصى وصدق ـ رحمه الله ـ فإن الآيات كثيرة فى الحث على التوبة وبيان فضلها وأجرها وكذلك الأحاديث عن النبى ـ ﷺ ـ .

وقد بيَّن الله فى كتابه أنه سبحانه يحب التَّوابين ويحب التَّوابين ويحب المتطهرين، التوابون الذين يكثرون التوبة إلى الله عز وجل كلما أذنبوا ذنبًا تابوا إلى الله .

Marfat.com

ذكر المؤلف من الآيات قول الله تعالى : ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور : ٣١] . هذه الجملة ختم الله بها آيتى وجوب غض البصر .

وهى قوله : ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون (٣٠) وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ إلى قوله : ﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور : ٣٠ ـ ٣١] .

ففى هذه الآية : دليل على وجوب التوبة من عدم غض البصر وحفظ الفرج لأن غض البصر قصره وعدم إطلاقه ولأن ترك غض البصر وحفظ الفرج كل ذلك من أسباب الهلاك وأسباب الشقاء وأسباب البلاء وقد ثبت عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال: « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء »[1] ، « وإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء »[2] .

ولهذا كان أعداؤنا أعداء الإسلام بل أعداء الله ورسوله من اليهود والنصارى والمشركين والشيوعيين وأشباههم وأذنابهم وأتباعهم كل هؤلاء يحرصون غاية الحرص على أن يفتنوا المسلمين بالنساء ، يدعون إلى التبرج يدعون إلى اختلاط المرأة بالرجل يدعون إلى التفسخ فى الأخلاق ، يدعون إلى ذلك بألسنتهم وأقلامهم وأعمالهم والعياذ بالله . لأنهم يعلمون أن الفتنة العظيمة التى ينسى بها الإنسان ربه ودينه إنما تكون فى النساء .

النساء اللاتى يفتن أصحاب العقول كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهبَ للُبِّ الرَّجُلِ الحازم من إحداكن »[3] .

هل تريد شيئًا أبين من هذا .

أذهب للُبِّ الرَّجل الحازم ! فما بالك بالمهين الذى ليس عنده حزمٌ ولا عزمٌ ولا دينٌ ولا رُجولة يكون أشد وأشد والعياذ بالله .

لكن الرجل الحازم تُذهب النساء عقله الله العافية وهذا هو الواقع ، لذلك قال الله عقب الأمر بغض البصر : ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ [النور : ٣١] فيجب علينا أن نتواصى بالتوبة، وأن يتفقد بعضنا بعضًا هل الإنسان تاب من ذنبه ، أو بقى مُصرًا عليه لأنه وجه الخطاب للجميع : ﴿وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون﴾ [

(١) البخارى (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤١) .

(٢) مسلم (٢٧٤٢) .

(٣) البخارى (٣٠٤) .

Marfat.com

النور : ٣١] . وفى قوله : ﴿لعلكم تفلحون﴾ دليل على أن التوبة من أسباب الفلاح ، والفلاح كما قال أهل العلم بالتفسير وباللغة أنها كلمة جامعة يَحصل بها المطلوب ويزول بها المرهوب .

وكل إنسان يطلب خير الدُّنيا والآخرة ، حتى الكافر يريد الخير ، لكن من الناس من يُوَفَّقُ ومنهم من لا يُوفق .

الكافر يريد الخير لكنه يريد خير الدُّنيا لأنه رجل بهيمى هو شرُّ الدواب عند الله : ﴿إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عندَ اللهِ الَّذين كفَروا فهُمْ لا يُؤْمنون﴾ [الأنفال : ٥٥] . شر من كل دابة تدبُّ على الأرض الكافر ، ومع ذلك يريد الخير والرَّفاهية والتَّنعمُ بهذه الدنيا لكنها ـ أى الدُّنيا ـ جنَّته والآخرة والعياذ بالله عذابه وناره .

المهم أن كل إنسان يُريد الفلاح لكن حسب الهمَّة .

من أسباب الفلاح التَّوبة إلى الله عز وجل كما فى الآية . والله الموفق .

[١٣] وعَنْ أبى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه قال : **سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : «والله إنِّى لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه فى اليَوْمِ أكْثَر مِنْ سَبْعين مَرَّةً»** رواه البخارى .

[١٤] وعَن الأغر بـن يَسَار المُزَنىّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« يأَيُّها النَّاسُ تُوبُوا إلى اللهِ واسْتَغْفِرُوهُ فَإنِّى أتُوبُ فى اليَوْمِ مائَةَ مَرَّةٍ »** رواه مسلم .

الشرح

تقدم الكلام على ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ من وجوب التَّوبة وشروطها وما ساقه من الآيات الدالة على وجوبها .

وهذان الحديثان ذكرهما المؤلف ـ رحمه الله ـ ليستدل على ذلك بالسنة .

لأنه كلما تضافرت الأدلة على شىء قوى وصار أوكد وصار أوجب فذكر حديث أبِى هريرة رضي الله عنه عن النبى ـ ﷺ ـ أنَّه أقسم بأنه يستغفر الله ويتوب إليه أكثر من سبعين مرة .

هذا وهو الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام الذى غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر .

---

[١٣] صحيح : رواه البخارى (١١/٦٣٠٧) .

[١٤] صحيح : رواه مسلم (٢٧٠٢) وليس فيه « واستغفروه » وأحمد نحوه (٤/٢٦١).

Marfat.com

وفى حديث الأغر بن يسار المزنى أنه - ﷺ - قال : « **يا أيها النَّاسُ توبوا إلى الله واستغفروه فإنِّى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة** » .

ففى هذين الحديثين : دليلٌ على وجوب التَّوبة لأن النبى - ﷺ - أمر بها فقال: « **يا أيها الناس توبوا إلى الله** » فإذا تاب الإنسان إلى ربه حَصَّل بذلك فائدتين :

الفائدة الأولى : امتثال أمر الله ورسوله وفى امتثال أمر الله ورسوله كل خير . فعلى امتثال أمر الله ورسوله تدور السعادة فى الدنيا والآخرة .

والفائدة الثانية : الاقتداء برسول الله - ﷺ - حيث كان - ﷺ - يتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة يعنى يقول أتوب إلى الله أتوب إلى الله إلخ .

والتوبة لابد فيها من صدق بحيث إذا تاب الإنسان إلى الله أقلع عن الذنب ، أما الإنسان الذى يتوب بلسانه وقلبه منطو على فعل المعصية أو على ترك الواجب أو يتوب إلى الله بلسانه وجوارحه مُصِرَّةً على فعل المعصية فإن توبته لا تنفعه بل إنها أشبه ما تكون بالاستهزاء بالله عز وجل !

كيف تقول أتوب إلى الله من معصية وأنت مُصِرٌّ عليها أو تقول أتوب إلى الله من معصية وأنت عازم على فعلها !

الإنسان لو عامل بشرًا مثله بهذه المعاملة لقال هذا يسخر بى ويستهزىء بى ، كيف يتنصل من أمر عندى وهو مُتلبس به ما هذا إلا هزؤ ولَعِب ، فكيف بربٍّ العالمين !

إنَّ من الناس من يقول إنه تائب من الربا ولكنه والعياذ بالله مُصِر عليه !! يمارس الربا صريحًا ويمارس الربا مخادعة وقد مرَّ بنا كثيرًا أن الذى يمارس الربا بالمخادعة أعظم إثمًا وجرمًا من الذى يمارس الربا بالصراحة . لأن الذى يمارس الربا بالمخادعة جَنَى على نفسه مرتين :

أولاً : الوقوع فى الرِّبا .

وثانيًا : مخادعة الله عز وجل وكأنَّ الله لا يعلم . وهذا يوجد كثيرًا فى الناس اليوم الذين يتعاملون فى الرِّبا صريحًا أمرهم واضح لكن من الناس من يتعامل فى الرِّبا خيانة ومخادعة . تجد عنده أموالاً لها سنوات عديدة فى دكان فيأتى الغنى بشخص فقير يقوده للمذبحة والعياذ بالله !!

فيأتى إلى صاحب الدكان الذى عنده هذه البضاعة ويبيعها على الفقير بالدَّين بيعًا صوريًا ، وكلٌّ يعلم أن ليس بيعًا حقيقيًا لأن هذا المشترى المدين لا يقبله ولا ينظر إليه ولا يهمه بل لو كان أكياسًا من الرمل وبيعت على أنها رزٌّ أو سكَّر أخذها .

Marfat.com

يهمه أن يقضى حاجة فيبيعها عليه مثلاً بعشرة آلاف لمدة سنة وينصرف بدون أن ينقلها من مكانها ثم يبيعها هذا المدين على صاحب الدكان بتعسة آلاف مثلاً فيؤكل هذا الفقير من وجهين : من جهة هذا الذى دينّه ، ومن جهة صاحب الدكان ويقولون: إن هذا صحيح ، بل يسمونه التصحيح يقول قائلهم : أصحح عليك ، أو أصحح لك كذا وكذا . سبحان الله هل هذا تصحيح ، هذا تلطيخ بالذُّنوب والعياذ بالله !!

ولهذا يجب علينا إذا كنا صادقين مع الله سبحانه وتعالى فى التوبة أن نقلع عن الذنوب والمعاصى إقلاعًا حقيقيًا ونكرهها ونندم على فعلها حتى تكون التوبة توبة نصوحًا .

وفى هذين الحديثين : دليلٌ على أن نبينا محمدًا - ﷺ - أشدُّ الناس عبادة لله وهو كذلك .

فإنه أخشانا لله وأتقانا لله وأعلمنا بالله صلوات الله وسلامه عليه .

وفيه : دليل على أنه عليه الصلاة والسلام مُعلم الخير بلسانه وفعاله .

فكان يستغفر الله ويأمر الناس بالاستغفار حتى يتأسُّوا به امتثالاً للأمر واتِّباعًا للفعل .

وهذا من كمال نُصحه صلوات الله وسلامه عليه لأمته . فينبغى لنا نحن أيضًا أن نتأسَّى به ، إذا أمرنا الناس بأمر أن نكون أول من يمتثل هذا الأمر .

وإذا نهيناهم عن شىء أن نكون أول من ينتهى عنه لأن هذا هو حقيقة الداعى إلى الله بل هذه حقيقة الدعوة إلى الله عز وجل أن تفعل ما تأمر به وتترك ما تنهى عنه كما كان الرسول - ﷺ - يأمرنا بالتوبة وهو عليه الصلاة والسلام يتوب أكثر منا نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم وأن يهدينا وإيَّاكم صراطًا مستقيمًا والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[١٥] وعَنْ أبى حَمْزَةَ أنس بن مالكِ الأنصارىّ خَادِمِ رسول اللَّه - ﷺ - ، رضى اللَّه عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **للَّهُ أفْرحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِه مِنْ أحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعيرِه وقد أضلَّهُ فى أرضٍ فَلاة** » متفق عليه .

وفى رواية لِمُسْلِم : « **للَّهُ أشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِه حِينَ يَتُوبُ إلَيْه مِنْ أحَدِكُمْ كان على رَاحِلَتِه بِأرْضٍ فَلاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وعَلَيْهَا طَعَامُهُ وشَرَابُهُ فأيسَ مِنْهَا ، فَأتَى شَجَرَةً فَاضْطجَعَ**

[١٥] صحيح : رواه البخارى (١١/٦٣٠٩) ، ومسلم (٢٧٤٧) .

Marfat.com

فى ظلهَا ، وقد أيس مِنْ رَاحلَته ، فَبَيْنَمَا هُو كذلكَ إذا هوَ بها قائمةً عنْدَهُ ، فَأخَذَ بِخطَامهَا ثُمَّ قال مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ : اللَّهُمَّ أنْتَ عَبْدِى وأنا ربُّك ، أخطأ مِنْ شَدَّة الفَرَحِ » .

الشرح

قوله ـ رحمه الله ـ : « خادم النبى - ﷺ - » وكان - ؓ - حين قدم النبى - ﷺ - المدينة أتت به أمه إلى رسول الله - ﷺ - وقالت له : هذا أنس بن مالك يخدمك ، فقبل النبى - ﷺ - ذلك وصار أنس من خُدَّام النبى - ﷺ - .

ذكر أنس - ؓ - أن الرسول - ﷺ - قال : « **لله أشدُّ فَرَحًا بتوبة عبده إذا تاب إليه من هذا الرَّجل الذى سقط عن راحلته بعد أن أضلها** » وذكر القصة .

رجل كان بأرض فلاة ليس حوله أحد لا ماء ولا طعام ولا أناس ، ضلَّ بعيره ـ أى ضاع ـ فجعل يطلبه فلم يجده فذهب إلى شجرة ونام تحتها ينتظر الموت ! قد أيس من بعيره وأَيِس من حياته لأن طعامه وشرابه على بَعِير والبعير قد ضاع .

فبينما هو كذلك إذا بناقته عنده قد تعلق خطامها بالشجرة التى هو نائم تحتها ، فبأى شيء تقدِّرون هذا الفرح !

هذا الفرح لا يمكن أن يتصوَّره أحد إلا من وقع فى مثل هذه الحال ! لأنه فرح عظيم ، فرح بالحياة بعد الموت !.

ولهذا أخذ بالخطام فقال : « اللَّهمَّ أنتَ عَبْدى وأنا ربُّك » !! أراد أن يثنى على الله فيقول : اللَّهمَّ أنت ربِّى وأنا عَبْدُك لكن من شدة فرحه أخطأ فقلَبَ القضية .

ففى هذا الحديث : دليلٌ على فرح الله عز وجل بالتَّوبة من عبده إذا تاب إليه وأنَّه يحب ذلك سبحانه وتعالى محبَّةً عظيمة ولكن لا لأجل حاجته إلى أعمالنا وتوبتنا فالله غنِّى عنَّا ولكن لمحبته سبحانه للكرم فإنَّه يحب أن يعفو وأن يغفر أحبُّ إليه من أن ينتقم ويؤاخذ . ولهذا يفرح بتوبة الإنسان .

ففى هذا الحديث : حثٌّ على التَّوبة لأن الله يحبها وهى من مصلحة العبد.

وفيه : إثبات الفرح لله عز وجل ، فهو سبحانه وتعالى يفرح ويغضب ويكره ويُحب لكن هذه الصِّفات ليست كصفاتنا لأن الله يقول : ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ [الشورى : ١١] بل هو فرحٌ يليق بعظمته وجلاله ولا يشبهه فرح المخلوقين ولا يشبه فرح المخلوقين.

وفيه : دليلٌ على أن الإنسان إذا أخطأ فى قول من الأقوال ولو كان كفرًا سبق لسانه

Marfat.com

إليه فإنه لا يؤاخذ به ، فهذا الرجل قال كلمة كفر لأن قول الإنسان لربه أنت عبدى وأنا ربك هذا كفر لا شك فيه .

لكن لما صدر هذا عن خطأ من شدة الفرح صار غير مؤاخذ به ، وكذلك غيرها من الكلمات ، لو سبَّ أحدًا على وجه الخطأ بدون قصد أو طلق زوجته على وجه الخطأ دون القصد أو أعتق عبده على وجه الخطأ بدون قصد ، فكل هذا لا يترتَّب عليه شيء لأن الإنسان لم يقصده فهو كاللغو فى اليمين وقد قال الله تعالى : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥] . بخلاف المستهزيء فإنَّه يكفُر إذا قال كلمة الكفر لقول الله سبحانه : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة : ٦٥ ـ ٦٦] . فالمستهزيء قصد الكلام وقصد معناه لكن على سبيل السُّخرية والهزؤ فلذلك كان كافرًا بخلاف الإنسان الذى لم يقصد فإنَّه لا يعتبر قوله شيئًا .

وهذا من رحمة الله عز وجل والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[١٦] وَعَنْ أبى موسى عبد الله بن قَيسٍ الأشْعَرِىِّ رضى الله عنه عن النَّبىِّ ﷺ قال : « **إن الله تعالى يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسىءُ النَّهَار ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسىءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها** » رواه مسلم .

[١٧] وَعن أبى هريرة رضى الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **مَنْ تَابَ قَبْلَ أنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْه** » رواه مسلم .

[١٨] وعَنْ أبى عَبد الرَّحْمن عَبْد الله بن عُمَرَ بن الخطّاب رضى الله عنهما عن النَّبىِّ ـ ﷺ ـ قال: « **إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِر** » رواه الترمذى وقال: حديث حسنٌ .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة التى ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ كلها تتعلق بالتَّوبة .

---

[١٦] صحيح : رواه مسلم (٢٧٥٩) .

[١٧] صحيح : رواه مسلم (٢٧٠٣) .

[١٨] حسن : رواه الترمذى (٥/٣٥٣٧) ، وحسنه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣٤٣٠) .

Marfat.com

أما حديث أبى موسى فقد قال الرسول- ﷺ - : « **إن الله يَبْسط يَدهُ بالليل ليتُوب مُسيءُ النَّهار ..** » الحديث .

وهذا من كرمه عز وجل أنه يقبل التَّوبة حتى وإن تأخرت ، فإذا أذنب الإنسان ذنبًا فى النهار فإن الله تعالى يقبل توبته ولو تاب باللَّيل .

وكذلك إذا أذنب فى اللَّيل وتاب فى النَّهار فإن الله يقبل توبته بل إن الله يبسط يده حتى يتلقى هذه التوبة التى تصدر من عبده المؤمن ، وفى هذا الحديث دليل على محبة الله سبحانه وتعالى للتوبة وقد سبق فى الحديث السَّابق فى قصة الرجل الذى أضل راحلته حتى وجدها : أن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب إليه أشد فرحًا من هذا براحلته .

وفيه : إثبات اليد لله عز وجل فى حديث أبى موسى وهو كذلك بل له يدان جلَّ وعلا كما قال تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة : ٦٤] . وهذه اليد التى أثبتها الله لنفسه بل اليدان يجب علينا أن نؤمن بهما وأنهما ثابتتان لله .

ولكن لا يجوز أن نتوهم أنها مثل أيدينا لأن الله يقول فى كتابه :﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وهكذا كل ما مر بك من صفات الله فأثبتها الله عز وجل لكن بدون أن تمثلها بصفات المخلوقين ، لأن الله ليس كمثله شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته عز وجل.

وفى هذا الحديث : أن الله سبحانه وتعالى يقبل توبة العبد وإن تأخرت لكن المبادرة بالتوبة هى الواجب لأن الإنسان لا يدرى قد يفجأه الموت فيموت قبل أن يتوب ، فالواجب المبادرة لكن مع ذلك لو تأخرت تاب الله على العبد.

وفى هذا الحديث : أن الشمس إذا طلعت من مغربها ، انتهى قبول التوبة ، ولكن قد يسأل السائل ويقول : هل الشَّمس تطلع من مغربها ؟ المعروف أن الشمس تطلع من المشرق ؟

فنقول : نعم هذا هو المعروف والمطرد منذ خلق الله الشمس إلى يومنا هذا ، لكن فى آخر الزمان يأمر الله الشمس أن ترجع من حيث جاءت فتنعكس الدَّورة !

تدور بالعكس تطلع من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا كلهم حتى الكفار اليهود والنَّصارى والبوذيون والشيوعيون وغيرهم كلهم يؤمنون ، ولكن الذى لم يؤمن قبل أن تطلع الشمس من مغربها لا ينفعه إيمانه .

كلٌّ يتوب أيضًا لكن الذى لم يَتُب قبلَ أن تطلع الشمس من مغربها لا تقبل توبته

Marfat.com

لأن هذه آية يشهدها كل أحد وإذا جاءت الآيات المنذرة لم تنفع التوبة ولم ينفع الإيمان!

أما حديث ابن عمر : « إنَّ الله يَقْبَل تَوْبَة عبده ما لَمْ يُغرغر » أى : ما لم تصل الروح الحلقوم ، فإذا وصلت الروح الحلقوم فلا توبة وقد بينت النصوص الأخرى أنَّه إذا حضر الموت فلا توبة لقوله تعالى : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾[النساء : ١٨] .

فعليك يا أخى المسلم أن تبادر بالتوبة إلى الله من الذنوب وأن تقلع عما كنت متلبسًا به من المعاصى وأن تقوم بما فرطت به من الواجبات وتسأل الله قبول توبتك والله الموفق .

***

[١٩] وَعَنْ زِرِّ بْن حُبَيْشٍ قَالَ : أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّال رضى الله عَنْهُ أَسْأَلُهُ عن المَسْحِ عَلَى الخُفَّيْن فَقَالَ : مَا جَاء بِكَ يَا زِرُّ ؟ فَقُلْتُ : ابْتِغَاء العِلْمِ ، فقال : إنَّ المَلائكةَ تضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بمَا يطْلُبُ ، فَقُلْتُ : إنَّه قَدْ حَكَّ فى صَدْرى المَسْحُ عَلَى الخُفَّيْنِ بعْدَ الغَائط والبوْل ، وكُنتَ امرأ مِنْ أصْحَاب النبى - ﷺ - فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ : هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فى ذَلكَ شيْئاً ؟ قَالَ : نَعَمْ ، كَانَ يَأمرنا إذا كُنَّا سَفْراً - أوْ مُسَافرينَ - أنْ لا نَنْزِعَ خفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ولَيَالِيهنَّ ، إلا من جَنَابة ، لكنْ مِنْ غائط وبَوْل ونَوْم . فَقُلْتُ : هَل سَمِعْتَهُ يَذْكُر فى الهَوَى شيْئاً ؟ قالَ : نَعَمْ كُنَّا مَعَ رسول الله - ﷺ - فى سفَر ، فَبيْنَا نَحنُ عندَهُ إذْ نَادَاه أعْرَابىٌّ بصَوْت لَهُ جَهْوَرىّ : يَا مُحَمَّدُ ، فأجَابَهُ رسولُ الله - ﷺ - نَحْواً مِنْ صَوْته : « هَاؤُمُ » فَقُلْتُ لَهُ : وَيْحَكَ ، اغضُضْ من صَوْتكَ فإنَّكَ عنْد النَّبى - ﷺ - وَقَدْ نُهيتَ عَنْ هذَا ! فقالَ : والله لا أغضُضُ ، قَالَ الأعْرَابىُّ : الْمَرْءُ يُحبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ قالَ النَّبىُّ - ﷺ - : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحبَّ يوْمَ الْقيامَة » فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَاباً من المغْربِ مسيرةُ عَرْضه أوْ يَسيرُ الرَّاكب فى عَرْضه أرْبعينَ أوْ سبْعينَ عاماً . قال سفيان أحدُ الرواة : « قبلَ الشَّام ، خَلَقَهُ الله تعالى يَوْمَ خَلَقَ السَّموات والأرْض مَفْتُوحاً للتَّوبَة لا يُغْلَقُ حَتَّى تَطلُعَ الشَّمْسُ منْهُ » رواه الترمذى وغيره وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذا الحديث من أحاديث التَّوبة التى ساقه المؤلف - رحمه الله - فى بيان متى تنقطع التَّوبة . لكنه يشتمل على فوائد :

---

[١٩] حسن رواه الترمذى (٥/ ٣٥٣٥) ، وحسنه الألبانى فى الإرواء (١٠٤) .

Marfat.com

منها : أن زر بن حبيش أتى إلى صفوان بن عسَّال ـ ﷺ ـ من أجل العلم ، فقال لصفوان بن عسَّال : « إن الملائكة لتضَعُ أجنحتها لِطَالب العِلْم رِضىً بما يَطْلُب» .

وهذه فائدة عظيمة تدلُّ على فضيلة العلم وطلب العلم والمراد به العلم الشرعى، أى علم ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ أما علم الدنيا فللدنيا ، لكن طلب العلم الذى جاء به النبى ـ ﷺ ـ هو الذى فيه الثَّناء والمدح والحث عليه فى القرآن والسنة ، وهو نوع من الجهاد فى سبيل الله ، لأن هذا الدِّين قام بأمرين :

قام بالعلم ، والبيان وبالسِّلاح والسِّنان .

حتى إن بعض العلماء قال : « إن طلب العلم أفضل من الجهاد فى سبيل الله بالسِّلاح » لأن حفظ الشريعة إنما يكون بالعلم والجهاد بالسلاح مبنى على العلم ، لا يسير المجاهد ولا يُقاتل ولا يحجم ولا يقسم الغنيمة ولا يحكم بالأسرى إلا عن طريق العلم ، فالعلم هو كل شىء .

ولهذا قال الله عز وجل : ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة : ١١] . ووضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يطلب واحترامًا له وتعظيمًا له ولا يرد على هذا أن يقول القائل أنا لا أحس بذلك ، لأنَّه إذا صحَّ الخبر عن الرسول ـ ﷺ ـ فإنه كالمشاهد عيانًا .

أرأيت قوله ـ ﷺ ـ : **« الله يَنْزِل من السَّماء الدُّنيا حينَ يَبْقى ثُلُثَ اللَّيل الآخرِ فيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونى فَأَسْتجيبُ لَهُ ، مَن يَسْأَلُنِى فَأُعْطِيهُ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنى فأغْفِرُ لَهُ» (١)**.

نحن لا نسمع هذا الكلام من الله عز وجل لكن لما صحَّ عن نبينا ـ ﷺ ـ صار كأننا نَسْمعه ، ولذلك يجب علينا أن نؤمن بما قال الرَّسول ـ ﷺ ـ وبما صَّح عنه مما يذكر فى أمور الغيب وأن نكون متيقنين لها كأنما نشاهدها بأعيننا ونسمعها بآذاننا .

ثم ذكر زر بن حبيش لصفوان بن عسَّال أنَّه حك فى صدره المسح على الخفين بعد البول أو الغائط .

يعنى أن الله تعالى ذكر فى القرآن قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة : ٦] فيقول : إنه حك فى صدرى أى : صار عندى توقف وشك فى المسح على الخفين بعد البول أو الغائط هل هذا جائز أو لا ؟

فبين له صفوان بن عسَّال ـ ﷺ ـ أن ذلك جائز لأن النبى ـ ﷺ ـ **أمرهم إذا كانوا**

(١) البخارى (١١٤٥) مسلم (٧٥٨) ، (١٣١٤)هـ (١٣٦٦) ٦٣٢١ .

Marfat.com

سفرًا أو مسافرين ألا ينْزعوا خفافهم إلا من جنابة ولكن من غائط وبول ونوم، فدلَّ هذا على جواز المسح على الخفين بل إن المسح على الخفين أفضل إذا كان الإنسان لابسًا لهما.

وقد ثبت فى « الصَّحيحين » من حديث المغيرة بن شعبة ﵁ أنه كان مع الرسول - ﷺ - فى سفر فتوضأ النبى - ﷺ - فأهوى المغيرة لينْزع خفيه فقال : « دَعْهُما فإنِّى أدْخلتُهما طَاهِرتَيْنِ فَمَسَحَ علَيْهما » [1] .

ففى هذا : دَليلٌ واضح على أنَّ الإنسان الذى عليه جوارب أو عليه خفان أن الأفضل أن يمسح عليهما ولا يغسل رجليه .

ومنها : أنه ينبغى إذا أشكل عليه شىء أن يسأل ويبحث عمن هو أعلم بهذا الشىء حتى لا يبقى فى قلبه حرج مما سمع لأن بعض الناس يسمع الشىء من الأحكام الشرعية ويكون فى نفسه حرج ويبقى متشككًا مترددًا لا يسأل أحدًا يزيل عنه هذه الشبهة وهذا خطأ بل الإنسان ينبغى له أن يسأل حتى يصل إلى أمر يطمئن إليه ولا يبقى عنده قلق .

فهذا زر بن حبيش - رحمه الله - سأل صفوان بن عسَّال - ﵁ - عن المسح على الخفين وهل عنده شىء عن رسول الله - ﷺ - فى ذلك فقال : نعم . كان يأمرنا . . الحديث .

فهذا الحديث فيه ثبوت المسح على الخفين وقد تواترت الأحاديث عن الرسول - ﷺ - فى ذلك وأخذ بهذا أهل السنة حتى إن بعض أهل العلم الَّذين صنَّفوا فى كتب العقائد ذكروا المسح على الخفين فى كتاب العقائد وذلك لأن الرَّافضة خالفوا فى ذلك فلم يثبتوا المسح على الخفين وأنكروه والعجب أن ممن روى المسح على الخفين على بن أبى طالب - ﵁ - .

ومع ذلك هم ينكرونه ولا يقولون به فكان المسح على الخفين من شعار أهل السنة ومن الأمور المتواترة عندهم التى ليس عندهم فيها شك عن رسول الله - ﷺ - .

قال الإمام أحمد : « ليس فى قلبى من المسح شك » أو قال : « شىء فيه أربعون حديثًا عن النبى - ﷺ - وأصحابه » ولكن لابد من شروط لجواز المسح على الخفين .

الشَّرط الأول : أن يضعهما على طهارة لأن النبى - ﷺ - قال للمغيرة بن شعبة ﵁ - حينما أراد أن ينْزع خفى النَّبى - ﷺ - قال : « **دَعْهُما فإنِّى أدْخَلتُهما طاهِرتين فمسح**

---

(١) البخارى (٥٧٩٩) مسلم (٢٧٤) .

Marfat.com

عَلَيْهِما »[١] .

ولا فرق بين أن تكون هذه الطَّهارة قد غُسل فيها الرِّجل أو مسح فيها على خف سابق .

فمثلاً : لو توضأ وضوءًا كاملاً وغسل رجليه ثم لبس الجوارب أو الخفين فهنا لبسهما على طهارة .

كذلك لو كان قد لبس جوارب من قبل ومسح عليهما ثم احتاج إلى زيادة جورب ولبسه على الجورب الأول الذى مسحه وهو على طهارة فإنه يمسح على الثانى لكن يكون ابتداء المدة من المسح الأوَّل لا من المسح على الثانى هذا هو القول الصَّحيح : إنه إذا لبس خفًا على خفٍ ممسوح فإنه يمسح على الأعلى لكن يبنى على مدة المسح على الأول .

ولابد أيضًا أن تكون الطَّهارة بالماء فلو لَبِسهما على طهارة تيمم فإنه لا يمسح عليهما مثل رجل مسافر ليس معه ماء فتيمم ولبس الخفين على طهارة تيمم ثم بعد ذلك وجد الماء وأراد أن يتوضأ ففى هذه الحال لابد أن يخلع الخفين ويغسل قدميه عند الوضوء ولا يجوز المسح عليهما فى هذه الحال لأنه لم يلبسهما على طهارة غسل فيها الرجل فإن التيمم يتعلَّق بعضوين فقط وهما الوجه والكفين .

الشَّرط الثانى : أن يكون المسح عليهما فى الحدث الأصغر ولهذا قال صفوان بن عسَّال : « **إلا من جنابة لكن من غائط وبول ونوم** » فإذا صار على الإنسان جنابة فإنَّه لا يجزىء أن يمسح على الجوربين أو الخفين بل لابد من نزعهما وغَسل القدمين وذلك لأن الطهارة الكبرى ليس فيها مسح إلاَّ للضرورة فى الجبيرة ولهذا لا يمسح فيها الرأس.

الشَّرط الثالث : أ ن يكون المسح فى المدة التى حددَّها النبى- ﷺ - وهى يوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام بلياليها للمسافر .

كما صحَّ ذلك أيضًا من حديث على بن أبى طالب - رضي الله عنه - فى صحيح مسلم قال : « جعَل النَّبى- ﷺ - للمُقيم يَوْمًا ولَيْلَة ولِلمُسافر ثلاثة أيَّامٍ بلَيَاليها »[٢] أى : فى المسح على الخفين .

فإذا انتهت المدة فلا مسح ، لابد أن يخلع الجوربين أو الخفين ثم يغسل القدمين ولكن إذا انتهت المدة وأنت على طهارة فاستمر على طهارتك ، لا تنتقض الطهارة ، ولكن إذا أردت أن تتوضأ بعد انتهاء المدة فلابد من غسل القدمين .

---

(١) سبق تخريجه ص٧٩ .

(٢) مسلم (٢٧٦) .

Marfat.com

ثم إن زر بن حبيش سأل صفوان ابن عسال : هل سمع من النبى - ﷺ - يقول فى الهوى شيئًا .

الهوى : المحبة والميل ، فقال : نعم ثم ذكر قصة الأعرابى الذى كان جهورى الصَّوت فجاء ينادى يا محمد بصوت مرتفع .

فقيل : ويْحَك تُنادى رَسُول الله بصوت مُرْتفعٍ والله عز وجل يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات : ٢] .

ولكن الأعراب لا يعرفون الآداب كثيرًا لأنهم بعيدون عن المدن وبَعيدون عن العلم.

فأجابه النبى - ﷺ - بصوت مرتفع كما سأل الأعرابى ، لأن رسول الله - ﷺ - أكمل النَّاس هديًا يُعطى كل إنسان بقدر مَا يتحمله عقله .

فخاطبه بمثل ما خاطب به النبى - ﷺ -، قال له الأعرابىُّ : « المرء يحب القوم ولما يلحق بهم » يعنى يحب القوم ولكن عمله دون عملهم لا يساويهم فى العمل ، مع من يكون أيكون معهم أوْ لا ؟

فقال النبى - ﷺ -: « المَرْءُ مَع مَنْ أحَبَّ يوم القيامة » .

الحمد لله ! نعمة عظيمة وقد روى أنس بن مالك هذه القطعة من الحديث فى أن الرسول - ﷺ - قال لرجل يحبُّ الله ورسوله : « إنك مَعَ مَنْ أحببت » قال أنس : فأنَا أحبُّ رسول الله - ﷺ - وأبَا بكرٍ وعُمر وأرْجو أن أكون معهم » .

وهكذا أيضًا نحن نُشهد الله عز وجل على محبة رسول الله - ﷺ - وخلفائه الرَّاشدين وأصحابه وأئمة الهدى من بعدهم ونسأل الله أن يجعلنا معهم .

هذه بشرى للإنسان أنَّه إذا أحبَّ قومًا صار معهم وإن قصرَّ به عمله يكون معهم فى الجنة ويجمعه الله معهم فى الحشر ويشربون من حوض الرسول - ﷺ - جميعًا.

وواجب المسلم أن يكره الكفار وأن يعلم أنهم أعداء له مهما أبدوا من الصَّداقة والمودة والمحبة فإنهم لن يتقرَّبوا إليك إلا لمصلحة أنفسهم ومضرتك ، أمَّا أن يتقرَّبوا إليك لمصلحتك فهذا شىء بعيد ، إن كان يمكن أن نجمع بين الماء والنار فيمكن أن نجمع بين محبة الكفار لنا وعداوتهم لنا .

لأن الله تعالى سماهم أعداء قال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[المتحنة : ١] . وقال عز وجل : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيل

Marfat.com

وميكال فإنَّ اللهَ عدوٌّ للكافرين﴾ [البقرة : ٩٨] .

كل كافر فإن الله عدوٌّ له وكل كافر عدو لنا وكل كافر فإنَّه لا يُضْمر لنا إلاَّ الشَّر .

ولهذا يجب عليك أن تكره من قلبك كل كافر مهما كان جنسه ومهما كان تقرُّبه إليك فاعلم أنَّه عدوك . قال تعالى : ﴿يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا لا تَتَّخذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ أَوْلياءَ﴾ [الممتحنة : ١] . إذًا نأخذ من هذه قاعدة أصَّلها النبى عليه الصلاة والسلام ألا وهى : « المرء مَعَ مَنْ أحَبَّ » فعليك يا أخى أن تشدَّ قلبك على محبَّة الله ورسوله وخلفائه الرَّاشدين وأصحابه الكرام وأئمة الهدى من بعدهم لتكون معهم .

نسأل الله أن يحقق لنا ذلك بمنِّه وكَرَمه والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[٢٠] وعَنْ أبى سَعيد بْنِ مالك بْنِ سنَان الْخُدْرِىِّ رضى الله عنه ، أن نَبِيَّ الله ص قال : « كَانَ فيمن كان قَبلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تسْعَةً وتَسعينَ نَفْساً ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَم أهْلِ الأرض، فَدُلَّ على راهب ، فَأَتَاهُ فقال : إنَّهُ قَتَلَ تسْعَةً وتسعين نفساً ، فهل له من تَوْبة ؟ فقالَ : لا ، فَقَتَلَهُ فكَمَّلَ به مائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أعلَم أهلِ الأرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلِ عالم فقالَ: إنَّهُ قَتل مائَةَ نَفْس فَهَلْ لَهُ من تَوْبَة ؟ فقالَ : نَعَم ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَة ؟ انطَلقْ إلَى أرْضِ كَذَا وكَذا ، فَإنَّ بها أُناساً يعْبُدُونَ الله تعالى فَاعبُد الله مَعَهُم ، ولا ترْجعْ إلَى أرْضكَ فَإنَّهَا أرْضُ سُوء ، فانطَلَق حَتَّى إذا نَصفَ الطَّريق أتاهُ المَوْتُ ، فاخْتَصَمَتْ فيه مَلَائكَةُ الرَّحْمة وملائكة العذَاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جَاءَ تَائباً مُقْبلاً بقَلْبه إلى الله تعالى ، وقَالَت مَلائكَة العذَاب : إنهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ ، فأتاهُمْ مَلَكٌ فى صُورة آدَمىّ فَجعَلُوهُ بَيْنَهُمْ ــ أىْ حكَماً ــ فقالَ : قيسُوا ما بَيْنَ الأرْضَيْن فَإلَى أيَّتهما كَانَ أدْنَى فَهُو لَهُ ، فقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أدْنى إلَى الأرْض الَّتى أرَادَ ، فَقَبَضْته مَلائكَةُ الرَّحْمَة » متفق عليه .

وفى رواية فى الصحيح: « فكَانَ إلَى القَرْيَة الصَّالحَة أقْرَبَ بشبْر ، فَجُعلَ منْ أهْلهَا » وفى رواية فى الصحيح: « فَأوْحَى الله تعالَى إلَى هَذه أنْ تَبَاعَدى ، وإلَى هذه أنْ تَقَرَّبى ، وقالَ : قيسُوا مَا بيْنَهُمَا ،فَوَجَدُوهُ إلى هذه أقْربَ بِشبْرٍ فَغُفِرَ لَه » وفى رواية : «فنأى بِصَدْرِه نحوها » .

---

[٢٠] صحيح : رواه البخارى (٦/ ٣٤٧٠) ، ومسلم (٢٧٦٦) .

Marfat.com

الشرح

نقل المؤلف رحمه الله ـ عن أبى سعيد بن مالك بن سنان الخدرى رضى الله تعالى عنه أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **كان فيمن كان قبلكم رَجل قتل تسعة وتسعين نفسًا** » ثم إنه ندم وسأل عن أعلم أهل الأرض يسأله هل له من توبة فدُلَّ على رَجُلٍ ، فإذا هو راهب ـ يعنى عابدًا ـ ولكن لا عِلم عنده ، فلما سأله قال : إنَّه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة ؟

فاستعظم الرَّاهب هذا الذَّنب وقال : ليس لك توبة ! فغضب الرَّجل وانزعج وقتل الرَّاهب فأتم به مائة نفس ، ثم إنه سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رَجُلٍ عالم فقال له إنَّه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ! ومن الذى يَحُول بينه وبين التوبة باب التوبة مفتوح ، ولكن اذهب إلى القرية الفلانية فإن فيها قومًا يعبدون الله ، والأرض التى كان فيه كأنها والله أعلم دار كفر فأمره هذا العالم أن يهاجر بدينه إلى هذه القرية التى يعبد فيها الله عز وجل . فخرج تائبًا نادمًا مهاجرًا بدينه إلى الأرض التى فيها القوم الذين يعبدون الله عز وجل ، وفى منتصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرَّحمة وملائكة العذاب لأن الكافر والعياذ بالله تقبض روحه ملائكة العذاب والمؤمن تقبض روحه ملائكة الرَّحمة فاختصموا ! ملائكة العذاب تقول إنه لم يعمل خيرًا قط أى بعد توبته مَا عمل خيرًا ، وملائكة الرَّحمة تقول إنَّه تاب وجاء نادمًا تائبًا فحصل بينهما خصومة فبعث الله إليهم ملكًا ليحكم بينهم .

فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أقرب فهو له ، أى فهو من أهلها إن كانت أرضِ الكفر أقرب إليه فملائكة العذاب تقبض روحه وإن كان إلى بلد الإيمان أقرب فملائكة الرَّحمة تقبض روحه .

فقاسوا مَا بينهما فإذا البلد التى اتَّجه إليها وهى بلد الإيمان أقرب من البلد التى هاجر منها بنحو شبر ـ مسافة قريبة ـ فقبضته ملائكة الرَّحمة .

ففى هذا دليل على فوائد كثيرة :

منها : أن القاتل له توبة ودليل ذلك فى كتاب الله ، قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] . يعنى ما دون الشرك فإنَّ الله يَغْفِرُه إذا شاء .

وهذا الذى عليْه جُمهور أهل العلم .

وذكر عن عبد الله بن عباس ـ ﷺ ـ أن القاتل ليس له توبة لأن الله يقول : ﴿ ومن

Marfat.com

يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٩٣] .

ولكن ما ذهب إليه الجمهور هو الحق وما روى عن ابن عباس فإنه يمكن أن يُحمل على أنَّه ليس له توبة بالنِّسبة للمقتول وذلك لأن القاتل إذا قتل تعلقَ فيه ثلاثة حقوق.

الحق الأول : لله ، والثانى : للمقتول ، والثالث : لأولياء المقتول .

أما حقُّ الله فلا شك أن الله يغفره بالتَّوبة لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر : ٥٣].

ولقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾[الفرقان : ٦٨ ـ ٧٠] .

وأمَّا حقُّ المقتول فإن توبة القاتل لا تَنفعُه ولا تُؤديه حقَّه لأنه مات ولا يمكن الوصول إلى استحلاله أو التَّبرؤ من دمه فهذا هو الذى يبقى مطالبًا به القاتل ولو تاب وإذا كان يوم القيامة فالله يفْصِلُ بينهم .

وأما حقُّ أولياء المقتول فإنَّها لا تصحُّ توبة القاتل حتى يُسلِّم نفْسه إلى أولياء المقتول ويقر بالقَتلِ ويقول أنا القاتل وأنا بين أيديكم إنْ شئتم اقتلونى وإنْ شئتم خذوا الدِّية وإنْ شئتم اسمحُوا .

❊ ❊ ❊

[٢١]وعَنْ عبد الله بنِ كَعْبِ بنِ مَالكٍ ، وكَانَ قَائدَ كَعْبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ مِنْ بَنِيه حِينَ عمى ، قال:سَمِعْت كَعْبَ بنَ مالك رضى الله عنه يُحَدثُ بُحديثه حين تَخلَّفَ عن رسول الله ـ ﷺ ـفى غزوة تبوك .قَالَ كَعْبٌ :لَمْ أَتخلَّفْ عَنْ رسول اللّه ـ ﷺ ـ فى غَزْوَة غزَاهَا قَطُّ إلا فى غـزْوة تبوك ، غيْرَ أنى قَدْ تَخلَّفْتُ فى غزْوَة بَدْر ، ولَمْ يُعاتبْ أحدٌ تَخلفٌ عنه، إنَّما خرجَ رسول الله ـ ﷺ ـ والمُسْلمُون يريدُون عير قُرَيْشٍ حتَّى جَمعَ الله تعالى بينهم وبين عدُوِّهم على غير ميعَاد ، ولَقَد شَهدْتُ مَعَ رسُول اللهَ ـ ﷺ ـلَيْلَةَ العقَبة حِينَ تواثقنَا عَلَى الإسْلام،وما أُحبُّ أن لِي بِهَا مَشْهَدَ بدرٍ ،وإن كانَتْ بَدْرٌ أذْكَرَ فى النَّاس

---

[٢١] صحيح :رواه البخارى (٧/٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

Marfat.com

منهَا.

وكَانَ من خَبَرِى حين تَخلَّفت عَنْ رسول الله - ﷺ - فى غَزْوَة تَبوك أنى لَمْ أكُنْ قَطُّ أقْوى ولا أيْسَرَ منِّى حين تَخلَّفْتُ عنْهُ فى تلكَ الغَزْوَة ، وَاللّه مَا جمَعْتُ قَبْلَها رَاحلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمعْتُهُمَا فى تلكَ الغزْوة ، ولم يكُنْ رسول الله - ﷺ - يُريدُ غَزْوَةً إلا ورَّى بغَيْرِها حتَّى كَانَتْ تلكَ الغَزْوَةُ ، فَغزَاهَا رسول الله - ﷺ - فى حرّ شَديد ، واَسْتَقْبلَ سفَراً بعيداً وَمفَازاً ، واَسْتقْبلَ عدداً كثيراً ، فَجلَّى للمُسْلمينَ أمْرهُمْ ليتأهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوهمْ فأَخْبَرَهُمْ بوَجْهِهم الَّذى يُريدُ ، وَالْمُسْلمُونَ معَ رسول الله كثيرٌ ولا يَجْمعُهُمْ كتَابٌ حَافظٌ ــ يُريدُ بذلك الديوانَ ــ قال كَعْبٌ : فَقلَّ رَجلٌ يُريدُ أنْ يَتَغَيَّبَ إلا ظَنَّ أنَّ ذَلكَ سَيَخْفَى به مَا لَمْ يَنْزل فيه وَحْىٌ منَ الله ، وَغزَا رسول الله - ﷺ - تلْكَ الغَزْوَةَ حينَ طَابَتْ الثِّمارُ والظِّلالُ فَأنَا إليْهَا أصْغرُ ، فَتجهَّزَ رسول الله - ﷺ - وَالْمُسْلمُونَ معَهُ ، وَطَفقْتُ أغْدُو لكَىْ أتَجهَّزَ معَهُ ، فأرْجعُ ولَمْ أقْضِ شيْئاً ، وَأقُولُ فى نَفْسى: أنَا قَادرٌ علَى ذَلكَ إذَا أرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتمَادَى بى حتَّى اسْتَمرَّ بالنَّاس الْجدُّ ، فأصْبَحَ رسول الله - ﷺ - غَادياً والْمُسْلمُونَ معَهُ ، ولَمْ أقْضِ من جهَازى شيْئاً ، ثم غدَوْتُ فَرجَعْتُ ولَمَ أقْض شيْئاً ، فَلَمْ يزَلْ يتمَادَى بى تَّى أسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغزْوُ ، فهَممْتُ أنْ أرْتحل فَأُدْركَهُمْ ، فَيَا لَيْتنى فَعلْتُ ، ثُمَّ لَمْ يُقدَّرْ ذَلكَ لى ، فَطَفقْتُ إذَا خرَجْتُ فى النَّاس بَعْدَ خُرُوجِ رسول الله - ﷺ - يَحْزُنُنى أنى لاَ أرَى لِي أُسْوَةً ، إلا رَجُلاً مَغموصاً علَيْه فى النِّفَاق ، أوْ رَجُلاً ممَّنْ عذَرَ اللّهُ تعالى منَ الضُّعَفَاء ، ولَمْ يذْكُرنى رسول الله - ﷺ - حتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ، فقالَ وَهُوَ جَالسٌ فى القَومِ بتَبُوكَ: « ما فَعلَ كَعْبُ بْنُ مالك ؟ » فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه، والنظر فى عطفيه ، فقال له معاذبن جَبل رضى الله عنه : بئسَ ما قُلْتَ ! وَاللّه يارسول الله مَا عَلمْنَا عَلَيْه إلا خَيْراً ، فَسكَتَ رسولُ الله - ﷺ . فَبينَا هُوَ عَلَى ذَلكَ رَأى رَجُلاً مُبيضاً يَزُولُ به السَّرابُ ، فقالَ رسولُ الله - ﷺ - : «كُنْ أبَا خَيْثَمَةَ » ، فَإذَا هُوَ أبُو خَيْثمَةَ الأنْصارىُّ وَهُوَ الَّذى تَصدَّقَ بصَاعِ التَّمْرِ حين لَمزَهُ المنَافقُونَ . قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا بَلَغنى أنَّ رسول الله - ﷺ - قَدْ تَوجَّهَ قَافلاً منْ تَبُوك حَضَرَنى بَثّى ، فطَفقْتُ أتذَكَّرُ الكَذبَ وَأقُولُ : بمَ أخْرُجُ منْ سَخَطه غَداً ، وَأسْتَعينُ عَلَى ذَلك بكُل ذى رَأى منْ أهْلى ، فَلَمَّا قيلَ: إنَّ رسول الله - ﷺ - قَدْ

Marfat.com

أظلَّ قادماً زاحَ عنّى البَاطلُ حتّى عرفتُ أنى لَم أنجُ منهُ بشَيء أبداً ، فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله - ﷺ - قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بَدأَ بالْمَسجد فَركَعَ فيه رَكْعَتَيْن ثُمَّ جلَسَ للنَّاس ، فَلَمَّا فعَلَ ذَلك جاءَهُ الْمُخلَّفُون يعْتَذرونَ إلَيْه ويَحْلفُونَ لَهُ وكَانُوا بضْعاً وثَمانينَ رَجُلاً ، فقَبلَ منْهُمْ علانيتهُمْ وبايَعَهُمْ واستَغْفَرَ لَهُمْ ووكل سَرائرَهُمْ إلى الله تعالى .

حَتَّى جئْتُ . فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغضَب ثُمَّ قَالَ: « تعَالَ » ، فَجئْتُ أمشي حتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يديْه ، فقَالَ لي : « مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تكُنْ قَدْ ابْتعْتَ ظَهْرَكَ ! » قَالَ : قُلْتُ : يارسول الله ، إني والله لَوْ جلَسْتُ عنْدَ غيْركَ منْ أهْل الدُّنْيا لَرأيْتُ أني سأخْرُجُ منْ سَخطه بعُذْر ؛ لَقَدْ أُعْطيتُ جدَلاً ، ولَكنِّي والله لقَدْ علَمْتُ لَئنْ حدَّثْتُكَ الْيوْمَ حديث كَذب تَرْضَى به عني لَيُوشكَنَّ اللهُ يُسْخطُكَ عَلَيَّ ، وإنْ حدَّثْتُكَ حَديثَ صدْق تَجدُ عليَّ فيه إنّي لأرْجو فيه عُقْبَى الله عَزَّ وَجَلَّ ، والله ما كان لي من عُذْر، والله مَا كُنْتُ قَطُّ أقْوى ولا أيْسَرَ مني حينَ تَخلَّفْتُ عنْكَ . قالَ : فقالَ رسول الله - ﷺ - : « أمَّا هذا فقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حتَّى يقْضي اللهُ فيكَ » وَسَار رجالٌ منْ بني سَلمة فاتَّبعُوني ، فقَالُوا لي : وَالله ما علمْنَاكَ أذْنَبْتَ ذَنْباً قَبْلَ هذا ، لَقَدْ عجَزْتَ في أنْ لَا تكُونَ اعتذَرْتَ إلَى رسول الله - ﷺ - بمَا اعتَذَرَ إليه الْمُخلَّفُونَ ، فقَدْ كَانَ كافيكَ ذَنْبك استغْفَارُ رسول الله - ﷺ - لَكَ ، قال : فوالله ما زَالُوا يُؤنِّبُونني حتَّى أردْتُ أنْ أرْجعَ إلى رسول الله - ﷺ - فأُكَذّبَ نَفْسي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقيَ هذا مَعي منْ أحَد ؟ قَالُوا : نعَمْ لَقيَهُ مَعكَ رَجُلاَن قَالا مثْلَ مَا قُلْتَ ، وَقيلَ لَهُمَا مثْلُ مَا قيلَ لَكَ ، قالَ: قُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرارَةُ بْنُ الرَّبيع العَمْريُّ ، وهلال بْنُ أُميَّةَ الوَاقفيُّ ؟ قال: فَذكَروا لي رَجُلَيْنِ صَالحَيْن قَدْ شَهدَا بَدْراً فيهمَا أُسْوَةٌ ، قالَ : فَمَضَيْتُ حينَ ذكَروهُمَا لي.

ونَهى رسول الله - ﷺ - عَنْ كَلامنَا أيُّهَا الثلاثَةُ منْ بَيْن منْ تَخلَّفَ عَنْهُ ، قال: فاجْتَنَبنَا النَّاسُ ـ أوْ قالَ : تغَيَّرُوا لَنَا ـ حَتَّى تَنكَّرَتْ لي في نَفْسي الأرْضُ ، فَمَا هيَ بالأرْض الَّتي أعرفُ ، فَلَبثْنَا على ذلك خَمْسينَ لَيْلَةً ، فَأمَّا صَاحبَايَ فَاسْتَكانا وقَعَدَا في بُيُوتهمَا يبْكيَان، وَأمَّا أنا فَكُنْتُ أشَبَّ الْقَوْمِ وأجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أخْرُجُ فَأشْهَدُ

Marfat.com

الصَّلاةَ مَعَ المُسْلمينَ ، وَأطُوفُ فى الأسْواقِ ولا يُكَلِّمُنى أحَدٌ ، وآتى رسول الله - ﷺ - فَأسَلِّمُ عَلَيْه ، وَهُوَ فى مَجْلسه بَعْدَ الصَّلاة ، فَأقُولُ فى نَفْسى : هَل حَرَّكَ شَفَتَيْه بردَ السَّلام أمْ لا ؟ ثم أُصَلّى قَريباً مِنْهُ وأُسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فإذَا أقْبَلْتُ على صلاتى نَظَرَ إلَىَّ ، وإذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أعْرَضَ عَنى ، حَتَّى إذَا طَال ذلكَ عَلَىَّ مِنْ جَفْوة الْمُسْلمينَ مَشَيْت حَتَّى تَسَوَّرْت جِدَارَ حَائط أبى قَتَادَة وَهُو ابْن عَمى وَأَحَبُّ النَّاس إلَىَّ ، فَسَلَّمْت عليه ، فَوَالله مَا رَدَّ عَلَىَّ السَّلامَ، فَقُلْت لَه : يا أبَا قَتَادَة ، أنْشُدُكَ بالله هَلْ تَعْلَمُنى أُحبُّ الله وَرَسُولَه - ﷺ - ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْت فَنَاشَدْته فَسَكَتَ ، فَعُدْت فَنَاشدته فَقَالَ : اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ ، فَفَاضَتْ عَيْنَاىَ ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرتُ الْجدَارَ ، فَبَيْنا أنا أمْشى فى سُوق المدينَة إذَا نَبَطىٌ من نَبَط أهْل الشَّام ممَّنْ قَدمَ بالطَّعَام يَبيعُهُ بالْمدينَة يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْب بْن مَالك؟ فَطَفقَ النَّاسُ يُشيرُونَ لَهُ إلَىَّ حَتَّى جاءَنى فَدَفَعَ إلَىَّ كتَاباً من مَلك غَسَّانَ ، وَكُنْتُ كَاتباً ، فَقَرَأْتُهُ فَإذَا فيه : أمَّا بَعْدُ ، فَإنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أنَّ صَاحبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ الله بدَار هَوَان وَلا مَضْيَعَة ، فَالْحَقْ بنَا نُوَاسكَ ، فَقُلْتُ حينَ قَرَأْتُهَا : وَهذه أيْضاً منَ الْبَلاء فَتَيَمَّمْتُ بهَا التَّنُّورَ فَسَجرْتُهَا .

حَتَّى إذا مَضَتْ أرْبَعُونَ منَ الْخَمْسينَ وَاسْتَلْبَثَ الْوَحْىُ ،إذا رسولُ رسول الله - ﷺ - يَأتينى ، فَقَالَ : إنَّ رسول الله - ﷺ - يَأْمُرُكَ أنْ تَعْتَزلَ امْرَأتَكَ ، فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا، أمْ مَاذَا أفْعَلُ ؟ قال: لا ، بَلْ اعْتَزلْهَا فَلا تَقْرَبَنَّهَا ،وأرْسَلَ إلى صَاحبَىَّ بمثْل ذلكَ. فَقُلْتُ لامْرَأتى : الْحَقى بأهْلك فَكُونى عنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضىَ اللهُ فى هَـذا الأمْـر ، فَجَاءَت امْرَأةُ هلال بْن أُمَيَّةَ رَسول الله - ﷺ - فَقَالَتْ لَهُ : يا رسول الله،إنَّ هلالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائعٌ لَيْسَ لَهُ خَادمٌ ، فَهَلْ تَكْرَه أنْ أخْدُمَهُ ؟ قَالَ : « لا ، وَلكنْ لا يَقْرَبَنَّك »، فَقَالَتْ : إنَّهُ وَالله مَا به منْ حَرَكَة إلَى شَىْء،وَوَالله مَا زَالَ يَبْكى مُنْذُ كَانَ منْ أمْره مَا كَانَ إلى يَوْمه هذَا . فَقَالَ لى بَعْضُ أهْلى : لَو اسْتَأذَنْتَ رسولَ الله - ﷺ - فى امْرَأتكَ ، فَقَدْ أذنَ لامْرَأة هلال بْن أُمَيَّةَ أنْ تَخْدُمَهُ ؟ فَقُلْتُ : لا أسْتَأذنُ فيهَا رسول الله - ﷺ - ، وَمَا يُدْرينى مَاذَا يَقُولُ رسولُ الله - ﷺ - إذَا اسْتَأذَنْتُهُ فيهَا وَأنَـا رَجُلٌ شَـابٌّ ! فَلَبثْتُ بذلـكَ عَشْرَ لَيَـال ، فَكَمَلَ خَمْسُونَ لَيْلَةً مـنْ حين نَهَى عَنْ كَلامنَا .

ثُمَ صَلَّيْتُ صَلاةَ الْفَجْر صَبَاحَ خَمْسينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْر بَيْت منْ بُيُوتنَا ، فَبَيْنَا أنَا جَالسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتى ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى منَّا ، قَدْ ضَاقَتْ عَلَىَّ نَفْسى وَضَاقَتْ عَلَىَّ

Marfat.com

الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، سَمِعتُ صَوتَ صَارِخٍ أوفَى على سَلْعٍ يَقُولُ بأعْلَى صَوْتِه: يَا كَعْبَ بْنَ مَالك ، أبْشِرْ ،فَخَرَرْتُ سَاجِداً ، وَعَرَفْتُ أنَّهُ قد جاءَ فَرَجٌ ، فَآذَنَ رسولُ الله - ﷺ - النَّاسَ بِتَوْبَةِ الله عزَّ وَجلَّ عَلَيْنَا حينَ صَلَّى صَلاةَ الفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا ، فَذَهَبَ قبَلَ صَاحِبَىَّ مبَشِّرُونَ ، ورَكَضَ رجُلٌ إلَىَّ فَرساً وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أسْلَمَ قبلِى وأوْفَى عَلَى الجَبَلِ ، وكَانَ الصَّوتُ أسْرعَ مِنَ الفَرس ، فَلَمَّا جاءَنِى الَّذِى سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِى نَزَعْتُ لَهُ ثَوبَىَّ فَكَسَوْتُهُمَا إيَّاهُ بِبِشارَته،وَاللّه ما أمْلكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئذ ،واسْتَعَرْتُ ثَوبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانطَلَقْتُ أتَـأمَّمُ رسولَ الله ﷺ ، يَتَلَقَّانِى النَّـاسُ فَـوْجاً فَوْجاً يُهَنِّئُونَنِى بالتَّوْبَةِ ويَقُولُونَ لِى :لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللّه عَلَيْكَ ، حَتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ فَإذَا رسولُ الله ص جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ الله رضى الله عنه يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِى وَهَنَّأَنِى ، والله مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ ، فَكَانَ كَعْبٌ لا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ ، قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسولِ الله- ﷺ - قال وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرور : « أبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» فَقُلْتُ :أمِنْ عِنْدِكَ يا رسولَ اللّه أمْ مِنْ عِنْدِ الله؟ قال: «لا، بَلْ مِنْ عِنْدِ الله عَزَّ وَجلَّ »، وكَانَ رسولُ الله - ﷺ - إذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأنَّ وَجْهَهُ قطعَةُ قَمَرٍ ، وكُنَّا نَعْرِفُ ذلكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يا رسولَ الله، إنَّ مِنْ تَوبَتِى أنْ أنْخَلِعَ مِنْ مَالِى صَدَقَةً إلَى الله وَإلَى رَسُوله.فَقَالَ رسولُ الله - ﷺ - : «أمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ »، فقلتُ : إنِّى أمْسِكُ سَهْمِى الَّذِى بِخَيْبَرَ . وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله إنَّ الله تَعَالَى إنَّمَا أنْجَانِى بالصدْقِ ، وإنَّ مِنْ تَوْبَتِى أنْ لا أُحَدِّثَ إلا صِدْقـاً مَا بَقِيتُ ، فَوَاللَّه مَا عَلِمْتُ أحَداً مِنَ المُسْلمينَ أبْلاهُ اللّه تعـالى فى صِدْقِ الحَدِيث مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسُولِ اللّه- ﷺ - أحْسَنَ مِمَّا أبْلانِى الله تعالى ، وَاللّه ما تَعَمَّدْتُ كِذْبَةً مـنذُ قلتُ ذلكَ لـرسول الله- ﷺ - إلَى يَوْمِى هذَا ، وإنِّى لأرْجُو أنْ يَحْفَظَنِى اللّه تعالى فيمَا بَقِىَ ، قَال:فأنْزَلَ الله تعالى:﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ :﴿ إنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٧ـ ١١٩] . قَالَ كَعْبٌ: واللّه ما أنْعَمَ اللّه عَلَيَّ مِن نِعمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إذْ هَدَانِى اللّهُ لِلإسْلامِ أعْظَمَ فى نَفْسِى مِنْ صِدْقِى رسولَ اللّه- ﷺ - أنْ لا أكُونَ

Marfat.com

كَذَبْتُهُ ، فأَهْلَكَ كما هلك الَّذينَ كَذَبُوا ؛ إنَّ الله تعالى قال للَّذينَ كَذَبُوا حينَ أنْزَلَ الوَحْيَ شرَّ مَا قالَ لأحَد ، فقالَ اللّه تعالي : ﴿ سَيَحْلِفُونَ باللّه لَكُمْ إذَا انقَلَبْتُمْ إلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥ ، ٩٦] .

قالَ كَعْبٌ : كُنَّا خُلِّفْنَا أيُّها الثَّلاثَةُ عَنْ أمْرِ أولئكَ الَّذينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رسُول اللّه - ﷺ -حينَ حَلَفُوا لَهُ ، فَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهم ، وأرجأ رسولُ اللّه - ﷺ -أمْرَنَا حتَّى قَضَى الله تعالى فيه بذلكَ ؛ قال اللّه تعالى : ﴿ عَلَى الثَّلاثَةِ الَّذينَ خُلِّفُوا ﴾

ولَيْسَ الَّذى ذكَرَ ممَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفَنَا عن الغَزْو ، وإنَّمَا هُوَ تَخْليفُهُ إيَّانا وإرْجاؤهُ أمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ له واعْتَذَرَ إلَيْه فَقبلَ مِنْهُ . متفقٌ عليه .

وفى رواية : « أنَّ النَّبىَّ - ﷺ -خَرَجَ فى غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الخَميس، وكان يُحبُّ أنْ يَخْرُجَ يوْمَ الخَميس » .

وفى رواية : « وكانَ لا يَقْدُمُ منَ سَفَرٍ إلا نَهاراً فى الضُّحَى ، فإذَا قَدم بَدَأ بالمَسْجد فصَلَّى فيه رَكْعتَيْن ثُمَّ جَلَسَ فيه » .

[٢٢]وعَنْ أبى نُجيْد ــ بضَم النُّون وفَتْح الجيم ـ عمْرَانَ بْن الحُصَيْن الْخُزَاعى رضى الله عنهما أنَّ امْرأةً منْ جُهَيْنَةَ أتَتْ رسول اللّه - ﷺ -وهىَ حُبْلَى منَ الزّنا ، فقالَتْ: يا رسول الله ، أصبْتُ حدّا فأقمْهُ عَلَىَّ ، فَدعَا نَبىُّ الله - ﷺ -وليَّهَا فقال: «أحْسنْ إليْهَا ، فإذَا وَضَعَتْ فَأتنى » ، فَفَعَلَ فأمرَ بها نبىُّ الله - ﷺ -، فشُدَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا ، ثُمَّ أمَرَ بها فَرُجمَتْ ، ثُمَّ صلى عَلَيْهَا . فقالَ لَهُ عُمَرُ : تُصَلّى عَلَيْهَا يا رسول الله وقَدْ زَنَتْ ؟ قالَ : « لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسمَتْ بَيْنَ سَبْعين منْ أهْل المدينَة لَوَسِعَتْهُمْ ، وَهَلْ وَجَدْتَ أفْضَلَ منْ أنْ جَادَتْ بنَفْسهَا للّه عزَّ وجل ؟! » رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى النبى - ﷺ :« وهى حبْلى من الزنى » يعنى : حاملاً قد زنت رضي الله عنها .

---

[٢٢] صحيح :رواه مسلم (١٦٩٦) .

Marfat.com

« **فقالت : يا رسول الله إنِّى قد أصبت حدًا فأقمه علىَّ** » أى : أصبت شيئًا يوجب الحد فأقمه علىَّ .

فدعا النبى - ﷺ - وليها وأمره أن يُحسن إليها ، فإذا وضعت فليأتى بها إلى رسول الله - ﷺ - .

فلما وضعت أتى بها وليها إلى النبى - ﷺ - ، « **فأمر بها فشُدَّت عليها ثيابها** » أى : لفت ثيابها ، ورَبطت ؛ لئلا تنكشف « **ثم أمر بها فرجمت** » أى : بالحجارة ، - وهى ليست كبيرة ولا صغيرة - حتى ماتت ثم صلَّى عليها النبى - ﷺ - .

ودعا لها دُعاء المَيِّت « **فقال له عمر : تصلِّى عليها يا رسول الله وقد زنت** » أى : والزِّنى من كبائر الذنوب .

فقال : « **لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم** » يعنى توبة واسعة لو قسمت على سبعين كلهم مُذنب لوسعتهم ونفعتهم .

« **وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل** » أى : هل وجدت أفضل من هذه الحال امرأة جاءت فجادت بنفسها يعنى سلمت نفسها من أجل التَّقرب إلى الله عز وجل والخلوص من إثم الزنى . ما هناك أفضل من هذا ؟!

ففى هذا الحديث دليل على فوائد كثيرة :

منها : أن الزَّانى إذا زنى وهو محصن - يعنى : قد تزوج - فإنه يجب أن يُرجم وجوبًا وقد كان هذا فى كتاب الله عز وجل آية قرأها المسلمون وحفظوها ووعوها ونفذوها رجم النبى - ﷺ - ورجم الخلفاء من بعده ولكن الله بحكمته نسخها من القرآن لفظًا وأبقى حكمها فى هذه الأمة . فإذا زنى المحصن - وهو الذى قد تزوج - فإنَّه يرجم حتى يموت. يوقف فى مكان واسع ويجتمع الناس ويأخذون من الحصى يرمونه به حتى يموت .

وهذه من حكمة الله عز وجل ، أى : أنه لم يأمر الشَّرع بأن يذبح بالسيف وينتهى أمره ، بل يرجم بهذه الحجارة حتى يتعذب ويذوق ألم العذاب فى مقابل ما وجده من لذة الحرام لأن هذا الزَّانى تلذذ جميع جسده بالحرام فكان من الحكمة أن ينال هذا الجسد من العذاب بقدر ما نال من اللذة .

ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - : إنه لا يجوز أن يرجم بالحجارة الكبيرة لأن الحجارة الكبيرة تُجهِزُ عليه ويموت سريعًا فيستريح ولا بالصغيرة جدًا لأن هذه تؤذيه وتُطيل موته . ولكن بحصى متوسط حتى يذوق الألم ثم يموت .

فإذا قال قائل أليس قد قال النبى - ﷺ - : « **إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم**

Marfat.com

فأحسنوا الذبحة »[١] والقتلة بالسيف أريح للمرجوم من الرجم بالحجارة ؟

قلنا بلى قد قاله الرسول عليه الصلاة والسلام لكن إحسان القتلة يكون بموافقتها للشرع .

فالرجم إحسان لأنه موافق للشرع ، ولذلك لو أن رجلاً جانيًا جنى على شخص فقتله عمدًا وغرر به قبل أن يقتله فإننا نغرر بهذا الجانى إذا أردنا قتله قبل أن نقتله .

مثلاً لو أن رجلاً جانيًا قتل شخصًا فقطع يديه ثم رجليه ثم لسانه ثم رأسه . فإننا لا نقتل الجانى بالسيف !! بل نقطع يديه ثم رجليه ثم لسانه ثم نقطع رأسه مثلما فعل، ويعتبر هذا إحسانًا فى القتلة لأن إحسان القتلة أن يكون فموافقًا للشرع على أى وجه كان.

وفى هذا : الحديث دليل على جواز إقرار الإنسان على نفسه بالزنى من أجل تطهيره بالحد لا من أجل فضحه نفسه . فالإنسان الذى يتحدث عن نفسه أنه زنى عند الإمام أو نائبه من أجل إقامة الحد عليه هذا لا يلام ولا يذم .

وأما الإنسان الذى يخبر عن نفسه أنه زنى يخبر بذلك عامة الناس فهذا فاضح نفسه وهو من غير المعافين لأن الرسول ـ ﷺ ـ يقول : « **كل أمَّتى مُعافى إلاَّ المُجاهرين**» قالوا مَن المجاهرون ؟ قال : « **الذى يفعل الذنب ثم يستره الله عليه ثم يصبح يتحدث به** » .

هناك قسم ثالث فاسق مارد ماجن !!يتحدث بالزِّنى افتخارًا والعياذ بالله ! يقول إنه سافر إلى البلد الفلانى وإلى البلد الفلانى وفجر وفعل وزنى بعدة نساء وما أشبه ذلك يفتخر بهذا !هذا يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل لأن الذى يفتخر بالزِّنى مقتضى حاله أنه استحلَّ الزِّنى والعياذ بالله ومن استحل الزِّنى فهو كافر !

ويوجد بعض الناس الفسقة يفعل ذلك . الذين أصيب المسلمون بالمصائب من أجلهم ومن أجل أفعالهم .

يوجد من يتبجح بهذا الأمر ، إذا سافر إلى بلد معروف بالفسق والمجون مثل (بانكوك) وغيرها من البلاد الخبيثة التى كلها زنى ولواط وخمر وغير ذلك رجع إلى أصحابه يتبجح بما فعل .

هذا كما قلت يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل لأن من استحل الزِّنى أو غيره من المحرَّمات الظاهرة المجمع عليها فإنه يكفر .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (١٩٥٥) أبو داود (٢٨١٥) والترمذى (١٤٠٩) والنسائى (٢٢٧/٧) وابن ماجه (٣١٧٠) .

Marfat.com

إذا قال قائل هل الأفضل للإنسان إذا زنى أن يذهب إلى القاضى ليقر عنده فيقام عليه الحد أو الأفضل أن يستر نفسه ؟

فيه تفصيل :قد يكون الإنسان تاب توبة نصوحًا وندم وعرف من نفسه أنه لن يعود فهذا الأفضل ألا يذهب ولا يخبر عن نفسه بل يجعل الأمر سرًا بينه وبين الله ومن تاب تاب الله عليه .

وأما من خاف ألا تكون توبته نصوحًا وخاف أن يعود ويرجع إلى الذنب مرة أخرى فهذا الأفضل فى حقِّه أن يذهب إلى ولى الأمر ـ القاضى أو غيره ـ ليُقر عنده فيقام عليه الحد .

* * *

[٢٣]وعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رضى الله عنهما أن رسول الله ـ ﷺ ـقال : « لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادياً مِنْ ذَهَبٍ أَحبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَاديَانِ ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إلا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ » متفقٌ عليه .

[٢٤]وعَنْ أبى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـقال : « يَضْحَكُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أحَدُهُمَا الآخَرَ يَدْخُلانِ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُ هذَا فى سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْلِمِ فَيُسْتَشْهَدُ » متفق عليه .

الشرح

هذان الحديثان فى بيان التَّوبة وأنَّ من تاب تاب الله عليه مهما عظم ذنبه لأن الله تعالى قال فى كتابه : ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝٦٩ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان : ٦٨ ـ ٧٠] .

فالحديث الأول : عن ابن عباس ومعناه أن ابن آدم لن يشبع من المال ولو كان له واد واحد « لا بتغي » أى : طلب أن يكون له واديان ولا يملأ جوفه إلا التراب وذلك إذا مات ودفن وترك الدنيا وما فيها حينئذٍ يقتنع ، لأنها فاتته ولكن مع ذلك حث الرسول ـ ﷺ ـ

---

[٢٣] صحيح : رواه البخارى (٦٤٣٨) ، ومسلم (١٠٤٩) من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ رواه مسلم (١٠٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

[٢٤] صحيح : رواه البخارى (٢٨٢٦) ، ومسلم (١٨٩٠) .

Marfat.com

على التوبة ؛ لأن الغالب أن الذى يكون عنده طمع فى المال أنّه لا يحترز من الأشياء المحرمة من الكسب المحرم .

ولكن دواء ذلك بالتوبة إلى الله . ولذلك قال : « **ويتوب الله على من تاب**» فمن تاب من سيئاته ولو كانت هذه السيئات مما يتعلق بالمال فإنّ الله يتوب عليه .

وأما الحديث الثانى : فهو عن أبى هريرة أن الرسول- ﷺ - قال : « **يضحك الله إلى رجلين** .. » الحديث .

وسبب ضحك الله أنه كان بينهما تمام العداوة فى الدنيا حتى إن أحدهما قتل الآخر فقلب الله هذه العداوة التى فى قلب كل واحد منهما وأزال ما فِي نفوسهما مِن الغِل لأن أهل الجنة يطهرون مِن الغل والحقد كما قال الله فى وصفهم :﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ وقال قبلها :﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الحجر : ٤٧] .

فهذا وجه العجب من هذين الرجلين .

ففيه دليل على أن الكافر إذا تاب من كفره ولو كان قد قتل أحدًا من المسلمين فإن الله تعالى يتوب عليه ؛ لأن الإسلام يهدم ما قبله .

❊ ❊ ❊ ❊

Marfat.com

٣ ـ باب الصبر

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠].

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ [محمد:٣١] ، وَالآيَاتُ فِى الأَمْرِ بِالصَّبْرِ وَبَيَانِ فَضْلِه كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ .

الشـرح

الصبر لغةً : الحبْسُ .

وشرعًا : حبس النَّفس على ثلاثة أمور :

الأول : طاعة الله ، الثانى : عن محارم الله ، الثالث : على أقدار الله المؤلمة .

هذه أنواع الصبر التى ذكرها أهل العلم .

الأمر الأول : أن يصبر الإنسان على طاعة الله لأن الطاعة ثقيلة على النفس تصعب على الإنسان وكذلك ربما تكون ثقيلة على البدن بحيث يكون مع الإنسان شيء من العجز والتَّعب وكذلك أيضًا يكون فيها مشقة من النَّاحية المالية كمسألة الزكاة ومسألة الحج .

المهم أن الطاعات فيها شيء من المشقة على النفس والبدن فتحتاج إلى صبر وإلى معاناة قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

الأمر الثانى : الصبر عن محارم الله بحيث يكف الإنسان نفسه عما حرم الله عليه؛ النفس الأمارة بالسُّوء تدعو إلى السوء فيُصبِّر الإنسان نفسه ، مثل الكذب والغش فى المعاملات وأكل المال بالباطل بالربا أو غيره والزِّنى وشرب الخمر والسرقة وما أشبه ذلك من المعاصى الكثيرة .

Marfat.com

فيحبس الإنسان نفسه عنها حتى لا يفعلها وهذا يحتاج أيضًا إلى معاناة ويحتاج إلى كف النَّفس والهوى .

أما الأمر الثالث : فهو الصبر على أقدار الله المؤلمة لأن أقدار الله عز وجل على الإنسان ملائمة ومؤلمة .

الملائمة : تحتاج إلى الشكر ، والشكر من الطاعات فالصَّبر عليه من النوع الأول.

ومؤلمة : بحيث لا تلائم الإنسان،فيبتلى الإنسان فى بدنه يُبتلى فى ماله ـ يفقده ـ يُبتلى فى أهله ويُبتلى فى مجتمعه ، المهم أن أنواع البلايا كثيرة تحتاج إلى صبر ومعاناة، فيصبِّرُ الإنسان نفسه عمَّا يَحرم عليه من إظهار الجزع باللسان أو بالقلب أو بالجوارح ، لأن الإنسان عند حلول المصيبة له أربع حالات :

الحال الأولى : أن يتسخط . والحال الثانية : أن يصبر . والحال الثالثة : أن يرضى. والحالة الرابعة : أن يشكر .

هذه أربع حالات تكون للإنسان عندما يصاب بالمصيبة .

أما الحال الأولى : أن يتسخَّط إما بقلبه أو بلسانه أو بجوارحه .

التسخط بالقلب أن يكون فى قلبه شيء على ربه من السُّخط والشره على الله والعياذ بالله وما أشبهه ، ويشعر وكأن الله قد ظلمه بهذه المصيبة .

وأما باللسان فأن يدعو بالويل والثُّبور ، يا ويلاه يا ثبوراه ، وأن يَسُب الدَّهر فيؤذى الله عز وجل وما أشبهه .

التسخط بالجوارح مثل أن يلطم خدّه أو يصفع رأسه أو ينتف شعره أو يشق ثوبه وما أشبه هذا .

هذا حال السخط حال الهلعين الذين حرموا من الثواب ولم ينجوا من المصيبة بل الذين اكتسبوا الإثم ، فصار عندهم مصيبتان مصيبة فى الدِّين بالسخط ، ومصيبة فى الدُّنيا لما أتاهم مما يؤلمهم .

أما الحال الثانية : فالصبر على المصيبة بأن يحبس نفسه ، هو يكره المصيبة ولا يحبها ولا يحب أنها وقعت لكن يصبر نفسه لا يتحدث باللسان بما يُسخط الله ولا يفعل

Marfat.com

بجوارحه ما يغضب الله ولا يكون فى قلبه على الله شىء أبدًا ، صابر لكنه كاره لها .

والحال الثالثة : الرِّضى بأن يكون الإنسان منشرحًا صدره بهذه المصيبة ويرضى بها رضاءً تاما وكأنه لم يصب بها .

والحال الرابعة : الشُكر فيشكر الله عليها وكان الرسول - ﷺ - إذا رأى ما يكره قال الحمد لله على كل حال .

فيشكر الله من أجل أن الله يُرتب له من الثواب على هذه المصيبة أكثر مما أصابه.

ولهذا يُذكر عن بعض العابدات أنها أصيبت فى أصبعها فحمدت الله على ذلك فقالوا لها : كيف تحمدين الله والأصبع قد أصابه ما أصابه ؟! قالت : إن حلاوة أجرها أنستنى مرارة صبرها ، والله الموفق .

* * *

قال رحمه الله تعالى فى الحث على الصبر والثناء على فاعليه : وقول الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] . فأمر الله المؤمنين بمقتضى إيمانهم بهذه الأوامر الثلاثة بل أربعة :

اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله .

فالصبر عن المعصية والمصابرة على الطاعة والمرابطة كثرة الخير وتتابع الخير والتقوى تعمُّ ذلك كله .

فاصبروا عن محارم الله : لا تفعلوها تجنبوها ولا تقربوها .

ومن المعلوم أن الصَّبر عن المعصية لا يكون إلا حيث دعت إليه النفس ، أما الإنسان الذى لم تطرأ على باله المعصية فلا يقال إنه صبر عنها ولكن إذا دعتك نفسك إلى المعصية فاصبر واحبس النفس .

وأما المصابرة فهى على الطاعة لأن الطاعة فيها أمران :

الأمر الأول : فعل يتكلف به الإنسان ويلزم نفسه به .

والأمر الثانى : ثقل على النفس لأن فعل الطاعة كترك المعصية ثقيلة على النفوس الأمارة بالسوء .

Marfat.com

فلهذا كان الصبر على الطاعة أفضل من الصَّبر على المعصية ولهذا قال الله تعالى: ﴿ صَابِرُوا﴾ كأن أحدًا يصابرك كما يصابر الإنسان عدوه في القتال والجهاد .

وأما المرابطة فهي كثرة الخير والاستمرار عليه ولهذا جاء في الحديث عن الرسول ﷺ - أنه قال : « **إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرِّباطُ فذلكم الرِّباطُ** »[1] .

لأن فيه استمرارًا في الطاعة وكثرة لفعلها .

وأما التقوى فإنها تشمل ذلك كله ، لأن التَّقوى اتخاذ ما يقي من عقاب الله وهذا يكون بفعل الأوامر واجتناب النَّواهي .

وعلى هذا فعطفها على ما سبق من باب عطف العام على الخاص ثم بيَّن الله تعالى أن القيام بهذه الأوامر الأربعة سبب للفلاح فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

والفلاح كلمة جامعة تدور على شيئين : على حُصُول المطلوب وعلى النجاة من المرهوب ، فمن اتقى الله عز وجل حصل له مطلوبه ونجا من مرهوبه .

وأما الآية الثانية فقال رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] . هذه الآية فيها قَسَمٌ من الله عز وجل أن يختبر الإنسان بهذه الأمور .

فقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ أى : لنختبرنكم .

﴿ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ ﴾ لا الخوف كله بل بشىء منه لأن الخوف كله مهلك ومدمر، لكن بشىء منه .

﴿ الْخَوْفِ ﴾ هو فقد الأمن وهو أعظم من الجوع ؛ ولهذا قدَّمه الله عليه ؛ لأن الإنسان الجائع ربما يتعلل ويذهب يطلب ولو كان لِحَاء شجر ، لكن الخائف والعياذ بالله لا يستقر لا في بيته ولا في سوقه ، وأخوف ما نَخاف منه ذنوبنا أن الذنوب سبب لكل الويلات وسبب للمخاطر والمخاوف والعقوبات الدِّينية والدنيوية .

و﴿ وَالْجُوعِ ﴾ أى : يبتلى بالجوع .

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥١) .

Marfat.com

والجوع يحمل معنيين :

المعنى الأول : أن يحدث الله سبحانه فى العباد وباءً هو وباء الجوع بحيث يأكل الإنسان ولا يشبع وهذا يمر على الناس وقد مر بهذه البلاد سنة معروفة عند العامة تسمًّى سنة الجوع ، يأكل الإنسان الشىء الكثير ولكنه لا يشبع والعياذ بالله أبدًا .

نُحدث أن الإنسان يأكل من التمر محفرًا كاملاً فى آن واحد ولا يشبع والعياذ بالله . ويأكل الخبز الكثير ولا يشبع لمرض فيه .

النوع الثانى : الجدب والسِّنين الممحلة التى لا يدر فيها ضرع ولا ينمو فيها زرع هذا من الجوع .

وقوله : ﴿ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ ﴾ يعنى : نقص الاقتصاد بحيث تُصاب الأمة بقلة المادة والفقر ويتأخر اقتصادها وترهق حكومتها بالديون التى تأتى نتيجة لأسباب يقدرها الله عز وجل ابتلاءً وامتحانًا .

وقوله ﴿ وَالأَنفُسِ ﴾ أى : الموت بحيث يحلُّ فى الناس أوبئة تهلكهم وتَقْضِى عليهم .

وهذا أيضًا يحدث كثيرة ، ولقد حُدِّثنا أنَّه حدث فى هذه البلاد - أى البلاد النجدية - حدث فيها وباء عظيم تُسمَّى سنته عند العامة سنة الرحمة !! إذا دخل الوباء فى البيت لم يبق منهم أحد إلا دُفن والعياذ بالله .

يدخل فى البيت فى عشرة أنفس أو أكثر فيُصاب هذا بعرض ومن غدٍ الثانى والثالث والرابع حتى يموتوا عن آخرهم ، وحدثنا أنه قدم فى هذا المسجد - مسجد الجامع الكبير بعنيزة - وكان الناس بالأول فى قرية صغيرة ما فيها ناس كثير كما هو الحال اليوم يُقدَّم أحيانًا فى فرض الصلاة الواحد سبع إلى ثمان جنائز نعوذ بالله من الأوبئة .

وقوله ﴿ وَالثَّمَرَاتِ ﴾ أى : ألا يكون هناك جوع ولكن تنقص الثمرات ، تنزع بركتها فى الزروع والنخيل وفى الأشجار الأخرى والله عز وجل يبتلى العباد بهذه الأمور ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون .

فيقابل الناس هذه المصائب بدرجات متنوعة بالتسخط بالصبِّر وبالرضا بالشكر كما قلناه فيما سبق والله الموفق .

Marfat.com

قوله : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

يُوفَّى الصابرون أى : يُعطى الصابرون ، أجرهم : ثوابهم .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . لأن الأعمال الصالحة مضاعفة الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

أما الصبر فإن مضاعفته تأتى بغير حساب من عند الله عز وجل وهذا يدل على أن أجره عظيم وأن الإنسان لا يمكن أن يتصور هذا الأجر لأنه لم يقابل بعدد بل هو أمر معلوم عند الله ولا حساب فيه ، لا يُقال مثلاً الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف بل يقال إنَّه يوفى أجــره بغير حســاب ، وفى هذه الآية من الترغيب فى الصبَّر ما هو ظاهر .

وقوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى:٤٣] . أى : أن الذى يصبر على أذى الناس ويحتملهم ويغفر لهم سيئاتهم التى يُسيئون بها إليه فإنَّ ذلك من عزم الأمور أى : من مَعزوماتها وشدائدها التى تحتاج إلى مقابلة ومصابرة ، ولا سيما إذا كان الأذى الذى ينال الإنسان بسبب جهاده فى الله عز وجل وبسبب طاعته لأن أذية الناس لك لها أسباب متعددة متنوعة ، فإذا كان سببها طاعة الله عز وجل والجهاد فى سبيله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فإن الإنسان يثاب على ذلك من وجهين :

الأول : من الأذية التى تحصل له .

الثانى : صبره على هذه الطاعة التى أُذى فى الله من أجلها .

وفى هذه الآية حثٌّ على صبر الإنسان على أذية الناس ومغفرته لهم ما أساءُوا فيه . ولكـن ينبغى أن يعلم أن المغفـرة لمن أسـاء إليك ليست محمودة على الإطلاق فإن الله قيَّد هذا بأن يكـون العفو مقرونًا بالإصلاح فقال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] . أما إذا لم يكن فى العفو والمغفرة إصلاح فلا تعف ولا تغفر .

مثاله : لو كان الذى أساء إليك شخصًا معروفًا بالشَّر والفساد وأنك لو عفوت عنه لكن فى ذلك زيادة فى شره .

ففى هذه الحال الأفضل ألا تعفو عنه بل تأخذ بحقك من أجل الإصلاح ، أما إذا كان الشَّخص إذا عفوت عنه لم يترتب على العفو عنه مفسدة فإن العفو أفضل وأحسن

Marfat.com

لأن الله يقول: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] . وإذا كان أجرك على الله كان خيراً لك من أن يكون ذلك بمعاوضة تأخذ من أعمال صاحبك الصالحة.

وقوله : ﴿ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٣] .أمر الله سبحانه وتعالى أن نستعين على الأمور بالصبّر عليها ؛ لأن الإنسان إذا صبر وانتظر الفرج من الله سهلت عليه الأمور .

فأنت إذا أصبت بشيء يحتاج إلى صبر فاصبر وتحمَّل « واعلم أنَّ النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً » .

وأما الصلاة فإنها تعين على الأمور الدينية والدنيوية حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر عنه« أنه إذا حَزَبَهُ أمرٌ فَزِعَ إلى الصلاة » (١) .

وبيَّن الله في كتابه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فإذا استعان الإنسان بالصلاة على أموره يسر الله له ذلك لأن الصلاة صِلةٌ بين العبد وبين ربه ، فيقف الإنسان فيها بين يدى الله ويناجيه ويدعوه ويتقرب إليه بأنواع القربات التى تكون فى هذه الصلاة فكانت سببًا للمعونة .

قوله :﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ يعنى بذلك : كلمة المعية الخاصة لأن معية الله سبحانه تنقسم إلى قسمين :

١ ـ معية عامة شاملة لكل أحد وهى المذكورة فى قوله تعالى :﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] . وفى قوله تعالى :﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة : ٧] .

وهذه المعية العامَّة شاملة لجميع الخلق فما من مخلوق إلا والله معه يعلَمُه ويُحيط به سُلطانًا وقدرة وسَمْعًا وبصرًا وغير ذلك .

٢ ـ أما المعيَّة الخاصَّة فهى المعية التى تقتضى النَّصر والتأييد وهذه خاصة بالرُّسل وأتباعهم ليست لكل أحد ، فـ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ والله مع الصابرين وما أشبه ذلك من الآيات الدَّالة على هذه المعيَّة الخاصة .

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٣١٩) أحمد (٥/٣٨٨) وصححه الألبانى فى المشكاة (١٣٢٥) .

Marfat.com

ولكن هاتين المعيتين كلتيهما لا تدلان على أن الله سبحانه مع الناس فى أمكنتهم بل هو مع الناس وهو فوق سمواته على عرشه ولا مانع من ذلك لأن الشىء يكون فوق وهو معك والعرب يقولون ما زلنا نسير والقمر معنا .

وكل يعلم أن القمر فى السَّماء ، ويقولون ما زلنا نسير وسهيل معنا ـ وهو نجم معروف ـ وهو فى السماء ، فما بالك بالخالق عز وجل هو فوق كل شىء استوى على عرشه ومع ذلك هو محيط بكل شىء مع كل أحد ، مهما انفردت فإن الله تعالى محيط بك علمًا وقدرة وسلطانًا وسَمعًا وبصرًا وغير ذلك .

وفى قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ دليل على أنه مُعان من قبل الله ، وأنَّ اللَّه يعين الصابر ويؤيده ويكلؤه حتى يتم له الصَّبر على ما يحبه الله عز وجل .

ثم ذكر رحمه الله آخر آية ساقها وهى قوله : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾[محمد : ٣١] لنبلونكم : لنختبرنكم، فالابتلاء بمعنى الاختبار.

يعنى أن الله اختبر العباد فى فرض الجهاد عليهم ليعلم من يصبر ومن لا يصبر ولهذا قال الله فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ④ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ⑤ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : ٤ ـ ٦] .

وقوله ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ قد يتوهم بعض من قَصُر علمه أن الله سبحانه لا يعلم الشَّىء حتى يقع وهذا غير صحيح فالله يعلم الأشياء قبل وقوعها كما قال : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠].

ومن ادعى أنَّ الله لا يعلم بالشىء إلا بعد وقوعه فإنَّه مكذب لهذه الآية وأمثالها من الآيات الدالة على أن الله قد علم الأشياء قبل أن تقع !!

لكن العلم الذى فى هذه الآية ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ هو العلم الذى يترتب عليه الثواب أو العقاب ؛ لأن علم الله بالشىء قبل أن يكون لا يترتب عليه شىء من جهة فعل العبد لأن العبد لم يُبلَ به حتى يتبين الأمر ، فإذا اختبر به العبد حينئذ يتبين أنه استحق الثواب أو العقاب فيكون المراد بقوله : ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ أى : عِلمًا يترتب عليه الجزاء .

Marfat.com

وقال بعض أهل العلم المراد بقوله : ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ أى : علم ظهور، يعنى حتى يظهر الشىء لأن علم الله بالشىء قبل أن يكون ، علم بأن سيكون وعلمه بعد كونه علمٌ بأنَّه كان وفرق بين العلمين !!

ويظهر الفرق فيما لو قال لك شخص سوف أفعل كذا غدًا فالآن حصل عندك علم بما أخبر به ولكن إذا فعله غدًا صار عندك علم آخر أى : علم بأن الشىء الذى حدثك أنه سيفعله قد فعله فعلاً ، فهذان وجهان فى تفسير قوله ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾ .

وقوله : ﴿ الْمُجَاهِدِينَ ﴾ المجاهد هو الذى بذل جهده لإعلاء كلمة الله فيشمل المجاهد بعلمه والمجاهد بالسلاح كلاهما مجاهد فى سبيل الله . فالمجاهد بعلمه يتعلم العلم ويعلمه وينشره بين الناس ويجعل هذا وسيلة لتحكيم شريعة الله هذا مجاهد . والذى يحمل السلاح لمقاتلة الأعداء هو أيضًا مجاهد فى سبيل الله إذا كان المقصود فى الجهادين أن تكون كلمة الله هى العليا .

وقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ ﴾ أى : الذين يصبرون على ما كلفوا فيه من الجهاد ويحملونه ويقومون به .

وقوله : ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ أى : نختبرها وتتبين لنا وتظهر لنا ظهورًا يترتب عليه الثواب والعقاب .

لما ذكر الله هذا الابتلاء قال ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ والخطاب للنبى - ﷺ - ولكل من يبلغه هذا الخطاب .

يعنى بَشِّر يا محمد وبَشِّر يا من يَبلغه هذا الكلام الصابرين الذين يصبرون على هذه البلوى فلا يقابلونها بالتَّسخط وإنما يقابلونها بالصبرً .

وأكمل من ذلك أن يقابلوها بالرِّضا وأكمل من ذلك أن يقابلوها بالشُكر كما مرّ علينا فى مراتب التحمل فى أقدار الله المؤلمة .

وقوله : ﴿ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ ﴾ إذا أصابتهم مصيبة اعترفوا لله عز وجل بعموم ملكه ، وأنهم ملك لله ، ولله أن يفعل فى ملكه ما شاء ، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام لإحدى بناته « **فإنَّ للَّه ما أخَذَ وله ما أبقى** » (١) ، **فأنت ملك لربك عز وجل**

---

(١) صحيح: **رواه البخارى (١٢٨٤) مسلم (٩٢٣)** .

Marfat.com

يفعل بك ما يشاء حسب ما تقتضيه حكمته تبارك وتعالى .

ثم قال : ﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون ﴾ يعترفون بأنهم لابد أن يرجعوا إلى الله فيجازيهم، إن تسخطوا جازاهم على سخطهم وإن صبروا كما هو شأن هؤلاء القوم فإنَّ الله يجازيهم على صبرهم على هذه المصائب ، فيبتلى عزَّ وجلَّ بالبلاء ويثيب الصابر عليه .

قال الله عز وجل : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أولئك يعنى الصابرين ، والصَّلوات جمع صلاة وهى ثناء الله عليهم فى الملأ الأعلى عند الملائكة.

وقوله : ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُون ﴾ الذين هداهم الله عز وجل عند حلول المصائب فلمَ يتسخطوا ولكن صبروا على ما أصابهم . وفى هذه الآية دليل على أن صلاة الله عز وجل ليست هى رحمة بل هى أخص وأكمل وأفضل ومن فسرها من العلماء بأن الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الدعاء ومن الآدميين الاستغفار ، فإن هذا لا وجه له بل الصَّلاة غير الرَّحمة لأن الله عطف الرحمة على الصَّلوات والعطف يقتضى المغايرة ، ولأن العلماء مجمعون على أنك يجوز لك أن تقول لأى شخص من المؤمنين اللَّهُمَّ ارحم فلانًا.

واختلفوا هل يجوز أن يُصلى عليه أو لا يجوز على أقوال ثلاثة :

فمنهم من أجازها مطلقًا ، ومنهم من منَعَها مطلقًا ، ومنهم من أجازها إذا كانت تبعًا .

والصحيح أنها تجوز إذا كانت تبعًا كما فى قوله : « اللَّهُمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد » أو لم تكن تبعًا ولكن لها سبب كما قال الله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] . فإذا كان لها سبب ولم تتخذ شعارًا فإنه لا بأس به ، فلا بأس أن تقول اللَّهُمَّ صلِّ على فلان ، فلو جاءك رجل وقال لك : خذ زكاتى وفرقها على الفقراء فلك أن تقول صلى الله عليك ، تدعو له بأن الله يصلى عليه كما أمر الله نبيَّه - ﷺ - بذلك .

* * *

[٢٥] وَعَنْ أبى مَالِكِ الحَارِثِ بْنِ عَاصِمِ الأشْعَرِىِّ - رضي الله عنه - قَالَ : قال رسول

[٢٥] صحيح : رواه مسلم (٢٢٣) واحمد (٥/ ٣٤٢) .

Marfat.com

الله - ﷺ - : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَان ، وَالحَمْدُ لله تَمْلأُ المِيزَانَ ، وَسُبْحَانَ الله وَالحَمْدُ لله تَمْلآن ـ أوْ تَمْلأُ ـ مَا بَيْنَ السَّمَاوات وَالأرْض ، وَالصَّلاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، وَالقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أوْ عَلَيْكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو ، فَبَائعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا ، أوْ مُوبِقُهَا » رواه مسلم .

الشرح

سبق لنا الكلام على الآيات التى ساقها المؤلف ـ رحمه الله ـ فى الصبرَ وثوابه والحث عليه ، ثم شرع ـ رحمه الله ـ فى بيان الأحاديث الواردة فى ذلك .

فذكر حديث أبى مالك الأشعرى - ؓ - أن الرسول - ﷺ - قال : « سُبْحانَ الله والحَمْدُ لله » الحديث إلى قوله : « والصَّبْرُ ضياء » فبيَّن النبى - ﷺ - فى هذا الحديث أن الصَّبر ضياء يعنى أنَّه يضىء للإنسان .يضىء له عندما تحتلك الظلمات وتشتدُّ الكربات فإذا صبر فإن هذا الصبر يكون له ضياء يهديه إلى الحق .

ولهذا ذكر الله عز وجل أنه من جملة الأشياء التى يُستعان بها فهو ضياء للإنسان فى قلبه وضياء له فى طريقه ومنهاجه وعمله لأنه كلما سار إلى الله عز وجل على طريق الصبر فإن الله تعالى يزيده هدى وضياءً فى قلبه ويبصره .

أمَّا بقية الحديث فقال عليه الصلاة والسلام : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ » .

الطُّهُورُ : يعنى بذلك طهارة الإنسان .

شَطرُ الإيمانِ : نصف الإيمان .

وذلك لأن الإيمان تخلية وتحلية .

يعنى : تَبرؤًا من الشِّرك والفُسوقِ ، تَبرؤًا من المشركين والفُسَّاق بحسب ما معهم من الفسق فهو تخلٍّ .

وهذا هو الطُّهُورُ أن يتطهر الإنسان طهارة حِسية ومَعْنوية من كل ما فيه أذى ، فلهذا جعل الرَّسول عليه الصلاة والسلام شطر الإيمان .

قوله : « والحمد لله تملأ الميزان » ذكر ابن علان ما مختصره : أى هذه الجملة بخصوصها لأنها أفضل صيغ الحمد ولذا بدئ بها الكتاب العزيز .

Marfat.com

والحمد لله : هو الثناء على الله بالجميل الاختيارى والإذعان له والرضا بقضائه .

والميزان : المراد منه حقيقته : أى ما توزَن به الأعمال ؛ إما بأن تُجَسّم الأعمال أو توزن صحائفها ، فتطيش بالسيئة وتثقل بالحسنة .

وهذه الكلمة كان لها هذا الثواب العظيم بحيث تملأ كفة الميزان مع سعتها ، لأن معانى الباقيات الصالحات فى ضمنها ، لأن الثناء تارة يكون بإثبات الكمال ، وتارة بنفى النقص ، وتارة بالاعتراف بالعجز ، وتارة بالتفرد بأعلى المراتب، والألف واللام فى الحمد لاستغراق جنس المدح . والحمد مما علمناه وجهلناه ، وإنما يستحق الإلهية من اتصف بذلك ، فاندرج الجميع تحت « الحمد للّه » .

وقوله : « وسُبحانَ اللّه والحَمْدُ للّه تملآن ـ أوْ قال تْملأ ـ ما بيْنَ السَّموات والأرْضِ » شكٌ من الراوى ، والمعنى لا يختلف . أى : أن « سبحان اللّه والحمد للّه» تملأ ما بين السَّموات والأرض وذلك لأن هاتين الكلمتين مُشْتَملَتان على تنزيه الله من كل نقص فى قوله : « سبْحان اللّه »وعلى وصف الله بكل كمال فى قوله : «والحمد لله » .

فقد جمعت هاتان الكلمتان بين التخلية والتَّحلية كما يقولون .

فالتسبيح : تَنْزِيه الله عما لا يليق به فى أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه .

فالله مُنَزّه عن كل عيب فى أسمائه وصفَاته وأفْعاله وأحكامه ، لا تجد فى أسمائه اسمًا يشتمل على نقص أو على عيب ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّه الأَسْمَاءُ الْحُسنَى ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

فالله عز وجل له الوصف الأكملى الأعلى من جميع الوجوه،وله الكمال المنَزّه عن كل عيب فى أفعاله كما قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوات وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا لاعبين ﴾ [الدخان:٣٨]. فليس فى خلق الله لَعِبٌ ولَهْوٌ وإنَّما هو خلق مبنىٌ على الحكمة .

كذلك أحكامه لا تجد فيها عَيْبًا ولا نقصًا كما قال الله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾[التين : ٨] . وقال عز وجل : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[المائدة : ٥٠] .

والله عز وجل يُحْمدُ على كل حال . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أصابه ما يُسَرُّ به قال : « الحمد للّه الذى بنعمته تتمُّ الصَّالحات » وإذا أصــابه سـوى ذلك قال :

Marfat.com

« **الحمد للَّه على كُلِّ حال** »[(١)] ثم إن هاهنا كَلَمة شاعت أخيرًا عن كثير من الناس وهى قولهم : الحمد لله الذى لا يُحمد على مكْرُوهٍ سواه » . هذا حمد ناقص !! .

لأن قولك على مكْروه سواه تعبير على قِلَّة الصبَّر أو على الأقل على عدم كمال الصبَّر ، وأنك كاره الشيء ولا ينبغى للإنسان أن يعبر هذا التعبير ، بل ينبغى له أن يُعبِّر بما كان الرسول ﷺ يُعبر به فيقول : الحمد للَّه على كل حال ، أو يقول : الحمد لله الذى لا يُحمد على كل حالٍ سواه .

أما التَّعبير الأول فإنَّه تعبير واضح على مُضَادة ما أصابه من الله عز وجل ، وأنه كاره له .

وأنا لا أقول إن الإنســان لا يكْره مما أصابه مــن البلاء بطبيعة الإنسان أن يكره ذلك لكن لا تُعلن هذا بِلسَانك فى مقام الثناء على اللَّه بل عبِّر كما عبَّر النبى- ﷺ - قوله- ﷺ - : «والصلاة نورٌ » .

فالصلاة : نورٌ للعبد فى قلبه وفى وَجهِهِ وفى قَبْرِهِ وفى حَشْره ؛ ولهذا تجد أكثر الناس نورًا فى الوجوه أكثرهم صلاة وأخشعهم فيها لله عز وجل .

وكذلك تكون نورًا للإنسان فى قلبه تفتح عليه باب المعرفة لله عز وجل ، وباب المعرفة فى أحكام الله وأفعاله وأسمائه وصفاته وهى نور فى قبر الإنسان ؛ لأن الصَّلاة عَمُود الإسلام إذا قام العمود قام البناء وإذا لم يَقُم العمود فلا بناء .

كذلك نورٌ فى حَشْرِهِ يوم القيامة كما أخبر بذلك الرسول- ﷺ - : **«أنَّ مَنْ حَافظ عليها كانت لَهُ نُوراً وبُرهانًا يوْمَ القيامة ومَن لَمْ يُحافظ عَلَيْها لم تكُن لَهُ نُوراً ولا بُرهانًا ولا نَجاة يوم القيامَةِ وحُشِر مَعَ فرْعَوْن وهَامَانَ وقَارُون وأُبَىّ بنِ خلَف »** .

فهى نُورٌ للإنسان فى جميع أحواله وهذا يَقْتضى أن يُحافظ الإنسان عليها وأن يَحْرص عليها وأن يكثر منها حتى يكثر نوره وعلمه وإيمانه .

وأما الصبر فقال :« إنه ضياء » . أى : فيه نور لكن نور مع حرارة كما قال الله تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥] .

---

(١) صحيح: رواه بن ماجه (٣٨٠٣)والحاكم فى المستدرك (٩٩/١) وصححه الألبانى فى السلسة الصحيحة (٢٦٥).

Marfat.com

فالضَّوء لابد فيه من حرارة وهكذا الصبَّر لابد فيه من حرارة وتعبد لأن فيه مشقة كبيرة ولهذا كان أجره بغير حساب .

فالفرق بين النُّور فى الصَّلاة والضياء فى الصبَّر ، أن الضياء فى الصبَّر مصْحُوب بحرارة لما فى ذلك من التَّعب القلبى والبدنى فى بعض الأحيان .

وقوله : « الصدقة بُرْهانٌ » .

الصَّدقة : بذل المال تقربًا للَّه عز وجل . للأهل والفقراء والمصالح العامة مثل بناء المساجد وغيرها هذا برهان .

برهان على إيمان العبد وذلك لأن المال محبوب إلى النُّفوس ، والنفوس شحيحة به فإذا بذله الإنسان لله فإن الإنسان لا يبذل ما يحب إلا لما هو أحب إليه منه .

ولهذا تجد أكثر الناس إيمانًا بالله عز وجل وبالإخلاف تجدهم أكثرهم صدقة .

ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « والقرآن حجة لك أو عليك » لأن القرآن هو حبل الله المتين وهو حجة الله على خلقه ، فإما أن يكون لك وذلك فيما إذا توصلت به إلى الله وقمت بواجب هذا القرآن العظيم من : التصديق بالأخبار ، وامتثال الأوامر، واجتناب النواهى ، وتعظيم هذا القرآن الكريم ، واحترامه . ففى هذه الحال يكون حجة لك .

أما إن كان الأمر بالعكس أهَنْتَ القرآن وهجرتَه لفظًا ومعنى وعَمَلاً ولم تقم بواجبه فإنه يكون عليك شاهدًا يوم القيامة .

ولم يذكر الرسول ـ ﷺ ـ مرتبة بين هاتين المرتبتين !

يعنى لم يذكر أن القرآن لا لك ولا عليك لأنه لابد أن يكون إما لك وإما عليك على كل حال . فنسأل الله أن يجعله لنا ولكم حجة نهتدى به فى الدنيا والآخرة إنه جواد كريم .

قوله : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » .

أى : كل الناس يبدأ يومه من الغدوة بالعمل وهذا شىء مشاهد . فإن الله تعالى جعل الليل سكنًا وقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ

Marfat.com

فيه ﴾ [الأنعام : ٦٠] . فهذا النوم الذى يكون فى الليل هو وفاة صغرى تهدأ فيه الأعصاب، ويستريح فيه البدن ويستجد نشاطه للعمل المقبل ويستريح من العمل الماضى .

فإذا كان الصباح وهو الغُدوة سار الناس واتجهوا كلٌ لعمله ، فمنهم من يتجه إلى الخير وهم المسلمون ومنهم من يتجه إلى الشر وهم الكفار والعياذ بالله .

المسلم أول ما يغدو يتوضأ ويتطهر « **والطهور شطر الإيمان** » كما فى هذا الحديث ثم يذهب فيصلى فيبدأ يومه بعبادة الله عز وجل ، بل يفتتحه بالتوحيد لأنه يُشرع للإنسان إذا استيقظ من نومه أن يذكر الله عز وجل وأن يقرأ عشر آيات من سورة آل عمران وهى قوله: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ... ﴾ إلى آخر السورة [آل عمران : ١٩٠ ـ ٢٠٠] . هذا المسلم ، هذا الذى يغدو فى الحقيقة بائع نفسه لكن هل باعها بيعًا يعتقها فيه ؟!

نعم . المسلم باعها بيعًا يعتقها فيه ، ولهذا قال : فبائع نفسه فمعتقها هذا قسم . أو موبقها أى : بائع نفسه فموبقها .

الكافر يغدو إلى العمل الذى فيه الهلاك لأن معنى « أوبقها » أى : أهلكها ؛ وذلك أن الكافر يبدأ يومه بمعصية الله حتى لو بدأ بالأكل والشرب فإن أكله وشربه يعاقب عليه يوم القيامة .

كل لقمة يرفعها الكافر إلى فمه فإنه يعاقب عليها وكل شربة يبتلعها من الماء فإنه يعاقب عليها ، وكل لباس يلبسه فإنه يعاقب عليه .

والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ للذين آمنوا لا غيرهم . ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف : ٣٢] . يعنى : ليس عليهم من شوائبها يوم القيامة. فمفهوم الآية الكريمة أنها لغير المؤمنين حرام وأنها ليست خالصة لهم يوم القيامة وأنهم سيعاقبون عليها .

وقال الله فى سورة المائدة وهى من آخر ما نزل والآية التى سقتها الآن فى سورة الأعراف وهى مكية .

قال فى المائدة : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: ٩٣] . فمفهوم الآية الكريمة أن على غير المؤمنين جناح فيما طعموه.

Marfat.com

فالكافر من حين ما يصبح والعياذ بالله وهو بائع نفسه فيما يهلكها . أما المؤمن فبائع نفسه فيما يعتقها وينجيها من النار . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم .

فى آخر هذا الحديث بين الرسول عليه الصلاة والسلام أن الناس ينقسمون إلى قسمين :

قسم يكون القرآن حجة لهم كما قال : « **والقرآن حجة لك** » .

وقسم يكون القرآن حجة عليهم كما قال : « **أو عليك** » .

وقسم يعتقون أنفسهم بأعمالهم الصالحة .

وقسم يهلكونها بأعمالهم السيئة والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[٢٦] وَعَنْ أبى سَعيد سَعْد بْن مَالك بْن سنَان الْخُدْرى - رضي الله عنه - : أنَّ نَاساً من الأنصَار سَألُوا رسول الله - ﷺ - فَأَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَألُوهُ فَأعْطَاهُمْ ، حَتَّى نَفدَ ما عنْدَهُ، فَقَال لَهُمْ حينَ أنْفقَ كُلَّ شَىْء بيَده : « ما يَكُنْ عندى من خَيْر فَلَنْ أدَّخرهُ عَنْكُمْ ، وَمَنْ يَسْتَعْففْ يُعفَّهُ اللّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْن يُغْنه اللّهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللّهُ ، وَمَا أُعْطِىَ أحَدٌ عَطَاءً خَيْراً وَأوْسَعَ منَ الصَّبْر » مُتفقٌ عليه .

الشرح

قوله « **إن ناسًا من الأنصار ..** » إلى قوله « **حتى نفد ما عنده** » .

كان من خلقه الكريم أنه لا يُسأل شيئًا يجده إلا أعطاه وما عهده عنه أنه - ﷺ - منع سائلاً بل كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ويعيش فى بيته عيش الفقراء وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع . فهو عليه الصلاة والسلام أكرم الناس وأشجع الناس.

فلما نفد ما فى يده أخبرهم أنه « **ما يكن عندى من خير فلن أدخره عنكم** » أى: لا يمكن أن يدخر خيرًا عنهم فيمنعهم ولكن ليس عنده شىء .

ثم حثَّ الرسول عليه الصلاة والسلام على الاستعفاف والاستغناء والصبر فقال :

---

[٢٦] صحيح : رواه البخارى (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) .

Marfat.com

«ومن يستعفف يُعفَّه اللَّه ومن يستغن يُغنه الله ومن يتصبَّر يُصبره اللَّه» .

هذه ثلاثة أمور :

أولاً : « من يستعفف يعفه الله » ، فمن يستعفف عما حرَّم الله عليه من النِّساء يُعفه الله عز وجل .

والإنسان الذى يُتْبع نفسه هواها فيما يتعلق بالعفَّة فإنه يهلك والعياذ بالله لأنه إذا أتبع نفسه هواها وصار يتتبع النِّساء فإنه يهلك .

تَزنى العين وتَزنى الأذن وتَزنى اليد وتَزنى الرِّجل ثم يَزنى الفرج وهو الفاحشة والعياذ بالله . فإذا استعف الإنسان عن هذا المحرم أعفَّه الله عز وجل وحماه وحمى أهله أيضًا .

ثانيًا : « من يستغن يُغنه الله » أى : من يستغن بما عند الله عما فى أيدى الناس يُغنه الله عز وجل . وأمَّا من يسأل الناس ويحتاج لما عندهم فإنه سيبقى قلبه فقيرًا والعياذ بالله ولا يستغنى .

والغنى غنى القلب ، فإذا استغنى الإنسان بما عند الله عما فى أيدى الناس أغناه الله عن الناس وجعله عزيز النفس بعيدًا عن السؤال .

ثالثًا : « من يتصبَّر يُصبره الله » أى يعطه الله الصبر .

فإذا حبست نفسك عمَّا حرم الله عليك وصبرت على ما عندك من الحاجة والفقر ولم تلح على الناس بالسُّؤال فإن اللَّه تعالى يصبرك ويعينك على الصبر ، وهذا هو الشَّاهد من الحديث لأنه فى باب الصبر .

ثم قال الرسول - ﷺ - : « وما أُعطى أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر » أى : ما مَنَّ الله على أحد بعطاء من رزق أو غيره خيرًا وأوسع من الصبر لأن الإنسان إذا كان صبورًا تحمَّل كل شىء ، إن أصابته الضراء صبر وإن عرض له الشيطان بفعل المحرم صبر، وإن خذله الشيطان عن ما أمر الله صبر .

فإذا كان الإنسان قد منَّ الله عليه بالصبر فهذا خير ما يُعطاه الإنسان وأوسع ما يعطاه ولذلك تجد الإنسان الصبور لو أوذى من قبل الناس لو سمع منهم ما يكره لو حصل منهم اعتداء عليه تجده هادئ البال ، لا يتَصلَّب ولا يغضب لأنه صابر على ما ابتلاه الله به فلذلك تجد قلبه دائمًا مطمئنًا ونفسه مستريحة .

Marfat.com

ولذا قال الرسول ـ ﷺ ـ : « ما أعطى أحد عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر » والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[٢٧] وعَنْ أَبِى يَحْيَى صُهَيْب بن سنَان ـ رضي الله عنه ـ قال:قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «عَجَبًا لأمْـرِ المُؤمن إنَّ أمْـرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذلكَ لأحَـد إلا للمُؤمن : إنْ أصَابَتْهُ سَرَّاءُ شكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ ، وَإنْ أصَابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيَراً لَهُ » رواه مسلم.

الشرح

« صهيب» هو الرُّومىّ .

وقوله : « عجبْت لأمر المؤمن إنَّ أمره كله له خيرٌ » أى : أن الرسول عليه الصلاة والسلام أظهر العجب على وجه الاستحسان « لأمر المؤمن » أى : لشأنه ، فإن شأنه كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن .

ثم فصَّل الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الأمر الخير فقال : « إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له » هذه حال المؤمن ، وكل إنسان فإنه فى قضاء الله وقدره بين أمرين :

إما سراء ، وإما ضراء ، والناس فى هذه الإصابة ينقسمون إلى قسمين :

مؤمن وغير مؤمن ، فالمؤمن على كُلِّ حال ما قدر الله له فهو خير له إن أصابته الضَّراء صبر على أقدار الله وانتظر الفرج من الله واحتسب الأجر على الله فكان خيرًا له فنال بهذا أجر الصابرين .

وإن أصابته سرَّاء من نعمة دينية كالعلم والعلم الصالح ونعمة دنيوية كمال والبنين والأهل شكر الله وذلك بالقيام بطاعة الله . لأن الشكر ليس مجرد قول الإنسان : أشكر الله ، بل هو القيام بطاعة الله عز وجل .

فيشكر الله فيكون خيرًا له ، ويكون عليه نعمتان : نعمة الدين ونعمة الدنيا .

---

[٢٧] صحيح : رواه مسلم (٢٩٩٩) .

Marfat.com

نعمة الدنيا بالسراء ، ونعمة الدين بالشكر ، هذه حال المؤمن .

وأما الكافر فهو على شر والعياذ بالله ، إن أصابته الضرَّاء لم يصبر بل يضجر ودعا بالويل والثبور وسبَّ الدهر وسبَّ الزمن بل وسب الله عز وجل .

وإن أصابته سراء لم يشكر الله فكانت هذه السراء عقابًا عليه في الآخرة . لأن الكافر لا يأكل أكلة ولا يشرب شربة إلا كان عليه فيها إثم ، وإن كان ليس فيها إثم بالنسبة للمؤمن لكن على الكافر إثم كما قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف : ٣٢] . هى للذين آمنوا خاصة وهى خالصة لهم يوم القيامة أما الذين لا يؤمنون فليست لهم ، ويأكلونها حرامًا عليهم ويُعاقبون عليها يوم القيامة .

فالكافر شر ، سواء أصابته الضراء أم السراء بخلاف المؤمن فإنه على خير .

وفى هذا الحديث : الحثُّ على الإيمان وأن المؤمن دائمًا فى خير ونعمة .

وفيه الحث على الصبر على الضراء وأن ذلك من خصال المؤمنين . فإذا رأيت نفسك عند إصابة الضراء صابرًا مُحتسبًا تنتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى وتحتسب الأجر على الله فذلك عنوان الإيمان ، وإن رأيت بالعكس فلُم نفسَك وعدل مسيرك وتُب إلى الله .

وفى هذا الحديث : الحث على الشكر عند السَّراء لأنه إذا شكر الإنسان ربه على نعمة فهذا من توفيق الله له وهو من أسباب زيادة النعم كما قال الله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] . وإذا وفق الله العبد لشكره فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرةً ثانية ، فإذا وفق فهى نعمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة وهكذا لأن الشكر قَل من يقوم به فإذا منَّ الله عليك وأعانك عليه فهذه نعمة .

ولهذا قال بعضهم :

إذا كـان شُكرى نعمةَ الله نعمة ... علـىَّ له فى مثلها يجبُ الشُّكرُ
فكيـف بُلُوغُ الشُّكرِ إلا بفضلـه ... وإن طالت الأيام واتصل العمر

وصدق ـ رحمه الله ـ فإن الله إذا وفقك للشكر فهذه نعمة تحتاج إلى شكر جديد فإن شكرت فهى نعمة تحتاج إلى شكر ثان وهلم جرا .

Marfat.com

ولكننا فى الحقيقة فى غفلة من هذا نسأل الله أن يوقظ قلوبنا وقلوبكم ويصلح أعمالنا وأعمالكم إنه جواد كريم .

❊ ❊ ❊

[٢٨] وعَنْ أنسٍ - رضي الله عنه - قال : لَمَّا ثقُلَ النَّبى - صلى الله عليه وسلم - جعَلَ يَتَغشَّاهُ الكَرْبُ فَقَالَتْ فَاطمَة رضى الله عنها : واكَرْبَ أبَتَاه . فقَالَ :« لَيْسَ علَى أبيك كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ» فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ : يا أبَتَاه أجَابَ ربًا دعَاه ، يَا أبَتَاه جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مأوَاه ، يَا أبَتَاه إلَى جبْريلَ نَنْعَا ، فَلَمَّا دُفنَ قَالَتْ فَاطمةَ - رضي الله عنها - : أطَابَتْ أنْفُسُكُمْ أنْ تَحثُوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم- التُّرَابَ ؟ رواه البخَارى .

الشرح

قوله : « جعل يتغشّاه الكَرْبُ » أى : من شدة ما يصيبه ، جعل يُغشى عليه من الكرب ، لأنه يُشدَّد عليه الوعك والمرض كان يوعك كما يوعك الرجلان من الناس .

والحكمة فى هذا من أجل أن ينال - صلى الله عليه وسلم - أعلى درجات الصَّبر ، فإن الصبر منْزلة عالية لا يُنال إلا بامتحان واختبار من الله عز وجل لأنه لا صبر إلا على مكروه .

فإذا لم يُصب الإنسان بشىء يكره فكيف يعرف صبره ولهذا قال الله : ﴿ولَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد : ٣١] . فكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يُوعك كما يوعك الرجلان من الناس .

فجعل يتغشّاه الكرب فتقول فاطمة - رضي الله عنها - « **واكرب أبتاه** » تتوجع له من كربه لأنها امرأة ، والمرأة لا تطيق الصبر .

فقال عليه الصلاة والسلام : « **لا كرب على أبيك اليوم** » لأنه لما انتقل من الدُّنيا انتقل إلى الرفيق الأعلى كما كان - صلى الله عليه وسلم - وهو يغشاه الموت يقول : « **اللهم الرفيق الأعلى اللهم الرفيق الأعلى** » (١) وينظر إلى سقف البيت .

تُوفى الرسول عليه الصلاة والسلام فجعلت - رضي الله عنها - تندبه لكنه ندب خفيف لا يدل

---

[٢٨] صحيح : رواه البخارى (٤٤٦٢) .

(١) صحيح : رواه البخارى (٤٤٤٠) مسلم (٢٤٤٤) .

Marfat.com

على التسخط من قضاء الله وقدره .

فجعلت تقول : « **يا أبتاه إلى جبريل ننعاه** » النعى هو الإخبار بموت الميت وقالت: إننا ننعاه إلى جبريل لأنه هو الذى كان يأتيه بالوحى صباحًا ومساءً .

فإذا فُقد الرسول عليه الصلاة والسلام فقد نزول جبريل إلى الأرض بالوحى ، لأنه انقطع بموت الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقوله : « **أجاب ربًا دعاه** » ؛ لأن الله هو الذى بيده ملكوت كل شىء ، آجال الخلق بيده ، تصريف الخلق بيده ، كل شىء إلى الله . إلى الله المنتهى وإلى الرُّجعى.

فأجاب داعى الله وهو أنه - ﷺ - إذا توفى صار كغيره من المؤمنين يُصعد بِرُوحه حتى توقف بين يدى الله عز وجل فوق السَّماء السابعة .

وقولها : « **جنة الفردوس مأواه** » - ﷺ - لأنه أعلى الخلق منزلة فى الجنة كما قال الرسول - ﷺ - : « **اسألوا لى الوسيلة فإنها أعلى درجة فى الجنة ولا تكون إلا لعبد من عابد الله فأرجو أن أكون أنا هو** » (٢) . ولا شك أن الرسول - ﷺ - مأواه جنة الفردوس ، وجنة الفردوس هى أعلى درجات الجنة ، وسقفها الذى فوقها عرش الرَّب جلَّ جلاله ، والرسول عليه الصلاة والسلام فى أعلى درجة منها .

ثم لما حُمل ودُفن قالت - رضي الله عنها - : « **أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله - ﷺ - التراب ؟** » يعنى من شدة وجدها عليه وحزنها ومعرفتها بأن الصحابة - رضي الله عنهم - قد ملأ قلوبهم محبة الرسول عليه الصلاة والسلام .

والجواب : أنها طابت لأنَّ هذا ما أراد الله عز وجل وهو شرع الله ولو كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُفدى بكل الأرض نفداه الصحابة - رضي الله عنهم - .

لكنَّ الله سبحانه هو الذى له الحكم وإليه المرجع وكما قال الله فى كتابه : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠، ٣١].

فى هذا الحديث بيان أن رسول الله - ﷺ - كغيره من البشر يمرض ويجوع ويعطش ويبرد ويحتر ، وجميع الأمور البشرية تعترى النبى - ﷺ - كما قال - ﷺ -: « **إنما أنا بشر**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٨٤) .

Marfat.com

مثلكم أنسى كما تنسون » (١) .

وفيه : رد على هؤلاء القوم الذين يُشركون بالرسول - ﷺ .

يَدعون الرسول ويستغيثون به وهو فى قبره ، بل إنَّ بعضهم والعياذ بالله لا يسأل الله ويسأل الرسول ! كأن الذى يجيب هو الرسول ، ولقد ضلُّوا فى دينهم وسفهُوا فى عقولهم ، فإنَّ الرسول - ﷺ - لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا فكيف يملك لغيره .

قال الله آمرًا نبيه : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ بل هو عبد من عباد الله ولهذا قال : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

وقال الله سبحانه له أيضًا : ﴿ قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ أى هذه وظيفتى ﴿ مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ ﴾ [الجن : ٢١ - ٢٣] . ولما أنزل الله قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] . دعا قرابته وجعل ينادى إلى أن قال : « يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى شئت لا أغنى عنك من الله شيئًا » (٢) إلى هذا الحد !! ابنته التى هى بِضعةٌ منه والتى يريبه ما رابها!!

فهذا دليل على أن مَنْ سواها من باب أولى .

ففيه بيان ضلال هؤلاء الذين يدعون الرسول - ﷺ - ، تجدهم فى المسجد النبوى عند الدعاء يتجهون إلى القبر ويَصمدون أمام القبر كصمودهم أمام الله فى الصلاة أو أشد .

وفى هذا الحديث : دليل على أنه لا بأس بالنَّدب اليسير إذا لم يكن مؤذنًا بالتسخط على الله عز وجل ، لأن فاطمة ندبت الرسول عليه الصلاة والسلام لكنه ندب يسير وليس يَنُم عن اعتراض على قدر الله عز وجل .

وفيه دليل على أن فاطمة بنت محمد - ﵂ - بقيت بعد موته ولم يبق من أولاده بعده إلا فاطمة ، كل أولاده من بنين وبنات ماتوا فى حياته .

(١) صحيح : رواه البخارى (٤٠١) مسلم (٥٧٢) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٢٧٥٣) مسلم (٢٠٤) .

Marfat.com

بقيت فاطمة وليس لها ميراث ولا أزواجه ولا عمُّه العباس ولا أحد من عصبته لأن الأنبياء لا يُورثون كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **إنا معشر الأنبياء لا نُورَث ما تركنا صدقة** » (١) .

وهذا من حكمة الله عز وجل لأنهم لو ورثوا لقال من يقول إن هؤلاء جاؤوا بالرسالة يطلبون مُلكًا يُورث من بعدهم ولكن الله منع ذلك .

فالأنبياء لا يُورثون بل ما يتركونه صدقة يصرف للمستحقين له ، والله الموفق .

***

[٢٩] وَعَنْ أبى زَيْد أُسَامَةَ بن زَيْد بن حَارِثَةَ مَوْلى رسول الله - ﷺ - وَحِبِّه وَابن حِبِّه ، - ﵄ - رضى الله عنهما ، قَالَ : أرْسَلَتْ بنْتُ النَّبىِّ - ﷺ - : إنَّ ابْنى قَدِ احْتُضِرَ فَاشْهَدْنَا ، فأرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلامَ وَيَقُول : « إنَّ لله مَا أخَذَ ، وَلَهُ مَا أعْطَى ، وَكُلُّ شَىْء عِنْدَهُ بأجَلٍ مُسَمًّى ، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » فَأرْسَلَتْ إلَيْه تُقْسِمُ عَلَيْه لَيَأتيَنَّهَا . فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بن عُبَادَةَ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ،وَأُبَىُّ بْن كَعْب ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابت ، وَرجَالٌ - ﷺ - ، فَرُفِعَ إلَى رسول الله - ﷺ - الصبى فأقعده في حجره ونَفْسُه تقعقع ، ففاضت عيناه ، فقال سعد: يا رسول الله، مَا هذا ؟ فَقَالَ :« هذه رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللهُ تَعَالَى فى قُلُوب عباده » وفى رواية : « فى قُلُوبِ مَن شَاء مِنْ عِبَادِهِ وَإنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ من عِبَاده الرُّحَمَاءَ » مَتفقٌ عليه .

وَمَعْنَى « تَقَعْقَعُ » : تَتَحَرَّكُ وَتَضْطَرِبُ .

الشرح

أسامة بن زيد بن حارثة ، وزيد بن حارثة كان مولى لرسول الله - ﷺ - وكان عبدًا فأهدته إليه خديجة - ﵂ - فأعتقه فصار مولى له وكان يُلقب بحبِّ رسول الله - ﷺ - أى حبيبه وابنه حِبّ فأسامة حِبُّه وابن حِبِّه - ﵄ - .

ذُكر أنَّ إحدى بنات الرسول - ﷺ - أرسلت إليه رسولاً تقول له : إن ابنها قد احتضر أى حضره الموت ، وأنها تطلب من الرسول - ﷺ - أن يحضر ، فبلغ الرسولُ

(١) صحيح : رواه البخارى (٥٣٥٨) مسلم (١٧٥٧) .

[٢٩] صحيح : رواه البخارى (١٢٨٤) ، ومسلم (٩٢٣) .

Marfat.com

رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال له : « **مرها فلتصبر ولتحتسب فإن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى** » .

أمر الرسولُ الرسول بهذا !!

قوله : « **فلتصبر** » أى : فلتحبس نفسها عن السّخط وتتحمل المصيبة .

وقوله : « **ولتحتسب** » أى : تحتسب الأجر على الله بصبرها لأن من الناس من يصبر ولا يحتسب .

يصبر على المصيبة ولا يتضجر ، لكنه ما يُؤَمِّل أجرها على الله فيفوته بذلك خير كثير لكن إذا صبر واحتسب الأجر على الله فهذا هو الاحتساب .

قوله : « **فإن لله ما أخذ وله ما أعطى** » هذه الجملة عظيمة !

إذا كان الشيء كله لله إن أخذ منك شيئًا فهو ملكه وإن أعطاك شيئًا فهو ملكه فكيف تسخط إذا أخذ منك ما يملكه هو ؟

عليك إذا أخذ الله منك شيئًا محبوبًا لك أن تقول هذا لله له أن يأخذ ما يشاء وله أن يُعطى ما شاء .

ولهذا يُسن للإنسان إذا أصيب بمصيبة أن يقول : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ يعنى نحن ملك لله يفعل بنا ما يشاء ، كذلك ما نحبه إذا أخذه من بين أيدينا فهو له عز وجل، حتى الذى يعطيك أنت لا تملكه هو لله ولهذا لا يمكن أن تتصرف فيما أعطاك الله إلا على الوجه الذى أذن لك فيه ، وهذا دليلٌ على أن ملكنا لما يعطينا الله ملك قاصر ما نتصرف فيه تصرفًا مطلقًا .

لو أراد الإنسان أن يتصرف فى ماله تصرفًا مطلقًا على وجه لم يأذن به الشرع قلنا له أمسك لا يمكن لأن المال مال الله كما قال سبحانه : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور : ٣٣] . فلا تتصرف فيه إلا على الوجه الذى أذن لك فيه .

ولهذا قال : « ولله ما أخذ وله ما أعطى » فإذا كان لله ما أخذ فكيف نجزع وكيف نتسخط أن يأخذ المالك ما ملك هذا خلاف المعقول والمنقول !

قال : « وكل شيء عنده بأجل مسمى » فكل شيء عنده بمقدار كما قال الله فى

Marfat.com

القرآن الكريم : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] . بمقدار فى زمانه ومكانه وذاته وصفاته وكل ما يتعلق به فهو عند الله مقدر .

وأجل مسمى أى : معين ، فإذا أيقنت بهذا اقتنعت وهذه الجملة الأخيرة تعني : أن الإسنان لا يمكن أن يغير المكتوب المؤجل لا بتقديم ولا بتأخير كما قال الله : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس:٤٩].

فإذا كان الشىء مقدرًا لا يتقدم ولا يتأخَّر فلا فائدة من الجزع والتسخط لأنه وإن جزعت أو تسخطت لن تغير شيئًا من المقدور .

ثم إن الرسول أبلغ البنت ما أمره أن يبلغه إياها ولكنها أرسلت إليه تطلب أن يحضر فقام عليه الصلاة والسلام هو وجماعة من أصحابه ، فوصل إليها فرفع إليه الصبى ونفسه تتقعقع أى : تضطرب تَصعد وتنْزل فبكى الرسول عليه الصلاة والسلام ودمعت عيناه . فقال سعد بن عبادة ـ وكان معه وهو سيد الخزرج ـ ما هذا ؟ ظن أن الرسول ـ ﷺ ـ بكى جزعًا فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **هذه رحمة** » . أى بكيت رحمة بالصبى لا جزعًا بالمقدور .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **إنما يرحم الله من عباده الرحماء** » ففى هذا دليل على جواز البكاء رحمة بالمصاب .

إذا رأيت مصابًا فى عقله أو بدنه فبكيت رحمة به فهذا دليل على أن الله جعل فى قلبك رحمة وإذا جعل الله فى قلب الإنسان رحمة كان الرحماء الذين يرحمهم الله عز وجل . نسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته .

ففى هذا الحديث دليل على وجوب الصبر لأن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « **مُرها فلتصبر ولتحتسب** » . وفيه دليل على أن هذه الصيغة من العزاء أفضل صيغة .

أفضل من قول بعض الناس : « **أعظم الله أجرك ، وأحسن عزاءك ، وغفر لميتك** » هذه صيغة اختارها بعض العلماء لكن الصيغة التى اختارها الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل ، لأن المصاب إذا سمعها اقتنع أكثر .

والتعزية فى الحقيقة ليست تهنئة كما ظنها بعض العوام ! يحتفل بها ويوضع لها الكراسى وتوضع لها الشموع ويحضر لها القراء والأطعمة !! لا . التعزية تسلية وتقوية

Marfat.com

للمصاب أن يصبر .

ولهذا لو أن أحداً لم يصب بالمصيبة كما لو مات له ابن عم ولم يهتم به فإنه لا يعزى. ولهذ قال العلماء : « تُسنُّ تعزية المُصاب » ولم يقولوا تسن تعزية القريب ؛ لأن القريب ربما لا يصاب بموت قريبه والبعيد يصاب لقوة صداقة بينهما مثلاً .

أما الآن مع الأسف انقلبت الموازين وصارت التعزية للقريب حتى وإن فرح وضرب الطبول لموت قريبه فإنه يعزى .

ربما يكون بعض الناس فقيراً وبينه وبين ابن عمه مشاكل كثيرة ومات ابن عمه وله ملايين الدراهم هل يفرح إذا مات ابن عمه فى هذه الحال أو يصاب ؟ غالبًا يفرح ، ويقول الحمد لله الذى فكّنى من مشاكله وورثّنى ماله !

هذا لا يعزى هذا يُهنأ لو أردنا أن نقول شيئًا . والله الموفق .

***

[٣٠] وعَنْ صُهَيْب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « كَانَ مَلكٌ فيمَنْ قَبْلَكُمْ، وكَانَ لَهُ سَاحرٌ ، فَلَمَّا كَبرَ قَالَ للمَلك : إنّى قَدْ كَبرْتُ فَابعَث إلَىَّ غُلَاماً أُعلمهُ السحْرَ ؛ فَبَعَثَ إلَيْه غُلَاماً يُعَلمهُ ، وكَانَ فى طَريقه إذَا سَلَكَ رَاهبٌ ، فَقَعَدَ إليْه وسَمعَ كَلَامَهُ فَأعْجَبَه ؛ وكَانَ إذَا أتى السَّاحرَ مَرَّ بالرَّاهب وقَعَدَ إلَيْه، فَإذَا أتى السَّاحرَ ضَرَبَهُ فشكَا ذلكَ إلَى الرّاهب فقَالَ : إذَا خَشيتَ السَّاحرَ فَقُلْ : حَبَسَنَى أهْلى ، وإذا خَشيتَ أهْلَكَ فقُل : حَبَسَنى السَّاحرُ .

فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلكَ إذْ أتَى عَلَى دابَّة عَظيمَة قَدْ حَبَست النَّاس فَقَالَ : اليوْمَ أعلَم السَّاحرُ أفْضَلُ أم الرَّاهبُ أفْضَلُ ؟ فَأخَذَ حَجَراً فقَالَ : اللَّهُمَّ إنْ كَانَ أمْرُ الرَّاهب أحَبَّ إلَيْكَ منْ أمر السَّاحر فَاقْتُلْ هذه الدَّابَّةَ حَتَّى يَمضىَ النَّاسُ ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ ، فأتَى الرَّاهبَ فأخْبَرَهُ . فَقَالَ لَهُ الرَّاهبُ : أىْ بُنَىَّ أنْتَ اليَوْمَ أفضَلُ منى ، قَدْ بَلَغَ منْ أمْركَ مَا أرَى ، وإنَّكَ ستُبْتَلى ، فَإن ابتُليتَ فلا تَدُلَّ عَلَىَّ ، وكَانَ الغُلَامُ يُبرئُ الأكْمَهَ وَالأبْرَصَ ، ويُدَاوى النَّاسَ منْ سَائر الأدْوَاء . فَسمعَ جَليسٌ

---

[٣٠] صحيح : أخرجه مسلم (٣٠٠٥) .

Marfat.com

للمَلك كَانَ قدْ عمِيَ ، فَأتاه بهدَايَا كثيرة فقَالَ : ما هَاهُنَا لَكَ أجْمعُ إنْ أنْتَ شفَيْتَنى ، فَقَالَ : إنّى لا أشْفى أحداً، إنَّمَا يَشفِى اللهُ تعالى، فإنْ آمنْتَ بالله تَعالَى دَعوْتُ الله فَشفَاكَ ، فآمَنَ بالله تعالى فَشفَاهُ الله تعالى ، فَأتَى المَلكَ فَجلَس إليْه كما كَانَ يَجْلسُ فقال لَهُ المَلكُ : مَنْ ردَّ عَلَيْكَ بَصرَكَ ؟ قَالَ : ربّى ، قَال : وَلَكَ رَبٌّ غَيْرى ؟! قَال : رَبّى وربُّكَ اللهُ ، فَأخَذَهُ فَلَمْ يزَلْ يُعذبهُ حَتَى دَلَّ عَلى الغُلام ، فَجىءَ بالغُلَام فقالَ لَهُ المَلكُ : أىْ بُنَىّ ، قَد بَلَغَ مِنْ سحْركَ ما تُبرِئُ الأكْمَهَ والأبرص وتَفعَلُ وَتَفعَلُ فقالَ : إنّى لا أشفى أحداً ، إنَّمَا يَشفى الله تعالى ، فَأخذَهُ فَلَمْ يزَلْ يُعذّبُهُ حتّى دلَّ على الرّاهب ؛ فَجىءَ بالرَّاهب فقيلَ لَهُ: ارجعْ عَنْ دينكَ ، فَأبَى ، فَدعَا بالمنْشار فَوضعَ المنْشَارَ فى مَفْرق رَأسه ، فَشقَّهُ حَتَّى وقَع شقَّاهُ ، ثُمَّ جىءَ بجَليس المَلك فقيلَ لَهُ : ارْجعْ عَنْ دينكَ فَأبَى ، فَوضعَ المنْشَارَ فى مَفْرق رَأسه ، فَشقَّه به حَتَّى وقَعَ شقَّاه،ثُمَّ جىءَ بالغُلَام فقيلَ لَهُ : ارجعْ عَنْ دينكَ فَأبَى ، فَدفَعهُ إلَى نَفَر مِنْ أصْحَابه فَقَال : اذْهَبُوا به إلَى جبَل كَذَا وكَذَا فاصْعَدُوا به الجَبَلَ ، فَإذَا بَلَغْتُمْ ذرْوَتَهُ فَإنْ رجَعَ عَنْ دينه وَإلا فاطْرَحُوهُ ، فَذَهبُوا به فَصعَدُوا به الجَبل فقالَ : اللهُمَّ اكْفنيهمْ بمَا شئْتَ ، فَرجَفَ بهمُ الجَبلُ فَسقَطُوا ، وَجَاءَ يَمْشى إلَى المَلك ، فَقَالَ لَهُ المَلكُ : مَا فُعلَ بأصْحَابكَ ؟ فَقال : كَفَانيهمُ الله تعالى ، فَدفَعهُ إلى نَفَر مِنْ أصْحَابه فقالَ : اذْهبُوا به فاحملُوهُ فى قُرْقُور وَتَوسَّطُوا به البَحْرَ ، فَإنْ رَجعَ عَنْ دينه وَإلا فاقْذفُوهُ ، فَذَهبُوا به فقالَ : اللَّهُمَّ اكْفنيهمْ بمَا شئتَ ، فانكَفأتْ بهمُ السَّفينةُ فَغَرقُوا ، وَجاءَ يَمْشى إلَى المَلك ، فقالَ لَهُ المَلكُ : مَا فُعلَ بأصْحَابكَ ؟ فَقَال : كَفَانيهمُ الله تعالى ، فقالَ للمَلك : إنَّكَ لَسْتَ بقَاتلي حَتَّى تفْعَلَ ما آمُرُكَ به ، قالَ : مَا هُوَ ؟ قالَ : تجْمع النَّاسَ فى صَعيد واحد ، وَتَصلُبُنى عَلَى جذْع ، ثُمَّ خُذْ سَهْماً منْ كنَانَتى ، ثُمَّ ضَع السَّهْمَ فى كَبد القَوْس ثُمَّ قُلْ : بسْم الله رَبّ الغُلام ، ثُمَّ ارمنى ، فإنَّكَ إذَا فَعلْتَ ذلكَ قَتَلْتنى ، فَجمعَ النَّاس فى صَعيد وَاحد ، وصلبه عَلَى جذْع ، ثُمَّ أخَذَ سَهْماً منْ كنَانَته ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فى كَبد القَوْس ، ثُمَّ قال : بسم الله رَب الغُلام ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغه ، فَوضَعَ يدَهُ فى صُدْغه فَمَاتَ ، فَقالَ النَّاسُ : آمَنَّا برَبّ الغُلام، فَأُتى المَلكُ فَقيلَ لَهُ : أرأيْتَ مَا كُنتَ تحْذَرُ قَدْ وَالله نَزلَ بكَ حَذَرُكَ . قَدْ آمَنَ النَّاسُ . فَأمَرَ بالأخْدُود بأفْواه السّكَك فَخُدَّتْ وَأُضْرمَ فيهَا النّيرَانُ وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرجعْ عَنْ دينه فأقْحمُوهُ فيهَا ، أوْ

Marfat.com

قيل لَهُ : اقْتَحمْ ، ففعلُوا حتّى جاءَت امْرأةٌ ومَعهَا صَبِيٌّ لَهَا ، فتقَاعسَتْ أنْ تقعَ فيهَا ، فَقَالَ لَهَا الغُلَامُ : يَا أُمَّاهُ ، اصبِرِى فَإنَّك عَلَى الحَقّ » رواه مسلم .

« ذرْوَةُ الجَبَل » : أعْلاهُ ، وَهىَ بكَسْر الذَّال المُعْجَمة وَضَمّهَا ، وَ « القُرْقُورُ » بضَمّ القَافَيْن : نَوعٌ منَ السُّفُن ، وَ « الصَّعيد » هُنَا : الأرْضُ البَارزَة ، وَ «الأخْدُودُ» : الشقوقُ فى الأرض كَالنَّهْر الصَّغير ، وَ « أُضْرِمَ » : أوقدَ ، وَ «انْكفَأتْ » أى: انقَلَبت، وَ «تَقاعَسَتْ» : توقّفَتْ وجَبُنَتْ .

الشرح

هذا الحديث الذى ذكره المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فى باب الصبر فيه قصة عجيبة: وهى أنَّ رجلاً من الملوك فيمن سبق كان عنده ساحر هذا الساحر اتخذه الملك بطانة من أجل أن يستخدمه فى مصالحه ولو على حساب الدين لأن هذا الملك لا يهتم إلا بما فيه مصلحته وهو ملك مستبد قد عبَّد الناس لنفسه كما سيأتى فى آخر الحديث.

هذا الساحر لما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث إلى غلامًا أعلمه السحر .

واختار الغلام لأن الغلام أقبل للتعليم ولأن التعليم للغلام الشاب هو الذى يبقى ولا ينسى ولهذا كان التعلم فى الصغر خيرًا بكثير من التَّعلم فى الكبر وفى كل خير .

لكن التَّعلم فى الصِّغر فيه فائدتان عظيمتان بل أكثر :

الفائدة الأولى : أن الشاب فى الغالب أسرع حفظًا من الكبير لأن الشاب فارغ البال ليست عنده مشاكل توجب انشغاله .

وثانيًا : أن ما يحفظه الشاب يبقى وما يحفظه الكبير ينسى ولهذا كان من الحكمة الشائعة بين الناس « أن العلم فى الصِّغر كالنقش على الحجر » لا يزول .

وفيه فائدة ثالثة : وهى أنَّ الشاب إذا ثُقِّف العلم من أول الأمر صار العلم كالسجية له والطَّبيعة له وصار كأنه غريزة قد شبَّ عليه فيشيب عليه .

فهذا الساحر ساحرٌ كبير قد تقدَّمت به السِّن وجربَ الحياة وعرف الأشياء فطلب من الملك أن يختار له شابًا غلامًا يُعلمه السحر ، فبعث إليه غلامًا ، فعلَّمه ما علَّمه ، ولكن الله تعالى قد أراد بهذا الغلام خيرًا !

مرَّ هذا الغلام يومًا من الأيام براهب ، فسمع منهُ فأعجبه كلامُه ، لأنَّ هذا الراهب ـ

Marfat.com

يعنى العابد ـ عابد لله عز وجل ، لا يتكلم إلا بالخير ، وقد يكون راهبًا عالمًا لكن تغلب عليه العبادة فسُمى بما يغلب عليه من الرهبانية .

المهم أنه أعجبه وصار إذا خرج هذا الغلام من أهله جلس عند الرَّاهب فتأخَّر على السَّاحر .

فجعل السَّاحر يضربه ، لماذا تتأخر ؟ فشكا الغلام إلى الراهب ما يجده من السَّاحر من الضرب إذا تأخر .

فلقَّنه الرَّاهب أمرًا يتخلص به ، قال : إذا ذهبت إلى الساحر وخشيت أن يُعاقبك فقل إن أهلى حَبسونى ، أى : تأخَّر عند أهله ، وإذا أتيت عند أهلك فقل إنَّ الساحر حبسنى ، حتى تنجو من هذا ومن هذا .

وكأن الراهب والله أعلم أمره بذلك مع أنَّه كذب لهله رأى أن المصلحة فى هذا تَرْبُو على مفسدة الكذب مع أنَّه يمكن أن يتأول !!

ففعل فصار الغلام يأتى إلى الراهب ويسمع منه ثم يذهب إلى الساحر ، فإذا أراد أن يُعاقبه على تأخره قال : إنَّ أهلى أخَّرُونى وإذا رجع إلى أهله وتأخر عند الرَّاهب قال : إنَّ السَّاحر حبسنى ، فمر ذات يوم بدابة عظيمة ولم يعين فى الحديث ما هذه الدابة ، قد حبست الناس عن التجاوز ، فلا يستطيعون أن يتجاوزوها فأراد هذا الغلام أن يختبر هل الراهب خير له أم السَّاحر ، فأخذ حَجَرًا ودعا الله سبحانه وتعالى : إن كان أمر الرَّاهب خيرًا أن يقتل هذا الحجر هذه الدَّابة ، فرمى بالحجر فقتل الدَّابة فمشى الناس .

فعرف الغلام أن أمر الرَّاهب خير من أمر السَّاحر وهذا أمر لاشك فيه لأن السَّاحر إما مُعتد ظالم وإمَّا كافر مُشرك ، فإن كان يستعين على سحره بالشيَّاطين يتقرب إليهم ويعبدهم ويدعوهم ويتسغيث بهم فهو كافر مشرك ، وإن كان لا يفعل هذا لكن يعتدى على الناس بأدوية فيها سحر فهذا ظالم معتد .

أمَّا الراهب فإن كان يعبد الله على بصيرة فهو مهتد ، وإن كان عنده شىء من الجهل والضَّلال فنيته طيبة وإن كان علمه سيئًا .

المهم أن هذا الغلام أخبر الراهب بما جرى فقال له الرَّاهب : أنت اليوم خير منى، وذلك لأن الغلام دعا الله فاستجاب الله له .

Marfat.com

ومن هنا شُرعت الاستخارة للإنسان إذا همَّ بالأمر وأشكل عليه هل فى إقدامه خير أم فى إحجامه خير ، فإنَّه يستخير الله وإذا استخار الله بصدق وإيمان فإن الله يعطيه ما يستدل به على أن الخير فى الإقدام أو الإحجام ، إما بالشىء يلقيه فى قلبه ينشرح صدره لهذا أو لهذا وإما برؤيا يراها فى المنام ، وإما بمشورة أحد من النَّاس وإما بغيره .

المهم أن هذا الغلام كان من كراماته أنَّه يُبرئ الأكمه والأبرص ، يعنى أنه يدعو لهم فيبرءون ، وهذا من كرامات الله له .

وليس كقصة عيسى ابن مريم يمسح صاحب العاهة فيبرأ بل هذا يدعو الله فيستجيب الله دعاءه ، فيبرأ بدعائه الأكمه والأبرص .

وقد أخبر الراهب الغلام أن سيبتلى ، يعنى سيكون له محنة واختبار وطلب منه ألا يخبر به إن هو ابتلى بشىء .

❊ ❊ ❊

وكان هذا الغلام والله أعلم مستجاب الدعوة إذا دعا الله قَبِلَ منه .

وكان للملك جليس أعمى ـ لا يبصر ـ فأتى بهدايا كثيرة لهذا الغلام حين سمع عنه ما سمع وقال : لك ما ها هنا أجمع ـ أى كله ـ إن أنت شفيتنى ، فقال : إنما يشفيك الله .

انظر إلى الإيمان لم يغتر بنفسه وادَّعى أنه هو الذى يشفى المرضى ، بل قال : إنما يشفيك الله عز وجل .

يُشبه هذا من بعض الوجوه ما جرى لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ حينما جىء إليه برجل مصروع قد صرَعه الجنى فقرأ عليه الشَّيخ ولكنه لم يخرج فجعل شيخ الإسلام يضربه على رقبته ضربًا شديدًا حتى إن يد الشيخ أوجعته من الضرب . فتكلم الجنى الذى فى الرجل وقال له : أخرج كرامة للشيخ !!

فقال له الشيخ : لا تخرج كرامة لى ولكن اخرج طاعة لله ولرسوله . لا يريد أن يكون له فضل بل الفضل لله أولاً وآخرًا ، فخرج الجنِّى وعندها استيقظ الرجل فقال : ما الذى جاء بى إلى حضرة الشيخ ؟! لانه حينما صرع يمكن أنه كان فى بيته أو سوقه . فقالوا : سبحان الله ألم تحس بالضرب الذى كان يضربك . قال : ما أحسست به ولا

Marfat.com

أوجعنى ، فأخبروه فبرئ الرجل .

الشاهد أن أهل العلم والإيمان لا ينسبون نعمة الله إليهم وإنما ينسبونها إلى مُوليها عز وجل وهو الله .

وقال له : « **إن أنت آمنت دعوت الله لك** » فآمن الرجل فدعا الغلام ربَّه أن يَشفيه فشفاه الله فأصبح مبصرًا .

فجاء هذا الجليس إلى الملك وجلس عنده على العادة وأتى بالغلام وأخبره بالخبر وعذبه تعذيبًا شديدًا قال : من الذى علمك بهذا الشىء ، وكان الراهب قد قال له : إنك ستَبتلى فإن ابتليت فلا تخبر عني ولكن لعله عجز عن الصبى فأخبر عن الراهب.

وكان هذا الملك الجبار والعياذ بالله قد عذَّب هذا الجليس الأعمى الذى آمن بدعوة هذا الغلام ، عذبه تعذيبًا شديدًا حيث قال : آمنت بالله . قال : أولك ربٌّ غيرى ـ نعوذ بالله .

لما دلو على الراهب ، جىء بالراهب ـ والراهب عابد يعبد الله ـ فدعى إلى أن يقول: هذا الملك هو ربه ولكنه أبى أن يرجع عن دينه .

فأتوا بالمنشار فنشروه من مفرق رأسه ـ نصف الجسم ـ فبدءوا بالرأس ثم الرقبة ثم الظهر حتى انقسم قسمين ـ شقين شقٌّ هنا وشقٌّ هنا ـ ولكنه لم يُثنه ذلك عن دينه ، أبى أن يرجع ورضى أن يقتل هذه القتلة ولا يرجع عن دينه ، ما شاء الله !! ثم جئ بالرجل الأعمى الذى كان جليسًا عند الملك وآمن وكفر بالملك فدُعى أن يرجع عن دينه فأبى ففعل به كما فعل بالراهب ، ولم يَرُدَّه ذلك عن دينه . وهذا يدل على أن ينبغى للإنسان أن يصبر وأن يحتسب .

ولكن هل يجب على الإنسان أن يصبر على القتل أو يجوز أن يقول كلمة الكفر ولا تضره إذا كان مكروهًا ؟

هذا فيه تفصيل : إن كانت المسألة تتعلق به نفسه فله الخير إن شاء قال كلمة الكفر دفعًا للإكراه مع طمأنينة القلب بالإيمان . وإن شاء أصرَّ وأبى ولو قتل ، هذا إذا كان الأمر عائدًا إلى الإنسان بنفسه .

إما إذا كان الأمر يتعلق بالدين بمعنى أنه لو كفر ولو ظاهرًا أمام الناس فإنه لا يجوز

Marfat.com

له أن يقول كلمة الكفر بل يجب أن يصبر ولو قتل ، كالجهاد فى سبيل الله . المجاهد يقاتل ولو قتل لأنه يريد أن تكون كلمة الله هى العليا فإذا كان إمامًا للناس وأُجبر على أن يقول كلمة الكفر فإنَّه لا يجوز أن يقول كلمة الكفر لا سيما فى زمن الفتنة بل عليه أن يصبر ولو قُتل .

ومثل ذلك ما وقع للإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ حين امتُحن المحنة العظيمة المشهورة على أن يقول إن القرآن مخلوق وليس كلام الله فَأَبَى فأُوذى وعزر حتى إنه يجر بالبغلة بالأسواق ـ إمام أهل السنة ـ يجر بالبغلة بالأسواق ويضرب بالسوط حتى يغشى عليه !! ولكنه كلما أفاق قال : القرآن كلام ربى غير مخلوق .

وإنما يجز لنفسه أن يقول كلمة الكفر مع الإكراه لأن الناس ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد فلو قال القرآن مخلوق لصار كل الناس يقولون القرآن مخلوق وفسد الدين .

ولكنه ـ ﷺ ـ جعل نفسه فداءً للدين ومع هذا صبر واحتسب وكانت العاقبة له ولله الحمد .

مات الخليفة ومات الخليفة الثانى الذى بَعده وأتى الله بخليفة صالح أكرم الإمام أحمد إكرامًا عظيمًا فما مات الإمام أحمد حتى أقرَّ الله عينه بأن يقول الحق عاليًا مرتفع الصَّوت ويقول الناس الحق معه .

وخُذل أعداؤه ولله الحمد وهذا دليل على أن العاقبة للصَّابرين وهو كذلك ، والله الموفق .

فأبى الغلام أن يرجع عن دينه فدفعه الملك إلى نفر من أصحابه أى جماعة من الناس وقال لهم : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا جبل معروف عندهم شاهق رفيع وقال لهم : إذا بلغوا ذروته فاطرحوه يعنى على الأرض ، ليقع من رأس الجبل فيموت بعد أن تَعرضُوا عليه أن يرجع عن دينه فإن رجع وإلا فاطرحوه .

فلما بلغوا به قمة الجبل فطلبوا منه أن يَرجع عن دينه فأبى لأن الإيمان قد وقر فى قلبه ولا يمكن أن يتحول أو يتزحزح ، فلما همُّوا أن يطرحوه قال : « اللَّهمَّ اكفنيهم بما شئت » .

دَعوة مضطر مؤمن : « اللَّهُمَّ اكفِنيهم بما شِئتَ » أى : بالذى تشاء ولم يُعيِّن ،

Marfat.com

فرجف اللهم بهم الجبل فسقطوا وهلكوا وجاء الغلام إلى الملك فقال : ما الذى جاء بك أين أصحابك ؟ فقال : قد كفانيهم الله عز وجل ، ثم دَفَعه إلى جماعة آخرين وأمرهم أن يركبوا البحر فى قرقور - أى سفينة - فإذا بلغوا لجة البحر عرضوا عليه أن يرجع عن دينه فإن لم يفعل رمَوه فى البحر .

فلما توسَّطوا من البحر عَرَضوا عليه أن يرجع عن دينه وهو الإيمان بالله عز وجل فقال : لا ! فقال : « اللَّهمَّ اكفنيهم بما شئت » فانقلبت السَّفينة وغرقوا وأنجاه الله ثم جاء إلى الملك فقال له : أين أصحابك ؟ فأخبره بالخبر ثم قال له : إنك لَستَ قاتلى حتى تفعل ما آمرك به قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، كل أهل البلاد ، ثم تصلبنى على جذع ثم تأخذ سهمًا من كنانتى فتضعه فى كبد القوس ثم ترمينى به وتقول : بسم الله رب الغلام ، فإن إن فعلت ذلك قتلتنى .

فجمع الملك النَّاس فى صَعيد واحد وصلَب الغلام وأخذ سهمًا من كنانته فوضعها فى كبد القوس ثم رماه وقال : بسم الله رب الغلام ثم رماه فأصابه السهم فى صدغه فوضع يده عليه ومات فأصبح الناس يقولون : آمنا برب الغلام وآمنوا بالله وكفروا بالملك ، وهذا هو الذى كان يريده هذا الغلام .

ففى هذه القطعة من الحديث دليل على مسائل :

أولاً : على قوَّة إيمان هذا الغلام وأنَّه لم يتزحزح عن إيمانه ولم يتحولّ .

ثانيًا : فيه آية من آيات حيث أكرمه الله عز وجل بقبول دعوته فزلزل الجبل بالقوم الذين يريدون أن يطرحوه من رأس الجبل حتى سقطوا .

ثالثًا : أن الله عز وجل يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، فإذا دعا الإنسان ربه فى حال ضرورة مُوقنًا أن الله يجيبه فإن الله تعالى يُجيبه حتى الكفار إذا دعوا الله فى حال الضَّرورة أجابهم الله مع أنه يعلم أنهم سيرجعون إلى الكفر . إذا غشيهم موج كالظُّلل فى البحر دعوا الله مخلصين له الدِّين فإذا أنجاهم أشركوا ، فينجيهم لأنهم صدقوا فى الرجوع إلى الله عند دعائهم وهو سبحانه يجيب المضطر ولو كان كافرًا .

رابعًا : أن الإنسان يجوز أن يغرر بنفسه فى مصلحة عامَّة للمسلمين فإن هذا الغلام دلَّ الملك على أمر يقتله به ويهلك به نفسه وهو أن يأخذ سهمًا من كنانته . . . إلخ .

Marfat.com

قال شيخ الإسلام : « لأن هذا جهاد في سبيل الله ، آمنت أمَّة وهو لم يفتقد شيئًا لأنه مات وسيموت آجلاً أو عاجلاً » .

فأمَّا ما يفعله بعض الناس من الانتحار بحيث يحمل آلات متفجرة ويتقدم بها إلى الكفار ثم يفجرها إذا كان بينهم ، فإذا هذا من قتل النَّفس والعياذ بالله .

ومن قتل نفسه فهو خالد مخلد في نار جهنم أبد الآبدين كما جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام (١) .

لأن هذا قتل نفسه لا في مصلحة الإسلام لأنه إذا قتل نفسه وقتل عشرة أو مائة أو مائتين ، لم ينتفع الإسلام بذلك فلم يُسلم النَّاس ، بخلاف قصة الغلام . وهذا ربما يتعنت العدو أكثر ويوغر صدره هذا العمل حتى يفتك بالمسلمين أشد الفتك .

كما يوجد من صنع اليهود مع أهل فلسطين فإن أهل فلسطين إذا مات الواحد منهم بهذه المتفجرات وقتل ستة أو سبعة أخذوا من جراء ذلك ستين نفرًا أو أكثر فلم يحصل في ذلك نفع للمسلمين ولا انتفاع للذين فُجرت المتفجرات في صفوفهم .

ولهذا نرى أنَّ ما يفعله بعض الناس من هذا الانتحار نرى أنه قتل للنفس بغير حق وأنَّه مُوجب لدخول النَّار والعياذ بالله وأن صاحبه ليس بشهيد . لكن إذا فعل الإنسان هذا متأولاً ظانًا أنَّه جائز فإننا نرجو أن يَسلم من الإثم ، وأما أن تكتب له الشَّهادة فلا ؛ لأنه لم يسلك طريق الشهادة ، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر .

❊ ❊ ❊

[٣١] وَعَنْ أنس - رضي الله عنه - رضي الله عنه قال : مَرَّ النَّبِي - ﷺ - بامْرَأة تَبْكِي

---

(١) البخاري (٥٧٧٨) مسلم (١٠٩) .

قال الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله تعالى - : الخلود خلودان : خلود لا نهاية له ، وهذا خلود الكفار ليس لخلودهم في النار نهاية بل أبد الآباد ، وهناك خلود مؤقت له نهاية ، وهو خلود بعض العصاة كما قال الله عز وجل : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] هذا خلود غير مستمر بل له نهاية ، وهكذا قاتل نفسه وهكذا الزاني موعود بالنار والخلود فيها ولكنه خلود له نهاية ليس مثل خلود الكفار .

[٣١] صحيح : رواه البخاري (١٢٨٣) ، ومسلم (٩٢٦) .

Marfat.com

عندَ قَبر فقَالَ: «اتَّقى اللَّه واصْبرِى » ، فقَالَتْ : إلَيْكَ عنّى ؛ فإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصيبتى ، ولَمْ تعْرفْهُ ، فقيلَ لَهَا : إنَّهُ النَّبيُّ - ﷺ - ، فأتَتْ بَابَ النَّبيِّ - ﷺ - ، فلَمْ تجدْ عندَهُ بوَّابينَ ، فقالت : لَمْ أعْرفْكَ، فقالَ : « إنَّمَا الصَّبْرُ عندَ الصَّدْمَةِ الأولى » متفقٌ عليه .

وفى رواية لمُسْلِمٍ : « تَبْكِى علَى صَبيٍّ لَهَا » .

الشرح

عن أنس بن مالك - ﷺ - أن النبى - ﷺ - مر بامرأة وهى عند قبر صَبىٍّ لها قد مات وكانت تحبه حبًا شديدًا فلم تملك نفسها أن تخرج إلى قبره لتبكى عنده ، فلما رآها الرسول - ﷺ - أمرها بتقوى الله والصَّبر .

قال لها : « اتقى الله واصبرى . فقالت له : إليك عنِّى فإنَّك لم تُصب بمُصيبتى» إليك عنِّى : أى : أبْعِد عنِّى .

وهذا يدلُّ على أن المصيبة قد بلغت منها مبلغًا عظيمًا ، فانصرف النبى - ﷺ - عنها.

ثم قيل لها : إن هذا رسول الله - ﷺ - فندمت وجاءت إلى رسول الله - ﷺ - إلى بابه وليس على الباب بوابون ، أى : ليس عنده أحد يمنع الناس من الدخول عليه . فأخبرته وقالت : إننى لم أعرفك فقال النبى - ﷺ - : « **إنَّما الصبر عند الصَّدمة الأولى**».

الصبر الذى يُثاب عليه الإنسان هو أن يَصبر أول ما تصيبه المصيبة هذا هو الصبر.

أما الصبر بعد ذلك فإن هذا ربما يكون تَسلِّيًا كما تتسلى البهائم فالصَّبر حقيقة أن الإنسان إذا صُدم ، أو ما يُصدم يصبر ويحتسب ويحسن أن يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون اللَّهمَّ أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرًا منها » .

ففى هذا الحديث عدة فوائد :

أولاً : حُسن خلق الرَّسول عليه الصلاة والسلام ودعوته إلى الحق وإلى الخير فإنه لما رأى هذه المرأة تبكى عند القبر أمرها بتقوى الله والصبر .

ولما قالت : « إليك عنى » لم ينتقم لنفسه ولم يضربها ولم يُقمها بالقوة لأنه عرف أنَّه أصابها من الحزن ما لا تستطيع أن تملك نفسها ولهذا خرجت من بيتها لتبكى على هذا

Marfat.com

القبر .

فإن قال قائل : أليست زيارة القبور حرامًا على النساء ؟ قلنا : بل هى حرامٌ على النساء بل هى من كبائر الذنوب !! لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لعن زائرات القبور والمُتخذين عليها المساجد والسُّرج (١) . لكن هذه لم تخرج للزيارة وإنما خرجت لما فى قلبها من لوعة فراق هذا الصبى والحزن الشديد . لم تملك نفسها أن تأتى ولهذا عذرها النبى عليه الصلاة والسلام ولم يقمها بالقوة ولم يجبرها أن ترجع إلى بيتها .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان يعذر بالجهل سواء أكان جهلاً بالحكم الشرعى أم جهلاً بالحال ، فإن هذه المرأة قالت للرسول ـ ﷺ ـ : إليك عنى وقد أمرها بالخير والتَّقوى والصَّبر ، ولكنها لم تعرف أنَّه رسول الله ـ ﷺ ـ فلهذا عَذرها الرَّسول عليه الصلاة والسلام .

ومنها : أنه لا ينبغى للإنسان المسئول عن حوائج المسلمين أن يجعل على بيته بوابًا يمنع الناس إذا كان الناس يحتاجون إليه إلا إذا كان الإنسان يخشى من كثرة الناس ، وإرهاق الناس ، وإشغال الناس عن شىء يمكن أن يتداركوا شغلهم فى وقت آخر فلهذا لا بأس به .

وما جعل الاستئذان إلا من أجل النظر كما فى الحديث (٢) ، وإلا من أجل أن الإنسان يتصرف فى بيته فى إدخال من شاء ومنع من شاء .

ومن فوائده : أن الصبر الذى يحمد فاعله الصبر عند الصدمة الأولى . يصبر الإنسان ويحتسب ويعلم أن لله ما أخذ وله ما أعطى وأن كل شىء عنده بأجل مسمى .

ومنها : أن البكاء عند القبر ينافى الصبر ولهذا قال لها الرسول ـ ﷺ ـ : « **اتقى الله واصبرى** » .

ويوجد من الناس من يبتلى ، فإذا مات له ميِّت صار يتردد على قبره ويبكى عنده.

وهذا يُنافى الصبر بل نقول : إن شئت أن تنفع الميت فادع الله وأنت فى بيتك ، ولا حاجة أن تتردد على القبر لأنه يجعل الإنسان يتخيل هذا الميت دائمًا فى ذهنه ولا يغيب

(١) حسن : رواه أحمد (١/٢٢٩) الترمذى (٣٢٠) وابن ماجه (١٥٧٤) وحسنه الألبانى فى الإرواء (٣/٢٣٣) .

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٢٤٢) مسلم (٢١٥٧) .

Marfat.com

عنه وحينئذٍ لا ينسى المصيبة أبدًا ، مع أن الأفضل للإنسان أن يَتَلَهّى وأن يَنْسى المصيبة بقدر ما يستطيع ، والله الموفق .

* * *

[٣٢] وَعَنْ أبى هُرَيرَة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال:«يَقُول اللَّه تعالى:مَا لعَبْدِى المُؤمنِ عِنْدِى جَزاءٌ إذَا قَبَضتُ صَفِيَّهُ مِنْ أهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلاالجنَّة»رواه البخارى .

الشرح

هذا الحديث يرويه النبى ـ ﷺ ـ عن الله ويسمى العلماء ـ رحمهم الله ـ هذا القسم من الحديث الحديث القدسى لأن الرسول ـ ﷺ ـ رواه عن الله .

والصَّفى : مَنْ يَصْطفيه الإنسان ويختاره من ولد ، أو أخ ، أو عم ، أو أب ، أو أم، أو صديق ، المهم أنَّ مَا يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنَّه ذُو صِلة منه قوية. إذا أخَذَهُ الله عز وجل ، ثمَّ احتسبه الإنسان ، فليس له جزاء إلاَّ الجنة .

ففى هذا : دليل على فضيلة الصَّبر على قبض الصَّفى من الدُّنيا وأن الله عز وجل يجازى الإنسان إذا احتسب يُجازيه الجنة .

وفيه : دليل على فضل الله سبحانه وتعالى وكرمه على عباده فإن الملك ملكه والأمر أمره . وأنت وصَفيُّك كلاكما لله عز وجل ومع ذلك إذا قبض الله صفى الإنسان واحتسب فإن له هذا الجزاء العظيم .

وفى هذا الحديث أيضًا من الفوائد : الإشارة إلى أفعال الله من قوله : « **إذا قَبَضْت صَفيه** » ولاشك أن الله سبحانه فعَّالٌ لما يُريد ولكن يجب علينا أن نعلم أن فعل الله كله خير لا ينسب الشر إلى الله أبدًا ، والشرَّ إذا وقع فإنما يَقَعُ فى المفعُولات ولا يقع فى الفعل .

فمثلاً إذا قدر الله على الإنسان ما يكْرَه فلا شك أنَّ ما يكره الإنسان بالنِّسبة إليه شرٌّ، لكن الشرَّ فى هذا المقدر لا فى تقدير الله ، لأن الله لا يُقدِّره إلا لحكمة عظيمة إما للمُقَدَّر عليه وإما لعامَّة الخلق .

---

[٣٢] صحيح : أخرجه البخارى (٦٤٢٤) .

Marfat.com

أحيانًا تكون الحكمة خاصة فى المقدَرِ عليه وأحيانًا فى الخلق على سبيل العموم .

المقدر عليه إذا قدّر الله عليه شرا وصبر واحتسب نال بذلك خيرًا ، إذا قدر الله عليه شرّا ورجع إلى ربِّه بسبب هذا الأمر لأن الإنسان إذا كان فى نعمة دائمًا قد يَنْسَى شكر المُنْعِم عز وجل ولا يلتفت إلى الله فإذا أُصيب بالضرَّاء تذكَّر ورجَع إلى ربِّه سبحانه وتعالى ويكون فى ذلك فائدة عظيمة له .

أمَّا بالنسبة للآخرين فإنَّ هذا المقدَّر على الشَّخص إذا ضَرَّه قد ينتفع به الآخرون.

ولنضرب لذلك مثلاً برجل عنده بيت من الطين فأرسل الله مطرًا غزيرًا دائمًا ، فإن صاحب هذا البيت يتضرَّر لكن المصلحة العامة للنَّاس مصلحة ينتفعُون بها .

صار هذا شَرًا على شخص وخيرًا للآخرين ومع ذلك فكَوْنهُ شرًا لهذا الشخص أمرٌ نسبى إذا أنَّه شرٌ من وجه لكنَّه خير له من وَجْه آخر .

فيتَّعظ به ويَعْلم أنَّ الملجأ هو الله عز وجل لا ملجأ إلا إليه فيستفيد من هذا فائدة أكبر مما حَصَلَ لَهُ من المَضرة .

المهم أن المؤلف ذكر هذا الحديث فى باب الصَّبر ؛ لأنَّ فيه فائدة عظيمة فيما إذا صبر الإنسان على قَبْضِ صَفيه أنَّه ليس له جزاء إلاَّ الجنة ، والله الموفق .

* * *

[٣٣] وعَنْ عَائشَةَ ـ رضي الله عنها ـ أنَّها سَألَتْ رسول الله ـ ﷺ ـ عَن الطَّاعُون ، فَأخْبرَهَا « أنَّهُ كَانَ عَذاباً يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى منْ يَشاءُ ، فَجعَلَهُ الله تعالى رَحْمَةً للْمُؤْمنين، فَلَيسَ منْ عَبْد يَقعُ فى الطَّاعُون فَيمكُثُ فى بَلَده صَابراً مُحْتَسباً يعلَمُ أنَّهُ لا يُصيبُهُ إلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إلا كَانَ لَهُ مثْلُ أجْرِ الشَّهيد » روَاه البخَارى .

[٣٤] وعَنْ أنَسَ ـ رضي الله عنه ـ قال:سَمعْتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يَقُولُ:«إنَّ اللَّه عَزَّ وجَلَّ قَالَ:إذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِى بحَبِيبتيه فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ منْهُمَا الجَنَّةَ» يُريدُ عَيْنَيْه.ر واه البخارى.

الشرح

نقل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله من الأحاديث الواردة فى الصبر حديث

---

[٣٣] صحيح :رواه البخارى (٥٧٣٤) . [٣٤] صحيح :رواه البخارى (٥٦٥٣) .

Marfat.com

عائشة وحديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ .

أما حديث عائشة فإن الرسول ـ ﷺ ـ أخبر أن الطاعون رِجْسٌ أى : عذاب أرسله الله سبحانه وتعالى على من يشاء من عباده .

والطَّاعون قيل : إنَّه وبَاءٌ مُعَيَّن ، وقيل : إنَّه كل وبَاء يَحِلُّ بالأرض فيصيب أهلها ويموت الناس منه .

وسَوَاء كان معينًا أم كل وباء عام مثل : الكوليرا وغيرها فإن هذا الطاعون رجس، عَذَابٌ أرْسَلَه الله عز وجل ، ولكنه رحمة للمؤمن إذا نزل بأرضه وبقى فيها صابراً مُحْتسبًا يعلم أنَّه لا يصيبه إلا ما كَتَب الله له فإن الله يكتب له مثل أجر الشَّهيد.

ولهذا جاء فى الحديث الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه** »(١) .

إذا وقع الطاعون فى أرض فإننا لا نقدم عليها ، لأن الإقدام عليها إلقاء بالنَّفس إلى التَّهلكة ، ولكنه إذا وقع فى أرض فإننا لا نخرج منها فراراً منه لأنك مهما فررت من قدر الله إذا نزل بالأرض فإن هذا الفرار لن يُغْنى عنك من الله شيئًا .

واذكر القصَّة التى قصَّها الله علينا فى الَّذين خَرجَوا من ديارهم حَذَر الموت فقال لهم الله موتوا ثَمَّ أحياهم لُيبين لهم أنه لا مَفَرَّ من قضاء الله إلا إلى الله .

﴿ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوف ﴾ [البقرة : ٢٤٣] قال بعض العلماء فى تفسير الآية : إنه نزل فى الأرض وباء فخرجوا منها فقال لهم الله : موتوا ثم أحياهم حتى يتبين لهم أنه لا مفر من الله إلا إليه .

ففى حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ دليلٌ على فضل الصبَّر والاحتساب وأن الإنسان إذا صبر نفسه فى الأرض التى نزل فيها الطاعون ثم مات به كتب الله له مثل أجر الشهيد.

وذلك أنَّ الإنسان إذا نزل الطاعون فى أرضه فإن الحياة غالية عند الإنسان ، سوف يَهْرب يخاف من الطاعون فإذا صَبَر وبقى واحتسب الأجر وعلم أنَّه لا يُصيبه إلاَّ ما كتب

---

(١) صحيح : رواه لبخارى (٥٧٣٠) .

Marfat.com

الله له ثم مات به فإنه يُكتب له مثل أجر الشَّهيد وهذا من نعمة الله عز وجل.

أمّا حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - ففيه أنَّ الرسول - ﷺ - قال عن ربه تبارك وتعالى : إنَّه مَا مِن إنسان يقبض الله حبيبتيه يعنى عينيه فيعمى ثمَّ يبصر إلا عوضه الله بهما الجنة ، لأن العين محبوبة للإنسان ، فإذا أخذهما الله سبحانه وتعالى وصبر الإنسان واحتسب فإن الله يعوضه بهما الجنة .

والجنة تساوى كل الدُّنيا بل قد قال النبى - ﷺ - : « **لَمَوْضِعُ سَوْطِ أحَدَكُم فى الجَنَّة خيرٌ من الدُّنيا ومَا فيها** » (١) أى مقدار متر ، لأن ما فى الآخرة باقٍ لَا يفنى ولا يَزُول والدُّنيا كلها فانية زائلة ، فلهذا كانت هذه المساحة القليلة من الجنة خيرًا من الدُّنيا وما فيها .

واعلم أنَّ الله سبحانه إذا قَبض من الإنسان حاسَّة من حَواسِه فإن الغالب أن الله يَعوِّضه فى الحواس الأخرى ما يخفف عليه ألم فقد هذه الحاسة التى فقدها .

فالأعمى يَمُن الله عليه بقوة الإحساسِ والإدراك حتى أنَّ بعض الناس إذا كان أعمى تجده فى السُّوق يمشى ، وكأنه مُبصر يحسُّ بالمنعطفات فى الأسواق ، ويحسُّ بالمنحَدرات وبالمرتفعات حتى أن بعضهم يَتَّفق مع صاحب السَّيارة - سيارة الأجرة - يركب معه من أقصى البلد إلى بيته وهو يقول لصاحب السيَّارة : تيامَن تَياسَر حتى يُوقفه عند بابه لأن صاحب السَّيارة لا يعرف البيت .

والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[٣٥] وَعَنْ عَطَاء بْن أبِى رَبَاحٍ قالَ : قالَ لى ابْنُ عَبَّاس - رضي الله عنهما - : ألا أريكَ امْرَأةٌ منْ أهْلِ الجَنَّة ؟ فَقُلْتُ : بَلَى ، قالَ : هَذه المرأةُ السَّوْدَاءُ أتَت النبىَّ - ﷺ - فَقَالَتْ : إنى أُصرَعُ ، وإنِّى أتكَشَّفُ ، فَادْعُ الله تَعالى لى قَالَ : « إنْ شئْت صَبَرْت وَلَكَ الجَنَّة ، وَإنْ شئْت دَعَوْتُ الله تعالى أنْ يُعَافيَك » فَقَالَتْ : أصْبرُ ، فَقَالَتْ : إنِّى أتكَشَّفُ، فَادْعُ الله أنْ لَا أتكَشَّف ، فَدَعَا لَهَا . متفقٌ عليه .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٢٨٩٢) واحمد (٣/ ٤٣٣) .

[٣٥] صحيح : رواه البخارى (٥٦٥٢) ، ومسلم (٢٥٧٦) .

Marfat.com

الشرح

قوله : « **ألا أُريك امْرأةً منْ أهْل الجَنَّة** » يَعْرض عليه !

وذلك لأنَّ أهل الجنة ينقسمون إلى قسمين : قسمٌ نشهد لهم بالجنة بأوْصافهم ، وقسم نشهد لهم بالجنَّة بأعْيانهم .

١ ـ أما الذين نشهد لهم بالجنَّة بأوصافهم فكل مؤمن كل متَّقن ، فإننا نشهد له أنَّه من أهل الجنَّة .

كما قال الله سبحانه وتعالى فى الجنة : ﴿ أُعدَتْ للْمُتَّقينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . وقال: ﴿ إنَّ الَّذين آمنوا وعَملُوا الصَّالحات أُوْلَئك هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّة ۝٧ جزاؤُهُمْ عند ربِّهمْ جنَّاتُ عدْن تجْري من تحْتها الأنْهارُ خالـدين فيها أبدًا ﴾ [البينة : ٧ ـ ٨]. فكل مؤمن متق يعمل الصَّالحات فإننا نشهد أنَّه من أهل الجنة .

ولكن لا نقول هو فلان وفلان لأننا لا ندرى ما يُختم له ولا ندرى هل بَاطنُه كظاهره فلذلك لا نشهد له بعيْنه .

نقول مثلاً : إذا مات رجل مَشْهود له بالخير قلنا نَرْجُو أن يكون من أهل الجنَّة لكن ما نشهد أنَّه من أهل الجنة .

٢ ـ قسم آخر نشهد له بِعيْنه وهم الذين شَهِد لهم النبىَّ ـ ﷺ ـ بأنهم فى الجنَّة . مثل العشرة المبشرين بالجنَّة وهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وسعيد بن زيد وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة عامر بن الجراح والزُّبير بن العوام .

ومثل : ثابت بن قيس بن شَمَّاس ومثل سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ ومثل عبد الله بن سلام ومثل بلال بن رباح وغيرهم ممن عينَّهم الرَّسول عليه الصلاة والسَّلام .

هؤلاء نشهد لهم بأعيانهم نقول : نشهد بأن أبا بكر فى الجنَّة ، ونشهد بأنَّ عمر فى الجنَّة وهكذا .

من ذلك هذه المرأة التى قال ابن عباس لتلميذه عطاء بن أبى رباح : « **ألا أريكَ امرأةً منْ أهْل الجنَّة . قُلتُ بلى ! قالَ هذه المرْأةُ السَّوداء** » .

امرأة سوداء لا قيمة لها فى المجتمع ، كانت تُصْرع وتنكشف فأخبرت الرسول عليه الصَّلاة والسلام وسألته أن يدعو الله لها فقال لها : إن شئت دَعوْت الله لك وإنْ شئت صَبَرْتِ ولك الجنة ؟

Marfat.com

قلت : أصْبر ، وإن كانت تتألَّم وتتأذَّى من الصَّرْع ، لكنها صبرت من أجل أن تكون من أهل الجنَّة ، ولكنها قالت : يا رسول الله ، إنى أتكَشَّفت فادع الله ألا أتكشَّف ، فدعا الله ألا تتكشف فصارت تُصْرع ولا تَتكَشَّف .

والصَّرَع نعوذ باللَّه منه نوعان :

١ ـ صرع بسبب تشنُّج الأعصاب : وهذا مرض عضوى يمكن أن يُعالج من قِبَل الأطباء الماديين بإعطاء العقاقير التى تُسكِّنه أو تُزيله بالمَرة .

٢ ـ وقسم آخر بسبب الشياطين والجن : ويتسلط الجنِّى على الإنسى فيصرعه ويدخل فيه ، ويضرب به على الأرض ويغمى عليه من شِدّة الصَّرع ولا يحس .

ويتلبس الشيطان أو الجنى بنفسى الإنسان ويبدأ يتكلم على لسانه ، الذى يسمع الكلام يقول إن الذى يتكلم الإنسى ، ولكنَّه الجنى ولهذا تجد فى بعض كلامه الاختلاف لا يكون ككلامه وهو مستيقظ لأنه يتغير بسبب نطق الجنى .

هذا النوع من الصَّرع نسأل الله أن يُعيذنا وإيَّاكم منه ومن غيره من الآفات : هذا النَّوع علاجه بالقراءة من أهل العلم والخير .

أحيانًا يُخاطبهم الجنى ويتكلم معهم ويُبيِّن السَّبب الذى جعله يصْرَع هذا الإنسى .

وأحيانًا لا يتكلم وقد ثبت هذا !! أعنى صَرَعَ الجنِّى للإنسى بالقرآن والسُّنة والواقع .

ففى القرآن قال الله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] . وهذا دليلٌ على أن الشيطان يتخبَّط الإنسان من المَسِّ وهو الصَّرع .

وفى السُّنة : روى الإمام أحمد فى مسنده « أن الرسول - ﷺ - كانَ فى سَفَر من أسْفَارِه فمَرَّ بامرأة مَعَها صَبى يُصْرَعُ فأتَت به إلى النبى عليه الصَّلاة والسَّلام وخاطَب الجنِّى وتكَلَّم مَعَهُ وخَـرج الجنِّى فأعطت أمُّ الصبى الرســول - ﷺ - هــدية على ذلك» (١).

وكان أهل العلم أيضًا يخاطبون الجنى فى المَصروع ويتكلَّمون معه ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله !

ذكر ابن القيم ـ وهو تلميذه ـ أنَّه جىء إليه برجل مَصْروع فجعل يقرأ عليه ويُخاطبه

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٤/ ١٧٠) .

Marfat.com

ويقول له : اتقى الله اخرُجى ـ لأنها امرأة ـ فتقول له : إنى أُريد هذا الرَّجل وأحبه فقال لها شيخ الإسلام : لكنَّه لا يحبك اخرجى ، قالت : إنى أُريد أن أحج ضربًا عظيمًا حتى أن يد شيخ الإسلام أوجَعَتْه من شدة الضَّرب .

فقالت الجنية : أنا أخرج كرامة للشَّيخ ، قال : لا تخرجى كرامة لى ، اخرجى طاعة لله ورسوله فما زال بها حتى خرجت .

لما خرجت استيقظ الرَّجل فقال : ما الذى جاء بى إلى حضرة الشيخ ؟ قالوا : سبحان الله ! أما أحسست بالضَّرب الذى كان يضربك أشد ما يكون ؟ قال : ما أحسست بالضرَّب الذى كان يضربك أشد ما يكون ؟ قال : ما أحسست بالضَّرب ولا أحْسستُ بشىء ، والأمثلة على هذا كثيرة .

هذا النَّوع من الصَّرع له علاج يدفعه وله علاج يَرْفَعه .

فهو نوعان :

١ ـ أمَّا دَفْعُه : فبأن يحرص الإنسان على الأوراَد الشَّرعية الصباحية والمسائية ، وهى معروفة فى كتب أهل العلم منها : آية الكرسى فإن من قرأها فى ليلة لم يزل عليه من الله حافظ ولا يَقْربُه شيطان حتى يُصْبح .

ومنها : سورة الإخلاص والفلق والنَّاس ومنها : أحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام فليحرص الإنسان عليها صباحًا ومساءً فإن ذلك من أسباب دفع أذيَّة الجن .

٢ ـ وأما الرَّفع : فهو إذا وقع بالإنسان فإنَّه يقرأ عليه آيات من القرآن فيها تخويف وتذكير واستعاذة بالله عز وجل حتى يخرج .

الشَّاهد من هذ الحديث قال الرسول ـ ﷺ ـ لهذه المرأة : « **إن شئْت صَبَرْت ولكِ الجَنَّة ، فقالَتْ : أصْبِر** » ففيه دَليلٌ على فضيلة الصَّبر وأنَّه سبب لدخول الجنَّة والله المَوفق.

***

[٣٦] وَعَنْ أبى عَبْد الرَّحْمن عَبْد الله بْن مَسْعُود ـ رضي الله عنه ـ قال : كَأنِّى أنْظُرُ إلَى رسول اللَّه ـ ﷺ ـ يَحكِى نَبيًا منَ الأنبيَاء صَلَوَاتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهمْ ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأدمَوهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ،يَقُولُ : « اللَّهُمَّ اغفرْ لِقَوْمِى فَإنَّهُمْ لا يَعْلَمُون » متفق عليه.

---

[٣٦] ... : رواه البخارى (٣٤٧٦) ، ومسلم (١٧٩٢) .

Marfat.com

الشرح

هـذا الحديث يحكى الرسول - ﷺ - فيه شيئًا مما جرى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

والأنبياء كلفهم الله بالرسالة لأنهم أهل لها كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] . فهم أهل لها فى التحمل والتبليغ والدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على ذلك .

وكان الرسل عليهم الصلاة والسلام يؤذون بالقول والفعل وربما بلغ الأمر إلى قتلهم .

وقد بين الله ذلك في كتابه حيث قال لنبيه - ﷺ - : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ﴾ أى : إذا استطعت أن تفعل ذلك فافعل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ولكن لحكمة اقتضت أن يكذبوك حتى يتبين الحق من الباطل بعد المصارعة والمجادلة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤، ٣٥] .

حكى نبينا -ﷺ- عن نبى من الأنبياء : أنَّ قومه ضربوه ولم يضربوه إلا حيث كذَّبوه حتى أدموا وجهه فجعل يَمْسَح الدَّم عن وجهه ويقول : اللَّهُمَّ اغفِرِ لِقَومِى فإنَّهم لا يَعْلمون .

هذا غاية ما يكون من الصبر ، لأن الإنسان لو ضرب على شيء من الدنيا لاستشاط غضبًا ، وانتقم ممن ضربه ، وهذا يدعو إلى الله ، ولا يتخذ على دعوته أجرًا ، مع هذا يضربونه حتى يدموا وجهه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللَّهُمَّ اغفِرِ لِقَومِى فإنَّهم لا يَعْلمون .

وهذا الذى حدثنا به الرسول - ﷺ - لم يُحَدِّثنا به عبثًا أو لأجل أن يقطع الوقت علينا بالحديث ، وإنما حدثنا بذلك من أجل أن نتخذ به عبرة نسير عليها كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] . العبرة من هذا أن نصبر على نُؤذى به من قولٍ أو فعلٍ فى سبيل الدعوة إلى الله ، وأن نقول مُتَمثلين :

هَلْ أَنْتِ إلا إِصْبَع دَمِيْتِ وَفِى سَبِيل الله ما لَقِيت

وأن نصبر على ما يُصيبنا مما نسمعه أو يُنقل إلينا مما يُقال فينا بسبب الدَّعوة إلى الله .

وأن نَرَى أن هذا رِفْعَة لدرجاتنا وتكفير لسيئاتنا فعسى أن يكون فى دعوتنا خلل مِنْ نَقْصٍ فى الإخلاص أو من كيفية الدَّعوة وطريقها ، فيكون هذا الأذى الذى نسمع يكون

Marfat.com

كفارة لما وقع منا لأن الإنسان مهما عمل فهو ناقص لا يمكن أن يكمل عملَه أبدًا إلا أن يشاء الله فإذا أُصيب وأوذى فى سبيل الدعوة إلى الله فإن هذا من باب تكميل دَعوته ورفعة درجته وليَحتَسب ولا ينكص على عقبيه لا يقول لست بمُلْزَم أنا أصابنى الأذى أنا تعبت بل الواجب الصبر ، الدنيا ليست طويلة ! أيام ثم تزول ، فاصبر حتى يأتى الله بأمره .

وفى قول عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : « كأنى أنظرُ إلى النَّبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يَحْكى لنا» فيه دليل على أن المحدث أو المخبر يخبر بما يؤيِّد ضبطه للخبر والحديث ، وهو أمر شائع عند جميع الناس يقول: كأنى أنظر إلى فلان وهو يقول كذا وكذا أى: إنى ضبطت القصة.

فإذا استعمل الإنسان مثل هذا الأسلوب لتثبيت ما يحدث به فلَهُ فى ذلك أسوة من السَّلف الصالح ـ رضي الله عنهم ـ ، والله الموفق .

* * *

[٣٧] وعَـنْ أبى سَعيد وأبى هُرَيْـرَةَ ـ رضي الله عنهما ـ عن النَّبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قَـالَ : «مَا يُصيبُ المُسْلمَ منْ نَصَب وَلا وَصَب ولاهَمّ وَلا حزَن ولا أذى ولا غَمّ ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إلا كَفَّرَ اللّهُ بهَا منْ خَطَايَاهُ » متفقٌ عليه .

وَ « الوَصَبُ » : المَرَضُ .

[٣٨] وعَنِ ابْن مَسْعُود ـ رضي الله عنه ـ قال : دَخَلْتُ عَلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ: يَا رَسولَ الله ، إنَّكَ تُوعَكُ وَعْكاً شَديداً ، قال : « أجَل إنّى أُوعَكُ كمَا يُوعَكُ رَجُلان منكُمْ » قُلْتُ : ذلكَ أنَّ لَكَ أجْرَيْن ؟ قال : « أجَلْ ، ذلكَ كَذَلكَ ، مَا منْ مُسْلم يُصيبُهُ أذى ؛ شَوكَةٌ فَمَا فَوْقَها إلا كَفَّرَ اللّهُ بها سيِّئاتهُ ، وَحُطَّتْ عَنْهُ ذنُوبه كَمَا تَحُطُّ الشَّجرةُ ورَقَها » متفق عليه .

وَ « الوَعْك » : مَغْثُ الحُمَّى ، وَقيلَ : الحمَّى .

الشرح

فى حديث أبى سعيد وأبى هريرة وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين فيها دليل على أن

[٣٧] صحيح : رواه البخارى (٥٦٤١ ـ ٥٦٤٢) ، ومسلم (٢٥٧٣) .

[٣٨] صحيح : رواه البخارى (٥٦٤٨) ، ومسلم (٢٥٧١) .

Marfat.com

الإنسان . كفَّر عنه بما يُصيبه من الهمَّ والنَّصب والغَمِّ وغير ذلك وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى يَبتَلى سبحانه وتَعالى عبده بالمصائب وتكون تكفيرًا لسيِّئاته وحطًا لذنوبه.

والإنسان فى هذه الدُّنيا لا يمكن أن يبقى مَسْرُورًا دائمًا بل هو يوم يُسَر ويوم يَحزن ويوم يأتيه شىء ويوم لا يأتيه ، فهو مُصاب بمصائب فى نفسه ومَصَائب فى بدنه ومصائب فى مجتمعه ومَصائب فى أهله ولا تحصى المصائب التى تُصيب الإنسان ، ولكن المؤمن أمْرهُ كُلُّه خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له .

فإذا أصابت بالمصيبة فلا تظن أن هذا الهم الذى يأتيك أو هذا الألم الذى يأتيك ولو كان شَوْكة لا تظن أنَّه يذهب سُدىً بل ستُعوَّض عنه خيرًا منه ، ستُحَطُّ عنك الذُّنوب كما تحطُّ الشجرة ورَقَها وهذا من نعمة الله .

وإذا زاد الإنسان على ذلك الصبَّر الاحتساب أى : احتساب الأجر كان له مع هذا أجر .

فالمصائب تكون على وجهين :

١ - تارة إذا أصيب الإنسان تذكر الأجر واحتسب هذه المصيبة على الله فيكون فيها فائدتان : تكفير الذنوب ، وزيادة الحسنات .

٢ - وتارة يغفل عن هذا فَيَضيقُ صَدْرُه ، ويغفل عن نِيَّة الاحتْساب ، والأجر على الله فيكون فى ذلك تفكير لسيئاته إذًا هو رابِحٌ على كل حال فى هذه المصائب التى تأتيه.

فإما أن يَرْبح تكفير السَّيئات ، وحط الذُّنوب بدون أن يحصل له أجر لأنه لم يَنْو شيئًا ولم يَصْبر ولم يحتسب الأجر ، وإمَّا أن يَرْبَح شيئين كما تقدم .

ولهذا ينبغى للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة ، فليتذكر الاحتساب من الله على هذه المصيبة .

وهذا من نعمة الله سبحانه وتعالى وجُوده وكَرَمه حيث يبتلى المؤمن ثمَّ يُثيبه على هذه البلوى أو يُكفَّر عنه سيِّئاته .

فالحمد لله رب العالمين .

* * *

[٣٩] وعَن أبى هُرَيْرَة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مَنْ يُردِ الله

---

[٣٩] صحيح :رواه البخارى (٥٦٤٥) .

Marfat.com

به خَيْراً يُصِبْ منْهُ » رواه البخارى .

وَضَبَطُوا « يُصِبْ » بفَتْحِ الصَّادِ وكَسْرِهَا .

[٤٠] وعَن أنَسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **لا يَتَمَنَّين أحَدُكُمُ الْمَوْتَ لضُرٍّ أصابَهُ ، فَإنْ كان لابدَّ فاعلاً فَليَقُل : اللَّهُمَّ أحْينى مَا كَانت الْحَيَاةُ خيراً لى، وتَوفَّنى إذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْراً لى** » متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ حديثين عن أبى هريرة وأنَس بن مالك ـ رضي الله عنهما ـ فى ثواب الصبر والاحتساب وأنَّ الإنسان يجب عليه أنْ يَصْبر وأن يتحمَّل .

أمَّا حديث أبى هريرة فإن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **مَنْ يُرد الله به خيراً يُصب منْهُ** » و (يصب) قُرأت على وجهين بفتح الصاد (يُصَب) وكسرها (يُصِب) وكلاهما صحيح .

أما « يُصب منه » فالمعنى أنَّ الله يُقَدِّر عليه المصائب حتى يَبْتليه بها أيصبر أم يضجر، أما « يُصب منه » فهى أعَمُّ أى : يُصاب من الله ومن غيره .

ولكن هذا الحديث المطلق مُقَيَّد بأحاديث أخرى تدلُّ على أن المراد : مَنْ يردِ الله به خيرًا فيصبر ويحتسب ، فيصيب الله منه حتى يبلوه .

أما إذا لم يصبر فإنَّه قد يُصاب الإنسان ببلايا كثيرة وليس فيها خير ولم يُرد الله به خيرًا .

فالكفار يُصابون بمصائب كثيرة ومع هذا يبقون على كفرهم حتى يموتوا عليه وهؤلاء بلا شك لم يرد الله بهم خيرًا .

لكن المراد من يَصْبِر على هذه المصائب ، فإنَّ ذلك من الخير له لأنه سبق أن المصائب يكفر بها الذُّنوب ويُحَطُّ بها الخطايا ومن المعلوم أن تكفير الذُّنوب والسيئات وحَط الخطايا لاشك أنَّه خير للإنسان لأنَّ المصائب غاية ما فيها أنَّها مصائب دنيوية تَزُول بالأيام كلَّما مضت الأيام خففت عليك المصيبة لكن عذاب الآخرة باقٍ والعياذ بالله ! فإذا كفَّر الله عنك بهذه المصائب صار ذلك خَيْرًا لك .

---

[٤٠] صحيح : رواه البخارى (٥٦٧١) ، ومسلم (٢٦٨٠) .

Marfat.com

أما الثانى : فهو أن الرسول - ﷺ - نهى أن يتمنى الإنسان الموت لِضُرٍّ نَزَل به . وذلك أنَّ الإنسان ربما ينْزِل به ضُر يَعْجز عن التَّحمُّل ويَتْعَب فيتمنى الموت ، يقول يا رب أمِتْنى سواء قال ذلك بِلِسانِه أوْ بقلبه ، فنهى النبى - ﷺ - عن ذلك لأنه قد يكون خيرًا له هذا الضُرِّ .

ولكن إذا أُصِبْتَ بضُر فقل : اللَّهُمَّ أعِنِّى علَى الصَّبْر عليه ، حتى يعينك الله فَتصْبِر ويكون ذلكَ لك خيرًا . أمَّا أن تَتمنَّى الموتَ فأنت لا تدرى ربما يكون الموت شرًّا عليك لا يَحْصلُ به راحة ، فليس كُلُّ موتٍ رَاحة كما قال الشاعر :

لَيْسَ مَنْ ماتَ فاسْتَراحَ بميت إنَّما المَيْتُ مَيِّتُ الأحياء

الإنسانُ ربما يموت إلى عُقُوبةٍ وعَذَابُ قبرٍ ، وإذا بقى فى الدُّنيا فربما يَسْتَعْتِب ويتوب ويرجع إلى الله فيكون خيرًا له .

المهم أنه إذا نزل بك شرٌّ فلا تتمن الموت ، وإذا كان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام نهى أن يتمنَّى الإنسان الموت للضُّر الذى نزل به ، فكيف بمن يقتل نفسه إذا نزل به الضر !

كما يوجد من بعض الحمقى الذين إذا نزلت بهم المضائق خَنَقُوا أنْفُسهَم أو نَحَرُوها أو أكلوا سُمًّا وما أشْبه ذلك ، فإن هؤلاء ارتحلوا من عذاب إلى أشد منه ، فلم يستريحوا انتقلوا من عذاب إلى أشد ، لأنَّ الذى يقتل نفسه يُعذب بما قَتل به نفسه فى نار جهنم خالدًا فيها أبدًا كما جاء ذلك عن الرسول - ﷺ -(١) .

إن قتل نفسه بحديدة - خَنْجر أو سكين أو مسمار أو غيره - فإنَّه يوم القيامة فى جهنم يَطعن نفسه بهذه الحديدة التى قتل بها نفسه .

وإن قتل نفسه بسُم فإنَّه يتحساه فى نار جهنم ، إن قتل نفسه بالتردى من جبل فإنَّه يُنصَب له جبل فى جهنم يتردى منه أبد الآبدين وهلم جرا !

فأقول : إذا كان النبى - ﷺ - نهى أن يتمنى الإنسان الموت لضر نزل به فإن أعظم من ذلك أن يقتل الإنسانُ نفسَه ويبادر الله بنفسه ، نسأل الله العافية .

ولكن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام لما نهى عن شىء كان من عادته إذا كان له بديل من المباح أن يذكر بديله من المباح اقتداء بالرب عز وجل قال الله سبحانه : ﴿ يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾[البقرة : ١٠٤] . فلما نَهى الله عن كلمة

---

(١) انظر ما سبق ص (١٣١) لاهميته . البخارى (٥٧٧٨) مسلم (١٠٩) .

Marfat.com

﴿راعنا﴾ بيَّن لَنَا الكلمة المباحة قال وقولوا : ﴿انظُرْنَا﴾ .

ولما جيء إلى الرَّسول عليه الصلاة والسلام بتَمرٍ جَيد استَنكرهُ وقال : « **أكل تمر خيبر هكذا ؟** » **قالوا : لا ولكنا نشترى الصَّاع من هذا بالصاعين والصَّاعين بالثَّلاثة قال:** « **لا تفعل لكن بع التمر - يعنى الردىء - بالدَّراهم ثم ابتَعْ بالدَّراهم جنيبًا** »[١] أى اشتر الجَنيب وهو من أعلى أنواع التمر ، فلما مَنَعهُ بيَّن الوَجْه المباح .

هنا قال : « **لا يَتمنَّينَّ أحدكُم الموْت لضر نَزَلَ به فإنْ كانَ لابُدَّ فَاعلاً فليَقُلْ : اللَّهُمَّ أحْيِنى مَا كَانَتِ الحياةُ خَيْرًا لِى وتوفنى إذا عَلمْتَ الوفاة خَيْرًا لِى** » .

فتح لك الباب لكنه بابُ سَليم لأنَّ يَدُلُّ على ضَجَر الإنسان وعدَم صَبْره على قضاء الله لكن هذا الدُّعاء يَكِلُ الإنسان فيه أمره إلى الله لأن الإنسان لا يعلم الغيب فيكل الأمر إلى عالمه عز وجل .

وتَمنى الموت استعجالٌ من الإنسان بأنْ يقْطع الله حياته وربما يَحْرمه من خير كثير، ربما يحرمه من التَّوبة وزيادة الأعمال الصَّالحَة ، ولهذا جاء فى الحديث : « **مَا منْ ميِّت يَمُوتُ إلاَّ نَدم ، فإنْ كانَ مُحسنًا نَدمَ أنْ لا يَكُونَ ازْدَاد ، وإنْ كانَ مُسيئًا ندمَ أن لَا يَكُونَ اسْتَعْتَب** »[١] أى استعتب من ذنبه وطلب العتبة وهى المعذرة ، فإن قال قائل كيف يقول: اللَّهمَّ أحْيِنى ما كَانتَ الحياةُ خَيرًا لى وتَوَفَّنى مَا عَلمْتَ الوفَاء خيرًا لي ؟ نقول نعم: لأن الله سبحانه يعلم ما سيكون ، أمَّا الإنسان فلا يعلم كما قال الله : ﴿قُل لاَّ يَعلَمُ مَن فِي السَّموات والأَرض الغَيبَ إلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل : ٦٥] . ﴿وما تدري نفسٌ مَاذا تَكسِبُ غَدًا وما تدري نفسٌ بِأيِّ أرضٍ تَمُوت﴾ [لقمان : ٣٤] . فأنت لا تدرى قد تكون الحياة خيرًا لك وقد تكون الوفاة خيرًا لك .

ولهذا ينبغى للإنسان إذا دَعا لشخص بطول العُمر أن يُقَيد هذا فيقول أطال الله بقاءك على طاعته ، حتى يكون فى طول بقائه خير ، فإن قال قائل إنَّه قد جاء تمنى الموت من مريم ابنة عمران حيث قال :﴿ يا لَيتني مِتُّ قَبلَ هذا وكُنتُ نَسيًا مَنسيًا ﴾ [مريم : ٢٣] . فكيف وقعت فيما فيه النَّهى ؟

فالجواب عن ذلك أن نقول : أولاً : يجب أن نعلم أن شرع من قبلنا إذا ورد شَرْعنا

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٢٢٠١) مسلم (١٥٩٣) .

(٢) ضعيف جدًا : رواه الترمذى (٢٤٠٣) فى الزهد ، باب : ٥٨ ، من حديث أبى هريرة ، وقال الشيخ الألبانى فى ضعيف الترمذى (٢٤٠٣) : ضعيف جدًا ، وانظر المشكلة (٥٥٤٥) .

Marfat.com

بخلافه فليس بِحجَّة ، لأنَّ شرعنا نسخ كل ما سبَقه من الأديان .

ثانيًا : أن مريم لم تتمن الموت لكنها تمنت الموت قبل هذه الفتنة ولو بقيت ألف سنة ولم تتمن استعجال الموت .

المهم أن تموت بلا فتْنة ومثْلُه قول يوسف عليه الصَّلاة والسَّلام : ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] . ليس معناه سؤال الله أن يتوفاه بل هو يسأل أن يتوفاه الله على الإسلام ، وهذا لا بأس به كأن تقول : اللهم توفَّنى على الإسلام وعلى الإيمان وعلى التَّوحيد والإخلاص أو تَوَفنى وأنتَ راضٍ عنى ومَا أشبَه ذلك .

فيجب معرفة الفرق بين شخص يتمنى الموت من ضيق نزل به وبين شخص يتمنى الموت على صفة مُعَيَّنة يرضاها الله عز وجل !

فالأوَّل :هو الذى نهى عنه الرسول عليه الصَّلاة والسلام .

والثانى :جائز .

وإنما نهى الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام عن تمنى الموت لِضُرٍّ نزل به لأن من تمنى الموت لضُر نزل به ليس عنده صَبر والواجب أنْ يصبر الإنسانَ على الضر وأن يحتسب الأجر من الله عز وجل ، فإن الضررَ الذى يُصيبك من هم أو غَمٍّ أو مَرَضٍ أو أى شىء مكفر لِسيئاتك ، فإن احتسبت الأجر كان رفعَة لدرجاتك وهذا الذى ينالُ الإنسان من الأذى والمرض وغيره لا يَدُوم ولابد أن ينتهى ، فإذا انتهى وأنت تكسب حَسنات باحتساب الأجر على الله عز وجل ويُكفِّرَ عنك من سَيئاتك بسببه صار خيرًا لك كما ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « عَجبًا لأمرِ المُؤمن إنَّ أمرَهُ كُلَّهُ خَيْر ، إن أصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَر فكَانَ خَيْرًا لَهُ ، وإن أصَابَتْهُ سَراءُ شكَرَ فكانَ خَيْرًا له » (١) ، فالمؤمن على كل حال هو فى خير فى ضَرَّاء أو فى سَرَّاء .

❊ ❊ ❊

[٤١]وعَنْ أبى عبد الله خَبَّاب بْن الأرتّ - رضي الله عنه - قال: شكَوْنَا إلَى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وَهُوَ مُتَوَسدٌ بُرْدَةً لَهُ فى ظلّ الكَعْبَةِ ، فَقُلْنَا : الا تَستَنْصرُ لَنَا الا تَدْعو لَنَا؟

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٢٩٩٩) .

[٤١] صحيح :رواه البخارى (٣٨٥٢) ، (٦٩٤٣) .

Marfat.com

فقال : « قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤخَذُ الرَّجُلُ فَيحفَرُ لَهُ فى الأرْض فَيُجْعَلُ فيهَا ، ثُمَّ يُؤتَى بالمنشَار فَيوضَعُ عَلَى رَأسه فَيُجْعَلُ نصفَيْن ، ويُمْشَطُ بِأمْشَاط الحَديد مَا دُونَ لَحْمه وعَظْمه ، مَا يصُدُّهُ ذلكَ عَنْ دينه ، وَاللهِ لَيُتمَّنَّ اللهُ هذا الأَمْرَ حَتَّى يَسير الرَّاكبُ مَنْ صَنْعَاءَ إلَى حَضْرَمَوْت لا يَخَافُ إلا اللَّه وَالذئْبَ عَلَى غَنَمه ، وَلَكنَّكُمْ تَسْتَعْجلُونَ» رواه البخارى.

وفى رواية : « وَهُوَ مُتَوسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً » .

الشرح

حديث أبى عبد الله خباب بن الأرَت - ﷺ - يحكى ما وجده المسلمون من الأذيَّة من كفار قريش فى مكة فجاءوا يشكون إلى النَّبى - ﷺ - « وهو مُتَوسِّد بُرْدَةً له فى ظَلِّ الكعبة » فبيَّن النبى عليه الصلاة والسلام أنَّ من كان قَبْلَنا ابتلى فى دينه أعْظَمَ ممَّا ابتلى به هؤلاء ! يُحفر له حفرة ثم يُلقى فيها ثم يؤتى بالمِنْشار على مفرق رأسه ويشق ، ويضًا يُمَشَّط بأمشاط الحديد ما بين جِلْدِه وعظمه ، وهذا تعزير عظيم وأذيَّة عظيمة .

ثم أقسم عليه الصَّلاة والسلام أنَّ الله سبحانه سيتم هذا الأمر يعنى سيتم ما جاء به الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام من دعوة الإسلام ، حتى يَسير الرَّاكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون أى فاصبروا وانتظروا الفرَج من الله فإنَّ الله سيتم هذا الأمر ، وقد صار الأمر كما أقسم عليه الصلاة والسلام.

ففى هذا الحديث آية من آيات الله حيث وقع الأمر مُطابقًا لما أخبر به النبى عليه الصلاة والسلام .

وآية من آيات النَّبى عليه الصلاة والسلام حيث صدقه الله بما أخبر به وهذه شهادة له من الله بالرسالة كما قال الله : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ١٦٦] .

وفيه أيضًا : دليل على وجوب الصَّبر على أذية أعداء المسلمين . وإذا صبر الإنسان ظفر !!

فالواجب على الإنسان أن يُقابل ما يَحصلُ من أذيَّة الكفار بالصَّبر والاحتساب وانتظار الفرج ، ولا يظنن الأمرَ ينتهى بِسهُولة .

قد يبتلى الله عز وجل المؤمنين بالكُفَّار يُؤذُونهم وربما يقتلونهم كما قتلوا الأنبياء .

Marfat.com

اليهود من بنى إسرائيل قتلوا الأنبياء الذين هم أعظم من الدعاة وأعظم من المسلمين، فليصبر ولينتظر الفرج ولا يمل ولا يضجر بل يبقى راسيًا كالصخرة والعاقبة للمتقين والله تعالى مع الصَّابرين .

فإذا صبر وثابر وسَلك الطُرق توصل إلى المقصود ولكن بدون فوضى وبدون استنفار وبدون إثارة بطريق مُنَظَّمة لأن أعداء المُسْلمين من المنافقين والكفار يمشون على خُطًا ثابتة منظمة ويحصلون مَقْصُودهم .

أما السَّطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يثُوروا ويستنفروا فإنَّه قد يفوتهم شيء كثير وربما حَصَل منهم زلَّة تفسد كُل ما بنوا إن كانوا قد بنوا شيئًا .

لكن المؤمن يصبر ويتئد ويعمل بتؤده ويوطن نفسه ويخطط تخطيطًا منظمًا يقضى به على أعداء الله من المنافقين والكفار ويفوت عليهم الفُرص لأنهم يَتَربَّصون الدَّوائر بأهل الخير ، يُريدون أن يثيروهم حتى إن حصل من بعضهم ما يحصل حينئذ استعلوا عليهم وقالوا هذا الَّذى نُريد وحصل بذلك شرٌ كبير .

فالرسول عليه الصلاة والسَّلام قال لأصحابه اصبروا ، فالمؤمن فيمن قبلكم - وأنتم أحَقُ بالصَّبر منه - كان يعمل به هذا العمل ويصبر فأنتم يا أمة محمد أمَّة الصَّبر والإحسان فاصبروا حتى يأتى الله بأمره والعاقبة للمتقين .

فأنت أيها الإنسان ، لا تسكت عن الشَّر ولكن اعمل بنظام وبتخطيط وبحسن تصرف وانتظر الفرج من الله ولا تمل فالدرب طويلٌ لاسيما إذا كنت فى أوَّل الفتنة ، فإن القائمين بها سوف يحاولون ما استطاعوا أن يصلوا إلى قمة ما يريدون فاقطع عليهم السَّبيل وكن أطْول منهم نفسًا وأشد منهم مكرًا فإن هؤلاء الأعداء يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين والله الموفق .

***

[٤٢]وعن ابن مَسْعُود - رضي الله عنه - قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْن آثَر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نَاساً فى القِسْمَة ، فَأعْطَى الأقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً منَ الإبل ، وَأعْطَى عُيَينَةَ بْنَ حِصْن مِثْل ذلكَ ، وَأعْطَى نَاساً منْ أشْراف العَرَب وَآثَرهُمْ يَوْمئذ فى القِسْمَة . فَقَال رَجُلٌ: والله إنَّ هذه قِسْمَةٌ مَا عُدِلَ فِيهَ، وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ الله .

فَقُلْتُ : وَالله لأخبِرَنَّ رَسُولَ الله - صلى الله عليه وسلم - ، فَأتَيْتُهُ فَأخبَرْتُهُ بِمَا قال ، فَتَغَيَّر

[٤٢] صحيح :رواه البخارى (٦/ ٣١٥٠) ، ومسلم (١٠٦٢) .

Marfat.com

وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ ، ثُمَّ قَالَ : « فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِل اللهُ وَرَسُولُهُ ؟ » ثُمَّ قَالَ : « يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِى بِأَكْثَرَ مِنْ هذَا فَصَبَرَ » . فَقُلْتُ : لاَ جَرَمَ لا أَرْفَعُ إِلَيْهِ بَعْدَهَا حَدِيثاً . متفقٌ عليه .

وَقَوْلُهُ « كَالصِّرْفِ » هُوَ بِكَسْرِ الصَّادِ الْمُهْمَلَةِ : وَهُوَ صِبْغٌ أَحْمَرَ .

الشرح

قوله « لما كان غزوة حنين » وهى غزوة الطائف التى كانت بعد فتح مكة ، غزاهم الرَّسول - ﷺ - وغنم منهم غنائم كثيرة جدًّا من إبل وغنم ودَرَاهم ودنانير . ثم إن الرسول - ﷺ - نزل بالجعرانة وهى محلٌ عند منتهى الحرم من جهة الطَّائف .

نزل بها وصار يقسم الغنائم ، وقسم فى المؤلفة قلوبهم - أى فى زعماء القبائل - يؤلفهم على الإسلام، وأعطاهم عطاءً كثيرًا حتى كان يُعطى الواحد منهم مائة من الإبل .

فقال رجل من القوم : « والله إنَّ هذِهِ قسمة ما عُدِلَ فيها وما أُريد فيها وجه الله » نعوذ بالله !!

يقول هذا القول فى قسمة قسمها رسول الله - ﷺ - لكن حُبَّ الدُّنيا والشَّيطان يوقع الإنسان فى الهلكة .

هذه الكلمة كلمة كفر ، أن يَنْسب الله ورسوله إلى عدم العدل وإلى أن النبى لم يرد بها وجه الله .

ولا شك أن النبى - ﷺ - أراد بها وجه الله ، أراد أن يؤلف كبار القبائل والعشائر من أجل أن يتقوَّى الإسلام ، لأن أسياد القوم إذا ألفوا الإسلام وقوى إيمانهم بذلك حصل منهم خير كثير وتبعهم على ذلك قبائل وعشائر ، واعتز الإسلام بهذا . ولكن الجهل والعِياذ بالله يُوقع صاحبه فى الهلكة .

عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - لما سمع هذه الكلمة تقال فى رسول - ﷺ - أخبره بها ورفعها إليه . أخبره بأن هذا الرَّجل يقول كذا وكذا فتغير وجه الرسول - ﷺ - حتى كان كالصرف - أى كالذهب - من صفرته وتغيره . ثم قال : « **فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله** » وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ! إذا كانت قسمة الله ليست عدلاً وقسمة رسوله ليست عدلاً فمن يعدل إذًا !

ثم قال : « **يرحم الله مُوسى لقد أُوذى بأكثر من هذا فصبر** » .

والشاهد هذه الكلمة وهى أنَّ الأنبياء يُوذَوْنَ ويصبرون ، فهذا نبينا - ﷺ - قيل له

Marfat.com

هذا الكلام بعد ثماني سنين من هجرته . يعني ليس في أول الدعوة بل بعدما مكَّن الله له وبعدما عَرف صدقه وبعدما أظهر الله آيات الرسول في الآفاق وفي أنفسهم ، مع ذلك يقال هذه القسمة لم يَعدل فيها ولم يُرد بها وجه الله .

فإذا كان هذا قول رجل في صحابة الرَّسول عليه الصلاة والسلام للنبي - ﷺ - فلا تستغرب أن يقول النَّاس في عالم منٍ العلماء إن هذا العالم في كذا وفيه كذا ويصفونه بالعيوب ، لأن الشّيطان هو الذي يَؤزّ هؤلاء على أن يقدحوا في العلماء .

لأنهم إذا قدحوا في العلماء وسقطت أقوالهم عند الناس ما بقي للناس أحدٌ يقودهم بكتاب الله ، بل تقودهم الشياطين وحزب الشيطان ولذلك كان غيبة العلماء أعظم بكثير من غيبة غير العلماء ، لأن غيبة غير العلماء غيبة شخصية إن ضرَّت فإنها لا تضر إلا الذي اغتاب والذي قيلت فيه الغيبة ، لكن غيبة العلماء تَضُرُّ الإسلام كلها لأن العلماء حَمَلَة لواء الإسلام فإذا سقطت الثقة بأقوالهم ، سقط لواء الإسلام ، وصار في هذا ضررٌ على الأمة الإسلامية .

فإذا كانت لحوم النَّاس بالغيبة لحوم ميِّتة فإن لحوم العلماء ميِّتة مسمومة لما فيها من الضَّرر العظيم .

فأقول : لا تستغرب إذا سمعت أحدًا يَسُبُّ العلماء ! وهذا رسول الله - ﷺ - قيل فيه ما قيل ، فاصبر ، واحتسب الأجر من الله عز وجل واعلم أن العاقبة للتقوى .

ما دام الإنسان في تقوى وعلى نورٍ من الله عز وجل فإن العاقبة له .

كذلك يوجد بعض الناس يكون له صديق أو قريب يخطئ مرة واحدة فيصفه بالعيب والسَّب والشَّتم في خطيئة واحدة .

على هذا الذي وصِفَ بالعيب أن يصبر وأن يعلم أن الأنبياء قد سُبُّوا وأُوذوا وكذِّبوا وقيل إنهم مجانين وإنهم شعراء وإنهم كهنة وإنهم سحرة ﴿ فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتىٰ أتاهم نصرنا ﴾ [الأنعام : ٣٤] . هكذا يقول الله عز وجل .

ففي هذا الحديث : دليل على أن للإمام أن يُعطى من يَرَى في عطيته المصلحة ولو أكثر من غيره ، إذا كان في هذا مصلحة للإسلام !

ليست مصلحة شخصية يُحابِي من يُحب ويمنع من لا يحب ، لا !

إذا رأى في هذا مصلحة للإسلام وزاد في العطاء فإن هذا إليه وهو مسئول أمام الله ولا يحل لأحد أن يعترض عليه فإن اعترض عليه فقد ظلم نفسه .

Marfat.com

وفيه : أن الرَّسول عليه الصلاة والسلام يعتبر بمن مضى من الرسل ، ولهذا قال : لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر لأن الله يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] . ويقول : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] . فأمر الله نبيه أن يقتدى بهدى الأنبياء قبله .

وهكذا ينبغى لنا نحن أن نقتدى بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى الصَّبر على الأذَى وأن نحتسب الأجر على الله وأن نعلم أن هذا زيادة فى درجاتنا مع الاحتساب وتكفير لسيئاتنا والله الموفق .

* * *

[٤٣] وَعَن أنَس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إذَا أرادَ اللَّه بِعَبْدِه خيْراً عَجَّلَ لَهُ الْعقُوبَةَ فى الدُّنيَا ، وَإذَا أرادَ الله بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أمْسَكَ عَنْهُ بذَنْبِهِ حَتَّى يُوافِىَ به يَوْمَ الْقِيامَة » .

وَقَالَ النَّبىُّ ـ ﷺ ـ : « **إنَّ عظَمَ الْجزَاء مَعَ عظَم الْبَلاء ، وَإنَّ الله تعالى إذَا أحَبَّ قَوْماً ابْتلاهُمْ ، فَمَنْ رَضِىَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ** » رواه الترمذى وقال: حديثٌ حَسَنٌ .

الشرح

الأمور كُلُّها بيد الله عز وجل وبإرادته لأن الله يقول عن نفسه : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : ١٠٧] . ويقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [الحج : ١٨] . فكل الأمور بيد الله.

والإنسان لا يخلو من خطأ ومعصية وتقصير فى الواجب ؛ فإذا أراد الله بعبده الخير عجَّلَ له العقوبة فى الدُّنيا إمَّا بماله أو بأهله أو بنفسه أو بأحد ممن يتصل به .

المهم أن تعجل له العقوبة ، لأن العقوبات تُكفِّر السيِّئات فإذا تعجَّلت العقوبة وكفر الله بها عن العبد فإنَّه يُوافى الله وليس عليه ذنب قد طَهَّرَتهُ المصائب والبلايا . حتى إنَّه ليُشدَّد على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين عليه ، حتى يخرج من الدُّنيا نقيًا من الذّنوب ، وهذه نعمة لأنَّ عذاب الدُّنيا أهون من عذاب الآخرة .

لكن إذا أراد الله بعبده الشرَّ أمهل له واستدرجه وأدر عليه النعم ودفع عنه النقم حتى يبطر ويفرح فرحًا مذمومًا بما أنعم الله به عليه .

---

[٤٣] حسن : رواه الترمذى (٢٣٩٦) وحسنه الألبانى فى الصحيحة برقم (١٤٦، ١٢٢٠) .

Marfat.com

وحينئذٍ يُلاقى ربَّه وهو مَغمُور بسيِّئاته فيُعاقب بها فى الآخرة نسأل الله العافية . فإذا رأيت شخصًا يُبارز الله بالعصيان وقد وقاه الله البلاء وأدر عليه النِّعم فاعلم أن الله إنَّما أراد به شرًا ، لأن الله أخرَّ عنه العقوبة حتى يُوافى بها يوم القيامة .

ثم ذكر فى هذا الحديث « **أن عظَم الجزَاء من عظَم البلاء** » يعنى أنه كلما عظم البلاء عظم الجزاء . فالبلاء السَّهل له أجرٌ يسير ، والبلاء الشديد له أجر كبير لأن الله عز وجل ذو فضل على الناس . إذا ابتلاهم بالشَّدائد أعطاهم عليها من الأجر الكبير وإذا هانت المصائب هان الأجر .

« **وإنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم فمَن رَضِى فلَهُ الرضا ومن سخط فلَهُ السُّخط** » .

وهذه بشرى للمؤمن إذا ابتلى بالمصيبة فلا يظن أن الله سُبحانه يُبغضهُ بل قد يكون هذا من علامة محبة الله للعبد يبتليه سبحانه بالمصائب فإذا رضى الإنسان وصبر واحتسب فله الرضا وإن سخط فله السُّخط .

وفى هذا حثٌّ على أنَّ الإنسان يصبر على المصائب حتى يكتب له الرِّضَا من الله عز وجل والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[٤٤] وعَن أنس - رضي الله عنه - قال : كَانَ ابْنٌ لأبى طَلْحَةَ رضى الله عنه يَشتَكى ، فَخرَجَ أبُو طَلْحَةَ ، فَقُبِضَ الصَّبىُّ ، فَلَمَّا رَجعَ أبو طَلْحَةَ قال : مَا فَعَل ابْنى ؟ قَالَتْ أمُّ سُلَيْم وَهىَ أمُّ الصَّبىِّ: هُوَ أسْكَنُ مَا كَانَ ، فَقَرَّبتْ إلَيْه الْعشَاء فَتَعشَّى ، ثُمَّ أصابَ منْهَا ، فَلمَّا فَرَغ قَالَتْ : وَارُوا الصَّبىَّ ، فَلَمَّا أصبَح أبُو طَلْحَةَ أتى رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - فأخْبرَهُ،فقَالَ : « **أعرَّسْتُمُ اللَّيْلَةَ** ؟ » قال : نَعمْ ، قال : « **اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا** » فولَدتْ غُلاماً، فَقَالَ لى أبُو طَلْحَةَ: احْملْهُ حتَّى تأتىَ به النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وبَعثَ مَعهُ بتمرَات ، فَقَالَ: « **أمعَهُ شَىْءٌ** ؟ » قال : نعَمْ ، تمرَاتٌ ، فَأخذَهَا النَّبىُّ - صلى الله عليه وسلم - فَمضَغهَا ، ثُمَّ أخذَهَا منْ فِيه فَجعَلَها فى فى الصَّبىِّ ، ثُمَّ حنَّكَهُ وَسمَّاهُ عَبْدَ اللَّه . متفقٌ عليه .

وفى روايَة للْبُخَارىِّ : قال ابْنُ عُيَيْنَةَ : فَقَالَ رَجُلٌ منَ الأنْصارِ : فَرَأيْتُ تِسعَةَ أوْلادٍ كلُّهُمْ قَدْ قَرَؤُوا الْقُرْآنَ ، يَعنِى مِنْ أوْلادِ عَبْدِ اللَّه الْمَوْلُودِ (١) .

---

[٤٤] صحيح : اخرجه البخارى (٥٤٧٠) ، ومسلم (٢١٤٤) .

(١) صحيح: رواه البخارى (١٣٠١) .

Marfat.com

وفى رواية لمسلم : مَاتَ ابنٌ لأبى طَلْحَةَ منْ أُمّ سُلَيْم ، فَقَالَتْ لأهْلها : لا تُحَدّثوا أبَا طَلْحَةَ بابنه حتَّى أكُونَ أنَا أُحَدِّثُهُ ، فَجَاء فَقرّبتْ إلَيْه عَشاءً فَأكَلَ وَشرِبَ، ثُمَّ تصنَّعَتْ لَهُ أحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصنَعُ قَبْلَ ذلكَ ، فَوقَعَ بهَا ، فَلَمَّا أنْ رأتْ أنَّهُ قَدْ شبعَ وأصَابَ منهَا قَالَتْ : يَا أبَا طَلْحَةَ ، أرأَيْتَ لَوْ أنَّ قَوماً أعارُوا عَاريَتَهُمْ أهْل بَيْت فَطَلَبُوا عَاريَتَهُمْ ، أَلَهُمْ أنْ يَمنَعُوهُمْ ؟ قَالَ : لا ، فَقَالَتْ : فَاحتَسب ابْنَكَ . قال : فَغَضبَ ، ثُمَّ قال : تَركْتني حَتَّى إذَا تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أخبرْتني بابْنى ؟! فَانطَلَقَ حَتَّى أتَى رسول اللّه ـ ﷺ ـ فَأخبَرَهُ بمَا كَان، فَقَالَ رسول الله ـ ﷺ ـ : « **بَارَكَ اللّهُ فى لَيلَتكُما** » قال : فَحمَلَتْ ، قال : وكَانَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فى سَفرٍ وَهى مَعَهُ ، وكَانَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ إذَا أتَى الْمَدينَةَ منْ سَفَرٍ لا يَطرُقُها طُرُوقاً فَدَنَوا منَ الْمَدينة، فَضرَبَهَا الْمَخَاض ، فَاحْتَبَسَ عَليهَا أبُو طَلْحَةَ ، وَانطَلَق رسولُ اللّه ـ ﷺ ـ ، قَالَ : يَقُولُ أبو طَلْحَةَ : إنَّكَ لَتَعلَمْ يَا ربّ أنَّهُ يُعجبُنى أنْ أخرُجَ مَع رسول اللّه ـ ﷺ ـ إذَا خَرَجَ ، وَأدْخلَ مَعَهُ إذَا دَخَلَ ، وقَد احْتَبَسْتُ بمَا تَرَى ، تَقولُ أمُّ سُلَيْم : يَا أبَا طَلْحَةَ ، مَا أجدُ الذى كُنْتُ أجدُ ، انْطَلقْ ، فانْطَلَقْنَا ، وَضَرَبَهَا المَخَاضُ حينَ قَدما فَوَلَدَتْ غُلاماً ، فقالتْ لى أُمّى : يَا أنَسُ ، لا يُرْضعهُ أحدٌ حَتَّى تَغْدُوَ به عَلَى رَسُول اللّه ـ ﷺ ـ ، فَلَمَّا أصبَحَ احتَملْتُهُ فَانطَلَقْتُ به إلَى رسول اللّه ـ ﷺ ـ (١). وَذَكَرَ تَمامَ الْحَديث .

الشرح

حديث أنس بن مالك عن أبى طلحة أنَّه كان له ابن يشتكى يعنى مريضًا ، وأبو طلحة كان زوج أم أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ . وكان هذا الصَّبى يشتكى فخرج أبو طلحة لبعض حاجاته فَقُبِض الصبى . يعنى مات .

فلما رجع سأل أمَّه عنه فقال : كيف ابنى ؟ قالت : « هو أسكن ما يكون » وصَدَقت فى قولها هو أسكن ما يكون لأنَّه مات ولا سُكون أعظم من الموت .

وأبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ فهم أنه أسكنُ ما يكون من المرض وأنَّه فى عافية فقدَّمت له العشاء فتعشَّى على أن ابنه بزىء وطيب ثم أصاب منها ـ يعنى جامعها ـ فلما انتهى قالت له : « واروا الصَّبى » أى : ادفنوا الصَّبى فإنَّه قد مات .

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢١٤٤) .

Marfat.com

فلما أصبح أبو طلحة - رضي الله عنه - ووارَى الصَّبى وعلم بذلك الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

فسأل « هل أعرستم الليلة ؟ » . قال : نعم فدعا لهما بالبركة « اللَّهُمَّ بارك لهما فى لَيلتهما » فولدت غلامًا سمَّاه عبد الله ، وكان لهذا الولد تسعة أولاد كلهم يقرؤون القرآن ببركة دعاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ففى هذا الحديث : دليلٌ على قُوَّة صبر أم سليم - رضي الله عنها - وأن ابنها الذى مات بلغ منها الحال إلى أن تقول لزوجها هذا القول وتوارى هذه التورية وقدَّمت له العَشاءَ ونال منها ثم قالت : ادفنوا الولد .

وفى هذا دليل على جواز التورية يعنى : أن يتكلَّمَ الإنسان بكلام تخالف نيته ما فى ظاهر هذا الكلام . فله ظاهر هو المُتبادَر إلى ذهن المخاطب وله معنى آخر مَرجوح لكن هو المراد فى نيَّةِ المتكلم فيظهر خلاف ما يريد .

وهذا جائز ولكنه لا ينبغى إلا للحاجة إذا احتاج الإنسان إليه لمصلحة أو دفع مضرة فليوار وأما مع عدم الحاجة فلا ينبغى أن يوارى لأنَّه إذا وارَى وظهر الأمر على خلاف ما يَظُنُّه المخاطب نسب هذا المُوارى إلى الكذب وأساء الظَّن به لكن إذا دعت الحاجة فلا بأس.

ومن التَّورية المفيدة التى يحتاج إليها الإنسان : لو أن شخصًا ظالمًا يأخذ أموال الناس بغير حق وأودع إنسان عندك مالاً قال : هذا مالى عندك وديعة أخشى أن يطَّلع عليه هذا الظَّالم فيأخذه .

فجاء الظَّالم إليك وسألك هل عندك مال لفلان ؟ فقلت : والله ما عندى شىء .

والمُخاطَب يَظُنُّ أن هذا نفى وأن المعنى ما عندى له شىء . لكن أنت تنوى بـ (ما) الذى ، أى : الذى عندى له شئ ، فيكون هذا الكلام مُثبتًا لا منفيًا ، هذا من التَّورية المباحة بل المطلوبة إذا دعت الحاجة إليها .

وفى هذا الحديث : أنَّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما جاء أنس بن مالك بأخيه من أمهِ ابن أبى طلحة جاء به إلى النبى عليه الصلاة والسلام ومعه تمرات فأخذه النبى - صلى الله عليه وسلم - ومضغ التمرات ثم جعلها فى فِى الصبى أى أدخلها فى فمه وحنكه أى أدخل أصبعه وداره فى حَنَكه وذلك تبركًا بريق الرَّسول عليه الصلاة والسلام ليكون أول ما يَصلُ إلى بطن هذا الصبى ريق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان الصحابة يفعلون هذا إذا ولد لهم أولاد بنين وبنات جاءوا بهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجاءُوا بالتمرات معهم من أجل أن

Marfat.com

يحنكه .

وهذا التَّحنيك هل هو لبركة ريق النَّبى - ﷺ - أو من أجل أن يصل التَّمر إلى معدة الصَّبى قبل كل شئ ؟

إن قلنا بالأوَّل صار التَّحنيك من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يُحنَّك أحدَ صبيٌ لأنه لا أحد يُتَبَرَّكُ بريقه وعرقه إلا رسول الله - ﷺ - .

وإن قلنا بالثانى إنَّه من أجل التَّمرات يكون هو أول ما يصل إلى معدة الصبى لأنَّه يكون لها بمنْزلة الدباغ فإننا نقول كل مولود يُحنَّك .

وفى هذا الحديث : آية من آيات الله عز وجل حيث دَعَا لهذا الصبى فبارك الله فيه وفى عقبه وكان له كما ذكرنا تسعة من الولد كلهم يقرءُون القرآن ببركة دعاء الرِّسول عليه الصلاة والسلام .

وفيه : أنَّه يستحب التسمية بعبد الله فإن التَّسمية بهذا وبعد الرَّحمن أفضل ما يكون قال النبى - ﷺ - : « **إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله عبدُ الله ، وعبدُ الرَّحمن** »(١) .

وأما ما يُروى أنَّ « **خير الأسماء ما حُمِّد وعبِّد** » فلا أصل له وليس حديثًا عن رسول الله - ﷺ - (٢) .

الحديث الصحيح : « **أحبُّ الأسماء إلى الله عبد الرَّحمن وعبدُ الله وأصدقها حارثٌ وهمام** »(٣) لأنها مُطابقة للواقع .

كل واحد من بنى آدم فهو حارث يعمل ، وكل واحد من بنى آدم فهو هَمَّام يهم وينوى ويقصد وله إرادة .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق :٦]. كل إنسان يعمل .

ولهذا ينبغى للإنسان أن يختار لأبنائه وبناته أحسن الأسماء لينال بذلك الأجر وليكون مُحسنًا لأبنائه وبناته .

أما أن يأتى بأسماء غريبة على المجتمع فإن هذا قد يوجب مضايقات نفسية للأبناء

---

(١)صحيح : رواه مسلم (٢١٣٢) وأبو [illegible] والترمذى (٢٨٣٤) ابن ماجه (٣٧٢٨) .

(٢) كشف الخفاء (١/ ٤٦٧) .

(٣) صحيح : رواه حمد (٣٤٥) وأبو داود (٤٩٥٠) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود .

Marfat.com

والبنات فى المستقبل ويكون كل هم ينال الولد من هذا الاسم فعليك إثمه ووباله لأنك أنت المتسبب لمضايقته بهذا الاسم الغريب الذى يشار إليه ويقال انظر إلى هذا الاسم انظر إلى هذا الاسم !! .

ولهذا ينبغى للإنسان أن يختار أحسن الأسماء .

ويحرم أن يسمى الإنسان أسماء من خصائص أسماء الكفار مثل جورج وما أشبه ذلك من الأسماء التى يتلقب بها الكفار لأن هذا من باب التشبه بهم وقد قال النبى ـ ﷺ ـ : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » (١) .

ويجب علينا نحن المسلمين أن نكره الكفار كرهًا عظيمًا وأن نعاديهم وأن نعلم أنهم أعداء لنا مهما تزينوا لنا وتقربوا لنا فهم أعداؤنا حقًا وأعداء الله عز وجل وأعداء الملائكة وأعداء الأنبياء وأعداء الصالحين ، فهم أعداء ولو تلبسوا بالصداقة أو زعموا أنهم أصدقاء فإنهم والله هم الأعداء ، فيجب أن نعاديهم ولا نفرق بين الكفار الذين لهم شأن وقيمة فى العالم أو الكفار الذين ليس لهم شأن !

حتى الخدم والخادمات يجب أن نكره أن يكون فى بلدنا خادم أو خادمة من غير المسلمين.

لا سيما وأن نبينا محمدًا ـ ﷺ ـ يقول : « **أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب** » (٢) ويقول : « **لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا** » (٣) .

ويقول فى مرض موته ، فى آخر حياته وهو يودع الأمة : « **أخرجوا المشركين من جزيرة العرب** » (٤) .

وبعض الناس الآن يخير بين عامل مسلم وعامل كافر فيختار الكافر نسأل الله العافية. قلوب زائغة ضالة ، ليست إلى الحق مائلة .

يزين لهم الشيطان أعمالهم يقولون كذبًا وزورًا وبهتانًا : إن الكافر أخلص فى عمله من المسلم ! أعوذ بالله ! .

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٥٠) وابو داود (٤٠٣١) وصححه الالبانى فى صحيح أبى داود .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٤٣١) مسلم (١٦٣٧) بلفظ : أخرجوا المشركين .

(٣) صحيح: رواه مسلم (١٧٦٧) أبو داود (٣٠٣٠) والترمذى (١٦٠٧) .

(٤) صحيح: رواه البخارى (٤٤٣١) مسلم (١٦٣٧) .

Marfat.com

يقولون : إن الكافر لا يصلى بل يستغل وقته فى العمل فى وقت الصلاة ، ولا يطلب الذهاب إلى العمرة أو الحج ولا يصوم ، هو دائمًا فى عمل .

ولا يهمهم هذا الشئ مع أن خالق الأرض والسموات يقول: ﴿ ولعبدٌ مؤمنٌ خيرٌ من مشركٍ ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ [البقرة : ٢٢١] . فيجب عليكم أيها الإخوة يا من استمعتم إلى قولنا هذا أن تنصحوا إخوانكم الذين اغتروا وزين لهم الشيطان جلب الكفار إلى بلادنا خدمًا وعمالاً وما أشبه ذلك ، يجب أن يعلموا أن فى ذلك إعانة للكفار على المسلمين .

لأن هؤلاء الكفار يؤدون ضرائب لحكوماتهم لتقويتها على المسلمين .

والشواهد على هذا كثيرة فالواجب علينا أن نتجنب الكفار بقدر ما نستطيع ، فلا نتسمى بأسمائهم ولا نوادهم ولا نحترمهم ولا نبدؤهم بالسلام ولا نفسح لهم الطريق لأن الرسول - ﷺ - يقول : « **لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذ لقيتموهم فى الطريق فاضطروهم إلى أضيقه** » [١] .

أين نحن من هذه التعليمات !؟ أين نحن من كلام الرسول - ﷺ - الذى لا ينطق عن الهوى ؟ لماذا لا نحذر إذا كثر فينا الخبث من الهلاك ؟ استيقظ النبى عليه الصلاة والسلام ذات ليلة محمرًا وجهه فقال : « **لا إله الله ويل للعرب من شر قد اقترب** » - إنذار وتحذير ، ويل للعرب . حملة لواء الإسلام من شر قد اقترب - « **فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه** » وقال بأصبعه الإبهام والسبابة ، قالت زينب : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « **نعم إذا كثر الخبث** » [٢] .

الخبث العملى والخبث البشرى !

إذا كثر الخبث فى أعمالنا فنحن عرضة للهلاك ، إذا كثر البشر النجس فى بلادنا فنحن عرضة للهلاك والواقع شاهد بهذا نسأل الله أن يحمى بلادنا من أعدائنا الظاهرين والباطنين وأن يكبت المنافقين والكفار ويجعل كيدهم فى نحورهم إنه جواد كريم .

قوله : « **أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت ثم طلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، فقالت : فاحتسب ابنك** » .

يعنى أن الأولاد عندنا عارية وهم ملك لله عز وجل متى شاء أخذهم ، فضربت له

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٢١٦٧) الترمذى (١٦٠٢ ، ٢٧٠٠) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٣٣٤٦) مسلم (٢٨٨٠).

Marfat.com

هذا المثل من أجل أن يقتنع ، ويحتسب الأجر على الله سبحانه وتعالى .

وهذا يدل على ذكائها ـ ﷺ ـ وعلى أنها امرأة عاقلة صابرة محتسبة وإلا فإن الأم كالأب ينالها من الحزن على ولدها مثل ما ينال الأب وربما تكون أشد حزنًا لضعفها وعدم صبرها .

وفي هذا الحديث : بركة دعاء النبي ـ ﷺ ـ حيث إنه كان له تسعة من الولد كلهم يقرؤون القران .

وفيه : كرامة لأبى طلحة ـ ﷺ ـ لأن أبا طلحة كان قد خرج مع النبى ـ ﷺ ـ فى سفر وكان معه أم سليم بعد أن حملت ، فلما رجع ـ ﷺ ـ من السفر أتاها المخاض ـ أى جاءها الطلق ـ قبل أن يصلوا إلى المدينة وكان الرسول ـ ﷺ ـ « **لا يحب أن يطرق أهله طروقًا** » أى لا يحب أن يدخل عليهم ليلاً دون أن يخبرهم بالقدوم . فدعا أبو طلحة ـ ﷺ ـ ربه وقال : اللهم إنك تعلم أننى أحب ألا يخرج النبى مخرجًا إلا وأنا معه ولا يرجع مرجعًا إلا وأنا معه وقد أصابنى ما ترى يناجى ربه سبحانه وتعالى ـ تقول أم سليم : « فما وجدت الذى كنت وجدته من قبل » يعنى هان عليها الطلق ولا كأنها تطلق .

قالت أم سليم لزوجها أبى طلحة : انطلق ، فانطلق ، ودخل المدينة مع رسول الله ـ ﷺ ـ .

ولما وصلوا إلى المدينة وضعت ، ففى هذا كرامة لأبى طلحة ـ ﷺ ـ حيث خفف الله الطلق على امرأته بدعائه ثم لما وضعت قالت أم سليم لابنها أنس بن مالك وهو أخو هذا الحمل الذى ولد من أمه .

قالت : احتمله إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أى : اذهب به ، كما هى عادة أهل المدينة إذا ولد لهم ولد ؛ يأتون به إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ومعهم تمر فيأخذ الرسول ـ ﷺ ـ التمرة فيمضغها بفمه ثم يحنك بها الصبى لأن فى ذلك فائدتين :

الأولى : بركة ريق النبى ـ ﷺ ـ وكان الصحابة ـ ﷺ ـ يتبركون بريق النبى ـ ﷺ ـ وبعرقه ، حتى إنه من عادتهم أنه إذا كان فى الصباح وصلوا الفجر أتوا بآنية الماء، ثم ينطلقون به إلى أهليهم يتبركون بأثر النبى ـ ﷺ ـ (١) .

وكان الصحابة إذا توضأ النبى عليه الصلاة والسلام كادوا يقتتلون على وضوئه أى

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٢٣٣١، ٢٣٣٢) .

Marfat.com

فضل الماء يتبركون به ، وكذلك من عرقه وشعره (١) .

حتى كان عند أم سلمة ـ إحدى زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام وإحدى أمهات المؤمنين ـ عندها جلجل من فضة أى مثل (الطابوق) فيه شعرات من شعرات النبى ـ ﷺ ـ يستشفون بها أى : يأتون بشعرتين أو ثلاث فيضعونها فى الماء ، ثم يحركونها من أجل أن يتبركوا بهذا الماء ، لكن هذا خاص بالنبى عليه الصلاة والسلام .

الفائدة الثانية : من التمر الذى كان يحنكه الصبيان أن التمر فيه خير وبركة وفيه فائدة للمعدة فإذا كان أول ما يصيب الطفل مما يصل إلى معدته من التمر كان ذلك خيراً للمعدة.

فحنكه الرسول عليه الصلاة والسلام ودعا له بالبركة .

والشاهد من هذا الحديث : أن أم سُليم قالت لأبى طلحة احتسب ابنك : أى اصبر على ما أصابك من فقده ، واحتسب الأجر على الله والله الموفق .

* * *

[٤٥] وعَنْ أبى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ قال : « لَيْسَ الشديدُ بالصُّرَعَة ، إنَّمَا الشَّديدُ الَّذى يَمْلكُ نَفْسَهُ عنْدَ الغَضب » متفقٌ عليه .

و « الصُّرَعَةُ » بِضَمِّ الصَّادِ وفَتْحِ الرَّاءِ ، وَأَصْلُهُ عِنْدَ العَرَبِ مَنْ يَصْرَعُ النَّاسَ كثيراً.

[٤٦] عَـنْ سُلَيْمَانَ بْــنِ صرَد ـ رضي الله عنه ـ : كُنْتُ جَالساً مَـعَ النَّبِىِّ ـ ﷺ ـ وَرَجُلان يَسْتَبَّان،وَأحدُهُمَا قَد احْمَرَّ وَجْهُه،وانْتَفَخَتْ أوْدَاجُهُ.فقال رسول الله ﷺ:«إنّى لأعْلَمُ كَلمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ ما يَجدُ ، لَوْ قَالَ : أعُوذُ باللّه منَ الشَّيْطَان الرَّجيم ذَهَبَ منْهُ مَا يَجدُ »، فَقَالُوا لَه:إنَّ النَّبِىَّ ـ ﷺ ـ قَالَ:« تَعَوَّذْ باللّه مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » متفق عليه.

الشرح

هذان الحديثان اللذان ذكرهما المؤلف فى [أن] الغضب جمرة يلقيها الشيطان فى

[٤٥] صحيح : رواه البخارى (٦١١٤) ، ومسلم (٢٦٠٩) .

[٤٦] صحيح : رواه البخارى (٦١١٥) ، ومسلم (٢٦١٠) .

Marfat.com

قلب ابن آدم ، فيستشيط غضبًا ، ويحتمي جسده ، وتنتفخ أوداجه ، ويحمر وجهه ويتكلم بكلام لا يعقله أحيانًا ويتصرف تصرفًا لا يعقله أيضًا .

ولهذا جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : أوصنى . قال « **لا تغضب** » . قال: أوصنى . قال : « **لا تغضب** » . قال : أوصنى . قال : « **لا تغضب** »(١) .

وبين النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث أبى هريرة هذا الذى ذكره المؤلف رحمه الله أن الشديد ليس بالصرعة فقال : « **ليس الشديد بالصرعة** » أى ليس القوى فى الصرعة الذى يكثر صرع الناس فيطرحهم ويغلبهم .

هذا يقال عنه عند الناس إنه شديد وقوى ولكن النبىَّ - ﷺ - يقول : ليس هذا هو الشديد حقيقة « **إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب** » أى : القوى حقيقة هو الذى يصرع نفسه إذا صارعته وغضب ملكها وتحكم فيها لأن هذه هى القوة الحقيقة .

قوة داخلية معنوية : يتغلب بها الإنسان على الشيطان ، لأن الشيطان هو الذى يلقى الجمرة فى قلبك من أجل أن تغضب .

ففى هذا الحديث الحث : على أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب ، وألا يسترسل فيه لأنه يندم بعده . كثيرًا ما يغضب الإنسان فيطلق امرأته وربما تكون هذه الطلقة آخر تطليقة .

كثيرًا ما يغضب الإنسان فيتلف ماله إما بالحرق ، أو بالتكسير . كثيرًا ما يغضب على ابنه حتى يضربه وربما مات بضربه . وكذلك يغضب على زوجته مثلاً فيضربها ضربًا مبرحًا وما أشبه ذلك من الأشياء الكثيرة التى تحدث للإنسان وقت الغضب ولهذا نهى النبى - ﷺ - أن يقضى القاضى بين اثنين وهو غضبان (٢) ؛ لأن الغضب يمنع القاضى من تصور المسألة ثم من تطبيق الحكم الشرعى عليها ، فيهلك ويحكم بين الناس بغير الحق .

وكذلك ذكر المؤلف - رحمه الله - حديث سليمان بن صُرَد - رضي الله عنه - فى رجلين استبا عند الرسول - ﷺ - فغضب أحدهما حتى انتفخت أوداجه واحمرَّ وجهه فقال النبى ﷺ : « **إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم** » أعوذ بالله أى : أعتصم به .

من الشَّيطان الرَّجيم : لأن ما أصابه من الشَّيطان .

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٥) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٧١٥٨) مسلم (١٧١٧) .

Marfat.com

وعلى هذا فنقول المشروع للإنسان إذا غضب أن يحبس نفسه وأن يصبر وأن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأن يتوضأ فإن الوضوء يطفئ الغضب .

وإن كان قائمًا فليقعد وإن كان قاعدًا فليضطجع وإن خاف خرج من المكان الذى هو فيه حتى لا ينفذ غضبه فيندم بعد ذلك والله الموفق .

* * *

[٤٧] وَعَنْ مُعَاذ بْنِ أَنَسٍ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِىَّ - ﷺ - قال : « **مَنْ كَظَمَ غَيْظاً، وَهُوَ قَادرٌ عَلَى أنْ يُنْفذَهُ ، دَعَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى عَلَى رُؤُوس الْخَلائق يَوْمَ الْقيامة حَتَّى يُخَيِّرهُ منَ الْحُورَ العينِ مَا شاء** » رواه أَبُودَاوُدَ، والتِّرمذىُّ وقال: حديثٌ حسنٌ .

[٤٨] وَعَنْ أبى هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - ، أنَّ رَجُلاً قال للنَّبىِّ - ﷺ - : أَوْصِنى ، قَالَ : « **لا تَغْضَبْ** » فَرَدَّدَ مراراً ، قَالَ : « **لا تَغْضَبْ** » رواه البخارى .

[٤٩] وَعَنْ أبى هُرَيْرةَ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **مَا يَزَالُ الْبلاءُ بِالْمُؤْمنِ وَالْمُؤْمنَة فى نَفْسه وَوَلَده وَمَاله حَتَّى يَلْقَى الله تعالى وَمَا عَلَيْه خَطيئةٌ** » رواه التِّرْمذىُّ وقال : حَديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ .

الشرح

هذه الأحاديث فى باب الصبر تدل على فضيلة الصبر .

أما الحديث الأول : حديث معاذ بن أنس - رضي الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « **من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ....** » الحديث .

الغيظ : هو الغضب الشديد ، والإنسان الغاضب هو الذى يتصور نفسه أنه قادر على أن ينفذ لأن من لا يستطيع لا يغضب لكنه يحزن ، ولهذا يُوصف الله بالغضب ولا يُوصَفُ بالحزن ، لأن الحزن نقص والغضب فى محله كمال فإذا اغتاظ الإنسان من

---

[٤٧] حسن : رواه أبو داود (٤٧٧٧) ، والترمذى (٢٠٢١) ، وحسنه الألبانى فى الصحيحة ابن ماجه (١٧٥٠) .

[٤٨] صحيح : رواه البخارى (٦١١٦) .

[٤٩] حسن : رواه الترمذى (٢٣٩٩) ، وحسنه الألبانى فى الصحيحة برقم (٢٢٨٠) .

Marfat.com

شخص وهو قادر على أن يفتك به ولكنه ترك ذلك ابتغاء وجه الله وصبر على ما حصل له من أسباب الغيظ فله هذا الثواب العظيم أنَّه يُدعَى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ويخير من أى الحور شاء .

وأما حديث أبى هريرة ـ ﷺ ـ أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أوصنى : قال : لا تغضب ، فردد مرارًا فقال : لا تغضب ، فقد سبق الكلام عليه .

والحديث الثالث : دليل على أن الإنسان إذا صبر واحتسب الأجر عند الله كفر الله عنه سيئاته ، إذا أُصيب الإنسان ببلاء فى نفسه أو ولده أو ماله ثمَّ صبر على ذلك فإنَّ الله سبحانه وتعالى لا يزال يبتليه بهذا حتى لا يكون عليه خطيئة . ففيه دليل على أن المصائب فى النَّفس والولد والمال تكون كفَّارة للإنسان ، حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة ، ولكن هذا إذا صبر .

أما إذا تسخط فإن من تَسخَّطَ فله السُّخط والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[٥٠] وَعَن ابْن عَبَّاسٍ ـ ﷺ ـ قال: قدمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أخيه الْحُرِّ بْنِ قَيْس ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذينَ يُدْنيهِمْ عُمَر رضى الله عنه ، وكَـان الْقُرَّاءُ أَصْحابَ مَجْلسِ عُمَرَ رضِى الله عنه ومُشاورَته ،كُهولاً كَانُوا أو شُبَّاناً،فقَالَ عُيَيْنَةُ لابْنِ أخيه: يَا بْنَ أخِي،لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هذَا الأمير فاستأذِنْ لِي عَلَيْه،فاسْتأذَنَ،فأذنَ لَهُ عُمَرُ . فَلمَّا دَخَلَ قالَ:هِـي يَابْنَ الْخطَّاب،فَوَاللَّه مَا تُعْطِينَا الْجزْلَ،ولا تَحكُمُ فِينَا بالْعَدْلِ،فَغَضب عُمَرُ ـ ﷺ ـ حتّى هَمَّ أنْ يُوقِعَ به ،فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ : يَا أمير الْمُؤمِنينَ،إنَّ اللَّه تعالى قَالَ لِنَبيِّه ـ ﷺ ـ : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ [الأعراف:١٩٩] وَإنَّ هذَا مِنَ الْجَاهِلينَ،وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِين تلاهَا وكَانَ وَقَّافاً عِنْدَ كِتَابِ اللَّه تعالى.رواه البخارى.

الشرح

ذكـر المؤلف فـى سياق ذكـر أحاديث الصَّبر حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ أمير المؤمنين الخليفة الثانى وأبو بكر هو الأول .

---

[٥٠] صحيح : رواه البخارى (٤٦٤٢) .

Marfat.com

وكان قد اشتهر بالعدل بين الرَّعية وبالتواضع بالحق حتى إن المرأة ربَّما تذكره بالآية فى كتاب الله فيقف عندها ولا يتجاوزها فقد قدم عليه عيينة بن حصن وكان من كبار قومه فقال له : هِى يا بن الخطَّاب ، هذه كلمة استنكار وتلون . وقال له : إنك لا تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل .

انظر إلى هذا الرَّجل يتكلَّمُ على هذا الخليفة المشهور بالعدل بهذا الكلام مع أن عمر كما قال ابن عباس - رضي الله عنه -« كان جُلسَاؤُهُ القُرَّاء » القُرَّاء من أصحاب رسول الله - ﷺ - هم جلساؤه سواء كانوا شيوخًا أو كهولاً أو شبابًا يشاورهم ويدنيهم وهكذا ينبغى لكل أمير أو خليفة أن يكون جلساؤه الصَّالحين ، لأنه إن قُيِّض له جلساء غير صالحين هَلَك وأهلك الأمة .

وإن يسَّر الله له جلساء صالحين نفع الله به الأمة ، فالواجب على ولى الأمر أن يختار من الجُلساءِ أهل العلم والإيمان وكان الصحابة - رضي الله عنهم -القُرَّاء منهم هم أهل العلم، لأنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل .

لما قال هذا الرَّجل الكلام لعمر ، غضب - رضي الله عنه -غضبًا حتى كاد أن يهمَّ به أى : يضربه أو يبطش به .

ولكن ابن أخى عيينة بن حصن الحُر بن قيس قال له : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه - ﷺ - : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[الأعراف : ١٩٩] . وإن هذا من الجاهلين .

فوقف عندها عمر ولم يتجاوزها لأنه كان وقافًا عند كتاب الله - رضي الله عنه -وأرضاه .

فوقف . ما ضرب الرَّجلَ وما بَطش به لأجل الاية التى تُلِيَت عليه .

وانظر إلى أدب الصحابة - رضي الله عنهم -عند كتاب الله لا يتجاوزون .

إذا قيل لهم : هذا قول الله وقفوا ، مهما كان .

فقوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ أى خذ ما عفا من الناس وما تيسَّر ولا تطلب حَقَّك كُله لأنه لا يحصُل لك .

وقوله : ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ أى أمر بما عرفه الشَّرع وعرفه الناس ، ولا تأمر بمنكر ، ولا بغير العرف لأن الأمور ثلاثة أقسام :

١ ـ منكر يجب النهى عنه .

٢ ـ وعُرفٌ يؤمر به .

Marfat.com

٣ ـ وما ليس بهذا ولا بهذا فإنَّه يسكت عنه .

ولكن على سبيل النَّصيحة لا يقول قولاً إلا فيه الخير لقول النَّبىِّ ـ ﷺ ـ : « مَن كانَ يؤمِنُ بالله واليوْمِ الآخرِ فَلْيَقُل خيرًا أو لِيَصْمتُ » (١) .

وأما قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فالمعنى أن من جهل عليك وتطاول عليك فأعرض عنه ، لا سيما ، إذا كان إعراضك ليس ذلاً وخنُوعًا .

مثل عمر بن الخطاب : إعراضه ليس ذلاً وخنُوعًا ، فهو قادر على أن يبطش بالرَّجل، لكن امتثل هذا الأمر وأعرض عن الجاهلين .

الجهل له معنيان :

أحدهما : عدم العلم بالشىء .

والثانى : السفه والتَّطاول ومنه قول الشاعر الجاهلى :

ألا لا يَجْهلَنَّ أحدٌ علَينا فَنَجْهَلَ فوْقَ جهْلِ الجَاهلِينا

أى لا يسفه علينا أحد ويتطاول علينا فنكون أشد منه ، لكن هذا شعر جاهلى !! أما الأدب الإسلامي فإنَّ الله يقول : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] . سبحان الله !! إنسان بينك وبينه عداوة أساء إليك ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا دفعت بالتى هى أحسن فورًا يأتيك الثَّواب والجزاء وقوله : ﴿ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أى : قريب صديق فى غاية ما يكون من الصَّداقة والقرب . الذى يقوله مَنْ ؟

هو الله عز وجل مُقَلِّب القلوب ، ما من قلب من قلوب بنى آدم إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يُصرِّفه كيف يشاء .

فهذا الذى كان عدوًا لك ودافعته بالتى هى أحسن فإنه ينقلب بدل العداوة صداقة .

فالحاصل أن هذه الآية الكريمة ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ .... ﴾ الآية [الأعراف: ١٩٩] لما تُلِيت على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وقف ولم يبطش بالرَّجل ولم يأخذه على جهله .

فينبغى لنا إذا حصلت هذه الأمور كالغضب والغيظ أن نتذكر كتاب الله وسنة رسوله ـ ﷺ ـ من أجل أن نسير على هديه ، من أجل ألا نضل ، فإن من تمسك بهدى

(١)صحيح : رواه البخارى (٦٠١٨) مسلم (٤٧) .

Marfat.com

الله فإن الله يقول : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ [طه : ١٢٣] . والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[٥١] وَعَن ابن مَسْعُود - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله - ﷺ - قال : « **إنَّها سَتكُونُ بَعْدى أثَرَةٌ وأُمُورٌ تُنكرونها** ! » قَالُوا : يَا رسُولَ الله ، فَمَا تأمُرُنا ؟ قال : « **تُؤدُّونَ الْحَقَّ الَّذى عَلَيْكُمْ ، وَتَسْأَلُونَ الله الذى لَكُمْ** » متفقٌ عليه .

و « الأثَرَةُ » : الانفرادُ بالشَّىْء عَمَّنْ لَه فيه حَقٌّ .

[٥٢] وَعَن أبى يَحْيَى أُسَيْد بْن حُضَيْر - رضي الله عنه - أنَّ رَجلاً منَ الأنْصَار قال: يا رسولَ الله ، ألا تَسْتَعْمِلُنى كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلاناً فقال : « **إنَّكُمْ سَتَلْقَوْنَ بَعْدِى أثَرَةً، فاصْبرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِى عَلَى الْحَوْضِ** » متفقٌ عليه .

و « أُسَيْدٌ » بِضَم الْهَمزَةِ و « حُضَيْرٌ » بِحَاءِ مُهْمَلَةِ مَضْمُومَةٍ وَضَادِ مُعْجَمَةٍ مَفْتُوحَةٍ، واللهُ أعْلَمُ .

الشرح

هذان الحديثان حديث ابن مسعود وحديث أسيد بن حضير ذكرهما المؤلف فى باب الصبر لأنهما يدلان على ذلك .

أما حديث عبد الله بن مَسعود فأخبر - رضي الله عنه -أن النبى - ﷺ -قال : « **إنها ستكون بعدى أثرة** » الأثرة يعنى الاستئثار بالشىء عَمَّن له فيه حقٌّ .

يريد بذلك - ﷺ -أنه يستولى على المسلمين وُلاة يستأثرون أموال المسلمين يَصرفونها كما شاءوا ويمنعون المسلمين حقَّهم فيها .

وهذه أثرة وظلم من الولاة أن يستأثروا بالأموال التى للمسلمين فيه الحق ويستأثروا بها لأنفسهم عن المسلمين ، ولكن قالوا ما تأمرنا ؟

قال : «**تؤدون الحق الذى عليكم** » يعنى لا يمنعكم استئثارهم بالمال عليكم أن تمنعوا ما يجب عليكم نحوهم من السمع والطاعة وعدم الإثارة وعدم التشويش عليهم .

بل اصبروا واسمعوا وأطيعوا ولا تنازعوهم الأمر الذى أعطاهم الله « **وتسألون الله**

---

[٥١] صحيح :رواه البخارى (٣٦٠٤) ، ومسلم (١٨٤٣) .

[٥٢] صحيح رواه البخارى (٣٧٩٢) ، ومسلم (١٨٤٥) .

Marfat.com

الذى لكم » أى : اسألوا الحق الذى لكم من الله .

أى : اسألوا الله أن يهديهم حتى يؤدوكم الحق الذى عليهم لكم وهذا من حكمة النبى ـ ﷺ ـ فإنه عليه الصلاة والسلام علم أن النُّفوس شحيحة وأنها لن تصبر على من يَستأثر عليهم بحقوقهم ولكنه عليه الصلاة والسلام أرشد إلى أمر قد يكون فيه الخير .

وذلك بأن نؤدى ما يجب علينا نحوهم من السَّمع والطاعة وعدم منازعة الأمر وغير ذلك وندعو الله لهم بأن يعطونا حقنا ، كان فى هذا خير من جهتين .

وفيه: دليل على نبوة الرسول ـ ﷺ ـ لأنه أخبر بأمر وقع فإن الخلفاء والأمراء منذ عهد بعيد كانوا يستأثرون بالمال فنجدهم يأكلون إسرافًا ويشربون إسرافًا ، ويلبسون إسرافًا، ويسكنون إسرافًا ، ويركبون إسرافًا .

وقد استأثروا بمال الناس لمصالح أنفسهم الخاصَّة .

ولكن هذا لا يعنى أن ننْزع يدًا من طاعة أو أن ننابذهم بل نسأل الله الذى لنا ونقوم بالحق الذى علينا .

وفيه : استعمال الحكمة فى الأمور التى قد تقتضى الإثارة فإنَّه لا شك أن استئثار الولاة بالمال دون الرعية يوجب أن تثور الرَّعية وتطالب بحقها ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر بالصبر على هذا وأن نقوم بما يجب علينا وأن نسأل الله الذى لنا .

وحديث أسيد بن حضير مثل حديث عبد بن مسعود أخبر النبى ـ ﷺ ـ : « **إنَّها ستكون أثرة** » ولكنه قال « **اصبروا حتى تلقونى على الحوض** » .

يعنى أنكم إذا صبرتم فإن من جزاء الله لكم على صبركم أن يُسقيكم من حوضه حوض النَّبى ـ ﷺ ـ ، اللَّهمَّ اجعلنا جميعًا ممن يَرِده ويشرب منه .

هذا الحوض الذى يكون فى يوم القيامة فى مكان وزمان أحوج ما يكون الناس إليه ، لأنه فى ذلك المكان والزمان فى يوم الآخرة يَحصُل على الناس من الهمِّ والغَمِّ والكرب والعرق والحرِّ ما يجعلهم فى أشدّ الضرورة إلى الماء ، فيردون حوض الرسول ـ ﷺ ـ ، حوض عظيم طوله شهر وعرضه شهر يصب عليه ميزابان من الكوثر وهو نهر فى الجنة أعطيه النبى ـ ﷺ ـ .

فيصبان عليه ماءً أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب من رائحة المسك وفيه أوانى كنجوم السَّماء فى اللمَعَان والحسن والكثرة من شرِبَ منه شَربَة واحدة لم يظمأ بعدها أبدًا ، اللَّهمَّ اجعلنا ممن يشرب منه .

Marfat.com

فأرشده النبى عليه الصلاة والسلام إلى أن يصبروا على ما سيرونه من الأثرة فإن صبرهم على ظُلم الولاة من أسباب الورود على الحوض والشرب منه .

إذًا فى هذين الحديثين : حثٌ على الصَّبر على استئثار ولاة الأمور فى حقوق الرعية، ولكن يجب أن نَعلم أنَّ الناس كما يكونون يُوَلَّى عليهم .

إذا أساءوا فيما بينهم وبين الله فإنَّ الله يسلط عليهم ولاتهم كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

فإذا صلحت الرعية يَسر الله لهم ولاةً صالحين وإذا كانوا بالعكس كان الأمر بالعكس .

ويُذكر أن رجلاً من الخوارج جاء إلى على بن أبى طالب - رضي الله عنه - وقال له : يا على ما بال النَّاس انتقدوا عليك ولم ينتقدوا على أبى بكر وعمر ؟

فقال له : إنَّ رجال أبى بكر وعمر كُنتُ أنا وأمثالى ، أمَّا رجالى فكنت أنت وأمثالك !!

معناه : أنَّك أنت ما فيك خير ، فصار سببًا فى تسلط الناس وتفرقهم على على بن أبى طالب وخروجهم عليه حتى قتلوه - رضي الله عنه - .

ويذكر أن أحد ملوك بنى أُميَّة سَمِعَ مقالة النَّاسِ فيه فجمع أشراف الناس وَوُجهاَءهم وكلَّمهم - وأظنه عبد الملك بن مروان - وقال لهم : أيُّها الناس أتريدون أن نكون لكم مثل أبى بكر وعمر ؟

قالوا : نعم ! قال: إذا كنتم تريدون ذلك فكونوا لنا مثل رجال أبى بكر وعمر !! فالله سبحانه وتعالى حكيمٌ يُولى على الناس من يكون بحسب أعمالهم ، إن أساءُوا فإنه يُساء إليهم وإن أحسنوا أحسن إليهم .

ولكن مع ذلك لا شك أن صلاحِ الراعى هو الأصل وأنه إذا صَلُح الرَّاعى صَلُحت الرعية ، لأنه له سُلطة يستطيع أن يُعدِّل من مال وأن يُؤدِّب من عالَ وجار والله الموفق .

* * *

[٥٣] وعَنْ أبى إبْراهيمَ عَبْد اللَّه بْن أبى أوْفَى - رضي الله عنهما - ، أنَّ رسول اللَّه - صلى الله عليه وسلم - فى بَعْضِ أيَّامِهِ التِى لَقِىَ فِيهَا الْعَدُوَّ ، انْتَظَرَ حَتَّى إذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَالَ:

---

[٥٣] صحيح : رواه البخارى (٢٩٦٥) ، ومسلم (١٧٤٢) .

Marfat.com

«يَا أيُّها النَّاسُ ، لا تَتَمَنَّوْا لقاءَ الْعَدُوِّ ، واسأَلُوا الله العَافيةَ ، فإذَا لَقيتمُوهُمْ فَاصْبروا ، وَاعْلَمُوا أنَّ الجنةَ تحتَ ظلال السُّيوف» ، ثُمَّ قال النَّبيُّ ـ ﷺ ـ : « اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكتَاب ، ومُجْرِي السَّحَاب ، وَهازِمَ الأحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرنا علَيْهِمْ » متفقٌ عليه . وبالله التوفيق .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن عبد الله بن أوفى ـ ﷺ ـ أن النبى ﷺ كان فى بعض غزواته فانتظر حتى زالت الشمس ، وذلك من أجل أن تُقبل البُرُودة ويكثر الظّل ويَنشَط النَّاسُ ، فانتظر حتى إذا مالت الشمسُ قام فيهم خطيبًا .

وكان ـ ﷺ ـ يخطب النَّاس خُطبًا دائمة ثابتة كخطبة يوم الجمعة .

وخُطبًا عارضة إذا دعت الحَاجة إليها قام فخطب عليه الصلاة والسلام وهذه كثيرة جدًا ، فقال فى جملة ما قال : « **لا تتمنوا لقاء العدو** » .

أى : لا ينبغى للإنسان أن يتمنّى لقاء العدو ويقول : اللّهمَّ ألقنى عدُوى !

« **واسألوا اللّه العافية** » قل اللّهمّ عَافنى !

« **فإذا لقيتموهم** » وابتُليتم بذلك « **فاصبروا** » ، هذا هو الشَّاهد من الحديث أى : اصبروا على مُقاتَلَتهم واستعينوا بالله عز وجل وقاتلوا لتكون كلمة الله هى العليا .

« **واعلموا أنَّ الجَنَّة تَحتَ ظلال السُّيوف** » نسأل الله من فضله !

فالجنة تحت ظلال السُّيوف التى يحملها المجاهد فى سبيل الله . وإن المجاهد فى سبيل الله إذا قتل صار من أهل الجنة كما فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تَحْسَبَنَّ الَّذين قُتلوا في سَبيلِ الله أمْوَاتًا بَلْ أحْيَاءٌ عندَ ربِّهِمْ يُرْزَقُونَ** (١٦٩) **فرحين بما آتاهُمُ اللهُ من فضْله ويَستبشرون بالَّذين لَمْ يَلْحقُوا بهِم مِنْ خَلْفهِمْ ألاَّ خوفٌ علَيهِمْ ولا هُمْ يحْزَنُونَ** (١٧٠) **يستبشرون بنعمة من الله وفَضْلٍ وأنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ الْمؤمنين** ﴾ [آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧١] .

والشهيد إذا قتل فى سبيل الله فإنه لا يحس بالطَّعنة أو بالضربة كأنها ليست بشئ ، ما يحس إلا أن روحه تخرج من الدُّنيا إلى نعيم دائم أبدًا .

وكان من الصحابة ـ ﷺ ـ أنس بن النضر قال : « إنى لأجد ريح الجنة دون أحد » .

انظر كيف فتح الله مشامَّه حتى شم ريح الجنة دون أحد ، فقتل شهيدًا ـ ﷺ ـ ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « **واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف** » .

Marfat.com

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **اللَّهمَّ منْزل الكتابِ ومُجرى السحابِ وهازِمَ الأحزابِ اهزمهُم وانصُرْنا عليهم** » وهذا دُعاءٌ ينبغى للمجاهد أن يدعو به إذا لقى العدو.

فهنا توسل الرسول عليه الصلاة والسلام بالآيات الشرعية والآيات الكونية .

توسَّل بإنزال الكتاب وهو القرآن الكريم أو يشمل كل كتاب ويكون المراد به الجنس أى : منزل الكتب على محمد وعلى غيره .

« **ومجرى السحاب** » هذه آية كونية، فالسحاب المُسَخَّر بين السَّماء والأرض لا يُجريه إلا الله عز وجل .

لو اجتمعت الأمم كلها بآلاتها ومُعدَّاتها على أن تجرى هذا السحاب أو أن تصرف وجهه ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، وإنما يجريه من إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون .

« **وهازم الأحزاب** » فإنَّ الله عز وجل وحده هو الذى يهزم الأحزاب .

ومنه : أن الله هَزَمَ الأحزاب فى غزوة الأحزاب ، والتى قد تجمع فيها أكثر من عَشرة آلاف مُقاتل حول المدينة ليُقاتلوا الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولكن الله تعالى هزمهم وَرَدَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا ، فأرسل عليهم ريحًا وجنودًا زلزلت بهم وكفأت قدورهم وأسقطت خيامهم وصار لا يستقر لهم قرار .

ريح شديدة باردة شرقية حتى ما بقوا وانصرفوا .

قال الله عز وجل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب : ٢٥] . فالله عز وجل هو هازم الأحزاب ، ليست قوة الإنسان تهزم بل القوة سبب قد تنفع وقد لا تنفع .

ونحن مأمورون بفعلِ السبب المباح ، لكن هازم الأحزاب حقيقة هو الله عز وجل ، ففى هذا الحديث عدة فوائد :

منها : أن لا يتمنى الإنسان لقاء العدو ، وهذا غير تَمنى الشهادة ! تَمنِّى الشَّهادة جائز ولا منهى عنه بل قد يكون مأمورًا به ، أما تمنى لقاء العدو ، فلا تتمنَّه لأنه نَهَى عن ذلك .

ومنها : أن يسأل الإنسان الله العافية لأن العافية والسلامة لا يعدلها شىء ، فلا تتمن الحروب ولا المقاتلة واسأل الله العافية والنصر لدينه ولكن إذا لقيت العدو ، فاصبر .

ومنها : أن الإنسان إذا لقى العدو فإن الواجب عليه أن يصبر قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ

Marfat.com

وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٥ ، ٤٦] .

ومنها : أنه ينبغى لأمير الجيش أو السَّرية أن يَرفِق بهم وأن لا يبدأ القتال إلا فى الوقت المناسب ، سواء كان مناسبًا من النَّاحية اليومية أو من الناحية الفصلية . فمثلاً فى أيام الصيف لا ينبغى أن يتحرى القتال فيه لأن فيه مشقة .

وفى أيام البرد الشَّديد لا يتحرَّ ذلك أيضًا ؛ لأن فى ذلك مشقة ، لكن إذا أمكن أن يكون بين بين بأن يكون فى الخريف فهذا أحسن ما يكون .

ومنها : أنه ينبغى للإنسان أن يَدعو بهذا الدُّعاء : « **اللَّهمَّ مُنْزِل الكتاب ومُجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصُرنا عليهم** » .

ومنها : الدُّعاء على الأعداء بالهزيمة لأنَّهم أعداؤك وأعداء الله فإنَّ الكافر ليس عدوًّا لك وحدك ، بل هو عدو لك ولربك ولأنبيائه وللملائكته ولِرُسُله ولكن مؤمن ، والله الموفق .

* * *

Marfat.com

٤ـ باب الصدق

قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة : ١١٩] وقال تعالى : ﴿والصادقين والصادقات﴾ [الأحزاب : ٣٥]، وقال تعالى : ﴿فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم﴾ [محمد : ٢١] .

* * *

الصدق : معناه مطابقة الخبر الواقع ، هذا فى الأصل .

ويكون فى الإخبار فإذا أخبرت بشىء وكان خبرك مطابقًا للواقع قيل إنَّه صدق ، مثل أن تقول عن هذا اليوم : اليوم يوم الأحد فهذا خبر صدق ، وإذا قلت : اليوم يوم الاثنين فهذا خبر كذب ، فالخبر إنْ وافق الواقع فصدق وإلا فكذب .

وكما يكون الصِّدق فى الأقوال فهو فى الأفعال وهو أن يكون الإنسان باطنه موافقًا لظاهره بحيث إذا عمل عملاً يكون موافقًا لما فى قلبه .

فالمرائى مثلاً ليس بصادق لأنَّه يُظهر للنَّاس بأنه من العابدين وليس كذلك .

والمشرك مع الله ليس بصادق ؛ لأنه يظهر بأنه موحد وليس كذلك .

والمنافق ليس بصادق لأنه يظهر الإيمان وليس بمؤمن .

والمبتدع ليس بصادق لأنه يُظهر الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام وليس بمتبع .

المهم أن الصدق مُطابقة الخبر للواقع وهو من سمات المؤمنين وعكسه الكذب وهو من سمات المنافقين .

ثم ذكر آيات فى ذلك .

فقال : وقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة : ١١٩] .

هذه الآية نزلت بعد ذكر قصة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك ومنهم كعب بن مالك الذى سنذكر حديثه إن شاء الله .

كان هؤلاء الثلاثة حين رجع النبى - ﷺ - من غزوة تبوك ، وكانوا قد تخلَّفوا عنها بلا عذر وأخبروا الرسول عليه الصلاة والسلام بأنهم لا عذر لهم فخلفهم أى تركهم .

Marfat.com

فمعنى : ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ أى تُركوا فلم يُبَتَ فى شأنهم لأن المنافقين لما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك جاءُوا إليه يعتذرون إليه ويحلفون بالله إنهم مَعذورون وفيهم أنزل الله هذه الآية : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٩٥ ـ ٩٦] .

أما هؤلاء الثلاثة فصدقوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخبروه بأنَّهم ليس لهم عذر ؛ فأرجأهم الرسول عليه الصلاة والسلام خمسين ليلة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثمَّ أنزل الله توبته عليهم .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] . فأمر الله تعالى المؤمنين بأن يتّقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين لا مع الكاذبين .
وقال الله تعالى : ﴿ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] هذه فى جملة الآية الطويلة التى ذكرها الله فى سورة الأحزاب وهى : ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إلى أن قال : ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ إلى قوله : ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

فذكر الله الصادقين والصادقات فى مقام الثناء وفيما لهم من الأجر العظيم .

وقال تعالى : ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أى لو عاملوا الله بالصدق لكان خيراً لهم ولكن عاملوا الله بالكذب فنافقوا وأظهروا خلاف ما فى قلوبهم وعاملوا النبى ﷺ بالكذب فأظهروا أنهم مُتَّبعون له وهم مخالفون له . فلو صدقوا الله بقلوبهم وأعمالهم وأقوالهم لكان خيرًا لهم ولكنهم كذبوا الله فكان شرًا لهم .

وقال الله : ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب : ٢٤] .

فدلَّ ذلك على أنَّ الصِّدق أمره عظيم وأنه محل للجزاء من الله تعالى .

إذن علينا أن نَصدق وعلينا أن نكون صادقين وعلينا أنْ نكون صُرَحاءَ وعلينا ألاَّ نُخفى الأمر عن غيرنا مُداهَنة أو مراء .

كثير من الناس إذا حُدِّث عن شىء فَعَله وكان لا يُدرى فعله أم لا فإنَّه يكذب ويقول: ما فَعَلت .

لماذا ؟ أتستحى من الخلق وتبارز الخالق بالكذب ؟ قُلْ الصِّدق ولا يُهمنَّك احد وأنت

Marfat.com

إذا عَوَّدت نفسك الصِّدق فإنك فى المُستقبل سوف تُصلح حَالك أما إذا أخبرت بالكذب وسوف تكتم عن الناس وتكذب عليهم ، فإنك سوف تستمر فى غيِّك ولكن إذا صدقت فإنك تُعَدِّل مَسيرك ومنهاجك .

فعليك بالصِّدق فيما لكَ وفيما عَلَيْك حتى تكون مع الصَّادقين الَّذين أمرك الله أن تكون معهم .

أما حديث كعب بن مالك :

فهو فى قصَّة تخلُّفه عن غزوة تبوك - وكانت غزوة تبوك فى السَّنة التاسعة من الهجرة - غزا النبى - ﷺ - الروم وهم على دين النَّصارى حين بَلَغَهُ أنهم يجمعون له فغزاهم النبى عليه الصلاة والسلام وقام بتبوك عشرين ليلة ، ولكنَّه لم يرَ كيدًا ولم يرَ عَدُوًا فرجع ، وكانت هذه الغزوة فى أيام الحرِّ حين طابت الثِّمار والرطب وصار المنافقون يُفضلون الدُّنيا على الآخرة فتخلف المنافقون عن هذه الغزوة ولجئوا إلى الظِّل والرطب والتمر وبعدت عليهم الشُّقة والعياذ بالله .

أما المؤمنون الخُلَّص فإنهم خرجوا مع الرَّسول عليه الصلاة والسَّلام ، ولم يثن عزمهم بُعد الشقة ولا طيب الثمار .

إلا أن كعب بن مالك - رضي الله عنه - تخلَّف عن غزوة تبوك بلا عُذر وهو من المؤمنين الخُلَّص ولهذا قال : « **إنَّه ما تخلَّف عَنْ رسول الله - ﷺ - عَنْ غزْوَة غزَاهَا قَط** » فهو من المجاهدين فى سبيل الله .

« إلا فى غزوة بدر » ، فقد تخلَّف فيها كعب وغيره لأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام خرج من المدينة لا يُريد القتال ولذلك لم يخرج معه إلا ثلاثمائة وبضعةَ عَشرَ رجلاً لأنهم كانوا يُريدون أن يأخذوا عيرًا لقريش - أى حَملَة قدمت من الشام تُريد مكة وتَمرُّ قرب المدينة - ، فخرج النبى عليه الصَّلاة والسلام من أجل أن يَستَقبل هذه العير ويأخذها وذلك لأن أهل مكة أخرجوا النبى - ﷺ - وأصحابه من ديارهم وأموالهم .

فلهذا كانت أموالهم غنيمة للنبى عليه الصَّلاة والسَّلام ويحل له أن يخرج ليأخذها وليس فى ذلك عدوان من النبى - ﷺ - وأصحابه بل هذا أخذ لبعض حقهم .

المهم أن الرسول خرج فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ليس معهم إلا سبعون بعيرًا وفَرَسَان فقط ، وليس معهم عُدَّة والعَدَد قليل ولكن الله جمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد لينفذ ما أراد عز وجل .

Marfat.com

فسمع أبو سفيان وهو قائد العير أن النبى - ﷺ - خرج إليه ليأخذ العير ، فعدَل عن سَيْره إلى السَّاحل وأرسل إلى قريش صارخًا يستنجدهم - أى يستغيثهم - ويقول : أنقذوا العير .

فاجتمعت قريش وخَرَجَ كبراؤها وزُعماؤها وشُرفاؤها فيما بين تسعمائة إلى ألف رَجُل .

خرجوا كما قال الله عنهم ، خرجوا بطرًا ورئاء الناس ويَصُدُّون عن سبيل الله .

ولما كانوا فى أثناء الطَّريق وعلموا أن العير نَجَت تراجعوا فيما بينهم وقالوا : العير نجت فما لنا وللقتال ؟! فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نقدم بدرًا فنُقيم فيها ثلاثا ننحر الجزور ونسقى الخمور ونُطعم الطعام وتسمع بنا العرب فلا يَزالون يهابوننا أبدًا .

هكذا قالوا بطرًا واستكبارًا وفخرًا ولكن الحمد لله صارت العرب تتحدث بهم ، بالهزيمة النكراء التى لم يَذق العرب مثلها ، لما التقوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وكان ذلك فى رمضان فى السَّنة الثَّانية من الهجرة فى اليوم السَّابع عشر منه .

التقوا فأوحى الله عز وجل إلى الملائكة : ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال : ١٢] . انظر ؟ فى الآية تثبيت للمؤمنين وإلقاء الرُعب فى قلوب الذين كفروا ، فما أقرب النصر فى هذه الحال ؟!

فثَّبت الله المؤمنين ثباتًا عظيمًا وأنزلَ فى قلوب الذين كفروا الرُّعب .

قال الله سبحانه : ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال : ١٢] أى : كل مفصَل ، فالأمر ميُسَّر لكم .

فجعل المسلمون ولله الحمد يجلدون فيهم ، فقتلوا سبعين رجلاً وأسروا سبعين رجلاً والذين قتلوا ليسوا من أطرافهم ، الذين قُتلوا كلهم من صناديدهم وكبرائهم ، وأخذ منهم أربعة وعشرين رجلاً يُسحَبُون سَحبًا وألقُوا فى قليب من قُلُب بدر .

سُحبُوا جثثا هامدة ، ووقف عليهم الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وقال لهم: « **يا فُلان بن فُلان يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ، هَلْ وَجدتم ما وَعَد ربكم حقًا؟ فإنى وجدتُ مَا وَعدنى ربى حقًا** » . فقالوا : يا رسول الله كيف تُكلِّم أُناسًا قد جيّفُوا ؟

قال : « **والله مَا أنتُم بأسْمَعَ لِمَا أقُول منهم ولكنهم لا يُجيبون** » [١] لأنهم موتى

(١) صحيح : رواه البخارى (١٩٧٦) مسلم (٢٨٧٤) .

Marfat.com

وهذه ولله الحمد نعمة علينا أن نشكر الله عليها كلما ذكرناها .

نَصَرَ الله نبيه وسمَّى الله هذا اليوم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان .

هذا اليوم فرَّق الله فيه بين الحق والباطل تفريقًا عظيمًا وانظر إلى قدرة الله عز جل فى هذا اليوم انتصر ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلاً على نحو ألف رجل أكمل منهم عدة وأقوى وهؤلاء ليس معهم إلا عدد قليل من الإبل والخيل لكن نصر الله عز وجل إذا نزل لقوم لم يقم أمامهم أحد وإلى هذا أشار الله بقوله : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ليس عندكم شيء : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٣] . ولما كان المسلمون حين فتحوا مكة وخرجوا باثنى عشر ألفًا وأمامهم هوازن وثقيف فأعجب المسلمون بكثرتهم وقالوا : لن نغلب اليوم عن قلة فغلبهم ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ! غلبوا اثنى عشر ألف رجل بقيادة النبى - ﷺ - لماذا !

لأنهم أُعجبوا بكثرتهم قالوا : لن نُغلب اليوم عن قِلة فأراهم الله عز وجل أن كثرتهم لن تنفعهم .

قال الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة : ٢٥] ، المهم أن كعب بن مالك - رضي الله عنه - لم يشهد بدرًا لكن تخلَّف عنها لأنَّ النَّبى - ﷺ - لم يخرج لقتال ، إنَّما خرج للعِير ولكن الله جمع بينه وبين عَدُوِّه على غير ميعاد .

أتدرون ماذا حَصَلَ لأهل بدر ؟

اطَّلع الله عليهم وقال لهم : اعمَلُوا مَا شئتُم فقد غَفرتُ لكم ، كل معصية تقع منهم فإنها مغفورة ؛ لأن الثَّمن مقدَّم .

فهذه الغزوة صارت سببًا لكل خير ، حتى أن حاطب بن أبى بلتعة - رضي الله عنه - لما حصل منه مَا حَصَلَ فى كتابه لأهل مكة عندما أراد النبى عليه الصَّلاة والسَّلام أن يغزوهم غزوة الفتح كتب هو - رضي الله عنه - إلى أهل مكة يخبرهم ولكن الله أطْلَع نبيه على ذلك .

أرسل حاطب بن أبى بلتعة الكتاب مع امرأة ، فَأخبِر النَّبى - ﷺ - بذلك عن طريق الوحى .

فأرسل على بن أبى طالب وواحدًا معه حتى لحقوها فى روضة تسمَّى روضة خاخ، فأمسكوها وقالوا لها : أين الكتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب ، فقالوا لها: والله ما كذبنا

Marfat.com

ولا كُذبنا أين الكتاب ، لتخرجنّه أو لَنَنْزِعَنَّ ثيابك .

فلما رأت الجد أخرجته فإذا هو من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش فأخَذُوه .

والحمد لله أنَّه لم يصل إلى قريش فصَار بهذا نعمة من الله على المسلمين وعلى حاطب لأن الذى أراد ما حصل.

فلما ردوا الكتاب إلى النبى ـ ﷺ ـ قال له : « **يا حَاطِب كيف فَعَلت كذا؟** ».

فاعتذر ، فقال عمر : يَا رَسُول الله ألا أضرب عُنُقه فإنه قد نَافَق ؟

قال له النبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « **أما علمت أنَّ الله اطَّلَع على أهل بدر أوْ إلى أهْلِ بَدْر فقال : اعْمَلوا مَا شِئْتُم فقد غَفَرتُ لكم** » (١) .

وكان حاطب من أهل بدر ـ ﷺ ـ .

فالمهم أن هذه الغزاة تخلَّف عنها كعب ، لكنها ليست غزاة فى أوَّل الأمر إلا فى ثانى الحال وكانت غُزاة مباركة ولله الحمد ، ثم ذكر بَيعته النبى ﷺ ليلة العقبة فى منى، حيث بايعوا النبى ـ ﷺ ـ على الإِسلام وقال : إنه لا يحب أن يكون له بدلها بدر .

أى هى أحب إليه من غزوة بدر لأنها بيعة عظيمة .

لكن يقول كانت بدر أَذْكَرُ فى الناس منها أى أكثر ذكرًا ؛ لأنها غزوة اشتهرت بخلاف البيعة .

على كل حال كأنه يُسلِّى نفسه بأنَّه إن فاته بدر فقد حَصلت له بيعة العقبة فرضى الله عن كعب وعن جميع الصحابة .

يقول ـ ﷺ ـ : « **إنِّى لم أكُن قطُّ أقوَى ولا أيسَرَ منِّى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة** » أى غزوة تبوك كان قوى البدن ميسور الحال حتى إنَّه كان عنده راحلتان فى تلك الغَزوة وما جمع راحلتين فى غزوة قبلها أبدًا .

وقد استَعَدَّ وتَجَهَّز ، وكان من عادة النبى ـ ﷺ ـ أنه إذا أراد غزوة ـ ورَّى بغيرها ـ أى أظهر خلاف ما يريد وهذا من حكمته وحنكته فى الحرب ؛ لأنه لو أظهر وجهه تبَيَّن ذلك لعدوه فربما يستعد له أكثر وربما يذهب عن مكانه الذى قصده النبى ـ ﷺ ـ فيه .

فكان مثلاً إذا أراد أن يخرج إلى الجنوب ورَّى وكأنَّه يُريد أن يخرج إلى الشمال ، أو أراد أن يخرج إلى الشَّرق ورَّى وكأنه يريد أن يخرج إلى الغرب حتى لا يطَّلع العدو على

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٩٨٣) مسلم (٢٤٩٤) .

Marfat.com

أسراره .

إلا فى غزوة تبوك فإنَّه قد بيَّن أمرها ووضَّحها وجلاها لأصحابه وذلك لأمور :

أولاً : لأنها كانت فى شدَّة الحرِّ حين طابت الثِّمار والنُّفوس مجبولة على الرّكون إلى الكسل وإلى الرخاء .

ثانيًا : أنَّ المدى بعيد من المدينة إلى تبوك ، ففيها مَفَاوِز ورِمَال وعَطَش وشمس .

ثالثًا : أن العدو كبير وهم الروم اجتمعوا فى عدد هائل حسب ما بلغ النبى - ﷺ - ، فلذلك أوضح أمر الغَزْوَة وأخبر أنه خارج إلى تبوك إلىٰ عدو كثير وإلى مكان بعيد حتى يتأهب الناس ، فخرج المسلمون مع رسول الله - ﷺ - ، ولم يتخلَّف إلا مَن خَذَلَه الله بالنِّفاق ، وثلاثة رجال فقط هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية - ﷺ - هؤلاء من المؤمنين الخُلص لكن تخلَّفوا لأمر أراده الله عز وجل ، أما غيرهم ممن تخلف فإنهم مُنَافقون مُنغمسُون فى النِّفاق ، فخرج النبى عليه الصَّلاة والسَّلام بأصحابه وهم كثير إلى جهة تبوك حتى نزل بها هناك ولكن الله لم يجمع بينه وبين عدوه بل بقى عشرين يومًا فى ذلك المكان ثم انصرف على غير حرب .

يقول كعب بن مالك : « **إن الرَّسول - ﷺ - تجهَّز هو والمُسلمُون وخرجُوا من المدينة** »

أما هو - ﷺ - فتأخر وجعل يغدُو كل صباح يرحل راحلته ويقول : ألحق بهم ولكنَّه لا يفعل شيئًا ، ثم يفعل كل يوم حتى تمادى به الأمر ولم يدرك .

وفى هذا : دليل على أن الإنسان إذا لم يُبَادر بالعملَ الصَّالح فإنَّه حَرى أن يُحرم إيَّاه كما قال الله سبحانه : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] . فالإنسان إذا علم الحق ولم يُقبل عليه ولم يعمل به أوَّل مرة فإن ذلك قد يَفُوته ويحرم إيَّاه والعياذ بالله كما أن الإنسان إذا لم يصبر أوَّل مرة فإنه يحرم أجرها لقول النبى عليه الصلاة والسلام : « إنما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولَى » (١)

فعليك يا أخى أن تُبادر بالأعمال الصَّالحة ولا تتأخر فتتمادى بك الأيام ثم تعجز وتكسل ويغلب عليك الشَّيطان والهَوَى فتتأخر .

هو ﷺ كل يوم يقول : أخرُج ولكن تمادى به الأمر ولم يخرج .

يقول : فكان يَحزُ فى نفسى أنَّه إذا خرج إلى سوق المدينة وإذا المدينة لَيْس فيها رسول

(١) صحيح : رواه البخارى (١٢٨٣) مسلم (٩٢٦) .

Marfat.com

الله - ﷺ - ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا السَّابقين من المهاجرين والأنصار إلا رجل مغموس فى النِّفاق والعياذ بالله قد غمسه نفاقه فلم يخرج، أوْ رَجُل معذور عذره الله عز وجل فكان يَعتب على نفسه كيف لا يبقى فى المدينة إلا هؤلاء وأقعد معهم ، ورسول الله - ﷺ - لم يذكره ولم يسأل عنه حتى وَصَلَ إلى تبوك .

فبينما هو جالس وأصحابه فى تبوك سأل عنه ، قال رسول الله - ﷺ - : « أين كعب بن مالك ؟ » فتكلم فيه رجل من بنى سَلِمة وغمزه ولكن دافع عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه فسكت النبى - ﷺ - ولم يُجب بشيء لا على الذى غَمَزَه ولا على الذى رَدَّ عنه .

فبينما هو كذلك إذ رأى رجلاً مبيضًا بياضًا يزول به السَّراب من بعيد ، « فقال النبى - ﷺ - : كُن أبَا خيثمة الأنصارى » فكان أبا خيثمة ، وهذا من فراسة النبى عليه الصلاة والسلام أو من قوة نظره ، ولا شك أنه أقوى الرِّجال نظرًا وسَمْعًا ونُطقًا وفى كل شيء ، وأُعطى قُوَّة ثلاثين رجلاً بالنِّسبة للنِّساء .

أبو خيثمة هذا هو الذى تصدّق بِصاعٍ عندما حثَّ النبى - ﷺ - على الصَّدقة، فتصدَّق النَّاس كل بحسب حاله ، فكان الرَّجل إذا جاء بالصَّدقة الكثيرة قال المنافقون: هذا مُراء ، ما أكثر الصَّدقة ابتغاء وجه الله .

وإذا جاء الرجل الفقير بالصَّدقة اليَسيرة قالوا : إن الله غَنِيٌّ عن صاع هذا .

انظر - والعياذ بالله - يَلْمزون المؤمنين من هُنا ومن هنا كما قال الله : ﴿ الَّذين يلمزُون الْمُطَّوِعين مِنَ الْمُؤْمنينَ في الصَّدقَات وَالَّذين لا يَجدُونَ إلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾أى : إذا تصدَّقوا بما يستطيعون قالوا : إن الله غنى عن صَاعِك : ﴿فيسْخرُون منْهم سخر اللَّهُ منهم ولهم عذاب أَليمٌ ﴾[التوبة : ٧٩] .

وهكذا المنافق شر على المسلمين ، فإن رأى أهل الخير لمزهم وإن رأى المقصرين لمزهم وهو أخبث عباد الله فهو فى الدرك الأسفل من النار .

المنافقون فى زمننا هذا إذا رأوا أهل الخير وأهل الدعوة وأهل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قالوا : هؤلاء متزمتون وهؤلاء متشددون وهؤلاء أصوليون رجعيون وما أشبه من الكلام .

فكل هذا مَوْرُوثٌ عن المنافقين فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ، لا تقولوا : ليس عندنا مُنَافقون ، بل عندنا منافقون ولهم علامات كثيرة!!

وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - فى كتابه « مدارج السَّالكين » فى الجزء الأول

Marfat.com

صفات كثير من صفات المنافقين كلها مبينة فى كتاب الله عز وجل .

فإذا رأيت رجلاً يَلْمِزُ المؤمنين من هنا ومن هنا فاعلم أنه مُنافق والعياذ بالله ، فاستفدنا فائدتين عظيمَتين :

الفائدة الأولى : أن الإنسان لا يَنْبغى له أن يتأخَّر عن فعل الخير بل لابد أن يتقدَّم ولا يتهاون أو يتكاسل .

وأذكر حديثا قاله النبى عليه الصلاة والسلام فى الذين يتقدمون إلى المسجد ولكن لا يتقدمون إلى الصف الأول بل يكونون فى مؤخره ، قال : « **لا يَزالُ قَوم يتأخَّرُون حتى يُؤخِّرهم الله** »(١) .

إذا عوَّد الإنسان نفسه على التأخر أخره الله عز وجل ، فبادر بالأعمال الصَّالحة من حين أن يأتى طلبها من عند الله عز وجل .

الفائدة الثانية : أن المنافقين يلمزون المؤمنين كما سبق .

وأبو خثيمة هو الذى تَصدَّق بصاع فقال المنافقون : إن الله غنى عن صاع هذا الرجل ولكنهم منافقون لا يؤمنون .

ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام : « **أن الرَّجل يتصدق بعدل تمرة - أى بما يعادل تمرة - فيأخذها الله عز وجل فيربيها كما يربى أحدكم فَلُوَّه** - أى مُهْره الحصان الصَّغير - **حتى تكون مِثْلَ الجبل** »(٢) .

بل قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **اتَّقُو النَّار ولوْ بشِقِّ تَمْرة** »أى : نصف تمرة .

بل قال الله عز وجل : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] . والله لا يُضيع أجر المحسنين .

يقول - رضي الله عنه - : « **إنَّه لما بلغه أن النبى - ﷺ - رجع قافلاً من الغزو بدأ يفكر ويُشاور ماذا يقول لرسول الله - ﷺ - إذا رجع** » .

يُريد أن يتحدث بحديث وإن كان كذبًا من أجل أن يعذره النبى - ﷺ - فيه ويجعل يُشَاور ذوى الرأى مِنْ أهله ماذا يقول ، ولكن يقول - رضي الله عنه - فلما بَلَغ النبى عليه الصلاة والسلام المدينة ، ذهب عنه كل ما جمعه من الباطل وعزم على أن يُبيِّن الحق ، فقدم النَّبى - ﷺ - المدينة ودخل المسجد وكان من عادته وسنَّته أنه إذا قدم بلده فأول ما يفعل أن يُصلى

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٤٣٨) وابن ماجه (٩٧٨) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٤) .

(٢) صحيح : رواه الترمذى (٦٦٢) وأحمد (٢ / ٢٦٨).

Marfat.com

فى المسجد عليه الصلاة والسَّلام .

وهكذا أمر جابرًا - ﷺ - كما سأذكره إن شاء الله ، فدخل المسجد وَصَلَّى وَجَلَسَ للناس فجاءه المخلَّفون الذين تخلَّفوا من غير عُذر من المنافقين وجعلوا يحلفون له إنهم معذورون فيبايعهم ويستغفر لهم ولكن ذلك لا يُفيدهم والعياذ بالله ؛ لأن الله قال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] .

فيقول : أما أنا فعزمت أن أصدُق النبى عليه الصلاة والسلام . فدخلت المسجد فسلمت عليه فتبسم تبسم المغضب - أى الذى غير راض عنى - ثم قال : « **تعالى** » فدنوت منه ، فلما دَنَوتُ منه قال لى : « **ما خَلَّفك ؟** » .فقال - ﷺ - : يا رسول الله لم أتخلَّف لعذر وما جمعت راحلتين قبل غزوتى هذه وإنى لو جلست عند أحد من مُلوك الدُّنيا لخرجت منه بعذر فلقد أُوتيت جدلاً ، أى : لو أنى جلستُ عند شخص من الملوك لعرفت كيف أتخلَّص منه لأن الله قد أعطانى جدلاً .

ولكنى لا أُحدثك اليوم حديثًا ترضى به عنى فيُوشك أن يسخط الله على فى ذلك .

انظر إلى الإيمان ! فأخبر النبى - ﷺ - بالصِّدق فأجَّله .

وفى هذا فوائد :

أولاً : أن الله سبحانه وتعالى قد يَمُنُّ على العبد فيعصمه من المعصية إذا علم من قلبه حُسْن النِّية .

فإن كعبًا لما همَّ أن يُزَوِّر على الرسول عليه الصلاة والسلام جلى الله ذلك عن قلبه وأزاله عن قلبه ، وعزم على أن يُصدق النبى عليه الصلاة والسلام .

ثانيًا : أن الإنسان إذا قَدِمَ بلده أن يَعْمَدَ إلى المسجد قبل أن يدخل إلى بيته فيُصلى فيه ركعتين ؛ لأن هذه سُنَّة الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام القولية والفعلية .

أما الفعلية : فكما فى حديث كعب بن مالك .

وأما القولية : فإن جابر بن عبد الله ﷺ حين باع [(١)] على النبى - ﷺ - جَمَله فى أثناء الطريق واستثنى أن يركبه إلى المدينة وأعطاه النبى - ﷺ - شرطه فقدم جابر المدينة وقد قدم النبى - ﷺ - قبله فجاء إلى رسول الله فأمره أن يدخل المسجد ويُصلى ركعتين .

وما أظن أحدًا من الناس اليوم إلا قليلاً يستعمل هذه السُّنة ، وهذا لِجَهْل النَّاس بهذا وإلا فَهَذا سَهْلٌ والحمد لله .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٢٣٩٤) .

Marfat.com

وسَوَاءٌ صليت فى مَسْجدك الذى كنت تُصلى فيه القريب من بيتك ، أو صليت فى أدنى مَسْجد من مَسَاجد البلد الذى أنت فيه .

ثالثًا : أن كعب بن مالك رجل قوى الحجة فصيح ولكن لتقواه وخوفه من الله امتنع أن يكذب وأخبر النبى ـ ﷺ ـ بالحق .

رابعًا : أن الإنسان المغضب قد يتبسم ، فإذا قال قائل : كيف أعرف أنْ هذا تَبسُّم رضى أو تَبَسُّم سُخط ؟

قلنا : إن هذا يُعرف بالقرائن ، كتلوّن الوجه وتغيره .

فالإنسان يعرف أن هذا الرَّجل تَبَسَّم رضًا بما صنع أو سخطًا عليه .

خامسًا : أنَّه يجوز للإنسان أن يُسلِّم قائمًا على القاعد لأن كعبًا سَلَّم وهو قائم ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : « **تعال** » .

سادسًا : أن الكلام عن قُرْب أبْلغ من الكلام عن بُعْد فإنه كان بإمكان الرسول ـ ﷺ ـ أن يكلم كعب بن مالك ولو كانَ بعيدًا عنه لكنه أمره أن يَدْنُو منه لأن هذا أبْلَغ فى الأخْذِ والرَّد والمُعَاتَبة ، فلهذا قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « **ادن** » .

سابعًا : ومنها كمال يقين كعب بن مالك رضي الله عنه حيث إنه قال : إننى أستطيع أن أَخْرُجَ بِعُذْرٍ من الرسول ولكن لا يمكن أن أخرج منه بعذر يعذرنى فيه اليوم ثم يغضب الله علىَّ فيه غدًا .

ثامنًا : أن الله يعلم السِّر وأخفَى فإنَّ كعبًا خاف أن يسمع الله محاورته للرسول عليه الصلاة والسَّلام فينزل الله فيه قرآنًا كما أنزل فى قصة المرأة المجادلة التى جاءت إلى الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام تشكو زوجها حين ظاهر منها فأنزل الله فيها آية من القرآن : ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة :١] .

يقول كعب : إنه أتى إلى الرسول ـ ﷺ ـ وصدقه القول وأخبره أنَّه لا عذر له لا فى بدنه ولا فى ماله بل إنه لم يجمع راحلتين فى غزوة قبل هذه .

فقال النبى ـ ﷺ ـ : « **أما هذا فقد صدق** » ـ ويكفى له فخرًا أن وصفَهُ الرسول عليه الصلاة والسلام بالصِّدق ـ فاذهب حتى يقضى الله فيك ما شاء ، فذهب الرَّجُل مُسْتَسْلِمًا لأمر الله عز وجل مؤمنًا بالله وأنَّه ما شاء الله كان وما لم يَشأ لم يكُن .

فَلَحِقَه قومه من بنى سلمة وجعلوا يزينون له أن يرجع عن إقراره وقالوا له : إنك لم

Marfat.com

تُذنب ذنبًا قبل هذا يعنى ما تخلفت به عن رسول الله - ﷺ - ويكفيك أن يستغفر لك رسول الله - ﷺ - وإذا استغفر لك الرسول - ﷺ - غفر الله لك .

فارجع كذَّب نفسك قل إنِّى معذُور حتى يستغفر لك الرسول عليه الصلاة والسلام فيمن استغفر لهم ممن جاءُوا يعتذرون إليه فهمَّ أن يفعل ﷺ ولكن الله سبحانه أنقذه وكتب له هذه المَنْقَبة العظيمة التى تُتْلَى فى كتاب الله إلى قيام السَّاعة .

فسأل قومه هل أحد صَنَعَ مِثْلَمَا صنَعْت قالوا : نعم ، هلال بن أمية ومُرارة بن الربيع قالا مثلما قلت ، وقيل لهما مثلما قيل لك .

يقول : « **فذكروا لى رَجُلين صالحين شهدا بدرًا لى فيهما أُسْوة** » .

أحيانًا يُقَيِّض الله للإنسان ما يجعله يَدَعُ الشَّر اقْتداءً بغيره وتأسيًا به .

فهو ﷺ لما ذُكِر له هذان الرجلان وهما من خيار عباد الله من الذين شَهِدُوا بدرًا.

فقال : « لى فيهما أُسْوة فمَضَيْتُ » أى : لم يرجع إلى النبى عليه الصلاة والسلام.

فأمر الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام الناس أن يهجروهم فلا يُكَلِّموهم .

فهجرهم المسلمون ولكنهم بعد ذلك صاروا يمشون وكأنهم بلا عقول قد ذهلوا ، وتنكرت لهم الأرض فما هى بالأرض التى كانوا يَعْرِفُونها ؛ لأنهم يَمْشُون إن سلَّموا لا يُرَدُّ عليهم السَّلام وإن قابلهم أحد لم يَبْدأهم بالسَّلام ، وحتى النبى عليه الصَّلاة والسَّلام أحْسَنُ النَّاس خُلُقًا لا يُسَلِّم عليهم السَّلام العَادى .

يقول كعب : كُنت أحضر وأُسَلِّم على النبى فلا أدرى أحَرك شفتيه بردِّ السلام أم لا.

هذا هو النبى عليه الصلاة والسلام ، وما ظَنُّك برجل يُهْجَر فى هذا المجتمع الإسلامى الذى هو خير القرون حتى تضيق عليه الأرض ، وفعلاً ضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، وبقوا على هذه الحال مدة خمسين يومًا ، أى : شهرًا كاملاً وعشرين يومًا .

والناس قد هجروهم فلا يُسَلِّمون عليهم ولا يردون السَّلام إذا سَلَّموا وكأنهم فى الناس إبلٌ جرب لا يَقْربهم أحد.

فضاقت عليهم الأمور وصعبت عليهم الأحوال وفروا إلى الله عز وجل ولكن مع ذلك لم يكن كعب بن مالك يَدَعُ الصلاة مع الجماعة .

فكان يحضر ويُسَلِّم على النبى عليه الصلاة والسلام ولكن فى آخر الأمور ربما يتخلف عن الصلوات لما يجد فى نفسه من الضيق والحرج ؛ لأنه يخجل أن ياتى إلى قوم يصلى

Marfat.com

معهم وهم لا يكلمونه أبدًا لا بكلمة طيبة ولا بكلمة تأنيب .

فضاقت عليهم الأرض وبقوا على هذه الحال خمسين ليلة تامَّة ولما تَّمت لهم أربعون ليلة أرسَلَ إليهم النبى عليه الصلاة والسلام أن يَعْتَزِلوا نِساءهم . . إلى هذا الحد ! .

وما ظنُك بكعب بن مالك وهو شاب يُعْزَل عن امرأته أمرٌ عظيم ، ولكن مع ذلك لما جاءهم رسول رسول الله عليه الصلاة والسلام وقال : « إن النبى - ﷺ - يأمُركَ أن تعتزل امرأتك » . قال : أطلقها أم لا ؟

لأنه لو قال له طلِّقها طلَّقها بكُل سُهولة طاعةً لله ورَسُوله ، فقال له رسول الرَّسول : إنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام يأمُرك أن تعتزل أهلك وبَقِى على ظاهر اللَّفظ .

حتى الصَّحابى الذى أُرسِلَ ما حرَّف النَّص لا مَعنًى ولا لَفظًا ، قال هكذا قال ولا أدرى .

وهذا من أدب الصَّحابة ﷺ ، ما قال : أظنُّ أنه يُريد أن تُطلِّقها ، ولا أظن أن يريد ألا تُطلِّقها ! ما قال شيئًا بل ، قال : إن النبى - ﷺ - قال هذا ، فقال كعب لزوجته : الحقى بأهلك ، فلحقت بأهلها وسيأتى .

* * *

يقول ﷺ : « فأما صاحباى فاستكانا فى بيوتهما يبكيان » لأنهما لا يستطيعان أن يمشيا فى الأسواق واليأس قد هجروهم لا يلتفت إليهم أحد ، فعجزوا عن تحمل هذه الحال فبقيا فى بيوتهما يبكيان .

يقول ﷺ : « **وأمَّا أنا فَكُنْتُ أشَبَّ القَوْمِ وأجْلدَهُم**» أشبُّهم : أقواهم ، وأجلدهم : أصبرهم ؛ لأنه أصغر منهم سِنًا فكان يشهد الجماعة مع المسلمين ، ويطوف بأسواق المدينة لا يكلمه أحد .

يقول : « **وكنت آتى المسجد فأصلى ، وأُسلِّم على النبى ـ ﷺ ـ وهو جالس للنَّاس بعد الصَّلاة فأقول : هل حرَّك شفَتَيه بردَّ السَّلام أم لا** » .

أى : مَا يرد عليه ردًا يسمع ، هذا مع أن النبى - ﷺ - أحسَن النَّاس خلُقًا ولكن امتثالاً لما أوحى الله إليه أن يُهجر هؤلاء القوم هَجرَهم .

ويقول : كنت أصلِّى وأسَارِق النبى - ﷺ - النَّظر أى ـ أنظر إليه أحيانًا وأنا أُصلى ـ فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىَّ وإذا التفتُّ إليه أعرَضَ عنى . كل هذا مِن شِدة الهجر .

يقول : « **فبينما أنا أمشى ذات يوم فى أسواق المدينة وطال علىَّ جفوة الناس تَسوَّرتُ**

Marfat.com

حائطًا لأبى قتَادة ﷺ » أى : دخله من فوق الجدار من دون الباب ، وكأنَّ الباب مُغْلَق والعلم عند الله .

يقول : « **فسلَّمت عليه فو اللّه ما ردَّ علىَّ السَّلام** » وهو ابن عمه وأحب الناس إليه ومع ذلك لم يرد عليه السلام .

مع أن الرجل كان مجفيًا من الناس مَنْبُوذًا لا يُكَلَّم ولا يُسَلَّم عليه ولا يُرَدُّ عليه السَّلام ومع ذلك لم يَعْطف عليه ابن عمه أبو قتادة .

كل هذا طاعة لله ورَسُوله لأن الصحابة ﷺ لا تأخذهم فى الله لوْمَةُ لائم ولا يُحابُون أحدًا فى دين الله ولو كان من أحبِّ الناس إليهم فقلت له : أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ فلم يَرُد عليه .

فقلتُ : أنشُدكَ الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ فلم يَرُد عليه .

مرتين يُنَاشده ، وأبو قتادة يدرى أنَّ كعب بن مالك يحب اللّه ورسوله ، فلما ردَّ عليه الثَّالثة وقال : أنشُدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ فقال : الله ورسوله أعلم .

لم يُكَلِّمه ، فلم يقل : نعم ! ولا قال : لا . قال كلمة لا تُعَدُّ خطابًا .

يقول : ففاضت عَيْناى ـ أى بكى ـ أنَّ رَجُلاً ابن عمه أحبُّ الناس إليه لا يُكَلِّمه مع هذه المُنَاشَدة العظيمة .

مع أنها مسألة تعبُّدية ؛ لأنَّ قوله أنْشُدكَ الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ شهادة ومع ذلك لم يشهد له مع أنه يعلم أنَّه يُحبُّ الله ورسوله .

وتسوِّر البستان : أى خرج إلى السُّوق فبينما هو يمشى إذا برجل نَبطى من أنباط الشام ـ والنبطىُّ الذى ليس بعربى ولا بعجمى وسُمُّوا بذلك لأنهم كانوا يخرجون فى البرارى يستنبطون الماء ـ يقول : مَن يَدلُّنى على كعب بن مالك ؟

أهل الشَّر ينتهزون الفُرَص .

فعندما قال : مَن يدلنى على كعب بن مالك . قلت : أنا هو ، فأعطانى الورقة ، وكنت كاتبًا لان الكُتَّاب فى ذلك العهد قَليلون جدا .

يقول : « **فقرأت الكتاب فإذا فيه : أمَّا بعد فقد بلغنا أن صاحبك جفاك** ـ أى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا الملك ملك غسان كافرًا ـ **وإنَّك لست بدار هَوان ولا مَضيعة** ـ أى لا تبقى فى الدَّار فى ذُلٍّ وضيَاع وهوان ، فتعال إلينا ـ **الحق بنا نُواسك** » ، أى تعال إلينا نُواسك بأموالنا وربما نواسك بملكنا .

Marfat.com

ولكن الرَّجل رَجُلٌ مؤمن بالله ورسوله ومحبٌ لله ورسوله . قال : وهذه من البلاء أى الامتحان وصدق ﷺ .

رجل مجفو لا يُكَلَّم مهجور منبوذ حتى من أقرب الناس إليه لو كان فى قلبه ضعف إيمان لانتهز الفرصة بدعوة هذا الملك وذهب إليه .

ثم ذهب إلى التَّنور فسَجَرَهُ فيه : أى أوقَدَها .

وإنما أوقدها فى التَّنور ولم يجعلها معه لئلا تُوسوس له نفسه بعد ذلك أنْ يَذْهَبَ إلى هذا الملك .

فأتلفها لكي ييأس منها ولا يُحَاول أن يجعلها حجة يذهب بها إلى هذا الملك . ثم بقى على ذلك مُدْة .

ففى هذه القطعة من الحديث : دليل على جواز التخلُّف عن الجماعة إذا كان الإنسان مهجورًا منبوذًا وعجزت نفسه أن تتحمل هذا كما فعل صاحبا كعب ، لأنَّه لاشك أنه من الضيق والحرج أن يأتى الإنسان إلى المسجد مع الجماعة لا يسلم عليه ولا يُردُّ سلامه ومَهَجُور ومَنُبوذ هذا تضيق به نفسه ذرعًا ، وهذا عُذر كما قاله العلماء .

ومن فوائده : شدة امتثال الصحابة لأمر النبى- ﷺ - ودَليل ذلك ما جرَى لأبى قتادة مع كعب .

ومن فوائده : أنَّه يجب التَّحرز من أصحاب الشَّر وأهل السُّوء الذين ينتهزون الضَّعف فى الإنسان والفُرص فى إضاعته وهَلاكه .

فإن هذا الملك انتهز الفرصة فى كعب يدعوه إلى الضَّلال لعلَّه يرجع عن دينه إلى دين هذا الملك بسبب حال كعب .

ومن فوائده : قوَّة كعب بن مالك فى دين الله وأنَّه من المؤمنين الخُلَّص وليس ممن قال الله فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ١٠] من الناس مَن يقول : آمنا بالله ولكن إيمانه ضعيف ، إذا أوذى فى الله ارتدَّ والعياذُ بالله وفَسَقَ وترك الطاعة .

كعب بن مالك أُوذِىَ فى الله إيذاءً أيّما إيذاء لكنه صَبّر واحتسب وانتظر الفرج ففرج الله له تفريجًا لم يكن لأحد غيره وصاحبيه أنزل الله فيهم ثناءً عليهم آيات تُتلى إلى يوم القيامة ، نحن نقرأ قصتَّهم فى القرآن فى صلاتنا ! هذا فضل عظيم .

ومن فوائد الحديث : أنَّه ينبغى للإنسان إذا رأى فتنة أو خوف فتنة أن يُتْلِفَ هذا الذى

Marfat.com

يكون سببًا لفتنته .

فإنَّ كعبًا لما خاف على نفسه أن تَميل فيما بعد إلى هذا الملك ويتَّخذ هذه الورقة وثيقة حرَقها - رضي الله عنه - .

ومنه أيضا ما جرى لسليمان بن داود عليهما السلام حينما عُرضت عليه الخيل الصَّافنات الجياد فى وقت العصر فغفل فيما عُرض عليه عن الصلاة حتى غابت الشمس، فلما غابت الشمس وهو لم يصل العصر دعا بها فجعل يَضرب أعناقها وسُوقها انتقامًا من نفسه لنفسه .

لأنَّه انتقم من نفسه التى لَهت بهذه الصَّافنات الجياد عن ذكر الله : ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص:٣٢، ٣٣] فالمهم أنك إذا رأيت شيئًا من مالك يَصُدُّك عن ذكر الله فأبعِدهُ عنك بأى وسيلة تكون حتى لا يكون سببًا لإلْهَائك عن ذكر الله .

فإنَّ الذى يلهى عن ذكر الله خسارة كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون : ٩] .

❊ ❊ ❊

يقول رضي الله عنه : « فلما تَمَّت لنا أربعون ليلة » أى شهر وعشرة أيام ، وكان الوحى قد استلبث - أى لم ينزل كل هذه المدة وهذا من حكمة الله عز وجل فى الأمور الكبيرة العظيمة يَسْتَلْبث الوحى كما فى هذه القصَّة وكما فى قِصَّة الإفك حين انقطع الوحى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وهذا لحكمة الله عز وجل حتى يَتَشوَّف الناس إلى الوحى ويتشوقوا إليه ماذا سينْزل رب العالمين عز وجل .

بقى الوحى أربعين ليلة ما نزل فلما تمت أربعون ليلة أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى كعب وصَاحِبِيه أنْ يَعْتزلوا نساءهم وقد سبق .

وجاءت زوجة هلال بن أُميَّة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخبرته بأنَّه فى حاجة إليها لِتَخدمة لأنَّه ليس له خادم فأذن لها النبى - صلى الله عليه وسلم - بشرط ألا يقربها ، فقالت : إنه ليس له فى هذا الأمر من شىء يعنى أنه ليس له شهوة فى النِّساء وإنه ما زال يبكى رضي الله عنه منذ أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بهجرهم إلى يومه هذا ؛ لأنَّه ما يدرى ماذا تكون النهاية .

يقول رضي الله عنه : **« فلمَّا مَضَى عشْر ليالٍ بعد هذا وكنت ذات يوم أُصَلِّى الصُّبح على**

Marfat.com

سطح بَيْتٍ من بُيوتنا » لأنَّه كما مر كانوا ﷺ قد ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت وضاقت عليهم أنفسهم .

يقول : « فسمعت صارخًا يقول وهو على سلعٍ - وهو جبل معروف فى المدينة - وصاح بأعلى صوته يقول : يا كعب بن مالك أبشر » .

يقول : فعلمت أنَّ الله قد أنزل فى فَرَجى ، وركب فارس من المسجد يؤم بيت كعب ابن مالك يُبَشِّره .

وذهب مُبَشِّرون إلى هلال بن أمية ومرارة بن الربيع يُبَشِّرونهما بتوبة الله عليهما .

انظر إلى فرح المسلمين بعضهم مع بعض ، كل يَسْعَى ويركض من جهة .

يقول : فجاء الصَّارخ وجاء صاحب الفرس فكانت البُشْرى للصَّارخ لأن الصَّوت أسرَع من الفرس ، يقول : فأعطيته ثَوْبى الإزار والرِّداء وليس يملك غيرهما لكن استعار من أهله أو جيرانه ثوبين فلبسهما وأعطى ثوبيه هذا الذى بَشَّره .

أعطاه كُلَّ ما يَمْلك ، لكنها والله بُشْرَى عظيمة أن ينزل الله توبتهم ويَمن عليهم بالتوبة .

ثم نزل مُتَوجهًا إلى رسول الله - ﷺ - فى المسجد وإذا رسول الله - ﷺ - وجزاه الله عن أمَّته خيرًا قد بشَّر النَّاس بعد صلاة الصبح بأنَّ الله أنزل توبته على هؤلاء الثَّلاثة؛ لأنَّه يُحِبُ من أصحابه وأمَّته إلى أن يتوبوا ويَرجعوا إلى الله .

يقول : « فذهبت أتأمَّم الرَّسول فجعل الناس يُلاقوننى أفواجًا » أى : جماعات يهنئونه بتوبة الله عليه .

هؤلاء القوم يُحبُّون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ، فلم يُحْسُدوهم على ما أنعم الله به عليهم من إنزَال القرآن العظيم بتوبتهم بل جعلوا يُهنئونهم حتى دخل المسجد .

وفى هذا فوائد :

أولاً : شدة هجر النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام لهؤلاء الثَّلاثة حتى إنه أمرهم أن يعتزلوا نساءهم والتَّفريق بين الرَّجل وامرأته أمرٌ عظيم .

ثانيًا : وفيه أن قول الرَّجل لامرأته الحقى بأهلك لَيْس بطلاق لأنَّ كعبًا فرق بين قوله الحقى بأهلك وبين الطلاق ، فإذا قال الرَّجل لامرأته : الحقى بأهلك ولم ينو الطلاق فليس بطلاق .

أما إذا نَوَى الطلاق فإن النبى - ﷺ - قال : « إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّياتِ وإنَّما لكُلِّ امرئٍ

Marfat.com

ما نَوى ... » الحديث [(١)].

فإذا نوى بهذه الكلمة وأمثالها الطلاق فله ما نوى .

ثالثًا : شدة امتثال الصَّحابة لأمر النبى - ﷺ - لأنه ﷺ ما تردَّدَ ولا قال : لعلى أراجع الرسول عليه الصلاة والسلام .

أو قال للرَّسول الذى أرسله النبى - ﷺ - : ارجع إليه لعله يَسْمح ، بل وافق بكل شىء .

رابعًا : أنَّ النبى - ﷺ - كان رحيمًا بأمَّته فإنه بعد أن أمر باعتزال النِّساء لهم رَخَّص لهلال بن أمية لأنَّه يحتاج لخدمة امرأته .

خامسًا : جواز حكاية الحال عند الاستفتاء أو الشَّهادة أو ما أشبه ذلك ، وإن كان المحكىُّ عنه قد لا يحب أن يطَّلع عليه الناس ؛ لأنَّ امرأة هلال بن أمية ذكرت من حَاله أنَّه ليس له حاجة إلى شىء من النِّساء .

سادسًا : أن الإنسان إذا حَصَلَ له مثل هذه الحَال وهجره الناس وصار يتأذَّى من مُشاهدتهم ولا يتحمَّل فإنه له أن يتخلَّف عن صلاة الجماعة ، وإن هذا عذر ؛ لأنه لو جاء إلى المسجد فى هذه الحال سوف يكون مُتَشوِّشًا غير مطمئن فى صلاته ولهذا صَلَّى كعب ابن مالك صلاة الفجر على ظهر بيت من بيوته وسبق لنا ذكر هذه الفائدة .

سابعًا : حِرْصُ الصَّحابة على التَّسابق إلى البُشْرى لأن البُشْرى فيها إدخال السُّرور على المسلم ، وإدخال السُّرور على المسلم مما يقرِّب إلى الله عز وجل لأنه إحسان والله سبحانه يُحب المُحسنين ولا يُضيعُ أجرهم .

فلذلك ينبغى لك إذا رأيت من أخيك شيئًا يَسُرُّه كأن يكون خبرًا سارًا أو رؤيا سَارَّة أو ما أشبه ذلك أن تُبشِّره بذلك لأنك تُدْخل السُّرور عليه .

ثامنًا : أنَّه ينبغى مُكافاة من بَشَّرك بهدية تكون مُناسبة للحال لأنَّ كعب بن مالك أعطى الذى بشره ثَوْبَيْه وهذا نظير ما صحَّ به الخبر عن عبد الله بن عباس ﵄ وكان يأمر النَّاس إذا حَجُّوا أن يَتَمتَّعوا بالعمرة إلى الحج ، وكان عمر بن الخطاب ﵁ ينهى عن المُتْعة لأنَّه يحب أن يعتمر الناس فى وقت وأن يحجوا فى وقت حتى يكون البيت دائمًا مَعْمُورًا بالزُّوار ، فعل هذا اجتهادًا منه ﵁ وهو من الاجتهاد المغفور وسُنَّة الرسول عليه الصلاة والسلام أولى .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (١) مسلم (١٩٠٧) .

Marfat.com

المهم أن رجلاً استفتى عبد الله بن عباس فى هذه المسألة فأمره أن يتمتَّع وأن يُحْرِم بالعمرة ويُحِل منها .

فرأى هذا الرَّجل فى المنام شخصًا يقول له : حَجٌّ مبرور وعُمْرَةٌ مُتَقَبَّلة ، فأخبر بذلك عبد الله بن عباس الذى أفتاه ، ففرح بذلك ابن عباس وأمره أن يَبْقى حتى يُعطيه من عطائه ـ أي : يُعْطيه هدية على ما بَشَّره به من هذه الرؤيا التى تدلُّ على صواب ما أفتاه به ابن عباس .

والمهم أن من بَشَّرك بشىء ، فأقل الأحوال أن تدعو له بالبشارة أو تُهْدى له ما تيسر وكل إنسان بقدر حاله .

❊ ❊ ❊

يقول ﷺ : « حتى دخلت المسجد وإذا رسول الله ـ ﷺ ـ جَالسٌ وحوله أصْحابه فقام إلى كعب طلحة بن عبيد الله ﷺ فصافحه وهنأه بتوبة الله عليه .

يقول : والله ما قام إلىَّ أحد من المهاجرين رَجُلٌ غير طلحة فكان لا يَنْسَاها له حيث قام ولاقَاهُ وصَافَحه وهنَّأه حتى وَقَفَ على النبى ـ ﷺ ـ وإذا وجهه تبرق أسَاريره ؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام سَرَّه أن يَتُوب الله على هؤلاء الثَّلاثة الذين صَدَقُوا الله ورسوله ، وأخبروا بالصِّدق عن إيمان وحَصَل عليهم مَا جرَى من الأمر العظيم من هجر النَّاس لهم خمسين يومًا حتى نسائهم بعد الأربعين أمر الرسول عليه الصَّلاة والسلام أن يعتزلوهن .

ثم قال له النبى ـ ﷺ ـ : « **أبْشِر بخيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عليكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمُّك** » .

وصدق النَّبى ـ ﷺ ـ ؛ لأنَّ الله أنزل توبته وتوبة صاحبيه فى قرآن يُتْلَى تكلَّم به رَبُّ العالمين عز وجل وأنزله على محمد ـ ﷺ ـ محفوظًا بواسطة جبريل ومحفوظًا إلى يوم القيامة .

ولا يوجد أحد سوى الأنبياء أو من ذَكَرهم الله فى القرآن حُفِظت قصته كما حفظت قصة كعب بن مالك وصَاحِبيْه .

بقيت هذه القِصَّة تُتْلَى فى كتاب الله فى المحاريب وعلى المنابر وفى كل مكان ومن قرأ هذه القصة فله بكل حرف عشر حسنات .

« **فقلت له : أمِنْ عندكَ يا رَسُول الله أو مِن عند الله ؟ قال : لا ، بل من عند الله عز وجل**» لأنه إذا كان مِن عند الله كان أشرَفُ وأفضل وأعظم .

« **فقال كعب : إنَّ مِنْ تَوْبَتى أن أنخلع مِنْ مالى صَدَقةً إلى الله وإلى رَسُوله** » . أى

Marfat.com

يتخلَّى عنه ويجعله صَدَقةً إلى الله ورسوله شأنه وتدبيره ، « فقال النبى ﷺ **أمْسِكْ عليْك بعْض مالك فهو خيْرٌ لك** » . فأمسكه رضي الله عنه .

ففى هذه القطعة من الحديث فوائد :

أولاً : فيها دَليلُ على أن من السُّنة إذا أتى الإنسان ما يَسُرُّه أن يهنأ به ويُبشَّر به سواء كان خير دين أو خير دنيا .

ولهذا بَشَّرت الملائكة إبراهيم عليه السلام بِغُلامٍ حَليم وبغلام عليم .

الغلام الحليم : إسماعيل والغلام العليم : إسحاق .

ثانيًا : أنَّه لا بأس بالقيام إلى الرَّجل لمصافحته وتهنئته بما يَسُرُّه . والقيام إلى الرجل لا بأس به قد جاءت به السُّنة وكذلك القيام للرْجل وأنت باقٍ فى مكانك لا تتحرك إليه فهذا أيضًا لا بأس به إذا اعتاده الناس ؛ لأنه لم يرد النهى عنه ؛ وإنما النهى والتحذير من الذى يقام له لا من القائم ، فإن مَن يُقام له قال فيه النبى عليه الصلاة والسلام : « **مَن أحَبَّ أنْ يَتمثَّل لَهُ النَّاسُ قِيامًا فَلْيَتبوأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ** » (١) .

قال أهل العلم : والقيام ثلاثة أقسام :

الأول : قيامٌ إلى الرَّجُل .

والثَّانى : قِيامٌ للرَّجل .

والثَّالث : قيامٌ على الرَّجل .

فالقيام إلى الرجل : لا بأس به ، وقد جاءت به السُّنة أمرًا وإقرارًا وفعلاً .

أما الأمر : فإن النبى - ﷺ - لما أقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه عند تحكيمه فى بنى قريظة قال الرَّسول عليه الصلاة والسلام : « **قُوموا إلى سيِّدكُم** » وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه قد أُصيب فى غزوة الأحزاب فى أكحله - وهو عِرق فى اليد إذا انفجر مات الإنسان - فدعا الله أن لا يُميته حتى يَقَر عينه فى بنى قريظة ، وكانوا حُلفاء للأوس ، وخانوا عهد النبى عليه الصَّلاة والسَّلام وصاروا مع الأحزاب على رسول الله - ﷺ - فلما طُعِنَ سعد قال : اللَّهم لا تُمتنىِ حتى تقرَّ عينِى فى بنى قريظة ، وكان من عُلُوِّ منزلته عند رسول الله - ﷺ - أنَّ أمرَ النبىَّ - ﷺ - أن يُضْرب له خباء فى المسجد - أى خيمة صغيرة - لأجل أن يَعُودَهُ من قريب ، فكان يَعُوده من قريب .

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٥٢٢٩) والطبرانى واللفظ له (١٩/ ٣٥٢) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٥٩٥٧).

Marfat.com

ولَّما حَصَلَت غزوة بنى قريظة ورَضُوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ ، أمر النبى - ﷺ أن يَحْضُر سَعْد إلى بنى قريظة فجاء راكبًا على حمَار ؛ لأنَّه قد أنهكَه الجرح، فلما أقبل قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « قُوموا إلى سيِّدكُم » فقاموا فأنزلوه فقال الرسول عليه الصلاة والسلام له : « إن اليَهُود مِن بَنِى قُرَيظة حَكَّموك » فقال ﷺ : حُكْمى نافذ فيهم؟

قال : نعم ! ، وأقَرُوا به ، وقالوا : نعم حُكْمُك نَافِذ .

قال : وفيمن هاهنا ـ يشير إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة ـ قالوا : نعم فقال : أحْكُم فيهم أن تُقتل مُقاتلتهم وتُسبى ذريتهم ونِساؤهم وتغنم أموالهم ، حُكمٌ صَارِم!!.

قال الرسول عليه الصَّلاة والسلام : « **حكمتَ فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات**»[١] .

فنفَّذ النبى - ﷺ - حكمه وقتل منهم سبعمائة رجل وسبى نساءهم وذرياتهم وغنم أموالهم.

الشاهد قوله : « **قُوموا إلى سيِّدكم** » هذا فعْل أمْر ولما دخل كعب إلى المسجد قام إليه طلحة بن عبيد الله والنبى - ﷺ - يُشَاهد ولم يُنكر عليه .

ولَمَّا قَدِمَ وَفْدُ ثَقيف إلى الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام بالجُعْرانة ـ بعد الغَزْوة قام لهم - أو قام إليهم ـ عليه الصَّلاة والسَّلام .

الثانى القيام للرَّجل : وهذا لا بأس به لا سيما إذا اعتاد الناس ذلك ، وصار الدَّاخل إذا لم تَقُم له يعد ذلك امتهانًا له فإن ذلك لا بأس به ، وإن كان الأوْلَى تَرْكَه كما فى السُّنة، لكن إذا اعتاده فلا حَرَج فيه .

الثَّالث القيام عليه : كأنْ يكون جالسًا ويقوم واحد على رأسه تعظيمًا له فهذا مَنْهِىٌّ عنه. قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **لا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الأعَاجم يُعَظِّم بعضهم بعضًا**»[١] .

حتى إنَّه فى الصَّلاة إذا صار الإمام لا يستطيع القيام وصلَّى جالسًا فإن المأمومين يصلُّون جُلُوسًا ولو كانوا يَقْدِرُون على القيام لئلا يشبهوا الأعاجم الذين يَقُومون على ملوكهم.

فالقيام على الرَّجل مَنهِىٌّ عنه اللَّهُمَّ إلا إذا دَعت الحاجة لذلك ، كأن يخاف على

---

(١) ضعيف: رواه أبو داود (٥٢٣٠) ، وابن ماجة (٣٨٣٦) ، وأحمد (٢٥٣/٥) وضعفه الألبانى فى الضعيفة (٣٤٦) .

Marfat.com

الرَّجُل أن يَعتدى عليه أحد فلا بأس أن يقوم عليه القائم ، وكذلك إذا قام عليه الرَّجل إكْرامًا له فى حال يَقصد فيه إكْرامُه وإهانة العَدو ، مثْل مَا حَصل من المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فى صُلح الحديبية حينما كانت قريش تُراسِل النبى - ﷺ - للمُفَاوضَة فيما بينهم .

كان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه واقفًا على رأس رسول الله - ﷺ - وبيده السَّيف تعظيمًا لرسول الله - ﷺ - وإهانة لرُسُلِ الكفَّار الذين يأتون للمفَاوضَة .

وفى هذا : دليل على أنَّه ينبغى لنا نحنِ المسلمين أن نغيظ الكفار بالقول وبالفعل لأنا هكذا أمرنا قـال الله سبحانـه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفتح:٢٩] . وقال تعالى : ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح:٢٩]. وقال الله تعالى : ﴿ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتِبَ لهم به عمل صالح ﴾ [التوبة : ١٢٠] ومن المؤسف أن منا مَن يُدخل عليهم السُّرور والفرح وربما يُشاركهم فى أعيادهم - والعياذ بالله - الكُفْرية التى لا يرضاها الله بل يسخط عليها والتى يُخشى أن ينَزل العذاب عليهم وهم يلعبون بهذه الأعياد . يوجد من الناس من لا قَدْر للدين عنده كما قال ابن القيم فى أحكام أهل الذمة .

أدخل عليهم ما يُحزنهم ويغُيظهم ويدخل عليهم أشدّ ما يكون من الضيق ، هكذا أمرنا لأنهم أعداء لله ولدينه وللملائكة والنَّبيِّين والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين .

المهم أن المغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ وبيده السَّيف تعظيمًا له حتى أنه فى أثناء تلك المراسلة فعل الصَّاحبة شيئًا لا يفعلونه فى العادة .

كان عليه الصلاة والسلام إذا تنخع تلقوا نخامته بأيديهم ثم يمسحون بها وجوههم وصدورهم ، مع أنهم ما كانوا يفعلون هذا لكن لأجل إذا ذهب رسول الكفار إلى الكفار بيِّن لهم حال الصحابة مع نبيهم عليه الصلاة والسلام .

ولذلك لما رجع الرسول إلى قريش قال : والله لقد دخلت على الملوك وكسرى وقيصر والنجاشى فلم أر أحدًا يُعَظِّمه أصحابه مِثلَمَا يُعظم أصحاب محمد محمدًا ﷺ وأرضاهم وجزاهم الله عنا خيرًا - .

المهم أن القيام على الرجل إذا كان المقصود به حفظ الرَّجل أو كان المقصود به إغاظة العَدو فإن هذا لا بأس به .

ثالثًا : أن مَن أنعم الله عليه بنعمة فإن من السنَّة أن يَتصدَّق بشىء من ماله فإن النبى - ﷺ - أقرَّ كعب بن مالك على أن يتصدَّق بشىء من ماله توبة إلى الله عز وجل لما حصل له من هذا الأمر العظيم الذى كان فخرًا له إلى يوم القيامة .

Marfat.com

ذكر كعب بن مالك أن من توبته ألا يحدث بحديث كذب بعد إذ نجّاه الله تعالى بالصّدق ، وما زال كذلك مَا حدث بحديث كذب أبدًا بعد أن تاب الله عليه فكان ﷺ مضرب المثل فى الصّدق حتى أن الله أنزل فيه وفى صحابيه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة : ١١٩] . أنزل الله تعالى الآيات فى بيان منته عليهم بالتوبة من قوله تعالى : ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة : ١١٧] . ففى هذه الآية أكَّد الله توبته على النبى والمهاجرين والأنصار ، أكدها بقوله : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ﴾ [التوبة : ١١٧] .

فأما النبى فهو محمد رسول الله ﷺ خاتم النَّبيين الذين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وأما المهاجرون فهم الذين هاجروا من بلادهم من مكة إلى المدينة هاجروا إلى الله ورسوله فجمعوا فى ذلك بين الهجرة ومُفارقة الوطن ومفارقة الدِّيار وبين نُصرة النبى ﷺ لأنهم إنما هاجروا إلى الله ورسوله .

أما الأنصار فهم الذين تبوءُوا الدار والإيمان من قبلهم ، أهل المدينة ﷺ الذين آووا النبى ﷺ ونصروه ومنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وقدم الله المهاجرين لأنهم أفضل من الأنصار لجمعهم بين الهجرة والنصرة .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧] ، وذلك فى الخروج معه إلى غزوة تبوك إلى بلاد بعيدة والناس فى أشد ما يكونون فى الحرّ والناس فى أطيب ما يكونون لو بقوا فى ديارهم لأن الوقت وقت قيظ والوقت وقت طيب الثمار وحسن الظلال ولكنهم ﷺ خرجوا فى هذه الساعة الحرجة فى ساعة العسرة : ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٧] فإن بعضهم كاد يتخلف بدون عذر فيزيغ قلبه ولكن الله عز وجل مَنَّ عليهم بالاستقامة حتى خرجوا مع النبى - ﷺ - .

وقوله : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة : ١١٧] أكد ذلك مرة أخرى : ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١١٧] . شملهم بالرأفة والرحمة والرأفة أرق من الرحمة لأنها رحمة ألطف وأعظم من الرَّحمة العامة .

ثم قال : ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة : ١١٨] .

والثّلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وخلّفوا أى خُلِّف البَتُّ فى أمرهم وليس المُراد تخلّفوا عن الغزوة بل خلّفهم الرسول عليه الصلاة والسلام لكى ينظر فى أمرهم ماذا يكون حكم الله تعالى فيهم .

وقوله : ﴿حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة : ١١٨] ضاقت عليهم

Marfat.com

الأرض مع سَعَتِها ، والرحب : السَّعة .

حتى قال كعب بن مالك : « لقد تنكرت لى الأرض حتى قلت لا أدرى هل أنا فى المدينة أو غيرها » من شدة الضيق عليهم .

﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة : ١١٨] . نفس الإنسان ضاقت عليه فهى لا تتحمل أن تبقى ، ولكنهم صبروا حتى فرَّج الله عنهم .

وقوله : ﴿وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾ [التوبة : ١١٨] الظن هنا بمعنى اليقين ، أى أيقنوا ألا ملجأ من الله أى: أنه لا أحد ينفعهم ولا ملجأ من الله إلا إلى الله ، فالله بيده كل شىء عز وجل .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة : ١١٨] . تاب عليهم لينالوا مراتب التوبة التى لا ينالها إلا أحباب الله كما قال الله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

أمَّا أولئك الذين اعتذروا من المنافقين إلى الرسول عليه الصلاة والسلام واستغفر لهم ووكل سَرَائرهم إلى الله فإن الله أنزل فيهم شرّ ما أُنْزِل فى بَشر .

فقال : ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة : ٩٥] . فلا تلوموهم : ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة : ٩٥] . أعوذ بالله رجس، الخمر رجس ، القذر الذى يخرج من دُبُر الإنسان رجس ، روث الحمير رِجْسٌ ، هؤلاء مثلهم : ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة :٩٥] .

بئس المأوى والعياذ بالله إنَّهم ينتقلون من الدنيا إلى جهنم نسأل الله العافية ، نارٌ حامية تطلع على الأفئدة ، مؤصدة عليهم فى عمد ممددة .

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾[التوبة : ٩٦] لانكم لا تعلمون سرائرهم ولا يبدو لكم إلا الظواهر : ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة : ٩٦] . إذا رضى الناس عنك كلهم والله لم يرض عنك فإنه لا ينفعك .

إذا رضي الله عنك أرضى عنك الناس وأمالَ قلوبهم إليك كَما جاء فى الحديث : «إن الله عزَّ وجلٍ إذا أحبَّ شَخَصًا نادَى جبريل يا جبريل إنِّى أحبُّ فُلانًا فأحبَه » يُعَيِّنُ الله الرَّجل له ـ فيُحبه جبريل ثم ينادى فى السماء أن الله يحب فلانٌ فأحبوه فيحَبه أهل السماء ثم يوضع لَهُ القَبُول فى الأرض »[1] فيكون مقبولا لدَى أهل الأرض .

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٤٨٥) مسلم (٢٦٣٧) .

Marfat.com

كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

لكن إذا التمس الإنسان رضا النَّاس بسخط الله فالأمر بالعكس يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس .

ولهذا لما تولَّى مُعَاوية ﷺ الخلافة كتبت له عائشة ﷺ قالت : سمعت النبي - ﷺ - يقول : « مَن التَمَس رضا الله بسخَط النَّاس كفَاهُ الله مؤنَةَ النَّاس ومَنَ التَمَسَ رضا النَّاسَ بسَخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه النَّاس » ومَا أكثر الذين يطلبون رضا النَّاس بسخط الخالق عز وجل .

هؤلاء في سخط الله ولو رَضي عنهم النَّاس ، فلا ينفعهم رضا الناس ، قال الله هنا: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] حتى لو رضي عنهم النبيُّ أشرف الخلق ما نفعهم لأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

وفي هذه الآية تحذير من الفِسْق وهو ارْتكاب المَعاصي التي أعظمها الكفر وكُلُّ فسق فإنَّه يُنْقِص من رِضا الله عن الإنسان بحسبه ؛ لأن الحكم المُعلَّق بالوَصف يزداد بزيَادته وينقص بنقصانه ، ويقوى بقوته ويَضْعف بضعفه .

الفسق سبب عدم رضا الله وهو أنواع كثيرة ومَراتب عظيمة ، مثلاً عقوق الوَالدين من الفُسُوق ، وقطيعة الرَّحم من الفسوق ، وغش الناس من الفُسُوق ، والغدر بالعهد من الفُسُوق ، والكَذب من الفُسوق ، فكل معصية من الفُسوق .

لكن صَغَائر الذُّنوب تكفرها حسنات الأعمال إذا أصلح الإنسان الحسنات ، كما قال الله : ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] وقال : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ، أمَّا الكبائر فلا ينفع فيها إلا التَّوبة .

على كل حال الفِسْقُ من أسباب انتفاء رضا الله عن العبد والطاعات من أسباب الرِّضا .

فعليك يا أخي التزام طاعة الله إن كنت تُريد رِضاه وإن كنت تُريد رِضا النَّاس فأرْض الله .

ذكر- ﷺ - أنَّه خرج من المدينة ، في يوم الخميس وكان يحب أنْ يخرج فيه ، ولكن ذلك ليس بدائم ، أحيانًا يخرج يوم السَّبت كما خرج في آخر سفرة سَافرها في حجة الوداع وربما يخرج في أيَّام أُخر لكن غالب ما خرج فيه هو يوم الخميس .

Marfat.com

وذكر أنَّ النبى ـ ﷺ ـ عاد إلى المدينة ضُحَىً وأنَّه دخل المسجد فصلَّى فيه ركعتين وكان هذا من سنته ـ ﷺ ـ أنَّه إذا قدم بلده لم يبدأ بشىء قبل المسجد وقد تقدم .

وهاتان الركعتان تشمل كل الوقت حتى أوقات النَّهى لأنَّها صلاة سَبَبِيَة فليس عنها نَهْىٌ فى أىِّ وقت وُجِدَ سببها حَلَّ فِعْلُها .

وأما الأحاديث :

[٥٤] فَالأَوَّلُ : عَن ابْنِ مَسْعُود ﷺ عن النَّبى ﷺ قال : « **إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِى إِلَى البر ، وإن البِرَّ يَهْدِى إِلَى الجَنَّة ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللّه صديقاً ، وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِى إِلَى الفُجُورِ ، وَإِنَّ الفجُورَ يَهْدِى إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللّه كَذَّاباً** » متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « عليكم بالصِّدق . . » أى : الزموا الصدق والصِّدْق مُطَابقة الخبر للواقع ، وقد سبق فى حديث كعب وَصَاحِبيه ما يدلُّ على فضيلة الصِّدق وحُسْن عاقبته وأنَّ الصادق هو الذى له العاقبة والكاذب هو الذى يكون عمله هباءً ، ولهذا يُذكر أنَّ بعض العامَّة قال : إنَّ الكَذب يُنَجِّى فقال لهُ أخُوه : الصِّدْقُ أنْجَى وأنْجَى . وهذا صحيح ، واعلم أنَّ الكذب يكون باللِّسان ويكون بالأركان .

أما باللسان فهو القول وأما بالأركان فهو الفعل ، ولكن يكون الكذب بالفعل إذا فعل الإنسان خلاف ما يُبْطن فهذا قد كذب بفعله ، فالمنافق مثلاً كاذب لأنه يُظهر للنَّاس أنه مؤمن يُصَلِّى مع الناس ويصوم مع الناس ويتصدَّق ولكنه بخيل ، وربما يحجَ فمن رأى أفعاله ، حكم عليه بالصَّلاح ، ولكن هذه الأفعال لا تنبئ عما فى الباطن فهى كذب .

ولهذا نقول : الصِّدق يكون باللِّسان وبالأركان . فمتى طابق الخبر الواقع فهو صدْق وهذا باللسان ومتى طابقت أعمال الجوارح مَا فى القلب فهى صِدْق وهذا صدق بالأقوال .

ثم بيَّن النبى عليه الصلاة والسلام عندما أمر بالصِّدق بيَّن عاقبتهم فقال : « **إن الصِّدق يَهْدى إلى البر وإن البر يهْدى إلى الجَنَّة** » .

البرّ : كَثرة الخير ومنه من أسماء الله البر أى كثير الخير والإحسان عز وجل .

والبر من نتائج الصدق وقوله : « وإن البر يَهْدى إلى الجنة » فصاحب البر ـ نسأل الله

---

[٥٤] صحيح : رواه البخارى (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

Marfat.com

أن يجعلنا وإياكم منهم - يهديه برُّه إلى الجنة غاية كل مطلب .

ولهذا يؤمر الإنسان أن يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

وقوله : « **إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا** » . وفى رواية : « **ولا يزال الرجلُ يَصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا** » .

الصِّديق فى المرتبة الثَّانية من الخلق من الذين أنعم الله عليهم كما قال الله سبحانه : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء : ٦٩] فالرجل الذى يتحرى الصدق يُكتب عند الله صِدِّيقًا ومعلوم أن الصِّديقية درجة عظيمة لا ينالها إلا أفذاذ من الناس .

وتكون فى الرجال وتكون فى النِّساء قال الله تعالى : ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة : ٧٥] .

وأفضل الصديقين على الإطلاق أصدقهم ، وهو أبو بكر رضي الله عنه ، عبد الله بن عثمان ابن أبى قُحافة الذى استجاب للنَّبى - صلى الله عليه وسلم - حين دعاه إلى الإسلام ولم يحصل عنده أى تردُّد وأى توقف بمجرد مَا دَعاه الرسول إلى الإسلام أسْلم ، وصدّق الناس - صلى الله عليه وسلم - حين كذبه قومه ، وصدقه حين تحدث عن الإسراء والمعراج ، وكذَّبه الناس وقالوا : كيف تذهب يا محمد من مكة إلى بيت المقدس وترجع فى ليلة واحدة ثم تقول إنك صعدت إلى السماء هذا لا يمكن !

ثم ذهبوا إلى أبى بكر وقالوا له : أما تسْمَعُ ما يقول صاحبك ؟ قال : ماذا قال ؟ قالوا : إنَّه قال كذا وكذا ، قال : « إنّ كان قد قالَ ذلك فقد صدق » ، فمنذ ذلك اليوم سُمِّى الصِّديق رضي الله عنه .

وأما الكذب فإنه قال : « **وإياكم والكذب** » .

« إياكم » للتحذير أى احذروا الكذب ، وهو الإخبار بما يُخَالف الواقع سواء كان بالقول أو بالفعل .

فإذا قال قائل : ما اليوم ؟ فقلت : اليوم يوم الخميس أو يوم الثلاثاء فكذب لأنه لا يُطَابق الواقع ؛ لأن اليوم الأربعاء .

والمُنافق كاذب لأن ظاهره يدلُّ على أنَّه مسلم وهو كافر فهو كاذب بفعله .

وقوله : « **وإنَّ الكذب يهدى إلى الفجور** » الفجور يعنى الخروج عن طاعة الله لأن

Marfat.com

الإنسان يفسق ويتعدَّى طوره ويخرج عن طاعة الله إلى معصيته وأعظم الفجور الكفر .

فإن الكفَرة فَجَرة كما قال الله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس : ٤٢] . وقال تعالى : ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين : ٧ - ١١] . وقال تعالى : ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار : ١٤] .

فالكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار .

وقوله : « **وإنَّ الرَّجُل ليَكْذب** » وفى لفظ : « **لا يزالُ الرَّجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا** » والكَذب من الأمور المحرَّمة بل قال بعض العلماء : إنَّه من كبائر الذنوب لأن الرسول - ﷺ - توعَّده بأنه يُكتب عند اللَّه كذابًا .

ومن أعظم الكذب : ما يفعله النَّاس اليوم يأتى بالمقالة كاذبًا لكن من أجل أن يُضحك الناس .

وقد جاء فى الحديث الوعيد على هذا ، فقال الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام : « **ويلٌ لمن حدَّث فكذب ليُضحك به القوم ويل له ثم ويل له** » [(١)] وهذا وعيدٌ على أمر سهل عند كثير من الناس .

فالكذب كله حرام ، وكله يَهدى إلى الفجور ولا يُستثنى منه شىء ، وورد فى الحديث أنَّه يستثنى من ذلك ثلاثة أشياء ، فى الحرب والإصلاح بين الناس وحديثُ المرأة زوجها وحديثه إياها .

ولكن بعض أهل العلم قال : إنَّ المراد بالكذب فى هذا الحديث التَّورية وليس الكذب الصريح .

وقال : التَّورية قد تُسَمَّى كذبًا كما فى حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى - ﷺ - قال : « **لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات : ثنتين فيهن فى ذات الله تعالى : قوله : « إنى سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وواحدة فى شأن سارة** ... » [(٢)] الحديث . وهو لم يكذب وإنما ورى تورية هو فيها صادق .

وسواء كان هذا أو هذا فإن الكذب لا يجوز إلا فى هذه الثَّلاث على رأى كثير من أهل العلم .

---

(١) حسن : رواه الترمذى (٢٣١٥) وأحمد (٥/٣، ٦) وحسنه الألبانى فى المشكاة (٤٨٣٨) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٣٣٥٧) مسلم (٢٣٧١) .

Marfat.com

وأشدُّ شىء فى الكَذب أن يكذب ويحلف ليأكل أموال النَّاس بالباطل ، مثل أن يُدَّعى عليه بحق ثابت فيُنكر ويقول : والله مَالَكَ علىَّ حق ، أو يَدَّعى ما ليس له فيقول : لى عندك كذا وكذا وهو كاذب ، فهذا إذا حَلَفَ على دعواه وكذب فإن ذلك هو اليمين الغموس التى تغمس صاحبها فى الإثم ثم تغمسه فى النَّار والعياذ بالله .

وثبت عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « مَنْ حَلَفَ على يَمين صَبْر هُو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مُسْلم لقىَ الله وهو عليه غضبان »(١) فالحاصل أن الكذب حرام ولا يجوز للإنسان أن يكذب مطلقًا إلا على المسائل الثلاث على الخلاف السَّابق .

* * *

[٥٥] **الثَّانى** : عَنْ أبى مُحَمَّد الْحَسَنِ بْنِ عَلى بْنِ أبى طَالب ، رضى اللَّهُ عَنهما ، قال : حَفظْتُ منْ رسول الله ـ ﷺ ـ : « **دَعْ مَا يَريبُكَ إلَى مَا لا يَريبُكَ ؛ فَإنَ الصدقَ طُمَأْنينَةٌ ، والْكَذبَ ريبَةٌ** » رواه الترْمذى وقال : حديثٌ صحيحٌ .

قَوْلُهُ : « يَريبُكَ » هُوَ بفَتح الياء وضمّها ؛ وَمَعْنَاهُ : اتْرُكْ ما تَشُكُّ فى حلِّه ، واعْدلْ إلَى ما لا تَشُكُّ فيه .

الشرح

قوله : « دع » أى اترك « ما يريبكَ » بفتح الياء ، أى تشك فيه ولا تطمئن إليه ، «**إلى ما لا يَريبُك** » أى : إلى الشَّىء الذى لا ريب فيه .

وهذا الحديث من أحاديث الأربعين النَّووية وهو حديث جامع مهم وهو باب عظيم من أبواب الورَع والاحتياط .

وقد سلك أهل العلم ـ رحمهم الله ـ فى أبواب الفقه هذا المَسْلَك وهو الأخذ بجانب الاحتياط وذكروا لذلك أشياء كثيرة .

منها : إنسان أصاب ثوبه نجاسة ، ولا يدرى هل هى فى مقدم الثوب أو فى مؤخره ، إن غسل المقدم صار عنده ريبة لاحتمال أن تكون فى مؤخر الثوب ، وإن غسل المؤخر صار عنده ريبة لاحتمال أن تكون فى مقدم الثَّوب ! فما هو الاحتياط ؟

الاحتياط أن يغسل مقدمه ومؤخره حتى تزول ريبته ويطمئن .

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٦٧٦) مسلم (١١٠) .

[٥٥] صحيح: رواه الترمذى (٢٥١٨) وصححه الألبانى فى الإرواء (١٢) .

Marfat.com

منها : لو شكَّ الإنسان فى صلاته هلْ صلَّى ركعتين أو ثلاث ركعات ولم يترجح عنده شيء فهنا إن أخذ بركعتين صار عنده ريبة فلَعَله نقص . وإن أخذَ بالثلاث صار عنده ريبة فلعلَّه لم ينقص لكن يبقى قلقًا ، فهنا يعمل بما لا ريبة فيه فيعمل بالأقل فإذا شك هل هى ثلاث أو أربع فليجعلها ثلاثًا وهكذا .

فهذا الحديث أصلٌ من أصول الفقه أن الشيء الذى تشك فيه اتركه إلى شيء لا شك فيه .

ثُمَّ إن فيه تربية نفسية وهى أن الإنسان يكون فى طُمأنينة ليس فى قلق ؛ لأن كثيرًا من الناس إذا أخذ ما يشك فيه يكون عنده قلق إذا كان حى القلب ، فإذا قطع الشك باليقين زال عنه ذلك .

قال النبى - ﷺ - : « **فإنَّ الصِّدق طُمَأنينة** » وهذا وجه الشَّاهد من هذا الحديث لهذا الباب .

فالصِّدق طمأنينة لا يندم صاحبه أبدًا ، ولا يقول ليتنى وليت ؛ لأن الصِّدق مَنجاة والصَّادقون يُنَجِّيهم الله بصدقهم وتجد الصَّادق دائمًا مطمئنًا لأنه لا يتأسف على شيء حصل أو يَحْصُل فى المستقبل لأنه قد صدق ، و « مَن صدقَ نجا » .

أما الكذب فبَيَّن النبى عليه الصلاة والسلام أنَّه ريبة ولهذا تجد أول مَن يرتاب فى الكاذب نفسه ، فيرتاب هل يصدقه الناس أو لا يُصدِّقونه .

ولهذا تجد الكاذب إذا أخبرك بالخبر قام يحلف بالله إنَّه صدق لئلا يُرتاب فى خبره مع أنَّه مَحَل ريبة .

تجد المنافقين مثلاً يحلفون بالله ما قالوا ، ولكنهم فى ريبة قال الله : ﴿**ولقد قالوا كلمة الكُفْرِ وكفروا بعدَ إسْلامِهِمْ وهَمُّوا بِمَا لَمْ ينالُوا**﴾ [التوبة : ٧٤].

فالكذب لاشك أنَّه ريبة وقلق للإنسان ويرتاب الإنسان هل عَلِمَ الناس بكذبه أم لم يعلموا ، فلا يزال فى شك واضطراب .

إذًا نأخذ من هذا الحديث أنَّه يجب على الإنسان أن يدَع الكذب إلى الصدق لأنَّ الكذب ريبة والصِّدق طمأنينة وقد قال النبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « **دعْ ما يَريبك إلى ما لا يريبك** » والله الموفق .

* * *

Marfat.com

[٥٦] **الثَّالثُ : عَنْ أبي سُفْيَانَ صَخْرِ بْنِ حَرْبٍ ،** رضي الله عنه **في حديثه الطَّوِيلِ في قِصَّةِ هِرَقْلَ ، قالَ هِرَقْلُ : فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ ـ يَعْنِى النَّبيَّ ـ** ﷺ **ـ قالَ أَبُو سُفْيَانَ : قُلْتُ يَقُولُ : « اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاةِ ، والصِّدْقِ ، والْعَفَافِ ، والصِّلَةِ » مُتَفَقٌ عليه .**

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي سفيان بن حرب ، وكان أبو سفيان مُشركًا لم يُسلم إلا متأخرًا وفيما بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وصلح الحديبية كان في السنة السادسة من الهجرة وفتح مكة كان في السَّنة الثامنة من الهجرة .

قدم أبو سفيان ومعه جماعة من قريش إلى هرقل في الشَّام ، وهرقل كان ملك النَّصارى في ذلك الوقت وكان قد قرأ في التَّوراة والإنجيل وعرف الكتب السَّابقة وكان مَلِكًا ذكيًا ، فلما سمع بهم أى بأبي سفيان ومن معَه وهم قادمون من الحجاز دعَا بهم وجعل يسألهم عن حال النبي ـ ﷺ ـ وعن نَسَبه وعن أصْحابه وعن تَوْقيرهم له ، وعن وَفَائه ﷺ ـ وكلما ذكر شيئًا أخبروه عرف أنه النبي الذى أخبرت به الكتب السَّابقة ، ولكنه والعياذ بالله شحَّ بمُلكه فلم يُسلم للحكمة التي أرادها الله عز وجل .

لكن سأل أبا سفيان عما كان يأمرهم به ـ ﷺ ـ فأخبر بأنه يأمرهم أن يَعْبدوا الله ولا يُشركوا به شيئًا ، فلا يعبدوا غير الله لا مَلَكًا ، ولا رَسُولاً ، ولا شجرًا ، ولا حجرًا ، ولا شَمْسًا ، ولا قمرًا ، ولا غير ذلك ، فالعبادة لله وحده وهذا الذي جاء به الرسول ـ ﷺ ـ قد جاءت به الرُّسل كلهم ، قال الله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] . أى : اعبدوا الله واجتنبوا الشرك .

هذه دعوة الرسل فجاء النبي ـ ﷺ ـ بما جاءت به الأنبياء من قبله .

ويقول : « **اتْرُكُوا ما كانَ عَلَيْه آباؤكُم** » انظر كيف الصَّدع بالحق ، كل ما كان عليه آباؤهم من عبادة الأصنام أمرهم النبي ـ ﷺ ـ بتركه ، وأمَّا ما كان عليه آباؤهم من الأخلاق الفَاضلة فإنه لم يأمرهم بتركه ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فقال سبحانه مكذبًا لهم : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾

---

[٥٦] صحيح : رواه البخاري (٧) ، ومسلم (١٧٧٣) .

Marfat.com

[الأعراف : ٢٨] .

فالحاصل أن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام أمر أمَّته الذين باشر دعوتهم أن يَدَعوا ما كان عليهم آباؤهم من الإشرك بالله .

وقوله : « **وكان يأمُرنا بالصلاة** » الصَّلاة صِلَةٌ بين العبد وبين ربه وهي آكد أركان الإسلام بعد الشَّهادتين وبها يتميز المؤمن من الكافرِ ، فهِي العهد التي بيننا وبين المشركين والكافرين كما قال النبي عليه الصَّلاة والسَّلام : « **العهدُ الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** » ، [(١)] أى كفر كفراً مُخرجًا عن الملة .

لأنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « **العهد الذى بيننا وبينهم الصَّلاة** » ، فهذا حدٌّ فاصل بين المؤمنين وبين الكافرين .

ولقد أبعد النَّجعة من قال من العلماء أن المراد بالكفر هنا الكفر الأصغر كالذى فى قوله - ﷺ - : « **اثنَتَان فى النّاسِ هُما بهما كفر** » [(٢)] لأنَّه من تَدبر الحديث علم أن هذا تأويل خاطئ ، وأن الصَّواب المتعينَ أن المراد بالكفر هنا الكفر الأكبر المُخرج عن الملة ؛ لأنَّ الفاصل بين الإيمان والكفر لابد أن يُميِّز أحدَهما الآخر ، وإلا لما صَحَّ أن يكون فاصلاً .

الحدود التى بين أرضين إحداهما لِزَيد والأُخرى لعمرو فإن هذه الحدود فاصلة لا تدخل أرض أحدهما فى الأخرى ، وكذلك الصلاة ، حدٌّ فاصل مَن كان خارجًا منها فليس داخلاً فيما وراءها .

إذًا الصَّلاة من بينِ سائر الأعمال إذا تركها الإنسان فهو كافر ، لو ترك الإنسان صيام رمضان وصار يأكل ويَشْرب بالنَّهار ولا يُبالى لم نقل إنه كافر .

لكنِ لو ترك الصَّلاة قلنا إنه كافر ، ولو ترك الزَّكاة وصار لا يُزكى لم نقل إنه كافر ، ولو لم يَحُج مع قدرته على الحج لم نقل إنه كافر ، لكن لو ترك الصَّلاة قلنا إنه كافر .

قال عبد الله بن شقيق - رحمه الله - وهو من المشهورين من التابعين : « كان أصحابُ الرَّسول - ﷺ - لا يَرَون شيئًا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة » [(٣)] .

إذًا الصَّلاة التى كان الرسول عليه الصلاة والسلام يأمر بها إذا تركها الإنسان فهو كما لو ترك التَّوحيد أى يكون كافراً مُشركًا والعياذ بالله ، وإلى هذا يُشير حديث جابر الذى

---

(١) صحيح : رواه الترمذى (٢٦٢١) ابن ماجة (١٠٧٦) أحمد (٥/٣٤٦) .وصححه الالباني فى المشكاة (٥٧٤).

(٢) صحيح : رواه البخارى (٣٠٥٨) مسلم (٦٧) .

(٣) صحيح : رواه الترمذى (٢٦٢٢) صحيح الترغيب (١/٢٢٧) .

Marfat.com

رواه مسلم عن جابر عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **بين الرجل وبين الكفر والشرك ترك الصلاة**»[١] .

وقوله : «**وكان يأمرنا بالصدق** » وهذا هو الشاهد من الحديث وهذا كقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ [التوبة : ١١٩] .

والصدق قسمان : صدق مع الله ، وصدق مع عبد الله ، وضدُّ الصدق الكذب ، وهو الإخبار بخلاف الواقع ، وهو من أخلاق المنافقين ، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **آيةُ المُنافق ثلاثٌ ـ وذكر منها ـ إذا حدَّث كذَبَ** »[٢] وبعض الناس والعياذ بالله مُبتَلَى بهذا المرض ، فلا يستأنس ولا ينشرح صدرُه إلا بالكذب .

إن حدثك بحديث إذا هو كاذب ، إن جلس فى مجلس جعل يفتعل الأفاعيل ليضحك بها الناس .

وقوله : « **العفاف** » أى : العِفَّة والعِفَّة نوعان : عفة عن شهوة الفرج ، وعِفة عن شهوة البطن .

أما العفَّة الأولى : فهى أن يبتعد الإنسان عمَّا حرم عليه من الزِّنى ووسائله وذرائعه ؛ لأنَّ الله عز وجل يقول : ﴿ولا تقربوا الزنىٰ إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ [الإسراء : ٣٢] .

وأوْجَبَ على الزَّانى أن يُجلد مائة جلدة ويُطْرد عن البلد سَنَة كاملة إن كان لم يتزوج من قبل ، أما إذا كان قد تزوج وجامع زوجته وزَنى بعد ذلك فإنَّه يُرْجَم رجمًا بالحجارة حتى يموت كل هذا ردْعًا للناس عن أن يقَعوا فى هذه الفاحشة ؛ لأنها تُفسد الأخلاق والأديان والأنساب وتوجد أمراضًا عظيمة ظهرت آثارها فى هذا الزمن لما كثرت فاحشة الزنى والعياذ بالله .

ومَنع الله كل ما يُوصِّل إليه ويكون ذريعة له فمَنَع المرأة أن تخرج متبرِّجة فقال : ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولىٰ﴾ [الأحزاب : ٣٣] . فأفضل مكان للمرأة أن تبقى فى بيتها ولا تخرج إلا إذا دعت الحاجة أو الضَّرورة إلى ذلك ، فلتخرج كما أخبرها الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام تَفِلَة[٣] ، أى : غير مُتطيبة ولا متبرجة .

كذلك أمر باحتجاب المرأة إذا خرَجَت عن كل رجل ليس من محارمها والحجاب

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٨٢) واحمد (٣/٣٨٦) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٣٣) مسلم (٥٩) .

(٣) [illegible] أبو داود (٥٦٥) أحمد فى مسنده (٢/٤٣٨) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٤٥٧).

Marfat.com

الشَّرعى هو أن تُغَطى المرأة جميع ما يكون النَّظر إليه ذريعة إلى الفاحشة وأهمه الوجه، فإنَّ الوَجْه يجب حَجْبُه عن الرِّجال الأجانب أكثر مما يجب حَجْب الرَّأس وحجب الذِّراع وحَجْب القدم ، ولا عبرة بقول مَن يقول : إنَّه يجوز كَشْفُ الوجه لأن قوله هذا فيه شىء من التَّناقض .

كيف يجوز للمرأة أن تكشف وجهها ويجب عليها عند هذا القائل أن تَسْتُر قدميها أيهما أعظم فتنة وأيُهما أقرب إلى الزِّنى أن تكشف المرأة وجهها أو قدميها ؟ كل إنسان عاقل يفهم ما يقول ، يقول : إن الأقرب إلى الزِّنى والفتنة أن تكشف عن وجهها ، ومنها ألا تخرج المرأة متطيبة ، فإن خرجت متطيبة فقد أتت بوسيلة الفتنة منها وبها ، فيفتتن الناس بها ، وهى تفتتن أيضًا حيث تمشى فى الأسواق وهى متطيبة نسأل الله العافية . ولا يجوز لأحد أن يُمكن أهله من ذلك أبدًا وعليه أن يتفقدهم سواء كانت الزوجة أو البنت أو الأخت أو الأم أو غير ذلك .

أما النَّوع الثَّانى : من العفاف فهو العفَاف عن شهوة البَطن أى : عن ما فى أيدى النَّاس كما قال الله تعالى : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة : ٢٧٣] . أى : من التعفف عن سؤال الناس، بحيث لا يسأل الإنسان أحدًا شيئًا ؛ لأن السُّؤال مَذَلَّة والسَّائل يده دُنيا سُفلى والمُعطى يده عُليًا فلا يجوز أن تسأل أحدًا ، أى : إلا ما لابُدَ منه كما لو كان الإنسان مضطرًا أو مُحتاجًا حاجة شبه ضَرُورية فَحينئذ لا بأس أن يسأل .

أما بدون حاجة مُلحة أو ضرورة فإن السُّؤال محرَّم ، وقد وردت أحاديث فى التَّحذير منه حتى أخبر النَّبى عليه الصلاة والسلام أن السائل يأتى يوم القيامة وما فى وجهه مُزْعَةُ لَحمٍ قد ظهر منه العَظْم أمام الناس فى هذا المقام العظيم المشهود .

ثم إن الصَّحابة ﷺ بايعوا النبى ـ ﷺ ـ على ألا يسألوا الناس شيئًا حتى يكون سَوْطُ أحَدِهم يسقُط من على راحلته ولا يقول لأحد ناولنى السَّوط ، بل ينْزل ويأخذ السَّوط .

والإنسان الذى أكرمه الله بالغنى والتَّعَفُّف لا يعرف قدر السؤال إلا إذا ذلَّ أمام المخلوق .

كيف تَمُد يدَكَ إلى مخلوق وتقول له : أعطنى وأنت مثله ، « **وإذَا سَأَلْتَ فاسأل الله، وإذا استعَنتَ فاستَعِن بالله** » (١) .

وقوله : « الصلة » ، هذا هو الخامس .

---

(١) صحيح : رواه الترمذى (٢٥١٦) وأحمد (١/ ٢٩٣) وصححه الألبانى فى المشكاة (٥٣٠٢) .

Marfat.com

والصِّلة أن تَصل ما أمر الله به أن يُوصل من الأقارب الأدْنَى وأعْلاهم الوَالدان ، فإنَّ صلة الوالدين بِرٌّ وصلة ، والأقارب لهم من الصلة بقدر ما لهم من القرب ، فأخُوك أوكد صلة من عَمك وعَمك أشدُّ صلة من عمٍّ أبيك وعلى هذا فَقس .

والصِّلة جاءت فى الكتاب والسُّنة غير مُقَيَّدة ، وكُلّ ما جاء فى الكتاب والسُّنة غير مقيد، فإنه يحمل على العُرف ، فما جرى العرف على أنَّه صلة فهو صلة .

وهذا يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان والأماكن ، مثلاً إذا كان قريبك مُسْتَغنيًا عنك وصَحيح البدن وتسمع عنه أنَّه لا يحتاج إلى شيء ، فهذا صلته لو تحددت بشهر أو شهر ونصف وما أشبه ذلك فإن هذه صلة بعرفنا .

وذلك لأن الناس والحمد لله قد استغنى بعضهم عن بعض ، وكل واحد منهم لا يشره على الآخر ، لكن لو كان هذا الرَّجل قريبًا جدًا كالأب والأم والأخ والعم فإنه يحتاج إلى صِلَة أكثر ، وكذلك لو كان فقيرًا فإنه يحتاج إلى صِلة أكثر ، وكذلك لو مَرض فإنه يحتاج إلى صلة أكثر وهكذا .

المهم أن الصِّلة عندما جاءت فى القرآن غير مُقَيَّد فإنَّه يتبع فى ذلك العُرف ويختلف هذا باختلاف الأمور التى ذكرنا .

وقد وردت النُّصوص الكثيرة فى التَّرغيب فى وصلها والتَّرهيب من قطعها .

* * *

[٥٧] **الرَّابعُ** : عَنْ أبى ثَابت ، وَقيلَ : أبى سَعد ، وَقيلَ : أبى الْوَليد ، سَهْل ابن حُنَيْف ، وَهُوَ بَدْرِىٌّ رضي الله عنه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « **مَنْ سَأَلَ اللَّه تعالى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِه** » رواه مسلم .

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف - رحمه الله - فى باب الصدق والشاهد منه قوله : « **مَنْ سَأَلَ الله تعالى الشَّهادة بصدق** » والشهادة مرتبة عالية من الصديقية كما قال الله سبحانه : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء : ٦٩] .

منها : الشهادة بأحكام الله عز وجل على عبادة الله وهذه شهادة العلماء التى قال الله

[٥٧] صحيح : رواه مسلم (١٩٠٩) .

Marfat.com

فيها : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ﴾[آل عمران : ١٨] .

والشهادة أنواع كثيرة :

وقد ذهب كثير من العلماء فى تفسير قوله : ﴿ وَالشُّهَدَاءِ ﴾إلى أنهم العلماء ولا شك أنَّ العلماء شُهَدَاء ، فيشهدون بأنَّ الله تعالى أرسل رسوله بالهُدَى ودين الحق ويَشْهَدون على الأمة بأنَّها بلغت شريعة الله ويشهدون فى أحكام الله هذا حلال وهذا حرام ، وهذا واجب، وهذا مستحب ، وهذا مكروه ، ولا يعرف هذا إلا أهل العلم ، لذلك كانوا شهداء .

ومن الشهداء أيضًا : مَن يُصَاب بالطَّعن والبَطن والحَرق والغرق وما أشبههم .

ومن الشهداء الذين قُتلوا فى سبيل الله .

ومن الشُّهداء الذين يُقْتلون دون أمْوالهم ودون أنفسهم كما قال النَّبى عليه الصلاة والسلام حينما سأله رجل وقال : « **أرَأَيتَ يا رسول ، إن جاءنى شَخَصُ يَطْلب مَالى** ـ أى عنوة ـ **قال : لا تُعْطه ، قال : أرَأيتَ إن قاتلنى ؟ قال : قَاتله ، قال : أرأيتَ إن قَتَلْتُه ؟ قال : هو فى النار** ـ لأنَّه معتدٍ ظالم ـ **قال : أرأيت إن قتلنى ؟ قَالَ : إن قَتَلَكَ فَأنتَ شهيدٌ** » (١) .

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **مَنْ قُتِلَ دونَ ماله وأهله فهو شهيد** » (٢) .

ومن الشهداء أيضًا : مَن قُتلوا ظُلمًا ، كأن يعتدى عليه إنسان فيقتله غيلة ظُلمًا فهذا أيضًا شهيد .

ولكن أعلي الشُّهداء هم الذين يُقتلون في سبيل الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران : ١٦٩ـ ١٧١] ، وهؤلاء هم الذين قاتلوا لتكون كلمة الله هى العُلْيَا ، فما قاتلوا لحظوظ أنفسهم ، وما قاتلوا لأموالهم وإنما قَاتَلوا لتكون كلمة الله هى العُلْيَا كما قال ذلك النبى عليه الصلاة والسلام حين سُئل عن الرَّجل يُقَاتل شَجَاعة ويقاتل حَمِيَّةً ويُقَاتل ليرى مكَانَه أىُّ ذلك فى سبيل الله ، قال : « **مَن قَاتلَ لتكون كلمةُ الله هى العليا فَهو فى سَبيلَ الله** » (٣) .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (١٤٠) أحمد (٣/ ٤٢٣) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٢٤٨٠) مسلم (١٩٠٤) .

(٣) صحيح : رواه البخارى (٢٨١٠) مسلم (١٩٠٤) .

Marfat.com

هذا ميزان عدل وضعه النبى - ﷺ - يَزِنُ الإنسان به عمله .

فمن قَاتل لهذه الكلمة فهو في سبيل الله ، إن قُتلت فأنت شهيد ، وإن غَنمت فأنت سَعيد ، كما قال الله سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ إما الشَّهادة وإما الظَّفر والنَّصر ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة : ٥٢] .

أى : إما أن الله يعذبكم ويقينا شركم كما فعل الله تعالى بالأحزاب الذين تجمَّعُوا على المدينة يُريدون قتال الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا وألقى فى قلوبهم الرُّعب .

وقوله : ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ كما حَصَل فى بدر ، فإن الله عَذَّب المشركين بأيدى الرَّسول - ﷺ - وأصحابه .

فإذا سأل الإنسان ربَّه وقال : اللَّهم إنِّى أسألك الشَّهادة فى سبيلك ـ ولا تكون الشَّهادة إلا بالقتال لتكون كلمة الله هى العليا ـ فإن الله تعالى إذا عَلِم منه صِدّقَ القول والنِّيَّة أنزله مَنَازل الشهداء ، وإن مات على فراشه .

بقى علينا الذى يُقاتل دفاعًا عن بلده ، هل هو فى سبيل الله أوْ لا ؟

نقول : إن كنت تُقاتل عن بلدك لأنها بلد إسْلامىٌ فتريد أن تَحميها من أجل أنها بَلَدٌ إسلامى فهذا فى سبيل الله ؛ لأنَّك قاتلت لتكون كلمة الله هى العُليا .

أما إذا قاتلت لأجل أنَّها وطن فقط فهذا ليس فى سبيل الله ؛ لأن الميزان الذى وَضَعه النَّبى عليه الصلاة والسلام لا يَنْطَبِق عليه وقد تقدم الكلام على هذه المسألة والله الموفق .

* * *

[٥٨] الخامسُ :عَنْ أبى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « غزَا نَبىٌّ منَ الأنبيَاء صَلَوَاتُ الله وسلامه عَلَيْهِمْ فَقَالَ لقَوْمه : لا يَتْبعنّى رجل مَلَكَ بُضْعَ امْرأة ، وَهو يُريدُ أنْ يَبْنَى بها ولَمَّا يبن بهَا ، ولا أحدٌ بَنَى بُيُوتاً لَمْ يرْفَعْ سُقُوفَها ، ولا أحَدٌ اشْتَرى غَنماً أوْ خَلفات وَهُوَ يَنْتَظرُ أوْلادَهَا ، فَغزَا فَدنَا منَ القَرْيَة صَلاةَ العَصْر أوْ قَريباً منْ ذلكَ ، فَقَالَ للشَّمْس : إنَّك مَأمُورَةٌ وأنَا مَأمُورٌ ، اَللَّهُمَّ احْبسْهَا عَلَيْنَا ، فَحُبسَت حَتَّى فَتحَ اللهُ عَلَيْه ، فَجَمعَ الغَنَائم ، فَجَاءَتْ ـ يَعْنى النَّارَ ـ لتَأكُلهَا فَلَمْ تَطعَمْهَا ، فَقَال : إنَّ فيكُمْ غُلُولا ، فَلْيُبَايِعْنى منْ كُل قَبيلة رَجُلٌ ، فَلَزقَتْ يَدُ رَجُلٍ بيَده فَقَالَ :

[٥٨] صحيح : رواه البخارى (٣١٢٤) ، ومسلم (١٧٤٧) .

Marfat.com

فيكُمُ الغُلُولُ ، فلتبَايعْنى قبيلَتُكَ ، فَلَزقَتْ يَدُ رَجُلَيْن أوْ ثلاثة بيَده فقَالَ : فيكُمُ الغُلُولُ. فَجاؤوا برأسِ مثْلِ رأس بقَرة من الذَّهَب ، فوَضعَهَا فجاءَت النَّارُ فأكَلَتْهَا ، فلَمْ تَحلَّ الغَنائِمُ لأحدٍ قَبْلَنَا، ثُمَّ أَحَلَّ اللّه لنَا الغَنائمَ لَمَّا رأى ضَعْفَنَا وعجْزَنَا فأحلَّها لنَا » متفقٌ عليه .

« الْخَلِفَاتُ » بفتح الخاءِ المعجمةِ وكسرِ اللامِ : جَمْعُ خَلِفَةٍ ، وَهِي النَّاقَةُ الحاملُ.

الشرح

هذا الحديث الذى نقله المؤلف فيه آيات عظيمة ، فإن النبى - ﷺ - حدَّث عن نَبيٍّ من الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام أنَّه غزَا قوْمًا أُمر بجهادهم لكنه عليه السَّلام مَنَع كل إنسان عَقَد على امرأة ولم يدخل بها ، وكل إنسان بَنَى بيْتًا ولم يَرْفَع سقفه ، وكل إنسان اشترى غنمًا خلفاتٍ وهو ينتظر أولادها ، وذلك لأن هؤلاء يكونون مشغولين بما أهمهم ، فالرَّجل المتزوج مشغول بزوجته التى لم يَدخل بها ، فهو فى شوق إليها ، وكذلك الرجل الذى رفع بيتًا ولم يرفع سقفه هو أيضًا مشتغل بهذا البيت الذى يُريد أن يسكنه هو وأهله ، وكذلك صاحب الخلفات والغنم مشغول بها ينتظر أولادها .

والجهاد ينبغى أن يكون الإنسان فيه متفرغًا ليس له هَمٌّ إلا الجهاد ، ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ [الشرح : ٧] ، أى : إذا فرغت من شئون الدُّنيا بحيث لا تَشْتَغل بها فانصب للعبادة .

وقال النبى عليه الصلاة والسَّلام : « **لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان**»(١) .

فدل على أنه ينبغى للإنسان إذا أراد طاعة أن يُفرِّغ قلبه وبَدَنه لها حتى يأتيها وهو مُشْتَاق إليها وحتى يُؤدِّيها على مهل وطمأنينة وانشراح صَدْر .

ثم إنَّه غزا ، فنزل بالقوم بعد صلاة العصر ، وقد أقبل الليل وخاف إن أظلم اللَّيل ألا يكون هناك انتصار فجعل يُخاطب الشَّمس يقول : أنت مامورة وأنا مأمُور ، لكن أمر الشمس أمر كَوْنى وأما أمرهُ فأمر شرعى .

فهو مأمور بالجهاد والشمس مَأمورة أن تسير حيث أمرها الله عز وجل ، قال الله : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] منذ خلقها الله عز وجل وهى سائرة حيث أُمِرَت لا تتقدَّم ولا تتاخر ولا تنْزل ولا ترتفع .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٥٦٠) وابو داود (٨٩) .

Marfat.com

قال : « اللَّهم فاحْبسْهَا عنَّا » فحبس الله الشَّمس ولم تَغب فى وقتها حتى غزا هذا النَّبى وغَنمَ غنَائم كثيرة ولَما غنِمَ الغنائم وكانت الغنائم فى الأُمم السَّابقة لا تحلُّ للغُزاة ، بل حِلُّ الغنائم من خصائص هذه الأمة ولله الحمد .

أما الأُمم السَّابقة فكانوا يجمعون الغنائم فتنْزل عليها نَارٌ من السَّماء فتحرقها ، فجمعت الغنائم فلم تَنْزل النَّار وتأكلها ، فقال : فيكم الغلول .

ثم أمر من كل قبيلة أن يتقدم واحد يُبايعه على أنَّه لا غلول فلما بايعوه على أنه لا غلول لزقت يد أحد منهم بيد النبى عليه السلام .

فلما لزقت قال : فيكم الغلول ـ أى القبيلة هذه ـ ثم أمَرَ بأن يُبايعه كل واحد على حدِة من هذه القبيلة ، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة منهم فقال : فيكم الغلول فجاءوا به .

والغلول هو السَّرقة من الغنيمة بأن تخفى شيئًا منها ، فإذا هم قد أخفوا مثل رأس الثَّور من الذَّهب فلما جيء به ووضع مع الغنائم أكلتها النَّار ، وهذه من آيات الله عز وجل .

ففى هذا الحديث دليل على فوائد عديدة :

منها : أن الجهاد مشروع فى الأمم السَّابقة كما هو مشروع فى هذه الأمَّة ، وقد دلَّ على هذا كتاب الله فى قوله : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران : ١٤٦] . وكذلك قصة طالوت وجالوت وداود عليه الصَّلاة والسَّلام فى سُورة البقرة ، الآيات : ٢٤٦ ـ ٢٥٢ .

وفيها : دليل على عَظمة الله عزَّ وجل ، وأنَّه هو مُدبِّر الكون وأنه سُبحانه وتعالى يُجرى الأمور على غير طَبَائِعها إما بتأييد الرَّسول وإمَّا بدفع شَر عنه وإلا لمصلحة فى الإسلام .

المهم أن آيات الأنبياء ثفيها تأييدٌ لهم بأى وجه كانت ، وذلك لأن الشمس حَسَب طبيعتها التى خلقها الله عليها تجرى دائمًا ولا تقف ولا تتقدَّم ولا تتأخر إلا بأمر الله ، لكن الله هنا أمرها أن تنحبس فَطَال وقت ما بين صلاة العصر إلى المغرب حتى فَتَح الله على يد النبى .

وفيها : رَدٌّ على أهل الطَّبيعة الذين يقولون : إن الأفلاك لا تَتَغيَّر . سبحان الله مَن الذى خَلَق الأفلاك ؟ الله عز وجل ، فالذى خَلَقها قَادرٌ على تغييرها ، لكن هم يرَون أن هذه الأفلاك تجرى بِحَسَب الطَّبيعة ، ولا أحد يتصرَّف فيها والعياذ بالله لأنَّهم يُنكرون

Marfat.com

الخالق.

وقد دلَّت الأدلَّة من الكتاب والسنة على أن الأفلاك تَتَغيَّر بأمر الله ، فهذا النبى دعا الله ووقفت الشَّمس .

ومحمد رسول الله - ﷺ - طلب منه المشركون آية تدل على صدّقه فأشار - ﷺ - إلى القمر فَانْشَقَّ شِقتين وهُم يُشاهدونه ، شقة على الصفا وشقة على المروة .

وفى هذا يقول الله عز وجل : ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ① وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر : ١ ، ٢] .

قالوا : هذا محمد سحرنا والقمر لم يَنْشق ، بل أفْسَد نظرنا وعُيوننا ؛ لأن الكافر والعياذ بالله الذى حقَّت عليه كلمة الله لا يؤمن كما قال الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ⑨⑥ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] .

القلوب بين أُصبعين من أصابع الرحمن يُقلبها كيف يشاء ، ويصرفها كيف يشاء ، فالذى حقَّت عليك كلمة العذاب لا يُؤمن أبدًا ولو جئتهُ بكل آية ولهذا طلبوا من الرَّسول آية وأراهم هذه الآية العجيبة التى لا يقدر أحدٌ عليها ، وقالوا : ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ② وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر ٢ ، ٣] .

وفيها : بيان نعمة الله على هذه الأمَّة حيث أحل لها المغانم التى تغنمها من الكفار كانت حَرَمًا على مَن سبقنا ؛ لأنَّ هذه الغنائم فيها خير كثير على الأُمَّة الإِسلامية تُساعد على الجهاد وتُعينها عليه .

فهم يَغْنَمون من الكفار أموالاً يُقاتلونهم بها مرة أخرى ، وهذا من فضل الله كما قال النبى - ﷺ - **« أُعطيتُ خَمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحد من الأنبياء قبلى ، وذَكر أنه أُحلَّت له الغنائم ولم تَحل لأحد كان قَبْلَهُ »** [(١)] .

وفى الحديث من آيات الله : أن الذين غلوا لزقت أيديهم بأيدى النَّبى وهذا خلاف العادة ، ولكنَّ الله على كل شىء قدير ؛ لأنَّ العادة إذا صافحت اليد يَدًا أُخرى أنها تنطلق.

ومنها : أن الأنبياء لا يعلمون الغَيب وهو واضح إلا ما أطْلَعَهُم عليه ، أما هم فلا يَعلمون الغيب .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٣٣٥) مسلم (٥٢١) .

Marfat.com

وشواهد هذا كثيرة فيما جَرى لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام حيث يَخفَى عليه أشياء كثيرة ، كما قال الله : ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم : ٣] أمَّا هو فلا يعلم الغيب .

وأصحابه يكونون معه يخفون عليه ، فكان معه ذات يوم أبو هريرة فَانْخَنَس وكَان عليه جَنَابة ، فقال له عندما رَجَع مِن غُسْل الجَنَابة : « أينَ كُنت يا أبا هريرة ؟ » ، إذًا فالرسول لا يعلم الغيب ولا أحد من الخلق يعلم الغيب كما قال الله عز وجل : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن : ٢٦ ، ٢٧] .

ومنها : دليلٌ على قدرة الله من جهة أن هذه النَّار لا يدرى مَن أين جَاءت ، بل تنْزل من السَّماء ، لا هى من أشجار الأرض ولا من حَطَب الأرض ، بل من السماء يأمرها الله فَتَنْزِل فتأكل هذه الغنيمة التى جُمِعت والله الموفق .

***

[٥٩] السادسُ : عن أبى خالد حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « **البَيِّعَانِ بالخِيَار ما لم يَتفَرَّقَا ، فإن صَدَقا وبيَّنا بُورِكَ لَهُما فى بيعهِمَا ، وإن كتَمَا وكَذَبَا مُحِقَتْ بركَةُ بيْعِهِما** » متفقٌ عليه .

الشرح

« البيعان » البائع والمشترى ، وأطلق عليهما اسم البيِّع من باب التَّغلب ، كما يُقال : القمران للشمس والقمر والعُمران لأبى بكر وعمر .

وقوله : « بالخيار » أى : كل منهما يختار ما يُريد « ما لم يتفرقا » أى ما داما فى مكان العقد لم يتفرَّقا فإنهما بالخيار .

ومثاله : رجل باع على آخر سيارة بعشرة آلاف فما داما فى مكان العقد ولم يتفرَّقا فهما بالخيار إن شاء البائع فَسَخَ البيع ، وإن شاء المُشترى فسخ البيع ، وذلك من نعمة الله سبحانه وتعالى وتوسيعه على العباد ؛ لأن الإنسان إذا كانت السِّلعة عند غيره صارت غالية فى نفسه يحب أن يَحْصُل عليها بكل وسيلة ، فإذا حصلَت له فربما تَزُول رغبته عنها ؛ لأنه أدركها ، فجعل الشَّارع له الخيار لأجل أن يتَروى ويتزود بالتأنى والنَّظر .

---

[٥٩] صحيح : رواه البخارى (٢٠٧٩) ، ومسلم (١٥٣٢) .

Marfat.com

فما دام الرَّجلان لم يتفرقا فهما بالخيار وإن طال الوقت لعموم قوله : « ما لم يتفرقا » ، وفى حديث ابن عمر « **أو يُخَيِّر أحدُهُما الآخر** » أى أو يقول أحدهما للآخر الخيار لك وحدك ، فحينئذ يكون الخيار له وحده ، والثانى لا خيار له ، أو يقولا جميعًا لا خيار بيننا .

فالصور أربع :

١ ـ إمَّا أن يثبت الخيار لهما وذلك عند البيع المُطلق الذى ليس فيه شرط .

٢ ـ وإما أن يتبايعا على ألا يكون الخيار لواحد منهما وحينئذٍ يلزم البيع لمجرد العقد ولا خيار لأحد .

٣ ـ وإما أن يتبايعا أن الخيار للبائع وَحْدَهُ دون المُشْتَرى ، وهنا يكون الخيار للبائع والمشترى لا خيار له .

٤ ـ وإمَّا أن يَتَبَايعا على أن الخيار للمشترى والبائع لا خيار له وحينئذ يكون الخيار للمُشْترى وليس للبائع خيار . وذلك لأنَّ الخيار حق للبائع والمُشْتَرى ، فإذا رَضِيَا بإسقَاطه أو رَضِيَ أحدهما دون الآخر فالحق لهما لا يَعْدُوهما ، وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام: « **المسلمون عَلَى شُرُوطهم إلا شَرْطا أحَلَّ حرَامًا أوْ حَرَّم حَلالاً** »[1] وقول النَّبى عليه الصلاة والسَّلام : « **ما لم يَتفرقا** » لم يبين التَّفرق ولكن المراد التَّفرق بالبدن ، فإن تفرقا بطل الخيار ولزم البيع ، قال النبى ـ ﷺ ـ : « **فإنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُما فى بَيْعِهما** » وهذا هو الشَّاهد من الحديث فى الباب ؛ لأنَّ الباب باب الصِّدق .

قوله : « **فإن صَدَقَا وبيَّنا** » إنّ صدقا فيما يَصِفان السِّلعة به من الصِّفات المرغوبة ، وَبَيَّنا فيما يَصِفان به السِّلعة من الصِّفات المكروهة ، فمثلاً لو باع عليه هذه السَّيَّارة ، وقال : هذه السَّيَّارة جديدة موديلها كذا ونظيفة ويَمْدَحُها بما ليس فيها نقول هذا كذب فيما قال ، وإذا بَاعهُ السَّيَّارة وفيها عَيْبٌ ولم يخبره بالعيب نقول : هذا كتم ولم يُبين والبركة فى الصِّدق والبيان ، فالفرق بين الصدق والبيان أن الصدق فيما يكون مرغوبًا من الصِّفَات والبَيان فيما يكون مكروهًا من الصِّفات ، فكتمان العيب هذا ضد البيان ووصفه السِّلعة بما ليس فيها هذا ضد الصدق .

ومثال آخر : باع عليه شاة وفيها مرض غير بين لكنه كتمه نقول : هذا لم يُبين ، وإذا وصفها بما ليس فيها من الصِّفَات المطلوبة فهذا قد كذب ولم يَصْدُق .

---

(١) صحيح : رواه الترمذى (١٣٥٢) ابن ماجه (٢٣٥٣) وصححه الألبانى فى الإرواء (١٣٠٣) .

Marfat.com

ومنه ما يفعله بعض النَّاس الآن نسأل الله العافية يجعل الطَّيب من [التمر] (١) فوق والرَّدىء أسفَل ، فهذا لم يُبَن ولم يَصْدُق ، لم يُبيِّن لأنَّه ما بَيَّن التَّمر المعيب ولم يصدق؛ لأنَّه أظهر التمر بمظهر طيب وليس كذلك .

❊ ❊ ❊

٥ - باب المراقبة

قال الله تعالى : ﴿ الَّذى يَراكَ حينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجدينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٩، ٢٢٠) ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد: ٤) ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ ﴾ (آل عمران: ٥) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ (الفجر : ١٤) وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ﴾ (غافر: ١٩) . والآياتُ فى البَابِ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ .

الشرح

لما ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ باب الصِّدق وَذَكَرَ الآيات والأحاديث الوَارِدة فى ذلك أَعْقَبَ هذا بباب المُرَاقَبَة . والمراقبة لها وجهان :

الوجه الأول : أن تُرَاقِب الله عز وجل .

والوجه الثانى : أن الله تعالى رَقِيبٌ عليك كما قال الله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب :٥٢].

أمَّا مُرَاقَبتك لله أن تعلم أنَّ الله تعالى يعلم كُل مَا تَقُوم به من : أقوال ، وأفعال، واعتقادات .

كما قال الله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٧ ـ ٢١٩] . يراك حين تقوم ، أى : فى الليل حين يقوم الإنسان فى مكان خالٍ لا يطَّلع عليه أحد ، فالله سبحانه يراهُ . حتى ولو كان فى أعظم ظلمة وأحلَك ظلمة فإنَّ الله يراه .

وقوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أى : وأنتَ تتقلَّب فى الَّذين يسجدون لله فى هذه السَّاعة ، يعنى تقلبك فيهم ، أىَ : معهم ، فإن الله سبحانه يَرَى الإنسان حين قيامه وحين

---

(١) فى الأصل « المال » وهو خطأ .

Marfat.com

سجوده .

وذكر القيام والسجود ؛ لأن القيام فى الصَّلاة أشرف من السُّجود بذكره ، والسُّجود أفضل من القيام بهيئته .

أما كون القيام أفضل من السُّجود بذكره ؛ فلأن الذكر المَشْرُوع فى القيام هو قراءة القرآن، والقرآن أفضل الكلام .

أما السُّجود فهو أشْرَفُ من القيام بهيئته ؛ لأن الإنسان السَّاجد أقْرَب ما يكون من ربِّه عز وجل ، كما ثَبتَ ذلك عن النَّبى- ﷺ - حيث قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُون العبد من ربه وهو ساجِد » (١) .

ولهذا أُمِرنَا أن نكثر من الدعاء فى السجود ، كذلك من مراقبتك لله أن تعلم أن الله يَسْمعك بِأى قول قلت ، كما قال الله : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] .

ومع هذا فإن الذى تتكلَّم به خيرًا كان أم شرًا مُعْلَنًا أم مسرًا فإنه يكتب لك أو عليك كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق : ١٨] . فاعلم هذا، وإياك أن تخرج من لسانك قولاً تُحاسَب عليه يوم القيامة .

اجعل دائمًا لسانك يقول الحق أو يَصْمُت كما قال النَّبى عليه الصَّلاة والسلام : « مَنْ كَانَ يُؤْمِن بالله وَبِاليَوْمِ الآخر فَلْيَقُل خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُت »(٢) .

وراقب الله فى سِرِّك وفى قَلْبك .

انظر ماذا فى قلبك ؟ من الشِّرك بالله والرِّياء ، وانحرفات ، والحقد على المؤمنين ، وبغضاء ، وكراهية ، ومحبَّة للكافرين ، وما أشبه ذلك من الأشياء التى لا يرضاها الله عزَّ وجلَّ .

راقب قلبك فإن الله يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : ١٦] قبل أن ينطق به .

فراقب الله فى هذه المواضع الثَّلاثة فى فعلك ، وفى قولك ، وفى قلبك ، حتى يتم لك المُرَاقبة ، ولهذا لما سُئِلَ النَّبى- ﷺ - عن الإِحسَان قال : « أَنْ تَعْبُد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنَّهُ يَرَاكَ »(٣) .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٤٨٢) ابو داود (٨٧٥) احمد (٢/ ٢٤١) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٦٤٧٥) مسلم (٤٧) .

(٣) صحيح : رواه مسلم (٨) ابو داود (١٦٤٩٥) احمد (١/ ٥١) .

Marfat.com

اعبد الله كأنَّكَ تَرَاهُ وتُشَاهِدهُ رأى عيَن ، فإن لم تكن تراه فانزل إلى المرتبة الثانية : «فإنَّهُ يراكَ » .

فالأول : عبادة رغبة وطمع ، والثانى : عبادة رهبة وخوف؛ ولهذا قال: «فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فلابد أن يُراقب الإنسان ربه وأن تعلم أنَّ الله رَقيب عليك ، أى شيء تَقُوله أو تَفعله أو تُضمرهُ فى سِرِّك فالله تعالى عَليم به ، وقد ذكر المؤلف من الآيات مَا يَدُلُ على هذا، فبدأ بالآية التي ذكرناها وهي قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٧ ـ ٢٢٠].

وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران :٥] شىء نكره فى سياق النَّفى فى قوله : ﴿ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ ﴾ فتعم كل شىء .

فكل شىء لا يخفى على الله فى الأرْض ولا فى السَّمَاء وقد فصل الله هذا في قوله تبارك وتعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] .

قال العلماء : إذا كانت الأوْراقُ السَّاقطة يعلمها ، فكيف بالأوْرَاق النَّامية التى يُنَبِتُها ويخلقها ! فهو بها أعلم عز وجل .

أما قوله : ﴿وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ حبة نكرة فى سياق النفى فى قوله : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ ﴾ فهى نكرة فى سياق النفى المؤكد بمن ، إذًا يشمل كل ورقة صغيرة كانت أو كبيرة .

ولنفرض أن حبة صغيرة فى ظُلمات الأرض ، وظُلمات الأرض خمسة أنواع . لنفرض أنَّ حبَّة صغيرة مُنْغَمِسَة فى طين البحر ، فَهى فى خَمْس ظُلُمات :

الظلمة الأولى : ظلمة الطين المنغمسة فيه .

الثانية : ظلمة الماء فى البحر .

الثالثة : ظلمة الليل .

الرابعة : ظلمة السَّحاب المتراكم .

الخامسة: ظُلمة المطر النَّازِل .

خمس ظُلُمات فوق هذه الحبَّة الصَّغيرة والله عزَّ وجل يعلمها .

وقوله : ﴿وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] مكتوب مبين ظاهر

Marfat.com

معلوم عند رب العالمين عز وجل .

إذًا من كان هذا سعة علمه فعلى المؤمن أن يُراقب الله سبحانه وتعالى ، وأن يخشاه فى السرِّ كما يخشاه فى العلانية ، بل الموفق الذى يَجعَل خَشية الله فى السر أعظَم وأقوى من خشيته فى العلانية ؛ لأن خشية الله فى السرِّ أقوى فى الإخلاص ؛ لأن ليس عندك أحد ، لأن خشية الله فى العَلانية ربما يقع فى قَلْبِك الرِّيَاء ومراءاة النَّاس .

فاحرص يا أخى المسلم على مُراقبة الله عز وجل ، وأن تقوم بطاعته امتثالاً لأمره واجتنابًا لنَهيه ونسأل الله العون على ذلك ؛ لأن الله إذا لم يُعِنَّا ، فإنّنا مَخذولون كما قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة : ٥] .

فإذا وُفِّق العبد للهداية والاستعانة فى إطار الشَّريعة فهذا هُو الذى أنعم الله عليه .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة : ٥ ، ٦] . لابد أن تكون العبادة فى نفس هذا الصِّراط المستقيم وإلا كانت ضَرَرًا على العبد . فهذه ثلاثَة أمُور ، هى منهج الَّذين الله عليهم .

وقوله تعال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد : ٤] الضمير ﴿ هُوَ﴾ يعود على الله ، أى الله سبحانه مع عباده أينما كانوا فى برٍّ أو بحرٍ أو جو أو فى ظلمة أو فى ضياء وفى أى حال هو معكم أينما كنتم.

وهذا يدُلُّ على كمال إحاطته عزَّ وجلْ بنا علمًا ، وقُدْرة ، وسلطانًا ، وتَدْبيرًا وغير ذلك. ولا يَعْنِى أنَّه سبحانه وتعالى معنا فى نفس المكان الذى نحن فيه ؛ لأنَّ الله فوق كل شىء كما قال الله : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] .وقال : ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] .وقال : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ ﴾ [الملك:١٦] . وقال : ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة :٢٥٥] .وقال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى :١] .إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على أنَّه فوق كل شىء ، لكنَّه عز وجل ليس كمثله شىء فى جميع نُعُوته وَصِفَاته ، هو علىٌّ فى دُنُوِّه قريبٌ فى علوه جل وعلا ، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة : ١٨٦] . . ولكن يجب أن نعلم أنَّه ليس فى الأرض لأننا لو توهمنا هذا لكان فيه إبطال لعلو الله سبحانه وتعالى .

وأيضًا فإنَّ الله سبحانه لا يَسَعه شىء من مخلوقاته : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

الكرسى مُحيط بالسَّموات والأرض كلها ، والكُرْسى هو موضع قدمى الرحمن عز وجل ، والعرش أعظم وأعظم كما جاء فى الحديث : « **إنَّ السموات السبْعُ والأرضين**

Marfat.com

السبع بالنسبة للكرسى كحلقة ألقيت فى فلاة من الأرض »(١) حلقة كحلقة المغفر صغيرة أُلقِيَت فى فلاة من الأرض ، أى مكان متَّسع ، نسبة هذه الحلقة إلى الأرض الفلاة لَيْسَ بشىء .

قال: « وإنَّ فضلَ العرش على الكُرسى كفَضْلِ الفلاةِ على هَذِهِ الحَلَقةِ » فما بالك بالخالق جلَّ وعلا !.

الخالق لا يمكن أن يكون فى الأرض ، لأنَّ سبحانه أعْظم من أن يُحيط به شىء من مخلوقاته .

واعلم أنَّ المعيَّة التى أضافها الله إلى نَفْسه تنقسم بحسب السِّياق والقرَائن . فتارةً يكون مُقْتَضاها الإحاطة بالخلق علِمًا وقُدره وسلطانًا وتدبيرًا وغير ذلك مثل هذه الآية : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد :٤] ومثل قوله : ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة :٧] .

وتارة يكون المُراد بها التهديد والإنذار كما فى قوله : ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨] . فإن هذا تهديد وإنذار لهم أن يُبيِّتوا ما لا يَرْضَى من القول يكتمونه عن الناس يَظنُّونَ أن الله لا يعلم والله سبحانه عليم بكل شىء .

وتارةً يُرَادُ بها النَّصرُ والتَّأييد والتَّثبيتُ وما أشبْه ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨] ومثل قوله : ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد :٣٥] والآيات فى هذا كثيرة .

وهذا القسم الثَّالث من أقسم المَعيَّةِ تارة يُضَافُ إلى المخلوق بالوصف ، وتارة يُضَافُ إلى المخلوق بالعين .

فقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] .هذا مُضَاف إلى المخلوق بالوَصْف ، فأى إنسان يكون كذلك فالله معه .

وتارة يكون مُضافًا إلى المخلوق بعين الشَّخص مثل قوله تعالى : ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة :٤٠] هذا مضاف إلى الشخص بعينه .

---

(١) صحيح: رواه ابن أبى شيبة فى كتاب العرش رقم (٥٨) والذهبى فى العلو (١٥٠) مختصر الألبانى وصححه الألبانى فى الصحيحة (١٠٩) .

Marfat.com

هذه مَعية للرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام ، وأبى بكر رضي الله عنه وهما فى الغَار ، لما قال أبو بكر للرَّسول : يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قَدَمَيْه لأبْصرَنا ؛ لأن قريشًا كانت تطلب الرسول - ﷺ - بكل جد ! .

مَا مِنْ جَبَل إلا صَعِدَت عَلَيْه وَمَا مِنْ وَادٍ إلا هَبَطَت فيه ، ومَا من فلاة إلا بَحثت وجعلت لِمَنْ يأتى بالرَّسول وأبى بكر مائتا بعير ، مائة للرسول ومائة لأبى بكر ، ونقب النَّاسُ وهُم يَطْلُبونهما ، ولكن الله معهما ، حتَّى وقَفُوا على الغار ، يقول أبو بكر : لَو نَظرَ أَحَدُهم إلى قَدَميه لأبصرَنَا فيقول له الرَّسول - ﷺ - : « لا تحزن إنَّ الله مَعَنَا ، فما ظَنُّك باثنين الله ثَالثهما ؟ » (١) .

والله ظننا ألا يغلبهما أحدٌ ولا يقدر عليهما أحَدٌ ، وفعلاً هذا الذى حَصَلَ ، مَا رَأَوهُمَا مع عدم المَانِع ، ما كان عش كما يقولون ولا حمامة وقعت على الغار ، ولا شجرة نَبَتَتَ على فم الغار ، ما كان إلا عناية الله عز وجل ، لأن الله معهما .

وكما فى قوله سبحانه لموسى وهارون لما أمر الله موسى وأرسله إلى فرعون هو وهارون: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه : ٤٥ ، ٤٦] .

الله أكبر : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ إذا كان الله مَعَهُمَا هَل يُمكن أن يضرهما فرعون وجنوده !

لا يمكن ! هذه معيَّة خَاصَّة مُقيَّدة بالعين : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ إلخ . المهم أنه يجب علينا أن نُؤمِن بأن الله مع الخلق ، لكنه فوق عرشه ولا يُسَاميه أحَدٌ فى صِفَاته ولا يُدانيه أحد فى صفاته، ولا يمكن أن تُورد على ذِهْنك أو على غيرِك كيف يكون الله معنا وهو فى السَّمَاء ؟ .

نقول : الله عز وجل لا يُقَاس بِخَلْقه مع أنَّ العلو والمعيَّة لا منافاة بينهما حتى فى المخلوق . فلو سألَنا سَائِلٌ : أين مَوْضع القَمَر ؟

جـ - قلنا فى السَّماء كما قال الله : ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح : ١٦] . وإذا قال: أين مَوْضع النَّجم؟

جـ - قُلْنا : فى السَّماء ، واللُّغة العربية يقول المتكلِّمُون فيها : ما زلنا نَسير والقمر معنا ، وما زلنا نسير والنَّجم معنا . مع أن القمر فى السَّماء والنَّجم فى السَّمَاء لكن هو

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٦٥٣) مسلم (٢٣٨١) .

Marfat.com

معنا ؛ لأنَّه مَا غَاب عنا . فالله معنا وهو على عَرْشه سبحانه فَوْق جميع الخلق .

ما الذى تقتضى هذه الآية بالنسبة للأمر المَسْلَكى المنهجى ؟

جـ ـ تقتضى هذه الآية بأنَّك إذَا آمَنْتَ بأنَّ الله معك ، فإنك تَتَّقيه وتراقبه ؛ لأنَّه لا يخفى عليه عز وجل حالك مَهْما كنت ، لو كنت فى بيت مُظْلم وما فيه أحد ولا حَوْلَك أحدٌ فإنَّ الله تعالى معك .

لكن ليس فى نفس المكان لكنَّه محيط بك عزَّ وجلَّ لا يخفى عليه شيء من أمرك. فتراقب الله وتخاف الله وتقوم بِطَاعَته وتترك مَنَاهِيه ، والله الموفق .

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ١٤] . وهذه الآية ختم الله بها ما ذَكره من عُقوبة عَاد : ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ٧ ـ ١٤] فبيَّن عز وجل أنه بالمرصاد لكل طاغية ، وأن كل طاغية فإن الله يقصم ظهره ويبيده ولا يُبقى له باقية .

فعاد إرم ذات العماد ، أى ذات البيوت العَظيمة المبنية على العمد القوية أعْطاهم الله قوة شديدة فاستَكْبَرُوا فى الأرض ، وقالوا : مَنْ أشدُّ منَّا قوة ؟ إلى هذا الحد ، فقال الله عز وجلٍ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] . فبين الله أنَّه هو أشدُّ منهم قوة واستدل لذلك بدليل عقلى، وهو أنَّ الله هو الذى خَلَقهم ، ولهذا قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ ﴾ ولم يقل : « أو لم يَرَوا أنَّ الله هو أشد منهم قوة » . لأنه من المعلوم بالعقل علمًا ضروريًا أن الخالق أقوى من المخلوق ، فالذى خلقهم هو أشد منهم قوة : ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت : ١٥] . فأصابهم الله عز وجل بالقَحْط الشَّديد وأمْسكت السماء ماءها فجعلوا يَسْتَسْقُون ، أى ينتظرون أن الله يُغيثهم فأرسل الله عليهم الرِّيح العَقيم فى صباح يوم من الأيام أقبلت الريح ، ريح عظيمة تحمل من الرِّمال والأتربة مَا صَار كأنه سحاب مركوم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الاحقاف : ٢٤] حكمة من الله عز وجل ، لم تأتهم الريح هكذا ، بل جاءتهم وهم يُؤَمِّلون أنَّها غيث ليكون وقعها أشدُّ . فكونُ العذاب يأتى فى حال يَتَأمَّل فيها الإنسان كَشْفَ الضَّرر يكون أعظم وأعظم . مثل ما لو مَنَّيت شخصًا بدراهم ثم سحبتها منه صار أشَدَّ وأعْظَم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ [الاحقاف : ٢٤] لأنهم كانوا يتحدَّون نبيهم إن كان عندك عذاب فأتِ به إن كنت صادقًا .

Marfat.com

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف : ٢٥] والعياذ بالله !! هاجت عليهم سبع ليال وثمانية أيام ؛ لأنها بدأت من الصباح وانتهت بالغروب ، فصارت سبع ليال وثمانية أيام حُسومًا مُتتابعة قاطعة لدَابرهم تَحسِمهم حَسْمًا حتى أنها تحمل الواحد منهم إلى عنان السماء ، ثم تَرمى بِهِ، فَصَارُوا كَأَنَّهم أَعْجَازُ نَخلٍ خَاوية ، أى مثل أصول النَّخل الخاوية ملتوين على ظهورهم والعياذ بالله كهيئة السُّجود ؛ لأنَّهم يريدون أن يتخلَّصوا من هذه الرِّيح بعد أن تحملهم وتضرب بهم الأرض ، ولكن لم ينفعهم هذا .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت :١٦] . والعياذ بالله .

أما ثَمُودُ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ هم أيضًا نفس الشَّيء عندهم عتو وطغيان وتحدٍّ لنبيهم حتى قالوا لَهُ : ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا﴾ [هود : ٦٢] . أى كنا نَرْجُوك ونظنك عاقلاً ، أمَّا الآن فأنت سَفيه ؛ لأنَّه ما من رسول أُرسل إلا قال له قومه سَاحر أوْ مجنون كما قال الله : ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات : ٥٢] .

فأنظرَهُم ثَلاثَة أَيَّام : ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود : ٦٥] . فلما تمَّت الثَّلاثة والعياذ بالله ارتجفت بهم الأرض، وصيحَ بهم فأصبَحُوا كهَشيم المحتظر ، أى : مثل سعف النخل إذا طالت عليه المدَّة صار كأنَّه هشيم محترق من الشَّمس والهواء ، صاروا كهشيم المحتظر وماتوا عن آخرهم.

أمَّا فرعون وما أدراك ما فرعون فهو ذلك الرَّجل الجبار المتكبِّر الذى طغى وأنكر الله عزَّ وجلَّ وقال لموسى : ما رب العالمين ، وقال لقومه : ما لكم من إله غيرى !! .

نعوذ بالله ، وقال لهامان وزيره : ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ يقوله تهكمًا والعياذ بالله : ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] .

وكذب فى قوله : وإنى لأظنه كاذبًا ، لأنه يعلم أنَّه صادق كما قال الله تعالى فى مُنَاظَرَته مع مُوسَى قال له موسى : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ [الإسراء :١٠٢] . التَّاء للخطاب فهى مفتوحة ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ يا فرعون : ﴿ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء :١٠٢] . ما قال ما علمت ! بل سكت فى مقام التحدى والمناظرة ، ذلك يدل على الانقطاع وعدم الجواب .

Marfat.com

وقال الله عنه وعن قومه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

فرعون وجنوده يعلمون أن مُوسى صَادِق ، لكنهم مُسْتكبِرون جَاحِدُون . ماذا حصل لهم ؟

حصل لهم هزائم أعظمها الهزيمة التى حَصَلت للسَّحرة !

جمع جميع السَّحرة فى بلاده باتفاق مع موسى عليه الصَّلاة والسَّلام وموسى هو الذى عيَّن الموعد أمام فرعون مع أنَّ موسى أمام فرعون يعتبر ضعيفًا لولا أن الله نَصَرَهُ وأيَّده.

قال لهم موسى : ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه : ٥٩] . ويوم الزِّينة يوم العيد ؛ لأنَّ الناس يتزينون فيه ويلبسون الزينة ، وقوله :﴿وَأَن يُحْشَرَ﴾ يجمع ﴿النَّاسُ ضُحًى﴾ لا فى اللَّيل فى الخفاء .

جمع فرعون جميع مَن عنده من السَّحرة من عُظمائهم وكبرائهم واجتمعوا بموسى عليه الصَّلاة والسَّلام وألقُوا حِبَالهم وعصيهم فى الأرض فصارت الأرض كلها ثَعَابين ـ حيات ـ تمشي أرهبت الناس كلهم ، حتى موسى أوجَفَ فِى نَفْسِه خِيفَةً فأيَّدَهُ الله وقال له : ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه : ٦٨ ، ٦٩] .

ألقَى ما فى يمينه وهى العصا فإذا هى تلقف ما يأفكون ، كل الحبال والعصى أكلتها هذه العصا ، سبحان الله العظيم ، وأنت تعجب : أين ذهبت العصا ؟ ليست كبيرة حتى تأكل هذه الحبال والعصى لكن الله عز وجل على كل شىء قدير ، التهمت الحبال والعصى وكان السَّحرة أعلم النَّاس بالسِّحر بلا شك . يعرفون أن الذى حصل لموسى وعصاه ليس بسحر ، وأنه آية من آيات الله عز وجل : ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ .

وانظر إلى كلمة ﴿فَأُلْقِيَ﴾ . كأن هذا السُّجود جاء اندفاعًا بلا شُعور ما قال سجدوا ! ألقوا سَاجِدِين .

كأنَّهم من شدة مَا رَأوا اندفعوا من غير شُعور ولا اختيار حتى سجدوا مؤمنين بالله ورسوله .

﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء : ٤٧ ، ٤٨] . توعدهم فرعون واتهمهم وهو الذى جاء بهم ، قال : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه : ٧١] . علمهم السِّحر وأنت الذى أتيت بهم ! سبحان الله ، لكن المكابرة تجعل المرء يتكلَّم بلا عقل .

قال : ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾ اقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى . ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه : ٧١] . ما الذى قالوا له ؟

Marfat.com

﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [طه : ٧٢] . ما يمكن أن نقدمك على ما رأينا من البينات ! أنت كذاب لست برب، الرَّب رب موسى وهارون .

﴿ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾[طه : ٧٢] . انظر إلى الإيمان إذا دخل القلوب ! رخصت عليهم الدُّنيا كلها ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ أى : افعل ما تُريد إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إذا قضيت علينا أن نفارق الدنيا : ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ [طه : ٧٣] . لأنه قد أكرههم لكى يأتوا ويقابلوا موسى : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ٧٣] .

اللهُمَّ اجعلنا من المؤمنين المُوقنين ! الإيمان إذا دخل القلب واليقين إذا دخل القلب لا يفتنه بشىء ، وإلا فإن السحرة جُنود فرعون ، كانوا فى أوَّل النَّهار سَحَرة كفرة ، وفى آخر النَّهار مؤمنين بَرَرَة يتحدَّون فرعون لما دخل فى قلبهم من الإيمان هذه هزيمة نكْرَاء لفرعون ، لكن مع ذلك مَا زَال فى طُغْيَانه .

وفى النهاية جمع الناس على أنه سيقضى على مُوسى . فخرج موسى فى قَومه هربًا مِنه متَّجهًا بأمر الله إلى البحر الأحمر ويسمى « بَحر القُلْزم » متجهًا إليه مشرقًا ، تكون مصر خَلْفه غربًا .

لما وصل إلى البحر وإذا فرعون بجنوده العَظيمة وجَحافله القوية خلفهم والبحر أمامهم.

﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾[الشعراء :٦١] . البحر أمامنا وفرعون وجنوده خلفنا، أين نفر ؟ ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢] .

هكذا يقين الرُسل عليهم الصَّلاة والسَّلام فى المقامات الحرجة الصَّعبة تجد عندهم من اليقين ما يجعل الأمر العَسير بل الذى يظن أنَّه متعذر أمرًا يسيرًا سهلاً .

فأوحى إليه أن اضرب بعصاك البحر الأحمر فضرب البحر بِعَصَاهُ ضربة واحدة فانفلق البحر اثنى عشر طريقًا ؛ لأن بنى إسرائيل كانوا اثنتى عشرة قبيلة (سبطًا) والسبط بمعنى القبيلة عند العرب .

لا إله إلا الله هذا البحر صار اثنى عشر طريقًا ، وكم بقى من مدة لكى ييبس ؟

بلحظة يبس ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٧٧] .

فعبر مُوسى بقومه فى أمن وأمان ، الماء بين هذه الطُّرق مثل الجبال كأنه جبل واقف وأنتم تعلمون أن الماء جوهر سيَّال لكنه بأمر الله صار وَاقفًا كالجِبَال .

Marfat.com

حتى إن بعض العلماء قال : إن الله سبحانه وتعالى جعل فى كل طود من هذه المياه جَعَل فيها فرجًا حتى ينظر بنو إسرائيل بعضهم إلى بعض لئلا يظنوا أن أصحابهم قد غرقوا وهلكوا .

فلما انتهى موسى وقومه خارجين دخل فرعون وقومه ، فلما تكاملوا أمر الله البحر أن يعود على حاله فانطَبَقَ عليهم .

وكانوا بنو إسرائيل من شدَّة خوفهم من فرعون وقع في نفوسهم أن فرعون لم يغرق، فأظهر الله جَسَدَ فِرْعَوْن على سطح الماء قالَ : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾[يونس : ٩٢] .حتى يشاهدوه بأعينهم واطمأنوا أنَّ الرَّجل قد هلك .

فتأمل يا أخى هؤلاء الأُمم الثَّلاثة الذين هُم فى غاية الطُغيان كيف أخذهم الله عزٍ وجل وكان لهم بالمرْصاد ! وكيف أهلكوا بمثل ما يفتخرون به ! قوم عاد قالوا : من أشد منَّا قُوَّة فأهلكوا بالرِّيح وهى أصلاً لطيفة وسهلة .

قوم صالح أهلكوا بالرجفة والصيحة ، فرعون أهلك بالماء والغَرق ، وكان يفتخر بالماء يقول لقومه : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ـ يعنى موسى ـ وَلا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾[الزخرف : ٥١ ـ ٥٣] .فأغرقه الله تعالى بالماء ، فهذه جملة ما تشير إليه هذه الآية الكريمة :﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾[الفجر : ١٤] .

وقوله عن الله عز وجل يقوله عن نفسه : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾[غافر : ١٩] . يعلم يعنى الله عز وجل ، وخائنة الأعين خيانتها . فالخائنة مصدر كالعاقبة ، وما أشبهها. ويجوز أن تكون اسم فاعل على أنها من خان يخون فيكون من باب إضافة الصِّفة إلى مَوْصُوفها .

على كل حال هذه مسألة نحوية ما تهم هنا، المهم أن للأعين خيانة ، وذلك أن الإنسان ينظر إلى الشيء ولا تظن أنه ينظر إليه نظرًا محرمًا ، ولكن الله عز وجل يعلم أنه ينظر نظرًا محرمًا .

كذلك ينظر إلى الشَّخص نظر كراهية ، والشخص المنظور لا يدرى أن هذا نظر كراهية، ولكن الله يعلم أنَّه ينظر نظر كراهية ، كذلك ينظر الشَّخص إلى شيء محرَّم ولا يدرى الإنسان الذى يرى هذا النَّاظر لا يدرى أنه ينظر إلى الشيء نظر إنكار أو نظر رضا، ولكن الله سبحانه هو الذى علم ذلك فهو سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين .

ويعلمُ أيضًا ما تُخفى الصُّدور أى القلوب ؛ لأنَّ القلوب فى الصُّدور والقلوب هى

Marfat.com

التي يكون بها العقل ويكون بها الفهم ويكون بها التدبير كما قال الله : ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾[الحج:٤٦] . وقال : ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[الحج : ٤٦] .

سبحان الله كأن هذه الآية تنزل على حال النّاس اليوم ، بل حال الناس فى القديم ، يعنى هل العقل فى الدّماغ أو العقل فى القلب ؟

جـ ـ هذه مسألة أشكلت على كثير من النُّظار الذين ينظرون إلى الأمور نظرة مادية لا يرجعون فيها إلى قول الله وقول رسوله - ﷺ - وإلا فالحقيقة أن الأمر فيها واضح أن العقل في القلب ، وأن القلب فى الصدر : ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها﴾[الحج : ٤٦] وقال : ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[الحج : ٤٦] .ولم يقل القلوب التى فى الأدمغة .

فالأمر فيه واضح جدًا أن العقل يكون فى القلب ويؤيد هذا قول النبى - ﷺ - : « ألا وإنَّ فى الجَسَد مضغة إذا صَلُحت صلُحَ الجسد كله وإذا فَسدَت فَسدَ الجَسَدُ كُلُّه ألا وَهِي القَلْب »(١) .

فما بالك بأمر شهد به كتاب الله والله هو الخالق العالم بكل شيء ، وشهدت به سُنَّة الرسول - ﷺ - !

إن الواجب علينا إزاء ذلك أن نطرح كل قول يُخالفُ كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - وأن نجعله تحت أقدامنا وأن لا نرْفَع به رأسًا .

إذن القلب هو محل العَقْل ، ولا شك ولكن الدّماغ محل التَّصَوُّر ثم إذا تصورها وجهَّزها بعث بها إلى القلب ، ثمَّ القلب يأمرُ أوْ يَنهى ، فكأنَّ الدّماغ (سكرتير) يجهز الأشياء ثم يدفعها إلى القلب ، ثم القلب يأمر أو ينهى ، وهذا ليس بغريب ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ [الذاريات:٢١] .وفى هذا الجسم أشياء غريبة تحار فيها العُقُول .

وأيضًا قلنا هذا لأن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « إذا صَلُحَتْ صَلُحَ الجَسَدُ» فلولا أن الأمر للقلب ما كان إذا صَلَحَ صلح الجسد ، وإذا فَسدَ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّه .

إذن فالقلوب هى محل العقل والتَّدبير للشَّخص ولكن لا شك أنَّ لها اتّصالاً بالدماغ، ولهذا إذا اختل الدّماغ فسد التَّفكير وفسد العقل ! فهذا مُرتَبِطٌ بهذا ، لكن العقل المدبر فى القلب والقلب فى الصَّدر :﴿ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[الحج : ٤٦] .

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٢) مسلم (١٥٩٩) .

Marfat.com

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله - حديث عمر بن الخطاب هذا الحديث العظيم الذى قال فيه النبى - ﷺ - فى آخره : « **أتدرون مَن السَّائل ؟ قالوا : الله ورَسُوله أعلم قال : فإنَّه جبريل أتاكُم يُعلِّمكم دينكم** »(١) إذاً ديننا فى هذا الحديث لأنَّه مشتمل على كل الدِّين على الإسلام والإيمان والإحسان .

***

قال المؤلف رحمه الله :

[٦٠] **وأما الأحاديث فَالأوَّلْ** :عَنْ عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال : **بَيْنَمَا نَحْنُ** جُلُوسٌ عِنْدَ رسولِ اللّه ، - ﷺ - ذات يَوْمٍ إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَياضِ الثِّيَاب ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرَ ، لا يُرى عَلَيْه أثرُ السَّفَرِ ، ولا يَعْرِفهُ منَّا أحَد ، حتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبى - ﷺ - فأسْنَدَ رُكْبَتَيْه إِلَى رُكْبَتَيْه ، وَوَضَعَ كَفَّيْه عَلَى فَخذَيْه وقالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أخْبِرنى عن الإسْلامِ، فقالَ رسولُ اللَّه - ﷺ - : « **الإسْلامُ أنْ تَشْهَدَ أنْ لا إلهَ إلا اللّهُ، وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله ، وتُقيمَ الصَّلاةَ ، وتُؤتى الزَّكَاةَ ، وتَصُومَ رَمَضَانَ ، وتَحجَّ البَيْتَ إن اسْتَطَعْتَ إلَيْه سَبيلاً** » قالَ : صَدَقْتَ ، فَعَجبْنَا لَهُ يَسْألُهُ ويُصَدِّقُهُ ! قالَ : فأخْبرنى عَن الإيمَانِ ، قال : « **أنْ تُؤمنَ باللّه ، ومَلائكته ، وكُتُبه ، ورُسُله ، واليَوْمِ الآخر ، وتؤمنَ بالقَدَرِ خَيْره وشَرّه** » قالَ : صَدَقْتَ ، قالَ : فأخْبِرْنى عَنِ الإحْسَانِ ، قالَ : « **أنْ تَعْبُدَ الله كأنَّكَ تراهُ فإنْ لَمْ تكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يراكَ** » ، قال: فأخبرنى عَن السَّاعَة، قال : « **مَا المسْؤولُ عنْها بأعْلَمَ من السَّائل** » قال : فأخْبرني عَنْ أمَاراتِها ، قال: « **أنْ تَلدَ الأمَةُ ربَّتَهَا ، وأنْ تَرى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رعَاءَ الشَّاء يَتطَاوَلُونَ فى البُنْيَان** » ، ثُمَّ انطَلَق ، فَلَبثْتُ مَليّا ، ثُمَّ قالَ : « **يا عُمَرُ ، أتدْرِى مَن السَّائلُ** ؟ » قلتُ: اللّه ورَسُولُهُ أعْلَمْ ، قالَ : « **فإنَّه جبْريلُ أتاكُمْ يُعَلِّمكُم أمْرَ دينكُمْ** » رواه مسلم .

ومَعْنَى « تَلدُ الأمَةُ ربَّتَهَا » أىْ : سَيِّدَتَهَا ؛ ومعناهُ : أنْ تكْثُرَ السَّرارى حتَّى تلدَ الأمَةُ السُّرِّيَّةُ بنْتاً لسيِّدهَا ، وبنْتُ السَّيِّد فى مَعْنى السَّيِّد ، وقيلَ غَيْرُ ذلك . وَ«العَالَة»: الفُقَراءُ . قولُهُ : « مَليّا » : زَمَناً طويلاً وكَانَ ذَلكَ ثَلاثاً .

الشرح

قوله : « بينما » هذه ظرف تدل على المفاجأة ولهذا تأتى بعدها إذ المفيدة المفاجأة ،

---

[٦٠] صحيح : رواه مسلم (٨) وأبو داود (٤٦٩٥) أحمد (١/ ٥١) .

Marfat.com

وكان الصَّحابة ﷺ يجلسون عند النبى - ﷺ - كثيرًا ؛ لأن الرسول عليه الصَّلاة والسلام لا يغيب عن أصْحابِهِ أو أهله .

- إما فى البيت : فى شئون بيته صلوات الله وسلامه عليه ، يَحلِبُ الشَّاة ويُرَقِّع الثَّوب ويخصف النَّعل (١) .

- وإما مع أصحابه فى المسجد ، وإما ذاهبًا إلى عيادة مريض أوْ زيارة قريب أو غير ذلك من الأمور التى لا يمضى منها لحظة إلا وهو - ﷺ - فى طاعة الله .

قد حفظ الوقت ليس مثلنا نُضيِّع الأوْقات . والغَريب أنَّ أغلى شيء عند الإنسان هو الوقت وهو أرخص شيء ، قال الله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾[المؤمنون : ٩٩ - ١٠٠] حتى لا يضيع علىَّ الوقت. ما يقول ؟ لعلى أتمتع فى المال أو أتمتع بالزوجة أو أتمتع فى المركوب أو أتمتَّع فى القُصور ، بل يقول : لعلى أعمل صالحًا فيما تركت .

مضى علىَّ الوقت ومَا استَفدت منه ، هو أغلى شيء ، لكن هو أرْخَص شيء عندنا الآن نمضى أوقاتًا كثيرة بغير فائدة .

بل نمضى أوقاتًا كثيرة فيما يَضُر ، ولَسْتُ أتحدث عن رجل واحد ، بل عن عموم المُسْلمين اليوم مع الأسف الشَّديد أنهم فى سهو ولهو وغفلة ، لَيْسُوا جادِّين فى أُمور دينهم .

أكثرهم فى غفلة وفى تَرَف ينظرون ما يترف به أبدانهم وإن أتلفوا أديانهم ، فالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام كان دائمًا فى المَصَالح الخاصَّة أو العامَّة .

فبينما الصَّحابة عنده جُلوس إذ طلع عليهم رجل « **شَديدُ بياض الثياب شديد سواد الشَّعر لا يُرى عليه أثر السَّفر ولا يعرفه منَّا أحد** » وهذا غريبَ ! لَيس مُسَافرًا حتى نقول : إنَّه غريب عن البلد ، ولا يعرف فنقول : إنَّه من أهل البلد .

فتعجبوا منه ، ثم هذا الرجل الذى جاء نظيفًا شديدَ بَياض الثِّياب شديد سواد الشَّعر ، أى : شاب لا يُرى عليه أثر السفر ؛ لأنَّ المُسافر - لا سيما فى ذلك الوقت - يكون أشْعَث أغبر لأنَّهم يمشون على الإبل ، أو على الأقدام غير مُسَفْلَتة كلها غبار ، لكن هذا لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فهو غريب ليس بغريب .

حتى جاء وجلس إلى النبى عليه الصَّلاة والسَّلام ، وهذا الرَّجل هو جبريل عليه

(١) انظر فى ذلك مسند الإمام أحمد (٦/ ٦٧) .

Marfat.com

الصَّلاة والسَّلام أحد الملائكة العظام ، بلْ هو أفضل الملائكة فيما نعلم لشرف عمله ؛ لأنَّه يقوم بِحَمْل الوَحْى من الله إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام .

فهو مَلَكٌ عظيم رآه النبى - ﷺ - على صُورته التى خُلِقَ عليها مَرتَّيْن : مرَّة فى الأرض، ومرة فى السماء .

مرة فى الأرض فى غار حراء رآه وله ستمائة جناح قد سد الأفق (1) كل الأفق أمام الرسول لا يرى السماء من فوق لأن هذا الملك قد سد الأفق .

سبحان الله !! لأن الله يقول فى الملائكة :﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُوْلِي أَجْنِحَةٍ ﴾[فاطر : ١] . لهم أجنحة يطيرون بها طيرانًا سريعًا .

والمرة الثانية عند سدرة المنتهى ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ④ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ⑦ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ⑧ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٤ - ٩] .

هذا فى الأرض ، دَنَا جبريل من فوق فتدلَّى - أى : قرب إلى محمد - ﷺ - فأوحى إلى عبده الرَّسول ما أوحاه من وحى الله الذى حمَّله إيَّاه .

أمَّا الثَّانية فقال : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ [النجم : ١٣ ، ١٤] . فهذا جبريل لكن الله جعل للملائكة قدرة على أن يتشكَّلوا بغير أشكالهم الأصلية . فها هو جاء فى صورة هذا الرَّجل .

قوله : « **حتَّى جلس إلى النَّبى - ﷺ - فأسند رُكبتيْه إلى رُكْبتيه** » أى : أسند رُكْبة جبريل إلى رُكبة النبى - ﷺ - .

« **ووضع كفيه على فخذيه** » قال العلماء : وضع كفيه على فخذى نفسه لا على فخذى النبى - ﷺ - ، وذلك من كمال الأدب فى جلسة المتعلم أمام المُعلم ، بأن يجلس بأدب ، واستعداد لما يسمع مما يُقَال من الحديث .

جلس هذه الجلسة ثم قال : يا محمد أخبرنى عن الإسلام ، ولم يَقُل : يا رسول الله أخبرنى ، صنيع أهل البادية الأعراب ؛ لأن الأعراب إذا جاءُوا إلى النبى - ﷺ - يقولون: يا محمد .

أما الذين سَمِعُوا أدب الله عز وجل لهم فإنَّهم لا يقولون : يا محمد ، وإنَّمَا يَقُولون: يا رسول الله ؛ لأنَّ الله قال فى كتابه :﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾

---

(1) صحيح : رواه البخارى (٣٢٣٢، ٣٢٣٤ ، ٣٢٣٥) الترمذى (٣٢٧٤) أحمد (١/ ٤٠١) .

Marfat.com

[النور : ٦٣] . وهذا يشمل دعاءه عند النداء باسمه ويشمل دُعَاءَه إذا أمَرَ أوْ نَهى فلا نجعل أمْره كأمْرِ النَّاس إنّ شِئنا امتثلنا وإن شِئنَا تَركْنَا ولا نجعل نهيه كنهى النَّاس إن شئنا تَركنا وإن شئنا فعلنا .

كذلك إذا دعوناه لا ندعوه كدعاء بعضنا بعضًا فنقول : يا فلان يا فلان مثلنا تنادى صاحبك ، وإنما تقول : يا رسول الله ، لكن الأعراب لبعدهم عن العِلم وجهل أكثرهم يُنَادونه باسمه فيقولون : يا محمد .

قال : « أخبرنى عنِ الإسلام » أى : ما هُو الإسلام - فقال النبى - ﷺ - : « أنَ تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسُول الله » .

هذا الركن الأول : تشهد بلسانك نُطقًا وبِقلبِك إقرارًا أنّ لا إله إلا الله يعنى : لا مَعْبودَ بحقٍّ إلا الله سُبحانه وتعالى .

وألوهية الله فرع عن ربُوبيته ؛ لأنَّ مَن تأله لله فقد أقر بالربوبية إذ إن المعبود لابد أن يكون ربًا ولابد أن يكون كامل الصِّفات ، ولهذا تجد الذين ينكرون صفات الله عز وجل عندهم نقص عظيم فى العُبُودية ؛ لأنَّهم يعبدون لا شىء .

فالرَّب لابد أن يكون كامل الصِّفات حتى يُعبد بمقتضى هذه الصِّفات ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] . أى : تعبدوا له وتوسَّلُوا بأسْمائِه إلَى مِطلوبكم ، فالدعاء هنا يشمل دُعاء المسألة ودُعاء العبادة .

المهم أنَّه قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله » ، فلا إله من الخلق ، لا مَلَكٌ مقرب ولا نبى مُرسل ولا شَمس ولا قَمر ولا شَجر ولا حَجَر ولا بَر ولا بحر ولا وَلى ولا صدِّيق ولا شَهيد لا إله إلا الله وحده .

وهذه الكلمة أرسل الله بها جميع الرسل ، فقال الله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل : ٣٦] . أى : ابتعدوا عن الشرك .

هذه الكلمة إذا حققها الإنسان وقالها من قلبه ملتزمًا بما تقتضيه من الإيمان والعمل الصالح فإنه يدخل الجنة بها .

قال النبى- ﷺ - : « مَنْ كانَ آخرَ كَلامه منَ الدُّنيا لا إلَهَ إلا الله دَخَلَ الجَنَّة » (١) جعلنا الله وإيَّاكم منهم .

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (٣١١٦) احمد (٥/٣٢٣) .وصححه الالبانى فى احكام الجنائز(٣٤).

Marfat.com

وقوله : « وأنَّ محمداً رسول الله » أى : تشهد أن محمد بن عبد الله الهاشمى القُرشى العَربى رَسُول الله ولم يذكر من سِواه من الرسل لأنَّه نسخ جميع الأديان .

كل الأديان باطلة ببعثة الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام .

فدين اليهود باطل ودين النَّصارى باطل غير مقبول عند الله لقول الله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

يتعبون فى عباداتهم التى ابتدعوها تعبًا عظيمًا وينصبون نَصبًا عظيمًا وكل هذا هباء لا ينفعهم بشىء .

وقوله : ﴿وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فلو رَبِحُوا فى الدُّنيا ما ربحوا فى الآخرة ؛ لأنَّ أديانهم باطلة .

فالذين يدَّعون الآن من النَّصارى أنَّهم ينتسبون إلى عيسى ابن مريم هم كاذبون والمسيح برىء منهم ولو جاء المسيح لقاتلهم ، وسينْزل فى آخر الزَّمَان ، ولا يقبل إلا الإسلام . فيكسر الصَّليب ويقتل الخنزير ويَضَعُ الجزية فلا يقبلها من أحد ، لا يقبل إلا الإسلام [1].

وقوله : وأنَّ محمداً رسول الله » إلى مَنْ ؟

جـ - إلى الخلق كافة كما قال الله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان : ١] للعالمين كلهم .

وقال الله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . فهو رسول إلى جميع الخلق .

وقد أقسم - ﷺ - « **أنَّه لا يَسْمَعُ به أحَدٌ يَهُودى وَلا نَصْرَانى ثمَّ لا يُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ بِهِ إلا كانَ من أصْحَاب النَّار** » [2] .

ولذلك نحن نؤمن ونعتقد بأن جميع النَّصارى واليَهُود وغيرهم من الكَفَرة كلهم من أصحاب النَّار ؛ لأن هذا شهادة النَّبى عليه الصلاة والسلام والجنَّة حَرَامٌ عليهم لأنَّهم كفرة أعداء لله ولرسوله . أعداء لإبراهيم ونُوح ومحمد وموسى وعيسى وجميع الرُّسل ، ليسوا على شَىء .

وقوله : « **أنّ تشهد أن لا إله إلا الله** » مع قوله : « **وأنَّ محمداً رسولُ الله** » هذان جمعا

---

(١) صحيح : رواه انظر البخارى (٢٤٧٦) مسلم (١٥٥) .

(٢) صحيح : رواه مسلم (١٥٣) أحمد (٢/٣١٧) .

Marfat.com

شرطى العبادة وهُما الإخلاص لله والمُتابَعة لرَسُول الله - ﷺ - ؛ لأنَّه مَن قال : لا إله إلا الله أخلص لله ومَن شهد أنَّ محمدًا رسول الله اتبع رسول الله ولم يتبع سواه ولهذا عُد هذان رُكنًا واحدًا وهو تصحيح العبادات ؛ لأنَّ العبادات لا تَصِحُ إلا بمقتضى هاتين الشَّهادتين : شهادة أن لا إله إلا الله التى يكون بها الإِخلاص ، وأن محمدًا رسول الله التى يكون بها الاتِّباع .

وقوله : « وأن محمدًا رسول الله » فإنَّه يجب أنّ تشهد بلسانك مقرًا بقلبك أن محمدًا رسول الله أرسله الله إلى العالمين جميعًا رحمة بالعالمين كما قال الله : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وأن تؤمن بأنه خاتم النبيين كما قال الله تعالى : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[الأحزاب : ٤٠] . فلا نبى بعده ، ومن ادعى النبوة بعده فهو كافر كاذب ، ومن صدقه فهو كافر .

ويَلْزَم من هذه الشَّهادة أن تتبعه فى شَرِيعته وفى سُنَّته وألا تبتدع فى دينه مَا لَيْس منه ، ولهذا نقول : إن أصحابَ البدع الذين يبتدعون فى شَريعَة الرَّسول - ﷺ - ما ليس منها إنهم لم يُحَقِّقُوا شهادة : أن محمدًا رسول الله !

حتى وإن قالوا : إننا نُحبُّه ونُعَظمه فإنهَّم لو أحبُّوه تمام المحبة وعظَّموه تمام التَّعظيم ما تقدَّموا بين يَدَيْه ولا أدخلُوا فى شريعته مَا لَيْسَ منها .

فالبدعة مضمونها حقيقة القدح برسول الله - ﷺ - كأنَّما يقول هذا المبتدع إنَّ الرسول - ﷺ - لم يُكمل الدِّين ولا الشَّريعة ؛ لأن هناك دينًا وشَريعة ما جاء بها !

ثم في البدعة محذور آخر وهو عظيم جدًا وهو أن يتضمن تكذيب قول الله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة :٣] . لأنَّ الله إذا كان أكمل الدين ، فمعناه أنه لا دين بعدما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام وهؤلاء المبتدعون شرعوا فى دين الله مَا لَيْسَ منه من تَسْبيحات وتَهليلات وحركات وغير ذلك فهم فى الحقيقة مكذبون لمضمون قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[المائدة :٣] .

وكذلك قادحون برسول الله - ﷺ - مُتهمون إيَّاه بأنَّه لم يكمل الشَّريعة للبشر وحاشاه من ذلك .

ومن تمام شهادة أنَّ محمدًا رسول الله - ﷺ - ان تُصدِّقه فيما أخبر به ، فكل ما صحَّ عنه وجب عليك أن تُصدِّق به ، وألا تُعارض هذا بعقلك وتقديراتك وتَصوراتك ؛ لأنَّك لو لم تؤمن إلا بما صَدَّق به عقلك لـم تكن مؤمنًا حقيقة ، بل مُتَّبعًا لِهوَاكَ لا آخذًا بهداك .

Marfat.com

الإنسان الذى يُؤمن بالرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام حقًا يقول فيما صَحَّ عنه من الأخبار: سَمِعنا وآمنا وصدَّقنا .

أمَّا أن يقول : كيف يكون كذا ، كيف يكون كذا ، فهذا غير مؤمن حقيقة ، ولذلك يخشى على أولئك القوم الذين يُحكِّمُون عقولهم فيما أخبر به الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام؛ لأنهم إن كانوا لا يقبلون إلا بما شهدت به عقُولهم ـ وعقُولهم لا شك أنَّها قاصرة فإنَّهم لم يؤمنوا حقا برسول الله ـ ﷺ ـ ولم يشهدوا أنه رسول الله ـ ﷺ ـ على وجه الحقيقة .

عندهم من ضعف هذه الشَّهادة بمقدار ما عندهم من التَّشكُّك فيما أخبر به .

كذلك من تحقيق شهادة أنَّ محمدًا رسول الله ألا تَغلُوا فيه فَتنزِلُه بمَنزِلَةٍ أكبرٍ من المنزلة التى أنزله الله إيَّاها مثل أولئك الذين يعتقدون أن الرسول ـ ﷺ ـ يكشف الضر حتى أنهم عند قبره يسألون النبى ـ ﷺ ـ مباشرة أن يكشف الضُّر عنهم ، وأن يجلب النَّفع لهم .

هذا غُلُو فى الرَّسول وشركٌ بالله عزَّ وجل !! لا يقدر على ذلك أحد إلا الله سبحانه وتعالى ، والنبى ـ ﷺ ـ بعد مَوته لا يملك لِنفسه شيئًا أبدًا .

حتى الصَّحابة لما أصابَهم القَحط فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستَسقَوا في مسجد الرَّسول عليه الصلاة والسلام ما جاءوا إلى القبر يسألُون الرَّسُول أو يقولون : ادْعو الله لنا أو اشفع لنا عند الله حتى ينْزل الغيث !

قال عمر يدعو الله : « **اللهم إنَّا كُنا نَتوسَّلُ إليكَ بنَبيِّنا فَتسقِينا وإنَّنا نَتوسَّلُ إلَيْكَ بِعَمِّ نَبيِّنَا** » ثم أمر العباس أن يقوم ويدع الله بإنزال الغيث(١) .

لماذا ؟

جـ ـ لأنَّ النبى ـ ﷺ ـ مَيت لا عَمَلَ لهُ بعد موته هو الذى قال : « **إذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انقَطَعَ عَمَلَهُ إلا مِنْ ثَلاثَة : إلا مِنّ صَدَقَة جارية أوْ علمٍ يُنْتَفَعُ بِه ، أوْ وَلَد صَالِح يدعُو له**»(٢) .

فالنبى ـ ﷺ ـ بنفسه لا يملك شيئًا لا يملك أن يدعو لك وهو فى قبره أبدًا . فمن أنزله فوق مَنزِلَته التى أنزَلَهُ الله فإنَّه لم يحقق شهادة أن محمدًا عَبْدُه ورَسُول ! بل شهد أن مُحَمدًا ربٌ مع الله نَعوذُ بالله ؛ لأنَّ معنى كونه رسولاً أنَّه عبد لا يُعبد ورسول لا يكذب ،

---

(١) صحيح : رواه البخارى (١٠١٠) .

(٢) صحيح : رواه مسلم (١٦٣١) الترمذى (١٣٧٦) .

Marfat.com

نحن فى صلاتنا كل يوم نقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عَبْدُه ورَسُولُه . فهو عبد كغيره من العباد مَرْبُوب والله هو المَعبُود وهو الرَّب .

إذًا نقول لهؤلاء الذين نجدهم يغلون برسول الله - ﷺ - وينزلونه فوق منْزِلته التى أنزله الله ، نقول لهم : إنك لم تحققوا لا شهادة أن لا إله إلا الله ولا شهادة أن محمدًا رسول الله .

فالمهم أن هاتين الشَّهادتين عليهما كل الإسلام . لذلك لو أراد الإنسان أن يتكلَّم على ما يتعلق بهما مَنْطوقًا ومفهومًا ومَضْمونًا وإشارة لاستغرق أيامًا ! ، ولكن نحن أشرنا إشارة إلى ما يتعلق بهما ونسأل الله أن يجعلنا وإيَّاكُم مِمَّن يحققهما عقيدة وقولاً وفعلاً !

الركن الثانى : إقام الصَّلاة :

الصَّلاة سُمِّيت صلاة لأنها صِلَةٌ بين العَبْد وبين الله فإنَّ الإنسان فإذا قام يُصَلِّى فإنَّهُ يُناجى ربه ويحاوره يأخذ معه ويرد كما ثبت ذلك فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة ﷺ عن النبى - ﷺ - أن الله سبحانه قال : « قَسَمْتُ الصَّلاة بَيْنى وبَيْن عَبْدى نصفَين ، فإذا قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال : حمدنى عبدى ، فإذا قال : ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ قال : أثنى عليَّ عبدي ، فإذا قال : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ قال : مجَّدنى عَبْدى . فإذا قال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : هذا بينى وبَيْنَ عَبْدِى نصفين . فإذا قال : ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة : ١ ـ ٧] قال الله : هذا لِعَبْدى ولِعَبْدِى مَا سَأل (١) .

فتأمل ، أخذٌ وإعطَاء ومحاورة ومُنَاجاة بين الإنسان وبين ربه ومع ذلك فالكثير هنا فى هذه المُنَاجاة مُعرض بقلبه تجده يتجول يمينًا وشمالاً مع أنه يُنَاجِى مَن يعلم ما فى الصُّدور عز وجل . وهذا من جهلنا وغفلتنا .

فالواجب علينا ـ ونسأل الله أن يُعِينَنا عليه ـ أن تكون قُلُوبُنا حاضرة فى حال الصَّلاة حتى تبرأ ذمتنا وحتى ننتفع بها ؛ لأنَّ الفوائد المترتبة على الصَّلاة إنما تكون على صلاة كاملة .

ولهذا كلنا يقرأ قول الله عز وجل : ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ومع ذلك يأتى الإنسان ويُصلِّى فلا يجد فى قلبه إنكارًا لمنكر أو عرفًا لمعروف زائدًا عما دخل فى الصلاة . يعنى : لا يتحرك القلب ولا يَسْتَفيدُ لأن الصَّلاة نَاقِصة ، هذه الصَّلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشَّهادتين . وقد فرضها الله عز

(١) صحيح : رواه مسلم (٣٩٥) الترمذى (٢٩٥٣) .

Marfat.com

وجل على نبيه محمد - ﷺ - بدون واسطة من الله إلى رسول الله ، وفرضها عليه فى أعلى مكان وَصَلَهُ بَشَر وَفَرَضَهَا عليه فى أشرف لَيْلة كانت لرسول الله - ﷺ - وهى ليلة المعراج وَفَرَضَهَا عليه خمسين صلاة فى اليوم والليلة .

وهذه أربعة أمور :

أولًا : لم يكن فَرْضها كَفَرْضِ الصيام والحج ، بل هو من الله مُبَاشرة إلى الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام .

ثانيًا : من ناحية المكان فهو فى أفضل مكان وَصَلَ إليه البَشر ، فلم تُفْرَض على النَّبِى وهو فى الأرض .

ثالثًا : من ناحية الزَّمان فى أشرف ليلة كانت لرسول الله - ﷺ - وهى ليلة المعراج .

رابعًا : فى الكمية لم تُفْرَض صلاة واحدة ، بل خمسين صلاة مما يَدُلُّ على محبَّة الله لها وأنَّه يحب من عبده أن يكون دائمًا مشغولاً بها .

ولكن الله جعل لكلِ شىء سببًا لما نزل الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام مُسَلِّمًا لأمر الله قانعًا بفريضة الله ، ومرَّ بموسى ، وسأله موسى ماذا فرض الله على أُمَّتك ؟ قال : «**خمسين صلاة فى اليوم والليلة** » .

قال : إنَّ أُمَّتك لا تُطيق ذلك ، إنَّنى جربَّت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشدَّ المعالجة ، اذهب إلى ربك واسأله أن يخفف عن أُمتك !

فذهب إلى الله وجعل يتردَّد بين موسى وبين الله حتى جعلها الله خمسًا [(١)] لكن الله بمنه وكرمه - وله الحمد والفضل - قال : هى خمس بالفعل وخمسون فى الميزان .

وليس هذا من قبيل الحَسَنَة بعشر أمْثالها ، بل من قبيل الفعل الواحد يجزىء عن خمسين فعلاً .

فالخمس صَلوات هذه عن خَمْسين صلاة ، فكأنَّما صلينا خمسين صلاة ، كل صلاة الحَسَنة بعشر أمثالها ، لأنَّه لو كان هذا من باب مُضَاعفة الحَسَنَات لم يكن هناك فَرْقٌ بين الصَّلوات وغيرها ، لكن هذه خاصة ، وهذا يدل على عظم هذه الصلوات ، ولهذا فرضها الله على عباده فى اليوم والليلة خمس مرات لابد منها ، لابد أن تكون مع الله خَمْس مرَّات فى اليوم تُنَاجيه .

لو أن أحدًا من الناس حَصَلَ لَهُ مُقَابلة بينه وبين الملك خمس مرَّات باليوم لعُد ذلك

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٨٨٧) مسلم (٦٣) .

Marfat.com

من مناقبه ولفرح بذلك .

أنت تناجى ملك الملوك فى اليوم خمس مرات على الأقل ، فلماذا لا تفرح بهذا ! احْمد الله على هذه النِّعمة وأقم الصلاة .

وقول النبى - ﷺ - : « وتَقِيمَ الصَّلاة » يعنى تأتى بها قويمة سَالِمَة بِشُرُوطها وأركَانِها وواجباتها .

فمن أهم شُروطها : الوقت : لقول الله سبحانه : ﴿إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ على المُؤْمنين كتابا مَوْقُوتًا﴾ [النساء : ١٠٣] .

وإذا كانت الصَّلوات خَمْسًا فأوقاتها خمسة أو ثلاثة ! خمسة لغير أهل لأعذار ، وثلاثة لأهل الأعذار الذين يجوز لهم الجمع ، فالظُّهر والعصر يكون وَقْتاهُمَا وَقْتًا واحدًا إذا جاز الجمع ، والمغرب والعشاء يكون وَقْتاهُمَا وقتًا واحدًا إذا جاز الجمع ، والفجر وقت واحد . ولهذا فصلها الله عز وجل : ﴿أقم الصَّلاةَ لدُلُوك الشَّمْس إلَىٰ غسَق اللَّيْل وقُرآن الفَجْرِ﴾ [الإسرء : ٧٨] . ولم يقل لدلوك الشمس إلى طلوع الشمس ! .

بل قال : إلى غسق الليل ، وغَسَق اللَّيل يكون عند مُنْتَصفَه ؛ لأن أشد ما يكون ظلمة فى الليل منتصف الليل ؛ لأنَّ منتصف الليل هو أبعد ما تكون الشمس عن النقطة التى فيها هذا المنتصف ، ولهذا كان القول الرَّاجح أن الأوقات خمسة كما يلى :

١ - الفجر من طلوع الفجر الثَّانى - وهو البياض المعترض فى الأفق إلى أن تطلع الشمس.

وهنا أُنبه فأقول :

إن التَّقويم تقويم أم القُرى فيه تقديم خَمس دقائق فى أذان الفجر على مدار السَّنة ، فالذى يُصَلِّى أول ما يُؤذن يعتبر أنَّه صَلَّى قبل الوقت ، وهذا شيء اختبرناه فى الحساب الفلكى ، واختبرناه أيضًا فى الرؤية .

فلذلك لا يعتمد هذا بالنِّسبة لأذان الفجر ؛ لأنه مُقَدَّم وهذه مسألة خطرة جدًا.

لو تكبر للإحرام فقط قبل أن يدخل الوقت ما صحت صلاتك فريضة ، وقد حدثنى أناس كثيرون ممن يعيشون فى البر وليس حَوْلهم أنوار أنهم لا يُشاهدون الفجر إلا بعد هذا التقويم بثلث ساعة ، أى : عشرون دقيقة أو ربع ساعة أحيانًا ، لكن التَّقاويم الأخرى الفلكية التى بالحساب بَيْنَها وبين هذا التَّقويم خَمْسُ دقائق .

على كل حال : وقت صلاة الفجر من طلوع الفجر الثَّانى إلى طلوع الشَّمس.

Marfat.com

٢ ـ والظهر من زَوَال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله ، لكن بعد أن تخصم ظل الزوال ؛ لأن الشمس خصوصًا في أيام الشتاء يكون لها ظل نحو الشمال ، وهذا ليس بعبرة ، بل العبرة أنك تنظر إلى الظل ما دام ينقص فالشَّمس لم تَزُل ، فإذا بدأ يزيد أدنَى زيادة فإن الشَّمس قد زالت .

اجعل علامة على ابتداء زيادة الظِّل : فإذا صار ظل الشيء كطوله خرج وقت الظهر ودخل وقت العصر .

٣ ـ ووقت العصر إلى أن تَصفر الشَّمس والضَّرورة إلى غُروبها .

٤ ـ ووقت المغرب من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر ، وهو يختلف ، أحيانًا ، يكون بين الغروب وبين مغيب الشَّفق ساعة وربع ، وأحيانًا يكون ساعة واثنان وثلاثون دقيقة ، ولذلك وقت العشاء عند الناس الآن لا بأس به ، واحدة ونصف لا يضر (١,٣٠) غروبي ، لو تأخر عن دخول الوقت ما يهم .

٥ ـ وقت العشاء من خروج وقت المغرب إلى منتصف الليل . المعنى أنك تقدر ما بين غروب الشَّمس وطُلوع الفجر ثم تنصفه فالنصف هو مُنتهى صَلاة العشاء . ويترتب على هذا فائدة عظيمة :

لو طهرت المرأة في الثُّلُث الأخير من اللَّيل فليس عليها صلاة عشاء ولا المغرب لأنَّها طهرت بعد الوقت .

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي عليه الصلاة والسلام قال : « وقتُ العشَاء إلى نصف اللَّيل » (١) .

وليس عن رسول الله ـ ﷺ ـ حَديثٌ يدلُّ غلى أن وقت العشاء يمتد إلى طلوع الفجر أبدًا ، ولهذا القول الراجح إلى نصف الليل والآية الكريمة تدل على هذا ؛ لأنه فصل الفجر عن الأوقات الأربعة : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي : زوالها ، ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ جمع الله بينها لأنها ليس بينها فاصل ، أما الفجر فقال :﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء : ٧٨] . فالفجر لا تتصل بصلاة لا قبلها ولا بعدها ؛ لأن بينها وبين الظهر نصف النهار الأول وبيْنها وبين صلاة العشاء نصف اللَّيل الآخر والله الموفق.

* * *

اعلم أنَّ الصَّلاة قبل دخول الوقت لا تُقبل حتى لو كبر تكبيرة الإحرام ، ثم دخل الوقت بعد التكبيرة مباشرة ، فإنَّها لا تُقبل على أنها فريضة ؛ لأنَّ الشيء الموقَّت بوقت لا يصح قبل وقته ، كما لو أراد الإنسان أن يَصُوم قبل رمضان ولو بيوم واحد ، فإنَّه لا يجزئه

Marfat.com

عن رمضان ، كذلك الصَّلاة ، لكن إن كان جاهلاً لا يَدْرى صارت نافلة ووجب عليه إعادتها فريضة ، أما إذا صلاها بعد الوقت فلا تَخْلو مِنْ حالين :

أ ـ إمَّا أن يكون مَعْذُوراً بجهلٍ أو نِسيانٍ أو نَومٍ فهذا تُقْبل منه .

الجهل : مثل ألا يَعْرف أن الوقت قد دخل وقد خرج ، فهذا لا شيء عليه متى عَلِمَ فإنَّه يُصلِّى الصَّلاة وتُقبل منه لأنَّه معذور .

ـ والنسيان : مثل أن يكون الإنسان اشتغل بشغل عظيم شغله وألهاه حتى خرج الوقت فإنَّ هذا يُصلِّيها ولو بعد خروج الوقت والنَّوم كذلك ، فلو أن شخصًا نام على أنَّ سيقوم عند الأذان ولكن صار نومه ثقيلاً فلم يسمع الأذان ولا المنبه الذى وَضَعَهُ عند رأسه حتى خرج الوقت فإنَّه يُصلى إذا استيقظ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « **مَنْ نَامَ عَنْ صَلاةٍ أَوْ نَسِيهَا فَلْيُصَلِّهَا إذا ذَكَرَهَا لا كَفَّارة لها إلا ذلك** »(١) .

ب ـ فأما الحالة الثَّانية : فأن يُؤخِّر الصَّلاة عن وقتها عمدًا من غير عذر فاتَّفق العلماء على أنَّه آثم وعَاصٍ لله ورسوله .

وقال بعض العلماء : إنَّه يكفر بذلك كُفرًا مُخرجًا عن المِلَّة نسأل الله العافية ! ولكن الصَّحيح : أنَّه لا يكْفر ، وهذا قول الجمهور ، ولكن اختلفوا فيما لو صلاها فى هذه الحال ، أى بعد أن أخْرَجَها عن وقتها عمدًا بلا عذر ثم صلى ، فمنهم من قال إنها تُقبل ـ أى صلاته ـ لأنَّه عاد إلى رشده وصوابه ، ولأنه إذا كان الناسى تقبل مِنه الصَّلاة بعد الوقت فالمتعمد كذلك .

لكن القول الصَّحيح الذى تُؤيِّده الأدلَّة أنَّها لا تُقْبل منه إذا أخرها عن وقتها ، ولو صلى ألف مرة وذلك لقول النبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « **مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنا فَهُو رَدٌّ** »(٢) ، يعنى مردود غير مقبول عند الله .

وإذا كان مردودًا فلن يُقْبل وهذا الَّذِى أخْرج الصَّلاة عمدًا عن وقتها إذا صلاها فقد صلاها على غير أمر الله ورسوله .

وأما المعذور فهو معذور ولهذا أمره الشَّارع أن يُصلِّيها إذا زال عُذْره ، أمَّا مَن ليس بمعذور فإنه لو بقى يُصلى كل دهره فإنها لا تُقبل منه هذه الصلاة التى أخرجها عن وقتها بلا عذر ، فعليه أن يتوب إلى الله ويستقيم ويكثر من العمل الصَّالح والاستغفار « ومَن

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٩٧) مسلم (٦٨٤) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٦٩٧) مسلم (١٧١٨) .

Marfat.com

تَابَ تاب الله عليه »[١] .

الشرط الثاني : الطهارة .

ومَنْ إقام الصَّلاة : الطَّهارة ، فإنَّه لا تُقْبل صَلاة بغَيْر طهور ، قال النَّبى عليه الصَّلاة والسَّلام : « لا يَقْبَلُ الله صَلاةَ أحدكُم إذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضأ »[٢] فلا بد أن يقوم الإنسان بالطَّهارة على الوَجْه الَّذى أُمر به ، فإن أحدث حَدَثًا أصغر مثل : البول والغائط والرِّيح والنَّوم وأكل لحم الإبل ، فإنَّه يتوضأ .

وفروض الوضوء كما يلى :

غسل الوجه ، واليدين إلى المرفقين ، ومَسْحُ الرَّأس ، وغسل الرجلين إلى الكعبين .

كما أمر الله بذلك فى قوله : ﴿يا أيها الَّذين آمَنُوا إذا قُمْتُمْ إلى الصَّلاة فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ [المائدة : ٦]

ومن الرأس : الأذنان ، ومن الوجه : المَضْمَضَة والاسْتِنْشَاقُ فى الفم والأنف ، فلابد فى الوضوء من غسل هذه الأعضاء الأربعة ، غسل فى ثلاثة ومَسح فى واحد .

وأما الاستنجاء أو الاستجمار : فهو إزالة نجاسة لا علاقة له بالوضوء ، فلو أن الإنسان بال أو تَغَوَّط واستَنْجى ثم ذهب لشغله ، ثم دخل الوقت ، فإنَّه يتوضأ بتطهيره الأعضاء الأربعة ، ولا حاجة إلى أن يستنجى ، لأنَّ الاستنجاء إزالة نجاسة متى أُزِيلَت فإنَّه لا يُعاد الغسل مَرَّة ثانية إلا إذا رجعت مرة ثانية .

والصَّحيح : أنَّه لو نسى أن يستجمر استجمارًا شرعيًا ثم توضأ ، فإن وضوءه صحيح، لأنَّه كما قلت : ليس هُناك علاقة بين الاستنجاء وبين الوضوء .

أما إذا كان مُحْدِثًا حَدثًا أكبر مثل الجَنَابة فعليه أن يَغْتَسِل ، فيعمِّم جميع بدنه بالماء لقوله تعالى :﴿وإن كُنتُم جُنُبًا فاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة : ٦] ومن ذلك : المضمضة والاستنشاق ؛ لأنَّهما دَاخِلان فى الوجه فيجب تطهيرهما كما يجب تَطهير الجبهة والْخد واللِّحية .

والغسل الواجب الذى يكفى أن تعم جميع بدنك بالماء سواء بدأت بالرأس أو بالصَّدر أو بالظهر أو بأسفل البدن أو انغمست فى بركة وخرجت منها بنية الغسل .

والوضوء فى الغسل سُنَّة ، وليس بواجب ، ويُسَنُّ قبل أن يغتسل ، وإذا اغتسل فلا حاجة إليه مَرَّة ثانية ، لأنَّه لم يثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه توضأ بعد اغتساله .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٦٤٣٨) مسلم (١٠٤٩) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٦٥٤) أبو داود (٦٠) أحمد (٢/٣١٨) .

Marfat.com

فإذا لم يجد الماء أو كان مريضًا يخشى من استخدام الماء أو كان برد شديد وليس عنده ما يسَخّن به الماء فإنّ يتيمم لقوله تعالى : ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة : ٦] .

فبيَّن الله حال السَّفر والمرض أنَّه يَتَيَمَّم فيهما إذا لم يَجد الْمَاء فى السَّفر .

أمَّا خوف البرد فَدَليله قِصَّة عمرو بن العاص رضي الله عنه : « أنَّ النبى- ﷺ - بعثه فى سرية فأجنب فتيمم وصلَّى بأصحابه إمامًا . فلما رجعوا إلى النبى- ﷺ - قال له : « **أصلَّيتَ بأصحابك وأنْتَ جُنُبٌ ؟!** » قال : نعم يا رسول الله ، ذكرت قول الله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء : ٢٩] وخفت البَرد ، فَتَيَمَّمت صعيدًا طيبًا فَصَلَّيْت . فأقرَّه النبى- ﷺ - على ذلك ولم يأمره بالإعادة(١) لأنَّ من خاف الضَّرر كمن فيه الضَّرر ، لكن بشرط أن يكون الخوف غالبًا أو قَاطعًا ، أمَّا مُجَرَّد الوَهم فهذا ليس بشىء .

واعلم أنَّ طهارة التَّيمم تقوم مقام طهارة الْماء ولا تنتقض إلا بما تنتقض به طهارة الْماء، أو بِزَوَال العُذر المبيح للتيمم .

فمن تيمَّم لعدم وجود الْماء ثم وجده فإنَّه لابد أن يتطهر بالْماء ، لأن الله تعالى إنما جعل التراب طهارة إذا عُدِمَ الْماء . وفى الحديث الذى أخرجه أهلُ السُّنن على أبى هريرة عن النبى- ﷺ - أنَّه قال : « **الصَّعيدُ الطَّيب وضوء المسلم ، أو قال : طهور المُسْلم وإن لَم يَجِد الْمَاءَ عشْر سنين فإن وَجَدَهُ فليتق الله وليمسه بشرته** »(٢) .

وفى صحيح البخارى فى حديث عمران بن حصين الطَّويل فى قصة الرجل الذى اعتزل فلم يصل مع النبى- ﷺ - فسأله فقال : « **ما منَعكَ أنْ تُصلى مَعَنَا ؟** » قال : أصابتنى جَنَابَة ولا مَاء ، فقال : « **عَلَيْكَ بالصَّعيد ، فإنَّه يكْفيك** » ثم حضر الْماء فأعطى النبى ﷺ - هذا الرجل ماءً وقال : « **أفرغهُ على نفسك** »(٣) أى : اغتسل به ، فدلَّ هذا على أنَّه إذا وُجدَ الْمَاءُ بَطُل التَّيمم ، وهذه ولله الْحمد قاعدة حتى عند العامَّة ، يقولون : « إذا حضر المَاءُ بَطُل التَّيمم »(٤) .

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٣٣٤) أحمد (٤/ ٢٠٣) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود .

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣٣٢) واليمانى (٢/ ٧ ، ٨) .

(٣) صحيح: رواه البخارى (٣٣٤) أحمد (٤/ ٤٣٤) .

(٤) انظر كشف الخفاء (١/ ٩٠) ولا أعلمه حديثًا وإن كان معناه صحيحًا .

Marfat.com

أما إذا لم يحضر الماء ، ولم يَزُل العُذْرُ ، فإنَّه يقوم مقام طهارة الماء ، ولا يبطل بخروج الوقت ، فلو تيمم الإنسان وهو مُسَافر ولا ماء عنده لصلاة الظُّهر مثلاً ، وبَقى لم يُحَدث إلى العشاء فإنه لا يَلْزَمه إعادة التيمم ؛ لأن التيمم لا يبطل بخروج الوقت ؛ لأنه طهارة شرعية كما قال الله في القرآن الكريم : ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة : ٦] . فبَيَّنَ الله أن طهارة التيمم طهارة، وقال الرسول ـ ﷺ ـ : « **جُعلت لى الأرضُ مسجداً وطَهوراً** » بفتح الطَّاء ، أى : أنها تطهِّر ، « **فأيما رَجُلٍ من أُمَّتى أدْرَكَتْهُ الصَّلاة فليصل** »(١) . وفى حديث آخر : « **فَعِنْدَهُ مَسْجِدُهُ وطَهُوره** »(٢) . يعنى : فليتطهر وليصل .

هذا من الأشياء المهمَّة فى إقامة الصلاة : المحافظة على الطَّهارة .

واعلم أن من المحافظة على الطهارة : إزالة النجاسة من ثوبك وبدنك ومُصَلاَّك الذى تصلى عليه . فلابد من الطهارة فى هذه المواضع الثلاث : البدن ، والثوب ، والمُصَلَّى .

١ ـ ودليل هذا : أن النبى ـ ﷺ ـ أمر النساء اللاتى يُصَلِّين فى ثِيَابِهن وهن يَحضن بهذه الثِّياب أن تُزيل المرأة الدَّم الذى أصابها من ثوبها ، تحكه بظفرها ثم تقرصه بأصبعيها الإبهام والسَّبابة ثم تغسله(٣) ولما صلَّى ذات يوم بأصحابه وعليه نعاله خَلَع نعليه فخلع الناس نعالهم ، فلما سلَّم سألهم لماذا خلعوا نعالَهم ؟! قالوا : رأيناك خلعت نعليك فخلعنا نعالنا قال : « إنَّ جِبْريل أتانى فأخبَرَنى أنَّ فيهما قَذَرًا »(٤) فدل هذا على أنَّه لابد من اجتناب النَّجاسة فى المَلبوس .

٢ ـ أما المكان : فإنَّ دليلَه أنَّ أعرابيًا جاء فبال فى طائفة من المسجد ، أى : فى طرف منه ، لكنه أعرابى ـ والأعراب الغالب عليهم الجهل ـ ، فصاح به الناسُ وزجروه ، ولكن الرسول ـ ﷺ ـ بحكمته نهاهم وقال : « اتركوه » فلما قضى بَوْلَهُ دعاه النبى ـ ﷺ ـ وقال له : « **إنَّ هذه المَسَاجِدَ لا يَصْلُحُ فيها شىء من الأذى أو القذر ، إنما هى للصَّلاة والتَّسبيح وقراءة القرآن** »(٥) أو كما قال ـ ﷺ ـ ، فقال الأعرابى : اللَّهُمَّ ارْحَمْنى ومُحَمَّدًا ، ولا تَرْحم مَعَنَا أحدًا ، لأن الصَّحابة زجروه ، وأما النبى ـ ﷺ ـ فكلمه بلطف فظن أن الرَّحمة

(١) صحيح : رواه البخارى (٣٣٥) مسلم (٥٢١) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (٥/٢٤٨) .

(٣) صحيح : رواه البخارى (٣٠٧) مسلم (٢٩١) .

(٤) صحيح : رواه أبو داود (٦٥٠) أحمد (٣/٩٢) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٦١).

(٥) صحيح : رواه مسلم (٢٨٥) .

Marfat.com

ضيقة لا تتّسع للجميع .

ويُذكر أن الرسول قال له : « **لَقَد تحجرت واسعًا** » وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُصَبَّ على البول ذَنُوبٌ من ماء ، مثل الدلو لِتَطْهُر الأرض (١) .

٣ ـ وأما طهارة البدن : فقد ثبت فى « الصَّحيحين » من حديث عبد الله بن عباس أن الرسول ـ ﷺ ـ مَرَّ بقَبْرَيْنِ فقال : « **إنَّهما لَيُعَذَّبان ، ومَا يُعَذَّبَان فى كَبير ، أمَّا أحَدُهُما فكان لا يَستَبرىء من البَوْل ، وأمَّا الآخَرُ فكان يَمشى بالنَّميمة بين النَّاس** » والعياذ بالله (٢) .

فدل هذا : على أنه لا بد من التَّنَزُّه من البول ، وهكذا بقية النجاسات ، ولكن لو فرض أن الإنسان فى البر وتنجَّس ثوبه وليس معه ما يَغْسله به فهل يتيمم من أجل صلاته فى هذا الثوب ؟

جـ ـ لا يتيمم ، وكذلك لو أصاب بدنه نجاسة رجله أو يده أو ساقه أو ذراعه نجاسة وليس عنده ما يغسله فإنَّه لا يتيمم ؛ لأن التيمم إنما هو بطهارة الحدث فقط .

أما النجاسة فلا يتيمم لها ، لأن النجاسة عين قَذِرة تطهيرها بإزالتها إن أمكن فذاك، وإن لم يمكن تبقى حتى يمكن إزالتها ، والله أعلم .

أحكام المسح على الخفين والجبيرة :

سبق أن للوضوء أربعةَ أركان : اثنان يغسلان ، وواحد يُمسح ، وواحد يغسل ويمسح.

ـ أما الوجه فلا يمكن أن يمسح إلا إذا كان هناك جبيرة ، أى : لزقة على جرح وما أشبهه.

فلو أنَّ إنسانًا غطى وجهه بشىء من سموم شَمْس أوْ غيره ، فإنه لا يمسح عليه ، بل يُزيل الغطاء ويغسل الوجه ، إلاَّ إذا كان هناك ضرورة فإنَّه يَمْسح ما غطى به وجهه على سبيل البدل من الغَسل .

ـ وأمّا اليدان ، فكذلك لا تمسحان ، بل لابد من غسلها إلا إذا كان هناك ضرورة ، مثل أن يكون فيهما حساسية يضرها الماء ، وجعل عليهما لفافة أو لبس قفازين من أجل الا يأتيهما الماء فلا بأس أن يمسح جبيرة للضرورة .

ـ وأما الرأس فيمسح وطهارته أخفُّ من غيره ، ولهذا لو كان المرأة على رأسها حِنَّاء

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠١٠) أحمد (٢/ ٢٨٣) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢١٦) مسلم (٢٩٢) الترمذى (٧٠) .

Marfat.com

مُلَبّد عليه أو لبد المحرم رأسه فى حال إحرامه كما فعل النبى عليه الصلاة والسلام ، فإنَّه يَمسح هذا الملبد ولا حاجة إلى أن يزيله .

- أما الرِّجلان فتغسلان وتمسحان ، ولهذا جاء القرآن الكريم على وجهين فى قراءة قوله تعالى : ﴿وأَرْجُلَكُمْ﴾ بالفتح والكسر .

أما قراءة الكسر ﴿أرْجُلِكُمْ﴾ فهى عطفًا على قوله : ﴿امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة : ٦] أى : وامسحوا بأرجلكم.

وأمَّا النصب ﴿وأَرْجُلَكُمْ﴾ فهى عطفًا على قوله تعالى : ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة : ٦] . أى : واغسلوا أرجلكم .

ولكن متى تُمسَح الرِّجل ؟

جـ - تمسح الرِّجل إذا لبس عليها الإنسان جَوَارب أو خفين .

الجوارب : ما كان من القطن أو الصوف أو نحوه .

والخفَّان : ما كان من الجلد أو شبهه فإنَّه يمسح عليهما لكن بشروط أربعة :

الأول الطهارة : أى طهارة الخفين أو الجوربين فلو كانا من جلد نجس ، فإنَّه لا يصحُّ المسح عليهما ، لأن النَّجس خبيث لا يتطهر مهما مسحته وغسلته .

أما إذا كانتا متنجستين فمن المعلوم أن الإنسان لا يصلى فيهما فلا يمسح عليهما .

الثانى : أن يلبسهما على طهارة بالماء :

فإن لبسهما على تيمم فإنه لا يمسح عليهما فلو أن شخصًا مُسَافرًا لبس الجوارب على طهارة تيمم ثم قدم البلد فإنَّه لا يمسح عليهما ؛ لأنَّه لبسهما على طهارة تيمم وطهارة التيمم إنما تتعلق بالوجه والكفَّين لا علاقة لها بالرِّجلين .

وعلى هذا يكون الشَّرط مأخوذًا من قول النبى - ﷺ - للمغيرة بن شعبة : « إنى أدْخَلتهما طاهِرَتَيْنِ »(١) .

الثالث أن يكونا فى الحدث الأصغر : أى : فى الوضوء ، أما الغسل فلا تمسح فيه الخُفَّان ، ولا الجوارب ، بل لابد من خلعهما وغسل الرجلين ، لو كان على الإنسان جَنَابة فإنه لا يمكن أن يمسح على خفيه .

الرابع أن يكون فى المدة المحددة شرعًا : وهى يوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام للمسافر ،

(١) صحيح : رواه البخارى (٢٠٦) مسلم (٢٧٤) .

Marfat.com

ولكن متى تَبْتَدِئ ؟

جـ : تبتدىء من أول مرة مَسح بعد الحَدَث ، أمَّا ما قبل المَسْح الأول فلا يحسب من المدة .

فلو فُرِض أنَّ شخصًا لبسهما على طهارة فى صباح يوم الثلاثاء وبقى إلى أن صلَّى العشاء فى طهارته ثم نام فى ليلة الأربعاء ، ولما قام لصلاة الفجر مسح ، فيوم الثلاثاء لا يُحْسَب عليه ؛ لأنَّه قبل المَسْح ، بل يحسب عليه من فجر يوم الأربعاء ، لأن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال : « جعل رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ويومًا وليلة للمقيم » [1] .

وقال صفوان بن عسال : « أمَرَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن نَمسحَ خِفَافَنَا ثلاثَةَ أيَّامٍ بِلَيَالِيهن إذا كُنَّا سفرًا » [2] فالعبرة بالمسح لا باللبس ولا بالحدث بعد اللبس .

فيتم المقيم يومًا وليلة ، أى (٢٤) ساعة ، ويتم المُسافر ثلاثة أيام بلياليهن ، أى : (٧٢) ساعة . فإن مسح الإنسان وهو مقيم وسافر قبل أن تتم المُدة فإنَّه يتمم مَسْحَ مُسافر ثلاثةَ أيَّامٍ .

مثلاً : لو لبس اليوم لصلاة الفجر ومَسَح لصلاة الظُّهر ، ثم سافر بعد الظهر ، فإنَّه يتمم ثلاثة أيام ، ولو كان بالعكس مَسحَ وهو مُسافر ثم أقام فإنه يتمم مَسْح مُقِيم ، لأنَّ العبرة بالنّهاية لا بالبداية .

وهذا الذى رجع إليه الإمام أحمد رحمه الله وكان بالأول يقول : إنَّ الإنسان إذا مسح مقيمًا ثم سافر أتم مسح مقيم ، ولكنه رجع عن هذه الرِّواية ، وقال : إنَّه يتمم مَسْحَ مُسَافر [3] ، ولا تستغرب أن العالم يرجع عن قوله ، لأنَّ الحقَّ يجب أن يُتَّبَع ، فمتى تبين للإنسان الحقّ وجب عليه اتباعُه . فالإمام أحمد ـ رحمه الله ـ أحيانًا يُروى عنه فى المسألة الواحدة أربعة أقوال أو خمسة إلى سبعة أقوال فى مسألة واحدة. وهو رجل واحد، أحيانًا يصرح بأنَّه رجع وأحيانًا لا يصرح .

إن صرح بأنه رجع عن قوله الأوّل فإنَّه لا يجوز أن ينسب إليه القول الأول الذى رجع عنه إلا مقيَّدًا فيُقَال : قال به أولاً ثم رجع ، أما إذا لم يصرح بالرُّجوع فإنه يجب أن

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٧٦) النسائى (١/ ٨٤) ابن ماجة (٥٥٢).

(٢) الترمذى (٩٦) النسائى (١٢٧) ابن ماجه (٤٧٨) وصححه الألبانى فى الإرواء (١٠٤).

(٣) انظر المغنى مع الشرح الكبير (١/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨) .

Marfat.com

يُحسب القولان له .

والإمام أحمد تكثر الروايات عنه ؛ لأنه أثَرِيٌّ يأخذ بالآثار ، والذى يأخذ بالآثار ليس تأتيه الآثار دُفعةً واحدة ، حتى يحيط بها مرة واحدة ، ويستقر على قول منها ، لكن الآثار تتجدد ، يُنقل له حديث اليوم وينقل له حديث فى اليوم الثانى وهكذا .

واعلم أن الإنسان إذا تمَّت المدة وهو على طهارة فإنه لا تنتقض طهارته لكن لو انتقضت فلابد من خلع الخفين وغسل القدمين ، لكن مجرد تمام المدة لا ينقض الوضوء.

كذلك إذا خلعهما بعد المسح وهو على طهارة ، فإنها لا تنتقض طهارته ، بل يبقى على طهارته ، فإذا أراد أن يتوضأ فلابد من أن يغسل قدميه بعد أن نزع

والقاعدة فى هذا أنه متى نزع الممسوح فإنه لا يعاد ليمسح ، بل لابد من غسل الرجل ثم إعادته إذا أراد الوضوء .

الشرط الثالث : استقبال القبلة :

فاستقبال القبلة شرطٌ من شُرُوط الصلاة لا تصح الصَّلاة إلا به ؛ لأن الله تعالى أمر وكرر الأمر به فى أول الجزء الثانى من القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة : ١٥٠] . أى : جهته .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام أوَّل ما قَدِمَ الْمدينةَ كان يصلى إلى بيت المقدس فيجعل الكعبة خلف ظهره والشام قبل وجهه ، ولكنه بعد ذلك ترقب أن الله سبحانه وتعالى يشرع له خلاف ذلك ، فجعل يقلب وجهه فى السماء ينتظر متى ينْزل عليه جبريل بالوحى فى استقبال بيت الله الحرام [(١)] كما قال الله تعالى : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة : ١٤٤] .

فأقرَّهُ الله أن يستقبل المسجد الحرام ، أى : جهته . إلا أنه يُستثنى من ذلك ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : إذا كان عاجزًا كمريض وجهه إلى غير القبْلة ولا يستطيع أن يَتَوجَّه إلى القبلة فإن استقبال القبلة يسقط عنه فى هذه الحالة لقوله : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] ، وقوله تعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة ٢٨٦] وقول النَّبى ﷺ : « إذا

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٤٤٩٢) .

Marfat.com

أمَرْتُكُم بِأمْرٍ فَأتُوا منه ما استطعتم» (١).

المسألة الثانية : إذا كان فى شِدّة الخوف كإنسان هَارب من عدو أو هارب من سبع أو هارب من نار أو هارب من واد يغرقه .

المهم أنه في شدة خوف فهنا يُصَلّي حيث كان وجهه ودَليله قوله تعالى : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٢٩] ، فإنَّ قوله : ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عام يشمل أى خوف .

وقوله : ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٢٣٩] . على أنَّ أى ذكر تركه الإنسان من أجل الخوف فلا حرج عليه فيه ، ومن ذلك استقبال القبلة .

ويدلُّ عليه : ما سبق من الآيتين الكريمتين والحديث النبوى فى أن الوجوب معلق بالاستطاعة .

المسألة الثالثة : فى النَّافلة فى السَّفر سواء كان على طائرة أو على سيَّارة أو على بعير فَإِنَّه يُصَلِّى حيث كان وجهه فى صلاة النفل مثل الوتر وصلاة الليل والضُّحى وما أشبه ذلك .

والمسافر ينبغى له أن يتنفل بجميع النَّوافل كالمقيم سواءً إلا فى الرواتب كراتبة الظُّهر والمغرب والعشاء ، فالسُّنة تركها .

فإذا أراد أن يتنفل وهو مُسَافر فليتنفل حيث كان وجهه ؛ لأن ذلك هو الثابت فى «الصحيحين » عن رسول الله - ﷺ - (٢) .

فهذه ثلاث مسائل لا يجب فيها استقبال القبلة .

أما الجاهل فيجب عليه أن يستقبل القبلة ، لكن إذا اجتهد وتحرَّى ثم تبين له الخطأ بعد الاجتهاد ، فإنه لا إعادة عليه ولا نقول إنه يسقط عنه الاستقبال ، بل يجب عليه الاستقبال ويتحرى بقدر استطاعته فإذا تحرَّى بقدر استطاعته ثم تبَّين له الخطأ فإنه لا يُعيد صلاته ، ودليل ذلك أن الصَّحابة الذين لم يعلموا بتحويل القبلة إلى الكعبة ، كانوا يُصَلُّون ذات يوم صلاة الفجر فى مسجد قباء فجاءهم رجل فقال : إن النبى - ﷺ - أنزل عليه قرآن وأُمِرَ أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فاستداروا ، بعد أن كانت الكعبة وراءهم جعلوها أمامهم ،

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٢٨٨) مسلم (١٣٣٧).

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٠٩٤) مسلم (٧٠٠) .

Marfat.com

فاستداروا واستمروا على صلاتهم [١] وهذا فى عهد النبى - ﷺ - ولم يكن إنكارًا له فيكون ذلك مشروعًا ، يعنى أن الإنسان إذا أخطأ فى القبلة جاهلاً فإنَّه ليس عليه إعادة ، ولكن إذا تبين له ولو فى أثناء الصَّلاة وجب عليه أن يستقيم إلى القبلة . فهذا استقبال القبلة شرط من شروط الصلاة لا تصحُ الصَّلاة إلا به إلا فى فى المواضع الثَّلاثة وإلا إذا أخطأ الإنسان بعد الاجتهاد والتَّحَرى

وهنا مسألة : يجب على مَن نزل على شخص ضيفًا وأراد يَتَنَفَّل أن يسأل عن القبلة ، فإذا أخبره اتَّجه إليها ؛ لأن بعض الناس تأخذه العزة بالإثم ، ويمنعه الحياء وهو فى غير محله عن السُّؤال عن القبلة .

فبعض الناس يستحى من السؤال حتى لا يقول الناس لا يعرف ! لا يَضُرُّ فليقولوا ما يقولونه ، بل اسأل عن القبلة حتى يخبرك صاحب البيت .

أحيانًا بعض الناس تأخذه العِزَّة بالإثم ويتجه بناءً على ظنه إلى جهة ما ويتبين له أنها ليست القبلة ، وفى هذه الحال يجب عليه أن يعيد الصلاة ؛ لأنه استند إلى غير مستند شرعى .

والمستند إلى غير مستند شرْعى لا تُقبل عبادته لقول النبى - ﷺ - : « **مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أمْرُنَا فَهُو رَدٌّ** » [٢] .

فإن الصَّلاة لا تصحُّ إلا بنيَّة لقول النبى ﷺ: « **إنَّمَا الأعمال بالنيَّات ..** » الحديث.

وقد دلَّت الآيات الكريمة على اعتبار النِّيَّة فى العبادات مثل قوله تعالى فى وصف النبى - ﷺ - : وأصحابه : ﴿ تراهم ركَّعًا سجَّدًا يبتغون فضلاً مَن الله ورضوانًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ وما تُنفقون إلاَّ ابتغاء وجْه الله ﴾ [البقرة : ٢٧٢] . والآيات فى هذا كثيرة، وقال : ﴿ومن يخْرُج من بيْته مُهاجرًا إلى الله ورسُوله ثُمَّ يُدْركْهُ الْموْتُ فقدْ وقع أجْرُهُ على الله﴾ [النساء : ١٠٠] . فالنِّيَّة شرْطٌ من شُروط صحَّة الصَّلاة لا تَصحُّ الصَّلاة إلا بها ، وهى فى الحقيقة ليست بالأمر الصَّعب كل إنسان عاقل مختار يفعل فعلاً فإنه قد نواه ، فلا تحتاج إلى تعب ولا إلى نطق ، محلها القلب : « **إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّات** » ؛ ولأنَّ النَّبى - ﷺ -لم ينطق بالنِّية وَلا أمرَ أُمَّته بالنُّطق بها ولا فعلها أحد من أصحَابه فأقره على ذلك ،

(١) صحيح : رواه البخارى (٤٤٩٣) الترمذى (٢٩٦٢) .

(٢)سبق تخريجه برقم (١) .

Marfat.com

فالنطق بالنِّية بدعة هذا هو القول الراجح ؛ لأنَّك كما تشاهد الرَّسول وأصحابه يصلون ليس فيهم أحد نطق قال : اللهم إنى نويت أن أصلى .

وما أظرف قصة ذكرها لى بعض الناس ـ عليه رحمة الله - قال لى : إنَّ رجلاً فى المسجد الحرام قديمًا أراد أن يُصلى فأقيمت الصَّلاة فقال : اللهم إنى نويت أن أُصلى الظهر أربع ركعات لله تعالى خلف إمام المسجد الحرام .

لما أراد أن يُكبر قال له : اصبر بقى عليك ! قال : ما الباقى ؟ قال له : قُل فى اليوم الفُلانى وفى التَّاريخ الفُلانى من الشَّهر والسَّنة حتى لا تضيع هذه الوثيقة ، فتعجب الرَّجل ! والحقيقة أنَّها محل التَّعجب .

هل أنت تُعَلِمُ الله عز وجل بما تريد ؟ الله يعلم ما تُوسوس به نفسك . هل تُعَلِم الله بعدد الركعات والأوقات ؟ لا داعى له هو يعلم هذا ، فالنِّية محلها القلب .

ولكن كما نعلم أن الصَّلوات تنقسم إلى أقسام : نفل مطلق ، ونفل معين ، وفريضة .

الفرائض خمس : الفجر ، والظهر والعصر ، والمغرب ، والعشاء . إذا جئت إلى المسجد فى وقت الفجر ، فماذا تُريد أن تصلى المغرب ؟! الفجر .

وهناك مسألة : إذا جئت وكَبَّرت وغاب عن ذهنك أى صلاة هى ، وهذا يقع كثيرًا إذا جاء بسرعة يخشى أن تفوته الرَّكعة .

فهنا لا حاجة ووقوع الصَّلاة فى وقتها دليل على أنَّه إنَّما أردت هذه الصَّلاة ، ولهذا لو سألك أى واحد هل أردت الظُّهر أو العصر أو المغرب أو العشاء لقلت : أبدًا ما أردت إلا الفجر .

إذًا لا حاجة إلى أن أنوى أنَّها الفجر ، صَحِيح إننى إن نويتها الفجر أكمل ، لكن أحيانًا يغيب عن الذهن التعيين ، فنقول يعينها الوقت .

إذًا الفرائض يكون تعيينها على وجهين :

الوجه الأول : أن يعينها بعينها فيقول بقلبه إنَّه نَوَى الظهر وهذا واضح .

والوجه الثاني: الوقت فما دمت تُصلى الصَّلاة فى هذا الوقت فهى هى الصَّلاة .

هذا الوجه الثَّانى إنما يكون فى الصلاة المؤداة فى وقتها ، أمَّا لو فُرِضَ أن على إنسان صلوات مقضية كما لو نام يومًا كاملاً عن الظهر والعصر والمغرب ، فهنا إذا أراد أن يقضى لابد أن يعين بعينها ؛ لأنه لا وقت لها .

النوافل المعينة مثل الوتر وركعتى الضُّحى والرَّواتب فهذه لابد أن تعينها بالاسم . لكن

Marfat.com

بالقلب لا باللِّسان !

فإذا أردت أن تُصَلِّى الوتر مثلاً وكبَّرت ولكن ما نويت الوتر وفى أثناء الصَّلاة نويتها الوتر هذا لا يصح ؛ لأن الوتر نفل معين والنَّوافل المعينة لابد أن تُعَيَّن بِعَيْنِها .

النَّوافل المطلقة مَا تحتاجُ إلى نيَّة إلا نيَّة الصَّلاة .

نيَّة الصلاة لابد منها مثل إنسان فى الضُّحى توضأ وأراد أن يُصلى ما شاء الله نقول: يكفى نيَّة الصَّلاة ، وذلك لأنها صلاة غير مُعَيَّنة .

إذا أراد الإنسان أن ينتقل فى الصلاة من نيَّة إلى نيَّة هل هذا ممكن ؟

جـ ـ ننظر ، الانتقال من مُعَيَّن إلى مُعَيَّن أو من مطلق إلى معين لا يصح .

مثال المطلق : إنسان قام يُصلى صلاة نافلة مطلقة ، وفى أثناء الصَّلاة ذكر أنه لم يصل راتبة الفجر، فنواها لراتبة الفجر .

نقول : لا تصح لراتبة الفجر ؛ لأنَّه انتقال من مطلق إلى معيَّن ، المعين لابد أن تنويه من أوله ، فراتبة الفجر من التكبير إلى التَّسليم .

ومثال معين إلى معين : رجل قام يُصَلِّى العصر ، وفى أثناء صلاته ذكر أنه لم يصل الظهر أو أنَّه صَلاها بغير وضوء فقال الآن نويتها للظُّهر .

هنا لا تصح للظُّهر ؛ لأنَّه من معين إلى معين ، لا تصح أيضًا صلاة العصر التى ابتدأ؛ لأنه قطعها بانتقاله إلى الظهر .

أما الانتقال من معين إلى مطلق فإنَّه يصح ، مثل إنسان شرع فى صلاة الفَرِيضة ، ثم لما شرع ذكر أنه على مِيعاد لا يمكنه أن يتأخر فيه فنواها نفلاً فإنَّها تصح إذا كان الوقت مُتَّسِعًا ولم يفوت الجماعة .

هذان شرطان : الشَّرط الأول إذا كان الوقت مُتَّسعًا ، والثانى : إذا لم يفوت الجماعة، فمثلاً إذا كان فى صلاة جماعة فلا يمكن أن يُحَوِّلها إلى نفل مطلق ؛ لأن هذا يَسْتلزم أن يدع صلاة الجماعة .

إذا كان الوقت ضيقًا فلا يصح أن يحولها إلى نفل مطلق ؛ لأن صلاة الفريضة إذا ضاق وقتها لا يتحمل الوقت سواها .

فصارت الحالات ثلاثًا :

١ ـ من مطلق إلى معين : لا يَصِحُّ المعين ويبقى المطلق .

٢ ـ من مُعَيَّن إلى مُعين : يبطل الأول ولا يَنعقد الثانى .

Marfat.com

٣ ـ من معين إلى مطلق : يصح ويبقى المعين عليه .

نية الإمامة والائتمام :

الجماعة تحتاج إلى إمام ومأموم وأقلُّها اثنان إمام ومأموم ، وكلما كان أكثر فهو أحب إلى الله ، ولا بد من نيَّة المأموم والائتمام ، وهذا شيء متَّفق عليه يعنى إذا دخلت فى جماعة فلابد أن تَنْوى الائتمام بإمامك الذى دخلت معه .

ولكن النِّيَّة لا تحتاج إلى كبير عمل ؛ لأنَّ مَن أتى إلى المسجد فإنه نوى أن يأتم ، ومَن قال لشخص صلِّ بى فإنه قد نوى أن يأتم .

أما الإمام فقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ هل يجب أن ينْوى أن يكون إمَامًا أوْ لا يجب ؟

فقال بعض أهل العلم : لابد أن يَنْوِى أنَّه الإمام وعلى هذا فلو جاء رجلان ووجَدَا رَجُلاً يُصلِّى ونويا أن يكون الرجل إمامًا لهما فصفا خلفه وهو لا يدرى بهما ، فمن قال : إنَّه لابد للإمام أن يَنْوى الإمامة فقال : إن صلاة الرَّجلين لا تصح وذلك لأن الإمام لم يَنْوى الإمامة .

ومن قال إنه لا يشترط قال : إن صلاة هذين الرجلين صحيحة ؛ لأنهما ائتما به .

فالأول :هو المشهور من مذهب الإمام أحمد ، والثَّانى : هو مذهب الإمام مالك، واستدل بأنَّ النَّبى ـ ﷺ ـ صلى ذات ليلة فى رمضان وحده فدخل أُناس المسجد فصلُّوا خلفه والنبى ـ ﷺ ـ كان أوَّل مَا دَخل الصَّلاة لم ينو أن يكون إمامًا [(١)] ، واستدلوا كذلك بأنَّ ابن عباس رضي الله عنهما بات عند النبى ـ ﷺ ـ ذات ليلة فلما قام النبى ـ ﷺ ـ يُصَلِّى من اللَّيل قام يُصلِّى وحده فقام ابن عباس فتوضأ ودخل معه الصَّلاة [(٢)] .

ولكن لا شك أن هذا الثَّانى ليس فِيه دلالة ؛ لأنَّ النَّبى ـ ﷺ ـ نوى الإمامة ، لكن نواها فى أثناء الصَّلاة ولا بأس بأن ينويها فى أثناء الصلاة .

على كل حال الاحتياط فى هذه المسألة أن نقول : إنَّه إذا جاء رجلان إلى شخص يُصَلِّى فلينبهاه على أنه إمام لهما .

فإن سكت فقد أقرهما وإن رفض وأشار بيده الا تُصليا خلفى فلا يصليا خلفه . هذا هو الأحواط والأولى .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (١١٨٦) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٦٣١٦) مسلم (٧٦٣) .

Marfat.com

ثانيًا : هل يشترط أن تتساوى صلاة الإمام مع صلاة المأموم فى جنس المشْرُوعية ؟

بمعنى هل يَصِحُّ أن يُصَلى الفريضة خلف مَن يُصلى النافلة أو أن يُصَلى النافلة خلف مَن يُصَلى الفريضة ؟

جـ ـ أمَّا الإنسان الذى يُصَلِّى نافلة خلف مَن يُصَلِّى فريضة فلا بأس بهذا ؛ لأن السُّنة قد دلت على ذلك ، فإن الرسول - ﷺ - انفتل من صلاة الفجر ذات يوم فى مسجد الخيف بِمِنَى فوجد رَجُلين لم يُصليا فقال : « **ما منعكما أن تُصليا فى القوم ؟** » قالا : يا رسول الله صلينا فى رحالنا ـ يحتمل أنهما صَلَّيا فى رِحَالهما لظنهما أنَّهما لا يُدركان صلاة الجماعة أو لغير ذلك من الأسباب ـ فقال : « **إذا صَلَّيْتُهما فى رِحَالِكُما ثم أتيتما جَمَاعة فَصَلّيا فإنّها لكما نافلة** »[(١)] .

« فإنّها » الأولى أو الثانية ؟

جـ ـ الثَّانية ؛ لأنَّ الأولى حصلت بها الفريضة وانتهت وَبَرِئَت الذِّمة .

إذًا إذا كان المأموم هو الذى يُصَلِّى النَّافلة والإمام هو الذى يُصَلِّى الفريضة فلا بأس بذلك كما دلَّت عليه هذه السُّنة .

أمَّا العكس إذا كان الإمام يُصلى النَّافلة والمأموم يُصَلِّى الفريضة وأقْرَبُ مثال لذلك فى أيام رمضان إذا دخل الإنسان وقد فاتته صلاة العشاء ووجد الناس يُصَلُّون صلاة التَّراويح، فهل يدخل معهم بنيَّة العشاء أو يُصلى الفريضة وحده ثم يُصلى التراويح ؟

جـ ـ هذا محل خلاف بين العلماء ، فمنهم مَن قال : لا يَصِحُّ أن يُصلى الفريضة خلف النافلة ؛ لأن الفريضة أعلى ولا يمكن أن تكون صلاة المأموم أعلى من صلاة الإمام.

ومنهم مَن قال : بل يَصِحُّ أن يصلى الفريضة خلف النَّافلة ؛ لأن السُّنَّة وردت بذلك وهى أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يُصلى مع النبى- ﷺ - صلاة العشاء ، ثم يذهب إلى قومه فيصلى بهم تلك الصلاة[(٢)] .

فهى له نافلة ولهم فريضة ، ولم يُنكر عليه النبى- ﷺ - ، فإن قال قائل : لعل النبى - ﷺ - لم يعلم ؟

فالجواب عن ذلك أن نقول : إن كان قدعلم فقد تمَّ الاستدلال ؛ لأن معاذ بن جبل رضي الله عنه قد شكيَ إلى الرَّسول فى كونه يُطول صلاة العشاء ، فالظَّاهر أنَّ الرَّسول أُخبر بكل

---

(١) صحيح : رواه الترمذى (٢١٩) البيهقى فى السنن (٢/ ٣٠٠) وصححه الألبانى فى المشكاه (١١٥٢) .

(٢) صحيح : رواه مسلم (٤٦٥) أحمد (٥/ ٧٤) وابو داود (٦٨) .

Marfat.com

القضية وبكل القصَّة .

وإذا قُدِّر أن رسول الله - ﷺ - لم يَعْلم أنَّ معاذًا يُصلى معه ثم يذهب إلى قومه ويصلى بهم فإن رب الرسول - ﷺ - قد علم وهو الله جل وعلا لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وإذا كان الله قد علم ولم يُنزل على نبيه إنكارًا لهذا العمل دلَّ ذلك على جوازه ؛ لأن الله لا يُقر عباده على شىء غير مَشْروع لهم إطلاقًا . فتم الاستدلال حينئذ على كل تقدير . .

إذًا فالصَّحيح أنَّه يجوز أن يُصلى الإنسان صلاة الفريضة خلف مَن يُصلى صلاة النافلة والقياس الذى ذكر استدلالاً على المنع قياسٌ فى مُقَابَلة النَّص فيكون مطروحًا فاسدًا لا يُعتبر ، إذن إذا أتيت فى أيام رمضان والنَّاس يُصلون صلاة التَّراويح ولم تصل العشاء فادخل معهم بنيَّة صلاة العشاء .

ثم إن كنت قد دخلت فى أول ركعة فإذا سلَّم الإمام فصلِّ ركعتين لتتم الأربع وإن كنت دخلت فى الثانية فصلِّ إذا سلم الإمام ثلاث ركعات ؛ لأنك صليت مع الإمام ركعة.

وهذا منصُوص الإمام أحمد مع أن مذهبه خلاف ذلك ، لكن مَنْصُوصه الذى نَصَّ عليه شخصيًا أن هذا جائز (١) .

إذن تَلَخَّص الآن :

مَن صَلَّى فريضة خلف فريضة فجائز .

فريضة خلف نافِلة فيها خلاف .

نافلة خلف فريضة جائزه قولاً واحدًا .

المسألة الثالثة : فى جنس الصلاة ، هل يُشترط أن تتفق صلاة الإمام والمأموم فى نوع الصلاة ، أى : ظهر مع ظهر ، وعصر مع عصر أم لا ؟

جـ - فى هذا أيضًا خلاف ، فمن العلماء مَن قال : يجب أن تتفق الصَّلاتان فَيُصَلَّى الظُّهر خلف مَن يُصَلِّى الظهر ،ويُصَلِّى العصر خلف من يُصَلِّى العصر ، ويُصَلِّى المغرب خلف من يُصَلِّى المغرب ،وهكذا ؛لأن النبى - ﷺ - قال: « **إنَّمَا جُعلَ الإمَامُ ليؤتَمَّ به**»(٢) .

ومن العلماء مَن قال : لا يُشْتَرط فيجوز أن تُصَلِّى العَصْر خلف مَن يُصَلِّى الظُّهر أو الظُّهر خلف من يصلى العصر أو العصر خلف من يُصَلِّى العشاء ، لأن الائتمام فى هذه

(١) انظر المغنى والشرح الكبير (٢/ ٦٤ - ٦٦) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (١١١٣ ، ١١١٤) مسلم (٤١١) .

Marfat.com

الحال لا يتأثر ، وإذا جاز أن يُصلى الفريضة خلف النَّافلة مع اختلاف الحكم ، فكذلك اختلاف الاسم لا يضر وهذا القول أصَحُّ ، فإذا قال إنسان كيف يُصلى الظُّهر خلف مَن يُصَلِّى العشاء ؟

جـ ـ حضرت لصلاة العشاء بعد أن أذن ولما أُقيمت الصلاة تذكرت أنك صَلَّيت الظُّهر بغير وضوء .

نقول له : ادخل مع الإمام وصل الظُّهر ، أنت نيَّتك الظُّهر والإمام نيَّته العشاء ولا يضر : « **إنَّما الأعمال بالنيَّات وإنَّما لكل امْرِىء ما نَوَى** » (١) وأما قول النبى ـ ﷺ ـ : «**إنَّما جُعلَ الإمَامُ ليُؤتَم به فَلا تَختلفُوا علَيْه**» ، فليس معناه فلا تختلفوا عليه فى النِّية ؛ لأنَّه فَصَّل وبيَّن فقال : « **فَإذَا كبر فكبروا ، وإذا سَجَدَ فَاسْجُدُوا ، وإذَا رَفَعَ فَارْفَعوا** » (٢) أى : تابعوه ولا تسبقوه وكلام الرسول ـ ﷺ ـ يفسر بعضه بعضًا .

هذا البحث يُفرَّع عليه بَحْثٌ آخر : إذا اتَّفقت الصَّلاتان فى العَدَدَ والهيئة فلا إشكال فى هذا ، مثل ظُهر خلف عصر ، العَدَدَ واحد والهيئة واحدة هذا لا إشكال فيه.

لكن إذا اختلفت الصَّلاتان بأن كانت صلاة المأموم ركعتين والإمام أربع وبالعكس أو المأموم ثلاث والإمام أربع أو بالعكس .

فنقول : إن كانت صلاة المأموم أكثر فلا إشكال مثل لو صلَّى العَصر خلف مَن يُصلى المغرب مثل رجل دخل المسجد يُصلى المغرب ولما أقيمت الصَّلاة ذكر أنَّه صلى العصر بلا وضوء فهنا صلاة عليه صار العصر .

نقول : ادْخُل مع الإمام بنيَّة صلاة العصر ، وإذا سلَّم الإمام فإنك تأتى بواحدة لتتم لك الأربع ، هذا لا إشكال فيه .

إذا كانت صلاة الإمام أكثر من صلاة المأمُوم فهذا نقول إن دخل المأموم فى الرَّكعة الثانية فما بعدها فلا إشكال ، وإن دخل فى الركعة الأولى فحينئذ يأتى الإشْكَال !

وَلنُمَثِّل : إذا جئت والإمام يُصَلِّى العشاء وهذا يقع كثيرًا فى أيام الجمع ، يأتى الإنسان من البيت والمسجد جامع للمصر وما أشبهه ، فإذا جاء وجدهم يُصلُّون العشاء .

لكن وجدهم يصلون فى الركعتين الأخيرتين نقول : ادخل معهم بنيَّة المغرب ، صلِّ الركعتين وإذا سلم الإمام تأتى بركعة ولا إشكال .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

Marfat.com

وإذا جئت ووجـدتهم يُصَلُّون العشـاء الآخر لكنهم فى الرَّكـعة الثانيـة نقول : ادخل معهم بنيَّة المغرب وسلِّم مع الإمـام ولا يَضُرُّ لأنَّك مَا زِدت ولا نقصت هذا أيضًا لا إشكال فيه .

هذا فيه إشكال عند البعض ويقول : إذا دخلت مـعه فى الركعة الثانية ثم جلست فى الركعة التى هى للإمام الثانية وهى لك الأولى فتكون جلست فى الأول للتَّشهد .

نقول : هذا لا يـضر ألَسْتَ إذا دَخَلْتَ مع الإمـام فى صلاة الظهـر فى الركعة الثـانية فالإمام سَوف يَجْلِس للتَّشهد وهى لك الأولى هذا نفسه ولا إشكال .

الإشكال إذا جـئت إلى المسجد ووجـدتهم يُصَلُّون العِـشاء ، وهم فى الركـعة الأولى ودَخَلْتَ معهم فيها حينئذٍ ستصلى ثلاث مع الإمام والإمام سَيقوم للرَّابعة فماذا تصنع ؟

إن قمت مـعه زدت ركعـة والمغرب ثلاث لا أربع ، وإن جـلست تخلفـت عن الإمام فماذا تصنع ؟

نقول : اجلس وإذا كنت تُريد أن تجمع فانو المُفَـارقة واقرأ التحيات وسلم ، ثم ادخل مع الإمام فيما بقى من صلاة العشاء ؛ لأنَّك يمكن أن تُدركه.

أما إذا كُنت لا تَنْـوى الجَمْع أو مِمَّن لا يَحقُّ لَهُ الجَـمع فإنَّك فى هذه الحال تـخيَّر إن شئت فاجلس للـتَّشهد وانتظر الإمام حتى يكـمل الرَّكعة ويتشهَّد وتُسلِّـم مَعَهُ ، وإن شئت فانوى الانفراد وسلِّم .

وهذا الذى ذكرناه هو القول الرَّاجح وهو اختيار شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ .

ونيَّـة الانفراد هنـا للضَّرورة ؛ لأن الإنسـان لا يمكن أن يزيـد فى المغرب عـلى ثلاث فالجلوس لضرورة شرعية ولا بأس بهذا[(١)] .

ومما يدخل فى قوله : « وتُقِيمُ الصَّلاة » أركان الصَّلاة .

والأركان هى الأعمال القولية أو الفعلية التى لا تصح الصلاة إلا بها ولا تقوم إلا بها.

فمن ذلك تكبيرة الإحرام : أن يقول الإنسان عند الدُّخـول فى الصَّلاة « الله أكبر» لا يمكن أن تنعقد الصَّلاة إلا بـذلك ، فلو نَسى الإنسان تكبيرة الإحرام فصلاته غـير صحيحة وغير منعقدة إطلاقًا ؛ لأن تكبيرة الإحـرام لا تنعقد الصَّلاة إلا بها قال النبى ـ ﷺ ـ لرجل علمه كيف يُصلى قال : « **إذَا قُمْتَ إلَى الصَّلاة فَأسبِغ الوضوء ثم اسْـتَقْبِل القِبْلَةَ فَكبِّر** »[(٢)]

(١) انظر المغنى (٢/ ٦٢) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٢٥١) مسلم (٣٩٧) .

Marfat.com

فلابد من التَّكبير وكان النبى - ﷺ - مداومًا على ذلك .

ومن ذلك قراءة الفاتحة : فإنَّ قراءةَ الفَاتحة رُكْنٌ لا تَصحُّ الصَّلاة إلا به لقوله تعالى: ﴿فاقرءوا ما تيسر منه﴾ [المزمل : ٢٠] وهذا أمر ، وقد بيَّن النبى - ﷺ - هذا المُبهم فى قوله : ﴿ ما تيسر ﴾ وأن هذا هو الفاتحه فقال - ﷺ - « **لا صَلاةَ لِمَنْ لَم يَقرأ بفاتحة الكتاب**»(١) .

وقال : « **كل صَلاة لا يقرأ فيها بأم الكتَاب أو بأُمِّ القُران فَهى خِداَج** » أى: فاسدة غير صحيحة (٢) .

فقراءة الفاتحة رُكْنٌ على كل مُصَلٍّ : الإمام ، والمأموم ، والمنفرد ؛ لأن النُّصوص الواردة فى ذلك عامَّة لم تستثنِ شيئًا وإذا لم يستثن الله ورسوله شيئًا فإن الواجب الحكم بالعموم ؛ لأنَّه لو كان هناك مُستثنى لَبيَّنهُ الله ورسوله كما قاله الله : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكلِّ شيء﴾ [النحل : ٨٩] .

ولم يَرد عن النَّبى - ﷺ - حديث صحيح صريح فى سقوط الفاتحة عن المأموم لا فى السرية ولا فى الجهرية ، لكن الفرق بين السرية والجهرية أنَّ الجهرية لا تقرأ فيها إلا الفاتحة وتسكت وتسمع لِقراءة إمامك .

أمَّا السرِّية فتقرأ الفاتحة وغيرها حتى يركع الإمام لكن دلَّت السُّنة على أنه يستثنى من ذلك ما إذا جاء الإنسان والإمام رَاكع فإنَّه إذا جاء والإمام راكع تسقط عنه قراءة الفاتحة ودليلُ ذلك ما أخرجه البخارى عن أبى بكرة رضي الله عنه أنه دخل والرسول - ﷺ - راكع فى المسجد فأسْرَع وَرَكَعَ قبل أن يَدْخُل فى الصَّف ثم دَخَلَ فى الصَّف فلما سلَّم النَّبى - ﷺ - قال : « **أيُّكم الَّذى صَنَعَ هَذَا؟** » قال أبو بكرة : أنَا يا رسول الله ! قال : « **زَادَكَ الله حِرْصًا ولا تَعُدْ** »(٣) .

لأن النبى - ﷺ - علم أن الذى دفع أبا بكرة لسُرْعَته والركوع قبل أن يَصل إلى الصَّف هو الحِرص على إدراك الركعة . فقال له : « **زادكَ الله حِرْصًا ولا تعد** »(٣) أى : لا تَعد لمثل هذا العمل فتركع قبل الدُّخول فى الصَّف وتُسرع ، قال النَّبى - ﷺ - : « **إذَا أتيتُم الصَّلاة فَامشُوا إلَى الصَّلاة وَعَليكُم السَّكينَة والوَقَار** »(٤) .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٧٥٦) مسلم (٣٩٤) .

(٢) صحيح : رواه أحمد (٢/٤١٨) ابن ماجه (٨٤٠) وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه .

(٣) صحيح : رواه أحمد (٥/ ٥٠) أبو داود (٦٨٣) وعند البخارى بلفظ آخر .

(٤) صحيح : رواه البخارى (٩٠٨) مسلم (٦٠٢) .

Marfat.com

ولم يأمره النبى - ﷺ -بقضاء الركعة التى أسرع لإدراكها ولو كان لم يدركها لأمره الرسول - ﷺ -بقضائها ؛ لأن النبى - ﷺ -لا يمكن أن يؤخر البيان عن وقت الحاجة لأنه مُبَلِّغ والمُبلِّغ يُبَلِّغ متى احتِيجَ إِلَى التَّبليغ ، فإذا كان الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام لم يقل له إنك لم تُدرك الركعة علم أنَّه قد أدركها وفى هذا الحال تسقط عنه الفاتحة ، وهناك تعليل مع الدَّليل وهو أن الفاتحة إنما تجب مع القيام والقيام فى هذه الحال قد سقط من أجل مُتَابَعة الإمام ، فإذا سَقَط القيام سَقَطَ الذكر الوَاجِب فيه .

فصار الدَّليل والتَّعليل يدلان على أنَّ مَن جَاء والإمام رَاكع فإنَّه يُكبر تكبيرة الإحرام وهو قائم ولا يقرأ ، بل يَركَع .

لكن إن كبر للركوع مرَّة ثانية فهو أفضل وإن لم يكبِّر فلا حرج وتكفيه التَّكبيرة الأولى.

ويجب أن يقرأ الإنسان الفاتحة وهو قائم ، وأمَّا ما يفعله بعض النَّاس إذا قام الإمام للركعة الثانية مثلاً تجده يجلس ولا يقوم مع الإمام وهو يقرأ الفاتحة فتجده يجلس إلى أن يصل نصف الفاتحة ، ثم يقوم وهو قادر على القيام .

نقول لهذا الرجل : إن قراءتك للفاتحة غير صحيحة لأن الفاتحة يجب أن تُقرأ فى حال القيام وأنت قادر على القيام وقد قرأت بعضها وأنت قاعد فلا تَصِح هذه القراءة .

أمَّا ما زاد على الفاتحة فهو سنة فى الركعة الأُولى والثَّانية ، وأما فى الركعة الثَّالثة فى المغرب أو فى الرَّابعة فى الظهر والعصر والعشاء فليس بسُنَّة .

فالسُّنة الاقتصار فيما بعد الركعتين على الفاتحة ، وإن قرأ أحيانًا فى العصر والظهر شيئًا زائدًا على الفاتحة فلا بأس به ، لكن الأصل الاقتصار على الفاتحة فى الركعتين اللَّتين بعد التَّشهد الأول إن كانت رُباعية أوْ الركعة الثَّالثة إن كانت ثلاثية .

ومن أركان الصَّلاة الركوع : وهو الانحناء تعظيمًا لله عز وجل لأنَّك تستحضر أنَّك واقف بين يدى الله فَتَنحَنِى تعظيمًا له عزَّ وجلَّ .

ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **أمَّا الرُّكوع فَعَظِّموا فيه الرَّب** » (١) ، أى : قُولُوا : سبحان رَبِى العَظِيم ؛ لأنَّ الركوع تعظيم بالفعل وقول : « **سُبحَان ربِّى العَظِيم** » تعظيم بالقول فيجتمع التعظيمان بالإضافة إلى التعظيم الأصْلى وهو تعظيم القلب لله . فيجتمع فى الركوع ثلاث تعظيمات :

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٤٧٩) أبو داود (٨٧٦) النسائى (٢/١٨٩) ابن ماجة (٣٨٩٩) .

Marfat.com

١ ـ تعظيم القلب .

٢ ـ تعظيم الجوارح .

٣ ـ تعظيم اللسان .

والوَاجِب فى الركوع الانحناء بحيث يتمكن الإنسان من مَسِّ رُكْبَتيه بيديه ، فالانحناء اليَسير لا ينفع ، فلابد من أن تهصر ظهرك حتى تتمكن من مَسّ ركبتيك بيديك.

وقال بعض العلماء : إنَّ الواجب أن يكون إلى الركوع التَّام أقرب منه إلى القيام التَّام والمؤدى مُتَقَارب ، المهم أنَّه لابد من هصر الظهر .

ومما ينبغى فى الركوع أن يكون الإنسان مُسْتَوى الظهر لا مُحَدوْدِبًا وأن يكون رأسه مُحاذيًا لظهره ، وأن يضع يديه على ركبتيه مُفَرَّجتى الأصَابع وأن يجافى عضديه عن جنبيه، ويقول : سبحان ربِى العظيم يكررها ويقول : « **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبحَمْدكَ اللَّهُمَّ اغفر لى**»[1] ويقول : « **سبُّوح قدوس رب الملائكة والروح** »[2] .

ومن أركان الصلاة السُّجود : قال الله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج : ٧٧] وقال النبى ـ ﷺ ـ « **أمرت أنْ نَسجُدَ عَلَى سبعة أَعْظُم عَلَى الجَبْهة وأشَار بِيَدِه إلى أنفه والكفين والركبتين وأطراف القدمين** »[3] .

فالسجود لابُدَّ منه ؛ لأنه ركن لا تتم الصَّلاة إلا به .

ويقول فى سجوده : « **سُبْحَان ربى الأعلى** » وتأمَّل الحكمة أنَّك فى الركوعِ تقول: « **سُبحان ربِّىَ العظيم** » لأن الهيئة هيئة تعظيم ، وفى السُّجود تقول : « **سبحان ربِّى الأعلى**» لأنَّ الهيئة هيئة نزول .

فالإنسانِ نَزَّل أعلى ما فى جسده وهو الوجه إلى أسفل ما فى جسده وهو القدمين . فترى فى السُّجود أن الجبهة والقدمين فى مكان واحد وهذا غاية ما يكون من التنزيه ولهذا تقول : « سبحان ربى الأعلى » أى أنَزِّه ربِّى الأعلى الذى هو فوق كل شيء عن كل سفل ونزول .

أمَّا أنا فمنزل رأسى وأشرف أعضائى إلى محل القدمين ومداسها ، فتقول : « سبحان

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٧٩٤) مسلم (٤٨٤).

(٢) صحيح : رواه مسلم (٤٨٧) النسائى (٢/ ٩٠، ٩١) أبو داود (٨٧٢) .

(٣)) صحيح : رواه البخارى (٨١٢) مسلم (٤٩٠) .

Marfat.com

ربى الأعلى » تكررها ما شاء الله ثلاثًا أو أكثر حسب الحال وتقول : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى » وتقول : « سبوح قُدُّوسٌ ربُّ الملائكَةِ والرُّوح » وتكثر من الدعاء بما شئت من أمور الدِّين ومن أمور الدُّنيا .

لأن النبى - ﷺ - يقول : « أمَّا الرُّكُوع فعظموا فيه الرب ، وأمَّا السُّجود فاجْتَهدُوا فى الدعـاء فـقمـنٌ أن يستـجاب لـكم » (١) وقال : « أَقْـرَبُ مَا يَـكُونُ العـبـد من ربّـه وَهُو سَاجِد»(٢). فأكثر من الدعـاء بما شئت من سؤال الجنة والتَّعوُّذ مـن النَّار وسؤال علمَ نافع وعملَ صالح وإيمان رَاسِخ وهكذا .

وسؤال بـيت جميـل وامرأة صالحـة وَوَلَدٌ صالح وسَـيَّارة وما شـئت من خيـر الدِّين والدُّنيا؛ لأن الدُّعاء عبادة ولو فى أمور الدُّنيا قال الله : ﴿وَقَالَ رَبُّكم ادعونى أستجب لكم [غافر : ٦] ، وقال : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة ١٨٦] .

وفى هذه الأيام العَـصيبة ينبغى أن نُطيل السُّجـود وأن نُكثر من الدعـاء بأن يأخذ الله على أيدى الـظَّالمين المعتـدين ونُلح ولا نَسْـتبطىء الإجابـة ؛ لأن الله حكيم قد لا يُـجيب الدَّعوة بأوَّل مرّة أو ثانيـة أو ثالثة من أجل أن يعرف النَّاس شدة افتـقارهم إلى الله فيزدادوا دعاء ، والله سـبحانه وتـعالى أحكم الحـاكمين ، حكمـته بَالِغـة لا نستطيـع أن نَصل إلى مَعْرفتها ولكن علينا أن نفعل مَا أُمِرنَا به من كثرة الدُّعاء .

ويسجد الإنسـان بعد الرَّفع من الرُّكوع ويَسْـجد على ركبتيـه أولاً ثم كفيه ثم جبـهته وأنفه .

ولا يسجد على اليدين أولاً ؛ لأن الـنبى - ﷺ - نهى عن ذلك ، فقال : « إذا سَجَدَ أحدكم فلا يبرك بروك البعير » (٣) .

وبروك البَعير يـكون على اليدين أولاً كما هو مشاهـد وإنما نهى الرسول عن ذلك لأن تشبه بنى آدم بالحيوان ولا سيما فى الصلاة أمر غير مرغوب فيه .

لم يذكر الله تشبيـه بنى آدم بالحيوان إلا فى مقام الذَّم ، استـمع إلى قول الله تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾[الاعراف :

---

(١) سبق تخريجه . (٢) سبق تخريجه .

(٣) صحيح : رواه أبو داود (٨٤٠) الترمذى (٢٦٩) وصححه الالبانى فى صحيح أبى داود (٧٨٩) المشكاه (٨٩٩).

Marfat.com

١٧٥ ـ ١٧٦] وقال : ﴿ مثل الَّذين حُمِّلوا التَّوْراة ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا بِئس مثل القوم الذين كذَّبوا بآيات الله ﴾ [الجمعة : ٥] ، وقال الرسول ـ ﷺ ـ : « **العائد في هبته كالكلب يقيء ثمَّ يَعُود في قيئه** »[١] ، وقال : « **الذي يتكلم يوم الجمعة والإمَامُ يخطب كَمَثَلِ الحمَار يَحْمِلُ أسْفَارًا** »[٢] .

فَأنتَ تَرَى أن تشبيه بني آدم بالحيوان لم يكُن إلا في مَقَام الذَّم ولهذا نَهى المصلي أن يبرك كما يبرك البعير فيقدِّم يديه ! بل قدِّم الركبتين إلا إذا كان هناك عُذر ، كرَجُلٍ كَبير يَشُقُّ عليه أن ينزل الركبتين أولاً ، فلا حرج ، أوْ إنسان مَريض أو إنسان في ركبتيه أذَى أذى وما أشبه ذلك .

ولابد أن يكون السُّجود على الأعضاء السَّبعة ، الجبهة والأنف تبع لها والكفين هذه ثلاثة ! . والركبتين هذه خمسة وأطرافُ القَدَمَيْن هذه سبعة أُمِرنا أن نَسْجد عليها كما قال الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام والذى أمرنَا ربُّنا عز وجل ، فنقول : سمعًا وطاعة ونسْجد على الأعضاء السَّبعة في جميع السجود فما دمنا سَاجدين فلا يجوز أن نرفع شيئًا من هذه الأعضاء ، بل لابد أن تبقى هذه الأعضاء مَا دُمنا سَاجدين .

وفي حال السُّجود ينبغي للإنسان أن يَضُمّ قدَميه بعضهما إلى بعض ولا يفرج .

أما الرُّكبتان فلم يرد فيهما شيء فتبقى على مَا هِي عليه ، وأمَّا اليدان فتكون على حذو المنكبين ، أي : الكتفين أو تقدمها قليلاً حتى تسجد بينهما ، فلها صفتان كلتاهما وردتا عن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام .

وينبغي أن تُجافي عضديك عن جنبيك وأن ترفع ظهرك ، إلا إذا كنت في الصَّف وخفت أن يتأذَّى جارك من مُجافَاة العضدين فلا تُؤذِ جارك لأنَّه ما ينبغي أن تفعل سُنَّة يَتَأذَّى بها أخوك المُسْلم وتشوش عليه .

وقد رأيتُ بعض الإخوة الذين يُحبُّون أن يُطَبِّقوا السُّنة يمتدون في حال السُّجود امتدادًا طويلاً حتى تكاد تقول : إنهم منبطحون وهذا لا شك أنه خلاف السُّنة وهو بدعة ، بل السُّنة أن ترفع ظهرك وأن تعلو فيه .

وهذه الصِّفة كما أنها خلاف السُّنة ففيها إرهاق عَظِيم للبدن لأن التحمل يكون على الجبهة والأنف في هذه الحال وتجد الإنسان يَضجر من إطالة السُّجود .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (١٦٢٢) ابن ماجه (٢٣٨٦) .

(٢) صحيح : رواه الطبراني في الكبير (١٢/ ٩٠) وصححه الشيخ أحمد شاكر .

Marfat.com

ففيها مخالفة السُّنة وتعْذيب البدن فلهـذا ينْبغى إذا رأيتم أحدًا يسْجد على هذه الكيفية أن تُرْشِدُوه إلى الحق وتقولوا له : هذا ليس بِسُنَّة .

وينبغى فى حال السُّجود أيضًا أن يكون الإنسان خاشعًا لله عز وجل مستحضرًا علو الله سبحانه وتعالى .

لأنك سوف تقول سُبحان ربِّى الأعلى أى تنْزيهًا له بعلوه عز وجل عن كُلِّ سُفل ونزول ونحن نعتقد بأن الله عال بذاته فوق جميع مخلوقاته كما قال الله : ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ [الأعلى:١] ، وإثبات علو الله فى القرآن والسُّنة أكثر من أن يُحْصر .

والإنسان إذا دعا يرفع يديه إلى السَّماء فوق كل شىء ، وقد ذكر الله أنه اسْتوى على عرشه فى سبع آيات من القرآن والعرش أعلى المخلوقات والله فوق العرش جلَّ وعلا .

ومن أركان الصَّلاة الطُّمأنينة : أى الاستقرار والسُّكون فى أرْكان الصَّلاة .

يطمئن فى القيام وفى الرُّكوع وفى القيام بعد الركوع وفى السَّجود وفى الجلوس بين السَّجدتين وفى بقية أركان الصَّلاة .

وذلك لما أخرج الشَّيخان من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً جاءَ فَدَخَلَ المسجد فَصلَّى ثُمَّ سلَّم على النبى - ﷺ - فَرَدَّ عليه السَّلام ، وقال : « **ارْجِع فَصَل فَإنَّكَ لَمْ تُصَل** » أى لم تُصل صلاة تجزئك . فرجع الرَّجل فَصلَّى ثم جاءَ فَسلَّم عَلَى النبى - ﷺ - فَرَدَّ عليه وقَالَ : « **ارْجِع فَصَل فَإنَّكَ لَمْ تَصَل** » فَرَجَعَ وَصلَّى ولَكنَّه كَصلاته الأُولى ثم جاء إلى النَّبى - ﷺ - فَرَدَّ عليه وقال : « **ارْجِع فَصَل فَإنَّكَ لَمْ تُصَل** » فقال : والذى بَعَثَكَ بالحَقِّ لا أُحسنُ غَيْرَ هذا فَعَلِّمنى » [١] وهذه هى الفائدة من كون النَّبى - ﷺ - لم يُعَلِّمه لأول مَرَّة بل رَدَّدَه حَتَّى صلَّى ثلاث مرَّات من أجل أن يكون مُتَشوِّقًا للعلم مشتاقًا إليه حتى يأتيه العلم ويكون كالمطر النازل على أرض يابسة تقبل الماء ، ولهذا أقسم بأنه لا يحسن غير هذا وطلب من النبى - ﷺ - أن يعلمه ، ومن المعلوم أن النبى - ﷺ - سيعلمه لكن فرق بين المطلوب والمجلوب إذا كان هو الذى طلب أن يعلم صار أشد تمسكًا وحفظًا لما بلغ إليه وتأملَّ قَسَمُه بالَّذى بَعَثَ الرسول - ﷺ - بالحق .

فقال : « **والذى بَعثَك بالحَقِّ** » وما قال : والله ! لماذا ؟

جـ - لأجل أن يكون معترفًا غاية الاعتراف بأن ما يقوله النبى - ﷺ - حق .

فقال له النبى عليه الصلاة والسلام : « **إذا قُمْتَ إلى الصَّلاة فأَسْبغ الوضوء** » أى :

(١) صحيح : رواه البخارى (٦٦٦٧) مسلم (٣٩٧) .

Marfat.com

توضأ وضوءًا كاملاً ، « ثُمَّ استَقبِل القِبلَةَ فَكبر » أى : قل : الله أكبر وهذه تكبيرة الإحرام « ثُم اقرأ مَا تيَسر مَعَك منَ القُرآن » وقد بينت السنة أنه لابد من قراءة الفاتحة « ثُمَّ اركَع حَتَّى تَطمَئن راكعًا » أى : لا تسرع بل اطمئن واستقر : « ثم ارفع حتى تطمئن قائمًا» أى : إذا رفعت من الركوع اطمئن كما كنت في الركوع ولهذا من السُّنة أن يكون الركوع والقيام من الركوع متساويين أو متقاربين « ثُمَّ اسْجُد حَتَّى تَطمَئنَّ سَاجدًا» أى : تطمئن وتستقر . «ثُمَّ ارفَع حَتَّى تَطمَئنَ جَالسًا » وهذه الجلسة بين السجدتين « ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطمَئن سَاجدًا » هذا هو السجود الثانى « ثُمَّ افعَل ذَلكَ فى صَلاتكَ كُلِّهَا » أى افعل هذه الأركان : القيام والركوع والرفع منه والسُّجود والجلوس بين السَّجدتين والسَّجدة الثَّانية فى جميع الصَّلاة .

الشَّاهد من هذا قوله : « حَتَّى تَطمئن » ، وقوله فيما قبل : « إِنَّكَ لَمْ تُصَل » فدلَّ هذا على أنَّه مَن لا يطمئن فى صلاته فلا صَلاة له .

ولا فرق فى هذا بين الرُّكوع والقيام بعد الركوع والسُّجود والجلوس بين السَّجدتين كلها لابد أن يطمئن الإنسان فيها .

قال بعض العلماء : إن الطُّمأنينة أن يَستَقر بقدر ما يقول الذكر الواجب فى الركن .

ففى الركوع بقدر ما تقول : « سبُحان ربِّى العَظيم » وفى السجود كذلك وهكذا .

ولكن الذى يظهر من السُّنة أن الطمأنينة أمر فوق ذلك لأن كون الطمأنينة بمقدار أن تقول : سبحان ربى العظيم فى الركوع لا يظهر لها أثر ؛ لأن الإنسان إذا قال الله أكبر سبحان ربى العظيم ثم يرفع أين الطُّمأنينة !

الظَّاهر أنَّه لابد من استقرار بحيث يُقال هذا الرجل مطمئن .

وعجبًا لابن آدم كيف يلعب به الشَّيطان !! هو واقف بين يدى الله عز وجل يناجى الله ويتقرَّب إليه بكلامه وبالثناء عليه وبالدعاء ثم كأنه ملحوق فى صلاته كأن عدوًا لاحق له فتراه يهرب من الصلاة .

أنت لو وقفت بين يدى مَلك من مُلوك الدُّنيا يُنَاجيك ويُخاطبك لو بقيت معه سَاعتين تكلمه لوجدت ذلك سهلاً .

يمكن لو تقف على قدميك ولا تنتقل من ركوع إلى سجود إلى جلوس وتفرح أن هذا الملك يكلمك ، فكيف وأنت تُناجى ربك الذى خلقك ، ورزقك ، وأمدك ، وأعدك ، تناجيه وتهرب هذا الهروب .

لكن الشَّيطان عدو للإنسان والعاقل الحازم المؤمن هو الذى يَتَّخذ الشَّيطان عدوًا كما قال الله : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

Marfat.com

[فاطر : ٦] .

فالواجب علـى الإنسان أن يَطْمـئن فى صلاته طمأنـينة تَظهر علـيه فى جميـع أفعال الصَّلاة وكذلك أقوالها .

مسألة : ما حكم مَن لم يُقِم الصَّلاة ؟

جـ ـ الجواب عن ذلك أن نقول : أمَّـا مَن لم يُقمها على وَجه الكَـمَال يعنى أنَّه أخل ببعض الأشياء المُكَمِّلَة للصَّلاة فإن هذا مَـحْروم من الأجر الذى يحصل له بإكمال الصَّلاة ، لكنه ليس بآثم .

مثلاً : لو اقتصر عـلى « سبحان ربى العظيم » فى الركوع مع الطمأنـينة لكان كافيًا ، لكنه محروم من زيادة الأجر فى التَّسبيح .

وأما مَن لم يُـقمْهَا أصلاً يـعنى أنَّه تركها بالـكُلِّيَة فهذا كـافر مُرتَدٌ عن الإسـلام كُفرًا مخرجًا عن الملة يخرج من عِدَاد المسلمين فى الدنيا ويكون فى عداد الكافرين فى الآخرة.

أخبر الـنَّبى ـ ﷺ ـ أنه يُحشَرُ مـع فِرْعَوْنَ وَهَامَان وَقَـارُون وَأُبىٍّ بن خَلَف [(١)] هؤلاء رءُوس الكفرة يحشر معهم .

أما فى الدُّنيا فإنـه كافر مرتد يجب على ولى الأمر أن يدعوه لـلصَّلاة فإن صلى فذاك وإن لم يصل قتله قتل ردة والعياذ بالله ، وإذا قُتل قـتل ردة حمل فى سيَّارة بعيدًا عن البلد وحفر له حفرة ورمس فيها حتى لا يتأذى الناس برائحته ولا يتأذى أهله وأصحابه بِمشَاهَدَتِه . إذًا فلا حرمة له .

لو أبقى على ظـهر الأرض هكذا فلا حرمة له ولـهذا مَا نغسلة ولا نكـفنه ولا نُصلى عليه ولا ندنيه من مساجد المسلمين للصَّلاة عليه لأنه كافر مرتد .

فإذا قال قائل : ما هذا الكلام ؟ أهذا جُزَافٌ أم تَحَامُل أم عاطفة ؟

قلنا : لا ! لـيس جزَافًا ولا تحاملا ولا عـاطفة ولكننـا نقوله بمقـتضى دلالة كلام الله وكلام رسوله وكلام أصحْاب رَسُوله .

أمَّا كلام الله : فقد قال الله فى سورة التوبة عن المشركين : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة : ١١] .

وإن لم يكن ؟

جـ ـ فليسوا إخوانًا لنا فى الدِّين وإذا لم يكونوا كذلك فهمُ كفرة ؛ لأن كل مؤمن ولو

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٢/١٦٩) .

Marfat.com

كان عَاصيًا أكبر مَعْصية لكنها لا تُخرج من الإِسلام فهو أخٌ لنا .

إذا اقتتلت طائفـتان من المؤمنين فمن المعلوم أنَّ قتال المسلم كـفر ، لكن لا يخرج من الملة ، لأنَّ النبى- ﷺ - قال : « **سباب المسلم فُسُوق وقِتَالُهُ كُفر** »(١) ومع ذلك فإن هذا المقَاتل لأخيه أخ لنا وما يخرج من دائرة الإيمان لقول الله تعالى : ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين (٩) إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ [الحجرات:٩ ، ١٠].

إذا الطَّائفَتَان المُقْتتلَتَان إخوة لنا مع أنَّها معصية عظيمة .

فإذا قال الله فى المشركين : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ [التوبة : ١١] إذا لم يقوموا بهذه الأعمال فليسوا بإخوة لنا .

أما من السُنَّة : فاستمع إلى ما رواه مسلم فى صـحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن الرسول- ﷺ - قال : « **بَيْنَ الرَّجُل وبين الشرك والـكفر ترك الصلاة** »(٢) والبينية تَقْتَضى التمييز والتَّفريق وأن كل واحد غير الآخر .

« **بَيْنَ الرَّجُل وبَيْنَ الشِّرْك وَالكُفْر تَرْكُ الصَّلاة** » فإذا تركها صار غير مسلم صار مشركًا أو كافرًا .

وما رواه أهل السنن عن بريـدة بن الحصيب رضي الله عنه أنَّ الرسول- ﷺ - قال : « **العهد الذى بيننا وبينـهم الصلاة فَمَن تَركَهَا فَـقَد كَفر** »(٣) العهد الذى بيننا وبين الكفار أى الأمر الفاصل الذى بيننا وبينهم الصَّلاة فمن تركها فقد كفر صار منهم ولَيس منا .

وهذا نص فى الموضوع !

أما ما قاله الصحابة : فاستمع إلى ما قاله عبد الله بن شقيق وهو من التَّابعين المشهورين قال ـ رحمه الله : « كَانَ أَصْحَاب النَّبى- ﷺ - لا يرون شيئًا من الأعمال تركـه كفر غَيْر الصَّلاة »(٤) .

وقد نقل إجـماع الصَّحابة عـلى كفر تارك الصـلاة إسحاق بن رَاهَوَيْهِ الإِمام المـشهور وبعض أهل العلم .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٦٠٤٤) مسلم (٦٤) .
(٢) صحيح : رواه مسلم (٨٢) أحمد (٣/٣٨٩) .
(٣) صحيح : رواه أحمد (٥/٣٤٦) الترمذى (٢٦٢١) ابن مـاجه (١٠٧٩) وصحـحه الألبانى فى المشكاة (٥٧٤) .
(٤) صحيح : رواه الترمذى (٢٦٢٢) وصححه الألبانى فى صحح الترغيب (١/٢٢٧) (٥٦٢) .

Marfat.com

وإذا قدِّر أن فيهم مَن خالف فإن جمهورهم أهْلَ الفتوى منهم يقولون إنه كافر .

هذه أدلة من كلام الله وكـلام رسوله وكلام الصَّحـابة وقال عمر بن الخـطاب وناهيك به: « **لاحظَّ فى الإسلام لمَن ترَكَ الصَّلاة** »[١] ولا نافية للجنس تنفى الكثير والقليل والذى لاحظَّ له لا قَليل وَلا كثير فى الإسلام مَا هُو إلا كافر .

ويترتب على ترك الصَّلاة أمور دنيوية وأمور أُخروية :

الأمور الدنيوية :

أولاً : أنَّه يُدعَى إلَى الصَّلاة فإن صلى وإلا قُتِلَ وهذا واجب على ولاة الأمور وهم إذا فرطوا فى هذا فسوف يسألهم الله إذا وقفوا بين يديه ؛ لأن كل مُسْلم ارْتَدَّ عن الإسلام فإنَّه يُدعى إليه فإنْ رَجَع وإلا قُتِلَ .

قال الرسول- ﷺ - « **مَنْ بَدَّل دينه فاقتلُوه** »[٢] .

ثانيًا : لا يُزَوَّج إذا خطب وإن زوج فالـعقد باطل والمرأة لا تحل له أن يـطأها وهو يطأ أجنبية والعياذ بالله !

لأنَّ العقد غير صحيح لقوله تعالى : ﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾ [الممتحنة : ١٠] .

ثالثًا : أنَّه ولاية لَهُ عَلَى أولاده وَلا عَلَى أخوَاته وَلا عـلى أحَد من الناس ؛ لأنَّ الكافر لا يمكن أن يكون وليًا على مُسْلم أبدًا ، حتى بِنتُه لَا يُزوجها .

لو فرضنا واحدًا بعـدما تزوج وكبر وصار له بنات صار لا يُصَلى والـعياذ بالله فإنه لا يُمكن أن يزوج بنته .

ولكن إذا قـال قائل : هذا مُـشكل يوجـد أُناس عندهم بـنات وهم لا يُصلون كـيف نعمل؟

جـ - نقول فى مثل هذه الحال إذا كان لا يمكن التخلص من أن يعقد النكاح للبنات فإن الزوج يجعل أخاها يعقد له بالسِّر حتى تحل له أو عـمها مثلاً أو أحدًا من عصباتها الأقرب فالأقرب حَسَب تَرْتيب الولاية حتى يتزوج امرأة بعقد صحيح ، أما عقد أبيها لها وهو مرتد كافر فلا يصح ولو كان ألف مرَّة .

---

(١) **صحيح** : رواه مالك فى الموطأ فى الطهارة (٥١) .

(٢) **صحيح** : رواه البخارى (٦٩٢٢) أحمد والنسائى (٧/ ١٠٤) الترمذى (١٤٥٨) .

Marfat.com

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يكفر كفرًا مخرجًا عن الملة واستدلوا ببعض النصوص ولكن هذه النصوص لا تخرج عن أحوال خمسة :

١ ـ إما أنَّه ليس فيها دلالة أصلاً على هذا مثل قول بعضهم : إن هذا يُعارضه قول الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨] ومن جملته تارك الصلاة .

فنقول : إنَّ تارك الصَّلاة فى ظاهر حديث جابر الذى رواه مسلم أنَّه مُشْرك وإن كان لا يَسْجد للصنَّم لكنه مُتَّبع لهواه وقد قال الله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية : ٢٣] .

ثم على فرض أن مفهوم الآية آن ما دون الشِّرك تحت المشيئة فإن هذا المفهوم خُصَّ بالأحاديث الدَّالة على أن تارك الصَّلاة كافر ، وإذا كان المنطوق وهو أقوى دِلالة من المفهوم يخصص عُمومه بما دلَّ على التَّخصيص فما بالك بالمفهوم .

٢ ـ أو استدلوا بأحاديث مُقَيَّدة بما لا يمكن لمن اتَّصف به أن يَدَعَ الصَّلاة مثل قول النبى ـ ﷺ ـ : « **إنَّ الله حرَّم عَلَى النَّار مَن قَال لا إله إلا الله يَبْتَغى بذلكَ وجْه الله** » ، فإن قوله : « **يبتغى بذلكَ وجه الله** » (١) تمنع منعًا باتًا أن يدع الإنسان الصلاة ؛ لأن مَن قال لا إله إلا الله يَبْتَغى بِذَلك وَجْه الله فلا بد أن يعمل عملاً لما يبتغيه وهو وَجْه الله .

وأعظم عمل يَحْصُل به رضى الله عز وجل هو الصلاة ، فهذا الحديث ليس فيه دلالة على أن تارك الصلاة لا يكفر ؛ لأنَّه مُقَيَّد بِقَيْد يمتنع معه غاية الامتناع أن يدع الإنسان الصَّلاة.

٣ ـ أو مُقَيَّد بحال يعذر فيها مَن تَرْك الصَّلاة مثل حديث حذيفة الذى أخرجه بعض أهل السُّنن فى قوم لا يعرفون من الإسلام إلا قول لا إله إلا الله ، وهذا فى وقت الإسلام والعياذ بالله (٢) صار لا يعلم عن شىء منه إلا قول لا إله إلا الله فإنها تنجيهم من النَّار ؛ لأنَّهم مَعْذُورون بعدم العلم بِفَرَائض الإسلام ونحن نقول بهذا لو أن قَوْمًا فى بَادِية بَعِيدونَ عن المدن وبعيدون عن العلم لا يفهمون من الإسلام إلا « لا إله إلا الله » وماتوا على ذلك فليسوا كُفَّارًا .

٤ ـ واستدلوا بأحاديث عامَّة ، هذه العامة من قواعد أصول الفقه أن العام يُخصص

(١) صحيح : رواه البخارى (٤٢٥) مسلم (٦٥٧) .

(٢) صحيح : رواه انظر الحديث فى سنن ابن ماجه (٤٠٤٩) ومستدرك الحاكم (٤/٤٧٣) وصححه الألبانى فى الصحيحة (٨٧) .

Marfat.com

بالخاص فالأحاديث العامَّة الدَّالة على أن مَن قال لا إله إلا الله فهو في الجنَّة ، وما أشْبَه ذلك نقول هذه مُقيَّدة أو مخصوصة بأحاديث كفر تارك الصلاة .

٥ - واستدلوا بأحاديث ضعيفة لا تُقاوم الأحاديث الصَّحيحة الدَّالة على كفر تارك الصَّلاة فضلاً عن أن تُعارضها .

ثم إن بعضهم لما لم يتيسر له إقامة الدَّليل على أن تارك الصلاة لا يكفر قال : إنَّه يحمل قوله- ﷺ - : « **بَيْنَ الرَّجُل وبَيْنَ الشِّرْكَ والكُفْر تَرْكُ الصَّلاة** »[١] على الكفر الأصغر والشِّرك الأصْغَر فيكون بمعنى قول ابن عباس رضي الله عنهما : (كُفر دون كفر) فيُقال : ما الذي يُوجب لنا أن نحمل الحديث على ذلك ؛ لأنَّ الكفر إذا أُطلق ولم يُوجد له مُعارض فهو الكفر الحقيقي الأكبر.

كيف وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **بَيْنَ الرَّجُل وبَيْنَ الكُفر والشِّرْك** » فجعل هناك حدًا فاصلاً « بَيْن » والبينية تقتضي أن المتباينين منفصلان بعضهما عن بعض وأن المُرَاد بالكفر الكفر الأكبر .

وحينئذ تكون أدلَّة القول بكفر تَارك الصَّلاة مُوجبة لا مُعَارض لها ولا مقاوم لها والواجب على العبد المؤمن إذا دل كتاب الله وسنة رسوله- ﷺ - على حكم من الأحكام أن يقول به ؛ لأننا نحن لسنا بِمُشرِّعين ، بل المُشرِّع الله ما قاله الله وقاله رسوله هو الشَّرع نأخذ به ونحكم بمقتضاه ونؤمن به سواء وافق أهواءنا أم خالفها .

لابد أن نأخذ بما دلَّ عليه الشَّرع .

واعلم أن كل خلاف يقع بين الأمة إذا كان الحامل عليه حسن القصد مع بذل الجهد في التحري ، فإن صاحبه لا يُلام عليه ولا يُضلل ؛ لأنه مجتهد وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **إِذَا حَكَمَ الحَاكِم فَاجْتَهَدَ وَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَإِن اجْتَهَدَ وَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَان** »[٢] وليس من حق الإنسان أن يقدح في أخيه إذا خالفه إذا خالفه في الرأي بمقتضى الدَّليل عنده .

أمَّا مَن عَانَد وأَصرَّ بعد قيام الحجةَّ عليه فهذا هو الذي يُلام .

وذكرنا في الدَّرس الماضي ما يترتَّب على تَرك الصَّلاة من أحكام وأنها هي الأحكام المترتبة على الردة تمامًا .

---

(١) مسلم (٨٢) أحمد (٣/ ٣٨٩) .

(٢) البخاري (٧٣٥٢) مسلم (١٧١٦) .

Marfat.com

ومنها : لو ترك الصلاة فى أثناء زواجه انفسخ نكاحه ومثاله : تزوَّج امرأة وهى تُصلى وهو يُصَلِّى وبعد ذلك ترك الصلاة ، فإننا نقول : يجب التفريق بينهما وجوبًا فإذا فرّقنا بينهما واعتدَّت فإنه لا يمكن أن يرجع إليها ، أما قبل انتهاء العدة فإنه إذا أسلم ورجع إلى الإسلام وصلَّى فهى زوجته ، أما إذا انتهت العدَّة فقد انفصلت منه ولا تَحلُّ لَهُ إلا بعقد جديد على قول جمهور أهل العلم ، وبعضهم يقول : إنها إذا انتهت من العدَّة ملكت نفسها ولكن لو أسلم وأرادت أن ترجع إليه فلا بأس بدون عقد ، وهذا القول هو الراجح لدلالة السنة عليه[١] ، لكن فائدة العدة أنها قبل العدَّة إذا أسلم لا خيار لها وأما بعد العدة فلها الخيار إذا أسلم .

ولا يحلُّ لأحَد عنده شخص يعرف أنَّه لا يُصَلِّى أن يُغَسِّله أو يُكفِّنه أو يقدمه للمسلمين يصلون عليه ؛ لأنه يكون بذلك غاشًا للمسلمين ، فإن الكافر قال الله لنبيه عليه الصلاة والسَّلام فى حق المنافقين وهم كفار لكنهم يُظهرون الإسلام قال : ﴿ولا تُصلِّ علىٰ أحدٍ مِّنهم مَّات أبدًا ولا تقُم علىٰ قبرِهِ إنَّهُمْ كفرُوا باللَّه﴾ [التوبة : ٨٤] فدل هذا على أن الكفر مانع من الصَّلاة ومن القيام على القبر بعد الدفن .

وقال الله : ﴿ما كان للنَّبيِّ والَّذين آمنُوا أن يستغْفرُوا للْمُشْركين ولوْ كانُوا أُوْلي قُرْبىٰ من بعد ما تبيَّن لهُمْ أنَّهُمْ أصْحابُ الجحيم﴾ [التوبة : ١١٣] .

ويسأل بعض الناس عن الرجل المتَّهم بترك الصَّلاة يقدَّم للصلاة عليه بعد موْته وأنْت شَاك هل هو يُصَلِّى أوْ لا ؟

جـ ـ فنقول : إذا كان هذا الشك مبنيًا على أصل فإنك إذا أردت أن تدعو له تقول : اللَّهم إنْ كان مؤمنًا فاغفر له وارحمه فتقيده وبهذا تسلَم من شره .

وبهذا التَّقرير نعرف أنَّه يجب الحذر التَّام من التَّهاون بالصَّلاة وأنَّه يجب على مَن رأى شخصًا مُتهاونًا فيها أن يَنْصحه بعزيمة وَجِدّ لَعَلّ الله أن يهديه على يده فينال بهذا خيرًا كثيرًا .

وقوله : « وإيتاء الزَّكاة » :

إيتاء : بمعنى إعطاء وَإِتْيان بمعنى مَجىء وأتى بمعنى جاء .

فإيتاء الزكاة يعنى إعطاءها لمن عيَّن الله سبحانه أن يُعْطَوا إيَّاها ، والزَّكاة مأخوذة من الزَّكاة وهو الطَّهارة والنَّماء ، لأنَّ المُزكى يطهر نفسه من البخل وينمِّى مَالَه بالزكاة .

---

(١) صحيح : انظر سنن أبى داود (٢٢٣٨ ، ٢٢٣٩) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود .

Marfat.com

قال الله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة : ١٠٣] . والزكاة تعريفها : نَصِيب مُقَدَّر شرعًا فى مَالٍ مخصوص لطائفة مخصوصة .

« نَصِيب من مال » وَلَيس كل المَال ، بل أموال مُعَيَّنة بَيَّنَهَا الرَّسول عليه الصلاة والسَّلام وبعضها مُبَيَّن فى القرآن .

وليس كل هذه الأجناس من المال تجب فيه الزكاة ، بل لابد من شُرُوط .

والزكاة جُزءَ بَسِيط يؤدى بها الإنسان ركنًا من أركان الإسلام يُطَهِّر بها نفسه من البخل والرَّذيلة ويُطهِّر بها صفحات كتابه من الخطايا كما قال النبى - ﷺ - « **الصَّدَقَةُ تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النَّار** » (١) وأفضل الصَّدقات الزَّكاة ، فَدرهم تخرجه فى زكاتك أفضل من درهم تخرجه تطوعًا ؛ لأنَّ الله تعالى قال فى الحديث القُدسى : « **مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِى بِشَيء أَحَب إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيه** » (٢) وَرَكْعَة من صلاة مفروضة أفضل من ركعة من صلاة تَطوع .

ففى الزكاة تكفير الخطايا .

وفيها الإحسان إلى الخق ؛ لأنَّ المُزكى يحسن إلى المدفوع إليه الزَّكاة فيَدخل فى عِدَاد المحسنين الذين يدخلون فى محبَّة الله كما قال الله تعالى : ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وفى الزكاة أيضًا : تأليف بين النَّاس ؛ لأنَّ الفُقَرَاء إذا أعْطَاهم الأغنياء من الزكاة ذَهَب مَا فِى نُفُوسهم مِن الحِقد على الأغنياء .

أما إذا منعهم ولم يتفضَّلوا عليهم بشىء صار فى نفوسهم أحقاد على الأغنياء وفى الزكاة أيضًا إغناء للفقراء عن التَّسلُّط ؛ لأنَّ الفقير إذا قدر أن الغنى لا يُعْطِيع شيئًا فإنَّه يخشى منه أن يتسلط وأن يكسر الأبواب ويَنْهب الأموال لأنَّه لابد أن يَعيش فيأكل ويشرب، فإذا كان لا يُعطى شيئًا فإن الجوع والعَطش والعُرى يدفعونه على أن يتسلط على الناس بالسَّرقة والنَّهب وغير ذلك .

وفى الزكاة أيضًا : جَلْبٌ للخيرات من السَّماء فإنه قد ورد فى الحديث : « **مَا مَنَع قَوْمٌ زَكَاةَ أَمْوَالِهم إلا مُنِعُوا القَطْرَ مِن السَّمَاء** » (٣) .

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/٢٤٨) الترمذى (٢٦١٦) ابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه الالبانى فى طى الرواء (٤١٣).

(٢) البخارى (٦٥٠٢) .

(٣) حسن . رواه ابن ماجه (٤٠١٩) والحاكم فى المستدرك (٤/ ٤٥٠) وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٠٦) .

Marfat.com

فإذا أدى النَّاسُ زكاة أموالهم أنزل الله لهم بركات من السَّماء والأرض وحصل فى هذا نزول المطر ونباتُ الأرض وشبع المَوَاشى وسَقى النَّاس بـهذا الماء الذى ينزل من السَّماء وغير ذلك من المصالح الكثيرة .

وفى الزكاة أيضًا : إعانة للمجاهدين فى سبيل الله ، لأن من أصناف الزكاة الجهاد فى سبيل الله كما قال الله : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وفى الزكاة تحرير العَبيد فإنَّ الإنسان يجوز له أن يَشْتَرى عبدًا مملوكًا من الزكاة فيُعْتقه ؛ لأنَّ الله قال : ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وفى الزكاة : فَكُّ الذِّمم من الدُّيون كم من إنسان مـن حمولة ذات حَسَب وجاه ابْتُلى بتراكم الديون عليه فـتؤدَّى عنه من الزكاة فيحصل فى هذا خير كثـير فكاك لذمَّته وَرَدُّ حقٍ لمن له الحق .

وفى الزكاة : إعانة المُسَافرين الذين تَنْقَطع بهم السُّبل فيضيع ماله الذى أتى به معه ولا يجد مَا يُوصِّله إلى بلده ، فهذا يُعطى من الزكاة مَا يُوصله إلى بَلَده ولو كان غنيًا فى بلده .

المهم أن الزكاة فيها مَصَالح كثيرة ، ولهذا صارت رُكْنًا من أركان الإسلام .

واختلف العلمـاء فيما لو تَهَاونَ الإنسان بهـا هل يكفُر كما يكفُر بالتَّـهاون بالصَّلاة أو لا .

جـ ـ والصَّحـيح أنَّه لا يكفُر ودَلـيلُه : ما رواه مسلـم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « **ما من صـاحب ذَهَب ولا فضَّة لا يُؤدِّى مـنها حقها إلا إذا كان يَوْم القيَـامَة صُفِّحَتْ لَهُ صفائح من نَار فَأحمى عَلَيْها فى نَار جَـهَنَّم فَيُكْوَى بها جنَبه وجبينه وظهره كلما بَرَدت أُعيدت فِي يَوم كَـانَ مقداره خَمْسِينَ ألفَ سَنَة حـتَّى يقضَى بَيْنَ العباد ثُـم يُرى سبيله إمَّا إلى الجَنَّة وإمَّـا إلى النَّار** » [١] ، فإن هذا الحديث يدلُّ على أنَّـه لا يكفر ؛ لأنَّه لو كان كافرًا بترك الزكاة لم يكُن لَه سبيل إلى الجنَّة والحديث يقول : « **ثُمَّ يُرى سَبيله إمَّا إلى الجَنَّة وإمَّا إلَى النَّار** » .

وعن الإمام أحمد رحمه الله رواية أنَّه يكفُـر إذَا بَخل بالزكاة قال : لأنَّهـا رُكْن من أركَان الإِسْلام وَإذَا فَات رُكن من أركان البَـيْت سَقَط البَيْتُ [٢] ، ولكن الصَّحيح أنَّه لا يكفُر إلا أنَّه عَلَى خَطَرٍ عظيم والعياذ بالله ومنه هذا الوعيد الشَّديد .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٢٨٦٠) مسلم (٩٨٧) .

(٢) انظر المغنى (٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٦) .

Marfat.com

مسألة فى الأموال الزَّكوية : لأن الأموال ليس كلها فيها زكـاة ، بل منها ما فيه الزكاة ومنها ما لا زكاة فيه فالزكاة واَجبة فى أمور :

أولاً فى الذهب والفضَّة : على أى حال كانا سواء كانت نُـقودًا كالدَّراهم والدَّنانير أو تبرًا كالقِطع من الذَّهب والفضَّة أو حُليًا يُلبس ويُستعار ، أو غير ذلك . المهم أن نفس هذا المعدن وهو الذهب والفضَّة فيه الزكاة على كل حال ، لكن بشرط أن يَبلغ النِّصاب لمدة سنة كاملة .

والنِّصـاب من الذَّهب : ٨٥ غم خَـمْس وثمانون غِـرامًا والنِّصـاب من الفِضَّـة سِت وخمسون ريالاً سُعوديًا وهى خمسمائة وخمس وتسعون غرامًا (٥٩٥) .

فمن عنده من الذَّهب أو الفضَّة هذا المقدار مَـلَكَ النِّصاب ، فإذا استمر ذلك إلى تمام السَّنة ففيه الزكاة وإن نقص فلا زكاة فيه .

فلو كان عنده ثمانون غِـرامًا فلا زكاة عليه ، أو كان عنده خَمْس مـائة وتسعون غرامًا (٥٩٠) من الفِضَّة فلا زكاة عليه .

واختلف العلماء هل يكمل نِصاب الذَّهب بالفضة أو لا .

يعنى لو ملك نصف نِصـاب من الذَّهب ونصف نصاب من الفضة فهل يـكمل بعضها ببعض ونقول : إنَّه ملك نصابًا فتجب عليها الزكاة أو لا ؟

جـ ـ الصَّحيح أنه لا يكمل الذَّهب من الفضَّة ولا الفضة من الذهب كل واحد مستقل بنَفْسـه كما أنَّه لا يكمـل البر من الشَّـعير ، أو الشعيـر من البر فكذلك لا يُكمل الذهب بالفضة ولا الفضة بالذهب .

ويلحق بذلك ما جَرَى مَجرَى الذَّهب والفـضة وهى العملة النقدية من ورق أو نحاس أو غيره ، فإن هذه فيها الزكاة إذا بلغت نصابًا بأحد النقدين بالذهب أو بالفضة فإن لم تبلغ فلا زكاة .

فمثلاً إذا كـان عند الإنسَان ثلاثمائة من الـريالات الورقية ، لكنها لا تبـلغ نصابًا من الفضة فلا زكاة عليه ؛ لأن هذه مربوطة بالفضَّة .

وأمَّا الجوَاهـر الثَّمينة من غـير الذَّهب والفضَّـة مثل اللؤلؤ والمرجان والمـعادن الأخرى كالألماظ وشَبَهه فهذه لـيس فيها زكاة ولو كثر ما عند الإنسان منها إلا مـا أعدَّه للتجارة فما أعدَّه للتجارة ففيه الزكاة من أى صنف كان .

الصنف الثَّانى مما تجب فيه الـزكاة بهيمة الأنعام : وهى الإبل والبقر والغنم ففيها الزكاة

Marfat.com

فإذا قُدر أنك اشتريتها بعشرة آلاف ريال (١٠٠٠٠) وكانت عند وجوب الزكاة تساوى ثمانية آلاف ريال (٨٠٠٠) فالزكاة على ثمانية ، وإذا اشتريتها بثمانية وكانت تساوى عند وجوب الزكاة عشرة فالزكاة على العشرة ، وإذا كنت لا تَدْرى هل تكسب أو لا تكسب فالمعتبر رأس المال .

إلى مَن تصرف الزكاة ؟

جـ - إنها تصرف إلى الذين عَيَّنهم الله بحكمته فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أى : لابد أن تكون فى هذه الأصناف ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة : ٦٠] .

فالفقراء والمساكين :هم الذين لا يجدون كفايتهم وكفاية عوائلهم لمدة سنة .

مثاله : رَجُل موظف وظيفة براتب شهرى قَدْرُه أربعة آلاف ريال ، لكن عنده عائلة يصرف ستَّة آلاف ريال هذا يكون فقيرًا لا يجد ما يكفيه .

فنعطيه أربعة وعشرين ألفًا من الزكاة من أجل أن نكمل نفقته ، ورجل آخر راتبه ستة آلاف فى الشهر ، لكنه عنده عائلة كبيرة والمئونة شديدة لا يكفيه إلا اثنا عشر ألفًا فنعطيه من الزكاة اثنين وسبعين ألفًا .

ولا نُعطيه أكثر من كفاية سَنَة لأنه على مدار السَّنة تأتى زكاة جديدة تَسُدُّ حاجته فلهذا قدَّرها العلماء بالسَّنة .

فإذا قال قائل : أيهما أشدُّ حاجة الفقير أو المسكين ؟

جـ - قال العلماء إنما يبدأ بالأهم فالأهم والله قد بدأ بالفقير فيكون الفقير أشد حاجة من المسكين .

الثالث العاملون عليها :أى الذين ولاَّهم رئيس الدَّولة أمر الزكاة يأخذونها من أهلها وينفقونها فى مستحقها ، فيعطيهم رئيس الدولة مقدار أجرتهم ولو كانوا أغنياء لأنهم يستحقونها بالعمل لا بالحاجة .

فإذا قال ولى الأمر : هؤلاء الواحد منهم إذا عمل بالشَّهر فراتبه ألف ريال فنعطيهم عليه ألف ريال من الزكاة ، وذلك لأنهم يتصرفون فى الزكاة لمصلحة الزكاة فأُعْطُوا منها ، لكن إذا أحب ولى الأمر أن يعطيهم من بيت مال المسلمين المال العام ليوفر الزكاة لمستحقيها فلا بأس .

الرابع المؤلفة قلوبهم :وهم الَّذين يؤلفون على الإسلام يكون رجل آمن حديثًا ويحتاج

Marfat.com

أن نقوى إيمانه فنعطيه من الزكاة من أجل أن يألف الإسلام ويحب المسلمين ويَتَقَّوى ويعرف أن دين الإسلام دين صلة ودين رابطة .

ومن التَّأليف أن نـعطى شخصًا للتَّخَـلُّص من شره ويزول ما فى قلبه مـن الحقد على المسلمين والعداوة .

واختلـف العلماء : هل يُـشترط فى المؤلـفة قلوبهم أن يـكون لهم سيـادة وشَرَفَ فى قومهم أو لا يشترط ؟

جـ ـ الصَّحيح أنَّه لا يشتطر حتى لو أعطيت فردًا من الناس لتؤلفه على الإسلام كفى. أما إذا أعطيت فردًا من الناس من أجل أن تدفع شرَّه فهذا لا يجوز ؛ لأن الواحد من الناس ترفعه إلى وُلاة الأمور ويأخذون حقك منه .

الخامس ﴿ وفى الرقاب ﴾ : ذكر العلماء أنها تشمل ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أن تَشْترى عبدًا فتعتقه .

والنوع الثانى : أن تُساعد مُكاتبًا فى مكاتبته والمكـاتب هو العبد الذى اشترى نفسه من سيِّده .

الثالث : أن تفك بها أسيرًا مُـسْلمًا عند الكفار أو عند غيرهم حتـى لو اختطف مسلم عند أناس ظلمة ولـم يَفكوه إلا بفداء مَن الزكاة فلا بأس .

السادس قوله : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ .

الغارم : هو الذى يكون فى ذِمَّته دين لا يستطيـع وَفَاءه أو يكون فى ذمته دين لمصلحة عامة وإن كان يستطيع وفاءها ولهذا قال العلماء : إن الغرم نوعان :

النوع الأول : الغارم لغيره .

والثَّانى : الغارم لنفسه .

الغَارم لغـيره هو الذى يَغْـرم مالاً لإصلاح ذات البين مـثل أن يكون بين قبـيلتين نزاع ومُشَاجرة ومخاصمة ومُعَاداة فيقوم رجل من أهل الخـير فيصلح بين القَبيلتين على مال يَلْتَزِمُ به فى ذِمَّته فهنا يكون غارمًا لكن ليس لنـفسه ، بل لمصلحة عامة وهى الإصلاح بين هاتين القبيلتين .

قال العلماء : فيُعطى هذا الرَّجل مَا يُوفَّى به الغرم وإن كان غنيًا لأنَّ هذا ليس لنفسه، بل لمصلحة الغير .

فلو قُدِّر أنَّ رجلاً عنده مائة الف ريال فأصلح بين قبيلتين بعشرة آلاف ريال يستطيع أن

Marfat.com

يوفيها من ماله لكن نقول لا ! لا يلزمه ، بل نُعْطيه من الزكاة ما يدفع به هذا الغُرم ؛ لأنَّ ذلك لمصلحة الغير ، ولأن هذا يفتح باب الإصلاح للنَّاس ؛ لأنَّنا لو لم نُعنْ هذا الرجل ونُعْطيه مَا غَرم لتكاسل الناس عن الإصلاح بين القبائل المتناحرة أو المتَعادية .

أمَّا النَّوع الثَّانى : فهو الغارم لنفسه مثل رجل استأجر بيتًا بخمسة آلاف ريال وليس عنده ما يدفع به الإجارة .

هو نفسه فى أكْله وشربه ولباسه ليس محتاجًا ؛ لكن يحتاج إلى وفاء الدِّين الذى لزمه بالاستئجار للبيت فنعطى هذا الرجل أجرة البيت من الزكاة ؛ لأنَّه من الغارمين .

كذلك إنسان أصيب بجائحة اجتاحت ماله مثل الحريق أو الغرق أو ما أشبه ذلك ، وقد لحقه فى هذا دين فنعطيه ما يُسَدِّد دينه ؛ لأنه غير قادر على الوفاء .

هذا النَّوع من الغُرم يشترط فيه أن يكون الغَارم عاجزٌ عن وفاء الدَّين ، فإن كان قادرًا، فإنه لا يُعطى ، ولكن هل يجوز أن يذهب الإنسان لمن له الدَّين ويقول له : هذا الطَّلب الذى لك على فلان خذه ويَنْويه من الزكاة ؟

جـ ـ الجواب : نعم يَجُوز وليس بِشَرط أن تعطى الغَارم ليعطى الدَّائن ؛ لأنَّ المقصود هو إبراء الذمة وهو حاصل سواء أخبرته أم لم تخبره وتأمل التعبير فى الآية : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٠] كل هذه الثلاث معطوفة على قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ باللام ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة : ٦٠] ، ولم يقل وللرقاب، بل قال ﴿ فِي﴾ الدَّالة على الظَّرفية يعنى أنك إذا صرفت الزكاة فى هذه الجهات يجوز وإن لم تُعطِ صاحبها ﴿وَالْغَارِمِينَ﴾ مَعْطوفة على ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيه من مدخول ﴿﴾ أى : وفى الغارمين .

فإذا قال قائل : هل الأحسن أنّ أذهب إلى الدَّائن وأُوَفِّيه أو أُعطى الغريم لكى يوفى بنفسه ؟

جـ ـ نقول فى هذا تَفْصيل :

إذا كنت تخشى أنَّك لو أعطيت الغَريم لم يُوف ، بل أكل الدَّراهم وترك الدَّين على ما هو عليه فهنا لا تعط الغريم ، بل أعْطِ الدَّائن أما إذا كان الغَريم صاحب عَقْل ودَين ولا يمكن أن يرضى ببقاء ذمَّته مشغولة ويغلبَ على ظنى كثيرًا أننى إذا أعطيته سوف يذهب فورًا إلى الدَّائن ويقضى من دَيْنه فَهُنا نُعْطى الغَريم نقول : خذ هذه الدَّراهم أوفِ بها عن نفسك؛ لأن هذا أستَر له وأحسن ، ولكن يجب علينا إذا كُنا نُوَزِّع الزكاة أنّ نحذر من حيلة بعض النَّاس !

ـه

بعض النَّاس يقدم لك كَـشفًا بالدين الذى عليه وتُوفى ما شـاء الله أن تُوفى وبعد سنة يقدم لك نفس الكشـف ولا يخصم الذى أوفى عنه فانتبه لـهذا ؛ لأن بعض الناس صار لا يهمه حلال أم حرام المهم اكتساب المال .

وقد قدم لنا من هذا النوع أشياء ، وذهبنـا نُسلم الدائن بناءً على الكشف الذى قُدم ، فقـال الدائن : إنه قد أوفى ، وهذه مـشكلة لكن الإنسـان يتحرز ، وهو إذا اتـقى الله ما استطاع وتبين فيمـا بعد أن الذى أخذ الزكاة ليس أهلاً لها فإن ذمَّتـه تبرأ ، وهذه من نعمة الله .

السَّابع قوله : ﴿ وفى سبيل الله ﴾ .

أى : الجهاد فى سبيـل الله وهو القتال لتكون كلمة الله هى العليـا هكذا حدده النبى - ﷺ - حينما سئل عن الرجـل يُقاتل شجاعَة ويقاتل حَمِيَّة ويُقَـاتل لِيُرى مكانه أى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : « **مَن قاتل لتكون كلمة الله هى العـليا فهو فى سبيل الله** »(١) ، وهذه كلمة جامعة مانعة وقد تقدَّم الكلام على هذا .

تنبيه : يجوز قَتْلُ المُسْلم الظَّالم وإن كان مسلمًا فى الحرب ، فإذا قال قائل : وإن كان مُكْرهًا .

جـ ـ الجواب : أنَّ شيخ الإسلام ابن تيميـة ـ رحمه الله ـ قال : إذا قاتل المُسلمون مع التتار فإنهم يُقَاتَلون وإن كانوا مسلمين ولو كانوا مُكْرَهين .

فإن كانـوا صَادقين بأنَّهم مُكْرهون فـإن لهم أجر الشَّهـيد لأنهم قُتِلوا ظُلـمًا من الذى أكرههم ؛ لأنَّ الظلم على الذى أكرههم .

وإن كانوا غير صَادقين ، بل هم مُخْتَارون طـائعون فهذا ما أصابهم وهم الَّذين جروه على أنفسهم ، وقد قال ـ رحمه الله ـ فى تعليل ذلك : إنَّه لا يعلم المُكره من غير المُكره ؛ لأنَّ ذلك محله القلب ، فالاختيار والكراهة محلها القلب فلا يعلم المكره من غيره ، فيُقتل المُكره دفاعًا عن الحق وحسابه على الله .

نعم ، لو فُرض أنه أُسِرَ وهو مُـسْلم حقيقة فإنَه لا يجوز قتله ، أمَّـا فى ميدان القتال فإنَّه يُقتل .

وقد ذكـرها ـ رحمه الله ـ فـى « الفتاوى » فـى كتاب الجـهاد ج (٢٩) ص (٥٤٤ ـ ٥٥٣) على كل حال نحن نقول : إن الَّذى يُقَاتِل حِفظًا لمـاله أو حِفْظًا لبيته أو حِفظًا لبلاده

---

(١) صحيح : (١٢٣) مسلم (١٩٠٤) .

Marfat.com

فإنه لا يخرج عن أمْرين إذًا كان للبلاد :

إنّ كان يُحافظ عليها لأنها بلاد إسلامية لما فيها من الإسلام فهو فى سبيل الله ولا شك ، وإن كان يُحافظ عليها لأنها بلده لا يريد أن يَضيع كما لا يريد أن يَضيع ماله فهذا إن قتل فهو شهيد ، كما قال الرسول - ﷺ - : « وقاتله إنّ قُتل - أى المقاتل - فهو فى النّار » (١) والعياذ بالله .

وقوله سبحانه : ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة : ٦٠] .يشمل إعطاء الزّكاة للمُجاهدين أنفسهم وشراء الأسلحة لهم .

فَشِراءُ الأسلحة من الزّكاة جائز من أجل الجهاد فى سبيل الله ، قال أهل العلم : ومن ذلك أنّ يتفرّغ شخص لطلب العلم قادر على التكسب لكنّه تفرغ من أجل أن يَطْلُب العلم فإنّه يُعطَى من الزكاة مقدار حَاجته ؛ لأنّ طلب العلم جهاد فى سبيل الله ، أما من تفرغ للعبادة فلا يُعطى من الزكاة ، بل يُقال : اكتسب وبهذا عرفنا شرف العلم على العِبادة.

فلو جاءَنَا رَجُلان أحدهما ديِّن طيب ويقول : أنَا أستطيع أن أتكسب لكن أحبُّ أن أتفرغ للعبادة من الصَّلاة والصِّيام والذكر وقراءة القرآن فأعطونى من الزّكاة واكفونى العمل! نقول : لا تعطيك بل اكتسب .

وجاء رجل آخر قال : أنا أُريد أن أتفرَّغ لِطَلَب العلم وأنا قدر على التّكَسُّب لكن إن ذهبت أتكسَّب لم أطلب العلم فأعطونى ما يكفينى لكى أتفرَّغ لطلب العلم ، قلنا : مَرْحبًا نُعطيك ما يكفيك لطلب العلم .

الثّامن ﴿ ابن السَّبِيلِ ﴾ : وهو الصنف الثامن من أصناف أهل الزكاة .

وابن السَّبِيل هو المسافر الذى انقطع به السَّفر ونَفِدت نَفَقَتُه فلم يكن قصرت به النَّفقة فى أثناء السَّفر فيُعْطى ما يُوصله إلى بلده وإن كان غنيًا .

وسُمى ابن سَبيل لمصاحبته للسَّفر كما يُقال ابن الماء فى طير الماء الذى يألف الماء فيقع عليه .

هؤلاء ثمانية أصناف لا يجوز صَرْف الزّكاة فى غيرهم فلا يجوز أن تُصرف الزكاة فى بناء المَساجد ولا فى إصلاح الطُّرق ولا فى بناء المَدَارس ولا غيرها فى طرق الخير ؛ لأن الله ذكر هذه الأصناف بصيغة محصورة فقال : ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ [التوبة : ٦٠] ، وإنما تُفيد الحَصْر ، وهو إثبات الحكم فى المذكور ونفيه عَمّا سواه ولو قلنا بجواز صَرْف الزكاة فى

---

(١) صحيح : الترمذى (١٤١٨) النسائى (١١٦/٧) أحمد (١/ ١٩٠) وأصله عند البخارى ومسلم .

Marfat.com

جميع وجوه الخيـر لفاتت فائدة الحصر ، ولكن بناء المسـاجد وإصلاح الطُّرق وبناء المدارس وما أشبهها تفعل عن طرق أخرى ، طرق البر والصدقات والتَّبرعات .

هذا هو الرُّكن الثَّالـث من أركان الإسلام الذى ذكره النَّبى - ﷺ - لجبـريل فى حديثه الطَّويل .

أمَّا الرَّابع فقد قال : « وصَوم رَمضان » .

ورمضان شهـر بين شبعان وشوال وسُمى رمـضان بهذا ، قيل : لأنَّه كان أول تـسمية الشُّهور فصادف أنَّه كان فى شدَّة الرَّمضاء والحر فسُمِّى رمضان .

وقيـل : لأنه تُطفأ بـه حرارة الذُّنوب لأن الذُّنـوب حارة « **ومن صـام رَمَضَـانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ من ذَنْبِه** » [١] والمهم أن هذا الشَّهر معلوم للمسلمين ذكره الله تعالى باسمه فى كتابه فقال : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة : ١٨٥] . ولم يذكر الله اسمًا لشهر من الشهور سوى هذا الشهر .

وصيام رمضان ركن من أركان الإسـلام لا يتم الإسلام إلا به ولكنه لا يجب إلا على مَن تمت فيه الشُّروط الآتية :

أن يكون مُسْلـمًا ، وأن يكون بالغًا ، وعاقـلاً ، قادرًا ، مُقيمًا ، سَـالمًا من الموانع ، هذه سِتة شُروط :

- فإن كان صغيرًا لم يجب عليه الصَّوم .
- فإن كان مجنونًا لم يجب عليه الصَّوم .
- فإن كان كافرًا لم يجب عليه الصوم .

فإن كان عاجزًا فعلى قسمين :

أ - إن كان عجزه يُرجى زوَاله كالمرض الطَّارىء أفطر ثم قضى أيامًا بعدد ما أفطر .

ب - وإن كان عجزًا لا يُرجى زوَاله كالكبـر والأمراض التى لا يُرجى برؤها فإنه يُطْعم عن كل يوم مِسكينًا .

- ومقيمًا ضده المُسَافر ، فالمسافر ليس عليه صوم ولكنَّه يقضى من أيام أخر .

سالمًا من الموانع احْـترازًا من الحائض والنُّفساء ، فـإنَّهما لا يجب عليهـما الصَّوم ولا يجوز لهما ولكنهما تقضيان .

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٨) مسلم (٧٦٠) .

Marfat.com

صوم رمضان يكون بعدد أيامه إمَّا تسعة وعشرين وإمَّا ثلاثين حسب رؤية الهلال ؛ لأنَّ النبى - ﷺ - قال : « **إذَا رأيتموه فصوموا وإذَا رأَيْتُموه فَأَفْطرُوا فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُم فَأَكْمِلُوا العِدة ثَلاثين** » (١) عدة شعبان إن كان فى أول الشهر ، وعِدَّة رمضان إن كان فى آخر الشَّهر .

الركن الخامس « حج البيت » :

وهو بيت الله سبحانه أى قَصْدُه لأداء المناسك التى بيَّنها الله سبحانه فى كتابه وعلى لسان رسوله - ﷺ - .

فحج البيت أحد أركان الإسلام ، ومن حج البيت العمرةُ ، فإن النبى - ﷺ - سماها حجا أصغر ، ولكن له شروط منها : البلوغ ، والعقل ، والإسلام ، والحُرية ، والاستطاعة ، خمسة شروط ، فإذا اختَلَّ شَرْطٌ واحد منها فإنَّه لا يجب .

ولكن العجز عن الحج إن كان بالمال فإنَّه لا يجب عليه لا بنفسه ولا بنائبه .

وإن كان بالبدن إن كان عجزًا يُرجى زوَاله انتظر حتى يُعافيه الله ويَزول المانع وإن كان لا يُرجى زواله كالكبر ، فإنَّه يلزمه أن يُنيب عنه مَن يأتى بالحج ؛ لأنَّ امرأة سألت النبى - ﷺ - قالت : إنَّ أبى أدرَكَته فَرِيضة الله على عِبَاده شيخًا لا يَثْبُت على الرَّاحلة أفأحج عنه قال : « نعم » (٢) .

فأقرها النبى - ﷺ - على أنها سمت هذا فريضة مع أنَّه لا يستطيع لكنه قادر بماله فقال لها الرسول : حُجِّى عنه .

هذه خمسة أركان هى أركان الإسلام .

فقال جبريل للنبى - ﷺ - لما أخبره بذلك قال له « صدَقْتَ » قال عمر : « فعجبنا له يسأله ويصدقه » لأن الذى يصدق الشخص بقوله يعنى أنَّه عنده علمًا من ذلك .

السَّائل إذا أُجيب يقول فهمت لا يقول صَدَقت لكن جبريل عليه الصَّلاة والسَّلام عنده عِلْم من هذا ولهذا قال : « صدقت » .

وقوله : « أخبرنى عن الإيمان » :

والإيمان مَحلُّه القلب والإسلام محله الجوارح ولهذا نقول : الإسلام عمل ظاهرى والإيمان أمر باطنى فهو فى القلب.

---

(١) صحيح : رواه مسلم (١٠٨١) النسائى (٤/١٣٣) ابن ماجه (١٦٥٥) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (١٨٥٥) مسلم (١٣٣٤) .

Marfat.com

فالإيمان : هو اعتقاد الإنسان للشَّيء اعتقادًا جازمًا به لا يتطرَّق إليه الشَّك ولا الاحتمال بل يُؤمن به كما يؤمن بالشَّمس فى رابعة النَّهار لا يمترى فيه فهو إقرار جازم لا يلحقه شك مُوجب للقبول والإذعان ، لقبول ما جاء فى شرع الله والإذعان له إذعانًا تامًا .

فقال له : « **الإيمانُ أن تُؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخِرِ وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِه وشرِّه** » هذه ستَّة أركان هى أركان الإيمان .

قوله : « أن تُؤمن بالله » :

أى : تؤمن بأن الله سبحانه مَوْجـوْد حىٌّ عَليم قَادرٌ وأنَّه رب العالمين لا رَبَّ سِواه وأنَّ له له الملك المطلق وله الحمد المطلق وإليه يرجع الأمر كله وأنَّه سبحانه هو المستحق للعبادة لا يستحقها أحد سواه سبحانه وتعالى .

وأنَّه هو الذى عليه التُّكلان ومنه النَّصر والتَّوفيق وأنَّه مُتَّصف بكل صفات الكمال على وجه لا يُماثل صِفَات المخلوقين ؛ لأنَّه سبحانه وتعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : ١١] .

إذا تؤمن بوجود الله وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته لابد من هذا ، فمن أنكر وجود الله فهو كافر والعياذ بالله مُخَلَّد فى النار ومن تَرَدَّدَ فى ذلك أو شَكَّ فهو كافر لأنَّه لابد فى الإيمان من الجزم بأن الله حى عليم قادر موجود ، ومن شكَّ فى ربوبيته فإنَّه كافر. ومن أشْرَكَ معه أحدًا فى رُبُوبيته فهو كافر ، فمن قال : إنَّ الأولياء يُدَبِّرُون الكون ولهم تَصرُّف فى الكون فدعاهم واستَغَاث بهم واسْتَنْصَر بهم فإنَّه كافر والعياذ بالله ؛ لأنَّه لم يؤمن بالله ومن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فهو كافر ؛ لأنَّه لم يُؤمن بانفراده بالألوهية .

فمن سجد للشَّمس أو للقمر أو للشَّجر أو للنَّهر أو للبحر أو للجبال أو للملك أو لنبى من الأنبياء أو لولى من الأولياء فهو كافر كفرًا مخرجًا من الملة لأنه أشرك بالله معه غيره .

وكذلك مَن أنكر على وجه التكذيب شيئًا مِمَّا وَصفَ الله به نفسه فإنه كافر ؛ لأنه مُكَذِّب لله ورسوله .

فإذا أنكر صفة من صفات الله على وجه التَّكذيب فهو كافر لتكذيبه لما جاء فى الكتاب والسنه ، فإذا قال مثلاً : إن الله لم يستو على العرش ولا ينزل إلى السَّماء الدُّنيا فهو كافر.

وإذا أنكرها على وجه التَّأويل فإنَّ ينظر هل تأويله سائغ يمكن أن يكون محلاً للاجتهاد أو لا ، فإن كان سائغا فإنه لا يكفر لكنه يفسق لخروجه عن منهج أهل السُّنة والجماعة.

Marfat.com

وأما إذا كان ليس له مسوغ فإن إنكار التَّأويل الذى لا مسوغ له كإنكار التكذيب فيكون أيضًا كافرًا والعياذ بالله ، هذا الإيمان بالله عز وجل .

وإذا آمنت بالله على هذا الوجه فإنك سوف تقوم بطاعته ممتثلاً أمره مجتنبًا نهيه؛ لأن الذى يؤمن بالله على الوجه الصَّحيح لابد أن يقع فى قلبه تعظيم الله على الإطلاق ولابد أن يقع فى قلبه محبة الله على الإطلاق ، فإذا أحب الله حبًا مطلقًا لا يُساويه أى حب وإذا عظم الله تعظيمًا لا يُساويه أى تعظيم فإنه بذلك يقوم بأوامر الله وينتهى عمَّا نهى الله عنه.

كذلك يجب عليك من جملة الإيمان بالله أن تؤمن بأن الله فوق كل شيء على عرشه استوى ، والعرش فوق المخلوقات كلها وهو أعظم المخلوقات التى نعلمها ؛ لأنه جاء فى الأثر : « **إنَّ السَّمَوَات السَّبع والأرضين السَّبع بالنِّسبة للكُرْسى كَحَلَقة أُلقيت فى فلاة من الأرض** »[١] انتبه !

ألق حلقه من حلق المغفر فى فلاة من الأرض وانظر نسبَة هذه الحلقة بالنسبة للفلاة ماذا تكون ؟

جـ - لا شيء وفى بقية الأثر : « **وإنَّ فَضْل العَرْش علَى الكُرْسى كَفَضْل الفَلاة على هَذه الحَلَقة** » .

إذًا الكُرسى بالنِّسبة للعرش كحلقة أُلقيت فى فلاة من الأرض ، فانظر إلى عظم هذا العرش !

لهذا وَصَفه الله بالعظيم كما قال : ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة :١٢٩] وقال : ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج:١٥] فوصفه الله بالمجد والعظمة وكذلك بالكرم .

فهذا العرش استوى الله فوقه فالله فوق العرش والعرش فوق جميع المخلوقات والكرسى وهو صغير بالنسبة للعرش وسع السَّموات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥] يجب عليك أن تؤمن بأن الله تعالى فوق كل شيء وأن جميع الأشياء ليست بالنِّسبة إلى الله شيئًا ، فالله أعظم وأجل من أن يحيط به العقل أو الفكر ، بل حتى البصر إذا رأى الله والله سبحانه يراه المؤمنون في الجنة لا يمكن أن يدركوه أو يحيطوا به كما قال الله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الانعام : ١٠٣] فشأن الله أعظم شأن وأجل شأن ، فلابد أن تؤمن بالله سبحانه وتعالى على هذا الوجه العظيم حتى يوجب لك أن تعبده حق عبادته .

---

(١) سبق تخريجه وانظر الصحيحة (١٠٩) .

Marfat.com

ومن الإيمان بالله : أن تؤمن بأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا وأنَّه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض من قليل وكثير وجليل ودقيق : ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران : ٥] وكذلك تؤمن بالله تعالى على كل شيء قدير وأنَّه إذا أراد شيئًا فإنَّما يقول له كن فيكون مهما كان هذا الأمر وانظر إلى بعض الناس وخلق الناس .

الناس ملايين لا يحصيهم إلا الله عز وجل وقد قال الله تعالى : ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان : ٢٨] كل الخلائق خلقهم وبعثهم كنفس واحدة .

وقال الله عز وجل فى البعث : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] .

وترى شيئًا من آيات الله فى حياتك اليومية فإن الإنسان إذا نام فقد توفاه الله كما قال الله : ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام : ٦٠] لكنها ليست وفاة تامَّة تُفارق فيه الرُّوح الجسد مفارقة تامة ، لكن مفارقة لها نوع اتصال بالبدن ، ثم يبعث الله النائم من نومه فيُحس بأنَّه قد حى حياة جديدة .

ولكن أثر هذا يظهر قبل أن توجد هذه الأنوار الكهربائية لما كان الناس إذا غشيهم الليل أحسوا بالظلمة وأحسوا بالوحشة وأحسوا بالسُّكون ، فإذا انبلج الصبح أحسوا بالإسفار والنُّور والانشراح فيجدون لذة لإدبَار الليل وإقبال النَّهار .

أما اليوم فقد أصبحت اللَّيالى والأيام كأنها فى النَّهار فلا نجد اللذة التى كنا نجدها من قبل ، لكن مع ذلك يحسن الإنسان إذا استيقظ من نومه فكأنما استيقظ إلى حياة جديدة وهذه من رحمة الله وحكمته .

وكذلك نؤمن بأن الله سميع بَصير يَسْمَعُ كل ما نقول وإن كان خفيًا قال الله تبارك وتعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] ، وقال الله عز وجل : ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه :٧] أى : أخفى من السِّر وهو ما يكنه الإنسان فى نفسه كما قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق : ١٦] . أى : ما تُحَدِّث به نفسه يعلمه الله وإن كان لم يظهر للعباد .

وهو عز وجل بَصير يُبصر دَبيب النَّمل الأسود على الصَّخرة السَّوداء فى ظلمة اللَّيل لا يخفى عليه ، فإذا آمنت بعلم الله وقدرته وسمعه وبصره أوجب لك ذلك أن تراعى ربَّك عز وجل وألا تسمعه إلا ما يرضي به وألا تفعل إلا ما يرضى به ؛ لأنك إن تكلمت سمعك وإن فعلت رآك الله فأنت تخشى ربك وتخاف من ربك أن يَراك حيث نهاك أو

Marfat.com

يَفقدك حيث أمَرَك ، وكذلك تخشى من ربك أن تُسمعه ما لا يرضاه وأن تسكت عمًا أمرك به .

كذلك إذا آمنت بتمام قدرة الله فـإنَّك تسأله كلمـا تريده مما لا يكون فيه اعـتداء فى الدعاء ولا تقل إن هذا بعيد ولا يمكن ! كل شىء ممكن على قدرة الله .

فها هو موسى عليه السَّلام لما وصل إلى البحر الأحمر هاربًا من فرعون وقومه ، أمره الله أن يضرب البحر بعصاه فَضَرَبه فانفلق اثنى عشر طريقًا كان الماء بين هذه الطرق كالجبال وفى لحظة يبس الـبحر وصاروا يمشون عـليه كأنما يمشون عـلى صحراء لم يصبـها الماء أبدًا بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ويذكر أن سعـد بن أبى وقاص ﷺ لما كان يفتح بلاد فَـارس ووصل إلى دجلة النَّهر المعروف فى العراق عَبَرَ الفرس النهر مشرقين وكسروا الجسور وأغرقوا الـسفن لئلا يعبر إليهم المسلمون فاستشار ﷺ الصحابة وفى الناهية قرروا أن يعبروا النَّهر فعَبَروا النهر يمشون على سطح الماء يخيلهم وإبلهم ورجلهم لم يمسهم سوء[1] .

فمن الذى أمسك هذا البحـر حتى صار كالصَّفَا كالحجر يسيـر عليه الجند من غير أن يغـرقوا ؟ إنه هـو الله عـز وجل الذى على كـل شىء قديـر ، وكذلك جـرى للعـلاء بن الحضرمى ﷺ حينما غزا البحرين واعترض لهم البحـر دعا الله سبحانه فعبروا على سطح الماء من غير أن يَمَسَّـهم سُوء[2] .

وآيات الله كـثيرة ، فكل مـا أخبر الله به فـى كتابه أو أخبـر به رسوله عليـه الصَّلاة والسَّلام أو شـاهده النَّاس من خوارق العَـادات فإن الإيمان به من الإيمان بـالله ؛ لأنَّه إيمان بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ومن الإيمان بالله عز وجل أن تعلم أنَّه يراك فـإن لم تكن تَرَاه فإنَّ يراك ، وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الناس تجده يتعبد لله وكأن الـعبادة أمرٌ يفعله على سبيل العادة لا يفعلها كأنه يُشَاهد ربَّه عزَّ وجل ، وهذا نقص فى الإيمان ونقص فى العمل .

ومن الإيمان بالله : أن تؤمن بأن الحكم لله العلى الكبير .

الحكم الكونى والشَّرعى كله لله لا حاكم إلا الله سبـحانه وتعالى وبيده كل شىء كما قال الله : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ

---

(١) انظر القصة من البداية والنهاية (٧/ ٦٤) .

(٢) انظر تاريخ الطبرى (٤/ ٦) .

Marfat.com

وَتُذِلُّ من تشاءُ بيدِكَ الخيرُ إنَّكَ علىٰ كُلِّ شيءٍ قديرٌ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

فكم من ملك سُلِبَ مُلْكُه بين عَشِيَّة وضُحَاها وكم من إنسان عَادى صَار مَلِكًا بين عشية وضحاها لأن الأمر بيد الله !

وكم من إنسان عزيز يرى أنَّه غالب لكل أحد فيكون أذلَّ عباد الله بين عشيَّة وضحاها .

وكم من إنسان ذليل يكون عزيزًا بين عَشِيَّـة وضُحاها ؛ لأن الملك والحكم لله سبحانه وتعالى ، وكذلك الحكم الشَّرعى لله ليس لأحد فالله تعالى هو الذى يُحَلِّل ويُحَرِّم ويوجب وليس أحد من الخلق له الفضل فى ذلك .

الإيجاب والتحليل والتحريم لله ، ولهذا نهى الله عباده أن يصفُوا شيئاً بالحلال والحرام بدون إذن فقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتُكُم الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لِتفتروا على الله الكذبَ إنَّ الذين يفترون على الله الكذبَ لا يُفلحون (١١٦) متاعٌ قليلٌ ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ [النحل : ١١٦] . فالحاصل أن الإيمان بالله بابُه وَاسِعٌ جدًا ولو ذهب الإنسان يتكلم عليه لبقى أيامًا كثيرة ولكن الإشارة تُغنى عن طَويل العبارة .

وقوله ـ ﷺ ـ : « ومَلائكته » :

والملائكة : هم عَالَم غيبى خلقهم الله وتعالى من نُور وجعل لهـم أعمالاً خاصة كل منهم يعمـل بما أمَرَهُ الله به وقد قال الله فـى ملائكة النَّار : ﴿ عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصُون الله ما أمرهُم ويفعلُون ما يؤمرون ﴾ [التحريم : ٦] . فهم ليس عـندهم استِكبار عن الأمر ولا عَجْز عنه يفعلون مَا أُمِرُوا به ويقدرون عليه بخلاف البَشَر .

البَشر قـد يستكبرون عن الأمر وقـد يعجزون عَنْهُ أمَّا الملائكـة فخلقوا لِتنفيـذ أمر الله سَوَاء فى العبادات المُتَعلقة بهم أو فى مصالح الخلق .

فمثلاً جـبريل أشْرفُ الملائكة مُوكَّل بالوَحـى يَنْزل به من الله على رسله وأنبيـائه فهو مُوكَّل بأشْرف شىء ينتفع به الخلق والعباد ، وهو ذو قوَّة أمين مُطَاعٌ بين الملائكة ولهذا كان أشرف الملائكة .

كما أن محمدًا ـ ﷺ ـ أشْرف الرُّسـل قال سبحانه وتعالى : ﴿علمهُ شديدُ القوى (٥) ذو مرةٍ فاستوى (٦) وهو بالأفق الأعلى﴾ [النجم : ٥ ، ٧] يعنى علم النبى ـ ﷺ ـ القرآن ، شديد القوى أى ذو القوى الشَّديدة وهو جبريل .

﴿فاستوى﴾ أى ذُو هَيْئَة حَسَنَة ﴿فاستوى﴾ أى : كَمُلَ وَعَلا وهو بالأفق الأعلى .

وقال عز وجل : ﴿إنهُ لقولُ رسولٍ كريمٍ﴾ أى : جبريل ﴿ ذي قوةٍ عند ذي العرش مكينٍ

Marfat.com

﴿٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير : ١٩ ـ ٢١] .

ومن هؤلاء أيضًا من وكلوا بمصالح الخلق من جهة أخرى فى حياة الأرض والنبات مثل مِيكَائيل : فإن ميكائيل مُوَكَّلٌ بالقطر ـ أى المطر ـ والنبات ، وفيهما حياة الأبدان : حيا الناس ، والبهائم . فالأول جبريل مُوَكَّلٌ بما فيه حياة القلوب وهو الوحى وهذا موكل بما فيه حياة الأبدان وهو القطر والنبات . ومنهم إسرافيل وهو أحد حمَلَة العَرش العظام وهو مُوَكَّلٌ بالنَّفخ فى الصُّور وهو قرن عظيم دائرة كما بين السَّماء والأرض .

فإذا سمعه الناس سَمِعُوا صَوتًا لا عَهْدَ لَهُم بـه صوتًا مزعجًا فيفزعون ثم يُصعقون أى يموتون من شدة هذا الصَّوت .

ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون تطاير الأرْواح من هذا القرن ، ثم تَرْجع كل روح إلى بدنها الذى تعمره فى الدُّنيا لا تخطئه شعرة بأمر الله عز وجل ، فكل هؤلاء الثَّلاثة مُوكَّلُون بما فيه الحياة .

فجبريل مُوَكَّلٌ بحياة القلوب وميكائيل بما فيه من حياة النَّبات والأرض وإسرافيل بما فيه حياة الأبدان .

ولهذا كان النَّبى ـ ﷺ ـ يُثنى على الله بربوبيته لهؤلاء الملائكة الثَّلاثة فى افتتاح صلاة الليل فكان يقول فى افتتاح صلاة الليل بدل : « **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ** »[1] يقول : « **اللَّهمَّ رَبَّ جبرائيل وميكائيل وإسْرَافيل فاطر السَّموات والأرض عالم الغيب والشَّهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اخْتُلفَ فيه من الحق بإذنك إنَّك تهدى من تشاء إلى صِرَاطٍ مُسْتَقيم** »[2] .

ومنهم من وكِّل بقَبْضِ الأرواح وهو ملكُ الموت وله أعوان يُساعدونه على ذلك وينزلون بالكفن والحنوط للرُّوح التى تخرج من الجسد إن كان من أهل الإيمان ـ جعَلَنا الله منهم ـ فإنهم ينْزِلون بكفن من الجنة وحنُوط من الجنَّة ، وإن كان من أهل النيران نزلوا بحنوط من النَّار وكَفَن من النار ، ثم يجلسون عند المحتضر الذى حضر أجله ويخرجون روحه حتى تبلغ الحلقوم فإذا بلغت الحلقوم استلها ملك الموت ثم أعطاهم إيَّاها فوضعوها فى الحنوط والكفن[3] .

---

(١) صحيح : رواه الترمذى (٢٤٣) أبو داود (٧٧٦) ابن ماجه (٨٠٦) وصححه الألبانى فى الأرواء (٨) وصحيح أبى داود (٧٥٠) .

(٢) صحيح : رواه مسلم (٧٧٠) أبو داود (٧٦٧) الترمذى (٣٤٢٠) النسائى (٣/ ٢١٢) ابن ماجه (١٣٥٧) .

(٣) صحيح : رواه أحمد (٢٨٧/٤ ، ٢٩٦) .

Marfat.com

الملائكة تكفن وتحنط الروح والبشر يكفنون ويحنطون البدن !

انظر إلى عناية الله بالآدمى !

ملائكة يكفنون روحه وبشر يكفنون بدنه ولهذا قال الله عز وجل : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١] لا يفرطون : فى حفظها ولا يفرطون فيها .

ملك الموت أعطاه الله قدرة على قبض الأرواح فى مَشَارق الأرض ومَغَاربها يَقبِضها ولو ماتوا فى لحظة واحدة .

ولا تستغرب لأن الملائكة لا يُقَاسون بالبشر ؛ لأن الله أعطاهم قدرة عظيمة أشدَّ من الجن ، الجن أقوى من البَشَر ، والملائكة أقوَى من الجن .

انظر قصة سليمان حيث قال : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ عفريت قوى شديد : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل : ٣٨ ، ٣٩] أين مكان العرش ؟

جـ - فى اليمن وسُليمان فى الشَّام مَسيرة شهر بينهما ، وكان سُليمان عادة يقوم من مقامه فى سَاعة معينة .

فـ ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ الثَّانى أسرع من الأول .

أى : مُدّة بَصرك ما ترده إلا وقد جاءك ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُ﴾ حالاً رآه ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ قال العلماء : إن هذا الذى عنده علم من الكتاب دعا الله باسمه الأعظم فحملت الملائكة العَرش من اليمن إلى الشَّام[1] فى هذه اللَّحظة إذًا فالملائكة أقوى من الجن .

فلا تَستغرب أن يموت النَّاس فى مشارق الأرض ومغاربها وأن يَقبض أرواحهم ملكٌ واحد كما قال الله : ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة:١١] .

إذا قال الله لهذا الملك اقبض روح كل مَن مات هل يمكن أن يقول لا !

لا يمكن لأنهم لا يَعصُون الله ما أمرهم ولهذا لما قال الله للقلم اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة [2] .

(١) انظر تفسير الطبرى (١٩/ ١٩٨) .

(٢) الحديث عند الترمذى (٣٣١٩) أحمد (٥/ ٣١٧) وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى .

Marfat.com

القلم جمَاد فَهَل كتب أم لا ؟

جـ ـ كتب ما هو كـائن إلى يوم القيامة فالله عز وجل إذا أمر بـأمر لا يمكن أن يعصى إلا المَرَدة من الجن أو من بنى آدم ، أما الملائكة فلا يَعْصُون الله .

والملك الخامس : المُـوكَّل بالنَّار وهو خَازنهـا وقد ذكره الله فى قولـه عن أهل النار : ﴿ونادوا يا مالكُ ليقض علينا ربُّك قال إنَّكم مَّاكثُون﴾ [الزخرف : ٧٧] ما معنى ليقضِ علينا ؟

جـ ـ يعنى ليمتنا ويُهلِكنا ويرِحْنا مما نحن فيه !

قال : إنكم ماكثون !

السَّادس : خازن الجنَّة ، ووَرَدَ فى بعض الآثار أن اسمه (رضوان) وهذا وُكِّل بالجنة كما أنَّ مالكًا وُكِّل بالنَّار .

فمن علمـنا اسمه من الملائكة آمنـا به باسمه ومن لم نعـلم باسمه آمنا به علـى سبيل الإجمال ، آمـنا بعمله الذى نعلـمه وبوصفه وبكل مـا جاء به الكتاب والسُّـنة من أوْصاف هولاء الملائكة .

نحن قلنا : إن الملائكة عَالَم غَيْبى فهل يمكن أن يُرَوْا ؟

جـ ـ الجواب نعم قد يُرَوْنَ إمَّـا على صورتهم التى خُلقوا عليهـا وإمَّا على صورة مَن أراد الله أن يكون على صورته .

فجبريل رآه النبى ـ ﷺ ـ على صُورته فـى الأرض وفى السَّماء عند سدرة المنتهى (١) كما قال الله : ﴿ ولقد رآهُ نزلَةً أُخرىٰ (١٣) عند سدرة المُنتهىٰ ﴾ [النجم : ١٣ ، ١٤] أتدرون كيف رآه ؟

جـ ـ رآه وله ستُّمائة جناح قد سَدَّ الأُفق أى : ملأ الأفق كله ولا يعلم قدر الأجنحة [illegible] وجل ، لكن إذا كان الشيء عاليًا وسد الأفق فهو معناه أنَّه واسع جدًا.

هذا الذى رآه النـبى ـ ﷺ ـ على صُورتـه مرتين أحيـانًا يأتيه بصُـورة إنسان كـما فى حديث عمـر فى قصة جبريـل ، فقد جاءه بصورة رجـل شديد سواد الشَّعر شـديد بياض الثياب لا يُرَى عليه أثر السَّفر ولا يعرفـه الصَّحابة والله على كل شيء قدير قد أعطاهم الله سبحانه وتعالـى ذلك أن يَتَصوَّروا بصُور البَشَر إما بالاختيـار وإمَّا بالإرادة ، الله يأمرهـم أن يكونوا على هذه الصُّورة فالله أعلم .

إنَّما هذه حال الملائكة عليهم الصَّلاة والسَّلام وتفـاصيل ما ورد فيهم مذكور فى كتاب

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٢٣٤) احمد (١/٤٠١) .

Marfat.com

الله وفى سُنَّة رسول الله - ﷺ - ، لكن علينا أن نـؤمن بهؤلاء الملائكة وأنَّهم أقْوياء أشداء قال الله لهم فى غزوة بدر : ﴿أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان﴾ [الأنفال : ١٢] فكانوا يُقاتلون من الصَّحابة فى بدر فيُرى الكـافر يسقط مضروبًا بالسَّيف على رأسه ولا يُدرى الذى قتلـه والذى قتله هم الملائكة ؛ لأن الله قال لهم : ﴿فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان (١٢) ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ [الأنفال : ١٢ ، ١٣] فعلينا أن نؤمن بهـم مَن عَلِمْنَاهُ بِعَيْنِه آمنا به بِعَيْنِه وإلا فَالإجـمال وأن نُؤمن بما جاء عـنهم من عبادات وأعْمَال عـلى وفق ما جاء فى الكتاب والسُّنَّة والإيمان بهم أحـد أركن الإيمان السِّتَّة ومن أنكَرَهُم أو كذَّب بهم أو قال : إنَّهم لا وُجُودَ لُهم أو قال : إنَّهم قوى الخير والشَّيَاطين قُوى الشَّر فقد كفر كفرًا مُخْرِجًا عن المِلَّة لأنَّه مَكذب لله ورسوله وإجماع المسلمين .

لقد ضلَّ قومُ غاية الضَّلال حيث أنكروا أن يكون هُنَاكَ ملائكة والعياذ بالله وقالوا : إنَّ الملائكة عبارة عن قُوى الخير وليس هناك شيء يُسَمَّى عالم الملائكة .

وهؤلاء إنّ قـالوا هذا مُتَـأَوِّلين فإنَّ الـواجب أن نبين لـهم أن هذا تأويل بـاطل ، بل تحريف ، وإن قـالوا غيـر متأولين فـإنهم كفـار لأنَّهم مُكَذِّبون لما جـاء به الكتـاب والسُّنَّة وأجمعت علـيه الأمة من وجود الملائكة واللـه قادر على أن يخلق عَالمًا كـاملاً لا يُحس به البشر عن طريق حَوَاسهم المُعْتادة فها هم الجن مُوْجُودون ولا إشكال فى وجودهم ومع ذلك لا تدركهم حَوَاسنا الظَّاهرة كما تدرك الأشياء الظَّاهرة ولله فى خَلْقه شئون .

وقوله : « وكُتُبه » **وهو الرُكن الثَّالث** :

والكتب : جمع كتاب والمراد به الكتاب الـذى أنزله الله على الرُسل ، فكُلُّ رسُول لَهُ كتاب كمـا قال تعالى : ﴿الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان﴾ [الشورى : ١٧] وقال : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ [الحديد : ٢٥] .

لكن من الكتب ما لا نعلمه ومنها ما نعلمه !

فالتَّوراة : وهو الكتاب الذى أنزله الله علـى مُوسى معلوم ، والإنجيل : وهو الكتاب الذى أنزله الله على عيسى مَعْلوم ، وصحف إبراهيم مذكورة فى القرآن وزَبُور دَاودُ مَذْكُور فى القرآن وصُحف مُوسَى إن كانت غير التَّوراة مذكورة فى القرآن أيضًا .

فما ذكر الله اسمه فى القران وجب الإيمان به بعينه واسمه ، وما لم يذكر فإنَّه يُؤمن به إجمالاً .

فنؤمن بأن الله أنزل على مُـوسى كتابًا هو التَّوراة ، وعلَى عيسى كـتابًا وهو الإنجيل ،

Marfat.com

وعلى داود كتابًا هو الزَّبور ، وعلى إبراهيم صحفًا ، هكذا نقول .

ولا يعني ذلك أن ما وجد عند النَّصارى اليوم هو الذى نزل على عيسى ؛ لأنَّ الأناجيل الموجودة فى أيدى النَّصارى اليوم محرَّفة ومغيَّرة ومُبَدَّلة لَعِبَ بها قساوسة النَّصارى فزادوا فيها ونقصوا وحرفوا ولهذا تجدها تنقسم إلى أربعة أقسام أو خمسة ، ومع ذلك فإن الكتاب الذى نزل على عيسى كتاب واحد ، لكن الله إنما تكفَّل بحفظ الكتاب الكريم الذى نزل على محمد ؛ لأنَّه لا نبى بَعْدَهُ يبين للناس ما هو الصَّحيح ، وما هو المحرَّف ، أمَّا الكتب السَّابقة فإنها لم تخلُ من التحريف ؛ لأنَّه سيبعث أنبياء يُبيِّنون فيها الحق ويُبيِّنونَ فيها المحرف ، وهذا هو السِّر فى أنَّ الله تكفل بحفظ القرآن دُون غيره من الكتب من أجل أن يعلم الناس حاجتهم إلى الأنبياء إذا وجدوا الكتب محرفة فتأتى الأنبياء وتبيِّن الحق.

فالمهم أن نُؤمن بأن الكتاب الذى نزل على النَّبى المعين حق من عند الله لا على أن الكتاب الذى فى أيدى أتباعه اليوم هو الكتاب الذى نزل ، بل قطعًا إنَّه مُحرَّف ومُغَيَّر ومُبَدَّل.

ومن الإيمان بالكتب أن تؤمن بأن كل خبر جاء فيها فهو حق كما أن كل خبر فى القرآن فهو حق ؛ لأن الأخبار التى جاءت فى الكتب التى نَزَلَت على الأنبياء من عند الله وكل خبر من عند الله فهو حقٌ ، وكذلك تؤمن بأن كل حكم فيها صحيح من عند الله فهو حقٌ ؛ لأن جميع أحكام الله التى ألزم الله بها عباده كلها حق ، لكن هل هى بقيت إلى الآن غير محرَّفة ؟ هذا السُّؤال بيَّنا الجواب عنه ، ولكن هل علينا أن نعمل بالأحكام التى جاءت بها الكتب السَّابقة ؟

جـ ـ نقول أما ما قصَّه الله علينا من هذه الكتب ، فإننا نعمل به ما لم يَرِد شرعنا بخلافه .

مثاله قوله تعالى عن التوراة : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة : ٤٥] هذه مكتوبة فى التوراة ونقلها الله عز وجل فى القرآن .

لكن الله عز وجل لم يقصها علينا إلا من أجل أن نعتبر ونعمل بها كما قال الله : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف :١١١] وقال : ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام : ٩] فما قصَّه الله علينا وَمَا نَقَلَهُ لنا من الكتب السَّابقة فهو شرع لنا ؛ لأنَّ الله لم يذكره عَبَثًا إلا إذا وَرَدَ شرْعنا بخلافه فَيَصير نَاسِخًا لها ، كما أن من الآيات

Marfat.com

الشرعية النَّازلة فى شرعنا ما يكون منسوخًا بآيات أخرى .

فكذلك ما ذكره الله عن الكتب السَّابقة نقلاً فإنَّه قد ينسخ بهذه الشَّريعة .

أمَّا ما جاء فى كتبهم لهم فإنَّنا لا نُصدِّقه ولا نكذبه (١) كما أمر بذلك النبى عليه الصَّلاة والسَّلام فيما إذا حدثنا بنو إسرَائيل ألا نُصدِّقهم ولا نكذبهم ؛ لأنَّنا ربما نُصدِّقهم بالباطل وربَّما نُكَذِّبهم بحق فنقول : آمنا بالله وما أُنزل إلينا ومَا أُنزل إليكم ولا نُصَدقهم ولا نكذبهم إذا لم يَشْهد شرعنا بصحته ولا بكَذبه ، فإن شهد بصحته أو بِكذبه عملنا ما تقتضيه هذه الشَّهادة .

ومن ذلك ما تقتضيه هذه الشَّهادة إلى بعض الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام كما ذُكر عن داود أنَّه أعجبته امرأة رَجُل من جُنده فأحبها وطلب من الجندى أن يذهب إلى العدو ويقاتل لَعَلَّه يُقْتل فيأخذ امرأته من بَعْده !

وأنَّه أرسل الجندى فَبَعث الله إليه جماعة من الملائكة يختصمون إليه فقال أحد الخصمين : ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص : ٢٣ ، ٢٤] قالوا : مثل ضربه الله لداود حيث كان عنده من النِّساء ما يبلغ تسعًا وتسعين امرأة فحاول أن يأخذ امرأة هذا الجندى ليكمل بها المائة !

فهذه القِصَّة كذب واضح (٢) ؛ لأنَّ داود نبى من الأنبياء ولا يمكن أن يتحيل هذه الحيلة لو أنَّه غير نبى ما فعل هذا وهو عاقل فكيف وهو نبى ؟!

فمثل هذه القِصَّة جَاءَت عن بنى إسرائيل ، نقول : إنها كذب ؛ لأنها لا تليق بالنَّبى ولا بأىِّ عاقل .

والخلاصة : أن ما جاء فى كتبهم ينقسم إلى قسمين رئيسيين :

أولاً : ما قصَّه الله علينا فى القرآن أو قصَّه علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فهذا مقبول صحيح .

والثانى : ما نقلوه هم فهذا لا يخلو من ثلاث حالات :

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٧٥٤٢) والبيهقى فى السنن (١٠/ ١٦٣) .

(٢) والعجب أنها وردت فى كتب المفسرين مثل الطبرى (٢٣/ ١٧٥) والسيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٣٠٣) وهى لا تصح بأى حال .

Marfat.com

الحال الأولى : أن يشهد شرعنا بكذبه فيجب علينا أن نكذبه ونرده .

والثانية : ما شَهِد شرعنا بِصدْقه فَنُصَدِّقه ونقبله لشهادة شرعنا به .

والثالث : ما ليس هذا ولا هذا فيجب علينا أن نتوقَّف ؛ لأنهم لا يؤمَنون ويَحْصُل فى خبرهم الكذب والتغيير والزِّيادة والنَّقص .

قوله : « ورسله » هذا هو الركن الرابع .

الرُّسل هم البَشَر الذين أرسلهم الله إلى الخلق وجعلهم واسطة بينهم وبين عباده فى تَبْليغ شَرائعه ، وهم بشر خلقوا بين أب وأم إلا عيسى بن مريم فإن الله خَلَقَهُ من أم بلا أب . أرسلهم الله سبحانه وتعالى رَحْمَةً بالعباد وإقامة للحجة عليهم كما قال الله تعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ إلى قوله : ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾ [النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥] .

وهم عدد كثير أولهم نُوح وآخرهم محمَّد - ﷺ - ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده﴾ وقد صحَّ فى « الصَّحيحين » وغيرهما فى حديث الشفاعة : « **أنَّ النَّاس يوم القيامة يأتُون إلى نُوح فيقولون له : أنْتَ أوَّل رَسُول أرْسَلَهُ الله إلى أهْل الأرْض** »[1] .

أمَّا دليل كون النبى عليه الصلاة والسلام آخر الرُّسل فهو قوله تعالى : ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وصحَّ عنه - ﷺ - أنه قال : « **أنا خاتم النبيين** »[2] علينا أن نُؤمن أن جميع الأنبياء صادقون فيما بلَّغوا به عن الله وفى رِسَالتهم .

علينا أن نؤمن بأسْمَاء من عيِّنت أسماؤهم لنا ومن لم تُعَيَّن أسماؤهم لنا فإننا نؤمن بهم على سبيل الإجمال .

علينا أن نؤمن أن مَا من أُمَّة إلا أرسل الله إليها رسولاً لتقوم عليهم الحجة كما قال الله : ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل : ٣٦] وقال تعالى : ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ [فاطر : ٢٤] .

وعلينا أن نُصدِّق خاتمهم محمداً - ﷺ - ، لأنَّه هو الذى فرض علينا اتِّباعه قال الله تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٣٣٤٠) مسلم (١٩٣) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٣٥٣٥) مسلم (٢٢٨٦) .

Marfat.com

هو يُحيي ويُميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ [الأعراف : ١٥٨] فأمرنا الله باتِّباعه وقال تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران : ٣١] أمَّا ما سِواه من الرسل فإننا نتَّبعهم إذا ورد شرعنا بالأمر باتباعهم مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « **أفضلُ الصَّلاة صَلاةُ أخى داود كان ينام نصف اللَّيل ويَقوم ثُلُثه ويَنَام سُدُسه ، وأفْضَلُ الصِّيام صيام أخى دَاوُد كان يَصُوم يَوْمًا ويُفْطر يَومًا** » (١) فهذا حكاية لتعبد داود وتهجده فى الليل أن وكذلك صيامه من أجل زن نتَّبعه فيه .

أما إذا لم يَرد شَرْعُنا بالأمْر باتِّباعه فقد اختلف العلماء رحمهم الله هل شرع مَن قبلنا شَرْعٌ لنا مَا لَم يَرِد شَرْعُنا بالأمر بخلافه ، أو أنه ليس شرع لنا حتى يرد شرعنا باتِّباعه؟

والصَّحيح أن شرع مَنْ قبلنا شَرْعٌ لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافه ؛ لأنَّه تعالى لما ذكر الأنبياء والرسل قال لنبيه ـ ﷺ ـ : ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ [الأنعام : ٩٠] فأمر الله نبيَّه محمداً ـ ﷺ ـ أن يقتدى بهدى من سبقه .

وقال الله تعالى : ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ [يوسف : ١١١] وهذه فى آخر سورة يوسف التى قصَّ الله علينا قِصَّة مُطولة من أجل أن نعتبر بما فيها .

ولهذا أخذ العلماء ـ رحمهم الله ـ من سورة يوسف فوائد كثيرة فى أحكام شرعية فى القضاء وغيرها ، وأخذوا منها : العمَل بالقرائن عند الحكم لقوله تعالى : ﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين (٢٦) وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ [يوسف : ٢٦، ٢٧] فقالوا : هذه قرينة لأنَّه إذا كان القميص قُدَّ من قبل فالرَّجل هو الذى طالبها فَقدَّت قميصه وإذا كان من دُبُر من الخلف فهى التى طلبته وجَرَّت قميصه حتى انقدَّ فهذه قرينة ثبت بها الحكم والعلماء اعتمدوا هذه القَرينة وإن كان فى السُّنة ما يدل على الحكم بالقرائن فى غير هذه المسألة .

لكنِ الراجح أن « شَرْع مَنْ قبلنا شرع لَنَا مَا لَم يَرد شَرْعنا بخلافه » ، وللرسل علينا أن نحبهم وأن نعظمهم بما يستحقون وأن نشهد أنهم فى الطَّبقة العليا من طبقات أهل الخير والصَّلاح كما قال الله : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ [النساء : ٦٩] .

أما الركن الخامس فهو « الإيمانُ باليوم الآخر » :

واليوم الآخر : هو يوم القيامة وسُمِّى لأنَّه لا يوم بعده ، فالإنسان له مراحل أربع :

---

(١) صحيح : **رواه البخارى (١١٣١) مسلم (١١٥٩) النسائى (٢٠٩/٤)** .

Marfat.com

مرحلة فى بطن أمه ، ومرحلة فى الدنيا ، ومـرحلة في البرزخ ، ومرحلة يوم القيامة وهى آخر المراحل ولهـذا سُمِّى اليوم الآخر ، يسكن فـيه النَّاس إمَّا بالجنة نَسْـأل الله أن يجعلنى وإياكم منهم ، وإما فى النَّار والعياذ بالله .

الإيمان باليوم الآخر يدخل فيه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى كتاب العقيدة الواسطية وهو كتاب مختصر فى عقيدة أهل السُّنة والجماعة من أحْسن ما كتبه شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ فى جمعه ووضوحه وعدم الاستطرادات الكثيرة .

يقول ـ رحمه الله ـ : « يَدْخُلُ فى الإيمان باليـوم الآخر الإِيمانُ بكلم ا أخبر به النبى ـ ﷺ ـ ممَّا يكُونُ بَعْد الموْت »(١) .

فمن ذلك : فتنة القبر !

إذا دُفِن الميت أتاه ملكان يُجلِسَانه ويَسألانـه ثلاثة أسئلة يقولان : مَنْ ربُّك ، مَا دِينك ، من نَبِيُّك .

فيـثبت الله الذين آمنوا بـالقول الثابت ـ أسـأل الله أن يجعلنـى وإياكم منهم ـ فيـقول المؤمن : ربى الـله ودينى الإسلام ونبـى محمد فـينادى مناد من الـسمَّاء أن صدق عـبدى فأفرشوه من الجنة وألبِسُوه من الجنة وافتحوا له بَابًا إلى الجنة !

ويُفسح له فى قـبره مد البَصَر ويأتيه من الجنـة من روحها ويشاهد فيهـا ما يشاهد من النعيم .

وأمَّا المنافق أو الكافـر فيقول : هَاه هَاه(٢) . . . لا أدرى سمعت الناس يقـولون شيئًا فقلته ؛ لأن الإيمان لم يصـل إلى قلبه وإنما هو بلسانه فقط فهو يـسمع ولا يدرى ما المعنى ولا يفتح عليه فى قبـره ، هذه فتنة عظيمة جدًا ولهذا أمرنا النـبى عليه الصلاة والسلام أن نستعيذ بالله منها فى كل صلاة « **أعوذُ بالله من عَذَاب جَهَنَّم وَمِن عَذَاب القبر** »(٣) .

ومن ذلك : أن تؤمن بنعيم القبر وعذاب القبر .

نعيم القبر لمن يستحق النَّعيم من المؤمـنين وعذاب القبر لمن يستحق العذاب ، وقد جاء ذلك فى القرآن والسُّنة وأجمع عليه أهل السُّنة والجماعة .

ففى كتاب الله يقول الله تبارك وتعالى : ﴿**كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ**

(١) صحيح: رواه انظر العقيدة الواسطية جـ١٠ .

(٢) صحيح: رواه النسائى (٨/٤ ، ٩٧) احمد (٣/٤ ، ١٢٦) .

(٣) صحيح: رواه مسلم (٥٨٨)

Marfat.com

﴿الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٣١ . ٣٢] أى : عند الوفاة .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى آخر سورة الواقعة : ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة : ٨٨ ، ٨٩] يقول هذا فى ذكر حال المحتضر إذا جاءه الموت ، إذا كان من المقربين فله روح وريحان وجنة نعيم فى نفس اليوم .

أما عذاب القبر فاستمع إلى قول الله عز وجل : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أى : سكرات الموت ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ مادين أيديهم لهذا المحتضر من الكفار ﴿أخرجوا أنفسكم﴾ وكأنهم شحيحون بأنفسهم لأنها تبشر والعياذ بالله بالعذاب فتهرب فى البدن وتتفرق ويشح بها الإنسان : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام : ٩٣] . اليوم يوم موتهم .

وقال الله سبحانه فى آل فرعون : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] فقال : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ هذا قبل يوم القيامة ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] . ولكن يجب علينا أن نعلم أن هذا النعيم والعذاب أمرٌ غيبى لا نطلع عليه لأننا لو اطّلعنا عليه ما دفنّا أمواتنا ؛ لأنَّ الإنسان لا يمكن أن يُقدِّم ميّته لعذاب يسمعه ، يفزع ؛ لأن الكافر أو المنافق إذا عجز عن الإجابة يضرب بمرزبة - قطعة من الحديد مثل المطرقة - فيصيح صيحة يسمعها كل شىء إلا الإنسان ! قال النبى - ﷺ - : « **ولو سمعها الإنسان لصعق** » (١) .

وقال النبى - ﷺ - : « **لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر** » (٢) ، ولكن من نعمة الله أننا لا نعلم به حسًّا ، بل نؤمن به غيبًا » كذلك لو كان عذاب القبر شهادة وحسًّا لكان فيه فضيحة ! إذا مررت بقبر إنسان ورأيته يُعذّب ويصيح فيه فضيحة له .

ولو أنَّه شهادة يُحسّ لكان هذا قلقًا على أهله وذويه فلا ينامون فى الليل وهم يسمعون صاحبهم يصيح ليلاً ونهارًا من العذاب ، لكن من رحمة الله سبحانه وتعالى أن جعله غيبًا لا يعلم عنه فلا يأت شخص ويقول إننا لو حضرنا القبر بعد يومين لم نجد أثرًا للعذاب ؟

نقول : لأنَّ هذا أمرٌ غيبى على أن الله تعالى قد يُطلع على هذا الغيب مَن شاء من

---

(١) صحيح : رواه البخارى (١٣٨٠) احمد (٣/ ٤١ ، ٥٨) .

(٢) صحيح : رواه مسلم (٢٨٦٨) .

Marfat.com

عباده .

فقد ثبت فى الصَّحيحين من حديث ابن عباس ـ ﷺ ـ مرَّ بقبرين فى المدينة وقال : « **إنَّهما ليُعذَّبان ومَا يُعذَّبان فى كبير ، أمَّا أحدُهُما فكان لا يَستَنزِه مِ البَولِ وأمَّا الآخر فكان يَمْشى بالنَّميمة** »[1] ، فأطلَع الله نبيه على هذين القبرين أنَّهما يُعذَّبان .

فالحاصل أنَّه يجب علينا أن نؤمن بفتنة القبر وهى سؤال الملكين عن ربه ودينه ونبيه ، وأن نؤمن بنعيم القبر أو عذابه .

وممَّا يدخل فى الإيمان باليوم الآخر : أن يؤمن الإنسان بما يكون فى نفس اليوم الآخر ، وذلك أنَّه إذا نُفخَ فى الصُّور النفخة الثَّانية قام الناس من قُبورهم لله رب العالمين حفاة ليس عليهم نِعال وعُراة ليس عليهم ثياب وغُرْلاً ليسوا مختونين وبُهمًا ليس معهم مال .

كل النَّاس حتى الأنبياء والرسل يُبعَثُون هكذا كما قال الله : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

فكما أن الإنسان يخرج من بَطن أمه هكذا عَاريًا غير مختون ليس معه مال فكذلك يخرج من بطن الأرض يوم القيامة على هذه الصِّفة يقومون لربِّ العالمين الرِّجال والنساء والصِّغار والكبار والكفار والمؤمنون كُلُّهم على هذا الوصف حُفَاة عُرَاة غُرلاً بُهمًا ولا ينظر بعضهم إلى بعض ؛ لأنه قد دهاهم من الأمر ما يشغلهم عن نظر بعضهم إلى بعض .

ربَّما تكون المرأة إلى جنبِ الرَّجُل ولا ينظُران إلى بعض ، كما قال الله عز وجل : ﴿فإذا جاءت الصاخة (٣٣) يوم يفر المرء من أخيه (٣٤) وأمه وأبيه (٣٥) وصاحبته وبنيه (٣٦) لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [عبس : ٣٣ ـ ٣٧] .

ومن الإيمان باليوم الآخر : أن تُؤمن بأنَّ الله سبحانه وتعالى يبسط هذه الأرض ويمدها كما يمد الأديم أى الجلد؛ لأنَّ أرضنا اليوم كرة مُستديرة مبطحة بعض الشىء من الجنوب والشَّمال ، لكنها مُستديرة كما يفيده قوله تعالى : ﴿إذا السماء انشقت (١) وأذنت لربها وحقت (٢) وإذا الأرض مدت﴾ [الانشقاق : ١ ـ ٣] معناه أنها لا تمد إلا إذا انشقت السماء وذلك يوم القيامة ، فتبسط الأرض كما يُبسط الجلد المدبوغ ليس فيها أودية ولا أشجار ولا بناء ولا جبال يذرها الرب قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا.

يُحشر النَّاس عليها على الوَصف المذكور آنفًا وتطوى السَّموات يطويها الرَّب عز وجل بيمينه وتدنى الشَّمس من الخلق حتى تكون فوق رءوسهم بقدر ميل[2] ، إمَّا مسافة وإما

(١) سبق تخريجه .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٤٧١٢) الترمذى (٢٤٣٤) .

Marfat.com

ميل المكحلة ، وأيًا كـان فهى قريبة من الرءوس ، لكننا نؤمـن أنَّ من الناس من يَسْلَم من حرِّهـا وهم الذين يُظلُّـهم الله فى ظِلِّه يـوم لا ظل إلا ظله ومنـهم السَّبـعة الذين ذكـرهم الرَّسول فى نسق واحد فقـال عليه الصلاة والسلام : « **سَبْعَةٌ يُظلُّـهم الله فى ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله إمَامٌ عادل وشـاب نَشأ فـى طَاعَة الله وَرَجُلٌ قَـلْبُهُ بالمَسَاجـد وَرَجُلان تَحـابَّا فى الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه وَرَجُلٌ دعَتْهُ امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال : إنِّى أخَاف الله وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَـدَقَة فَأخْفَاهَـا حتى لا تَعْلَم شِمَـالُه مَا تُنْفِق يَمِيـنُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ الله خاليًا فَـفَاضَت عَيْنَاه**»[١] .

أولا الإمام العادل : هو الَّذى عَدَل فى رعـيته ولا يَعْدِل أقـوام وأحب عند الله من أن يحكم فيهم شريعة الله هذا رأس العدل ؛ لأن الله يقول : ﴿إنَّ الله يأمرُ بالعدل والإحسان﴾ [النحل : ٩٠] فمن حكم شعبه بغير شريعـة الله فإنه ما عدل ، بل هو كافر والعياذ بالله ؛ لأن الله قال : ﴿ومن لَمْ يحكُم بما أنزل اللهُ فأُولئك هُمُ الكافرُون﴾ [المائدة : ٤٤] فإذا وَضَعَ هذا الحاكم قوانين تخالف الشَّريعة وهو يَعْلم أنَّهـا تخالف الشَّريعة ، ولكنه عَدَل عنها وقال أنا لا أعدل عن القانـون ، فإنَّه كافر ولو صلَّى ولو تصدَّق ولـو صام ولو حَجَّ ولو ذكر الله ولو شهد للرسول بالرِّسالة فإنَّه كافر مخلَّد فى نار جهنَّم يوم القيامة .

ولا يجوز أن يتولَّى على شعب مُسلم إذا قَـدرَ الشَّعب على إزَاحته عن الحكم ، فأهم العَدل فى الإمام أن يحكم فـى الناس بشريعة الله ومن العدل أن يُسوِّى بين الفـقير والغنى ، وبين العدو والـولى ، وبين القريب والبعـيد حتى العدو يـسوى بينه وبين الولى فى مـسألة الحكم حتَّى إن العـلماء ـ رحمهم الله ـ قالـوا لو دخل على القاضى رَجُلان أحدهـما كافر والثَّانى مسلم حرم عليه أن يُميِّز المسلم بشىء !

فيدخلان جميعًا ويجـلسان جميعًا ويتحدث القاضى إليهما جمـيعًا فلا يتحدث لواحد دون الآخر ولا يَبَشّ فى وجه المسلم ويُكشِّر فى وجه الكافر ! لا !!

والآن هما فـى مقام الحكـم يجب أن يُسَوِّى بـينهمـا مع أن الكافر لا شـك أنَّه ليس كالمسلم : ﴿ **أفنجعل المُسْلِمين كالمُجْرمين (٣٥) ما لكُمْ كيفَ تحكُمُون**﴾ [القلم : ٣٥ ـ ٣٦] لكن فى باب الحكم الناس سواء .

ومن العـدل : أن يُقيم الحـدود التى فرضـها الله عز وجل عـلى كل أحد حـتى على أولاده وذُرِّيته فإنَّ النبى ـ ﷺ ـ وهو أعدل الأئمة لما شُفعَ إليه فى امرأة من بنى مخزوم أمر الرسول ـ ﷺ ـ بقطع يَدِها فشفع إليه أسامة فيها فقال له : أتشفعُ فى حَد من حُدود الله !

---

(١) صحيح : رواه البخارى (١٤٢٣) مسلم (١٠٣١) .

Marfat.com

ـ أنكر عليه ـ ثم قام النبى ـ ﷺ ـ فَخَطَب النَّاس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « **أمَّا بعد فإنَّمـا أهلَكَ مَنْ كان قَـبْلكُم أنَّهم كـانوا إذا سَرَقَ فـيهم الشَّريـف تَركوه ، وإذا سَرَقَ فـيهم الضَّعيف أقَاموا علَيه الحَـد ! وايم الله ـ أى أحلف بالله ـ لو أنَّ فـاطمة بنت محمـد سَرَقَت لَقَطَعْتُ يدَها** »[(١)] صلى الله عليك يا رسول الله !

فاطمة بنت محمد أشرف النِّساء ! سيـدة نسـاء أهل الجنَّة بنت أفضل البشر ولو سَرقت لقطع يدها وهو أبوها .

وتأمل « **لَقَطَعْـت يَدَهَا** » ولم يقل « **لأمرت بقـطع يدها** » فظاهره أنه هو الـذى يُباشر قطعها لو سرقت .

هذا العدل وبهـذا قامت السموات والأرض ، ومن عَدْل الإمـام أن يُولِّى المناصب من هو أهلٌ لها فى دينه وفى قُوَّته ، فيكون أمينًا وقَويًا أهْلاً لِمَا وُلِّى عليه .

وأركان الولاية اثنـان : القوة ، والأمانة ، قال اللـه تعالى : ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص : ٢٦] . ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ لسليمان ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ أى بعرش بلقيس ـ ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل : ٣٩] .فمن العدل ألا يولى أحدًا منصبًا إلا وهو أهلٌ له فى قوته وفى أمانته فإن فَعَل فليس بعادل أى إن ولى من ليس أهلاً ويوجد من هو خير منه فليس بعادل .

المهم أنَّ النبى ـ ﷺ ـ جعل الإمام العَادل من الذين يُظِلُّهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وجعله أول هؤلاء السَّبعة ؛ لأن العدل فى الرَّعية صعب جدًا ، فإذا وفق المرء الذى يُولِّيه الله على عباده للعدل نَالَ فى هذا خيرًا كـثيرًا وانتفعت الأُمَّة فى عَصْره ومن بعده لأنَّه قدوة صالحة .

ثانيًا « شابٌ فى طاعة الله» :

الشَّاب ما بـين الخمس عشرة سنة إلـى الثلاثين ، ولا شك أن يكون للشَّـاب اتجاهات وأفكار ولا يستقر على شىء ؛ لأن شاب غض كل شىء يجذبه كل شىء يختطفه.

ولهذا الـرَّسول ـ ﷺ ـ فى الحرب أمـر أن تقتل شـيوخ المقـاتلين المشركـين ويستبـقى شبابهم ؛ لأن الـشَّباب إذا عرض عليهم الإسـلام ربما يسلمون ، فالشَّـاب لما كان فى سن الشباب يكـون له أفكار وأهواء واتجاهات فكرية وخلُـقية وسُلوكية صـار الذى يمن الله عليه وينشأ فى طاعته من الذين يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٣٤٧٥) مسلم (١٦٨٨) .

Marfat.com

وطاعة الله هى امتـثال أمر الله واجتناب نهيـه ، ولا امتثال للأمر واجـتناب للنَّهى إلا بمعرفة أن هذا أمر وهذا نهى .

إذن لابد من سَبق العلم فيكون هذا الشَّاب طالبًا للعلم ممتثلاً للأمر مجتنبًا للنَّهى .

الثَّالث « رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعلَّق بالمَسَاجد » : أى يحب المَسَاجد .

وهل المقـصود أمـاكن السـجود ؟ أى أنَّـه يحبُّ كثـرة الصَّلاة أو المقصـود المَسَاجد المخصوصة ، يحتمل هذا وهذا .

هذا رجل دائمًا قلبه مُـعلَّق بالمَسَاجد وهو مَشغُول فى أمـاكن الصَّلاة ، وفى الصلاة ، إذا انتهى من صلاة انتظر الأخرى وهكذا .

وهناك فـرق بين قول الإنـسان : « اللَّهُـمَّ أرحِنى بالصَّـلاة » ، و« اللهم أرِحْـنى من الصَّلاة » .

أرحنى بالصلاة : هذا خير، أى : اجعل الصلاة راحة لقلبى . وأرِحنى من الصَّلاة : أى : فُكَّنى عنها .

الرابع « رَجُلان تحابا فى الله ، اجتمعـا عليه وتفرقا عليه » : أى أحَبَّ بعضهما بعضًا لا لشىء سوى الله عز وجل ، فليس بينهما قرابة ولا صلة مالية ولا صداقة طبيعية ، إنما أحبه فى الله عز وجل لأنه رآه عابدًا لله مستقيمًا على شرعه فأحبه .

وإذا كان قريبًا أو صديـقًا وما أشْبه ذلك فلا مانع من أن يحبـه من وجهين ، من جهة القرابة والصَّداقة ، ومن الجهة الإيمانية .

فهذان تحابا فـى الله وَصَارا كالأخوين لِما بينهـما من الرَّابطة الشَّرعيـة الدِّينية ، وهى عبادة الله سبحانه وتعالى .

اجتـمعا عليـه فى الدُّنيا ، وتفـرقا عليه ، أى : لم يـفرق بينهمـا إلا الموت ، هذان يظلهما الله فى ظله يوم لا ظل إلاَّ ظله .

ويكونان يوم القيامة على محبتهما وعلى خلتهما كما قال الله تعالى : ﴿ **الأَخلاَّءُ يومئذ بعضهم لِبعض عدوٌ إلاَّ المُتَّقين** ﴾ [الزخرف:٦٧] . تبقى الصداقة فى الدنيا والآخرة .

الخامس « ورَجل دَعَتْهُ امرأة ذاتُ منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله » :

رجل قادر على الْجماع دَعَتْهُ امرأة ليجـامعها بالزِّنى والعياذ بالله ذات مَنصب ، أى : أنها من حمائل معروفة ليست من سقط النِّسـاء وهى جميلة دعته إلى نفسها فى مكان خال لا يطلع عليهما أحد ، وهو فيه شهـوة ويحب النِّساء لكن قال : إنى أخاف الله ! لم يمنعهَ

Marfat.com

من فعل هذا إلا خوف الله عز وجل .

فانظر إلى هذا الرجل ! المقتضى موجود ؛ لأنه قادر على الجماع والمرأة جميلة وهى ذات منصب والمكان خال ، لكن مَنَعَهُ مَانع أقوى من هذا المقتضى وهو خوف الله ، قال: « **إنى أخاف الله** » ما قال : إنى لا أشتهى النساء وما قال : ما أنت جميلة وما قال: أنت من أسافل النساء ولا أتنازل أن أُجامعَك ، وما قال : إن حولنا أحدًا ، قال : « **إن أخاف الله** » هذا مِمَّن يُظلُّه الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وانظر إلى يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام وعمه إسماعيل، لأنَّ جده إسحاق بن إبراهيم وإسماعيل هو أبو العرب .

عشقته امرأة العزيز ملك مصر ، وكانت امرأة ملك على حال من الجمال والدلال ، غلَّقت الأبواب بينهما وبين النَّاس : ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف : ٢٣] يعنى : تدعوه إلى نفسها ، فكان رجلاً شابًا وبمقتضى الطَّبيعة البشرية همَّ بها وهمَّت به ولكن رأى برهان ربه ووقع فى قلبه خوف الله فامتنع فهددته بالسجن فقال : ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٣ _ ٣٥] وسجن فى ذات الله وامتنع عن الزِّنى مع قوة أسبابه لكنه رأى برهان ربه فخاف الله .

السادس « **ورجل تصدق بصدقة فأخْفَاهَا حَتَّى لا تعلم شمَالُه ما تنفق يمينُه** » :وهذا فيه كمال الإخلاص ، لا يريد من الناس أن يطلعوا على عمل مَن أعماله ، بل يريد أن يكون بينه وبين ربه فقط ، ولا يريد أن يظهر للنَّاس بمظهر الْمنة على أحد ؛ لأنَّ الذى يعطى أمام الناس تكون له منَّة على من أعطاه ، فهو يُخفى الصَّدقة حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، أى : من شدَّة إخفائه لو أمكن ألا تعلم يده الشمال ما أنفقت يده اليمين لفعل ، فهذا مخلص غاية الإخلاص ، وهو بعيد عن الْمن بالصدقة ، يظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله . ولكن لاحظ أن إخفاء الصدقة أفضل بلاشك ، إلا أنَّه ربما يعرض لهذا الأفضل ما يجعله مفضولاً مثل أن يكون فى إظهار الصَّدقة تشجيع النَّاس على الصَّدقة فإن هنا قد يكون إظهار الصَّدقة أفضل ، ولهذا امتدح الله سبحانه وتعالى الذين ينفقون سرًا وعلانية على حسب ما تقتضيه المصلحة فالحال لا تخلو من ثلاثة مراتب :

إما أن يكون السر أنفع ، أو الإظهار أنفع ، فإن تساوى الأمران فالسرُّ أنفع.

السابع : « **رَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا ففاضت عيناه** » : ذكر الله بلسانه وبقلبه ، ليس عنده

Marfat.com

أحد يُرائيه بهذا الذكر خاليًا من الدُّنيا كلها ، قلبه معلَّق بالله عز وجل .

فلما ذكر الله بلسانه وبقلبه وتذكر عظمة الرَّب عز وجل اشتاق إلى الله ففاضت عيناه، هذا مما يُظِلُّه الله فى ظلِّه يوم لا ظل إلا ظلُّه .

هذه الأعمال السَّبعة قد يوفق الإنسان فيحصل على واحد منها ، أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ، هذا ممكن ، ولا يناقض بعضه بعضًا ، فقد يوفق الإنسان فيأخذ كل واحدة من هذه بنصيب كما حدَّث الرسول : « **أنَّ للجنَّة أبوابًا، مَن كان منّ أهل الصَّلاة دُعى مِن بابِ الصَّلاة ، ومَن كان من أهل الصَّدقة دُعى مَنْ بابِ الصَّدَقة ، ومَنِ كان من أهلِ الجِهاد دُعى مِنْ بَابِ أهل الجهاد ، ومَن كان من أهلَ الصِّيام دُعى مِنْ بَابِ الرَّيان** » ذكر أربعة ! . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، مَا على من دُعى من واحد من هذه الأبواب من ضرورة - أى : الذى يُدعى من باب واحد سهل - فهل يدعى أحدٌ من هذه الأبواب كلها ؟

قال : « **نعم ، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر** » (١) لأنَّه صاحب صَلاة وصدقة وجهاد وصيام ، فكل مَسَائل الخير قد أخذ منها بنصيب ، ﷺ وأرضاه ، وألحقنا به فى جنات النعيم .

ومن علامات يوم القيامة : انَّ الشَّمس تدنو من الخلائق قدر ميل وشرحنا حديث السَّبعة الذين يُظِلُّهم الله فى ظلِّه ، يوم لا ظِل إلا ظِله .

وهنا مسالة أُحبُّ ان أُنبِّه عليها ، وهى أن بعض الناس يَظُنُّون أن الْمراد بالظِّلِّ فى ظله يوم لا ظل إلا ظله أنَّه ظل الرَّب عز وجل ، وهذا ظَنٌّ خاطىء جدًا لا يظنه إلا رجل جاهل ، وذلك أن مِن المعلوم أن الناس فى الأرض ، وأن الظل هذا يكون عن الشَّمس، فلو قدر أن الْمراد ظِلُّ الرَّب سبحانه وتعالى لَزِمَ من هذا أن تكون الشَّمس فوق الله ليكون حائلاً بينه وبين الناس وهذا شىء مُستحيل ، ولا يمكن ؛ لأن الله سبحانه قد ثبت له العلو الْمطلق من جميع الجهات .

ولكن الْمراد ظل يخلقه الله فى ذلك اليوم يظل من يستحقون أن يُظلهم الله فى ظله ، وإنَّما أضافه الله إلى نفسه ؛ لأنَّه فى ذلك اليوم لا يستطيع أحد أن يُظل بفعل مخلوق ! لا هناك بناء ولا شىء يُوضع على الرءوس إنما يكون الظل ما خلقه الله لعباده فى ذلك اليوم، فلهذا أضافه الله إلى نفسه لاختصاصه به .

ومما يكون فى ذلك اليوم : نشر الدواوين ، أى : صحائف الأعمال التى كتبت على المرء

(١) صحيح: **رواه البخارى (٣٦٦٦) مسلم (١٠٢٧)** .

Marfat.com

فى حياتـه ، وذلك لأن الله وكَّل بكُلِّ إنسان ملَكـين ، أحدهما عن اليمـين ، والثانى عن الشمـال ، كما قـال الله تبارك وتعـالى : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦ ـ١٨] .

هذان الملـكان الكريمان ، يكتـبان كل ما يـعمله المـرء ، من قول أو فعل ، أمـا ما يحدث به نفسه فإنَّه لا يـكتب عليه ؛ لأن النَّبى ـ ﷺ ـ قال : « إنَّ الله تجاوز عن أُمَّتى ما حدَّثت به أنفسها ، مَالَم تَعْمَل أوْ تَتَكلَّم » [(١)] .

لكن القول والفعل يُكْتَب على الإنسان كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السَّيئات على الشِّمال ، فيكتـبان كل ما أمرا بكتابته فإذا كان يوم القيـامة ألزم كل إنسان هذا الكتاب فى عنقـه ، كما قال الله تـعالى : ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء : ١٣] ويخرج له هذا الكتاب فيقال : ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء : ١٤] فيقرأه له ويتبين كُلَّ ما عنده .

هذا الكتاب المنشور من النَّاس من يأخذه بيـمينه ، ومن الناس من يأخذه بشماله وراء ظهره .

أما من يأخذه بيمـينه ـ أسأل الله أن يجعلنى وإياكم منهم ـ فـإنَّه يقول للنَّاس : هاؤم اقرءُوا كتابيه ! يُريهم إيَّاه فرحًا ومسرورًا بما أنعم الله به عليه .

وأمَّا من أوتى كتابه بشماله فيقول حزنًا وغمًّا : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾[الحاقة:٢٥]

ومما يجب الإيمان به فى ذلك اليوم أن تؤمن بالحساب بأن الله تعالى يحاسب الخلائق، كما قال الله تعالى : ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء :٤٧] وقال الله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : ٨] فيحاسب الله الخلائق .

لكن حساب المؤمن حساب يسير ، ليس فيـه مناقشة ، يخلو الله تعالى بعبده المؤمن ويضع عليه سِتْـره ، ويُقرِّره بذنوبه يقول : أتذكر كذا ، أتذكرُ كـذا ، حتَّى يقول : نعم ، ويُقرّ بذلك كُلَّه فيقول الله عز وجل له : « إنِّى قَدْ سَتَرْتُها عَلَيْـكَ فى الدُّنيا وأنا أغْفرُها لك اليومَ » [(٢)] وما أكثر الذنوب التى ستَرها الله علـينا ؟ فإذا كان الإنسان مؤمنًا قال الله له : « فإنى قد سترتها عليك فى الدُّنيا .. » إلخ .

أمَّا الكافر والعياذ بالله فإنَّه يُفْضَح ويُخْزَى ويُنَادَى على رءُوس الأشهاد : ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٦٦٦٤) مسلم (١٢٧) .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٢٤٤١) .

Marfat.com

﴿كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨] .

وممَّا يجب الإيمان به الحوض المورود لـنبينا محـمد - ﷺ - : وهو حوض يصب عليه مِيـزابانَ من الكوثر ، وهـو النَّهر الذى أُعـطيَهُ الرسـول - ﷺ - فى الجنة (١) كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر : ١] فيصب منه ميزابان على الحوض الذى يكون فى عرصات يوم القيامة .

وصفه الـنبى عليه الصـلاة والسلام بأنَّ مَاءَهُ أشَدُّ بيـاضًا من اللبن وأحلَى مـن العَسَل وأطيب من رائحة المِسْك وأن آنيته كنجوم الـسَّمَاء وأنَّ طُولَه شهر وعَرْضَه شهر ، وأنَّ من شرب منه مرة واحدة فإنَّه لا يظمأ بعدها أبدًا (٢) .

هذا الحـوض يرِدُهُ المؤمنون مـن أُمَّة النبـى - ﷺ - أسأل الله أن يُوردنى وإيَّـاكم إيَّاه - يَشْربون منه .

وأما من لم يؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام فإنَّه يطرد عنه ولا يشرب منه .

وهذا الحوض الذى جعله الله لـلنبى عليه الصَّلاة والسَّلام هو أعظم حِـيَاض الأنبياء ، ولكل نبى حوض يَرِده المؤمنون من أمته لكنها لا تنسب إلى حوض الرسول - ﷺ - ، لأن هذه الأمة يمثلون ثُلُثَى أهل الجنة ، فلا جرم أن يـكون حَوض الرسول عليه الصلاة والسلام أعظَم الحِيَاض وأكبرها وأوسَعَها وأعظَمها وأشملها .

ومما يجب الإيمان به فى ذلك اليوم : الإيمان بالصِّراط : وهو جسر مَنصوب على متن ، وهو أدقُّ من الشَّعر وأحَدُّ من السَّيف يَمُرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم من كان مُسَارعًا فى الخيرات فى الدنيـا كان سريعًـا فى المشـى على هذا الصِّـراط ، ومن كان مُتـباطئـا كان مُتباطئًا، ومن كان قد خَلَطَ عملاً صالحًـا وآخر سيئًا ولم يعفُ الله عنه فإنَّه رُبما يكردس فى النار والعياذ بالله ! (٣) .

يختلف النَّاس فى المشى عليه ، فمنهم من يمر كلمح البَصَر ، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم مـن يمر كالرِّيح ، ومنهـم من يمر كالفرس الجـواد ، ومنهم من يمر كـركاب الإبل، ومنهم من يمشى ، ومنهم من يَزْحَف ، ومنهم من يلقى فى جهنم (٤) .

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٥٧٨) الترمذى (٣٣٦١) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٦٥٧٩) مسلم (٢٣٠٠) .

(٣) صحيح: رواه انظر مسلم (١٨٣) .

(٤) صحيح: انظر مسند الإمام أحمد (١٣٧/٤) .

Marfat.com

وهذا الصِّراط لا يمر عليه إلا المؤمنون فقط ، أمَّا الكافرون فإنهم لا يمرون عليه ، وذلك لأنهم يُسَاقُون فى عَرَصَات القيامة إلى النار رأسًا نسأل الله العافية ، والله أعلم.

فإذا عبروا على الصِّراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص من بعضهم لبعض وهذا القصاص غير القصاص الذى يكون فى عرصات يوم القيامة .

هذا القصَاص والله أعلم ، يراد به أن تتخلى القلوب من الأضغان والأحقاد والغل حتى يدخلوا الجنة وهم على أكمل حال ، وذلك أن الإنسان وإن اقتص له ممن اعتدى عليه فلابد أن يبقى فى قلبه شىء من الغِلِّ والحِقْد على الذى اعتدى عليه ، ولكن أهل الجِنة لا يدخلون الجنة حتى يقتص لهم اقتصاصًا كاملاً فيدخلونها على أحسن وجه.

فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا أذن لهم فى دخول الجنَّة ولكن لا يُفتح باب الجنة لأحد قبل الرسول ـ ﷺ ـ [1] ، ولهذا يشفع هو بنفسه لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة كما أنه شفع للخلائق أن يقضى بينهم ، ويَسْتَرِيحوا من الهَوْل والْكَرْب والغم الذى أصابهم فى عرصات القيامة [2] وهاتان الشفاعتان خاصتان برسول الله ـ ﷺ ـ .

فأول من يدخل الجنة من النَّاس رسول الله ـ ﷺ ـ وأول من يدخلها من الأمم أمة النبى ـ ﷺ ـ [3] ، أما أهلُ النَّار والعياذ بالله فيساقون إلى النَّار زمرًا، و يدخلونها أمة بعد أمة كلما دَخَلَت أُمَّةٌ لعَنت أختها ، والعياذ بالله .

والثَّانية تَلْعَنُ الأولى ، وهكذا ويتبرأ بعضهم من بعض ، نسأل الله العافية ، فإذا أتوا إلى النَّار ، وجدوا أبوابها مفتوحة يبتغوا بعذابها والعياذ بالله .

فيدخلونها ويُخلَّدون فيها أبد الآبدين إلى أبد لا مُنتهى له ، كما قال الله عز وجل فى كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء : ١٦٨ ، ١٦٩] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب : ٦٤ ـ ٦٨] .

---

(١) صحيح : رواه أحمد (٣/ ١٤٤) وعند البخارى ومسلم .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٧٤١٠) مسلم (١٩٣) .

(٣) صحيح : رواه أحمد (٣/ ١٤٤) أبو داود (٤٦٧٣) وهو عند البخارى ومسلم .

Marfat.com

وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن : ٢٣] فهذه ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل كلها فيهـا التصريح بأن أهل النار خالدون فيها أبدًا ولا قول لأحد بعد كلام الله عز وجل . كما أن أهل الجنة خالدون فيها أبدًا .

فإن قال قائل : إن الله تعالى قال في سورة هود : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود : ١٠٦ ، ١٠٨] ففى أهل الجنة قال : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أى : غير مقطوع ، بل هو دائـم ، وفى أهل النار قال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧] فهل هذا يعنى أن أهل النار ينقطع عنهم العذاب ؟

جـ ـ نقول : لا .

ولكن لَمَّا كان أهل الـجنة يتقلبون بنعمة الله بين الله أن عطـاءهم لا ينقطع ، أما أهل النار فلـما كانوا يتـقلبون بعـدل الله قال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود : ١٠٧] . ولا معقب لحكـمه ، وقد أراد أن يكون أهل النار فى النار . هـذا الكلام فيما تيسـر مما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر .

وقوله : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » هذا الركن السادس .

القدر : هو تقـدير الله سبحـانه وتعالى ، لما يكـون إلى يوم القيـامة ، وذلك أن الله سبحانه خلق القلم فقال له : اكتب ، قال : ربى ، وما أكتب ؟

قال : اكتب ما هو كائن ، فجرى فى تلك السَّاعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكـن ليصيبه ، وقد ذكره الله هذا فى كتابه إجمالاً ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج : ٧٠] وقال تعالى : ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] من قبل أن نبرأها ، من قبل أن نخلقها ، أى : مـن قبل أن نخلق الأرض ، ومن قبل أن نخلق أنفـسكم، ومن قبل أن نخلق المصيبة فإن الله كتب هذا من قبل خلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنة .

قال أهل العلم : ولابد للإيمان بالقدر من أن تؤمن بكل مَراتبه الاربع .

المرتبة الأولى : أن تؤمن بأن الله عليم بكل شىء ، وهذا كثير فى الكتاب العظيم يذكر الله عموم علمه بكلِ شيء ، كما قال الله تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق : ١٢] ولقوله تعالى : ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا ...

Marfat.com

إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

المرتبة الثانية : أن تؤمن بأنَّ الله تعالى كتب مقادير كل شيء إلى قيام السَّاعة كتبه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة .

كل شيء كائن فإنه مكتوب قد انتهى منه جفَّت الأقلام وطُويت الصُّحف فما أصابك لم يكن ليُخطئك ، ومَا أخطأك لم يكن ليصيبك .

فإذا أصابك شيء لا تقل لو فعلت كذا ما أصابني ؛ لأن هذا شيء منته مكتوب لابد أن يقع كما كتب سبحانه فلا مَفَرَّ منه مهما عملت ، فالأمر سيكون على ما وقع لا يتغير أبدًا ، لأن هذا أمر قد كتب .

فإن قال قائل : ألم يكن قد جاء فى الحديث : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِى رِزْقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِى أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ » (١) .

فالجواب : بلى ، قد جاء هذا ، ولكن الإنسان الذى بُسط له فى رزقه ونُسِىء له فى أثره من أجل الصِّلة ، قد كتب ذلك له ، كتب أنَّه سَيَصِل رَحِمه ، وأنَّه سيُبْسَط له فى الرزق ، وأنَّه سيُنسأ له في الأثر ، لابد أن يكون الأمر هكذا ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « مَن أحَبَّ ... » (الحديث) من أجل أن نُبادر ونُسَارع إلى صلة الرَّحم .

واعلم أن الكتابة فى اللَّوح المحفوظ يعقبها كتابات أخر .

منها : أن الجنين فى بطن أمه إذا تم له أربعة أشهر أرسلَ إليه ملك موكل بالأرحام فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد، فيكتب ذلك وهذه الكتابة غير الكتاب فى اللوح المحفوظ ، هذه كتابة فى مقتبل عمر الإنسان ، ولهذا يسميها العلماء : الكتابة العُمْرية يعنى نسبه للعمر .

هذا إذا تمَّ له أربعة أشهر ، أى : مائة وعشرون يومًا (٢) ، ولهذا ترى أن الجنين إذا تم له أربعة أشهر بدأ يتحرك لأنَّه دخلت فيه الرُّوح وقبل ذلك هو قطعة من اللحم .

كذلك : هناك كتابة أخرى تكون فى كل سنة وهى فى ليلة القدر ، فإن ليلة القدر يكتب الله فيها ما يكون فى تلك السنة كما قال الله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان : ٣ ، ٤] يفرق : أى يبين ويفصل ولهذا

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٥٩٨٦) مسلم (٢٥٥٧) .

(٢) صحيح : رواه مسلم (٢٦٤٥) . .

Marfat.com

سميت ليلة القدر .

المرتبـة الثالثة للإيمـان بالقدر أن تؤمن بأن كل شىء فـهو بمشيئـة الله لا يخرج عن مَشيئته شىء .

ولا يفرق بين أن يكون هـذا الواقع مما يختصُّ الله به كإنزال الْمطـر ، وإحياء الموتى، وما أشبه ذلك ، أو مما يعـلمه الخلق كالصَّلاة والصِّيام وما أشبهها ، فكل هذا بمشيئة الله قال الله : ﴿لِمن شاءَ منكم أن يستقيم ﴿٢٨﴾ وما تشاءون إلاَّ أن يشاء اللَّه ربُّ العالمين﴾[التكوير : ٢٨ ، ٢٩] .

وقال الله : ﴿ولَوْ شاءَ اللَّهُ ما اقْتتلَ الَّذين منْ بعْدهم منْ بعْد ما جاءَتْهُمُ الْبيناتُ ولَكن اخْتلفُوا فَمنهم مَنْ آمن ومنْهُم مَّن كفر ولَوْ شاءَ اللَّهُ ما اقْتتلُوا ولَكنَّ اللَّهَ يفعلُ ما يُرِيدُ﴾[البقرة : ٢٥٣] فبين الله لنا أنه لا مـشيئة لنا إلا بمـشيئة الله ، وأن أفعـالنا واقعة بمشـيئة الله : ﴿ولو شاء الله ما اقْتتلوا﴾[البقرة : ٢٥٢] كل شىء فإنـه واقع بمشيئة الله ، فـلا يكون فى ملكه مـا لا يشاء أبدًا، ولهذا أجمع المسلمون على هذه الكلمة الـعظيمة: « ما شاء الله كَانَ، ومَا لَمْ يَشَأ لَمْ يكُنْ»(1) .

وأما المرتبة الرابـعة : فهى الإيمان بأن كل شىء مخلوق الله لقـول الله تبارك وتعالى : ﴿اللَّهُ خالقُ كلِّ شيءٍ وهو علىٰ كلِّ شيءٍ وكيل﴾[الزمر : ٦٢] وقال تعالى : ﴿وخلق كلَّ شيءٍ فقدَّرهُ تقْديرًا﴾[الفرقان : ٢] فكل شىء واقع فإنه مخلوق لله عز وجل.

الإنسان مخـلوق لله وعمله مخلوق لله ، قـال الله عن إبراهيم وهو يخاطـب قومه : ﴿واللَّهُ خلقكم وما تعملون﴾[الصافات : ٩٦] ففعل العبد مخلوق لله ، لكن الْمباشر للفعل هو العبد، وليس الله ، لكـن الله هو الذى خلق هذا الفعل ففعله العبـد ، فهو منسوب لله خلقًا ، ومنسوب إلى العبد كَسْبًا وفعلاً .

فكل شىء مما يحدث فـإنَّه مخلوق لله عزَّ وجل ، لكن ما كان مـن صفَات الله فليس بمخلوق فالـقرآن مثلاً أنزله الله على مـحمد - ﷺ -لكنه ليس بمخلـوق ، لأَنَّ القرآن كلام الله وكلام الله صفة من صفاته وصفاته سبحانه ليست بمخلوقة .

هذه مراتب أربع للإيمان بالقدر ! يجب أن تؤمن بها كلها وإلا فإنك لم تؤمن بالقدر .

وفائدة الإيمان بالـقَدَر عظيمة جـدًا ؛ لأن الإنسان إذا علم أن الشَّىء لابد أن يقـع كما

---

(1) السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٢٥) البيهقى فى السنن وابن السنى فى عمل اليوم والليلة : (٤٠) (٣ ٢١٥) .

Marfat.com

أمر الله استراح .

فإذا أصبب بضراء صبّر ، وقال هـذا من عند الله ، وإم أصيب بسرّاء شكر ، وقال : هذا من عند الله ، وقـد ثبت عن النبي عـليه الصلاة والسـلام ، أنه قال : « **عَجَبًا لأمْر المؤمن ، إنّ كُلَّه خير ، إنّ أصَـابَتَه سَرَّاءُ شكَر ، فكَانَ خيرًا له ، وإنّ أصابَتْـهُ ضَرَّاءُ صبَر فكَانَ خَيْرًا لَهُ** » (١) .

لأن المؤمن يؤمـن أن كل شىء بقضـاء الله فيكون دائمـًا فى سرور ودائمـًا فى أن فى انشراح ، لأنه يعلم أن ما أصابه فإنه من الله إن كان ضراء صبر ، وانتظر الفرج من الله ، ولجأ إلى الله فى كـشف هذه الضرَّاء ، وإن كـان سرّاء شكر وحمـد الله وعلم أن ذلك لم يكن بحوله ولا قوته ، ولكن بفضل من الله ورحمة .

وقوله : « خيره وشره » :

الخير ما ينتفع به الإنسان ويُلائمـه من عِلم نَافِع ومَال واسِع طيّب وصحة وأهل وبنين وما أشْبه ذلك .

والشرَّ ضد ذلـك من الجهل والفقر والمرض وفقدان الأهل والأولاد وما أشبـهه . كل هذا من الله سبحـانه وتعالى الخير والشر ، فإن الله سـبحانه يقدر الخير لحكمـة ويقدِّر الشر لحكمة ، كما قال الله عز وجل : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

فإذا علم الله أن من الخـير والحكمة أن يقدر الشـرَّ قَدَّره لما يترتب عليه مـن الْمَصَالح العظيمة كقوله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] .

فإذا قال قائل : كيف تجمع بين قـول النبى عليه الصلاة والسلام : « **وأن تؤمن بالقدر خيره وشره** » وقوله ـ ﷺ ـ « **الشر لَيْسَ إلَيْك** » (٢) فنفى أن يكون الشرُّ إليه .

جـ ـ فالجواب على هذا أن نقول : إن الشرَّ الْمحض لا يكون بفعل الله أبدًا .

الشرُّ المحض الذى ليس فيه خيـر لا حالاً ولا مآلاً هذا لا يمكن أن يوجد فى فعل الله أبدًا هذا من وجـه ؛ لأنه حتى الـشر الذى قدره الله شـرًا لابد أن يكون له عاقـبة حمـيدة ويكون شرًا على قوم وخيرًا على آخرين .

(١) صحيح : رواه مسلم (٢٩٩٩) .

(٢) صحيح : رواه مسلم (٧٧١) .

Marfat.com

أرأيت لو أنزل الله المطر مطرًا كثيرًا فأغرق زرْع إنسان ، لكنه نفع الأرض وانتفعت به أمَّة لكنا هذا خيرًا بالنسبة لمن انتفع به شرًا بالنسبة لمن تضرر به فهو خير من وجه وشر من وجه .

ثانيًا : حتّى الشّر الذى يُقدِّره الله على الإنسان هو خير فى الحقيقة ؛ لأنّه إذا صبر واحتسب الأجر من الله نال بذلك أجرًا أكثر بأضعاف مضاعفة مما ناله من الشّر .

ولهذا ذكر عن بعض العابدان وهى رابعة العدوية أنها أصيبت فى أصبعها أو يدها فانجرحت فصبرت وشكرت الله على هذا وقالت : (إن حَلاوة أجْرِها أنسَتْنى مَرَارَة صبْرِها) (١) .

ثم نقول : إنّ الشّرَّ حقيقة ليس فى فعل الله نفسه ، بل فى مفعولاته .

المفعولات هي التى فيها خير وشر ، أمَّا الفعل نفسه فهو خير ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿قُلْ أعوذُ بِربِّ الفَلقِ ① من شرِّ ما خلقَ﴾ [الفلق : ١ ، ٢] أى : من شر الذى خلقه الله .

يَدلُّك لهذا أنَّه لو كان عندك مريض وقيل له : إنَّ من شفائه أن تكوينه بالنَّار فكَويْتَهُ بالنَّار ، فالنار مُؤْلمة بلا شك ؛ لكن فِعلُك هذا ليس بشر ، بل هو خير للمريض ، لأنَّك إنما تنتظر عاقبة حميدة بهذا الكى كذلك فعْل الله للأشياء الْمكروهة والأشياء التى فيها شر هى بالنسبة لفعله وإيجاده خير لأنه يترتَّب عليها خير كثير .

فإن قال قائل : كيف تجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ ما أصابكَ من حسنة فمن الله وما أصابكَ من سيِّئة فمن نَفْسكَ﴾ [النساء : ٧٩] .

جـ - فالجواب أن نقول : ﴿ما أصابكَ من حسنة فمن الله ﴾يعنى من فضله هو الذى منَّ عليك بها أولاً وآخرً ﴿وما أصابكَ من سيِّئة فمن نَفْسكَ﴾ أى : أنت سببها وإلا فالذى قدَّرها هو الله لكن أنت السبب كما فى قوله تعالى : ﴿وما أصابكُم من مُصيبة فبما كسبت أيديكُم ويعفُو عن كثير﴾ [الشورى : ٣٠] .

وخلاصة الكلام أن كل شىء واقع ، فإنه بقدر الله سواء كان خيرًا أم شرًا .

أمَّا الخير فأمره واضح أنه من الله ، وأمَّا الشر فإننا نقول : إن الشر ليس فى فعل الله ، بل فى مَفْعولاته ، ونقول أيضًا هذه المفعولات التى فيها الشر قد تكون خيرًا من وجه آخر ، إمَّا للشخص الْمصاب بها نفسه ، وإما لغيره .

---

(١) هذا القول لرابعة العدوية .

Marfat.com

فمثلاً إذا نزل المطر وأتلَفَ زرع إنسان لكنه نفـه الأمة فهنا صار شرًا على شخص لكنه خير كثير بالنسبة للآخرين .

أو نقول : هو شرٌّ لـك من وجه وخيرٌ لك من وجه آخر ؛ لأن هـذا الشَّرَّ إن أصابك لك فيه أجـر كثير ، وربما يكـون سببًا لاستقـامتك ومعرفـتك قدر نعمة الله علـيك فتكون العاقبة حميدة .

قال عمر فيما نقله عن جبريل قال للنبى ـ ﷺ ـ : « **أخبرنى عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنَّك تَرَاهُ ، فإن لم تكُن تراه فإنَّه يرَاكَ** » .

الإحسان : ضد الإساءة والمراد بالإحـسان هنا إحسان العمل فبين النـبى عليه الصلاة والسلام أن الإحـسان أن تعبد الله كـأنك تراه يعني مـثلاً تُصَلِّى وكأنـك ترى الله عز وجل وتزك وكأنَّك ترَاه وتَصُوم وكأنَّك تراه ، وتحج وكأنَّك تراه ، وهكذا بقية الأعمال.

وكون الإنســان يعبد الله كأنَّه يرَاهُ تـزكى فإن ذلك دليل على الإخـلاص لله عز وجل وعلى إتقان العمل فى متابعة الرسول ـ ﷺ ـ لأن كل مَنْ عَبَد الله على هذا الوَصْف فلابد أن يقع فى قلبه من محبة الله وتعظيمه ما يَحْمله على إتقان العمل وإحكام العمل .

« **فَإنْ لم تكُن تَـراهُ فَإنَّهُ يرَاكَ** » أى : فإن لم تعـبد الله على هذا الوصف فاعـبده على سبيل المُـراقبة والخوف ، « **فإنَّه يرَاك** » ومعلوم أن عبادة الله علـى وجه الطَّلب أكمل من عبادته على وجه الهرب .

فها هنا مرتبتان :

المرتبة الأولى : أن تعبد الله كأنَّك تراه ، وهذه مرتبة الطَّلب .

والثانـية : أن تعبـده كأنك تعـلم أنه يراك وهذه مـرتبة الهـرب ، وكلتاهمـا مرتبـتان عظيمتان، لكن الأولى أكمل وأفضل .

ثم قال جبريل : « **أخبرني عن الساعة** » أى : عن قيام الساعة التى يبعث فيها الناس ويجازون فيها على أعمالهم فقال النبى ـ ﷺ ـ : « **مَا المسئول عنها بأعلم من السَّائل** » .

« **المسئول عنها** » يعنى نفسه عليه الصَّلاة والسَّلام « **بأعلم من السَّائل** » يعنى جبريل ، يعنى إذا كنـت أنت يا جبريل تجـهلها فأنا كـذلك أجهلها فـهذان رَسُولان كريمان أحـدهما رسول مَلَكى ، والثَّانى رسُول بشرى وهما أكمل الرُّسُل .

فأكمل الرُّسل من المـلائكة جبريل ، وأكمل الرُّسُل من البشـر محمد ـ ﷺ ـ ، ومع ذلك فكل منهما ينفى أن يكون له علم بالسَّاعة ؛ لأنَّ عـلم السَّاعة عند من بيده إقامتها عز

Marfat.com

وجل وهو تبارك وتعالى كما قال الله فى آيات متعددة ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي﴾ [الأعراف : ١٨٧] ﴿يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله﴾ [الأحزاب:٦٣] فعلمها عند الله ، فمن ادعى علم الساعة فإنه كاذب ، ومن أين له أن يعلم ورسول الله - ﷺ - لا يعلم وجبريل لا يعلم وهما أفضل الرسل ، ولكن الساعة لها أمارات كما قال الله تعالى : ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها﴾ [محمد : ١٨] أى : علاماتها .ولهذا لما أخبر النبى - ﷺ - جبريل أنه لا يعلم بذلك قال : « **فأخبرنى عن أماراتها** » أى : علاماتها الدالة على قربها .

فقال : « **أن تلد الأمةُ ربتَها ، وأن ترى الحفاة العراة العالةَ رعاءَ الشاء يتطاولون فى البنيان** » .

الأول : « **أن تلد الأمة ربتها** » يعنى : أن تكون الأمة المملوكة تتطور بها الحال حتى تكون ربة للماليك الآخرين وهو كناية عن كثرة الأموال .

وكذلك الثانى : « **وأن ترى الحفاةَ العراةَ العالة رعاءَ الشاء يتطاولونَ فى البنيان** » الحفاة الذين ليس لهم نعال من الفقر ، والعراة ليس لهم كسوة من الفقر ، العالة الفقراء يتطاولون فى البنيان يعنى أنهم لا يلبثون إلا أن يكونوا أغنياء يتطاولون فى البنيان حسّا ومعنى.

حسّا بأن يرفعوا بنيانهم إلى السماء ، ومعنى بأن يحسنوها ويزينوها ويدخلوا عليها كل ما يكون من مكملاتها ، لأن لديهم وفرة من المال .

وكل هذا وقع وهناك أمارات أخرى وعلامات أخرى ذكرها أهل العلم فى باب الملاحم والفتن وأشراط الساعة وهى كثيرة ، ثم انطلق جبريل عليه الصلاة والسلام ولبثوا ما شاء الله أن يلبثوا ، ثم قال النبى - ﷺ - لعمر : « **أتدرى من السائل ؟** » قال : الله ورسوله أعلم .قال : « **فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم** » .

وفى هذا الحديث من الفوائد :

إلقاء المسائل على الطلبة ليمتحنهم كما ألقى النبى علية الصلاة والسلام المسالة على عمر .

وفيه : جواز قول الإنسان : الله ورسوله أعلم ، ولا يلزمه أن يقول : الله ثم رسوله أعلم .

لأن علم الشريعة الذى يصل إلى النبى عليه الصلاة والسلام من علم الله فصح أن يقال: الله ورسوله أعلم ، كما قال الله : ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ [التوبة :

Marfat.com

٥٩] . ولم يقل : ثم رسوله ؛ لأن الإيتاء هنا إيتاء شرعى ، وإيتاء النبى ـ ﷺ ـ الشرعى من إيتاء الله .

فالمسائل الشرعية يجوز أن نقول : الله ورسوله بدون (ثم) أمَّا المسائل الكونية كالمشيئة وما أشبهها فلا تقال : الله ورسوله ، بل الله ثم رسوله ، ولهذا لَـمَّا قال رجل للنبى ـ ﷺ ـ : ما شاء الله وشئت . قال : « **أجعلتنى لله ندًا ، بل ما شاء الله وحده** »(١) .

وفى هذا دليل على أنَّ السائل إذا سأل عن شىء يعلمه من أجل أن ينتفع الحاضرون فإنه يكون معلمًا لهم ؛ لأن الذى أجاب النبى عليه الصلاة والسلام وجبريل سائل لم يعلم الناس ، لكن كان سببًا فى هذا الجواب الذى انتفع به الناس .

فقال بعض العلماء: إنَّه ينبغى لطالب العلم إذا جلس مع عالم فى مَجْلس أن يسأل عن مسائل تَهم الْحاضرين وإن كان يعلم حُكمها من أجل أن ينفع الحاضرين ويكون معلمًا لهم.

وفى هذا دليل على بركة العلم وأن العلم ينتفع به السائل والْمجيب كما قال هنا : «**يُعَلِّمُكُم دِينَكُم**» .

وفيه : أن هذا الحديث حديث عظيم يشتمل على الدِّين كُـلِّه ولهذا قال : « **يُعَلِّمُكُم دِينكُم** » لأنه مشتمل على أصول العقائد وأصول الأعمال .

أصول العقائد : أركان الإيمان، وأصول الأعمال: أركان الإسلام الخمسة ، والله الموفق .

* * *

[٦١/٢] **الثَّانى** : عَنْ أبى ذَرّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ ، وأبى عَبد الرَّحْمنِ مُعَاذ بنِ جَبَل، رضي الله عنهما ، عَنْ رسول اللَّه ـ ﷺ ـ قال : « **اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ** » رواه التِّرْمِذىُّ وقال : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

هذا الحديث من أحاديث الأربعين النووية للمؤلف ـ رحمه الله ـ وفيها أنَّ النبى ـ ﷺ ـ أوصى بثلاث وصايا غظيمة :

الوصية الأول : قال : « **اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ** » وتقوى الله هى اجتناب الْمحارم وفعل الأوامِر هذه هى التَّقوى .

---

(١) حسن: رواه أحمد (١/ ٢١٤) والبيهقى فى السنن (٣/ ٢١٧) وحسنه الألبانى.

[٦١/٢] حسن : رواه الترمذى (١٩٨٧) أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨) ، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٧) .

Marfat.com

أن تفعل ما أمـرك الله به إخلاصًا لله واتّباعًا لرسول الله - ﷺ - ، وأن تـترك ما نهى الله عنه امتثالاً لنهى الله عز وجل وتَنَزُّهًا عن محارم الله .

مثـاله : تقـوم بما أوجب الله عليـك فى أعظم أركـان الإسلام بعـد الشهـادتين وهى الصلاة، فتأتى بها كاملة بشروطها وأركانها وواجباتها وتكملها بالْمكملات .

فمن أخلَّ بشىء من شُروط الصَّلاة أو واجباتها أو أركانها فإنَّه لم يتق الله ، بل نَقص من تقواه بقدر ما نقص من الْمأمور .

فى الزكاة تقوى الله فيها أن تُحصى جميع أموالك التى فيها الزكاة وتخرج زكاتك طيبة بها نفسك من غير بخل ولا تقتير ولا تأخير فمن لم يفعل فإنه لم يتق الله .

فى الصيام تأتى بالصَّوم كما أُمرت مجتنبًا فيه اللَّغو والرَّفث والصَّحب والغيبة والنميمة وغير ذلك مما ينقص الـصَّوم ويزيل روح الصَّوم ومعناه الْحقيقى وهـو الصَّوم عما حرَّم الله عز وجل .

وهكذا بقية الواجبـات تقوم بها طاعة الله وامتثالاً لأمره وإخلاصًـا له واتِّباعًا لرسوله، وكذلك فى الْمنهيات تترك ما نَهَى الله عنه امتثالاً لنهى الله عز وجل حيث نهاك فانته .

الوصية الثانية : « **أتبع السَّيئة الْحسنة تمحها** » أى : إذا عملت سيئة فأتبعها بحَسَنَة فإنَّ الْحسنات يذهبن السيئات ، ومن الْحسنات بعـد السيئات أن تتوب إلى الله من السَّيئات فإنَّ التَّوبة من أفـضل الْحسـنات كمـا قال الله عـز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] وقال الله تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور : ٣١] .

وكذلك الأعـمال الصَّالحة تـكفر السَّيئـات كما قال الـنَّبى عليه الصَّـلاة والسلام : « **الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ والْجُمُعَةُ ورَمَضَانُ إلى رَمَـضَانَ كَفَّارة لما بَـيْنَهن مَا اجْتُنِبَـت الكَبَائِرُ** »(١) وقال : « **العمرة إلى العمرَة كفَّارة لمَا بَيْنهما** »(٢) **فالحسَنات يذهبن السيئات** .

الوصية الثَّالثة : « **خَالق النَّاسَ بخُلق حَسَن** »

والوصيتان الأوليان فى مُعَاملة الْخالق والثَّالثة فى مُعَامَلة الخلق أن تعاملهم بخلق حسن تحمد عليه ولا تذم فيه وذلك بِطلاقة الوجه وصـدق القول وحُسْن الْمخاطبة وغير ذلك من الأخلاق الحسنة .

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٣٣) الترمذى (٢١٤) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٧٧٣) مسلم (١٣٤٩) .

Marfat.com

وقد جاءت النُّصوص الكثيرة في فضل الخلق الحسن حتى قال النَّبي عليه الصَّلاة والسَّلام : « أكملُ المؤمنينَ إيمانًا أحسَنُهم خُلُقًا »(١) وأخبر أن أولَى النَّاس به - ﷺ - وأقربهم منه منزلة يوم القيامة أحاسنهم أخلاقًا .

فالأخلاق الحسنة مع كونها مسلكًا حسنًا في المجتمع ويكون صاحبها محبوبًا إلى الناس هي فيها أجر عظيم يناله الإنسان في يوم القيامة .

فاحفظ هذه الوصايا الثلاث من النبي - ﷺ - ، والله الموفق .

***

[٣/٦٢] الثَّالث: عَن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: كُنتُ خَلْفَ النَّبي - ﷺ - يَوماً فَقَالَ : يَا غلامُ ، إنِّي أُعلِّمُكَ كَلمَاتٍ : « احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تجدْهُ تُجَاهَكَ ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَل اللهَ ، وَإذَا اسْتَعنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمعَتْ عَلَى أنْ يَنْفعُوكَ بشَيءٍ ، لَمْ يَنْفعُوكَ إلا بشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وإن اجْتَمعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ ؛ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بشَيْءٍ قَد كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ؛ رُفِعَتِ الأقْلامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » رواهُ الترمذيُّ وَقَالَ : حديثٌ حسنٌ صحيح .

وفي رواية غير الترمذي : « احْفَظِ اللهَ تَجدْهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخَاءِ يَعْرفْكَ في الشِّدَّةِ ، وَاعْلَمْ أنَّ مَا أَخْطَأكَ لَمْ يَكُنْ ليُصِيبَكَ وَمَا أصَابَكَ لَمْ يَكُنْ ليُخْطِئَكَ ، وَاعْلَمْ أنَّ النَّصرَ مَعَ الصبْرِ ، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَأنَّ مَعَ العُسرِ يُسْراً» .

الشرح

قوله : « كنت خلف النبي - ﷺ - » أي : راكبًا معه .

قوله : « فقال لي : يَا غُلام ، احفظ الله يحفظك » قال له : يا غلام ، لأنَّ ابن عباس رضي الله عنهما كان صغيرًا فإنَّ النبي - ﷺ - توفي وقد ناهز الاحتلام يعني من الخامسة عشرة إلى السادسة عشرة أو أقل ، فكان راكبًا خلف الرسول - ﷺ - فوجه إليه هذا النداء « يا غلام» .

(١) صحيح : رواه الترمذي (٢٦١٢) أبو داود (٤٦٨٢) أحمد (٢/ ٤٧٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٤).

[٣/٦٢] صحيح : رواه الترمذي (٢٥١٦) ، وقال الألباني في المشكاة (٥٣٢) : حديث صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٤٣) . والرواية الأخرى رواها أحمد في مسنده (١/ ٣٠٧) وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح .

Marfat.com

« احفظ الله يحفظك » كلمة جليلة عظيمة ، احـفظ الله وذلك بحفظ شرعه ودينه بأن تمتثل لأوامره وتجتنب نواهيه ، وكذلك بأن تتعـلّم من دينه ما تقوم به عباداتك ومعاملاتك وتدعو به إلى الله عز وجل لأنَّ كل هذا من حفظ الله .

الله سبحانه وتعـالى نفسه ليس بحاجة إلى أحد حتى يحفـظه ولكن المراد حفظ دينه وشريعته كـما قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد : ٧] وليس المعنى تنصرون ذات الله ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى غنى عن كل أحد ، ولهذا قال في آية أخرى : ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد : ٤] ولا يعجزونه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر : ٤٤] .

إذًا : « احفظ الله يـحفظك » جملة تدلُّ عـلى أن الإنسان كلما حفـظ دين الله حفظه الله .

ولكن حفظه فى ماذا ؟

جـ ـ حـفظه فى بدنـه وحفظـه فى مَاله وأهـله وفى دينه وهـذا أهم الأشيـاء وهو أن يُسَلِّمك من الـزيغ والضّلال ، لأنَّ الإنسان كلمـا اهتدى زاده الله هدى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] وكلما ضلَّ والعياذ بـالله فإنه يزداد ضلالاً كما جاء فى الحديث : « إنَّ الإنسَانَ إذا أذنَبَ صَارَ فى قلبه نُكْتَة سوداء فإن تَابَ مُحيَتْ »[(١)] وإن أذنب ثانية انضم إليها نكتة ثانية وثالثة ورابعة حتى يطبع على قلبه ، نسأل اللهَ العافية .

إذًا : يحفظك فى دينك وفى بدنك ومالك وأهلك .

وقوله : « احفـظ الله تجده تُجـاهك » . وفى لفظ آخر : « تجده أمـامك » احفظ الله أيضًا بحفظ شريعتـه بالقيام بأمره واجتناب نهيه تجده تجاهك وأمامـك ومعناهما واحد يعنى تجد الله أمامَك يَدُلُّك على كل خير ويَذُود عنك كل شر ولا سيما إذا حفظت الله بالاستعانة به ، فإنَّ الإنسان إذا استعان بالله وتوكل على الله كان الله حَسْبَه وكافيه .

ومَن كان الله حسبه فإنه لا يحتاج إلى أحد بعد الله ، قال الله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ٦٤] أى وحسب من اتبـعك من المؤمنين : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾ [الأنفال : ٦٢] فإذا كان الله حـسب الإنسان ، أى : كافيه فإنَّه لن يناله سوء ، ولهذا قال : « احفظ الله تجدهُ تُجاهَك » أو « تجده أمامك» .

(١) حسن : رواه الترمذى (٣٣٣٤) ابن ماجه (٤٢٤٤) أحمـد (٢/ ٢٩٧) وحسنه الالبانى فى صحيح ابن ماجه.

Marfat.com

ثم قال له : « إذا سألتَ فاسألِ الله ، وإذا استعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بالله » أى : لا تعتمد على أحد مخلوق .

مثلاً : إنسان فقير ليس عنده مال يسأل الله يقول : اللهم ارزقنى اللَّهُمَّ هيِّء لى رِزقًا فيأتيه الرِّزق من حيث لا يحتسب .

لكن لو سأل الناس فربما يعطونه أو يمنعونه ولهذا جاء فى الحديث : « لأن يَأخُذَ أحدُكُمَ حبَلَهُ فَيحتطِب ثم يَبيعهُ لكَان خيراً لَهُ مِنْ أن يَسأل النَّاس أعْطَوْهُ أو مَنَعُوه » .

فكذلك أنت إذا سألت فاسأل الله قل : « اللَّهم ارزقنى » « اللَّهُمَّ أغننى بِفَضْلك عَمَّن سواك » وما أشبهه من الكلمات التى تتجه بها إلى الله عز وجل . وكذلك أيضًا : « إذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله » .

الاستعانة طلب العَون فلا تطلب العَون من أى إنسان إلا للضَّرورة القُصْوى ومع ذلك إذا اضطررت إلى الاستعانة بالْمخلوق فاجعل ذلك وَسيلة وسببًا لا ركنًا تعتمد عليه ، اجعل الرُّكن الأصيل هو الله عز وجل .

وفى هاتين الْجملتين دليلٌ على أنَّه من نَقْص التَّوحيد أن الإِنْسَان يسأل غير الله ، ولهذا تُكْره الْمسألة لغير الله عز وجل فى قليل أو كثير .

والله سبحانه إذا أراد عونك يَسَّر لك العَون سواءٌ كان بأسباب معلومة أو غير معلومة.

قد يُعينك الله بسبب غير معلوم لك فيدفع عنك من الشرِّ ما لا طاقة لأحد به وقد يُعينك الله على يد أحد من الخلق يُسخره لك ويُذلِّله لك حتى يعينك ، ولكن مع ذلك لا يجوز لك إذا أعانك الله على يد أحد أن تنسى الْمُسَبِّب وهو الله عز وجل ، كما يفعله بعض الْجهلة الآن لَما استعانت الدَّولة بالكفار وحصل منهم العَون الظَّاهر البيِّن صار بعض الناس من الْجهلة يُقَدِّسُون هؤلاء الكفرة ومَا علموا أنهم أعداء لهم سواء أعانوهم أم لا.

هم أعداء لكم إلى يوم القيامة ولا يجوز لأحد يُواليهم أو يُناصرهم أو يدعو لهم كما سمعنا من بعض العامَّة الْجهال يقول سوف نُضَحِّى لفلان وفُلان من الكفرة والعياذ بالله ونُسَمِّى أبناءنا بأسمائهم ـ نسأل الله العافية ـ وندعو لهم !! هم لولا أن الله سخَّرهم وذلَّلهم لكم ما نفعوكم بشىء .

النَّافع الضَّار هو الله وهو الذى يَسَّرهم وسَخَّرهم ليُعينُوكُم ويُدافعوا عنكم وهو من تسخير الله سبحانه وتعالى لعباده الْمؤمنين أن يسخر لهم كفاراً يذودون عنهم كما جاء فى الْحديث : « إنَّ الله لَيُؤيِّد هذا الدِّين بالرَّجل الفَاجِر»[1] .

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٦٦٠٦) مسلم (١١١) .

Marfat.com

فيجب علينا ألا ننسى فضل الله الذى سخرهم لنا ويجب علينا أن ننبه العامة ، إذا سمعنا أحدًا يَرْكن إليهم ويقول هم الَّذين نصرونا مائة بالْمائة وهم الأول والآخر فيجب علينا أن نبين لهم أن هذا خلل فى التَّوحيد والله أعلم .

وقوله : « **واعْلَم أنَّ الأُمَّةَ لَو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاَّ بشيءٍ قد كتبه الله لك** » .

فبيَّن النبى عليه الصلاة والسلام فى هذه الجملة أن الأمة لو اجتمعت كلها على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك .

فإذا وَقَع منهم نَفْعٌ فاعلم أنَّه من الله ؛ لأنَّه هو الذى كتبه فلم يقل النبى - ﷺ - لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك ، بل قال : « **لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بشيء قَدْ كَتَبَهُ الله لك**» .

فالنَّاس بلا شك ينفع بعضهم بعضًا ويُساعد بعضهم بعضا لكن كل هذا مما كتبه الله للإنسان ، فالفضل لله فيه أولاً عز وجل ، هو الذى سخَّر لكَ من ينفعك ويحسن إليك ويزيل كربتك وكذلك بالعكس لو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليه .

والإيمان بهذا يَستلْزم أن يكون الإنسان مُتَعلِّقًا بربه ومتكلاً عليه لا يهتم بأحد ، لأنَّه يعلم أنه لو اجتمع كل الخلق على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه .

وحينئذ يعلق رجاءه بالله ويَعْتَصِم به ولا يُهمه الْخلق ولو اجتمعوا عليه ولهذا نجد الناس فى سلف هذه الأُمَّة لَما اعتمدوا على الله وتوكلوا عليه لم يَضرُهم كيد الكائدين ولا حَسَدُ الْحاسدين : ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **رُفعت الأقلام ، وجفَّت الصحف** » يعنى أن ما كتبه الله فقد انتهى ورفع والصحف جفت من الْمداد ولم يبق مراجعة.

فما أصابك لم يكن ليخطئك كما فى اللَّفظ الثانى : « **وما أخطأكَ لَم يكُن ليُصيبَك**».

وفى اللَّفظ الثانى قال : « **واعْلم أنَّ النَّصرَ مَعَ الصَّبر ، وأنَّ الفرَجَ مَعَ الكَرْب وأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا** » يعنى اعلم علم يقين أنَّ النَّصر من الصَّبر فإذا صبرت وفعلت ما أمركَ الله به من وسائل النَّصر فإن الله تعالى ينصرك .

والصبْرُ هنا يَشْمل الصَّبر على طاعَة الله وعن مَعْصيته وعلى أقداره الْمؤلمة ، لأنَّ العدو يُصيب الإنسان من كل جهة فقد يشعر الإنسان أنَّه لن يُطيق عدوه فيستحسر ويدع

Marfat.com

الْجهاد .

وقد يَشرع في الْجهاد ولكن إذا أصابه الأذى استحسر وتوقف وقد يستمر ولكنه يُصيبه الألم من عدوه فهذا أيضًا يجب أن يصبر عليه.

قال الله : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران : ١٤٠] وقال تعالى : ﴿وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء : ١٠٤] فإذا صبر الإنسان وصابر ورابط فإن الله سُبحانه ينصره .

وقوله : « واعلم أنَّ الفرج مع الكرب » .

كلما اكتربت الأمور وضاقت فإنَّ الفرج قريب ؛ لأنَّ الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل : ٦٢] فكلما اشتدت الأمور فانتظر الفرج من الله سبحانه وتعالى .

وقوله : « وإن مع العسر يسراً » فكل عسر فبعده يسر ، بل إن العُسر مَحْفوف بيُسْرين .

يُسْرٌ سابق ويسر لاحق ، قال الله تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ④ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٤ ، ٥] وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « لَنْ يَغْلب عُسْرٌ يُسْرين » (١) .

فهذا الحديث الذي زوصى به عبد الله بن عباسَ ينبغي للإنسان أن يكون على ذكر له دائمًا ، وأن يعتمد على هذه الوصايا النافعة التي أوصى بها النبي ـ ﷺ ـ ابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما والله الموفق .

* * *

[٤/ ٦٣] الرَّابعُ : عَنْ أنسٍ رضي الله عنه قال : إنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أعْمَالاً هيَ أدَقُّ في أعيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رسول الله ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ . رواه البخاري . وقال : « الْمُوبِقَاتُ » : الْمُهْلكَاتُ .

[٥/ ٦٤] الخَامسُ : عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : « إنَّ اللهَ تَعَالَى

---

(١) ضعيف: رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٢٨) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٧٨٤) .

[٤/ ٦٣] صحيح : رواه البخاري (٦٤٩٢) . أحمد (٣/ ١٥٧٢٣) .

[٥/ ٦٤] صحيح : رواه البخاري (٥٢٢٣) ، ومسلم (٢٧٦١) .

Marfat.com

يَغارُ ، وَغيْرَةُ اللَّهِ تعالى ، أنْ يَأتِي المَرْءُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ » متفقٌ عليه .

وَ « الْغَيْرَةُ » بفتح الغين ، وأَصْلُهَا الأنَفَةُ .

الشرح

أنس بن مالك من الْمعمرين فبقى بعد النبى - ﷺ - حوالى تسعين سنة ، فتغيرت الأمور فى عهده ﷺ ، واختلف أحوال الناس وصاروا يتهاونون فى بعض الأمور العظيمة فى عهد الصحابة ﷺ .

مثل صلاة الجماعة فقد كان الصَّحابة ﷺ لا يتخلف أحد عنها إلا منافق أو مريض معذور . ولكن الناس تَهَاونوا بها ولم يكونوا على ما كان عليه الصحابة فى عهد النبى ﷺ - والصَّحابة كانت تعد من الْمُوبقَات .

كذلك أيضًا الغش ، فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام قال : « من غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّى »(١) .

لكن انظر إلى الناس اليوم تجد أن الغش عندهم أهون من كثير من الأشياء ، بل إن بعضهم والعياذ بالله يعدُّ الغش من الشَّطارة فى البيع والشراء والعقود ويرى أن هذا من باب الحذق والذَّكاء - نسأل الله العافية - مع أن النبى - ﷺ - تبرأ من الإنسان الذى يغش الناس.

ومن ذلك : الكذب ، وهو من الأشياء العظيمة فى عهد الصحابة ﷺ فيرونه من الْموبقات ، لكنه عند كثير من الناس يَعُدُّه أمرًا هينًا فتجده يكذب ولا يُبالى بالكذب مع أن النبى - ﷺ - قال : « لا يَزَالُ الرَّجُل يكذب ويَتَحرَّى الكَذِب حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله كَذَّابًا »(٢) .

وربما يكذب فى أمور أخطر فيجحد ما عليه للناس أو يدعى ما ليس له ويحاكمهم عند القاضى ويحلف على ذلك فيكون والعياذ بالله ممن يلقى الله وهو عليه غضبان إلى غير ذلك من الْمَسَائِل التى يعدها الصحابة من الْمهلكات ، ولكن الناس اختلفوا فصارت فى أعينهم أدق من الشَّعر وذلك أنه كلما قوى الإيمان عظُمت الْمَعْصية عند الإنسان ، وكلما ضَعُف الإيمان خفَّت الْمعصية فى قلب الإنسان ورآها أمرًا هينًا يتهاون ويتكاسل عن الواجب ولا يبالى ؛ لأنه ضعيف الإيمان .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (١٠١) بلفظ : « من غشنا فليس منا » .

(٢) صحيح : رواه البخارى (٦٠٩٤) مسلم (٢٦٠٧) .

Marfat.com

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبى هريرة : « **إنَّ الله تعالى يَغَار وغيرة الله تعالى أن يأتى الْمَرْءُ مَا حَرَّم الله** » .

قوله : « مَحَارِمُه» أى : محارم الله .

الغيرة صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل ولكنها ليست كغيرتنا ، بل هى أعظم وأجل والله سبحانه بحكمته أوجب على العباد أشياء وحرم عليهم أشياء ، وأحَلّ لهم أشياء .

فما أوْجَبَه عليهم فهو خَيْر لهم فى دينهم ودنياهم وفى حاضرهم ومستقبلهم وما حَرَّمه عليهم فإنه شرٌّ لهم فى دينهم ودنياهم وحاضرهم ومستقبلهم فإذا حرَّم الله على عباده أشياء فإنَّه عز وجل يغار أن يأتى الإنسان محارمه ، وكيف يأتى الإنسان محارم ربه والله إنَّما حرمها من أجل مصلحة العبد ، أما الله فلا يضره أن يعصى الإنسان ربه.

لكن يغار كيف يعلم الإنسان أن الله سُبحانه حكيم ورحيم ولا يحرم على عباده شيئًا بُخلاً منه عليهم به ، ولكن من أجل مَصْلحتهم ثم يأتى العبد فيتقدم فيعصى الله عز وجل ولا سيما فى الزنى فإنه ثبت عن النبى - ﷺ - أنَّه قال : « **مَا من أحَد أغير من الله أن يَزْنى عَبْدُهُ أو تزنَى أَمَتُه** » [1] لأنَّ الزنَى فاحشة والزنَى طريق سافلٌ جدًا ومن ثَمَّ حرَّم الله على عباده الزنَى وجميع وسائل الزنى كما قال الله سبحانه : ﴿ ولا تقْربوا الزنَى إنَّه كانَ فاحشة وساء سبيلاً﴾ [الإسراء : ٣٢] فإذا زنى العبد والعياذ بالله فإن الله يغار غَيْرة أشد وأعظم من غيرته على ما دُونه من الْمحارم .

ومن باب أولى وأشد اللواط وهو إتيان الذكر الذكر ، فإن هذا أعظم وأعظم ولهذا جعله الله تعالى أشد فى الفحش من الزنَى فقال لوط لقومه : ﴿ أتأتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أحَد مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف : ٨٠] .

قال هنا : ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ وفى الزنَى قال: ﴿ فَاحِشَةً ﴾ أى : فاحشة من الفواحش ، أمَّا اللَّواط فجعله الفاحشة العظمى ـ نسأل الله العافية ـ .

وكذلك أيضًا السَّرقة وشُرب الخمر وكل الْمحارم يغار الله منها ، لكن بعض الْمحارم تكون أشد غيرة من بعض حَسَب الْجرم والْمضار التى تترتب على ذلك .

وفى هذا الحديث : إثبات الغيرة لله تعالى وسبيل أهل السُّنَّة والْجماعة فيه ، وفى غيره من أحاديث الصِّفات وآيات الصِّفات أنهم يثبتونها لله سبحانه على الوجه اللائق به يقولون : إن الله يغار لكن ليست كغيرة الْمخلوق ، وإن الله يفرح ولكن ليس كفرح

(١) صحيح : رواه البخارى (٧٢٢٠) .

Marfat.com

المخلوق ، وإن الله له من الصِّفَاتِ الكاملة ما يليق به ، ولا تشبه صفات المخلوقين ، والله الموفق .

* * *

[٦/ ٦٥] السَّادس : عَنْ أبى هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّهُ سمعَ النَّبى ﷺ يَقُولُ : « إنَّ ثلاثَةً من بَنى إسْرَائيل : أبْرَصَ وأقرع ، وأعْمَى ، أرادَ اللَّهُ أنْ يبْتَليَهُمْ فَبَعَثَ إلَيْهِمْ ملَكاً ، فَأتَى الأبْرَصَ فَقَالَ : أىُّ شَىْء أحبُّ إلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْنٌ حسنٌ ، وجلْدٌ حسَنٌ ، وَيَذْهبُ عَنّى الَّذى قَدْ قَذرنى النَّاسُ ؛ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وأُعْطِىَ لَوناً حَسَناً . قالَ : فَأى المَال أحبُّ إلَيْكَ ؟ قَالَ : الإبلُ ــ أوْ قَالَ : البَقَرُ ــ شَكَّ الراوى ــ فَأُعْطِىَ نَاقَةً عُشَرَاءَ ، فَقَال : بَاركَ اللَّهُ لَكَ فيهَا .

فَأتى الأقْرَعَ فقَالَ : أىُّ شَىْء أحبُّ إلَيْكَ ؟ قال : شَعْرٌ حسَنٌ ، وَيَذْهبُ عنى هذَا الذى قَذرنى النَّاسُ ، فَمسَحهُ فَذَهَبَ عنْهُ وأُعْطِىَ شَعْراً حسَناً ، قال : فَأىُّ المَال أحبُّ إلَيْكَ ؟ قالَ : البَقَرُ فأُعْطِىَ بَقَرَةً حاملاً ، وقَالَ : بَاركَ اللَّهُ لَكَ فيها .

فَأتَى الأعْمَى فَقَالَ : أىُّ شَىْء أحبُّ إلَيْكَ ؟ قال : أنْ يردَّ اللَّهُ إلَىَّ بَصَرى فَأُبْصرَ النَّاسَ ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إلَيْه بَصرَهُ ، قال : فَأىُّ المَال أحبُّ إلَيْكَ ؟ قال : الْغَنَمُ ، فَأُعْطِىَ شَاةً وَالداً ، فأنْتَجَ هذَانِ وولَّدَ هَذَا ، فَكَانَ لهذَا وَادٍ منَ الإبل ، ولهذَا وَادٍ منَ البَقَرِ ، وَلهذَا وَاد منَ الغَنَم .

ثُمَّ إنَّهُ أتَى الأبْرصَ فى صُورَته وَهَيْئَته ، فقَالَ : رَجُلٌ مسْكينٌ قد انقَطعَتْ بىَ الحِبَالُ فى سفَرى ، فَلا بَلاغَ لى الْيَوْمَ إلا باللَّه ثمَّ بكَ ، أسْألُكَ بالَّذى أعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ ، والجِلْدَ الحَسَنَ ، والمَالَ ، بعيراً أتبَلَّغُ به فى سفَرى ، فقَالَ : الحُقُوقُ كَثيرَةٌ ، فقال : كَأنّى أعرفُكَ ، ألَمْ تكُنْ أبْرص يَقْذَرُكَ النَّاسُ ، فقيراً فَأعْطَاكَ اللَّهُ ؟! فقال : إنَّمَا ورثْتُ هذَا المَالَ كابراً عن كابر ، فقالَ : إنْ كُنْتَ كَاذباً فَصيَّرَكَ اللَّهُ إلَى ما كُنْتَ .

وأتى الأقْرَعَ فى صُورَتهِ وهَيْئَته ، فقالَ لَهُ مثْلَ ما قَالَ لهذَا ، وردَّ عليْه مثْلَ مَا رَدَّ هذَا فقالَ : إنْ كُنْتَ كَاذباً فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إلَى مَا كُنْتَ .

وأتى الأعْمَى فى صُورَتِهِ وهَيْئَتِهِ ، فقالَ : رَجُلٌ مسْكينٌ وابْنُ سَبيلٍ انقَطَعتْ بى

[٦/ ٦٥] صحيح : رواه البخارى (٣٤٦٤) ، ومسلم (٢٩٦٤).

Marfat.com

الحبَالُ في سفَرى ، فَلا بَلاغَ لِىَ الْيَوْمَ إلا بـالله ثُمَّ بكَ ، أسْألُكَ بالَّذى رَدَّ عَلَيْكَ بَصرَكَ شَاةً أتبلَّغُ بها فى سَـفَرى ؟ فَقالَ : قَدْ كُنْتُ أعْمَى فَردَّ اللّهُ إلىَّ بَصـرى ، فَخُذْ ما شئْت وَدَعْ مَا شئْتَ ، فَواللّه ما أجْهَدُكَ اليَوْمَ بشىْءٍ أخَذْتَهُ للّه عزَّ وجلَّ ، فقالَ : أمْسكْ مَالَكَ فإنَّمَا ابْتُليتُمْ ، فَقدْ رضِىَ اللّه عنك ، وَسَخطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ » متفقٌ عليه .

و « النَّاقَةُ الْعُـشَرَاءُ » بضم العين وفـتح الشين وبالمد : هىَ الحـاملُ . قولُهُ : « أنتَجَ» وفى رواية : « فَنَتَـجَ » معنَاهُ :تَولَّى نتَاجَهَا ، والـنَّاتجُ للنَّاقَـة كـالْقَابـلَـة للْمَرْأة. وقولُـهُ : «ولَّدَ هذَا » هُوَ بِـتَشْديد اللَّام : أىْ : تَوَلَّى ولادَتَهَا ، وَهُوَ بمـعْنَى نَتَجَ فى النَّاقَة . فَالْمُوَلِّدُ»، والناتِجُ ، والْقَابلَةُ بمعْـنى ؛ لكنْ هذا للحَيَوان وذاكَ لغَيْره . وقَولُه « انْقَطَعَتْ بى الحبالُ» هُو بالحاء الْمُهْـمَلَة وَالباء الْمُوحَّدَة : أىْ الأسْبابُ ، وقولُهُ : « لا أجْهَدُكَ » معنَاهُ: لا أشُقُّ عليْكَ فى رَدّ شَىْءٍ تأخُذُهُ أوْ تَطْلُبُهُ منْ مَالى . وفى رواية البخارى : « لا أحْمَدُكَ» بـالحاء المهملة والميم ومعناهُ : لا أحْمَدُكَ بِـتَرْك شَىءٍ تَحتَاجُ إلَيْه ، كما قالُوا : لَيْسَ على طُول الحياة ندمٌ ، أىْ عَلَى فوَاتِ طُولها .

الشرح

قوله : « ثلاثة من بنى إسرائيل » وإسرائيل هو إسحاق بن إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام أخو إسماعيل ومن ذرية إسرائيل موسى وهارون وعيسى وجميع بنى إسرائيل كلهم من ذرية إسحاق عليه الصلاة والسلام .

وإسمـاعيل أخو إسحـاق فهم والعرب أبـناء عم ، وقد جاءت أخـبار كثيـرة عن بنى إسرائيل ، وهى ثلاثة أقسام :

الأول :ما جاء فى القرآن ، والثانى : ما جاء فـى صحيح السُّنّة ، والثالث : ما جاء عن أحبارهم وعن علمائهم .

فأما الأول والثاني فلا شك أنّه حقٌّ ، ولا شك في قـبوله ، مثل قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

ومن السنة مثل هذا الحديث الذى رواه أبو هريرة عن النبى - ﷺ -

وأما ما روى عنهم عن أحبارهم وعلمائهم فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما شهد الشَّرع ببطلانه ،فهذا باطل يـجب ردُّه وهذا يقع كثيراً فيـما نقل من

Marfat.com

الإسرائيليات فى تفسير القرآن ، فإنه ينقل فى تفسير القرآن كثير من الأخبار الإسرائيلية التى يشهد الشرع ببطلانها .

والثانى : ما شهد الشرع بصدقه ، فهذا يقبل ، لا لأنه من أخبار بنى إسرائيل ، ولكن لأن الشرع شَهِدَ بِصِدْقِهِ وأنه حق .

والثَّالث : مالم يكن فى الشَّرع تصديقُهُ ولا تكذيبه : فهذا يُتوَقّف فيه لا يُصدِّقون ولا يكذِّبون ؛ لأننا إن صدَّقناهـم فقد يكون باطلاً فنكون قد صدقناهـم بباطل ، وإن كذَّبناهم فقد يكون حقًّا فقد كذَّبناهم بحقٍّ ، ولهذا نـتوقَّف فيه ، ولا حرج من التحديث به ، فيما ينفع فى ترغيب أو ترهيب .

ذكر النبى عليه الصلاة والسلام فى هذا الحـديث أن ثلاثة من بنى إسرائيل ابتلاهم الله عزوجل بعاهات فى أبدانهم ، أحدهم أبرص ، والثانى أقرع ليس على رأسه شعر والثالث أعمى لا يبصر ، فأراد الله سبحانه أن يَبْتَلِيَهُمَ ويَـخْتَبِرَهُم ؛ لأنَّ الله سبحانه يبتلى العبد بما شاء يَبْلُوه هل يصبر أو يَضجر إذا كان ابتـلاه بضراء ، وهل يشكر أو يفتر إذا كان قد ابتلاه بسراء .

فبعث الله إليهم ملكًا من الملائكة ، وأتاهم يسألهم أى شىء أحب إليهم فبدأ بالأبْرَص فقال : « **أى شىء أحب إلـيك ؟** » قال : « **لون حـسن وجلد حـسن ويذهب عـنى الذى قذرنى الـناس به** » ، لأن أهم شىء عند الإنـسان أن يكون معـافى من الـ ا ـات ولا سـيما العاهات المكروهـة عند الناس. فمسحـه الملك فبرأ بإذن الله وزال عنه الـبرص وأعطى لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا .

ثم قال له : « **أىُّ المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ـ أو قال ـ البقر** » .

والظاهر أنه قـال : الإبل ، لأنَّه فى قِصَّة الأقرع أعطـى البقر ، فأعطاه ناقـة عشراء ، وقال له : بارك الله لك فيها ، فذهب عنه الفقر ، وذهَب عنه العيب البَدَنى ودعا له الملك بأن يُبارك الله له فى هذه النَّاقة .

ثم أتى الأقرع وقال : « **أى شىء أحب إليك ؟** » قال : « **شعر حسن ، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس به** » .

فمسحه فأعطى شـعرًا حسنًا . وقـيل له : « **أىُّ المالِ أحَـبُّ إليك ؟ قال : البـقر ، فأعطى بَقَرةً حاملاً ، وقال له : بَارَك الله لك فيها** » .

أما الأعمـى فجاءه الملك فـقال له : « **أىُّ شىء أحبُّ إلـيك ؟ قال : أن يَرُدَّ اللـه علىَّ بَصرى فأبْصِرُ به الناس** » وتأمل قول الأعمى هذا .

Marfat.com

فإنه لم يسأل إلا بصرًا يُبصر به الناس فقط ، أما الأبرص والأقرع فإن كل واحد منهما تمنى شيئًا أكبر من الحاجة ، لأن الأبرص قال : جلدًا حسنًا ولونًا حسنًا . وذاك قال : شعرًا حسنًا .

فليس مجرد جلد أو شعر أو لون ، بل تمنيا شيئًا أكبر ، أما هذا فإن عنده زهدًا ، لذا لم يسأل إلا بصرًا يبصر به فقط .

ثم سأله : « أيُّ المال أحبُّ إليك ؟ قال : الغنم » وهذا من زهده فلم يتمنَّ الإبل ولا البقر ، بل الغنم ونِسبَة الغنم للبقر والإبل قليلة فأعطاه شاة والدًا ، وقال : بارك لك الله فيها .

فبارك الله للأول فى إبله ، وللثانى فى بقره ، وللثالث فى غنمه ، وصار لكل واحد منهما وادٍ مما أُعطى .

ثم إن هذا الملك أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، صورته البدنية وهيئته الرَّثة ، ولباسه لباس الفقير ، وقال له : « **إنى رجلٌ فقير وابن سبيل ، قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثُم بك** » .

فتوسَّل إليه بذكر حاله أنَّه فقير وأنَّه ابن سبيل ، أى مسافرًا وأن الحبال أى الأسباب التى توصله إلى أهله قد انقطعت به ، وأنه لا بلاغ له إلا بالله ثم به .

وقال له : « **أسألك بالذى أعطاك الجلد الحسن ، والمال ، بعيرًا أتبلغ به فى سفرى** ».

لكنه قال : الحقوق كثيرة ، وبخل بذلك مع أنَّ له واديًا من الإبل ، لكنه قال : الحقوق كثيرة ، وهو فيما يظهر - والله أعلم - أنه لا يؤدى شيئًا منها ؛ لأنَّ هذا أحق من يكون ؛ لأنه مسافر وفقير وانقطعت به الحبال ومن أحق ما يكون استحقاقًا للمال .

ومع ذلك اعتذر له .

فذكره بما كان عليه من قبل ، فقال له : قد كنت أعرِفك ، ألم تكن أبرَصَ يَقذرك الناس فقيرًا ، فأعطاك الله المال وأعطاك اللون الحسن والجلد الحسن .

ولكنَّه قال والعياذ بالله : « **إنما ورثت هذا المال كَابِرًا عن كَابِر** » وأنكر نعمة الله.

فقال له الملك : « **إن كنت كاذبًا فصيَّرَكَ الله إلى ما كنت** » أى : إن كنت كاذبًا فيما تقول فصيرك الله إلى ما كنت من الفقر والبرص والذى يظهر أن الله استجاب دعاء الملك وإن كان دعاءً مشروطًا لكنَّه كان كاذبًا بلا شك فإذا تحقق الشَّرط تحقق المَشرُوط.

وأتى الأقرع فقال له مثلما قال للأبرص وردَّ عليه مثلما رد عليه الأبرص ، فقال : «

Marfat.com

إن كنت كاذبًا فصيَّرَكَ الله إلى ما كنت » .

وأتى الأعمى وذكره بنعمة الله عليه : « **فقال له : قد كنت أعـمى فَرَدَّ الله على بَصَرى وكنت فقيـراً . فأعطاني الله المال** » فأقرَّ بنعمة الله عليه « **فَخُذ ما شِـئتُ ودَعْ ما شئت** » مِنَ الغَنَمِ « **فَو الله لا أجْهَدُكَ اليوم بشىء أخذته لله** » .

أى : لا أمنعـك ولا أشق عليك بـالمنع بشىء أخـذته لله عـز وجل انظر إلى الـشكر والاعتراف بالنعمة .

فقال له الملك : « **أمسك عَلَيْكَ مَـالَكَ ، إنَّما ابْتُلِيتُم فقد رضِـىَ الله عنك وسَخِط على صَاحِبيْك**» .

وهذا يدل علـى أن القصة كـانت مشهـورة بين الناس ، ولهـذا قال : « **سخـط على صاحبيك**» .

فأمسك ماله وبقى قد أنعم الله عليه بـالبصر ، وأما الآخران فإن الظاهر أن الله ردهما إلى ما كانا عليه من الفقر والعاهة والعياذ بالله .

وفى هذا دليل : على أن شكر نـعمة الله على العبد من أسباب بقـاء النعم وزيادتها ، كما قـال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وفى قِصتَّهم آياتٌ من آيات الله عز وجل :

منها : إثبات الملائكة والملائكة هم عالم غيبى خلقهم الله عز وجل من نُور وجعل لهم قُوَّة فى تنفيذ أمر الله وجعل لهم إرادة فى طاعـة الله فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون .

ومنها : أن الملائكة قد يكـونون على صورة بنى آدم ، فإنَّ الْملك أتى لـهؤلاء الثلاثة بصورة إنسان .

ومنها : أنهم يتكيَّفون بصورة الشخـص المعين كما جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى فى المرة الثانية بصورة وهيئة .

ومنها : أيضًا أنه يجوز الاختبار للإنسان فى أن يأتى الشخص على هيئة معينة ليختبره، فإن هذا الملك جاء على صورة الإنسان الْمحتـاج الْمصاب بالعاهة ليرق له هؤلاء الثلاثة مع أن الملك ـ فيما يبدو والعلم عند الله ـ لا يُـصاب فى الأصل بالعاهات ، ولكن الله سبحانه وتعالى جعلهم يأتون على هذه الصورة من أجل الاختبار .

Marfat.com

ومنها : أن الملك مسح الأقرع والأبرص والأعمى مسحة واحدة فأزال الله عيبهم بهذه المسحة ؛ لأن الله إذا أراد شيئًا قال له : كن ، فيكون ، ولو شاء الله لأذهب عنهم العاهة، ولكن الله جعل هذا سببًا للابتلاء والامتحان .

ومنها : أن الله قد يبارك للإنسان بالمال حتى ينتج منه الشيء الكثير ، فإن هؤلاء النفر الثلاثة صار لواحد وادٍ من الإبل وللثاني وادٍ من البقر وللثالث وادٍ من الغنم وهذا من بركة الله عز وجل .

وقد دعا الملكُ لكل واحد منهم بالبركة .

ومنها : تفاوت بني آدم في شكر نعمة الله ونفع عباد الله فإن الأبرص والأقرع وقد أعطاهم الله المال الأهم والأكبر ، ولكن جحدًا نعمة الله قالا : إنَّما ورثنا هذا المال كابرًا عن كابر ، وهم كذبة في ذلك فإنهم كانوا فقراء وأعطاهم الله المال .

أما الأعمى فقد شكر نعمة الله واعترف لله بالفضل وذلك وفق وهداه الله وقال للملك : « خُذْ ما شِئْتَ ودَعْ ما شِئْتَ » .

ومنها أيضًا : إثبات الرضا والسُّخط لله سبحانه وتعالى وهما من الصفات التي يجب أن نثبتها لربنا سبحانه وتعالى ؛ لأنه وصف نفسه بها .

ففي القرآن الكريم الرضا : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة : ١٠٠] وفي القرآن : أن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة :٨٥] وفي القرآن الكريم الغضب : ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [النساء : ٩٣] وهذه الصِّفات وأمثالها يُؤْمن بها أهل السُّنة والجماعة بأنها ثابتة لله على وجه الحقيقة لكنها لا تشبه صفات المخلوقين كما أن الله لا يُشْبِه الْمخلوقين فكذلك صفاته لا تُشْبِه صِفات الْمخلوقين .

ومن فوائد هذا الحديث : أن في بني إسرائيل من العجب والآيات ما جعل النبي - ﷺ - ينقل لنا من أخبارهم حتى نتعظ ، ومثل هذا الحديث قصة النفر الثلاثة الذين لجئوا إلى غار فانطبقت عليهم صخرة من الجبل فسَدَّت عليهم الغار وعَجَزوا عن زحزحتها وتوسل كل واحد منهم إلى الله بصالح عمله (١) .

فالنبي عليه الصَّلاة والسَّلام يَقُصُّ علينا من أنباء بني إسرائيل ما يكون فيه الْموعظة والعبرة ، فعلينا أن نأخذ من هذا الحديث عبرة بأن الإنسان إذا شكر نعمة الله واعترف لله بالفضل ، وأدى ما يجب عليه في مال فإن ذلك من أسباب البقاء والبركة في ماله ، والله

---

(١) صحيح : انظر البخاري (٢٢٧٥) مسلم (٢٧٤٣) .

Marfat.com

الموفق .

* * *

[٦٦/٧] السَّابعُ : عَنْ أبى يَعْلَى شدَّاد بن أوْس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: « **الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَملَ لمَا بَعْدَ المَوْت وَالعَاجِزُ مَنْ أتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمَنَّى عَلَى اللّه** » رواه التِّرْمذِىُّ وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

قال التِّرمِذىُّ وَغَيْرُهُ مِنَ العُلَمَاءِ : مَعْنَى « دَانَ نَفْسَه » : حَاسَبَهَا .

الشرح

قوله : « **الكيِّس** » معناه الرَّجل الحازم الذى يغتنم الفُرَص ، ويتَّخذ لنفسه الحيطة حتى لا تفوت عليه الأيام واللَّيالى فيضيع .

وقوله : « **من دان نفسه** » أى : مَن حاسبها ونظر ماذا فعل من المأمورات، وماذا ترك من المنهيات ، هل قام بما أمر به وهل ترك ما نُهى عنه .

إذا رأى من نفسه تفريطًا فى الواجب استدركه إذا أمكن استدراكه وقام به أو بدله ، وإذا رأى من نفسه انتهاكًا لمحرم أقلع عنه وندم وتاب واستغفر .

وقوله « **عَمل لمَا بَعْدَ المَوت** » يعنى عمل للآخرة ، لأن ما بعد الموت فإنه من الآخرة وهذا هو الحق والحزم أن الإنسان يعملِ لما بعد الموت ، لأنَّه فى هذه الدُّنيا مار بها مرورًا.

والمآل هو ما بعد الموت فإذا فرط ومضت عليه الأيام وأضاعها فى هذه الدُّنيا مار بها مرورًا .

والمآل هو ما بعد الموت فإذا فرط ومضت عليه الأيام وأضاعها فى غير ما ينفعه فى الآخرة فليس بكيِّس .

الكيِّس هو الذى يعمل لِما بعد الموت ، « **والعاجز من أتبع نفسه هواها** » وصار لا يهتم إلا بأمور الدنيا .

فيتبع نفسه هواها فى التفريط فى الأوامر وفعل النَّواهى ، ثم يتمنى على الله الأمانى،

[٦٦/٧] ضعيف : رواه الترمذى (٢٤٥٩) ، وقال الحاكم (٥٧/١) : « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » فتعقبه الذهبى ، فقال : « لا والله ، أبو بكر واه » وضعفه الألبانى فى ضعيف ابن ماجه (٩٣٠) .

Marfat.com

فيقول : الله غفور رحيم ، وسوف أتوب إلى الله فـى المستقبل وسوف أُصْلِحُ من حالى إذا كبرت وما أشبهه من الأمانى الكاذبة التى يمليها الشيطان عليه فربما يدركها وربما لا يدركها .

ففى هذا الحديث : الْحثُّ على انتهاز الفرص وعلى ألا يضـيع الإنسان من وقته فرصة إلا فيما يرضى الله عز وجل وأن يَدَعَ الكسل والتهاون والتمنى ، فإن التمنى لا يفيد شيئًا ، كمـا قال الْحسن الـبصرى ـ رحمـه الله ـ : (لَيْسَ الإِيمَانُ بالتَّـمنى ولا بالتَّحـلى ، ولكن الإيمان ما وَقَرَ فِى القلب وصدَّقته الأعمال) (١) .

فعلينا أيها الإخوة أن ننتهز الفرصة فى كل ما يُقَرِب إلى الله من فعل الأوامر واجتناب النَّواهى حتى إذا قدمنا على الله كنا على أكمل ما يكون من حال .

نسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحُسن عبادته .

***

[٦٧/٨] **الثَّامنُ** : عَنْ أبى هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « **مِنْ حُسْنِ إسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنيه** » حديثٌ رواه التِّرْمذِىُّ وَغَيْرُهُ .

[٦٨/٩] **التَّاسعُ** : عَنْ عُمرَ رضي الله عنه عَنِ النَّبى ﷺ قال : « **لا يُسْأَلُ الرَّجُل فِيم ضَرَبَ امْرَأتَهُ** » رواه أبو داود وغيره .

الشرح

إسلام الْمرء هو استسلامه لله عز وجل ظاهرًا وباطنًا ، فأما باطنًا فاستسلام العبد لربه بإصلاح عقـيدته وإصلاح قلبه ، وذلك بأن يـكون مؤمنًا بكل ما يجب الإيمـان به على ما سبق فى حديث جبريل .

وأما الاستـسلام ظاهرًا فهـو إصلاحُ عَمَله الظَّـاهر كأقواله بلسـانه وأفعاله بـجوارحه والناس يخـتلفون فى الإسلام اخـتلافًا ظاهرًا كثـيرًا كما أن الـناس يختلفون فـى أشكالهم وصورهم منهم الـطويل ومنهم القصير ومنـهم الضخم ومنهم من دون ذلك ومنهـم القبيح ومنهم الجميل فيختلفون اختلافًا ظاهرًا .

فكذلك يختلفون فى إسلامهم لله عزَّ وجلَّ حتى قال الله فى كتابه : ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم

---

(١) ضعيف : انظر الكامل فى الضعفاء لابن عدى (٦/ ٢٢٩٠) وضعيف الجامع (٤٨٨٠) .

[٦٧/٨] صحيح : رواه الترمذى (٢٣١٧) ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣٢١١) .

[٦٨/٩] ضعيف : رواه أبو داود (٢١٤٧) وابن ماجه (١٩٨٦) ، وضعفه الألبانى فى الإرواء (٢٠٣٤).

Marfat.com

مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد : ١٠] .

وإذا كان الناس يختلفون فى الإسلام ، فإن مما يزيد فى حُسن إسلام المرء أن يدع ما لا يعنيه ولا يهمه لا فى دينه ولا فى دنياه ، فالإنسان المسلم إذا أراد أن يجعل إسلامه حسنًا فليدع ما لا يعنيه.

فمثلاً إذا كان هناك عمل وترددت هل تفعل أو لا تفعل ، انظر هل هو من الأمور الهامة فى دينك ودنياك ، فافعله وإلا فاتركه ، السَّلامة أسلم .

كذلك أيضًا ما تتدخل فى أُمور النَّاس إذا كان هذا لا يهمك ، وهذا خلاف ما يفعله بعض الناس اليوم من حرصه على اطلاعه على أعراض الناس وأحوالهم ويجد اثنين يتكلمان فيحاول أن يتقرب منهما حتى يسمع ما يقولان ويجد شخصًا جاء من جهة من الجهات فتراه يبعث وربما يبادر الشخص نفسه ويقول له : من أين جئت ، وماذا قال لك فلان وماذا قلت له ، وما أشبهه فى أمور لا تعنيه ولا تهمه .

فالأمور التى لا تعنيك اتركها،فإن هذا من حُسْن إسلامك وهو أيضًا فيه راحة للإنسان.

فكون الإنسان لا يهمه إلاَّ نفسَه هذا هو الرَّاحة أما الذى يتتبع أحوال الناس فإنه سوف يتعب تعبًا عظيمًا ويُفوت على نفسه خيرًا كثيرًا مع أنه لا يستفيد شيئًا .

فأنت اجعل دأبك دأب نفسك وهمك هم نفسك ، وانظر إلى ما ينفعك فافعله والذى لا ينفعك اتركه وليس من حسن إسلامك أن تبحث عن أشياء لاتهمك .

ولو أننا مشينا على هذا وصار الإنسان دأبه دأب نفسه ولا ينظر إلى غيره لحصل خيرًا كثيرًا .

أمَّا بعض الناس تجده مشغولاً بشئون غيره فيما لا فائدة فيه ، فيضيع أوقاته ويشغل قلبه ويشتت فكره وتضيع عليه مصالح كثيرة .

وتجد الرَّجل الدءوب الذى ليس له همٌّ إلاَّ نفسه وما يعنيه تجده ينتج ويثمر ويحصل ويكون فى راحة فكرية وقلبية وبدنية .

ولذا يعد هذا الحديث من جوامع كلم النبى - ﷺ - فإذا أردت شيئًا فعلاً أو تركًا انظر هل يهمُّك أو لا ؟

إن كان لا يهمك اتركه ، واسترح منه ، وإن كان يهمك فاشتغل به بحسبه فعلى كل حال كل إنسان عاقل كما جاء فى الحديث السابق : « **الكيِّس من دان نفسَه وعمل لما بعد الموت** » فكل إنسان عاقل يَحْرص أن يعمل لِما بعد الموت ويُحاسب نفسه على أعمالها ، والله المَوفق .

Marfat.com

٦ـ باب فى التقوى

التَّقوى اسم مأخوذ من الوقاية وهو أنه يتخذ الإنسان ما يَقيه من عذاب الله ، والذى يقيك من عذاب الله فعل أوامر الله واجتناب نواهيه فإن هذا هو الذى يقى من عذاب الله عز وجل .

واعلم أن التقوى أحيانًا تقترن بالبرِّ فيقال : بر وتقوى ، كما فى قوله تعالى : ﴿وتعاونوا على البِرِّ والتَّقْوى﴾[المائدة : ٢] .

وتارة تذكر وحدها ، فإن قُرنت بالبر صار البر فعل الأوامر والتقوى ترك النواهى . وإذا أفردت صارت شاملة تعم فعل الأوامر واجتناب النَّواهى ، وقد ذكر الله فى كتابه أن الجنة أُعدّت للمتقين فأهل التَّقوى هم أهل الجنة ـ جعلنا الله وإياكم منهم ـ ولذلك يجب على الإنسان أن يتَّقى الله عز وجل امتثالاً لأمره وطلبًا لثوابه والنَّجاة من عقابه . ثم ذكر المؤلف آيات متعددة . فقال رحمه الله :

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ (آل عمران: ١٠٢) ، وقال تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن: ١٦) وهذه الآية مبينة للمراد من الأولى، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ (الأحزاب: ٧٠) ، والآياتُ فى الأمرِ بالتَّقْوَى كثيرةٌ معلومةٌ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق: ٢، ٣) وقال تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (الأنفال: ٢٩) والآيَاتُ فى البَابِ كثيرةٌ معلُومَةٌ.

الشرح

قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] فوجه الأمر إلى المؤمنين ؛ لأن المؤمن يحمله إيمانه على تقوى الله .

وقوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ وحق التقوى مفسرًا بما عقبه المؤلف من قوله تعالى : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن : ١٦] بعد هذه الآية .

أى : أن معنى قوله : ﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ أن تتقى الله ما استطعت ؛ لأنَّ الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

Marfat.com

وهذه الآية ليست آية يقصد بها التهاون بتقوى الله ، بل يُقْصَد بها الْحَثُّ على التَّقوى على قدر الْمستطاع ، أى : لا تدَّخر وسعًا فى تقوى الله ، ولكن الله لا يكلف الإنسان شيئًا لا يستطيعه .

ويُستفاد من قوله : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[التغابن : ١٦] . إن الإنسان إذا لم يستطع أن يقوم بأمر الله على وجه الكمال فإنَّه يأتى منه على ما قدر عليه .

ومنه قوله - ﷺ -لعمران بن حصين : « صلِّ قائمًا ، فإنْ لَمْ تَستَطع فَقَاعدًا فَإنْ لم تَسْتَطِع فعَلى جَنْب » (١) فرتَّب الرسول - ﷺ -الصَّلاة بحسب الاستطاعة وبأن يُصَلى قائمًا فإن لم يستطع فقاعدًا فإن لم يستطع فعلى جنب .

وهكذا بقية الأوامر ومثله الصَّوم إذا لم يستطع الإنسان أن يصوم فى رمضان فإنَّه يؤخره : ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[البقرة : ١٨٥] وفى الحج : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[آل عمران : ٩٧] فإذا لم تستطع الوصول إلى البيت فلا حج عليك .

لكن إن كنت قادرًا بِمالك دُون بدنك وَجَبَ عليك أن تقيم من يحج ويعتمر عنك (٢) فالْحاصل أن التَّقوى كغيرها مَنُوطة بالاستطاعة فمن لم يستطع شيئًا من أوامر الله فإنَّه يعْدل إلى ما يَسْتطيع .

ومن اضطر إلى شيء من مَحارم الله حلَّ له ما ينتفع به فى دفع الضَّرورة لقوله تعالى : ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[الأنعام : ١١٩] حتى إن الرَّجل لو اضطر إلى أكل لحم الْميتة أو أكل لحم الخنزير أو أكل لحم الْحمار أو غيره من الْمحرمَّات فإنَّه يجوز له أن يأكل منه ما تَنْدفع منه ضرورته .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[الأحزاب : ٧٠] .

فأمر الله بأمرين : بتقوى الله ، وأن يقول الإنسان قولاً سديدًا ، أى : صوابًا . وقد سبق الكلام على التَّقوى .

أمَّا القول السَّديد فهو القول الصَّواب وهو يشمل كل قول فيه خير سواء كان من ذكر الله أو من طلب العلم أو من الأمر بالْمعروف والنهى عن الْمنكر ، أو من الكلام الْحسن

---

(١) صحيح : رواه البخارى (١١١٧) أحمد (٤/٤٢٦) .

(٢) هذا هو قول الجمهور (المحلى ٧/ ٦٢) المهذب (١/ ١٩٩).

Marfat.com

الذى يستجلب به الإنسان مودة النَّاس ومحبتهم أو غير ذلك .

يجمعه قول النبى - ﷺ - : « **مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمُتْ** »(١) وضد ذلك القول غير السَّديد ، وهو القول الذى ليس بِصَوَاب ، بل خطأ إما فى مَوْضوعه وإما فى محله .

أما فى موضوعه بأن يكون كلامًا فاحشًا يشتمل على السَّب والشَّتم والغيبة والنَّميمة وما أشبهه ، أو فى محله أى : أن يكون هذا القول فى نفسه هو خير لكن كونه يقال فى هذا المكان ليس بخير ؛ لأنَّ لكل مقام مقالاً ، ففى هذا المَوضوع لا يكون قولاً سديداً ، بل خطأ ، وإن كان ليس حرامًا بذاته .

فمثلاً لو فرض أن شخصًا رأى إنسانًا على مُنكر ونهاه عن المنكر لكن نهاه فى حال لا ينبغى أن يقول له فيها شيئًا أو أغلظ له فى القول أو ما أشْبهه لعُدَّ هذا قولاً غير سديد .

فإذا اتقى الإنسان ربه وقال قولاً سديداً حَصَل على فائدتين :

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الاحزاب : ٧٠] فبالتقوى صلاح الأعمال ومغفرة الذُّنوب ، وبالقول السَّديد صلاح الأعمال ومغفرة الذُّنوب . وعلم من هذه الآية أن من لم يتَّقِ الله ويقل قولاً سديداً فإنَّه حَرِيٌّ بأن لا يُصلح الله لَهُ أعماله ولا يغفر له ذنبه ، ففيه الحثُّ على تقوى الله وبيان فوائدها .

قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] . ﴿وَمَن يَتَّقِ﴾ بأن يفعل ما أمر الله به ويترك ما نَهى عنه ﴿يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ . من كل ضيق ، فكلما ضاق عليه الشَّىء وهو مُتَّقى الله عز وجل جَعَلَ لَهُ مخرجًا سواء كَانَ فى معيشة أو فى أموال أو فى أولاد أو فى مجتمع أو غير ذلك . إذا كنت مُتَّقِى الله فَثِق أنَّ الله سيجعل لك مخرجًا من كل ضيق واعتمد ذلك لأنَّه قول من يقول للشَّىء كن فيكون .

وما أكثر الذين اتقوا الله فجعل لهم مخرجًا ، من ذلك قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار ، فنَزَلت صخرة على باب الغار فَسَدَّته فأرادوا أن يُزيحوها فعجزوا فتوسَّل كل واحد منهم بصالح عمله إلى الله عز وجل ففرج الله عز وجل عنهم وزَالَت الصخرة .

والأمثلة على هذا كثيرة ، وقوله : ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق : ٣] . هذا أيضًا فائدة عظيمة أن الله يرزقك من حيث لا تحتسب .

فمثلاً لو فرضنا أن رجلاً يكتسب المال من طريق محرم كطريق الغش أو الرِّبا وما

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٦٤٧٥) مسلم (٥٦٤) .

Marfat.com

أشبهه ونصح فى هذا وتركه لله فإن الله سيجعـل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ولكن لا تتعجل ولا تَظُـن أن الأمر إذا تأخر فلن يكون ، ولكن قد يبتلى الله العـبد فيؤخر عنه الثّواب ليختـبره هل يرجع إلى الذنب ، أم لا ، فمثلاً إذا كنت تتـعامل بالرِّبا ووَعظك من يعظك من الناس وتركت ذلك ولكنك بقيت شهرًا أو شهرين ما وجدت ربحًا.

فلا تيأس وتقول : أين الرِّزق من حيث لا أحـتسب ؟ بل انتظر وثق بوعد الله وصدق به وستجده ، ولا تتعجل ، ولهذا جاء فى الْحديث : « **يستجاب لأحدكم ـ أى : إذا دعَا ـ مَا لَم يعَجِّل ، يقول : دَعَوْتُ ثُمَّ دعَوْتُ ثم دعَوْتُ فلم يُسْتَجَبْ لِى** » (١) .

اصبر واترك ما حرَّم الله عليك وانتظر الفرج والرِّزق من حيث لا تحتسب .

وقوله تعالى : ﴿**إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الأنفال : ٢٩] .

هذه ثلاث فوائد عظيمة :

الفائدة الأولى : ﴿**يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا**﴾ أى : يجـعل لكم ما تُـفرِّقُون به بـين الْحق والباطل، وبين الـضَّار والنَّافع ، وهذا يدخل فيـه العلم بحيث يفتح الله عـلى الإنسان من العلوم ما لا يَفتَحُها لغيره ، فإن التَّـقوى يَحصُل بها زيادة الهُدَى وزيادة العلم وزيادة الحفظ ولهذا يذكر عن الشَّافعى ـ رحمه الله ـ أنه قاله :

شكَوْتُ إلى وَكِيع سُوءَ حِفظِى ... فأرْشَدَنِى إلى تَرْكِ المَعَاصِى
وقَـالَ اعْلَم بِأنَّ العِـلْمَ نُورٌ ... ونورُ الله لا يُؤْتَاهُ عَاصِـى

ولا شك أن الإنسان كلما ازداد علمًا ازْداد مَعْرِفـة وفرقانًا بين الحق والباطل ، والضَّار والنَّافع .

وكذلك يـدخل فيه مـا يفتح الله على الإنسـان من الفهم ؛ لأن الـتقوى سبـب لقوة الفهم، وقوة الـفهم يَحصُل بها زيادة العـلم فإنك ترى الرَّجلين يحفظـان آية من كتاب الله يستطيع أحدهما أن يستخرج منها ثلاثـة أحكام ، ويستطيع الآخر أن يستخرج أكثر من هذا بحسب ما آتاه الله من الفهم .

فالتقوى سبب لزيادة الفَهم ويدخل فى ذلك أيـضًا الفراسة أن الله يعطى الْمُتَّقى فراسة يميز بها حتى بين الناس ، فبمجرد ما يرى الإنسان يَعْرف أنَّه كاذب أو صادق أو برّ أو فاجر حتى أنه ربما يحكم على الشخص وهو لم يعرف عنه شيئًا بسبب ما أعطاه الله من الفراسة.

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٦٣٤٠) مسلم (٧٣٥) .

Marfat.com

« قالوا : لسْنا عـن هذا نسألك » ثم ذكر لهم أن أكرم الخلـق يوسف ابن نبى الله ابن نبى الله خليـل الله ، فهو يوسف بن يعـقوب بن إسحاق بـن إبراهيم ، فإنَّه عليـه الصَّلاة والسلام كان نبيًا من سلالة الأنبياء ، فكان من أكرم الخلق .

قالوا : لَسْنَا عن هذا نسألك ، قال : « **فعن معادن العرب تسألوننى ؟** » معادن العرب يعنى أصولهم وأنسابهم .

« **خيارهم فى الجَاهليَّة خيارُهُم فى الإسْلام إذا فَقهوا** » يعنى أن أكرم الناس من حيث النَّسب والمعادن والأصول هم الخيار فى الجاهلية ، لكن بشرط إذا فقهوا .

فمثلا بنو هاشـم من المعروف هم خيار قريش ، فيكونون هـم خيارهم فى الإسلام ، لكن بشرط أن يفـقهوا فى دين الله ، وأن يتعـلموا من دين الله ، فإن لم يكونـوا فقهاء ، فإنهم وإن كانوا من خيار العرب معدنا فإنهم ليسوا أكرم الخلق عند الله وليسوا خيار الخلق.

ففى هذا دليل على أن الإنسان يشرف بنسبه لكن بشرط أن يكون له فقه فى دينه ، ولا شك أن النسب له أثر ، ولهـذا كان بنو هاشم أطيب الناس وأشرفهم نـسبا ، ومن ثم كان منهم النبى - ﷺ - الـذى هو أشرف الخلق : ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام : ١٢٤]. فلو لا أن هذا البطن من بنى آدم أشرف البطون مـا كان فيه النبى - ﷺ - فلا يبعث الرسول - ﷺ - إلا فـى أشرف البطون وأعـلى الأنساب ، والشـاهد من هذا الحيث قول الرسول - ﷺ - : « **إن أكرم الخلق أتقاهم** » .

فإذا كنـت تريد أن تكُون كريمًـا عند الله وذا منزلة عنده فـعليك بالتَّـقوى فكلمـا كان الإنسـان لله أتقى كان عنده أكرَم . أسأل الله أن يجعلنى وإيَّاكم من المُتَّقين .

* * *

[٢/ ٧٠] **الثانى** : عنْ أبى سَعيد الْخُدْرىَ رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضـرَةٌ ، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْـلفُكُمْ فيهَا فَـيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْـمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَـا واتَّقُوا النّسَاء ؛ فَإنَّ أوَّلَ فتْنَة بَنِى إسْرائيلَ كانَتْ فى النسَاء** » رواه مسلم .

الشرح

هذا الحديث سَاقهُ المُولف لما فيه من أمر النبى - ﷺ - بالتقوى بعد أن ذكر حال الدُّنيا ، فقال : « **إنَّ الدنيا حُلوة خضرة** » حُلوة فى المَذاقة خـضرة فى المرأى ، والشَّىء إذا كان خضرًا حلوًا فـإنَّ العَين تطلبه أولاً ، ثم تطلبـه النفس ثانيًا ، والشَّىء إذا اجتـمع فيه طلب

[٢/ ٧٠] صحيح : رواه مسلم (٢٧٤٢) .

Marfat.com

العين وطلب النَّفس فإنَّه يُوشك للإنسان أن يقع فيه .

فالدُّنيا حلوة فى مذاقهـا خضرة فى مرآها فيغتر الإنسان بها وينهمـك فيها ، ويجعلها أكبر همه ، ولكن النبـى - ﷺ - بيَّن أن الله تعالى مستخلفنا فيها فـينظر كيف نعمل ، هل تقومون بطـاعته ، وتنهون النفس عن الـهوى ، وتقومون بما أوجب الله عليـكم ولا تغتروا بالدنيا أو أن الأمر بالعكس . ولهذا قال : « **فاتقوا الدنيا** » أى قُوموا بما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه ولا تغرنكم حلاوة الدُّنيـا ونضرتها ، كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ** ﴾ [لقمان : ٣٣] .

ثم قال : « **فاتقوا الدنيا واتقوا النساء** » اتقوا النساء ، أى : احذروهن ، وهذا يشمل الحذر من الْمرأة فـى كيدها مع زوجها ، ويشمـل أيضًا الحذر من النساء وفتنـتهن ، ولهذا قال: « **فإنَّ أوَّلَ فتنَة بنى إسرائيل كانت فـى النِّساء** » فافتَتَنُوا فى الـنساء ، فضلُّوا وأضلُّوا والعياذ بالله ، ولذَلكَ نجد أعداءنا وأعداء ديننا أعداء شريعة الله عز وجل يُركزون اليوم على مسألة النِّسـاء وتبرجهن واختلاطهن بالرِّجال ومُـشَاركتهن للرِّجال فى الأعمـال حتى يصبح النَّاس كأنهم الْحمير لا يهمهم إلا بطونهم وفروجهم والعياذ بالله وتصبح النِّساء كأنهن دُمى أى : صور لا يهتم الناس إلا بشكل المرأة . كيف يُزيِّنُوهـا وكيف يُجمِّلُوها وكيف يأتون لها بالْمُجمِّلات والْمُحسِّنَات وما يتعلق بالشـعر وما يتعلق بالْجلد ونتف الشَّعر والسَّاق والذراع والوجه وكل شىء حتي يجعلوا أكبر هم النســاء أن تكون الْمرأة كالصورة من البلاستيك . لا يَهُمُّها عبادة ولا يَهُمُّها أولاد .

ثم إن أعداءنـا أعداء دين الله وشريـعته وأعداء الحـياة يُريدون أن يُقْـحمُوا الْـمرأة فى وظائف الرِّجال حتى يُضَـيِّقوا على الرِّجال الْخناق ويجعلوا الشبـاب يَتَسكَّعُونَ فى الأسواق لَيْسَ لهم شُغل ، ويـحصل من فراغهم هذا شرٌ كبـير وفتنةٌ عظيمة ؛ لأن الـشباب والفراغ والغنى من أعظم الْمفاسد كما قيل :

إنَّ الشَّبابَ والفَرَاغَ والْجِدة مَفْسَدَةٌ للمرْء أىُّ مَفْسَدَة

فهم يقحمون النِّساء الآن بالوظائف الرِّجالية ويدعون الشباب ، ليفسد الشَّباب وليفسد النِّساء ، أتدرون ماذا يحدث ؟

جـ - يحدث مَفْسدة الاختلاط ومفسـدة الزِّنى والفاحشة سـواء فى زنى العين أو زنى اللِّسان أو زنى اليد أو زنى الفرج كل ذلك محتمل إذا كانت الْمرأة مع الرجل فى الوظيفة .

Marfat.com

وما أكثر الفساد في البلاد التي يتوظف الرِّجال فيها مع النِّساء ، ثم إنَّ المرأة إذا وُظِّفَت فإنَّها سَوْفَ تَنعزِل عن بَيْتها وعن زوجها وتصبح الأسرة مُتفككة ، ثم إنها إذا وُظِّفَت سوف يحتاج البيت إلى خادم وحينئذ نَسْتجلب نساء العالم من كل مكان وعلى كل دين وعلى كل خلق ولو كان الدين على غير دين الإسلام ولو كان الخلق خُلُقًا فاسدًا.

نستجلب النِّساء ليكن خَدَمًا في البيوت ونجعل نساءنا تعمل في محل رجالنا فنعطل رجالنا ونشغل نساءنا .

وهذا فيه مفسدة عظيمة وهي تفكك الأسرة لأنَّ الطِّفل إذا نشأ وليس أمامه إلا الخادم نَسِيَ أمه ونسى أباهُ وفقد الطفل تَعَلقهُ بهما ففسدت البيوت وتشتت الأسر وحصل في ذلك من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله .

ولا شك أن أعداءنا وأذناب أعدائنا - لأنَّه يُوجد فينا أذناب لهؤلاء الأعداء درسوا عندهم وتلطخوا بأفكارهم السَّيئة ولا أقول : إنهم غسلوا أدمغتهم ، بل أقول : إنهم لَوَّثوا أدمغتهم بهذه الأفكار الخبيثة المعارضة لدين الإسلام - قد يقولون : إنَّه لا يعارض العقيدة، بل نقول : إنَّه يهدم العقيدة ، ليس مُعَارضة العقيدة بأن يقول الإنسان بأن الله له شريك ، أو أن الله ليس موجودًا ، وما أشبهه فحسب .

بل هذه المعاصي تهدم العقيدة هدمًا ؛ لأن الإنسان يبقى ويكون كأنه ثور أو حمار لا يهتم بالعقيدة ولا بالعبادة ؛ لأنه متعلق بالدنيا وزخارفها وبالنساء ، وقد جاء في الحديث الصحيح : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ » (١) .

ولهذا يجب علينا نحن ونحن أُمَّة مُسْلمة أن نُعارض هذه الأفكار وأن نقف ضدَّها في كل مكان وفي كل مُناسبة علمًا بأنه يوجد عندنا قوم - لا كَثَّرهم الله ولا أنَالَهُم مَقْصُودهم - يريدون هذا الأمر لهذا البلد المسلم المُسَالم لم المُحَافظ ؛ لأنهم يعلمون أن آخر مَعْقل للمسلمين هو هذه البلاد التي تشمل مُقدسات المسلمين وقبلة المسلمين ليفسدوها حتى تفسد الأمة الإسلامية كلها .

فكل الأمة الإسلامية ينظرون إلى هذه البلاد ماذا تفعل ، فإذا انهدم الحياء والدِّين في هذه البلاد فَسَلامٌ عليهم ، وسلامٌ على الدِّين والحياء .

لهذا أقول : يا إخواني ، يجب علينا - شبابًا وكهولاً وشيوخًا وعلماء ومتعلمين - أن نعارض هذه الأفكار وأن نقيم الناس كلهم ضدها حتى لا تسرى فينا سَرَيان النَّار في الهشيم فتحرقنا ، نسأل الله أن يجعل كيد هؤلاء الذين يُدَبِّرُون مثل هذه الأمور في نُحورهم وألا

---

(١) صحيح : رواه البخاري (٥٠٩٦) مسلم (٢٧٤٠) .

Marfat.com

يبلغهم مَنالهم وأن يكبتهم برجال صالحين حتى تخمد فتنتهم إنه جواد كريم.

* * *

[٣/ ٧١] **الثَّالثُ** : عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ : **« اللَّهُمَّ إنِّي أسْألكَ الهُدَى وَالتُّقَى وَ العَفَافَ والغِنَى »** رواه مسلم .

الشرح

كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو الله عز وجل بهذا الدعاء : « **اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ الهُدَى والتقى والعفَاف والغِنَى** » .

« **الهدى** » هنا بمعنى العلم ، والنبي - ﷺ - محتاج إلى العلم كغيره من الناس ؛ لأنَّ الله سبحانه قال له : ﴿**ولا تعجلْ بالقرآنِ من قبلِ أن يُقضَى إليكَ وحيُهُ وقل ربِّ زدني علمًا**﴾ [طه: ١١٤] . وقال الله له : ﴿**وعلَّمكَ ما لم تكن تعلمُ وكانَ فضلُ اللهِ عليكَ عظيمًا**﴾ [النساء: ١١٣] .

فهو عليه الصلاة والسلام مُحتَاجٌ إلى العلم فيسأل الله الهدى .

والهُدى إذا ذكر وحده يشمل العلم والتَّوفيق للحق ، أمَّا إذا قُرِن معه ما يدلُّ على التَّوفيق للحق فإنَّه يُفسَّر بمعنى العلم ؛ لأن الأصل في اللغة العربية أنَّ العطف يقتضي المغايرة فيكون الهدى له مَعْنًى وما بَعْدَهُ مِمَّا يدل على التَّوفيق له معنى آخر .

وأمَّا قوله : « **والتُّقى** » فالمراد بالتَّقوى : تقوى الله عز وجل ، فسأل النَّبي - ﷺ - ربه التقى ، أي : أن يُوفقه إلى تقوى الله ؛ لأنَّ الله هو الذي بيده مَقَاليد كل شيء ، فإذا وُكل العَبْدُ إلى نفسه ضاعَ ولم يحصل على شيء ، فإذا وفَّقَهُ الله عز وجل ورزقه التُّقى صار مستقيمًا على تقوى الله .

وأما قوله : « **العَفَاف** » فالمراد به أن يَمُنَّ الله عليه بالعفاف والعفة عن كل حرَّم الله عليه ، فيكون عطفه على التقوى من باب عطف الخاص على العام إن خصصًنا العَفَاف بالعفَاف عن شيء مُعَيَّن وإلا فهو من باب عطف المُترادفين .

فالعفاف أن يعف عن كل ما حرَّم الله عليه فيما يتعلق بجميع المحارم التي حرَّمها الله عز وجل .

وأما « **الغِنَى** » فالمراد به الغنى عما سوى الله ، أي : الغنى عن الخلق بحيث لا يفتقر

[٣/ ٧١] صحيح : رواه مسلم (٢٧٢١) .

Marfat.com

الإنسان إلى أحد سوى ربه عز وجل .

والإنسان إذا وفَّقه الله ومنَّ عليه بالاستغناء عن الخلق صار عزيز النَّفس غير ذليل ؛ لأنَّ الحاجة إلى الخلق ذل ومَهَانة والحاجة على الله عزٌّ وعبادة فهو يسأل عليه الصَّلاة والسَّلام الغنى . فينبغى لنا أن نقتدى بالرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الدعاء وأن نسأل الله الهدَى والتقى والعَفَافَ والغنَى ، وفى هذا دليل على أن النبى ـ ﷺ ـ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا وأن الذى يملك ذلك هو الله .

وفيه دليل : على إبطال من تعلَّقوا بالأولياء والصَّالحين فى جَلْب الْمنافع ودفع الْمَضار كما يفعل بعض الْجهال الذين يدعون الرسول عليه الصلاة والسَّلام إذا كانوا عند قبره أو يدعون من يزعمونهم أولياء من دون الله فإن هؤلاء ضَالُّون فى دينهم سُفهاء فى عقولهم؛ لأنَّ هؤلاء المدعوين هم بأنفسهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا ، قال الله لنبيه ـ ﷺ ـ : ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام : ٥٠] . وقال له : ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وقال له : ﴿قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن : ٢١ ، ٢٢] .

فالإنسان يجب أن يعلم أنَّ البشر مهما أوتوا من الوَجَاهة عند الله عز وجل ومن الْمَنْزلة والْمرتبة عند الله فإنهم ليسوا بمستحقين أن يدعوا من دون الله ، بل إنهم يتبرءون تامًا ممن يدعونهم من دون الله عز وجل ، قال عيسى عليه الصلاة والسلام لَمَّا قال الله له : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة : ١١٦] . ليس من حق عيسى ولا غيره أن يقول للناس اتخذونى إلهًا من دون الله : ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] .

فالْحاصل أن ما نسمع عن بعض جهال الْمسلمين فى بعض الأقطار الإسلامية الذين يأتون إلى قبور من يزعمونهم أولياء فيدعون هؤلاء الأولياء ، فإن هذا سَفَه فى العَقْل وضَلالٌ فى الدِّين . وهؤلاء لن ينفعوا أحدًا أبدًا فهم جثث هامدة ، والله الموفق .

* * *

[٤/ ٧٢] الرَّابِعُ : عَنْ أبى طَرِيفٍ عَدِىِّ بْنِ حَاتِمٍ الطَّائِى رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ

[٤/ ٧٢] صحيح : رواه مسلم (١٦٥١) .

Marfat.com

رسول الله ﷺ يقولُ : « مَــنْ حَلَفَ عَلَى يَمينٍ ثُمَّ رَأى أتْقَى للّه منْهاَ فَلْيَأتِ التَّقْوَى » رواه مسلم .

الشرح

اليمين هى الحـلفُ بالله عز وجل أو باسم من أسمـائه أو صفة من صفـاته ولا يجوز الْحلف بغير الله لا بالنبى - ﷺ - ولا بجبـريل ولا بأى أحد من الخلق لقول النبى - ﷺ - «مَنْ كَانَ حَالِـفًا فَلْيَحْلفْ بالله أوْ لِـيَصْمُتْ »[(١)] ، وقال : « مَنْ حَلَفَ بغَـيْرِ الله فَقَدْ كَـفَرَ أوْ أشْرَكَ »[(٢)] . فمن حلف بغير الله فهو آثم ولا يمين عليه ؛ لأنها يمين غير منعقدة لقول النبى - ﷺ : « مَن عَمِـلَ عَملاً لَيْسَ عَـلَيْه أمْرُنَا فَـهُو رَدٌّ »[(٣)] . ولا ينبغى للإنسـان أن يُكثر من اليمين ، فإن هذا هو معنى قوله تعالَى : ﴿لا يؤاخذكم اللَّهُ باللَّغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتُمُ الأيْمان فكفَّارتُهُ إطْعامُ عشرة مساكين منْ أوْسط ما تُطْعمون أهْليكمْ أوْ كسْوتُهُمْ أوْ تحرير رقبةٍ فمن لَّمْ يجدْ فصيامُ ثلاثة أيامٍ ذلك كفَّارةُ أيْمانكُمْ إذا حلفْتُمْ واحْفظُوا أيْمانكُمْ كذلك يُبيِّنُ اللَّهُ لكُمْ آياته لعلَّكُمْ تشْكُرُون﴾ [المائدة : ٨٩] . على رأى بعض الْمُفَسِّرين ، قالوا : واحفظوا أيمانكم أى : لا تكثروا الْحلف بالله ، وإذا حلفت فينبغى أن تُقـيد اليمين بالمشيئة ، فتقول والله إن شاء الله ، لتستفيد بذلك فائدتين عظيمتين :

الفائدة الأول : أن يتيسر لك ما حَلَفْتَ عليه .

والفائدة الثانية : أنَّك لو حنثت فلا كفَّارة عليك .

واليمين التى تـوجب الكفارة هى اليمين على شـىء مستقبل ، أمَّا الـيمين على شىء ماضٍ فلا كـفارة فيها ، ولـكن إن كان الحالف كاذبًـا فهو آثم ، وإن كان صادقًـا فلا شىء عليه . ومثـاله لو قال قائل : والله ما فعلـت كذا . فهنا ليس عليه كـفارة صدق أوْ كذب ، لكن إن كان صادقًا أنه لم يفعله فهو سَالِم من الإثم ، وإن كان كاذبًا أنه قد فعله فهو آثم .

واليمين الـتى فيها الـكفارة هى اليمـين على شىء مُسْتـقبل ، فإذا حلـفت على شىء مستقبلٍ فقلت : والله لا أفعل كذا ، فهنا نقـول : إن فعلته فعليك الكَفَارة ، وإن لم تفعله فلا كَفَّارة عليك ، فهذه يمين منعقـدة ، ولكن هل الأفضل أن أفعل ما حلفت على تركه ، أو الأفضل الا أفعل .

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٢٥١) مسلم (١٦٤٦) .

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣٢٥١) الترمذى (١٥٣٥) أحمد (٢/ ٨٧) الصحيحة (٢٠٤٢) .

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٦٩٧) مسلم (١٧١٨) .

Marfat.com

فى هذا الحديث بيَّن النبى عليه الصلاة والسلام أنك إذا حلفت على يمين ورأيت غيرها أتقى لله منها فكفر عن يمينك وأتِ الذى هو أتقى .

فإذا قال قائل : والله لا أكلم فلانًا ، وهو مسلم ، فإن الأتقى لله أن تكلمه ؛ لأن هجر المسلم حرامٌ ، فكلمه وكفر عن يمينك.

ولو قلت : والله لا أزور قريبى ، فهنا نقول : زيارة القريب صلة رحم ، وصلة الرحم واجبة ، فصل قريبَك ، وكفِّر عن يمينك ؛ لأن النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « فرأى غَيْرَها خَيْرًا منها فَلْيُكَفِّر عن يمينه وليأت الَّذى هُوَ خَيْرٌ » وعلى هذا فقس .

الخلاصة أن نقول : اليمين على شىء ماض لا يبحث فيها عن الكفَّارة ؛ لأنَّه ليس فيها الكفارة ، لكن إما أن يكون الحالف سالمًا أو يكون آثمًا .

اليمين على المستقبل هى التى فيها الكفارة ، فإذا حلف الإنسان على شىء مستقبل وخالف ما حلَف علَيْهِ وجبَتْ عليه الكفارة ، إلا أن يقرن يمينه بمشيئة الله ، فيقول : إنْ شاء الله ، فهذا لا كفارة علَيْهِ ولو خَالَفَ ، والله الموفق .

* * *

[٧٣/٥] الخامسُ : عَنْ أَبِى أُمَامَةَ صُدَىِّ بْنِ عجْلاَنَ البَاهلى ﷺ قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَخْطُبُ فى حَجَّةِ الْودَاعِ فَقَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أموالِكُمْ ، وَأَطيعُوا أُمَرَاءَكُمْ ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ » رواه التِّرمذىُّ ، فى آخر كتَابِ الصَّلاةِ وَقَال : حديثٌ حسنٌ صحيح .

الشرح

كانت خُطَب الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام على قسمين : خطب راتبة ، وخطب عارضة .

فأمَّا الرَّاتبة فهى خطبة فى الجمع والأعياد فإنه - ﷺ - كان يخطب الناس فى كل جمعة ، وفى كل عيد ، واختلف العلماء - رحمهم الله - فى خطبة صلاة الكُسوف هل هى راتبة أو عارضة ، وسبب اختلافهم أن الكسوف لم يقع فى عهد الرسول - ﷺ - إلا مرة واحدة ، ولَمَّا صلى قام فخطب الناس عليه الصلاة والسلام .

[٧٣/٥] صحيح : رواه الترمذى (٦١٦). احمد (٥/ ٢٥١) . وصححه الألبانى فى الصحيحة برقم (٨٦٥) .

Marfat.com

فذهب بعض الـعلُماء إلى أنها من الخـطب الرَّاتبة ، وقال : إن الأصل أن مـا شَرَعَهُ النبى - ﷺ - فـهو ثابت مسـتقر ، ولم يـقع الكسوف مـرة أخرى ، فيتـرك النبى - ﷺ - الخطبة حتى نقول : إنها من الخطب العارضة .

وقال بعـض العلماء : بل هـى من الخُطب العارضـة التى إن كان لهـا ما يدعو إليـها خطب وإلا فلا ، ولكن الأقـرب أنها من الخُطَب الرَّاتبة وأنَّه يُسَنُّ لـلإنسان إذا صلَّى صلاة الكسوف أن يقوم فيخطب الناس ويذكرهم ويُخَوفهم كما فعل النبى - ﷺ - .

أما الخطب العارِضة فهى التى يخطبها عند الْحـاجة إليها ، مثل خطبته - ﷺ - حينما اشترط أهل بَـريرَة وهى جارية اشترتهـا عائشة رضي الله عنها فاشترط أهلـها أن يكون الولاء لهم ، ولكن عائشة رضي الله عنها لم تقبل بذلك ، فأخبرت النبى - ﷺ - ، فقال : « **خذيها ، واشترطى لهم الولاء** » ثم قام فخطب الناس وأخبرهم أن « **الولاء لمن أعتق** » (١) .

وكذلك خطبته حينـما شفع أُسامه بن زيد رضي الله عنه فى المرأة المخزومية التى كانت تستعير المتَاع فَتَجْحَدَه فأمر النبى - ﷺ - أن تُقْطع يدُها ، فأهم قريشًا شأنها، فطلبوا من يشفع لها إلى رسول الله - ﷺ - فطلبوا من أُسامة بن زيد رضي الله عنه أن يشفع فَشفَع ، ولكن النبى - ﷺ - قال له : « **أتشفع فى حـد من حُدُود الله** » ثم قام فخطب الـناسَ وأخْبَرَهم : « **بأنَّ الذى أهْلكَ من كان قبْلنا أنَّهم كانواَ إذا سَرَقَ فيهم الشَّريف تركوه وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد** » (٢) .

فى حجة الودَاع خطب النبى - ﷺ - يوم عـرفة ، وخطب يوم النَّحر ، ووعَظَ النَّاسَ وذكرهم ، وهذه خطبة مـن الخطب الرَّواتب ، التى يُسَنُّ لقائد الْحجـيج أن يَخْطب النَّاس كما خطبهم النبى - ﷺ - .

وكان من جملـة ما ذكر فى خطبته فى حـجة الوداع أنه قال : « **يا أيها الـناس ، اتقوا ربكم** » وهذه كقوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء : ١] فأمر الرسول - ﷺ - الناس جميعًا أن يَّقـوا ربهم الذى خلقهم وأمدهم بنعمه وأعدَّهم لقـبول رسالاته فأمرهم أن يتَّقوا الله .

وقوله : « **وصلُّوا خمسكم** » أى : صلُّوا الصلوات الخمس التى فرضها الله عز وجل على رسول- ﷺ - .

وقوله : « **وصوموا شهركم** » أى : شهر رمضان .

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٢٥٦٥) مسلم (١٥٠٤) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣٤٧٥) مسلم (١٦٨٨) .

Marfat.com

وقوله : « وأدُّوا زكاةَ أموالكم » أى : أعطوها مستحقيها ، ولا تبخلوا بها .

وقوله : « وأطيعوا أمراءكم » أى : من جعلهم الله أمراء عليكم ، وهذا يشمل أمراء المناطق والبلدان ، ويشمل الأمير العام ، أى : أمير الدَّولة كلها ، فإن الواجب على الرعية طاعتهم فى غير معصية الله ، أما فى معصية الله فلا تجوز طاعتهم ولو أمروا بذلك ؛ لأن طاعة المخلوق لا تقدم على طاعة الخالق جل وعلا ، ولهذا قال الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء : ٥٩].

فعطف طاعة ولاة الأمور على طاعة الله ورسوله ، وهذا يدل على أنها تابعة ؛ لأن المعطوف تابع للمعطوف عليه ، لا مُستقل .

ولهذا تجد أن الله جل وعلا قال :﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩] فأتى بالفعل ليتبين بذلك أنَّ طاعة النبى ـ ﷺ ـ طاعة مُستقلة ، أى : تجب طاعته استقلالا كما تجب طاعة الله .

ومع هذا فإن طاعته من طاعة الله واجبة ، إن النبى ـ ﷺ لا يأمر إلا بما يُرضى الله ، أما غيره من وُلاة الأمور فإنَّهم قد يأمرون بغير ما يرضى الله ، ولهذا جعل طاعتهم تابعة لطاعة الله ورسوله .

ولا يجوز للإنسان أن يَعْصى وُلاة الأمور فى غير معصية الله ، ويقول : إن هذا ليس بدين ، لأن بعض الجهال إذا نَظَّمت ولاة الأمور أنظمة لا تُخَالف الشَّرع قال : لا يلزمنى أن أقوم بهذه الأنظمة لأنَّها لَيْسَت بِشَرع ؛ لأنها لا توجد فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله وهذا من جهله ، بل نقول : إن امتثال هذه الأنظمة موجود فى كتاب الله ، وموجود فى سُنَّة الرسول عليه الصلاة والسلام .

قال الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء : ٥٩] وورد عن النبى عليه الصلاة والسلام فى أحاديث كثيرة أنَّه أمر بطاعة ولاة الأمور ، ومنها هذا الحديث .

ولو كنا لا نطيع ولاة الأمور إلا بما أمر الله به ورسوله لم يكن للأمر بطاعتهم فائدة ؛ لأنَّ طاعة الله ورسوله واجبة سواء أمر بها ولاة الأمور أم لم يأمروا بها ، فهذه الأمور التى أوْصَى بها النبى ـ ﷺ ـ فى حجة الوداع من الأمور الهامة التى يجب على الإنسان أن يعتنى بها وأن يتمثل أمر رسول الله ـ ﷺ ـ فيها ، والله أعلم .

* * *

Marfat.com

٧- باب في اليقين والتوكل

قال الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٢٢) ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٧٣ ، ١٧٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ (الفرقان: ٥٨) ، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (إبراهيم: ١١) ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ، والآيات في الأمرِ بالتَّوَكُّلِ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق: ٣) أيْ : كَافيه، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢) وَالآيات في فَضْلِ التَّوَكُّلِ كَثِيرَةٌ مَعْرُوفَةٌ .

الشرح

جمع المؤلف بين اليقين والتَّوكل ؛ لأنَّ التوكل ثمرة من ثمرات اليقين ، فاليقين : هو قوة الإيمان والثبات حتى كأن الإنسان يرى بعينه ما أخبر الله به ورسوله من شدَّة يقينه ، فاليقين هو ثبات وإيمان ليس معه شكٌ بوجه من الوجوه ، فيرى الغائب الذى أخبر الله عنه ورسوله كأنَّه حاضر بين يديه ، وهو أعلى درجات الإيمان .

هذا اليقين يثمر ثمرات جليلة ، منها التَّوكل على الله عز وجل ، والتَّوكل على الله اعتماد الإنسان على ربِّه عز وجل فى ظاهره وباطنه فى جلب المنافع ودفع المَضَار : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

ففى هاتين المرتبتين اليقين والتوكل يحصل للإنسان مقصوده فى الدنيا والآخرة ويستريح ويعيش مطمئنًا سعيدًا ، لأنه موقن بكل ما أخبر الله به ورسوله ومتوكل على الله عز وجل.

ثم ذكر المؤلف آيات فى هذا الباب ، منها قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

Marfat.com

الأحزاب طوائف من قبائل مُتعددة تألبُوا على رسول الله ـ ﷺ ـ واجتمعوا على حربه ، وتجمع نحو عشرة آلاف مقاتل من قريش وغيرهم وحاصروا الْمدينة ليقضوا على النبى ـ ﷺ ـ وحصل فى هذه الغزوة أزمة عظيمة على أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ قال الله تبارك وتعالى فى وصْفها : ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠] الظنون البعيدة : ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب:١١]. فانقسم الناس فى هذه الأزمة العصيبة العظيمة إلى قسمين ، بينّهما الله عز وجل فى هذه الآيات .

القسم الأول : قال الله عنهم : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [الاحزاب : ١٢] المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، والذين فى قلوبهم مرض من الْمؤمنين وعندهم نقص فى يقينهم ، قالوا: ما وعدنا الله ورسولُه إلا غرورًا .

قالوا : كيف يقول محمد : إنه سيفتح كسرى وقَيصر وصنعاء ، وهو الآن مُحاصر من هؤلاء الناس (١) .

القسم الثّانى : المؤمنون ، قال الله عنهم : ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

انظر إلى الفرق بين الطائفتين !

هؤلاء لَما رأوا الأحزاب ورأوا هذه الشدّة علموا أنّه سيعقبها نصر وفرج وقالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله فسيكون نصر وستفتح ممالك قيصر وكِسْرى وهكذا كان ولله الْحمد .

والشّاهد قوله : ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب : ٢٢] وهذا غاية اليقين أن يكون الإنسان عند الشّدائد وعند الكرب ثابتًا مؤمنًا موقنًا ، عكس من كان توكله ويقينه ضعيفًا ، فإنه عند الْمصائب والكرب ربما ينقلب على وجهه ، كما قال الله : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج ١١] أى : على طرف : ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج :١١].

كثير من الناس فى عافية فهو مطمئن ، ولكن إذا ابتلى والعياذ بالله انقلب على وجهه فربما يصل إلى حدّ الرِّدة والكفر ويعترض على الله بالقضاء والقدر ، ويكْرَه تقدير الله

(١) البخارى (٣٦١٨) مسلم (٢٩١٨) .

Marfat.com

وبالتَّـالى يكره الله والعيـاذ بالله ؛ لأنَّه كان فى الأول لم يصـبه أذًى ، ولا فتنة ولـكنه فى الثَّانى أصابته الفتنة فانقلب على وجهه .

وفى هذه الآيات وأشباهها دليل على أنَّه ينبغى للإنسان أن يخاف ويوجل ويخشى من زيغ القلب ويسأل الله دائمًا الثَّبات فإنـه ما من قَلْب من قلوب بنى آدم إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء إن شاء أقَامه وإن شاء أزاغَه .

فنسأل الله مُقَـلِّب القُلُوب أن يُثَبِّت قلوبنا علـى طاعته وأن يرزقنا الاستقـامة على دينه والثَّبات عليه .

الآية الثَّانية قوله : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

هذه الآية نزلت فى الـصَّحابة ﷺ حيث حَصَـل عليهم ما حصل فـى غزوة أحد مما أصابهم من القَرْح والجُروح والشُّهداء فقيل لهم إن أبا سفيان كان قد عزم على الكرة عليكم وجمع لكم الناس فـندبهم النبى عليه الصَّلاة والسَّـلام إلى مُلاقاته ومقابلته فـاستجابوا الله والرسول من بعد مَا أصابهم الـقَرح وأصيبوا بهذه النَّكبة العظيمة فقـتل منهم سبعون رجُلاً استشهدوا فى سبيل الله وحَصَل للنبى - ﷺ - ولِغَيْره من صحابته ﷺ ما حصل ومع هذا استجابوا لله وللرسول [1] .

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾[آل عمران : ١٧٢ ، ١٧٣] . يعنى أن أبـا سفيان ومن مـعه ممن بقى من كـبراء قريش جـمعوا للرسـول - ﷺ - يريدون استئصاله ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره .

قيل للـصَّحابة : اخشـوا هؤلاء ولكنهم أزدادوا إيمانًا ؛ لأنَّ الـمؤمن كلما اشـتدت به الأزمات ازداد إيمانًا بالله ؛ لأنـه يؤمن بأنَّ النَّصر مع الصَّبر وأن الـفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا .

لهذا زادهم إيمانًا هذا القول ، وقالوا : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] حسْبُنا أى : كافينا فى مهماتنا وملماتنا ونعم الوكيل ، إنه نعم الكافى جل وعلا ، فإنه نعم المولى ونعم النصير .

ولكنه يكون ناصرًا لمن انتصر به فإنَّه عز وجل أكرم الأكرمين وأجود الأجودين فإذا اتجه

(١) انظر السيرة لابن هشام (٣/ ١٠٢) .

Marfat.com

الإنسان إليه فى أمور أعانه وساعده وتولاه ولكن البلاء من بنى آدم حيث يكون الإعراض كثيرًا فى الإنسان ويعتمد على الأمور المادية دون الأمور المعنوية .

قال تعالى : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٤] ذهبوا ، لكنهم لم يجدوا كيدًا ، وأبو سفيان ومن معه ولوا على أدبارهم ، ولم يكرُّوا على الرسول - ﷺ - .

فكتبت للصَّحابة غزوة من غير قتال . قال الله : ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران : ١٧٤] .

ثم قال : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أى : يخوفكم أنتم أولياءه ، أى : يُلْقى فى قلوبكم الْخوف من أوليائه ، فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين .

فالشَّيطان يأتى إلى المؤمن يقول : احذر أن تتكلم فى فلان ؛ لأنَّه ربما يَسْجنك وربما يفعل كذا وكذا ، فيخوفك ولكن المؤمن لا يمكن أن يخاف أولياء الشيطان ؛ لأن الله قال : ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦] . بالنسبة للحق .

فعلى الإنسان ألا يخاف فى الله لومة لائم ، وألا يخاف إلا الله . ولكن يجب أن يكون سيره على هدى من الله عز وجل ، فإذا كان سيره على هدى من الله فلا يخافن أحدًا .

وقوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان : ٥٨] . وهو الله عز وجل .

اعتمد عليه فى أمورك كلها دقيقها وجليلها ؛ لأن الله إذا لم ييسر لك الأمر لم يتيسر لك ومن أسباب تيسيره أن تتوكل عليه لا سيما إذا دهمتك الأمور وكثرت الهُموم وازدادت الخطوب ، فإنه لا ملجأ لك إلا الله عز وجل فعليك بالتوكل عليه والاعتماد عليه حتى يكفيك .

وفى قوله : ﴿ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان : ٥٨] دليلٌ على امتناع الْموت على الرَّب عز وجل .

قال الله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧] فالله عز وجل لا يموت لكمال حياته فإنه دائمًا هو الأول الذى ليس قبله

Marfat.com

شىء ، وهو الآخر الـذى ليس بعده شىء . ثم إنـه سبحانه وتـعالى لا ينام أيضًـا لكمال حيـاته وقَيُّـوميِّتـه قال الله تعـالى : ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّـومُ لا تَأْخُـذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] .

أمَّا الإنس والجن فإنهم ينامون ويموتون ، أمَّا الرَّب عز وجل فإنَّه لا ينام لأنَّه غَنِىٌّ عن النَّوم ، أما البشر فإنهم محتاجـون له ؛ لأنَّ الأبدان تتعب وتسأم وتَمل ، والنَّوم راحة عما مضَى من التَّعب وتجديد نشاط عمَّا يستقبل من العمل .

وقال الله : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] . أى : كافيـه ، فإذا توكلت على الله كفاك كل شىء ، وإذا توكلت على غير الله وكلك الله إليه ولكنك تنخذل ولا تتحقق لك أمورك .

وقال الله : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال : ٢ ، ٤] .

قوله ﴿إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ إذا ذكرت عظمته وجلاله وسُلطانه خافت القلوب ووجلت وتأثر الإنسان حتى إن بعض السَّلف إذا تليت عليه آيات الخوف يمرض أيامًا حتى يعوده الناس .

أمَّا نحن فقلوبنا قاسية نسأل الله أن يلينهـا فإنه تتلى علينا آيات الْخوف فلا نتأثر بذلك ولا نتعظ إلا من رحم الله .

لكن المؤمن هو الذى إذا ذكر الله وجل قلبه وخاف .

كان بعض الـسلف إذا قيل له : اتق الله ارتعـد حتى يسقـط ما فى يده: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ إذا سمعوا كلام الله عز وجل ازدادوا إيمانًا من وجهين :

الوجه الأول : التَّصديق بما أخبر الله به من أمور الغيب الْماضية والْمستقبلة .

الوجه الثانى : القَبول والإذعان لأحكام الله فيمتثلون ما أمر الله به فيزداد بذلك إيمانهم وينتهون عما نهى الله عنه تقربًا إليه وخوفًا منه فيزداد إيمانهم ، فهم إذا تليت عليهم آياته ازدادوا إيمانًا من هذين الوجهين .

وهكذا إذا رأيت من نفسك أنَّك كلما تلـوت القرآن ازددت إيمانًا فإن ذلك من علامات التَّوفيق .

أما إذا كنت تقرأ القـرآن ولا تتأثر به فعليك بِمُداواة نفـسك ، لا أقول أن تذهب إلى الْمُستَشفى ؛ لتأخذ جرعة من حُبوب أو مياه أو غيرها ولكن بِمدُواة القلب ، فإن القلب إذا

Marfat.com

لم ينتفع بالقرآن ، ولم يتعظ به فإنه قلب قاسٍ مريض نسأل الله العافية .

فأنت طبيب نفسك ، لا تذهب إلى الناس ، اقرأ القرآن ، فإن رأيت أنك ازددت به إيمانًا وتصديقًا وامتثالاً فهنيئًا لك وأنت مؤمن ، وإلا فعليك بالدَّواء من قبل أن يأتيك موت لا حياة بعده وهو موت القلب ، أما موت الجسد فبعده حياة وبعده بعث وجزاء وحساب.

وقوله : ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ على ربهم فقط يتوكلون ، أى : يفوضون أمورهم كلها إلى مالكهم ومدبرهم خاصة لا إلى أحد سواه كما يدل عليه تقديم المتعلق على عامله والجملة معطوفة على الصلة ، إشارة إلى الاختصاص والحصر وأنهم لا يتوكلون إلا على الله عز وجل ؛ لأن غير الله إذا توكلت عليه فإنما توكلت على شخص مثلك ولا يحرص على منفعتك كما تحرص على منفعة نفسك ، ولكن اعتمد على الله عز وجل فى أمور دينك ودنياك .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾

يقيمون الصَّلاة يأتون بها مستقيمة بواجباتها وشروطها وأركانها ويكملونها بمكملاتها ، ومن ذلك أن يصلُّوها فى أوقاتها ، ومن ذلك أن يصلُّوها مع المسلمين فى مَسَاجدهم ؛ لأن صلاة الجماعة كان الناس لا يتخلفون عنها إلا منافق أو معذور .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : « لقد رأيتُنَا - يعنى مع الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام - ومَا يَتَخَلَّف عنها إلا مُنَافق أو مريض ، ولقد كان الرَّجل يُؤتَى به يُهادَى بَيْن الرَّجُلَيْن حتى يُقَام فى الصَّف »[(١)] لا يثنيهم عن الحضور إلى المساجد حتى المرض - رضي الله عنهم .

أما كثير من الناس اليوم فإنَّهم على العكس من ذلك فَتَراهم يَتَكَاسَلون ويتأخرون عن صلاة الجماعة .

ولهذا لو قارنت بين الصَّلوات النَّهارية وصلاة الفجر لرأيت فرقًا بينًا لأن الناس يلحقهم الكسل فى صلاة الفجر من نوم ولا يهتمون بها كثيراً .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أى : ينفقون أموالهم فى مرضاة الله وحسب أوامر الله وفى المحل المناسب .

﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ حقًا : توكيد للجملة التى قبلها أى أحق ذلك حقًا .

﴿لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم بمنّه وكرمه إنه جواد كريم .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٦٥٤) أبو داود (٥٥٠) النسائى (١٠٨/٢) ابن ماجه (٧٧٧) .

Marfat.com

وأمَّا الأحاديثُ :

[١/ ٧٤] فَالأوَّلُ : عَن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فرأيت النَّبيَّ ومعه الرُّهَيْط والنَّبيَّ ومَعَهُ الرَّجُل والرَّجُلان ، والنَّبيَّ ولَيْس مَعَهُ أحدٌ ، إذْ رُفِعَ لي سَوَادٌ عَظِيمٌ فظَنَنْت أنَّهمْ أُمَّتي ، فَقِيلَ لي : هذَا مُوسَى وقَوْمه ، ولكن انْظُر إلى الأُفُق ، فنَظَرْتُ فإذا سوادٌ عظيمٌ ، فَقِيلَ لي : انظُر إلى الأفق الآخَر ، فإذَا سَوادٌ عظيمٌ ، فَقيلَ لي : هذه أُمَّتُكَ ، ومَعَهُمْ سبْعُونَ ألفاً يدْخُلون الجَنَّة بغَير حساب ولا عذاب » ثُمَّ نَهض فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَخَاضَ النَّاسُ في أولئكَ الذين يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بغَيْر حسَاب ولا عذَاب ، فقَالَ بَعْضُهم : فَلَعَلَّهُم الذين صَحبُوا رسولَ الله ﷺ ، وقَالَ بعْضُهمْ: فلعَلَّهُم الذينَ وُلِدُوا في الإسلامِ ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بالله شيئاً ــ وذَكَروا أشيَاءَ ــ فَخَرَجَ عَلَيْهِم رسول الله ﷺ فقَالَ : « ما الذي تَخُوضونَ فيه ؟ » فأخْبَرُوهُ فقَالَ : « هُمُ الذينَ لا يَرْقُونَ ، ولا يَسْتَرْقُونَ ولا يَتَطَيَّرُونَ ، وعَلى ربِّهمْ يَتَوكَّلُونَ » فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصنٍ فقَالَ : ادعُ الله أنْ يَجْعَلَني منْهُمْ ، فقالَ : « أنْتَ منْهُمْ » ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخرُ فَقَالَ: ادْعُ الله أنْ يَجْعَلَني منْهُمْ فقال: « سَبَقَكَ بهَا عُكَّاشَةُ» متفقٌ عليه .

« الرُّهَيْطُ » بِضَمِّ الرَّاء : تَصْغيرُ رَهْط ، وَهُمْ دُونَ عَشَرَة أنفُس . و« الأُفُقُ » : النَّاحيَةُ وَ الجَانِبُ . و « عُكَّاشَةُ » بِضَمِّ العَيْن وتَشديد الكَاف وَبِتَخْفيفها ، والتَّشْديدُ أفْصَحُ .

الشرح

بعدما ساق الآيات ذكر هذا الحديث العظيم الذى أخبر فيه النبى ـ ﷺ ـ أن الأمم

[١/ ٧٤] صحيح : رواه البخارى (٥٧٠٥) ، (٦٥٤١) ، ومسلم (٢٢٠) . قال الحافظ فى الفتح (٤١٦/١١) : وقد أنكر الشيخ تقى الدين ابن تيمية هذه الرواية ، وزعم أنها غلط من راويها، واعتل بأن الراقى يحسن إلى الذى يرقيه فكيف يكون ذلك مطلوب الترك ! وأيضًا فقد رقى جبريل النبى ـ ﷺ ـ ورقى النبى أصحابه وأذن لهم فى الرقى وقال : « من استطاع أن ينفع أخاه فليفعل » والنفع مطلوب ، قال : وأما المسترقى فإنه يسأل غيره ويرجو نفعه ، فتمام التوكل ينافى ذلك قال : وإنما المراد وصف السبعين بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم ولا يتطيرون من شىء « ا هـ . وقال الألبانى وحقه أن يقول ـ واللفظ لمسلم ـ فإن البخارى ليس عند قوله : « ولا يرقون » وعنده مكانها « لا يكتوون » وهو المحفوظ ، ولفظ مسلم شاذ سندًا ومتنًا.

Marfat.com

عُرِضت عليه ، أى : أُرِىَ الأمم عليه الصلاة والسَّلام وأنبياءهم .

يقول : « **فَرَأَيْتُ النَّبِىَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْط** » أى : معه الرَّهط القليل الذى ما بين الثلاثة إلى العشرة .

« **والنَّبِىَّ وَمَعَهُ الرَّجُل والرَّجُلانِ ، وَالنَّبِىَّ وَلَيْس مَعَهُ أَحَدٌ** » أى : أن الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ليْسوا كلهم قد أطاعهم قومهم ، بل بعضهم لم يطعه أحد من قومهم وبعضهم أطاعه الرَّهط وبعضهم أطاعه الرجل والرجلان ، وانظر إن نوحًا عليه الصَّلاة والسَّلام مكَثَ فى قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا يُذكِّرهم بالله ويدعوهم إلى الله .

قال الله : ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود : ٤٠] . كل هذه المدة ولم يَلْق منهم قبولاً ، ولا سَلِمَ من شرِّهم .

قال نوح : ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح : ٧] . وكانوا يمرون به ويسخرون منه .

يقول: « **رُفِعَ لِى سَوَادٌ** » أى : بشر كثير فيهم جهمة من كثرتهم « **فَظَنَنْتُ أَنَّهُمَ أُمَّتى ، فَقِيلَ : هَذَا مُوسَى وَقَوْمُه** » لأنَّ موسى من أكثر الأنبياء أتباعًا بعث فى بنى إسرائيل وأنزل الله عليه التوراة التى هى أُمُّ الكتب الإسرائيلية .

قال : « **ثمَّ قيل لى : انظر ، فنظرت إلى الأفق فإذا سواد عظيم ـ وفى رواية : سد الأفقِ ـ فقيل : انظر الأفق الثانى ، فنظرت إليه فإذا سواد عظيم فقيل لى : هذه أمتك** » . فإنَّ الرسول ـ ﷺ ـ أكثر الأنبياء تابعًا لأنه منذ بعث إلى يوم القيامة والناس يتبعونه صلوات الله وسلامه عليه فكان أكثر الأنبياء تابعًا قد ملأ أتباعه ما بين الأفقين .

« **ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الْجنة بغير حساب ولا عذاب** » أى : مع هذه الأمة سبعون ألفًا يدخلون الجنة لا يحاسبون ولا يعذبون من الْموقف إلى الجنة بدون حساب ولا عذاب ، اللهم اجعلنا منهم .

وقد ورد أن مع كل واحد من السبعين الألف سبعين ألفًا أيضًا . إذا ضربنا سبعين ألفًا فى سبعين ألفًا (٧٠٠٠٠ × ٧٠٠٠٠ = ٤٩٠٠٠٠٠٠٠٠) هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

« **ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَخَاضَ النَّاسُ فِى أُولَئِكَ ، قَالَ بَعْضُهُمْ : لعلهُمُ الَّذِين صَحِبُوا رَسُول الله ـ ﷺ ـ ، وقال آخرون : لَعَلَّهُمُ الَّذِين وُلِدُوا فِى الإِسْلام ، فَلَمْ يُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا ـ وذَكَرُوا أشْيَاءَ** » وكُلٌّ أتى بما يظن أنه الصواب .

Marfat.com

فخرج عليهم النبي - ﷺ - فسألهم عمـا يخوضون فيه فأخبروه فقال - ﷺ - : « هُمُ الَّذِينَ لاَ يَرْقُونَ ، ولا يَسْتَرْقُونَ ، ولا يكْتَوون ، ولا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يتوكَّلُون » هذا لفظ مسلم ، وفيه : « لا يرقون » .

والْمؤلف - رحمه الله - قال : إنَّه متفق عليه ، وكان ينبغي أن يبين أن هذا اللفظ لفظ مسلم فقط دون رواية البـخارى ، وذلك أن قوله : لا يرقون ، كلمة غيـر صحيحة ، ولا تصح عـن النبى علـيه الصَّـلاة والسَّلام ؛ لأن مـعنى « لا يرقون » أى : لا يقرءُون على الْمرضى ، وهذا باطل ؛ فإن الرسول - ﷺ - كان يرقى الْمرضى .

وأيضًا القراءة على الْمرضـى إحسان ، فكيف يكون انتفاؤها سببًا لـدخول الْجنة بغير حساب ولا عذاب .

فالْمهـم أن هذه اللَّفظة لفظة شـاذة وخطأ ، لا يجوز اعتمـادها ، والصَّواب : « هم الذين لا يسترقون » أى : لا يطلبون مـن أحد أن يقرأ عليه إذا أصابـهم شيء . وقوله : «ولا يكتوون » أى لا يطلبون من أحدٍ أن يكويهم إذا مرضوا .

وقوله :« ولا يتطيرون » أى : لا يتشاءمون « وعلى ربهم يَتَوكَّلُون » أى : يعتمدون على الله وحده .

فهذه أربعة صفات ، والشَّاهد قوله : « وعلى ربِّهم يَتَوَكَّلون » فلا يسترقون ، أى : لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم ؛ لأنهم مـعتمدون على الله ، ولأن الطلب فيه شيء من الذل ؛ لأنه سؤال الغير .

فربما تحرجـه ولا يريد أن يقرأ ، وربما إذا قرأ عليك لا يبـرأ الْمرض فتتهمـه وما أشبه ذلك.

وقوله : « ولا يَكْتَوون » لأن الْكيَّ عذاب بالنار ، لا يلجأ إليه إلاَّ عند الحاجة .

وقوله : « ولا يَتَطَيَّرون » أى : لا يتشاءمون لا بِمرئى ولا بِمَـسموع ولا بِمشموم ولا بِمجذوم .

وقد كان العرب فى الجاهلية يتطيرون ، فـإذا طار الطير وذهب نحو اليسار تشاءموا ، وإذا رجع تشـاءموا ، وإذا تقـدم نحو الإمـام صار لهم نـظر آخر ، وكذلـك نحو اليـمين وهكذا.

والطيـرة محرمة ، لا يجـوز لأحد أن يتطيـر لا بطيور ولا بأيام ، ولا بشـهور ، ولا بغيرها.

Marfat.com

وتطير العرب فيما سبق بشهر شوال ، إذا تزوج الإنسان فيه ، ويقولون : إن الإنسان إذا تزوج فى شهر شوال لم يوفق .

فكانت عائشة رضي الله عنها تقول : سبحان الله ، إنَّ النبى ـ ﷺ ـ تزوَّجها فى شوال، ودخل بها فى شوال ، وكانت أحب نسائه إليه (١) ، كيف يقال : إن الذى يتزوج فى شوال لا يوفق.

وكانوا يتشاءَمون بيوم الأربعاء ، يوم الأربعاء يوم كأيام الأسبوع ، ليس فيه تشاؤم .

وكان بعضهم يتساءم بالوجوه ، إذا رأى وجهًا لا يعجبه حتى إن بعضهم إذا فتح دكانه، وكان أول من يأتيه رجل أعور ، أو أعمى أغلق دكانه ، وقال : اليوم لا رزق فيه.

والتَّشاؤم كما أنه شرك أصغر فهو حسرة على الإنسان ، فيتألم من كل شيء يراه ، لكن لو اعتمد على الله ، وترك هذه الخرافات لسلم ولصار عيشه صافيًا سعيدًا.

أما قوله : « وعلى ربِّهم يَتوَكَّلُون » فمعناه أنهم يعتمدون على الله فى كل شيء لا يعتمدون على غيره ؛ لأنه قال فى كتابه : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣] ومن كان الله حسبه فقد كفى كُلَّ شيء .

هذا الحديث العظيم فيه صفات من يدخل الْجنة بلا حساب ولا عذاب.

فقام عكَّاشة بن محصن رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، ادعُ الله أن يجعلنى منهم .

ما شاء الله ، بادر إلى الْخير ، وسبق إليه ، قال : « أنتَ منْهُم » ولهذا نحن نشهد الآن بأن عكاشة بن محصن رضي الله عنه يدخل الْجنة بلا حساب ولا عذَاب ؛ لأن الرَّسول عليه الصلاة والسلام ، قال : أنت منهم .

« **فقام رجل آخر ، فقال : ادعُ الله أن يجعلنى منهم ، قال : سَبَقَكَ بها عكاشة** » فردَّه النبى عليه الصلاة والسلام ، لكنه ردٌّ لطيف .

لم يقل : لست منهم ، بل قال : سبقك بها عكاشة ، واختلف العلماء لماذا قال له : سبقك بها عكاشة ؟ فقيل : لأنَّه كان يعلم بأن هذا الذى قال : ادعُ الله أن يجعلنى منهم قد علم الرسول بأنه منافق والمنافق لا يدخل الجنة فضلاً عن كونه بغير حساب ولا عذاب .

وقال بعض العلماء : بل قال ذلك من أجل الا ينفتح الباب فيقوم من لا يستحق أن يدخل الْجنة بغير حساب ولا عذاب .

وعلى كل حال ، فنحن لا نعلم علمًا يقينيًا بأن الرسول ـ ﷺ ـ لم يدعُ الله له إلا

---

(١) صحيح : رواه مسلم (١٤٢٣) النسائى (٦/ ٧٠) الترمذى (١٠٩٣) ابن ماجه (١٩٩٠) .

Marfat.com

لسبب معيَّن ، فالله أعلم .

لكننـا نستفـيد من هذا فـائدة وهو الرَّدُّ الْجـميل من رسـول الله ـ ﷺ ـ لأن قوله : «سبقك بها عكاشة » لا يجرحه ولا يحزنه .

وسبحان الله صارت هذه مثلاً إلى يومنا هذا كلما طلب الإنسان شيئًا قد سبق به قيل: قد سبقك بها عكاشة .

أورد بعض العلماء إشكالاً على هذا الحـديث وقال : إذا اضطر الإنسان إلى القراءة ، أى : أن يطلب من أحد أن يقرأ عليه مثل أن يـصاب بعين أو بسحر أو أُصيب بجن هل إذا ذهب يطلب من يقرأ عليه يخرج من استحقاق دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟

فقال بعض العـلماء : نعم هذا ظاهر الحديث وليـعتمد على الله وليتصـبر ويسأل الله العافية.

وقال بعض العلماء : بل إن هذا فيمن اسـترقى قبل أن يصاب أى بأن قال : اقرأ على أن لا تصيبنى العـين أو أن لا يصيبنى السِّحر أو الجن أو الحمى فـيكون هذا من باب طلب الرقية لأمر متوقع لا واقع وكذلك الكى .

فإذا قال إنسان : الذين يكوون غيرهم هل يحرمون من هذا ؟

جـ ـ لا ، لأنَّ الرسول ـ ﷺ ـ يقـول : ولا يكتوون أى : لا يطلبـون من يكويهم ، لم يقل : ولا يكوون وهو عليه الصَّلاة والسَّلام قد كوى أكحل سعد بن معاذ رضي الله عنه .

سعـد بن معاذ الأوسـى الأنصارى أُصيب يـوم الخندق فى أكحـله فانفـجر الدَّم(١) ، والأكحل إذا انفجر دمه قضى على الإنسان .

فكواه ـ ﷺ ـ فى العرق حتى وقف الدَّم والنبى ـ ﷺ ـ هو أول من يدخل الْجنة بغير حساب ولا عذاب (٢) .

فالذين يكـوون محسنون والذين يقرءُون عـلى الناس محسنون ولكـن الكلام على من يَترقَـون أى : يطلبون مـن يقرأ عليهـم أو يكتوون أى : من يطـلبون من يكويـهم ، والله الموفق.

***

(١) صحيح: رواه البخارى (٤١٢٢) مسلم (١٨٠٧) .

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ١٤٤) وانظر مجمع الزوائد (٧/ ٣٤٩) للهيثمى .

Marfat.com

[٢/ ٧٥] الثانى : عَن ابن عَبَّاس ﷺ أيضاً أنَّ رسـول الله ﷺ كَانَ يَـقُولُ: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ،وبكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيْكَ تَـوكَّلْتُ ، وإِلَيْكَ أَنَبْتُ ، وبكَ خَاصَمْتُ، اللهُـمَّ أعُوذُ بعـزَّتك ؛ لَا إِلهَ إلا أنْتَ أنْ تُـضلَّنى ، أنْـتَ الحَىُّ الذى لا يَمُـوتُ ، والجِنُّ وَالإِنْس يَمُوتُونَ » متفق عليه . وَهذا لَفظُ مُسْلِم ، وَاخْتَصَرَهُ البُخَارِىُّ .

[٣/ ٧٦] الثالثُ : عَن ابن عبَّاس ﷺ أيضاً قال : «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، قَالَهَا إبراهيمُ ﷺ حينَ أُلقِىَ فى النَّار ، وقَالَـها مُحَمَّدٌ ﷺ حينَ قَالُوا : إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَـعُوا لَكُمْ فَـاخْشَـوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَـاناً وقَالُوا : حَـسْبُنَـا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِـيلُ». رواه البخارى .

وفى رواية له عن ابن عَبَّـاس رضى الله عنهما قال : كَـانَ آخرَ قَولِ إبراهيمَ ﷺ حِينَ أُلقِىَ فى النَّارِ : حَسْبِىَ الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ .

الشرح

إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام هما خليلان لله عز وجل ، قال الله : ﴿واتَّخذَ اللهُ إبراهيم خليلا﴾ [النساء : ١٢٥] وقال النبى- ﷺ - « إنَّ الله قد اتَّخذَنى خليلاً كما اتَّخذَ إبْراهيمَ خَـليلاً »(١). والخليل معـناه الحبيب الذى بلغت مـحبته الغايـة ولا نعلم أن أحدًا وصفَ بهذا الوصف إلا محمدًا وإبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فهما الخليلان .

وإنَّك تسمع أحيانًا يقول بعض الناس : إبـراهيم خليل الله ، ومحمـد حبيب الله ، وموسى كليم الله .

والذى يقول : إن محمدًا حبيب الله فى كلامه نظر لأنَّ الخُلَّة أبلغُ من المحبة فإذا قال محمد حبيب الله : فهذا فيه نوع نقصٌ من حق الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام ؛ لأن أحباب الله كثيرون ، فالمؤمـنون يحبهم الله ، والمـحسنون والمقـسطون يحبهـم الله والأحباب كثيرون .

لكن الخلة لا نعلم أنـها ثبتت إلا لمحمد وإبراهيم ، وعلى هـذا فنقول : الصواب أن يقال : إبراهيم خليل الله ، ومحمد خليل الله ، وموسى كليم الله .

[٢/ ٧٥] صحيح : رواه البخارى (٧٣٨٣) ، ومسلم (٢٧١٧) .

[٣/ ٧٦] صحيح : رواه البخارى (٤٥٦٣) .

(١) صحيح: رواه مسلم (٥٣٢) ابن ماجه (١٤١) .

Marfat.com

على أن محمـدًا قد كلَّمه الله سبحـانه وتعالى كلامًا بدون واسطة حـيث عرج به إلى السموات السَّبع .

هذه الكلمة : « **حَسْبُنا الله ونِعْمَ الْوكيل** » قالها إبراهيم حينما أُلقى فى النار ، وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأبوا وأصروا على الكفر والشِّرك .

فقام ذات يوم عـلى أصنامهم فكسَّـرها وجعلهم جُذاذًا إلا كـبيرًا لهم ، فلمـا رجَعُوا وجدوا آلهتهم قد كسرت فانتقموا والعياذ بالله لأنفسهم .

فقالوا : ماذا نصنع بإبراهيم ؟

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ انتصارًا لآلهتهم ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ٦٨] .

فأوقدوا نارًا عظيمة جدًا ثم رموا إبراهـيم فى هذه النار . ويقال : إنَّهم لِعِظَم النَّار لم يتمكَّنوا من القُرب منها وأنَّهم رموا إبراهيم فيها بالْمنجنيق من بُعْد .

فلما رموه قال : « **حسبنا الله ونعم الوكيل** » فما الذى حدث ؟

قال الله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] بردًا ضد حَرّ ، وسلامًا ضد هلاك ، لأن النَّار حارة ومحرقة مهلكة فأمر الله هذه النَّار أن تكون بردًا وسلامًا عليه فكانت بردًا وسلامًا.

والْمُفَسِّرون بعضهم ينقل عن بنى إسرائيل فى هذه القصَّة أن الله لما قال : ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء:٦٩] صارت جميع نيران الدنيا بردًا .

وهذا ليس بصحيح ؛ لأن الله وجه الخطاب إلى نار معينة ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا﴾ وعلماء النحو يقولون : إنه إذا جاء التركيب علـى هذا الوجه صار نكرة مقصودة ، أى : لا يشمل كل نار ، بل هو للنار التى ألقـى فيها إبراهيم فقط ، وهذا هو الصحيح وبقـية نيران الدنيا بقيت على ما هى عليه .

وقال العلماء أيضًا : ولما قال الله : كونى بردًا ، قرن ذلك بقوله : كونى سلامًا ؛ لأنه لو اكتفـى بقوله : ﴿ بَرْدًا ﴾ لكانت بردًا حـتى تهلكه ؛ لأن كل شىء يمتـثل لأمر الله عز وجل(١).

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فماذا قالتا ؟ ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] .منقادين لأمر الله .

(١) انظر تفسير الطبرى (١٧/ ٥٩) .

Marfat.com

أما الخليل الثانى الذى قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فهو النبى ـ ﷺ ـ وأصحابه حين رجعوا من أحد ، قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم يريدون أن يأتوا إلى المدينة ويقضوا عليكم ، فقالوا : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

قال الله : ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران : ١٧٤] .

فينبغى لكل إنسان رأى من النَّاس جَمْعًا له أو عدوانًا عليه أن يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل .

فإذا قال هكذا كفاه الله شرَّهم كما كفى إبراهيم ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام فاجعل هذه الكلمة دائمًا على بالك إذا رأيت من النَّاس عدوانًا عليك ، والله الْموفق .

***

[٤/ ٧٧] الرَّابِعُ : عَنْ أبى هُرَيرَةَ رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **يَدْخُلُ الجَنَّةَ أقوامٌ أفئدَتُهُمْ مِثلُ أفئدَةِ الطَّيْرِ** » رواه مسلم .

قِيلَ : مَعنَاهُ مُتوكِّلُونَ ، وقِيلَ : قُلُوبُهُم رَقِيقَةٌ .

[٥/ ٧٨] الخامس : عَنْ جابرٍ رضي الله عنه أنَّه غزا مَعَ النَّبىِّ ﷺ قِبَلَ نَجْد ، فَلَمَّا قَفَلَ رسولُ الله ﷺ قَفَل مَعَهُمْ ، فأدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ فى وَادٍ كثير العضَاه ، فَنَزَل رسولُ الله ﷺ ، وتَفرَّقَ النَّاسُ يَستَظلُّونَ بالشَّجَر ، ونَزَلَ رسولُ الله ﷺ تَحتَ سَمُرَة ، فَعلَّقَ بها سَيفَه ، ونمنا نَوْمَةً ، فإذَا رسولُ الله ﷺ يَدْعُونَا ، وإذَا عِنْدَهُ أعرَابىٌّ فقَالَ : « **إنَّ هذا اخْتَرطَ عَلَيَّ سيفى وأنَا نَائِمٌ ، فَاستَيقَظتُ وَهُوَ فى يَدِه صَلْتاً ، قَالَ : مَنْ يَمنَعُكَ منِّى ؟ قُلتُ : الله** » ثلاثاً ، ولَمْ يُعاقِبْهُ وَجَلَسَ . متفق عليه .

وفى رواية : قالَ جَابِرٌ : كُنَّا مَعَ رسول الله ﷺ بِذاتِ الرِّقَاع ، فَإذَا أتَيْنَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لرسول الله ﷺ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَسَيفُ رسول الله ﷺ مُعلَّقٌ بالشَّجَرَة ، فاختَرَطَهُ فقَالَ : تَخَافُنى ؟ قال : « **لا** » . قالَ : فَمَنْ يَمنَعُكَ منِّى ؟ قال : «**الله**» .

[٤/ ٧٧] صحيح : رواه مسلم (٢٨٤٠) .

[٥/ ٧٨] صحيح : رواه البخارى (٢٩١٠) ، ومسلم (٨٤٣) .

Marfat.com

وَفى رواية أبى بكرِ الإسماعيلى فى صحيحه : قال : مَنْ يَمْنعُكَ منِّى ؟ قالَ : «الله» . قال : فَسقطَ السَّيفُ من يَدِه ، فَأخذَ رسول الله ﷺ السَّيفَ فَقال : « مَنْ يَمنعُكَ منِّى ؟» فَقَالَ : كُنْ خيرَ آخذ ، فَقَالَ : « تَشهَدُ أن لا إله إلا الله ، وأنِّى رسولُ الله؟ » قال: لا ، ولكنِّى أُعاهِدُكَ أنْ لا أُقاتلكَ ولا أكُونَ مَعَ قَومٍ يُقاتِلونَكَ ، فَخلَّى سَبيلَهُ ، فأتَى أصحَابَهُ فَقَالَ : جِئتُكُمْ مِنْ عِنْدَ خَيرِ النَّاسِ .

قَوْلُهُ : « قَفَلَ » أىْ : رَجعَ . وَ « العِضَاه » الشَّجرُ الذى لَهُ شَوْكٌ ، و« السَّمُرَةُ» بفَتحِ السِّين وَضَمِّ الميمِ : الشَّجرَةُ مِنَ الطَّلْحِ ، وهىَ العِظَامُ مِنْ شَجرِ العِضَاه . وَ«اخْتَرطَ السَّيْف » أى : سَلَّهُ وَهُوَ فى يَدِهِ . « صَلْتاً » أى : مَسْلُولاً ، وَهُوَ بِفَتحِ الصَّاد وَضَمِّهَا .

[٧٩/٦] السَّادسُ : عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ: « لَوْ أنَّكُمْ تَتَوكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوكُّله لَرزقَكُمْ كَـما يَرزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصاً ، وتَرُوحُ بِطَاناً » رواه الترمذى ، وقال : حَديثٌ حسنٌ .

مَعْنَاهُ : تَذْهَبُ أوَّلَ النَّهار خِماصاً : أىْ ضَامِرَةَ البُطُونِ مِنَ الْجُوعِ ، وتَرْجعُ آخِرَ النَّهَارِ بِطاناً : أى مُمْتَلِئَةَ البُطُونِ .

الشرح

قوله : « حق توكله » أى : توكلاً حقيقيًا تعتمدون على الله عز وجل اعتمادًا كاملاً فى طلب رزقكم وفى غيره .

« لَرَزَقَكُم كما يرزُقُ الطَّير » الطَّير رزقها على الله عز وجل ؛ لأنها طيور ، ليس لها مالك ، فتطير فى الْجور وتغدو إلى أوكارها ، وتستجلب رزق الله عز وجل .

« تغدو خماصًا » الغدو : الذَّهاب فى أول النَّهار . وخماصًا : جائعة كما قال الله : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة : ٣] مخمصة : مجاعة .

« تغدو خماصًا » ليس فى بطونها شىء ، لكنها متوكِّلة على ربها عز وجل .

[٧٩/٦] صحيح : رواه الترمذى (٢٣٤٤) ؛ أحمد (١/ ٣٠) ابن ماجه (٤١٦٤) . وصححه الالبانى فى الصحيحة برقم (٣١٠) ، وفى صحيح ابن ماجه (٣٣٥٩) .

Marfat.com

« وتروح بطانًا » تروح ، أى : ترجع فى آخر النهار ؛ لأنَّ الرَّواح هو آخر النهار.

« بطانًا » أى : ممتلئة البطون من رزق الله عز وجل . ففى هذا دليل على مسائل :

أولاً : أنَّه ينبغى للإنسان أن يعتمد على الله حق الاعتماد.

ثانيًا : أنَّه ما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها حتى الطَّير فى جو السَّماء لا يمسكه فى جو السَّماء إلا الله ولا يرزقه إلا الله .

كل دابة فى الأرض من أصغر ما يكون كالذر ، أو أكبر ما يكون كالفيلة وأشباهها ، فإنَّ على الله رزقها كما قال الله : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود : ٦] ولقد ضلَّ ضلالاً مبينًا من أساء الظَّن بربِّه فقال : لا تكثروا الأولاد . تضَيِّقُ عليكم الأرزاق .

كذبوا ورب العرش ، فإذا أكثروا من الأولاد أكثر الله رزقهم ؛ لأنه ما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها .

فرزق أولادك وأطفالك على الله عز وجل ، هو الذى يفتح لك أبواب الرزق من أجل أن تنفق عليهم ، لكن أكثر الناس عندهم سوء ظن بالله ويعتمدون على الأمور المادية المنظورة ولا ينظرون إلى المدَى البعيد وإلى قدرة الله وأنَّه هو الذى يرزق ولو كثر الأولاد.

أكثر من الأولاد تكثر لك الأرزاق ، هذا هو الصَّحيح .

وفى هذا : دليل على أنَّ الإنسان إذا توكل على الله حق التَّوكل فليفعل الأسباب .

وضلَّ من قال : لا أفعل السَّبب وأنا متوكِّل ، فهذا غير صحيح .

المتوكل هو الذى يفعل الأسباب معتمدًا على الله عز وجل ، ولهذا قال : « كما يرزُق الطير ، تغدو خماصًا » تذهب لتطلب الرزق ، ليست الطيور فى أوركارها ، ولكنها تغدو وتطلب الرزق .

فأنت إذا توكلت على الله حق التوكل فلابد أن تفعل الأسباب التى شرعها الله لك من طلب الرِّزق من وجه حلال بالزِّراعة بالتِّجارة بالعمالة بأى شيء من أسباب الرِّزق .

اطلب الرِّزق معتمدًا على الله ييسر الله لك الرِّزق .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الطُّيور وغيرها من مخلوقات الله تعرف الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

أى : ما من شىء إلا يسبح بحمد الله ﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

Marfat.com

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج : ١٨] .

فالطُّيور تعرف خالقَها عزَّ وجل ، وتطير تطلب الرِّزق بما جبلها الله عليه من الفطرة التى تهتدى بها إلى مصالحها وتغدو إلى أوكارها فى آخر النَّهار بطونها ملأى وهكذا دواليك فى كل يوم والله عز وجل يرزقها وييُسِّر لها الرِّزق .

وانظر إلى حكمة الله كيف تغدو هذه الطُّيور إلى محلات بعيدة وتهتدى بالرُّجوع إلى أماكنها لا تخطئها ؛ لأنَّ الله أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، والله الموفق .

***

[٧/ ٨٠] السَّابعُ : عَنْ أبى عمارَةَ البَرَاء بْن عَازب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **يَا فُلانُ ، إذَا أوَيْتَ إلى فراشك فَقُل : اللَّهُمَّ أسْلَمْتُ نَفْسى إلَيْكَ ، وَوَجَّهْتُ وَجْهى إلَيْكَ ، وَفَوَّضْتُ أمْرى إلَيْكَ ، وَألْجَأتُ ظَهْرى إلَيْكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إلَيْكَ ، لا مَلْجَأ وَلا مَنْجَى منْكَ إلا إلَيْكَ ، آمَنْتُ بكتَابكَ الذى أنْزَلْتَ ، وَنَبيِّكَ الذى أرْسَلْتَ ، فَإنَّكَ إنْ متَّ منْ لَيْلَتكَ متَّ عَلى الْفطْرَة ، وَإنْ أصْبَحْتَ أصَبْتَ خَيْراً** » متفق عليه .

وفى رواية الصحيحين عَن البَرَاء قال : قال لى رسول الله ﷺ : « **إذَا أتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأ وُضُوءَكَ للصَّلاة ، ثُمَّ اضْطَجعْ عَلَى شقِّكَ الأيْمَنِ وَقلْ** » وَذَكَرَ نَحْوَهُ، ثُمَّ قال : « **وَاجعَلْهُنَّ آخرَ مَا تَقُولُ** » .

الشرح

ثم ذكر المؤلف فى باب اليقين والتوكل حديث البراء بن عازب ﷺ ، حيث أوصاهُ النَّبى - ﷺ - إذا أوى إلى فراشه أن يقول عند نومه هذا الذِّكر الَّذى يتضمَّن تفويض الإنسان أمره إلى ربِّه وأنَّه معتمد على الله فى ظاهره وباطنه مفوض أمره إليه .

وفيه أنَّ النَّبى - ﷺ - أمره أن يضطجع على الجنب الأيمن ؛ لأن ذلك هو الأفضل، وقد ذكر الأطباء أن النوم على الجنب الأيمن أفضل للبدن وأصحُّ من النوم على الجنب الأيسر.

وذكر أيضًا بعض أرباب السُّلوك والاستقامة أنَّه أقرب فى استيقاظ الإنسان ؛ لأنَّ بالنَّوم

[٧/ ٨٠] صحيح : رواه البخارى (٦٣١٣) ، ومسلم (٢٧١٠) .

Marfat.com

على الْجنب الأيسـر ينامُ القلب ، ولا يستيـقظ بسرعة ، بخلاف النَّـوم على الْجنب الأيمن فإنه يبقى فالقلب متعلقًا ، ويكون أقل عمقًا فى منامه فيستيقظ بسرعة .

وفى هذا الحديث : أن النبى ـ ﷺ ـ أمره أن يجعلهن آخـر ما يقول مع أن هناك ذكرًا بل أذكارًا عند النَّوم تقال غير هذا .

مثلاً التَّـسبيح والتَّحـميد والتَّكبـير فإنَّه ينبغـى للإنسان إذا نام على فراشـه أن يقول : سبحان الله ثلاثًا وثلاثين ، والْحمد لله ثلاثًا وثلاثين ، والله أكبر أربعًا وثلاثين (١) .

هذا من الذكـر ، لكن حديـث البراء يدلُّ علـى أن ما أوصاه الرَّسـول ـ ﷺ ـ به أن يجعلهن آخر ما يقول .

وقد أعاد البراء بن عازب هذا الحديث على النبـى ـ ﷺ ـ ليتقنه فقال : آمنتُ بكتابك الَّذى أنْزلْتَ ورسُولك الذى أرسـلت فردَّ عليه النبى عليه الصـلاة والسلام ، وقال : قل : «ونبِيِّكَ الَّذى أرْسَلْتَ » ولا تقل : « ورسولك الذى أرسلت » .

قال أهل العلم : وذلك لأنَّ الـرَّسول يكون من البشر ويكون من الملائـكة ، كما قال الله عن جبريل : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[التكوير:١٩، ٢٠]. وأما النَّبى فلا يكون إلا من البشر .

فإذا قال : ورسولك الذى أرسلت ، فإنَّ اللفـظ صالح لأنَّ يكون الْمراد به جبريل ، لكن إذا قال : « ونبيِّك الذى أرسَلت » اختص بمحمد ـ ﷺ ـ هذا من وجه .

ومن وجه آخـر : أنَّه إذا قال : ورسولك الـذى أرسلت ، فإن دلالة هذا اللـفظ على النُّبوة من باب دلالة اللُّزوم ، وأما إذا قال : نبيك فإنه يدلُّ على النبوة دلالة مطابقة ومعلوم أنَّ دلالة الْمطابقة أقوى من دلالة اللزوم .

الشَّاهد من هذا الحديث قوله : « **وفوضت أمرى إليك** » وقوله : « **لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك** » فإن التوكل تفويض الإنسان أمره إلى ربِّه وأنه لا يلجأ ولا يطلب منجى من الله إلا إلى الله عز وجل لأنَّه إذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مَـردَّ له فإذا أراد الله بالإنسان شيئًا فلا مردَّ له إلا الله عز وجل بالرُّجوع إليه .

فينبغى للإنسان إذا أراد النَّوم أن ينام على جـنبه الأيمن وأن يقول هذا الذِّكر وأن يجعله آخر ما يقول . والله الموفق .

***

(١) صحيح : رواه البخارى (٥٣٦١) مسلم (٢٧٢٧) .

Marfat.com

[٨١/٨] الثَّامِنُ : عَن أبى بَكْرٍ الصديق ﷺ عبد الـله بن عثمان بْنِ عـامر ابن عَمْرِو بن كَعْب بْنِ سَـعْد بن تَيْم بْن مُرَّةَ بْن كَعْب بن لُؤى بْن غَالب الـقُرَشى التَّيمى ﷺ وَهُوَ وَأبُوه وَأمُّهُ صَـحَابَةٌ ، ﷺ قال : نَظَرْتُ إلَـى أقْدَامِ الْمشْركِـين وَنَحْنُ فى الْغَار وَهُـمْ عَلَى رُؤُوسنَا فقلـتُ : يا رسول اللّه ، لَوْ أنَّ أحَـدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَـيْه لأبْصَرَنَا ، فقالَ : « مَا ظَنُّكَ يا أبا بَكْر باثْنَيْنِ اللّهُ ثَالثُهُمَا » متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « ما ظَنُّك يَا أبَا بَكْرٍ باثنين الله ثَالِثُهُمَا » أى : ما ظنُّك هل أحد يقدر عليهما أو ينالهما بسوء !

وهذه القصة كـانت حينما هاجر النبى- ﷺ - من مكـة إلى المدينة ، وذلك أن رسولَ الله- ﷺ - لَمَّـا جهر بالـدعوة ودعا الـناس وتبعـوه وقام الْمشركون وقـاموا ضد دعـوته وضايقوه وآذوه بالقول وبالفعل فأذن الله له بالهجرة من مكة إلى الْمدينة فهاجر عليه الصلاة والسلام على رأس ثلاث عشرة سنة من مبعثـه ، هاجر من مكة إلى المدينة ولم يصحبه إلا أبُو بكر ﷺ ، والدَّليل والخادم .

ولَمَّا سمع الْمشركـون بخروجه من مكة جعلوا لِمن جاء به مائة بـعيرُ ولِمَن جاء بأبى بكر مائة بعيـر وصار الناس يطلبون الرَّجلين فى الْجبـال ، وفى الأودية، وفى الْمغارات ، وفى كل مكان ، حتى وقفوا على الغار الذى فيه النبى- ﷺ - ، وأبو بكر ، وهو غار ثور الذى اختفيا فيه ثلاث ليال حتى يبرد عنهما الطلب .

فقال أبو بـكر : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم إلـى قدميه لأبصرنا ؛ لأنـنا في الغار تحته ، فقـال : « ما ظنُّك باثنين الله ثالثهمـا » وفى كتاب الله : ﴿لا تحزنْ إنَّ اللّه معنا﴾ [التوبة : ٤٠] فيكون قال الأمرين كلاهما .

فقوله : « ما ظنُّك باثنين الله ثالثُهما » هل أحد يقدر عليهما ، أو غير ذلك ؟

جـ - والجواب لا أحد يقدر لأنَّه لا مانع لما أعطَى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا مُذلَ لمن أعزَّ ، ولا مُعزَ لمَن أذلَّ : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ من تَشاءُ وتَنزِعُ الْمُلْكَ ممن تَشاءُ وتُعزُ مَن تَشاءُ وتُذلُّ من تَشاءُ بِيدِكَ الْخيرُ إنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

وفى هذه القـصة : دليل علـى كمال توكل الـنبى- ﷺ - على ربه وأنَّه مـعتمد عـليه ومفوض إليه أمره وهذا هو الشَّاهد من وضع هذا الحديث فى باب اليقين والتوكل .

[٨١/٨] صحيح : رواه البخارى (٣٦٥٣) ، ومسلم (٢٣٨١) .

Marfat.com

وفيه : دليل على أنَّ قصة نسج العنكبوت غير صحيحة ، فما يوجد فى بعض التَّواريخ أن العنكبوت نسجت على باب الغار وأنَّه نبت فيه شجرة وأنَّه كان على غصنها حمامة ، وأن الْمُشركين لَمَّا جاءوا إلى الغار قالوا : هذا ليس فيه أحد فهذه الحمامة على غُصن شجرة على بابه ، وهذه العنكبوت قد عشَّشَت على بابه (١) ، كل هذا لا صحَّة له ؛ لأن الذى منع الْمشركين من رؤية النبى - ﷺ - وصاحبه أبى بكر ليست أمورًا حسِّية تكون لهما ولغيرهما ، بل هى أمور معنوية ، وآية من آيات الله عز وجل .

حجب الله أبصارَ الْمشركين عن رؤية الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام وصاحبه أبى بكر، والله الموفق .

* * *

[٨٢/٩] التَّاسعُ : عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أمّ سَلَمَةَ ، وَاسْمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أبى أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ الْمَخْزُومِيَّةُ ، رضي الله عنها أن النبى ﷺ كانَ إذَا خَرَجَ مِنْ بيته قال : « بِسْمِ اللَّه ، **تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّه ، اللَّهُمَّ إنِّى أعُوذُ بِكَ أنْ أضِلَّ أوْ أُضَلَّ ، أوْ أزِلَّ أوْ أُزَلَّ ، أوْ أظْلِمَ أوْ أُظْلَمَ، أوْ أجْهَلَ أوْ يُجْهَلَ عَلَىَّ** » حديثٌ صَحِيحٌ رواه أبو داود ، والتِّرمِذى وَغَيْرُهُمَا بِأسَانِيدَ صَحِيحةٍ . قال التِرْمذِىُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ ، وهذا لفظ أبى داود .

الشرح

الشَّاهد من هذا الْحديث قوله : « **بِسْمِ الله ، تَوَكَّلْتُ عَلَى الله** » فإنَّ فى هذا دليلاً على أنَّ الإنسان ينبغى له إذا خرج من بيته أن يقول هذا الذكر الذى منه التَّوكل كل الله، والاعتصام به ؛ لأن الإنسان إذا خرج من بيته فهو عرضة لأن يصيبه شىء أو يعتدى عليه حيوان من عقرب أو حيَّة وما أشبهه ، فيقول : « **آمنتُ بالله ، اعتَصمتُ بالله تَوكَّلتُ على الله** » .

قوله : « **اللَّهمَّ إنِّى أعوذُ بك أن أضِلَّ** » أى : أضل فى نفسى .

قوله : « **أو أُضَل** » أى : يضلنى أحد « **أو أزل** » من الزلل وهو الخطأ « **أو أُزَل** » أى : أحد يتوصل لفعل الْخطأ .

---

(١) انظر المسند للإمام أحمد (١/ ٣٤٨) وهذه كلها روايات ضعيفة .

[٨٢/٩] صحيح : رواه أبو داود (٥٠٩٤) ، والترمذى (٣٤٢٧) وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٣١٣٤) .

Marfat.com

« **أو أظلم** » أى : أظلم غيرى « **أو أُظلَم** » يظلمنى غيرى .

« **أو أجهل** » أسفه « **أو يُجهل على** » يسفه علىَّ أحد ويعتدى علىَّ أحد .

فهـذا الذكر ينبـغى أن يقوله الإنسـان إذا خرج من بيتـه لِما فـيه من اللـجوء إلى الله سبحانه والاعتصام به . والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[١٠/ ٨٣] العَاشر : عَن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ قَالَ ــ يَعْنِي إذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِه ــ : بِسْم اللّه ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّـه ، وَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللّه يقالُ لَهُ : هُدِيتَ وَكُـفِيتَ وَوُقِيتَ ، وَتَنَحَّى عَنْـهُ الشَّيْطَانُ** » رواه أبو داود والترمذى ، والنسائى وغيرهم . وقال الترمذى : حديثٌ حسنٌ ، زاد أبُو داود : « **فيقول ــ يَعْنِي الشَّيْطَانَ ــ لِشَيْطَانٍ آخَرَ : كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ ؟** » .

[١١/ ٨٤] وَعَنْ أنَسٍ ﷺ قال : كَانَ أخَـوان عَلَى عَهْد الـنبى ﷺ ، وكَانَ أحَدُهُما يَأتِي النبِيَّ ﷺ ، وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ ، فَشَـكَا الْمُحْتَرِفُ أخَاهُ للنبى ﷺ فقال : «**لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ** » رواه الترمذىُّ بإسنادٍ صحيح على شرط مسلمٍ .

« **يَحْتَرِفُ** » : يكتَسِبُ وَيَتَسَبَّبُ .

[١٠/ ٨٣] صحـيح :رواه أبو داود (٥٠٩٥) ، والترمـذى (٣٤٢٦) . وصححـه الالبانى فى صـحيح الترمذى (٢٧٢٤) .

[١١/ ٨٤] صحـيح :رواه التـرمذى (٢٣٤٥) . قال الألبـانى فى المشـكاة (٥٣٠٨) : إسناده جيـد ، وصححه فى صحيح الترمذى (١٩١٢) .

Marfat.com

٨ - باب الاستقامة

قال الله تعالى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ (هود: ١١٢) ، وقالَ تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٠ : ٣٢) ، وقالَ تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٣ : ١٤) .

الشرح

الاستقامة هي: أن يَثْبت الإنسان على شريعة الله سبحانه وتعالى ، كما أمر الله ويتقدمها الإخلاص لله عز وجل .

ثم ذكر المؤلف عدَّة آيات في هذه ، فذكر قول الله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢] .

الخطاب هنا للنبي - ﷺ - ، والخطاب المُوَجَّه للرَّسول - ﷺ - يكون له ولأمته، إلا إذا قام دليل على أنَّه خاص به فإنَّه يختص به .

أما إذا لم يكن الدَّليل خاصًا به ، فإنه له وللأمة .

فمما دل الدليل على أنَّه خاص به قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ [الشرح : ١ ، ٣] فإن هذا خاص بالنَّبي - ﷺ - .

ومثل قوله : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر : ٨٧] . هذا أيضًا خاص بالرسول - ﷺ - .

وإذا لم يقم الدَّليل على أن الخطاب للخصوصية فهو له ولأمته ، وعلى هذه القاعدة يكون قوله : ﴿فاستقم كما أمرت﴾ [هود : ١١٢] عامًا له ولأُمَّته .

كل واحد يجب عليه أن يستقيم كما أمر فلا يبدل في دين الله ، ولا يزيد فيه ، ولا ينقص ، ولهذا قال في آية أخرى : ﴿واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم﴾ [الشورى: ١٥] .

وقال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [فصلت : ٣٠ ، ٣١] .

﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ خالقنا ومالكنا ومدبِّر أمورنا ، فنحن نخلص له . ﴿ ثم استقاموا ﴾ على

Marfat.com

ذلك أى : على قولهم : ربُّنا الله فقاموا بشريعة الله .

هؤلاء الذين اتصفوا بهذين الوصفين : ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ ملكًا بعد ملك ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ يعنى أنَّ الْملائكة تَتَنَزَّل عليهم بأمر الله فى كل موطن مخوف ولا سيما عند الْموت يقولون لهم : ﴿أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾ لا تخافوا فيما تستقبلون من أموركم ، ولا تحزنوا على ما مضى من أموركم .

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ والبشرى هى الإخبار بما يُسرُّ ولا شك أن الإنسان يسره أن يكون من أهل الجنة، أسأل الله أن يجعلنى وإياكم منهم .

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ لأنَّ كل من قال : ربِّى الله واستقام على دين الله فإنَّه من أهل الْجنة .

يقولون لهم أيضًا : ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ فالْملائكة أولياء للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فى الْحياة الدنيا تسددهم ، وتساعدهم ، وتعينهم ، وكذلك فى الآخرة تتلقاهم الْملائكة يوم البعث والْحساب : ﴿هَذَا يومكم الذى كنتم توعدون﴾ فيبشرونهم بالخير فى مقام الخوف والشدة .

قال الله عز وجل : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أى فى الآخرة ﴿مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾ وذلك فى نعيم الْجنة ؛ لأنَّ الْجنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلَذُّ الأعينُ .

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ أى : تطلبون ، بل لهم فوق ذلك ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق : ٣٥] .لهم زيادة على ما يدعونه ويطلبونه ويتمنَّونه .

﴿نزلا من غفور رحيم﴾ يعنى أنَّ الْجنة نُزُلٌ لهم وضيافة من غفور رحيم .

﴿غفور﴾ غفر لهم سيئاتهم رحيم بهم رفع لهم درجاتهم هذا جزاء الذين يقولون ربنا الله ثم يستقيمون .

وفى هذا : دليل على أهمية الاستقامة على دين الله بأن يكون الإنسان ثابتًا لا يزيد ولا ينقص ولا يبدل ولا يغير .

فأما من غلا فى دين الله أو جفا عنه أو بدل فإنه لم يكن مستقيمًا على شريعة الله عز وجل ، والاستقامة لابُدَّ لها من الاعتدال فى كل شىء حتى يكون الإنسان مستقيمًا .

* * *

Marfat.com

[١ / ٨٥] وعَنْ أبى عَـمْرو ، وقيل : أبى عَـمْرَةَ سفْـيَانَ بنِ عبـد الله رضي الله عنه قـال : قُـلْتُ : يا رسول الله ، قُلْ لِـى فى الإِسْلامِ قَوْلاً لا أسْأل عَنْه أحَداً غَيْرَكَ . قال: « قُلْ : آمَنْتُ باللهِ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ » رواه مسلم .

الشرح

قوله : « قل لى فى الإسلام قَولا لا أسْأَلُ عَنْهُ أحَدًا غَيْرَكَ » أى : قل لى قولاً لا أسأل عنه أحدًا غيرَك فيكونَ فصلاً وحاسِمًا ولا يحتاج إلى سؤال أحد ، فقال له النبىّ ﷺ - : « قُلْ آمَنْتُ بالله ثُمَّ اسْتَقِمْ » .

فقوله : « قُلْ آمَنْتُ » ليس المراد بذلـك مجرد القول باللِّـسـان ، فإن من الناس من يقول آمنت بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين .

ولكن المراد بذلك قول القلب واللِّسان أيضًا .

أى : أن يقول بلسانه بعد أن يُقِرَّ ذلك فى قلبه ، ويعتقده اعتقادًا جازمًا لا شك فيه . لأنَّه لا يكفى الإيمان بالقلب . ولا الإيمان باللسان لابد من الإيمان بهما جميعًا .

ولهذا كان النبى عليه الصلاة والـسلام يقول وهو يدعو النَّاس إلى الإسلام : « يا أيها الناس ، قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا » فقال : « قولوا » أى : بألسنتكم . كما أنه لابد من القول بالقلب .

وقوله : « آمـنت بالله » يشمـل الإيمان بوجود الله عـز وجل ، وبربُوبيتـه وبأسمـائه وصفاته وبأحكامـه وبأخباره وكل ما يأتى من قبله عز وجـل ، تؤمن به ، فإذا آمنت بذلك فاستقم على دين الله ، ولا تَحِدْ عنه ، لا يمينًا ولا شمالاً ، لا تقصر ولا تزد .

فاستقم على شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وذلك بالإخلاص لله عز وجل والمُتابعة لرسوله.

استقم على الصَّلاة وعلى الزكاة ، والصِّيام ، والحج ، وعلى جميع الشَّرائع .

وقوله : « قُلْ آمَنْتُ بِالله ثُمَّ » دليل على أنَّ الاستقـامة لا تكون إلا بعد الإيمان ، وأنَّ من شرط الأعمال الصالحة أى : من شرط صحتها وقبولها أن تكون مبنية على الإيمان .

فلو أن الإنـسـان عـمل بظاهـره علـى مـا ينبـغى ، ولكن بـاطنه خـراب ، وفى شك واضطراب ، أو فى إنكار وتكذيب ، فإنَّ ذلك لا ينفعـه ، ولهذا اتفق العلماء رحمهم الله على أن من شروط صـحة العبادة وقبولهـا أن يكون الإنسان مُؤمنًا بالله ، أى : معـترفًا به

[١/٨٥] صحيح :
رواه مسلم (٣٨) .

Marfat.com

وبجميع ما جاء من قبله تبارك وتعالى .

ويُستفاد من هذا الحديث : أنَّه ينبغى للإنسان إذا قام بعمل أن يَشْعُر أنَّه قام به لله وأنَّه يقوم به بالله وأنَّـه يقوم به فى الله ؛ لأنَّه لا يستـقيم على دين الله إلا بعـد الإيمان بالله عزَّ وجلَّ .

فيشعـر أنَّه يقوم به لله أى : مُخلصًا وبالله مستـعينًا ، وفى الله متبعًـا لشرْعه ، وهذه مستفادة من قـوله تبارك وتعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٥ ، ٦] . فالأول قيام لله ، والثانى قيام فـيه ، أى : فى شرعه ، ولهذا نقول : إن المراد بالصِّـراط المستـقيم فى الآية الكريمـة هو شرع الله عز وجل الموصـل إليه . والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[٨٦/٢] وَعَنْ أبى هُرَيْرَةَ ﷺ : قال رسول اللهﷺ : « **قاربُوا وَسَدِّدُوا ، واعْلَمُوا أنَّه لَنْ يَنْجُوَ أحَدٌ منكُمْ بعَمَلِه** » قَالُوا : ولا أنتَ يَا رَسُـولَ اللَّهِ ؟ قال : «**وَلا أنا ، إلا أنْ يَتَغَمَّدَنى اللَّه برَحْمَة منه وَفَضْل** » رواه مسلم .

وَ « الْمُقَـارَبَةُ » : الْقَصْدُ الَّذى لا غُلُـوَّ فيهِ وَلا تَقْصِـيرَ . وَ « السَّدَادُ » : الاسْتِـقَامَةُ والإصابَةُ ، وَ « يَتَغَمَّدَنى » : يُلْبِسُنى وَيَسْتُرنى .

قالَ الْعُلَمَـاءُ : مَعْنَى الاسْتِقَامَـة : لُزوم طَاعَةِ اللَّه تَعَالَى ؛ قَـالُوا : وَهِىَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِم ، وَهِىَ نِظَامُ الأمُورِ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيق .

الشرح

هذا الحديث يَدُلُّ على أن الاستقامة على حَسَب الاستطاعة ، وهو قول النبى- ﷺ - « **قَارِبُوا وسَدِّدُوا** » أى : قاربوا ما أُمرتم به واحرصوا على أن تقربوا منه بقدر المستطاع .

وقوله : « سَدِّدُوا » أى : سددوا على الإصابة أى : احْرِصُوا على أن تكون أعمالُكم مُصيبة للحـق بقدر المُسْـتطاع ، ولك أن الإنسان مـهما بلـغ من التقوى ، فـإنه لابد أن يخطىء كـما جاء فى الـحديث عن النبـى- ﷺ - أنه قال : « **كلُّ بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون** »(١) .وقال عليه الـصلاة والسلام : « **لَوْ لَمْ تُـذْنبُوا لَذَهَبَ الله بِـكُمْ ثُم**

[٨٦/٢] صحيح : رواه مسلم (٢٨١٦) .

(١) صحيح : رواه الترمذى (٢٤٩٩) أحمد (١٩٨/٢) ابن ماجه (٤٢٥١) صحيح الجامع (٤٥١٥) .

Marfat.com

لَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فيستغفرون الله فيغفر لهم »(١) .

فالإنسان مأمور أن يُقارب ويُسدد بقدر ما يستطيع .

ثم قال : « واعْلَمُوا أنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ أحَدٌ مِنْكُمْ بِعَمَلِه » أي : لن ينجو من النَّار بعمله . وذلك لأنَّ العمل لا يبلغ ما يجب لله عز وجل من الشُّكر وما يجب على عباده من الحقوق، ولكن يتغمد سبحانه وتعالى العبد برحمته فيغفر له .

فلما قال الرسول هذا ، قالوا له : ولا أنْتَ ؟! قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه » .

فدلَّ ذلك على أن الإنسان مهما بلغ من المرتبة والولاية فإنه لن ينجو بعمله حتى النبي عليه الصَّلاة والسَّلام.

لولا أن الله منَّ عليه بأن غفر له ذنبه ما تقدم منه ، وما تأخر ، ما أنجاه عمله ، فإن قال قائل : هناك نُصُوص من الكتاب والسَّنة تدلُّ على أن العمل الصَّالح ينجي من النَّار ويُدخل الْجنة مثل قوله : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل : ٩٧] فكيف يجمع بين هذا وبين الْحديث الذى مرَّ؟!

والجواب عن ذلك أن يقال : يجمع بينهما بأن المنفى دخول الإنسان الْجنة بالعمل فى الْمقابلة ، أمَّا الْمُثبت فهو أن العمل سبب وليس عوضًا .

فالعمل لا شك أنَّه سبب لدخول الْجنَّة والنَّجاة من النَّار ، لكن ليس هو العوض ، وليس وحده الذى يدخل به الإنسان الْجنة ، ولكن فضل الله ورحمته هما السَّبب فى دخول الْجنة والنجاة من النار .

وفى هذا الحديث من الفوائد : أن الإنسان لا يعجب بعمله مهما كان . عملك قليل بالنِّسبة لحق الله عليك .

وفيه : أنَّه ينبغى على الإنسان أن يكثر من ذكر الله دائمًا ، ومن السُّؤال بأن يتغمَّده الله برحمته .

قل دائمًا : « اللَّهم تغمدنى برحمة منك وفضل » لأن عملك فى مرضاة الله لا يكون إلا برحمة الله عز وجل .

---

(١) صحيح : رواه مسلم (٢٧٤٩) .

Marfat.com

وفيه : دليلٌ على حرص الصَّحابة رضي الله عنهم على العلم ، ولهذا استفصلوا ، هل هذا العموم شاملٌ له أم لا ؟ فبين لهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنَّه شامل له .

ومن تدبر أحوال الصحابة وجد أنَّهم أحْرص الناس على العلم ، وأنهم لا يتركون شيئًا يحتاجون إليه فى أمُور دينهم ودُنياهم إلا ابتدروه . والله الْموفق .

* * *

Marfat.com

٩ - باب في التفكر في عظيم مخلوقات الله تعالى وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (سبأ : ٤٦) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ ﴾ الآيات (آل عمران : ١٩٠، ١٩١) . وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ (الغاشية : ١٧ : ٢١) وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ الآية (القتال : ١٠) والآيات في الباب كثيرةٌ.

وَمِنَ الأحاديث : الحَدِيثُ السَّابق : « الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ » .

الشرح

التَّفكُّر هو أن الإنسان يعمل فكره في الأمر حتى يصل فيه إلى نتيجة ، وقد أمر الله تعالى به ، وحضَّ عليه في كتابه لِما يتوصل إليه الإنسان به من المطالب العالية والإيمان واليقين .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أي : قل يا محمد للناس جميعًا : ما أعظكُمْ إلا بواحدة ، أي : ما أقدم لكم موعظة إلا بواحدة فقط ، إذا قمتم بها أدركتم المطلوب ونجوتم من المرهوب ، وهي : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ [سبأ : ٤٦] .

﴿ تَقُومُوا لِلَّهِ ﴾ مخلصين له فتقومون بطاعة الله عز وجل على الوجه الذي أمرتم به مخلصين له ثم بعد ذلك تتفكَّروا ، فإذا فعلتم ذلك فهذا موعظة ، وأيُّ مَوْعظة .

وفي هذه الآية إشارة إلى أنَّه ينبغي الإنسان إذا قام لله بعمل أن يمكِّر ماذا فعل في هذا العمل : هل قام به على الوَجْه المطلوب ، وهل قصَّر ، وهل زاد ، وماذا حصَل له من هذا العمل من طهارة القلب ، وزكاء النَّفس وغير ذلك ؟ .

لا تكن كالذي يُؤدِّي أعماله الصَّالحة وكأنَّها عادات يفعلها كل يوم ، بل تُفكِّر ماذا حصل لك من هذا العبادة ، وماذا أثَّرت على قلبك وعلى استقامتك .

Marfat.com

ولنضرب لهذا مثلاً بالصَّلاة ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقال : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت : ٤٥]. فلنفكر هل نحن إذا صلَّينا زِدْنا طاقة وقوة ونشاطًا فى الأعمال الصَّالِحة حتى تكون الصَّلاة مُعِينَةً لنا .

لننظر .

الواقع أن هذا لا يكون إلاَّ نادرًا باعتبار الإنسان نفسه ونادرًا باعتبار أفراد الناس .

يذكر عن النَّبى عليه الصلاة والسلام : « أنَّه كان إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إلى الصَّلاة » (١) أى : إذا أهمَّه وأغمه فَزِعَ إلى الصَّلاة .

كذلك قال تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت : ٤٥] فانظر فى صلاتك ، هل أنت إذا صلَّيت وجدت فى نفسك كراهة للفحشاء والْمنكر والْمعاصى أو أن الصَّلاة لا تفيدك فى هذا ؟.

إذا عرفت هذه الأمور عرفت نتائج الأعمال الصَّالِحة وكنت مُتَّعِظًا بما وَعَظَك به النَّبى - ﷺ - .

ومثال آخر فى الزكاة وهى الْمال الواجب فى الأموال الزَّكوية يصرفه الإنسان فى الْجهات التى أمر الله بها ، وقد بيَّن الله فوائدها ، وقد قال الله لرسوله - ﷺ - : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم﴾ [التوبة : ١٠٣] فإذا أدَّيتَ الزَّكاة فانظر هل طَهَّرَتْكَ من الأخلاق الرَّذيلة والذُّنوب، وهل زكَّت مَالك ؟

كثير من الناس يُؤدِّى الزَّكاة وكأنها غُرْمٌ يُؤدِّيه وهو كَارِه لا يَشْعر بأنها تطهره ، ولا بأنها تُزَكِّى نفسه . وعلى هذا بقية الأعمال .

فهذه موعظة عظيمة إذا اتَّعَظ الإنسان بها نَفَعَتْهُ وصَلَحت أحْواله نَسأل الله أن يُصلِحَ لنا الأعمَال والأحْوال .

ثم ذكر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾[آل عمران : ١٩٠] .

هذه الآية هى أولى الآيات العشر التى كان النبى - ﷺ - يقرؤها كلما استيقظ لصلاة الليل .

فينبغى للإنسان إذا استيقظ لصلاة اللَّيل أن يقرأ من هذه الآية إلى آخر سورة آل عمران العشر الأخيرة .

Marfat.com

قوله : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من حيث الحجم والكبر والعظمة وغير ذلك مما أودعَ الله فيهما فى هذا الخلق آيات .

ففى النجوم آية من آيات الله ، وفى الشَّمس آية من آيات الله وكذا القمر ، وكذا الأشجار والبحار والأنهار ، وفى كل ما خلق الله فى السَّموات والأرض آيات عظيمة تَدُلُّ على كمال وحدانيته جلَّ وعلا وعلى كمال قدرته ، وعلى كمال رَحْمَته ، وعلى كمال حِكْمته .

وجمع السَّموات وأفرد الأرض ، لأنَّ السَّموات سَبْع كما ذكر الله فى عدَّة آيات ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ ﴾ [الطلاق : ١٢] ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون : ٨٦] .

أما الأرض فإنَّ الله لم يذكرها فى القرآن إلاَّ مُفْردة ، لأنَّ الْمراد بها الْجنس الشَّامل لجميع الأرضين وقد أشار الله في سورة الطلاق إلى أن الأرضين سبْع فقال : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق : ١٢] . أى : فى العدد ليس مثلهن فى الْخلقة والعظم ، بل السَّموات أعظم من الأرض بكثير لكنهن مثل السَّموات فى العدد وقد جاءت السنة صريحة فى ذلك مثل قول النبى علية الصلاة والسلام : « من اقْتَطع شِبْرًا من الأرض ظُلْمًا طُوِّقَه يوْمَ القيامة مِنْ سَبْع أرْضين»(١) .

﴿وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يكون من وُجوه متعددة :

أولاً : من جهة أنَّ اللَّيل مُظْلم والنَّهار مُضىء ، كما قال الله : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢].

ثانيًا : اختلافهما فى الطُّول والقصر أحيانًا يَطُول اللَّيل وأحْيانًا يَطول النَّهار وأحيانًا يَتَساويان ، كما قال تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج : ٦١] . أى يدخل هذا فى هذا مرة فيأخذ منه ،وهذا فى هذا مرة ، فيأخذ منه،هذا من اختلافهما .

ثالثًا : اختلافهما فى الْحَرّ والبُرودة تارة يكون باردًا وتارة حارًا .

رابعًا : الْخصب والْجَدْب تارة تكون الدُّنيا جدبًا وقَحْطًا وسنين وتارة تكون خصبة ورَبِيعًا ورَخاءً .

خامسًا : اختلافهما فى الْحرب والسِّلْم تارة تكون حَرْبًا ، وتارة تكون سلمًا وتارة تكون عزًا وتارة تكون ذِلّة كما قال الله : ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران :

(١) البخارى (٣١٩٨) مسلم (١٦١٠) .

Marfat.com

١٤٠] .

ومن تأمل اختلاف اللَّيل والنَّهار وَجَدَ فيهما من آيات الله عز وجل ما يبّهر العُقُول .

وقوله : ﴿لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ أى : علامات واضحات على وحدانية الله وكمال قدرته وعزته وعلمة ورحمته وغير ذلك من آياته وقوله : ﴿ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ أى : لأصحاب الألباب : الألباب جمع لُب وهو العقل وأولو الألباب أصحاب العقول . وذلك لأن العقل لب والإنسان بلا عقل قُشور بلا لب فالأصل فى الإنسان هو العقل ، فلهذا سمى لُبًا .

وأما إنسان بلا عقل فإنَّه قُشور .

لكن ما المراد بالعقل ؟ هل المراد به الذَّكاء ؟

جـ - لا . الذَّكاء شىء والعقل شىء آخر ، رُبَّ ذَكِى نَابغ فى ذَكَائه ، لكن مجنون فى تصرفاته ، فالعقل هو ما يَعْقل صاحبه عن سُوء التَّصرف هذا العقل وإنَ لم يكن ذكيًا ، فإذا منّ الله على الإنسان بالذَّكاء والعقل تمت عليه النِّعمة ، وقد يكون الإنسان ذكيًا وليس بعاقل والعكس .

جميع الكفار وإن كانوا أذكياء ، فإنَّهم ليسوا عُقَلاء كما قال الله : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال : ٢٢].

كل إنسان يتصرَّف تَصرُّفًا سيئًا فليس بعاقل فأولو الألباب هم أولو العقول الذين يتفكَّرون فى خلق السَّموات والأرض ، وينظرون فى الآيات ويعتبرون بها ويَسْتَدلُّونَ بها على من هى آيات له هؤلاء هم أصحاب العُقول وهم أصْحاب الألباب فاحرص على أن تتفكَّر فى خلق السَّموات والأرض مع التَّدبر ، والله الموفق .

ثم قال تعالى فى وصف أولى الألباب : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ أى : يذكرون الله فى كل حال .

وذكر الله نوعان : نوع مطلق فى كل وقت وهو الذى يُشرع للإنسان دائمًا . أوْصَى النبى - ﷺ - رجلاً قال له : إنَّ شرَائع الإسلام كثرت علىَّ وانى كبير فأوصنى . فقال: « لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ الله » (١) .

وقالت عائشة ﵂ كان النبى ﷺ يذكر الله على كل أحيانه (٢) ، فَذِكْرُ الله هنا مُطلق

(١) الترمذى (٣٣٧٥) احمد (٤/١٨٨) ابن ماجه (٣٧٩٣) وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه .

(٢) مسلم (٣٧٣) الترمذى (٣٣٨٤) احمد (٦/١٥٣) .

Marfat.com

لا يتقيد بعدد ، بل هو إلى الإنسان على حسب نشاطه .

والنَّوع الثاني : ذكر مُقَيَّد بعدد أو فى حال من الأحوال وهو كثير : منها أذكار الصَّلوات فى الرُّكوع والسُّجود وبعد السَّلام وأذكار الدُّخول المنْزِل والخروج مِنْهُ وأذكار الركوب على الدَّابة وأشياء كثيرة شرعها الله لعباده من أجل أن يكونوا دائمًا على ذكرِهِ.

ومنها أذكار النَّوم والاستيقاظ فالمهم أن الله شَرَعَ لِعبادِهِ من الأذكار ما يجعلهم إذا حافظوا عليها يذكرون الله قيامًا وقُعُودًا وعلى جنوبهم .

واعلم أن الذُّكر أيضًا يكون على وجهين : ذكر تام وهو ما تواطأ عليه القلب واللِّسان .

وذكر ناقص وهو ما كان باللِّسان مع غفلة القلب وأكثر الناس - نسأل الله أن يُعَامِلَنا بِعَفْوِه - عندهم ذكر الله باللسان مع غفلة القلب فتجده يذكر الله وقلبه يذهب يمينًا وشمالاً بدكانه وسيَّارته وفى بَيْعِه وشرائه .

لكن هو مأجور على كل حال ، ولكن الذكر التَّام هو الذى يكون ذكرًا لله باللِّسان وبالقلب .

أحيانًا يكون الذُّكر بالقلب أنفع للإنسان من الذكر المجرد ، إذا تفكَّر الإنسان فى نفسه وقلبه فى آيات الله الكونية والشَّرعية بما يستطيع حصل على خير كثير .

قال : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقولون : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ [آل عمران : ١٩١] يتفكرون فى خلق السموات والأرض لماذا خلقت ، وكيف خلقت وما أشْبَه ذلك ، ثم يقولون بقلوبهم وألسنتهم : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ أى : لابد أن يكون لخلق السموات والأرض غاية محمودة يحمد الرب عليها عز وجل .

ليس خلق السَّموات والأرض باطلاً ليوجد النَّاس يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام ، لا بل هى مخلوقة لغرض عظيم .

قال الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] .

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ فالذين يظنون خلق السموات والأرض باطلاً هم أصحابِ النَّار ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] .

فكل من ظن أن الله خلق هذه الخليقة لتوجد وتَفْنَى فقط بدون أن يكون هناك غاية ومَرْجع فإنَّه من الذين كفروا .

Marfat.com

النَّاس لابد أن يَمُوتوا ولابد أن يُحاسبوا ولابد أن يبعثوا ولابد أن يئولوا إلى دارين لا ثالث لهما إمَّا الْجنة أو النار نسأل الله أن يجعلنا وإيَّاكم من أهل الْجنة وأن يُعيذَنا من النَّار .

وقوله : ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهًا لك أن تخلق هذه السَّموات والأرض باطلاً .

﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ فيتوسلون إلى الله عز وجل بما يثنون عليه من صفات الكمال أن يقيهم عذاب النَّار والوقاية من عذاب النار تكون بأمرين : الأمر الأول أن يَعْصِمك الله من الذُّنوب ؛ لأن الذنوب هى سبب دخول النَّار .

الثانى :أن يمن الله عليك بالتَّوبة والإقلاع ؛ لأنَّ الإنسان بشر لابد أن يعصى ولكن باب التَّوبة مفتوح ، قال الله : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر : ٥٣] .

مهما عملت من المعاصى إذا رجعت إلى الله وتُبْتَ تاب الله عليك ، ولكن إذا كانت الْمعصية تتعلَّق بآدمى فلابد من الاستبراء بحقه إمَا بوفائه أو باستحلاله منه ؛ لأنَّه حق آدمى لا يغفر بخلاف حق الله .

مع هذا لو فرض أنك لم تُدرك صاحبك ولم تعرفه أو لم تتمكن من وفائها ؛ لأنها درَاهم كثيرة وعلم الله من نِيَّتك أنك صَادِق فى توبتك فإن الله يتحمل عنك يوم القيامة ويرضى صاحبك .

وقوله : ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية : ١٧ ـ ٢٠] .

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ هذا من باب الحث على النظر فى هذه الأمور الأربعة ، أمَّا الإبل فتتأمل كيف خلقها الله على هذا الْجسم الكبير الْمتحمل لحمل الأثقال ، كما قال تعالى : ﴿وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ [النمل : ٧] .

هذه الإبل الكبيرة القوية ذَلَّلها الله لعباده حتى كان الصَّبى يقودها إلى ما يُريد مع أنها لو عتت ما استطاع الناس أن يدركوها ، ولهذا كان من الْمروع أن يقول الإنسان إذا استوى على ظهرها : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٣] . أى : مُطيقين لأنَّ قرين الإنسان من كان على مِثْله وعلى شَاكلته . أى : لسنا مُطيقين لها لولا أن سخرها الله عز وجل .

سخرها الله لعباده فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب فيتخذون من جلُودها بيوتًا ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين إلى غير ذلك من

Marfat.com

الآيات العظيمة التي تحملها هذه الإبل .

وقوله : ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ هذه السَّماء العظيمة رفعها الله عز وجل رفعًا عظيمًا باهرًا لا يستطيع أن يناله أحد من الخلق حتى الْجن على قوتهم يقولون : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٩] .

ويقول الله عز وجل : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء : ٣٢] .

هذه السَّمَوَات العظيمة كيف رفعها الله بغير عَمَد ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد : ٢] . أي : ترونها مرفوعة بغير عمد فاعتبروا بها .

وفي هذه السَّموات من آيات الله عز وجل الشَّيء الكثير فهي رُفعت هذا الرَّفع العظيم وفيما بينها وبين الأرض آيات عظيمة من الأفلاك والنُّجوم وغيرها .

وقوله : ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ هذه الْجبال الصُّم العظيمة الكبيرة لو أن الْخلق اجتمعوا كلهم بقواهم ما كونوا مثلها .

الآن تجد المعدات الكبيرة إذا أرادوا أن يَرْدِمُوا شيئًا لا يردمون إلا شيئًا بسيطًا مع المشقة الشديدة .

هذه الْجبال الصُّم يجب أن نتفكر فيها كيف نَصَبها الله عز وجل !

نصبها الله عز وجل على حكمة عظيمة ؛ لأنَّ الله يجعل في هذه الجبال التي نصبها مصالح عظيمة وكبيرة .

منها أنها رَوَاسِي ترسي الأرض وتمسكها عن الاضطراب كما قال الله : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان : ١٠] أي : أن تضطرب فلولا أن الله رساها بهذه الجبال لكانت مضطربة كالسَّفينة على الْماء في شدة الأمواج ، ولكن الله جَعَلَها بهذه الْجبال ساكنة قارة لا تضطرب ولا تميد بأهلها .

هذه الْجبال أيضًا تقي من أهوية ورياح شديدة عاصفة في بعض الأماكن وتقي أيضًا من بُرُودة عظيمة تأتي من ناحية القطب وتقي من حرارة شديدة . وكذلك في سفوحها آية من آيات الله عز وجل من النَّبات والأوْدية والْمعادن شيء عظيم كثير ، فلهذا قال : ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾

وقوله : ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فجعلها الله سطحًا وسَخَّرها للعباد وجعلها ذلولاً مُذَلَّلة بحيث لم تكن تربتها لينة جدًا لا يستقرون عليها ولا صَلْبة جدًا لا ينتفعون منها بل جعلها رخوة مسطحة مَبْسُوطة حتى ينتفع الناس على سطحها بما يَسَّر الله لهم من

Marfat.com

الأسباب النَّافعة .

وهذه الأرض المسطحة هى أيضًا كروية أى : أنها شبه الكرة مُسْتَديرة من كل جانب إلا أنَّها مفرطحة من النَّاحية الشمالية والجنوبية .

ولذلك لو أن أحدًا من الناس رَكِب طائرة متجهًا إلى المغرب على خط مستقيم لكان يخرج إلى المكان الذى أقلعت منه الطائرة وهذا يدلُّ على أنها مُسْتديرة ؛ لأن الإنسان يَصِل طرفها بطرفها .

ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق : ١ ـ ٤] . وهذا يكون يوم القيامة فقوله ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يدلُّ على أنها الآت ليست مَمْدُودة لكنها مسطوحة يعنى أنَّها كالسَّطح ؛ لأنها لكبر حَجْمها لا يتبين فيها الانحناء الذى يكون فى الكرة ، فهذه الأشياء الأربعة يَحثُّنا الله عز وجل وبالنَّظر فيها بعين البَصَر وعين البصيرة حتى نستدل بها على ما تدلُّ عليه من آيات الله من قُدْرة وعِلْم ورَحمة وحكمة وغير ذلك .

وقوله : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ ولم يكمل المؤلف الآية ، لأنَّ هذا وَرَدَ فى عِدَّة آيات من كتاب الله ، ففى عِدَّة آيات يَحُثُّ الله عزَّ وجلَّ عباده إلى أن يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

ومنها قوله فى سورة القتال : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد : ١٠] . فأمر الله بالسَّير وهو ينقسم إلى قسمين : سيرٌ بالقدم ، وسَيْرٌ بالقَلْب .

١ ـ أمَّا السَّير بالقدم : فأن يَسير الإنسان فى الأرض على أقدامه أو على راحلة من بعير أو سيَّارة أو طيارة أو غيرها حتى ينظر ماذا حصل للكافرين وماذا كانت حال الكافرين .

٢ ـ وأمَّا السَّير بالقلب : فهذا يكون بالتأمل وبالتَّفكر فيما نقل من أخبارهم .

وأصح كتاب وأصْدَق كتاب وأنفع كتاب نقل أخبار الأولين كتاب الله عز وجل كما قال : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١] .

والقرآن مملوء من أخبار الأولين المكذبين للرسل والمُؤيِّدين للرسل وبيَّن الله عاقبة هؤلاء وهؤلاء .

ولهذا ينبغى للإنسان أن يَقرأ الآيات التى فيها أخبار من سبق وأن يسأل عن معناها ويستفسر حتى يكون على بصيرة من الأمر ، وكذلك أيضًا ما جاءت به السُّنة من أخبار

Marfat.com

الماضين فإنها جاءت بالأحاديث الكثيرة النَّافعة وهى إذا صَحَّت عن النبى - ﷺ - فإنها أصدق منقول من الأخبار .

ثم بعد ذلك ما نقله المُؤرِّخون ويجب أن يحذر من النَّقل ؛ لأن غالب كتب التاريخ ليس لها أصل ولا إسناد . وإنما هى أخبار تتناقل بين النَّاس فيجب الحذر كل الحذر منها وأن يحرص الإنسان على أن يتتبعها برفق ، ثم هذه الأخبار الواردة فى غير الكتاب والسُّنة تنقسم إلى ثلاثة أقسام .

القسم الأوَّل : ما يشهد شرْعنا ببطلانه فهذا يجب رده وبيان خطئه وكذبه حتى يكون النَّاس منه على بصيرة .

القسم الثَّانى : ما أيده الكتاب والسُّنة فهذا يقبل بِشهادة الكتاب والسنة له بالصِّحة .

القسم الثالث : ما لم يؤيده الكتاب ولا السُّنة . فهذا يتوقَّف فيه ؛ لأن الأمم السَّابقة ليس بيننا وبينهم إسناد مُتَّصل حتى يمكن أن نعرف صحة ما نقل عنهم . ولكنه ينقل وتكون أخبارًا إسرائيلية ينظر فيها ولكن يتوقَّف فيها فلا تقبل ولا ترد هذا هو العدل .

ثم أشار المُؤلف رحمه الله إلى الحديث السَّابق وهو قول الرسول- ﷺ - : **«الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْتِ ، والعَاجِزُ مَنْ اتبَعَ نَفْسَه هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلَى الله الأمانى»**[1] .

والكيس : هو الحازم الفطن المُنتبه المُنتهز للفُرَص هو الذى يَدِين نفسه أى : يُحاسبها فينظر ماذا أهمل من الواجِب وماذا فعل من المُحرم وماذا فعلَ من الوَاجب ، وماذا ترك من المُحرم حتى يصلح نفسه .

أما العاجز فهو الذى يتبع نفسه هواها فما هوت نفسه أخذ به وما كرهت نفسه لم يأخذ به سواء وافق شرع الله أم لا .

هذا هو العَاجز وما أكثر اليوم الذين يتبعون أنفسهم هواها ولا يُبَالون بِمخالفة الكتاب والسُّنة ، نسأل الله لنا ولهم الهداية .

وقوله : « وتمنَّى على الله الأمانى » فيقول سيُغفر لى وسوف أستقيم فيما بعد ، وسوف أقوم بالواجب فيما بعد ، وسوف أترك هذا فيما بعد ، أو يقول : الله يهدينى وإذا نصحته قال : اسأل الله لى الهداية ، وما أشبهه ، هذا عاجز .

---

(١) انظر ضعيف الجامع للألبانى (٤٣٠٦) .

Marfat.com

والكَيِّس هو الذى يعمل بحزم وجد ويُحَاسب نفسه ، ويكون عنده قوة فى أمر الله ، وفى دين الله حتى يتمكَّن من ضَبْط نفسه ، وإلا فإن الله يقول فى كتابه عن زوجة العزيز : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف : ٥٣] . نسأل الله أن يرحمنا وإيَّاكم برحمته ويُعِيننا على ذكره وشكره وحُسْن عبادته .

* * *

Marfat.com

١٠- باب في المبادرة إلي الخيرات وحث من توجه لخير علي الإقبال عليه بالجد من غير تردد

قال اللّه تعالى:﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة : ١٤٨).وقال تعالى:﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٣) .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعلى : « **باب المبادرة إلى الخيرات وحث من توجه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردد** » وهذا العنوان تضمن أمرين : الأول : المبادرة والمسارعة إلى الخير ، والثانى : أن الإنسان إذا عزم على الأمر وهو خير فليمض فيه ولا يتردد .

أما الأول : فهو المبادرة ، وهى ضد التوانى والكسل ، وكم من إنسان توانى وكسل ففاته خير كثير ، ولهذا قال النبى ـ ﷺ ـ « **المؤمنُ القوىُّ خيرٌ وأحَبُّ إلى الله من المؤمن الضَّعيف وفى كُلٍ خير ، احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ ، واستَعِن بالله ولا تَعْجِز** »(١) .

فالإنسان ينبغى له أن يسارع فى الخيرات ، كلما ذكر له شىء من الخير بادر إليه ، فمن ذلك الصلاة والصدقة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الأرحام ، إلى غير ذلك من مسائل الخير ، التى ينبغى المسارعة إليها .

فالإنسان ربما يتوانى فى الشىء ولا يقدر عليه بعد ذلك ، إما بموت أو مرضٍ أو فوات أو غير هذا ، وقد جاء فى الحديث عن النبى ـ ﷺ ـ : « **إذَا أرادَ أحَدُكُم الحجَّ فَلْيَتَعجَّلْ فإنَّه قَدْ يَمْرَضُ المرِيضُ ، وتَضِلُّ الرَّاحِلة ، وتعرِض الحاجة** »(٢) .

فقد يعرض له شىء يمنعه من الفعل فسارع إلى الخير ولا تتوانى .

ثم ذكر المؤلف قول الله تبارك وتعالى :﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ واستبقوها يعنى اسبقوا إليها، وهو أبلغ من سابقوا إلى الخيرات ، فالاستباق معناه أن الإنسان يسبق إلى الخير ،

---

(١) مسلم (٢٦٦٤) ابن ماجه (٧٩) أحمد (٢/ ٣٧٠) .

(٢) أبو داود (١٧٣٣) أحمد (١/ ٢١٤) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود .

Marfat.com

ويكون من أول الناس فى الخير ، ومن ذلك المسابقة فى الصفوف فى الصلاة فإن النبى - ﷺ - قال : « **خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها** » [١] .

ورأى النبى - ﷺ - أقوامًا فى مؤخرة المسجد لم يسبقوا ولم يتقدموا ، فقال : « **لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله عز وجل** » [٢] فانتهز الفرصة واسبق إلى الخير .

وقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ [آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤] قال : سارعوا إلى المغفرة والجنة .

أما المسارعة إلى المغفرة : فأن يسارع الإنسان إلى ما فيه مغفرة الذنوب ، من الاستغفار لله عز وجل ، كقول : أستغفر الله ، أو : اللهم اغفر لى ، أو : اللَّهم إنى أستغفرك ، وما أشبه ذلك ، وكذلك أيضًا الإسراع إلى ما فيه المغفرة مثل الوضوء ، والصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان .

فإن الإنسان إذا توضأ فأسبغ الوضوء ثم قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين ، فإنه تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء [٣] ، وكذلك إذا توضأ فإن خطاياه تخرج من أعضاء وضوئه مع آخر قطرة من قطر الماء [٤] ، فهذه من أسباب المغفرة ، ومن أسباب المغفرة أيضًا الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر [٥] ، الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر [٦] ، رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر [٧] ، فليسارع الإنسان إلى أسباب المغفرة .

الأمر الثانى : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ، وهذا يكون بفعل المأمورات ، أى أن تسارع للجنة بالعمل لها ، ولا عمل للجنة إلا العمل الصالح ، هذا هو الذى يكون

(١) مسلم (٤٤٠) أبو داود (٦٧٨) الترمذى (٢٢٤) ابن ماجه (٤/ ١٠٠٠) .
(٢) مسلم (٤٣٨) أبو داود (٦٧٩) أم ماجة (٩٧٨) أحمد (٣/ ٣٤) .
(٣) انظر الترمذى (٦٠٣) النسائى (١/ ٩٣) .
(٤) مسلم (٢٤٤) .
(٥) سبق تخريجه .
(٦) سبق تخريجه .
(٧) سبق تخريجه .

Marfat.com

سببًا لدخول فسارع إليه .

ثم بين الله هذه الجنة ، بأن عرضها السموات والأرض ، وهذا يدل على سعتها وعظمها ، وأنه لا يقدر قدرها إلا الله عز وجل فسارع إلى هذه الجنة بفعل ما يوصلك إليها من الأعمال الصالحة ثم قال الله عز وجل : ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعنى هُيئت لهم والذى أعدها لهم هو الله عز وجل ، كما جاء فى الحديث القدسى : « **أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر** »(١) .

ثم من هم المتقون ؟ قال الله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٤ ـ ١٣٦] .

هؤلاء هم المتقون : ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ يعنى : يبذلون أموالهم ، ﴿فِي السَّرَّاءِ﴾ يعنى : فى حال الرخاء ، وكثرة المال والسرور والانبساط ، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ : فى حال الضيق والانقباض .

ولكن لم يبين الله تعالى هنا مقدار ما ينفقون ، ولكنه بينه فى آيات كثيرة ، فقال تعالى : ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾ [البقرة : ١٢٩] العفو : يعنى ما زاد عن حاجتكم وضروراتكم فأنفقوه ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] فهم ينفقون إنفاقًا ليس فيه إسراف ولا تقتير ، وينفقون أيضًا العفو أى ما عفا وزاد عن حاجاتهم وضروراتهم ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ أى الذين إذا اغتاظوا ـ أى اشتد غضبهم ـ كظموا غيظهم ، ولم ينفذوه وصبروا على هذا الكظم ، وهذا الكظم من أشد ما يكون على النفس ، كما قال النبى ـ ﷺ ـ : « **ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب** »(٢) ، الصرعة : يعنى الذى يصرع الناس ، أى يغلبهم فى المصارعة ، فليس هذا هو الشديد ، ولكن الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب ؛ لأن الإنسان إذا غضب ثارت نفسه ، فانتفخت أوداجه واحمرت عيناه ، وصار يحب أن ينتقم ، فإذا كظم الغيظ وهدأ ، فإن ذلك من أسباب دخول الجنة .

---

(١) البخارى (٤٧٧٩) (٢٨٢٤) .

(٢) البخارى (٦١١٤) مسلم (٢٦٠٩) .

Marfat.com

واعلم أن الغضب جمرة يلقيها الشيطان فى قلب ابن آدم ، إذا أتاه ما يهزه ، ولكن النبى - ﷺ - أعلمنا بما يطفىء هذه الجمرة ، فمن ذلك أن يتعوذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم[١] ، فإذا أحس بالغضب وأن الغضب سيغلبه قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومنها أن يجلس إن كان قائمًا ، ويضطجع إن كان قاعدًا[٢] ، يعنى يضع نفسه ويُنزلها من الأعلى إلى الأدنى ، فإن كان قائمًا جلس ، وإن كان جالسًا ضطجع ، ومنها أن يتوضأ بتطهير أعضائه الأربعة ، الوجه واليدين والرأس والرجلين ، فإن هذا يطفىء الغضب[٣] ، فإذا أحسست بالغضب فاستعمل هذا الذى أرشدك إليه النبى - ﷺ - حتى يزول عنك ، فما أكثر الذين يقولون : أنا غضبت على زوجتى فطلقتها ثلاثًا ، وربما يغضب ويضرب أولاده ضربًا مبرحًا ، وربما يغضب ويكسر أوانيه أو يشق ثيابه أو ما زشبه ذلك مما يثيرء الغشب ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ مدحهم لأنهم ملكوا أنفسهم عند سورة الغضب .

﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ يعنى : الذين إذا أساء الناس إليهم عفوا عنهم ، فإن من عفا وأصلح فأجره على الله ، وقد أطلق الله العفو هنا ، ولكنه بين فى قوله تعالى : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى : ٤٠] أن العفو لا يكون خيرًا إلا إذا كان فيه إصلاح ، فإذا أساء إليك شخص معروف بالإساءة والتمرد والطغيان على عباد الله ، فالأفضل ألا تعفو عنه ، وأن تأخذ بحقك ، لأنك إذا عفوت ازداد شره ، أما إذا كان الإنسان الذى أخطأ عليك قليل الخطأ ، قليل العدوان ، لكن أمر حصل على سبيل الندرة ، فهنا الأفضل أن تعفو ، ومن ذلك حوادث السيارات اليوم التى كثرت ، فإن بعض الناس يتسرع ويعفو عن الجانى الذى حصل منه الحادث ، وهذا ليس بالأحسن ، الأحسن أن تتأمل وتنظر : هل هذا السائق متهور ومستهتر ، لا يبالى بعباد الله ولا يبالى بالأنظمة ؟! فهذا لا ترحمه خذ بحقك منه كاملاً ، أما إذا كان إنسان معروفًا بالتأنى ، وخشية الله ، والبعد عن أذية الخلق ، والتزام النظام ، ولكن هذا أمر حصل من فوات الحرص ، فالعفو هنا أفضل لأن الله قال : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ فلا بد من مراعاة الإصلاح عند العفو .

ثم بعد أن قال الله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ

(١) انظر البخارى (٦١١٥) مسلم (٢٦١٠) .
(٢) انظر أبو داود (٤٧٨٢) أحمد (٥/ ١٥٢) .
(٣) انظر أبو داود (٤٧٨٤) أحمد (٤/ ٢٢٦) .

Marfat.com

﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤] .

ومحبة الله سبحانه وتعالى للعبد هى غاية كل إنسان ، كل إنسان مؤمن فإن غايته أن يحبه الله عز وجل ، وهى المقصود لكل مؤمن ، لقول الله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] س، ولم يقل : اتبعونى تصدقوا فيما قلتم ، بل عدل عن هذا إلى قوله : ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ لأن الشأن كل الشأن أن يحبك الله عز وجل ، أسأل الله أن يجعلنى وإياكم من أحبابه .

وأما المحسنون فى قوله : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فالمراد بهم المحسنون فى عبادة الله والمحسنون إلى عباد الله .

والمحسنون فى عبادة الله بين رسول ـ ﷺ ـ مرتبتهم فى قوله حين سأله جبريل عن الإحسان قال : « **أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » يعنى : أن تعبد الله سبحانه وتعالى بقلب حاضر كأنك ترى ربك تريد الوصول إليه ، فإن لم تفعل فاعلم أن الله يراك ، فاعبده خوفًا وخشية ، وهذا المرتبة دون المرتبة الأولى .

فالمرتبة الأول: أن تعبد الله طلبًا ومحبة وشوقًا .

والثانية : أن تعبده هربًا وخوفًا وخشية .

أما الإحسان إلى عباد الله : فأن تعاملهم بما هو أحسن ، فى الكلام والأفعال والبذل وكف الأذى وغير ذلك ، حتى فى القول فإنك تعاملهم بالأحسن ، قال الله تعالى : ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء : ٨٦] . يعنى : إن لم تفعلوا فتردوا بأحسن منها ، فلا أقل من أن تردوها ، ولهذا قال كثير من العلماء : إذا قال المسلم : السلام عليكم ورحمة الله ، قلْ : السلام عليكم ورحمة الله ، هذا أدنى شىء ، فإن زدت: « وبركاته » فهو أفضل ، لأن الله قال بأحسن منها ، فبدأ بالأحسن (٢) ثم قال : أوردها كذلك إذا سلم عليك إنسان بصوت واضح بين ، ترد عليه بصوت واضح بين ، على الأقل ، كثير من الناس أو بعض الناس إذا سلمت عليه ردَّ السلام بأنفه ، حتى إنك تكاد لا تسمعه فى رد السلام ، وهذا غلط ، لأن هذا خلاف ما سلّم عليك به ، يسلم عليك بصوت واضح ثم ترد بأنفك !! هذا خلاف ما أمر الله به .

كذلك الإحسان بالفعل مثل معونة الناس ، ومساعدتهم فى أمورهم . كلما ساعدت

---

(١) مسلم (٨) .

(٢) انظر تفسير القرطبى (٥/٢٢٩ ـ ٢٣٠) .

Marfat.com

إنسانًا فقد أحسنت إليه ، مساعدة بالمال ، بالصدقة ، بالهدية ، بالهبة وما أشبه ذلك ، هذا من الإحسان .

ومن الإحسان أيضًا : أنك إذا رأيت أخاك على ذنب أن تبين له ذلك وتنهاه عنه ؛ لأن هذا من أعظم الإحسان إليه ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا** » قالوا : يا رسول الله ، هذا المظلوم فكيف ننصر الظالم لله قال: « **أن تمنعه من الظلم** » (١) فإن منعك إياه من الظلم نصر وإحسان إليه ، والمهم أنه ينبغي لك في معاملة الناس أن تستحضر هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فتحسن إليهم بقدر ما تستطيع .

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ والفاحشة : ما يستفحش من الذنوب ، وهي كبائر الذنوب مثل : الزِّنى ، وشرب الخمر ، وقتل النفس وما أشبهها ، كل ما يستفحش فهو فاحشة ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بما دون الفاحشة من المعاصي الصغار ، ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أي : ذكروا عظمته وذكروا عقابه ، ثم ذكروا أيضًا رحمته وقبوله للتوبة وثوابها .

فهم يذكرون الله من وجهين :

الوجه الأول : من حيث العظمة والعقوبة والسلطان العظيم ، فيوجلون ويخجلون ويستغفرون .

والثاني : من حيث الرحمة وقبول التوبة ، فيرغبون في التوبة ويستغفرون الله ، ولهذا قال : ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ ومن أفضل ما يستغفر به سيد الاستغفار : « **اللَّهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت** » (٢) .

قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ١٣٥] ، يعني : لا أحد يغفر الذنوب إلا الله عز وجل ، لو أن الأمة كلها من أولها إلى آخرها ، والجنَّة والملائكة اجتمعوا على أن يغفروا لك ذنبًا واحدًا اجتمعوا على أن يغفروا لك ذنبًا واحدًا ما غفروه ، لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله عز وجل .

---

(١) البخاري (٦٩٥٢) الترمذي (٢٢٨٢) أحمد (٣/ ٩٩) .

(٢) البخاري (٦٣٠٦) ابن ماجه (٣٨٧٢) أحمد (٤/ ١٢٥) .

Marfat.com

ولكننا نسأل الله المغفرة ، لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، وأما أن يكون بيدنا أن نغفر ، فلا يغفر الذنوب إلا الله .

قال تعالى : ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران : ١٣٥] . يعنى : لم يستمروا على معاصيهم وظلمهم وهم يعلمون أنها معاصى وظلم ، وفى هذا دليل على أن الإصرار مع العلم أمره عظيم ، حتى فى صغائر الذنوب ، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أن الإنسان إذا أصرَّ ولو على الصغيرة ، صارت الصغيرة كبيرة .

ومن ذلك ما يفعله جهلة الناس اليوم من حلق اللحية ، تجدهم يحلقون اللحية ويصرون على ذلك ، ولا يرونها إلا زينًا وجمالاً ، والحقيقة أنها شين وأنها قبح ، لأن كل شيء ينتج عن المعصية فلا خير فيه ، بل هو قبح ، وهؤلاء الذين يصرون على هذه المعصية وإن كانت صغيرة ، أخطئوا لأنها بالإصرار تنقلب كبيرة والعياذ بالله ؛ لأن الإنسان لا يبالى تجده كل يوم ، كلما أراد أن يخرج إلى السوق أو إلى عمله يذهب وينظر فى المرآة ، إذا وجد شعرة واحدة قد برزت تجده يسارع إلى حلقها وإزالتها ، نسأل الله العافية ، وهذا ولا شك أنه معصية للرسول عليه الصلاة والسلام ، وإن الإنسان ليخشى عليه من هذا الذنب أن يتدرج به الشيطان إلى ذنوب أكبر وأعظم .

قال الله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[آل عمران : ١٣٦] .

اللَّهم اجعلنا من هؤلاء العاملين واجعل جزاءنا ذلك يا رب العالمين .

❊ ❊ ❊

وَأمَّا الأحَادِيث :

[١/ ٨٧] فَالأول : عَنْ أَبى هُرَيْرَةَ ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال : **«بَادروا بالأعمَالَ فتناً كَقطَعِ اللَّيلِ المُظْلمِ ، يُصبِح الرَّجُلُ مُؤْمناً ويُمْسِي كَافراً ، ويُمْسِي مُؤْمناً ويُصبح كَافراً ، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ منَ الدُّنيَا »** رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما رواه عن أبى هريرة ﷺ ، أن النبى ـ ﷺ ـ قال : **«بادروا بالأعمال »** وبادروا يعنى أسرعوا إليها ، والمراد : الأعمال الصالحة وهى كل عمل يعمله الإنسان خالصًا لله موافقًا فيه رسول الله ـ ﷺ ـ ، يعنى أن العمل الصالح ما بنى

[١/ ٨٧] صحيح :رواه مسلم (١١٨) .

Marfat.com

على أمرين : الإخلاص لله ، والمتابعة لرسول الله- ﷺ - ، وهذا هو تحقيق شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فالعمل الذى ليس بخالص ليس بصالح ، لو قام الإنسان يصلى ولكنه يرائى الناس بصلاته ، فإن عمله لا يقبل حتى لو أتى بشروط الصلاة وأركانها ، وواجباتها ، وسننها ، وطمأنينتها ، وأصلح إصلاحًا تامًا فى الظاهر ، لكنها لا تقبل منه لأنها خالطها الشرك ، والذى يشرك بالله معه غيره لا يقبل الله عمله ، كما فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى- ﷺ - قال : « **قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك** » يعنى إذا أحد شاركنى فأنا غنى عن شركه ، « **مَن عمل عملاً أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه** »[(١)] .

كذلك أيضًا : لو أن الإنسان أخلص فى عمله ، لكنه أتى ببدعة ، ما شرعها الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإن عمله لا يقبل حتى لو كان مخلصًا ، حتى لو كان يبكى من الخشوع ، فإنه لا ينفعه ذلك ، لأن البدعة وصفها النبى- ﷺ - بأنها ضلالة ، فقال : « **فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة** »[(٢)] .

فقوله- ﷺ - : « **بادروا بالأعمال** » يعنى : بالأعمال الصالحة وهى كل عمل كان خالصًا لله صوابًا على شريعة الله ، هذا هو العمل الصالح ، ثم قال : « **فتنًا كقطع الليل المظلم** » أخبر أنه ستوجد فتن كقطع الليل المظلم ، يعنى أنها مدلهمة مظلمة لا يرى فيها النور والعياذ بالله ، ولا يدرى الإنسان أين يذهب يكون حائرًا ، ما يدرى أين المخرج ، أسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الفتن .

والفتن منها ما يكون من الشبهات ، وفتن تكون من الشهوات ، ففتن الشبهات : كل فتنة مبنية على الجهل فهى فتنة شبهة ، ومن ذلك ما حصل من أهل البدع الذين ابتدعوا فى عقائدهم ما ليس من شريعة الله ، أو أهل البدع الذين ابتدعوا فى أقوالهم وأفعالهم ما ليس من شريعة الله ، فإن الإنسان قد يفتن والعياذ بالله فيضل عن الحق بسبب الشبهة .

ومن ذلك أيضًا : ما يحصل فى المعاملات من الأمور المشتبهة التى هى واضحة فى قلب الموقن ، مشتبهة فى قلب الضال والعياذ بالله ، تجده يتعامل معاملة تبين أنها محرمة ، لكن لما على قلبه من رين الذنوب ـ نسأل الله العافية ـ يشتبه عليه الأمر ، فيزين له سوء عمله ، ويظنه حسنًا ، وقد قال الله فى هؤلاء : ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾

(١) مسلم (٢٩٨٥) ابن ماجه (٤٢٠٢) .

(٢) الترمذى (٢٦٧٦) أبو داود (٤٦٠٧) وصححه الألبانى .

Marfat.com

فهؤلاء هم الأخسرون والعياذ بالله .

إذن الفتن تكون من الشبهات ، وتكون أيضًا من الشهوات ، بمعنى أن الإنسان يعرف أن هذا حرام ، ولكن لأن نفسه تدعوه إليه فلا يبالى ، بل يفعل الحرام ، يعلم أن هذا واجب ، لكن نفسه تدعوه للكسل فيترك هذا الواجب ، هذه فتنة شهوة ، يعنى فتنة إرادة ومن ذلك أيضًا ـ بل من أعظم ما يكون ـ فتنة شهوة الزنى أو اللواط والعياذ بالله ، وهذه من أضر ما يكون على هذه الأمة ، قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **ما تركت بعدى فتنة أضرَّ على الرجال من النساء** »[1] ، وقال : « اتقوا النساء فإنما كانت فتنة بنى إسرائيل فى النساء »[2] ولدينا الآن ـ وفى مجتمعنا ـ من يدعو إلى هذه الرذيلة والعياذ بالله بأساليب ملتوية ، يلتوون فيها بأسماء لا تمت إلى هذه الرذيلة والعياذ بالله بأساليب ملتوية ، يلتوون فيها بأسماء لا تمت إلى ما يقولون بصلة ، لكنها وسيلة إلى ما يريدون ، من تهتك لستر المرأة ، وخروجها من بيتها لتشارك الرجل فى أعماله ، ويحصل بذلك الشر والبلاء ، ولكن نسأل الله أن يجعل كيدهم فى نحورهم ، وأن يسلط حكامنا عليهم بإبعادهم عن كل ما يكون سببًا للشر والفساد فى هذه البلاد ، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق لحكامنا بطانة صالحة تدلهم على الخير وتحثهم عليه .

إن فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء ، وهى أعظم فتنة ، وهناك أناس الآن يحيكون كل حياكة من أجل أن يهدروا كرامة المرأة ، من أجل أن يجعلوها كالصورة ، كالدمى ، مجرد شهوة وزهرة يتمتع بها الفساق والسفلاء من الناس ، ينظرون إلى وجهها كل حين ، وكل ساعة والعياذ بالله ، ولكن بحول الله أن دعاء المسلمين سوف يحيط بهم ، وسوف يكبتهم ويردهم على أعقابهم خائبين ، وسوف تكون المرأة السعودية بل المرأة فى كل مكان من بلاد الإسلام محترمة مصونة ، حيث وضعها الله عز وجل .

المهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام حذرنا من هذه الفتن التى كقطع الليل المظلم ، يصبح الإنسان مؤمنًا ويمسى كافرًا ، والعياذ بالله . يوم واحد يرتد عن الإسلام ، يخرج من الدين ، يصبح فيه مؤمنًا ويمسى كافرًا نسأل الله العافية ، لماذا ؟ « **يبيع دينه بعرض من الدنيا** » ولا تظن أن العرض من الدنيا هو المال ، كل متاع الدنيا عرض ، سواء مال أو جاه أو رئاسة ، أو نساء أو غير ذلك ، كل ما في الدنيا من متاع الدنيا عرض ، كما قال تعالى: ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء : ٩٤] فما فى الدنيا كله

---

(١) البخارى (٥٠٩٦) مسلم (٢٧٤٠) .

(٢) مسلم (٢٧٤١) احمد (٣/٢٢) .

Marfat.com

عرض .

فهؤلاء الذين يصبحون مؤمنين ويمسون كفاراً أو يمسون مؤمنين ويصبحون كفاراً ، كلهم يبيعون دينهم بعرض من الدنيا ، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الفتن ، واستعيذوا دائمًا من الفتن ، وما أعظم ما أمرنا به نبينا عليه الصلاة والسلام ، حيث قال : « **إذا تشهدَ أحدكم** - يعنى التشهد الأخير - **فليستعذ بالله من أربع ، يقول : اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال** »(١) نسأل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

* * *

[٢/٨٨] الثَّانى : عَنْ أبى سروَعَةَ ـ بكسرِ السينِ المهملة وفتحها ـ عُقْبَةَ بن الْحَارث ﷺ قال : صَلَّيتَ وَرَاءَ النَّبىّ ﷺ بالمَدِينَة الْعَصْرَ ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرِعاً فَتخطَّى رِقَابَ النَّاس إلَى بَعْضِ حُجَرِ نسَائه ، فَفزِعَ النَّاس منْ سُرْعَته فخَرجَ عَلَيْهِمْ ، فرَأى أنَّهمْ قَدْ عَجبوا منْ سُرْعَته قَالَ : « **ذَكَرْت شيْئاً منْ تِبرٍ عنْدَنَا ، فكَرِهْت أنْ يَحْبسَنِى، فأمَرْت بقسمته** » رواه البخارى .

وفى رواية له : « **كُنْتُ خَلَّفْتُ فى الْبَيْتِ تبراً من الصَّدَقَة ؛ فَكَرِهْت أنْ أُبيّتَه** » .

« التِّبْر » : قطع ذَهَبٍ أوْ فضَّة .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن عقبة بن الحارث ﷺ أنه صلى مع النبى- ﷺ - ذات يوم صلاة العصر فقام النبى- ﷺ - حين انصرف من صلاته مسرعًا يتخطى رقاب الناس إلى بعض حجرات زوجاته ، ثم خرج فرأى الناس قد عجبوا من ذلك ، فبين لهم النبى- ﷺ - سبب هذا ، وقال : « **ذكرت شيئًا من تبر عندنا** » يعنى مما تجب قسمته « **فكرهت أن يحبسنى فأمرت بقسمته** » ، ففى هذا الحديث المبادرة إلى فعل الخير ، وألا يتوانى الإنسان عن فعله ، وذلك لأن الإنسان لا يدرى متى يفجاه الموت فيفوته الخير ، والإنسان ينبغى أن يكون كيسًا ، يعمل لما بعد الموت ولا يتهاون ، وإذا كان الإنسان فى أمور دنياه يكون مسرعًا وينتهز الفرص ، فإن الواجب عليه فى أمور أخراه أن يكون كذلك

---

(١) مسلم (٥٨٨) أبو داود (٩٨٣) النسائى (٣/ ٥٨٥٧) ابن ماجه (٩٠٩) .

[٢/٨٨] صحيح : رواه البخارى (٢/ ٨٥١) .

Marfat.com

بل أولى ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٩] ، وفى هذا دليل على أن رسول الله - ﷺ - ، أسرع الناس مبادرة إلى الخير ، وأنه عليه الصلاة والسلام محتاج إلى العمل كما أن غيره محتاج إلى العمل ، ولهذا لما حدث فقال : « **إنه لن يدخل الجنة أحد بعمله** » قالوا : ولا أنت ؟ قال : « **ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته** » (١) هذا وهو النبى عليه الصلاة والسلام .

وفى هذا الحديث : دليل على جواز تخطى الرقاب بعد السلام من الصلاة ، ولا سيما إذا كان لحاجة ، وذلك لأن الناس بعد السلام من الصلاة ليسوا فى حاجة إلى أن يبقوا فى أماكنهم ، بل لهم الانصراف ، بخلاف تخطى الرقاب قبل الصلاة ، فإن ذلك منهى عنه ، لأنه إيذاء للناس ، ولهذا قطع النبى - ﷺ - خطبته يوم الجمعة حين رأى رجلاً يتخطى الرقاب ، فقال له : « **اجلس فقد آذيت** » (٢) .

وفى هذا الحديث : دليل على أن رسول الله - ﷺ - كغيره من البشر ، يلحقه النسيان، وأنه ينسى كما ينسى غيره ، وإذا كان - ﷺ - ينسى ما كان معلومًا عنده من قبل، فإنه كذلك من باب أولي يجهل ما لم يكن معلومًا عنده من قبل ، كما قال الله له : ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام : ٥٠] . فأمر الله أن يعلن للملأ أنه ليس عنده خزائن الله وأنه لا يعلم الغيب وأنه ليس بملك صلوات الله وسلامه عليه .

وفى هذا قطع السبيل على من يلتجئون إلى الرسول - ﷺ - فى مهماتهم وملماتهم ، ويدعونه ، فإن هؤلاء من أعدائه وليسوا من أوليائه ، لأنه عليه الصلاة والسلام لو كان حيًا لاستتابهم فإن تابوا وإلا قتلهم ، لأنهم مشركون ، فإن الإنسان لا يجوز أن يدعو غير الله عز وجل ؛ لا ملكًا مقربًا ، ولا نبيًا مرسلاً ، وهو عليه الصلاة والسلام إنما جاء لحماية التوحيد وتحقيق عبادة الله ، فالنبى - ﷺ - لا يعلم الغيب ، وينسى ما كان قد علم من قبل ، ويحتاج إلى الأكل والشرب واللباس والوقاية من الأعداء ، وقد ظاهر بين درعين فى غزوة أحد ، يعنى لبس درعين ، خوفًا من السلاح (٣) .

فهو كغيره من البشر ، جميع الأحكام البشرية تلحقه عليه الصلاة والسلام ، ولهذا

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أبو داود (١١١٨) ابن ماجه (١١١٥) النسائى (٣/١٠٣) وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه .

(٣) الترمذى (١٦٩٢) أبو داود (٢٥٩٠) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود (٢٣٣٢) .

Marfat.com

قال الله له : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] ، فتأمل وصفه بأنه بشر مثلك ، لو لم يقل لكفى ، يعنى إذا قال إنما أنا بشر علمنا بطريق القياس أنه بشر كالبشر ، لكن قال مثلكم ، لا أتميز عليكم بشئ إلا بالوحى : ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ الآية .

وفى هذا الحديث : أيضًا دليل على شدة الأمانة وعظمها ، وأن الإنسن إذا لم يبادر بأدائها فإنها قد تحبسه ، ولهذا قال : « **فكرهت أن يحبسنى** » وإذا كان هذا فى الأمانة فكذلك أيضا فى الدين يجب على الإنسان أن يبادر بقضاء دينه إذا كان حالاً ، إلا أن يسمح له صاحب الدَّين فلا بأس أن يؤخر ، أما إذا كان لم يسمح له ، فإنه يجب عليه المبادرة لأدائه حتى أن العلماء - رحمهم الله - قالوا : إن فريضة الحج تسقط على من عليه الدين حتى يؤديه ، لأن الدَّين أمره عظيم ، كان النبى عليه الصلاة والسلام ، قبل أن يفتح الله عليه الفتوح إذا جئ إليه بالرجل سأل : « **هل عليه دَيْن ؟** » فإن قالوا : لا ، تقدم وصلى عليه ، وإن قالوا : نعم ، سأل : « **هل له وفاء ؟** » فإن قالوا : نعم ، تقدم وصلى، وإن قالوا : لا ، تأخر ولم يصل (١) ، يترك الصلاة على الميت إذا كان عليه دَيْن ، فقدم إليه ذات يوم رجل من الأنصار ليصلى عليه فخطا خطوات ثم قال : « **هل عليه دَيْن ؟** » قالوا : نعم يا رسول الله ، ثلاثة دنانير وليس لها وفاء ، فتأخر وقال : « **صلوا على صاحبكم** » فعرف ذلك فى وجوه القوم ، تغيرت وجوههم ، كيف لم يصل على النبى عليه الصلاة والسلام ؟! فتقدم أبو قتادة - رضي الله عنه - وقال : يا رسول الله ، علىَّ دَيْنه ، فتقدم النبى - ﷺ - فصلى عليه (٢) .

ومع الأسف الآن تجد كثيرًا من الناس عليه الدَّيْن وهو قادر على الوفاء ، ولكنه يماطل والعياذ بالله ، وقد ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال : « **مطل الغنى ظُلم** »(٣) .

واعلم أن الدَّين ليس كما يفهمه الناس ، وهو الذى يأخذ سلعة بثمن أكثر من ثمنها الدين كل ما ثبت فى الذمة ، فهو دين ، حتى القرض - السلف - حتى إيجار البيت ، حتى أجرة السيارة ، أى شئ يثبت فى ذمتك فهو دين عليك أن تبادر بوفائه ما دام حالاً .

وفى هذا الحديث : أيضًا دليل على جواز التوكيل فى القسم ، قسم ما يجب على الإنسان قسمته ، ولهذا قال : « **فأمرت بقسمته** » فأمر عليه الصلاة والسلام أن يقسم ،

---

(١) البخارى (٢٢٨٩) أحمد (٣/٢٩٦) .

(٢) البخارى (٢٢٩٥) .

(٣) البخارى (٥٤٠٠) مسلم (١٥٦٤) .

Marfat.com

وهذا التوكيل جائز فى كل حق تدخله النيابة من حقوق الله ؛ كالحج مثلاً ، وأداء الزكاة ، وحقوق الآدميين ؛ كالبيع ، والشراء ، والرهن وما أشبهها .

وخلاصة هذا الحديث والمفهم منه ، هو المبادرة إلى فعل الخيرات ، وعدم التهاون فى ذلك ، لا تتهاون ، واعلم أنك إذا عودت نفسك على التهاون اعتادت عليه ، وإذا عودتها على الحزم والفعل والمبادرة اعتادت عليه . وأسأل الله تعالى أن يعيننى وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

[٣/ ٨٩] الثالث : عَنْ جابرٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رجلٌ للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَومَ أحُد : أرأيتَ إنْ قُتلْت فأينَ أنا ؟ قَالَ : « فى الجنَّةِ » فألقَى تَمرَاتٍ كُنَّ فى يَدِهِ ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتى قُتلَ » . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن جابر ـ رضي الله عنه ـ وعن أبيه رجلاً قال للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم أحد : يا رسول الله ، أرأيت إن قاتلت حتى قتلت ، قال : « أنت فى الجنة » فألقى تمرات كانت معه ثم تقدم فقاتل حتى قتل ـ رضي الله عنه ـ .

ففى هذا الحديث : دليل على مبادرة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلى الأعمال الصالحة وأنهم لا يتأخرون فيها ، وهذا شأنهم ولهذا كانت لهم العزة ، فى الدنيا وفى الآخرة .

ونظير هذا أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب الناس يوم عيد ، ثم نزل فتقدم إلى النساء فخطبهن، وأمرهن بالصدقة ، فجعلت المرأة منهن تأخذ خرصها وخاتمها ، وتلقيه فى ثوب بلال ، يجمعه حتى أعطاه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولم يتأخرن ـ رضي الله عنهن ـ بالصدقة ، بل تصدقن حتى من حليهن(١) .

وفى حديث جابر من الفوائد : أن من قتل فى سبيل الله فإنه فى الجنة ، ولكن من هو الذى يقتل فى سبيل الله ؟ الذى يقتل فى سبيل الله هو الذى يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، لا يقاتل حمية ولا شجاعة ولا رياءً ، وإنما يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، أما من قاتل حمية مثل الذين يقاتلون من أجل القومية العربية مثلاً ، فإن هؤلاء ليسوا شهداء ، وذلك لأن القتال من أجل القومية العربية ليس فى سبيل الله ، لأنه حمية .

[٣/ ٨٩] صحيح : رواه البخارى (٤٠٤٦) ، ومسلم (١٨٩٩) .

(١) صحيح: انظر البخارى (٩٦٤) مسلم (٨٨٤) .

Marfat.com

وكذلك أيضًا : من يقاتل شـجاعة يعنى من تحمله شجاعته عـلى القتال لأنه شجاع ، والغالب أن الإنسان إذا اتصف بصفة يحب أن يقوم بها ، فهذا أيضًا إذا قتل ليس فى سبيل الله .

وكذلك أيضًا : من قاتل مراءاة والعياذ بالله ، ليُرى مكانه ، وأنه رجل يقاتل الأعداء الكفار ، فإنه ليس فى سبيل الله ، لأن النبى- ﷺ - سـئل عن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة ويقاتل ليرى مكانه : أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** »[(١)] .

وفى هذا دليل على حـرص الصحابة- ﷺ - على معرفـة الأمور ، لأن هذا الرجل سأل النـبى عليه الصـلاة والسلام ، وكان هذا مـن عادتهم أنهم لا يـفوتون الفرصـة حتى يسألون النبى- ﷺ - ، لأنهم يستفيدون من هذا علمًا وعملاً ، فإن العالم بالشريعة قد منَّ الله عليه بالعلم ، ثم إذا عمل بـه فهذه منَّة أخرى ، والصحابة- ﷺ - كان هذا شأنهم ، فيسألون النبى- ﷺ - عن الحكم الشرعى من أجل أن يعملوا به ، بخلاف ما عليه كثير من الناس اليوم ، فإنهم يسألون عن الأحكام الشرعـية حتى إذا علموا بها تركوها ونبذوها وراء ظهورهم ، وكأنهم لا يريدون من العلم إلا مجرد المعرفة النظرية ، وهذا فى الحقيقة خسران مبين ؛ لأن من ترك العمل بعد علمه به فإن الجاهل خير منه .

فإذا قال قـائل : لو رأينا رجالاً يقـاتلون ويقولون نـحن نقاتل للإسلام ، دفـاعًا عن الإسلام ثم قتل أحد منهم فهل نشهد له بأنه شهيد ؟ فالجواب : لا ، لا نشهد بأنه شهيد ؛ لأن النبى قال : « **ما من مكلـوم يكلم فى سبيل الـله ـ والله أعلم بمن يكلم فـى سبيل ـ إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثغب دمًا ، اللون لون الدم والريح ريح المسك** »[(٢)] فقوله : «**والله أعلم بمن يُكْلَمُ فى سبيله** » يد على أن الأمر يتعلق بالنية المجهولة لنا ، المعلومة عند الله ، وخطب عمر بن الخطاب- ﷺ - ذات يوم فقال : أيها الناس ، إنكم تـقولون فلان شهيد وفلان شهيـد ، ولعله أن يكون قد أوقر راحلتـه ، يعنى قد حملها مـن الغلول ، يعنى لا تقولوا هكذا ، ولكن قـولوا : من مات أو قتل فى سبيل الله فـهو شهيد[(٣)] ، فلا تشهد لشخص بعينه أنه شـهيد إلا من شهد له النبى- ﷺ - فإنك تشـهد له ، أما من سوى هذا فقل كـلامًا عامًا ، قل : من قتل فى سـبيل اللـه فهو شهـيد ، هذا نرجـو أن يكون من

---

(١) صحيح: رواه البخارى (١٢٣) مسلم (١٩٠٤) .

(٢) صحيح: رواه البخارى (٥٥٣٣) مسلم (١٨٧٦) .

(٣) صحيح: رواه النسائى (١١٨/٦) أحمد (٤١/١ ، ٤٨) .

Marfat.com

الشهداء وما أشبه ذلك من الكلام .

❊ ❊ ❊

[٤/ ٩٠] الرابع : عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه - قال : جَاءَ رجلٌ إلى النَّبِي ﷺ - ، فقال يا رسول اللّه ، أيُّ الصَّدَقَة أعْظَمُ أجْراً ؟ قَالَ : « **أنْ تَصدَّقَ وَأنْتَ صَحيحٌ شَحيحٌ تَخشَى الفَقْرَ ، وَتَأمُلُ الغنَى ، وَلا تُمْهلْ حَتَّى إذَا بَلَغَت الحُلقُومَ قُلتَ : لفُلانٍ كَذَا ولفُلانٍ كَذَا ، وَقَدْ كَانَ لفُلان** » متفقٌ عليه .

« الحُلقُومُ » : مَجرى النَّفَسِ . وَ« المَرِيءُ » : مَجْرَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله - فيما نقله عن أبى هريرة رضي الله عنه - أن النبى ﷺ - سأله رجل فقال : أى الصدقة أفضل ؟ فقال النبى ﷺ - : « **أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر ، وتأمل الغنى ، ولا تُمْهلْ حتى إذا بلَغَت الحلقوم قلتَ : لفلان كذا ، ولفلان كذا وقد كان لفلان** » .

هذا الحديث ساقه المؤلف - رحمه الله - فى باب المبادرة إلى فعل الخيرات وعدم التردد فى فعلها إذا أقبل عليها ، فإن هذا الرجل سأل النبى ﷺ - : أى الصدقة أفضل ؟ وهو لا يريد أى الصدقة أفضل فى نوعها ، ولا فى كميتها ، وإنما يريد ما هو الوقت الذى تكون فيه الصدقة أفضل من غيرها ، فقال له : « **أن تصدق وأنت صحيح شحيح** » ، يعنى صحيح البدن شحيح النفس ؛ لأن الإنسان إذا كان صحيحًا كان شحيحًا بالمال ، لأنه يأمل البقاء ، ويخشى الفقر ، أما إذا كان مريضًا ، فإن الدنيا ترخص عنده لا تساوى شيئًا، فتهون عليه الصدقة .

قال : « **أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل البقاء وتخشى الفقر** » وفى رواية : «**تخشى الفقر وتأمل الغنى** » (١) ولكن الرواية الأولى أحسن ، وقوله : « **تأمل البقاء** » يعنى أنك لكونك صحيحًا تأمل البقاء وطول الحياة ؛ لأن الإنسان الصحيح يستبعد الموت ، وإن كان الموت قد يفجأ الإنسان بخلاف المريض فإنه يتقارب الموت . وقوله : « **وتخشى الفقر** » يعنى لطول حياتك ، فإن الإنسان يخشى الفقر إذا طالت به الحياة ، لأن ما عنده ينفذ ، فهذا أفضل ما يكون ، أن تتصدق فى حال صحتك وشحك .

[٤/ ٩٠] صحيح : رواه البخارى (٣/ ١٤١٩) ، ومسلم (١٠٣٢) .

(١) صحيح: رواه النسائى (٦/ ٢٣٧) وصححه الألبانى فى الإرواء (١٦٠٢) .

Marfat.com

« **ولا تمهل** » أى لا تترك الصـدقة ، « **حتـى إذا بلغت الحـلقوم ، قـلت : لفـلان كذا ولفـلان كذا** » حتى إذا جاءك الموت وبلغت روحك حلـقومك ، وعرفت أنـك خارج من الدنيا ، قلت : لفلان كذا ، يعنى صدقة ، ولفلان كذا يعنى صدقة « **وقد كان لفلان** » أى قد كان المال لغيرك ، لفلان : يعنى للذى يرثك ، فإن الإنسان إذا مات انتقل ملكه ولم يبق له شئ من المال .

ففى هـذا الحديث : دليل علـى أن الإنسان ينبـغى له أن يبادر بالصـدقة قبل أن يـأتيه الموت، وأنه إذا تصـدق فى حال حضور الأجل ، كـان ذلك أقل فضلاً مما لـو تصدق وهو صحيح شحيح .

وفى هذا دليل علـى أن الإنسان إذا تكلـم فى سياق المـوت فإنه يعـتبر كـلامه إذا لم يذهل، فإن أذهل حـتى صار لا يشعر بما يقـول فإنه لا عبرة بكلامـه ، لقوله : « **حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان** » .

وفيه : دليل على أن الروح تخرج من أسفل البدن تصعد حتى تصل إلى أعلى البدن ، ثم تقبض من هناك ، ولهذا قال ـ ﷺ ـ : « **حتى إذا بلغت الحلقوم** » وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٣ ، ٨٤] . فأول ما يموت من الإنسـان أسفله ، تخرج الـروح بأن تصعد فى الـبدن إلى أن تصل إلى الحلـقوم ، ثم يقبضها ملك الموت ، نسأل الله أن يختم لنا ولكم بالخير والسعادة .

❊ ❊ ❊

[٥/ ٩١] الخامس : عن أنس ـ رضي الله عنه ـ ، أنَّ رسول اللَّه ـ ﷺ ـ أخَذَ سَيْفاً يوْمَ أُحُد فَقَال : « **مَنْ يَأخُذُ منّى هذَا ؟** » فَبسَطُوا أَيْديَهُمْ ، كُلُّ إنْسـانٍ منْهُمْ يقُول : أنا أنَا . قال : «**فَمنْ يأخُذُهُ بحقه ؟** » فَأحْجمَ الْقَوْمُ ، فَقَالَ أَبُو دجَـانةَ رضى اللَّه عنه : أنا آخُذُهُ بحقه ، فَأخَذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشرِكينَ . رواه مسلم .

اسمُ أَبى دُجَانَة :سِـمَاكُ بْنُ خَرشَةَ. قَـوْلُهُ : « أَحْجَمَ الْقَوْمُ » : أى تَوَقَّـفُوا. وَ «فَلَقَ بِهِ»: أىْ شَقَّ . « هَامَ الْمُشْرِكينَ » : أىْ رؤوسَهُمْ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ أخذ سيفًا يوم أحد فقال : « **من يأخذ هذا السيف ؟** » **فبسط القوم أيديهم كلهم يقول : أنا،**

[٥/ ٩١] صحيح : **رواه مسلم (٢٤٧٠)** .

Marfat.com

أنا ، أنا آخذه ، ثم قال : « من يأخذه بحقه ؟ » فأحجم القوم ولم يشر أحد منهم ليقول أنا آخذه ، حتى بادر أبو دجانة - ﷺ - ، فقال : أنا آخذه بحقه ، فأخذه ففلق به هام المشركين .

يقول أنس : إن الرسول - ﷺ - فى غزوة أحد ، وغزوة أحد إحدى الغزوات الكبار التى غزاها رسول الله - ﷺ - بنفسه ، وأحد جبل قرب المدينة ، وكان سبب الغزوة أن قريشًا لما أصيبوا ببدر بقتل زعمائهم وكبرائهم ، أرادوا أن يأخذوا بالثأر من النبى - ﷺ - ، فجاءوا إلى المدينة يريدون غزو الرسول - ﷺ - ، فاستشار النبى - ﷺ - أصحابه حين علم بقدومهم ، فأشار عليه بعضهم بالبقاء فى المدينة ، وأنهم إذا دخلوا المدينة أمكن أن يرموهم بالنبل وهو متحصنون فى البيوت ، وأشار بعضهم ولا سيما الشباب منهم والذين لم يحضروا غزوة بدر أشاروا أن يخرج إليهم ، فدخل النبى - ﷺ - بيته ولبس لأمته ، يعنى لأمة الحرب ، ثم خرج ، وأمر بالخروج إليهم فى أحد .

فالتقوا فى أحد ، وصفّ النبى - ﷺ - أصحابه صفًا مرتبًا من أحسن ما يكون ، وجعل على الجبل الرماة الذى يحسنون الرمى بالنبل ، وهم خمسون رجلاً ، وأمر عليهم عبدالله بن جبير - ﷺ - ، وقال لهم : لا تبرحوا مكانكم ، ابقوا فى مكانكم سواء كانت لنا أو علينا .

فلما التقى الصفان ، انهزم المشركون وولوا الأدبار ، وصار المسلمون يجمعهم الغنائم، فقال الرماة الذين فى الجبل : انزلوا نأخذ الغنائم ونجمعها ، فذكرهم أميرهم بأمر النبى - ﷺ - لهم أن يبقوا فى مكانهم ، سواء كانت للمسلمين أو عليهم ، ولكنهم - ﷺ - ظنوا أن الأمر قد انتهى ، لأنهم رأوا المشركين ولّوا ولم يبق إلا نفر قليل .

فلما رأى فرسان قريش أن الجبل قد خلا من الرماة ، كروا على المسلمين من خلفهم، ثم اختلطوا بالمسلمين ، فصار ما كان بقدر العزيز الحكيم جل وعلا ، واستشهد من المسلمين سبعون رجلاً ، ومنهم حمزة بن عبد المطلب - ﷺ - عم رسول الله - ﷺ - وأسد الله وأسد رسوله .

فلما أصيب المسلمون بهذه المصيبة العظيمة قالوا : أنّى هذا كيف نهزم ، ومعنا رسول الله - ﷺ - ونحن جند الله ، وأولئك معهم الشياطين ، وهم جنود الشياطين ؟! فقال الله عز وجل : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل

Marfat.com

عمران : ١٦٥] . أنتم السـبب لأنكم عصيـتم ، كما قال اللـه تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] . يعنى حصل ما تكرهون .

فحصل ما حصل لحِكَمٍ عظيمة ، ذكـرها الله عز وجل فى سورة آل عمران ، وتكلم عليها الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله ـ كـلامًا جيدًا لم أر مثله ، فى كتاب « زاد المعاد » فى بيان الحكم العظيمة من هذه الغزوة .

المهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ سيفًا فقال لأصحابه : « **من يأخذ منى هذا السيف ؟** » كلهم قـال : نأخذه ، رفعوا أيديهـم وبسطوها ، يقولون ، أنا أنـا ، فقال : «**فمن يأخذه بحق ؟** » فأحجم القوم ، ما يعلمون ما حقـه ، يخشون أن حقه يكون كبيرًا جدًا لا يستطيعون القيام به ، ويخشون أيضًا أن يعجزوا عن القيام به ، فيكونون قد أخذوا هذا السـيف على الـعهـد من رسول اللـه ـ ﷺ ـ ثم لا يوفون بـه ، ولكن اللـه وفَّق أبا دجـانـة ـ رضي الله عنه ـ فقال : أنا آخذه بحـقه فأخذه بحقه ، وهو أن يضرب بـه حتى ينكسر ، أخذه بحقه ـ رضي الله عنه ـ وقاتل به وفلق به هام المشركين ـ رضي الله عنه ـ .

فى هذا : دليل على أنه ينبـغى للإنسان أن يبادر بالخير وألا يتأخـر ، وأن يستعين الله عز وجل ، وهو إذا استعان الله وأحسن به الظن أعانه الله .

كثير من الناس ربما يسـتكثر العبادة ، أو يرى أنها عظيمة يستعـظمها ، فينكص على عقبيـه ، ولكن يقال للإنسان استعـن بالله توكل على الله ، وإذا استعـنت بالله وتوكلت عليه ودخلت فيما يرضيه عز وجل ، فأبشر بالخـير ، وأن الله تعالى سيعينك كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وفى هذا : دليل أيضًا على حسن رعاية النبى ـ ﷺ ـ لأمته ، لأنه لم يخص بالسـيف أحدًا من الناس ، ولكنه جـعل الأمر لعموم الناس ، وهكذا ينبغى للإنسـان الذى استرعاه الله رعية ألا يحابى أحدًا ، وألا يتصرف تصرفًا يُظن أنه محاب فيه ، لأنه إذا حابى أحدًا أو تصرف تصرفـا يظن أنه حابى فيه ، حصـل من القوم فرقة وهذا يؤثر علـى الجماعة ، نعم لو امتاز أحد من الناس بميزة لا توجد فى غيره ، ثم خصه الإنسان بشئ ، ولكنه يبين للجماعة أنه خصه لامتيازه بشئ لا يوجد فيهم فهذا لا بأس به .

* * *

Marfat.com

[٦/ ٩٢] السَّادس : عن الزُّبَيرِ بنِ عديّ قال : أتَيْنَا أنسَ بنَ مَالك ـ رضي الله عنه ـ فَشكَوْنَا إلَيْه مَا نَلْقَى منَ الْحجَّاجِ . فَقَالَ : « اصبرُوا ، فَإنَّه لا يَأتى زَمَانٌ إلا وَالَّذى بَعْدَه شرٌّ منه حَتَّى تَلْقَوْا ربَكُمْ » سَمعْتُه منْ نَبيكُمْ ـ ﷺ ـ . رواه البخارى .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن الزبير بن عدى أنهم أتوا إلى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ ، خادم رسول الله ـ ﷺ ـ ، وكان قد عمِّر وبقى إلى حوالى تسعين سنة من الهجرة النبوية ، وكان قد أدرك وقته شئ من الفتن ، فجاءوا يشكون إليه ما يجدون من الحجاج بن يوسف الثقفى أحد الأمراء لخلفاء بنى أمية ، وكان معروفًا بالظلم وسفك الدماء، وكان جبارًا عنيدًا والعياذ بالله .

وهو الذى حاصر مكة لقتال عبد الله بن الزبير ، وجعل يرمى الكعبة بالمنجنيق حتى هدمها أو هدم شيئًا منها، وكان قد آذى الناس، فجاءوا يشكون إلى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، فقال لهم أنس ـ رضي الله عنه ـ : « اصبروا » ، أمرهم بالصبر على جور ولاة الأمور وذلك لأن ولاة الأمور قد يسلَّطون على الناس ، بسبب ظلم الناس ، كما قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

أنت إذا رأيت ولاة الأمور قد ظلموا الناس فى أموالهم أو فى أبدانهم أو حالوا بينهم وبين الدعوة إلى الله عز وجل ، أو ما أشبه ذلك ففكر فى حال الناس ، تجد أن البلاء أساسه من الناس ، هم الذين انحرفوا فسلط الله عليهم من سلط من ولاة الأمور ، وفى الأثر ـ وليس بحديث ـ كما تكونون يولى عليكم (١) .

ويُذكر أن بعض خلفاء بنى أمية ـ وأظنه عبد الملك بن مروان ـ جمع وجهاء الناس ، لما سمع أن الناس يتكلمون فى الولاية ، جمع الوجهاء وقال لهم : أيها الناس ، أتريدون أن نكون لكم كما كان أبو بكر وعمر ؟ قالوا : بلى نريد ذلك ، قال : كونوا كالرجال الذين تولى عليهم أبو بكر وعمر لنكون لكم كأبى بكر وعمر .

يعنى أن الناس على دين ملوكهم ، فإذا ظلم ولاة الأمور الناس فإنه غالبًا يكون بسبب أعمال الناس .

وجاء رجل من الخوارج إلى على بن أبى طالب ـ رضي الله عنه ـ وقال : ما بال الناس انتقدوا

[٦/ ٩٢] صحيح : رواه البخارى (٧٠٦٨) أحمد (٣/ ١٣٢ ، ١٧٧) .

(١) انظر السلسلة الضعيفة (٣٢٠) .

Marfat.com

عليك ولم ينتقـدوا على أبى بكر وعمر ؟! قال : لأن رجال أبى بكر وعـمر أنا وأمثالى ، ورجالى أنت وأمثالك ، يعنى أن الناس إذا ظلموا سلطت عليهم الولاة .

ولهذا قال أنس : « اصبروا » ، وهذا هو الواجب ، الواجب أن يـصبر الإنسان ولكل كربة فرجة ، لا تظن أن الأمور تأتى بكل سهولة ، الشر ربما يأتى بغتة ويأتى هجمة ولكنه لن يدال على الخيـر أبدًا ، ولكن علينا أن نصبـر وأن نعالج الأمور بحكمة لا نـستسلم ولا نتهور ، نـعالج الأمور بحكمـة وصبر وتأن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] ، إن كنت تريد الفلاح فـهذه أسبابه وهذه طرقه : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

ثم قال أنس بن مالك : « **فإنه لا يـأتى على الناس زمان إلا ومـا بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم** » ، سمعته من نبيكم محمد ـ ﷺ ـ .

يعنى أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : لا يأتى على النـاس زمان إلا وما بعده أشر منه . شر منه فى الدنيا ، وهذا الشـر ليس شرًّ مطلقًا عامًا ، بل قد يـكون شرًا فى بعض المواضع ، ويكون خيرًا فى مواضع أخرى وهكذا .

ومع هذا فإن الناس كـلما ازدادوا فى الرفاهية ، وكلمـا انفتحوا على النـاس انفتحت عليهـم الشرور ، إن الرفاهيـة هى التى تدمر الإنسـان ؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى الرفـاهية وتنعيم جـسده غفل عن تنعـيم قلبه ، وصار أكبـر همه أن ينعم هذا الجسـد الذى مآله إلى الديدان والنتن .

وهذا هو البلاء وهذا هـو الذى ضر الناس اليوم ، لا تكاد تجد أحـدًا إلا ويقول : ما قَصْرُنا ؟ ما سيـارتنا ؟ ما فرشنا ؟ ما أكلنا ؟ حتى الذين يقـرءُون العلم ويدرسون العلم ، بعضهم إنما يدرس لينال رتبة أو مرتبة يتوصـل بها إلى نعيم الدنيا . وكأن الإنسان لم يخلق لأمر عظيم ، والدنيا ونعيمها إنما هى وسيلة فقط .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مـا معناه : ينبغى على الإنسان أن يستعمل المال كما يستعمل الحمار للركوب ، وكما يستعمل بيت الخلاء للغائط .

فهؤلاء هم الذين يعرفون المال ويعرفون قدره ، لا تجعل المال أكبر همك ، اركب المال فإن لم تركب المال ركبك المال ، وصار همك هو الدنيا .

ولهذا نقـول : إن الناس كلما انفتـحت عليهم الدنيـا وصاروا ينظرون إليهـا ، فإنهم يخسرون من الآخر بقدر ما ربحوا من الدنيا ، قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **والله ما الفقر أخشى عليكم** » يعنى ما أخاف عليكم الفقر ، فالدنيا ستفتح « **وإنما أخشى عليكم أن**

Marfat.com

تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسوها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم »(١) .

وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، هذا الذى أهلك الناس اليوم ، الذى أهلك الناس اليوم التنافس فى الدنيا ، وكونهم كأنهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم ، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له ، وهذا من الانتكاس ، نسأل الله العافية .

وفى هذا الحديث : وجوب الصبر على ولاة الأمور وإن ظلموا وجاروا ، لأنك سوف تقف معهم موقفاً تكون أنت وإياهم على حد سواء.عند ملك الملوك ، سوف تكون خصمهم يوم القيامة إذا ظلموك ، لا تظن أنما يكون فى الدنيا من الظلم سيذهب هباء أبدًا، حق المخلوق لابد أن يؤخذ يوم القيامة ، فأنت سوف تقف معهم بين يدى الله عز وجل ليقضى بينهم بالعدل ، فاصبر وانتظر الفرج ، فيحصل لك بذلك اطمئنان النفس والثبات ، وانتظار الفرج عبادة ، تتعبد لله به ، وإذا انتظرت الفرج من الله فقد قال النبى- ﷺ - : « **واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً** » (٢) .

وفى هذا : التحذير من سوء الزمان ، وأن الزمان يتغير ويتغير إلى ما هو أشر . وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام ذات يوم لأصحابه : « **من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيراً** » (٣) وأظن أننا وعيشنا فى الدنيا قليل بالنسبة لمن سبق ، نرى اختلافًا كثيراً ، نرى اختلافًا كثيرًا بين سنين مضت وسنين الوقت الحاضر .

حدثنى من أثق به أن هذا المسجد مسجد الجامع كان لا يؤذن لصلاة الفجر إلا وقد تم الصفُّ الأول ، يأتى الناس إلى المسجد يتهجدون ، أين المتهجدون اليوم إلا ما شاء الله ؟ قليل !!

تغيرت الأحوال ، كنت تجد الواحد منهم كما قال النبى عليه الصلاة : « **كالطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا** » (٤) إذا أصبح يقول : اللَّهم ارزقنى ، قلبه معلق بالله عز وجل فيرزقه الله ، وأما الآن فأكثر الناس فى غفلة عن هذا ، يعتمدون على من سوى الله ، ومن تعلَّق بشئٍ وُكِلَ إليه .

نعم فى الآونة الآخيرة والحمد لله لا شك أن الله سبحانه وتعالى فتح على الشباب فتحًا أسأل الله تعالى أن يزيدهم من فضله ، فتح عليهم وأقبلوا إلى الله ، فتجد بين

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٠١٥) ابن ماجه (٣٩٩٧) الترمذى (٢٤٦٢) .
(٢) صحيح: رواه أحمد (١/٣٠٧) وقد سبق تخريجه .
(٣) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٣) أحمد (٤/١٢٦) الترمذى (٢٦٧٦) .
(٤) صحيح: رواه الترمذى (٣٣٤٤) أحمد (١/٥٢) وصححه الألبانى فى الصحيحة (٣١٠).

Marfat.com

سنواتنا هذه الأخيرة ، والسنوات الماضية بالنسبة للشباب فنجد فرقًا عظيمًا ، قبل نحو عشرين سنة كنت لا تكاد تجد الشباب بالمسجد ، أما الآن ولله الحمد فأكثر من فى المسجد هم الشباب ، وهذه نعمة ولله الحمد ، يرجو الإنسان لها مستقبلاً زاهرًا ، وثقوا أن الشعب إذا صلح فسوف تضطر ولاة أموره إلى الصلاح مهما كان .

فنحن نرجو لإخواننا فى غير هذه البلاد الذين مَنَّ الله عليهم بالصلاح واستقاموا على الحق أن يصلح لهم الولاة ، ونقول : اصبروا فإن ولاتكم سيصلحون رغمًا عنهم ، فإذا صلحت الشعوب صلحت الولاة بالاضطرار .

* * *

[٧/ ٩٣] السَّابع : عن أبى هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « **بادروا بالأعمال سَبْعاً ، هَلْ تَنْتَظرونَ إلا فَقْراً مُنْسياً ، أوْ غنًى مُطْغياً ، أوْ مَرضاً مُفْسداً ، أوْ هَرَماً مُفْنداً ، أوْ مَوْتاً مُجْهزاً ، أو الدَّجَّالَ فَشرُّ غَائب يُنْتَظَر ، أو السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أدْهَى وَأمرُّ !** » رواه الترمذى وقال : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

سبق لنا أن النبى عليه الصلاة والسلام ذكر فى أحاديث متعددة ما يدل على أنه من الحزم أن يبادر الإنسان بالأعمال الصالحة ، وفى هذا الحديث أشار النبى - ﷺ - إلى أشياء متعددة ينبغى للإنسان أن يبادر بالأعمال حذرًا منها ، فقال : « **بادروا بالأعمال سبعًا** » يعنى سبعة أشياء كلها محيطة بالإنسان يخشى أن تصيبه ، منها الفقر ، قال : « **هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا أو غنىً مطغيًا** » الإنسان بين حالين بالنسبة للرزق : تارة يغنيه الله عز وجل ويمده بالمال ، والبنين ، والأهل ، والقصور ، والمراكب ، والجاه ، وغير ذلك من أمور الغنى ، فإذا رأى نفسه فى هذه الحال فإنه يطغى والعياذ بالله ، ويزيد ويتكبر ، ويستنكف عن عبادة الله ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] . وبيّن الله وقال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ [العلق : ٨] . يعنى مهما بلغت من الاستغناء والعلو فإن مرجعك إلى الله .

ونحن نشاهد أن الغنى يكون سببًا للفساد والعياذ بالله ، تجد الإنسان فى حال فقره مخبتًا إلى الله ، منيبًا إليه ، منكس النفس ، ليس عنده طغيان ، فإذا أمده الله بالمال استكبر والعياذ بالله وأطغاه غناه .

[٧/ ٩٣] ضعيف : رواه الترمذى (٢٣٠٦) ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى (٤٠٠) .

Marfat.com

أو بالعكس : « **فقرًا منسيًا** » الفقر قلة ذات اليد ، بحيث لا يكون مع الإنسان مال ، الفقر ينسى الإنسان مصالح كثيرة ، لأنه يشتغل بطلب الرزق عن أشياء كثيرة تهمه وهذا شئ مشاهد ، ولهذا يخشى على الإنسان من هذين الحالين ؛ إما الغنى المطغى أو الفقر المنسى .

فإذا منَّ الله على العبد بغنى لا يطغى وبفقر لا ينسى ، وكانت حاله وسطًا ، وعبادته مستقيمة ، وأحواله قويمة ، فهذه هى سعادة الدنيا .

وليست سعادة الدنيا بكثرة المال ، لأنه قد يطغى ، ولهذا تأمل قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] . ما قال من عمل عملاً صالحًا من ذكر أو أنثى فلنوسعنَّ عليه ولنعطينه المال الكثير ، قال : ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ إما بكثرة المال أو بقلة المال ، ويروى فى الحديث القدسى : « **إن من عبادى من لو أغنيته لأفسده الغنى ، وإن من عبادى من لو أفقرته لأفسده الفقر** »[1] .

وهذا هو الواقع من الناس من يكون الفقر خيرًا له ومن الناس من يكون الغنى خيرًا له ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام حذر من غنى مُطغٍ وفقر مُنْسٍ .

الثالث : قال : « **أو مرضًا مفسدًا** » المرض يفسد على الإنسان أحواله ، فالإنسان ما دام فى صحة تجده منشرح الصدر واسع البال ، مستأنسًا ، لكنه إذا أصيب بالمرض انكتم وضاقت عليه الأرض وصار همه نفسه ، فتجده بمرضه تفسد عليه أمور كثيرة ، لا يستأنس مع الناس ، ولا ينبسط إلى أهله لأنه مريض ومتعب فى نفسه ، فالمرض يفسد على الإنسان أحواله .

والإنسان ليس دائمًا يكون فى صحة ، فالمرض ينتظره كل لحظة ، كم من إنسان أصبح نشيطًا صحيحًا وأمسى ضعيفًا مريضًا ، أو بالعكس ، أمسى صحيحًا نشيطًا وأصبح مريضًا ضعيفًا ، فالإنسان يجب عليه أن يبادر إلى الأعمال الصالحة حذرًا من هذه الأمور .

الرابع : « **أو هرمًا مفندًا** » الهرم يعنى الكبر ، فالإنسان إذا كَبُر وطالت به الحياة فإنه كما قال الله عز وجل : يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ أى إلى أسوئه وأردئه ، فيلتحق هذا الرجل الذى عهدته من أعقل الرجال ، يرجع حتى يكون مثل الصبيان ، بل هو أردأ من الصبيان، لأن الصبى لم يكن قد عقل فلا يدرى عن شىء، لكن هذا قد عقل وفهم الأشياء ، ثم رد إلى أرذل العمر ، فيكون هذا أشد عليه .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٣٢) .

Marfat.com

ولذلك نجـد أن الذين يردُّون إلى أرذل العـمر من كبار الـسن يؤذون أهليهـم أشد من إيذاء الصبيان ، لأنهم كانـوا قد عقلوا ، وقـد استعاذ النـبى - ﷺ - من أن يرد إلى أرزل العمر (١) .

نسأل اللـه أن يعيذنا وإياكـم من الرد إلى أرذل العمـر ، لأن الإنسان إذا رد إلى أرذل العمر تعب وأتعب غيره ، حتى إن أخـص الناس به يتمنى أن يموت لأنه آذاه وأتعبه ، وإذا لم يتمن بلسان المقال فربما يتمنى بلسان الحال .

أما الخامس : « **فالموت المجهز** » يعنى أن يموت الإنسان ، والموت لا ينذر الإنسان ، قد يموت الإنسان بدون إنذار ، قد يمـوت على فراشه نائمًا ، وقد يموت على كـرسيه عاملاً ، وقد يموت فى طريقه ماشيًا كما هو معروف ، إذا مات الإنسان انقطع عمله ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا مـن ثلاثة ، إلا من صدقة جارية ، أو علِم يـنتفع به ، أو ولـد صالح يدعـو له** » (٢) فبـادر بالعمل قـبل الموت المجهـز ، الذى يجهزك ولا يمهلك .

السادس : « **أو الدجال فـشر غائب يـنتظر** » الدجال صيـغة مبالغـة من الدَّجَل وهو الكذب والتمويه ، وهو رجل يبعثه الله فى آخر الزمان ، يصل إلى دعوى الربوبية ، يدعى أنه رب ، فيمكث فى فتنته هذه أربعين يومًـا ، يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كأسبوع ، وسائر أيامه كالأيام المعتادة ، لكن يعطيه الله عز وجل من القدرات ما لم يعط غيره ، حتى إنه يأمر السماء فتمطر ، ويأمر الأرض فتنبت ، ويأمر الأرض فتجدب ، والسماء فتقحط : تمنع المطر ، ومعه جنة ونار ، لكنها مموهة جنته نار وناره جنة (٣) .

هذا الرجل أعور العين ، كأن عينه عنبة طافية ، مكتوب بين عينية « كافر » (٤) كاف ، فاء ، راء ، يقرأه كل مؤمن ، الكاتب وغير الكاتب ، ولا يقرؤه المنافق ولا الكافر ولو كان قارئًا أو كاتبًا ، وهذا من آيات الله .

هذا الرجل يرسل الله عليـه عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، فـينَزِل من السماء فيقتله كما جاء فى بعض الأحاديث بباب لد فى فلسطين حتى يقضى عليه (٥) .

---

(١) صحيح : انظر البخارى (٢٨٢٢) .
(٢) صحيح : رواه مسلم (١٦٣١) الترمذى (١٣٧٦) .
(٣) صحيح : رواه البخارى (٧١٢٢) مسلم (٢٩٤٣) .
(٤) صحيح : رواه مسلم (٢٩٣٥) .
(٥) صحيح : رواه البخارى (١٣٧٧) مسلم (٥٨٨) .

Marfat.com

فالحاصل أن الدجال شر غائب ينتظر ؛ لأن فتنته عظيمة ، ولهذا نحن فى صلاتنا فى كل صلاة نقول : أعوذ بالله من عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال ، خصها لأنها أعظم فتنة تكون فى حياة الإنسان .

السابع : « **أو الساعة** » يعنى قيام الساعة الذى فيه الموت العام ، والساعة أدهى وأمر كما قال الله عز وجل : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٦] .

فهذه سبع حذر منها النبى عليه الصلاة والسلام ، وأمرنا أن نبادر بالإعمال هذه السبع فبادر يا أخى المسلم بأعمالك الصالحة قبل أن يفوتك الأوان ، أنت الآن فى نشاط ، وفى قوة ، وفى قدرة ، لكن قد يأتى عليك زمان لا تستطيع ولا تقدر على العمل الصالح ، فبادر وعود نفسك ، وأنت إذا عودت نفسك العمل الصالح اعتادته وسهل عليها وانقادت له ، وإذا عودت نفسك الكسل والإهمال ، عجزت عن القيام بالعمل الصالح ، نسأل الله أن يعيننى وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

[٨/ ٩٤] الثامن : عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يومَ خيبَرَ : « **لأعْطِيَنَّ هذه الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَه ، يَفْتَحِ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ** » . قَالَ عُمَرُ ـ رضي الله عنه ـ : مَا أَحْبَبْتُ الإمَارَةَ إلا يَوْمَئذ ، فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ أُدْعَى لَهَا ، فَدَعَا رسول الله ـ ﷺ ـ عَلىَّ بن أبى طَالب ، ـ رضي الله عنه ـ فَأعطَاه إيَّاهَا ، وَقَالَ : « **امْشِ وَلا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ** » فَسَارَ عَلىٌّ شَيْئاً ، ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ ؛ فَصَرَخَ : يَا رسول الله ،على ماذَا أُقَاتل النَّاس! قَالَ : « **قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدوا أَنْ لا إله إلا الله ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رسول الله ، فإذَا فَعلُوا ذلك فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بحقِّهَا ، وَحسابُهُمْ على الله** » رواه مسلم .

« فَتَسَاوَرْت » هُوَ بالسِّين المهملة : أى وَثَبت مُتَطَلّعاً .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوم خيبر : « **لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله** » وفى لفظ : « **ويحبه الله ورسوله** »(١) .

يوم خيبر : يعنى يوم غزوة خيبر ، وخيبر حصون ومزارع كانت لليهود تبعد عن المدينة

[٨/ ٩٤] صحيح : رواه مسلم (٢٤٠٥) .

(١) أحمد (٥/ ٣٣٣) والحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٣٧) .

Marfat.com

نحو مائة ميل نحو الشمال الغربى ، فتحـها النبى عليه الصلاة والسلام كما هو معروف فى السير ، وكان الذين يعـملون فيها اليهود ، فصالحهم النبـى عليه الصلاة واسلام ، على أن يبقوا فـيها مزارعين بالنصـف ، لهم نصف الثمرة وللـمسلمين نصف الثمـرة ، وبقوا على ذلك حـتى أجلاهم عـمر بـن الخطاب - رضي الله عنه - فى خـلافته ، أجـلاهـم إلى الشـام إلى أزرعات .

قال النـبى عليه الصـلاة والسلام : « **لأعطين هـذه الراية رجلاً يـحب الله ورسـوله** »
الراية : هى مـا يسمى عندنا العَـلَم ، يحمله القـائد من أجل أن يهتـدى به الجيش وراءه ، وقوله : « **رجلاً** » نكرة لا يعـلم ما هو ، قـال عمر بن الخـطاب : ما تمنيـت الإمارة إلا يومئذ، رجاء أن يصيبه ما قاله النبى عليه الصلاة والسلام ، فتساورت لها وبات الناس تلك الليلـة يخوضون ويلـوكون ويدوكون كل مـنهم يرجو أن يـعطاهـا فلـمـا أصبحـوا دعـا الـنبـى - صلى الله عليه وسلم - على بن أبى طالب ابن عمه ، قالوا : يا رسول الله ، إنه يشتكى عينيه، يعنى عنده وجع فى عـينيه ، فدعا به فجاء فـبصق فى عينه فبرأ كـأن لم يكن به وجع فى الحال والله عـلى كل شىء قدير ، ثم أعطاه الـراية ، وقال له : « **امش ولا تلتـفت حتى يفتح الله** » .

ففعل - رضي الله عنه - ، فلما مشى قليلاً وقف ، ولكنه لم يلتفت لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : لا تلتفت ، فـصرخ بأعلى صوته ، يـا رسول الله ، على ماذا أقـاتلهم ؟ قال : « **قاتلهم حتى يشهدوا ألا إله إلا اللـه وأن محمداً رسول الله** » هذه الكلمة كلمة عظيمة ، لو وزنت بها السموات والأرض لـرجحت بالسموات والأرض ، هذه الكلمة يـدخل بها الإنسان من الكفر إلى الإسلام ، فـهى باب الإسلام : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن مـحمداً رسول الله ، « **فإذا فعلوا ذلك فقـد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقهـا وحسابهم على الله** » يعنى إذا قالوا : نشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإنهم لا يقاتلون ، منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، أى بحق لا إله إلا الله ، أى بالحقوق التابعة لها ، لأن لا إله إلا الله ليست مجرد لفظة يقولها الإنسان بلسانه ، بل لها شروط ولها أمور لابد أن تتم .

ولهذا قيل لـبعض السلف :أليس مفتاح الجنة لا إله إلا اللـه ؟ فقال : نعم ، مفتاح الجنة لا إله إلا الله ، لكن لابد من عمل ، لأن المفتاح يحتاج إلى أسنان .

وقد صدق - رحمه الله - : المفتاح يحتاج إلى أسنان ، لو جئت بمفتاح بدون أسنان ما فتح لك .

إذن قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « **إلا بحقها** » يشمل كل شئ يكفر به الإنسان

Marfat.com

مع قوله لا إله إلا الله ، فإن من كفر وإن كان يقول لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ، ولكنه أتى بمكفر فإن هذه الكلمة لا تنفعه .

ولهذا كان المنافقون يقولون : لا إله إلا الله ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، هيئتهم، وشكلهم كأنهم أكمل المؤمنين إيمانًا ، ويأتون للرسول- ﷺ - يقولون له : نشهد إنك لرسول الله ، الكلام مؤكد بثلاث مؤكدات « نشهد » (إنَّ) و (اللام) في (لرسول الله) فقال ربُّ العزة والجلال الذى يعلم ما فى الصدور : ﴿ والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ [المنافقون : ١] . أعطاهم شهادة بشهادة ، يشهد إن المنافقين لكاذبون ، وأكد الله عز وجل كذب هؤلاء فى قولهم : نشهد إنك لرسول الله بثلاثة مؤكدات ، فليس كل من قال لا إله إلا الله يعصم دمه وماله ، لأن النبى- ﷺ - استثنى فقال : « **إلا بحقها** » .

ولما منع الزكاة من منعها من العرب بعد وفاة النبى- ﷺ - ، واستعد أبو بكر- رضي الله عنه - لقتالهم ، تكلم معه من تكلم من الصحابة ، وقالوا : كيف تقاتلهم وهم يقولون : لا إله إلا الله ؟ قال- رضي الله عنه - : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، الزكاة حق المال ، وقد قال النبى- ﷺ - : « **إلا بحقها** » فقاتلهم- رضي الله عنه - على ذلك وانتصر ولله الحمد .

فالحاصل أنه ليس كل من قال لا إله إلا الله فإنه يمنع دمه وماله ، ولكن لابد من حق، ولذلك قال العلماء ـ رحمهم الله ـ : لو أن قرية من القرى تركوا الأذان والإقامة فإنهم لا يكفرون ولكن يقاتلون وتستباح دماؤهم حتى يؤذنوا ويقيموا ، مع أن الأذان والإقامة ليسا من أركان الإسلام ، لكنهما من حقوق الإسلام ، قالوا : ولو تركوا صلاة العيد مثلاً ، مع أن صلاة العيد ليست من الفرائض الخمس ، لو تركوا صلاة العيد وجب قتالهم ، يقاتلون بالسيف والرصاص حتى يصلوا العيد ، مع أن صلاة العيد فرض كفاية أو سنة عند بعض العلماء ، أو فرض عين على القول الراجح ، لكن الكلام على أن القتال قد يجوز مع إسلام المقاتلين ليذعنوا لشعائر الإسلام الظاهرة ، ولهذا قال هنا : « **إلا بحقها** ».

وفى هذا الحديث : دليل على أنه يجوز للإنسان أن يقول : لأفعلن كذا فى المستقبل ، وإن لم يقل : إن شاء الله ، ولكن يجب أن نعلم الفرق بين شخص يخبر عما فى نفسه ، وشخص يخبر أنه سيفعل ، يعنى يريد الفعل .

أما الأول فلا بأس أن يقول : سأفعل بدون إن شاء الله ، لأنه إنما يخبر عما فى نفسه، وأما الثانى الذى يريد أنه يفعل أي يوقع الفعل فعلاً ، فهذا لا يقل إلا مقيداً بالمشيئة، قال تعالى : ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا (٢٣) إلا أن يشاء الله ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] .

Marfat.com

فهناك فرق بـين من يخبر عما فى نفـسه وبين من يقول إننى سأفعـل غدًا . غدًا ليس إليك ، ربما تموت قـبل غد ، وربما تبقى ولكـن يكون هناك موانع وصوارف ، وربمـا تبقى ويصرف الله همتك عنه ، كما يقع كثيرًا ، كـثيرًا ما يريد الإنسان أن يفعل فعلاً غدًا أو فى آخر النهار ، ثم يصرف الله همته .

ولهذا قيل لبعض الأعراب ـ والأعراب سبحان الله عندهم أحيانًا جواب فطرى ـ . بما عرفت ربك ؟ فأجاب أحـدهم قائلاً : الأثر يدل على المسير ، والبعرة تـدل على البعير ، فسـماء ذات أبـراج ، وأرض ذات فجـاج ، وبحار ذات أمـواج ، ألا تدل علـى السمـيع البصير؟ ـ الـله أكبر ـ أعرابى لا يعرف لكنـه استدل بعقله ، هذه الأمور العـظيمة ألا تدل على خالق يخلقها ويدبرها ؟ بلى والله .

وسئل آخر : بما عرفت ربك ؟ قـال : بنقض العزائم وصرف الهـمم ؛ فكيف هذا ؟ يعزم الإنسـان على شئ ثم تنتقض عزيمـته بدون أى سبب ظاهر ، إذن من الذى نقـضها ؟ الذى نقض العزيمة هو الذى أودعها أولاً ، وهو اللـه عز وجل ، وصرف الهمم حيث يهم الإنسان بالشيء وربما يبدأ به فعلاً ثم ينصرف .

لذا نقول : إن فى هذا الحـديث دليل على أن الإنسان له أن يقول سأفـعل كذا إخبارًا عما فى نفسه ، لا جزمًا بأن يفعل ، لأن المستقبل له الله ، لكن إذا أخبرت عما فى نفسك فلا حرج .

❊ ❊ ❊

Marfat.com

١١ . باب فى المجاهد

قال اللّه تـعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨] أى انقَطِعْ إلَيْه ، وقـال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة:٧] ،وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ﴾ [المزمل: ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٧٣] ، والآيات فى الباب كَثِيرَة معلومة .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الـله تعالى ـ (باب المجاهدة) المجاهدة تعنى مـجاهدة الإنسان نفسـه ومجاهدته غيـره ، فأما مجـاهدة الإنسان نفسـه فإنها من أشق الأشـياء ، ولا يتم مجاهدة الغير إلا بمجاهدة النفس أولاً ، ومجـاهدة النفس تكون بأن يجاهد الإنسان نفسه على شيـئين ، على فعل الطـاعات وعلى ترك المعاصـى ؛ لأن فعل الطاعات ثقـيل على النفس إلا من خففه الله عليه ، وترك المعاصى كذلك ثقيل على النفس إلا من خففه الله عليه ، فتحتاج الـنفس إلى مجاهدة لاسيما مع قلة الرغبة فى الخـير ، فإن الإنسان يعانى من نفسه معاناة شديدة ليحملها على فعل الخير .

ومن أهم ما يكون من هذا مجاهدة النفس على الإخلاص لله عز وجل فى العبادة ، فإن الإخلاص أمـره عظيم وشاق جدًا ، حتى إن بـعض السلف يقول ما جـاهدت نفسى على شئ مجاهدتها على الإخلاص ، ولهذا كان جزاء المخلصين أن من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه حرمه الله على النار [(١)] .

لكن متى يكون هذا الأمر ؟ إن هذا الأمر شديد جدًا ، فالمجاهدة على الإخلاص لله من أشق ما يكون على النفوس ؛ لأن إنسان يـحب أن يكون مرموقًا عند الناس ، ويحب أن يكون محترمًا بين الناس ، ويحب أن يـقال : إن هذا رجل عابد ، هذا رجل فيه كذا وكذا من خـصال الخير ، فيـدخل الشيطان على الإنـسان من هذا الباب ، ويحـمله على مراءاة الناس . وقد قال النبى ـ ﷺ ـ : **« من راءى راءى الله به ، ومن سـمَّع سمَّع الله به»** يعنى أظهر أمره للناس حتى ينكشف والعياذ بالله [(٢)] .

---

(١) انظر الإمام أحمد (٣/٤٦٧) .

(٢) البخارى (٦٤٩٩) مسلم (٢٩٨٦) .

Marfat.com

كذلك أيضًا مما يـجاهد الإنسان نفسه عليـه فعل الطاعات الشاقة مـثل الصوم ، فإن الصوم من أشق الطاعات على النفوس ، لأن فيه ترك المألوف من طعام وشراب ونكاح ، فتجده يكون شاقًا على الناس إلا من يسره الله عليه وخفف عنه .

تجد بعض الناس مثـلاً إذا دخل رمضان كأنما وضع على ظهره جبـل والعياذ بالله ، لأن يستثقل الصوم ويرى أنه شاق ، حتى إن بعـضهم يجعل حظ يومه النوم ، وحظ ليله السهر فى أمر لا خير له فيه كل ذلك من أجل مشقة هذه العبادة عليه .

كذلك أيـضًا من الأشياء الـتى تحتاج إلى مـجاهدة ، مجـاهدة الإنسان نفســه على الصلاة مع الجماعة ، فكثير من الناس يسهل عليه أن يصلى فى بيته ، لكن يشق عليه أن يصلى مع الجمـاعة فى المساجد ، فتجـده مع نفسه فى جهاد ، يقـول : أصبر أؤدى هذا الشغـل أو أفعل كذا أو أفعـل كذا ، حتى يُسَـوِّف فتفوته صـلاة الجماعة ، وثـقل صلاة الجماعـة على الإنسان يـدل علـى أن فى قـلب الإنسـان نفاقًا ، والدليـل على ذلك قول النبى - ﷺ - : « **أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا** »(١) وهذا يحتاج وهذا يحتاج إلى المجاهدة .

أما مجاهدة النفس على ترك المحرم ، فما أكثر المحرمات التى يشق على بعض الناس تركها ، فتجد البعض يعتا على فعل المحرم ويشق عليه تركه ، ولنضرب لهذا مثلين .

المثل الأول : الدخان ؛ فإن كثـيرًا من الناس ابتـلى بشرب الدخان ، وأول مـا خرج الدخان اخـتلف العلمـاد فيه ، فمـنهم من قال إنه حـلال ، ومنهم من قـال إنه حرام ، ومنهم من قـال إنه مكروه ومنهم من قال ألحقـه بالخمر حتى أوجب الحـد على شاربه ، ولكن بعد أن مضت الأيام تـبين تبينًا لاشك فيه أنه حرام ؛ لأن الأطباء أجـمعوا على أنه مضر بالـصحة ، وأنه سبب لأمـراض مستعصـية تؤدى بالإنسان إلى الموت ، ولـهذا نجد بعض المدخنين يمـوت وهو يكلمك ، أو يموت وهو على الفـراش ، وإذا حمل أدنى شئ انقطع قلبه ومـات ، وهذا يدل على أنه ضار ، والشئ الضار مـحرم على الإنسان ؛ لأن الله يقول : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ [النساء : ٢٩] .

ويشق على بعض المبتلين بهذا الدخان أن يدعه ، مع أنه لو عود نفسه على تركه شيئًا فشيئًا وابتعد عن الذين يشربونه ، وصار يكره رائحته لهان عليه الأمر ، لكن المسألة تحتاج إلى عزيمة قوية وإيمان صادق .

---

(١) البخارى (٦٥٧) أحمد (٢/ ٢٤٢) .

Marfat.com

المثل الثاني : مما يشق على كثير من النـاس وقد ابتلى به الكثير : **حلق اللحى** ، فإن حلق اللحـية محرم لأن الـرسول ـ ﷺ ـ قال : « **خالفـوا المجوس ، خالفوا المشركين ، وفرُوا اللحى وخفُّوا الشوارب** » (١) وكثير من الناس قد غلبته نـفسه فصار يحلق لحيته ، ولا أدرى أى شئ يجنى من حلق اللحية ؟ لا يجنى إلا معاصى تتراكم عليه حتى تضعف إيمانه والعـياذ بالله ، لأن من مـذهب أهل السنة والجمـاعة أن المعاصى تـنقص الإيمان ، فيكتـسب حالق اللحيـة معاصى تنقص إيمانـه ، مع أنه لا يزيد نشاطه ولا صـحته ، ولا تندفع عنه على فعل الأوامر وعلى ترك النـواهى ، حتى يكون من المجاهدين فى الله عز وجل ، وقد قال الله تعالى فى جزائهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

أما مجاهدة الغير فإنها تنقسم إلى قسمين : قسم بالعلم والبيان ، وقسم بالسلاح .

أما مَن مجاهدته بـالعلم والبيان : فهو الذى يتسمى بـالإسلام وليس من المسلمين ؛ مثل المنافقين وأهل البدع المكفرة وما أشبه ذلك ، فإن هؤلاء لا يمكن أن نجاهدهم بالسلاح لأنهم يتظاهرون بالإسلام وأنهم معنا ، ولكننا نجاهدهم بالعلم والبيان .

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة : ٧٣] . فجهاد الـكفار يكون بالـسلاح ، وجهاد المـنافقين يكون بالعلم والبيان .

ولهذا كان الرسول علـيه الصلاة والسلام يعلم بأن فى أصحابه منـافقين ، ويعلمهم بأعيانهم ولكنه لا يقتلهم واستؤذن فى قتلهم فقال : « **لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه** » .

فكذلك الذين ينطوون تحت لواء الإسلام من أهل البـدع لا نقاتلهم بالسلاح ، لكننا نقاتلهم بالعلم والبيان .

ولهذا كـان واجبًا على شـباب الأمة الإسلامـية أن يتعـلموا العلم علـى وجه راسخ ثابت ، لا على وجه سطحى كمـا يوجد فى كثير من بيوت العلم ، حيث يـتعلمون علمًا سطحيًا لا يرسخ بالذهن ، علماً يقصد به الإنسان أن يحصل على بطاقة أو شهادة فقط ، ولكن العلم الحقيـقى هو العلم الذى يرسخ فى القلب ، ويكون كالمـلكة للإنسان ، حتى إن الإنسان الذى يوفق لهذا النوع من العلم تجده لا يـكاد تأتيه مسألة من المسائل إلا عرف

(١) البخارى (٥٨٩٢) مسلم (٢٦٠) .

Marfat.com

كيف يخرجها على الأدلة من الكتاب والسنة والقياس الصحيح ، فلابد من علم راسخ .

والناس اليوم فى عصـرنا محتاجون إلى هذا النوع من العلم ، لأن الـبدع بدأ يفشو ظلامهـا فى بلادنا ، هذا بعـد أن كانت نزيهة مـنها ، لكن نظـرًا لانفتاحنا عـلى الناس وانفتاح الـناس علينا ، وذهاب بعضنا إلـى بلاد أخرى ، ومجئ آخرين إلى بلادنـا ليسوا على عقيدة سليـمة ، بدأت البدع تظهر ويفشو ظلامها ، وهـذه البدع تحتاج إلى نور من العلم يـضئ الطريق حتى لا يصيب بلاد ما أصاب غيرها من البدع المنكرة العظيمة التى قد تصل إلى الكفر والعياذ بالله .

فلابد من مجاهدة أهل البدع وأهل النفاق بالـعلم والبيان ، وبيان بطلان ما هم عليه بالأدلة المقنعة من كـتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - ، وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة الهدى من بعدهم .

أما النوع الثانى من جـهاد الغير : فهو الجهاد بالسـلاح وهذا فى جهاد الأعداء الذين يظهـرون العداوة لـلإسلام ويصـرحون بذلك ، مـثل اليهـود والنصـارى الذين يُسـمون بالمسيحـيين والمسيح منهم برئ عليه الـصلاة والسلام ، المسيح لو أنه خرج لـقاتلهم وهم ينتسـبون إليه ، يقول الـله عز وجل : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

فماذا كان جواب عيسى ؟

﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧] .

فعيسى ابن مريم قـال لهم ما أمرهم الله به : اعبدوا الله ربى وربكم ، ولكنهم كانوا يعبدون عيـسى ، ويعبدون مريم ، ويعبدون الله ، ويقـولون : إن الله ثالث ثلاثة ، إذًا كيف يصح أن ينتسب هؤلاء إلى عيسى وهو يتبرأ منهم أمام الله عز وجل .

فاليهود والنصـارى والمشركون من البوذيين وغيرهم والشيـوعيون ، كل هؤلاء أعداء للمسلـمين يجب على المسلمين أن يـقاتلوهم حتى تكـون كلمة الله هى العلـيا ولكن مع الأسف المسلمون اليوم فـى ضعف شديد ، وفى هوان وذل يقاتل بعضهم بـعضًا أكثر مما يقاتلون أعداءهم ، هـم فيما بينهم يتقاتـلون أكثر مما يتقاتلون مع أعـدائهم ، ولهذا سلط الأعداء علينا ، وصرنا كالكرة فى أيديهم يتقاذفونها حيث يشاءُون .

Marfat.com

لهذا يجب المسلمين أن ينتبهوا لهذا الأمر وأن يعدوا العدة ولأن الله تعالى قال : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ [الأنفال : ٦٠] . وقال عز وجل : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾ [التوبة : ٢٩] .

﴿ يعطوا الجزية ﴾ أى يبذلون الجزية لنا ﴿ عن يد ﴾ فيها قولان للعلماء : ﴿ عن يد ﴾ يعنى عن قوة منا عليها[1] ، أو ﴿عن يد ﴾ يعنى عن واحدة من أيديهم ، بحيث يمدها هو بنفسه ـ اليهودى أو النصرانى ـ ولهذا قال العلماء : لو أرسل بها خادمة لم نأخذها حتى يأتى بنفسه ويسلمها للمسئول من المسلمين . وتصوروا كيف يريد الله منا وكيف يكون الإسلام فى هذه العزة ، تضرب عليهم الجزية ويأتون بها هم بأنفسهم ولو كان أكبر واحد منهم يأتى بها حتى يسلمها إلى المسئول فى الدولة الإسلامية عن يد وهو صاغر أيضًا ، لا يأتى بأبهة وبجنود وبقوم وبحشم بل يأتى وهو صاغر .

ثم إذا قال قائل : كيف تكون تعاليم الإسلام هكذا ؟ أليس هذه عصبية ؟ قلنا :

عصبية لمن ؟ هل المسلمون يريدون عصبية لهم يستطيعون بها على الناس ؟ أبدًا فالمسلمون أحسن الناس أخلاقًا ، لكنهم يريدون أن تكون كلمة الخالق الذى خلقهم وخلق هؤلاء هى العليا ، ولا يمكن أن تكون هى العليا حتى يكون المسلمون هم الأعلون ، ولكن متى يكون المسلمون هم الأعلون ؟ يكونون كذلك إذا تمسكوا بدين الله حقًا ظاهرًا وباطنًا ، وعرفوا أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

أما أن يذلوا عن دين الله ، ثم يذلوا أمام أعداء الله ، ثم يصيروا أذنابًا لأعداء الله فأين العزة إذن ! لا يمكن أن تكون بهذا عزة أبدًا .

الإسلام دين حق ، دين علو ، قال الله عز وجل : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ [محمد : ٣٥] . أى شئ تريدون بعد ؟ أنتم الأعلون والله معكم . كيف تدعون إلى السلم ؟ كيف تهنون ؟ ولكن نظرًا لتعثرنا فى ديننا تأخرنا وكنا على العكس من ذلك . كان الناس فى عهد السلف الصالح يمشى المسلم وهو يرى أنه هو المستحق لأرض الله ، لأن الله قال فى كتابه : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] . فهو يرى أنه صاحب الأرض .

---

(١) انظر تفسير الطبرى (١٤٢/١٠) .

Marfat.com

أما الآن فبالعكس مع الأسف الشديد ، ولهـذا نحن نحث أبناءنا وشبابنا على أن يفقهـوا الدين حقيقـة ، ويتمسكوا به حـقيقة ، وأن يحذروا أعـداء الله عز وجل ، وأن يعلموا أنه لا يمكن لعدو الله وعدوهم أن يسعـى فى مصلحتهم إطلاقًا ، بل لا يسعى إلا لمصلحة نفسه وتدمير المسلمين ومن ورائهم الإسلام .

فنسـأل الله تعـالى أن يعزنا بـدينه وأن يعـز دينه بنا ، وأن يجـعلنا من دعـاة الحق وأنصاره ، وأن يهـيئ للأمة الإسلامية قـادة خير يقودونها لما فـيه صلاحها وسعـادتها فى دينها ودنياها .

❊ ❊ ❊

وأما الأحاديث :

[١/ ٩٥] فالأول : عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إنَّ اللّه تعالى قال : **مَنْ عَادَى لى وليّا فَقَدْ آذنْتُهُ بالحَرْب ، ومَا تَقَرَّبَ إلىَّ عَبْدى بشَىْء أحَبَّ إلَيّ ممَّا افتَرَضْت عَلَيْه ، ومَا يَزَالُ عَبْدى يَتقرَّبُ إلىَّ بالنَّوافل حَتَّى أُحبَّه ، فَإذَا أحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذى يَسْمَعُ به ، وبَصرَهُ الَّذى يُبْصرُ به ، ويَدَهُ الَّتى يَبْطشُ بهَا ، ورجْلَهُ الَّتى يَمْشى بهَا ، وإنْ سَألَنى أعْطيْتُهُ ؛ ولَئن اسْتَعَاذنى لأعيذَنَّهُ** » رواه البخارى .

« آذَنْتُهُ » : أعْلَمْتُهُ بأنِّى مُحَاربٌ لَهُ . « اسْتَعَاذَنى » روى بالنون وبالباء .

الشرح

نقل المؤلـف ـ رحمه الله ـ عـن أبى هريرة - رضي الله عنه - ، عن النبـى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : «**قال الله تعالى : من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب** » .

المعاداة هى المباعدة ، وهى ضد الموالاة .

والولى بينه الله عـز وجل فى قـوله : ﴿ ألا إنّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون (٦٢) الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [يونس : ٦٢ ، ٦٣] .

هؤلاء هم أولياء الله : ﴿ الذين آمنوا ﴾ أى : حـقـقوا الإيمان فى قلوبهـم بكل مت يجب الإيمان به ، ﴿ وكانوا يتقون ﴾ أى حققوا العمل الصالح بجوارحهم ، فاتقوا جميع المحارم من ترك الواجبات ، أو فعل المحرمات ، فهم جمعوا بين صلاح الباطن بالإيمان ،

[٩٥] صحيح : رواه البخارى (١١/ ٢ . ٦٥) .

Marfat.com

وصلاح الظاهر بالتقوى ، هؤلاء هم أولياء الله .

وليست ولاية الله سبحانه وتعالى تأتى بالدعوى ، كما يفعله بعض الدجالين الذين يموهون على العامة بأنهم أولياء الله وهم أعداء والعياذ بالله ، فتجد فى بعض البلاد الإسلامية أناسًا يموهون للعامة ، يقولون نحن أولياء ، ثم يفعل من العبادات الظاهرة ما يموه به على العامة وهو من أعداء الله ، لكنه يتخذ من هذه الدعوة وسيلة إلى جمع المال، وإلى إكرام الناس له ، وإلى تقربهم إليه وما أشبه ذلك .

وعندنا ولله الحمد ضابط بينه الله عز وجل ، وتعريف جيد للأولياء : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ هؤلاء هم أولياء الله . فالذى يعادى أولياء الله ، يقول الله عز وجل : «**فقد آذنته بالحرب**» يعنى أعلنت عليه الحرب . فالذى يعادى أولياء الله محارب لله عز وجل نسأل الله العافية ، ومن حارب الله فهو مهزوم مخذول لا تقوم له قائمة .

ثم قال سبحانه وتعالى : « **وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلىَّ مما افترضت عليه** » يعنى أن الله يقول ما تقرب إلى الإنسان بشئ أحب إلىَّ مما افترضته عليه ، يعنى أن الفرائض أحب إلى الله من النوافل ، فالصلوات الخمس مثلاً أحب إلى الله من قيام الليل، وأحب إلى الله من النوافل ، وصيام رمضان أحب إلى الله من صيام الاثنين والخميس والأيام الست من شوال وما أشبهها . كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل .

ووجه ذلك أن الفرائض وكدها الله عز وجل فألزم بها العباد ، وهذا دليل على شدة محبته لها عز وجل ، فلما كان يحبها شديدًا ألزم بها العباد ، أما النوافل فالإنسان حر إن شاء تنفل وزاد خيرًا وإن شاء لم يتنفل ، لكن الفرائض أحب إلى الله وأوكد ، والغريب أن الشيطان يأتى الناس فتجدهم فى النوافل يحسنونها تمامًا ؛ تجده مثلاً فى صلاة الليل يخشع ولا يتحرك ، ولا يذهب قلبه يمينًا ولا شمالاً ، لكن إذا جاءت الفرائض فالحركة كثيرة ، والوساوس كثيرة ، والهواجس بعيدة ، وهذا من تزيين الشيطان ، فإذا كنت تزين النافلة فالفريضة أحق بالتزيين ، فأحسن الفريضة لأنها أحب إلى الله عز وجل من النوافل.

« **وما زال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه** » النوافل تقرب إلى الله وهى تكمل الفرائض ، فإذا أكثر الإنسان من النوافل مع قيامه بالفرائض نال محبة الله ، فيحبه الله ، وإذا أحبه فكما يقول الله عز وجل : « **كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها** » يعنى أنه يكون مسددًا له فى هذه الأعضاء الأربعة ، فى السمع : يسدده فى سمعه فلا يسمع إلا ما يرضى الله وما فيه الخير

Marfat.com

والصلاح ، ويعرض عما يغضب الله فلا يستمع إليه ، ويكون ممن إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، كذلك أيضًا **بصره** : فلا ينظر إلا إلى ما يحب الله النظر إليه ، ولا ينظر إلى المحرم ، ولا ينظر نظرًا محرمًا ، **ويده** : فلا يعمل بيده إلا ما يرضى الله ، لأن الله يسدده ، وكذلك **رجله** : فلا يمشى إلا إلى ما يرضى الله فلا يسعى إلا إلى ما فيه الخير وهذا معنى قوله : « **كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها** » أى أنه تعالى يسدد عبده هذا فى سمعه وبصره وبطشه ومشيه .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى مسددًا له فى هذه الأشياء ، كان موفقًا مغتنمًا لأوقاته منتهزًا لفرصه .

وليس المعنى أن الله يكون نفس السمع ونفس البصر ونفس اليد ونفس الرجل - حاش لله - فهذا محال ، فإن هذه أعضاء وأبعاد لشخص مخلوق لا يمكن أن تكون هى الخالق ، ولأن الله تعالى أثبت فى هذا الحديث فى قوله : « **ولئن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه** » فأثبت سائلاً ومسئولاً ، وعائذًا ومعوذًا به ، وهذا غير هذا .

وفى قوله سبحانه وتعالى فى هذا الحديث القدسى : « **ولئن سألنى أعطيته** » دليل على أن هذا الولى الذى تقرب إلى الله تعالى بالفرائض ثم بالنوافل إذا سأل الله أعطاه فكان مجاب الدعوة ، وهذا الإطلاق يقيد بالأحاديث الأخرى الدالة على أنه يعطى السائل سؤاله ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة رحم ، فإن سأل إثمًا فإنه لا يجاب [1] ، لكن الغالب أن الولى لا يسأل ارثم ، لأن الولى هو المؤمن التقى ، والمؤمن التقى لا يسأل إثمًا ولا قطيعة رحم .

« **ولئن استعاذنى لأعيذنه** » يعنى : لئن اعتصم بى ولجأ إلىَّ من شر كل ذى شر لأعيذنه ، فيحصل له بإعطاء مسئوله وإعاذته مما يتعوذ منه المطلوب ، ويزول عنه المرغوب.

وفى هذا الحديث عدة فوائد :

أولاً : إثبات الولاية لله عز وجل ، وولاية الله تعالى تنقسم إلى قسمين : ولاية عامة وهى السلطة على جميع العباد ، والتصرف فيهم بما أراد ، كل إنسان فإن الذى يتولى أموره وتدبيره وتصريفه هو الله عز وجل .

---

(١) وذلك لما رواه مسلم (٢٧٣٥) أحمد (٤/ ١٥٤) .

Marfat.com

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ٦١ ، ٦٢] . فهذه ولاية عامة تشمل جميع الخلق .

أما الولاية الخاصة : مثل قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] ، والولاية العامة تكون بغير سبب من الإنسان ، يتولى الله الإنسان شاء أم أبى وبغير سبب منه ، أما الولاية الخاصة فإنها تكون بسبب من الإنسان فهو الذى يتعرض لولاية الله حتى يكون الله وليًا له ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٣] .

ومن فوائد هذا الحديث :فضيلة أولياء الله ، وأن الله سبحانه وتعالى يعادى من عاداهم ، بل يكون حربًا عليهم عز وجل .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الأعمال الواجبة من صلاة وصدقة وصوم وحج وجهادٍ وعلم وغير ذلك أفضل من الأعمال المستحبة ، لأن الله تعالى قال : « ما تقرب إلىَّ عبدى بشئ أحب إلىَّ مما افترضته عليه » .

ومن فوائده : إثبات المحبة لله عز وجل ، وأن الله تعالى يحب الأعمال بعضها أكثر من بعض كما أنه يحب الأشخاص بعضهم أكثر من بعض ، فالله عز وجل يحب العاملين بطاعته ويحب الطاعة ، وتتفاوت محبته سبحانه وتعالى على حسب ما تقتضيه حكمته .

ومن فوائد هذا الحديث : أيضًا أن الإنسان إذا تقرب إلى الله بالنوافل مع القيام بالواجبات فإنه يكون بذلك معافًا فِى جميع أموره ، لقوله تعالى فى هذا الحديث القدسى : « وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ... إلخ » .

وفيه دليل أيضًا على أن من أراد أن يحبه الله فالأمر سهل عليه إذا أسهله الله عليه ، يقوم بالواجبا ، ويكثر من التطوع بالعبادات ، فبذلك ينال محبة الله وينال ولاية الله .

ومن فوائد هذا الحديث : إثبات عطاء الله عز وجل وإجابة دعوته لوليه ، لقوله : «إن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعذينه » .

وأتى به المؤلف فى باب المجاهدة لأن النفس تحتاج إلى جهاد فى القيام بالواجبات ثم بفعل المستحبات ، نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

Marfat.com

[٢/ ٩٦] الثانى : عن أنس - رضي الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - فـيمَا يَرْويه عَـنْ رَبِه عَزَّ وَجَلَّ قال : « **إِذَا تقرَّبَ الـعَبْدُ إِلَىَّ شِبْراً تَقرَّبْتُ إِلَـيْه ذراعاً ، وإذَا تقَـرَّبَ إلىَّ ذراعاً تَقرَّبْتُ منْهُ بَاعاً ، وإذا أتانى يَمْشِى أتيْتُه هَرْولَةً** » رواه البَخارى .

[٣/ ٩٧] الثـالث : عن ابن عـباس - رضي الله عنهما - قال : قـال رسول الـله - صلى الله عليه وسلم - : «**نِعمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاس : الصِّحَّةُ ، والفَرَاغُ** » رواه البخارى .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالـى - فيما رواه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - إن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « **نعمـتان مغبـون فيهمـا كثيـر من الناس ، الصحـة والفراغ** » ن الجنسين من النعم مغبـون فيهما كثـير من الناس ، أى مغلوب فيـهما ، وهما الصحـة والفراغ ، وذلك أن الإنسان إذا كان صحيحًا كان قادرًا على ما أمره الله به أن يفعله ، وكان قادرًا على ما نهاه الله عنه أن يتركه لأنه صحيح البدن ، منشرح الصدر ، مطمئن القلب ، كذلك الفراغ إذا كان عنده ما يؤويه وما يكفيه من مئونة فهو متفرغ .

فإذا كان الإنسان فارغًا صحيحًا فإنه يغبن كثيرًا فى هذا ، لأن كثيرًا من أوقاتنا تضيع بلا فائدة ونحن فى صـحة وعافية وفراغ ومع ذلك تـضيع علينا كثيرًا ، ولـكننا لا نعرف هذا الغبن فى الدنيا ، إنما يعرف الإنسان الغبن إذا حضره أجله ، وإذا كان يوم القيامة .

والدليل على ذلك قـول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ ، ١٠٠] . وقال عز وجل فى سورة المنافقون : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون : ١٠] .

قال الله عز وجل : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [النساء: ١١] .

الواقع أن هذه الأوقات الكثيرة تذهب علينا سدى لا ننتفع منها ، ولا تنفع أحدًا من عباد الله ، ولا نندم على هذا إلا إذا حضر الأجل ، يـتمنى الإنسان أن يعطى فرصة ولو دقيقة واحدة لأجل أن يستعتب ، ولكن لا يحصل ذلك .

---

[٩٦] صحيح : رواه البخارى(١٣/ ٧٥٣٦)، وأخرجه مسلم(٢٦٧٥)من طريق أنس عن أبى هريرة - رضي الله عنه - .

[٩٧] صحيح : رواه البخارى (١١/ ٦٤١٢) .

Marfat.com

ثم إن الإنسان قد لا تفوته هذه النعمة ، بل قد لا تفوته هاتان النعمتان : الصحة والفراغ بالموت ، بل قد تفوته قبل أن يموت ، قد يمرض ويعجز عن القيام بما أوجب الله عليه ، قد يمرض ويكون ضيِّق الصدر لا ينشرح صدره ويتعب ، وقد ينشغل بإيجاد النفقة له ولعياله حتى تفوته كثير من الطاعات .

ولهذا ينبغى للإنسان العاقل أن ينتهز فرصة الصحة والفراغ بطاعة الله عز وجل بقدر ما يستطيع ، إن كان قارئًا للقرآن فليكثر قراءة القرآن ، وإن كان لا يعرف القراءة يكثر من ذكر الله عز وجل ، وإذا كان لا يمكنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، أو يبذل لإخوانه كل ما يستطيع من معونة وإحسان ، فكل هذه خيرات كثيرة تذهب علينا سدى ، فالإنسان العاقل هو الذى ينتهز الفرص ؛ فرصة الصحة وفرصة الفراغ .

وفى هذا دليل على أن نعم الله تتفاوت وأن بعضها أكبر من بعض ، وأكبر نعمة ينعم الله تعالى بها على العبد نعمة الإسلام ، نعمة الإسلام التى أضل الله عنها كثيرًا من الناس ، قال الله تعاى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] . فإذا وجد الإنسان أن الله قد أنعم عليه بالإسلام وشرح الله صدره له فإن هذه أكبر النعم .

ثم ثانيًا : نعمة العقل ، فإن الإنسان إذا رأى مبتلى فى عقله لا يحسن التصرف ، وربما يسئ إلى نفسه وإلى أهله ، حمد الله على هذه النعمة فإنها نعمة عظيمة .

ثالثًا : نعمة الأمن فى الأوطان ، فإنها من أكبر النعم ، ونضرب لكم مثلاً بما سبق عن آبائنا وأجدادنا من المخاوف العظيمة فى هذه البلاد ، حتى أننا نسمع أنهم كانوا إذا خرج الواحد منهم إلى صلاة الفجر لا يخرج وإلا مصطحبًا سلاحه ، لأنه يخشى أن يعتدى عليه أحد ، فنعمة الأمن لا يشابهها نعمة غير نعمة الإسلام والعقل .

رابعًا : كذلك مما أنعم الله به علينا ولا سيما فى هذه البلاد رغد العيش يأتينا من كل مكان ، فنحن فى خير عظيم ولله الحمد ، البيوت مليئة من الأرزاق ، والسماطات يجعل فيها من الأرزاق للواحد ما يكفى اثنين أو ثلاثة أو أكثر ، هذه أيضًا من النعم فعلينا أن نشكر الله سبحانه وتعالى على هذه النعم العظيمة ، وأن نقوم بطاعة الله حتى يمن علينا بزيادة النعم ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

* * *

Marfat.com

[٩٨/٤] الرابع : عن عائشة - رضي الله عنها - أنَّ النَّبى - ﷺ - كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : لِمَ تَصْنَعُ هذا يَا رسول الله ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟! قَالَ : « أفلا أُحِبّ أنْ أكُونَ عَبْداً شَكُوراً ؟ » متفقٌ عليه . هذا لفظ البخارى .

ونحوه فى الصحيحين من رواية المُغيرة بن شُعْبَةَ .

الشرح

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ ما نقله عن عائشة - رضي الله عنها - فى باب المجاهدة ، وقد سبق لنا أن من جملة المجاهدة مجاهدة الإنسان نفسه ، وحمله إياها على عبادة الله والصبر على ذلك .

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ عنا عائشة- رضي الله عنها - ، أن النبى- ﷺ - كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه ، فقلت : يا رسول الله ، لم تصنع ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « **أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً** » .

فعائشة - رضي الله عنها - من أعلم الناس بحال النبى - ﷺ - فيما يصنعه فى السر أى فى بيته ، وكذلك نساؤه- رضي الله عنهن - هن أعلم الناس بما يصنعه فى بيته .

ولهذا كان كبار الصحابة يبعثون إلى نساء النبى - ﷺ - يسألونهن عما كان يصنع فى بيته فكان - ﷺ - يقوم من الليل يعنى فى الصلاة تهجداً . وقد قال الله تعالى فى سورة المزمل : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

فكان يقوم عليه الصلاة والسلام أحيانًا أكثر الليل ، وأحيانًا نصف الليل ، وأحيانًا ثلث الليل ، لأنه عليه الصلاة والسلام يعطى نفسه حقها من الراحة مع القيام التام بعبادة ربه صلوات الله وسلامه عليه ، فكان يقوم أدنى من ثلثى الليل ، يعنى فوق النصف ودون الثلثين ، ونصفه وثلثه ، حسب نشاطه عليه الصلاة والسلام ، وكان يقوم حتى تتورم قدماه وتتفطر من طول القيم : أى يتحجر الدم فيها وتنشق .

وقد قام شباب من الصحابة - رضي الله عنهم - ولكنهم تعبوا ، فابن مسعود - رضي الله عنه - يقول : صليت مع النبى - ﷺ - ذات ليلة فقام طويلاً حتى هممت بأمر سوء قالوا : بماذا

---

[٩٨] صحيح : رواه البخارى (٨/ ٤٨٣٧) ، ومسلم (٢٨٢٠) .

Marfat.com

هممت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هممت أن أقعد وأدعه [١] ، أى يجلس لعجزه عن أن يصبر كما صبر النبى - ﷺ - ، وحذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قام معه ذات ليلة فقرأ النبى - ﷺ - البقرة والنساء وآل عمران [٢] ، الجميع خمسة أجزاء وربع تقريبًا ، ويقول حذيفة : كلما أتت آية رحمة سأل ، وكلما أتت آية تسبيح سبح ، وكلما أتت آية وعيد تعوذ ، وهو معروف عليه الصلاة والسلام أنه يرتل القراءة .

خمسة أجزاء وربع مع السؤال عند آيات الرحمة ، والتعوذ عند آيات الوعيد ، والتسبيح عند آيات التسبيح !!

فماذا يكون القيام ؟ يكون طويلاً ، وهكذا كان النبى عليه الصلاة والسلام يقرأ فى الليل ، إذا أطال القراءة أطال الركوع والسجود أيضًا ، فكان يطيل القراءة والركوع والسجود .

فإذا كان يقوم عليه الصلاة والسلام مثلاً فى ليلة من ليالى الشتاء وهى اثنتى عشرة ساعة ، يقوم أدنى من ثلثى الليل فلنقل إنه - ﷺ -يقوم سبع ساعات تقريبًا وهو يصلى عليه الصلاة والسلام فى الليل الطويل ، تصور ماذا يكون حاله عليه الصلاة والسلام ؟ ومع هذ فقد صبر نفسه وجاهد نفسه ، وقال : « **أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً** » .

وفى هذا : دليل على أن الشكر هو القيام بطاعة الله ، وأن الإنسان كلما ازداد فى طاعة ربه عز وجل فقد ازداد شكراً لله عز وجل ، وليس الشكر بأن يقول الإنسان بلسانه أشكر الله ، أحمد الله ، فهذا شكر باللسان ، لكن الكلام هنا على الشكر الفعلى الذى يكون بالفعل بأن يقوم الإنسان بطاعة الله بقدر ما يستطيع .

وفى هذا دليل على أن النبى - ﷺ - قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، كل ما تقدم من ذنبه قد غفر الله له ، وكل ما تأخر قد غفر الله له ، وقد خرج من الدنيا صلوات الله وسلامه عليه سالمًا من كل ذنب لأنه مغفور له .

وقد يخص الله أقوامًا فيغفر لهم ذنوبهم بأعمال صالحة قاموا بها مثل أهل بدر . فأهل بدر كانوا ثلاثمائة وبعض عشر رجلاً ، منهم حاطب بن أبى بلتعة- رضي الله عنه - ، فإن النبى - ﷺ - قال لعمر فى قصة مشهورة : « **أما علمت أن الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** »[١] ، وهذا من خصائص أهل بدر أن الله غفر لهم ما

---

(١) البخارى (١١٣٥) مسلم (٧٧٣) .

(٢) مسلم (٧٧٢) .

Marfat.com

يفعلون من الذنوب .

وإلا فإن حاطبًا - رضي الله عنه - فعل ذنبًا عظيمًا ، وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يغزو قريشًا حين نقضت العهد الذى بينه وبينهم فى صلح الحديبية ، أرسل حاطب - رضي الله عنه - رسالة خطية إلى أهل مكة يخبرهم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قادم عليهم ، فأخبر النبى - صلى الله عليه وسلم - بذلك عن طريق الوحى ، فأرسل على بن أبى طالب ورجلاً معه فى إثر المرأة فأدركوها فى روضة خاخ - روضة معروفة فى طريق مكة - فلما أدركوها أوقفوها وقالوا لها : أخرجى الكتاب الذى معك لأهل مكة ، قالت : ما معى كتاب . قالوا : لابد أن تخرجى الكتاب الذى معك ، فإما أن تخرجيه وإما أن نفتشك حتى ما تحت الثياب ، فلما عرفت عزيمتهم أخرجت الكتاب من خفها ، فإذا فيه خطاب من حاطب - رضي الله عنه - إلى أهل مكة يخبرهم ، فرجعوا به إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فاستأذن عمر - رضي الله عنه - وكان من أقوى الناس فى دين الله - النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يقتل حاطبًا قال : إن الرجل نافق ، كتب بأسرارنا إلى أعدائنا ، قال - صلى الله عليه وسلم - : « **أما علمت أن الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم** » ، وكان منهم - رضي الله عنه - ، وإلا فهذه جريمة كبيرة .

ولهذا يجب على ولى الأمر إذا أدرك جاسوسًا يكتب إلى أعدائنا بأخبارنا أن يقتله ولو كان مسلمًا ، لأن عاث فى الأرض فسادًا ، فقتل الجاسوس ولو كان مسلمًا واجب على ولى الأمر لعظم فساده ، ولكن هذا منع منه مانع وهو أنه كان من أهل بدر ، ولهذا لم يقل النبى عليه الصلاة والسلام : أما علمت أنهم مسلم ؟ بل قال : **أن الله اطلع على أهل بدر** » .

ففى هذا : دليل على أن من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا قد يقع كما قلت لبعض الصحابة كأهل بدر ، قال بعض العلماء : واعلم أن من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام أن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبناء عليه فكل حديث يأتى بان من فعل كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإنه حديث ضعيف ، لأن هذا من خصائص الرسول ، أما « **غفر له ما تقدم من ذنبه** » فهذا كثير ، لكن « **ما تأخر** » هذا ليس إلا للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقط ، وهو من خصائصه ، وهذه قاعدة عامة نافعة لطالب العلم أنه إذا أتاك حديث فيه أن من فعل كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فاعلم أن قوله ما تأخر ضعيف لا يصح لأن هذا من خصائص محمد صلوات الله وسلامه عليه .

Marfat.com

وفي هذا : دليل أيضًا على فضيلة قيام الليل وطول القيام ، وقد أثنى الله على من يقومومن الليل ويطيلون فقال عز وجل : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] يعني : تبتعد عن الفرش ، ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ﴿ خَوْفًا ﴾ أي إذا نظروا إلى ذنوبهم خافوا ﴿ وَطَمَعًا ﴾ أي إذا نظروا إلى فضل الله طمعوا في فضله ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦ ، ١٧] . أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم .

وتتجافى جنوبهم عن المضاجع ليس بالسهر على التليفزيون ، أو على لعب الورق ، أو على أعراض الناس ، أو ما أشبه ذلك ، ولكنهم يدعون الله ، ويعبدونه عز وجل خوفًا وطمعًا ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أين هذا الذي أخفى لهم ؟ جاء في الحديث القدسي ما يبين ذلك حيث قال الله عز وجل : « **أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر** » (١) جعلني الله وإياكم من ساكني هذه الجنان إنه جواد كريم .

❊ ❊ ❊

[٥/٩٩] الخامس : عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت : كان رسول الله ﷺ ـ إذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أحيَا اللَّيلَ ، وَأيْقَظَ أهْلَهُ ، وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَر . متفقٌ عليه .

والمراد : الْعَشْرُ الأوَاخرُ من شهر رمضانَ . و « الْمِئْزَرُ » : الإزَارُ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عن اعتِزَالِ النِّسَاء ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ تَشْمِيرُهُ للْعِبَادَةِ . يُقَالُ : شَدَدْتُ لِهَذَا الأمر مِئزري ، أيْ : تَشَمَّرْتُ ، وَتَفَرَّغْتُ لَهُ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ تعالى فيما نقله عن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ في حال رسول الله ـ ﷺ ـ في العشر الأواخر من رمضان : إنه إذا دخل العشر شد المئزر ، وأحيا ليله ، وجدَّ في العبادة ، وشمر عليه الصلاة والسلام .

وقد سبق في الحديث السابق أنه ـ ﷺ ـ كان يقوم في الليل حتى تتفطر قدماه ، وأنه

---

(١) البخاري (٤٧٧٩) مسلم (١١٧٤) .

[٩٩] صحيح : رواه البخاري (٤/ ٢٠٢٤) ، ومسلم (١١٧٤) .

Marfat.com

يقوم من الليـل أكثر من النصف أو النصف أو الثـلـث ، أما فى ليالى العشـر من رمضان فإنه كان يقوم الليل كله ، أى يحيى ليله كله عليه الصلاة والسلام بالعبادة ، لكن بالفطور بعـد غروب الشمـس ، والعشاء ، وصـلاة العشـاء ، والأشياء التـى يرى عليه الـصلاة والسلام بـالعبادة ، لكـن بالفطور بعد غـروب الشمس ، والعـشاء ، وصلاة العـشاء ، والأشياء التى يرى عليه الصلاة والسلام أنها قربى إلى الله عز وجل ، وليس معناه أن كل الليل فى صـلاة ، بدليل أن صفيـة بنت يحيى بن أخطب كـانت تأتى إليه عليـه الصلاة والسلام فيحـدثها بعد صلاة العشاء ، ولـكن كل ما كان يفعله عليـه الصلاة والسلام فى تلك الليالى فإنه قربى إلى الله عز وجل ، إما صلاة أو تهيؤ لصلاة أو غير ذلك .

وفى هذا : دليل على أن رسول ـ ﷺ ـ كان يحيى العشر الأواخر من رمضان كلها ، ولكنه لا يحـيى ليلة سواها أى أنـه لم يقم ليلة حتى الـصباح إلا فى العشـر الأواخر من رمضان ، وذلك تحريًا لليلة القدر ، وهى ليلة تكون فى العشر الأواخر من رمضان ، ولا سيما فى السبع الأواخر منه ، فهذه الليلة يقدر الله سبحانه وتعالى فيها ما يكون فى تلك السنة ، وهى كما قـال الله تعالى : ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر : ٣] ، فكان يحييها **«ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه »**(١) .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله معنى قوله « **شد المئزر** » فمنهم من قال إنه كناية عن ترك النساء لأنه يكون مـعتكفًا ، والمعتكف لا يبـاح له النساء (٢) ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة : ١٨٧] . ومنهـم من قال : بل هو كناية عن الجد والتشمير فى العمل ، وكلا الأمرين صحيح ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان لا يأتى أهـله فى العشر الأواخـر من رمضان لأنه معـتكف ، وكان أيضًا يشـد المئزر ويجتهد ويشمر صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا من أنواع المجاهدة ، فالإنسان يجب أن يجاهد نفسه فى الأوقات الفاضلة حتى يستوعبها فى طاعة الله .

* * *

[٦/ ١٠٠] السادس : عن أبى هريرة ـ ﷺ ـ قال : قال رسـول الله ـ ﷺ ـ : **«الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ ، احْرِصْ عَلى**

(١) البخارى (١٩٠١) مسلم (٧٦٠) .

(٢) انظر المجموع (٦/ ٥٢٤) .

[١٠٠] صحيح : رواه مسلم (٢٦٦٤) .

Marfat.com

مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى فيما نقله عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال : « **المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف** » .

المؤمن القوى : يعنى فى إيمانه وليس المراد القوى فى بدنه ، لأن قوة البدن ضررًا على الإنسان إذا استعمل هذه القوة فى معصية الله ، فقوة البدن ليست محمودة ولا مذمومة فى ذاتها ، إن كان الإنسان استعمل هذه القوة فيما ينفع فى الدنيا والآخرة صارت محمودة ، وإن استعان بهذه القوة على معصية الله صارت مذمومة .

لكن القوة فى قوله - ﷺ - : « **المؤمن القوى** » أى قوى الإيمان ، ولأن كلمة القوى تعود إلى الوصف السابق وهو الإيمان ، كما تقول الرجل القوى : أى فى رجولته ، كذلك المؤمن القوى يعنى فى إيمانه ، لأن المؤمن القوى فى إيمانه تحمله قوة إيمانه على أن يقوم بما أوجب الله عليه ، وعلى أن يزيد من النوافل ما شاء الله ، والضعيف الإيمان يكون إيمانه ضعيفًا لا يحمله على فعل الواجبات وترك المحرمات فيقصر كثيرًا .

وقوله : « **خير** » يعنى خير من المؤمن الضعيف ، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **وفى كُلٍّ خير** » يعنى المؤمن القوى ، والمؤمن الضعيف كل منهما فيه خير لئلا يتوهم أحد من الناس أن المؤمن الضعيف لا خير فيه ، بل المؤمن فيه خير ، فهو خير من الكافر لا شك .

وهذا الأسلوب يسميه البلاغيون الاحتراز ، وهو أن يتكلم الإنسان كلامًا يوهم معنى لا يقصده ، فيأتى بجملة تبين أنه يقصى المعنى المعين ، ومثال ذلك فى القرآن قوله تبارك وتعالى : ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد : ١٠] . لما كان قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ﴾ يوهم أن الآخرين ليس لهم حظ من هذا ، قال : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ، ٧٩] . لما كان هذا

Marfat.com

يوهم أن داود عنده نقص ، قال تعالى : ﴿ وكلاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ [النساء : ٩٥] .

فهنا قال النبى - ﷺ - : « وفى كل خير » أى المؤمن القوى والمؤمن الضعيف ، لكن القوى خير وأحب إلى الله ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **احرص على ما ينفعك** » هذه وصية من الرسول عليه الصلاة والسلام إلى أمته ، وهى وصية جامعة مانعة «**احرص على ما ينفعك** » يعنى اجتهد فى تحصيله ومباشرته ، وضد الذى ينفع الذى فيه الضرر ، وما لا نفع فيه ولا ضرر ، وذلك لأن الأفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

قسم ينفع الإنسان ، وقسم يضره ، وقسم لا ينفع ولا يضر .

فالإنسان العاقل الذى يقبل وصية النبى - ﷺ - هو الذى يحرص على ما ينفعه ، وما أكثر الذين يضيعون أو فاتهم اليوم فى غير فائدة ، بل فى مضرة على أنفسهم وعلى ينهم ، وعلى هذا فيجدر بنا أن نقول لمثل هؤلاء : إنكم لم تعملوا بوصية النبى - ﷺ - ؛ إما جهلاً منكم وإما تهاونًا ، لكن المؤمن العاقل الحازم هو الذى يقبل هذه النصيحة ، ويحرص على ما ينفعه فى دينه ودنياه .

وهذا حديث عظيم ينبغى للإنسان أن يجعله نبراسًا له فى عمله الدينى والدنيوى ؛ لأن النبى - ﷺ - قال : « **احرص على ما ينفعك** » وهذه الكلمة جامعة عامة ، « **على ما ينفعك** » أى على كل شئ ينفعك سواء فى الدين أو فى الدنيا ، فإذا تعارضت منفعة الدين ومنفعة الدنيا ، فإنها تقدم منفعة الدين لأن الدين إذا صلح صلحت الدنيا ، أما الدنيا إذا صلحت مع فساد الدين فإنها تفسد .

فقوله : « **على ما ينفعك** » يشمل منافع الدين والدنيا وعند التعارض تقدم منافع الدين على منافع الدنيا ، وفى قوله : « **احرص على ما ينفعك** » إشارة على أنه إذا تعارض منفعتان إحداهما أعلى من الأخرى ، فإننا نقدم المنفعة العليا ، لأن المنفعة العليا فيها المنفعة التى دونها وزيادة ، فتدخل فى قوله : « **احرص على ما ينفعك** » .

فإذا اجتمع صلة أخ وصلة عم كلاهما سواء فى الحاجة ، وأنت لا يمكنك أن تصل الرجلين جميعًا ، فهنا تقدم صلة الأخ أنها أفضل وأنفع ، وكذلك أيضًا بين مسجدين كلاهما فى البعد سواء لكن أحدهما أكثر جماعة فإننا نقدم الأكثر جماعة لأنه الأفضل ، فقوله : « **على ما ينفعك** » يشير إلى أنه إذا اجتمعت منفعتان إحداهما أعلى من الأخرى

Marfat.com

فإنها تقدم الأعلى .

وبالعكس إذا كان الإنسان لابد أن يرتكب منهيًا عنه من أمرين منهى عنهما وكان أحدهما أشد ، فإنه يرتكب الأخف ، فالمناهى يقدم الأخف منها ، والأوامر يقدم الأعلى منها .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « **واستعن بالله** » ما أروع هذه الكلمة بعد قوله : «**احرص على ما ينفعك** » لأن الإنسان إذا كان عاقلاً ذكيًا فإنه يتتبع المنافع ويأخذ الأنفع ، وربما تغره نفسه حتى يعتمد على نفسه وينسى الاستعانة بالله ، وهذا يقع لكثير من الناس، حيث يعجب بنفسه ولا يذكر الله عز وجل ويستعين به ، فإذا رأى من نفسه قوة على الأعمال وحرصًا على النافع وفعلاً له ، أعجب بنفسه الاستعانة بالله ولو على الشئ اليسير .

وفى الحديث : « **ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع**»[١] يعنى حتى الشئ اليسير لا تنس الله ، حتى ولو أردت أن تتوضأ أو تصلى أو تذهب يمينًا أو شمالاً أو تضع شيئًا فاستحضر أنك مستعين بالله عز وجل ، وأنه لولا عون الله ما حصل لك هذا الشئ .

ثم قال : « **ولا تعجز** » يعن استمر فى العمل ولا تعجز وتتأخر ، وتقول : إن المدى طويل والشغل كثير ، فما دمت قد صمت فى أول الأمر أن هذا هو الأنفع لك واستعنت بالله وشرعت فيه فلا تعجز .

وهذا الحديث فى الحقيقة يحتاج إلى مجلدات يتكلم عليه فيها الإنسان ؛ لأن له من الصور والمسائل ما لا يحصى .

منها مثلاً : طالب العلم الذى يشرع فى كتاب يرى أنه منفعة وفيه مصلحة له ، ثم بعد أسبوع أو شهر يمل ، وينتقل إلى كتاب آخر ، هذا نقول : استعان بالله وحرص على ما ينفعه ولكنه عجز ، كيف عجز ؟ بكونه لم يستمر ، لأن معنى قوله : « **لا تعجز** » أى لا تترك العمل ، بل ما دمت دخلت فيه على أنه نافع فاستمر فيه .

ولذا تجد هذا الرجل يمضى عليه الوقت ولم يحصل شيئًا ، لأنه أحيانًا يقرأ فى هذا وأحيانًا فى هذا .

حتى فى المسألة الجزئية تجد بعض طلبة العلم مثلاً يريد أن يراجع مسألة من المسائل

---

(١) الترمذى (٣٦٠٤) وضعفه الألبانى ضعيف الجامع (٤٩٤٥) .

Marfat.com

فى كتاب ، ثم يتصفح الكتاب يبحث عن هذه المسألة ، فيُعرض لـه أثناء تصفح الكتاب مسألة أخرى يقف عندها ، ثم ثالثة فيقف ، ثم يضيع الأصل الذى فتح الكتاب من أجله فيضيع عليه الوقـت ، وهذا ما يقع كثيراً فى مثل فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهذا ليس بصحيح بل الصحيح أن تنظر الأصل الذى فتحت الكتاب من أجله .

كذلك أيضًا فى تراجم الصحابة فى « الإصابة » مثلاً لابن حجر ـ رحمه الله ـ حين يبحث الطالب عن ترجمة صحابى من الصحابة ، ثم يفتح الكتاب من أجل أن يصل إلى ترجمته ، فتعـرض له ترجمة صحابى آخر فيقف عندها ويقرأهـا ، ثم يفتح الكتاب يجد صحابى آخر ، ثم هكذا يضيع عليه الوقت ولا يحصل الترجمة التى من أجلها فتح عليها الكتاب ، وهذا فيه ضياع للوقت .

ولهذا كـان من هدى الرسول عـليه الصلاة والسـلام أن يبدأ بالأهم الـذى تحرك من أجله ، ولذلك لما دعا عتبان بن مالك الرسول ـ ﷺ ـ وقال له : أريد أن تأتى لتصلى فى بيتى لأتخذ من المكان الذى صليت فيه مصلى لى فخرج النبى عليه الصلاة والسلام ومعه نفر من أصحابه ، فلـما وصلوا إلى بيت عتبان واستأذنوا ودخلـوا ، وإذا عتبان قد صنع لهم طعامًا ، ولكن الرسول عليه الصـلاة والسلام لم يبدأ بالطعام ، بل قال : أين المكان الذى تريد أن نصلى فيه ؟ فأراه إياه ، فصلى ثم جلس للطعام (١) .

فهذا دليل على أن الإنسان يبدأ بـالأهم ، وبالذى تحرك من أجله من أجل ألا يضيع عمله سدى .

فقول الرسول ـ ﷺ ـ : « لا تعجز » أى لا تكسل وتتـأخر فى العمـل إذا شرعت فيـه، بل استمـر لأنك إذا تركت ثم شـرعت فى عمل آخـر ، ثم تركت ثم شـرعت ثم تركت ، ما تم لك عمل .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **فإن أصابك شئ فلا تقل لـو أنى فعلت كذا وكذا** » يعنى بعد أن تحرص وتبـذل الجهد وتستعين بالله وتستمر ثم يـخرج الأمر على خلاف ما تريد فـلا تقل لو أنى فعـلت لكان كذا ، لأن هذا أمـر فوق إرادتك ، أنت فـعلت الذى تؤمر به ولكن الله عـز وجل غالب على أمره ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

ونضرب مـثالاً لذلك إذا سـافر رجل يريد العـمرة ولكنـه فى أثناء الطريق تـعطلت السيـارة ، ثم رجع فقال : لو أنـى أخذت السيارة الأخـرة لكان أحسن ولما حـصل على

(١) البخارى (٤٢٥) مسلم (٦٥٧) .

Marfat.com

التعطل ، نقول : لا تقل هكذا لأنك أنت بذلت الجهد ، ولو كان الله عز وجل أراد أن تبلغ العمرة ليسر لك الأمر ، ولكن الله لم يرد ذلك .

فالإنسان إذا بذل ما يستطيع بذله وأخلفت الأمور فحينئذ يفوض الأمر إلى الله لأنه فعل ما يقدر عليه ، ولهذا قال : « **إن أصابك شيء** » يعنى بعد بذل الجهد والاستعانة بالله عز وجل : « **فلا تقل لو أنى فعلت لكان كذا وكذا** » .

وجزى الله عنا نبينا خير الجزاء فقد بين لنا الحكمة من ذلك ، حيث قال : « **فإن لو تفتح عمل الشيطان** » أى تفتح عليك الوساوس والأحزان والندم والهموم ، حتى تقول : لو أنى فعلت لكان كذا ، فلا تقل هكذا ، والأمر انتهى ولا يمكن أن يتغير عما وقع ، وهذا أمر مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل أن تخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وسيكون على هذا الوضع مهما عملت .

لهذا قال « **ولكن قل : قدر الله** » أى هذا قدر الله أى تقدير الله وقضاؤه ، وما شاء الله عز وجل فعله ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [هود : ١٠٧] . لا أحد يمنعه فى ملكه ما يشاء ، ما شاء فعل عز وجل .

ولكن يجب أن نعلم أنه سبحانه وتعالى لا يفعل شيئًا إلا لحكمة خفيت علينا أو ظهرت لنا ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

فبين أن مشيئته مقرونة بالحكمة والعلم ، وكم من شئ كره الإنسان وقوعه فصار فى العاقبة خيرًا له ، كما قال تعالى : ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة:٢١٦].

ولقد جرت حوادث كثيرة تدل على هذه الآية ، من ذلك قبل عدة سنوات أقلعت طائرة من الرياض متجهة إلى جدة وفيها ركاب كثيرون يزيدون عن ثلاثمائة راكب ، وكان أحد الركاب الذين سجلوا فى هذه الطائرة فى قاعة الانتظار حتى نام ، وأعلن عن إقلاع الطائرة ، وذهب الركاب وركبوا ، فإذا بالرجل يستيقظ بعد أن أُغلق الباب ، فندم ندامة شديدة ، كيف فاتته الطائرة ؟ ثم إن الله قدر بحكمته أن تحترق الطائرة وركابها ، فسبحان الله كيف نجا هذا الرجل ؟ كره أنه فاتته الطائرة ، ولكن كان ذلك خيرًا له .

فأنت إذا بذلت الجهد واستعنت بالله ، وصار الأمر على خلاف ما تريد لا تندم ، ولا تقل لو أنى فعلت لكان كذا ، إذا قلت هذا انفتح عليك من الوساوس والندم

---

(١) البخارى (١٩٧٦) مسلم (٢٨٧٤) .

Marfat.com

والأحزان ما يكدر عليك الصفو ، فقد انتهى الأمر وراح ، وعليك أن تسلم الأمر للجبار عز وجل ، قل قدر الله وما شاء فعل .

والله لو أننا سرنا على هدى هذا الحديث لاسترحنا كثيرًا ، لكن تجد الإنسان :

أولاً : لا يحرص على ما ينفعه بل تمضى أوقاته ليلاً ونهارًا بدون فائدة ، تضيع عليه سدى .

ثانيًا : إذا قُدر أنه اجتهد فى أمر ينفعه ثم فات الأمر ولم يكن على ما توقع تجده يندم، ويقول ليتنى ما فعلت كذا ، ولو أنى فعلت كذا لكان كذا ، وهذا ليس بصحيح فأنت أدِّ ما عليك ثم بعد هذا فوض الأمر لله عز وجل .

فإذا قال قائل كيف احتج بالقدر ؟ كيف أقول قدر الله وما شاء فعل ؟ والجواب أن نقول : نعم هذا احتجاج بالقدر ولكن الاحتجاج بالقدر فى موضعه لا بأس به ، ولهذا قال الله لنبيه - ﷺ - : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾[الأنعام : ١٠٦ ، ١٠٧] . فبين له أن شركهم بمشيئة والاحتجاج بالقدر على الاستمرار فى المعصية هذا حرام لا يجوز ، لأن الله قال : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾[الأنعام : ١٤٨] . لكن الاحتجاج بالقدر فى موضعه هذا لا بأس به ، فإن النبى عليه الصلاة والسلام دخل ذات ليلة على على بن أبى طالب وفاطمة بنت محمد عليه الصلاة والسلام فوجدهما نائمين ، فقال لهما : ما منعكم أن تقوما ؟ يعنى : تقومان تتهجدان ، فقال على : يارسول الله إن أنفسنا بيد الله لو شاء أن نقوم لقمنا ، فخرج النبى عليه الصلاة والسلام وهو يضرب على فخذيه ويقول : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾[الكهف : ٥٤] (١).

هذا جدال لكن احتجاج على بن أبى طالب فى محله ، لأن النائم ليس عليه حرج فهو ما ترك القيام وهو مستيقظ قال رسول الله - ﷺ - : « **رفع القلم عن ثلاثة** » (٢)، ولا يُبعد أن الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يختبر على بن أبى طالب ماذا يقول فى الجواب ؟ وسواء كان ذلك أم لم يكن . فاحتجاج على بالقدر هنا حجة ، وذلك لأنه أمر ليس باختياره ، هل النائم يستطيع أن يستيقظ إذا لم يوقظه الله ؟ لا ، إذن هو حجة .

---

(١) **صحيح**: رواه البخارى (٧٣٤٧) مسلم (٧٧٥) .

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود (٤٤٠١) الترمذى (١٤٢٣) ابن ماجه (٢٠٤١) احمد (١/ ١٤٠) وصححه **الألبانى فى الإرواء (٢٩٧)** .

Marfat.com

فالاحتجاج بالقدر ممنوع إذا أراد الإنسان أن يستمر على المعصية ليدفع اللوم عن نفسه، نقول مثلاً : يا فلان صل مع الجماعة ، تقول والله لو هدانى الله لصليت ، فهذا ليس بصحيح ، يُقال لآخر أقلع عن حلق اللحية ، يقول : لو هدانى الله لأقلعت ، وأقلع عن الدخان يقول : لو هدانى الله لأقلعت ، فهذا ليس بصحيح ، لأن هذا يحتج بالقدر ليستمر فى المعصية والمخالفة .

لكن إن وقع الإنسان فى خطأ وتاب إلى الله ، وأناب إلى الله ، وندم ، وقال : إن هذا الشئ مقدر على ، ولكن أستغفر الله وأتوب إليه ، نقول : هذا صحيح ، إن تاب واحتج بالقدر فليس هناك مانع .

* * *

[١٠١/٧] السابع : عنه أنَّ رسول اللَّه ـ ﷺ ـ قال : « **حُجِبتِ النَّارُ بِالشَّهَواتِ، وحُجِبَت الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ** » متفقٌ عليه .

وفى رواية لمسلم : « حُفَّت » بَدلَ « حُجِبَتْ » وهُوَ بمَعْنَاهُ ؛ أىْ : بَيْنَهُ وبَيْنَهَا هذَا الحِجَابُ ؛ فَإذا فَعَلَهُ دَخلَهَا .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **حفت النار بالشهوات ـ** وفى لفظ : حجبت **ـ وحفت الجنة بالمكاره** » وفى لفظ حجبت الجنة بالمكاره يعنى : أحيطت بها ، فالنار قد أحيطت بالشهوات والجنة قد أحيطت بالمكاره ، والشهوات هى ما تميل إليه النفس من غير تعقل ولا تبصر ولا مراعاة لدين ولا مراعاة لمروءة .

فالزنى والعياذ بالله شهوة الفرج ، تميل إليها النفس كثيراً ، فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب ، فإنه سيكون سببًا لدخوله النار .

وكذلك شرب الخمر تهواه النفس وتميل إليه ، ولهذا جعل الشارع له عقوبة رادعة بالجلد ، فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب وشرب الخمر أداه ذلك إلى النار والعياذ بالله .

وكذلك حب المال شهوة من شهوات النفس ، فإذا سرق الإنسان بدافع شهوة حب جمع المال ، فلرغبة أن يستولى على المال الذى ترغبه نفسه ، فإذا سرق فقد هتك هذا

---

[١٠١] صحيح : رواه البخارى (٦٤٨٧) ، ومسلم (٢٨٢٢) .

Marfat.com

الحجاب فيصل إلى النار والعياذ بالله .

ومن ذلك الغش من أجل أن يزيد ثمن السلعة ، هذا تهواه النفس فيفعله الإنسان فيهتك الحجاب الذى بينه وبين النار فيدخل النار .

الاستطالة على الناس والعلو عليهم والترفع عليهم ، كل إنسان يحب هذا وتهواه النفس فإذا فعله الإنسان فقد هتك الحجاب الذى بينه وبين النار فيصل إلى النار والعياذ بالله .

ولكن دواء هذه الشهوة التى تميل إليها النفس الأمارة بالسوء ؟ دواؤها ما بعدها ، قال « **وحفت الجنة بالمكاره** » أو « **حجبت بالمكاره** » يعنى : أحيطت بما تكره النفوس ، لأن الباطل محبوب للنفس الأمارة بالسوء ، والحق مكروه لها ، فإذا تجاوز الإنسان هذا المكروه وأكره نفسه الأمارة بالسوء على فعل الواجبات وعلى ترك المحرمات ، فحينئذ يصل إلى الجنة .

ولهذا تجد الإنسان يستثقل الصلوات مثلاً ، ولا سيما فى أيام الشتاء وأيام البرد ، ولا سيما إذا كان فى الإنسان نوم كثير بعد تعب وجهد ، فتجد الصلاة ثقيلة عليه ويكره أن يقوم يصلى ويترك الفراش اللين الدافئ ، ولكن إن هو كسر هذا الحاجب وقام بهذا المكروه وصل إلى الجنة .

وكذلك النفس الأمارة بالسوء تدعو صاحبها إلى الزنى ، والزنى شهوة وتحبه النفس الأمارة بالسوء ، لكن إذا عقلها صاحبها وأكرهها على تجنب هذه الشهوة فهذا كره له ، ولكن هو الذى يوصله إلى الجنة ، لأن الجنة حفت بالمكاره .

وأيضًا : الجهاد فى سبيل الله مكروه إلى النفس ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة : ٢١٦] . مكروه للنفس فإذا كره الإنسان هذا الحجاب كان ذلك سببًا لدخول الجنة ، واستمع إلى قوله الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران : ١٦٩ ـ ١٧١] . فإذا كسر الإنسان هذا المكروه وصل إلى الجنة .

كذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شديد على النفوس شاق عليها ، وكل إنسان يتهاون فيه ، ويكرهه ، يقول : ما علىَّ بالناس ، أتعب نفسى معهم وأتعبهم معى ؟!

Marfat.com

ولكنه إذا كسر هذا المكروه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر فإن هذا سبب لدخول الجنة ، وهلم جرا ، كل الأشياء التى أمر الله بها مكروهة للنفوس لكن أكره نفسك عليها حتى تدخل الجنة .

فاجتناب المحرمات مكروه إلى النفوس وشديد عليها ، لاسيما مع قوة الداعى ، فإذا أكرهت نفسك عى ترك هذه المحرمات فهذا من أسباب دخول الجنة ، فلو أن رجلاً شابًا أعزب فى بلاد كفر وحرية ، فيها يفعل الإنسان ما شاء ، وأمامه من النساء الجميلات فتيات شابات وهو شاب أعزب فلا شك أنه سيعانى مشقة عظيمة فى ترك الزنى، لأنه متيسر له ، وأسبابه كثيرة ، لكن إذا أكره نفسه على تركها صار هذا سببًا لدخول الجنة .

واستمع إلى قول النبى عليه الصلاة والسلام : « **سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله** »[1] أى يوم القيامة حيث تدنو الشمس الحارة العظيمة ، التى نحس بحرارتها الآن وبيننا وبينها آلاف السنين ، هذه الشمس تدنو يوم القيامة حتى تكون على رءوس الخلائق بمقدار ميل ، قال بعض العلماء : الميل : المكحلة ، والمكحلة صغيرة أصغر من الإصبع ، وقال بعضهم : ميل المسافة ، وأيًا كان الميل ، فالشمس قريبة من الرءوس ، لكن هناك أناس يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله . أسأل الله أن يجعلنى وإياكم ممن يظله الله .

يظلهم الله : يعنى يخلق لهم ما يظلهم يوم لا ظل إلا ظله ، وليس فى ذلك اليوم بناء ولا شجر ولا جبال تظلل وليس هناك إلا ظل رب العالمين ، هذا الظل يظل الله فيه من شاء من عباده ، ومنهم هؤلاء السبعة الذين ذكرهم الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله : « **سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله** » .

إمام عادل : وليس المقصود بالإمام العادل أنه يحكم لأقاربه وغيرهم على حد سواء، فهذا من معنى العدل ، لكن الإمام العادل الذى يطبق شريعة الله فى كل شئ ؛ فى الحكم فى الناس وفى الحكم بين الناس ، هذا هو الإمام العادل . ولو فرضنا إمام عادل يعدل بين الناس فى الحكم لكن لا يطبق فيهم شرع الله فليس بعادل ، العادل الذى يحكم بين الناس وفى الناس بحكم الله عز وجل .

« **وشاب نشأ فى طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال** » وهذا هو الشاهد ،

(١) صحيح : رواه البخارى (١٤٢٣) مسلم (١٠٣١) .

Marfat.com

فالمرأة ذات منصب يعنى شريفة ليست دنيئة ، وذات جمال ، والجمال يدعو النفس إلى التطلع إلى المرأة . فقال : إنى أخاف الله ؛ فالرجل شاب ، وفيه شهوه ، وأسباب الزنى قائمة والموانع معدومة ، ولكن هناك مانع واحد وهو خوف الله عز وجل ، فقال : إنى أخاف الله ، فكان هذا من الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والسادس :رجل تصدق بصدقه فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفقه يمينه من شدة إخلاصه .

والسابع :رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه ، أى فاضت عيناه شوقًا إلى ربه عز وجل ، وفاضت عيناه خوفًا من ربه ، وكان خاليًا ليس عنده أحد ، خالى القلب من الدنيا فليس فيه هواجس ، بل خالى إلا من ذكر الله ، فذكر الله فى هذه الخلوة القلبية والخلوة المكانية ففاضت عيناه ، فكان هذا ممن يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والمهم أن النار حجبت بالشهوات ، والجنة حجبت بالمكاره ، فجاهد نفسك على ما يحب الله وإن كرهت ، واعلم علم إنسان مجرب أنك إذا أكرهت نفسك على طاعة الله أحببت الطاعة وألفتها ، وصرت بعدما كنت تكرهها تأبى نفسك إذا أردت أن تتخلف عنها .

ونحن نجد بعض الناس يكره أن يصلى مع الجماعة ، ويثقل عليه ذلك عندما يبدأ فى فعله ، لكن إذا به بعد فترة تكون الصلاة مع الجماعة قرة عينه ، ولو تأمره ألا يصلى لا يطيعك ، فأنت عود نفسك وأكرهها أول الأمر ، وستلين لك فيما بعد وتنقاد ، أسأل الله أن يعيننى وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

❊ ❊ ❊

[٨/ ١٠٢] الثامن :عن أبى عبد الله حُذَيْفَةَ بنِ اليمان - ﷺ - قال: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبى - ﷺ - ذَاتَ لَيْلَة ، فَافتتحَ الْبَقرَةَ ، فَقُلْتُ: يَركَعُ عِنْدَ المائَة ، ثُمَّ مَضَى ، فَقُلْت يُصَلّى بهَا فى رَكْعَة ، فَمَضَى ، فَقُلْت يَركَعُ بهَا ، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آل عِمْرانَ فَقرَأهَا ، يَقْرأُ مُتَرسّلا إذَا مَرَّ بآيَة فيهَا تَسْبيحٌ سَبَّحَ ، وإذَا مَرَّ بسُؤال سَأَلَ، وإذَا مَرَّ بتَعَوُّذ تَعوَّذَ ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولَ : « **سُبْحَانَ رَبِّىَ الْعَظِيم** » فَكَانَ رُكُوعُه نَحْواً مِنْ قِيَامِهِ ثمَّ قَالَ : « **سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَه ، رَبَّنَا لَكَ الحَمْدَ** » ثُمَّ

---

[١٠٢] صحيح : رواه مسلم (٧٧٢) .

Marfat.com

قَامَ قِيَاماً طَوِيلاً قَرِيباً مِمَّا رَكَعَ ، ثمَّ سَجَد فَقَالَ: « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأعْلَى » فَكَانَ سُجُوده قَرِيباً مِنْ قِيَامِهِ ». رواه مسلم.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ أنه صلى مع النبى ـ ﷺ ـ ذات ليلة ـ يعنى : فى ليلة من الليالى ، وكان النبى ـ ﷺ ـ أحيانًا يصلى معه بعض أصحابه، فمرة صلى معه حذيفة، ومرة صلى معه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ، ومرة صلى معه ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام يصلى فى الليل وحده ، لأن صلاة الليل لا تشرع فيها الجماعة إلا فى رمضان ، لكن لا بأس أن تقام الجماعة فيها أحيانًا كما فى هذا الحديث ، يقول : فافتتح سورة البقرة فقلت : يركع عند المائة فقرأ السورة كاملة ، فظن أنه يركع بها أى أنه إذا أكمل سورة البقرة ركع ، ولكنه مضى ـ ﷺ ـ فقرأ سورة النساء كاملة فقال حذيفة ، يركع بها ، ولكنه مضى فقرأ سورة آل عمران كاملة فى ركعة واحدة ، يقرأ مترسلاً غير مستعجل ، إذا مر بآية تسبيح سبح ، وإذا مر بآية سؤال سأل ، وإذا مر بآية تَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ .

فجمع عليه الصلاة والسلام بين القراءة وبين الذكر وبين الدعاء وبين التفكر ؛ لأن الذى يسأل عند السؤآل ويتعوذ عند التعوذ ويسبح عند التسبيح ، لا شك أنه يتأمل قراءته ويتفكر فيها ، فيكون هذا القيام روضة من رياض الذكر ؛ قراءة وتسبيحًا ودعاءً وتفكراً ، والنبى عليه الصلاة والسلام فى هذا كله لم يركع ، فهذه السور الثلاث : البقرة والنساء وآل عمران أكثر من خمسة أجزاء ، فتدبر إذا كان الإنسان يقرأها بترسل ، ويستعيذ عند آية الوعيد ، ويسأل عند آية الرحمة ، ويسبح عند آية التسبيح كم تكون المدة ؟ لا شك أنها تكون طويلة ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقوم حتى تتورم قدماه وتتفطر .

حتى إن ابن مسعود وهو شاب لما صلى معه ليلة من الليالى يقول أطال النبى ـ ﷺ ـ القيام حتى هممت بأمر سوء ، قيل : بما هممت ، قال : هممت أن أجلس وأدعه(١) ، عجز أن يصبر من طول القيام .

ثم إن النبى عليه الصلاة والسلام ركع بعد أن أتم السور الثلاث ، فقال سبحان ربى العظيم ، وأطال الركوع نحواً من قيامه ، ثم رفع من ركوعه وأطال القيام بعد الركوع وقال سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد ، حتى كان قيامه نحواً من ركوعه ، ثم سجد

---

(١) سبق تخريجه .

Marfat.com

- ﷺ - فقال سبحان ربى الأعلى وأطال السجود حتى كان سجوده نحواً من قيامه .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يصلى فيجعل الصلاة متناسبة ؛ إذا أطال القيام أطال الركوع والسجود والقيام الذى بعد الركوع والجلوس الذى بين السجدتين ، وإذا خفف القراءة خفف الركوع والسجود والقيام من أجل أن تكون الصلاة متناسبة ، وهذا فعله صلوات الله وسلامه عليه فى الفرض وفى النفل أيضًا ، فكان - ﷺ - يجعل صلاته متناسبة .

وفى هذا الحديث عدة فوائد :

الفائدة الأولى : وهى التى ساق المؤلف الحديث من أجلها ، أن النبى - ﷺ - كان يعمل عمل المجاهد الذى يجاهد نفسه على الطاعة ، لأنه يعمل هذا العمل الشاق ابتغاء وجه الله ورضوانه ، كما قال الله تعالى فى وصف النبى - ﷺ - وصحبه ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ومنها : جواز إقامة الجماعة فى صلاة الليل ، لكن هذا ليس دائمًا ، إنما يُفعل أحيانًا فى غير رمضان ، أما فى رمضان فإن من السنة أن يقوم الناس فى جماعة .

ومنها : أنه ينبغى للإنسان فى صلاة الليل إذا مر بآية رحمة أن يقف ويسأل ، مثل لو مر بذكر الجنة يقف ويقول : اللهم اجعلنى من أهلها ، اللهم إنى أسألك الجنة ، وإذا مر بآية وعيد يقف ويقول : أعوذ بالله من ذلك ، أعوذ بالله من النار ، وإذا مر بآية تسبيح يعنى : تعظيم لله سبحانه وتعالى يقف ويسبح الله ويعظمه ، هذا فى صلاة الليل، أما فى صلاة الفريضة لا بأس أن يفعل هذا ولكنه ليس بسنة ، إن فعله فإنه لا ينهى عنه ، وإن ترك فإنه لا يؤمر به [1] ، بخلاف صلاة الليل ، فإن الأفضل أن يفعل ذلك ، أى يتعوذ عند آية الوعيد ويسأل عند آية الرحمة ويسبح عند آية التسبيح .

ومن فوائد هذا الحديث : جواز تقديم السور بعضها على بعض، فإن النبى -ﷺ- قدم سورة النساء على سورة آل عمران، والترتيب أن سورة آل عمران مقدمة على سورة النساء، ولكن هذا والله أعلم كان قبل السنة الأخيرة ، فإن السنة الأخيرة كان النبى - ﷺ - يقدم سورة آل عمران على سورة النساء ، ولهذا رتبها الصحابة - ﷺ - على هذا الترتيب أى آل عمران قبل سورة النساء ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام يقرن بين البقرة وآل عمران فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « اقرءوا الزهراوين : البقرة ، وآل عمران ،

---

(١) انظر المغنى (١/٥٤٨ - ٥٤٩) .

Marfat.com

فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان (١) أو فرْقان من طير صوافَّ (٢) تحاجان عن صاحبهما يوم القيامة » (٣) فالمهم أن الترتيب في الأخير كان تقديم سورة آل عمران على سورة النساء .

ومن فوائد هذا الحديث : أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يسبح ويكرر التسبيح ، لأن حذيفة قال : كان يقول : سبحان ربي العظيم ، وكان يطيل ، ويقول : سبحان ربي الأعلى ، وذكر أنه يطيل ، ولم يذكر شيئًا آخر .

فدل هذا على أنك مهما كررت من التسبيح في الركوع والسجود فإنه سنة ، ولكن مع هذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول في ركوعه وفي سجوده ويكثر من هذا القول: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي (٤) ، وكان يقول أيضًا : سبوح قدوس رب الملائكة والروح (٥) ، فكل ما ورد عن النبي ـ ﷺ ـ من ذكر ودعاء فإنه يسن للإنسان أن يقوله في صلاته .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياكم اتباع رسوله ـ ﷺ ـ ظاهرًا وباطنًا ، وأن يتولانا وإياكم في الدنيا والآخرة إنه جواد كريم .

***

[١٠٣/٩] التاسع : عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : **صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ـ ﷺ ـ لَيْلَةً، فَأَطَالَ القِيَامَ حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ ! قيل : وَمَا هَمَمْتَ بِهِ ؟ قالَ : هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ. متفقٌ عليه .**

[١٠٤/١٠] العاشر : عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : **« يَتْبَعُ المَيِّتَ ثَلاثَةٌ : أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ ؛ فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ : يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ »** متفقٌ عليه .

---

(١) الغمامة والغياية : كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابة ونحوهما (القاموس المحيط مادة غ ى ى) .

(٢) صواف : جمع صافة وهو أن يبسط الطائر جناحيه في الهواء .

(٣) مسلم (٨٠٤) . (٤) سبق تخريجه .

(٥) سبق تخريجه .

[١٠٣] صحيح : رواه البخاري (١١٣٥) ، ومسلم (٧٧٣) .

[١٠٤] صحيح : رواه البخاري (٦٥١٤) ، ومسلم (٢٩٦٠) .

Marfat.com

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله - فيما نقله عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وكان أحد الذين يخدمون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

صاحب وسادته وسواكه - رضي الله عنه - فصلى مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة ، فقام النبي - صلى الله عليه وسلم - فأطال القيام ، وقد سبق من حديث عائشة أنه كان - صلى الله عليه وسلم - يقوم حتى تتفطر قدماه ، أو حتى تتورم . تتفطر أحيانًا وتتورم أحيانًا من طول القيام ،وصح من حديث حذيفة أنه قرأ فى ركعة واحدة بثلاث سور من طوال السور : البقرة ، والنساء ، وآل عمران . وكذلك ابن مسعود - رضي الله عنه - صلى معه ذات ليلة فأطال النبى - صلى الله عليه وسلم - القيام فهمَّ بأمر سوء . يعنى : بأمر ليس يسر المرء فعله ، قال : بما هممت يا أبا عبد الرحمن؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه ، يعنى أجلس وأدعه قائمًا ، لأن ابن مسعود تعب وأعيا مع أنه شاب والنبى عليه الصلاة والسلام لم يتعب لأنه عليه الصلاة والسلام كان أشد الناس عبادة لله عز وجل وأتقاهم لله ، ففى هذا دليل على أنه من السنة أن يقوم الإنسان فى الليل ويطيل القيام ، وأنه إذا فعل ذلك فهو مقتد برسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

ولكن أعلم أنك إذا أطلت القيم فإن السنة أن تطيل الركوع والسجود والجلوس بين السجدتين والوقوف بعد الركوع ، فإن من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام أنه كان يجعل صلاته متناسبة ؛ إذا أطال القيام أطال بقية الأركان ، وإذا خفف القيام خفف بقية الأركان .

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله - حديث أنس - رضي الله عنه - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « **يتبع الميت ثلاثة : ماله ، وأهله وعمله - فيرجع اثنان ويبقى واحد** » صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - .

الإنسان إذا مات تبعه المشيعون له فيتبعه أهله يشيعونه إلى المقبرة ، وما أعجب الحياة الدنيا وأخسها ، وما أدناها ، يتولى دفنك من أنت أحب الناس إليه ؛ يدفنونك ويبعدونك عنهم ، ولو أنهم أعطوا أجرة على أن تبقى جسدًا بينهم ما رضوا ، فأقرب الناس إليك ومن أنت أحب الناس إليهم ، هم الذين يتولون دفنك ؛ يتبعونك ويشيعونك .

ويتبعه ماله : أى عبيده وخدمه المماليك له ، وهذا يمثل الرجل الغنى الذى له عبيد وخدم مماليك ، يتبعونه ، ويتبعه عمله معه فيرجع اثنان ويدعونه وحده ولكن يبقى معه عمله نسأل الله أن يجعل عملنا وإياكم صالحًا ؛ فيبقى عمله عنده أنيسه فى قبره ينفرد به إلى يوم القيامة .

Marfat.com

وفى هذا الحديث دليل على أن الدنيا كل زينة الحياة الدنيا ترجع ولا تبقى معك فى قبرك ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا ترجع ، من الذى يبقى ؟ فقط العمل . فعليك يا أخى أن تحرص على الصاحب الذى يبقى ولا ينصرف مع من ينصرف . وعليك أن تجتهد حتى يكون عملك عملاً صالحًا يؤنسك فى قبرك إذا انفردت به عن الأحباب والأهل والأولاد .

ومناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة ، لأن كثرة العمل يوجب مجاهدة النفس ، فإن الإنسان يجاهد نفسه على الأعمال الصالحة التى تبقى بعد موته ، نسأل الله لنا ولكم حسن الخاتمة والعاقبة ، وأن يتولانا بعنايته ورعايته ، إنه جواد كريم .

* * *

[١٠٥/١١] الحادى عشر : عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبى ـ ﷺ ـ : «**الجَنَّةُ أقْرَبُ إلى أحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِه ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذلكَ**» رواه البخارى .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فى باب المجاهدة فيما نقله عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك** » هذا الحديث يتضمن ترغيبًا وترهيبًا ، يتضمن ترغيبًا فى الجملة الأولى وهو قوله ـ ﷺ ـ : « **الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله** » ، وشراك النعل : هو السير الذى يكون على ظهر القدم وهو قريب من الإنسان جدًا ويضرب به المثل فى القرب ، وذلك لأنه قد تكون الكلمة الواحدة سببًا فى دخول الجنة ؛ فقد يتكلم الإنسان بالكلمة الواحدة من رضوان الله عز وجل لا يظن أنها تبلغ ما بلغت ، فإذا هى توصله إلى جنة النعيم .

ومع ذلك فإن الحديث أعم من هذا ، فإن كثرة الطاعات واجتناب المحرمات من أسباب دخول الجنة وهو يسير على من يسره الله عليه ، فأنت تجد المؤمن الذى شرح الله صدره للإسلام يصلى براحة وطمأنينة وانشراح صدر ومحبة للصلاة ، ويزكى كذلك ، ويصوم كذلك ، ويحج كذلك ، ويفعل الخير كذلك ، فهو يسير عليه سهل قريب منه ، وتجده يتجنب ما حرمه الله عليه من الأقوال والأفعال وهو يسير عليه .

وأما والعياذ بالله من قد ضاق بالإسلام ذرعًا ، وصار الإسلام ثقيلاً عليه فإنه

---

[١٠٥] صحيح : رواه البخارى (٦٤٨٨) .

Marfat.com

يستثقل الطاعات، ويستثقل اجتناب المحرمات، ولا تصير الجنة أقرب إليه من شراك نعله.

وكذلك النار ، وهى الجملة الثانية فى الحديث وهـى التى فيها التحذير ، يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « **والنار مثل ذلك** » أى : أقرب إلى أحدنا من شراك نعله ، فإن الإنسان ربما يتكلم بالكـلمة لا يلقى لها بالاً وهى من سخط الله فيـهوى بها فى النار كذا وكذا من السنين ؛ وهو لا يدرى ، ومـا أكثر الكلمات التى يتكلم بها الإنسـان غير مبالٍ بها ، وغير مهتم بمدلولها ، فترديه فى نار جهنم ، نسأل الله العافية .

ألم تروا إلى قصة المنافقين الذين كانـوا مع النبى - ﷺ - فى غزوة تبوك حيث كانوا يتحدثون فيما بينهم يقولون : مـا رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء ؛ يعـنون بذلك النبى - ﷺ - وأصحابه ، يعنى أنهـم واسعو البطون من كثـرة الأكل ، وليس لهـم هم إلا الأكل ، ولا أكذب ألـسنًا ، يعنـى : أنهم يتكلـمون بالكذب ، ولا أجبن عنـد اللقاء ، أى : أنهم يخافون لـقاء العدو ولا يثبتـون بل يفرون ويهربون . هكذا يقول المنافقون فى الرسول (١) - ﷺ - وأصحابه .

وإذا تأملت وجدت أن هذا ينطبق على المنافقين تمامًا لا على المؤمنين ، فالمنافقون من أشد الناس حرصًا علـى الحياة ، والمنافقون من أكذب الناس ألسنًـا ، والمنافقون من أجبن الناس عند اللقاء . فهذا الوصف حقيقته فى هؤلاء المنافقين .

ومع ذلك يقول الـله عز وجل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥] . يعنى ما كنا نقصد الكلام ، إنمـا هو خوض فى الكلام ولعب ، فقال الله عز وجل : ﴿ قُلْ ﴾ يعن قل يا محمد : ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٥ ، ٦٦] .

فبين الله عـز وجل أن هؤلاء كفروا بعد إيمانهـم باستهزائهم باللـه وآياته ورسوله ، ولهذا يجب على الإنسان أن يقيد منطقه ، وأن يـحفظ لسانه حتى لا يذل فيهلك ، نسأل الله لنا ولكم الثبات على الحق والسلامة من الإثم .

***

[١٠٦/١٢] الثانى عشر : عن أبى فِراسٍ رَبِيعَةَ بن كَـعْبٍ الأسْلَمِى خَادِمِ رسول

---

[١٠٦] صحيح : رواه مسلم (٤٨٩) .

(١) صحيح: ودليله البخارى (٦٤٧٧) مسلم (٢٩٨٨) .

Marfat.com

الله ـ ﷺ ـ ، وَمِنْ أهلِ الصُّفَّة ـ رضي الله عنه ـ قال : كُنْتُ أبيتُ مَعَ رسول الله ـ ﷺ ـ ، فآتِيه بِوَضُوئه ، وَحَاجَته فَقَالَ : « سَلْني » . فَقُلْتُ : أسألُكَ مُرَافَقَتَكَ في الجَنَّة فَقَالَ : « أَوَ غَيْرَ ذلكَ ؟ » قُلْت : هُوَ ذَاكَ . قال : « فَأَعِنِّي عَلى نَفْسكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقل عن ربيعة بن مالك الأسلمى ـ رضي الله عنه ـ ؛ وكان خادمًا لرسول الله ـ ﷺ ـ والذين يخدمون ـ ﷺ ـ من الأحرار عدد ، منهم : ربيعة بن مالك ، ومنهم : ابن مسعود ، ولهم الشرف بخدمة رسول الله ـ ﷺ ـ ، وكان من أهل الصفة ؛ وأهل الصفة رجال مهاجرون هاجروا إلى المدينة وليس لهم مأوى ، فوطنهم النبى عليه الصلاة والسلام فى صفة فى المسجد النبوى ، وكانوا أحيانًا يبلغون الثمانين ، وأحيانًا دون ذلك ، وكان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يأتونهم بالطعام واللبن وغيرها مما يتصدقون به عليهم .

فكان ربيعة بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يخدم النبى ـ ﷺ ـ يأتيه بوضوئه وحاجته ، الوضوء بالفتح : الماء الذى يتوضأ به ، والوُضوء بالضم : فعل الوضوء ، وأما الحاجة فلم يبينها، ولكن المراد كل ما يحتاجه النبى عليه الصلاة والسلام يأتى به إليه .

فقال له ذات يوم : سل ، من أجل أن يكافئه النبى عليه الصلاة والسلام على خدمته إياه ، لأن النبى ـ ﷺ ـ أكرم الخلق ، وكان يقول : « **مَن صنع إليكم معروفًا فكافئوه** »(١) ، فأراد أن يكافئه ، فقال له : سل ، يعنى اسأل ما بدا لك ، وقد يتوقع الإنسان أن هذا الرجل سيسأل مالاً ، ولكن همته كانت عالية ، قال : أسألك مرافقتك فى الجنة كما كنت ، يعنى كأنه يقول كما كنت مرافقًا لك فى الدنيا أسألك مرافقتك فى الجنة ، قال : « **أو غير ذلك ؟** » يعنى أوتسأل غير ذلك مما يمكن أن أقوم به ، قال : «**هوهو ذاك** » يعنى لا أسأل إلا ذاك ، قال النبى ـ ﷺ ـ : « **فأعنى على نفسك بكثرة السجود** » .

وهذا هو الشاهد أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : أعنى على نفسك بكثرة السجود ، وكثرة السجود تستلزم كثرة الركوع ، وكثرة الركوع تستلزم كثرة القيام ، لأن كل صلاة فى كل

---

(١) صحيح : رواه أبو داود (١٦٧٢ ، ٥١٠٩) النسائى (٣٥٨/١) أحمد (٦٨/٢) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود .

Marfat.com

ركعة منها ركوع وسجودان .

فإذا كثر السجود كثر الركـوع وكثر القيـام ، وذكر السجود دون غيـره لأن السجود أفضل هيئة للـمصلى ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهـو ساجد ، وإن كان المصلى قريبًا من الله قـائمًا كان أو راكعًا أو ساجدًا أو قاعدًا ، لكـن أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد .

وفى هذا : دليل على فضل السجود ، واختلـف أهل العلم هل الأفضل إطالة القيام أم إطالة الركوع والسجود ؟

فمنهـم من قال : الأفضل إطالـة القيام ، ومنهـم من قال : الأفضل إطالـة الركوع والسجود ، والصحيح : أن الأفضل أن تكون الصـلاة متناسبة ، وإلا فإن القيام بلا شك أطول من الركـوع والسجود فى حـد ذاته ، لكن ينبغـى إذا أطال القيام أن يطـيل الركوع والسجود ، وإذا قصر القيام أن يقصر الركوع والسجود .

وفى هذا : دليل على أن الصلاة مهـماأكثرت منها فهو خير إلا أنـه يستثنى من ذلك أوقات النهى ، وأوقات النهى هى من طلوع الفجر إلا ارتفاع الشمس مقدار رمح ، وعند قيامها فى منتصف النهار حتى تزول ، ومن صلاة العصر إلى الغروب ، فإن هذه الأوقات الثلاثة لا يجوز للإنسان أن يصلى صلاة تطوع ، إلا إذا كان لها سبب ، كتحية المسجد ، وسنة الوضوء ، وما أشبه ذلك .

وفى الحديث : دليل على جواز استخدام الـرجل الحر ، وأن ذلك لا يعد من المسألة المذمومة ، فلو أنك قلت لشخص من الناس ممن يقومون بخدمتك : أعطنى كذا . أعطنى كذا ، فلا بأس ، وكذلك لو قلت لصاحب الْمَنْـزِل أعطنى ماءً صب لى فنجان قهوة فلا بأس ، لأن هذا لا يُعد من السؤال المذموم ، بل هذا من تمام الضيافة ، وقد جرت العادة بمثله .

وفيه : دليل أيضًا على أن الرسول - ﷺ - لا يملك أن يدخل أحدًا الجنة ، ولهذا لم يضمـن لهذا الرجل أن يـعطيه مطـلوبه ، ولكنه قـال له : « **فأعـنى على نفسك بكـثرة السجود** » فإذا قام بكـثرة السجود التى أوصـاه بها رسول الله - ﷺ - ، فـإنه حرى بأن يكون مرافقًا للرسول - ﷺ - فى الجنة .

[١٠٧/١٣] **الثالث عشر** : عن أبى عـبد الله ــ ويُقَـال : أَبُو عَبْدِ الرَّحْـمَنِ ــ

[١٠٧] صحيح : رواه مسلم (٤٨٨) .

Marfat.com

ثَوْبَانَ مَوْلَى رسول الله ـ ﷺ ـ قال : سَمِعْتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُدَ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلا رفَعكَ الله بهَا دَرَجَةً ، وَحَطَّ عَنْكَ بها خَطِيئَةً** » رواه مسلم.

[١٠٨/١٤] الرابع عشر : عن أبي صَفْوَانَ عبد الله بن بُسْرٍ الأَسْلَمِيِّ ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **خَيْرُ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُه ، وَحَسُنَ عَمَلُه** » رواه الترمذي ، وقال : حديثٌ حسنٌ .

« بُسْرٍ » بضم الباء وبالسين المهملة .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن ثوبان مولى رسول الله ـ ﷺ ـ ، أنه قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « **عليك بكثرة السجود** » عليك يعني الزم كثرة السجود ، « **فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة** » وهذا كالحديث السابق حديث ربيعة بن مالك الأسلمي ، أنه قال للنبي ـ ﷺ ـ : أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : « **فأعني على نفسك بكثرة السجود** » .

ففيه : دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يكثر من السجود ، وقد سبق لنا أن كثرة السجود تستلزم كثرة الركوع وكثرة القيام والقعود ، لأن كل ركعة فيها سجودان وفيها ركوع واحد ، ولا يمكن أن تسجد في الركعة الواحدة ثلاث سجدات أو أربعًا ، إذن كثرة السجود تستلزم كثرة الركوع والقيام والقعود .

ثم بين النبي ـ ﷺ ـ ماذا يحصل للإنسا من الأجر فيما إذا سجد وهو أنه يحصل له فائدتان عظيمتان :

الفائدة الأولى : أن الله يرفعه بها درجة ، يعني مَنْزِلة عنده وفي قلوب الناس ، وكذلك في عملك الصالح يرفعك الله به درجة .

والثانية : يحط عنك بها خطيئة ، والإنسان يحصل له الكمال بزوال ما يكره وحصول ما يحب ، فرفع الدرجات مما يحبه الإنسان ، والخطايا مما يكرهه الإنسان ، فإذا رفع له درجة وحط عنه بها خطيئة ، فقد حصل على مطلوبه ونجا من مرهوبه .

أما حديث عبد الله بن بسر ، قال : إن النبي ـ ﷺ ـ قال : « **خير الناس من طال**

---

[١٠٨] صحيح : رواه الترمذي (٢٣٢٩) . وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٩٦) .

Marfat.com

عمره وحسن عمله » وهذا خير الناس لأن الإنسان كلما طال عمره فى طاعة الله زاد قربًا إلى الله ، وزاد رفعة فى الآخرة ، لأن كل عمل يعمله فيما زاد فيه عمره فهو يقربه إلى ربه عز وجل ، فخير الناس من وُفق لهذين الأمرين .

أما طول العمر فإنه من الله وليس للإنسان فيه تصرف ، لأن الأعمار بيد الله عز وجل ، وأما حسن العمل فإن بإمكان الإنسان أن يحسن عمله ، لأن الله تعالى جعل له عقلاً وأنزل الكتب وأرسل الرسل وبين المحجة وأقام الحجة ، فكل إنسان يستطيع أن يعمل عملاً صالحًا ، على أن الإنسان إذا عمل عملاً صالحًا فإن النبى - ﷺ - أخبر أن بعض الأعمال الصالحة سبب لطول العمر وذلك مثل صلة الرحم .

قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **مَن أحبَّ أن يبسط له فى رزقه ويُنسأ له فى أثره فليصل رحمه** » (١) وصلة الرحم من أسباب طول العمر ، فإذا كان خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، فإنه ينبغى للإنسان أن يسأ الله دائمًا أن يجعله ممن طال عمره وحسن عمله ، من أجل أن يكون من خير الناس .

وفى هذا : دليل على أن مجرد طول العمر ليس خيرًا للإنسان إلا إذا حسن عمله ، لأنه أحيانًا يكون طول العمر شرًا للإنسان وضررًا عليه ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، فهؤلاء الكفار يملى الله لهم - أى يمدهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات - لا لخير لهم ، ولكنه شر لهم والعياذ بالله ، لأنهم سوف يزدادون بذلك إثمًا .

ومن ثم كره بعض العلماء أن يُدعى للإنسان بطول البقاء ، قال لا تقل أطال الله بقاءك إلا مقيدًا ، قل : أطال الله بقاءك على طاعته ، لأن طول البقاء قد يكون شرًا للإنسان .

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن طال عمره ، وحسن عمله ، وحسنت خاتمته وعاقبته إنه جواد كريم .

* * *

[١٠٩/١٥] الخامس عشر : عن أنس - ﷺ - ، قال : غَابَ عَمِّى أَنَسُ بنُ

---

(١) صحيح : رواه البخارى (٥٩٨٦) مسلم (٢٥٥٧) .

[١٠٩] صحيح : رواه البخارى (٢٨٠٥) ، ومسلم (١٩٠٣) .

Marfat.com

النَّضر- رضي الله عنه - ، عن قتال بَدْر ، فقال : يا رسول الله ، غبْت عَن أوَّل قتَال قَاتلْتَ المُشْركينَ ،لَئن اللهُ أشْـهَدَنى قتَالَ المُشْركينَ لَيرينَّ اللهُ مَا أصْـنَعُ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أحُد انْكشَفَ المُسْلمُونَ ، فَـقَالَ : اللَّهُمَّ أعْتَذرُ إلَيْكَ ممَّا صَنَعَ هؤُلاء ـــ يَعْنى أصْحَابه ـــ وَأبرأُ إلَيْـكَ ممَّا صَـنَع هؤُلاَء ـ يَعْـنى المُشْركـينَ ـ ثُمَّ تَـقَدَّمَ فَاسْـتَقْبلَهُ سَعْـدُ بْنُ مُعَاذ،فَقَالَ: يَاسَعْدُ بْنُ مُعَاذ ، الجَنَّةُ وَربِّ الكَعْبَة ، إنِّى أجدُ ريحَهَا منْ دُون أُحُد . قال سَعْـدٌ : فَمَا اسْتَطَعْـتُ يا رَسُولَ اللّه مَا صَنَـعَ ! قال أنسٌ : فَوَجَدْنَا به بِـضْعاً وثمَانينَ ضَرْبَةً بالسيف ، أوْ طَعْنَةً برمْح، أوْ رَميَةً بسَهْم ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتلَ وَمَثَّلَ به المشْركُونَ ، فَـمَا عرَفَهُ أحَدٌ إلا أُخْتُهُ ببَنَانه . قـال أنس : كُنَّا نَرَى أوْ نَظُنُّ أنَّ هذه الآية نزلَـتْ فيـه وَفى أشْبَـاهه : ﴿ منَ الْمُؤْمنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْه ﴾ [الأحزاب: ٢٣] إلَى آخرها . مُتفقٌ عليه .

قولـه : « لَيُريَـنَّ اللّهُ » : رُوى بضم الـياء وكـسر الراء ؛ لَيُـظهرَنَّ الـلّهُ ذلكَ للنّاس، ورُوىَ بفتحهما ومعناه ظاهر ، واللّه أعلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمـه الله تعالى ـ فيما نقـله عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - ، عن عمه أنس بن النضر - رضي الله عنه - ، أن أنسًا لم يكن مع الرسول - ﷺ - يعنى أنس بن النضر - فى بدر ، وذلك لأن غزوة بدر خرج إليها النبى - ﷺ - وهو لا يريد القتال ، وإنما يريد عير قريش وليس معه إلا ثلاثمـائة وبضع عشر رجلاً ، معهم سبعون بعيراً وفـرسان يتعاقبون عليها ، وقد تخلف عنها كثير من الصـحابة لأنها ليست غزوة ، ولم يدع إليها أحد وإنما خرج إليها الخفاف من الناس .

قال أنس بن النضر للنبى عليه الصـلاة والسلام يبين له أن لم يكن معه فى أول قتال قاتل فيه المشركين ، وقال : لئن أدركت قتالاً لأرين الله ما أصنع .

فلما كـانـت أحد ، وهى بعـد غزوة بـدر بسنة وشـهر ، خـرج الناس وقـاتلوا مع النبـى - ﷺ - ، وصارت الدائـرة فى أول النهار للمسلمين ، ولكن لما تخلف الرماة عن الموقع الـذى جعلهـم النبى - ﷺ - فـيه ونزلـوا من الجبل ، كـرّ فرسـان المشركـين على المسلمين من خلفهم ، واختلفوا بهم ، وانـكشف المسلمون ، وصارت الهزيمة لما انكشف المسلمون ، تقدم أنس بن النضر - رضي الله عنه - وقال : اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هـؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ـ .

Marfat.com

ثم تقدم - رضي الله عنه - فاستقبله سعد بن معاذ فسأله : إلى أين ؟ قال : يا سعد إنى لأجد ريح الجنة دون أحد ، وهذا وجدان حقيقى ليس تـخيلاً أو توهمًا ولكن من كرامة الله ، هذا الرجل شم رائحة الجنة قبل أن يستشهد - رضي الله عنه - من أجل أن يقدم ولا يحجم فتقدم فقاتل فقُتل - رضي الله عنه - .

استشهد ووجـد فيه بضع وثمانون ، ما بين ضربة بسيـف أو برمح أو بسهم ، حتى إنه قد تمزق جلده ، فلم يعرفه أحد إلا أخته ، ولم تعرفه إلا ببنانه - رضي الله عنه - .

فكان المسلمون يرون أن اللـه قد أنزل فيه هذه الآية : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٢٣] . ولا شك أن هذا وأمثاله - رضي الله عنه - يدخلون دخولاً أوليًا فى هذه الايـة ، فإنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، حـيث قال أنس : والله ليرين الله ما أصنع ففـعل ، فصنع صنعًا لا يصنعه أحد إلا من منَّ الله عليه بمثله حتى استشهد .

ففى هذا الحديث : دليل شاهد للباب ، وهو مجاهدة الإنسان نفسه على طاعة الله ، فإن أنس بن النضر جاهـد نفسه هذا الجهاد العظيم ، حتى تقدم يـقاتل أعداء الله بعد أن انكشف المسلمون وصارت الهزيمة حتى قتل شهيدًا - رضي الله عنه - .

* * *

[١٦/ ١١٠] **السادس عشر** : عـن أبـى مسعــود عُقْبَـةَ بن عمرو الأنـصـارىّ البدرىّ - رضي الله عنه - قال : لَمَّا نَزَلَتْ آيَـةُ الصَّدَقَة كُنَّا نُحامِلُ عَلَى ظُهُـورِنَا ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَىْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا : مُراءٍ ، وجـاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصدَّقَ بِصَاعٍ فقالُوا : إنَّ اللَّه لَغَنِىٌّ عَنْ صـاعِ هَذَا ! فَنَزَلَتْ : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ الآية [التوبة : ٧٩] متفقٌ عليه .

و « نُحَـامِلُ » بضم النون ، وبـالحاءِ المهمـلة : أىْ يَحْمِـلُ أحَدُنَا على ظَـهْرِهِ بالأُجْرَةِ ، ويَتَصَدَّقُ بها .

الشرح

قال المؤلف - رحمـه الله تعالى - نقلاً عن أبى مسـعود بن عمرو - رضي الله عنه - قال : لما نزلت آية الصـدقة : يعنى الآية التى فـيها الحث على الصـدقة ، والصدقة هى أن يـتبرع

[١١٠] صحيح : رواه البخارى (١٤١٥) ، ومسلم (١٠١٨) .

Marfat.com

الإنسان بماله للفقراء ابتغاء وجه الله .

وسميت صدقة لأن بذل المال لله عز وجل دليل على صدق الإيمان بالله ، فإن المال من الأمور المحبوبة للنفوس ، قال الله تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : ٢٠].

جمًا أي كثيرًا عظيمًا وحيث إن المحبوب لا يبذل إلا لمن هو أحب منه ، فإذا بذله الإنسان ابتغاء وجه الله كان ذلك دليلاً على صدق الإيمان .

فلما نزلت هذه الآية جعل الصحابة - ﷺ - يبادرون ويسارعون فى بذل الصدقات إلى رسول الله - ﷺ - ، وهذه هى عادتهم أنهم إذا نزلت الآيات بالأوامر بادروها وامتثلوها ، وإذا نزلت بالنواهى بادروا بتركها ، ولهذا لما نزلت آية الخمر التى فيها تحريم الخمر ، وبلغت قومًا من الأنصار ، وكان الخمر بين أيديهم يشربون قبل أن يُحرم فمن حين ما سمعوا الخبر أقلعوا عن الخمر ، ثم خرجوا بالأوانى يصبونها فى الأسواق حتى جرت الأسواق فى الخمر .

وهذا هو الواجب على كل مؤمن إذا بلغه عن الله ورسوله شئ أن يبادر بما يجب عليه ؛ من امتثال هذا الأمر أو اجتناب هذا النهى .

وكذلك هنا فإن الصحابة- ﷺ - بدءوا يتحاملون الصدقة ، كل واحد يحمل بقدرته من الصدقة إلى رسول الله- ﷺ - ، فجاء رجل بصدقة كثيرة وجاء رجل بصدقة قليلة ، فكان المنافقون إذا جاء بالصدقة الكثيرة . قالوا : هذا مراء والعياذ بالله ، ما قصد به وجه الله . وإذا جاء الرجل بالصدقة القليلة قالوا : إن الله غنى عنه ، وجاء رجل بصاع فقالوا: إن الله غنى عن صاعك هذا .

وهؤلاء هم المنافقون ، والمنافقون هم الذى يظهرون خلاف ما يبطنون ، ويظهرون الشماتة بالمؤمنين دائمًا ، جعلوا أكبر همهم وأعذب مقال لهم ، وألذ مقال على أسماعهم، أن يسمعوا ويقولوا ما فيه سب المسلمين والمؤمنين والعياذ بالله ، لأنهم منافقون وهم العدو ، كما قال الله عز وجل .

فهؤلاء صاروا إذا جاء رجل بكثير قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بقليل قالوا : إن الله غني عن صاعك ولا ينفعك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] ، ويلمزون : يعنى يعيبون ، والمطوعين هم المتصدقين : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ والذين هذه معطوفة على قوله : ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ ، يعني : ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم ، فهم يلمزون هؤلاء وهؤلاء ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

Marfat.com

فهم سخروا بالمؤمنين فسخر اللهم منهم والعياذ بالله .

ففى هذا : دليل على حرص الصحابة على استباق الخير ، ومجاهدتهم أنفسهم على ذلك .

وفى هذا : دليل أيضًا علـى أن الله عز وجل يدافع عن المؤمنين ، وانـظر كيف أنزل الله آية فى كتاب الله مدافعة عن المؤمنين الذين كان هؤلاء المنافقون يلمزونهم .

وفيه : دليل على شدة العداوة من المنافقين للمؤمنين ، وأن المؤمنين لا يسلمون منهم إن عملوا كثـيراً سبوهم ، وإن عملوا قلـيلاً سبوهم ، ولكن الأمر لـيس إليهم ، بل إلى الله عز وجل ، ولهـذا سخر الله منهم ، وتوعدهم بالعـذاب الأليم فى قوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

أما حكم المسألة هذه فإن اللـه تعالى قال فى كتابه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

القليل والكثـير من الخير سيراه الإنسـان ، ويجازى به ، والقليل والكثـير من الشر سيـراه الإنسان ، ويُجـازى عليه ، وصح عـن النبى ـ ﷺ ـ : « **أن الإنسان إذا تـصدق بعدل تمرة ـ أى ما يعادلها ـ من كسب طيـب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن اللـه تعالى يأخذها بيمينه فيربيها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل** » (١) .

وقارن بين حبة من التمر وبين الجبل ، لا نسبة ، الجـبل أعظم بكثير ، فالله سبحانه وتعالى يجزى الإنسـان على ما عمل من خير قل أو كثـر ، ولكن احرص على أن تكون نيتك خالصة لله ، لا تريد بذلك جزاءً ولا شكورًا من غير الله ، واحرص على أن تكون متبعًا فى ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ .

❊ ❊ ❊

[١١١/١٧] السابع عشر : عن سعيد بن عبد العزيز ، عن رَبيعة بن يزيد ، عن أبى إدريس الخَوْلانى ، عن أبى ذَرّ جُنْدُب بن جُنَادَة ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبى ـ ﷺ ـ فيما يَروى عَن الله تبارك وتـعالى أنه قال : « **يا عِبَـادى ، إنى حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علـى نَفْسى وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا . يَا عِبَادى ، كُلُّكُمْ ضَالٌ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ ؛ فَاسْتَهْدُونى أهْدِكُم . يَا عِبَادِى ، كُلُّكُمْ جَائِع إلا مَن أطْعَمْتُهُ ؛ فَاسْتَطْعِمُونى أُطْعِمْكُمْ . يَا عِبَادِى،**

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٤٣٠) مسلم (١٠١٤) .

[١١١] صحيح : رواه مسلم (٢٥٧٧) .

Marfat.com

كُلُّكُمْ عَارٍ إلا من كَسَوْتُهُ ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ . يَا عِبَادِي ، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذنوبَ جَمِيعاً ، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ . يَا عِبَادِي ، إِنَّكُم لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي . يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً . يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً . يَا عِبَادِي ، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مما عندي إلا كما يَنقص المَخيط إذا أدخل البحر . يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فَلاَ يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ » . قَالَ سعيدٌ : كان أبو إدريس إذا حدَّث بهذا الحديث جَثَا على رُكبتيه . رواه مسلم . وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث .

الشرح

قال المؤلف : رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - في باب المجاهدة ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى ، يعني أن الرسول عليه الصلاة والسلام حدث عن الله أنه قال : . . . إلى آخره ، وهذا يسمى عند أهل العلم بالحديث القدسي أو الحديث الإلهي ، أما ما كان من حديث - صلى الله عليه وسلم - ، فإنه يسمى بالحديث النبوي .

وهذا الحديث القدسي يقول الله تعالى فيه : « **يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا** » يقول جل وعلا : « **إني حرمت الظلم على نفسي** » ، أي ألا أظلم أحدًا لا بزيادة سيئات لم يعملها ولا بنقص حسنات عملها ، بل هو سبحانه وتعالى حكم عدل محسن ، فحكمه وثوابه لعباده دائرين بين أمرين : بين فضل وعدل ، فضل لمن عمل الحسنات ، وعدل لمن عمل السيئات ، وليس هناك شئ ثالث وهو الظلم .

أما الحسنات فإنه سبحانه وتعالى يجازي الحسنة بعشر أمثالها ، من يعمل حسنة يثاب بعشر حسنات ، أما السيئة فبسيئة واحدة فقط ، قال الله تعالى في سورة الأنعام ـ وهي مكية ـ : ﴿ **مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا**

Marfat.com

يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٦٠] . لا يظلمون بـنقص ثواب الحسنات ، ولا يظلـمون بزيادة جزاء السيئات ، بل ربنا عز وجل يقول : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا** ﴾ [طه : ١١٢] . ظلمـًا بزيادة فـى سيئـاته ، ولا هضـمًا بنـقص من حسناته .

وفى قوله تعالى : « **إنى حرمت الظلـم على نفسى** » دليل على أنه جل وعلا يحرم على نفسه ويوجب على نفسه ، فممـا أوجب على نفسه الـرحمة ، قال اللـه تعالى : ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

ومما حرم على نـفسه الظلم ، وذلك لأنه فعـال لما يريد يحكم بما يشـاء ، فكما أنه يوجب على عباده ويحـرم عليهم ، يوجب على نفسه ويحرم عـليها جل وعلا ؛ لأن له الحكم التام المطلق .

وقوله تعالى : « **وجعلتـه بينكم محرمـًا فلا تظالموا** » أى لا يظلم بعضـكم بعضًا ، والجعل هنا هو الجعل الشرعى ، وذلك لأن الجعل الذى أضافه الله إلى نفسه إما أن يكون كونيًا مثل قوله تعالى : ﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا** ﴾ [النبأ : ١٠ ، ١١] . وإما أن يكون شرعيًا مثل قوله تعالى : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ** ﴾ [المائدة : ١٠٣] . ما جـعل : أى ما شـرع ، وإلا فقـد جعل ذلك كـونًا ، لأن العرب كانوا يفعلون هذا ، ومثل هذا الحديث : « **جعلته بينكم محرمًا** » أى جعلته جعلاً شرعيًا لا كونيًا ، لأن الظلم يقع .

وقوله : « **جعلته بينكم محرمًا** » الظلم بالنسبة فيما بينهم يكون فى ثلاثة أشياء بيَّنها رسول الله ـ ﷺ ـ فى قوله وهو يخطب الناس فى حجة الوداع : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكـم عليكم حـرام كحرمة يـومكم هذا فى شهـركم هذا فى بلـدكم هذا ، ألا هل بلـغت ؟ قالـوا : نعم ، قـال : اللهم فـاشهـد** » . فهـذه ثلاثة أشياء : الدمـاء والأموال والأعراض[(١)] .

فالظلم فيما بين البشر حرام فـى الدماء ، فلا يجوز لأحد أن يعتدى على دم أحد ، لا على دم تفوت به النـفس وهو القتل ، ولا على دم يحصل به الـنقص ، كدم الجروح وكـسر العظام وما أشبهها كل هذا حرام لا يجوز .

واعلم أن كسر عظم الميـت ككسره حيًا ، كما جاء ذلك عن النـبى عليه الصلاة[(٢)]

---

(١) البخارى (٤٤٠٦) مسلم (١٦٧٩) .

(٢) أبو داود (٣٢٠٧) صحيح الجامع (٤٤٧٨) .

Marfat.com

والسلام ، فالميت محترم لا يجوز أن يؤخذ من أعضائه شئ ، ولا أن يُكسر من أعضائه شئ ، لأنه أمانه وسوف يُبعث بكامله يوم القيامة ، وإذا كان كذلك فلا يجوز أن تأخذ منه شيئًا .

ولهذا نص فقهاء الحنابلة ـ رحمهم الله ـ على أنه لا يجوز أن يؤخذ من الميت شئ من أعضائه ، ولو أوصى به ، وذلك لأن الميت محترم ، كما أن الحى محترم [1] ، فإذا أخذنا من الميت عضواً أو كسرنا منه عظمًا كان ذلك جناية عليه ، وكان اعتداء عليه ، وكان آثمين بذلك .

والميت نفسه لا يستطيع أن يتبرع بشئ من أعضائه ؛ لأن أعضائه أمانة عنده ، لا يحل له أن يفرط فيها ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ، وفسرها عمرو بن العاص - ﷺ - بالإنسان إذا كان عليه جنابة وكان فى البرد وخاف إن اغتسل أن يتضرر ، جعل عمرو بن العاص هذا داخلاً فى الآية ، وذلك حين كان عمرو بن العاص - ﷺ - فى سرية وأجنب وكانت الليلة باردة فتيمم وصلى بأصحابه، فلما رجعوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وبلغه الخبر ، قال لعمرو : أصليت بأصحابك وأنت جُنب ؟ يعني لم تغتسل ، قال : يا رسول الله إنى ذكرت قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ : [النساء : ٢٩] . وخفت البرد فتيممت ، فضحك النبى - ﷺ - وأقره على فعله [1] وعلى استدلاله بالآية ، لم يقل : إن الآية لم تدل على هذا .

فإذن كل شئ يضر أبداننا أو يفوت منها شيئًا فإنه لا يحل لنا أن نفعله ، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ فما حُرم علينا أن نتناول الدخان وغيره من الأشياء الضارة إلا من أجل حماية البدن ، فالبدن محترم فقول الرسول - ﷺ - : « دماءكم » يشمل الدم الذى يهلك به الإنسان وهو القتل ، والدم الذى بدون ذلك ، وهو الجرح أو كسر العظم أو ما أشبه ذلك .

أما قوله - ﷺ - : « وأموالكم » فإن الأموال قد حرم الله سبحانه وتعالى على بعضنا أن يأخذ من مال أخيه بغير حق بأى نوع من الأنواع ؛ سواء أخذه غصبًا بأن يأخذه بالقوة ، أو أخذه سرقة ، أو اختطافًا ، أو خيانة ، أو غشًا ، أو كذبًا ، بأى نوع من هذه الأنواع فإنه حرام عليه .

وعلى هذا فالذين يبيعون على الناس بالغش فإن كل مال يدخل عليهم من زيادة فى

---

(١) سبق تخريجه .

Marfat.com

الثمن بسبب الغش فإنه حرام ، فالذين يغشون فى البيع أو فى الشراء يرتكبون محظورين :

المحظور الأول : العدوان على إخوانهم المسلمين بأخذ أموالهم بغير حق .

المحظور الثانى : أنهم ينالون تبرؤ النبى - ﷺ - منهم ، وبئس البضاعة بضاعة يلتحق فيها صاحبها بالبراءة من رسول الله - ﷺ - ، قال النبى - ﷺ - فيما صح عنه : « **مَن غش فليس منا** » (١) .

ومن ذلك ما يفعله بعض الجيران حيث تجده يدخل المراسيم على جاره من أجل أن تزيد أرضه ، وقد ثبت عن النبى - ﷺ - « **أن من اقتطع من الأرض شبراً بغير حق ، فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين** » (٢) ، يكون يوم القيامة فى عنقه طوق من سبع أرضين والعياذ بالله ، يحمله فى يوم المحشر ، وهذا من الظلم .

ومن الظلم أيضًا أن يكون لشخص على شخص دراهم ثم ينكر الذى عليه الحق ، ويقول : ليس لك عندى شئ ، فهذا من أكل المال بالباطل ، حتى لو فُرض أنه تحاكم إلى القاضى مع خصمه وغلبه عند القاضى ، فإنه لا يغلبه عند الله ، قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **إنكم تختصمون إلىَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحنُ بحجته من بعض فأقضى له ، وإنما أقضى بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشئ من حق أخيه فإنما أقتطع له جمرة من نار فليستقل أو ليستكثر** » (٣) فلا تظن أنك إن غلبت خصمك عند القاضى وكنت مبطلاً تسلم بهذا فى الآخرة . أبدًا ؛ لأن القاضى إنما يقضى بنحو ما يسمع ولا يعلم الغيب ، ولكن علام الغيوب جل وعلا هو الذى يحاسبك يوم القيامة .

وكذلك أيضًا من أكل الأمور أن يدعى شخص على آخر ما ليس له ، ويقيم على ذلك البينة بالشهادة الزور ويُحكم له بذلك ، فإن هذا من أكل المال بالباطل ، والأمثلة على ذلك كثيرة ولكنها كلها محرمة إن لم تكن بحق ، ولهذا قال عز وجل : « **فلا تظالموا** » .

أما الأعراض فهى أيضًا حرام ، فلا يحل للإنسان أن يقع فى عرض أخيه ، فيغتابه فى المجالس أو يسبه ، فإن ذلك من كبائر الذنوب . قال الله عز وجل : ﴿ يا أيُها الذين آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَب بَعْضُكُم بعضا ﴾

---

(١) مسلم (١٠١) .

(٢) البخارى (٣١٩٨) مسلم (١٦١٣) .

(٣) البخارى (٢٦٨٠) مسلم (١٧١٣) .

Marfat.com

[الحجرات: ١٢] .

انظر للترتيب اجتنبوا كثيرًا من الظن ، فإذا ظن الإنسان بأخيه شيئًا تجسس عليه ، ولهذا قال : ولا تجسسوا ، فإذا تجسس صار يغتابه ، ولهذا قال فى الثالثة ، قال تعالى : ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ الجواب : لا ، لا يحب بل يكره ، ولهذا قال : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

قال بعض المفسرين : إذا كان يوم القيامة فإنه يؤتى بالرجل الذى إغتابه الشخص يمثل له بصورة إنسان ميت ، ثم يقال له : كُلْ من لحمه ، ويُكره على ذلك ، وهو يكرهه ، لكن يُكره على هذا عقوبة له والعياذ بالله (١) .

فالغيبة ـ وهى انتهاك عرض أخيك ـ محرمة ، وقد روى أبو داود أن النبى - ﷺ - مر ليلة عُرج به بقوم لهم أظفار من نُحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، يعنى يكرون الوجوه والصدور بهذه الأظفار التى من النحاس ، فقال : يا جبريل ، مَن هؤلاء؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم. نعوذ بالله (٢) .

ثم إن الإنسان إذا انتهك عرض أخيه فإن أخاه يأخذ فى الآخرة من حسناته ، ولهذا يُذكر أن بعض السلف قيل له : إن فلانًا يغتابك ، فقال : مؤكد ، قال : نعم اغتابك ، فصنع هدية له ثم بعث بها إليه ، فاستغرب الرجل كيف يغتابه ويرسل له هدية ، قال : نعم ، إنك أهديت إلى حسنات والحسنات تبقى ، وأنا أهديت إليك هدية تذهب فى الدنيا ، فهذه مكافأة على هديتك لى ! انظر فقه السلف - رحمهم الله - .

فالحاصل أن الغيبة حرام ومن كبائر الذنوب ، ولا سيما إذا كانت الغيبة فى ولاة الأمور من الأمراء أو العلماء ، فإن غيبة هؤلاء أشد من غيبة سائر الناس ، لأن غيبة العلماء تقلل من شأن العلم الذى فى صدورهم ، والذى يعلمونه الناس ، فلا يقبل الناس ما يُعطونه من العلم وهذا ضرر على الدين ، وغيبة الأمراء تقلل من هيبة الناس لهم فيتمردون عليهم ، وإذا تمرد الناس على الأمراء فلا تسأل عن الفوضى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فنسأل الله أن يحمينا وإياكم مما يغضبه إنه جواد كريم .

ثم قال الله تعالى : « **يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم** » ضال

(١) انظر تفسير ابن كثير الآية سوة الحجرات : ١٢ .

(٢) أبو داود (٤٨٧٨) وصححه الألبانى فى الصحيحة (٥٣٣) .

Marfat.com

يعنى تائهًا . أى لا يعرف الحق ، وضال يعنى غـاويًا لا يقبل الحق ، فالناس فى الضلال قسمان :

قسم تائه : لا يعرف الحق مثل النصارى فإن النصارى ضالون تائهون لا يعرفون الحق إلا بعد أن بُعث النبى - ﷺ - ، فإنهم عرفوا الحق لكنهم استكبروا عنه ، فلم يكن بينهم وبين اليهود فرق فى أنهم علموا الحق ولم يتبعوه .

وقسم غاوى : أى اختار الغى عن الرشد بعد أن علم بالرشد ، وهؤلاء مثل اليهود، فإن اليهود عرفوا الحق ولكنهم لم يقبلوه ، بل ردوه .

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ**﴾ [فصلت : ١٧] . هداهم اللـه وبين لهم ودلهم لـكنهم استـحبوا الـعمى على الـهدى ، واستحبوا الغى على الرشد ، فالناس كلهم ضالون إلا من هداه الله .

لكن مـا هى هداية القسـم الأول وهو الضال الذى لـم يعرف الحق ؟ هداية الـقسم الأول أن يبين الله لهم الحق ويدلهم عليه ، وهـذه الهداية حق على الله . حق على الله أوجبه الله على نفسه فكل الخلق قد هداهم الله بهذا المعنى . يعنى بمعنى البيان .

قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ**﴾ [الليل : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ** ﴾ [البقرة : ١٨٥] . هدى للناس عمومًا .

ولكن الهداية الثانية وهى هداية التوفيق لقبول الحق هذه هى التى يختص الله بها من يشاء مـن عباده ، فالـهداية هدايتـان ؛ هداية بيان الحق ، وهـذه عامة لكل أحـد ، وقد أوجبها الله على نفسه ، وبين لعباده الحق من الباطل ، وهداية توفيق لقبول الحق والعمل به ، تصديقًا للخبر وقيامًا بالطلب ، وهذه خاصة يختص الله بها من يشاء من عباده .

والناس فى هذا الباب ينقسمون إلى أقسام :

القسم الأول : من هُدى الهدايتين ، أى علمه الله ووفقه للحق وقبوله .

والقسم الثانى : من حُرم الهدايتين فليس عنده علم وليس له عبادة .

والقسم الثالث : من هُدى بالدلالة والإرشاد ولكنه لم يهد هداية التوفيق ، وهذا شر الأقسام والعياذ بالله .

والمهم أن الله عز وجل يقول : « **كلكم ضال** » أى كلكم لا يعرف الحق ، أو كلكم لا يقبل الحق ، إلا مـن هديته « **فاستـهدونـى أهدكم** » يعنى اطـلبوا الهداية مـنى ، فإذا طلبتموها فإننى أجيبكم وأهديكم إلى الحق .

Marfat.com

ولهذا جاء الجواب فى « **استهدونى أهدكم** » وكأنه جواب شرط ، يتحقق المشروط عند وجود الشرط ، ودليل هذا أن الفعل جُزم « **استهدونى أهدكم** » فمتى طلبت الهداية من الله بصدق وافتقار إليه وإلحاح ، فإن الله يهديك .

ولكن أكثرنا معرض عن هذا ، فأكثرنا قائم بالعبادة لكن على العادة وعلى ما يفعل الناس ، ما كأننا مفتقرون إلى الله سبحانه وتعالى فى طلب الهداية ، فالذى يليق بنا أن نسأل الله دائمًا الهداية ، والإنسان فى كل صلاة يقول : رب اغفر لي وارحمني واهدني، بل إنه فى الصلاة يقول على سبيل الركنية : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

ولكن أين القلوب الواعية ؟ إن أكثر المصلين يقرأ هذه الآية وتمر عليه مر الطيف ، أى مر الغيم الذى يجرى بدون ماء وبدون شىء ، ما ينتبه لها .

والذى يليق بنا أن ننتبه وأن نعلم أننا مفتقرون إلى الله عز وجل فى الهداية ، سواء الهداية العلمية أو الهداية العملية أى هداية الإرشاد والدلالة أو هداية التوفيق ، فلابد أن نسأل الله دائمًا الهداية .

« **فاستهدونى أهدكم** » وربما تشمل هذه الهداية الطريق الحسى كما تشمل الطريق المعنوى ، فالهداية للطريق المعنوى هى الهداية إلى دين الله ، والهداية للطريق الحسى كأن تكون فى أرضه قد ضللت الطريق وضعت ، فإنك تسأل الله الهداية ، ولهذا قال الله عن موسى - ﷺ - : ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢٢] . أى السبيل المستوى الموصل للمقصود بدون تعب ، وقد جُرب هذا ، فإن الإنسان إذا ضاع فى البر فإنه يلجأ إلى الله تعالى ويقول : رب اهدنى سواء السبيل ، أو عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، وذلك لأننا محتاجون إلى الله فى الهدايتين ؛ هداية الطريق الحسى ، كما أننى محتاجون إلى الله فى الهداية إلى الطريق المعنوى .

ثم قال - ﷺ - فيما يرويه عن ربه : « **يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم** » هاتان الجملتان الخاصتان بالجوع والعرى ذكرهما الله عز وجل بعد أن ذكر الهداية ، لأن الهداية فيها غذاء القلب فى العلم والإيمان ، والجوارح بالعمل الصالح .

وأما الطعام والشراب والكسوة فهى غذاء البدن ، لأن البدن لا يستقيم إلا بالطعام ولا يستتر إلا بالكسوة ، ولهذا قال : « **يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم** » .

Marfat.com

وصدق ربنا عز وجل ؛ كلنا جائع إلا من أطعمه الله ، ولولا أن الله تعالى يسر لنا ما يكون به طعامنا لهلكنا ، يقول الله تعالى مبينًا ذلك في سورة الواقعة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ ، ٦٤] .

والجواب : بل أنت يا رب الذى زرعته ، لأن الله يقول : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٥ ـ ٦٧] . وتأمل كيف قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه ، لأنه إذا نبت وشاهده الناس تعلقت قلوبهم به ، فإذا جُعل حطامًا بعد أن تعلقت به القلوب صار ذلك أشد نكاية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ ﴾ [الواقعة : ٦٨ ، ٦٩] . يعنى من السحاب ﴿ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ لأن الماء الذى نشرب من السحاب ، يُنْزِله الله عز وجل على الأرض كالأنهار ، ثم يستخرج بالأدوات التى سخرها الله عز وجل للناس فى كل وقت بحسبه ، وهذا من حكمة الله عز وجل أن استودع الماء فى بطن الأرض ، ولو بقى على ظهر الأرض لفسد ، وأفسد الهواء وأهلك المواشى ، بل وأهلك الآدميين من رائحته ونتنه، ولكنه الله عز وجل بحكمته ورحمته جعل هذه الأرض تشربه ، وتسلكه ينابيع فيها ، حتى تأتى حاجة الناس إليه فيحفرونه فيصلون إليه .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ والله عز وجل هو الذى أنزله ، ولو اجتمع الناس كلهم على أن يُنْزِلوا قطرة من السماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولكن الله عز وجل هو الذى يُنْزِله بقدرته ورحمته ، إذن نحن لا نُطعم شيئًا من طعام أو مأكول ولا من مشروب إلا بالله عز وجل ، ولهذا قال : « **كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم** » .

واستطعام الله عز وجل يكون بالقول وبالفعل ؛ فبالقول بأن نسأل الله عز وجل أن يطعمنا وأن يرزقنا ، وأما بالفعل فله جهتان :

الجهة الأولى : العمل الصالح ، فإن العمل الصالح سبب كثرة الأرزاق وسعتها، قال الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦] .

﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ أى : من ثمار الأشجار ، ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أى : من الزروع ،

Marfat.com

فالمهم أن هذا من أسباب إطعام الله .

الجهة الثانية : من جهتى الاستطعام بالفعل أن نحرث الأرض ، ونحفر الآبار ونستخرج المياه ، ونزرع الحبوب ، ونغرس الأشجار ، وما أشبه ذلك .

فالاستطعام إذن يكون بالقول ويكون بالفعل ، والفعل له جهتان ، الجهة الأولى : العمل الصالح ،والجهة الثانية : الأسباب الحسية المادية كالحرث وحفر الآبار وما أشبه ذلك.

وقوله جل ذكره : « **فاستطعمونى أطعمكم** » هذا جواب شرط مقدر أو جواب الأمر الذى كان فى الشرط ، يعنى أنك إذا استطعمت الله فإن الله يطعمك ، ولكن استطعام الله عز وجل يحتاج إلى أمرهم وهو حسن الظن بالله جل وعلا ، أى أن تحسن الظن بربك أنك إذا استطعمته أطعمك ، أما أن تدعو الله وأنت غافل لاهٍ ، أو تفعل الأسباب وأنت معتمد على قوتك لا على ربك فإنك قد تكون مخذولاً والعياذ بالله ، ولكن استطعم الله وأخلص له وحده فى ذلك .

« **يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم** » كلكم عارٍ إلا من كسوته، وذلك لأن الإنسان يخرج من بطن أمه ليس عليه ثياب بل يخرج مجردًا لا ثياب، ولا شعر يكسوه ، كما يكون فى الحيوان ، وهذا من حكمة الله عز وجل .

فمن حكمته تعالى أن جعلنا نخرج بادية أبشارنا ، بادية جلودنا ، حتى نعرف أننا محتاجون إلى كسوة تستر عوراتنا حسًا ، كما أننا محتاجون إلى عمل صالح يستر عوراتنا معنى ؛ لأن التقوى لباس كما قال تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦].

فأنت انظر فى نفسك تجد أنك محتاج إلى الكسوة الحسية لأنك عارٍ ، كذلك أيضًا محتاج إلى الكسوة المعنوية ـ وهى العمل الصالح ـ حتى لا تكون عاريًا ، ولهذا ذكر بعض العابرين للرؤيا أن الإنسان إذا رأى نفسه فى المنام عاريًا فإنه يحتاج إلى كثرة الاستغفار ، لأن هذا دليل على نقصان تقواه ، فإن التقوى لباس .

وعلى كل حال فنحن عراة إلا بكسوة الله عز وجل ، وقد سخر الله لنا من الكسوة ما نكسو به أبدانا ولله الحمد ، من أصناف اللباس المتنوعة ، لا سيما فى البلاد الغنية التى ابتلاها الله عز وجل بالمال ، فإن المال فى الحقيقة فتنة يخشى على الأمة منه ، كما قال محمد ـ ﷺ ـ : « **والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم** » ، فالمال ابتلاء يحتاج إلى صبر على أداء ما يجب فيه ، وإلى شكر على ما يجب له [(١)] .

---

(١) البخارى (١٥ - ٤٠) مسلم (٢٩٦١) .

Marfat.com

وعلى كل حال أقول إن الله سبحانه وتعالى مَنَّ علينا باللباس ولولا أن الله يسره لنا ما تيسر ، ولو أنك نظرت فى الخلق فى وقتك الآن وتأملت لوجدت كما سمعنا من يبيتون عراة ، ليس على أبدانهم ما يسترهم ، ربما يسترون السوءة بالأشجار ونحوها ، وليس عليهم ما يسترهم دون ذلك ، فمن الذى سترك ومنَّ عليك ؟ هو الله ، ولهذا قال عز وجل : « **يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم** » .

ونقول فى قوله : « **فاستكسونى أكسكم** » كما قلنا فى قوله : « **استطعمونى أطعمكم** » يعنى أن الاستكساء يكون بالقول ويكون بالفعل ؛ أما الذى بالقول فبأن تسأل الله عز وجل أن يكسوك ، وإذا سألت الله أن يكسو بدنك حسًا ، فاسأل الله أن يكسو عورتك المعنوية بالتوفيق إلى طاعته وأما الاستكساء بالفعل فعلى وجهين :

الوجه الأول : بالأعمال الصالحة .

والوجه الثانى : بفعل الأسباب الحسية التى تكون بها الكسوة ، من إحداث المعامل ، والمصانع ، وغير ذلك .

وفى الربط بين الطعام والكسوة والهداية مناسبة ، لأن الطعام فى الحقيقة كسوة البدن باطنًا ، لأن الجوع والعطش معناه خلو المعدة من الطعام والشراب ، وهذا تعرى لها ، والكسوة ستر البدن ظاهرًا ، والهداية الستر المهم المقصود وهو ستر القلوب والنفوس من عيوب الذنوب .

ثم قال تعالى : « **يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرونى أغفر لكم** » هذا أيضًا من تمام نعمة الله على العبد ، أنه جل وعلا يعرض عليه أن يستغفر إلى الله ويتوب إليه مع أنه يقول : « **إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا** » أى جميع الذنوب من الشرك والكفر والكبائر والصغائر كلها يغفرها الله ، ولكن بعد أن يستغفر الإنسان ربه ، ولهذا قال : « **فاستغفرونى أغفر لكم** » أى اطلبوا منى المغفرة حتى أغفر لكم .

ولكن طلب المغفرة ليس مجرد أن يقول الإنسان : اللَّهم اغفر لى ، بل لابد من توبة صادقة يتوب بها الإنسان إلى الله عز وجل .

والتوبة الصادقة هى التى تجمع خمسة شروط :

الشرط الأول : أن يكون الإنسان مخلصًا فيها لله عز وجل لا يحمله على التوبة مراءاة الناس ، ولا تسميعهم ، ولا أن يتقرب إليهم بشىء ، وإنما يقصد بالتوبة الرجوع إلى الله حقيقة ، والإخلاص شرط فى كل عمل ، ومن جملة الأعمال الصالحة التوبة

Marfat.com

إلى الله عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

والشرط الثانى : أن يندم الإنسان على ما وقع منه من الذنب ، يعنى أن يحزن ويتأسف ويعرف أنه ارتكب خطأ حتى يندم عليه ، أما أن يكون ارتكاب الخطأ وعدمه عنده على حد سواء ، فهذه ليست بتوبة ، بل لابد أن يندم بقلبه ندمًا يتمنى أنه لم يقع منه هذا الذنب .

والشرط الثالث : أن يقلع عن الذنب ، فلا توبة مع الإصرار على الذنوب ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] . أما أن يقول : إنه تائب من الذنب وهو مصرٌ عليه ، فإنه كاذب مستهزئ بالله عز وجل ، فمثلاً لو قال: أتوب إلى الله من الغيبة ، ولكنه كلما جلس مجلسًا اغتاب عباد الله فإنه كاذب فى توبته ، ولو قال : أتوب إلى الله من الربا ولكنه مصرٌ عليه ، يبيع بالربا ويشترى بالربا فهو كاذب فى توبته ، ولو قال : أتوب إلى الله من استماع الأغانى ولكنه مصرٌ على ذلك فهو كاذب فى توبته ، ولو قال : أتوب إلى الله من معصية الرسول - ﷺ - فى إعفاء اللحية وكان يحلقها وهو يقول أتوب إلى الله من حلقها فإنه كاذب .

وهكذا جميع المعاصى إذا كان الإنسان مصرًا عليها فإن دعواه التوبة كذب ، ولا تقبل توبته .

ومن التخلى عن الذنب والإقلاع عنه أن يرد المظالم إلى أهلها إذا كانت المعصية فى حقوق العباد ، فإن كانت فى أخذ مال فليرد المال إلى من أخذه منه ، فإن كان قد مات فليرده إلى ورثته ، فإن تعذر عليه أن يعرف الورثة أو نسى الرجل أو ذهب الرجل إلى مكان لا يمكن العثور عليه مثل أن يكون أجنبيًا فيرجع إلى بلده ولا يدرى أين هو ، ففى هذه الحال يخرج ما عليه صدقة ينويها لصاحب المال الذى يطلبه .

وإذا كان الذنب فى غيبة وكان المغتاب قد علم أن هذا الرجل قد اغتابه فلابد أن يذهب إلى المغتاب ويتحلل منه ، وينبغى للمغتاب إذا جاءه أخوه يعتذر إليه أن يقبل وأن يسامح عنه ، فإذا جاء إليك أخوك معتذرًا مقرًا بالذنب فاعف عنه واصفح ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : ١٣] . ولكن إذا لم يقبل أن يتسامح عن غيبته إلا بشىء من المال فأعطه المال ، أعطه من المال حتى يقتنع ويحللك .

كذلك إذا كانت المعصية مسابة بينك وبين أحد حتى ضربته مثلاً ، فإن التوبة من ذلك أن تذهب إليه وتستسمح منه ، وتقول : ها أنا أمامك اضربنى كما ضربتك ، حتى

Marfat.com

يصفح عنك ، المهم أن من الإقلاع عن المعصـية إذا كانت لآدمى أن تتحلل منه ، وسواء كانت مظلمة مال أو بدن أو عِرض .

الشرط الرابع : أن يعزم على ألا يعود فى المستقبل ، فإن تابع وأقلع عن الذنب لكن فى قلبه أنه إذا حانت الفرصة عاد إلى ذنبه ، فإن ذلك لا يقبل منه ، فهذه توبة لاعب ، فلابد أن يعزم ، فإذا عزم ثم قدر أن نفسه سـولت له بعد ذلك وفعل المعصية ، فإن ذلك لا ينقص التوبة السابقة ، لكن يحتاج إلى توبة جديدة من الذنب مرة ثانية .

الشرط الخـامس : أن تكون التـوبة فى الوقت الذى تقـبل فيه ، فـإن فات الأوان لم تنفع التوبة ، ويفوت الأوان إذا حضر الإنسـان الموت ، فإذا حضره الموت فلا توبة ، ولو تاب لم تنفعه ، لقول الله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ ﴾ [النساء : ١٨] . الآن لا فائدة فيها .

ولهذا ما أغرق فرعون قال : آمنـت أنه لا إلا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، فـقيل له : ﴿ الآنَ ﴾ يعنى أتقول هذا الآن ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ ، ٩١] . فات الأوان ، ولهـذا يجب على الإنسـان أن يبادر بالتوبة ، لأنه لا يدرى متى يفجأه الموت ، كم من إنسان مات بغتة ومفاجأة ، فليتب إلى الله قبل أن يفوت الأوان .

وكذلك يفوت أوان التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها (١) ، فإن النبى عليه الصلاة والسلام أخـبر أن الشمس الآن تدور بـإذن الله على الأرض ، وإذا غابت سـجدت تحت عرض الرحمن عـز وجل ، واستأذنت الله فإن أُذِنَ لـها استمرت فى سيـرها ، وإلا قيل ارجعى من حيـث جئت فترجع بإذن الله وأمره ، فـتطلع على الناس من المغرب فـحينئذ يؤمن جميع الناس (٢) ، وكل الناس يتوبون ويرجعون إلى الله ، ولكن ذلك لا ينفعهم ، قال الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ يعنى عند الموت ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ يعنى يوم القيـامة للحساب ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ يعنى طلوع الشمـس من مغربها ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

هذه خمسة شروط لـلتوبة لا تقبل إلا بها ، فعليك يا أخى أن تبـادر بالتوبة إلى الله والرجوع إليه ما دمت فى زمن الإمهـال ، قبل أن يفوتك ذلك ، واعلم أنك إذا تبت إلى

(١) البخارى (٤٦٣٥) مسلم (٢٧٠٣) .

(٢) البخارى (٤٨٠٢) .

Marfat.com

الله توبة نصوحة فإن الله يتوب عليك ، وربما يرفعك إلى مَنْزِلة أعلى من مَنْزِلتك .

انظر إلى آدم أبيك حيث نهاه الله عن الأكل من الشجرة ، فعصى ربه بوسوسة الشيطان له ، قال الله تعالى : ﴿ وعصىٰ آدم ربه فغوىٰ ﴿١٢١﴾ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدىٰ ﴾ [طه : ١٢١ ، ١٢٢] . لما تاب نال الاجتباء ، واجتباه الله وصار فى مَنْزِلة أعلى من قبل أن يعصى ربه ، لأن المعصية أحدثت له خجلاً وحياءً من الله ، وإنابة ورجوعًا إليه ، فصارت حاله أعلى حالاً من قبل .

واعلم أن الله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل كان على راحلته وعليها طعامه وشرابه فى أرض فلاة ، ما فيها أحد فأضاع الناقة وطلبها فلم يجدها ، فنام تحت شجرة ينتظر الموت ، فإذا بخطام ناقته متعلق بالشجرة ، قد جاء الله بها ، فأخذ بخطامها وقال من شدة الفرح : « **اللَّهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح** »[1] أراد أن يقول: اللَّهم أنت ربى وأنا عبدك ، ولكن أخطأ من شدة الفرح ، لأن الإنسان إذا اشتد فرحه لا يدرى ما يقول ، كما أنه إذا اشتد غضبه لا يدرى ما يقول ، فالله بتوبة عبده المؤمن أشد فرحًا من فرح هذا بناقته .

وقوله جل ذكره : « **يا عبادى إنكم لم تبلغوا نفعى فتنفعونى ولن تبلغوا ضرى فتضرونى** » يعنى أنه تبارك وتعالى غنى عن العباد ، لا ينتفع بطاعتهم ولا تضره معصيتهم.

فإنه عز وجل قال فى كتابه : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ** ﴾ [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨].

فالله عز وجل لا ينتفع بأحد ولا يتضرر بأحد لأنه غنى عن الخلق جل وعلا ، وإنما خلق الخلق لحكمة أرادها تبارك وتعالى ، خلقهم لعبادته ، ثم إنه وعد الطائعين بالثواب وتوعد العاصين بالعقاب حكمة منه لأنه خلق الجنة والنار ، وقال لكل منكما علىَّ ملؤها فالنار لابد أن تملأ ، والجنة لابد أن تملأ كما قال عز وجل : ﴿ **وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ [هود : ١١٩] .

إذن فالله تعالى لن تنفعه طاعة الطائعين ، ولن تضره معصية العاصين ، ولن يبلغ أحد ضرره مهما كان .

ولهذا قال فيما بعد هذه الجملة : « **لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا**

---

[1] البخارى (٦٣٠٩) مسلم (٢٧٤٤) .

Marfat.com

على أتقى قلب رجـل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكـى شيئًا » لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنـهم كانوا متقين ، علـى أتقى قلب رجل واحد ، ما زاد ذلـك فى ملك الله شيئًا ، لأن الملك ملكه لا للطائعين ولا للعاصين .

كذلك أيضًا يـقول جل وعلا : « **يا عبـادى لو أن أولكم وآخركم وإنسـكم وجنكم كانوا عـلى أفجر قـلب رجل واحد منكـم ما نقص ذلك فـى ملكى شيـئًا** » لو كان الناس كلهم من جن وإنس وأولهـم وآخرهم ، لو كانوا كلهم فجارًا وعلـى أفجر قلب رجل ، فإن ذلك لا ينقص من ملك الله شـيئًا ، قال الله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

فالله جـل وعلا لا ينقص ملكه بمـعصية العـصاة ، ولا يزيد بطاعة الـطائعين ، هو ملك الله على كل حال .

ففى هذه الجُمَل الثلاث دليل على غنى الله سبحانه وتعالى ، وكمال سلطانه ، وأنه لا يتضرر بأحد ولا ينتفع بأحد لأنه غنى عن كل أحد .

ثم قال تعالى : « **يا عبادى لو أن أولكـم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فـى صعيد واحد فسألونى فأعـطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عنـدى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر** » هذه الجملة تدل على سعة ملك الله عز وجل ، وعلى كمال غناه تبارك وتعالى ، لو أن الأولين والآخريـن والإنس والجن ، قاموا كلهم فى صعيـد واحد فسألوا الله ما تبلغه نـفوسهم ، من أى مسألة وإن عظمت ، فأعطى اللـه كل إنسان ما سأل بل أعطى الله كل سـائل ما سأل فإن ذلك لا ينـقص من ملك الله شيئـًا ، لأن الله جواد ، واجد ، عظيم الغنى ، واسع العطاء ، عز وجل .

« **إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر** » اغمس المخيط فى البحر وانظر ماذا ينقص البحر ؟ إنه لا ينقص البحر شيئًا ، ولا يأخذ المخيط من البحر شيئًا يمكن أن ينسب إليه ، وذلك لأنه عز وجل واسع الغنى جواد ماجد كريم سبحانه وتعالى .

« **يا عـبادى إنما هـى أعمـالكم أحصيهـا لكم ثـم أوفيكـم إياها** » ومعنى « **إنما هى أعمـالكم** » أى الشـأن كـله أن الإنسان بعمـله ، يحصى اللـه أعماله ثـم إذا كان يوم القيامـة وفـاه إياها ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] .

« **فمن وجـد خيرًا فليـحمد اللـه ومن وجد غيـر ذلك فلا يلومن إلا نفـسه** » لأنه هو الذى أخطأ ، وهو الذى منع نفسه الخير ، أما إذا وجـد خيرًا فليحمد الله ، لأن الله هو

Marfat.com

الذى منَّ عليه أولاً وآخرًا ، منَّ عليه أولاً بالعمل ، ثم منّ عليه ثانيًا بالجزاء الوافر ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلاَّ مثلها ﴾ [الأنعام : ١٦٠] .

فهذا الحديث حديث عظيم ، تناوله العلماء بالشرح واستنباط الفوائد والأحكام منه، وممن أفرد له مؤلفًا شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فإنه شرح هذا الحديث فى كتاب مستقل ، فعلى الإنسان أن يتدبر هذا الحديث ويتأمله ، ولاسيما الجملة الأخيرة منه ، وهى أن الإنسان يجزى بعمله ، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر ، وهذا هو وجه وضع المؤلف لهذا الحديث فى باب المجاهدة ، أن الإنسان ينبغى له أن يجاهد نفسه وأن يعمل الخير حتى يجد ما عند الله خيرًا وأعظم أجرًا .

❊ ❊ ❊

Marfat.com

١٢ ـ باب الحث على الازدياد من الخير فى أواخر العمر

قال الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٧]

قال ابن عباس ، وَالْمُحَـقِّقُونَ : مَعْنَاهُ : أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ سِتِّـينَ سَنَةً ؟ وَيُؤَيِّدُهُ الحديثُ الذى سنذكُرُه إن شاء الله تعالى ، وقيل : معناه ثمانى عَشْرَةَ سَنَةً . وقيل : أربعين سَنَةً . قَالَهُ الحسن والكلْبى وَمَسْرُوقٌ ، ونقلَ عن ابن عباس أيضاً . ونقَلوا : أنَّ أهْلَ المدينَةِ كانوا إذا بلَغَ أحَدُهُمْ أربَعِينَ سَنَةً تَفَرَّغَ للعبادَةِ . وقيل : الْبُلُوغُ .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ قال ابن عباس والجمهور : هو النبىُّ - ﷺ -. وقيل: الشَّيْب . قاله عِكْرِمَة ، وابن عُيَيْنَة ، وغيرهما والله أعلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحـمه الله تعالـى ـ : (باب الحث على الازدياد من الخيـر فى أواخر العمر) اعلـم أن المدار على آخر العمر ، كمـا قال النبى - ﷺ - : « **إن الرجل ليـعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يبقى بينه وبينها إلا ذراع ، فـيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحـدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى مـا يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها** » [(١)] .

ولهذا كان مـن الدعاء المأثور : اللَّهم اجعل خير عمـرى آخره وخير عملى خواتمه ، وصح عن النبى عليـه الصلاة والسلام : « **أن من كان آخر كلامـه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة** » [(٢)] .

فالذى ينبغـى للإنسان كلما طال به العمـر أن يكثر من الأعمال الصالحـة ، كما أنه ينبغى للشاب أيضًا أن يكثر من الأعمال الصالحة ؛ لأن الإنسان لا يدرى متى يموت ، قد يموت فى شبـابه ، وقد يؤخر موته ، لكـن لا شك أن من تقدم به السن فـهو أقرب إلى الموت من الشباب ، لأنه أنهى العمر .

ثم ساق المؤلف قول الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ (ما) نكرة موصوفة ، أى : أو لم نعمركم عمرًا يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ، وهذا العمر

---

(١) البخارى (٦٥٩٤) مسلم (٢٦٤٣) .

(٢) أبو داود (٣١١٦) أحمد (٥/ ٢٣٣) وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود .

Marfat.com

اختلف المفسرون فيه ، فقيل : هو ستون سنة ، وقيل : ثمانية عشر سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وقيل : البلوغ ، والآية عامة ، عُمِّروا عُمرًا لهم فى فرصة يتذكر فيه من يتذكر ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال ، فقد يكون الإنسان يتذكر فى أقل من ثمانية عشر سنة ، وقد لا يتذكر إلا بعد ذلك ، حسب ما يأتيه من النذر والآيات ، وما يكون حوله من البيئة الصالحة ، أو غير الصالحة ، المهم أنه يقال لهم توبيخًا ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ .

وفى هذا : دليل على أنه كلما طال بالإنسان العمر ، كان أولى بالتذكر .

وأما قوله تعالى ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ . فالصحيح أن المراد بالنذير النبى- ﷺ - ، وهو اسم جنس يشمل رسول الله- ﷺ - ، ويشمل الرسل الذين من قبله ، كلهم نُذُر عليهم الصلاة والسلام .

فالواجب على الإنسان أن يحرص فى آخر عمره على الإكثار من طاعة الله ، ولاسيما ما أوجب الله عليه ، وأن يكثر من الاستغفار والحمد . كما قال الله تعالى لنبيه- ﷺ - : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر : ١ : ٣] ، هذه السورة يقال : إنها آخر سورة نزلت على النبى- ﷺ - ، وفيها قصة عجيبة ، حيث كان الأنصار- ﷺ- يقولون لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب : لماذا تدنى عبد الله بن عباس وهو من الشباب ولا تدنى شبابنا ؟ وكان عمر- ﷺ - ينزل الناس منازلهم فى العلم والدين ، كل من كان أعلم وأدين فهو إلى أمير المؤمنين عمر أقرب ، وهكذا ينبغى للإنسان أن يكون تقديمه حسب ما عند الإنسان من العلم والدين ، القرابة لهم حق ولا شك ، لكن العلم والدين أعظم ما يكون قربة إلى الإنسان من غيره .

والمهم أن الأنصار قالوا لأمير المؤمنين عمر- ﷺ - لماذا تدنى عبد الله بن عباس ولا تدنى شبابنا ؟ فقال لهم : أمهلونى ، ثم جمعهم ذات يوم ، وقال لهم : ماذا تقولون فى قول الله تعالى :﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر : ١ : ٣] . قالوا : نقول : إن الله قال للرسول- ﷺ - إذا جاء النصر وفتحت مكة فسبح بحمد الله واستغفره لأنه كان توابًا ، يعنى فسروها بظاهرها فقال : ما تقول يا بن عباس ؟ قال : أقول : إن هذه السورة نعى رسول الله- ﷺ - ، يعنى أنها تدل على أن أجله قد اقترب .

ففهم هذا الفهم العجيب- ﷺ - يعنى إذا جاء النصر والفتح فقد أديت ما عليك ،

Marfat.com

اختم عمرك بالاستغفار والتسبيح بحمد الله عز وجل (١) .

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك اللَّهم اغفر لي » (٢) .

فأكثر منها في الركوع والسجود كما كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفعل .

* * *

[١/ ١١٢] وأمَّا الأحاديث : فالأوَّل : عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، عن النبي قال : «أعْذَرَ الله إلى امْرِئٍ أخَّرَ أجَلَه حتى بَلَغَ ستِّينَ سَنَةً » رواه البخاري .

قال العلماء : معناه : لَمْ يَتْرُكْ لَه عُذْراً إذْ أمْهَلَهُ هذهِ المدَّةَ . يُقال : أعْذَرَ الرَّجُل : إذا بلغ الغَايَةَ في الْعُذْرِ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « أعذر الله تعالى إلى امرئ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة » والمعنى أن الله عز وجل إذا عمَّر الإنسان حتى بلغ ستين سنة فقد أقام عليه الحجة ونفى عنه العذر ، لأن ستين سنة يبقى الله الإنسان إليها ؛ يعرف من آيات الله ما يعرف ، ولا سيما إذا كان ناشئًا في بلد إسلامي ، لاشك أن هذا يؤدي إلى قطع حجته إذا لاقى الله عز وجل ، لأنه لا عذر له .

فلو أنه مثلاً قُصِرَ في عمره إلى خمس عشرة سنة أو إلى عشرين سنة ، لكان قد يكون له عذر في أنه لم يتمهل ولم يتدبر الآيات ، ولكنه إذا أبقاه إلى ستين سنة ، فإنه لا عذر له ، قد قامت عليه الحجة ، مع أن الحجة تقوم على الإنسان من حين أن يبلغ ، فإنه يدخل في التكليف ولا يعذر بالجهل .

فإن الواجب على المرء أن يتعلم من شريعة الله ما يحتاج إليه ، مثلاً : إذا أراد أن يتوضأ لابد أن يعرف كيف يتوضأ ، إذا أراد أن يصلي لابد أن يعرف كيف يصلي ، إذا صار عنده مال لابد أن يعرف ما مقدار النصاب ، وما مقدار الواجب ، وما أشبه ذلك ،

---

(١) البخاري (٤٩٧٠) .

(٢) البخاري (٤٩٦٨) مسلم (٤٨٤) .

[١/ ١١٢] صحيح : رواه البخاري (٦٤١٩) .

Marfat.com

إذا أراد أن يصوم لابد أن يعرف كيف يصوم وما هى المفطرات ، وإذا أراد أن يحج أو يعتمر يجب أن يعرف يحج ، وكيف يعتمر ، وما هى محظورات الإحرام ، إذا كان من الباعة الذين يبيعون ويشترون بالذهب مثلاً ، لابد أن يعرف الربا ، وأقسام الربا ، وما الواجب فى بيع الذهب بالذهب ، أو بيع الذهب بالفضة ، وهكذا ، إذا كان ممن يبيع الطعام لابد أن يعرف كيف يبيع الطعام ، ولابد أن يعرف ما هو الغش الذى يمكن أن يكون ، وهكذا .

والمهم أن الإنسان إذا بلغ الستين سنة فقد قامت عليه الحجة التامة ، وليس له عذر ، وكل إنسان بحسبه ، كل إنسان يجب عليه أن يتعلم من الشريعة ما يحتاج إليه ؛ فى صلاة، والزكاة، والصيام، والحج ، والبيوع ، والأوقاف وغيرها ، حسب ما يحتاج إليه.

وفى هذا الحديث :دليل على أن الله سبحانه وتعالى له الحجة على عباده ، وذلك أن الله أعطاهم عقولاً ، وأعطاهم أفهامًا ، وأرسل إليهم رسلاً ، وجعل من الرسالات ما هو خالد إلى يوم القيامة ، وهى رسالة النبى ـ ﷺ ـ ، فإن الرسالات السابقة محدودة ، حيث إن كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، ومحدودة فى الزمن ، حيث إن كل رسول يأتى بنسخ ما قبله ، إذا كانت الأمة التى أرسل إليها الرسولان واحدة .

أما هذه الأمة فقد أرسل الله إليها محمداً ـ ﷺ ـ ، وجعله خاتم الأنبياء ، وجعل آيته العظيمة الباقية هذا القرآن العظيم ، فإن آيات الأنبياء تموت بموتهم ، ولا تبقى بعد موتهم إلا ذكرى .

أما محمد ـ ﷺ ـ فإن آيته هذا القرآن العظيم باقية إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[العنكبوت : ٥٠ ، ٥١] .

فالكتاب كاف عن كل آية لمن تدبره ، وتعقله ، وعرف معانيه ، وانتفع بأخباره ، واتعظ بقصصه ، فإنه يغنى عن كل شىء من الآيات .

لكن الذى يجعلنا لا نحس بهذه الآيات العظيمة ، أننا لا نقرأ القرآن على وجه نتدبره ، ونتعظ بما فيه ، كثير من المسلمين إن لم يكن أكثر المسلمين يتلون الكتاب للتبرك والأجر فقط .

ولكن الذى يجب أن يكون هو أن نقرأ القرآن لنتدبره ونتعظ بما فيه ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾هذا الأجر ﴿ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾هذه هى الثمرة ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[ص :٢٩] .

* * *

Marfat.com

[١١٣/٢] الثاني : عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : كانَ عمر - رضي الله عنه - يُدخلُني مَعَ أشْيَاخِ بَدْرٍ ، فكَأنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ فِي نَفْسه فقال : لِمَ يَدْخُلُ هذَا معنا ولَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُه ؟! فقال عمر : إنَّه من حَيْث عَلمتُمْ ! فَدَعاني ذاتَ يَوْمٍ فأدْخَلَني مَعهُمْ ، فما رَأَيْتَ أنَّهُ دعاني يَوْمَئذٍ إلا لِيُرِيَهُمْ قال : ما تقولون في قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ [النصر:١] فقال بعضهم: أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللَّه ونَسْتَغْفره إذَا نَصرنَا وفتح علينا . وسَكتَ بعضهمُ فلم يَقُلْ شَيْئاً ، فقال لي : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا ، قال: فما تقول ؟ قلت : هُو أجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، أعْلَمَه له قال: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ وذلك علامة أجَلكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر:٣] فقال عمر - رضي الله عنه - : ما أعْلَمُ منها إلا ما تَقُول . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن عمر ابن الخطاب كان يدخله في أشياخ بدر ، وكان من سيرة عمر وهديه - رضي الله عنه - أنه يشاور الناس ذوي الرأي فيما يشكل عليه ، كما قال الله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

والشورى الشرعية ليست تكوين مجلس للشورى حتى يكون مشاركًا في الحكم ، ولكن الشورى الشرعية أن ولي الأمر إذا أشكل عليه أمر من الأمور جمع الناس له من ذوي الرأي والأمانة من أجل أن يستشيرهم في القضية الواقعة ، فكان من هدى عمر - رضي الله عنه - ومن سنته المشكورة ، وسعيه الحميد ، أنه يشاور الناس يجمعهم ليستشيرهم في الأمور الشرعية والأمور السياسية ، وغير ذلك ، وكان يدخل مع أشياخ بدر أي مع كبار الصحابة - رضي الله عنهم - عبد الله بن عباس ، وكان صغير السن بالنسبة لهؤلاء ، فوجدوا في أنفسهم : كيف يدخل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - مع أشياخ القوم ولهم أبناء مثله ولا يدخلهم .

فأراد عمر - رضي الله عنه - أن يريهم مكانة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - من العلم والذكاء والفطنة ، فجمعهم ودعاه ، فعرض عليهم هذه السورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

[١١٣/٢] صحيح : رواه البخاري (٤٩٧٠) .

Marfat.com

[النصر: ١ : ٣] . فانقسموا إلى قسمين لما سألهم عنها ما تقولون فيها ؟ قسمٌ سكت ، وقسم قال : إن الله أمرنا إذا جاءنا النصر والفتح ، أن نستغفر لذنوبنا ، وأن نحمده ونسبح بحمده ، ولكن عمر - رضي الله عنه - أراد أن يعرف ما مغزى هذه السورة ، ولم يرد أن يعرف معناها التركيبي من حيث الألفاظ ،الكلمات ، فسأل ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : ما تقول في هذه السورة ؟ قال : هو أجل رسول الله - ﷺ - ، يعني علامة قرب أجله أعطاه الله إياه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ يعني فتح مكة فإن ذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾فقال : ما أعلم فيها إلا ما علمت ، وظهر بذلك فضل عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - .

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يفطن لمغزى الآيات الكريمة ، فإن المعنى الظاهر الذي يفهم من الكلمات والتركيبات هذا أمر قد يكون سهلاً ، لكن مغزى الآيات الذي أراده الله تعالى هو الذي يخفى على كثير من الناس ، ويحتاج إلى فهم يؤتيه الله تعالى من يشاء .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي سبح الله مصحوبًا بالحمد ، فالباء هنا للمصاحبة ، وذلك لأنه إذا كان التسبيح مصحوبًا بالحمد فإنه به يتحقق الكمال ، لأن الكمال لا يتحقق إلا بانتفاء العيوب ، وثبوت صفات الكمال ، فانتفاء العيوب مأخوذ من قوله سبحانك ، لأن التسبيح معناه التنزيه عن كل نقص وعيب ، وثبوت الكمالات مأخوذ من قوله وبحمدك ، لأن الحمد هو وصف المحمود بالصفات الكاملة ، وليس هو الثناء كما هو مشهور عند كثير من العلماء ، إذ قالوا : الحمد هو الثناء على الله بالجميل، وبعضهم يقول بالجميل الاختياري وما أشبه ذلك ، والدليل على ذلك الحديثُ القدسي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - ، أن النبي - ﷺ - قال : « **إن الله قال : قسمت الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين** - يعني الفاتحة - **فإذا قال : الحمد لله رب العالمين ، قال : حمدني عبدي ، فإذا قال : الرحمن الرحيم قال : أثنى عليَّ عبدي** »[1] ففرق بين الحمد والثناء .

والمهم أن الإنسان إذا جمع بين التسبيح والحمد ، فقد جمع بين إثبات الكمال لله ونفي النقائص عنه .

أما قوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ فمعناه : اطلب منه المغفرة ، والمغفرة : هي التجاوز عن الذنب والستر ، يعني المغفرة تجمع بين ستر الذنب والتجاوز عنه ، وذلك من مدلول

---

(١) مسلم (٣٩٥) الترمذي (٢٩٥٣) .

Marfat.com

اشتقاقها ، فإنها مأخوذة من المغفـر وهو ما يوضع على الرأس عند الحرب ليقى السهام ، فهو واقٍ وساتر .

وأما قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ففيه أن الله عز وجل موصـوف بكثرة التوبة لقوله : ﴿تَوَّابًا﴾ ، وهى صيغة مبالغة لكثرة من يتوب الله عليه .

والله عز وجل تـواب على عبده توبة سـابقة لتوبته ، وتـوبة لاحقة لها ، كـما قال تعالى ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾[التوبة : ١١٨] ، فالتوبة السابقة أن يوفق الله العبد للتوبة والتوبة اللاحقة أن يقبل الله منه التوبة إذا تاب إليه .

وللتوبة شروط خمسة :

الأول :الإخلاص لله عز وجل فى التوبة .

والثانى :الندم على ما حصل منه من الذنب .

والثالث :الإقلاع عنه فى الحال .

والرابع :العزم على ألا يعود .

والخامس : أن تكون التوبة فى الوقت الذى تقبل فـيه ، فإن كانت التوبة فى الوقت الذى لا تقبل فيه فإنها لا تنفع ، فإذا تاب الإنسان عند حضور أجله لم ينتفع بهذه التوبة، لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾[النساء : ١٨] . الآن لا تنفع التـوبة ، ولهذا لم ينتـفع فرعون بتـوبته حين أدركه الغرق ، قيل له : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[يونس : ٩١] . ومما لا تقبل فيه التوبة أيضًا إذا طلعت الشمس من مغربها ، فإن الناس يؤمنون ولكن ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾[الانعام : ١٥٨] .

وينبغى للإنسان أن يـكثر من هذا الذكر فى الركوع والسجود : سبـحانك اللَّهم ربنا وبحمدك ، اللَّهم اغفر لى (١) . فإنه جامع بين الذكر والدعاء ، وكان النبى ـ ﷺ ـ يكثر أن يقوله فى ركوعه وسجوده بعد نزول هذه السورة .

* * *

[٣/ ١١٤] الثالث :عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : ما صَلَّى رسـول الله صلاة بَعْدَ أنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلا يقول فيها : « سُبْحَانَكَ رَبَّنا وَبِحَمْدِكَ،

(١) سبق تخريجه مراراً .

[٣/ ١١٤] صحيح : رواه البخارى (٧٩٤) ، ومسلم (٤٨٤) .

Marfat.com

اللَّهُمَّ اغفِرْ لِى » متفقٌ عليه .

وفى رواية فى « الصحيحين » عنها : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُكثِر أنْ يَقُولَ فى رُكُوعِه وسُجُوده : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبحَمْدكَ ، اللَّهُمَّ اغفرْ لى » يَتَأَوَّلُ القُرآن .

معنى «يَتَأَوَّلُ القُرْآنَ » أىْ : يَعمل مَا أُمِرَ بِه فى القُرآن فى قَولِهِ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .

وفى رواية لمسلم : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُكثر أنْ يَقُولَ قَبلَ أنْ يَمُوتَ : «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبحَمْدكَ ، أستَغفرُكَ وأَتُوبُ إلَيْكَ » ، قالت عائشة : قلت : يا رسول اللـه ، ما هذه الكَلِمَاتُ الَّتى أرَاكَ أحْدَثْتَها تَقولها ؟ قال : « جُعِلَتْ لى علامةٌ فى أُمَّتى إذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ » إلى آخر السورة .

وفى رواية لـه : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يُكْثِر مِنْ قَولِ : « سُبْحَانَ اللَّه وبحَمْدِه، أستَغْفر اللَّه وأتُوب إلَيْه » . قالت : قُلتُ : يا رسولَ اللَّه ، أرَاكَ تُكثِرُ مِنْ قَولِ : سُبْحَانَ الله وبحمده ، أستَغفر الله وأتوبُ إلَيْه ؟ فقال : « أخْبرَنى رَبِّى أنِّى سأرَى علامَةً فى أمَّتى فإذا رأَيتُها أكْثَرتُ مِنْ قَولِ : سُبْحَان الله وبحَمْده ، أستَغفِرُ اللّه وأتُوبُ إلَيْه ؛ فَقَدْ رأيْتُها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ - فَتحُ مكَّة - ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ » .

[٤/١١٥] الرابع : عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : إنَّ اللَّه عزَّ وجَلَّ تَابعَ الْوَحْىَ على رسول الله ـ ﷺ ـ قَبلَ وَفَاتِه ، حَتَّى تُوُفِّىَ أكثَرَ مَا كَانَ الْوَحْىُ . متفقٌ عليه .

[٥/١١٦] الخامس : عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال :قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلى مَا مَاتَ عَلَيْهِ » رواه مسلم .

❊ ❊ ❊

[٤/١١٥] صحيح : رواه البخارى (٤٩٨٢) ، ومسلم (٣٠١٦) .

[٥/١١٦] صحيح : رواه مسلم (٢٨٧٨) .

Marfat.com

١٣ - باب بيان كثرة طرق الخير

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٥] ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة:١٩٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ . [الزلزلة : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [الجاثية :١٥] . والآيات فى الباب كثيرةٌ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحـمه الله تعالى ـ : (باب بيـان كثرة طرق الخير) ، الخـير له طرق كثيـرة ، وهذا من فضل الله عز وجل علـى عباده ، من أجل أن تتنوع لهم الـفضائل ، والأجور ، والثواب الكثير .

وأصول هذه الطرق ثلاثة : إما جهد بدنى ، وإما بـذل مالى ، وإما مركب من هذا وهذا ، هذه أصول طرق الخير .

أما الجهد البدنى : فهو أعمال الـبدن ؛ مثلا الصلاة ، والصيام ، والجـهاد وما أشبه ذلك .

وأما البذل المالى : فمثل الزكوات والصدقات ، والنفقات ، وما أشبه ذلك .

وأما المركب : فمثل الجهاد فى سبيل الله بـالسلاح فإنه يكون بالمال ويكون بالنفس ، ولكن أنواع هذه الأصول كثيرة جيدًا ، من أجل أن تتنوع للعباد الطاعات ، حتى لا يملوا لو كان الخير طريـقًا واحدًا لمل الناس من ذلك وسئموا ، ولـما حصل الابتلاء ، ولكن إذا تنوع كان ذلك أرفق بالناس ، وأشد فى الابتلاء .

قال الله تعالى في هذا الباب : ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨] . وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [الانبياء : ٩٠] . وهذا يدل على أن الخيرات ليست خيرًا واحدًا ، بل طرق كثيرة .

ثم ذكر المؤلف آيات تشير إلى أن الخـير له طرق ، قال الله تعالي : ﴿ وما تفعلوا من خيرٍ يعلمه الله ﴾ [البقرة : ١٩٧] ، ﴿ وما تفعلوا من خيرٍ فإنَّ الله به عليمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٥] . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيرًا يره ﴾ [الزلزلة : ٧] .

والآيات فى هذا كثيرة ، تدل على أن الخيرات ليست صنفًا واحدًا ، أو فردًا واحدًا،

Marfat.com

أو جنسًا واحدًا .

ويدل لما قلنا أن من الناس من تجده يألف الصلاة ، فتجده كثير الصلوات ، ومنهم من يألف قراءة القرآن ، فتجده كثيرًا يقرأ القرآن ، ومنهم من يألف الذكر والتسبيح والتحميد وما أشبه ذلك ، فتجده يفعل ذلك كثيرًا ، ومنهم الكريم الطليق اليد الذى يحب بذل المال ، فتجده دائمًا يتصدق ، ودائمًا ينفق على أهله ويوسع عليهم فى غير إسراف .

ومنهم من يرغب العلم وطلب العلم الذى هو فى وقتنا هذا قد يكون أفضل أعمال البدن ، لأن الناس فى الوقت الحاضر فى عصرنا هذا محتاجون إلى العلم الشرعى ، لغلبة الجهل وكثرة المتعالمين ، الذى يدّعُون أنهم علماء وليس عندهم من العلم إلا بضاعة مزجاة ، فنحن فى حاجة إلى طلبة علم يكون عندهم علم راسخ ثابت مبنى على الكتاب والسنة ، من أجل أن يردوا هذه الفوضى التى أصبحت منتشرة فى القرى والبلدان ، كل إنسان عنده حديث أو حديثان عن رسول الله - ﷺ - يتصدى للفتيا ، ويتهاون بها ، وكأنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، أو الإمام أحمد أو الشافعى أو غيرهم من الأئمة ، وهذا ينذر بخطر عظيم إن لم يتدارك الله الأمة بعلماء راسخين ، عندهم علم قوى وحجة قوية .

ولهذا نرى أن طلب العلم أفضل الأعمال المتعدية للخلق ، أفضل من الصدقة ، وأفضل من الجهاد ، بل هو جهاد فى الحقيقة ، لأن الله سبحانه وتعالى جعله عديلاً للجهاد فى سبيل الله ، وليس الجهاد الذى يشوبه ما يشوبه من الشبهات ، ويشك الناس فى صدق نية المجاهدين ، لا ، الجهاد الحقيقى الذى تعلم علم اليقين أن المجاهدين يجاهدون لتكون كلمة الله هى العليا ، فتجدهم مثلاً يطبقون هذا المبدأ فى أنفسهم قبل أن يجاهدوا غيرهم ، فالجهاد الحقيقى فى سبيل الله الذى يقاتل فيه المقاتلون لتكون كلمة الله هى العليا يعادله طلب العلم الشرعى .

ودليل ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ يعنى ما كان ليذهبوا إلى الجهاد جميعًا ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ يعني وقعدت طائفة ، وإنما قعدوا ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

فجعل الله طلب العلم معادلاً للجهاد فى سبيل الله ، والجهاد الحق الذى يعلم بقرائن الأحوال وحال المجاهدين أنهم يريدون أن تكون كلمة الله هى العليا .

فالمهم أن طرق الخير كثيرة ، وأفضلها فيما أرى بعد الفرائض التى فرضها الله هو

Marfat.com

طلب العلم الشرعى ، لأننا اليوم فى ضرورة إليه .

لقد سمعنا وجاءنـا استفتاء عن شخص يقول : من صلى فى مسـاجد البلد الفلانى فإنها لا تصح صلاته ، لأن الذين تبرعوا لهذه المساجد فيهم كذا وكذا ، ومن صلى على حسب الأذان فإنه لا تصـح صلاته ، لأنه مبنى على توقيت وليـس على رؤية الشمس ، والرسول ـ ﷺ ـ يقول : « **وقت الظهر إذا زالت الشمس وكـان ظل الرجل كطوله ما لم يحضر العصر** » (١) ، أما الآن الأوقات مكتوبة فى أوراق والنـاس يمشون عليها ، هؤلاء كلهم لا تصح صـلاتهم ، يعنى كل المسلمـين على زعمه لا تصح صلاتـهم ، مثل هذه البلبلة .

والمشكلـة أن مثل هذا يقـال : إنه رجل عنده شـىء من العلم ، لكـن علم الأوراق الذى يعطى الإنسان فيه بطاقة تشهد بأنه متخرج من كذا وكذا .

فالحـاصل أنه لابد للأمة الإسـلامية من عـلماء راسخـون فى العلم ، أما أن تـبقى الأمور هكذا فـوضى ، فإنهم على خطر عظيـم ، ولا يستقيم للناس ديـن ، ولا تطمئن قلوبهم ، ويـصبر كل واحد تحـت شجرة يفتـى ، وكل واحد تحت سقف يـفتى ، وكل واحد على قمـة جبل يفتى ، وهذا ليس بـصحيح ، لابد من علماء عـندهم علم راسخ ثابت ، مبنى على الكتاب والسنة وعلى العقل والحكمة .

❊ ❊ ❊

وأمَا الأحاديث : فكثيرة جداً ، وهى غير منحصرة ، فنذكر طرفاً منها :

[١/ ١١٧] الأوَّل : عن أبـى ذرّ جُنـدُب بن جُـنَادَةَ ـ رضي الله عنه ـ قـال : قلـت : يارسول الله ، أىُّ الأعمَال أفضَل ؟ قال : « **الإيمانُ بالله ، والجهَـادُ فى سَبيله** » ، قُلتُ : أىُّ الرقَابِ أفضَلُ ؟ قال : « **أنفَسُهَا عندَ أهلـهَا ، وَأكثرُهَا ثمناً** » ، قُلْتُ : فَإنْ لَمْ أفـعَلْ ؟ قال: « **تُعينُ صَانعـاً أوْ تَصنَـعُ لأخْرَقَ** » ، قُلْتُ : يا رَسـول الله أرَأيتَ إنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَـعْضِ العَمَلِ ؟ قال :« **تكُفُّ شرَّكَ عَـنِ النَّاسِ فَإنها صَـدقَةٌ منْكَ على نَفْسكَ** » متفقٌ عليه.

« الصَّانِعُ » بالصَّاد المهملة هذا هو المشـهور ، ورُوى « ضَائعاً » بالمعجمة : أىْ

(١) مسلم (٦١٢) أبو داود (٣٩٦) النسائى (١/ ٢٦٠) .

[١/ ١١٧] صحيح : رواه البخارى (٢٥١٨) ، ومسلم (٨٤) .

Marfat.com

ذَا ضَيَاعٍ مِنْ فَقْرٍ أوْ عِيَالٍ ، ونَحْوَ ذلكَ و « الأخْرَقُ » : الَّذِى لا يُتقِن مَا يُحَاوِلُ فِعْلَهُ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فى باب كثرة طرق الخير ، فيما نقله عن أبى ذر ـ رضي الله عنه ـ أنه سأل النبى ـ ﷺ ـ أى العمل أفضل ؟ قال : « **الإيمان بالله والجهاد فى سبيله** » والصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يسألون النبى ـ ﷺ ـ عن أفضل الأعمال من أجل أن يقوموا بها ، وليسوا كمن بعدهم ، فإن من بعدهم ربما يسألون عن أفضل الأعمال ، ولكن لا يعملون ، أما الصحابة فإنهم يعملون ، فهذا ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ سأل النبى ـ ﷺ ـ أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : « **الصلاة على وقتها** » قلت : ثم أى ؟ قال : « **بر الوالدين** » قلت : ثم أى ؟ قال : « **الجهاد فى سبيل الله** » .

وهذا أيضًا أبو ذر يسأل النبى ـ ﷺ ـ عن أفضل الأعمال فبين له النبى ـ ﷺ ـ أن أفضل الأعمال إيمان بالله وجهاد فى سبيله ثم سأله عن الرقاب : أىُّ الرقاب أفضل ؟ والمراد بالرقاب المماليك ، يعنى ما هو الأفضل فى إعتاق الرقاب ؟ فقال : « **أنفسُها عند أهلها وأكثرها ثمنًا** » وأنفسها عند أهلها يعنى أحبها عند أهلها ، وأكثرها ثمنًا أى أغلاها ثمنًا ، فيجتمع فى هذه الرقبة النفاسة وكثرة الثمن ، ومثل هذا لا يبذله إلا إنسان عنده قوة إيمان .

ومثال ذلك : إذا كان عند رجل عبيد ومنهم واحد يحبه لأنه قائم بأعماله ، ولأنه خفيف النفس ، ونافع لسيده ، وهو كذلك أيضًا أغلى العبيد عنده ثمنًا ، فإذا سأل أيما أفضل ، أعتق هذا أو ما بعده أو ما دونه ؟ قلنا : أن تعتق هذا ، لأن هذا أنفس الرقاب عندك ، وأغلاها ثمنًا ، وقد قال النبى ـ ﷺ ـ فى الرقاب أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

وكان ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ إذا أعجبه شىء من ماله تصدق به ، اتباعًا لهذه الآية .

وجاء أبو طلحة ـ رضي الله عنه ـ حين نزلت هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : إن الله أنزل قوله : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب مالى إلىَّ بيرحاء ـ وبيرحاء بستان نظيف قريب من مسجد النبى ـ ﷺ ـ ، كان النبى ـ ﷺ ـ يأتى إليه ويشرب من ماء فيه طيب عذب ، وهذا يكون غاليًا عند صاحبه ـ فقال أبو طلحة : وإن أحب مالى إلىَّ بيرحاء ، وإنى أجعلها صدقة لله ورسوله ، فضعها يا رسول الله حيث شئت ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : « **بخ بخ** » يعنى : يتعجب ، ويقول :

Marfat.com

« **مال رابح ، مـال رابح** » ثم قال : « **أرى أن تجعـلها فى الأقـربين** »(١) ، فقسـمها أبو طلحة فى قرابته ، والشاهد أن الصحابة يتبادرون الخيرات .

ثم سأله أبـو ذر إن لم يجد ، يعنى رقبـة بهذا المعنى ؛ أنفسـها عند أهلهـا وأغلاها ثمنًا، قال : « **تعين صانعًا أو تصنع لأخرق** » يعنى تصنع لإنسان معروفًا أو تعين أخرق ما يعرف ، فتساعده وتعين ، فهذا أيضًا صدقة ومن الأعمال الصالحة .

قال : فإن لم أفعل ، قال : « **تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك** » وهذا أدنى ما يكون أن يكف الإنسان شره عن غيره ، فيسلم الناس منه .

❊ ❊ ❊

[١١٨/٢] الثانى : عن أبـى ذر أيـضاً - رضي الله عنه - أنَّ رَسُولَ اللـه - صلى الله عليه وسلم - قـال : « **يُصْبحُ علـى كُل سُلامَى منْ أحَدكُمْ صَـدَقَةٌ ، فَكُلُّ تَسْبيـحَة صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَحْـميدَة صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَهْليلَة صَدَقَةٌ ، وكلُّ تكبيرة صدقةٌ ، وأمرٌ بالمعْرُوف صدقةٌ ، ونَهيٌ عَنَ المنكر صدقةٌ ويُجْزئُ منْ ذلكَ رَكْعَتَانِ يرْكَعهُمَا منَ الضُّحَى** » رواه مسلم .

« السُّلامَى » بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم : المَفْصِلُ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فـيما نقله عن أبى ذر - رضي الله عنه - ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « **يصبح على كل سلامـى من أحدكم صدقة** » السلامى هى العظام ، أو مفاصل العظام ، يعنى أنه يصبح كل يوم على كل واحد من النـاس صدقة فى كل عضو من أعضائه ، فى كل مفصل من مفاصله .

قالوا : والبدن فيـه ثلاثمائة وستون مفصلاً مـا بين صغير وكبير ، فـيصبح على كل إنسان كل يوم ثلاثمائة وستون صدقة .

ولكن هذه الصدقات ليست صدقات مالية ، بل هى عامة ، كل أبواب الخير صدقة، كل تهليلة صـدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تسـبيحة صدقة ، وكل تحمـيدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقـة ، ونهى عن المنكر صدقة ، كل شىء يقـرب إلى الله عز وجل من قول أو فعل فإنه صدقـة ، حتى إن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « **إنك إذا أعنت الرجل فى دابته**

---

(١) البخارى (١٤٦١) مسلم (٩٩٨) .

[١١٨/٢] صحيح : رواه مسلم (٧٢٠) . أبو داود (١٢٨٦) والبيهقى فى السنن (٤٧/٣) .

Marfat.com

وحملته عليها أو رفعت له عليها متاعه فهو صدقة » [(١)] كل شيء ، قراءة القرآن صدقة ، طلب العلم صدقة ، وحينئذ تكثر الصدقات ، ويمكن أن يأتي الإنسان بما عليه من الصدقات وهي ثلاثمائة وستون صدقة .

ثم قال : « **ويجزئ من ذلك** » يعني عن ذلك « **ركعتان يركعهما من الضحى** » يعني أنك إذا صليت من الضحى ركعتين أجزأت عن كل الصدقات التي عليك ، وهذا من تيسير الله عز وجل على العباد .

وفي هذا الحديث : دليل على أن الصدقة تطلق على ما ليس بمال .

وفيه : أيضًا دليل على أن ركعتي الضحى سنة ، سنة كل يوم ، لأنه إذا كان كل يوم عليك صدقة على كل عضو من أعضائك ، وكانت الركعتان تجزئ ، فهذا يقتضي أن صلاة الضحى سنة كل يوم ، من أجل أن تقضي الصدقات التي عليك .

قال أهل العلم : وسنة الضحى يبتدئ وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح ، يعني حوالي ربع إلى ثلث ساعة بعد الطلوع ، إلى قبيل الزوال ، أي إلى قبل الزوال بعشر دقائق [(٢)] ، كل هذا وقت لصلاة الضحى ، في أي وقت فيه تصلي ركعتي الضحى فإنه يجزئ ، لكن الأفضل أن تكون في آخر الوقت ، لقول النبي ـ ﷺ ـ : « **صلاة الأوابين حين ترمض الفصال** » [(٣)] يعني حين تقوم الفصال من الرمضاء لشدة حرارتها ، ولهذا قال العلماء : إن تأخير ركعتي الضحى إلى آخر الوقت أفضل من تقديمها ، كما كان النبي ـ ﷺ ـ يستحب أن يؤخر صلاة الضحى إلى آخر الوقت ، إلا مع المشقة [(٤)] .

فالحاصل أن الإنسان قد فتح الله له أبواب طرق الخير كثيرة ، وكل شيء يفعله الإنسان من هذه الطرق ، فإن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

* * *

[٣/ ١١٩] **الثَّالثُ** : عَنْهُ قال : قال النبي ـ ﷺ ـ : « **عُرِضَتْ عَلَيَّ أعْمَالُ**

---

(١) البخاري (٢٩٨٩) .

(٢) انظر المغني (٢/ ٢١٣١) والمجموع (٤/ ٣٥ ، ٣٦) .

(٣) مسلم (٧٤٨) أحمد (٤/ ٣٦٦) .

(٤) انظر المجموع (٤/ ٣٥ ، ٣٦) .

[٣/ ١١٩] صحيح : رواه مسلم (٥٥٣) .

Marfat.com

أُمَّتى حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا ، فَوَجَدْتُ فى مَحَاسِن أعْمَالِهَا الأذى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيق ، وَوَجَدْتُ فى مَسَاوِئِ أعْمَالِهَا النُّخَاعَةُ تَكُونُ فى المَسْجِدِ لا تُدْفَنُ » رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن أبى ذر ـ رضي الله عنه ـ ، أن النبى ـ ﷺ ـ قال : «عرضت على أعمال أمتى حسنها وسيئها » عرضت علىّ يعنى : بلغت عنها ، وبينت لى ، والذى بينها له هو الله عز وجل ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحلل ويحرم ويوجب .

فعرض الله عز وجل على نبينا محمد ـ ﷺ ـ المحاسن والمساوئ من أعمال الأمة ، فوجد من محاسنها « الأذى يماط عن الطريق » ، ويماط : يعنى يزال ، والأذى ما يؤذى المارة من شوك ، وأعواد ، وأحجار ، وزجاج ، وأرواث ، وغير ذلك . كل ما يؤذى فإماطته من محاسن الأعمال .

وقد بين النبى عليه الصلاة والسلام أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، فهو من محاسن الأعمال ، وفيه ثواب الصدقة ، وبين النبى ـ ﷺ ـ : « أن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان »[1] ، فإذا وجدتَ فى الطريق أذى فأمطته فإن هذا من محاسن أعمالك ، وهو صدقة لك ، وهو من خصال الإيمان ، وشعب الإيمان .

وإذا كان هذا من المحاسن ومن الصدقات ، فإن وضع الأذى فى طريق المسلمين من مساوئ الأعمال ، فهؤلاء الناس الذين يلقون القشور ، قشور البطيخ أو البرتقال أو الموز أو غيرها فى الأسواق فى ممرات الناس ، لاشك أنهم إذا آذوا المسلمين فإنهم مازورون ، قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

قال العلماء : لو زلق به حيوان ، أو إنسان فانكسر ، فعلى من وضعه ضمانه ، يضمنه بالدية أو بما دون الدية إذا كان لا يحتمل الدية ، المهم أن هذا من أذية المسلمين .

ومن ذلك أيضًا ما يفعله بعض الناس من إراقة المياه فى الأسواق فتؤذى الناس ، وربما تمر السيارات من عندها ، فتفسد على الإنسان ثيابه ، وربما يكون فيها فساد لا شك للأسفلت ، لأن الأسفلت كلما أتى عليه الماء وتكرر فإنه يذوب ويفسد .

---

(١) البخارى (٩) مسلم (٣٥) .

Marfat.com

فالمهم أننا مع الأسف الشديد ونحن أمة مسلمة لا نبالى بهذه الأمور وكأنها لا شيء، يلقى الإنسان الذى فى الأسواق ولا يهتم بذلك ، يكسر الزجاجات فى الأسواق ولا يهتم بذلك ، الأعواد يلقيها لا يهتم بذلك ، حجر يضعه لا يهتم بذلك .

إذن يستحب لنا كلما رأينا ما يؤذى أن نزيله عن الطريق ، لأن ذلك صدقة ، ومن محاسن الأعمال .

ثم قال : « **ووجدت فى مساوئ أعمالها النخاعة تكون فى المسجد لا تدفن** » النخاعة يعنى النخامة ، وسميت بذلك لأنها تخرج من النخاع ، النخامة تكون فى المسجد لا تدفن ، لأن المسجد فى عهد الرسول - ﷺ - مفروش بالحصى الصغار ، فالنخامة تدفن فى التراب ، أما عندنا الآن فليس هناك تراب ، ولكن إذا وجدت فإنها تحك بالمنديل حتى تذهب ، وعلم أن النخامة فى المسجد حرام ، فمن تنخم فى المسجد قد أثم ، لقول النبى - ﷺ - : « **البصاق فى المسجد خطيئة** »(١) فأثبت النبى - ﷺ - أنها خطيئة وكفارتها دفنها ، يعنى إذا فعلها الإنسان وأراد أن يتوب فليدفنها ، لكن فى عهدنا فليحكها بمنديل أو نحوه حتى تزول .

وإذا كان هذه النخاعة فما بالك بما هو أعظم منها ، مثل ما كان فيما مضى ، حيث يدخل الإنسان المسجد بحذائه ولم يقبلها ويفتش فيها ، ويكون فيها الروث الذى ينْزِل إلى المسجد فيتلوث به ، فأنت اعتبر بالنخامة ؛ ما هو مثلها فى أذية المسجد ، أو أعظم منها.

ومن ذلك أيضًا أن بعض الناس تكون معه المناديل الخفيفة ، ثم يتنخع فيها ويرمى بها فى أرض المسجد ، هذا أذى ، ولا شك أن النفوس تتقزز إذا رأت مثل ذلك ، فكيف إذا كان ذلك فى بيت من بيوت الله ، فإذا تنخعت فى المنديل فضعه فى جيبك حتى تخرج فترمى به فيما أعد لذلك ، على ألا تؤذى به أحدًا .

* * *

[٤/ ١٢٠] الرابع : عنه أنَّ نـاساً قالوا : يـا رسول اللّه ، ذَهَبَ أهْـلُ الدثُورِ بِالأجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلّى ، وَيَصُومُونَ كَمَـا نَصُومُ ، وَيَتَصدَّقُونَ بِفُضُول أموَالِهِم قال : « **أوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ مَا تَصدَّقُونَ به : إنَّ بكُل تَسْبِيحَة صَدَقَةً ، وَكُل تَكْبِيرَةٍ صَدَقَة، وكل تَحْمِيدَةٍ صدقةٌ ، وكلّ تَهْلِيلَة صَدقَةً ، وَأمْرٌ بِالمعْرُوفِ صدقةٌ ،**

(١) البخارى (٤١٥) مسلم (٥٥٢) .

[٤/ ١٢٠] صحيح : رواه مسلم (١٠٠٦) أحمد (٥/ ١٦٧) .

Marfat.com

ونَهْىٌ عَنِ المـنْكَرِ صدقةٌ وفـى بُضْعِ أحَدكُمْ صـدقةٌ » قالوا : يا رسُـولَ اللّه ، أيَأتى أحَدُنا شَهْـوتَهُ ، ويَكُونُ لَهُ فيهـا أجْرٌ ؟! قال : « أرَأيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَـا فى حَرَامٍ أكَانَ عَلَيْه وِزْرٌ ؟ فكذلكَ إذا وضَعَهَا فى الحَلالِ كان لَهُ أجْرٌ » رواه مسلم .

« الدُّثُورُ » بالثاء المثلثة : الأموالُ ، واحِدُها : دَثْرٌ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمـه الله تعالى ـ فيمـا نقله عن أبى ذر ـ رضي الله عنه ـ أن ناسًا قالوا : يا رسول الله ذهـب أهل الدثور بالأجور ، يعنى اسـتأثروا بالأجور وأخـذوها عنا ، وأهل الدثور يعنـى أهل الأموال ؛ يصلون كمـا نصلى ، ويصومون كـما نصوم ، ويتـصدقون بفضول أمـوالهم ، يعنى فنحن وهم سواء فى الـصلاة وفى الصيام ، ولكنهم يـفضلوننا بالتصدق بفضول أموالهم ، أى بما أعطاهم الله تعالى من فضل المال ، يعنى ولا نتصدق .

وهذا كما جاء فى الحديث الآخر عن فقراء المهاجرين ، قالوا : ويعتقون ولا نعتق(١) فانظروا إلى الهمم العالية من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، يغبطون إخوانهم بما أنعم الله عليهم من الأموال التى يتصدقون بها ويعتقون منها ، ليسوا يقولون : عندهم فضول أموال ، يركبون بها المراكب الفخمة ، ويسكنون القصور المشيدة ، ويلبسون الثياب الجميلة ، وذلك لأنهم قوم يريدون ما هو خير وأبـقى ، وهو الآخرة . قال الله عز وجل : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ⑯ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٦ ، ١٧] . وقال الله تعالـى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحى : ٤] .

فهم اشـتكوا إلى الرسول عليه الصـلاة والسلام شكوى غبطة ، لا شـكوى حسد ، ولا اعتـراض على الله عز وجل ، ولـكن يطلبون فـضلاً يتمـيزون به عمن أغنـاهم الله فتصدقوا بفضول أموالهم .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **أو ليس قد جعل الله لـكم ما تصدقون به** » يعنى إذا فاتتكم الصدقـة بالمال فهناك الـصـدقة بالأعمال الـصالحة « **إن بكل تسـبيحة صـدقة وكل تكبـيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة** » وقد سبق الكلام على الأربع الأولى فيما سبق .

أما قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **أمرٌ بـالمعروف صـدقة ، ونهى عـن المنكر صـدقة** » فإن الأمر بالمعروف والنـهى عن المنكر من أفضل الـصدقات ، لأن هذا هو الذى فضـل الله به هذه

(١) مسلم (٥٩٥) .

Marfat.com

الأمة على غيرها ، فقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[آل عمران : ١١٠] .

ولكن لابد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من شروط :

الشرط الأول : أن يكون الآمر الناهى عالمًا بحكم الشرع ، فإن كان جاهلاً فإنه لا يجوز أن يتكلم ، لأن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر يأمر بما يعتقد الناس أنه شرع الله، وليس له أن يتكلم فى شرع الله إلا بما يعلم .

لأن الله حرم ذلك بنص القرآن فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف : ٣٣] .

فمن منكرات الأمور : أن يتكلم الإنسان عن الشيء يقول : إنه معروف وهو لا يدرى أنه معروف أو يقول : إنه منكر وهو لا يدرى أنه منكر .

الشرط الثانى : أن يكون عالمًا بأن المخاطب قد ترك المأمور أو فعل المحظور ، فإن كان لا يدرى ، فإنه لا يجوز له أن يفعل لأنه يحنئذ يكون قد قفا ما ليس له به علم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[الإسراء : ٣٦] .

بعض الناس الذين عندهم غيرة وحرص على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، يتسرع فينكر من غير أن يعلم الحال التى عليها المُخاطب ، مثلاً يجد إنسانًا معه امرأة فى السوق فيتكلم فى ذلك مع الرجل . لماذا تمشى مع المرأة ؟ وهو لا يدرى أنه محرم لها ، هذا خطأ عظيم ، إذا كنت فى شك ، فاسأله قبل أن تتكلم ، أما إذا لم يكن هناك قرائن توجب الشك فى هذا الرجل فلا تتكلم ، ما أكثر الناس الذين يصطحبون نساءهم فى الأسواق ، وانظر إلى حال النبى عليه الصلاة والسلام كيف يُعامل الناس فى هذه المسألة.
دخل رجل يوم الجمعة والنبى - ﷺ - يخطب ، فجلس فقال له النبى - ﷺ - : «أصليت ؟ » قال : لا ، قال : « قم فصل ركعتين وتجوَّز فيهما » (١) ما قال له : لماذا تقعد ؟ لأن الإنسان إذا دخل المسجد يُنهى أن يجلس قبل أن يُصلى ركعتين ، ففى أى وقت تدخل المسجد ، فى الصباح ، فى المساء ، بعد العصر ، بعد المغرب ، بعد الفجر، لا تجلس حتى تُصلى ركعتين ، فهذا الرجل جاء وجلس ، لكن هناك احتمال أنه صلى

(١) البخارى (٩٣٠) مسلم (٨٧٥) .

Marfat.com

قبـل أن يجلس ، والنبـى - ﷺ - لم يره ، ولهذا قـال له : « **أصليت ؟** » قال : لا ، قال : « **قم فصل ركعتين وتجوز فيهما** » يعنى خفف ، فهنا لم يأمره أن يقوم فيُصلى حتى سأله ، وهذه هى الحكمة .

الشرط الثالث : أن لا يترتب عن النهى عن المنكر مـا هو أنكر منه ، فإن ترتب على ذلك ما هو أنكر منه ، فإنه لا يجوز من باب درء أعلى المفسدتين بأدناهما .

فلو فرض أن شخصًا وجدناه على منكر كـأن يشرب الدخان مثلاً ، ولو نهيناه عن شرب الدخان ذهب يشرب الخمر ، فإننا لا ننـهاه إذا كنا نعلم أن هذا الرجل سيُقدم على ما هو أعظم فإنـنا لا ننهاه عن شرب الدخان عندئذ ، لمـاذا ؟ لأن شرب الدخان أهو من شرب الخمر ، ودليل هذه المسألة قول الله تعالى : ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . فسب آلهة المشركين مـصلحة مشروعة ، لكن إذا ترتب عليها سب الله عز وجل ، وهو أهـل للثناء والمجد فإنه يُنهى عنه ، ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **لعن الله مَن لعن والديه** » (١) وقال - ﷺ - : « **من الكبائر شتمِ الرجل والديه** » قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، **يسبَ أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه** » (٢) .

فالحـاصل أنه لابـد أن لا يؤدى الإنكار إلى مـا هو أنكـم من المنكـر ؛ درءًا لأعلى المفسدتين بأدناهما .

ثم إنه يجب على الآمـر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يَنْوِىَ بـهذا إصلاح الخلق ، لا الانتصـار عليهم ؛ لأن من الـناس من يأمر بالمعـروف وينهى عن المنـكر لينفذ سلـطته وينتصر لنفسـه ، وهذا نقص كبير ، قد يحصل فيه خيـر من درء المنكر وفعل المعروف ، ولكنه نقص كبير بـالنسبة لهذا الشخص فأنت إذا أمرت بالمعـروف ونهيت عن المنكر فانوا بقلبك أنك تريد إصلاح الخلق لا أنك تتسلط عليهم وتنتصر عليهم ، حتى تُؤجر ويجعل الله فى أمرك ونهيك بركة .

ثم قال النبى - ﷺ - : « **وفى بُضع أحدكم صدقة** » يعنى أن الرجل إذا أتى امرأته ، فإن فى ذلك صـدقة . قالوا : يا رسـول الله : أياتى أحدنا شهـوته ويكون له فيـها أجر قال : « **أرأيتم لو وضعها فى الحرام ، أكان عليها فيها وزر ؟** » يعنى لو زنى ووضع الشهوة

---

(١) مسلم (١٩٧٨) أحمد (١٠٨/١) .

(٢) مسلم (٩٠) الترمذى (١٩٠٢) .

Marfat.com

فى الحرام هل يكون عليه وزر ؟ قالوا : نعم ، قال : « **فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر** » والحمد لله . ومعنى ذلك أن الرجل إذا استغنى بالحلال عن الحرام ، كان له بهذا الاستغناء أجر .

ومن ذلك أيضًا : إذا أكل الإنسان طعامًا ، فإنه ينال شهوته بالأكل والشرب ، ومع ذلك لكونه يستغنى به عن الحرام فإنه يُكتب له به أجر ، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبى وقاص : « **واعلم أنك لن تُنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أُجرت عليها ، حتى ما تجعله فى فم امرأتك** »(١) مع أن ما يجعله الإنسان فى فم امرأته أمر لابد منه ، إذ إن المرأة تقول : أنفق علـى أو طلقنى ، وتخصمه فى ذلك ، تغلبه إذا لم ينفق مع قدرته على الإنفاق فلها الحق فى أن تفسخ النكاح ، ومع ذلك إذا أنفق عليها يبتغى بذلك وجه الله ، فإن الله تعالى يؤجره على ذلك .

وفى حديث أبى ذر - رضي الله عنه - تنبيه على ما يسميه الفقهاء قياس العكس : وهو إثبات نقيض حكم الأصل فى ضد الأصل لمفارقة العلة ، فهنا العلة فى كون الإنسان يؤجر إذا أتى أهله ، هو أنه وضع شهوته فى حلال ، نقيض هذه العلة : إذا وضع شهوته فى حرام ، فإنه يعاقب على ذلك ، وهذا هو ما يسمى عند العلماء بقياس العكس ؛ لأن القياس أنواع : قياس علة ، وقياس دلالة ، وقياس شبه ، وقياس عكس ، والله الموفق.

* * *

[١٢١/٥] الخامس : عنه قال : قال لى النبىُّ - ﷺ - : « **لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المعْرُوف شَيْئاً وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ** » رواه مسلم .

[١٢٢/٦] السادس : عن أبى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسولُ الله - ﷺ - : « **كُلُّ سُلامى مِنَ النَّاسِ عَلَيْه صَدَقَةٌ كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيه الشَّمْسُ : تَعْدلُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ ، وتُعينُ الرَّجُلَ فى دَابَّته،فَتَحْملُهُ عَلَيْهَا،أوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدقةٌ،والكلمةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وبكُلِّ خَطوَة تَمْشيها إلى الصَّلاَة صَدَقَةٌ ، وتُميطُ الأذى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ** » متفقٌ عليه .

---

(١) البخارى (١٢٩٥) .

[١٢١/٥] صحيح : رواه مسلم (٢٦٢٦) أحمد (١٦٧/٥) .

[١٢٢/٦] صحيح : رواه البخارى (٢٩٨٩) ، ومسلم (١٠٠٩) . أما رواية عائشة - رضي الله عنها - فاخرجها مسلم (١٠٠٧) .

Marfat.com

ورواه مسلم أيضاً من رواية عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - : «إنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إنسَانٍ منْ بنى آدَمَ على ستينَ وثلاثمائة مفْصل ، فَمَنْ كبَّرَ اللّه ، وحمدَ اللّه ، وهَلَّلَ اللّه ، وسَبَّحَ اللّه ، واستَغْفرَ اللّه ، وعَزَلَ حَجراً عنْ طَريق النَّاس أوْ شَوْكَةً أوْ عظماً عن طريق النَّاس ، أوْ أمرَ بمعْرُوف أوْ نهى عَنْ مُنْكَرٍ ، عَدَدَ الستين والثَّلاثمائة ، فإنَّهُ يُمْسِى يَوْمَئذ وقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ » .

[٧/ ١٢٣] السابع : عنه عن النبى - ﷺ - قال : « مَنْ غدَا إلى المسْجدِ أوْ رَاحَ، أعدَّ اللّهُ لَهُ فى الجَنَّة نُزلاً كُلَّمَا غدَا أوْ رَاحَ » متفقٌ عليه .

« النُّزُلُ » : القُوتُ والرِّزْقُ ومَا يُهيَّأُ للضَّيْفِ .

[٨/ ١٢٤] الثامن : عنه قال : قال رسول اللّه - ﷺ - : « يَا نسَاءَ المُسْلمَات ، لا تحْقرَنَّ جَارَةٌ لجَارَتهَا ولَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ » متفقٌ عليه .

قال الجوهرى : الفِرْسِنُ من البَعيرِ : كالحافرِ منَ الدَّابَّة ، قال : وربَّما استُعيرَ فى الشَّاةِ .

[٩/ ١٢٥] التاسع : عنه عن النبى - ﷺ - قال : « الإيمانُ بضْعٌ وسَبْعُون ، أوْ بضعٌ وستونَ شُعْبَةً : فأفْضلُهَا قَوْلُ لا إلهَ إلا اللّهُ ، وأدْنَاهَا إمَاطَةُ الأذَى عَنِ الطَّريق ، والحَيَاءُ شُعْبَةٌ منَ الإيمَانِ » متفقٌ عليه .

« البِضْعُ » من ثلاثة إلى تسعةٍ ، بكسر الباء وقد تُفتَحُ . « الشُّعْبَةُ » : القطْعة .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة التى نقلها المؤلف - رحمه الله - عن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى - ﷺ - .

أما الأول : فهو أنه - ﷺ - قال : « مَن غدا إلى المسجد أو راح ، أعدَّ الله له فى الجنة نُزلاً كلما غدا أو راح » غدا : بمعنى ذهب غدوة أى ذهب أول النهار ، وذلك مثل

[٧/ ١٢٣] صحيح : رواه البخارى (٦٦٢) ، ومسلم (٦٦٩) .

[٨/ ١٢٤] صحيح : رواه البخارى (٦٠١٧) ، مسلم (١٠٣٠) .

[٩/ ١٢٥] صحيح : رواه البخارى (٩) ، ومسلم (٣٥) .

Marfat.com

أن يذهب إلى المسجد لصلاة الفجر ، راح : الرواح يطلق على بعد الزوال ، مثل الذهاب إلى صلاة الظهر أو العصر ، وقد يطلق الرواح على مجرد الذهاب ، كما فى قول النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث أبى هريرة : « **مَن اغتسل يوم الجمعة ثم راح فى الساعة الأولى** ... »(١) إلى آخر الحديث فإن معنى راح فى الساعة الأولى : أى ذهب إلى المسجد فى الساعة الأولى ، لكن إذا ذُكرت الغدوة مع الرواح ، صارت الغدوة أول النهار .

وظاهر الحديث أن مَن غدا إلى المسجد أو راح ، سواء غدا للصلاة أو لطلب علم أو لغير ذلك من مقاصد الخير ، أن الله يكتب له فى الجنة نُزلاً ، والنُّزل : ما يقدّم للضيف من طعام ونحوه على وجه الإكرام ، أى أن الله تعالى يُعد لهذا الرجل الذى ذهب إلى المسجد صباحًا أو مساءً ، يُعد له فى الجنة نُزلاً إكرامًا له .

ففى هذا الحديث إثبات هذا الجزاء العظيم لمن ذهب إلى المسجد أول النهار أو آخره ، وفيه بيان فضل الله عز وجل على العبد ، حيث يُعطيه على مثل هذه الأعمال اليسيرة هذا الثواب الجزيل .

وأما حديثه الثانى : فهو قول النبى ـ ﷺ ـ : « **لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرْسن شاة** » فالرسول عليه الصلاة والسلام فى هذا الحديث حث على الهدية للجار ولو شيئًا قليلاً ، قال : « **ولو فرسن شاة** » الفرسن : ما يكون فى ظلف الشاة ، وهو شئ بسيط زهيد ، كأن النبى عليه الصلاة والسلام يقول : لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو قلّ .

وقد جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **إذا طبخت مرقةً فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك** »(٢) ، حتى المرق إذا أعطيته جيرانك هدية ، فإنك تُثاب على ذلك ، كذلك أيضًا لا تحقرن شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق ، فإن هذا من المعروف ، إذا لم تلق أخاك بوجه عبوس مكفهر بل بوجه منطلق منشرح ، فإن هذا من الخير ومن المعروف ؛ لأن أخاك إذا واجهته بهذه المواجهة يُدخل عليه السرور ويفرح ، وكل شئ يُدخل السرور على أخيك المسلم فإنه خير وأجر ، وكل شئ تغيظ به الكافر فإنه خير وأجر ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا يطئون موطئًا يغيظ الكفَّار ولا ينالون من عدوٍ نيلاً إلاّ كُتب لهم به عمل صالح** ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

أما الحديث الثالث : فهو قول النبى عليه الصلاة والسلام : « **الإيمان بضع وسبعون**

---

(١) البخارى (٦٦٢) مسلم (٦٦٩) .

(٢) مسلم (٢٦٢٥) الترمذى (١٨٣٣) ابن ماجه (٣٣٦٢) .

Marfat.com

أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » فهذا الحديث بيَّن فيه الرسول عليه الصلاة والسلام أن الإيمان ليس خصلة واحدة أو شعبة واحدة ، ولكنه شعب كثيرة ، بضع وسبعون يعنى من ثلاث وسبعين إلى تسع وسبعين ، أو بضع وستون شعبة ، ولكن أفضلها كلمة واحدة : وهى لا إله إلا الله ، هذه الكلمة لو وزنت بها السموات والأرض لرجحت بها ؛ لأنها كلمة الإخلاص ، وكلمة التوحيد ، الكلمة التى أسأل الله أن يختم لى ولكم بها ، من كانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة ، هذه الكلمة هى أفضل شعب الإيمان ، «**وأدناها إماطة الأذى عن الطريق** » يعنى إزالة الأذى عن الطريق ، وهو كل ما يؤذى المارين ، من حجر، أو شوك ، أو زجاج ، أو خرق أو غير ذلك ، كل ما يُؤذى المارين إذا أزلته فإن ذلك من الإيمان .

« **والحياء شعبةٌ من الإيمان** » ، وفى حديث آخر « **الحياء من الإيمان** »(١) والحياء : حالة نفسية تعترى الإنسان عند فعل ما يُخجل منه ، وهى صفة حميدة كانت خلق النبى عليه الصلاة والسلام ، فكان من خلقه عليه الصلاة والسلام الحياء ، حتى إنه كان أكثر حياء من العذراء فى خِدْرها(٢) عليه الصلاة والسلام ، إلا أنه كان لا يستحى من الحق .

فالحياء صفة محمودة لكن الحق لا يُستحى منه ، فإن الله يقول : ﴿ **وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [الأحزاب : ٥٣] . وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا** ﴾ [البقرة : ٢٦] . الحق لا يستحى منه ، ولكن ما سوى الحق فإن من الأخلاق الحميدة أن تكون حييًا ، ضد ذلك مَن لا يستحيى ، فلا يُبالى بما فعل ، ولا يُبالى بما قال، لهذا جاء فى الحديث : « **إن مما أدرك الناس من النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت** » (٣) .

[١٠/١٢٦] العاشر : عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **بَيْنَمَا رجُلٌ يَمْشى بطَريق اشْتَدَّ عَلَيْه العَطَشُ ، فَوَجَدَ بئْراً فَنزَلَ فيها فَشَرِبَ ، ثُمَّ خَرَجَ فإذا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَش ، فقال الرَّجُل : لَقَدْ بَلَغَ هذَا الكَلْبَ مِنَ العَطش مثلُ الذى**

---

(١) مسلم (٣٤) الترمذى (٢٦٢٣) .

(٢) البخارى (٣٥٦٢) مسلم (٢٣٢٠) .

(٣) البخاري (٦١٢٠) احمد (٤/١٢١) .

[١٠/١٢٦] صحيح : رواه البخارى (٢٣٦٣) ، ومسلم (٢٢٤٤) .

Marfat.com

كَانَ قَدْ بَلَغَ منى ، فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأ خُفَّه مَاءً ثُمَّ أمسَكَه بفيه ، حتَّى رَقِى فَسَقَى الكَلْبَ، فَشكَرَ اللهُ لَه فَغفَرَ لَه » قَالُوا: يا رسول الله ، إنَّ لَنَا فى البَهَائِمِ أجْراً ؟ فَقَالَ : «فى كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أجْرٌ » متفقٌ عليه.

وفى رواية للبخارى : « فَشكَرَ اللهُ لَه فَغفَرَ لَه ، فَأدْخَلَه الجَنَّةَ » .

وفى رواية لَهُمَا : « بَيْنَما كَلْبٌ يُطِيفُ بركيَّة قَدْ كَادَ يَقْتُلُه العَطَش إذْ رَأتْه بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَنِى إسْرائيلَ ، فَنَزعَتْ مُوقَها فَاسْتَقَتْ لَهُ بِه ، فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَها بِهِ » .

« المُوقُ » : الخُفُّ . و« يُطِيفُ » : يدُورُ ، حَوْلَ « رَكِيَّةٍ » وهِىَ البِئْرُ .

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ تعالى فى باب كثرة طرق الخيرات هذه القصة الغريبة التى رواها أبو هريرة - رضي الله عنه -عن النبى - ﷺ -، أنه بينما رجل يمشى فى الطريق مُسافرٌ ، أصابه العطش ، فَنَزَلَ بئرًا فشرب منها ، وانتهى عطشه ، فلما خرج وإذا بكلب يأكل الثرى من العطش ، يعنى يأكل الطين المبتل الرطب ، يأكله من العطش ، من أجل أن يمص ما فيه من الماء من شدة عطشه ، فقال الرجل : والله لقد أصاب هذا الكلب من العطش ما أصابنى ، أو بلغ بهذا الكلب من العطش ما بلغ بى ، ثم نزل البئر وملأ خفه ماءً . الخفُّ : ما يلبس على الرِّجل من جلودٍ ونحوها ، فملأه ماءً فأمسكه بفيه ، وجعل يصعد بيديه حتى صعد من البئر ، فسقى الكلب ، فلما سقى الكلب شكر الله له ذلك العمل ، وغفر له ، وأدخله الجنة بسببه .

وهذا مصداق قول النبى عليه الصلاة والسلام : « **الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله** » عمل يسير شكر الله به عامل هذا العمل ، وغفر له الذنوب ، وأدخله الجنة .

ولما حدث - ﷺ -الصحابة بهذا الحديث ، وكانوا - رضي الله عنهم -أشد الناس حرصًا على العلم ، لا من أجل أن يعلموا فقط ، ولكن من أجل أن يعلموا فيعملوا ، سألوا النبى عليه الصلاة والسلام ، قالوا : يا رسول الله ، إن لنا فى البهائم أجرًا ؟ قال : « **فى كل ذات كبد رطبة أجر** » لأن هذا كلب من البهائم ، فكيف يكون لهذا الرجل الذى سقاه هذا الأجْر العظيم ؛ فاستغربوا ذلك ولهذا سألوا النبى - ﷺ -فقال : « **فى كل ذات كبدٍ رطب أجر** » الكبد الرطبة تحتاج إلى الماء ؛ لأنه لولا الماء ليبست وهلك الحيوان .

إذن نأخذ من هذا قاعدة ، وهى أن الرسل عليه الصلاة والسلام إذا قص علينا قصة من بنى إسرائيل فذلك من أجل أن نعتبر بها وأن نأخذ منها عظة وعبرة ، وهذا كما قال

Marfat.com

الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

وفى رواية أخرى ، ولعلها قصة أخرى ، أن امرأة بغـيًا من بغايا بنى إسرائيل ، بغيًا من البغايا : يعنى أنها تمارس الزنى - والعيـاذ بالله - رأت كلبًا يطوف بركية ، يعنى يدور عليها عـطشان ، لكن لا يمكن أن يصل إلى الماء ؛ لأن الـركية هى بئر ، فَنَزَعت مـوقها يعنى الخف الذى تلبسه واستقت له به من هذا البئر فغفر الله لها ، وهذه القصة الثانية .

فدل هذا على أن البهائم فيها أجر ، كل بـهيمة أحسنت لها بسقى ، أو إطعام ، أو وقاية من حر ، أو وقـاية من برد، سواء كانت لك أو لغيـرك من بنى آدم ، أو كانت من السوائم ، فإن لك فى ذلك أجرًا عند الله عز وجل ، هذا وهن بهائم فكيف بالآدميين ؟ إذا أحسنت إلى الآدميين كـان أشد وأكثر أجرًا ، ولهذا قال النبى علـيه الصلاة والسلام : «مَن سقى مسلمًا على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم »(١) يعنى لو كان ولدك الصغير وقف عند البرادة يقـول لك : اسقنى ماء وأسقيتـه وهو ظمأن ، فقد سقيت مـسلمًا على ظمأ ، فإن اللـه يسقيك من الرحيث المختـوم ، أجر كثير ولله الحمـد ، غنائم ولكن أى القابـل لهذه الغنـائم ؟ أين الذين يخـلص النية ويـحتسب الأجـر على الله عـز وجل ؟ فأوصيك يا أخى ونفسـى أن تحرص دائمًا على اغتنام الأعمال بالنية الـصالحة حتى تدخر لك عند الله ذخرًا يوم القيامة ، فكم من عمل صغـير أصبح بالنية كبيرًا ! وكم من عمل كبير أصبح بالغفلة صغيرًا ! .

❊ ❊ ❊

[١١/ ١٢٧] الحَادى عَـشَرَ : عَنْهُ عن النبى - ﷺ - قال : « لَقَد رَأَيْـتُ رَجُلاً يَتَقَلَّـبُ فِى الجَنَّةِ فى شَجَرَةٍ قَـطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الـطَّرِيقِ كَانَتْ تُؤْذِى المُسْـلِمِينَ » رواه مسلم .

وفى رواية : « مَرَّ رَجُلٌ بِغُـصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْـرِ طَرِيقٍ فَقَالَ : وَاللّـهِ لأُنَحِّيَنَّ هذَا عَنِ المُسْلمِينَ لا يُؤْذِيهِمْ ، فَأُدْخِلَ الجَنَّةَ » .

وفى رواية لَهُمَا : « بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِى بِطَرِيـقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ ، فأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللّهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ » .

---

(١) الترمذى (٢٤٤٩) احمد (٣/ ١٣) وضعفه الالبانى فى المشكاة برقم (١٩١٣) .

[١١/ ١٢٧] صحيح : رواه البخارى (٦٥٢) ، ومسلم (١٩١٤) .

Marfat.com

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق ، كانت تؤذى المُسلمين** » ، وفى رواية الأخرى أنه دخل الجنة وغفر الله له بسبب غصن أزاله عن طريق المسلمين وسواء كان هذا الغصن من فوق يؤذيهم من عند رءوسهم ، أو من أسفل يؤذيهم من جهة أرجلهم ، المهم أنه غصن شوك يؤذى المسلمين فأزاله عن الطريق ، أبعده ونحّاه فشكر الله له ذلك وأدخله الجنة ، مع أن هذا الغصن إذا آذى المسلمين فإنما يؤذيهم فى أبدانهم ، ومع ذلك غفر الله لهذا الرجل وأدخله الجنة .

ففيه : دليل على فضيلة إزالة الأذى عن الطريق ، وأنه سبب لدخول الجنة .

وفيه أيضًا : دليل على أن الجنة موجودة الآن ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ رأى هذا الرجل يتقلب فيها ، وهذا أمر دل عليه الكتاب والسنة ، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة ؛ أن الجنة موجودة الآن ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . أعدت : يعنى هُيئت ، وهذا دليل على أنها موجودة الآن ، كما أن النار أيضًا موجودة الآن ، ولا تفنيان أبدًا ، خلقهما الله عز وجل للبقاء لا فناء لهما ، ومن دخلهما لا يفنى أيضًا فمن كان من أهل الجنة كان خالدًا مخلدًا فيها أبد الآبدين ، ومَن كان من أهل النار دخلها خالدًا مخلدًا فيها أبد الآبدين .

وفى هذا الحديث : دليل على أن مَن أزال عن المسلمين الأذى فله هذا الثواب العظيم فى أمر حسى ، فكيف بالأمر المعنوى ؟ هناك بعض الناس والعياذ بالله أهل شر وبلاء ، وأفكار خبيثة ، وأخلاق سيئة ، يصدون الناس عن دين الله ، فإزالة هؤلاء عن طريق المسلمين أفضل بكثير وأعظم أجرًا عند الله ، فإذا أُزيل أذى هؤلاء ، إذا كانوا أصحاب أفكار خبيثة سيئة إلحادية ، يُردّ عليها ، وتُبطل أفكارهم .

فإن لم يُجْد ذلك شيئًا قُطعت أعناقهم ؛ لأن الله يقول فى كتابه العزيز : ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ** ﴾ [المائدة : ٣٣] . و ﴿ أو ﴾ هنا يقول بعض العلماء : إنها للتنويع ، يعنى أنهم يُقتلون ويُصلبون وتُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وينفوا من الأرض ، حسب جريمتهم .

وقال بعض أهل العلم : بل « أو » هنا للتخيير ، أى : أن ولى الأمر مخير : إن

Marfat.com

شاء قتـلهم وصلبهم ، وإن شـاء قطع أيديهم وأرجلـهم من خلا ، وإن شاء نفـاهم من الأرض ، حسب ما يرى فيه المصلحة ، وهذا القول قول جيد جدًا ـ أعنى أن تكون ﴿أو﴾ هنا للتخيير لأنه ربما يكون هذا الإنسان جرمه ظاهر سهل ، ولكنه على المدى البعيد يكون صعبًا ، ويكون مضلاً للأمة .

والواجب على ولاة الأمور أن يزيلوا الأذى عن طـريق المسلمين ، أى أن يزيلوا كلَّ داعية إلى شر ، أو إلى إلحاد ، أو إلى مجون ، أو إلى فـسوق ، بحيث يُمنع من نشر ما يريد من أى شيء كان من الشر والفساد ، هذا هو الواجب .

ولكن لا شك أن ولاة الأمور الـذين ولاهم الله على المسلمـين فى بعضهم تقـصير وفى بعضهم تهاون ، يـتهاونون بالأمر فى أوله حتى ينمو ويزداد ، وحـينئذ يعجزون عن صده وكفِّه ، فالواجب أن يقابل الشر من أول أمره بقطع دابره ، حتى لا ينتشر ولا يضل الناس به .

المهم أن إزالة الأذى عن الطـريق ؛ الطريق الحسى طريق الأقدام ، والـطريق المعنوى طريق القلوب ، والعمل على إزالة الأذى عن هذا الطريق وهذا الطريق كلّه مما يقرب إلى الله ، وإزالة الأذى عن طريق القلوب والعمل الصـالح أعظم أجرًا وأشد إلحاحًا من إزالة الأذى عن طريق الأقدام .

* * *

[١٢/١٢٨] الثانى عَشَرَ : عَنْهُ قَالَ : قَـالَ رسول اللّه- ﷺ - : « **مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحسَنَ الوضُـوءَ ، ثُمَّ أَتى الجُمُعَةَ ، فَاستَمَعَ وَأَنْصَتَ ، غُفِرَ لَهُ ما بَيْنَهُ وبَيْـنَ الجُمُعَةِ وَزِيـادَةُ ثَـلاثَةِ أيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ الحَصَا فَقَدْ لَغَا** » رواه مسلم .

الشرح

نقل المؤلف ـ رحمه الله تعـالى ـ فيما رواه عن أبى هريرة- رضي الله عنه - أن النبى- ﷺ - قال : « **مَن توضأ فأحسن الوضـوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت ، غُـفر له ما بينه وبين الجمـعة وزيـادة ثلاثة أيام ، ومَن مسّ الحصى فـقد لـغا** » فى هذا الحديـث دليل على أن الحضور إلى الجمعة بعد أن يحسن الإنسان وضوءه ، ثم يستمع إلى الخطيب وهو يخطب ويُنصت ، فإنه يُغـفر له ما بين الجمعة إلـى الجمعة وفضل ثلاثة أيام ، وهذا عـمل يسير ليس فيـه مشقة على الإنسـان ، أن يتوضأ ويحضـر إلى الجمعة ، ويُنصت لخطبة الإمام

[١٢/١٢٨] صحيح : رواه مسلم (٥٨٧) أحمد (١٩/١ ، ٥٧ ، ٦٦) .

Marfat.com

حتى يفرغ .

وقوله في هذا الحديث : « مَن توضأ » لا يُعارض ما ثبت في « الصحيحين » وغيرهم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - ، أن النبي - ﷺ - قال : « **غُسل الجمعة واجب على كل محتلم** »(١) فإن هذا الحديث الثاني فيه زيادة على الحديث الأول ، فيؤخذ بها ، كما أنه أيضًا أصح منه ، فإنه أخرجه الأئمة السبعة ، وهذا لم يخرجه إلا مسلم ، فيجب أولاً على مَن أراد حضور الجمعة ، أن يغتسل وجوبًا ، فإن لم يفعل كان آثمًا ، ولكن الجمعة تصح ؛ لأن هذا الغسل ليس عن جنابة حتى نقول إن الجمعة لا تصح ، بل هو غسل واجب كغيره من الواجبات ، إذا تركه الإنسان أثم ، وإن فعله أُثيب .

ويدل على أنه ليس شرطًا لصحة الصلاة وإنما هو واجب ، أن أمير المؤمنين عثمان ابن عفان دخلت ذات يوم وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخطب الناس يوم الجمعة فسأله أمير المؤمنين عمر لماذا تأخر ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن توضأت ثم أتيت ، يعني كأنه شُغل - رضي الله عنه - ولم يتمكن من الحضور مبكرًا ، قال : ما زدت على أن توضأت ثم أتيت ، فقال عمر وهو على المنبر والناس يسمعون : والوضوء أيضًا ، وقد قال النبي - ﷺ - : « **إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل** » يعني كيف تقتصر على الوضوء وقد قال النبي - ﷺ - : « **إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل** »(٢) فأمر مَن أتى الجمعة بالاغتسال ؟! ولكن لم يقل له : اذهب فاغتسل ؛ لأنه لو ذهب واغتسل ، فربما تفوته الجمعة التي من أجلها وجب الغُسل فيضيع الأصل إلى الفرع .

فالحاصل أن هذا الحديث الذي ساقه المؤلف وإن كان يدل على عدم وجوب الاغتسال ، لكن هناك أحاديث أخرى تدل على وجوب الاغتسال(٣) .

وفي هذا الحديث : دليل على فضيلة الاستماع إلى الخطبة والإنصات ، الاستماع : أن يرعاها بسمعه ، والإنصات : ألا يتكلم ، هذا هو الفرق بين الاستماع والإنصات ، فيستمع الإنسان ويتابع بسمعه كلام الخطيب ولا يتكلم ، وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام : « **أن من يتكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، كمثل الحمار يحمل أسفارًا** »(٤) والحمار أبلد الحيوانات ، يحمل أسفارًا يعني كتبًا ، ولكنه لا ينتفع بالكتب إذا حملها ،

---

(١) البخاري (٨٩٥) مسلم (١٨٤٦) .

(٢) البخاري (٨٧٨) .

(٣) انظر المجموع (٤/ ٥٤٥) .

(٤) سبق تخريجه .

Marfat.com

ووجه الشبه بينهما أن هذا الذى حضر لم ينتفع بالخطبة لأنه تكلم ، وقال - ﷺ - : «والذى يقول له أنصت» يعنى يسكته ، فقد لغا ومعنى أى : فاته أجر الجمعة ، فالمسألة إذن خطيرة .

ولهذا قال هنا : « ومَن مس الحصى فقد لغا » وقد كان فى عهد الرسول - ﷺ - يفرش المسجد بالحصبة وهى الحص الصغار مثل العدس ، أو أكبر قليلاً ، أو أقل ، يفرش بها بدل الفرش التى نفرشها الآن ، فكان بعض الناس ربما يعبث بالحصى ، يحركها بيده ، أو يمسحها بيده ، أو ما أشبه ذلك ، فقال - ﷺ - : « مَن مس الحصى فقد لغا » لأن مسَّ الحصى يلهيه عن الاستماع للخطبة ، ومَن لغا فلا جمعة له ، يعنى يحرم ثواب الجمعة التى فضلت بها هذه الأمة عن غيرها .

وإذا كان هذا فى مس الحصى ، فكذلك أيضًا الذى يعبث بغير مسِّ الحصى ، الذى يعبث بتحريك القلم أو الساعة أو المروحة التى يحركها ويلفها دون حاجة ، أو الذى يعبث بالسواك يريد أن يتسوك والإمام يخطب إلا لحاجة ، كأن يجيئه النوم أو النعاس فأخذ يتسوك ليطرد النعاس عنه فهذا لا بأس به ؛ لأن من مصلحته استماع الخطبة ، وقد سُئلنا عن الرجل يكتب ما يستمعه فى الخطبة ؛ لأن بعض الناس ينسى فيقول : أنا كلما مرت على جملة مفيدة أكتبها ، هل يجوز أم لا ؟ فالظاهر أنه لا يجوز ؛ لأن هذا إذا اشتغل بالكتابة تلهى عما يأتى بعدها ، لأن الإنسان ليس له قلبان ، فإذا كان يشتغل بالكتابة تلهى عما يقوله الخطيب أثناء كتابته لما سبق ، ولكن الحمد لله الآن قد جعل الله للناس ما يريحهم ، حيث جاءت هذه الأشرطة وهذه المسجلات ، فبإمكانك أن تحضر المسجل وتسجل الخطبة فى راحة ، وتستمع إليها فى بيتك أو سيارتك على أى وضع كنت .

❊ ❊ ❊

[١٢٩/١٣] الثَّالث عشَرَ : عنهُ أن رسول الله - ﷺ - قال : « إذَا تَوضَّأ العَبْدُ المُسْلمُ، أو المُؤمنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ منْ وَجْهه كلُّ خَطيئَة نَظَرَ إلَيْهَا بعَينه مَعَ المَاء، أوْ مَعَ آخر قَطْر المَاء ، فَإذَا غسَلَ يَدَيْه خَرَجَ منْ يَدَيْه كلُّ خَطيئَة كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاء ، أَوْ مَعَ آخر قَطْر المَاء ، فَإذَا غَسَلَ رجْلَيْه خَرجَتْ كُلُّ خَطيئَة مَشَتْهَا رِجْلاه مَعَ المَاءِ أوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءَ حَتَّى يَخْرُجَ نَقيًا منَ الذُّنُوبِ » رواه مسلم .

[١٢٩/١٣] صحيح : رواه مسلم (٢٤٤) . وأحمد فى المسند (٣٠٢/٢) البيهقى فى السنن (٨١/١) .

Marfat.com

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله فيما نقله عن أبى هريرة- رضي الله عنه - فى فضائل الوضوء أن رسول الله- ﷺ - قال : « **إذَا تَوضَّأَ العَبْدُ المُسْلمُ ، أو المُؤْمنُ فَغسَلَ وَجْهَهُ خَرجَ منْ وَجْهِه كُلُّ خَطيئَة نَظرَ إلَيْهَا بعَيْنِه مَعَ المَاء ، أوْ مَعَ آخر قَطر المَاء ، فَإذَا غَسلَ يَدَيْه خَرجَ منْ يَدَيْه كُلُّ خَطيئَة مَشَتْهَا رجْلاَه مَعَ المَاء أوْ مَعَ آخرِ قَطْر المَاء حَتَّى يَخْرجَ نَقيًا منَ الذُّنوبَ** » والوضوء أمر الله به في كتابه فى قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ** ﴾ [المائدة : ٦] .

هذا الوضوء تُطَهَّر فيه هذه الأعضاء الأربعة ، الوجه ، واليدان ، والرأس ، والرجلان ، وهذا التطهير يكون تطهيرًا حسيًا ، ويكون تطهيرًا معنويًا ، أما كونه تطهيراً حسيًا فظاهر ؛ لأن الإنسان يغسل وجهه ، ويديه ورجليه ، ويمسح الرأس ، وكان الرأس بصدد أن يُغسل كما تُغسل بقية الأعضاء ، ولكن الله خفف فى الرأس ، لأن الرأس يكون فيه الشعر ، والرأس هو أعلى البدن ، فلو غسل الرأس ولا سيما إذا كان فيه الشعر، لكان فى هذا مشقة على الناس ، ولا سيما فى أيام الشتاء ، ولكن من رحمة الله عز وجل أن جعل فرض الرأس المسح فقط ، فإذا توضأ الإنسان لاشك أنه يطهر أعضاء الوضوء تطهيرًا حسيًا ، وهو يدل على كمال الإسلام ، حيث فرض على معتنقيه أن يطهروا هذه الأعضاء التى هى غالبًا ظاهرة بارزة .

أما الطهارة المعنوية وهى التى ينبغى أن يقصدها المسلم ، فهى تطهيره من الذنوب ، فإذا غسل وجهه ، خرجت كل خطايا نظر إليها بعينيه ، وذكْر العين والله أعلم إنما هو على سبيل التمثيل ، وإلا فالأنف قد يخطئ والفم قد يخطئ ، فقد يتكلم الإنسان بكلام حرام ، وقد يشم أشياء ليس له حق أن يشمها ، ولكن ذَكَرَ العين ؛ لأن أكثر ما يكون الخطأ فى النظر .

فلذلك إذا غسل الإنسان وجهه بالوضوء خرجت خطايا عينيه،فإذا غسل يديه خرجت خطايا يديه ، فإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه ، حتي يكون نقيًا من الذنوب ، ولهذا قال الله تعالى حين ذكر الوضوء والغسل والتيمم : ﴿ **مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ** ﴾ يعنى ظاهرًا وباطنًا ، حسًا ومعنى : ﴿ **وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [المائدة : ٦]،فينبغى للإنسان إذا توضأ أن يستشعر بهذا المعنى ، أى أن وضوءه يكون تكفيرًا لخطيئاته ، حتى يكون بهذا الوضوء محتسبًا الأجر على الله عز وجل .

Marfat.com

[١٣٠/١٤] الرَّابع عَشَرَ : عنه عن رسـول الله ـ ﷺ ـ قال : « الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إلى الجُمُعَةِ ، ورَمَضَانُ إلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لمَا بَيْنَهُنَّ إذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ » رواه مسلم .

[١٣١/١٥] الخامس عَشَرَ : عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ألا أدُلُّكُم على مَا يَمْحُو اللَّهُ بـه الخَطَايَا ، ويَرْفَعُ به الدَّرجات ؟ » قالوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه ، قال : « إسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِه ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إلَى المَسَاجِد ، وَانْتظَارُ الصَّلاة بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَذلكُمُ الرِّبَاطُ » رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، والجُمُعَةُ إلَى الجُمُعَةِ ، ورمَضَانُ إلَى رَمَضَانَ ، مُكَفِّرَاتٌ لمَا بَيْنَهُنَّ إذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ » يعنى أن الصلوات الخمس تكفر الخطايا ، من بين صلاة الفجر إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، ومن العصر إلى المغرب ، ومن المغرب إلى العشاء، ومن العشاء إلى الفجر . فإذا عمل الإنسان سيئة وأتقن هذه الصلوات الخمس ، فإنها تمحو الخطايا ، لكن قال : « إذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ » يعنى إذا اجتنبت كبائر الذنوب .

وكبائر الذنوب هى : كل ذنب رتب عليه الشارع عقوبة خاصة ، فكل ذنب لعن النبى ـ ﷺ ـ فاعله فهو من كبائر الذنوب ، كل شيء فيه حدٌّ فى الدنيا كالزنا ، أو وعيد فى الآخرة كأكل الربا ، أو فيه نفى إيمان مثل : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(١) أو فيه براءة منه مثل : « من غشنا فليس منا »(٢) أو ما أشبه ذلك فهو من كبائر الذنوب .

واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ فى قوله ـ ﷺ ـ : « إذا اجتنبت الكبائر » هل معنى الحديث أن الصغائر تُكفر إذا اجتنبت الكبائر ، أنها لا تُكفر إلا بشرطين وهما : الصلوات الخمس ، واجتناب الكبائر ، أو أن معنى الحديث أنها كفارة لما بينهن إلى الكبائر فلا

[١٣٠/١٤] صحيح : رواه مسلم (٢٣٣) .

[١٣٥١/١٥] صحيح : رواه مسلم (٢٢١) . الترمذى (٥١) ابن ماجه (٤٢٨) .

(١) البخارى (١٣) مسلم (٤٥) .

(٢) مسلم (١٠١) .

Marfat.com

تكفرها ، وعلى هذا فيكون لتكفير السيئات الصغائر شرط واحد ، هو إقامة هذه الصلوات الخمس ، أو الجمعة إلى الجمعة ، أو رمضان إلى رمضان ، وهذا هو المتبادر ، والله أعلم ، أن المعنى أن الصلوات الخمس تكفر ما بينها إلا الكبائر فلا تكفرها ، وكذلك الجمعة إلى الجمعة ، وكذلك رمضان إلى رمضان ، وذلك لأن الكبائر لابد لها من توبة خاصة ، فإذا لم يتب توبة خاصة فإن الأعمال الصالحة لا تكفرها ، بل لابد من توبة خاصة .

أما حديث أبي هريرة الثاني فهو أن النبي عليه الصلاة والسلام عرض على أصحابه عرضًا ، يعلم النبي - ﷺ - ما سيقولون في جوابه ، ولكن هذا من حسن تعليمه عليه الصلاة والسلام ، أنه أحيانًا يعرض المسائل عرضًا ، حتى يتنبه الإنسان لذلك ، ويعرف ماذا سيُلقى إليه . قال : « **ألا أدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو الله به الخَطَايَا ، ويَرْفَعُ به الدَّرَجَاتِ؟** » يعرض عليهم هذا العرض ، ومن المعلوم أنهم سيقولون : نعم يا رسول الله، أخبرنا ، ولكنه عليه الصلاة والسلام اتخذ هذه الصيغة وهذا الأسلوب من أجل أن ينتبهوا إلى ما سيلقى إليهم ، قالوا : بلى يا رسول الله ، يعني أخبرنا فإننا نودّ أن تخبرنا بما يرفع به الدرجات ويمحو به الخطايا ، قال : « **إسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ وكَثْرَةُ الخُطَا إلَى المَسَاجِدِ ، وانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ** » هذه ثلاثة أشياء :

أولاً : إسباغ الوضوء على المكاره ، يعني إتمام الوضوء في أيام الشتاء ؛ لأن أيام الشتاء يكون الماء فيها باردًا ، وإتمام الوضوء يعني إسباغه فيحصل بذلك مشقة على النفس، فإذا أسبغ الإنسان وضوءه مع هذه المشقة ، دلّ هذا على كمال الإيمان فيرفع الله بذلك درجاتَ العبد ويحط عنه خطيئة هذه واحدة .

ثانيًا : كثرة الخطا إلى المساجد ، يعني أن يقصد الإنسان المساجد وذلك في الصلوات الخمس ولو بَعُد المسجد ، فإنه كلما بَعُد المسجد عن البيت ازدادت حسنات الإنسان ، فإن الإنسان إذا توضأ في بيته وأسبغ الوضوء ، ثم خرج منه إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة، لم يخطُ خطوة واحدة إلا رفع الله له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة .

ثالثًا : انتظار الصلاة بعد الصلاة ، يعني أن الإنسان من شدة شوقه إلى الصلوات ، كلما فرغ من صلاة فإذا قلبه متعلق بالصلاة الأخرى ينتظرها ، فإن هذا يدل على إيمانه ومحبته وشوقه لهذه الصلوات العظيمة ، التي قال عنها رسول الله - ﷺ - : « **وجُعلت قرة يعني في الصلاة** »(١) فإذا كان ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فإن هذا مما يرفع الله به

---

(١) النسائي (٧/ ٦٢) أحمد (٣/ ٢٨٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤) .

Marfat.com

الدرجات ، ويكفر به الخطايا والسيئات .

هذان الحديثان ذكرهما المؤلف فى باب كثرة طرق الخير ؛ لأن هذه ـ ولله الحمد ـ طرق متعددة من الخير ، الصلوات الخمس ، الجمعة إلى الجمعة ، رمضان إلى رمضان ، كثرة الخطا إلى المساجد ، إسباغ الوضوء على المكاره ، انتظار الصلاة بعد الصلاة .

وقوله - ﷺ - : « **فذلكم الرباط** » أصل الرباط : الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها ، وهذا من أعظم الأعمال فلذلك شبه به ما ذكر من الأفعال الصالحة والعبادة فى هذا الحديث ، أى : أن المواظبة على الطهارة والصلاة والعبادة كالجهاد فى سبيل الله .

وقيل : إن الرباط هاهنا اسمٌ لما يربط به الشئ ، والمعنى أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصى وتكفه عنها .

❊ ❊ ❊

[١٦/ ١٣٢] السَّادس عَشَرَ : عن أبى موسى الأشْعَرِىّ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « **مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ** » متفقٌ عليه .

« الْبَرْدَانِ » : الصُّبْحُ وَالْعَصْرُ .

[١٧/ ١٣٣] السَّابع عَشَرَ : عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **إذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كانَ يَعْمَلُ مُقِيماً صَحِيحاً** » رواه البخارى .

الشرح

نقل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبى موسى الأشعرى - رضي الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « **من صلى البردين دخل الجنة** » البردان : هما صلاة الفجر وصلاة العصر ، وذلك لأن صلاة الفجر تقع فى أبرد ما يكون من الليل ، وصلاة العصر تقع فى أبرد ما يكون من النهار بعد الزوال ، من صلاهما دخل الجنة ، يعنى أن المحافظة على هاتين الصلاتين وإقامتها من أسباب دخول الجنة .

وقد ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه نظر إلى القمر ليلة ، فقال : « إنكم

[١٦/ ١٣٢] صحيح : رواه البخارى (٥٧٤) ، ومسلم (٦٣٥) .

[١٧/ ١٣٣] صحيح : رواه البخارى (٢٩٩٦) . احمد (٤/ ٤١٠) البيهقى فى السنن (٣/ ٣٧٤) .

Marfat.com

سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته ، فإن استعطتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها فافعلوا »[١] فقال ـ ﷺ ـ : « **إنكم تسرون ربكم كما ترون هذا القمر** » هذا فيه تشبيه الرؤية الرؤية ، وليس المعنى تشبيه المرئى بالمرئى ، لأن الله ليس كمثله شيء ، ولكنكم ترونه رؤية حقيقية مؤكدة كما يرى الإنسان القمر ليلة البدر ، وإلا فإن الله عز وجل أجل وأعظم من أن يشابهه شئ من مخلوقاته .

ثم قال النبى ـ ﷺ ـ فى آخر هذا الحديث : « **فإن استعطتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها فافعلوا** » يعنى بالتى قبل طلوع الشمس : الفجر ، والتى قبل غروبها : العصر ، فهاتان الصلاتان هما أفضل الصلوات ، وأفضلهما صلاة العصر ؛ لأنها هى الصلاة الوسطى التى قال الله تعالى عنها : ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ** ﴾ [البقرة : ٢٣٨] . وقد صح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال فى غزوة الأحزاب : « **ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر** »[٢] . وهذا نص صريح من رسول الله ـ ﷺ ـ أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « **من صلى البردين** » المراد من صلاهما على الوجه الذى أمر به ، وذلك بأن يأتى بهما فى الوقت وإذا كان من أصحاب الجماعة كالرجال ، فليأت بهما مع الجماعة ؛ لأن الجماعة واجبة ، ولا يحل لرجل أن يدع صلاة الجماعة فى المسجد وهو قادر عليها .

أما حديثه الثانى : فهو أن النبى ـ ﷺ ـ قال : **إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا** » يعنى أن الإنسان إذا كان من عادته أن يعمل عملاً صالحًا ، ثم مرض فلم يقدر عليه ، فإنه يكتب له الأجر كاملاً والحمد لله على نعمه .

إذا كنت مثلاً من عادتك أن تصلى مع الجماعة ، ثم مرضت ، ولم تستطع أن تصلى مع الجماعة فكأنك تصلى معهم يُكتب لك سبعة وعشرون درجة ، ولو سافرت وكان من عادتك وأنت مقيم فى البلد أن تصلى نوافل ، وأن تقرأ قرآنًا ، وأن تسبح وتهلل وتكبر ، ولكنك لما سافرت اشتغلت بالسفر عن هذا ، فإنه يكتب لك ما كنت تعمله فى البلد مقيمًا . مثلاً لو سافرت وصليت وقتك فى البر ليس معك أحد ، فإنه

(١) البخارى (٧٤٣٤) مسلم (٦٣٣) .
(٢) البخارى (٢٩٣١) مسلم (٦٢٧) .

Marfat.com

يُكتب لك أجر صلاة الجماعة كاملاً ، إذا كنت فى حال الإقامة تصلى مع الجماعة .

وفى هذا تنبيه علـى أنه ينبغى للعاقل ما دام فى حال الصـحة والفراغ ، أن يحرص على الأعمال الـصالحة ، حتى إذا عجز عنهـا لمرض أو شغل ، كُتبت له كـاملة ، اغتنم الصحة ! اغـتنم الفراغ ! اعمل صالحـاً حتى إذا شُغلت عنه بمرض أو غـيره ، كُتب لك كاملاً ولله الحمـد ، ولهذا قال النبى ـ ﷺ ـ : « **نعمتان مـغبون فيهما كـثير من الناس ، الصـحة والفـراغ** »(١) وقال ابن عـمر : « **وخذ مـن صحـتك لمرضك ، ومـن حيـاتك لموتك**»(٢) هكذا جاء فى حديث ابن عمر إما من قـوله ، وإما من قول النبى عليه الصلاة والسلام ، أن الإنسان ينبغى له فى حال الصحـة أن يغتنم الفرصة ، حتى إذا مرض كُتب له عمله فى الصـحة ، وأن يحرص ما دام مقيـمًا على كثرة الأعمال الصـالحة ، حتى إذا سافر كُتب له ما كـان يعمل فى الإقامة . نسأل الله أن يخلص لنا ولـكم النية ويصلح لنا ولكم العمل .

* * *

[١٨/ ١٣٤] **الثَّامن عشَرَ** : عَنْ جَابر ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ** » رواه البخارى ورواه مسلم من رواية حُذَيْفَةَ ـ رضي الله عنه ـ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه اللـه تعالى ـ فيما نقله فى باب كثـرة طرق الخيرات ، عن جابر بن عبد اللهـ رضي الله عنه ـ ، أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **كُلُّ مَعْرُوف صَدَقَةٌ** » المعروف ما يتعارف الناس على حـسنه ، أو ما عرف فى الشـرع حسنه ، إن كان مما يتـعبد به لله ، فـهو ما عرف فى الشرع حسنه ، وإن كان مما يتعامل به الناس فهو مما تعارف الناس على حسنه ، وفى هذا الحديث : « **كُلُّ مَعْرُوف** » يشمل هذا وهذا ، فكل عمل تتـعبد به إلى الله فإنه صدقة ، كمـا ورد فى حديث سابق : « **كلُّ تسبيـحة صدقة ، وكل تهليـلة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة** »(٣) .

---

(١) البخارى (٦٤١٢) الترمذى (٢٣٠٤) ابن ماجه (٤١٧٠) .

(٢) البخارى (٦٤١٦) .

[١٨/ ١٣٤] صحيح : رواه البخارى (٦٠٢١) من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ ، ومسلم (١٠٠٥) من حديث حذيفة رضي الله عنه ـ .

(٣) سبق تخريجه .

Marfat.com

وأما ما يتعارف الناس على حسنه فهو أيضًا ما يتعلق بالمعاملة بين الناس ، فكل ما تعارف الناس على حسنه فهو معروف ، مثل الإحسان إلى الخلق بالما ، أو بالجاه ، أو بغير ذلك من أنواع الإحسان . ومن ذلك : أن تلق أخاك بوجه طلق ، لا بوجه عبوس، وأن تلين له القول ، وأن تدخل عليه السرور ، ولهذا قال العلماء ـ رحمهم الله ـ : إن من الخير إذا عاد الإنسان مريضا ، أن يدخل عليه السرور ويقول : أنت فى عافية وإن كان الأمر على خلاف ما قال بأن كان مرضه شديدًا ، يقول ذلك ناويًا أنه فى عافية أحسن ممن هو دونه ؛ لأن إدخال السرور على المريض سببٌ للشفاء . ولهذا تجد أن الإنسان إذا كان مريضا مرضاً عاديًا صغيرًا ، إذا قال له الإنسان : إن هذا شئ بسيط هين لا يضر سُرَّ بذلك ونسى المرض ، ونسيان المرض سبب لشفائه ، وكون الإنسان يعلق قلبه بالمرض ، فذلك سبب لبقائه . وأضرب لكم مثلاً لذلك برجل فيه جرح ، تجد أنه إذا تلهى بحاجة أخرى لا يحسّ بألم الجرح ، لكن إذا تفرغ ولم يشتغل بشئ تذكر هذا الجرح وآلمه وربما أحس بأنه سيموت منه .

انظر مثلاً إلى الحمالين الذين يحملون الأشياء على السيارات ويُنْزِلونها ، أحيانًا يسقط على قدمه شئ فيجرحه ، ولكنه ما دام يحمل تلك الحمالات التى يحملها على ظهره تجده لا يشعر بالجرح ، ولا يحس بألمه حتى إذا فرغ أحس به وتألم .

إذن غفلة المريض عن المرض ، وإدخال السرور عليه ، وتأميله بأن الله عز وجل سيشفيه هذا خير ينسيه المرض ، وربما كان سببًا للشفاء .

إذن كل معروف صدقة . لو أن أحدًا يجلس إلى جنبك ورأيته محترًا يتصب العرق من جبينه ، فروحت عليه بالمروحة ، فإنه لك صدقة ؛ لأنه معروف .

لو قابلت الضيوف بالانبساط وتعجيل الضيافة لهم وما أشبه ذلك فهذا صدقة .

انظر إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لما جاءته الملائكة ضيوفًا ، ماذا صنع ؟ ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود : ٦٩] . قال العلماء : وقول إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ ﴾ أبلغ من قول الملائكة : ﴿ سَلَامًا ﴾ ؛ لأن قول الملائكة ﴿ سَلَامًا ﴾ يعنى : نسلم سلامًا ، وهو جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث . وقول إبراهيم : ﴿ سَلَامٌ ﴾ جملة اسمية تدل على الثبوت والاستمرار فهو أبلغ . وماذا صنع عليه الصلاة والسلام ؟ ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] .

﴿ فَرَاغَ ﴾ قال العلماء : معناه : انسرق مسرعًا بخفية ، وهذا من حسن الضيافة ، ذهب مسرعًا ؛ لئلا يمنعوه ، أو يقولوا : انتظر ما نريد شيئًا ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ

Marfat.com

سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] . وفى الآية الأخرى : ﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] . حنيذ : يعنى مشويًا ، ومعلوم أن اللحم المشوى أطعم من اللحم المطبوخ ؛ لأن طعمه يكون باقيًا فيه ، ﴿ فَجَاءَ بِعِجْلٍ ﴾ والعلماء يقولون : إن العجل من أفضل أنواع اللحم ؛ لأن لحمه لينًا ولذيذًا ، ثم قال تعالى : ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ ما وضعه فى مكان بعيد وقال لهم : اذهبوا إلى مكان الطعام ، فهذا ليس من المروءة ، وإنما قربه إليهم .

ثم قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ولم يقل لهم : كلوا . و ﴿ أَلَا ﴾ أداة عرض ، يعنى عرض عليهم الأكل ولم يأمرهم .

ولكن الملائكة ما أكلوا ؛ لأن الملائكة لا يأكلون ، الملائكة ما لهم أجواف ، ما لهم كروش ، ولا أمعاء ولا أكباد ، خلقهم الله من نور ، جسدًا واحدًا ، جثة واحدة ، لا يأكلون ولا يشربون ولا يبولون ولا يتغوطون : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] . دائمًا يقولون : سبحان الله ، سبحان الله ، فلم يأكلوا ، لهذا السبب .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ لأنهم لم يأكلوا . فمن عادة العرب أن الضيف إذا لم يأكل فقد تأبط شرًا . ولهذا فمن عادتنا إلى الآن أنه إذا جاء الضيف ولم يأكل قالوا : مالح ، يعنى ذق من طعامنا ، فإذا لم يمالح قالوا : إن هذا الرجل قد نوى بنا بشرًا ، فنكرهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ذلك ، وأوجس منهم خيفة ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ .

ثم بينوا له الأمر ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] . وكان قد كبر وكانت امرأته قد كبرت ﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ ﴾ لما سمعت البشرى ﴿ فِي صَرَّةٍ ﴾ أى : فى صيحة ، ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ عجبًا ، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ !! يعنى : ألد وأنا عجوز عقيم ! . قالت الملائكة : ﴿ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ الرب عز وجل يفعل ما يشاء ، إذا أراد شيئًا قال له : كن فيكون .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات : ٣٠] . وهنا قدم ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ على ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ ، وفى آيات كثيرة يُقدم ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ على ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ، والسبب أن هذه المسألة أى : كونها تلد وهى عجوز خرجت عن نظائرها ، ما لها نظير إلا نادرًا ، فبدأ بالحكيم الدال على الحكمة ، يعنى أن الله حكيم أن تلدى وأنت عجوز .

المهم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام قد ضرب المثل فى حسن الضيافة ، وحسن الضيافة من المعروف ، وكل معروف صدقة كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام .

* * *

Marfat.com

[١٣٥/١٩] التَّاسع عَشَرَ : عَنْهُ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « مَا مِنْ مُسْلِم يَغرِسُ غَرْساً إلا كَانَ مَا أُكلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَه صَدَقَة ، ولا يَرْزَؤه أحَدٌ إلا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ » رواه مسلم . وفي رواية له : « فَلَا يَغْرِس المُسْلِم غَرْساً ، فَيأكُلَ مِنْهُ إنسَانٌ وَلا دَابَّة وَلا طَيْرٌ إلا كانَ لَه صَدَقَةً إلَى يَوْمِ القِيَامَة » .

وفي رواية له : « لا يَغرِس مُسْلِم غَرساً ، ولا يَزْرَع زَرْعاً ، فَيَأكُلَ مِنه إنسَانٌ وَلا دابَّةٌ وَلا شيء إلا كَانَت لَه صَدَقَةٌ » .

وَرَوَيَاه جَميعاً مِنْ رواية أنَس ـ ﷺ ـ . قولُهُ : « يَرْزَؤُهُ » أيْ : يَنْقُصُهُ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في باب كثرة طرق الخيرات ما نقله عن جابر بن عبد الله ـ ﷺ ـ أن النبي ـ ﷺ ـ ذكر فيمن غرس غرسًا ، فأكل منه شيء ، من إنسان، أو حيوان ، أو طير ، أو غير ذلك ، أو نَقَص أي : سُرق منه ، فإنه له بذلك صدقة . في هذا الحديث حثّ على الزرع ، وعلى الغرس ، وأن الزرع والغرس فيه الخير الكثير ، فيه مصلحة في الدين ، ومصلحة في الدنيا .

أما مصلحة الدنيا : فما يحصل فيه من إنتاج ، ومصلحة الغرس والزرع ليست كمصلحة الدراهم والنقود ؛ لأن الزرع والغرس ينفع نفس الزارع والغارس ، وينفع البلد كله ، كل الناس ينتفعون منه ، بشراء الثمر ، وشراء الحب ، والأكل منه ، ويكون في هذا نموٌّ للمجتمع وتكثير لخيراته ، بخلاف الدراهم التي توضع في الصناديق ولا ينتفع بها أحد .

أما المنافع الدينية : فإنه إن أكل منه طير : عصفور ، أو حمامة ، أو دجاجة ، أو غيرها ولو حبّة واحدة ، فإنه له صدقة ، سواء شاء ذلك أو لم يشأ ، حتى لو فُرض أن الإنسان حين زرع أو حين غرس لم يكن بباله هذا الأمر ، فإنه إذا أكل منه كان له صدقة. أعجب من ذلك لو سرق منه سارق ، كما لو جاء شخص مثلاً إلى نخل وسرق منه تمرًا ، فإن له في ذلك أجرًا ، مع أني لو علمت بهذا السارق لشكوته إلى المحكمة ، ومع ذلك فإن الله تعالى يكتب له بهذه السرقة صدقة إلى يوم القيامة .

[١٣٥/١٩] صحيح : رواه مسلم(١٥٥٢) من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ ورواه البخاري (٢٣٢٠)، ومسلم (١٥٥٣) من حديث أنس ـ رضي الله عنه .

Marfat.com

كذلك أيضًا إذا أكل من هذا الزرع دواب الأرض ، وهوامها كان لصاحبه صدقة .
ففي هذا الحديث دلالة واضحة على حث النبي عليه الصلاة والسلام على الزرع وعلى الغرس ، لما فيه من المصلحة الدينية والمصالح الدنيوية .

وفيه دليل على كثرة طرق الخير ، وأن ما انتفع به الناس من الخير ، فإن لصاحبه أجرًا ، وله فيه الخير ، سواء نوى أو لم ينو ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] . فذكر الله سبحانه وتعالى أن هذه الأشياء فيها خير سواء نويت أو ما نويت . من أمر بصدقة أو إصلاح بين الناس فهو خير ومعروف ، نوى أم لم ينو ، فإن نوى بذلك ابتغاء وجه الله . فإن الله يقول : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] .

وفي هذا : دليل على أن المصالح والمنافع إذا انتفع الناس بها ، كانت خيرًا لصاحبها وإن لم ينو ، فإن نوى زاد خيرًا على خير ، وآتاه الله تعالى من فضله أجرًا عظيمًا .
أسأل الله العظيم أن يمن علي وعليكم بالإخلاص والمتابعة للرسول - ﷺ - ، إنه جواد كريم .

* * *

[١٣٦/٢٠] العشرون : عَنْهُ قالَ : أرادَ بَنُو سَلِمَةَ أن يَنتَقِلُوا قُرْبَ المَسْجِد فَبَلَغَ ذلكَ رَسُولَ اللهِ - ﷺ - ، فقال لَهم : « إنَّهُ قَدْ بَلَغَني أنَّكُمْ تُريدُونَ أنْ تَنتَقِلُوا قُرْبَ المَسْجد؟ » فَقَالُوا : نَعَمْ يَا رسول الله قَدْ أرَدْنَا ذلكَ ، فَقَالَ : « بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ ؛ تُكْتَبْ آثارُكُمْ ، دِيَارَكُمْ ؛ تُكْتَبْ آثارُكُمْ » رواه مسلم .

وفي رواية : « إنَّ بِكُلِّ خَطْوَةٍ دَرَجَةً » رواه مسلم . ورواه البخاري أيضاً بِمَعْنَاهُ مِنْ رواية أنس - رضي الله عنه - .

و « بَنُو سَلِمَةَ » بكسر اللام : قبيلة معروفة من الأنصار - رضي الله عنهم - ، و« آثَارُهُمْ » : خُطَاهُمْ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : أرَادَ

[١٣٦/٢٠] صحيح : رواه مسلم (٦٦٤ ، ٦٦٥) ، أما رواية أنس رضي الله عنه رواهما البخاري (٦٥٦) .

Marfat.com

بَنُو سَلِمَةَ أنْ يَقْرُبُوا من الْمَسْجِد ، ينتقلوا من ديارهم ومحلاتهم حتى يكونوا قرب مسجد النبى - ﷺ - ، من أجل أن يدركوا الصلوات معه ويتلقوا من علمه ، فبلغ ذلك النبى - ﷺ - فسألهم ، قال : « **إنَّهُ قَدْ بَلَغَنى أنَّكُمْ تُرِيدُونَ أنْ تَنْقلُوا قُرْبَ الْمَسْجد ؟** » قالوا : نَعَمْ يَا رسُولَ الله ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلكَ ، فَقَالَ رَسولُ الله - ﷺ - : « **دِيَارَكُمْ ، تُكْتَبْ آثَارُكُمْ** » قالها مرتين ، وبين لهم أن لهم بكل خطوة حسنة أو درجة .

ففى هذا الحديث : دليل على أنه إذا مشى الإنسان إلى المسجد ، فإنه لا يخطو خطوة إلا رفع له بها درجة ، وقد جاء ذلك مفسرًا فى حديث أبى هريرة - رضي الله عنه - ، أن النبى - ﷺ - قال : « **من توضأ فأسبغ الوضوء ، ثم خرج من بيته إلى المسجد ، لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا كتب الله له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة** »(1) فيكتب له شيئان ، الأول : أنه يرفع له بها درجة . والثانى : أنه يحط بها عنه خطيئة . هذا إذا توضأ فى بيته وأسبغ الوضوء سواء كان ذلك قليلاً يعنى سواء كانت الخطوات قليلة أم كثيرة ، فإنه يُكتب له بكل خطوة شيئان : يُرفع بها درجة ، ويحط عنه بها خطيئة .

وفى هذا الحديث : دليل على أنه إذا نُقل للإنسان شئ عن أحد ، فإنه يتثبت قبل أن يحكم بالشئ ، ولهذا سأل النبى - ﷺ - بنى سلمة قبل أن يقول لهم شيئًا ، قال : بلغنى أنكم تريدون كذا وكذا ، قالوا : نعم ، فيؤخذ منه ما ذكرت أنه ينبغى للإنسان إذا نقل له شىء عن أحد أن يتثبت قبل أن يحكم بمقتضى الشىء الذى نُقل له ، حتى يكون إنسانًا رزينًا ثقيلاً معتبرًا ، أما كونه يصدق بكل ما نُقل ، فإنه يفوت بذلك الشئ الكثير ، ويحصل له ضرر عظيم ، بل الإنسان ينبغى عليه أن يتثبت .

وفى هذا الحديث أيضًا : دليل على كثرة طرق الخيرات ، وأن منها المشى إلى المساجد، وهو كما سبق مما يرفع الله به الدرجات ، ويحط به الخطايا ، فإن كثرة الخطا إلى المساجد سبب لمغفرة الذنوب ، وتكفير السيئات ، ورفعة الدرجات .

❊ ❊ ❊

[٢١/ ١٣٧] الحَادى وَالعشْرُونَ : عَنْ أبى الْمُنْذر أُبَـىِّ بن كَعب - رضي الله عنه - قال: كَانَ رَجُلٌ لا أعلَم رَجُلاً أبْعَدَ منَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ ، وكَانَ لا تُخْطِئُهُ صَلاةٌ فَقِيلَ لَهُ ، أوْ

---

(١) البخارى (٤٧٧) .

[١٣٧/٢١] صحيح : رواه مسلم (٦٦٢) .

Marfat.com

فَقُلْتُ لَهُ : لَو اشترَيْتَ حماراً تَركَبُهُ في الظَّلْماء ، وَفي الرَّمْضاء ، فَقَالَ : ما يَسرُّني أنَّ مَنزلي إلَى جنب المَسْجِد ، إني أُرِيدُ أنْ يُكتَبَ لي مَمْشَايَ إلَى المَسْجِد ، وَرُجُوعي إذا رَجَعْتُ إلَى أهلي ، فَقَال رسول الله - ﷺ - : « **قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ** » رواه مسلم .

وفي رواية : « **إنَّ لَكَ مَا احْتَسَبْتَ** » . « الرَّمْضَاءُ » : الأرْضُ التي أصَابَهَا الْحَرُّ الشَّدِيدُ .

الشرح

هذا الحديث يتعلق بما قبله من الأحاديث الدالة على كثرة طرق الخير ، وأن طرق الخير كثيرة ، ومنها الذهاب إلى المساجد ، وكذلك الرجوع ، منها ، إذا احتسب الإنسان ذلك عند الله تعالى ، فهذا الحديث الذى ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ فى قصة الرجل الذى كان له بيتٌ بعيد عن المسجد ، وكان يأتى إلى المسجد من بيته من بُعد يحتسب الأجر على الله ، قادمًا إلى المسجد وراجعًا منه . فقال له بعض الناس : لو اشتريت حمارًا تركبه فى الظلماء والرمضاء ـ يعنى فى الليل حين الظلام ـ فى صلاة العشاء وصلاة الفجر ، أو فى الرمضاء ـ أى : فى أيام الحرّ الشديد ـ ولا سيما فى الحجاز ، فإن جوها حار . فقال - ﷺ - مَا يَسُرُّنِي أنَّ بَيْتِي إلى جَنْبِ الْمَسْجِدِ . يعنى أنه مسرور بأن بيته بعيدٌ عن المسجد ، يأتى إلى المسجد بخطا ، ويرجع منه بخطا ، وهو لا يسره أن يكون بيته قريبًا من المسجد ، لأنه لو كان قريبًا لم تُكتب له تلك الخطا ، وبين أن يحتسب أجره على الله عز وجل ، قادمًا إلى المسجد وراجعًا منه . فقال - ﷺ - : « **إن له ما احتسب** » .

ففى هذا : دليل على أن كثرة الخطا إلى المسجد من طرق الخير ، وأن الإنسان إذا احتسب الأجر على الله كتب الله له الأجر حال مجيئه إلى المسجد ، وحال رجوعه منه .

ولا شك أن للنية أثرًا كبيرًا فى صحة الأعمال ، وأثرًا كبيرًا فى ثوابها ، وكم من شخصين يصليان جميعًا بعضهما إلى جنب بعض ، مع ذلك يكون بينهما فى قدر الثواب مثل ما بين السماء والأرض ، وذلك بصلاح النية وحسن العمل ، فكلما كان الإنسان أصدقَ إخلاصًا لله وأقوى اتباعًا لرسول الله - ﷺ - كان أكثر أجرًا وأعظم مثوبة عند الله عز وجل .

* * *

Marfat.com

[١٣٨/٢٢] الثَّانى وَالعِشْرُونَ : عَنْ أبى محمد عبد اللّه بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « **أَرْبَعُونَ خَصْلَةً أَعْلاهَا مَنِيحَةُ العَنْزِ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَلُ بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوْعُودِهَا إلا أَدْخَلَهُ الله بِهَا الجَنَّةَ** »رواه البخاري.

« المَنِيحَة » أنْ يُعْطِيَهُ إيَّاهَا لِيأْكُلَ لَبَنَهَا ثُمَّ يَرُدَّهَا إلَيْه .

[١٣٩/٢٣] الثَّالثُ وَالعِشْرُونَ : عَنْ عَدىِّ بنِ حَاتِمٍ - رضي الله عنه - قال : سَمِعْتُ النَّبىَّ - صلى الله عليه وسلم - يقول : « **اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ** » متفقٌ عليه .

وفى رواية لهما عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « **مَا مِنْكُمْ مِنْ أحد إلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَان ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرى إلاَ مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظر أشأم منه فلا يرى إلا ماقدم ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْه فلا يَرَى إلا النَّارَ تلْقَاءَ وَجْهِه ، فاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ** » .

الشَّرحُ

هذا الحديث فى بيان شىء من طرق الخيرات ؛ لأن طرق الخيرات ـ ولله الحمد ـ كثيرة ، شرعها الله لعباده ليصلوا بها إلى غاية المقاصد ، فمن ذلك الصدقة ، فإن الصدقة كما صح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - : « **تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار** »[(١)] يعنى كما لو أنك صببت ماء على النار انطفأت ، فكذلك الصدقة تطفئ الخطيئة .

ثم ذكر المؤلف هذا الحديث الذى بين فيه أن الله سبحانه وتعالى سيكلم كلَّ إنسان على حدة يوم القيامة . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] . يعنى سوف تلاقى ربك ويحاسبك على هذا الكدح ، أى : الكد والتعب الذي عملت ، ولكن ذلك بشرى للمؤمنين ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] . الحمد لله ، المؤمن إذا لاقى ربه فإنه على خير .

[١٣٨/٢٢] صحيح : رواه البخارى (٢٦٣١) أبو داود (١٦٨٣) .

[١٣٩/٢٣] صحيح : رواه البخارى (٦٠٢٣) ، ومسلم (١٠١٦) .

(١) الترمذى (٦١٤) ابن ماجه (٤٢١٠) أحمد (٣٩٩/٣) وضعفه الألبانى فى السلسلة الضعيفة (١٩٠١).

Marfat.com

ولهذا قال النبى - ﷺ -هنا فى الحديث : « **مَا مِنكُمْ مِنْ أحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ** » يعنى : يكلمه الله يوم القيامة بدون مترجم . يكلم الله كل عبد مؤمن ، فيقرره بذنوبه ، يقول له : عملت كذا وكذا فى يوم كذا وكذا ، فإذا أقر بها وظن أنه قد هلك قال : « **إنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم** » فكم من ذنوب علينا سترها الله عز وجل لا يعلمها إلا هو ، فإذا كان يوم القيامة أتم علينا النعمة بمغفرتها وعدم العقوبة عليها ولله الحمد .

ثم قال : « **فنظر أيمن منه** » يعنى عن يمينه « **فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه** » أى : على يساره . « **فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه**» قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **فاتقوا النار ولو بشق تمرة** » يعنى : ولو بنصف تمرة أو أقل .

ففى هذا الحديث : دليل على كلام الله عز وجل ، وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بكلام مسموع مفهوم لا يحتاج إلى ترجمة ، يعرفه المخاطب به .

وفيه : دليل على الصدقة ولو قلَّت أنها تنجى من النار ، لقوله : « **اتقوا النار ولو بشق تمرة** » قال : « **فإن لم يجد فبكلمة طيبة** » يعنى إن لم يجد شق تمرة فليتق النار بكلمة طيبة .

والكلمة الطيبة تشمل قراءة القرآن ، فإن أطيب الكلمات القرآن الكريم ، وكذلك تشمل التسبيح والتهليل ، وكذلك تشمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتشمل تعليم العلم ، وتعلم العلم ، وتشمل كذلك كل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه من القول، يعنى إذا لم تجد شق تمرة فإنك تتقى النار ولو بكلمة طيبة . فهذا من طرق الخير وبيان كثرتها ويسرها فالحمد لله أن شق التمرة تنجى من النار ، وأن الكلمة الطيبة تنجى من النار . نسأل الله أن ينجينا وإياكم من النار .

* * *

[٢٤/ ١٤٠] **الرَّابع وَالعشرُونَ** : عَن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أنْ يَأكُلَ الأكْلَةَ فَيَحْمَدهُ عَلَيْهَا ، أوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدهُ عَلَيْهَا** » رواه مسلم .

وَ « **الأكْلَة** » بفتح الهمزة : وَهىَ الغَدْوَة أو العَشْوَة .

[٢٤/ ١٤٠] صحيح : رواه مسلم (٢٧٣٤) أحمد (٣/ ١٠٠ ، ١٧٧) الترمذى (١٨١٦) .

Marfat.com

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « **إنَّ الله لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أنْ يَأكُلَ الأكْلَةَ فيحْمَدهُ عليها ، أوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدهُ عَلَيْهَا** » وفسر المؤلف ـ رحمه الله ـ الأكلة بأنها الغَدْوَةَ أو العشوة ، أى : الغداء أو العشاء .

ففى هذا دليل على أن رضا الله عز وجل قد يُنال بأدنى سبب ، قد يُنال بهذا السبب اليسير ولله الحمد . يرضى الله عن الإنسان إذا انتهى من الأكل قال : الحمد لله ، وإذا انتهى من الشرب قال : الحمد لله ، ذلك أن للأكل والشرب آدابًا فعلية ، وآدابًا قولية .

أما الآداب الفعلية : أن يأكل باليمين ويشرب باليمين ، ولا يحل له أن يأكل بشماله أو يشرب بشماله ، فإن هذا حرام على القول الراجح ؛ لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى أن يأكل الرجل بشماله أو يشرب بشماله ، وأخبر أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله (١) ، وأكل رجل بشماله عنده فقال : « **كل بيمينك** » قال : لا أستطيع ، فقال : « **لا استطعت** » فما استطاع الرجل بعد ذلك أن يرفع يده اليمنى إلى فمه (٢) . عوقب بهذا والعياذ بالله .

أما الآداب القولية : أن يسمى عند الأكل ، يقول : باسم الله ، والصحيح أن التسمية عند الأكل أو الشرب واجبة (٣) ، وأن الإنسان يأثم إذا لم يسم الله عند أكله أو شربه ؛ لأنه إذا لم يفعل ، يعنى : لم يسم عند الأكل والشرب فإن الشيطان يأكل معه ، ويشرب معه .

ولهذا يجب على الإنسان إذا أراد أن يأكل أن يسمى الله ، وإذا نسى أن يسمي فى أول الطعام ثم ذكر فى أثنائه فليقل : باسم الله أوله وآخره ، وكذلك إذا نسى أحد أن يسمى فذكِّر ؛ لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذكر عمر بن أبى سلمة وهو ربيبه ـ ابن زوجته أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ حينما تقدم للأكل فأكل ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **يا غلام ، سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك** » (٤) .

---

(١) مسلم (٢٠٢٠) الترمذى (١٧٩٩) أحمد (٢/ ٨٠) .
(٢) مسلم (٢٠٢١) أحمد (٤/٤٦) .
(٣) الترمذى (١٨٥٨) ابن ماجه (٣٢٦٤) .
(٤) البخارى (٥٣٧٦) مسلم (٢٠٢٢) .

Marfat.com

وهذا فيه : دليل على أن التسمية إذا كانوا جـماعة تكون من كل واحد ، فكل واحد يسمى ولا يكفى أن يسمى واحد عن الجميع ، بل إن كل إنسان يسمى لنفسه .

والتسمية : عند الأكل والشرب من الآداب القوليـة ، وهى واجبة لا يحل لأحد أن يدعها . أما عند الانتهاء فمن الآداب أن يحمـد الله على هذه النعمة ، حيث يسر له هذا الأكل، مع أنه لا أحد غيره يستطيع أن ييسره، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣ ، ٦٤] . ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٨ ، ٦٩] . لولا أن الله عز وجل نمى هذا الزرع حتى كمل ، وتيسر حتى وصل بين يديك ، لعجزت عنه .

وكذلـك الماء لولا أن اللـه يسره فـأنزله من المـزن وسلكه ينـابيع فى الأرض حـتى استخـرجته لما حصل لك هذا ، ولهـذا قال فى الزرع : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٥] . وقال فى الماء : ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٠] . فلهذا كان من شكـر نعمة الله عليك بهذا الأكل والشـرب أن تحمد الله إذا انتهيت من الشرب أو من الأكل ، ويكون هذا سببًا لرضا الله عنك .

وقوله : « **الأكلة** » فسرهـا المؤلف بقوله : الغَـدْوة أو العشـاء ، يعنى ولـيست الردة ليس كل ما أكلت ردة ، قـلت : الحمد لله ، أو كل ما أكلت تمرة قـلت : الحمد لله ، السنة أن تقول إذا انتهيت نهائيًا ، وذكر أن الإمـام أحمد ـ رحمه الله ـ كان يأكل ويحمد عل كل ردة ، فـقيل له فـى ذلك فقال : أكـل وحمد خـير من أكل وسكـوت ، ولكن لاشك أن خير الهـدى هدى محمد ـ ﷺ ـ ، وأن الإنسان إذا حمـد الله فى آخر أكله أو آخر شربه كفى ، ولكن إن رأى مصلحة فى الحمـد يذكر غيره أو ما أشبه ذلك فأرجو ألا يكون فى هذا بأس ، كما فعله الإمام أحمد رحمه الله .

❊ ❊ ❊

[١٤١/٢٥] الْخَامِسُ وَالعِشْرُونَ : عن أبى موسى ـ رضي الله عنه ـ ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ** » قَالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قال : « **يَعْمَلُ بِيَدَيْهِ فَيَنفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ** » : قال : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قَالَ : « **يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ** » قال: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قال : « **يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ أَوِ الخَيْرِ** » قالَ : أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قال : « **يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ** » متفقٌ عليه .

[١٤١/٢٥] صحيح : رواه البخارى (٦٠٢٢) ، ومسلم (١٠٠٨) .

Marfat.com

الشرح

نقل المؤلف ـ رحمه الله ـ عن أبي موسى الأشعرى ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ » وقد مر علينا مثل هذا التعبير من رسول الله ـ ﷺ ـ ، بل أعم منه ، حيث قال : « **على كل سلامى من الناس صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس...**»(١) والسلامى هى مفاصل العظام ، وهذا يدل على أن لله عز وجل علينا صدقة كل يوم ، هذه الصدقة متنوعة ، إما أن تكون تسبيحة ، أو تكبيرة ، أو تهليلة ، أو أمرًا بمعروف ، أو نهيًا عن منكر ، أو أن تعين الملهوف ، المهم أن طرق الخيرات كثيرة . ولكن النفس الأمارة بالسوء تثبط الإنسان عن الخير ، وإذا هم بشئ فتحت له بابًا غيره ، ثم إذا هم به فتحت له بابًا آخر حتى يضيع عليه الوقت ، ويخسر وقته ولا يستفيد منه شيئًا .

ولهذا ينبغى للإنسان أن يبادر ويسارع فى الخير ، كلما فتح له باب من الخير فليسارع إليه لقوله تعالى : ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ [المائدة : ٤٨] . ولأن الإنسان إذا انفتح له باب الخير أول مرة ثم لم يفعل فإنه يوشك أن يؤخره الله عز وجل ، وفى الحديث عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله** » (٢) فالمهم أنه ينبغى للإنسان العاقل الحازم المؤمن أن ينتهز سبل الخير ، وأن يحرص غاية الحرص على أن يأخذ من كل باب منها بنصيب حتى يكون ممن سارع فى الخيرات ، وحتى ثمرات هذه الأعمال الصالحة ، نسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذكره وحسن عبادته ، إنه جواد كريم.

* * *

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

Marfat.com

١٤ـ باب فى الاقتصاد فى العبادة

قال اللّه تعالى : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ [طه:١، ٢] ، وقال تعالى: ﴿ يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

الشرح

لما ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فى الباب السابق كثرة طرق الخير بين فى هذا الباب أنه ينبغى للإنسان أن يقتصد فى الطاعة ، فقال : « **باب الاقتصاد فى الطاعة** » والاقتصاد : هو أن يكون الإنسان وسطًا بين الغلو والتفريط ؛ لأن هذا هو المطلوب من الإنسان فى جميع أحواله ، أن يكون دائرًا فى وسط بين الغلو والتفريط ، قال الله تعالى: ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ [الفرقان: ٦٧] .

وهكذا الطاعة ينبغى أن تقتصد فيها ، بل يجب عليك أن تقتصد فيها ، فلا تكلف نفسك ما لا تطيق ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ لما بلغه خبرُ الثلاثة الذين قال أحدُهم : إنى لا أتزوجُ النساءَ ، وقال الثانى : أصوم ولا أفطر ، وقال الثالث : أقوم ولا أنام ، خطب عليه الصلاة والسلام ، وقال : « **ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ، إنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى** »(١) فتبرأ النبى ـ ﷺ ـ ممن رغب عن سنته ، وكلف نفسه ما لا تطيق .

ثم استشهد المؤلف بقوله تعالى: ﴿ طه (١) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾[طه: ١، ٢] .
﴿ طه ﴾ هذه حرفان من حروف الهجاء ، أحدهما : طاء ، والثانى : هاء ، وليست اسمًا من أسماء النبى ـ ﷺ ـ ، كما زعمه بعضهم ، بل هى من الحروف الهجائية التى ابتدأ الله بها فى بعض السور الكريمة من كتابه العزيز ، وهى حروف ليس لها معنى ؛ لأن القرآن نزل باللغة العربية ، واللغة العربية لا تجعل للحروف الهجائية معنى ، بل لا يكون لها معنى إلا إذا ركبت وكانت كلمة .

ولكن لها مغزى عظيم ، هذا المغزى العظيم هو التحدى الظاهر لهؤلاء المكذبين للرسول عليه الصلاة والسلام ، هؤلاء المكذبون للرسول ـ ﷺ ـ عجزوا أن يأتوا بشىء مثل القرآن ، لا بسورة ولا بعشر سور ولا بآية ، ومع هذا فإن هذا القرآن الذى أعجزهم

---

(١) البخارى (٥٠٦٣) مسلم (١٤٠٠) .

Marfat.com

لم يأت بحروف غريبة لم يكونوا يعرفونها ، بل أتى بالحروف التى يركبون منها كلامهم .

ولهذا لا تكاد تجد سورة ابتدئت بهذه الحروف إلا وجدت بعدها ذكر القرآن ، في سورة البقرة : ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، وفى آل عمران : ﴿ الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ وفى سورة الأعراف: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ وفى سورة يونس : ﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ، وهكذا نجد بعد كل حروف هجائية فى بداية السورة يأتى ذكر القرآن ، وذلك إشارة إلى أن هذا القرآن كان من هذه الحروف التى يتركب منها كلام العرب ومع ذلك أعجز العرب ، هذا هو الصحيح فى المعنى المراد من هذه الحروف الهجائية .

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ يعنى ما أنزل الله على النبى ـ ﷺ ـ هذا القرآن لينال الشقاء به ، ولكن لينال السعادة والخير والفلاح فى الدنيا والآخرة ، كما قال الله سبحانه وتعالى فى هذه السورة نفسها : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣ : ١٢٧] . ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴾ ولكن لتسعد فى الدنيا والآخرة ، ولهذا لما كانت الأمة الإسلامية أمة القرآن تتمسك به وتهتدى بهديه ، صارت لها الكرامة والعزة والرفعة على جميع الأمم، ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها ، ولما تخلفت عن العمل بهذا القرآن تخلف عنها من العزة والنصر والكرامة بقدر ما تخلفت به من العمل بهذا القرآن .

ثم ساق المؤلف آية أخرى ، وهى قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] . يعنى أن الله يريد بنا فيما شرع لنا التيسير ، وهذه الآية نزلت فى آيات الصيام ، حتى لا يظن الظان أنه أنزل على الناس للمشقة والتعب ، فبين الله تعالى أنه يريد بنا اليسر ، ولا يريد بنا العسر ، ولهذا من سافر لم يجب عليه الصوم، ويقضى من أيام أخر ، من مرض لم يجب عليه الصوم ، ويقضى من أيام أخر، فهذ من التيسير ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ .

ولهذا كان هذا الدين الإسلامى ـ ولله الحمد ـ دين السماحة واليسر والخير والسهولة، أسأل الله أن يرزقنى وإياكم التمسك به ، والوفاة عليه وملاقاة ربنا عليه .

* * *

Marfat.com

[١٤٢/١] وعـن عائشةَ - رضي الله عنها - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - دَخلَ علَيْهَا وَعنْدَهَا امْرَأةٌ قال: « مَنْ هذه ؟ » قالت : هذه فُلانَة تَذْكُرُ منْ صَلاتـهَا قالَ : « مهْ علَيْكُمْ بمَا تُطيقُـونَ ، فَوالله لا يمَل اللهُ حَتَى تَملُّوا » وكَانَ أحبُّ الدّينِ إلَيْـهِ مـا دَاوَمَ صَاحبُهُ علَيْهِ . متفقٌ عليه.

و« مَهْ » كَلمَة نَهْى وزَجْر . ومَعْنَـى « لا يملُ اللّهُ » أى : لا يَقْطعُ ثَوابَهُ عَنْكُمْ جَزَاءَ أعْمَـالكُمْ ، ويُعاملكُـمْ مُعاملَةَ الْمَالّ حَتَّى تَملُّوا فَتَتْرُكوا ، فَيَنْبَـغى لَكم أنْ تأخُذُوا مَا تُطيقُون الدَّوَامَ علَيْه ليَدُوم ثَوابُهُ لكُمْ وفضْلُه عَلَيْكُمْ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فـيما نقله عن عائشة - رضي الله عنها - ، فى باب الاقتصاد فى الطاعة ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - دخل عليها وعندها امرأة ، فقال : « مَنْ هذه ؟ » قَالتْ : فُلانَة ، وذكرت مِنْ صَلاتـِهَا ، يعنى أنها تصلى كثيـرًا ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « مَهُ » و «مه » : تعنى أمر بالكف ، فـهى عند النحويين اسم فعل بمعنـى اكفف ، وصه : بمعنى اسكت .

والمعنى أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمـر هذه المرأة أن تكف عن عملها الكثير ، الذى قد يـشق عليهـا وتعجز عنـه فى المستـقبل فلا تديمه ، ثـم إن النبى - عليـه الصلاة والسلام - أمرنـا أن نأخذ من العمل بما نطـيق ، فقال : « عَلَيْكُم بِـالْعَمَلِ بمَا تُطـيقُونَ » يعنى : لا تكلفوا أنفـسكم وتجهدوها ، فإن الإنسان إذا أجهد نفسـه ، وكلَّف نفسه ملت وكلت ، ثم انحسرت وانقطعت .

وذكرت عائـشة أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان أحب الـدين إليه أدومه ، أى : مـا داوم عليه صاحبه ، يعنى أن العمل وإن قل إذا داومت عـليه ، كان ذلك أحسن لك ؛ لأنك تفعل العمل براحة ، وتتركه وأنت ترغب فيه ، لا تتركه وأنت تمل منه .

ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « فَوَالله لا يَملُّ الله حتَّى تَملُّوا » ، يعنى أن الله - عز وجل - يعطيكم من الـثواب بقدر عملكم مهما داومتم ، فإن اللـه تعالى يثيبكم عليه .

وهذا الملل الذى يفهم من ظاهر الحديث ، أن الله يتصف به ليس كمللنا نحن ؛ لأن

[١٤٢/١] صحيح : رواه البخارى (٤٣) ، ومسلم (٧٨٥) .

Marfat.com

مللنا نحن ملل تعب وكسل ، وأما ملل الله عز وجل فإنه صفة يختص به جل وعلا ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يلحقه تعب ولا يلحقه كسل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] . هذه السموات العظيمة والأرض وما بينهما خلقها الله تعالى فى ستة أيام : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والجمعة ، قال : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ يعنى ما تعبنا بخلقها فى هذه المدة الوجيزة مع عظمها .

ففى هذا الحديث فوائد منها : أن الإنسان ينبغى له إذا رأى عند أهله أحدًا أن يسأل : مَن هو ؟ لأنه قد يكون هذا الداخل على الأهل ممن لا يرغب فى دخوله ، فإن من النساء من تأتى إلى هل البيت تحدثهم بأحاديث يأثمون بها من الغيبة وغيرها ، وربما تدخا امرأة بحسن نية أو بغير حسن نية ـ تسأل عن البيت ؛ عما يفعل الزوج ، وعما يأتى به فى بيته، وعما يفعل الابن ، ثم إذا ذُكِرَ لها ذلك ظلت تذكر ذلك بازدراء وتسخط ، حتى تفسد المرأة على زوجها ، فلذلك ينبغى للإنسان إذا وجد عند أهله أحدًا أن يسأل عنهم ، مَن هؤلاء ؟ كما سأل النبى عليه الصلاة والسلام عائشة عن المرأة التى عندها .

وفيه أيضًا : أنه ينبغى للإنسان ألا يجهد نفسه بالطاعة ، وكثرة العمل فإنه إذا فعل هذا مل ، ثم ترك ، وكونه يبقى على العمل لو قليلاً مستمرًا عليه أفضل ، وقد بلغ النبى - ﷺ - أن عبد الله بن عمرو بن العاص - ؓ - قال : لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت ، قال ذلك رغبة فى الخير ، فبلغ ذلك النبى عليه الصلاة والسلام فقال له: « **أنت الذى قلت ذلك ؟** » قال : نعم يا رسول الله ، قال : « **إنك لا تطيق ذلك** » ، ثم أمره أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فقال : إنى أطيق أكثر من ذلك ، فأمره أن يصوم يومًا ويُفطر يومين ، فقال : أطيق أكثر من ذلك ، فقال : « **صم يومًا وأفطر يومًا** »، قال : إنى أطيق أكثر من ذلك ، قال : « **لا أكثر من ذلك هذا صيام داود** » .

وكَبِرَ عبد الله بن عمرو ، وصار يشق عليه أن يصوم يومًا ويترك يومًا ، فقال : ليتنى قبلت رخصة النبى - ﷺ - ، ثم صار يصوم خمسة عشر يومًا سردًا ، ويفطر خمسة عشر يومًا سردًا [١] .

ففى هذا : دليل على أن الإنسان ينبغى له أن يعمل العبادة على وجه مقتصد ، لا غلو ولا تفريط، حتى يتمكن من الاستمرار عليها، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل.

* * *

---

(١) البخارى (١٩٧٦) مسلم (١١٥٩) .

Marfat.com

[١٤٣/٢]وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : جاءَ ثلاثَة رَهْط إلَى بيُوت أزوَاج النَّبى ـ ﷺ ـ ، يَسألُونَ عَنْ عبادَة النبى ـ ﷺ ـ ، فَلمَّا أُخبِرُوا كأنَّهمْ تقَالُّوهَا وَقالُوا: أينَ نَحنُ منَ النبى ـ ﷺ ـ قَدْ غفَرَ لَهُ ما تقدَّمَ منْ ذَنْبه ومَا تأخَّرَ ؟ ، قالَ أحَدُهُمْ : أمَّا أنا فَأُصلِّى اللَّيْلَ أبداً، وقال الآخرُ : وَأنا أصُومُ الدَّهْرَ لا أُفطر ، وَقالَ الآخرُ : وأنا أعتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أتزوَّج أبداً ، فَجاء رسول الله ـ ﷺ ـ إليْهم فقالَ : « أنْتم الَّذين قُلْتُمْ كذَا وكذا ؟ ! أمَا والله إنى لأخْشَاكُمْ لله وأتقاكُمْ لَه لكنِّى أصُومُ وَأُفطِر ، وأُصلِّى وأرْقُدُ ، وأتزوج النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتى فَلَيْسَ منِّى » متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ فى باب الاقتصاد فى العبادة : إن ثلاثة نفر جاءوا إلى بيوت النبى ـ ﷺ ـ يسألون زوجاته عن عمله الذى يعمله فى بيته ، وذلك لأن عمل النبى ـ ﷺ ـ إما ظاهرًا يعرفه الناس كلهم ، كالذى يفعله فى المسجد أو فى السوق أو فى مجتمعاته مع أصحابه ، فهذا ظاهر يعرفه غالب الصحابة الذين فى المدينة ، وإما أن يكون سرًا لا يعرفه إلا مَن فى بيته ، أو مَن كانوا من خدمه مثل عبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك وغيرهما .

فجاء هؤلاء النفر الثلاثة إلى بيوت أزواج النبى ـ ﷺ ـ يسألونهم كيف كانت عبادته فى السر ـ يعنى فى بيته ـ فأُخبروا بذلك ، فكأنهم تقالوها ؛ لأن النبى عليه الصلاة والسلام كان يصوم ويفطر ، وكان يقوم ويرقد ، وكان يتزوج النساء عليه الصلاة والسلام ويتمتع بهن ، فكأنهم تقالوا هذا العمل لأن معهم نشاط ـ رضي الله عنهم ـ على حب الخير ، ولكن النشاط ليس مقياسًا ، المقياس ما جاء به الشرع .

فجاء النبى ـ ﷺ ـ ، فقال : « أنتم قلتم كذا وكذا » ، قالوا : نعم ؛ لأن أحدهم قال : أصلى الليل ولا أرقد ، والثانى قال : أصوم النهار أبدًا ولا أفطر ، والثالث قال : أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا ، فأقروا على أنفسهم بأنهم قالوا ذلك .

ولاشك أن هذا الذى قالوا خلاف الشرع ؛ لأن هذا فيه إشقاقًا على النفس وإتعابًا لها ، يبقى الإنسان لا يرقد أبدًا كل الدهر يصلى ! هذا لا شك أنه مشق على النفس ومتعب لها ، وأنه داعٍ إلى الملل ، وبالتالى إلى كراهة العبادة ؛ لأن الإنسان إذا ملَّ الشئ

[١٤٣/٢] صحيح :رواه البخارى (٥٠٦٣) ، ومسلم (١٤٠١) .

Marfat.com

كرهه .

كذلك الذى قال : أصوم أبدًا ، يبقى صيفًا وشتاء صائمًا ! هذا لا شك أنه مشقة .

والثالث قال : أعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا ، هذا أيضًا يشق على الإنسان ، لاسيما الشباب يشق عليه أن يدع النكاح ، ثم إن التبتل وعدم النكاح منهى عنه ، قال عثمان بن مظعون : كان النبى - ﷺ - ينهانا عن التبتل شديدًا ، ولو أذن لنا لاختصينا(١) .

والمهم أن هذه العبادة التى أرادها هؤلاء - ﷺ - كانت شاقة ، هى خلاف السنة ، ولكن النبى عليه الصلاة والسلام سألهم واستقرهم : هل قالوا ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال: « **أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى** » يعنى مَن رغب عن طريقتى واتخذ عبادة أشد ، فإنه ليس منى .

ففى هذا : دليل على أنه ينبغى للإنسان أن يقتصد فى العبادة ، بل ينبغى له أن يقتصد فى جميع أموره ؛ لأنه إن قصر فاته خير كثير ، وإن شدد فإنه سوف يكل ويعجز ويرجع ولهذا ينبغى للإنسان أن يكون فى أعماله كلها مقتصدًا .

ولهذا جاء فى الحديث « **إن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى** »(٢) والمنبت : الذى مشى ليلاً ونهارًا دائمًا ، هذا لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى ، بل يتعب ظهره ، وبالتالى يتعب ويحسر ويقعد .

فالاقتصاد فى العبادة من سنن النبى - ﷺ - فلا ينبغى لك أيها العبد أن تشق على نفسك ، وامش فى أمورك رويدًا رويدًا ، وكما سبق فى الحديث - الذى قبل - أن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل ، فعليك بالراحة ، لا تقصر ولا تزد ، فإن خير الهدى هدى النبى - ﷺ - ، جعلنى الله وإياكم من متبعى هديه الذى يمشون على طريقته وسنته .

❊ ❊ ❊

[١٤٤/٣] وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النَّبىَّ - ﷺ - قال : « **هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ** » قالَهَا ثلاثاً ، رواه مسلم .

---

(١) البخارى (٥٠٧٤) مسلم (١٤٠٠) .

(٢) البيهقى فى السنن (١/ ٩١) وضعفه الألبانى فى الضعيفة .

[١٤٤/٣] صحيح : رواه مسلم (٢٦٧٠) . الطبرانى فى الكبير (١٠/ ٢١٦) .

Marfat.com

« الْمُتَنَطِّعُونَ » : الْمُتَعَمِّقُونَ الْمُشَدِّدُونَ فى غَيْرِ مَوْضِعِ التَّشْدِيدِ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **هلك المُتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون** » الهلاك : ضد البقاء ، يعنى أنهم تلفوا وخسروا ، والمتنطعون : هم المتشددون فى أمورهم الدينية والدنيوية ، ولهذا جاء فى الحديث : « **لا تشددوا فيُشدد الله عليكم** » (١) .

وانظر إلى قصة بنى إسرائيل حين قتلوا قتيلاً فادَّارءوا فيه وتنازعوا حتى كادت الفتنة أن تسود بينهم ، فقال لهم موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾ [البقرة : ٦٧] . يعنى وتأخذوا جزءًا منها فتضربوا به القتيل ، فيُخبركم مَن الذى قتله ، فقالوا له : أتتخذنا هزوًا ، لو أنهم استسلموا وسلموا لأمر الله وذبحوا أىَّ بقرة كانت ، لحصل مقصودهم ، لكنهم تعنتوا فهلكوا ، قالوا : ادع لنا ربك يُبين لنا ما هى ، ثم قالوا : ادع لنا ربك يُبين لنا ما لونها ، ثم قالوا : ادع لنا ربك يُبين لنا ما هى وما عملها ، وبعد أن شدد عليهم ذبحوها وما كادوا يفعلون .

كذلك أيضًا من التشديد فى العبادة ، أن يشدد الإنسان على نفسه فى الصلاة أو فى الصوم أو فى غير ذلك مما يسّره الله عليه ، فإنه إذا شدد على نفسه فيما يسره الله عليه فهو هالك ، ومن ذلك ما يفعله بعض المرضى ولا سيما فى رمضان حيث يكون الله قد أباح له الفطر وهو مريض ويحتاج إلى الأكل والشرب ، ولكنه يشدد على نفسه فيبقى صائمًا ، فهذا أيضًا نقول : إنه ينطبق عليه الحديث : « **هلك المتنطعون** » .

ومن ذلك ما يفعله بعض الطلبة المجتهدين فى باب التوحيد ، حيث تجدهم إذا مرت بهم آيات صفات الرب عز وجل جعلوا ينقبون عنها ، ويسألون أسئلة ما كلفوا بها ، ولا درج عليها سلف الأمة من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم ، فتجد الواحد ينقب عن أشياء ليست من الأمور التى كلف بها تنطعًا وتشدقًا ، فنحن نقول لهؤلاء : إنه يسعكم ما وسع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ فأمسكوا ، وإن لم يسعكم فلا وسَّع الله عليكم ، وثقوا بأنكم ستقعون فى شدة وفى حرج وفى قلق .

ومثال ذلك أن بعض الناس يقول : إن الله عز وجل له أصابع ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « **إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد**

---

(١) أبو داود (٤٩٠٤) وضعفه الألبانى فى الضعيفة (٣٤٦٨) .

Marfat.com

يصرفه حيث يشاء»[١] فيأتى هذا المتنطع ، فيبحث كم عدد هذه الأصابع ؟ وهل لها أنامل ؟ وكم أناملها ؟ وما أشبه ذلك .

كذلك مثلاً « **ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى الثلث الأخير** »[٢] يقول: كيف يَنْزِل ؟ ولَم ثلث الليل ؟ وثلث الليل يدور على الأرض كلها معنى هذا أنه نازل دائمًا ، وما أشبه ذلك من الكلام الذى لا يؤجرون عليه ، ولا يحمدون ، بل هم إلى الإثم أقرب منهم إلى السلامة ، وهم إلى الذم أقرب منهم إلى المدح .

هذه المسائل التى لم يكلف بها الإنسان ، وهى من مسائل الغيب ، ولم يسأل عنها من هو خير منه ، وأحرص منه على معرفة الله بأسمائه وصفاته ، يجب عليه أن يمسك عنها ؛ وأن يقل : سمعنا وأطعنا وصدقنا وآمنا ، أما أن يبحث أشياء دقيقة ما لها فائدة ، فإن هذا لا شك أنه من التنطع .

ومن ذلك أيضًا ما يفعله بعض الطلبة من إدخال الاحتمالات العقلية فى الدلائل اللفظية ، فتجده يقول : يحتمل كذا ويحتمل كذا حتى تضيع فائدة النص ، وحتى يبقى النص كلها مرجوحًا لا يستفاد منه ، فهذا غلط ، والواجب الأخذ بظاهر النصوص ، وطرح هذه الاحتمالات العقلية ، فإننا لو سلطنا الاحتمالات العقلية على الأدلة اللفظية فى كتاب الله وسنة رسوله- ﷺ - ما بقى لنا حديث واحد أو آية واحدة يستدل بها الإنسان ، ولأورد عليها كل شئ ، والأمور العقلية هذه قد تكون وهميات وخيالات من الشيطان ، يلقيها فى قلب الإنسان حتى يزعزع عقيدته وإيمانه والعياذ بالله .

ومن ذلك أيضًا ما يفعله بعض المتشددين فى الوضوء حيث تجده مثلاً يتوضأ ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا أوسبعًا أو أكثر وهو فى عافية من ذلك ، يذكر أن ابن عباس- رضي الله عنهما - كان يتوضأ ، فإذا وجهة الأرض تحته ، ليس فيها إلا نقط من الماء ، من قلة ما يستعمل من الماء ، وبعض الناس تجده يشدد فى الماء فيشدد الله عليه ، فإنه إذا استرسل مع هذا الوساوس ما كفاه أربع أو خمس ولا ست ولا أكثر من ذلك ، فيسترسل معه الشيطان حتى يخرج عن طوره .

أيضًا فى الاغتسال من الجنابة ، تجد البعض يتعب تعبًا عظيمًا عند الاغتسال فى إدخال الماء فى أذنيه ، وفى إدخال الماء فى منخريه ، وكل هذا داخل فى قول الرسول

---

(١) مسلم (٢٦٥٤) احمد (١٦٨/٢) .

(٢) البخارى (١١٤٥) مسلم (٧٥٨) .

Marfat.com

عليه الصلاة والسلام : « هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون » فكل من شدد على نفسه فى أمر قد وسع الله له فيه ، فإنه يدخل فى هذا الحديث .

* * *

[١٤٥/٤] عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إنَّ الدين يُسْرٌ ، ولَنْ يُشَادَّ الدين أحدٌ إلا غلَبَه ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا وأبشِروا ، واسْتَعِينُوا بالْغَدْوَة والرَّوْحَة وشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَة » رواه البخارى .

وفى رواية له: « سَدِّدُوا وقَارِبُوا واغْدوا ورُوحُوا ، وشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَة ، القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا » .

قوله : « الدِّينُ » هوَ مرْفُوعٌ عَلَى ما لَمْ يُسَمَّ فَاعلُه . ورُوِى مَنْصُوباً ، ورُوِىَ: «لَن يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ » . وقوله ـ ﷺ ـ : « إلا غَلَبَهُ » أىْ : غَلَبه الدِّينُ وعَجزَ ذلكَ الْمُشَادُّ عَنْ مُقَاومة الدِّينِ لكَثْرَة طُرُقِه .

و « الغَدْوَة » : سَيْرُ أوّلِ النَّهَار . و « الرَّوْحَةُ » : آخرُ النَّهار . و « الدَّلْجَةُ »: آخرُ اللَّيْلِ . وهذا استِعَارَةٌ وتَمْثِيلٌ ، ومَعْنَاه : استَعِينُوا عَلَى طاعـة الله عزَّ وجلَّ بالأعْمَال فى وَقْت نَشَاطكُمْ، وفَراغِ قُلُوبكُمْ بحَيْثُ تَسْتَلذُّون العِبَادَةَ ولا تَسأمونَ ، وتَبْلُغُونَ مَقْصُودكَمْ، كَمَا أنَّ الْمُسَافِرَ الْحَاذِقَ يَسير فى هذه الأوْقَاتِ ويَسْتَرِيحُ هُوَ ودَابَّتُه فى غَيْرِهَا، فَيصِلُ الْمَقْصُودَ بِغَيْرِ تَعَبٍ ، واللَّهُ أعلم .

الشرح

ساق المؤلف ـ رحمه الله ـ فى باب القصد فى العبادة حديث أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ » يعنى أن الدين الذى بعث به الله محمداً ـ ﷺ ـ ، والذى يدين به العباد ربهم ويتعبدون له به يسر ، كما قال ـ عز وجل ـ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] . وقال تعالى حين ذكر أمره بالوضوء والغسل من الجنابة والتيمم ـ عند العدم أو المرض ـ قال : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة : ٦] . وقال تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] .

[١٤٥/٤] صحيح : رواه البخارى (٣٩) .

Marfat.com

فالنصوص كلها تدل على أن هذا الدين يسر ، وهو كذلك .

ولو تفكر الإنسان فى العبادات اليومية لوجد الصلاة خمس صلوات ميسرة موزعة فى أوقات ، يتقدمها الطهر ، طهر للبدن ، وطهر للقلب ، فيتوضأ الإنسان عند كل صلاة ، ويقول : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين [١] ، فيطهر بدنه أولاً ثم يطهر قلبه بالتوحيد ثانيًا ، ثم يصلى .

ولو تفكرت أيضًا فى الزكاة ، وهى الركن الثالث من أركان الإسلام ، تجد أنها سهلة ، فأولاً لا تجب إلا فى الأموال النامية ، أو ما فى حكمها ، ولا تجب فى كل مال، بل فى الأموال النامية التى تنمو وتزيد كالتجارة ، أو ما فى حكمها كالذهب والفضة وإن كان لا يزيد ، أما ما يستعمله الإنسان فى بيته ، وفى مركوبه ، فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **ليس على المؤمن فى عبده ولا فرسه صدقة** » [٢] جميع أوانى البيت وفرش البيت والسيارات وغيرها مما يستعمله الإنسان لخاصة نفسه ، فإنه ليس فى زكاة .

ثم الزكاة الواجبة يسيرة جدًا ، فهى ربع العشر ، يعنى واحدًا من أربعين ، وهذا أيضًا يسير ، ثم إذا أديت الزكاة فإنها لن تنقص مالك ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **ما نقصت صدقة من مال** » [٣] بل تجعل فيه البركة وتنميه وتزكيه وتطهره .

وانظر إلى الصوم فهو أيضاً يسير ، فليس كل السنة ولا نصف السنة ولا ربع السنة، بل شهر واحد من اثنى عشر شهرًا ، وفوق ذلك فهو ميسر ، إذا مرضت فأفطر ، إذا سافرت فأفطرت ، إذا كنت لا تستطيع الصوم فى كل دهرك فأطعم عن كل يوم مسكينًا .

والحج أيضًا ميسر ، قال تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ [آل عمران : ٩٧] . ومن لم يستطع إن كان غنيا بماله أناب من يحج عنه ، وإن كان غير غنى بماله ولا بدنه سقط عنه الحج .

والحاصل أن الدين يسر ، يسر فى أصل التشريع ، ويسر فيما إذا طرأ ما يوجب الحاجة إلى التيسير ، قال النبى عليه الصلاة والسلام لعمران بن حصين : « **صل قائمًا** ،

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) البخارى (١٤٦٣) مسلم (٩٨٢) .

(٣) مسلم (٢٥٨٨) الترمذى (٢٠٢٩) .

Marfat.com

فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب »(١) فالدين يسر .

ثم قال النبي ـ ﷺ ـ : « **ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه** » يعني لن يطلب أحد التشدد في الدين إلا غلب وهزم ، وكلَّ وملَّ وتعب ، ثم استحسر فترك ، هذا معنى قوله : «**لن يشاد الدين أحد إلا غلبه** » يعني أنك إذا شددت الدين وطلبت الشدة ، فسوف يغلبك الدين ، وسوف تهلك ، كما قال النبي ـ ﷺ ـ في الحديث السابق : « **هلك المتنطعون**»(٢) .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **فسددوا وقاربوا وأبشروا** » ، سدد : افعل الشئ على وجه السداد والإصابة ، فإن لم يتيسر فقارب ، ولهذا قال : « **وقاربوا** » والواو هنا بمعنى « أو » ، يعني سددوا إن أمكن وإن لم يمكن فالمقاربة « **وأبشروا** » يعني أبشروا أنكم إذا سددتم وأصبتم ، أو قاربتم فأبشروا بالثواب الجزيل والخير والمعونة من الله عز وجل ، وهذا يستعمله النبي عليه الصلاة والسلام كثيرًا حيث يبشر أصحابه بما يسرهم ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يحرص على إدخال السرور على إخوانه ما استطاع بالبشارة والبشاشة وغير ذلك .

ومن ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لما حدث أصحابه بأن الله تعالى يقول يوم القيامة : « **يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج من ذريتك بعث النار ، أو قال: بعثًا إلى النار ، قال : يا رب ، ما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون من بني آدم ، كلهم من أهل النار ، وواحد في الجنة** » عظم ذلك على الصحابة وقالوا : يا رسول الله ، أينا ذلك الواحد ؟ قال : « **أبشروا ؛ فإنكم في أمتين ما كانتا في شئ إلا كثرتاه ، يأجوج ومأجوج** » ثم قال : « **إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، شطر أهل الجنة** » حتى كبَّر الصحابة فرحًا بذلك ، فهنا قال النبي ـ ﷺ ـ «**أبشروا** » (٣) .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يستعمل البشرى لإخوانه ما استطاع ، ولكن أحيانًا يكون الإنذار خيرًا للأخ المسلم ، فقد يكون أخوك المسلم في جانب تفريط في واجب ، أو انتهاك لمحرم فيكون من المصلحة أن تنذره وتخوفه ، فالإنسان ينبغي له أن يستعمل الحكمة ، ولكن يغلب جانب البشرى ، فلو جاءك رجلاً مثلاً ، وقال : إنه أسرف على

---

(١) البخاري (١١١٧) أبو داود (٩٥٢) الترمذي (٣٧٢) .

(٢) مسلم (٢٦٧٠) .

(٣) البخاري (٣٣٤٨) .

عربی، اردو، اسلامی کتب لاہور ریٹ پر
مکتبہ حافظ سعیدیہ
عقب الفلاح بینک شاہ حسین روڈ گجرات
CELL: 0302-6293760

Marfat.com

نفسه ، وفعل معاصٍ كبيرة ، وسأل : هل له من توبة ؟ فينبغى لك أن تقل : نعم أبشر، إذا تبت تاب الله عليك ، فتدخل عليه السرور ، وتدخل عليه الأمل حتى لا ييأس من رحمة الله عز وجل .

الحاصل أن الرسول عليه الصلاة والسلام حثهم أن : « **سددوا ، وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشيء من الدلجة ، والقصد القصد تبلغوا** » ، ومعناه استعينوا فى أطراف النهار ، أوله وآخره وشيء من الليل . « **والقصد القصد تبلغوا** » : هذا يحتمل أن الرسول ـ ﷺ ـ أراد أن يضرب مثلاً للسفر المعنوى بالسفر الحسى ، فإن الإنسان المسافر حسًا ينبغى له أن يكون سيره فى أول النهار ، وفى آخر النهار ، وفى شئ من الليل ؛ لأن ذلك هو الوقت المريح للراحلة والمسافر ، ويحتمل أنه أراد بذلك أن أول النهار وآخره محل التسبيح ، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١، ٤٢] . وكذلك الليل محل القيام .

على كل حال إن الرسول الصلاة والسلام أمرنا ألا نجعل أوقاتنا كلها دأبًا فى العبادة؛ لأن ذلك سيؤدى إلى الملل والاستحسار والتعب والترك فى النهاية .

* * *

[١٤٦/٥] وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: دَخَلَ النبيُّ ـ ﷺ ـ الْمَسْجدَ فَإذاَ حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيتَيْنِ فقالَ :« **مَا هـذا الحَبْلُ** ؟ » قالوا : هذا حَبْلٌ لزَيْنَبَ ، فإذا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ ، فقالَ النبيُّ ـ ﷺ ـ :« **حُلُّوهُ ،لِيُصَلِّ أحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فإذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ** » متفقٌ عليه.

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه دخل المسجد ـ يعنى المسجد النبوى فإذا حبل مربوط بين ساريتين ، أى : بين عمودين ، فقال : « **ما هذا ؟** » قالوا : هذا حبل لزينب ، تربطه ، فإذا تعبت من الصلاة تعلقت به من أجل أن تنشط ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : « **حلوه** » أى : أخروه وأزيلوه ، ثم قال : «**لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ ، فَإِذَا تَعِبَ فَلْيَرْقُدْ** » .

ففى هذا : دليل على أنه لا ينبغى للإنسان أن يتعمق وأن يتنطع فى العبادة وأن يكلف نفسه ما لا تطيق ، وأن يصلى ما دام نشيطًا ، فإذا تعب فليرقد ولينم ؛ لأنه إذا صلى مع

[١٤٦/٥] صحيح : رواه البخارى (١١٥٠) ، ومسلم (٧٨٤) .

Marfat.com

التعب تشوش فكره وسئم ومل وربما كره العبـادة ، وربما ذهب ليدعو لنفسه فإذا به يدعو عليها ، فلو سـجد وأصحابه النعاس ربما أراد أن يقـول : رب اغفر لى ، قال : رب لا تغفر لى ، لأنه نائم ، فلهذا أمر النبى عـليه الصلاة والسلام بحل هذا الحبل ، وأمرنا أن يصلى الإنسان نشاطه ، فإذا تعب فليرقد .

وهذا وإن ورد فى الصلاة فإنه يشمل جميع الأعمال فلا تكلف نفسك ما لا تطيق ، بل عامـل نفسك بالرفـق واللين ، ولا تتعجـل فى الأمور ، فالأمـور ربما تتأخر لحـكمة يريدها الله ـ عز وجل ـ ، ولا تقل : إنى أريد أن أتعـب نفسى ، بل انتظر وأعط نفسك حقها ثم بعد ذلك يحصل لك المقصود .

ومن ذلك أيضًا ما يفعله بعض الطلبة حـيث يطالع فى دروسه وهو نعسان ، فيتعب نفسه ، ولا يحصل شيئًا ؛ لأن الذى يراجع وهو نعسـان لا يستفيد ، وإن ظن أنه يستفيد فإنه لا شيء، ولهذا ينبـغى على الإنسان إذا أصابه النعاس وهو يراجع كتـبًا ـ سواء كتبًا منهجية أو غير ذلك ـ ينبغى له أن يغلق الكتاب ، وأن ينام ويستريح .

وهذا يعم جميع الأوقات حتى ولو بعد صلاة الفجر أو بعد صلاة العصر ، طالما أراد أن يرقد ويستريح فلا حرج ، فكلما أتاك الـنوم فنم ، وكلما صرت نشيطًا فاعمل ﴿ **فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب** ﴾ [الشرح : ٧ ، ٨] . كل الأمور اجعلها بالتيسير إلا ما فرض الله عليك ، فلابد أن يكون فى الوقت المحدد له . وأما الأمور التطوعية فالأمر فيها واسع ، فلا تتعب نفسك فى شئ .

❊ ❊ ❊

[١٤٧/٦] وعن عـائشـة- رضي الله عنها - أن رسـول الله- ﷺ - قـال : « **إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُـمْ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَـلْيَرْقُـدْ حَتَّى يَذْهَـبَ عَنْهُ النَّوْمُ ، فـإِنَّ أَحَدَكم إِذَا صَـلَّى وهُوَ نَاعِسٌ لا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ** » متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن عائشة- رضي الله عنها - أن رسول الله- ﷺ - قال : « **إذا نَعَسَ أحَدُكُـمْ وَهُوَ يُصلى فَلْيَـرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَـنه اليوم** » ، النعاس : هو فترةٌ فى الحواس يكـون نتيجـة غلبة النوم ، فـلا يستطيـع الإنسان معـه أن يتحكم فى حـواسه ، ولذلك أرشد النبى- ﷺ - مـن غلب عليه النعاس وهو يصلى أن يـنصرف من صلاته ،

[١٤٧/٦] صحيح : رواه البخارى (٢١٢) ، ومسلم (٧٨٦) .

Marfat.com

ولا يصلى وهو ناعس ، ثم علل ذلك بقوله : « **فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لا يَدْرِى لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ** » بدل أن يقول : اللهم اغفر لى ذنبى أو ما أذنبت، يذهب يسب نفسه بهذا الذنب الذى أراد أن يستغفر الله منه ، وكذلك ربما أراد أن يسأل الله الجنة فيسأله النار ، وربما أراد أن يسأل الهداية فيسأل ربه الضلالة وهكذا لهذا أمر النبى - ﷺ - أن يرقد .

ومن حكَم ذلك أن الإنسان لنفسه عليه حق ، فإذا أجبر نفسه على فعل العبادة مع المشقة فإنه يكون قد ظلم نفسه ، فأنت يا أخى لا تفرط فتقصر ولا تفرط فتزيد .

* * *

[١٤٨/٧] وعن أبى عبد الله جابر بن سَمُرَةَ - ؓ - قال : كُنْتُ أُصَلِّى مَعَ النبىِّ - ﷺ - الصَّلَوَاتِ ، فَكَانَتْ صَلاتُهُ قَصْداً وخُطْبَتُهُ قَصْداً . رواه مسلم .

قولُهُ :« قَصْداً » : أىْ بَيْنَ الطُّولِ وَالْقِصَرِ .

الشرح

أما حديث جابر بن سمرة - ؓ - ، فقد قال : إنه صلى مع النبى - ﷺ - والظاهر أنه يريد الجمعة ، فكانت صلاته قصدًا وخطبته قصدًا ، والقصد معناه التوسط الذى ليس فيه تخفيف مخل ولا تثقيل ممل ، وقد ثبت عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « **إن طول الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه** »(١) أى : علامة على فقهه ودليل عليه ، والذى يؤخذ من هذين الحديثين أنه لا ينبغى للإنسان أن يحمل نفسه ويشق عليه فى العبادة ، وإنما يأخذ ما يطيق .

* * *

[١٤٩/٨] وعن أبى جُحَيْفَةَ وَهْب بْنِ عبد الله - ؓ - قال : آخَى النَّبى - ﷺ - بيْنَ سَلْمَانَ وأبى الدَّرْدَاء ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاء ، فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاء مُتَبَذِّلَةً، فقال: ما شأنُكِ ؟ قَالَتْ : أخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاء لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فى الدُّنْيَا ، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاء فصنَعَ لَهُ طَعَاماً ، فقَالَ لَهُ : كُلْ فَإِنِّى صَائِمٌ ، قالَ : ما أنا بآكل حَتَّى تَأْكُلَ ،

[١٤٨/٧] صحيح : رواه مسلم (٨٦٦) .

(١) مسلم (٨٦٩) احمد (٤/ ٢٦٣) .

[١٤٩/٨] صحيح : رواه البخارى (٤/ ١٩٦٨) .

Marfat.com

فأكلَ، فلَمَّا كان اللَّيْلُ ذَهبَ أبُو الدَّرْدَاء يَـقُوم فقالَ لَه : نَمْ ، فَنَامَ ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُوم فقالَ لَه : نَمْ ، فلَمَّـا كَانَ من آخر اللَّيْلِ قالَ سَلْمَانُ : قُم الآنَ ، فَصلَّيَـا جَميعاً ، فقالَ لَه سَلْمَانُ : إنَّ لِربك عَلَيْكَ حقّـا ، وإنَّ لنَفْسكَ عَلَيْكَ حقّا ، ولأهْلكَ عَلَيْكَ حقّا، فَأعْط كُلَّ ذِى حَقّ حقَّه، فَأتَى النبىَّ - ﷺ - فَذكَرَ ذلكَ لَه، فقالَ النبىُّ ﷺ: « صَدَقَ سَلْمَان » رواه البخارى.

[١٥٠/٩] وعن أبى محمد عبد الله بن عَمْرو بن العَاص - رضي الله عنهما - قال : أُخْبِرَ النبى - ﷺ - أنّى أقُـول :والله لأصومَنَّ النَّـهارَ ، ولأقُـومَنَّ اللَّيْلَ ، مَـا عشْت ، فَقَالَ رسُـول اللّـه - ﷺ - : « أنْتَ الَّذى تقـول ذلكَ ؟ » ، فَقُلْتُ لَه : قَـدْ قُلْتُه بأبى أنتَ وأُمّى يَا رسول الله،قـال : « فـإنَّكَ لا تَسْتطيع ذلكَ ؛ فَصُمْ وَأفْطر ، وَنَمْ وقُمْ ، وَصُمْ مِـنَ الشَّهْر ثَـلاثَةَ أيَّام ، فإنَّ الحسَنَةَ بعَشْر أمْثَالهـا ، وَذلكَ مثْلُ صيَامِ الدَّهْرِ » قُلت : فَـإنّى أُطيق أفضَلَ مِـنْ ذلكَ قالَ : « فَصمْ يَـوْماً وأفْطر يوْمَـيْن » قُلْت: فَإنّى أُطيق أفْـضَلَ منْ ذلك ، قَالَ : «فَصُمْ يوْمـاً وَأفْطر يوْماً ، فَذلـكَ صيَام دَاودَ - ﷺ - ، وَهُوَ أعْدَلُ الصيَّام » . وفى رواية : «هوَ أفضلُ الـصيام » فَقلْتُ: فَإنى أُطيقُ أفضَلَ منْ ذلكَ ،فقَالَ رسول الله - ﷺ - : « لا أفْضَلَ منْ ذلكَ » وَلأنْ أكُونَ قَبلْتُ الثَّلاثَةَ الأيَّـامِ الَّتى قـال رسول الله - ﷺ - أحَبُّ إلىَّ منْ أهْلى وَمَالى .

وفى روايةٍ : « ألَمْ أُخْبَرْ أنَّك تَصـومُ النَّهَـارَ وتَقُومُ الـلَّيْل ؟ » قلت : بَلَى يَا رَسول الله قال : « فَلا تَفْـعَلْ ، صُمْ وأفطر ، ونَمْ وَقُمْ ، فَـإنَّ لجَسَدكَ عَلَيْكَ حَـقّا ، وَإنَّ لعَيْـنَيْكَ عَلَيْكَ حقّـا ، وَإنَّ لزَوْجكَ عَلَيْكَ حَـقّا ، وَإنَّ لزَوْركَ عَلَيْكَ حَـقّا ، وَإنَّ بحَسْبـكَ أنْ تصُومَ فى كُلّ شَهْر ثَـلاثَةَ أيّامٍ ، فَإنَّ لَكَ بكُلّ حَسَـنَة عَشْرَ أمْثَالـهَا ، فإنَّ ذلكَ صيَامُ الدَّهْر » فَشَدَّدْتُ فَـشُدّدَ عَلَىَّ، قُلْتُ : يا رسول اللّـه ، إنى أجدُ قُوّةً ، قال : « صُمْ صيَامَ نَبىَّ الله دَاودَ وَلا تَزدْ عَلَيْه » قلت : وَمَا كَانَ صيَامُ دَاودَ ؟ قال : « نِصفُ الدَّهْرِ » فكَانَ عَبْدُ اللّهِ يقول بَعْدمَا كَبر : يَا لَيْتَنى قَبلْتُ رُخْصة رسول الله - ﷺ - .

وفى رواية : « وَإنَّ لوَلَدكَ عَلَيْكَ حقّا » وفى رواية : « لا صَامَ مَنْ صَامَ الأبَدَ» ثَلاثاً. وفى روايةٍ : « أحَبُّ الصيَـامِ إلَى الله تَعالَى صيَـامُ دَاوُدَ ، وَأحَبُّ الصَّلاة إلَى

Marfat.com

اللهِ تعالَى صلاةُ داودَ : كانَ ينامُ نصفَ الليلِ ، ويقومُ ثلثَهُ ، وينامُ سدسَهُ ، وكانَ يصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً ، ولا يفرُّ إذا لاقى » .

وفي رواية قال : أنكحني أبي امرأةً ذاتَ حسبٍ ، وكانَ يتعاهدُ كَنَّتَهُ - أي : امرأةَ ولده - فيسألُها عن بعلِها ، فتقولُ لهُ : نعمَ الرجلُ من رجلٍ لم يطأْ لنا فراشاً ولم يُفتِّشْ لنا كنفاً مُنذُ أتيناهُ ، فلمَّا طالَ ذلكَ عليه ذكرَ ذلكَ للنبيِّ ﷺ ، فقالَ : «القني به » فلقيتُهُ بعدَ ذلك فقالَ : « كيفَ تصومُ ؟ » قلتُ : كلَّ يومٍ ، قال : «وكيفَ تختمُ ؟ » قلتُ : كلَّ ليلةٍ ، وذكرَ نحوَ ما سبقَ ، وكانَ يقرأُ على بعضِ أهلِه السُّبُعَ الذي يقرؤهُ ، يعرضُهُ منَ النهارِ ليكونَ أخفَّ عليهِ بالليلِ ، وإذا أرادَ أنْ يتقوَّى أفطرَ أيَّاماً وأحصى وصامَ مثلهنَّ كراهيةَ أنْ يتركَ شيئاً فارقَ عليهِ النبيَّ ﷺ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما رواه عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله أن النبي - ﷺ - آخى بين سلمان وأبي الدرداء - ﵄ جميعًا - آخى بينهما ، أي : عقد بينهما عقد أخوة ، وذلك أن المهاجرين حين قدموا المدينة آخى - ﷺ - بينهم وبين الأنصار ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، فكان المهاجرون في هذا العقد للأنصار بمنزلة ، حتى إنهم كانوا يتوارثون بهذا العقد حتى أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾[الأنفال : ٧٥] .

فجاء سلمان ذات يوم ، ودخل دار أخيه أبي الدرداء - ﵁ - فوجد امرأته أم الدرداء متبذلة ، يعني : ليست عليها ثياب المرأة ذات الزوج ، بل عليها ثياب ليست جميلة فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : إن أخاك أبا الدرداء ليس له شيء من الدنيا ، يعني أنه معرض عن الدنيا وعن الأهل وعن الأكل وعن كل شيء .

ثم إن أبا الدرداء لما جاء صنع لسلمان طعاماً ، فقدمه إليه وقال : كل فإني صائم ، فقال له : كل وأفطر ولا تصم ؛ لأنه علم من حاله بواسطة كلام زوجته أنه يصوم دائمًا، وأنه معرض عن الدنيا وعن الأكل وغيره ، فأكل ثم نام ، فقام ليصلي فقال له سلمان : نم ، فنام ، ثم قام ليصلي ، فقال : نم ، ولما كان في آخر الليل قام سليمان - ﵁ - وصليا جميعًا .

وقوله : صليا جميعًا ، ظاهره أنهما صليا جماعة ، ويحتمل أنهما صليا جميعًا في الزمن وكل يصلي وحده، وهذه المسألة - أعني الصلاة جماعة في صلاة الليل - جائزة ،

Marfat.com

لكن لا تفعل دائمًا ، ولكن تفعل أحيانًا ، فقد صلى - ﷺ - صلاة الليل جماعة مع ابن عباس - ﷺ - (١) ، ومع حذيفة بن اليمان (٢) ، ومع عبد الله بن مسعود (٣) ، ولكن العلماء يقولون : إن هذا يفعل أحيانًا لا دائمًا .

ثم قال له سلمان : « إن لنفسك عليك حقًا ، وإن لأهلك عليك حقًا ، وإن لربك عليك حقًا ، فأعط كل ذى حق حقه » وهذا القول الذى قاله سلمان هو القول الذى قاله النبى عليه الصلاة والسلام لعمرو بن العاص - ﷺ - .

ففى هذا : دليل على أن الإنسان لا ينبغى له أن يكلف نفسه بالصيام والقيام ، وإنما يصلى ويقوم على وجه يحصل به الخير ، ويزول به التعب والمشقة والعناء .

❊ ❊ ❊

[١٥١/١٠] وعن أبى رِبْعِى حَنْظَلَةَ بنِ الرَّبيعِ الأُسَيّدىّ الْكَاتب ـــ أحَد كُتَّاب رسول اللّـه - ﷺ - قال : لَقِيَنى أبو بكْر - ﷺ - فقال : كَيْفَ أنتَ يَاحَنْظَلَةُ ؟ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ !قالَ :سُبْحَانَ اللّه مَا تَقُولُ؟! قُلْتُ:نَكُونُ عِنْدَ رسول اللّه - ﷺ - يُذَكّرُنَا بالْجنَّة وَالنَّار كَأنَّا رأى عَيْنٍ ، فَإذَا خرجْنَا منْ عند رسول اللّه - ﷺ - عَافَسْنَا الأزْوَاجَ وَالأوْلادَ وَالضَّيْعَات نَسينَا كَثيراً ، قال أَبُو بَكْر رضى الله عنه :فَوَاللّه إنَّا لَنَلْقَى مثْلَ هذَا ، فانْطَلَقْتُ أنَا وَأَبُو بكْر حَتَّى دخلْنَا عَلَى رسول اللّه - ﷺ - ، فَقُلْتُ : نافَقَ حَنْظَلَةُ يا رسول اللّـه ! فقالَ رسولُ اللّه - ﷺ - : « **وَمَا ذَاكَ ؟** » قُلْتُ: يا رسول اللّه ، نكُونُ عندَكَ تُذكّرُنَا بالنَّار والْجنَّة كَأنَّا رَأىَ العَيْنِ ، فَإذَا خَرَجْنَا منْ عِنْدَكَ عَافَسْنَا الأزوَاجَ وَالأوْلادَ والضَّيْعَات نَسينَا كَثيراً ، فقال رسولُ اللّـه - ﷺ - : « **وَالَّذى نَفْسى بيَده ، لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عندى وَفى الذّكْر لصَافَحتْكُمُ الملائكَةُ عَلَى فُرشِكُمْ وَفى طُرُقكُمْ ، ولكنْ يا حَنْظَلَةُ سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ** » ثَلاثَ مَرَّات، رواه مسلم .

قولُـهُ : « رِبْعِىٌّ » بِكَسْرِ الرَّاءِ . و « الأسَيّدى » بِضَم الْـهَمْزَة وفَتْحِ السينِ

---

(١) البخارى (١١٢٠) .

(٢) البخارى (١١٣٦) .

(٣) البخارى (١١٣٥) .

[١٥١/١٠] صحيح : رواه مسلم (٢٧٥٠) الترمذى (٢٥١٤) .

Marfat.com

وبَعْدَهَا يَاءٌ مكْسُورةٌ مُشَدَّدَةٌ ، وقَوْلُهُ : « عَافَسْنَا » هُوَ بِالْعَيْنِ وَالسِّينِ الْمُهْمَلَتَيْنِ ، أىْ :عَالجْنَا ولاعَبْنا. و « الضَّيْعَاتُ » : المعايشُ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن حنظلة الكاتب أحد كتاب الوحى لرسول الله ـ ﷺ ـ ، أنه قال : لقينى أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقلت : « نافق حنظلة » يعنى نفسه ، ومعنى نافق : يعنى صار من المنافقين ، قال ذلك ظنًا منه ـ رضي الله عنه ـ أن ما فعله نفاق ، فقال أبو بكر : « **وكذاك كنا إذا كنا عند النبى ـ ﷺ ـ يذكرنا بالجنة والنار حتى كأنَّا رأىَ عين** » يعنى كأنا نرى الجنة والنار رأى عين من قوة اليقي ، حيث يخبرهم بذلك ـ ﷺ ـ، وما أخبر به النبى ـ ﷺ ـ كالمشاهد ، بل قد يكون أعظم ؛ لأنه خبر من أصدق الخلق صلوات الله وسلامه عليه ، وأعلم الخلق بالله .

« **فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات** » ، يعنى : لهونا معهم، ونسينا ما كنا عليه عند النبى ـ ﷺ ـ ، فقال أبو بكر عن نفسه : إنه يصيبه كذلك، ثم ذهبا إلى النبى ـ ﷺ ـ ، فلما وصلا إليه قال حنظلة : نافق حنظلة يا رسول الله ، قال : « **وما ذاك ؟!** » فأخبره بأنهم إذا كانوا عند النبى ـ ﷺ ـ فحدثهم عن الجنة والنار ، أخذهم من اليقين كأنهم يرونها رأى العين ، ولكن إذا خرجوا عافسوا الأهل والأولاد والضيعات وتلهوا بهم نسوا كثيراً .

فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « **والذى نفسى بيده ، لو تكونون على ما تكونون عليه عندى لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم** » أى : من شدة اليقين تصافحكم إكرامًا لكم وتثبيتًا لكم ؛ لأنه كلما زاد يقين العبد ، فإن الله سبحانه وتعالى يثبته ويقويه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد:١٧]، « **ولكن يا حنظلة ، ساعة وساعة ، ساعة وساعة ، ساعة وساعة** » يعنى ساعة للرب عز وجل ، وساعة مع الأهل والأولاد ، وساعة للنفس حتى يعطى الإنسان لنفسه راحتها ، ويعطى ذوى الحقوق حقوقهم .

وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها ، أن الله عز وجل له حق فيعطى حقه عز وجل ، وكذلك للنفس حق فتعطى حقها ، وللأهل حق فيعطون حقوقهم ، وللزوار والضيوف حق فيعطون حقوقهم ، حتى يقوم الإنسان بجميع الحقوق التى عليه وعلى وجه الراحة ، ويتعبد لله عز وجل براحة ؛ لأن الإنسان إذا أثقل على نفسه وشدد عليها مل وتعب ، وأضاع حقوقًا كثيرة .

Marfat.com

وهذا كما يكون فى العبادة وفى حقوق النفس والأهل والضيف يكون كذلك أيضًا فى العلوم ، فإذا طلب الإنسان العلم ورأى فى نفسه مللاً فى مراجعة كتاب ما ، فلينتقل إلى كتاب آخر ، وإذا رأى من نفسه مللاً من دراسة فن معين ، فإنه ينتقل إلى دراسة فن آخر ، وهكذا يريح نفسه ، ويحصل علمًا كثيرًا ، أما إذا أكره نفسه على الشىء حصل له من الملل والتعب ما يجعله يسأم وينصرف ، إلا ما شاء الله ، فإن بعض الناس يكره نفسه على المراجعة والمطالعة والبحث مع التعب ، ثم يأخذ على ذلك ويكون هذا أمرًا دائمًا له، ويكون ديدنًا له ، حتى إنه إذا فقد هذا الشئ ضاق صدره ، والله يؤتى فضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

* * *

[١٥٢/١١] وعن ابن عباس- رضي الله عنهما - قال : بَيْنَمَا النَّبِىُّ- ﷺ - يَخْطُبُ إذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا : أبُو إسْرائِيلَ ، نَذَر أن يَقُومَ فى الشَّمْسِ وَلا يَقْعُدَ ، ولا يَسْتَظِلَّ ولا يَتكَلَّمَ ، ويَصومَ ، فقَالَ النَّبِىُّ- ﷺ - : « **مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ** » رواه البخارى .

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فى باب الاقتصاد فى العبادة هذا الحديث الذى نذر فيه رجلٌ يقال له : أبو إسرائيل ، أن يقوم فى الشمس ولا يقعد ، وأن يصمت ولا يتكلم ، وأن يصوم ، وكان النبى- ﷺ - يخطب فرأى هذا الرجل قائمًا فى الشمس ، فسأل عنه فأخبر عن قصته ، فقال النبى- ﷺ - : « **مروه فليقعد وليستظل وليتكلم وليتم صومه**».

وهذا النذر كان قد تضمن أشياء محبوبة إلى الله عز وجل وأشياء غير محبوبة ، أما المحبوبة إلى الله فهى الصوم ؛ لأن الصوم عبادة ، والنبى- ﷺ - قال : « **من نذر أن يطيع الله فليطعه** »(١) وأما وقوفه قائمًا فى الشمس من غير أن يستظل ، وكونه لا يتكلم فهذا غير محبوب إلى الله عز وجل ، فلهذا أمر النبى- ﷺ - هذا الرجل أن يترك ما نذر .

وليعلم أن النذر أصله مكروه ، بل قال بعض العلماء : إنه محرم ، وإنه لا يجوز

[١٥٢/١١] صحيح : رواه البخارى(٦٧٠٤) . أبو داود (٣٣٠٠) .

(١) البخارى (٦٧٠٠) .

Marfat.com

للإنسان أن ينذر ؛ لأن الإنسان إذا نذر كلف نفسه ما لم يكلفه الله ، ولهذا نهى النبي ـ ﷺ ـ عن النذر ، وقال : « **إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل** » (١) ولكن إذا قدر أن الإنسان نذر فالنذر أقسام : قسم حكمه حكم اليمين ، وقسم آخر نذر معصية ، وقسم ثالث نذر طاعة .

أما الذى حكمه حكم اليمين فهو الذى قصد الإنسان به تأكيد الشئ ، نفيًا أو إثباتًا أو تصديقًا أو تأكيدًا . ومثاله إذا قيل للرجل : أخبرتنا بكذا وكذا ، ولكنك لم تصدق ، فقال : إن كنت كاذبًا فلله على نذر أن أصوم سنة ، فلاشك أن غرضه من ذلك أن يؤكد قوله ليصدقه الناس ، هذا حكمه حكم اليمين ؛ لأنه قصد بذلك تأكيد ما قال ، وكذلك أيضًا إذا قصد الحث مثل أن يقول : إن لم أفعل كذا فلله على نذر أن أصوم سنة ، فهذا أيضًا قصد الحث وأن يفعل ما ذكر ، حكمه حكم اليمين أيضًا ودليل هذا قول النبى ـ ﷺ ـ : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى** » (٢) وهذا نوى اليمين فله ما نوى .

أما القسم الثانى فهو المحرم ، فالمحرم إذا نذره الإنسان يحرم عليه الوفاء به ، مثل أن يقول : لله عليه نذر أن يشرب الخمر ، فهذا نذر محرم فلا يحل له أن يشرب الخمر ، ولكنه عليه كفارة يمين على القول الراجح ، وإن كان بعض العلماء قال : إنه لا شىء عليه؛ لأنه نذر غير منعقد ولكن الصحيح أنه نذر منعقد ، ولكن لا يجوز الوفاء به ، ومثل ذلك أن تقوم المرأة : لله عليها نذر أن تصوم أيام حيضها فهذا حرام ، ولا يجوز أن تصوم أيام الحيض ، وعليها كفارة يمين .

أما القسم الثالث فهو نذر الطاعة ، أن ينذر الإنسان نذر طاعة ، مثل أن يقول : لله على نذر أن أصوم الأيام البيض ، وهى الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، فيلزمه أن يوفى بنذره ، لقول النبى ـ ﷺ ـ : « **من نذر أن يطيع الله فليطعه** » **أو يقول : لله على نذر أن أصلى ركعتين فى الضحى فيلزمه أن يوفى بنذره ؛ لأنه طاعة ، وقد قال النبى ـ ﷺ ـ : « من نذر أن يطيع الله فليطعه »** .

فإن اشتمل نذره على طاعة وغير طاعة ، وجب أن يوفى بالطاعة ، أما غير الطاعة فلا يوفى ، ويكفر كفارة يمين ، مثل قصة هذا الرجل حيث نذر أن يقوم فى الشمس ، والا يستظل والا يتكلم وأن يصوم ، فأمره النبى ـ ﷺ ـ أن يصوم ؛ لأنه طاعة ، ولكنه

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

Marfat.com

قال فى القيام وعدم الاستظلال وعدم الكلام : « **مروه فليستظل ، وليقعد وليتكلم** » وكثير من الناس اليوم إذا استبعد الأمر أو أشفق عليه ينذر ، فمثلاً : إذا مرض له إنسان ، قال: لله على نذر إن شفى الله مريضى لأفعلن كذا وكذا ، فهذا منهى عنه ، إما نهى كراهة أو نهى تحريم ، اسأل الله العافية لمريضك بدون نذر ، لكن لو فرضنا أنه نذر إن شفى الله مريضه أن يفعل كذا وكذا ، فشفاه الله ، وجب عليه أن يوفى بالنذر .

* * *

Marfat.com

١٥ - باب المحافظة على الأعمال

قال اللَّـه تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦] ،وقال تعالى :﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧] ،وقال تعالى : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ [النحل:٩٢] ، وقال تعالى : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر:٩٩] .

وَأَمَّا الأَحَادِيثُ : فَمِنْهَا حَدِيثُ عَائِشَةَ : وَكَانَ أَحَبُّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ صَاحِبُهُ عَلَيْه، وَقَدْ سَبَقَ فِى الْبَابِ قَبْلَهُ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ : باب المحافظة على الأعمال ، يعنى : الأعمال الصالحة .

لما ذكر ـ رحمه الله ـ باب الاقتصاد فى الطاعة ، وأن الإنسان ينبغى له أن يكون متمشيًا على هدى النبى ـ ﷺ ـ أعقبه بهذا الباب الذى فيه المحافظة على الطاعة ، وذلك أن كثيرًا من الناس ربما يكون نشطًا مقبلاً على الخير فيجتهد ، ولكنه بعد ذلك يفتر ثم يتقاعس ويتهاون .

وهذا يجرى كثيرًا للشباب ؛ لأن الشاب يكون عنده اندفاع قوى أو تأخر شديد ، إذ إن غالب تصرفات الشباب إنما تكون مبنية على العاطفة دون التعقل ، فتجد الواحد منهم يندفع ويشتد فى العبادة ، ثم يعجز أو يتكاسل فيتأخر ، ولهذا ينبغى للإنسان كما نبه المؤلف ـ رحمه الله ـ أن يكون مقتصدًا فى الطاعة غير منجرف ، وأن يكون محافظًا عليها؛ لأن المحافظة على الطاعة دليل على الرغبة فيها ، وأحب العلم إلى الله أدومه وإن قل[(١)] ، فإذا حافظ الإنسان على عبادته واستمر عليها كان هذا دليلاً على محبته وعلى رغبته فى الخير .

---

(١) وذلك لما رواه البخارى (١٩٧٠) مسلم (١١٥٦) .

Marfat.com

وقد ذكر المؤلف عدة آيات ، منـها قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧] . أى : ما استمروا عليها ، ولا رعوها ، ولكنهم أهملوها ، وقال تعالى : ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : ١٦] . يعنى : طال عليهم الأمـد ـ أى الزمن ـ بالأعمال فقست قلوبهم وتركـوا الأعمال والعياذ بالله ، فالمـهم أن الإنسان ينبغى له أن يـحافظ على العمل ، وألا يتـكاسل وألا يدعه ، حتى يستمر على ما هو عليه .

وإذا كان هذا فى العـبادة فهو أيضًا فى أمـور العادة ، فينبغى ألا يكـون للإنسان كل ساعة وجـهة ، وكل ساعة له فكر ، بـل يستمر ويبقـى على ما هو عليه ، مـا لم يتبين الخطأ فإن تبـين الخطأ فلا يقر الإنسـان نفسه على خطأ ، لـكن ما دام الأمر لم يتبـين فيه الخطأ فإن بقاءه على ما هو عليه أحسن ، وأدل على ثباته وعلى أنه رجل لا يخطو خطوة إلا عرف أين يضع قدمه وأين ينزع قدمه .

وبعض الناس لا يهتـم بأمور العادة ، فتجد كل يوم لـه فكرة ، وكل يوم له نظر ، هذا يفـوت عليه الوقـت ولا تستقـر نفسه عـلى شىء ، ولهـذا يروى عـن عمـر بن الخطـاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : « من بورك فى شىء فليلزمه » (١) . كلمة عظيمة ، يعنى : إذا بورك لك فى أى شئ كائنًا ما يكون فالزمه ولا تخـرج عنه مرة هنا ومرة هنا ، فيضيع عليك الوقت ولا تبنى شيئًا ، نسأل الله أن يثبتنا وإياكم على الحق ، وأن يجعلنا من دعاة الحق وأنصاره .

* * *

[١٥٣/١] وعـن عمـر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسـول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : **«مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ مِنَ اللَّيْلِ ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلاةِ الْفَجْرِ وَصَلاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»** رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ

(١) ذكره العجلونـى فى كشف الخفاء (٢/ ٣١٥ ، ١٣٢٩) والقارئ فى الأسـرار المرفوعة (٣٣٧) وعزاه إلى ابن ماجه ومن أعثر عليه عند ابن ماجه .

[١٥٣/١] صحيح : رواه مسلم (٧٤٧)، الترمذى (٥٨١) أبو داود (١٣١٣) .

Marfat.com

أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **مَن نَامَ عَنْ حزْبِه منَ اللَّيْلِ ، أَوْ عَنْ شَيءٍ منْهُ فَقَضَاهُ مَا بَيْنَ صَلاةِ الْفَجْرِ وصلاةِ الظُّهْرِ** » يعنى : فكأنما صلاه فى ليلته .

هذا فيه : دليل على أن الإنسان ينبغى له إذا كان يعتاد شيئًا من العبادة أن يحافظ عليها ، ولو بعد ذهاب وقتها .

والحزب : هو الجزء من الشىء ومنه أحزاب القرآن ، ومنه أيضًا الأحزاب من الناس، يعنى : الطوائف منهم ، فإذا كان الإنسان لديه عادة يصليها فى الليل ، ولكنه نام عنها ، أو عن شىء منها فقضاه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، فكأنما صلاه فى ليلته ، ولكن إذا كان يوتر فى الليل فإنه إذا قضاه فى النهار ، لا يوتر ولكنه يشفع الوتر ، أى : يزيده ركعة فإذا كان من عادته أن يوتر بثلاث ركعات فليقض أربعًا ، وإذا كان من عادته أن يوتر بخمس فليقض ستًا ، وإذا كان من عادته أن يوتر بسبع فليقض ثمانيًا ، وهكذا .

ودليل ذلك حديث عائشة ـ ﵂ ـ أن النبى ـ ﷺ ـ كان إذا غالبه نوم أو وجع من الليل صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة(١) ، وفيه تقييد النبى ـ ﷺ ـ القضاء فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، وحيث هناك أحاديث تدل على أن صلاة الفجر لا صلاة بعدها حتى تطلع الشمس ، ولا بعد طلوع الشمس حتى ترتفع قيد رمح فيقيد عموم هذا الحديث ، الذى ذكره المؤلف بخصوص الحديث الذى ذكرناه ، وأن القضاء يكون من بعد ارتفاع الشمس قيد رمح ، وقد يقال بأنه لا يقيد ؛ لأن القضاء متى ذكره الإنسان قضاه لعموم قول النبى ـ ﷺ ـ : « **من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها ، لا كفارة له إلا ذلك** »(٢) .

ويؤخذ من الحديث الذى ذكره المؤلف : أنه ينبغى للإنسان المداومة على فعل الخير ، وألا يدع ما نسيه إذا كان يمكن قضاؤه ، أما ما لا يمكن قضاؤه فإنه إذا نسيه سقط ، مثل سنة دخول المسجد التى تسمى تحية المسجد إذا دخل الإنسان المسجد ونسى وجلس وطالت المدة، فإنه لا يقضيها؛ لأن هذه الصلاة سنة مقيدة بسبب، فإذا تأخرت عنه سقطت سنتها، وهكذا كل ما قيد بسبب فإنه إذا زال سببه لا يقضى إلا أن يكون واجبًا من الواجبات كالصلاة المفروضة، وأما ما قيد بوقت فإنه يقضى إذا فات كالسنن الرواتب إذا نسى الإنسان صلاتها حتى خرج الوقت فإنه يقضيها بعد الوقت ، كما ثبت ذلك عن النبى ـ ﷺ ـ .

---

(١) البخارى (٥٩٧) مسلم (٥٩٤) .

(٢) سبق تخريجه .

Marfat.com

وكذلك لو فات الإنسان صيام ثلاثة أيام من الشهر ـ الأيام البيض ـ فإنه يقضيها بعد ذلك ، وإن كان صيامها واسعًا فتجوز فى أول الشهر وفى وسطه وفى آخره ، لكن الأفضل فى الأيام البيض : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر .

* * *

[٢/ ١٥٤] وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « **يَا عَبْدَ اللَّهِ ، لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ** » متفقٌ عليه.

[٣/ ١٥٥] وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - **إذَا فَاتَتْهُ الصَّلاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وجَعٍ أو غَيْرِه ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَىْ عَشْرَةَ رَكْعَةً** . رواه مسلم.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : « **يَا عَبْدَ الله بن عَمْرو ، لا تَكُنْ مِثْلَ فُلان ، كَانَ يَقُومُ مِنَ الليل فَتَرَكَ قِيامَ اللَّيْلِ** » ساق المؤلف هذا الحديث فى باب الاستقامة على الطاعة ودوامها وأن الإنسان لا يقطعها .

وقد أوصى النبى عليه الصلاة والسلام عبد الله بن عمرو الا يكون مثل فلان ، ويحتمل هذا الإبهام أن يكون من النبى عليه الصلاة والسلام وأن النبى عليه الصلاة والسلام أحب ألا يذكر اسم الرجل ، ويحتمل أنه من عبد الله بن عمرو أبهمه لئلا يطلع عليه الرواة ، ويحتمل أنه من الراوى بعد عبد الله بن عمرو .

وأيًا كان ففيه : دليل على أن المهم من الأمور والقضايا هو القضية نفسها ، دون ذكر الأشخاص ، ولهذا كان من هدى النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه رذا أراد أن ينهى عن شئ فإنه لا يذكر الأشخاص ، وإنما يقول : « **ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا** » (١) وما أشبه ذلك .

وترك اسم الشخص فيه فائدتان عظيمتان : الفائدة الأولى : الستر على هذا الشخص. والثانية : أن هذا الشخص ربما تتغير حاله ، فلا يستحق الحكم الذى يحكم

[٢/ ١٥٤] صحيح : رواه البخارى (١١٥٢) ، ومسلم (١١٥٩) .

[٣/ ١٥٥] صحيح : رواه مسلم (٧٤٦) . البيهقى فى السنن (٢/ ٤٨٥) .

(١) البخارى (٤٥٦) (٧٥٠) (٧٣٠١) ومسلم (١٤٠٠) .

Marfat.com

عليه فى الوقت الحاضر ؛ لأن القلوب بيد الله ، فمثلاً هب أننى رأيت رجلاً على فسق، فإذا ذكرت اسمه فقلت لشخص : لا تكن مثل فلان يسرق أو يزنى أو يشرب الخمر ، فربما تتغير حال هذا الرجل ويستقيم ويعبد الله فلا يستحق الحكم الذى ذكرته من قبل ، فلهذا كان الإبهام فى هذه الأمور أولى وأحسن ، لما فيه من الستر ، ولما فيه من الاحتياط إذا تغيرت حال الشخص .

وفى قوله عليه الصلاة والسلام : « **كان يقوم من الليل فترك قيام الليل** » التحذير من كون الإنسان يعمل العمل الصالح ثم يدعه ، فإن هذا قد ينبئ عن رغبة عن الخير ، وكراهة له ، وهذا خطر عظيم ، وإن كان الإنسان قد يترك الشئ لعذر ، فإذا تركه لعذر فإن كان مما يمكن قضاؤه قضاه ، وإن كان مما لا يمكن قضاؤه فإن الله تعالى يعفو عنه ، وقد ثبت عن النبى ـ ﷺ ـ أن من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحًا [(١)] مقيمًا ، وكذلك إذا تركه لعذر فإنه يقضيه .

ففى حديث عائشة الذى ساقه المؤلف : أن النبى ـ ﷺ ـ كان إذا ترك صلاة الليل من وجع أو غيره ، صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ؛ لأنه ـ ﷺ ـ يوتر بإحدى عشرة ركعة، فإذا قضى الليل ولم يوتر لنوم أو لشبهه فإنه يقضى هذه الصلاة ، لكن لما فات وقت الوتر صار المشروع أن يجعله شفعًا ، وبناء على ذلك فمن كان يوتر بثلاث ونام عن وتره فليصل فى النهار أربعًا ، وإذا كان يوتر بخمس فليصل ستًا ، وإن كان يوتر بسبع فليصل ثمانيًا وإن كان يوتر بتسع فليصل عشرًا ، وإن كان يوتر بإحدى عشرة ركعة فليصل اثنتى عشرة ركعة ، كما كان النبى ـ ﷺ ـ يفعله .

وفى هذا : دليل على أن العبادة المؤقتة إذا فاتت عن وقتها لعذر فإنها تقضى ، أما العبادة المربوطة بسبب فإنه إذا زال سببها لا تقضى ، ومن ذلك سنة الوضوء مثلاً ، إذا توضأ الإنسان فإن من السنة أن يصلى ركعتين ، فإذا نسى ولم يذكر إلا بعد مدة طويلة سقطت عنه ، وكذلك إذا دخل المسجد وجلس ناسيًا ولم يذكر إلا بعد مدة طويلة ، فإن تحية المسجد تسقط عنه ؛ لأن المقرون بسبب لابد أن يكون مواليًا للسبب ، فإن فصل بينهما سقط .

* * *

(١) سبق تخريجه .

Marfat.com

١٦ - باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها

قَالَ اللهُ تـعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر:٧] ، وقـال تعـالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ . إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم:٣،٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران:٣١] ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ ﴾ [الأحزاب:٢١] .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها ، السنة : يراد بهـا سنة الـرسول - ﷺ - ، وهى طريـقتـه التى كان عـليهـا فى عبـاداته وأخـلاقه ومعاملاته ، فهى أقواله - ﷺ - وأفعاله وإقراراته . هذه هى السنة . ويطلق الفقهاء السنة على العمل الذى يترجح فعله على تركـه ، وهو الذى يثاب على فعله ، ولا يُعاقب على تركه .

ولا شك أن الرسـول عليه الصـلاة والسلام بعـثه الله تـعالى بالهـدى ودين الحق . الهدى : هو العلم النافع . ودين الحق : هو العمل الصالح . فلابد من علم ، ولابد من عمل ، ولا يمكن أن يحافظ الإنسان على سنة الرسول - ﷺ - إلا بعد أن يعلمها ، وعليه فيكون الأمر بالمحافظة على السنة أمرًا بالعلم وطلب العلم .

وطلب العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام : فرض عين ، وفرض كفاية ، وسنة .

أما فرض العين : فهو علم ما تتوقف العبادة عليه . يعنى العلم الذى لا يسع المسلم جهله ، مثل العلم بالوضوء ، بالصلاة ، بـالزكاة ، بالصيام ، بالحج ، وما أشبه ذلك . فالذى لا يسع المسلم جهله ، فإن تعلمـه يكون فرض عين . ولهذا مثلاً نوجب على هذا الشخص أن يتعلم أحكام الزكاة ؛ لأنه ذو مال ، ولا نوجب على الآخر أن يتعلم أحكام الزكاة ؛ لأنه ليس ذا مال . كذلك الحج : نوجب على هذا أن يتعلم أحكام الحج ؛ لأنه سوف يحج ، ولا نوجب على الآخر أن يتعلمها ، لأنه ليس بحاج .

أما فرض الكفاية : فهو العلم الذى تُحفظ به الشريعة ، يعنى هو العلم الذى لو تُرك لضاعت الشريعة ، فهذا فرض كفايـة ، إذا قام به من يكفى سقط عن الباقين ، فإذا قدر أن واحدًا فى البلـد قد قام بالواجب فى هذا الأمـر وتعلم ، وصار يفتـى ويدرس ويعلم

Marfat.com

الناس فى هذه الحال صار طلب العلم فى حق غيره سنة ، وهو القسم الأول .

إذن طالب العلم يدور أجره بين أجر السنة ، وأجر فرض الكفاية ، وأجر فرض العين . والمهم أنه لا يمكن أن نحافظ على السنة وآدابها إلا بعد معرفة السنة وآدابها .

ثم ذكر المؤلف آيات من كتاب الله عز وجل ، منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] . هذه الآية يسميها بعض العلماء : آية المحنة ، أى : آية الامتحان ؛ لأن الله تعالى امتحن أقوامًا ادعوا أنهم يحبون الله ، قالوا : نحن نحب الله ، دعوة يسيرة ، لكن على المدعى البينة ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ فمن ادعى محبة الله ، ولا يتبع الرسول عليه الصلاة والسلام فليس صادقًا ، بل هو كاذب ، فعلامة محبة الله سبحانه وتعالى ، أن تتبع رسوله ـ ﷺ ـ .

واعلم أنه بقدر تخلفك عن متابعة الرسول ـ ﷺ ـ يكون نقص محبتك لله ، وما نتيجة متابعة الرسول ـ ﷺ ـ ؟ جاء ذلك فى الآية نفسها : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وهذه الثمرة أن الله يحبك ، لا أن تدعى محبة الله ، فإذا أحبك الله ، فإذا لن يحبك إلا إذا أتيت ما يحب ، فليس الشأن أن يقول الشخص : أن أحب الله ، ولكن الشأن كل الشأن أن يكون الله عز وجل يحبه . نسأل الله عز وجل أن نكون من أحبابه ، وهذا هو الشأن .

وإذا أحب الله الشخص ، يسر الله له أمور دينه ودنياه ، وورد فى الحديث : « **أن الله إذا أحب شخصًا نادى جبريل : إنى أحب فلانًا فأحبه ، فيُحبه جبريل ، ثم يُنادى فى أهل السموات إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيُحبه أهل السموات ، ثم يُوضع له القبول فى الأرض** »(١) فيحبه أهل الأرض ، ويقبلونه ، ويكون إمامًا لهم ، إذًا محبة الله هى الغاية، ولكنها غاية لمن كان متبعًا للرسول ـ ﷺ ـ ، غاية لمن كان يحب الرسول ـ ﷺ ـ.

وذكر المؤلف قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر:٧] . وهذه الآية فى سياق قسمة الفئ ، يعنى المال الذى يؤخذ من الكفار ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ ، يعنى ما أعطاكم من المال فخذوه ولا تردوه ، ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ أى لا تأخذوه .

ولهذا بعث الرسول عليه الصلاة والسلام عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ على الصدقة فى سنة من السنوات ، فلما رجع أعطاه ، فقال : يا رسول الله ، تصدق به على مَن هو

---

(١) البخارى (٧٤٨٥) مسلم (٢٦٣٧) .

Marfat.com

أفقر منى ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : **« ما جاءك من هذا المال ، وأنت غير مُشرف ولا سائل فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك »**(١) فما أعطانا الرسول ـ ﷺ ـ فإننا نأخذه ، وما نهانا عنه فإننا لا نأخذه .

وهذه الآية وإن كانت فى سياق قسمة الفئ ، فإنها كذلك بالنسبة للأحكام الشرعية ، فما أحله النبى ـ ﷺ ـ لنا فإننا نقبله ونعمل به على أنه حلال ، وما نهانا عنه فإننا ننتهى عنه ، ونتركه ولا نتعرض له ، فهى وإ كانت فى سياق الفئ فهى عامة تشمل هذا وهذا.

ثم ذكر أيضًا قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ يعنى بالأسوة القدوة ، والحسنة : ضد السيئة ، والنبى عليه الصلاة والسلام هو أسوتنا وقدوتنا، ولنا فيه أسوة حسنة ، وكل شئ تتأس فيه برسول الله ـ ﷺ ـ فإنه خير وحسن .

ويشمل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ معنيين : المعنى **الأول** : وهو أن كل ما يفعله فهو حسن ، فالتأسى به حسن . **الثانى** : فإننا مأمورون بأن نتأسى به أسوة حسنة ، لا نزيد على ما شرع ، ولا ننقص عنه ؛ لأن الزيادة أو النقص ضد الحسن ، ولكننا مأمورون بأن نتأسى به .

وأخذ العلماء من هذه الآية ، أن أفعال النبى ـ ﷺ ـ حُجة يُحتج بها ويُقتدى به فيها، إلا ما قام الدليل على أنه خاصٌ به ، فما قام الدليل على أنه خاص به فهو مختص به ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] . فما كان من خصائصه فهو من خصائصه .

ومن ذلك أيضًا : **الوصال فى الصوم** ، أى أن يسرد الإنسان صوم يومين بلا فطر ، فإن النبى ـ ﷺ ـ نهى عنه ، قالوا : يا رسول الله إنك تواصل ، يعنى فكيف تنهانا ؟ فقال : **« لستُ كهيئتكم ، إنى أطعم وأسقى »**(٢) ، وفى لفظ : **« إن أبيتُ عند ربى يطعمنى ويسقينى »**(٣) يعنى يطعمه الله ويسقيه بما يمده به من ذكره ، وتعلق قلبه به حتى

---

(١) البخارى (٧١٦٤) مسلم (١٠٤٥) .

(٢) مسلم (١١٠٢) أحمد (٢/١٠٢) .

(٣) أحمد (٢/٢٨١) الدارمى (٢/٨) .

Marfat.com

ينسى الأكل والشرب ، ولا يحس بألم الجوع ، ونحن نعلم الآن أن الرجل لو شُغل بأمر من أمور الدنيا نسى الأكل والشرب ، حتى أن الشعراء يتمثلون بهذا بقولهم لها :

أحــاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتُلهيها عن الزاد

يعنى أن أحاديثها بك إذا قامت تتحدث ألهاها ذلك عن الشراب وعن الزاد .

فالنبى عليه الصلاة والسلام من قوة تعلقـه بربه ، إذا قام من الليل يتهجد ، فإن الله تعالى يُعطيه قوة ، بما يحصل له من الذكـر ، تكفيه عن الأكل والشرب ، أما نحن فلسنا كهيئته ، ولهذا منع الوصال ، وبين أنه من خصائصه - ﷺ - .

❊ ❊ ❊

وقال تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] ،

الشرح

ثم ساق المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيـما ساقه من الآيات الدالة على المحافظة على السنة وآدابها قوله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ هذه الآية لها صلة بما قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء : ٥٩] . فأمر الله تعالى بطاعته ، وبطاعة رسوله وبطاعة أولى الأمر منا .

وأولو الأمر يشـمل العلماء والأمراء ؛ لأن الـعلماء ولاة أمورنا فى بيـان دين الله ، والأمراء ولاة أمورنا فى تنفيذ شريعة اللـه ، ولا يستقيم العلماء إلا بالأمراء ، ولا الأمراء إلا بالعلماء ، فالأمراء عليهم أن يرجعوا إلى العلماء ليستبينوا منهم شريعة الله ، والعلماء عليهم أن ينصحوا الأمراء ، وأن يخوفوهم باللـه ، وأن يعظوهم حتى يُطبقوا شريعة الله فى عباد الله عز وجل .

ثم قال : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يعنى إن اختلفتم فى شئ من الأشياء ، فـليس قول بعضكم حجـة على الآخر ، ولكن هناك حكم الله عز وجل ورسوله ﷺ - فعليكم بالرجوع إلى حكم الـله تعالى وحكم رسوله - ﷺ - أما الرجوع إلى الله، فهو الرجوع إلى كتبه، إلى القرآن العظيم، وأما الرجوع إلى رسول الله ﷺ-، فهو الرجوع إلى سنته - ﷺ - إن كان حيًا بمراجعته شخصيًا ، وإن كان ميتًا فبما صح من

Marfat.com

سنته - ﷺ - ، ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ وهذا حث على الرجـوع إلى الله ورسوله ، وأن الرجوع إلى الله ورسوله من مقتضيات الإيمان .

﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ يعنى أحسن عـاقبة ، فالرجوع إلى الله ورسـوله خير للأمة وأحسن عاقبـة ، مهما ظن الظان أن الرجوع إلى الكتاب والسـنة قد يُعجز الناس ، وقد لا يطيقون ذلك فـهذا ظن خاطئ لا قيمة له ، فبعـض الناس يظنون أن الرجوع إلى الإسلام الذى كان فى صدر هذه الأمة لا يتناسب مـع الوقت الحاضر والعياذ بالله ، ولم يعلم هـؤلاء أن الإسلام حاكم وليـس محكومًا علـيه ، وأن الرسلام لا يتـغير باخـتلاف الأزمان أو الأمـاكن أو الأشخاص ، الإسـلام هو الإسلام ، فإن كـنا نؤمن باللـه واليوم الآخر ، فلنرجع إلى الكتاب والسنة ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ أى أحسن مآلاً وعاقبة .

ثم قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ [النساء : ٦٠] . الاستفهام هذا لتعجب ، يعنى ألا تتعجب من قـوم ، يزعمون أنهم آمنوا بما أُنزل عليك ، وبما أنزل من قبلك ، ولـكنهم لا يريدون التحـاكم إلى الله ورسولـه ، إنما يريدون أن يتحاكـموا إلى الطاغوت ، وهو كل ما خالف شريعة الله .

ومن هؤلاء القوم ما ابتلى الله به المسلمين من بعض الحكام الذين يريدون أن يرجعوا فى الحكم بين الناس إلى قوانين ضالة بعيدة عن الشـريعة ، وضعها فلان وفلان من كفار وملاحدة ، لا يعلمون عن الإسلام شيئًا ، وهم أيضًا فى عصر قد تختلف العصور عنه ، وفى أمة قد تختلف عنها الأمم الأخرى .

لكن مع الأسف فـإن بعض الذين استعمـرهم الكفار من البلاد الإسلامـية ، أخذوا هذه القوانين ، وصاروا يـطبقونها على الشعب الإسـلامى، غير مبالين امتـعاض الشعب منها ، وغيـر مبالين بمخالفتها لـكتاب الله وسنة رسوله ، وهم يزعمـون أنهم آمنوا بالله ورسوله ، كيف ذلك ؟ وهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، أمروا أمـرًا من الله أن يـكفروا بالـطاغوت ، ومـع ذلك يُريدون أن يكـون التحـاكم إلى الطاغوت ، ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ [النساء : ٦٠] . يريد الشيطان أن يُضلهم عـن دين الله ضلالاً بعيـدًا ليس قريبًا ؛ لأن من حكـم غير شريعة الـله قد ضل أعظم الضلال ، وأبعد الضلال .

قال الله عز وجل : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴾ [النساء : ٦١] . أى : إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وهو

Marfat.com

القرآن إلى الرسول وعند ذلك رأيت المنافقين يصدون عنك صدودًا ، ولم يقل : رأيتهم ، لأجل أن يبين أن هؤلاء منافقون ، فأظهر فى موضع الإضمار ، وهذه فائدة ، ولأجل أن يشمل هؤلاء وغيرهم من المنافقين ، فإن المنافق والعياذ بالله إذا دُعى إلى الله ورسوله أعرض وصد .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٢] . يعنى كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة وكشفت عوراتهم واطلع عليها ، ثم جاءوك يحلفون بالله وهم كاذبون : ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ يعنى ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق بين الشريعة وبين القوانين الوضعية ، ولا يمكن أن يكون هناك توفيق بين حكم الله وحكم الطاغوت أبدًا ، حكم الطاغوت لو فُرض أنه وافق حكم الله لكان حكمًا لله لا للطاغوت ، ولهذا ليس فى القوانين الوضعية من المسائل النافعة ، فإنها قد سبق إليها الشرع الإسلامى .

ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ [النساء : ٦٣] . يعنى هؤلاء هم الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، وإن أظهروا للناس أنهم يؤمنون بالله ، ونهم يريدون الإحسان والتوفيق بين الأحكام الشرعية والأحكام القانونية ، هؤلاء هم الذين يعلم الله ما فى قلوبهم ، وماذا أرادوا لأمتهم ، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ، وهذا الأمر بالإعراض عنهم تهديدًا لهم ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ أى قل لهم قولاً بليغًا يصل إلى أنفسهم ليتعظوا به .

ثم قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٦٤] . يعنى : ما أرسلنا الرسل لتُقرأ أقوالهم ويتركون ، بل ما أرسلت الرسل إلا ليطاعوا وإلا فلا فائدة من إرسالهم .

فالرسالة معناها ومقتضاها أن الرسول يطاع ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء : ٦٤] . يعنى لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بما أضمروه فى نفوسهم من الباطل ، جاءوك فاستغفروا الله : يعنى طلبوا من الله المغفرة ، واستغفرت لهم أنت ، لوجدوا الله توابًا رحيمًا ، ولكنهم والعياذ بالله بقوا على نفاقهم ، وعلى عنادهم .

وهذه الآية استدل بها دعاة القبور الذين يدعون القبور ويستغفرونها ، حيث قالوا : لأن الله قال لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ فأنت إذا أذنبت ، فاذهب إلى قبر النبى

Marfat.com

عليه الصلاة والسلام ، واستغفر الله ليستغفر لك الرسول .

ولكن هؤلاء ضلوا ضلالاً بعيداً ؛ لأن الآية صريحة قال : ﴿ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾ ولم يقل : إذا ظلموا أنفسهم جاءوك ، فهى تتحدث عن شىء مضى وانقضى ، يقول : لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بما أحدثوا ، ثم جاءوك فى حياتك ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابًا رحيمًا ، أما بعد موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنه لا يمكن أن يستغفر الرسول ـ ﷺ ـ لأحد ؛ لأنه انقطع عمله كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** »[1] . فعمل النبى ـ ﷺ ـ نفسه بعد موته لا يمكن ، لكنه ـ ﷺ ـ يُكتب له أجر كل ما عملته الأمة ، كل ما علمنا من خير وعمل صالح من فرائض ونوافل ، فإنه يكتب أجره للرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه هو الذى علمنا ، فهذا داخل فى قوله : « **وعلم ينتفع به** » .

الحاصل أنه لا دلالة فى هذه الآية على ما زعمه هؤلاء الداعون لقبر النبى عليه الصلاة والسلام .

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ قوله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ هذه الآية ذكرها الله عز وجل عقب قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهذه الآية فيها إقسام من الله عز وجل بربوبيته لمحمد ـ ﷺ ـ ، الدالة على عنايته به ـ ﷺ ـ عناية خاصة . وذلك لأن الربوبية هنا ربوبية خاصة . ولله عز وجل على خلقه ربوبيتان : ربوبية عامة لكل أحد ، مثل قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ١]. وربوبية خاصة لمن اختصه من عباده مثل هذه الآية : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ . وقد اجتمع النوعان فى قوله تعالى عن سحرة آل فرعون : ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : ١٢١ ، ١٢٢] . فرب العالمين عامة ، ورب موسى وهارون خاصة .

والربوبية الخاصة تقتضى عناية خاصة من الله عز وجل ، فأقسم الله سبحانه وبحمده بروبيته لعبده محمد ـ ﷺ ـ قسمًا مؤكدًا بلا فى قوله : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ ﴾ و ﴿ لا ﴾ هذا يراد بها التوكيد ، ولو قال : فوربك لا يؤمنون لتم الكلام ، ولكنه أتى بلا للتوكيد

---

(١) مسلم (١٦٣١) .

Marfat.com

، كقوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة : ١] . ليس المراد النفى أن الله لا يقسم بيوم القيامة ، بل المراد التوكيد فهى هنا للتوكيد والتنبيه .

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى يجعلونك حكمًا فيما حصل بينهم من النزاع لأن معنى ﴿ شَجَرَ ﴾ أى حصل من النزاع ، وحتى يجعلونك أنت الحكم فيما حصل بينهم من النزاع ، فى أمور الدين ، وفى أمور الدنيا .

ففى أمور الدين : لو تنازع رجلان فى حكم مسألة شرعية فقال أحدهما : هى حرام، وقال الثانى: هى حلال ، فالتحاكم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلا يؤمن أحد منهما أى من المتشاجرين إلا إذا حكَّم رسول الله ـ ﷺ ـ ، ولو تنازع الناس فى أمر دنيوى بينهم ، كما حصل بين الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ وجاره الأنصارى ، حين تحاكما إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فى ماء الوادى ، فحكم بينهما ، فهذا تحاكم فى أمور الدين والدنيا ، المهم أنه لا يؤمن أحد حتى يكون تحاكمه فى أمور الدين والدنيا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ .

ثم إن الإيمان المنفى هنا ، إن كان الإنسان لا يرضى بحكم الرسول ـ ﷺ ـ مطلقًا فهو نفى للإيمان من أصله ؛ لأن مَن لا يرضى بحكم الرسول ـ ﷺ ـ مُطلقًا كافر والعياذ بالله ، خارج عن الإسلام ، وإن كان عدم الرضا بالحكم فى مسألة خاصة ، وعصى فيها، فإنها إن لم تكن مكفرة فإنه لا يكفر ، وقوله عز وجل : ﴿ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ . لو قال قائل : كيف يكون تحكيم الرسول ـ ﷺ ـ بعد موته ؟ فالجواب أن نقول : يكون تحكيمه بعد موته بتحكيم سنته ـ ﷺ ـ ، انتبه فهذه واحدة ﴿ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

الشئ الثانى : ﴿ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ، يعنى أن الإنسان قد يحكم الكتاب والسنة ، ولكن يكون فى قلبه حرج ، يعنى ما يطمئن أو ما يرضى إلا رغمًا عنه ، فلابد من ألا يجد الإنسان فى نفسه حرجًا مما قضى الله ورسوله .

الشئ الثالث : ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أى ينقادوا انقيادًا تامًا ، ليس فيه تأخر ولا تقهقر، فهذه شرورط ثلاثة لا يتم الإيمان إلا بها .

أولاً : تحكيم الرسول ـ ﷺ ـ .

والثانى : ألا يجد الإنسان حرجًا مما قضى به .

والثالث : أن يُسلم تسليمًا تامًا بالغًا .

وبناء على هذا نقول : إن الذين يحكمون القوانين الآن ، ويتركون وراءهم كتاب

Marfat.com

الله وسنة رسـوله ـ ﷺ ـ ما هم بمؤمنين ، ليـسوا بمؤمنين ؛ لقول اللـه تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ ، ولقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[المائدة : ٤٤] وهؤلاء المحكمون للقوانين لا يحكـمونها فى قضية معـينة خالفـوا فيهـا الكتاب والسـنـة ، لهوى أو لظلـم ، ولكنهم استـبدلوا الديـن بهذه القوانين، جعلوا هذا القـانون يحل محل شريعة الله ، وهذا كفر حـتى لو صلوا وصاموا وتصدقوا وحجوا ، فـهم كفار ما داموا عدلوا عن حكم الله ـ وهم يـعلمون بحكم الله ـ إلى هذه القوانين المخالفة له .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ فلا تستغـرب إذا قلنا : إن من استبدل شريعة الـله بغيرها من القوانـين فإنه يكفر ولـو صام وصلى ؛ لأن الكفـر ببعض الكتـاب كفر بالكتـاب كله ، فالشرع لا يتبعض ، إما أن تؤمن به جميعًا ، وإما أن تكفر به جميعًا ، وإذا آمنت ببعض وكفـرت ببعض ، فأنـت كافر بالجـميع ؛ لأن حالك تـقول : إنك لا تؤمن بما يـخالف هواك .

وأما ما خالف هـواك فلا تؤمن به ، هذا هو الكفر ، فأنت بذلـك اتبعت الهوى ، واتخذت هواك إلهًا من دون الله .

فالحاصل أن المسألة خطيرة جدًا ، من أخطر ما يكون بالنسبة لحكام المسلمين اليوم ، فإنهم قد وضعوا قوانين تخالف الشريعـة وهم يعرفون الشريعة ، ولكن وضعوها والعياذ بالله تبعًا لأعداء الله من الكفرة الذين سنـوا هذه القوانين ومشى الناس عليها ، والعجب أنه لقصور علم هؤلاء وضعف دينهم ، أنهـم يعلمون أن واضع القانون هو فلان بن فلان من الكفـار ، فى عصر قـد اختلفت العـصور عنه من مـئات السنين ، ثم هـو فى مكان يختلف عن مكان الأمة الإسلامية ، ثم هو فى شعب يختلف عن الأمة الإسلامية ، ومع ذلك يفرضون هذه القوانين على الأمة الإسلامية ولا يرجعون إلى كتاب الله ولا إلى سنة رسول الله ـ ﷺ ـ فأين الإسـلام ؟ وأين الإيمان ؟ وأين التصديق برسالـة محمد ـ ﷺ ـ وأنه رسول للناس كافة ؟ وأين التصديق بعموم رسالته وأنها عامة فى كل شئ ؟ .

كثير من الجهلة يظنون أن الشريعة خاصة بالعبادة التى بينك وبين الله عز وجل فقط ، أو فى الأحوال الشخصية من نكاح وميراث وما يُشبه ذلك ، وهم أخطئوا فى هذا الظن ، الشريعـة عامة فى كل شئ ، وإذا شئت أن يـتبين لك هذا ، فأسأل مـا هى أطول آية فى كتـاب الله ؟ سيـقال لك : إن أطول آية هـى آية الدَّين ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين.... ﴾[البقرة : ٢٨٢] . كلها فى المعاملات ، فكـيف نقول : إن الشرع الإسلامى

Marfat.com

خاص بالعبادة أو بالأحوال الشخصية ، هذا جهل وضلال ، إن كان عن عمد فهو ضلال واستكبار ، وإن كان عن جهل فهو قصور ويجب أن يتعلم الإنسان ويعرف .

المهم أن الإنسان لا يمكن أن يؤمن إلا بثلاثة شروط : الأول : تحكيم النبى - ﷺ - والثانى : ألا يجد فى صدره حرجًا ولا يضيق صدره بما قضى النبى عليه الصلاة والسلام، والثالث : يسلم تسليمًا ، وينقاد انقيادًا تامًا . فبهذه الشروط الثلاثة يكون مؤمنًا ، وإن لم تتم فإما أن يخرج من الإيمان مُطلقًا ، وإما أن يكون ناقص الإيمان ، والله الموفق .

* * *

وقال تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤] والآياتُ فى البَاب كَثِيرَةٌ .

الشرح

ثم نقل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ في سياق الآيات في باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها قوله تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ مَن يُطع الرسول محمدًا - ﷺ - فقد أطاع الله ، والطاعة : موافقة الأمر ، سواء كان ذلك فى فعل المأمور أو ترك المحظور ، فإذا قيل طاعة ومعصية فالطاعة لفعل المأمور والمعصية لفعل المحذور .

أما إذا قيل طاعة على سبيل الإطلاق ، فإنها تشمل الأوامر والنواهى ، يعنى أن امتثال الأوامر طاعة واجتناب النواهى طاعة ، فالذى يُطيع النبى - ﷺ - فى أمره ونهيه ، أى إذا أمره امتثل وإذا نهاه اجتنب ، فإنه يكون مطيعًا لله عز وجل ، هذا منطوق الآية ومفهومها ، أن مَن يعص الرسول فقد عصى الله .

وفى هذه الآية : دليل على أن ما ثبت فى السنة فإنه كالذى ثبت فى القرآن ، أى أنه من شريعة الله ويجب التمسك به ، ولا يجوز لأحد أن يُفرق بين الكتاب والسنة ، ولقد أخبر النبى عليه الصلاة والسلام مُحذرًا حينما قال : « **لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من عندى فيقول : لا ندرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه** »[1] يعنى أنه يحذر

---

[1] أبو داود (٤٦٠٥) الترمذى (٢٢٦٣) ابن ماجه (١٣) وصححه الألبانى فى المشكاة (١٦٢) .

Marfat.com

من أنه ربما يأتى زمان علـى الناس يقولون : لا نتبع إلا ما فى القـرآن ، أما ما فى السنة فلا نأخذ به .

وهذا أمر قد وقع بالفعل ، فوجد من الملاحـدة من يقول : لا نقبل السنة ، لا نقبل إلا القرآن ، والحقيقة أنهم كذبة ، فإنـهم لم يقبلوا لا السنة ولا القرآن ؛ لأن القرآن يدل على وجوب اتباع السنة ، وإن ما جاء فى السنة كالذى جاء فى القرآن ، لكن هم يموهون على العامة ، ويقولون : إن السنة ما دامت ليـست قرآنًا يُتلى ويتواتر بين المسلمين ، فإن ما فيها قابل للشك ، وقابل للنسيان ، وقابل للوهم ، وما أشبه ذلك .

ثم ذكر المؤلف قـوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] . هذا تحذير من الله عز وجل للذين يخالفون عن أمر الرسول ـ ﷺ ـ يعنى يرغبـون عن أمره فيخالفونه ، ولهذا لم يقـل يخالفون أمره ، وإنما قال : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أى يرغبون عنه فيخالفونـه ، حذرهم من أن تُصيبهم فتنة أو يصيـبهم عذاب أليم ، قال الإمـام أحمد : أتدرى ما الفـتنة ؟ الفتنة الشـرك لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع فى قلبه شئ من الزيغ فيهلك والعياذ بالله .

أى أنه إذا رد شيئًا من كـلام الرسول عليه الصلاة والسلام ، فربمـا يقع فى قلبه شئ من الزيغ فيهلك ، يـهلك ليس هلاكًا بدنيًا ، بل هلاكًا دينيًـا ، والهلاك الدينى أشد من الهلاك البدنى ، الهلاكى البدنى مآل كل حى ، طالت به الحياة أم قصرت ، لكن الهلاك الدينى خسارة فى الدنيا والآخرة والعياذ بالله ، وقوله : ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعنى أنهم يُعاقبون قبل أن تحل بهم الفتنة ، نسأل الله العافية .

ففى هذا : دليل على وجوب قبول أمر النـبى ـ ﷺ ـ ، وأن الذى يُخالف عنه مهدد بهذه العقوبة : ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم نقل ـ رحمه الله تعالى ـ فيمـا ذكره من الآيات التى صدَّر بها باب المحافظة على اتباع السنة وآدابها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ والخطاب هنا للنبى ـ ﷺ ـ أخبره الله عز وجل أنه يهدى إلى صراط مسـتقيم يعنى يدل إليـه ويبينه للناس والصـراط المستقيم بينه الـله فى قوله : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ يعنى الصراط الذى نصـبه الله تعالى لعباده ، وهو شريعـته ، وأضافه الله إلى نفسه ؛ لأنه هو الذى نـصبه ولأنه يوصل إليه ، كما أنه أضافـه فى سورة الفاتحة إلى الذين أنعم الله عليهم ، لأنهم هم الذى يسلكونه .

فالنبى عليه الصلاة والسلام يهدى الناس إلى الصراط ، ويدلهم عليه ، ويهديهم إليه

Marfat.com

ويرغبهم في سلوكه ، ويحذرهم من مخالفته ، وهكذا مَن خلفه من أمته من العلماء الربانيين ، فإنهم يدعون إلي الصراط المُستقيم ، صراط الله ، فإذا قال قائل : ما الجمع بين هذه الآية : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : ٥٦] . فإن هذه الآية نزلت حين اغتم النبى - ﷺ - لعمه أبى طالب، وكان عمه أبو طالب مشركًا ، ولكنه كان يُدافع عنه ، ويرفع مَنْزلته ، ويذب عنه، ويقول فيه المدائح والقصائد العظيمة ، لكن حُرم خير الإسلام والعياذ بالله ، ومات على الكفر فلما حضرته الوفاة ، كان عنده النبى - ﷺ - ورجلان من قريش فكان النبى - ﷺ - يقول له : « **يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله** » فإذا هم أن يقولها ، قال له الرجلان من قريش : أترغب عن ملة عبد المطلب ، يعنى ملة الشرك ، والعياذ بالله ، فكان آخر ما قال إنه على ملة عبد المطلب [1] ، ومات كافرًا .

قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **إنه شفع فيه عند الله فأصبح فى ضحضاح من نار ، وعليه نعلان من نار ، يغلى منهما دماغه** »[2] نعلان فى أسفل بدنه ، يغلى منهما دماغه ، فما بالك بما هو دون الدماغ والعياذ بالله ، قال النبى - ﷺ - : « **نعم هو فى ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان فى الدرك الأسفل من النار** »[3] . يعنى لولا شفاعتى فيه ؛ لأنه ذب عن دين الإسلام ، وحمى النبى - ﷺ - ، لكان فى الدرك الأسفل من النار .

فهنا يقول : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وفى الآية التى ذكرها المؤلف يقول : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ . قال أهل العلم : والجمع بينهما أن الآية التى فيها إثبات الهداية يراد بها هداية الدلالة ، يعنى أنك تدل الخلق ، وليس كل مَن دُلَّ على الصراط اهتدى ، وأما الهداية التى نفى الله عن رسوله عليه الصلاة والسلام حيث قال : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فهى هداية التوفيق ، لا أحد يستطيع أن يوفق أحدًا للحق ، ولو كان أباه ، أو ابنه ، أو عمه ، أو أمه ، أو خاله ، أو جدته أبدًا ، مَن يُضلل الله فلا هادى له .

ولكن علينا أن ندعو عباد الله إلى دين الله ، وأن نُرغبهم فيه ، وأن نُبينه لهم ، ثم إن اهتدوا فلنا ولهم ، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم ، قال الله تعالى : ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ

---

(١) البخارى (١٣٦٠) مسلم (٢٤) .
(٢) البخارى (٦٥٦٤) مسلم (٢١٠) .
(٣) البخارى (٦٢٠٨) مسلم (٢٠٩) .

Marfat.com

آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١ : ٣] لعلك تُهلك نفسك بالهم والغم ، إذا لم يكونوا مؤمنين ، فلا تفعل ، إن الهداية بيد الله ، بل أد ما عليك وقد برئت ذمتك ، ثم ختم المؤلف الآيات بقول الله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٤] . الخطاب لزوجات النبى ـ ﷺ ـ الطاهرات المُطهرات الطيبات ، هؤلاء النسوة هن أطهر زوجات على وجه الأرض منذ خلق آدم .

وقد حاول المنافقون أن يُدنسوا فراش رسول الله ـ ﷺ ـ ، وذلك فى قصة الإفك التى نسجوا خيوطها ورموا بها الصديقة بنت الصديق ـ رضي الله عنهما ـ ، حيث اتهموها بما هى بريئة منه ، فأنزل الله فى براءتها عشر آيات فى كتابه تُتلى إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١١] . فنساء النبى عليه الصلاة والسلام يُتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة ما يُتلى ، يتلوه النبى عليه الصلاة والسلام ، وهن أيضًا يتلونه ، فيقول عز وجل : اذكرن هذا ، اذكرن ما يُتلى فى البيوت ، والتزمن بالسنة ، وقمن بما يجب ، لأن الذى يُتلى فى بيته الكتاب والحكمة ، لاشك أنه قد حصل على خير كثير ، وعلم غزير ، وأنه مسئول عن هذا العلم ، فكل مَن آتاه الله علمًا وحكمة ، فإنه مسئول عنه أكثر ممن جهل ، نسأل الله أن يُوفقنا وإياكم إلى العلم والحكمة . إنه جواد كريم .

* * *

وَأَمَّا الأحاديثُ :

[١/١٥٦] فالأوَّلُ : عَنْ أبى هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **دَعُونى ما تركتُكُم : إنَّمَا أهلَكَ مَنْ كانَ قَبلكُمْ كثرةُ سُؤالهمْ ، واختلافُهُمْ عَلَى أنبيائهمْ ، فَإذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَىْءٍ فاجتَنِبُوهُ ، وَإذَا أمَرْتُكُمْ بِأمْرٍ فَأتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ** » متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **دعونى أو ذرونى ما تركتكم** » قاله النبى عليه الصلاة والسلام ؛ لأن بعض الصحابة من حرصهم على العلم ومعرفة السنة ، كانوا يسألون النبى ـ ﷺ ـ عن أشياء قد لا تكون

[١/١٥٦] صحيح : رواه البخارى (٨٢٨٨) ، ومسلم (١٣٣٧) .

Marfat.com

حرامًا فَتُحَرَّم من أجل مسألتهم ، أو قد لا تكون واجبة ، فتجب من أجل مسألتهم ، فلهذا أمرهم النبى - ﷺ -أن يدعوه ، أن يتركوا ما تركه ما دام لم يأمرهم ولم ينههم ، فليحمدوا الله على العافية .

ثم علل ذلك بقوله : « **فإنما أهلك مَن كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم** » يعنى أن الذين من قبلنا أكثروا المسائل على الأنبياء ، فشدد عليهم كما شددوا على أنفسهم ثم اختلفوا على أنبيائهم أيضًا ، فليتهم لما سألوا فأجيبوا قاموا بما يلزمهم ، ولكنهم اختلفوا على الأنبياء .

والاختلاف على الأنبياء يعنى مخالفتهم ، وهنا مثال جاء به القرآن مصداقًا لقول النبى - ﷺ -هذا ، اختلف بنو إسرائيل فى قتيل قُتل بينهم ، فادعت كل قبيلة أن الأخرى هى التى قتلته ، وادرءوا فيها ، وتنازعوا فيها ، ورفعوا الأمر إلى نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام ، فقال لهم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾[البقرة : ٦٧] . أمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، ويأخذوا عضواً من أعضائها ، ويضربا به القتيل الذى قُتل، فإذا فعلوا ذلك فسيخبرهم عن قاتله الذى قتله .

فقالوا له : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾[البقرة : ٦٧] . المعنى : أتضحك علينا ؟ وما صلة البقرة برجل قُتل ؟ وكيف يحيى القتيل بعد موته ؟ وهذا من جبروت بنى إسرائيل وعنادهم ، ورجوعهم إلى العقول دون النصوص ، هؤلاء رجعوا إلى عقولهم الوهمية دون النص ، ولو أخذوا بالنص لسلموا من هذا : ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [البقرة : ٦٧] . لأن الذى يسخر بالناس جاهل معتد عليهم ، والجهل هنا بمعنى العدوان، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين .

فلما رأوا أنه صادق ، وهو صادق عليه الصلاة والسلام : ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾[البقرة : ٦٨] . لو أنهم أخذوا أى بقرة من السوق وذبحوها لحصل المقصود، لكن تعنتوا ، وتشددوا فشدد الله عليهم : ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر ﴾[البقرة : ٦٨] . لا فارض : يعنى لا طاعن فى السن كبيرة ، ولا بكر يعنى : صغيرة ، ﴿ عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾[البقرة : ٦٨] . أمرهم أن يفعلوا ، وهذا تأكيد للأمر السابق : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾[البقرة : ٦٧].

لكنهم أبوا ، ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ﴾[البقرة : ٦٩] ، عرفنا سنها فأخبرنا ما هو لونها ، ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾ [البقرة:٦٩]. شُدد عليهم مرة ثانية ، لو ذبحوا أى بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك

Marfat.com

لكفى ، لكن تشـددوا فشدد عليهم ، من يجد بـقرة على هذه الصفة صفـراء فاقع لونها تسر الناظرين ، لونها جميل صاف بيّن .

ومع ذلك ما امـتثلوا ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ [البقرة : ٧٠] . يـعنى ما عملها؟ ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ [البقرة : ٧٠ ، ٧١] . ليس فيها عيب : ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ [البقرة : ٧١] . أعوذ بالله من الضلال ، وتحكم بالعقول على النصوص هذا قد جاء بالحق من قبـل ، لكن أهواءهم وعقولهم أنكرت ذلك ﴿ قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧١] . يعنى ما قـاربوا أن يفعلوا ، ولكن بالإلحاح والمساءلات فعلوا .

ثم أخذوا جزءاً منها ، فـضربوا به القتيل فأحياه الله ثم قـال : الذى قتلنى فلان ، وانتهت المشكلة ، المهم أن كثرة السؤال للأنبياء قد تسبب شدة الأمر على الأمة .

ومن ذلك ما وقع للنبى عليه الصلاة والسلام فى قصة الأقرع بن حابس ، الأقرع بن حابس من بنى تمـيم ، قال النبى ـ ﷺ ـ : « **إن الله فـرض عليكم الحج فحـجوا** » فَرْض الحج مرة وما دام لم يطلب منا أن نكرر فيكـفى مرة واحدة ، فقال الأقرع : أفى كل عام يا رسـول الله ؟ فـهذا السـؤال فى غيـر محلـه ، قال : « **لو قـلت نعم لـوجبـت ، ولما استطعـتم، ذرونى ما تركـتكم ، فإنما أهلك مَن قـبلكم ، كثرة مـسائلهم ، واخـتلاف على أنبيائهم** » (١) .

هذا أيضًا من التشديد ، ففى عهد النبى ـ ﷺ ـ لا ينبغى أن يُسأل عن شئ مسكوت عنه ، ولهـذا قال : « **ذرونى مـا تركتم ، فـإنما أهلك الـذين من قبلـكم كثرة مسائـلهم واختـلافهم علـى أنبيـائهم** » . أما فى عـهدنا وبعـد انقطاع الوحى بمـوت النبى ـ ﷺ ـ فاسـأل، اسأل عت كل شئ تحتـاج إليه ؛ لأن الأمر مـستقر الآن وليـس هناك زيادة ولا نقص ، لكن فى عهـد التشريع يمكن أن يزاد ويمكن أن يُنقص ، وبعـض العوام يفهم من قوله تعالى : ﴿ لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١] . وقوله ﷺ : « **ذرونى ما تركـتكم ...** » يفهم مـن ذلك فهمًا خـاطئًا ، فتـجده يفعل الحـرام ، ويترك الواجب ولا يسأل ويـستدل بهذه الأدلة وتلك النـصوص ويُزين له الشيطان ذلـك والعياذ بالله .

فالواجب علـى الإنسان أن يتفقه فى ديـن الله ، قال النبى عليه الـصلاة والسلام :

---

(١) مسلم (١٣٣٧) النسائى (٥/ ١١٠) أحمد (٢/ ٥٠٨) .

Marfat.com

«مَن يُرد الله به خيراً يفقهه فى الدين (١) .

ثم قال- ﷺ - : « وإذا نهيتكم عن شئ فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » فعمم فى النهى وخص فى الأمر .

أما فى النهى فقال : « ما نهيتكم عن شئ فاجتنبوه » ، أى شئ ينهانا عنه الرسول عليه الصلاة والسلام فإننا نتجنبه ، وذلك لأن المنهى عنه متروك ، فالنهى أمر بالترك ، والترك ليس فيه مشقة ، كلُّ إنسان يستطيع أن يترك وليس عليه مشقة ولا شرر ، فما نهانا عنه فإننا نتجنبه ، إلا أن هذا مقيد بالضرورة ، فإذا اضطر الإنسان إلى شئ محرم ، وكان لا يجد سواه ، وتندفع به ضرورته ، فإنه حلال ؛ لقول الله تعالى :﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١١٩] . ولقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ .... ﴾ إلى قوله :﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] .

فيكون قول الرسول- ﷺ - : « ما نهيتكم عن شئ فاجتنبوه » يكون مقيداً بحال الضرورة ، يعنى أنه إذا وجدت ضرورة إلى شئ محرم صار هذا المحرم حلالاً بشرطين :

الشرط الأول : ألا تندفع ضرورته بسواه .

الشرط الثانى : أن يكون مُزيلاً للضرورة . وبهذين القيدين نعرف أنه لا ضرورة إلى دواء محرم ، يعنى لو كان هناك دواء ولكنه حرام ، فإنه لا ضرورة إليه .

فلو قال قائل : أنا أُريد أن أشرب دمًا استشفى به ، كما يدعى بعض الناس أنه إذا شرب من دم الذئب شفى من بعض الأمراض ، نقول : هذا لا يجوز .

أولاً : لكون الإنسان ربما يُشفى من غير هذا المحرم ، إما من الله ، وإما بدعاء ، وإما بقراءة ، وإما بدواء آخر مباح .

وثانيًا : أنه ليس يقينًا إذا تداوى بالدواء يشفى ، فما أكثر الذين يتداوون ولا يُشفون بخلاف مَن كان جائعًا وليس عنده إلا ميتة ، أو لحم خنزير ، أو لحم حمار ، فإنه يجوز أن يؤكل فى هذه الحالة ؛ لأننا نعلم أن ضرورته تندفع بذلك ، بخلاف الدواء .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » ، فهذا يوافق قول الله عز وجل :﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] . يعنى إذا أُمرنا بأمر ، فإننا نأتى منه ما استطعنا وما لا نستطيعه يسقط عنا ، مثلاً أُمرنا بأن نُصلى الفرض

(١) سبق تخريجه .

Marfat.com

قيامًا ، فإذا لم نستطع صلينا جلوسًا، وإذا لم نستطع صلينا على جنب ، كما قال - ﷺ - لعمران بن حصين : « **صل قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[(١)] .

وتأمل قوله : « **إذا أمرتكم بأمر ، فأتوا منه ما استطعتم** » بخلاف النهى ؛ لأن الأمر فعل وإيجاب ، قد يكون شاقًا على النفس ولا يستطيع الإنسان أن يقوم به ، فلهذا قيده بقوله : « **فأتوا منه ما استطعتم** » ، ومع ذلك فإن هذا الأمر مُقيد بقيد آخر ، وهو ألا يوجد مانع يمنع ، فإذا وُجد مانع يمنع ، فهذا يدخل فى قوله : « **فأتوا منه ما استطعتم** » . ولهذا قال العلماء : لا واجب مع عجز ، ولا محرم مع الضرورة ، والشاهد من هذا الحديث قول النبى - ﷺ - : « **ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم** » فإن هذا يدخل فى المحافظة على السنة وآدابها .

وأما ما سكت عنه النبى - ﷺ - ، فهو عفو ، المسكوت عنه معفو عنه ، وهذا من رحمة الله . فالأشياء إما مأمور بها ، أو منهى عنها ، أو مسكوت عنها ، فما سكت عنه الله ورسوله فإنه عفو لا يلزمنا فعله ولا تركه ، والله الموفق .

* * *

[١٥٧/٢] الثَّانى : عَنْ أبى نَجِيحِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ - رضي الله عنه - قال : وَعَظَنَا رسول الله - ﷺ - مَوْعِظَةً بليغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُون ، فقُلْنَا : يارَسولَ الله كأنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا ، قال : « **أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تأمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبشى، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسيرى اخْتِلافاً كثيراً ، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّواجِذ ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ** » رواه أبو داود ، والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

« النَّواجِذُ » بالذالِ المعجمةِ : الأنْيَابُ ، وقيلَ : الأضْرَاسُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله فى باب الأمر بالمحافظة على السنة

---

(١) سبق تخريجه .

[١٥٧/٢] صحيح : رواه أبو داود (٤٦٠٧) ، والترمذى (٢٦٧٦) أحمد (١٢٦/٤ ، ١٢٧) . وصححه الألبانى فى الصحيحة برقم (٩٣٧) .

Marfat.com

وآدابها، عن العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال : « **وَعَظَنَا رسول الله - ﷺ - موعظةً بَليغة وَجِلَتْ منهَا القُلُوبُ ، وذرَفَتْ منهَا العُيونُ** » ، وهذا من دأبه - ﷺ - أنه كان يعظ الناس أحيَانًا علَى وجه راتب ، كما فِى يوم الجمعة ، خطب يوم الجمعة ، وخطب العيدين ، وأحيانًا علـى وجه عارض ، إذا وُجد سبب يقتضى الموعظة ، قام عليه الصلاة والسلام فوعظ الناس .

ومن ذلك موعظته - ﷺ - بعد صلاة الكسوف ، فإنه خطب ووعظ موعظة عظيمة بليغة ، مَن أحب أن يرجع إليها فعليه بكتاب زاد المعاد لابن القيام رحمه الله .

أما هنا فيقول : « **وعظنا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون**». وجلت : يعنى خافت ، وذرفت العيون من البكاء ، فأثرت فيهم تأثيراً بالغًا ، حتى قالوا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ؛ لأن المودّع إذا أراد المغادرة ، فإنه يعظ مَن خلفه بالمواعظ البليغة التى تكون ذكرى لهم فلا ينسونها ، ولهذا تجد الإنسان إذا وعظ عند فراق لسفر أو غيره ، فإن الموعظة تمكث فى قلب الموعوظ ، وتبقى ، لهذا قالوا : كأنها موعظة مودع فأوصنا .

فقال - ﷺ - : « **أوصيكم بتقوى الله** » وهذه الوصية هى التى أوصى بها الله عز وجل عباده ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ** ﴾[النساء : ١٣١] . والتقوى كلمة جامعة من أجمع الكلمات الشرعية ، ومعناها : اتخاذ وقاية من عذاب الله ، أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب الله ، ولا يكون هذا إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهى ، ولا يكون فعل الأوامر واجتناب النواهى إلا بعلم الأوامر والنواهى ، إذًا فلابد من علم ، ولابد من عمل ، فإذا اجتمع للإنسان العلم والعمل ، نال بذلك خشية الله ، وحصلت له التقوى .

فتقوى الله إذن أن يتخذ الإنسان وقاية من عذابه ، بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه ، ولا وصول إلى ذلك إلا بالعلم ، وليس المراد بالعلم أن يكون الإنسان بحراً ، لا . المراد به : العلم بما يتعين عليه من أوامر الله ، والناس يختلفون فى ذلك ، فمثلاً من عنده مال يجب أن يعلم أحكام الزكاة ، ومَن قدر على الحج وجب عليه أن يعلم أحكام الحج ، وغيرهم لا يجب عليهم ، فالعلوم الشرعية فرض كفاية إلا ما تعين على العبد فعله ، فإنّ علمه يكون فرض عين .

قال - ﷺ - : « **أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشيٌ** » . السمع والطاعة يعنى لولى الأمر ، وإن تأمر عليكم عبدٌ حبشى ، سواء كانت

Marfat.com

إمرته عامة كالرئيس الأعلى فى الدولة ، أو خاصة كأمير بلدة ، أو أمير قبيلة وما أشبه ذلك ، وقد أخطأ مَن ظن أن قوله : « **وإن تأمر عليكم عبد حبشى** » ، أن المراد بهم الأمراء الذين دون الولى الأعظم الذى يسميه الفقهاء الإمام الأعظم ؛ لأن الإماة فى الشرع تشمل الإمارة العظمى ، وهى الإمامة وما دونها كإمارة البلدان ، والمقاطعات والقبائل وما أشبه ظلك ، ودليل هذا أن المسلمين منذ تولى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كانوا يسمون الخليفة : أمير المؤمنين ، فيجعلونه أميرًا ، وهذا لا شك فيه ، ثم يسمى أيضًا إمامًا ؛ لأنه السلطان الأعظم ، ويسمى سلطانًا ، لكن الذى عليه الصحابة أنهم يسمونه أمير المؤمنين .

وقوله : « **وإن تأمر عليكم عبد حبشى** » يعنى حتى ولو لم يكن من العرب ، لو كان من الحبشة وتولى وجعل الله له السلطة ، فإن الواجب السمع والطاعة له ؛ لأنه صار أميرًا ، ولو قلنا بعدم السمع والطاعة له ، لأصبح الناس فوضى ، كلٌ يعتدى على الآخر، وكل يضيع حقوق الآخرين ، وقوله : « **السمع والطاعة** » هذا الإطلاق مقيد ، مقيد بما قيده به النبى - ﷺ -حيث قال : « **إنما الطاعة فى المعروف** »[١] ثلاث مرات ، يعنى فيما يقره الشرع ، وأما ما يُنكره الشرع ، فلا طاعة لأحد فيه ، حتى لو كان الأب أو الأم أو الأمير العام أو الخاص ، فإنه لا طاعة له .

فمثلاً لو أمر ولى الأمر بأن لا يُصلى الجنود ، قلنا : لا سمع ولا طاعة ؛ لأن الصلاة فريضة ، فرضها الله على العباد وعليك أنت أيضًا ، أنت أول مَن يُصلى ، وأنت أول مَن تُفرض عليه الصلاة ، فلا سمع ولا طاعة ، لو أمرهم بشىء محرم ، كحلق اللحى مثلاً ، قلنا ، لا سمع ولا طاعة ، نحن لا نطيعك ، نحن نُطيع النبى - ﷺ - الذى قال : « **أعفوا اللحى ، وحفوا الشوارب** »[٢] .

وهكذا كل ما أمر به ولى الأمر ، إذا كان معصية لله ، فإنه لا سمع له ولا طاعة ، يجب أن يُعصى علنا ولا يهتم به ؛ لأن مَن عصى الله وأمر العباد بمعصية الله ، فإنه لا حق له فى السمع والطاعة ، لكن يجب أن يُطاع فى غير هذا ، يعنى ليس معنى ذلك أنه إذا أمر بمعصية تسقط طاعته مطلقًا ، لا ، إنما تسقط طاعته فى هذا الأمر المعين الذى هو معصية لله ، أما ما سوى ذلك ، فإنه تجب طاعته ، وقد ظن بعضُ الناس أنها لا تجب طاعة ولى الأمر إلا فيما أمر الله به ، وهذا خطأ ؛ لأن ما أمر الله به فإنه يجب علينا أن

---

[١] البخارى (٧٢٥٧) مسلم (١٨٤٠) .

[٢] البخارى (٥٨٩٢) مسلم (٢٥٩) .

Marfat.com

ننفذه ، ونفعله ، سواء أمرنا به ولىٌّ أم لا .

فالأحوال ثلاثة : إما أن يكون ما أمر به ولى الأمر مأمورًا به شرعًا ، كما لو أمر بالصلاة مع الجماعة مثلاً ، فهذا يجب امتثاله لأمر الله ورسوله ولأمر ولى الأمر . وإما أن يأمر ولى الأمر بمعصية الله ، من ترك واجب أو فعل محرم ، فهذا لا طاعة له ولا سمع ، وإما أن يأمر الناس بما ليس فيه أمر شرعى ، ولا معصية شرعية ، فهذا تجب طاعته فيه ؛ لأن الله قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] . فطاعة ولى الأمر من غير معصية لله ولرسوله ، والله الموفق .

ثم قال - ﷺ - : « **فإنه مَن يعش منكم ، فسيرى اختلافًا كثيرًا** » يعنى أن مَن سيعيش منكم ويُمد له فى عمره ، فسيرى اختلافًا كثيرًا فى الولاية ، واختلافًا كثيرًا فى الرأى ، واختلافًا كثيرًا فى العمل ، واختلافًا كثيرًا فى حال الناس عمومًا ، وفى حال بعض الأفراد خصوصًا ، وهذا الذى وقع ؛ فإن الصحابة - ﷺ - لم ينقرضوا حتى حصلت الفتن العظيمة منها : قتل عثمان - ﷺ - ، وعلى بن أبى طالب - ﷺ - ، وقبلهما مقتل عمر بن الخطاب - ﷺ - ، وغير ذلك من الفتن المعروفة فى كتب التاريخ.

والذى يجب علينا إزاء هذه الفتن ، أن نُمسك عما شَجَرَ بين الصحابة ، وألا نخوض فيه ، وألا نتكلم فيه ؛ لأنه كما قال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - : هذه دماء طهر الله سوفنا منها ، فيجب أن نطهر ألسنتنا منها ، وصدق - ﷺ - فما فائدة أن ننبش عما جرى بين على بن أبى طالب وعائشة - ﷺ - ، أو بين على ومعاوية من الحروب التى مضت وانقضت ، ذكر هذه الحروب وتذكرها لا يزيدنا إلا ضلالاً ؛ لأننا فى هذه الحال نحقد على بعض الصحابة ، ونغلو فى بعض ، كما فعلت الرافضة حين غلوا فى آل البيت ، فزعموا أنهم يوالون آل البيت ، وإن آل البيت لبرآء من غلوهم .

وأولُ من تبرأ من غلوهم على بن أبى طالب - ﷺ - ، فإن السبئية أتباع عبد الله ابن سبأ ، وهو أول من سن الرفض فى هذه الأمة ، وكان يهوديًا أظهر الإسلام ليُفسد الإسلام كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو العالم الذى سبر حال القوم وعرفها قال : إن عبد الله بن سبأ يهودى دخل فى الإسلام ليفسده ، كما دخل بولس فى دين النصارى ليُفسده ، هذا الرجل - أعنى عبد الله بن سبأ عليه من الله ما تولاه - تظاهر بأنه يُحب آل البيت ، ويدافع عنهم ، ويُدافع عن على بن أبى طالب ، حتى أنه قام بين يدى على بن أبى طالب يقول : أنت الله حقًا - قاتله الله - لكن على بن أبى طالب - ﷺ - أمر بالأخدود - يعنى بالحفر - فحفُرت ، ثم مُلئت حطبًا ، ثم دعا بأتباع هذا

Marfat.com

الرجل فأوقد فيهم النار ، أحرقهم بالنار لأن ذنبهم عظيم والعياذ بالله ، ويُقال : إن عبد الله بن سبأ أفلت منه وهرب إلى مصر ، والله أعلم .

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حينما بلغه الخبر : إن على بن أبى طالب أصاب فى قتلهم؛ لقول النبى ـ ﷺ ـ : « مَن بدّل دينه فاقتلوه » (١) وهؤلاء بدلوا دينهم ولكنه أخطأ فى إحراقهم بالنار ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ قال : « لا تُعذبوا بعذاب الله » (٢) فبلغ ذلك على بن أبى طالب فقال: ويح ابن عباس إنه لبحاس عن الهنات ـ يعنى عن العيب ـ كأنه ـ رضي الله عنه ـ استصوب ما قال عبد الله بن عباس .

المهم أننى أقول : إن مذهب أهل السنة والجماعة أن نسكت عما شجر بين الصحابة فلا نتكلم فيه ، نعرض بقلوبنا وألسنتنا عما جرى بينهم ، ونقول كلهم مجتهدون ، المصيب منهم له أجران ، والمخطئ منهم له أجر واحد ، وتلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما كانوا يفعلون ، لو قرأ إنسان التاريخ حول هذه الأمور لوجد العجب العُجاب ، وجد مَن ينتصر لبنى أمية ويقدح فى على بن أبى طالب وآل النبى ، ووجد مَن يغلو فى على بن أبى طالب وآل النبى ويقدح قدحًا عظيمًا فى بنى أمية لأن التاريخ يخضع للسياسة .

لذا يجب علينا نحن فيما يتعلق بالتاريخ ألا نتعجل فى الحكم ؛ لأن التاريخ يكون فيه كذب ، ويكون فيه هوى ، وتغيير للحقائق ، يُنشر غير ما يكون ويُحذف ما يكون ، كل هذا تبعًا للسياسة ، ولكن على كل حال ما جرى بين الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ يجب علينا أن نكف عنه ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، حتى لا يكن فى قلوبنا غل أحد منهم ، نحبهم كلهم ونسأل الله أن يميتنا على حبهم ، ونقول : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

المهم أن النبى ـ ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق قال : « **وإنه مَن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا** » وهذا هو الذى وقع وكان ، ولكن هل هذه الجملة تنزل على كل زمان ، بمعنى أن كل مَن عاش من الناس فسوف يرى التغير ، أو أن هذا خاص بمن خاطبهم الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ ، نقول : إنه ينطبق على كل زمان ، فالذين عمروا منا يجدون الاختلاف العظيم بين أول حياتهم وآخر حياتهم ، فمن عاش ومُد له فى العمر رأى التغير العظيم فى الناس ، رأى التغير لأنه كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام :

(١) سبق تخريجه .

(٢) البخارى (٦٩٢٢) الترمذى (١٤٥٨) .

Marfat.com

«من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيراً » ، ثم حث النبى - ﷺ - عند هذا الاختلاف على لزوم سنة واحدة فقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضّوا عليها بالنواجذ » .

فالرسول - ﷺ - أمرنا عندما نرى هذا الاختلاف أن نلزم سنته فقوله : « عليكم بسنتي » . يعنى الزموها ، وكلمة : عليكم ، يقول علماء النحو : إنها جاء ومجرور تحول إلى فعل الأمر ، يعنى الزموا سنتى .

وسنته عليه الصلاة والسلام هى : طريقته التى يمشى عليها ، عقيدة ، وخُلقًا ، وعملاً ، وعبادة وغير ذلك ، نلزم سنته ، ونجعل التحاكم إليها ، كما قال الله تعالى : ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما (٦٥)﴾ [النساء : ٦٥] . فسنة النبي عليه الصلاة والسلام هى سبيل النجاة لمن أراد الله نجاته من الخلافات والبدع ، وهى ولله الحمد موجودة فى كتب أهل العلم الذين ألفوا فى السنة، مثل « الصحيحين » للبخارى ومسلم ، والسنن والمسانيد وغيرها مما ألفه أهل العلم، وحفظوا به سنة رسول الله- ﷺ - .

وقوله : « وسنة الخلفاء الراشدين المهديين » والخلفاء جمع خليفة : وهم الذين خلفوا النبى - ﷺ - فى أمته علمًا وعملاً ودعوةً وجهادًا وسياسةً ، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى- ﷺ - وألحقنا بهم فى جنات النعيم ـ هؤلاء الخلفاء الأربعة ومَن بعدهم من خلفاء الأمة ، الذين خلفوا النبى- ﷺ - فى أمته ، هم الذين أمرنا باتباع سنتهم ، ولكن ليُعلم أن سنة هؤلاء الخلفاء تأتى بعد سنة الرسول عليه الصلاة والسلام،فلو تعارضت سنة خليفة من الخلفاء مع سنة محمد- ﷺ - ، فإن الحكم لسنة محمد- ﷺ - لا لغيرها ، لأنها ـ أعنى سنة الخلفاء ـ تابعة لسنة النبى- ﷺ - .أقول هذا ؛ لأنه قد جرى نقاش بين طالبين من طلبة العلم فى صلاة التراويح ، أحدهما يقول : السنة أن تكون ثلاثًا وعشرين ركعة ، والثانى يقول : السنة أن تكون ثلاث عشرة ركعة ، أو إحدى عشرة ركعة ، فقال الأول للثانى : هذه سنة الخليفة عمر بن الخطاب أنها ثلاثًا وعشرين ، وقد أُمرنا باتباع الخلفاء الراشدين ، يُريد أن يُعارض بهذا سنة الرسول- ﷺ - ، فقال الآخر : سنة النبى- ﷺ - مقدمة ، هذا إن صح عن عمر أنها ثلاث وعشرون ، مع أن الذى صحَّ عن عمر بأصح إسناد رواه مالك فى الموطأ أنه أمر تميمًا الدارى وأبيَّ بن كعب أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة[1] لا

---

(١) مالك فى الموطأ الصلاة فى رمضان (٤) .

Marfat.com

بثلاث وعشرين هذا الذى صح عنه ـ رضي الله عنه ـ (١) على كل حال لا يمكن أن نُعارض سنة الرسول عليه الصلاة والسلام بسنة أحد من الناس، لا الخلفاء ولا غيرهم، وما خالف سنة رسول ﷺ من أقوال الخلفاء ، فإنه يُعتذر عنه ولا يُحتج بـه ، ولا يُجعل حجة علـى سنة الرسـول ـ ﷺ ـ .

المهم أن سنة الخلفاء تأتى بعد سنة الرسول ـ ﷺ ـ ، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر !! هذا وهما أبو بكر وعمر ، فكيف بمن عارض قول الرسول ـ ﷺ ـ بقول مَنْ دون أبى بكر وعمر بمراحل .

يوجد بعض الناس إذا قيل له : هذه هى السنة قال : لكن قال العالم الفلانى كذا وكذا ، من المقلدين المتعصبين ، لكن مَن احتج بقول عالم وهو لا يدرى عن السنة فهذا لا بأس به ؛ لأن التقليد لمن لا يعلم بنفسه جائز ولا بأس به .

ثم قال النبى ـ ﷺ ـ : « **تمسكوا بها** » أى تمسكوا بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين ، و« **عضوا عليها بالنواجذ** » ، والنواجذ : أقصى الأضراس ، وهو كناية عن شدة التمسك، فإذا تمسك الإنسان بيديه بالشئ وعَض عليه بأقصى أسنانه ، فإنه يكون ذلك أشد تمسكًا مما لو أمسكه بيد واحدة ، أو بيدين بدون عض ، فهذا يدل على أن النبى ـ ﷺ ـ أمرنا أن نتمسك أشد التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده عليه الصلاة والسلام .

ثم قال النبى ـ ﷺ ـ بعد أن أمر باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وحث على التمسك بها ، والعض عليها بالنواجذ قال : « **وإياكم ومُحدثات الأمور** » إياكم ومُحدثات الأمور ، يعنى أحذركم من مُحدثات الأمور ، أى من الأمور المُحدثة ، وهذه الإضافة من باب إضافة الصفة إلى موصوفها ، والأمور المحدثة يعنى بها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : المحدثات فى دين الله ، وذلك لأن الأصل فيما يدين به الإنسان ربه ، ويتقرب به إليه ، الأصل فيها المنع والتحريم ، حتى يقوم دليل على أنه مشروع .

ولهذا أنكر الله عز وجل على مَن يحللون ويُحرمون بأهوائهم فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل : ١١٦] . وأنكر على مَن شرع فى دينه ما لم يأذن به فقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] ، وقال : ﴿ قُلْ

(١) انظر تفصيل الأمر فى المجموع (٣٨/٤ ، ٣٩) .

Marfat.com

آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] .

أما الأمور العادية وأمور الدنيا ، فهذه لا يُنكر على محدثاتها إلا إذا كان قد نُص على تحريمه ، أو كان داخلاً فى قاعدة عامة تدل على التحريم ، فمثلاً السيارات والدبابات وما أشبهها ، لا نقول : إن هذه مُحدثة لم توجد فى عهد الرسول- ﷺ - ، فلا يجوز استعمالها ؛ لأن هذه من الأمور الدنيوية ، الثياب وأنواعها ، لا نقول لا تلبس إلا ما كان يلبسه الصحابة ، البس ما شئت مما أحل الله لك ؛ لأن الأصل الحل ، إلا ما نص الشرع على تحريمه ، كتحريم الحرير والذهب على الرجال ، وتحريم ما فيه الصورة وما أشبه ذلك .

فقوله صلوات الله وسلامه عليه : « **إياكم ومُحدثات الأمور** » يعنى فى دين الله ، وفيما يتعبد به الإنسان لربه ، ثم قال : « **فإن كل بدعة ضلالة** » يعنى أن كل بدعة فى دين الله فهى ضلالة ، وإن ظن صاحبها أنها خير ، وأنها هدى ، فإنها ضلالة لا تزيد من الله إلا بُعدًا .

وقوله صلوات الله وسلامه عليه : « **كل بدعة ضلالة** » يشمل ما كان مبتدعًا فى أصله، وما كان مُبتدعًا فى وصفه ، فمثلاً لو أن أحدًا أراد أن يذكر الله بأذكار معينة بصفتها أو عددها ، بدون سنة ثابتة عن رسول الله- ﷺ - ، فإننا ننكر عليه ولا ننكر أصل الذكر ، ولكن ننكر ترتيبه على صفة معينة بدون دليل ، فإن قال قائل : ما تقولون فى قوله عمر- رضي الله عنه - حين أمر أبى بن كعب وتميمًا الدارى- رضي الله عنهما - أن يقوما بالناس فى رمضان فى تراويحهم ، وأن يجتمع الناس على إمام واحد بعد أن كانوا أوزاعًا ، فخرج ذات ليلة والناس خلف إمامهم ، فقال : نعمت البدعة هذه[(١)] ، فأثنى عليها ووصفها بأنها بدعة ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « **كلُ بدعة ضلالة** » .

قلنا : إن هذه البدعة ليس بدعة مبتدأة ، لكنها بدعة نسبية ، وذلك لأن النبى عليه الصلاة والسلام صلى بأصحابه ثلاث ليال أو أربع ليال فى رمضان ، يقوم بهم ، ثم تخلَّف فى الثالثة أو الرابعة ، وقال : « **إنى خشيت أن تُفرض عليكم** »[(٢)] فصار الاجتماع على إمام واحد فى قيام رمضان سنة سنها النبى- ﷺ - ، ولكن تركها خوفًا من أن تُفرض علينا .

---

(١) البخارى (٢٠١٠) .

(٢) البخارى (٢٠١٢) مسلم (٧٦١) .

Marfat.com

ثم بقيت الحال على ما هو عليه ، يُصلى الرجلان والثلاثة والواحد على حدة فى خلافة أبى بكر وفى أول خلافة عمر ، ثم جمع الناس على إمام واحد فصار هذا الجمع بدعة بالنسبة لتركه فى آخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفى عهد أبى بكر ، وفى أول خلافة عمر ، فهذه بدعة نسبية وإن شئت فقل إنها بدعةٌ إضافية ، يعنى بالنسبة لترك الناس لها هذه المدة آخر حياة الرسول - ﷺ - ، وخلافة أبى بكر وأول خلافة عمر ، ثم إنه بعد ذلك استأنف هذه الصلاة ، وإلا فلا شك أن قول الرسول - ﷺ - : « كل بدعة ضلالة » عام ، وهو صادر من أفصح الخلق وأنصح الخلق عليه الصلاة والسلام وهو كلام واضح ، كل بدعة مهما استحسنها مبتدعها ، فإنها ضلالة والله الموفق .

* * *

[٥/ ١٦٠] **الْخامسُ** : عَنْ أبى عَبد اللّه النُّعْمَان بْن بَشير - رضي الله عنهما - ، قال: سَمِعْتُ رسول اللّه - ﷺ - يقولُ : « **لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ ، أوْ لَيُخَالِفَنَّ اللّهُ بَيْنَ وُجُوهِكُمْ** » متفقٌ عليه .

وفى رواية لمسلم : كانَ رسولُ اللّه - ﷺ - يُسَوِّى صُفُوفَنَا حَتَّى كأنَّمَا يُسَوِّى بهَا الْقدَاحَ، حَتَّى إذَا رَأى أنَّا قَدْ عَقَلْنَا عَنْهُ ، ثُمَّ خَرَجَ يَوماً ، فقامَ حَتَّى كَادَ أنْ يُكَبِّرَ، فَرَأى رَجُلاً بَادياً صَدْرُهُ فَقَالَ : « **عِبَادَ اللّه ، لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ ،أوْ لَيُخَالِفَنَّ اللّه بَيْنَ وُجُوهِكُمْ** » .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - ، أن النبى - ﷺ - قال : « **لتسون صفوفكم ، أو ليُخالفن الله بين وجوهكم** » .

الجملة الأولى : مؤكدة بثلاثة مؤكدات ، بالقسم المقدر ، واللام « **لتسون** » ونون التوكيد ، « **أوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بَيْنَ وُجُوهِكُمْ** » يعنى : إن لم تُسَوَّ الصفوف ، خالف الله بين وجوهكم ، وهذه الجملة أيضًا مؤكدة بثلاثة مؤكدات : بالقسم ، واللام ، والنون .

واختلف العلماء - رحمهم الله - فى معنى مخالفة الوجه . فقال بعضهم : إن المعنى أن الله يخالف بين وجوههم مخالفة حسية ، بحيث يلوى الرقبة ، حتى يكون وجه هذا

[٥/ ١٦٠] صحيح : رواه البخارى (٧١٧) ، ومسلم (٤٣٦) وابو داود (٦٦٣) الترمذى (٢٢٧) أحمد (٤/ ٢٧١ ، ٢٧٢) .

Marfat.com

مخالف لوجه هذا ، والله على كل شيء قدير ، فهو عز وجل قلب بعض بني آدم قردة ، قال لهم : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ فكانوا قردة ، فهو قادر على أن يلوى رقبة إنسان حتى يكون وجهه من عنده ظهره ، وهذه عقوبة حسية .

وقال بعض العلماء : بل المراد بالمخالفة المخالفة المعنوية ، يعني مخالفة القلوب ؛ لأن القلب له اتجاه ، فإذا اتفقت القلوب على وجهة واحدة حصل فى هذا الخير الكثير ، وإذا اختلفت تفرقت الأمة . فالمراد بالمخالفة مخالفة القلوب ، وهذا التفسير أصح ؛ لأنه قد ورد فى بعض الألفاظ : « أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بَيْنَ قُلُوبِكُم » .

وعلى هذا فيكون المراد بقوله : « أَوْ لَيُخَالِفَنَّ الله بَيْنَ وُجُوهِكُم » أى : بين وجهات نظركم ، وذلك باختلاف القلوب ، وعلى كل حال ففى هذا دليل على وجوب تسوية الصفوف ، وأنه يجب على المأمومين أن تسوَّى صفوفهم ، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك ، فقد عرضوا أنفسهم لعقوبة الله والعياذ بالله .

وهذا القول ـ أعنى وجوب تسوية الصف ـ هو الصحيح ، والواجب على الأئمة أن ينظروا فى الصف ، فإذا وجدوا فيه اعوجاجًا أو تقدمًا أو تأخرًا ، نبهوا على ذلك ، وكان النبى ـ ﷺ ـ أحيانًا يمشى على الصفوف يسويها بيده الكريمة عليه الصلاة والسلام من أول الصف لآخره [(١)] ، ولما كثر الناس فى زمن الخلفاء أمر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلاً يسوى الصفوف إذا أقيمت الصلاة ، فإذا جاء وقال : إنها قد استوت كبر للصلاة ، وكذلك فعل عثمان ـ رضي الله عنه ـ ، كان قد وكل رجلاً يسوى صفوف الناس ، فإذا جاء وقال قد استوت كبر . وهذا يدل على اعتناء النبى ـ ﷺ ـ والخلفاء الراشدين بتسوية الصف .

ولكن ـ مع الأسف ـ الآن تجد المأمومين لا يبالون بالتسوية ، يتقدم إنسان ويتأخر إنسان ولا يبالى ، وربما يكون مستويًا مع أخيه فى أول الركعة ، ثم عند السجود يحصل من الاندفاع تقدم أو تأخر ، ولا يساوون الصف فى الركعة الثانية ، بل يبقون على ما هم عليه ، وهذا خطأ ، فالمهم أنه يجب تسوية الصف .

فإذا قال قائل : إذا كان هناك إمام ومأموم فقط ، فهل يتقدم الإمام قليلاً أو يساوى المأموم ؟ الجواب : أنه يساوى المأموم ؛ لأنه إذا كان إمام ومأموم ، فالصف واحد لا يمكن أن يكون الإمام خلفه المأموم وحده ، بل هما صف واحد ، والصف الواحد يسوى فيه ، خلافًا لما قاله بعض أهل العلم : إنه يتقدم الإمام قليلاً ؛ لأن هذا لا دليل عليه ،

(١) مسلم (٤٣٢) ابن ماجه (٩٧٦) .

Marfat.com

بل الدليل على خلافه ، وهو أن يُسَوَّى بين الإمام والمأموم إذا كانا اثنين [١] .

ثم قال : في رواية : **كان النبي - ﷺ - يسوى صفوفنا كأنما يسوى بها القداح** [٢] ، والقداح : هي ريشُ السهم ، وكانوا يسوونها تمامًا ، بحيث لا يتقدم شئ على شئ مثل مشط البندق ، يكون مستويًا ، فكان يسوى الصفوف كأنما يسوى بها القداح ، « **حتى إذا رأى أنا قد عقلنا عنه** » يعنى فهمنا وعرفنا أن التسوية لابد منها ، خرج ذات يوم فرأى رجلاً باديًا صدره ، فقال : « **عباد الله ، لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم** » فدل هذا على سبب قول الرسول - ﷺ - : « **لتسون صفوفكم** » ؛ لأن سببه أنه رأى رجلاً باديًا صدره فقط ، يعنى ظاهرًا صدره قليلاً من على الصف ، فدل ذلك على أن من هدى النبى - ﷺ - ، أنه يتفقد الصف ، وأنه يتوعد من يتقدم على الصف بهذا الوعيد : « **لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم** » .

فعلينا أن نبين هذه المسألة لأئمة المساجد وكذلك للمأمومين حتى ينتبهوا لهذا الأمر الخطير ويعتنوا بشأن تسوية الصف .

* * *

[١٦١/٦] **السَّادسُ** : عن أبى موسى - رضي الله عنه - قال : احتَرق بَيْتٌ بالْمَدينَة علَى أهْله من اللَّيْلِ ، فَلَمَّا حُدِّث رسول اللَّه - ﷺ - بِشَأْنِهِمْ قال : « **إنَّ هذه النَّار عَدُوٌّ لَكُمْ ، فَإِذَا نِمتُمْ فَأَطفِئُوهَا عَنْكُمْ** » متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف فى باب الحث على اتباع السنة وآدابها هذا الحديث الذى وقع فى عهد النبي - ﷺ - ، أن قومًا احترق عليهم بيتهم فى الليل ، فبلغ ذلك النبى - ﷺ - فقال : « **إِنَّ هَذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ ، فَإِذَا نِمتُمْ فأطفِئُوهَا عَنكُمْ** » .

هذه النار التى خلقها الله عز وجل وأنشأ شجرتها ، امتنَّ الله بها على عباده ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ** ﴾ [الواقعة : ٧١ ، ٧٢] ، والجواب : بل أنت يا ربنا الذى أنشأتها ﴿ **نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ** ﴾ [الواقعة : ٧٣] . تذكرة يتذكر الإنسان بها جهنم ، فإن هذه النار جزء

---

(١) انظر المجموع (٤/٢٩٨) .

(٢) مسلم (٤٣٦) أبو داود (٦٦٥) أحمد (٤/٢٧٢) .

[١٦١/٦] صحيح رواه البخارى (٦٢٩٤) ، ومسلم (٢٠١٦) .

Marfat.com

من ستين جزءًا من نار جهنم(١) ، كل نار الدنيا الشديدة الحرارة ، والخفيفة ، كلها جزء من ستين جزءًا من نار جهنم ، أعاذنى الله وإياكم منها .

وجعلها الله تذكرة حتى إن بعض السلف كان إذا هم بمعصية ذهب إلى النار ووضع أصبعه عليها ، يعنى يقول لنفسه : اذكرى هذه الحرارة حتى لا تتجرأ نفسه على المعصية التى هى سبب لدخول النار . نسأل الله العافية .

ومع هذا يقول تعالى : ﴿ وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ يعنى : جعلناها متاعًا للمسافرين وغيرهم من المحتاجين إليها ، يتمتعون بها ، ويستدفئون بها فى الشتاء ، ويسخنون بها مياههم ، ويطبخون عليها أطعمتهم ، ففيها فوائد ومنافع ، ولكن قد تكون مضرة كما قال النبى ـ ﷺ ـ فى هذا الحديث : « إنَّ هَذه النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ » فهى عدو إذا لم يحسن الإنسان ضبطها وقيدها ، وصارت عدوًا إذا فرَّط فيها أو تعدى ، فرط فيها بأن لم يبعد ما تكون سببًا لاشتعاله ، أو تعدى فيها بأن أوقدها حول ما يشتعل سريعًا كالبنْزِين والغاز ، وما أشبه ذلك فإنها تكون عدوًا للإنسان .

وفى هذا : دليل على أن الإنسان ينبغى أن يتخذ الاحتياط فى الأمور التى يُخشى شرها ، ولهذا أمر الإنسان عند النوم أن يطفئ النار ولا يقول : هذه سهلة ، أنا آمن من ذلك ، ربما يظن هذا الظن ولكن يحدث ما لا يخطر على باله .

ومن ذلك أيضًا صمامات الغاز التى حدثت فى عصرنا الحاضر ، فصمامات الغاز ، يجب على الإنسان أن يتفقدها ؛ لئلا يكون فيها شئ من التسريب فتملأ الجو من الغاز ، فإذا أشعل النار احترق المكان كلُّه .

ومن ذلك أيضًا أفياش الكهرباء ، ينبغى على الإنسان أن يكون حريصًا منها ومتفقدًا لها ، وأن يكون الذى يركبها شخصًا عارفًا مهندسًا حتى لا تركب على وجه الخطأ فيحصل بذلك الاحتراق ، إما احتراقًا كليًا للبيت كله أو لجزء منه .

المهم أن الإنسان يجب عليه الاحتراز من كل ما يخشى ضرره .

وإذا كان هذا فى نار الدنيا ، فكذلك يجب أن يحترس مما يكون سببًا لعذاب النار فى الآخرة ، من أسباب المعاصى ، ووسائلها ، وذرائعها ، ولهذا قال أهل العلم ـ رحمهم الله ـ : إن الوسائل لها أحكام المقاصد ، وإن الذرائع يجب أن تسد إذا كانت ذريعة إلى محرم ، خشية من الوقوع فى الهلاك .

---

(١) انظر البخارى (٣٢٦٥) الترمذى (٢٥٨٩) .

Marfat.com

[١٦٢/٧] السَّابع : عَنْهُ قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إنَّ مَثَل مَا بَعَثَنى اللّه به من الهُدَى والعِلْم كَمَثَلِ غَيْث أَصَابَ أرْضاً فكَانَتْ منْهَا طَائفَةٌ طَيبَةٌ ، قَبلَت المَاءَ فَأنبَتَت الكَلأَ والعُشْبَ الكَثير ، وكَان منْهَا أجَادبُ أمْسَكَت المَاءَ ، فَنَفَعَ اللّهُ بها النَّاسَ فَشَربُوا منهَا وَسقَوْا وزَرَعُوا ، وأصَابَ طَائفَةٌ منْهَا أُخْرَى ، إنّمَا هى قيعَانٌ لا تُمسكُ مَاءً ولا تُنْبتُ كَلأً ، فَذلكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فى دين اللّه ، ونَفَعه بمَا بَعَثَنى اللّهُ به ، فَعلمَ وعَلَّمَ ، ومَثَلُ مَنْ لم يَرْفَعْ بذلكَ رَأساً ، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّه الَّذى أُرْسلْتُ به » متفقٌ عليه

« فَقُهَ » بِضم القَافِ على المَشْهُورِ ، وقيلَ : بكَسْرِهَا ، أىْ : صَارَ فَقيهاً .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبى موسى الأشعرى - ﷺ - فى هذا المثل الذى ضربه النبى - ﷺ - : « **مَثَلُ مَا بَعَثَنى اللّهُ به من الهُدَى والعلم كَمَثَلِ غَيْث أَصَابَ أرْضًا** » الغيث : يعنى المطر ، فكانت هذه الأرض ثلاثة أقسام : قسم رياض ، قبلت الماء ، وأنبتت العشب الكثير والزرع ، فانتفع الناس بها ، وقسم آخر قيعان : أمسكت الماء وانتفع الناس به ، فاستقوا منه ورووا منه ، والقسم الثالث أرض سبخة : ابتلعت الماء ولم تنبت الكلأ .

فهكذا الناس بالنسبة لما بعث الله به النبى - ﷺ - من العلم والهدى ، منهم من فقه فى دين الله ، فعلم وعلم ، وانتفع الناس بعلمه ، وانتفع هو بعلمه ، وهذا كمثل الأرض التى أنبتت العشب والكلأ فأكل الناس منها ، وأكلت منها مواشيه .

والقسم الثانى : فى قوم حملوا الهدى ، ولكن لم يفقهوا فى هذا الهدى شيئًا ، بمعنى أنهم كانوا رواةً للعلم والحديث ، لكن ليس عندهم فقه ، فهؤلاء مثلهم مثل الأرض التى حفظت الماء ، واستقى الناس منه ، وشربوا منه ، لكن الأرض نفسها لم تنبت شيئًا ؛ لأن هؤلاء يروون أحاديث وينقولنها ، ولكن ليس عندهم فيها فقه وفهم .

والقسم الثالث : من لم يرفع بما جاء به النبى - ﷺ - من العلم والهدى رأسًا ، وأعرض عنه ، ولم يبال به ، فهذا لم ينتفع بما جاء به النبى عليه الصلاة والسلام ، ولم ينفع غيره ، فمثله كمثل الأرض التى ابتلعت الماء ولم تنبت شيئًا .

[١٦٢/٧] صحيح : رواه البخارى (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) . أحمد (٣٩٩/٤) .

Marfat.com

وفى هذا الحديث : دليل على أن من فقه فى دين الله ، وعلم من سنة رسول الله ـ ﷺ ـ ما يعمل فإنه خير الأقسام ؛ لأنه علم وفقه لينتفع وينفع الناس ، ويليه من علم ولكن لم يفقه ، يعنى روى الحديث وحمله لكن لم يفقه منه شيئًا ، وإنما هو راوية فقط ، هذا يأتى فى المرتبة الثانية فى الفضل بالنسبة لأهل العلم والإيمان . والقسم الثالث: لا خير فيه ، رجل أصابه ما أصابه من العلم والهدى الذى جاء به النبى عليه الصلاة والسلام ، لكنه لم يرفع به رأسًا ، ولم ينتفع به ، ولم يعلمه الناس ، فكان ـ والعياذ بالله ـ كمثل الأرض السبخة التى ابتلعت الماء ولم تنبت شيئًا للناس ، ولم يبق الماء على سطحها حتى ينتفع الناس به .

وفى هذا الحديث : دليل على حسن تعليم الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك بضرب الأمثال ؛ لأن ضرب الأمثال الحسية يقرب المعانى العقلية ، أى : ما يدرك بالعقل يقربه ما يدرك بالحس ، وهذا مشاهد فإن كثيرًا من الناس لا يفهم فإذا ضربت له مثلاً محسوسًا فهم وانتفع ، ولهذ قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم : ٥٨] . فضرب الأمثال من أحسن طرق التعليم ووسائله .

* * *

[١٦٣/٨] الثَّامنُ : عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : **«مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فيهَا ، وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا وَأَنَا آخذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ منْ يَدَيَّ»** رواه مسلم .

« الْجَنَادبُ » : نَحوُ الجرَاد وَالْفرَاشِ ، هذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ الَّذى يَقَعُ فى النَّار .
و«الْحُجَزُ» : جَمْعُ حُجْزَةٍ ، وَهِىَ مَعْقِدُ الإزَار والسَّرَاويل .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ ، فيما نقله عن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كمثل رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا** » أراد النبى عليه الصلاة والسلام بهذا المثل أن يبين حاله مع أمته عليه الصلاة والسلام ، وذكر أن هذه الحال كحال رجل فى برية ، أوقد نارًا ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها . الجنادب : نوع من الجراد ، أما الفراش فمعروف . « **يقعن فيها** » ؛ لأن هذه هى عادة الفراش والجنادب والحشرات الصغيرة ، إذا

[١٦٣/٨] صحيح : رواه مسلم (٢٢٨٥) . أحمد (٣/٣٩٢) .

Marfat.com

أوقد إنسان نارًا فى البر فإنها تأوى إلى هذا الضوء . قال : « أنا آخذ بحجزكم » يعنى لأمنعكم من الوقوع فيها ، ولكنكم تفلتون من يدى .

ففى هذا : دليل على حرص النبى - ﷺ - على حماية أمته من النار ، وأنه يأخذ بحجزها ويشدها حتى لا تقع فى هذه النار ، ولكننا نفلت من ذلك ونأبى إلا الورود ، نسأل الله أن يعاملنا بعفوه .

فالإنسان ينبغى له أن ينقاد لسنة النبى - ﷺ - ، وأن يكون لها طوعًا ؛ لأن الرسول - ﷺ - إنما يدل على الخير واتقاء الشر ، كالذى يأخذ بحجزة غيره ، يأخذ بها حتى لا يقع في النار ؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كما وصفه الله في كتابه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] . صلوات الله وسلامه عليه .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه ينبغى للإنسان ، بل يجب أن يتبع سنة الرسول - ﷺ - فى كل ما أمر به ، وفى كل ما نهى عنه ، وفى كل ما فعله ، وفى كل ما تركه يلتزم بذلك ، ويعتقد أنه الإمام المتبوع ، لكن من المعلوم أن من الشريعة : ما هو واجب يأثم الإنسان بتركه ، وما هو محرم يأثم بفعله ، ومنها ما هو مستحب أن فعله فهو خير وأجر، وإن تركه فلا إثم عليه . وكذلك من الشريعة ما هو مكروه كراهة تنزيه ، إن تركه الإنسان فهو خير له ، وإن فعله فلا حرج عليه ، لكن المهم أن تلتزم بالسنة عمومًا ، وأن تعتقد أن إمامك ومتبوعك هو محمد - ﷺ - ، وأنه ليس هناك سبيل إلى النجاة إلا باتباعه ، والسير فى طريقه ، والتمسك بهديه .

ومن فوائد هذا الحديث : بيان عظم حق النبى - ﷺ - على أمته ، وأنه كان لا يألو جهدًا فى منعها وصدها عن كل ما يضرها فى دينها ودنياها .

وبناءً على ذلك ، فإذا رأيت نهى النبى - ﷺ - عن شيء ، فاعلم أن فعله شرٌّ ولا تقل : هل هو للكراهة أم هو للتحريم ، اترك ما نهى عنه ، سواء كان للكراهة أو للتحريم ، ولا تعرض نفسك للمساءلة ؛ لأن الأصل فى نهى الرسول - ﷺ - أنه للتحريم ، إلا إذا قام دليل على أنه للكراهة التنزيهية .

وكذلك إذا أمر بشيء فلا تقل : هذا واجب أو غير واجب ، افعل ما أمر به فهو خير لك ، إن كان واجبًا فقد أبرات ذمتك ، وحصلت على الأجر ، وإن كان مستحبًا فقد حصلت على الأجر ، وكنت متبعًا تمام الاتباع للرسول - ﷺ - ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم اتباعه ظاهرًا وباطنًا .

Marfat.com

[٩/ ١٦٤] التَّاسعُ : عَنْهُ أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ ، أَمَرَ بِلَعْقِ الأصَابِعِ وَالصَّحْفَةِ وَقَالَ : « إنَّكُم لا تدْرُونَ فى أيِّها البَرَكَةُ » رواه مسلم .

وفى رواية لَهُ : « إذَا وَقَعتْ لُقْمَةُ أحَدكُمْ ، فَليأخُذْهَا فَلْيُمطْ مَا كَانَ بهَا منْ أذى ، ولْيَأكُلْهَا ، وَلا يَدعْهَا للشَّيْطَان ، وَلا يَمْسَحْ يدَهُ بالمنْديل حتَّى يَلعَقَ أصَابعهُ ؛ فَإنَّهُ لا يَدْرِى فى أىِّ طَعَامه البَرَكَةُ » .

وفى رواية له : « إنَّ الشَّيْطَانَ يَحضُرُ أحَدَكُمْ عنْدَ كُل شَىْء منْ شأنه حتَّى يَحْضُرَهُ عنْدَ طَعَامه ، فَإذا سَقَطَتْ منْ أحَدكُمْ اللُّقْمَةُ فَليُمطْ مَا كَانَ بِهَا منْ أذى ، فَلْيَأكُلْهَا ، وَلا يَدعْهَا للشَّيْطَانِ » .

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن جابر بن عبد الله ـ ﷺ ـ عن النبى ـ ﷺ ـ فى آداب من آداب الأكل ، منها : أن الإنسان إذا فرغ من أكله فإنه يلعق الصحفة ويلعق أصابعه ، يعنى يلحسها حتى لا يبقى فيها أثر الطعام ، فإنكم لا تدرون فى أى طعامكم البركة ، فهذان أدبان :

الأول : لعق الصحفة ، والثانى : لعق الأصابع ، والنبى عليه الصلاة والسلام لا يأمر أمته بشئ إلا وفيه الخير والبركة .

ولهذا قال الأطباء : إن فى لعق الأصابع من بعد الطعام فائدة وهو تيسير الهضم ؛ لأن الأنامل هذه فيها مادة تفرزها عند اللعق بعد الطعام تيسير الهضم ، ونحن نقول : هذا من باب معرفة حكمة الشرع فيما يأمر به ، وإلا فالأصل أننا نلعقها امتثالاً لأمر النبى ـ ﷺ ـ ، وكثير من الناس لا يفهمون هذه السنة ، تجده ينتهى من الطعام وحافته التى حوله كلها طعام ، تجده أيضًا يذهب ويغسل دون أن يلعق أصابعه ، والنبى عليه الصلاة والسلام نهى أن يمسح يديه بالمنديل حتى يلعق أصابعه وينظفها من الطعام ، ثم بعد ذلك يمسح بالمنديل ، ثم بعد ذلك يغسلها إذا شاء .

كذلك أيضًا من آداب الأكل : أن الإنسان إذا سقطت لقمة على الأرض فإنه لا يدعها ؛ لأن الشيطان يحضر للإنسان فى جميع شئونه ، كل شئونك من أكل ، وشرب، وجماع ، أى شئ يحضر الشيطان ، فإذا لم تسم الله عند الأكل شاركك فى الأكل ،

[٩/ ١٦٤] صحيح : رواه مسلم (٢٠٣٣) ابن ماجه (٣٢٧٩) .

Marfat.com

وصار يأكل معك ، ولهذا تنزَع البركة من الطعام إذا لم يسم عليه ، وإذا سميت الله على الطعام ، ثم سقطت اللقمة يعنى طاحت من يدك فإن الشيطان يأخذها ، ولكن لا يأخذها ونحن ننظر ؛ لأن هذا شئ غيبى لا نشاهده ، ولكننا علمناه بخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام يأخذها الشيطان فيأكلها ، وإن بقيت أمامنا حسًا ، لكنه يأكلها غيبًا ، هذه من الأمور الغيبية التى يجب أن نصدق بها .

ولكن رسول الله ـ ﷺ ـ دلنا على الخير فقال : « **فليأخذها وليمط ما بها من أذى ، وليأكلها ، ولا يدعها للشيطان** » خذها وأمط ما بها من أذى من تراب أو عيدان أو غير ذلك ثم كلها ولا تدعها للشيطان ، والإنسان إذا فعل هذا امتثالاً لأمر النبى ـ ﷺ ـ وتواضعًا لله عز وجل وحرمانًا للشيطان من أكلها ، حصل على هذه الفوائد الثلاث الامتثال لأمر النبى ـ ﷺ ـ ، والتواضع ، وحرمان الشيطان من أكلها . هذه فوائد ثلاث ومع ذلك فإن أكثر الناس إذا سقطت اللقمة على السفرة أو على سماط نظيف تركها وهذا خلاف السنة .

وفى هذا الحديث من الفوائد : أنه لا ينبغى للإنسان أن يأكل طعامًا فيه أذى ؛ لأن نفسك عندك أمانة ، لا تأكل شيئًا فيه أذى ، من عيدان أو شوك أو ما أشبه ذلك ، وعليه فإننا تذكر الذين يأكلون السمك أن يحتاطوا لأنفسهم ؛ لأن السمك لها عظام دقيقة مثل الإبر ، إذا لم يحترز الإنسان منها ، فربما تدخل إلى بطنه وتجرح معدته أو أمعاءه وهو لا يشعر .

* * *

[١٠/ ١٦٥] العَاشرُ : عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : قَامَ فينَا رسولُ الله ـ ﷺ ـ بمَوعظَة فقال : «**يَاأيُّها النَّاسُ ، إنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إلَى الله تعالى حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً** ﴿ كما بدأْنَا أوَّلَ خلْقٍ نُّعيدُهُ وعْدًا علَيْنَا إنَّا كُنَّا فَاعلينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ، **ألا وإنَّ أوَّلَ الخَلائق يُكْسَى يوْمَ القيَامَة إبْرَاهيمُ** ـ ﷺ ـ ، **ألا وَإنَّهُ سيُجَاءُ برجَال منْ أُمَّتى ، فيُؤْخَذُ بهم ذَاتَ الشِّمال؛ فَأقُولُ : يَارَبِّ أصْحَابى ؛ فيُقَالُ : إنَّكَ لا تَدْرى مَا أحْدثُوا بعْدَكَ ، فَأقُولُ كَما قَالَ العَبْدُ الصَّالحُ** : ﴿ وكُنتُ عليْهمْ شهيدًا مَا دُمْتُ فيهمْ ﴾ إلَى قوله: ﴿العَزيزُ الْحَكيمُ ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨] **فيُقَالُ لى : إنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أعْقَابهمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ** » متفقٌ عليه .

[١٠/ ١٦٥] صحيح : رواه البخارى (٤٦٢٥) ، ومسلم (٢٨٦٠) .

Marfat.com

« غُرْلاً » أيْ : غَيْرَ مَخْتُونِينَ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن ابن عباس - ﷺ - قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ خطيبًا : وكان من عادة النبي - ﷺ - بل من هدى النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان يخطب أصحابه الخطب الراتبة والخطب العارضة .

أما الخطب الراتبة : فمثل خطبة الجمعة ، خطبة العيد ، خطبة الاستسقاء ، خطبة الكسوف ، هذه خطبٌ راتبة ، كلّما وُجد سببها خطب عليه الصلاة والسلام ، فى الجمعة يخطب خطبتين قبل الصلاة ، وفى العيد خطبة واحدة بعد الصلاة ، وكذلك فى الاستسقاء ، وفى الكسوف خطبة واحدة بعد الصلاة .

أما الخطب العارضة : فإنها تكون إذا وجد سبب عارض فيقوم النبى عليه الصلاة والسلام خطيبًا يخطب الناس .

فمن ذلك : أن رجلاً بعثه النبى عليه الصلاة والسلام على الصدقة ، يعنى عاملاً على الصدقة يأخذها من أهلها ، فرجع إلى المدينة ومعه إبل ، فقال : هذه لكم ، وهذه أهديت إلى . فخطب النبى عليه الصلاة والسلام ، وقال : « **ما بال أحدكم نستعمله على العمل ، فيرجع ويقول : هذا لكم ، وهذا أهدى لى ، فهلا جلس فى بيته أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا ؟** »(١) .

وصدق النبى عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يُهد لهذا العامل الذى هو تابع للدولة إلا من أجل أنه عامل ، لو كانوا يريدون أن يهدوا إليه لشخصه لأهدوا إليه فى بيت أبيه وأمه .

ومن هذا الحديث نعرف عظيم قبح الرشوة ، وأنها من عظائم الأمور التى أدت إلى أن يقوم النبى عليه الصلاة والسلام خطيبًا يخطب فى الناس ، ويحذرهم من هذا العمل؛ لأنه إذا فشا فى قوم الرشوة هلكوا ، وصار كل واحد منهم لا يقول الحقَّ ، ولا يحكم بالحق ولا يقوم بالعدل إلا إذا رُشِى والعياذ بالله .

والرشوة ملعون آخذها ، وملعون معطيها (٢) ، إلا إذا كان الآخذ يمنع حق الناس إلا برشوة ، فحينئذ تكون اللعنة على هذا الآخذ لا على المعطى ؛ لأن المعطى إنما يريد أن

---

(١) البخارى (٧١٧٤) مسلم (١٨٣٢) .

(٢) انظر أحمد فى مسنده (٢/٣٨٧) وصحيح الجامع للألبانى (٥٠٩٣) .

Marfat.com

يستخلص حقَّه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بدفع الرشوة ، فهو معذور . كما يوجد ـ والعياذ بالله ـ الآن فى بعض المسئولين فى الدول الإسلامية من لا يمكن أن يقضى مصالح الناس إلا بهذه الرشوة والعياذ بالله ، فيكون آكلاً للمال بالباطل ، معرضًا نفسه للعن ، نسأل الله العافية .

والواجب على من ولاه الله عملاً أن يقوم به بالعدل ، وأن يقوم بالواجب فيه بحسب المستطاع .

ومن ذلك أيضًا : أن بريرة وهى أمة لجماعة من الأنصار ، كاتبها أهلُها على تسع أواقٍ من الفضة ، فجاءت إلى أم المؤمنين عائشة ـ ﵂ ـ تستعينها ، تطلب منها العون لتقضى كتابتها ، فقالت : إن شاء أهلك أن أعدَّها لهم ، يعنى أنقدها نقدًا ، ويكون ولاؤك لى فعلت ، فذهبت بريرة إلى أهلها ، يعنى أسيادها فقالت لهم ذلك . فقالوا : لا . الولاء لنا . فرجعت بريرة إلى عائشة ـ ﵂ ـ وأخبرتها بأن أهلها قالوا : لابد أن يكون الولاء لنا . فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « **خذيها واشترطى لهم الولاء ، فإنما الولاء لمن أعتق** » فأخذتها واشترطت الولاء لهم ، ثم خطب الناس عليه الصلاة والسلام وقال : « **ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست فى كتاب الله ، ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق** »(١) .

ومن ذلك أيضًا : أن امرأة من بنى مخزوم كانت تستعير المتاع ، تقول للناس : أعيرونى شيئًا ، فيعيرونها المتاع ، القدْر والقربة وما أشبه ذلك من متاع البيت ثم بعد ذلك تقول : ما أعرتمونى شيئًا ، تجحد ذلك ، فأمر النبى ـ ﷺ ـ أن تُقطع يدُها ؛ لأنها سارقة ، فهذه سرقة ، فاهتمت قريشٌ لهذا الأمر ، كيف تقطع يد مخزومية من بنى مخزوم ، من كبار قبائل العرب ، فطلبوا من يشفع إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، فأرسلوا أسامة بن زيد بن حارثة ـ ﵄ ـ ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ كان يحبه ويحب أباه ، فكلم النبى ـ ﷺ ـ فى شأن تلك المرأة يشفع لها ، فقال النبى عليه الصلاة والسلام : «**أتشفع فى حد من حدود** » ؟ يقوله منكرًا عليه ؛ لأن حدود الله ليس فيها شفاعة ، فإذا وصلت للسلطان فلعن الله الشافع والمشفع له .

ثم قام فى الناس يخطب ، فقال : « **ألا وإن من كان قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد** » . وأخبر أن هذا هو الذى

---

(١) البخارى (٢٧٢٩) مسلم (١٥٠٤) .

Marfat.com

أهلك الأمم السابقة . ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **وايم الله - يعنى أحلف بالله - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » فهل هذه المخزومية أفضل وأشرف أم فاطمة بنت محمد ؟ فاطمة أفضل منها ، ومع ذلك يقول عليه الصلاة والسلام : « **لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها** »[(١)] .

فهذه من الخطب العارضة ، فكان صلوات الله وسلامه عليه من هديه أنه يخطب الناس لأمور راتبة ، ولأمور عارضة ، وسبق لنا حديث العرباض بن سارية قال : خطبنا رسول الله - ﷺ - خطبة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون[(٢)] .

والخلاصة أنه يستفاد من هذا الحديث : أنه ينبغى للإنسان من قاضٍ ، أو مفتٍ ، أو عالمٍ ، أو داعية ، أن يخطب الناس فى الأمور العارضة التى يحتاجون فيها إلى بيان الحق، وفى الأمور الراتبة ، مثل الجمعة ، والعيدين ، والاستسقاء ، والكسوف كما مر ، وهذا من هدى رسول الله - ﷺ - وحسن تبليغه ؛ لأن الشئ إذا جاء فى وقته عند حاجته صار له قبول أكثر .

وقد نقل المؤلف - رحمه الله - عن ابن عباس - ﵄ - أن النبى - ﷺ - قام فيهم خطيبًا ، وهذه من خطبه العارضة - ﷺ - فقد قام فيهم خطيبًا ، وقال : « **إنكم محشورون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً** » محشورون : يعنى مجموعة فى صعيد واحد ، ليس فيه جبال ، وليس فيه أودية ، ولا بناء ، ولا أشجار ، يُسمعهم الداعى ، ويَنْفُذهم البصر ، يعنى : لو دعاهم داعٍ لأسمعهم جميعًا ؛ لأنه ليس هناك ما يحول بينهم وبين أسماعهم ، وينفذهم البصر أى : يدركهم جميعًا .

« **حفاة عراة غرلاً** » وفى رواية : « **بُهمًا** » .

حفاة : ليس عليهم نعال ، ولا خفاف ، ولا ما يَقُون به أرجلهم .

عراة : ليس عليهم كسوة ، بادية أبشارهم .

غرلاً : يعنى غير مختونين .

والختان هو : قطع الجلدة التى تكون على الحشفة ، وتُقطع من أجل تمام الطهارة كما سنبينه إن شاء الله .

بُهمًا : قال العلماء : بهمًا أى : ليس معهم مال ، فيكون الإنسان مجردًا من كل

---

(١) البخارى (٦٧٨٨) مسلم (١٦٨٨) .

(٢) سبق تخريجه .

Marfat.com

شئ ، ثم استدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] . يعنى أن الله يحشرهم كما بدأهم أول خلق ، يخرجون من بطون الأرض كما خرجوا من بطون أمهاتهم ، حفاةً عراة غرلاً ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ ثم قال عز وجل ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَا ﴾ أى : مؤكدًا ، أكده الله على نفسه ؛ لأن هذا المقام يقتضي التوكيد ، فإن من البشر من كذب بالحشر والعياذ بالله ، وقال : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون : ٣٧] . فقال الله عز وجل : ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ .

حدث النبى عليه الصلاة والسلام بهذا الحديث ، فقال عائشة - رضي الله عنها - : واسوءتاه ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض ؟! فقال النبى - ﷺ - : « **يا عائشة ، الأمر أعظم من أن يهمهم ذلك** » [1] . الأمر عظيم ، ما ينظر أحد لأحد ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٧] .

حتى الرسل عليهم الصلاة والسلام عند عبور الصراط دعاؤهم : اللهم سلم ، اللهم سلم [2] ، لا يدرى أحدٌ أينجو أم لا . الأمر عظيم ، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **الأمر أعظم من أن يهمهم ذلك** » ثم قال : « **ألا وإن أول من يكسى إبراهيم** »، إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، هو أو من يكسى يوم القيامة .

وهذه الخصيصة لا تدل على التفضيل المطلق ، وأنه أفضل من نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لأن محمدًا - ﷺ - أفضل الأنبياء والرسل ، سيد ولد آدم يوم القيامة ، لا يؤذن لأحد يشفع للخلائق يوم القيامة ، إلا محمد عليه الصلاة والسلام كما فى قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] . لكن قد يخص الله بعض الأنبياء بشئ لا يخص به الآخر ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

فالرسالات كانت موجودة فى غيره ، لكن فى وقته كان هو الرسول لبنى إسرائيل ، كذلك أيضًا قد يخص الله أحدًا من الأنبياء أو غيرهم بخصيصة يتميز بها عن غيره ، ولا يوجب ذلك الفضل المطلق .

« **ألا وإن أول من يكسى إبراهيم** » عليه الصلاة والسلام ، ولا يقال : لماذا كان أول من يكسى ؟؛ لأن الفضائل لا يسأل عنها ، كما قال الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ

---

(١) البخارى (٦٥٢٧) مسلم (٢٨٥٩) .

(٢) أحمد فى المسند (٣/١٧ ، ٢٦) .

Marfat.com

مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] . لايسأل عنها ؛ لأن الإنسان قد يصل فيها إلى نتيجة وقد لا يصل ، فكما أن الله تعالى فضل بنى آدم بعضهم على بعض فى الرزق ، وفى كمال الأخلاق والآداب ، وكذلك فضل بعضهم على بعض فى العلم ، وكذلك فى البدن والفكر وغير ذلك ، فالله تعالى يؤتى فضله من يشاء .

وفى هذا الحديث : دليل على أن الناس يُكسون بعد أن يخرجوا حفاة عراة غرلاً . ولكن بأى طريق يُكسون ؟ لا نعلم ذلك ، ليس هناك خياطون ، ولا هناك ثياب تفصل، فالله أعلم بكيفية ذلك .

وفى هذا الحديث : إشارة إلى الختان فى قوله : « **غرلاً** » فالأغرل : هو الذى بقيت عليه جلدة الحشفة أى : لم يختتن . والختان اختلف العلماء فى وجوبه ، فمنهم من قال: إنه واجب على الذكور والإناث ، وأنه يجب أن تختتن البنت كما يختتن الولد .

ومن العلماء من قال : إنه لا يجب الختان لا على الرجال ، ولا على النساء ، وأن الختان من الفطرة المستحبة ، وليس من الفطرة الواجبة .

ومنهم من توسط بين القولين فقال : الختان واجب فى حق الذكور ، وسنة فى حق الإناث ، وهذا القول أوسط الأقوال وأعدلها ، فإنه واجب فى حق الرجال ؛ لأنه الرجل إذا بقيت هذه الجلدة فوق حشفته ، فإنها ستكون مجمعًا للبول ، فيكون فى ذلك تلويث للرجل ، وربما يحدث إثر هذا التهابات فيما بين الجلدة والحشفة ، ويتضرر الإنسان ، فالصحيح أن الختان واجب على الذكور ، وسنة فى حق الإناث ، وهذا أعدل الأقوال وأحسنها .

ثم ذكر النبى - ﷺ - أنه يؤتى برجال من أمته فيؤخذ بهم ذات الشمال ، أى : إلى طريق أهل النار والعياذ بالله . فيقول النبى - ﷺ - : « **أصحابى** » أى : يشفع إلى الله سبحانه وتعالى فيهم ، فيقال له : « **إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك** » فيقول النبى - ﷺ - كما قال العبد الصالح ، يعني به عيسى بن مريم حين يقول يوم القيامة إذا قال الله تعالى له : ﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] . كما يزعم النصارى الذين يقولون : إنهم متبعون له : ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] . لأن الألوهية ليست ، حقًا لأحد إلا لله رب العالمين . ثم يقول : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦ ، ١١٧] .

Marfat.com

فإذا قيل للنبى - ﷺ - يوم القيامة : إنك لا تدرى ماذا أحدثوا بعدك ، قال كما قال عيسى بن مريم : ﴿ وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ .

ثم يقال للرسول عليه الصلاة والسلام : « **إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم** » فيقول النبى عليه الصلاة والسلام : « **سحقًا سحقًا** » .

قوله : « **إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم** » تمسك به الرافضة الذين قالوا : إن الصحابة كلهم ارتدوا عن الإسلام والعياذ بالله ، ومنهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، أما على وآل البيت فهم لم يرتدوا .

ولا شك أنهم فى هذا كاذبون ، وأن الخلفاء الأربعة كلهم لم يحصلُ منهم ردة بإجماع المسلمين ، وكذلك عامة أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام لم يحصل منهم ردة بإجماع المسلمين إلا قوم من الأعراب لما مات النبى عليه الصلاة والسلام افتتنوا ، وارتدوا على أدبارهم ، ومنعوا الزكاة ، حتى قاتلهم الخليفة الراشد أبو بكر - ﷺ - ، وعاد أكثرهم إلى الإسلام .

ولكن الرافضة من شدة حنقهم وبغضهم لأصحاب النبى - ﷺ - تمسكوا بظاهر هذا الحديث .

أما أهل السنة والجماعة فقالوا : إن هذا الحديث عامٌ يراد به الخاص ، وما أكثر العام الذى يراد به الخاص . فقوله : « **أصحابى** » يعنى : ليسوا كلهم ، بل الذين ارتدوا على أدبارهم ؛ لأن هكذا قيل للرسول عليه الصلاة والسلام : « **إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم** » ومعلوم أن الخلفاء الراشدين وعامة أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام ، لم يرتدوا بالإجماع ، ولو قدر أنهم ارتدوا لم يبق لنا ثقة بالشريعة ، ولهذا كان الطعن فى الصحابة يتضمن الطعن فى شريعة الله ، ويتضمن الطعن فى رسول الله - ﷺ - ، ويتضمن الطعن بالله رب العالمين .

الذين يطعنون فى الصحابة تضمن طعنهم أربعة محاذير ومنكرات عظيمة والعياذ بالله : الطعن فى الصحابة ، والطعن فى الشريعة ، والطعن فى النبي - ﷺ - ، والطعن فى رب العالمين تبارك وتعالى ، لكنهم قوم لا يفقهـون ﴿ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ [البقرة : ٨] .

أما كونه طعنًا فى الشريعة : فلأن الذين نقلوا إلينا الشريعة هم الصحابة ، وإذا كانوا مرتدين ، والشريعة جاءت من طريقهم ، فإنها لا تقبل ؛ لأن الكافر لا يقبل خبره ، بل

Marfat.com

الفاسق أيضًا كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات: ٦] .

وأما كونه طعنًا برسول الله ـ ﷺ ـ : فيقال : إذا كان أصحاب النبي ـ ﷺ ـ بهذه المثابة من الكفر والفسوق ، فهو طعن بالرسول ـ ﷺ ـ ؛ لأن القرين على دين قرينه ، وكل إنسان يعاب بقرينه إذا كان قرينه سيئًا ، يقال : فلان ليس فيه خير ؛ لأن قرناءه فلان وفلان وفلان من أهل الشر . فالطعن في الأصحاب طعن بالمصاحب .

وأما كونه طعنًا بالله رب العالمين فظاهر جدًا : أن يجعل أفضل الرسالات وأهمها وأحسنها على يد هذا الرجل الذي هؤلاء أصحابه ، وأيضًا أن يجعل أصحاب هذا النبي الذي هو أفضل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه مثل هؤلاء الأصحاب ، الذين زعمت الرافضة أنهم ارتدوا على أدبارهم . ولهذا نعتقد أن هذه فرية عظيمة على الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وعدوان على الله ورسوله وشريعة الله ، ولا شك أننا نكن الحبَّ لجميع أصحاب النبي ـ ﷺ ـ ، ولآل النبي ـ ﷺ ـ المؤمنين ، ونرى أن لآله المؤمنين حقين : حق الإيمان ، وحق قربهم من رسول الله ـ ﷺ ـ ، قال تعالى : ﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى : ٢٣] . يعني : إلا أن تودوا قرابتي على أحد التفاسير ، والتفسير الآخر لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ . أي : إلا أن تودوني لقرابتي منكم (١) .

وعلى كل حال ، فهذا الحديث ليس فيه مطمع للرافضة في القدح في أصحاب النبي ـ ﷺ ـ ؛ لأنه لا يصدق إلا على من ارتدوا ، أما من بقوا على الإسلام ، وأجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، فإنهم لا يدخلون في هذا الحديث . ويقال : إن الذي خصص هذا الحديث إجماع المسلمين على أن الصحابة لم يرتدوا ، وإنما ارتدت طائفة قاتلهم أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ ورجع أكثرهم إلى الإسلام .

***

[١٦٦/١١] الحادي عَشَرَ : عَن أبي سعيد عبد الله بن مُغَفَّلٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : نَهَى رسولُ اللهِ ـ ﷺ ـ عَنِ الخَذْفِ وقالَ : **« إِنَّهُ لا يَقْتُلُ الصَّيْدَ ، وَلا يَنْكَأُ العَدُوَّ ، وَإِنَّهُ يَفْقَأُ العَيْنَ ، وَيَكْسِرُ السِّنَّ »** متفقٌ عليه .

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي (٧/ ٢٨٤) .

[١٦٦/١١] صحيح : رواه البخاري (٦٢٢٠) ، ومسلم (١٩٥٤) وابن ماجه (٣٢٢٦) .

Marfat.com

وفي رواية : أنَّ قَريباً لابن مُغَفَّلٍ خَذَفَ ؛ فَنهَاهُ وقال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ نَهَى عن الخَذْفِ وَقالَ : « **إنَّها لا تَصيدُ صَيْداً** » ، ثُمَّ عادَ فقالَ : أُحَدِّثُكَ أن رسول الله ـ ﷺ ـ نَهَى عَنْهُ، ثُمَّ عدتَ تَخْذَفُ !؟ لا أُكَلِّمُكَ أبَداً .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه اللـه تعالى ـ فيما نقله عن عبد اللـه بن مغفل ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ نهى عن الخذف ، وقال : « **إنه لا يقتل صيداً** » وفي لفظ : « **لا يصيد صيداً ، ولا ينكأ عدواً ، وإنما يفقأ العين ويكسر السن** » .

والخذف : قال العلماء : معناه أن يضع الإنسان حصاة بين السبابة والإبهام ، فيضع على الإبهام حصاة ويدفعها بالسبابة ، أو يضع على السبابة ويدفعها بالإبهام ، وقد نهى عنه النبي ـ ﷺ ـ ، وعلل ذلك بأنه يفقأ العين ويكسر السن إذا أصابه ، ولا يصيد الصيد؛ لأنه ليس له نفوذ ، ولا ينكأ العدو ، يعني : لا يدفع العدو ؛ لأن العدو إنما ينكأ بالسهام لا بهذه الحصاة الصغيرة .

ثم إن قريبًا له خرج بخذف ، فنهاه عن الخذف ، وأخبره بنهي النبي ـ ﷺ ـ عنه ، ثم إنه رآه مرة ثانية بخذف فقال له : أخبرتك أن النبي ـ ﷺ ـ نهى عن الخذف ، فجعلت تخذف ، لا أكلمك أبدًا ، فهجره ؛ لأنه خالف نهي النبي ـ ﷺ ـ .

وهذا كما فعل عبد الله بن عمر في أحد أبنائه ، حين حدث ابن عمر أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « **لا تمنعوا إمائكم المساجد** » فقال أحد أبنائه ، وهو بلال بن عبد الله بن عمر : « **والله لنمنعهن** » لأن النساء تغيرت بعد عهد النبي ـ ﷺ ـ ، والناس تغيروا ، فأقبل عليه أبوه عبد الله بن عمر ، وجعل يسبه سبًا عظيمًا ، ما سبه مثله قط ، وقال : أحدثك عن رسول الله ـ ﷺ ـ وتقول : والله لنمنعهن .

ثم هجره حتى مات [1] ، ولم يكلمه ، فدل هذا على عظم تعظيم السلف الصالح لاتباع السنة .

فهذا عبد الله بن مغفل أقسم ألا يكلم قريبه ؛ لأنه خذف ، وقد نهى النبي ـ ﷺ ـ عن الخذف ، وهذا ابن عمر هجر ابنه حتى مات ؛ لأنه قال : « والله لنمنعهن » مع أن الرسول ـ ﷺ ـ أذن لهن ، وهكذا يجب على كل مؤمن أن يعظم سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

---

(١) البخاري (٨٩٩) مسلم (٤٤٢) .

Marfat.com

ولكن إذا قال قائل : هل مثل هذا الأمر يوجب الهجر ، وقد نهى النبى - ﷺ - عن هجر المؤمن فوق ثلاث ؟

فالجواب عن هذا : أن هذين الصحابيين ـ وأمثالهما ممن فعل مثل فعلهما ـ فعلا ذلك من باب التعزير ، ورأيا فى هذا تعزيزًا لهذين الرجلين ، وإلا فالأصل أن المؤمن إذا فعل ذنبًا وتاب منه ، فإنه يُغفر له ما سلف ، حتى الكفار إذا تابوا غفر الله لهم ما سبق .

قال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] . كل ما مضى .

ولكن نظرًا لأن هذين الصحابيين - ﷺ - أراد أن يعزرا من خالف أمر النبى عليه الصلاة والسلام ، إما بقوله ، وإما بفعله ، ولو عن اجتهاد ؛ لأن بلال بن عبد الله ابن عمر ، إنما قال ذلك عن اجتهاد ، لكن لا ينبغى للإنسان أن يعارض قول الرسول هذه المعارضة الظاهرة ، ولو أنه قال مثلاً : لعل النبى - ﷺ - أذن لهن فى زمن كانت النيات فيه سليمة ، والأعمال مستقيمة ، وتغيرت الأحوال بعد ذلك ، وأتى بالكلام على هذا الوجه ، لكان أهون .

ولهذا قالت عائشة - ﵂ - لو رأى النبى - ﷺ - ما صنع النساء من بعده لمنعهن - يعنى من المساجد ـ كما منعت بنو إسرائيل نساءها [١] . ولكن على كل حال ما فعله عبد الله بن المغفل ، وعبد الله بن عمر - ﵃ - يدل على تعظيم السنة ، وأن الإنسان يجب أن يقول لحكم الله ورسوله : سمعنا وأطعنا .

* * *

[١٦٧/١٢] وعن عابسِ بنِ ربيعةَ قال : رَأيتُ عُمَرَ بن الخطاب - ﵁ - يُقبِّلُ الْحَجَرَ ـ يَعْنِى الأَسْوَدَ ـ ويَقُولُ : إنى أعْلَمُ أنَّكَ حَجَرٌ مَا تَنْفَعُ ولَا تَضُرُّ ، ولَوْلا أنى رَأيتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ . متفقٌ عليه .

الشرح

هذا الحديث الذى ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ عن عمر بن الخطاب - ﵁ - فى باب الأمر باتباع السنة وآدابها ، فقد كان - ﵁ - يطوف بالبيت ، فقبل الحجر الأسود ،

---

(١) البخارى (٨٦٩) مسلم (٤٤٥) .

[١٦٧/١٢] صحيح : رواه البخارى (١٥٩٧) ، ومسلم (١٢٧٠) أبو داود (١٨٧٣) .

Marfat.com

والحجر كما نعلم حجر من الأرض ، جعل فى هذا الركن ، وشرع الله سبحانه وتعالى لعباده أن يقبلوه ، لكمال الذل والعبودية ، ولهذا قال عمر حين قبله : « إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » . وصدق ـ رضي الله عنه ـ فإن الأحجار لا تضر ولا تنفع . الضرر والنفع بيد الله عز وجل كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٨ ، ٨٩] .

ولكن بين ـ رضي الله عنه ـ أن تقبيله إياه لمجرد اتباع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال : « **ولولا أنى رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقبلك ما قبلتك** » يعنى فأنا أقبلك اتباعًا للسنة ، لا رجاء للنفع، أو خوف الضرر ، ولكن لأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعل ذلك . ولهذا لا يشرع أن يقبل شئ من الكعبة المشرفة إلا الحجر الأسود فقط ، أما الركن اليمانى فيستلم يعنى يمسح ولا يُقَبَّل . الحجر الأسود أفضل شىء أن يستلمه الإنسان ويقبله ، يمسحه بيده اليمنى ويقبله ، فإن لم يمكن استلمه وقبل يده ، فإن لم يكن أشار إليه بشئ معه أو بيده ، ولكن لا يقبل ما أشار به ؛ لأن هذا الذى أشار به لم يمس الحجر حتى يقبله .

أما الركن اليمانى فليس فيه إلا استلام فقط ، ويكون الاستلام باليد اليمنى ، ونرى بعض الجهال يستلم باليد اليسرى ، واليد اليسرى كما قال أهل العلم : لا تستعمل إلا فى الأذى ، فى القذر والنجاسات وما أشبهها ، أما أن تعظم بها شعائر الله فلا ، لكن أكثر الناس جُهّال لا يدرون لماذا استلموا هذا الحجر .

ثم إن بقية الأركان : الركن الشامى ، والعراقى ، يعنى الشمالى الشرقى والشمالى الغربى ، هذان الركنان لا يقبلان ولا يُمسحان ، وذلك لأنهما ليسا على قواعد إبراهيم(١) ، وذلك أن قريشًا لما أرادوا بناء الكعبة ، قالوا : لن نبنيها إلا بمال طيب ، لا نبنيها بأموال الربا ـ وانظر كيف عظم الله بيته حتى على أيدى الكفار ـ فجمعوا المال الطيب ، فلم يكف لبنائها على قواعد إبراهيم ، ثم فكروا من أى جانب ينقصونها . قالوا : ننقصها من الشمال ؛ لأن الجانب اليمانى الجنوبى فيه الحجر الأسود ، ولا يمكن أن ننقصها من جانب الحجر الأسود ، فنقصوها من هناك ، فلم تكن على قواعد إبراهيم، ولذلك لم يقبل النبى عليه الصلاة والسلام ولم يمسح الركن الشمالى الشرقى ولا الركن الشمالى الغربى .

ولما طاف معاوية ـ رضي الله عنه ـ ذات سنة ، وكان معه عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ جعل معاوية يمسح الأركان الأربعة الحجر الأسود ، والركن اليمانى ، والشمالى ، والغربى ،

---

(١) انظر المغنى (٣/ ٣٧٠ ، ٣٧٢) .

Marfat.com

فقال له ابن عباس : كيف تمسح الركنين الشماليين والنبى عليه الصلاة والسلام لم يمسح إلا الركن اليمانى والحجر الأسود ؟! فقال معاوية : إنه ليس شئ من البيت مهجوراً . يعنى البيت كله يحترم ويعظم ، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو أفقه من معاوية - : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾ . وما رأيت النبى - ﷺ - يمسح إلا الركنين اليمانيين، يعنى ركن الحجر والركن اليمانى . فقال له معاوية : صدقت ورجع إلى قوله[1] لأن الخلفاء فيما سبق وإن كانوا كالملوك فى الأبهة والعظمة ، لكنهم كانوا يرجون الحق ، ولهذا رجع معاوية - رضي الله عنه - إلى الحق ، وقال له : صدقت وترك مسح الركنين الشمالى الشرقى والشمالى الغربى .

وفى هذا الحديث الذى ذكره المؤلف عن عمر - رضي الله عنه - : دليل على جهالة أولئك القوم الذين نشاهدهم ، يقف أحدهم عند الركن اليمانى فيمسح بيده ، ويكون معه طفل قد حمله ، فيمسح الطفل بيده يتبرك بالركن ، وكذلك لو تيسر له المسح على الحجر الأسود ، هذا لا شك أنه بدعة ، وأنه نوع من الشرك ؛ لأن هؤلاء جعلوا ما ليس سببًا سببًا ، والقاعدة :أن كلَّ أحد يجعل شيئًا سببًا لشيء بدون إذن من الشرع فإنه يكون مبتدعًا ، ولهذا يجب على من رأى أحدًا يفعل هذا أن ينصحه ، ويقول له : هذا غير مشروع ، هذا بدعة ، حتى لا يظن الناس أن الأحجار تنفع أو تضر ، ثم تتعلق قلوبهم بها فى شئ أكبر وأعظم من هذا .

وفى هذا : دليل على أن كمال التعبد أن ينقاد الإنسان لله عز وجل ، سواءٌ عرف السبب والحكمة فى المشروعية أم لم يعرف ، فعلى المؤمن إذا قيل له : افعل أن يقول : سمعنا وأطعنا . إن عرفت الحكمة فهو نور على نور ، وإن لم تعرف فالحكمة أمر الله ورسوله .

ولهذا قال الله فى كتابه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . وسئلت عائشة - رضي الله عنها - : لماذا تقضى الحائض الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ فقالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة[2] كأنها - رضي الله عنها - تقول : إن وظيفة المؤمن أن يعمل بالشرع ، سواء عرف الحكمة أم لم يعرفها ، وهذا هو الصواب .

* * *

(١) البخارى (١٦٠٨) أحمد (١/ ٢١٧) .

(٢) رواه البخارى (٣٢١) مسلم (٣٣٥) .

Marfat.com

١٧ ـ باب وجوب الانقياد لحكم الله تعالى
وما يقوله من دعى إلى ذلك وأمر بمعروف أو نهى عن منكر

قال الله تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور : ٥١) .

وَفِيه مِنَ الأَحَادِيث : حَدِيثُ أبى هُرَيْرَةَ الْمَذْكُورُ فى أوَّلِ الْبَابِ قَبْلَهُ ، وَغَيْرُهُ مِنَ الأحَادِيثِ فيه .

[١٦٨/١] عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رسول الله ﷺ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ الآيَة (البقرة : ٢٨٤) اشْتَدَّ ذلكَ عَلَى أصْحَابِ رسول الله ﷺ ، فَأتَوْا رسولَ الله ﷺ ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ فَقَالُوا : أىْ رسول الله ، كُلِّفْنَا مِنَ الأعْمَالِ مَا نُطِيقُ : الصَّلاةَ وَالْجِهَادَ والصِيَامَ وَالصَّدَقَةَ ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذه الآيَةُ ولا نُطِيقُهَا ، قال رسولُ الله ، ﷺ : « **أتُرِيدُونَ أنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** » فَلَمَّا اقْتَرَأهَا الْقَوْمُ ، وَذَلَّتْ بِهَا ألْسِنَتُهُمْ؛ أنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فى إثْرِهَا : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذلكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى ؛ فَأنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قَالَ : « **نَعَمْ** » ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قَالَ : « **نَعَمْ** » ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قَالَ : « **نَعَمْ** » ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قَالَ : « **نَعَمْ** » رواه مسلم .

[١٦٨/١] صحيح : رواه مسلم (١٢٥) . أحمد (٤١٢/٢) .

Marfat.com

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ : « **باب وجوب الانقياد لحكم الله تعالى** » ثم ذكر آيتين سبق الكلام عليهما ، منهما قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الصحابة رضي الله عنهم لما أنزل الله على نبيه هذه الآية : ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ [البقرة : ٢٨٤] . كبر ذلك عليهم وشقّ عليهم ذلك ؛ لأن ما فى النفس من الحديث أمرٌ لا ساحل له ، فالشيطان يأتى الإنسان ويُحدثه فى نفسه بأشياء منكرة عظيمة ، منها ما يتعلق بالأمور الدينية ، ومنها ما يتعلق بالأمور الدنيوية ، ومنها ما يتعلق بالنفس ، ومنها ما يتعلق بالمال ، أشياء كثيرة يُلقيها الشيطان فى قلب الإنسان ، والله عز وجل يقول : **﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو** تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ فإذا كان كذلك هلك الناس .

فجاء الصحابة رضي الله عنهم إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فجثوا على ركبهم ، فعلوا ذلك من شدة الأمر ـ والإنسان إذا نزل به أمر شديد على ركبتيه ـ وقالوا : يا رسول الله إن الله تعالى أمرنا بما نُطيق ، الصلاة ، والجهاد ، والصيام ، والصدقة ، هذه نُطيقها ، نُصلى ، نُجاهد، نتصدق ، نصوم ، لكنه أنزل هذه الآية : **﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه** يحاسبكم به الله ﴾ وهذه شديدة عليهم لا أحد يُطيق أن يمنع نفسه عما تحدثه به من الأمور التى لو حوسب عليها لهلك .

فقال النبى عليه الصلاة والسلام : « **أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا** » أهل الكتابين هم اليهود والنصارى ، اليهود كتابهم التوراة ، وهى أشرف الكتب المُنزَّلة بعد القرآن ، والنصارى كتابهم الإنجيل وهو متممٌ التوراة ، واليهود والنصارى عصوا أنبياءهم ، وقالوا : سمعنا وعصينا ، فهل تُريدون أن تكونوا مثلهم ؟ «**ولكن قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** » وهكذا يجب على المسلم إذا سمع أمر الله ورسوله أن يقول : « سمعنا وأطعنا » ويمتثل بقدر ما يستطيع ، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها .

كثير من الناس اليوم يأتى إليك يقول : إن الرسول أمر بكذا ، هل هو واجب أو سنة؟ والواجب أنه إذا أمرك أن تفعل ؛ إن كان واجبًا فقد أبرأت الذمة ، وحصلت خيرًا، وإن كان مستحبًا فقد حصلت خيرًا أيضًا ، أما أن تقول : أهو واجب أو مستحب ، وتتوقف عن العمل حتى تعرف ، فهذا لا يكون إلا من إنسان كسول لا يُحب الخير ولا الزيادة فيه . أما الإنسان الذى يحب الزيادة فى الخير ، فهو إذا علم أمر الله ورسوله قال :

Marfat.com

سمعنا وأطعنا ثم فعل ، ولا يسأل أهو واجب أو مستحب ، إلا إذا خالف ، حينئذ يسأل، ولهذا لم نعهد ولم نعلم أن الصحابة كانوا إذا أمرهم الرسول ـ ﷺ ـ بأمر قالوا : يا رسول الله أعلى سبيل الوجوب أم على سبيل الاستحباب ؟ ما سمعنا بهذا ، كانوا يقولون: سمعنا وأطعنا ويمشون .

فأنت افعل وليس عليك من كونه مستحبًا أو واجبًا ، ولا يستطيع الإنسان أن يقول : إن هذا الأمر مستحب أو واجب إلا بدليل ، والحجة أن يقول لك المفتى : هكذا أمر الرسول عليه الصلاة والسلام .

ونحن نجد ابن عمر رضي الله عنه لما حدث ابنه بلالاً قال : إن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « **لا تمنعوا نساءكم المساجد** » وقد تغيرت الحال بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، قال بلال « والله لنمنعهن » فسبه عبد الله بن عمر سبًّا شديدًا ، لماذا يقول : والله لنمنعهن والرسول يقول : لا تمنعونهن ثم إنه هجره حتى مات (١) .

وهذا يدل على شدة تعظيم الصحابة لأمر الله ورسوله ، أما نحن فنقول هل هذا الأمر واجب أم مستحب ، هذا النهى للتحريم أو للكراهة ، لكن إذا وقع الأمر فلك أن تسأل حينئذ هل أثمت بذلك أم لا ، لأجل أنه إذا قيل لك : إنك آثم تجدد توبتك ، وإذا قيل : إنك غير آثم يستريح قلبك ، أما حين يوجه الأمر فلا تسأل عن الاستحباب أو الوجوب ، كما كان أدبُ الصحابة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، يفعلون ما أمر ويتركون ما عنه نهى وزجر .

لكن من ذلك نحن نبشركم بحديث قال فيه النبى عليه الصلاة والسلام : « **إن الله تجاوز عن أمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم** »(٢) الحمد له ، رفع الحرجٍ، كلُّ ما حدثت به نفسك ، ولكنك ما ركنت إليه ، ولا عملت ، ولا تكلمت ، فهو معفوٌ عنه، حتى ولو كان أكبر من الجبال . فاللّهم لك الحمد .

حتى إن الصحابة قالوا : يا رسول الله نجد فى نفوسنا ما نحبُّ أن تكون حُمَمَةً ـ يعنى فحمة محترقة ـ ولا نتكلم به قال : « **ذاك صريح الإيمان** » (٣) يعنى ذاك هو الإيمان الخالص؛ لأن الشيطان ما يُلقى مثل هذه الوساوس فى قلب خَرِب ، فى قلب فيه شك ، إنما يتسلط الشيطان أعاذنا الله منه على قلبٍ مؤمن خالص ؛ ليفسده .

---

(١) البخارى (٨٩٩) مسلم (٤٤٢) .

(٢) البخارى (٦٦٦٤) مسلم (١٢٧) أبو داود (٢٢٠٩) .

(٣) مسلم (١٣٢) أبو داود (٥١١١) .

Marfat.com

ولما قيل لابن عباس أو ابن مسعود : إن اليهود إذا دخلوا فى الصلاة لا يُوسوسون ، قال : وما يصنع الشيطان بقلب خراب ، فاليهود كفار ، قلوبهم خربة ، فالشيطان لا يوسوس لهم عند صلاتهم ؛ لأنها باطلة من أساسها ، الشيطان يوسوس للمسلم الذى صلاته صحيحة مقبولة ليفسدها ، يأتى للمؤمن صريح الإيمان ليفسد هذا الإيمان الصريح.

ولكن والحمد لله مَن أعطاه الله تعالى طبَّ القلوب والأبدان محمد - ﷺ - وصف لنا لهذا طبًا ودواءً ، فأرشد إلى الاستعاذة بالله والانتهاء [1] فإذا أحس الإنسان بشىء من هذله الوساوس الشيطانية ، فإنه يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وليتته يعرض عنها ولا يلتفت إليها ، امض فيما أنت عليه ، فإذا رأى الشيطان أنه لا سبيل إلى إفساد هذا القلب المؤمن الخالص ، نكص على عقبيه ورجع .

ثم إنهم لما قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، ولانت لها نفوسهم ، وذلت لها ألستهم أنزل الله بعدها : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يعنى والمؤمنون آمنوا ـ ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .فبين الله عز وجل فى هذه الآية الثناء عليهم وعلى رسوله وعلى المؤمنين لأنهم قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

ثم أنزل الله : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة : ٢٨٦] فالذى ليس فى وسع الإنسان لا يكلفه الله به ، ولا حرج عليه فيه ، مثل الوساوس التى تهجم على القلب ، ولكن الإنسان إذا لم يركن إليها ولم يصدق بها ولم يرفع بها رأسًا فإنها لا تضره ؛ لأن هذه ليست داخلة فى وسعه ، والله عز وجل يقول : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ .

فقد يحدث الشيطان الإنسان فى نفسه عن أمور فظيعة عظيمة ، ولكن الإنسان إذا أعرض عنها واستعاذ بالله من الشيطان ومنها زالت عنه ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال : نعم . يعنى قال الله : نعم ، لا أؤاخذكم إن نسيتم أو أخطأتم ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال : نعم . ولهذا قال الله تعالى فى وصف رسوله محمد- ﷺ - : ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف : ١٥٧] . ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ﴾ قال الله : نعم .

ولهذا لا يكلف الله تعالى فى شرعه ما لا يطيقه الإنسان ، بل إذا عجز عن الشىء انتقل إلى بدله إذا كان له بدل ، أو سقط عنه إن لم يكن له بدل ، أما أن يكلف ما لا طاقة

(١) انظر البخارى (٣٢٧٦) مسلم (١٣٤) .

Marfat.com

له به فإن الله تعالى قال هنا : نعم ، يعني : لا أحملكم ما لا طاقة لكم به ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة : ٢٨٦] قال الله : نعم ، فاعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، هذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى ، ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ يعنى تقصيرنا فى الواجب ، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ يعنى انتهاكنا للمحرم ، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ يعنى وفقنا للعمل الصالح ، فالإنسان إما أن يترك واجبًا أو يفعل محرمًا ، فإن ترك الواجب فإنه يقول: اعف عنا ، أى اعف عنا ما قصرنا فيه من الواجب ، وإن فعل المحرم ، فإنه يقول: اغفر لنا ، يعنى ما اقترفنا من الذنوب ، أو يطلب تثبيتًا وتأييدًا وتنشيطًا على الخير فى قوله ﴿وارحـــ ه ، فهذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى .

﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا﴾ أى متولي أمورنا في الدنيا والآخرة ، فتولنا فى الدنيا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قد يتبادر للإنسان أن المراد أعداؤنا من الكفار ، ولكنه أعم حتى إنه يتناول الانتصار على الشيطان ؛ لأن الشيطان رأس الكافرين .

إذن نستفيد من هذه الآيات الكريمة الأخيرة : أن الله سبحانه وتعالى لا يُحملنا ما لا طاقة لنا به ، ولا يُكلفنا إلا وسعنا ، وأن الوساوس التى تجول فى صدورنا إذا لم نركن إليها ولم نطمئن إليها ولم نأخذ بها ، فإنها لا تضر .

Marfat.com

١٨ ـ باب النهى عن البدع ومحدثات الأمور

قال اللّه تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ ﴾ (يونس: ٣٢) ، وقال تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨) ، وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (النساء: ٥٩) أى : الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (آل عمران: ٣١) وَالآيَاتُ فِي الْبَابِ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : (باب النهى عن البدع ومحدثات الأمور) والبدع هى الأشياء التى يبتدعها الإنسان ، وهذا هو معناها فى اللغة العربية ، ومنه قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة : ١١٧] أى : خالقهما على غير مثال سبق ، يعنى : لم يسبق لهما نظير ، بل ابتدعهما وأنشأهما أولاً . والبدعة فى الشرع كل من تعبد الله سبحانه وتعالى بغير ما شرع عقيدة أو قولاً أو فعلاً ، فمن تعبد لله بغير ما شرعه الله من عقيدة أو قول أو فعل مبتدع . فإذا أحدث الإنسان عقيدة فى أسماء الله وصفاته مثلاً فهو مبتدع ، أو قال قولاً لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع ، أو فعل فعلاً لم يشرعه الله ورسوله فهو مبتدع. وليعلم أن الإنسان الْمبتدع يقع فى محاذير كثيرة ، أولاً : أن ما ابتدعه فهو ضلالة بنص القرآن والسنة ، وذلك أن ما جاء به النبى ـ ﷺ ـ فهو الْحق ، وقد قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ [يونس : ٣٢] . هذا دليل القران ، ودليل السنه قوله ـ ﷺ : « كل بدعة ضلالة » (١) ومعلوم أن المؤمن لا يختار أن يتبع طريق الضالين الذين يتبرأ منهم الْمصلى فى كل صلاة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحه : ٦ ، ٧] .

ثانيًا : أن فى البدعة خروجًا عن اتباع النبى ـ ﷺ ـ ، وقد قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] . فمن ابتدع بدعة يتعبد الله بها فقد خرج عن اتباع النبى ـ ﷺ ـ ، لأن النبى ـ ﷺ ـ لم يشرعها ،

---

(١) سبق تخريجه .

Marfat.com

فيكون خارجًا عن شرعة الله فيما ابتدعه .

ثالثًا : أن هذه البدعة التى ابتدعها تنافى تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله ؛ لأن من حقق شهادة أن محمدًا رسول الله فإنه لا يخرج عن التعبد بما جاء به ، بل يلتزم شريعته ولا يتجاوزها ولا يقصر عنها ، فمن قصر فى الشريعة أو زاد فيها فقد قصر فى اتباعه ، إما بنقص أو بزيادة ، فحينئذ لا يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله .

رابعًا : أن مضمون البدعة الطعن فى الإسلام ، فإن الذى يبتدع تتضمن بدعته أن الإسلام لم يكمل ، وأنه كَمَّلَ الإسلام بهذه البدعة ، وقد قال الله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] . فيقال لهذا المبتدع : أنت الآن أتيت بشريعة غير التى كُمل عليها الإسلام ، وهذا يتضمن الطعن فى الإسلام وإن لم يكن الطعن فيه باللسان ، لكن الطعن فيه هنا بالفعل ، أين رسول الله - ﷺ - ، ثم أين الصحابة عن هذه العبادة التى ابتدعتها ؟ أهم فى جهل منها ؟ أم فى تقصير عنها ؟ إذن فهذا يكون طعنًا فى الشريعة الإسلامية .

خامسًا : أنه يتضمن الطعن فى رسول الله - ﷺ - وذلك لأن هذه البدعة التى زعمت أنها عبادة إما أن يكون الرسول - ﷺ - لم يعلم بها ، وحينئذ يكون جاهلاً ، وإما أن يكون قد علم بها ولكنه كتمها ، وحينئذ يكون كاتمًا للرسالة أو لبعضها ، وهذا خطير جدًا .

سادسًا : أن البدعة تتضمن تفريق الأمة الإسلامية ؛ لأن الأمة الإسلامية إذا فتح الباب لها فى البدع صار هذا يبتدع شيئًا ، وهذا يبتدع شيئًا ، وهذا يبتدع شيئًا ، كما هو الواقع الآن ، فتكون الأمة الإسلامية كل حزب منها بما لديه فرح ، كما قال تعالى : ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم : ٣٢] . كل حزب يقول : الحقُّ معى ، والضلال مع الآخر ، وقد قال الله لنبيه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٩ ، ١٦٠] .

فإذا صار الناس يبتدعون البدع تفرقوا وصار كل واحد يقول : الحق معى ، وفلان ضال مقصر ، ويرميه بالكذب والبهتان وسوء القصد وما أشبه ذلك .

ونضرب لهذا مثلاً بأولئك الذين ابتدعوا عيد ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصاروا يحتفلون بما يدعون أنه اليوم الذى وُلِد فيه ، وهو اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، أتدرون ماذا يقولون لمن لا يفعل هذه البدعة ؟ يقولون : هؤلاء يبغضون الرسول

Marfat.com

ويكرهونه ، ولهذا لم يفرحوا بمولده ، ولم يقيموا له احتفالاً ، وما أشبه ذلك فتجدهم يرمون أهل الحق بما هم أحق به منهم .

والحقيقة أن المبتدع بدعته تتضمن أنه يبغض الرسول ـ ﷺ ـ وإن كان يدعى أنه يحبه ؛ لأنه إذا ابتدع هذه البدعة والرسول عليه الصلاة والسلام لم يشرعها للأمة ، فهو كما قلت سابقًا : إما جاهل وإما كاتم .

سابعًا : أن البدعة إذا انتشرت في الأمة اضمحلت السنة ؛ لأن الناس يعملون ، فإما بخير وإما بشر ، ولهذا قال بعض السلف : ما ابتدع قوم بدعة إلا أضاعوا من السنة مثلها، يعني أو أشد . فالبدع تؤدى إلى نسيان السنن واضمحلالها بين الأمة الإسلامية .

وقد يبتدع بعض الناس بدعة بنية حسنة ، لكن يكون أحسن فى قصده وأساء فى فعله، ولا مانع أن يكون القصد حسنًا ، والفعل سيئًا ، ولكن يجب على من علم أن فعله سيء أن يرجع عن فعله ، وأن يتبع السنة التى جاء بها رسول الله ـ ﷺ ـ .

ومن المفاسد أيضًا أن المبتدع لا يُحكِّمُ الكتاب والسنة ؛ لأنه يرجع إلى هواه فيحكمه ، وقد قال الله تعالى : ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء : ٥٩] ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ أى : كتابه عز وجل ، ﴿وَالرَّسُولِ﴾ أى : إليه فى حياته ، وإلى سنته بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه .

❊ ❊ ❊

وأمَّا الأحاديثُ : فكثِيرةٌ جداً ، وَهِيَ مَشْهُورَةٌ ، فَنَقْتَصِرُ عَلَى طَرَفٍ مِنْها :

[١٦٩/١] عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : قَالَ رسولُ الله ﷺ : « **مَنْ أَحْدَثَ فى أمْرِنا هذَا ما لَيْسَ منْهُ فَهُوَ ردٌّ** » متفقٌ عليه .

وفى رواية لمسلم : « **مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْه أمْرُنَا فَهُوَ ردٌّ** » .

الشرح

أما حديث عائشة هذا ، فهو نصف العلم ؛ لأن الأعمال إما ظاهرة وإما باطنة، فالأعمال الباطنة ميزانها حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى** » (١) ، وميزان الأعمال الظاهرة حديث عائشة

[١٦٩/١] صحيح : رواه البخارى (٢٦٩٧) ، ومسلم (١٧١٨) وابن ماجه (١٤) أحمد (٦/ ٢٤٠).

(١) البخارى (١) مسلم (١٩٠٧) الترمذى (١٦٤٧).

Marfat.com

هذا: « مَنْ أحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا ما ليس مِنهُ رَدٌّ » أى : مردود على صاحبه غير مقبول منه.

وقول « أمرنا » المراد به : ديننا وشرعنا ، قال الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى : ٥٢] . فأمر الله المراد به فى هذا الحديث شرع الله ، من أحدث فيه ما ليس منه فهو رد ، وفى هذا دليل واضح على أن العبادة إذا لم نعلم أنها من دين الله فهى مردودة ، ويستفاد من هذا أنه لابد من العلم ؛ لأن العبادة مشتملة على الشروط والأركان ، أو غلبة الظن إذا كان يكفى عن العلم ؛ كما فى بعض الأشياء ، مثلاً : الصلاة إذا شككت فى عددها وغلب على ظنك عدد فابن على ما غلب على ظنك ، الطواف بالبيت سبعة أشواط وإذا غلب على ظنك عدد فابن على ما غلب على ظنك ، كذلك الطهارة إذا غلب على ظنك أنك أسبغت الوضوء كفى .

فالمهم أنه لابد من العلم أو الظن ، إذا دلت النصوص على كفايته وإلا فالعبادة مردودة، إذا كانت العبادة مردودة فإنه يحرم على الإنسان أن يتعبد لله بها ؛ لأنه إذا تعبد لله بعبادة لا يرضاها ولم يشرعها لعباده صار كالمستهزىء بالله والعياذ بالله .

حتى إن بعض العلماء قال : إن الإنسان إذا صلى محدثًا متعمدًا خرج من الإسلام ؛ لأنه مستهزىء ، بخلاف الناسى فإنه لا إثم عليه ويعيد .

وفى اللفظ الثانى : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[(١)] ، وهو أشد من الأول ؛ لأن قوله : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا » يعنى لابد أن نعلم بأن كل عمل عملناه عليه أمر الله ورسوله وإلا فهو مردود ، وهو يشمل العبادات ويشمل المعاملات ، ولهذا لو باع الإنسان بيعًا فاسدًا ، أو رهن رهنًا فاسدًا أو أوقف وقفًا فاسدًا ، فكله غير صحيح ومردود على صاحبه ولا ينفذ .

* * *

[٢/ ١٧٠] وعن جابر ، رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ ، إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ ، وَعَلا صَوْتُهُ ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ : « صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ » ويقول : « بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وَيَقْرِنُ بَيْنَ أُصْبُعَيْه ؛ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، ويَقُولُ : « أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ خَيْرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ ، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ » ثُمَّ يَقُولُ : « أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ

---

(١) مسلم (١٧١٨) .

[٢/ ١٧٠] صحيح : رواه مسلم (٨٦٧) ابن ماجه (٤٥) .

Marfat.com

مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ، مَنْ تَرَكَ مَالاً فَلأَهْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنا أَوْ ضَيَاعاً فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ » رواه مسلم .

وعن الْعِرْبَاض بن سَارِيَةَ ، رضى الله عنه ، حَدِيثُهُ السَّابِقُ فى بَابِ الْمُحَافَظَةِ علَى السُّنَّةِ .

الشرح

نقل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن جابر بن عبد الله ـ ﷺ ـ فى باب التحذير من البدع ، قال : كان النبى ـ ﷺ ـ **إذا خطب** يعنى : يوم الجمعة، **احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه** وإنما كان يفعل هذا لأنه أقوى فى التأثير على السامع، فكان ـ ﷺ ـ يكون على هذه الحال للمصلحة ، وإلا فإنه من المعلوم أنه ـ ﷺ ـ كان أحسن الناس خلقًا وألينهم عريكة ، لكن لكل مقام مقال فالخطبة ينبغى أن تحرك القلوب ، وتؤثر فى النفوس وذلك فى موضوعها ، وفى كيفية أدائها .

وكان ـ ﷺ ـ يقول : « **بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ** »(١) ويقرن بين السبابة والوسطى، يعنى بين الإصبعين ، السبابة ـ وهى التى بين الوسطى والإبهام ـ والوسطى ، وأنت إذا قرنت بينهما وجدتهما متجاورتين ، ووجدت أنه ليس بينهما إلا فرق يسير ، ليس بين الوسطى والسبابة إلا شىء يسير مقدار الظفر أو نصف الظفر ، والمعنى أن أجل الدنيا قريب وأنه ليس ببعيد ، وهذا كما فعل ـ ﷺ ـ ذات يوم حيث خطب الناس فى آخر النهار، والشمس على رءوس النخل ، فقال : « **إنه لم يبق من دنياكم إلا مثل ما بقى من هذا اليوم**»(٢) .

فإذا كان الأمر كذلك والنبى ـ ﷺ ـ الآن مات له ألف وأربعمائة سنة ، ولم تقم لقيامة دل هذا على أن الدنيا طويلة الأمد ، ولكن ما يقدره بعض الجيولوجين من عمر لدنيا الماضى بملايين الملايين فهذا خرص ، لا يصدق ولا يكذب ، فهو كأخبار بنى سرائيل؛ لأنه ليس لدينا علم من كتاب الله أو سنة رسوله ـ ﷺ ـ فى مقدار ما مضى من لدنيا، ولا فى مقدار ما بقى منها على وجه التحديد ، وإنما هو كما ضرب النبى ـ ﷺ ـ هذه الأمثال ، والشىء الذى ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة وهو من أخبار ما مضى ، فإنه ليس مقبولاً وإنما ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

(١) البخارى (٦٥٠٥) مسلم (٢٩٥١) الترمذى (٢٢١٤) .
(٢) الترمذى (٢١٩١) أحمد فى مسنده (١٩/٣) وضعفه الألبانى فى ضعيف الترمذى .

Marfat.com

القسم الأول : ما شهد الشرع بصدقه ، فهذا يُقبل لشهادة الشرع به .

والثاني : ما شهد الشرع بكذبه فهذا يُرد لشهادة الشرع بكذبه .

والثالث : ما ليس فيه هذا ولا هذا ، فهذا يتوقف فيه ، إما أن يكون حقًا وإما أن يكون باطلاً ، ويدل لهذا قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ ﴾ [إبراهيم : ٩] . فإذا حصر العلم جل وعلا فى نفسه فإنه لا يتلقى علم هؤلاء إلا من وحيه عز وجل ، لا يعلمهم إلا الله ، فأى أحد يدعى شيئًا فيما مضى مما يتعلق بالبشرية أو بطبيعة الأرض أو الأفلاك أو غيرها فإننا لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نقسم ما أخبر به إلى الأقسام الثلاثة السابقة .

أما المستقبل فالمستقبل ينقسم أيضًا إلى :

أولاً : ما أخبر الشرع بوقوعه ، فهذا لابد أن يقع ، مثل أخبار يأجوج ومأجوج، وأخبار الدجال ، ونزول عيسى ابن مريم وأشباه ذلك ، مما ثبت فى الكتاب والسنة .

والثانى : ما لم يرد به كتاب ولا سنة ، فهذا القول فيه من التخمين والظن ، بل لا يجوز لأحد أن يصدقه فيما يستقبل ؛ لأنه من علم الغيب ، ولا يعلم الغيب إلا الله عز وجل.

فالحاصل أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « **بعثت أنا والساعة كهاتين** » وقارب السبابة والوسطى ، والسبابة هى الإصبع الذى بين الإبهام والوسطى ، وتسمى السبابة لأن الإنسان إذا أراد أن يسب أحدًا أشار إليه بها ، وتسمى السبَّاحة أيضًا لأن الإنسان عند الإشارة إلى تعظيم الله عز وجل يرفعها ، ويشير بها إلى السماء .

ثم يقول : « **أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة** » وقد سبق الكلام على هذه الجمل .

ثم يقول : « **أنا أولى بكل مؤمن من نفسه** » كما قال ربه عز وجل ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب : ٦] فهو أولى بك من نفسك ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم عليه الصلاة والسلام ، ثم يقول : « **من ترك مالاً فلأهله** » يعنى : من ترك من الأموات مالاً فلأهله ، يرثونه حسب ما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله ، « **ومن ترك دينًا أو ضياعًا** » يعنى أولادًا صغارًا يضيعون « **فإلى وعلى** » يعنى فامرهم إلى ، وأنا وليهم ، والدَّين علىَّ أنا أقضيه ، هكذا كان - ﷺ - حينما فتح الله عليه .

أما قبل ذلك فكان يؤتى بالرجل ليصلى عليه فيسأل : « **هل عليه دين ؟** » إن قالوا :

Marfat.com

نعم ، وليس له وفاء ترك الصلاة عليه ، فجيأ إليه في يوم من الأيام برجل من الأنصار فتقدم ليصلي عليه ، ثم سأل : عليه دين ؟ قالوا : نعم ثلاثة دنانير ، فتأخر وقال : « **صلوا على صاحبكم** » فعرف ذلك في وجوه القوم . ثم قام أبو قتادة رضي الله عنه وقال : صل عليه يا رسول الله وعليَّ دينه ، فالتزمها أبو قتادة رضي الله عنه فتقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - فصلى [١] .

وفي هذا : دليل على عظم الدَّين ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يستدين إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك ، ولا يستدين لا لزواج ، ولا لبناء بيت ، ولا لكماليات في البيت ، كل هذا من السفه ، يقول الله عز وجل : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ [النور : ٣٣] هذا النكاح فما بالك بما هو دونه بكثير .

وكثير من الجهال يستدين ليشتري مثلاً فرش للدرج ، أو فراش للساحة ، أو باب للجراج ينفتح بالكهرباء ، أو ما أشبه ذلك ، مع أنه فقير ، ويأخذه بالدَّين فهو إن اشترى شيئًا بثمن مؤجل فهو دين ك لأن الدَّين عند العلماء كل ما ثبت في الذمة من ثمن بيع أو قرض أو أجرة أو غير ذلك ، فإياكم والديون ، احذروها فإنها تهلككم ، إلا شيء ضروري فهذا شيء آخر ، لكن ما دمت في غنى لا تستدن .

وكثير من الناس يستدين مثلاً أربعين ألفًا ، فإذا حل الأجل قال : ليس عندي شيء ، فيستدين للأربعين ألفًا التي عليه ستين ألفًا ، ثم يستدين السنة التالية ، ثم تتراكم عليه الديون الكثيرة من حيث لا يشعر .

* * *

(١) البخاري (٢٢٨٩) .

Marfat.com

١٩ ـ باب فيمن سن سنة حسنة أو سيئة

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٤) ، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ (الأنبياء: ٧٣).

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ هذا الباب للتحذير من البدع ، وليبين أن من الأشياء ما يكون أصله ثابتًا ، فإذا فعله الإنسان وكان أول من يفعله كان كمن سنه وصار له أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة .

وقد سبق لنا أن الدين الإسلامي ولله الحمد كامل، لا يحتاج إلى تكميل ، ولا إلى بدع ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

ثم استشهد المؤلف بآيتين من كتاب الله ، أولاهما قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ، هذا من جملة ما يدعو به عباد الرحمن ، الذين ذكر الله أوصافهم فى آخر سورة الفرقان : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلى أن قال : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان : ٦٣ : ٧٤] .

﴿هَبْ لَنَا﴾ يعنى أعطنا ، والأزواج جمع زوج ، وهو صالح للذكر والأنثى ، فالزوجة تسمى زوجًا ، والزوج الذكر يسمى زوجًا ، ولهذا تجدون فى الأحاديث ، ويمر بكم : وعن عائشة زوج النبى ـ ﷺ ـ ، وهذه هى اللغة الفصحى ، أن المرأة تسمى زوجًا ، لكن أهل الفرائض ـ رحمهم الله ـ جعلوا للرجل زوج وللمرأة زوجة ، من أجل التفريق عند قسمة المواريث ، أما فى اللغة العربية فالزوج صالح للذكر والأنثى .

فهذا الدعاء : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ كما هو صالح للرجال صالح للنساء أيضًا .

و « قرة العين » فى المرأة أنك إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى مالك وفى ولدك ، وإذا بحثت عنها وجدتها قانتة لله : ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء : ٣٤] . فهذه تسر زوجها.

Marfat.com

وكذلك أيضًا الذرية إذا جعلهم الله تعالى قرة عين للإنسان ، يطيعونه إذا أمر ، وينتهون عما نهاهم عنه ، ويسرونه فى كل مناسبة ، ويصلحون ، فهذا من قرة الأعين للمتقين .

والجملة الأخيرة : ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ، هى الشاهد لهذا الباب ، يعنى اجعلنا للمتقين أئمة ، يقتدى بنا المتقون فى أفعالنا وأقوالنا ، فيما نفعل وفيما نترك ، فإن المؤمن ولا سيما أهل العلم يقتدى بهم ، بأقوالهم وأفعالهم ، ولهذا تجد العامة إذا أمرتهم بشىء أو نهيتهم عن شىء قالوا : هذا فلان يفعل كذا وكذا ، ممن جعلوه إمامًا لهم .

والأئمة تشمل الأئمة فى الدين الذى هو العبادة الخاصة بالإنسان ، والأئمة فى الدعوة، وفى التعليم ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغير ذلك من شعائر الدين وشرائعه ، اجعلنا للمتقين إمامًا فى كل شىء .

أما الآية الثانية فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى : صيرناهم أئمة علماء يهدون الناس ، أى : يدلونهم على دين الله بأمر الله عز وجل ، ولكن ليت المؤلف ذكر آخر الآية ؛ لأن الله بين أنه جعلهم أئمة بسبب : ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(١) [السجدة : ٢٤] . لما صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله ، وصبروا على أقدار الله ، صبروا على طاعة الله ففعلوا ما أمر ، وصبروا عن معصية الله فتركوا ما نهى عنه ، وصبروا على أقدر الله التى تأتيهم من أجل دعوتهم إلى الحق وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ؛ لأن الإنسان إذا نصب نفسه داعية للحق آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر ، فلابد أن يصيبه من الأذى ما يصيبه ؛ لأن أكثر الذين يكرهون الحق سوف يكونون أعداء له فليصبر ، وكذلك أقدار الله التى تأتى بدون هذا أيضًا يصبرون عليها .

﴿لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ يوقنون بما أخبر الله به ، ويوقنون بالجزاء الذى يحصل لهم فى فعل الأوامر وترك النواهى ، وفى الدعوة إلى الله ، وفى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . أى : أنهم يعملون وهم يوقنون بالجزاء ، وهذه نقطة ينبغى لنا أن ننتبه لها ، أن نعمل ونحن نوقن بالجزاء ، كثير من الناس يعملون : يصلون ، ويصومون ، ويتصدقون بناءً على أن هذا أمر الله ، وهذا طيب ، ولا شك أنه خير ، لكن ينبغى أن تدرك وأن تستحضر بأنك إنما تفعل هذا رجاء الثواب وخوف العقاب ، حتى تكون موقنًا بالآخرة .

وقد أخذ شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ من هذه الآية عبارة طيبة ، فقال : بالصبر

---

(١) لاحظ أن النووى يتحدث عن آية الأنبياء والشيخ ابن عثيمين يتحدث عن آية السجدة فانتبه .

Marfat.com

واليقين تُنال الإمامةُ فى الدين (١) أخذها من قوله تعالى : ﴿لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ فبالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين . أسأل الله أن يجعلنى وإياكم أئمة فى دين الله ، هداة لعباد الله مهتدين ، إنه جواد كريم .

* * *

[١٧١/١] عَنْ أبى عَمْرو ، جَرِيرِ بنِ عبدِ اللّه ، ﷺ، قال : كُنَّا فى صَدْرِ النَّهَار عِنْدَ رسول اللّه ، ﷺ مُجْتابى النِّمَار ، أو الْعبَاء ، مُتقلّدى السُّيوف ، عَامَّتُهُمْ من مُضَرَ ، بلْ كُلُّهُمْ منْ مُضَرَ ؛ فَتمعَّرَ وَجْهُ رسول اللّه ، ﷺ لمَا رأى بهِمْ من الْفَاقة ؛ فَدخلَ ؛ ثُمَّ خَرَجَ ، فأمرَ بلالاً فَأذَّنَ وأقَامَ ، فَصلَّى ثُمَّ خَطَبَ ؛ فَقَالَ : « ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ــ إلَى آخر الآيَة ــ ﴿إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ــ والآيَةُ الأخْرَى الَّتِى فى آخرِ الْحَشْرِ ــ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ تَصدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَاره ، مِنْ دِرْهَمه ، مِنْ ثَوْبه ، مِنْ صَاعِ بُرِّه ، مِنْ صَاعِ تَمْرِه » حتَّى قَالَ: « وَلَوْ بِشقِّ تَمْرَةٍ » ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجزُ عَنْهَا ، بَلْ قَدْ عَجزَتْ ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأيْتُ كُومَيْنِ مِن طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول اللّه ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبَةٌ ؛ فقال رسولُ اللّه، ﷺ « مَنْ سَنَّ فى الإسْلام سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أجْرُهَا ، وأجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا من بَعْدِه غَيْرِ أنْ يَنْقُصَ مِنْ أجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِى الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عليه وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِه من غَيْرِ أن يَنْقُصَ مِنْ أوْزَارِهِمْ شَيْءٌ » رواه مسلم .

قَوْلُهُ : « مُجْتَابِى النِّمَار » هُوَ بالجيم وبعد الألف بَاء مُوَحَّدَةٌ ، والنِّمَارُ جَمْعُ نَمِرَة، وَهِىَ : كِسَاءٌ مِنْ صُوف مُخَطَّطٌ ، وَمَعْنَى « مُجْتَابِيهَا » أى : لابسيهَا قَدْ خَرَقُوهَا فى رُؤوسهم . و « الْجَوْبُ » : القطع ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أىْ : نَحَتُوهُ وَقَطَعُوهُ . وَقَوْلُهُ : « تَمَعَّرَ » هو بالعين المهملة ، أىْ : تَغَيَّرَ . وَقَوْلُهُ: « رَأيْتُ كَوْمَيْنِ » بفتح الكاف وضمها ؛ أىْ : صُبْرَتَيْنِ . وَقَوْلُهُ: « كَأنَّهُ مُذْهَبَةٌ » هو بالذال المعجمة وفتح الهاء والباء الموحدة ، قَالَهُ الْقَاضى

(١) انظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٩) .

[١٧١/١] صحيح : رواه مسلم (١٠٠٧) أحمد (٤/ ٣٥٩) .

Marfat.com

عِيَاضٌ وَغَيْرُهُ ، وَصَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ : « مُدْهُنَةٌ » بدَال مهملة وضم الهاء وبالنون ، وَكَذَا ضَبطَهُ الْحُمَيْدِىُّ ، وَالصَّحِيحُ الْمَشْهُورُ هُوَ الأَوَّلُ . وَالْمُرَادُ بِهِ عَلَى الْوَجْهَيْنِ : الصَّفَاءُ والاسْتِنَارة .

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فى باب من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها ، حديث جرير بن عبد الله البجلى ﷺ ، وهو حديث عظيم يتبين منه حرص النبى ـ ﷺ ـ وشفقته على أمته صلوات الله وسلامه عليه ، فبينما هم مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى أول النهار إذا جاء قوم عامتهم من مضر أو كلهم من مضر ، مجتابى النمار ، متقلدى السيوف ﷺ ، يعنى أن الإنسان ليس عليه إلا ثوبه قد اجتابه يستر به عورته ، وقد ربطه على رقبته ، ومعهم السيوف استعداداً لما يؤمرون به من الجهاد ﷺ .

فتمعر وجه النبى ـ ﷺ ـ يعنى تغير وتلون لما رأى فيهم من الحاجة ، وهم من مضر، من أشراف قبائل العرب ، وقد بلغت بهم الحاجة إلى هذا الحال ، ثم دخل بيته ثم خرج ثم أمر بلالاً فأذن ثم صلى ثم خطب الناس عليه الصلاة والسلام ، فحمد الله ـ ﷺ ـ كما هى عادته ، ثم قرأ قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء : ١] . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨] .

ثم حث على الصدقة ، فقال : « **تصدق رجل بديناره ، تصدق بدرهمه ، تصدق بثوبه ، تصدق بصاع بره ، تصدق بصاع تمره ، حتى ذكر ولو شق تمرة** » وكان الصحابة ﷺ أحرص الناس على الخير ، وأسرعهم إليه ، وأشدهم مسابقة ، فخرجوا إلى بيوتهم فجاءوا بالصدقات ، حتى جاء رجل بصرة معه فى يده كادت تعجز يده عن حملها ، بل قد عجزت من فضة ثم وضعها بين يدى الرسول عليه الصلاة والسلام .

ثم رأى ـ أى : جرير راوى الحديث ـ كومين من الطعام والثياب وغيرهما قد جُمع فى المسجد ، فصار وجه النبى عليه الصلاة والسلام بعد أن تمعر ، صار يتهلهل كأنه مذهبة ، يعنى من شدة بريقه ولمعانه وسروره عليه الصلاة والسلام لما حصل من هذه المسابقة التى فيها سد حاجة هؤلاء الفقراء ، ثم قال ـ ﷺ ـ : « **مَنْ سَنَّ فِى الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِه ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَىْءٌ ، وَمَنْ سَنَّ فِى الإِسْلامِ سُنَّةً سيئة كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ**

Marfat.com

أوزَارِهِمْ شَيء » .

والمراد بالسنة فى قوله - ﷺ - : « من سن فى الإسلام سنة حسنة » ابتدأ العمل بسنة وليس من أحدث، لأن من أحدث من الإسلام ما ليس منه فهو رد وليس بحسن ، لكن المراد بمن سنها أى : صار أول من عمل بها ، كهذا الرجل الذى جاء بالصدقة ﷺ فدل هذا على أن الإنسان إذا وفق لسن سنة حسنة فى الإسلام ، سواء بادر رليها أو أحياها بعد أن أميتت .

وذلك لأن السنة فى الإسلام ثلاثة أقسام :

سنة سيئة : وهى البدعة ، فهى سيئة ، وإن استحسنها من سنها ، لقول النبى - ﷺ : « كل بدعة ضلالة » (١) .

وسنة حسنة : وهى على نوعين :

النوع الأول : أن تكون السنة مشروعة ثم يترك العمل بها ثم يجددها من يجددها ، مثل قيام رمضان بإمام ، فإن النبى - ﷺ - شرع لأمته فى أول الأمر الصلاة بإمام فى قيام رمضان ، ثم تخلف خشية أن تفرض على الأمة ، ثم تُرِك الأمر فى آخر حياة النبى - ﷺ - ، وفى عهد أبى بكر ﷺ ، وفى أول خلافة عمر ، ثم رأى عمر ﷺ أن يجمع الناس على إمام واحد ففعل ، فهو ﷺ قد سن فى الإسلام سنة حسنة ؛ لأنه أحيا سنة كانت قد تُركت .

والنوع الثانى : من السنن الحسنة أن يكون الإنسان أول من يبادر إليها ، مثل حال الرجل الذى بادر بالصدقة حتى تتابع الناس ، ووافقوه على ما فعل .

فالحاصل أن من سن فى الإسلام سنة حسنة ، ولا سنة حسنة إلا ما جاء به الشرع فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده .

وقد أخذ هذا الحديث أولئك القوم الذين يبتدعون فى دين الله ما ليس منه ، فيبتدعون أذكاراً ويبتدعون صلوات ما أزل الله بها من سلطان ، ثم يقولون هذه سنة حسنة ، نقول : لا ، كل بدعة ضلالة وكلها سيئة ، وليس فى البدع من حسن ، لكن المراد فى الحديث من سابق إليها وأسرع ، كما هو ظاهر السبب فى الحديث ، أو من أحياها بعد أن أميتت ، فهذا له أجرها وأجر من عمل بها .

وفى هذا الحديث الترغيب فى فعل السنن التى أميتت وتُركت وهُجرت ، فإنه يكتب

---

(١) سبق تخريجه .

Marfat.com

لمن أحياها أجرها وأجر من عمل بها ، وفيه التحذير من السنن السيئة ، وأن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ـ حتى لو كانت فى أول الأمر سهلة ثم توسعت ، فإن عليه وزر هذا التوسع ، مثل لو أن أحدًا من الناس رخص لأحد فى شىء من المباح الذى يكون ذريعة واضحة إلى المحرم وقريبًا ، فإنه إذا توسع الأمر بسبب ما أفتى به الناس فإن عليه الوزر ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، نعم لو كان الشىء مباحًا ولا يخشى منه أن يكون ذريعة إلى محرم ، فلا بأس للإنسان أن يبينه للناس، كما لو كان الناس يظنون أن هذا الشىء محرم وليس محرم ، ثم بينه للناس من أجل أن يتبين الحق ، ولكن يخشى عاقبته فهذا لا بأس به ، أما شىء تُخشى عاقبته ، فإنه يكون عليه وزره ووزر من عمل به .

* * *

Marfat.com

٢٠ ـ باب الدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة

قال تعالى : ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ (القصص:٨٧) ،وقال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل:١٢٥) ،وقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ (آل عمران:١٠٤) .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى : (باب الدلالة على الخير والدعوة إليه) الدلالة على الخير يعنى أن يبين الإنسان للناس الخير الذى ينتفعون به فى أمور دينهم ودنياهم ، ومن دلَّ على خير فهو كفاعله [1] ، وأما الدعوة إليه فهى أخص من الدلالة ؛ لأن الإنسان قد يدل فيبين ولا يدعو ، فإذا دعا كان هذا أكمل وأفضل ، والإنسان مأمور بالدعوة إلى الخير أى الدعوة إلى الله عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ وادع إلىٰ ربك﴾ وآخر الآية : ﴿ إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ [الحج : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل : ١٢٥] وقال تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٠٤ ، ١٠٥] .

فهذه الآيات وأمثالها كلها تدل على أن الإنسان ينبغى له أن يكون داعيًا إلى الله ، ولكن لا يمكن أن تتم الدعوة إلا بعلم الإنسان بما يدعو إليه ؛ لأن الجاهل قد يدعو إلى شىء يظنه حقًا وهو باطل ، وقد ينهى عن شىء يظنه باطلاً وهو حق ، فلابد من العلم أولاً فيتعلم الإنسان ما يدعو إليه .

وسواء كان عالمًا متبحرًا فاهمًا فى جميع أبواب العلم ، أو كان عالمًا فى نفس المسألة التى يدعو إليها، يعنى ليس بشرط أن يكون الإنسان عالمًا متبحرًا فى كل شىء ، بل لنفرض أنك تريد أن تدعو الناس إلى إقام الصلاة فإذا فقهت أحكام الصلاة وعرفتها جيدًا فادعوا إليها وإن كنت لا تعرف غيرها من أبواب العلم ، لقول النبى - ﷺ - : « بلغوا

(١) مسلم (١٩٨٣) أبو داود (٣٦٧٥) الترمذى (١٢٩٤) .

Marfat.com

عني ولو آية »[(١)] .

ولكن لا يجوز أن تدعو بلا علم أبدًا ؛ لأن ذلك فيه خطر ، خطر عليك أنت ، وخطر على غيرك ، أما خطره عليك فلأن الله حرم عليك أن تقول على الله ما لا تعلم ، قال الله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] وقال تعالى ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي : لا تتبع ما ليس لك به علم ، فإنك مسئول عن ذلك : ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء : ٣٦] .

ولابد أيضًا من أن يكون الإنسان حكيمًا فى دعوته ، يُنْزِل الأشياء فى منازلها ، ويضعها فى مواضعها ، فيدعو الإنسان المقبل إلى الله عز وجل بقما يناسبه ، ويدعو الإنسان المعرض بما يناسبه ، ويدعو الإنسان الجاهل بما يناسبه ، كل أناس لهم دعوة خاصة، حسب ما يليق بحالهم ، ودليل هذا أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له : « إنك تأتى قومًا أهل كتاب »[(٢)] ، فأعلمه بحالهم من أجل أن يستعد لهم وأن ينْزِلهم مَنْزِلتهم ؛ لأنهم إذا كانوا أهل كتاب صار عندهم من الجدل بما عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم ، فالمشركون جهال ضلال لكن أهل الكتاب عندهم علم ، يحتاجون إلى استعداد تام ، وأيضًا يجابهون بما يليق بهم ، لأنهم يرون أنفسهم أهل كتاب وأهل علم ، فيحتاج الأمر إلى أن يراعوا فى كيفية الدعوة ،ولهذا قال له : إنك ستأتى قومًا أهل كتاب.

ولنضرب لهذا مثلاً واقعيًا ، لو أن رجلاً جاهلاً تكلم وهو يصلى يحسب أن الكلام لا يضر ، فهذا لا نوبخه ولا ننهره ولا نشدد عليه ، بل نقول له إذا فرغ من صلاته : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هى التسبيح والتكبير وقراءة القرآن[(٣)] ، لكن لو علمنا أن شخصًا يعمل أن الكلام فى الصلاة حرام ويبطلها ، لكنه إنسان مستهتر والعياذ بالله ، يتكلم ولا يبالى فهذا نخاطبه بما يليق به ونشدد عليه وننهره ، فلكل مقام مقال.

ولهذا قال تعالى : ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ﴾ والحكمة : أن تضع الأشياء فى مواضعها ، وتنْزِل الناس فى منازلها ، لا تخاطب الناس بخطاب واحد ، ولا تدعوهم بكيفية واحدة ، بل اجعل لكل إنسان ما يليق به .

---

(١) البخارى (٣٤٦١) الترمذى (٢٦٦٩) أحمد (٢/ ١٥٩) .

(٢) البخارى (١٤٥٨) مسلم (١٩) .

(٣) مسلم (٥٣٧) أبو داود (٩٣٠ ، ٣٢٨٢ ، ٣٩٠٩) النسائى (٣/ ١٤) .

Marfat.com

فلابد أن يكون الإنسان على علم بحال من يدعوه ؛ لأن المدعو له حالات : إما أن يكون جاهلاً أو معانداً مستكبراً ، أو يكون قابلاً للحق ولكنه قد خفى عليه مجتهداً متأولاً، فلكل إنسان ما يليق به .

ثم ذكر المؤلف قول الله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وسبيل الله هى دينه وشريعته التى شرعها الله لعباده ، وأضافها إلى نفسه لسببين : السبب الأول : أنه هو الذى وضعها عز وجل للعباد، ودلهم عليها . والثانى : أنها موصلة إليه ، فلا شيء يوصل إلى الله إلا سبيل الله التى شرعها لعباده ، على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

وقوله : ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ﴾ الحكمة قال العلماء : إنها من الإحكام ، وهو الإتقان وإتقان الشيء أن يضعه الإنسان فى موضعه ، فهى وضع الأشياء فى مواضعها ، وأما الموعظة فهى التذكير المقرون بالترغيب أو الترهيب ، فإذا كان الإنسان معه شيء من الإعراض فإنه يُوعظ ويُنصح.

فإن لم يُفد فيه ذلك فيقول تعالى : ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إذا كان الإنسان عنده شيء من المجادلة فيجادل، والمجادلة بالتى هى أحسن أى : من حيث المشافهة ، فلا تشدد عليه ولا تخفف عنه ،انظر ما هو أحسن ، بالتى هى أحسن أيضًا من حيث الأسلوب ، والإقناع ، وذكر الأدلة التى يمكن أن يقتنع بها ؛ لأن من الناس من يقتنع بالأدلة الشرعية أكثر مما يقتنع بالأدلة العقلية ، وهذا هو الذى عنده إيمان قوى .

ومن الناس من يكون بالعكس لا يقتنع بالأدلة الشرعية إلا إذا ثبت ذلك عنده بالأدلة العقلية ، فتجده يعتمد على الأدلة العقلية أكثر مما يعتمد على الأدلة الشرعية ، بل ولا يقتنع بالأدلة الشرعية إلا حيث تؤيدها عنده الأدلة العقلية ، وهذا النوع من الناس يخشى عليه من الزيغ والعياذ بالله ، إذا كان لا يقبل الحق إلا بما عقله بعقله الفاسد ، فهذا خطر عليه ، ولهذا كان أقوى الناس إيمانًا أعظمهم إذعانًا للشرع، أى : للكتاب والسنة ، فإذا رأيت من نفسك الإذعان للكتاب والسنة والقبول والانقياد فهذا يبشر بخير، وإذا رأيت من نفسك القلق على الأحكام الشرعية إلا حيث تكون مؤيدة عندك بالأدلة العقلية فاعلم أن فى قلبك مرض ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الاحزاب : ٣٦] . بحيث لا يمكن أن يختاروا شيئًا سوى ما قضاه الله ورسوله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الاحزاب : ٣٦] .

وقوله : ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وجاء فى آية العنكبوت : ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ

Marfat.com

الكتاب إلاَّ بالَّتي هي أحْسَنُ إلاَّ الَّذينَ ظَلَمُوا منْهُمْ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] فهؤلاء لا تلينوا معهم إذا كانوا ظالمين ، فقاتلوهم بالسيف حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وعلى هذا فتكون المراتب أربعة : الحكمة ، والموعظة ، المجادلة بالتى هى أحسن ، المجالدة بالسيوف لمن كان ظالمًا .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

[١/ ١٧٣] وعن أبي مسعود عُقْبَةَ بْن عَمْرو الأنْصَارِيّ الْبَدْرِيّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ » رواه مسلم .

الشرح

بقى من الآيات التى ذكرها المؤلف فى بـاب الدلالة علـى الخير ، قوله تعالى : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٤] . هذا أمر من الله عز وجل بأن يكون منا هذه الأمة والأمة بمعنى الطائفة، وترد الأمة فى القرآن الكريم على أربعة معان : أمة بمعنى الطائفة ، وأمة بمعنى الملة ، وأمة بمعنى السنين ، وأمة بمعنى الإيمان ، فمن الطائفة هذه الآية : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ أى طائفة ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إلى آخره.

والأمة بمعنى الدين ، مثل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ [المؤمنون:٥٢] . أى : دينكم دين واحد .

والأمة بمعنى السنين ، مثل قوله تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : ٤٥] أى : بعد زمن .

والأمة بمعنى الإيمان ، مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل : ١٢٠] .

فقوله هنا : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ اللام فى قوله ﴿وَلْتَكُن ﴾ للأمر ، ومن فى قوله ﴿مِّنكُمْ ﴾ فيها قولان لأهل العلم ، منهم من قال : إنها للتبعيض ، ومنهم من قال : إنها لبيان الجنس ، فعلى القول الأول يكون الأمر هنا أمرًا كفائيًا ، أى : إنه إذا قام به من يكفى سقط عن الباقين؛ لأنه قال : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ ﴾ يعنى بعض منكم يدعون إلى الخير ، وعلى القول الثانى يكون الأمر أمرًا عينيًا وهو أنه يجب على كل واحد أن

[١/ ١٧٣] صحيح : رواه مسلم (١٨٩٣) . أبو داود (٥١٣٩) احمد (٤/ ١٢٠) .

Marfat.com

يكرس جهوده لهذا الأمر ، يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

والدعوة إلى الخير تشمل كل شيء فيه مصلحة للناس في معاشهم ومعادهم ؛ لأن الخير كما يكون في عمل الآخرة يكون في عمل الدنيا ، كما قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة:٢٠١] . وما ينفع الناس من الأمور الدنيوية فهو خير، ولهذا سمى الله سبحانه وتـــعالى المال خيرًا ، فقال : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات:٨] . ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] المعروف ما عرفه الشرع وأقره ، والمنكر ما أنكره ونهى عنه ، فإذن يكون الأمر بالمعروف هو الأمر بطاعة الله والنهى عن المنكر هو النهى عن معصية الله ، فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ولكن لابد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من شروط ، هي :

الشرط الأول : أن يكون الآمر أو الناهى عالمًا بأن هذا معروف يأمر به ، وهذا منكر ينهى عنه ، فإن لم يكن عالمًا فإنه لا يجوز أن يأمر وينهى ، لقوله تعالى : ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦] . والتحريم والتحليل لا يكون بحسب العاطفة ؛ لأنه لو كان بحسب العاطفة والهوى لوجدنا من الناس من يكره كل شيء يستغربه ، حتى لو حصل شيء ينفع الناس وهو مستغرب له قال : هذا منكر ، ومن الناس من هو بالعكس يتهاون ويرى أن كل شيء معروف ، فالمعروف والمنكر أمرهما إلى الشارع .

ويُذكر لى أنه كان بعض الناس أول ما ظهرت السيارات يقولون : إن الحج على السيارة ربع حجة ، ومقتضى هذا أن الإنسان لا يؤدى الفرض إلا بأربع حجج ، يعنى كل واحدة ربع ، ما تكون واحدة كاملة إلا بأربع مرات ، فقال بعض الناس ونحن نذكر هذا ونحن صغار : إذن الحج على الطائرات بمقتضى قياسهم يكون ثمن حج ، أو عُشر على كل حال بعض الناس إذا استغرب شيئًا قال : هذا منكر .

كذلك أول ما ظهرت مكبرات الصوت أنكرها بعض الناس ، وقال : إن هذا منكر، كيف نؤدى الصلاة أو الخطبة بهذه الأبواق اتلى تشبه بوق اليهود ؟! ومن العلماء المحققين كشيخنا عبد الرحمن السعدى ـ رحمه الله ـ قال : إن هذه من نعمة الله ، أن الله يسر لعباده ما يوصل أصوات الحق إلى الخلق ، وأن مثل هذه كمثل نظارات العين ، فالعين إذا ضعف النظر تحتاج إلى تقوية بلبس النظارات ، فهل نقول : لا تلبس النظارات لأنها تقوى النظر وتكبر الصغير ؟ لا ، لا نقول هكذا .

فالحاصل أن المعروف والمنكر أمرهما إلى الله ورسوله ، لا إلى ذوق الإنسان ، أو

Marfat.com

هوى الإنسان ، أو فكر الإنسان .

إذن لابد أن يكون الإنسان عالمًا بأن هذا معروف وهذا منكر ، هذا معروف يأمر به ، وهذا منكر ينهى عنه ، ولكن ما الطريق إلى معرفة ذلك ؟ الطريق إلى معرفة ذلك الكتاب والسنة فقط ، أو إجماع الأمة ، أو القياس الصحيح ، وإجماع الأمة والقياس الصحيح كلاهما مستند إلى الكتاب والسنة ، ولولا الكتاب والسنة ما عرفنا أن الإجماع حُجة وأن القياس حُجة .

والشرط الثانى : أن يعلم بوقوع المنكر من الشخص المدعو ، أو بتركه للمعروف ، فإن كان لا يعلم فإنه لا يرجم الناس بالغيب ، مثال ذلك لو أن رجلاً دخل المسجد وجلس، فإن الذى تقتضيه الحكمة أن يسأله : لماذا جلس ولم يصل ؟ ولا ينهاه أو يزجره، بدليل أن النبى - ﷺ - كان يخطب الناس يوم الجمعة فدخل رجل فجلس ، فقال له : « **أصليت ؟** » قال : لا . قال : « **قم فصل ركعتين** »[1] فلم يزجره حين ترك الصلاة ؛ لأنه يحتمل أن يكون صلى والنبى عليه الصلاة والسلام لم يره .

كذلك أيضًا إذا رأيت شخصًا يأكل فى نهار رمضان أو يشرب فى نهار رمضان ، فلا تزجره ، بل اسأله ربما يكون له عذر فى ترك الصيام . قل له : لماذا لم تصم ؟ فقد يكون مسافرًا ، وقد يكون مريضًا مرضًا يحتاج معه إلى شرب الماء بكثرة ، مثل أوجاع الكلى تحتاج إلى شرب ماء كثير ، ولو كان الإنسان صحيحًا فيما يظهر للناس ، فالمهم أنه لابد أن تعرف أنه ترك المعروف حتى تأمره به ، ولابد أيضًا أن تعرف أنه وقع فى المنكر حتى تنهاه عنه ؛ لأنه قد لا يكون واقعًا فى المنكر وأنت تظنه واقعًا.

مثال ذلك : إذا رأيت رجلاً فى سيارة ومعه امرأة ، فهناك احتمال أن المرأة أجنبية عنه، وهناك احتمال أن تكون المرأة من محارمه ، أو أنها زوجته إذن لا تنكر عليه ، حتى تعلم أنه فعل منكرًا ، وذلك بقرائن الأحوال ، لو فرضنا مثلاً أن الإنسان رأى ريبة من هذا الشخص لكونه أهلاً لسوء الظن ، ورأى حركات ، والإنسان العاقل البصير يعرف، فهذا ربما نقول يتوجه ويسأل : من هذه المرأة التى معك ؟ أو لماذا تحمل امرأة فى سيارتك ليست محارمك ؟ ولكن ليس ذلك لمجرد أن ترى رجلاً يمشى مع امرأة أو حاملاً امرأة فى سيارته تنكر عليه وأنت لا تدرى هل هذا منكر أم لا .

والمهم أنه لابد من العلم بأن هذا معروف وهذا منكر ، ولابد من العلم أن هذا ترك المعروف وفعل المنكر .

---

(١) البخارى (٩٣١) مسلم (٨٧٥) .

Marfat.com

الشرط الثالث : ألا يتحول المنكر إذا نهى عنه إلى أنكر منه وأعظم ، مثال ذلك لو رأينا شخصًا يشرب الدخان ، فشرب الدخان حرام لاشك ، ومنكر يجب إنكاره، لكننا لو أنكرنا عليه لتحول إلى شرب الخمر ، يعنى أنه ذهب إلى الخمارين وشرب الخمر فهنا لا ننهاه عن منكره الأول ؛ لأن منكره الأول أهون ، وارتكاب أهون المفسدتين واجب إذا كان لابد من ارتكاب العليا .

ودليل هذا الشرط قول الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] . فسب آلهة المشركين من الأمور المطلوبة شرعًا ، ويجب علينا أن نسب آلهة المشركين ، وأن نسب أعياد الكفار وأن نحذر منها ، وألا نرضى بها ، وأن نبصر إخواننا الجهال السفهاء بأنه لا يجوز مشاركة الكفار فى أعيادهم ؛ لأن الرضا بالكفر يخشى أن يوقع صاحبه فى الكفر والعياذ بالله، هل ترضى أن شعائر الكفر تقام وتشارك فيها ؟ لا يرضى بهذا أحد من المسلمين ، لهذا قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ وهو من تلاميذ شيخ الإسلام البارزين قال : إن الذى يشارك هؤلاء فى أعيادهم ، ويهنئهم فيها، إن لم يكن أتى الكفر فإنه قد فعل محرمًا بلا شك ، وصدق رحمه الله ، ولهذا يجب علينا أن نحذر إخواننا المسلمين من مشاركة الكفار فى أعيادهم؛ لأن مشاركتهم فى أعيادهم أو تهنئتهم فيها مثل قول : عيد مبارك ، أو هنأك الله بالعيد، وما أشبه ذلك ، لا شك أنه رضًا بشعائر الكفر والعياذ بالله .

أقول : إن سب آلهة المشركين وشعائر المشركين وغيرهم من الكفار الكتابيين أمر مطلوب شرعًا ، ولكن إذا كان يؤدى إلى شىء أعظم منه نكرًا فإنه يُنهى عنه ، يقول الله عز وجل : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ يعنى الأصنام ، لا تسبوها ﴿ فيسبوا الله عدوا بغير علم ﴾ يعن أنكم إذا سببتم آلهتهم سبوا إلهكم، وهو الله عز وجل ﴿عدوًا بغير علم﴾ يعنى عدوانًا منهم بغير علم ، أما أنتم إذا سببتم آلهة المشركين فإنه بعدل وعلم ، لكن سبهم لإلهكم عدوان بلا علم ، فأنتم لا تسبوهم فيسبوا الله.

إذن نأخذ من هذه الآيات الكريمة أنه إذا كان نهى الإنسان عن منكرٍ ما ، يوقع الناس فيما هو أنكر منه ، فإن الواجب الصمت ، الصمت حتى يأتى اليوم الذى يتمكن فيه من النهى عن المنكر ليتحول إلى معروف .

ويُذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ مر فى الشام على قوم من التتار ـ والتتار أمة معروفة سلطها الله على المسلمين فى سنة من السنوات ، وحصل بهم فتنة كبيرة عظيمة ـ ومعه صاحب له ، مر شيخ الإسلام ابن تيمية بقوم منهم يشربون الخمر فسكت

Marfat.com

وما نهاهم ، فقال له صاحبه : لماذا لم تنه عن هذا المنكر ؟ قال له : إن نهيناهم عن هذا الشيء لذهبوا يفسدون نساء المسلمين بالزنى ، ويستبيحون أموالهم ، وربما يقتلونهم ، وشرب الخمر أهون ، وهذا من فقهه ـ رحمه الله ورضى عنه ـ أن الإنسان إذا كان يخشى أن يزول المنكر ويتحول إلى أنكر منه فإن الواجب الصمت .

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ وليس من شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ أن يكون الإنسان أول فاعل للمعروف وأول منته عن المنكر ، بمعنى أنه لا يأمر بالمعروف ثم لا يفعله ، أو لا ينه عن المنكر ثم يقع فيه ؛ لأن هذا داخل فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ ، ٣] . وفى الحديث الصحيح « **إنه يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار حتى تندلق أقتاب بطنه** » أقتاب بطنه : يعنى أمعاءه ، وتندلق : يعنى تنفجر ، « **فيدور عليها كما يدور الحمار على رحاه ، فيجتمع إليه أهل النار ، ويقولون له: مالك يا فلان ، ألست تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ، فيقول : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وكنت أنهاكم عن المنكر وآتيه** » (١) فيقول ما لا يفعل والعياذ بالله . فمن آداب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أنيكون الإنسان أول ممتثل للأمر وأول منته عن النهى .

ذكر أن ابن الجوزى الواعظ المشهور وهو من أصحاب الإمام أحمد يعنى ممن يقلدون الإمام أحمد ، وكان واعظًا مشهورًا بالوعظ ، يوضع له كرسى يوم الجمعة ويلقى المواعظ، ويحضره مئات الآلاف ، وكان من شدة تأثيره على القلوب أن بعض الحاضرين يصعق ويموت ، فجاءه ذات يوم عبد رقيق ، فقال له : يا سيدى ، إن سيدى يتعبنى ، ويشق على ، ويأمرنى بأشياء ما أطيقها ، فلعلك تعظ الناس وتحثهم على العتق فيُعتقنى ، فقال : نعم أفعل فبقى جمعة أو جمعتين أو ما شاء الله ولم يتكلم عن العتق بشىء .

ثم تكلم يومًا من الأيام عن العتق فأثر ذلك فى نفوس الناس فأعتق الرجل عبده ، فجاء إليه العبد ، وقال له : يا سيدى ، أنا قلت لك تكلم عن العتق منذ زمن ، ولم تتكلم إلا الآن ! قال : نعم ، لأنى لست أملك عبدًا فأعتقه ، ولا أحب أن أحث على العتق وأنا ما عتقت ـ سبحان الله ـ فلما من الله علىَّ بعبد وأعتقته صار لى مجال أن أتكلم فى العتق .

فالحاصل أن هذا من آداب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الداعين إلى الخير الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، إنه جواد كريم .

---

(١) البخارى (٣٢٦٧) مسلم (٢٩٨٩) .

Marfat.com

[٢/ ١٧٤] وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً** » رواه مسلم .

[٣/ ١٧٥] وعن أبي العباس سَهْل بنِ سعد السَّاعديِّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يَوْم خَيْبَرَ : « **لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** » فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوا عَلَى رسول الله ﷺ : كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا ، فقال : « **أَيْنَ عَلِيُّ بن أبي طالب ؟** » فَقِيلَ: يا رسول الله ، هو يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ قال : « **فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ** » فأُتِي به ، فَبَصَقَ رسول الله ﷺ في عَيْنَيْهِ ، وَدَعَا لَهُ ، فَبَرأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ ، فَأَعطَاهُ الرَّايَةَ . فقال عَلِيٌّ رضي الله عنه : يا رسول الله أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونوا مِثْلَنَا ؟ فَقَالَ : « **انفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِم ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِي اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ** » متفقٌ عليه .

قوله : « يَدُوكُونَ » : أي يَخُوضُونَ وَيَتَحَدَّثُونَ ، قَوْلُهُ : « رِسْلِكَ » بكسر الراءِ وَبِفَتْحِهَا لُغَتَانِ ، وَالْكَسْرُ أَفْصَحُ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيم تقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ـ ﷺ ـ قال : **«مَن دعا إلى هدى كان له من الأجر مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمَ شَيْئًا»** مَن دَعَا إلى هدى : يعني بينه للناس ودعاهم إليه ، مثل أن يبين للناس أن ركعتي الضحى سنة ، وأنه ينبغي للإنسان أن يصلي ركعتين في الضحى ، ثم تبعه الناس وصاروا يصلون الضحى ، فإن له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، لأن فضل الله واسع(١) .

أو قال للناس مثلاً : اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا ، ولا تناموا إلا على وتر إلا

[٢/ ١٧٤] صحيح : رواه مسلم (٢٦٧٤) . الترمذي (٢٦٧٤) ابن ماجه (٢٠٦) .

[٣/ ١٧٥] صحيح : رواه البخاري (٤٢١٠) ، ومسلم (٢٤٠٦) .

(١) البخاري (٩٩٨) مسلم (٧٥١) .

Marfat.com

من طمع أن يقوم من آخر الليل فليجعل وتره فى آخر الليل، فتبعه ناس على ذلك فإن له مثل أجرهم ، يعنى كلما أوتر واحد هداه الله على يده فله أجره ، وكذلك بقية الأعمال الصالحة .

« وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ مَنْ تَبِعَه لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا» أى : إذا دعا إلى وزر وإلى ما فيه الإثم ، مثل أن يدعو الناس إلى لهو أو باطل أو غناء أو ربا أو غير ذلك من المحارم ، فإن كل إنسان تأثر بدعوته فإنه يُكتب له مثل أوزارهم ؛ لأنه دعا إلى الوزر والعياذ بالله .

واعلم أن الدعوة إلى الهدى والدعوة إلى الوزر تكون بالقول ، كما لو قال افعل كذا، افعل كذا ، وتكون بالفعل خصوصًا من الذى يقتدى به من الناس ، فإنه إذا كان يُقتدى به ثم فعل شيئًا فكأنه دعا الناس إلى فعله ، ولهذا يحتجون بفعله ويقولون : فعل فلان كذا، وهو جائز ، أو ترك كذا وهو جائز .

فالمهم أن من دعا إلى هدى كان له مثل أجر من اتبعه ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه مثل وزر من اتبعه .

وفى هذا : دليل على أن المتسبب كالمباشر ، المتسبب للشيء كالمباشر له ، فهذا الذى دعا إلى الهدى تسبب فكان له مثل أجر من فعله ، والذى دعا إلى السوء أو إلى الوزر تسبب فكان عليه مثل وزر من اتبعه .

وقد أخذ العلماء الفقهاء ـ رحمهم الله ـ من ذلك قاعدة : بأن السبب كالمباشرة ، لكن إذا اجتمع سبب ومباشرة أحالوا الضمان على المباشرة ، لأنها أمس بالإتلاف .

أما حديث أبى العباس سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبى ـ ﷺ ـ قال يوم خيبر : « لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْه ، يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ » وهذا يتضمن بشرى عامة وبشرى خاصة ، أما العامة فهى قوله : « يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ » ، وأما الخاصة فهى قوله : « يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ » .

وخيبر مزارع وحصون لليهود ، كانت نحو مائة ميل فى الشمال الغربى من المدينة ، سكنها اليهود كما سكن طائفة منهم المدينة نفسها ؛ لأن اليهود يقرءون فى التوراة أنه سيُبعث نبى ، وسيكون مهاجره إلى المدينة ، وتسمى فى العهد القديم يثرب ، لكنه نُهى عن تسميتها يثرب ، وأنه سيهاجر إلى المدينة وسيقاتل وينتصر على أعدائه ، فعلموا أن هذا حقو ذهبوا إلى المدينة وسكنوها ، وسكنوا خيبر ، وكانوا يظنون أن هذا النبى سيكون من بنى إسرائيل ، فلما بُعث من بنى إسماعيل من العرب حسدوهم ، وكفروا به والعياذ بالله،

Marfat.com

بعد أن كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة : ٨٩] . وقالوا : ليس هذا هو النبى الذى بُشرنا به .

وحصل منهم ما حصل من العهد مع النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم الخيانة ، وكانوا فى المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكلهم عاهد النبى عليه الصلاة والسلام ، ولكنهم نقضوا العهد كلهم .

فهزمهم الله ـ والحمد لله ـ على يد النبى ـ ﷺ ـ ، وكان آخرهم بنى قريظة الذين حكم فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بأن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى نساؤهم وذريتهم ، وتغنم أموالهم ، وكانوا سبعمائة ، فأمر النبى ـ ﷺ ـ يقتلهم فحصدوهم عن آخرهم (١) ، وهكذا اليهود أهل غدر وخيانة ونقض للعهود ، منذ بُعث فيهم موسى عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا وإلى يوم القيامة ، هم أغدر الناس بالعهد ، وأخونهم بالأمانة ، ولذلك لا يوثق منهم أبدًا ، لا صرفًا ولا عدلاً ، ومن وثق بهم أو وثق منهم فإنه فى الحقيقة لم يعرف سيرتهم منذ عهد قديم .

المهم أن خيبر كانت حصون ومزارع لهم وغزاهم النبى عليه الصلاة والسلام ، وفتح الله عليه يديه .

فقال النبى ـ ﷺ ـ : « **لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ ، يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ** » وهذان منقبتان عظيمتنا .

الأولى : أن يفتح الله على يديه ؛ لأن من فتح الله على يديه نال خيرًا كثيرًا ، فإنه إن هدى الله به رجلاً واحدًا ، كان خيرًا له من حمر النعم ، يعنى من الإبل الحمر ، وإنما خص الأبل الحمر ؛ لأنها أغلى الأموال عند العرب .

الثانية : يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله وفى ذلك فضل لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه ؛ لأن الناس فى تلك الليلة جعلوا يدوكون ، يعنى يخوضون ويتكلمون : مَن هذا الرجل ؟

فلما أصبح النبى ـ ﷺ ـ قال : « **أين على بن أبى طالب ؟** » فقيل : هو يشتكى عينيه، يعنى أن عينيه توجعه ويشتكيها ، فدعا به فأتى به ، فبصق فى عينيه ، ودعا له فبرىء كأن لم يكن به وجع ، وهذه من آيات الله عز وجل ، فليس هناك قطرة ولا كى، وإنما هو ريق النبى ـ ﷺ ـ ودعاؤه .

---

(١) البخارى (٣٠٤٣) مسلم (١٧٦٨) .

Marfat.com

وفيه أيضًا : دليل على أنه يجوز للناس أن يتحدثوا فى الأمر ليتفرَّسوا فيمن يصيبه؛ لأن الصحابة صاروا فى تلك الليلة يدوكون ليلتهم : من يحصل هذا ؟ وكل واحد يقول : لعله أنا .

وفيه أيضًا : دليل على أن الإنسان قد يهبه الله تعالى من الفضائل ما لم يخطر له على بال، فعليٌ ليس حاضرًا ، وربما لا يكون عنده علم بأصل المسألة ، ومع ذلك جعل الله له هذه المنقبة ، ففى هذا دليل على أن الإنسان قد يحرم الشىء مع ترقبه له ، وقد يُعطى الشىء مع عدم خطورته على بال .

« فأعطاه الراية » ، الراية يعنى العلَم ، والعَلَمُ الذى يكون علمًا على القوم فى حال الجهاد ؛ لأن الناس فى الجهاد يقسمون ، هؤلاء إلى جانب ، وهؤلاء إلى جانب ، وهذه القبيلة وهذه القبيلة ، أو هذا الجنس من الناس كالمهاجرين مثلاً والأنصار ، كل له راية أى علم يدل عليه .

فقال على رضي الله عنه : يا رسول الله ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، يعنى أقاتلهم حتى يكونوا مسلمين ، أم ماذا ؟ فقال له النبى - ﷺ - : « **انفذ على رسلك ، حتى تنزل بساحتهم**» ولم يقل له : قاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، وذلك لأن الكفار لا يقاتلون على الإسلام ويرغمون عليه ، وإنما يقاتلون ليذلوا لأحكام الإسلام ، فإن أسلموا فلهم وإن كفروا فعليهم ، ولكن يذلوا لأحكام الإسلام فيعطون الجزية عن يد وهم صاغرون أو يدخلون فى الإسلام .

وقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ : هل هذا خاص بأهل الكتاب أى مقاتلتهم حتى يعطوا الجزية ، أو أنه عام لجميع الكفار ؟ فأكثر العلماء يقولون : إن الذى يقاتل حتى يعطى الجزية أو يسلم هم أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وأما غيرهم فيقاتلون حتى يسلموا ، ولا يقبل منهم إلا الإسلام ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة :٢٩] . فقال : قاتلوهم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ .

والصحيح أنه عام ، ودليل ذلك أن النبى - ﷺ - أخذ الجزية من مجوس هجر ، وهم ليسوا أهل كتاب ، كما أخرجه البخارى [(١)] ، ودليل آخر : حديث بريدة بن الحصيب الذى أخرجه مسلم ، أن النبى - ﷺ - كان إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه ومن

(١) البخارى (٣١٥٧) .

Marfat.com

معه من المسلمين خيراً (١) ، وذكر فى الحديث أنه يدعوهم إلى الإسلام ، فإن أبوا فالجزية، فإن أبوا يقاتلهم .

والصحيح أن هذا عام ، ولذلك لم يقل النبى ـ ﷺ ـ لعلى حين سأله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، نعم قاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، وإنما أرشده أن يفعل ما أمره به ، وأن يمشى على رسله ، حتى ينزل بساحتهم .

قوله : « **على رسلك** » أى : لا تمش عجلاً ، فتتعب أنت وتتعب الجيش ، ويتعب من معك ، ولكن على رسلك « **حتى تَنْزِل بساحتهم** » أى : بجانبهم ، « **ثم ادعهم إلى الإسلام** » قوله ـ ﷺ ـ : « **ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ** » فأمره ـ ﷺ ـ بأمرين :

الأمر الأول : الدعوة إلى الإسلام ، بأن يقل لهم : أسلموا ، إذا كانوا يعرفون معنى الإسلام ، ويكفى ذلك ، وإن كانوا لا يعرفونه فإنه يبين لهم أن الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت .

الأمر الثانى : قال : « **وأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله تعالى فيه** » وهو السمع والطاعة لأوامر الله ورسوله ، لأجل أن يكون الداخل فى الإسلام داخلاً علَى بصيرة ؛ لأن بعض الناس يدخل فى الإسلام على أنه دين ، ولكن لا يدرى ما هو ، ثم إذا بُينت له الشرائع ، ارتد والعياذ بالله ، فصار كفره الثانى أعظم من كفره الأول ؛ لأن الردة لا يُقر عليها صاحبها ، بل يقال له : إما أن ترجع لما خرجت منه ، وإما أن نقتلك .

ولهذا ينبغى لنا فى هذا العصر لما كثر الكفار بيننا من نصارى وبوذيين ومشركين وغيرهم ، إذا دعوناهم إلى الإسلام أن نبين لهم الإسلام أولاً ، ونشرحه شرحًا يتبين فيه الأمر، حتى يدخلوا على بصيرة ، لا نكتفى بقولنا : أسلموا فقط ؛ لأنهم لا يعرفون ما يجب عليهم من حق الله تعالى فى الإسلام ، فإذا دخلوا على بصيرة صار لنا العذر فيما بعد ، إذا ارتدوا أن نطلب منهم الرجوع إلى الإسلام أو نقتلهم ، أما إن بُيِّن لهم إجمالاً هكذا ، فإنها دعوة قاصرة ، والدليل على هذا حديث سهل بن سعد رضي الله عنه الذى نشرحه .

وفى هذا الحديث فى قوله ـ ﷺ ـ : « **فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِىَ اللهُ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ** » يهديه : أى : يوفقه بسببك إلى الإسلام فإنه خير لك من حمر النعم يعنى من الإبل الحمر ، وذلك لان الإبل الحمر عند العرب كانت من أنفس الأموال، إن لم تكن

(١) مسلم (١٧٣١) أبو داود (٢٦١٢) الترمذى (١٦١٧ ، ١٤٠٨) ابن ماجه (٢٨٥٨) .

Marfat.com

أنفس الأموال ، ففعل - ﷺ - ونزل بساحتهم ، ودعاهم إلى الإسلام ولكنهم لم يسلموا.

ثم فى النهاية كانت الغلبة - ولله الحمد - للمسلمين ، ففتح الله على يدى على بن أبى طالب ، والقصة مشهورة فى كتب المغازى والسير ، لكن الشاهد من هذا الحديث ، أنه أمره أن يدعوهم إلى الإسلام ، وأن يخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه .

وفى هذا الحديث من الفوائد : ظهور آية من آيات النبى - ﷺ - وهى أنه لما بصق فى عينى على بن أبى طالب برىء حتى كأن لم يكن به وجع ، وفيه أيضًا آية أخرى، وهو قوله: يفتح الله على يديه ، وهو خبر غيبى ، ومع ذلك فتح الله على يديه .

وفيه أيضًا من الفوائد : أنه ينبغى نصب الرايات فى الجهاد ، وهى الأعلام ، وأن يُجعل لكل قوم راية معينة يعرفون بها كما سبقت الإشارة إليه .

وفيه أيضًا من الفوائد : تحرى الإنسان للخير والسبق إليه ؛ لأن الصحابة جعلوا فى تلك الليلة يدوكون ليلتهم ، يعنى يدوكون فى ليلتهم ، فهى منصوبة على الظرفية ، يعنى أنهم يبحثون من يكون ؟

وفيه أيضًا : أن الإنسان قد يعطى الشىء من غير أن يخطر له على بال ، وأنه يحرم من كان متوقعًا أن يناله هذا الشىء ؛ لأن على بن أبى طالب كان مريضًا فى عينيه، ولا أظن أنه يخطر بباله أن رسول الله - ﷺ - سيعطيه الراية ، ومع ذلك أدركها ، ففضل الله تعالى يؤتيه من يشاء ، والله الموفق .

❊ ❊ ❊

[١٧٦/٤] وعن أنس ﷺ أنَّ فَتىً مِنْ أسلَمَ قال : يا رسُولَ اللهِ ، إنى أُريد الْغَزْوَ ولَيْس مَعِى مَا أتجهَّزُ به ؟ قَالَ : « ائت فُلاناً فإنه قَدْ كانَ تَجهَّزَ فَمَرِضَ » ، فَأتَاهُ فقال : إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يُقرِئكَ السَّلامَ ويَقُولُ : أعطنى الَّذى تجهَّزْتَ به ، فقال : يَا فُلانَةُ ، أعْطِيهِ الَّذى تجهزتُ بِهِ ، ولا تحْبِسِى مِنْه شَيْئاً ، فَوَاللهِ لا تَحْبِسين مِنْه شيْئاً فَيُبَارَكَ لَكِ فِيه . رواه مسلم .

الشرح

هذا الحديث الذى ذكره المؤلف فيه الدلالة على الخير ، فإن رجلاً جاء إلى النبى - ﷺ يطلب منه أن يتجهز إلى الغزو ، فأرشده النبى - ﷺ - ودله على رجل كان قد تجهز

[١٧٦/٤] صحيح : رواه مسلم (١٨٩٤) أبو داود (٢٧٨٠) .

Marfat.com

براحلته وما يلزمه لسفره ولكنه مرض ، فلم يتمكن من الخروج إلى الجهاد ، فجاء الرجل إلى صاحبه الذى كان قد تجهز ، فأخبره بما قال النبى - ﷺ - ، فقال الرجل لامرأته: أخرجى ما تجهزت به ، ولا تحبسى منه شيئًا ، فو الله لا تحبسين منه فيُبارك لنا فيه .

ففى هذا : دليل على أن الإنسان إذا دلَّ أحدًا على الخير فإنه يثاب على ذلك وقد سبق أنه « **من دل على خير فله مثل أجر فاعله** »[1] وفيه دليل : أيضًا على أن من أراد عملاً صالحًا فحبسه عنه مرض ، فإنه ينبغى أن يدفع ما بذله لهذا العمل الصالح إلى من يقوم به حتى يكتب له الأجر كاملاً ؛ لأن الإنسان إذا مرض وقد أراد العمل وتجهز له ، ولكن حال بينه وبينه مرضه ، فإنه يُكتب له الأجر كاملاً ولله الحمد ، قال الله تعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠] .

وفيه : دليل أيضًا من كلام الصحابة ﷺ أن الإنسان إذا بذل الشىء فى الخير فإن الأفضل أن ينفذه ، فمثلاً لو أردت أن تتصدق بمال ، وعزلت المال الذى تريد أن تتصدق به أو تبذله فى مسجدٍ ، أو فى جمعية خيرية أو ما أشبه ذلك ، فلك الخيار أن ترجع عما فعلت ، لأنه ما دام الشىء لم يبلغ محله فهو بيدك ، ولكن الأفضل أن تنفذه ولا ترجع فيما أردت من أجل أن تكون من السبَّاقين إلى الخير ، والله الموفق .

❊ ❊ ❊

(١) مسلم (١٩٨٣) أبو داود (٣٦٧٥) الترمذى (١٢٩٤) .

Marfat.com

٢١ ـ باب التعاون على البر والتقوى

قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ . إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (سورة العصر) .

قال الإمَامُ الشَّافِعِي رَحِمَه الله كَلاماً مَعْنَاهُ : إنّ النَّاسَ أوْ أكْثَرهُم في غَفْلَةٍ عَنْ تَدَبُّرِ هذه السُّورَةِ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : (باب التعاون على البر والتقوى) التعاون معناه التساعد ، وأن يعين الناس بعضهم بعضًا على البر والتقوى ، فالبر : فعل الخير ، والتقوى : اتقاء الشر .

وذلك أن الناس يعماون على وجهين ، على ما فيه الخير ، وعلى ما فيه الشر ، فأما ما فيه الخير فالتعاون عليه أن تساعد صاحبك على هذا الفعل وتيسر له الأمر ، سواء كان هذا يتعلق بك أو مما يتعلق بغيرك ، وأما الشر فالتعاون فيه بأن تحذر منه ، وأن تمنع منه ما استطعت ، وأن تشير على من أراد أن يفعله بتركه وهكذا ، فالبر فعل الخير ، والتعاون عليه والتساعد عليه وتيسيره للناس ، والتقوى اتقاء الشر ، والتعاون عليه بأن تحول بين الناس وبين فعل الشر ، وأن تحذرهم منه ، حتى تكون الأمة أمة واحدة .

والأمر في قوله ﴿وتَعَاوَنُوا﴾ أمر إيجاب فيما يجب ، واستجاب فيما يستحب ، وكذلك في التقوى أمر إيجاب فيما يحرم ، وأمر استحباب فيما يكره .

وأما الدليل الثاني : في التعاون على البر والتقوى ، فهو ما ذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ من سياق سورة العصر ، حيث قال الله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ . إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فاقسم الله تعالى بالعصر الذى هو الزمن ، وإنما أقسم الله تعالى به لأن الزمن هو وعاء الأعمال ، والناس فيه منهم من يملؤه خيرًا ومنهم من يملؤه خيرًا ومنهم من يملؤه شرًا ، وأقسم بالعصر لمناسبة المقسم به للمقسم عليه ، وهو أعمال العباد فقال : ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ الإنسان عام ، يشمل كل إنسان ، من مؤمن وكافر ، وعدل وفاسق ، وذكر وأنثى ، كل الإنسان في خسر ، خاسر كل عمله ، خسران عليه ، تعب في الدنيا وعدم فائدة في الآخرة إلا من جمع هذه

Marfat.com

الأوصاف الأربعة : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فأصلحوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح ، وأصلحوا غيرهم بالتواصى بالحق والتواصى بالصبر .

فالإيمان يكون بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، مما أخبر به الله ورسوله ، وقد بينه الرسول ـ ﷺ ـ فى قوله : « **الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره** »(١) ، ستة أركان .

وأما عمل الصالحات ، فهو كل ما يقرب إلى الله ، ولا يكون العمل صالحًا إلا بشرطين ، هما : الإخلاص لله عز وجل ، والمتابعة لرسوله .

الإخلاص لله : بمعنى ألا تقصد بعملك مراءاة عباد الله ، لا تقصد إلا وجه الله والدار الآخرة .

وأما المتابعة : فهى المتابعة للرسول ـ ﷺ ـ بحيث لا تأتى ببدعة ؛ لأن البدعة وإن أخلص الإنسان فيها مردودة « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد** »(٢) والعبادة التى فيها الاتباع ولكن فيها رياء مردودة أيضًا ، لقوله تعالى ـ فى الحديث القدسى ـ : « **أنا أغنى الشركاء عن أشرك ، من عمل عملاً الشرك فيه معى غيرى تركته وشركه** »(٣) .

وأما قوله : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعنى أن بعضهم يوصى بعضهم بالحق ، وهو ما جاءت به الرسل ، وتواصوا بالصبر عليه ؛ لأن النفس تحتاج إلى صبر لفعل الطاعات وترك المحرمات .

قال الشافعى ـ رحمه الله ـ : لو لم يُنَزِّل الله على عباده سورة غير هذه السورة لكفتهم . لأنها جامعة مانعة . نسأل الله تعالى أن يجعلنى وإياكم من المؤمنين العاملين الصالحات ، المتواصين بالحق ، المتواصين بالصبر .

* * *

[١٧٧/١] عن أبى عبد الرحمن زيد بن خالد الْجُهَنِىِّ رضي الله عنه قَالَ : قالَ رَسُول اللَّه ﷺ : « **مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فِى سَبِيلِ اللَّه فَقَدْ غَزَا ، ومنْ خَلَفَ غَازِياً فِى أَهْلِه بِخَيْرٍ**

(١) مسلم (٨) أحمد (٣١٩/١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) سبق تخريجه .

[١٧٧/١] صحيح : رواه البخارى (٢٨٤٣) ، ومسلم (١٨٩٥) .

Marfat.com

فَقَدْ غَزَا » متفقٌ عليه .

[٢/ ١٧٨] وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللّه ﷺ ، بَعَثَ بَعْثًا إلى بَنى لِحْيانَ مِنْ هُذَيْل فقالَ: «لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أحَدُهُمَا وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا » رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فى هذا ـ باب التعاون على البر والتقوى ـ ما ثبت عن النبى ـ ﷺ ـ فى قوله : « مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سبيل الله فَقَدْ غَزا ، وَمَن خَلَفَ غازِيًا فى أهله بخَيْرٍ فَقَد غَزَا » وهذا من التعاون على البر والتقوى ، إذا جهز الإنسان غازيًا، يعنى براحلته ومتاعه وسلاحه ، ثلاثة أشياء : الراحلة والمتاع والسلاح ، إذا جهزه بذلك فقد غزا ، أى: كتب له أجر الغازى ؛ لأنه أعانه على الخير .

وكذلك من خلفه فى أهله بخير فقد غزا ، يعنى لو أن الغازى أراد أن يغزو ولكنه أشكل عليه أهله من يكون عند حاجاتهم ، فانتدب رجلاً من المسلمين ، وقال : أنا أخلفك فى أهلك بخير ، فإن هذا الذى خلفه يكون له أجر الغازى ، أجر الغازى لأنه أعانه .

إذن فإعانة الغازى تكون على وجهين : الأول : أن يعينه فى رحله ومتاعه وسلاحه، والثانى : أن يعينه فى كونه خلف عنه فى أهله ؛ لأن هذا من أكبر العون ، فإن كثيراً من الناس يشكل عليه من يكون عند أهله يقوم بحاجاتهم ، فإذا قام هذا الرجل بحاجة أهله وخلفه فيهم بخير فقد غزا .

ومن ذلك ما جرى لعلى بن أبى طالب رضي الله عنه حين خلفه رسول الله ـ ﷺ ـ فى غزو تبوك، خلفه فى أهله ، فقال : يا رسول الله ، أتدعنى مع النساء والصبيان ! فقال له : « أما ترضى أن تكون منى بمَنْزِلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى »[1] يعنى أن أخلفك فى أهلى ، كما خلَفَ موسى هارونُ فى قومه ، حينما ذهب إلى ميقات ربه .

ويؤخذ من هذا أن كل من أعان شخصًا فى طاعة الله فله مثل أجره ، فإذا أعنت طالب علم فى شراء الكتب له ، أو تأمين السكن ، أو النفقة ، أو ما أشبه ذلك ، فإن لك أجرًا ، أى : مثل أجره ، من غير أن ينقص من أجره شيئًا ، وهكذا أيضًا لو أعنت مصليًا على تسهيل مهمته فى صلاته فى مكانه وثيابه ، أو فى وضوئه ، فى أى شىء فإنه يكتب

[٢/ ١٧٨] صحيح : رواه مسلم (١٨٩٦) . أحمد (٣/ ٤٩) البيهقى فى السنن (٩/ ٤٠) .

(١) البخارى (٣٧٠٦) مسلم (٢٤٠٤) .

Marfat.com

لك فى ذلك أجر .

فالقاعدة العامة أن من أعان شخصًا فى طاعة من طاعة الله كان له مثل أجره ، من غير أن ينقص من أجره شيئًا .

* * *

[٣/ ١٧٩] وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ لَقِيَ رَكْباً بالرَّوْحَاءِ فقال : « مَنِ الْقَوْمُ ؟ » قَالُوا : المُسْلِمُونَ ، فَقَالُوا : مَنْ أنتَ ؟ قال : « رسول الله » فرَفَعَتْ إلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبيًا فَقَالَتْ : أَلِهذَا حَجٌّ ؟ قال : « نَعَمْ ولَكِ أجْرٌ » رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبى ـ ﷺ ـ لقى ركبًا بالروحاء ، والروحاء مكان بين مكة والمدينة ، وكان هذا فى حجة الوداع ، فقال لهم : « من القوم » ؟ قالوا : المسلمون ، فمن أنت ؟ قال : « أنا رسول الله ـ ﷺ ـ » ، فرفعت إليه امرأة صبيًا ، فقالت : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ولك أجر » رواه مسلم .

ففى هذا الحديث من الفوائد : ما ساقه المؤلف من أجله ، وهو : أن من أعان شخصًا على طاعة فله أجر ؛ لأن هذه المرأة سوف تقوم برعاية ولدها إذا أحرم ، وفى الطواف ، وفى السعى ، وفى الوقوف ، وغير ذلك : « له حج ولك أجر » .

وهذا كالذى سبق فيمن جهز غازيًا أو خلفه فى أهله ، فإنه يكون له أجر الغازى.

وفى هذا الحديث من الفوائد : أن الإنسان ينبغى له أن يسأل عمن يجهله إذا دعت الحاجة إلى ذلك ؛ لأن الرسول ـ ﷺ ـ سأل : من القوم ، يخشى أن يكونوا من العدو ، فيخونوا أو يغدروا ، أما إذا لم تدع الحاجة إلى ذلك فلا حاجة أن تسأل عن الشخص ، فتقول : من أنت ؛ لأن هذا قد يكون داخلاً فيما لا يعنيك ، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (١) ، لكن إذا دعت الحاجة فاسأل حتى تكون على بينة من الأمر وعلى بصيرة.

وفى هذا الحديث : دليل على أن وصف الإنسان نفسه بالصفات الحميدة إذا لم يقصد الفخر وإنما يقصد التعريف لا بأس به ؛ لأن هؤلاء الصحابة لما سئلوا : من أنتم؟ قالوا: مسلمون ، والإسلام لا شك أنه وصف مدح ، لكن إذا أخبر الإنسان به عن نفسه، فقال : أنا مسلم ، أنا مؤمن لمجرد الخبر لا من أجل الافتخار فإن ذلك لا بأس به ، وكذلك لو

[٣/ ١٧٩] رواه مسلم (١٣٣٦) أبو داود (١٧٣٦) .

(١) الترمذى (٢٣١٧) أحمد (١/ ٢٠١) ابن ماجه (٣٩٧٦) وصححه الالبانى فى صحيح ابن ماجه .

Marfat.com

قاله على سبيل التحدث بنعمة ، فلو قال : الحمد لله الذى جعلنى من المسلمين ، وما أشبه ذلك فإنه لا بأس به ، بل يكون محمودًا إذا لم يحصل فيه محظور .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان إذا وصف نفسه بصفة هى فيه بدون فخر ، فإنه لا يعد هذا من باب مدح النفس وتزكية النفس الذى نهى الله عنه فى قوله : ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم : ٣٢] .

وفيه : دليل أيضًا على أن الإنسان ينبغى له أن يغتنم وجود العالم ؛ لأن هؤلاء القوم لما أخبرهم رسول الله - ﷺ - أنه رسول الله ، جعلوا يسألونه ، فينبغى للإنسان أن يغتنم فرصة وجود العالم من أجل أن يسأله عما يشكل عليه .

ومن فوائده أيضًا : أن الصبى إذا حج له وليه فله أجر ، والحج يكون للصبى لا للولى، وقد اشتهر عند عامة الناس أن الصبى يكون حجه لوالديه ، وهذا لا أصل له ، بل حج الصبى له ، لقول النبى- ﷺ - لما قالت المرأة : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ولك أجر » فالحج له ، وليعلم أن الصبى بل كل من دون البلوغ يكتب له الأجر ، ولا يكتب عليه الوزر .

واستدل بعض العلماء بقوله : « نعم له حج » أنه إذا أحرم الصبى لزمه جميع لوازم الحج، يلزمه الطواف ، والسعى ، والوقوف بعرفة ، والمبيت بمزدلفة ومنى ، ورمى الجمرات، يفعل ما يقدر عليه ، وما لا يقدر عليه يفعل عنه ، إلا الطواف والسعى فإنه يطاف ويسعى به .

وقال بعض أهل العلم : لا بأس أن يتحلل الصبى ولو بدون سبب ؛ لأنه قد رفع عنه القلم ، وليس بمكلف ، ولا يقال : إن نفل الحج كفرضه ، لا يجوز الخروج منه ، وهذا الصبى متنفل فلا يجوز له أن يخرج ؛ لأن أصل الصبى من غير المكلفين ، فلا تلزمه بشىء وهو غير مكلف ، وهذا مذهب أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ أن الصبى لا يلزم بإتمام الحج ، ولا بواجبات الحج ، ولا باجتناب محذوراته ، وأن ما جاء منه قبل ، وما تخلف لا يسأل عنه ، وهذا يقع كثيرًا من الناس الآن ، حيث يحرمون بصبيانهم ، ثم يتعب الصبى ، ويأبى أن يكمل ويخلع إحرامه ، فعلى مذهب جمهور العلماء لابد أن نلزمه بالإتمام ، وعلى مذهب أبى حنيفة وهو الذى مال إليه صاحب الفروع ـ رحمه الله ـ من أصحاب الإمام أحمد ، ومن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، أنه لا يلزم ؛ لأنه ليس أهلاً للتكليف .

وفى هذا الحديث أيضًا : ما يدل على أن الصبى وإن كان غير مميز فإنه يصح منه الحج

Marfat.com

ولكن كيف تصح نيته وهو غير مميز ؟ قال العلماء : ينوى عنه وليه بقلبه أنه أدخله فى الإحرام، ويفعل وليه كل ما يعجز عنه .

وفى هذه المناسبة نود أن نبين : هل يجب على من دخل فى الحج أن ينوى الطواف بنية مستقلة والسعى بنية مستقلة والرمى كذلك ، أو لا يشترط ؟

هذه المسألة فيها خلاف بين العلماء ، من العلماء من قال : إذا أحرم الإنسان بالحج وطاف وسعى على النية الأولى ، يعنى لم يجدد نيته عند الطواف ولا عند السعى ، فإن حجه صحيح ، قال تعليلاً لقوله : إن الطواف والسعى والوقوف والرمى والمبيت كلها أجزاء من عبادة فتكفى النية الأولى ، كما أن الإنسان إذا صلى ونوى عند الدخول فى الصلاة أنه دخل فى الصلاة ، فإنه لا يلزمه أن ينوى الركوع ولا السجود ولا القيام ولا القعود ؛ لأنها أجزاء من العبادة ، فكذلك الحج .

وهذا القول ينبغى أن يؤتى به عند الضرورة ، يعنى : لو جاءك مستفت يقول : أنا دخلت المسجد الحرام وطفت ، وفى تلك الساعة لم تكن عندى نية ، فهنا ينبغى أن يفتى بأنه لا شىء عليه ، وأن طوافه صحيح ، أما عند السعة فينبغى أن يقال : إنك إذا نويت أحسن ، وهو على كل حال لابد أن ينوى الطواف ، ولكن أحيانًا يغيب عن ذهنه أنه طواف الركن أو طواف التطوع وما أشبه ذلك .

***

[٤/ ١٨٠] وعَنْ أبى موسى الأشْعَرى رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ أنَّهُ قال : «**الخَازِنُ المسْلمُ الأمين الَّذى يُنَفِّذ ما أمِرَ به ، فَيُعْطِيه كاملاً مُوَفَّراً ، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ فَيَدْفَعُهُ إلى الَّذى أمِرَ لَهُ بِهِ أحدُ المُتَصَدِّقين**» مُتَفَقٌ عليه .

وفى رواية : «**الَّذى يُعْطى مَا أُمِرَ به**» . وضَبَطُوا «المُتَصدِّقَيْن» بفتح القاف مع كسر النون على التَّثْنِيَةِ ، وعَكْسُهُ على الجَمْع وكِلاهُما صَحِيحٌ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه أن النبى ـ ﷺ ـ قال : «**الخازن المسلم الأمين الذى يُنفذُ ما أُمرَ به ، فَيُعْطيه كاملاً مُوافرًا ، طَيِّبَةً به نفسه فَيَدْفَعُهُ إلى الَّذى أمِرَ بِهِ أحَدُ المُتَصدِّقِينَ**» متفقٌ عليه . الخَازن مبتدأ وأحد المتصدقين

[٤/ ١٨٠] صحيح : رواه البخارى (١٤٣٨) ومسلم (١٠٢٣) .

Marfat.com

خبر ، يعنى أن الخازن الذى جمع هذه الأوصاف الأربعة : المسلم ، الأمين ، الذى ينفذ ما أمر به ، طيبة بها نفسه . فهو مسلم احترازًا من الكافر ، فالخازن إذا كان كافرًا ، وإن كان أمينًا وينفذ ما أُمر به ليس له أجر ، لأن الكفار لا أجر لهم في الآخرة فيما عملوا من الخير، قال الله تعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان : ٢٣] وقال تعالى : ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة : ٢١٧] . أما إذا عمل خيرًا ثم أسلم فإنه يسلم على ما أسلف من خير ويعطى أجره .

الوصف الثانى الأمين : يعنى الذى أدى ما اؤتمن عليه ، فحفظ المال ، ولم يفسده ، ولم يغز فيه ، ولم يتعد فيه .

الوصف الثالث الذى ينفذ ما أمر به : يعنى يفعله ؛ لأن من الناس من يكون أمينًا، لكنه متكاسل ، فهذا أمين ومنفذ يفعل ما أمر به ، فيجمع بين القوة والأمانة .

الوصف الرابع : أن تكون طيبة به نفسه : إذا نفذ وأعطى ما أمر به أعطاه وهو طيبة به نفسه ، يعنى لا يمن على المعطى ، أو يظهر أن له فضلاً عليه ، بل يعطيه طيبة به نفسه ، هذا يكون أحد المتصدقين مع أنه لم يدفع من ماله فلسًا واحدًا .

مثال ذلك إذا كان عند رجل مال ، وكان أمين الصندوق ـ صندوق المال ـ مسلمًا أمينًا ينفذ ما أمر به ، ويعطيه صاحبه طيبة به نفسه ، فإذا قال لهم صاحب الصندوق : يا فلان أعط هذا الفقير عشرة آلاف ريال فأعطاه على الوصف الذى قال النبى ـ ﷺ ـ فإنه يكون كالذى تصدق بعشرة آلاف ريال ، من غير أن ينقص من أجر المتصدق شيئًا ، ولكنه فضل من الله عز وجل .

ففى هذا الحديث : دليل على فضل الأمانة وعلى فضل التنفيذ فيما وُكل فيه وعدم التفريط فيه ، ودليل على أن التعاون على البر والتقوى يكتب لمن أعان مثل ما يكتب لمن فعل ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء .

* * *

Marfat.com

٢٢ ـ باب النصيحة

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات : ١٠) ، وقال تعالى إخباراً عن نوح ﷺ : ﴿ وأَنصحُ لكُمْ ﴾ (الأعراف: ٦٢) ،وعَنْ هُودٍ ﷺ: ﴿ وأنا لكُم ناصحٌ أمِينٌ ﴾ (الأعراف : ٦٨) .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : (**باب النصيحة**) النصيحة هى بذل النصح للغير، والنصح معناه أن الشخص يحب لأخيه الخير ، ويدعوه إليه ، ويبينه له ، ويرغبه فيه ، وقد جعل النبى ـ ﷺ ـ الدين النصيحة ، فقال : « **الدين النصيحة** » ثلاث مرات ، قالوا: لمن يا رسول الله ؟ قال : « **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » [(١)] وضد النصيحة المكر والغش والخيانة والخديعة .

ثم صدر المؤلف هذا الباب بثلاث آيات :

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وإذا ثبتت هذه الجملة بالمؤمنين ، أى : إذا تحققت فيهم واتصفوا بها ، فإنه لابد أن تكون هذه الأخوة مثمرة للنصيحة .

والواجب على المؤمنين أن يكونوا كما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وهم إخوة فى الدين ، والأخوة فى الدين أقوى من الأخوة فى النسب ، بل إن الأخوة فى النسب مع عدم الدين ليست بشىء ، ولهذا قال الله عز وجل لنوح لما قال : ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ [هود : ٤٦] . أما المؤمنون فإنهم وإن تباعدت أقطارهم وتباينت لغاتهم ، فإنهم إخوة مهما كان ، والأخ لابد أن يكون ناصحًا لأخيه ، مبديًا له الخير ، مبينًا ذلك له داعيًا له .

أما الآية الثانية : فهى قول نوح ، وهو أول الرسل ، يقول لقومه حين دعاهم إلى الله تعالى : ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعنى لست بغاش لكم ، ولا خادع ، ولا غادر ، ولكنى ناصح .

أما الآية الثالثة : فقول الله تعالى عن هود ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ .

وعلى كل حال يجب على المرء أن يكون لإخوانه من الناصحين مبديًا لهم الخير داعيًا

---

(١) مسلم (٥٥) الترمذى (١٩٢٦) احمد (٢/ ٢٩٧) .

Marfat.com

لهم إليه حتى يحقق بذلك الأخوة الإيمانية .

عن أبى رُقَيَّةَ تَميمِ بنِ أوْس الدَّارِىِّ رضي الله عنه أنَّ النَّبىَّ ﷺ قال :
« الدِّينُ النَّصِيحَةُ » قُلْنَا : لِمَنْ ؟
قَالَ : « للَّهِ وَلِكتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ ولأئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعامَّتِهِمْ » رواه مسلم .

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى : فى باب النصيحة ثلاثة أحاديث : الحديث الأول عن تميم بن أوس الدارى رضي الله عنه ، أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة** » كررها ثلاثًا ـ ﷺ ـ لأجل أن ينتبه المُخاطب والسامع حتى يتلقى ما يقول النبى ـ ﷺ ـ بانتباه ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » خمسة أشياء هى محل النصيحة .

والنصيحة لله عز وجل تكون بالإخلاص لله تعالى ، والتعبد له محبة وتعظيمًا ؛ لأن الله عز وجل يتعبد له العبد محبة ، فيقوم بأوامره طلبًا للوصول إلى محبته عز وجل وتعظيمًا ، فينتهى عند محارمه خوفًا منه سبحانه وتعالى .

ومن النصيحة لله أن يكون الإنسان دائمًا ذاكرًا لربه ، بقلبه ولسانه وجوارحه ، أما القلب فإنه لا حدود لذكره ، والإنسان يستطيع أن يذكر الله بقلبه على كل حال ، وفى كل ما يشاء ، وفى كل ما يسمع ؛ لأن فى كل شىء لله تعالى آية تدل على وحدانيته وعظمته وسلطانه ، يفكر فى خلق السموات والأرض ، يفكر فى الليل والنهار ، يفكر فى آيات الله من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك ، فيحدث هذا ذكرًا لله عز وجل فى قلبه .

من النصيحة لله أن تكون غيرته لله فيغار لله عز وجل إذا انتهكت محارمه ، كما كان النبى ﷺ هكذا ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا ينتقم لنفسه أبدًا ، مهما قال الناس فيه لا ينتقم لنفسه ، ولكنه إذا انتهكت محارم الله صار أشد الناس انتقامًا ممن ينتهك حرمات الله تعالى ، فيغار الإنسان على ربه ، فلا يسمع أحدًا يسب الله أو يشتم الله أو يستهزىء بالله إلا غار من ذلك ، حتى إذا كان له أن يقتله قتله ، لأن هذا من النصيحة لله عز وجل .

[١/١٨١] صحيح : رواه مسلم (٥٥) . الترمذى (١٩٢٦) أحمد (/٢٩٧) .

Marfat.com

من النصيحة لله أن يذب عن دين الله تعالى الذى شرعه لعباده ، فيُبطل كيد الكائدين ويرد على الملحدين الذين يعرضون الدين وكأنه قيود ، تقيد الناس عن حرياتهم ، والحقيقة أنها قيود حرية ؛ لأن الإنسان يتقيد لله عز وجل ، وبالله ، وفى دين الله ، من لم يتقيد بهذا تقيد للشيطان ، وفى خطوات الشيطان ؛ لأن النفس همامة دائمًا ، فلا تسكن نفس أحد أبدًا ، بل لابد أن تكون لها همم فى أى شىء ، إما فى خير ، وإما فى شر .

وما أحسن قول ابن القيم رحمه الله فى « النونية » حيث قال :

هربوا من الرق الذى خُلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان

هربوا من الرق الذى خلقوا له ، ما هو الرق الذى خُلقنا له ؟ عبادة الله ، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] . لكنهم هربوا من هذا الرق الذى هو كمال الحرية وكمال السعادة إلى رق النفس والشيطان .

والنفس ـ نعوذ بالله من شرها ـ تسترق الإنسان وتُملى عليه الهوى فيكون خاضعًا لهواها ، وإذا غلب الهوى زال العقل ، وكما قال الشاعر :

سكران سكر هوى وسكر مدامة فمتى إفاقة مَن به سُكران ؟

يصف شخصًا يشرب الخمر والعياذ بالله ،فيقول : إنه فى سكران ، سكر الهوى وسكر المُدامة ، فمتى إفاقة مَن به سكران ؟ وواضح أن هذا لا تُرجى له إفاقة .

فالحاصل أن الإنسان يتعبد لله عز وجل لا للنفس ولا للشيطان ، حتى يتحرر من القيود التى تضره ولا تنفعه .

ومن النصيحة لله عز وجل أن يكون باثًا دين الله فى عباد الله ؛ لأن هذا مقام الرسل كلهم ، فهم دعاة إلى الله يدعون الناس إلى الله عز وجل ، كما قال تعالى عنهم : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل : ٣٦] وقوله تعالى : ﴿فَمِنْهُم﴾ أى من الأمة التى بعث فيها الرسول . نسأل الله تعالى أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم .

ثم قال ـ ﷺ ـ : « ولكتابه » يعنى أيضًا من الدين النصيحة لكتاب الله عز وجل ، وهذا يشمل كتاب الله الذى نزل على محمد ـ ﷺ ـ، والذى أُنزل من قبل ، والنصيحة لهذه الكتب بتصديق أخبارها ، أى : أن ما أخبرت به يجب أن نصدقه .

أما بالنسبة للقرآن فظاهر ؛ لأن القرآن ولله الحمد نُقِلَ بالتواتر من عند النبى ـ ﷺ ـ إلى يومنا هذا وإلى أن يرفعه الله عز وجل فى آخر الزمان ، يقرأه الصغير والكبير ، وأما

Marfat.com

الكتب السابقة فإنها قد حُرفت وغُيرت وبدلت ، لكن ما صح منها فإنه يجب تصديق خبره واعتقاد صحة حكمه ، لكننا لسنا متعبدين بأحكام الكتب السابقة إلا بدليل من شرعنا .

ومن النصيحة لكتاب الله أن يُدافع الإنسان عنه ، يدافع مَن حرفه تحريفًا لفظيًا ، أو تحريفًا معنويًا ، أو مَن زعم أن فيه نقصًا ، أو أن فيه زيادة ، فالرافضة مثلاً يدعون أن القرآن فيه نقص ، وأن القرآن الذى نزل على محمد أكثر من هذا الموجود بين أيدى المسلمين، فخالفوا بذلك إجماع المسلمين ، والقرآن ولله الحمد لم ينقص منه شيء ، ومَن زعم أنه قد نقص منه شيء فقد كذَّب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] . فالله عز وجل تكفل بحفظه ، ومَن ادعى أنه قد نقص حرفًا واحدًا اختزل منه فقد كذَّب الله عز وجل ، فعليه أن يتوب ويرجع إلى الله من هذه الردة .

ومن النصيحة لكتاب الله أن ينشر الإنسان معناه بين المسلمين ، المعنى الصحيح الموافق لظاهره ، بحيث لا يكون فيه تحريف ولا تغيير ، فإذا جلس مجلسًا فإن من الخير والنصيحة لكتاب الله أن يأتى بآية من كتاب الله عز وجل يبينها للناس ، ويُوضح معناها ولا سيما الآيات التى تكثر قراءتها بين المسلمين ، مثل الفاتحة ، فإن الفاتحة كما نعلم جميعًا ركن من أركان الصلاة فى كل ركعة ، للإمام والمأموم والمنفرد ،فيحتاج الناس إلى معرفتها، فإذا فسرها بين يدى الناس وبيَّنها لهم فإن هذا من النصيحة لكتاب الله عز وجل .

ومن النصيحة لكتاب الله أن تؤمن بأن الله تعالى تكلم بهذا القرآن حقيقة ، وأنه كلامه عز وجل ؛ الحرف والمعنى ، ليس الكلام الحروف دون المعانى ، ولا المعانى دون الحروف ، بل إنه كلام الله لفظًا ومعنى تكلم به وتلقاه منه جبريل ثم نزل به على محمد - ﷺ - وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء : ١٩٢ ـ ١٩٥] وتأمل كيف قال : على ﴿قَلْبِكَ﴾ مع أن الرسول - ﷺ - يسمعه بأذنيه ، ولكن الأذن إن لم يصل مسموعها إلى القلب فإنه لا يستقر فى النفس ، فلا يستقر فى النفس إلا ما وصل إلى القلب عن طريق الأذن ، أو عن طريق الرؤيا بالعين ، أو المس باليد ، أو الشم بالأنف ، أو الذوق بالفم ، فالمهم القرار وهو القلب ، ولهذا قال : ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وعلى هذا فليس من النصيحة الخوض فى الكلام على القرآن : هل هو كلام الله حقيقة أو ليس بكلام الله حقيقة ، أو أن يقول : إنه خلق من مخلوقات الله ، أو ما أشبه ذلك ، بل من النصيحة أن تؤمن بأنه كلام الله حقًا اللفظ والمعنى.

ومن النصيحة لكتاب الله تعالى أن يقوم الإنسان باحترام هذا القرآن العظيم ، فمن

Marfat.com

ذلك ألا يمس القرآن إلا وهو طاهر من الحدثين ، الأصغر والأكبر ؛ لقول النبى - ﷺ - «لا يمس القرآن إلا طاهر » [(١)] أو من وراء حائل ؛ لأن مَن مسه من وراء حائل فإنه لم يمسه فى الواقع ، وينبغى لا على سبيل الوجوب ألا يقرأ القرآن ولو عن ظهر قلب إلا متطهرًا ؛ لأن هذا من احترام القرآن .

ومن النصيحة لكتاب الله عز وجل ألا تضعه فى موضع يمتهن فيه ، ويكون وضعه فيه امتهانًا له ، كمحل القاذورات وما أشبه ذلك ، ولهذا يجب الحذر مما يصنعه بعض الصبيان إذا انتهوا من الدروس فى مدارسهم ، ألقوا مقرراتهم والتى من بينها الأجزاء من المصحف فى الطرقات وفى الزبالة أو ما أشبه ذلك والعياذ بالله .

وأما وضع المصحف على الأرض الطاهرة الطيبة ، فإن هذا لا بأس به ولا حرج فيه ؛ لأن هذا ليس فيه امتهان للقرآن ، ولا إهانة له ، وهو يقع كثيرًا من الناس إذا كان يصلى ويقرأ من المصحف وأراد السجود يضعه بين يديه ، فهذا لا يُعد امتهانًا ولا إهانة للمصحف فلا بأس به والله أعلم .

وأما الثالثة : فقال النبى - ﷺ - : « **ولرسوله** » والنصيحة لرسول الله - ﷺ - تتضمن أشياء .

الأول : الإيمان التام برسالته وأن الله تعالى أرسله إلى جميع الخلق ، عربهم وعجمهم، بل إنسهم وجنهم ، قال الله تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً﴾ [النساء : ٧٩] وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] . والآيات فى هذه كثيرة ، فيؤمن بأن محمدًا رسول الله إلى جميع الخلق من جنٍ وإنس .

ومن النصيحة لرسول الله - ﷺ - تصديق خبره ، وأنه صادق مصدوق ، صادق فيما يخبر به ، مصدوق فيما أخبر به من الوحى ، فما كُذِب ولا كَذَب - ﷺ - .

ومن النصيحة لرسول الله - ﷺ - صدق الاتباع له ، بحيث لا تتجاوز شريعته ولا تنقص عنها ، فتجعله إمامك فى جميع العبادات ، فإن الرسول - ﷺ - هو إمام هذه الأمة وهو متبوعها ، ولا يحل لأحد أن يتبع سواه ، إلا إن كان واسطة بينه وبين الرسول ، بحيث يكون عنده من علم السنة ما ليس عندك ، فحينئذ لا حرج أن تتبع هذا الرجل بشرط أن تكون معتقدًا بأنه واسطة بينك وبين الشريعة ، لا أنه مستقل ؛ لأنه لا أحد يستقل

(١) مالك فى الموطأ فى القرآن (١) مجمع الزوائد (١/ ٢٧٦) وهذا الحديث له طرق معظمها لا يخلو من ضعف .

Marfat.com

بالتشريع إلا الرسول ـ ﷺ ـ ، أما مَن سواه فهو مُبلغ عن الرسول ـ ﷺ ـ ، كما قال الرسول ـ ﷺ ـ : « **بلغوا عنى ولو آية** »(١) .

ومن النصيحة : لرسول الله ـ ﷺ ـ الذب عن شريعته وحمايتها ، فالذب عنها بألا ينتقصها أحد ، والذب عنها بألا يزيد فيها أحد ما ليس منها ، فتحارب أهل البدع القولية والفعلية والعقدية ؛ لأن البدع كلها باب واحد ، كلها حقل واحد ، كلها ضلالة ، كما قال الرسول ـ ﷺ ـ « **كل بدعة ضلالة** »(٢) لا يستثنى من هذا بدعة قولية ولا فعليةً ولا عقدية ، كل ما خالف هدى النبى ـ ﷺ ـ وما جاء به فى العقيدة أو فى القول أو فى العمل فهو بدعة ، فمن النصيحة لرسول الله ـ ﷺ ـ أن تُحارب أهل البدع بمثل ما يُحاربون به السنة ، إن حاربوا بالقول فبالقول ، وإن حاربوا بالفعل فبالفعل ، جزاء وفاقًا ؛ لأن هذا من النصيحة لرسول الله ـ ﷺ ـ .

ومن النصيحة للنبى ـ ﷺ ـ احترام أصحابه وتعظيمهم ومحبتهم ؛ لأن صحب الإنسان لاشك أنهم خاصته من الناس وأخص الناس به ، ولهذا كان الصحابة ﷺ خير القرون ؛ لأنهم أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ فمن سب الصحابة ، أو أبغضهم ، أو لمزهم، أو [illegible] فى شىء يبهتهم فيه ، فإنه لم ينصح للرسول ـ ﷺ ـ وإن زعم أنه ناصح للرسول فهو كاذب ، كيف تسب أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ وتُبغضهم وأنت تحب الرسول وتنصح له؟ وقد جاء عن النبى ـ ﷺ ـ : « **المرء على دين خليله فلينظر أحدكم مَن يُخالل**»(٣) فإذا كان أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ يسبهم الساب المفترى الكذاب فإنه فى الحقيقة قد سب الرسول ـ ﷺ ـ ولم ينصح له ، بل هو فى الحقيقة قدح فى الشريعة ؛ لأن حملة الشريعة إلينا هم الصحابة ، فإذا كانوا أهلا للسب والقدح لم يُوثق بالشريعة ؛ لأن نقلتها أهل ذم وقدح ، بل إن سب الصحابة سب لله عز وجل ـ نسأل الله العافية ـ وقدح فى حكمته أن يختار لنبيه ـ ﷺ ـ ولحمل دينه مَن هم أهلٌ للذم والقدح ، إذن إن من النصيحة للرسول ـ ﷺ ـ محبة أصحابه واحترامهم وتعظيمهم ، فهذا من الدين ، فصار النصح لرسول الله ـ ﷺ ـ يتضمن هذه الأمور كلها .

الرابع : قال « **ولأئمة المسلمين** » الأئمة جمع إمام ، والمراد بالإمام مَن يقتدى به ويؤتمر بأمره ، وينقسم إلى قسمين : إمامة فى الدين ، وإمامة فى السلطة .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أبو داود (٤٨٣٣) الترمذى (٢٣٧٨) أحمد (٢/ ٣٠٣) وصححه الألبانى فى الصحيحة (٩٢٧) .

Marfat.com

فالإمامة فى الدين :هى بيدى العلماء ، فالعلماء هم أئمة الدين ، الذين يقودون الناس لكتاب الله ويهدونهم إليه ويدلونهم على شريعة الله ، قال الله تبارك وتعالى فى دعاء عباد الرحمن : ﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما﴾ [الفرقان : ٧٤] . فهؤلاء ما سألوا الله إمامة السلطة والإمارة ، بل سألوا الله إمامة الدين ؛ لأن عباد الرحمن لا يريدون السلطة على الناس ولا يطلبون الإمارة ، بل قد قال الرسول - ﷺ - لعبد الرحمن بن سمرة ﷺ : « **لا تسأل الإمارة فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وُكلت إليها ، وإن أوتيتها عن غير مسألة أُعنت عليها** » (١) لكنهم يسألون إمامة الدين ، التى قال الله عنها: ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [السجدة : ٢٤] . فقال : ﴿أئمة يهدون بأمرنا ﴾ .

والنصح لأئمة المسلمين أى إمامة الدين والعلم ، هو أن الإنسان يحرص على تلقى ما عندهم من العلم ، فإنهم الواسطة بين الرسول - ﷺ -وبين أمته فيحرص على تلقى العلم عنهم بكل وسيلة .

والوسائل فى وقتنا ولله الحمد كثرت ؛ من كتابة وتسجيل وتلقٍ وغير ذلك ، فالوسائل والحمد لله كثيرة ، فليحرص على تلقى العلم من العلماء ، وليكن تلقيه على وجه التأنى لا على وجه التسرع ؛ لأن الإنسان إذا تسرع فى تلقى العلم فربما يتلقاه على غير ما ألقاه إليه شيخه ، وقد أدب الله النبى - ﷺ -هذا الأدب ، فقال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك **لتعجل به (١٦) إن علينا جمعه وقرآنه (١٧) فإذا قرأناه فاتبع قرآنه** ﴾[القيامة : ١٦ ـ ١٨] . لأن النبى - ﷺ -كان يُبادر جبريل إذا ألقى عليه القرآن فيقرأ ، فقال الله تعالى : ﴿لا تحرك **لسانك لتعجل به**﴾يعنى اسكت لا تحرك اللسان ولا سرًا حتى ينتهى جبريل من القراءة ، ثم بعد ذلك اقرأه .

﴿**ثم إن علينا بيانه** ﴾[القيامة : ١٩] . تكفل الرب عز وجل ببيانه يعنى أنك لن تنساه ، مع أن المتوقع أن الإنسان إذا سكت حتى ينتهى الملقى من إلقائه ربما ينسى بعض الجمل ، لكن قال الله عز وجل : ﴿**ثم إن علينا بيانه** ﴾ .

ومن النصح أيضًا لعلماء المسلمين ألا يتتبع الإنسان عوراتهم وزلاتهم وما يخطئون فيه؛ لأنهم غير معصومين ، قد يزلون وقد يخطئون ، وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون (٢) ، ولا سيما من يتلقى العلم فإنه يجب أن يكون أبلغ الناس فى تحمل الأخطاء

(١) البخارى (٦٦٢٢) مسلم (١٦) .

(٢) الترمذى (٢٤٩٩) وقد سبق تخريجه .

Marfat.com

التى يخطئ بها شيخه ، وينبهه عليها ، فكم من إنسان انتفع من تلاميذه ، ينبهونه على بعض الشىء ، على الخطأ العلمى أو على الخطأ العملى ، وعلى أخطاء كثيرة ؛ لأن الإنسان بشر .

لكن الشىء المهم ألا يكون حريصًا على تلقى الزلات ، فإنه جاء فى الحديث : « **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل فى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من تتبع عورة أخيه فضحه الله ولو فى بيت أمه** »(١) هذا وهم مسلمون عامة ، فكيف بالعلماء!

إن الذين يلتقطون زلات العلماء ليشيعوها ليسوا مسيئين للعلماء شخصيًا وحسب ، بل مسيئون للعلماء شخصيًا ، ومسيئون إلى علمهم الذى يحملونه ، ومسيئون إلى الشريعة التى تتلقى من جهتهم ؛ لأن العلماء إذا لم يثق الناس فيهم ، وإذا اطلعوا على عوراتهم التى قد لا تكون عورات إلى على حسب نظر هذا المغرض ، فإنهم تقل ثقتهم بالعلماء وبما عندهم من العلم ، فيكون فى هذا جناية على الشرع الذى يحملونه من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

لذلك من نصيحتك لأئمة المسلمين من أهل العلم أن تدافع عن عوراتهم ، وأن تسترها ما استطعت ، وألا تسكت ، بل نبه العالم ، وابحث معه واسأله ، ربما ينقل عنه أشياء غير صحيحة ، وقد نقل عنا وعن غيرنا أشياء غير صحيحة ، لكن الناس ـ نسأل الله العافية ـ إذا كان لهم هوى وأحبوا شيئًا وعرفوا أحدًا من أهل العلم يقبل الناس قوله ، نسبوه لهذا العالم ، ثم إذا سألت نفس الذى نسب إليه القول ، قال : أبدًا ما قلت كذا وقد يخطئ السائل مثلاً فى صيغة السؤال ، فيجيب العالم على قدر السؤال ويفهمه السائل على حسب ما فى نفسه هو ، فيحصل الخطأ ، وقد يجيب العالم بالصواب بعد فهم السؤال لكن يفهمه السائل على غير وجهه فيخطئ فى النقل .

وعلى كل حال من النصيحة لأئمة المسلمين فى العلم والدين ألا يتتبع الإنسان عوراتهم، بل يلتمس العذر لهم ، لا مانع من أن يتصل بهم ، فإذا أراد التأكد من شىء سمعه ويرى أن أنه أخطأ ، فإذا اتصل به ربما بين له ، وربما يشرح له شيئًا لا يعرفه ويظن أنه أخطأ فيه ، وربما قد خفى عليه شيء فتنبهه أنت ، وتكون مشكورًا على هذا ، وقد قال أول إمام فى الدين والسلطة فى هذه الأمة بعد الرسول ـ ﷺ ـ ، أبو بكر رضي الله عنه حيث خطب أول خطبة ، قال للناس وهو يخطبهم يتحدث عن نفسه : إن اعوججت فأقيمونى ،

(١) الترمذى (٢٠٣٢) أبو داود (٤٨٨٠) أحمد (٤٢٤/٤) وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٧٩٨٤) (٧٩٨٥) .

Marfat.com

وذلك لأن الإنسان بشر .

فقوم أخاك ولا سيما أهل العلم ؛ لأن العالم خطره عظيم ، الخطر الزللى ، والخطر الرفيع ؛ لأن كلمة الخطر تكون للعلو والنُّزُل ، فهو خطره عظيم ، إن أصاب هدى الله على يده خلقًا كثيرًا وإن أخطأ ضل على يده خلق كثير ، فزلة العالم من أعظم الزلات[١] .

ولهذا أقول : يجب أن نحمى أعراض علمائنا ، وأن ندافع عنهم ، وأن نلتمس العذر لأخطائهم ، ولا يمنع هذا أن نتصل بهم ، وأن نسألهم ، وأن نبحث معهم ، وأن نناقشهم حتى نكون مخلصين ناصحين لأئمة المسلمين .

النوع الثانى من أئمة المسلمين : أئمة السلطة وهم الأمراء ، والأمراء فى الغالب أكثر خطأ من العلماء ؛ لأنه لسلطته قد تأخذه العزة بالإثم ، فيريد أن يفرض سلطته على الصواب والخطأ ، فالغالب من أئمة المسلمين فى السلطة وهم الأمراء أن الخطأ فيهم أكثر من العلماء إلا ما شاء الله .

والنصيحة لهم هى أن تكف عن مساوئهم ، وألا تنشرها بين الناس ، وأن نبذل لهم النصيحة ما استطعنا ، بالمباشرة إذا كان نستطيع أن نباشرهم ، أو بالكتابة إذا كنا لا نستطيع، أو بالاتصال بمن يتصل بهم إذا كنا لا نستطيع الكتابة ، لأنه أحيانًا ما يستطيع الإنسان لهم الكتابة ، ولو كتب لم تصل إلى المسئول ، فيتصل بأحد يتصل بالمسئول وينبهه فهذا من النصح .

أما نشر مساوئهم فليس به عدوان شخصى عليهم فقط ، بل هو عدوان شخصى عليهم وعلى الأمة جميعًا ؛ لأن الأمة إذا امتلأت صدورها من الحقد على ولاة أمورها عصت الولاة ، ونابذتهم ، وحينئذ تحصل الفوضى ويسود الخوف ويزول الأمن ، فإذا بقيت هيبة ولاة الأمور فى الصدور صار لهم هيبة ، وحميت أوامرهم ونظمهم التى لا تخالف الشريعة . فالمهم أن أئمة المسلمين تشمل النوعين ، أئمة الدين ، وهم العلماء ، وأئمة السلطان، وهم الأمراء ، وإن شئت فقل : أئمة البيان وأئمة السلطان ، أئمة البيان وهم العلماء الذين يبينون للناس، وأئمة السلطان وهم الأمراء الذين ينفذون شريعة الله بقوة السلطان ، إذن أئمة المسلمين سواء أئمة العلم والبيان أو أئمة القوة والسلطان يجب علينا أن نناصحهم وأن نحرص على بذل النصيحة لهم ، فى الدفاع عنهم وستر معايبهم ، وعلى أن نكون معهم إذا أخطئوا فى بيان ذلك الخطأ لهم بيننا وبينهم ؛ لأنه ربما نعتقد أن هذا العالم مخطئ أو أن هذا الأمير مخطئ وإذا ناقشناه تبيَّن لنا أنه غير مخطئ ، كما يقع

---

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة (٢١٩) .

Marfat.com

هذا كثيرًا. كذلك أيضًا ربما تنقل لنا هذه الأشياء عن العالم أو عن الأمير على غير وجهها ، إما لسوء القصد من الناقل ؛ لأن بعض الناس والعياذ بالله يحب تشهير السوء بالعلماء وبالأمراء ، فيكون سيئ القصد ينقل عليهم ما لم يقولوا ، وينسب إليهم ما لا يفعلون ، فلابد إذا سمعناه عن عالم أو عن أمير ما نرى أنه أخطأ لابد فى تمام النصيحة من الاتصال به ومناقشته وبيان الأمر وتبينه حتى نكون على بصيرة .

أما آخر الحديث فيقول : « **وعامتهم** » يعنى النصح لعامة المسلمين ، وقدم الأئمة على العامة ؛ لأن الأئمة إذا صلحوا صلحت العامة ، فإذا صلح الأمراء صلحت العامة ، وإذا صلح العلماء صلحت العامة ، لذلك بدأ بهم ، وليُعلم أن أئمة المسلمين لا يراد بهم الأئمة الذين لهم الإمامة العظمى ، ولكن يراد به ما هو أعم ، فكل من له إمرة ولو فى مدرسة فإنه يعتبر من أئمة المسلمين إذا نوصح وصلح ، صلح من تحت يده .

والنصيحة لعامة المسلمين بأن تحب لهم ما تحب لنفسك ، وأن ترشدهم إلى الخير ، وأن تهديهم إلى الحق إذا ضلوا عنه ، وأن تذكرهم به إذا نسوه ، وأن تجعلهم لك بِمَنْزِلة الإخوة ؛ لأن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « **المسلم أخو المسلم** »(1) وقال : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا** »(2) ، وقال : « **مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر** »(3) . فأنت إذا أحسست بألم فى أطراف شيء من أعضائك ، فإن هذا الألم يسرى على جميع البدن ، كذلك ينبغى أن تكون للمسلمين هكذا إذا اشتكى أحد من المسلمين فكأنما الأمر يرجع إليك أنت .

وليُعلم أن النصيحة هى مخاطبة الإنسان سرًا بينك وبينه ، لأنك إذا نصحته سرًا بينك وبينه أثرت فى نفسه ، وعلم أنك ناصح ، لكن إذا تكلمت أمام الناس عليه فإنه قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقبل النصيحة، وقد يظن أنك إنما تريد الانتقام منه وتوبيخه وحط مَنْزِلته بين الناس فلا يقبل، لكن إذا كان السر بينك وبينه صار لها ميزانٌ كبيرٌ عنده وقيمة، وقبل منك .

❊ ❊ ❊

[٢/ ١٨٢] الثَّانى: عَنْ جَرِير بْنِ عبد الله ﷺ قال: بَايَعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ على

---

(١) البخارى (٢٤٤٢) مسلم (٢٥٨٠) .

(٢) البخارى (٦٠٢٦) مسلم (٢٥٨٥) .

(٣) البخارى (٦٠١١) مسلم (٢٥٨٦) .

[٢/ ١٨٢] صحيح : رواه البخارى (١/ ٥٧) ، ومسلم (٥٦) .

Marfat.com

إقَامِ الصَّلاةِ ، وإيتَاء الزَّكَاة ، وَالنُّصح لِكُلِّ مُسْلِم . متفقٌ عليه .

[٣/ ١٨٣] الثَّالثُ : عَن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « **لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ** » متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ عن جرير بن عبد الله البجلى قال : بَايَعْتُ رَسُولَ الله - ﷺ - عَلَى إقَامِ الصَّلاةِ ، وإيتَاء الزَّكَاةِ ، والنُّصح لِكُلِّ مُسْلِم .

هذه ثلاثة أشياء ، حق محض لله ، وحق للآدمى محض ، وحق مشترك ، أما الحق المحض لله فهو قوله : « **إقام الصلاة** » .

ومعنى إقام الصلاة : أن يأتى بها الإنسان مستقيمًا على الوجه المطلوب ، فيحافظ عليها فى أوقاتها ويقوم بأركانها وواجباتها وشروطها ، ويتمم ذلك بمستحباتها .

ومن هذا بالنسبة للرجال إقامة الصلاة فى المساجد مع الجماعة ، فإن هذا من إقامة الصلاة ، ومن تخلف عن الجماعة بلا عذر فهو آثم ، بل هو عند بعض العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إذا صلى بدون عذر مع غير الجماعة فصلاته باطلة مردودة عليه ، لا تقبل منه ، ولكن الجمهور على أنها تصح مع الإثم ، وهذا هو صحيح ، فمن ترك صلاة الجماعة بلا عذر فصلاته صحيحة ولكنه آثم ، وهذا هو القول الراجح وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وهو الذى عليه جمهور من قالوا بوجوب صلاة الجماعة.

ومن إقامة الصلاة الخشوع فيها ، والخشوع هو حضور القلب وتأمله بما يقوله المصلى وما يفعله ، وهو أمر مهم ؛ لأن الصلاة بلا خشوع كالجسد بلا روح ، فأنت صليت وقلبك يدور فى كل واد فإنك تصلى حركات بدنية فقط ، فإذا كان قلبك حاضرًا تشعر كأنك بين يدى الله عز وجل ، تناجيه بكلامه وتتقرب إليه بذكره ودعائه، فهذا هو لب الصلاة وروحها .

وأما قوله : « **إتياء الزكاة** » يعنى إعطاءها لمستحقها ، وهذه جامعة بين حق الله وحق العباد ، أما كونها حقا لله فلأن الله فرض على عباده الزكاة وجعلها من أركان الإسلام ، وأما كونها حقا للآدمى فلما فيها من قضاء حوائج المحتاجين ، وغير ذلك من المصالح المعلومة فى معرفة أهل الزكاة .

[٣/ ١٨٣] صحيح : رواه البخارى (١/ ١٣) ، ومسلم (٤٥) . الترمذى (٢٥١٥) أحمد ٣/ ١٧٦).

Marfat.com

وأما قوله : « **النصح لكل مسلم** » فهذا هو الشاهد من الحديث للباب ، أى : أن ينصح لكل مسلم ، قريب أو بعيد ، صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى .

وكيفية النصح لكل مسلم هى كما ذكره فى حديث أنس بعد « **لا يؤمن أحدك حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه** » هذه هى النصيحة أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك ، بحيث يسرك ما يسرهم ويسوءك ما يسوءهم ، وتعاملهم بما تحب أن يعاملوك به ، وهذا الباب واسع كبير جدًا .

فنفى النبى عليه الصلاة والسلام الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه فى كل شيء ، ونفى الإيمان قال العلماء : المراد به نفى الإيمان الكامل ، يعنى لا يكمل إيمانك حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وليس المراد انتفاء الإيمان بالكلية .

ويذكر أن جرير بن عبد الله البجلى ﷺ حين بايع النبى عليه الصلاة والسلام على النصح لكل مسلم ، أنه اشترى فرسًا من شخص بدراهم فلما اشتراه وذهب به وجد أنه يساوى أكثر ، فرجع إلى البائع ، وقال له : إن فرسك يساوى أكثر ، فأعطاه ما يرى أنها قيمته ، فانصرف وجرب الفرس فإذا به يجده يساوى أكثر مما أعطاه أخيرًا ، فرجع إليه وقال له : إن فرسك يساوى أكثر . فأعطاه ما يرى أنها قيمته ، فانصرف وجرب الفرس فإذا به يجده يساوى أكثر مما أعطاه أخيرًا ، فرجع إليه وقال له : إن فرسك يساوى أكثر، فأعطاه ما يرى أنها قيمته وكذلك مرة ثالثة حتى بلغ من مائتى درهم إلى ثمانى مائة درهم؛ لأنه بايع الرسول ـ ﷺ ـ على النصح لكل مسلم ، وإذا بايع النبى ـ ﷺ ـ أحدًا على شيء لا يختص به فهو عام لجميع الناس، كل الناس مبايعون الرسول عليه الصلاة والسلام على النصح لكل مسلم ، بل على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإسداء النصح لكل مسلم ، والمبايعة هنا بمعنى المعاهدة ؛ لأن المبايعة تطلق على البيع والشراء ، وتطلق على المعاهدة كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح : ١٠] . وسميت مبايعة ؛ لأن كلاً من المتبايعين يمد باعه إلى الآخر ، يعنى يده من أجل أن يمسك بيد الآخر ، ويقول : بايعتك على كذا وكذا .

* * *

Marfat.com

٢٣ ـ باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

قال اللّه تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤) ، وقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) ، وقال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩) ، وقال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (التوبة: ٧١) ، وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ . كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٨، ٧٩) .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : (**باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**) فالمعروف: كل ما عرفه الشرع وأقره من العبادات القولية والفعلية الظاهرة والباطنة ، والمنكر : كل ما أنكره الشرع ومنعه من أنواع المعاصى ، من الكفر والفسوق والعصيان ، والكذب ، والغيبة والنميمة ، وغير ذلك .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية ، إذا قام به من يكفى حصل المقصود ، وإذا لم يقم به من يكفى وجب على جميع المسلمين ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فبدأ بالدعوة إلى الخير ، ثم ثنى بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وذلك لأن الدعوة إلى الخير قبل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة إلى الخير هى بيان الخير الناس ، بأن يدعوهم إلى الصلاة وإلى الزكاة وإلى الحج ، وإلى الصيام وإلى بر الوالدين وإلى صلة الأرحام وما أشبه ذلك ، ثم بعد هذا يأتى دور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيأمر يقول: صَلِّ ، إما على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص ، بأن يمسك برجل متهاون بالصلاة ويقول : صَلِّ .

وهناك مرحلة أخرى وهى التغيير الذى قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام : « **من رأى منكم منكراً فليغيره بيده** » ولم يقل فلينه عنه؛ لأن هذه مرحلة فوق النهى ، « **فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه** » اللسان هو مرحلة النهى عن المنكر ، إذا كان

Marfat.com

الإنسان لا يستطيع أن يتكلم فإنه ينكر بقلبه ، بكراهته وبغضه لهذا المنكر .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يحتاج إلى أمور :

الأمر الأول : أن يكون الإنسان عالمًا بالمعروف والمنكر ، فإن لم يكن عالمًا بالمعروف، فإنه لا يجوز أن يأمر به ؛ لأنه قد يأمر بأمر يظنه معروفًا وهو منكر ولا يدرى ، فلابد أن يكون عالمًا أن هذا من المعروف الذى شرعه الله ورسوله ، ولابد أن يكون عالما بالمنكر ، أى : عالما بأن هذا منكر ، فإن لم يكن عالما بذلك فلا ينه عنه ؛ لأنه قد ينهى عن شىء هو معروف فيترك المعروف بسببه ، أو ينهى عن شىء وهو مباح فيضيق على عباد الله ، بمنعهم مما أباح الله لهم ، فلابد أن يكون عالما بأن هذا منكر ، وقد يتسرع كثير من إخواننا الغيورين ، فينهون عن أمور مباحة يظنونها منكرًا فيضيقون على عباد الله .

فالواجب ألا تزمر بشىء إلا وأنت تدرى أنه معروف ، وألا تنه عن شىء إلا وأنت تدرى أنه منكر .

الأمر الثانى : أن تعلم بأن هذا الرجل تارك للمعروف أو فاعل للمنكر ، ولا تأخذ الناس بالتهمة أو بالظن ، فإن الله تعالى يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] فإذا رأيت شخصًا لا يصلى معك فى المسجد، فلا يلزم من ذلك أنه لا يصلى فى مسجد آخر ، بل قد يكون يصلى فى مسجد آخر ، وقد يكون معذورًا ، فلا تذهب من أجل أن تنكر عليه حتى تعلم أنه يتخلف بلا عذر .

نعم لا بأس أن تذهب وتسأله وتقول : يا فلان ، نحن نفقدك فى المسجد ، لا بأس عليك ، أما أن تنكر ، أو أشد من ذلك أن تتكلم به فى المجالس ، فهذا لا يجوز ؛ لأنك لا تدرى ، ربما يكون يصلى فى مسجد آخر ، أو يكون معذورًا .

ولهذا كان النبى عليه الصلاة والسلام يستفهم أولاً قبل أن يأمر ، فإنه ثبت فى « صحيح مسلم » أن رجلاً دخل يوم الجمعة والنبى ـ ﷺ ـ يخطب ، فجلس ولم يُصل تحية المسجد ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : « أصليت » ؟ قال : لا ، قال : « قُم فَصلِّ ركعتين »[(١)] ولم يأمره أن يصلى ركعتين حتى سأله : هل صلى أم لا ؟ مع أن ظاهر الحال أنه رجل دخل وجلس ولم يصل ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام خاف أن يكون قد صلى وهو

---

(١) سبق تخريجه .

Marfat.com

لم يشعر به ، فقال : « **أصليت ؟** » فقال : لا ، قال : « **قم فصل ركعتين** »(1) .

كذلك فى المنكر لا يجوز أن تنكر على شخص إلا إذا علمت أنه وقع فى المنكر ، فإذا رأيت مع شخص امرأة فى سيارة مثلاً فإنه لا يجوز أن تتكلم عليه أو على المرأة ؛ لأنه ربما أن تكون هذه المرأة من محارمه ، زوج أو أم أو أخت أو ما أشبه ذلك ، حتى تعلم أنه قد أركب معه امرأة ليست من محارمه ، وأمثال هذا كثير ، المهم أنه لابد من علم الإنسان أن هذا معروف ليأمر به ، أو منكر لينهى عنه ، ولابد أن يعلم أيضًا أن الذى وجه إليه الأمر أو النهى قد وقع فى أمر يحتاج إلى أمر فيه أو نهى عنه .

ثم إن الذى ينبغى للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يكون رفيقًا بأمره رفيقًا فى نهيه ؛ لأنه إذا كان رفيقًا أعطاه الله سبحانه وتعالى ما لا يعطى على العنف ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **إن الله يعطى على الرفق ما لا يعطى عن العنف** »(2) فأنت إذا عنفت على من تنصح ربما ينفر ، وتأخذه العزة بالإثم ، ولا ينقاد لك ، ولكن إذا جئته بالتى هى أحسن فإنه ينتفع .

ويُذكر أن رجل منٍ أهل الحسبة - يعنى من الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر - فى زمان مضى قديمًا مرّ على شخص يسنى على إبله - أى يستخرج لها الماء من البئر - عند أذان المغرب ، وعادة الناس الذين يسنون أن يحدوا بالإبل يعنى يُنشد شعرًا منْ أجل أن تخف الإبل ، لأن الإبل - سبحان الله تطرب لنشيد الشعر - فجاء هذا الرجل ومعه غيره ، وتكلم على هذا بكلام قبيح على العامل الذى يسنى ، والعامل متعب من الشغل وضاقت عليه نفسه فضرب الرجل بالمسوقة - المسوقة عصا طويلة متينة - فشرد الرجل وذهب إلى المسجد والتقى بالشيخ - عالم من العلماء من أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله - وقال : إنى فعلت كذا وكذا وإن الرجل ضربنى بالمسوقة .

فلما كان من اليوم الثانى ذهب الشيخ بنفسه إلى المكان قبل غروب الشمس، وتوضأ ووضع مشلحه على خشبة حول منجاة .

ثم أذن المغرب فوقف كأنه يريد أن يأخذ المشلح ، فقال له : يا فلان ، يا أخى ، جزاك الله خيرًا ، أنت تطلب الخير فى العمل هذا ، وأنت على خير ، لكن الآن أذن ، لو أنك تذهب وتصلى المغرب ، وترجع ما فاتك شىء ، الكلام اللين هين ، قال له : جزاك الله خيرًا ، مر على رجل أمس جلف وقام ينتهرنى ، وقال لى : أنت فيك ما فيك ، وما

---

(1) سبق تخريجه .

(2) مسلم (٢٥٩٣) .

Marfat.com

ملكت نفسي حتى ضربته بالمسوقة ، قال : الأمر لا يحتاج إلى ضرب ، أنت عاقل . تكلم معه بكلام لين ، فأسند المسوقة - العصا التي يضرب بها الإبل - ثم ذهب يصلي بانقياد.

وكان هذا لأن الأول عامله بالعنف ، والثاني عامله بالرفق ، ونحن وإن لم تحصل هذه القضية فلدينا كلام الرسول - ﷺ - ، يقول : « **إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف** »[١] ويقول - ﷺ - : « **ما كان الرفق في شيء إلا زانه ، وما يُنْزَع من شيء إلا شأنه** »[٢] فعلى الآمر أن يحرص على أن يكون في أمره ونهيه رفيقًا .

الشرط الثالث : ألا يزول المنكر إلى ما هو أعظم منه ، فإن كان هذا المنكر لو نهينا عنه زال إلى ما هو أعظم منه ، فإنه لا يجوز أن ننهى عنه ، درءًا لكبرى المفسدتين بصغراهما ؛ لأنه إذا تعارض عندنا مفسدتان وكانت إحداهما أكبر من الأخرى ، فإننا نتقي الكبرى بالصغرى .

مثال ذلك : لو أن رجلاً يشرب الدخان أمامك ، فأردت أن تنهاه وتقيمه من المجلس، ولكنك تعرف أنك لو فعلت لذهب يجلس مع السكارى ، ومعلوم أن شرب الخمر أعظم من شرب الدخان ، فهنا لا ننهاه ، بل نعالجه بالتي هي أحسن ؛ لئلا يئول الأمر إلى ما هو أنكر وأعظم .

ويُذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة الله عليه - مر بقوم في الشام من التتار ووجدهم يشربون الخمر ، وكان معه صاحب له ، فمر بهم شيخ الإسلام ، ولم ينههم ، فقال له صاحبه : لماذا لم تنههم ؟ قال : لو نهيناهم لذهبوا يهتكون أعراض المسلمين وينهبون أموالهم ، وهذا أعظم من شربهم الخمر ، فتركهم مخافة أن يفعلوا ما هو أنكر وأعظم وهذا لا شك أنه من فقهه - رحمه الله - .

فالمهم أنه يشترط لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ألا يتضمن ذلك ما هو أكبر ضررًا ، وأعظم إثمًا ، فإن تضمن ذلك فإن الواجب دفع أعلى المفسدتين بأدناهما ، ودفع أكبرهما بأصغرهما ، وهذه قاعدة مشهورة عند العلماء .

الشرط الرابع : اختلف العلماء - رحمهم الله - في اشتراط أن يكون الآمر والناهي فاعلاً لما أمر به تاركًا لما نهى عنه ، والصحيح أنه لا يشترط ، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولو كان لا يفعل المعروف ولا يتجنب المنكر ، فإن ذنبه عليه ،لكن يجب أن

---

(١) سبق تخريجه قريبا .

(٢) مسلم (٢٥٩٤) أحمد (٥٨/٦) .

Marfat.com

يأمر وينهى ؛ لأنه إذا ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكونه لا يفعل المأمور ولا يترك المحظور ، لأضاف ذنبًا إلى ذنبه ، لذا فإنه يجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وإن كان يفعل المنكر ويترك المعروف .

ولكن فى الغالب بمقتضى الطبيعة الفطرية أن الإنسان لا يأمر الناس بشىء لا يفعله ، بل يستحى ، ويخجل ، ولا ينهى الناس عن شىء يفعله ، لكن الواجب أن يأمر بما أمر به الشرع وإن كان لا يفعله ، وأن ينهى عما نهى عنه الشرع، وإن كان لا يتجنبه ؛ لأن كل واحد منهما واجب منفصل عن الآخر ، وهما غير متلازمين .

ثم إنه ينبغى للآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يقصد بذلك إصلاح الخلق وإقامة شرع الله ، لا أن يقصد الانتقام من العاصى ، أو الانتصار لنفسه ، فإنه إذا نوى هذه النية لم يُنزِل الله البركة فى أمره ، ولا فى نهيه ، بل يكون كالطبيب يريد معالجة الناس ودفع البلاء عنهم ، فينوى بأمره أولاً إقامة شرع الله ، وثانيًا إصلاح خلق الله ، وكذلك نهيه ، حتى يكون مصلحًا وصالحًا ، نسأل الله أن يجعلنى وإياكم من الهداة المهتدين ، المصلحين الصالحين ، إنه جواد كريم .

وفى ختام الآية ، يقول الله عز وجل : ﴿وأولئك هم المفلحون ﴾ ﴿وأولَئك ﴾ المشار إليهم تلك الأمة التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، والمفلح هو الذى فاز بمطلوبه ونجا من مرهوبه .

وهنا قال : ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ وهذه الجملة تفيد عند أهل العلم باللغة العربية تفيد الحصر ، أى : أن الفلاح إنما يكون لهؤلاء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الخير .

ثم قال الله عز وجل بعدها : ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تفرَّقُوا واخْتَلفُوا منْ بعْد ما جاءهُمُ الْبيِّنَاتُ﴾ [آل عمران : ١٠٥] والنهى عن التفرق بعد ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يدل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سبب للتفرق ، وذلك أن الناس إذا كانت لهم مشارب متعددة تفرقوا ، فهذا يعمل طاعة وهذا يعمل معصية ، وهذا يسكر وهذا يصلى وما أشبه ذلك ، فتتفرق الأمة ، ويكون لكل طائفة مشرب ، ولهذا قال : ﴿ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تفرَّقُوا ﴾ .

إذن لا يجمع الأمة إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلو أن الامة أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر وتحاكمت إلى الكتاب والسنة ، ما تفرقت أبدًا ، ولحصل لهم الأمن، ولكان لهم أمن أشد من كل أمن . كما قال الله تعالى : ﴿ الَّذينَ آمنُوا ولمْ يلْبسُوا

Marfat.com

بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [الأنعام : ٨٢] . الدول الآن الكبرى والصغرى كلها تكرس الجهود الكبيرة الجبارة لحفظ الأمن ، ولكن كثيرًا من المسلمين غفلوا عن هذه الآية ، الأمن التام موجود فى هاتين الكلمتين : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ إذا تحقق الإيمان فى الشعب ، ولم يلبس إيمانه بظلم ، فحينئذ يحصل له الأمن .

وأضرب مثلاً قريبًا للأفهام بعيدًا للأزمان ، فى صدر هذه الأمة المباركة كان أكبر مسئول فيها ينام وحده فى المسجد ، ويمشى فى السوق وحده ، لا يخاف إلا الله ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكوم الحصبة فى المسجد وينام عليها ، ليس عنده حارس ولا يحتاج لأحد يحرسه ، لا فى السوق ولا فى بيته ولا فى المسجد ؛ لأن الإيمان الخالص لم يُلبس بظلم ، أى : لم يخلط بظلم كان فى ذلك الوقت ، فكان الناس آمنين .

ثم ذهب عهد الخلفاء الراشدين وجاء عهد بنى أمية ، وصار فى أمراء بنى أمية من حاد عن سبيل الخلفاء الراشدين ، فحصل الاضطراب وحصلت الفتن ، وقامت الخوارج، وحصل الشر .

ثم جاء عهد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فاستتب الأمن ، وصاروا يسافرون ويذهبون ويجيئون وهم آمنون ، ولكن الله عز وجل من حكمته لم يُمد له فى الخلافة ، فكانت خلافته سنتين وأشهرًا ، فالمهم أن الأمن كل الأمن ليس بكثرة الجنود ، ولا بقوة السلاح ، ولا بقوة الملاحظة والمراقبة ، ولكن الأمن فى هذين الأمرين فقط : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] .

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فى سياق الآيات قول الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] . المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . كل واحد يتولى الثانى ، ينصره ويساعده ، وانظر إلى هذه الآية فى المؤمنين حيث قال : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وفى المنافقين قال : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ [التوبة : ٦٧] . وليسوا أولياء بعض ، بل المؤمن هو ولى أخيه ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وفى هذه الآية دليل على أن وظيفة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليست خاصة بالرجال ، بل حتى النساء عليهن أن يأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر ، ولكن فى حقول النساء ، ليس فى مجامع الرجال وفى أسواق الرجال ، لكن فى حقول النساء ومجتمعات النساء ، فى أيام العرس ، وفى أيام الدراسة وما أشبه ذلك ، إذا رأت المرأة منكرًا تنهى

Marfat.com

عنه، وإذا رأت تفريطًا فى واجب تأمر به ؛ لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل مؤمن ومؤمنة : ﴿يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم﴾ [التوبة : ٧١] . نسأل الله أن يعمنا وإياكم برحمته ومغفرته .

ذكر ـ رحمه الله ـ هذه الآية : ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ [المائدة : ٧٨] اللعن : هو الطرد والإبعاد من رحمة الله والعياذ بالله ، ولا يستحقه إلا من فعل كبيرة من كبائر الذنوب .

وبنو إسرائيل هم بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فإسرائيل هذه لقب ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، إبراهيم له ولدان : إسماعيل وإسحاق . إسماعيل هو الولد الأكبر ، وهو الذى أمره الله بذبحه ، أمره الله أن يذبحه ثم منّ الله عليهما جميعًا برفع هذا الأمر ، ونسخه ، وفداه الله عز وجل بذبح عظيم ، وأما إسحاق وهو الولد الثانى لإبراهيم وهو من زوجته ، وأما إسماعيل فهو من سريته هاجر ـ ﷺ ـ ، بنو إسرائيل هم من نسل يعقوب بن إسحاق ، وأرسل الله لهم الرسل الكثيرة ، وكان منهم المعتدون الذين يقتلون الأنبياء بغير حق ، والعياذ بالله .

وكانوا أيضًا لا ينهون عن منكر فعلوه ، بل يرى بعضهم المنكر ولا ينهى عنه ، وقصة القرية التى كانت حاضرة البحر مشهورة معلومة فى القرآن الكريم ، وهم قوم من اليهود، حرم الله عليهم الصيد من البحر يوم السبت ، فكان فى يوم السبت تأتى الحيتان شُرَّعًا على وجه الماء من كثرتها ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، فطال عليهم الأمد ، فقالوا : لابد أن نتخذ حيلة نتوصل بها إلى الصيد ، فقالوا : نضع شباكًا فى البحر ،فإذا جاءت الحيتان يوم السبت مسكتها الشباك ، فإذا كان يوم الأحد أخذناها،ففعلوا ذلك ،فكان منهم من يعظون وينهون عن هذا المنكر،وقوم ساكتين وقوم فاعلين،فعاقبهم الله عز وجل وقال: ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ [البقرة : ٦٥]. فكانوا والعياذ بالله قردة،بنو آدم انقلبوا قردة خاسئين أذلة .

والشاهد من هذا أن فيهم قومًا لم يعظوا ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم من النهى عن المنكر ، فكانوا ممن دخلوا فى هذه اللعنة ، ولهذا قال: ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ وداود متأخر عن موسى بكثير ، وعيسى ابن مريم كذلك ، فهذان النبيان لعنا الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه ، وقد حكى ذلك عنهما مقرًا ذلك ، فصار من لا يتناهى عن المنكر من الملعونين والعياذ بالله.

وفى هذا : دليل على وجوب النهى عن المنكر ، وعلى أن تركه سبب اللعن والطرد

Marfat.com

عن رحمة الله .

❊ ❊ ❊

وقال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف:٢٩) وقال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ (الحجر:٩٤) ، وقال تعالى : ﴿ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٥) ، والآياتُ في الباب كثيرةٌ معلومةٌ .

الشرح

ثم قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما ساقه من الآيات : ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] . الحق من الله عز وجل ، من الرب الذى خلق الخلق ، والذى له الحق فى أن يوجب على عباده ما شاء ، الحق منه فيجب علينا قبوله .

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذه الجملة ليست للتخيير ، وأن الإنسان مخير إن شاء آمن وإن شاء كفر ، ولكنها للتهديد ، والدليل على هذا آخر الآية ، وهو قوله : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩] . فمن شاء فليؤمن فله الثواب الجزيل ، ومن شاء فليكفر فعليه العقاب الأليم ، ويكون من الظالمين كما قال تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤] ففى هذا تهديد لمن لم يؤمن بالله عز وجل، وأن الحق بين وظاهر جاء به محمد عليه الصلاة والسلام من رب العالمين ، فمن اهتدى فقد وفق، نسأل الله لنا ولكم الهداية ، ومَن ضل والعياذ بالله فقد خزى ، والله المستعان .

ثم قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فميا ذكره من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ساق ـ رحمه الله ـ تعالى قوله عز وجل : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ، والخطاب هنا للنبى ـ ﷺ ـ وليُعلم أن الخطاب الموجه للرسول ـ ﷺ ـ ينقسم إلى قسمين :

قسم خاص به ، وقسم له ولأمته :

والأصل أنه له ولأمته ؛ لأن لأمته أسوة حسنة فيه عليه الصلاة والسلام ، لكن إذا وجدت قرينة تدل على أن الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام كان خاصًا به ، مثل قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : ١] . ومثل قوله تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ [الضحى:١ ـ ٣] فهذا خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام.

Marfat.com

أما مثل قوله تعالى : ﴿يا أيها النبيُّ لم تُحرِّمُ ما أحلَّ اللَّهُ لكَ﴾ [التحريم : ١] . فهذا له ولأمته : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق : ١] . فهذا له ولأمته : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة : ٦٧] فهذا له ولأمته ؛ لقوله ـ ﷺ ـ : « **بلغوا عنى** »(١) .

فهنا يقول الله عز وجل لرسوله : ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ يعنى أظهر ما تؤمر به وبينه ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، وهذا له ولأمته ، كل الأمة يجب عليها أن تصدع بما أمرها الله به ، تأمر به الناس ، وأن تصدع بما نهى الله عنه ، تنهى عنه الناس ؛ لأن النهى عن الشىء أمر بتركه .

﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ يعنى لا تهتم بهم ، فى حالهم ولا فيما يأتى من أذاهم ، يعنى لا تحزن لعدم إيمانهم كما قال الله تعالى : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] .

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] . يعنى لعلك مهلك نفسك إذا لم يؤمنوا بك ، يعنى لا تُبالى بهم ، بل أعرض عنهم فيما يحصل منهم من أذى ، فإن العاقبة لك ، وفعلاً صارت العاقبة للرسول عليه الصلاة والسلام ، صبر وظفر .

فإنه عليه الصلاة والسلام خرج من مكة مهاجرًا متخفيًا ، يخشى على نفسه ، قد جعلت قريش لمن يأتى به وبصاحبه أبى بكر مائتين من الإبل ، عن كل واحد مائة ، ولكن الله تعالى أنجاهما ، وبعد مضى سنوات قليلة رجع النبى عليه الصلاة والسلام فاتحًا مكة ظافرًا مظفرًا ، كانت له المنة على الملأ من قريش ، حتى وقف على باب الكعبة ، يقول : « **يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟** » كلهم تحته أذلة ، قالوا : خيرًا . أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « **فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء** »(٢) فمن عليهم عليه الصلاة والسلام بعد أن كان قادرًا عليهم .

فالحاصل أن قوله : ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ يشمل أمرين ؛ أعرض عن المشركين لا تهتم بحالهم إذا لم يؤمنوا ولا تحزن عليهم ، وأعرض عن المشركين فيما يحصل لك من أذى ، فإنه سوف تكون العاقبة لك وهذا هو الواقع ، ولهذا قال بعد الآية نفسها : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ

(١) البخارى (٣٤٦١) الترمذى (٢٦٦٩) .

(٢) ابن سعد فى الطبقات (٢/١٤١ ، ١٤٢) .

Marfat.com

صدرك بما يقولون (٩٧) فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين﴾ [الحجر : ٩٥ ، ٩٨] .

وتأمل كيف أمر الله تعالى بتسبيحه بحمده بعد أن قال : ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ لأن المقام هنا مقام يحتاج إلى تنزيه الرب عز وجل وحمده ، من هذه الضائقة التى تُصيب النبى عليه الصلاة والسلام من قريش ، يعنى نزهه عن كل ما لا يليق به ، واعلم أن ما أجراه جل وعلا فهو فى غاية الحكمة ، وهو كذلك ، فإنه صار فى غاية الحكمة وفى غاية الرحمة التى يُحمد عليهما عز وجل .

ثم قال فى آخر ما ساقه من الآيات قال الله عز وجل : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ [الأعراف : ١٦٥] هذه هى قصة القرية التى أشرنا إليها قبل وهى قرية على البحر حرم الله عليهم أن يصطادوا السمك فى يوم السبت ، وابتلاهم عز وجل فصار السمك يوم السبت يأتى بكثرة شرعًا على سطح الماء ، وفى غير يوم السبت لا يرونها ، فطال عليهم الأمد فتحيلوا بحيلة لم تنفعهم شيئًا ، فوضعوا شبكًا فى يوم الجمعة فإذا جاء يوم السبت وقع الحيتان فى هذا الشبك ، فإذا صار يوم الأحد أخذوا هذه الحيتان .

فكان النكال من الله عز وجل أن قال لهم : ﴿ كونوا قردة خاسئين﴾ قال لهم قولاً قدريًا ﴿ كونوا قردة خاسئين﴾ ، فأصبحوا قردة ، ولو قال كونوا حميرًا لكانوا حميرًا لكن قال : ﴿ كونوا قردة ﴾ ؛ لأن القرد أشبه ما يكون بالإنسان ، وفعلهم الخبيث أشبه بالحلال لأنه حيلة ، فالذى يراهم ظاهريًا يقول ما صادوا يوم السبت بل وضعوا الشبك يوم الجمعة وأخذوها يوم الأحد ، فصورة ذلك صورة حلال لكنه حرام ، فصارت العقوبة مناسبة تمامًا للعمل .

وفى هذا : قاعدة ذكرها الله عز وجل فى كتابه أن الجزاء من جنس العمل ، قال : ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ [العنكبوت : ٤٠] . كل إنسان يؤخذ بكثل جريمته ، فهؤلاء قيل لهم كونوا قردة خاسئين فأصبحوا قردة يتعاوون والعياذ بالله فى الأسواق .

وعلى الجانب الآخر قال تعالى : ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ [الأعراف : ١٦٥] . وذلك حيث كانوا قد انقسموا ثلاثة أقسام : قسم فعل الحيلة ، وقسم سكت ، وقسم نهى ، وكان الذين سكتوا يقولون للذين ينهون عن السوء : ﴿لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم عذابًا شديدًا﴾ [الأعراف : ١٦٤] . يعنى اتركوهم ، هؤلاء هالكين ، لا تعظوهم ، ما تنفع فيهم الموعظة ، قالوا : ﴿معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون﴾ [الأعراف : ١٦٤] . يعنى دعونا نستفيد فائدتين المعذرة إلى الله بأن يكون لنا عذر عند الله عز وجل ، ولعلهم يتقون

Marfat.com

كما قال الله تعالى في فرعون : ﴿فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى﴾ [طه : ٤٤] . فهنا قال : ﴿ولعلهم يتقون﴾ ولكن سكت الله عز وجل عن هذه الطائفة الثالثة .

قال تعالى : ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾ [الأعراف : ١٦٥] . فاختلف العلماء : هل الطائفة الساكتة أُخذت بالعذاب أم أنها نجت ، والذى ينبغى أن نسكت كما سكت الله ، نقول : أما التى نهت فقد نجت ، وأما التى وقعت فى الحرام فقد هلكت وأخذت بالعذاب ، وأما الساكتة فقد سكت الله عنها ويسعنا ما فى كتاب الله عز وجل .

❊❊❊

[١٨٦/٣] الثالثُ : عن أبى الوليد عُبَادَةَ بن الصَّامت ﷺ قال : بَايَعْنَا رسولَ اللَّه ﷺ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَة فى العُسْرِ وَاليُسْرِ وَالمَنْشَطِ وَالمَكْرَه ، وَعلَى أثَرَة علَيْنَا ، وَعلَى أنْ لا نُنَازعَ الأمْرَ أهْلَهُ إلا أنْ تَرَوا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللّه تَعَالى فيه بُرْهَانٌ ، وَعلَى أنْ نَقُول بالْحَقّ أيْنمَا كُنَّا لا نَخافُ فى اللّه لَوْمَةَ لائم . متفقٌ عليه .

« المَنْشَط والمكْرَه » بفَتْحِ ميميهما : أىْ فى السَّهْلِ وَالصَّعْب . و« الأثَرَةُ » : الاختصاصُ بالمُشْتَرك ، وقَدْ سَبَقَ بَيَانُها . « بَوَاحاً » بفَتْحِ البَاءِ المُوَحَّدَة بَعْدَهَا وَاوٌ ثُم ألِفٌ ثُمَّ حَاءٌ مُهْمَلَةٌ : أى ظَاهِراً لا يَحْتَمِلُ تأويلاً .

الشرح

قال ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عبادة بن الصامت ﷺ ، قال : **بَايَعْنَا رسول الله ـ ﷺ ـ ، أو « بايعَنا » رسول الله ـ ﷺ ـ ، على السمع والطاعة فى العُسر واليُسر والمنشط والمكره وعلى أثَرَة علينا** « بايعنا » أى : بايع الصحابة ﷺ الرسول ـ ﷺ ـ على السمع والطاعة ، يعنى لمَن ولاه الله الأمر ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ .

وقد سبق لنا بيان مَن هم أولو الأمر ، وذكرنا أنهم طائفتان ؛ العلماء والأمراء كلهم ولاة أمور ، لكن العلماء أولياء أمر فى العلم والبيان ، وأما الأمراء فهم أولياء أمر فى التنفيذ والسلطان .

يقول : بايعناه على السمع والطاعة ، ويستثنى من هذا معصية الله عز وجل فلا يبايع

[١٨٦/٣] صحيح : رواه البخارى (٧٠٥٥ ـ ٧٠٥٦) ، ومسلم (١٧٠٩) .

Marfat.com

عليها أحد ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولهذا قال أبو بكر رضي الله عنه حين تولى الخلافة ، قال : أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، فإذا أمر ولى الأمر بمعصية من المعاصى فإنه لا يجوز لأحد أن يسمع له أو يطيع ؛ لأن ملك الملوك رب العالمين عز وجل ، ولا يمكن أن يُعصى رب العالمين لطاعة مَن هو مملوك مربوب ؛ لأن كل مَن سوى الله فإنهم مملوكون لله عز وجل ، فكيف يقدم الإنسان طاعتهم على طاعة الله ، إذن يستثنى من قوله السمع والطاعة ما دلت عليه النصوص من أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وقوله: « **فى العسر واليُسر**» يعنى سواء كنا مُعسرين فى المال أو كنا مُوسرين ، يجب علينا جميعًا أغنيائنا وفقرائنا أن نُطيع ولاة أمورنا ونسمع لهم ، وكذلك فى منشطنا ومكرهنا ، يعنى سواء كنا كارهين لذلك لكونهم أمروا بما لا نهواه ولا نريده ، أو كنا نشيطين فى ذلك ، لكونهم أمروا بما يلائمنا ويوافقنا . المهم أن نسمع ونُطيع فى كل حال إلا ما استثنى فيما سبق .

قال : « **أثرة علينا** » ، أثرة : يعنى استئثارًا علينا ، يعنى لو كان ولاة الأمر يستأثرون على الرعية بالمال أو غيره ، مما يرفهون به أنفسهم ويحرمون من ولاهم الله عليهم ، فإنه يجب علينا السمع والطاعة ، لا نقول أنتم أكلتم الأموال . وأفسدتموها ، وبذرتموها ، فلا نُطيعكم بل نقول سمعًا وطاعة لله رب العالمين ، ولو كان لكم استئثار علينا ، ولو كنا نحن لا نسكن إلا الأكواخ ، ولا نفترش إلا الخلق من الفرش ، وأنتم تسكنون القصور ، وتتمتعون بأفضل الفرش ، لا يهمنا هذا ؛ لأن هذا كله متاع الدنيا وستزولون عنه ، أو يزول عنكم ، إما هذا أو هذا ، أما نحن فعلينا السمع والطاعة ، ولو وجدنا مَن يستأثر علينا من ولاة الأمور .

وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام فى حديث آخر : « **اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك** » [1] . واعلم أنك سوف تقتص منه يوم القيامة ، من حسناته فإن بقى من حسناته شيء وإلا أخذ من سيئات من ظلمهم ، ثم طُرح عليه ثم طُرح فى النار [2] والعياذ بالله . الأمر مضبوط ومحكم لا يضيع على الله شيء .

ثم قال : « **وألا ننازع الأمر أهله** » يعنى لا ننازع ولاة الأمور ما ولاهم الله علينا، لنأخذ الإمرة منهم ، فإن هذه المنازعة توجب شرًا كثيرًا ، وفتنًا عظيمة ، وتفرقًا بين

---

(١) مسلم (١٨٤٧) .

(٢) مسلم (٢٥٨١) الترمذى (٢٤١٨) .

Marfat.com

المسلمين ، ولم يدع للأمة الإسلامية إلا مُنازعة الأمر أهله ، من عهد عثمان ﷺ إلى يومنا هذا ، ما أفسد الناس إلا منازعة الأمر أهله .

قال : « **إلا أن تروا كفراً بواحًا عندكم فيه من الله برهان** » ثلاثة شروط ، إذ رأينا هذا وتحت الشروط الثلاثة فحينئذ نُنازع الأمر أهله ، ونُحاول إزالتهم عن ولاية الأمر ، لكن بشروط ثلاثة :

الأول : أن تروا ، فلابد من علم ، مجرد الظن لا يجوز الخروج على الأئمة ، لابد أن نعلم .

الثاني : أن نعلم كفرًا لا فسقًا ، الفسوق مهما فسق ولاة الأمور لا يجوز الخروج عليهم ؛ لو شربوا الخمر ، لو زنوا ، لو ظلموا الناس ، لا يجوز الخروج عليهم ، لكن إذا رأينا كفرًا صريحًا يكون بواحًا .

الثالث: الكفر البواح ، وهذا معناه الكفر الصريح ، والبواح الشيء البين الظاهر ، فأما ما يحتمل التأويل فلا يجوز الخروج عليهم ، يعني لو قدرنا أنهم فعلوا شيئًا نرى أنه كفر ، لكن فيه احتمال أنه ليس بكفر ، فإنه لا يجوز أن نُنازعهم أو نخرج عليهم ونولهم ما تولوا.

لكن إذا كان بواحًا صريحًا مثل لو أن ولي من ولاة الأمور قال لشعبه : إن الخمر حلال ، اشربوا ما شئتم ، وإن اللواط حلال تلوطوا بما شئتم ، وإن الزنى حلال ازنوا بمن شئتم ، فهذا كفر بواح ما فيه إشكال ، هذا يجب على الرعية أن يزيلوه بكل وسيلة ولو بالقتل ؛ لأن هذا كفر بواح .

الشرط الرابع : عندكم فيه من الله برهان ، يعني عندنا دليل قاطع على أن هذا كفر ، فإن كان الدليل ضعيفًا في ثبوته ، أو ضعيفًا في دلالته ، فإنه لا يجوز الخروج عليهم ؛ لأن الخروج فيه شر كثير جدًا ومفاسد عظيمة . فهذه إن شئتم فقولوا ثلاثة شروط ، وإن شئتم فقولوا أربعة : أن تروا ، كفرًا ، بواحًا عندكم فيه من الله برهان ، هذه أربعة شروط.

وإذا رأينا هذا مثلاً فلا تجوز المنازعة حتى تكون لدينا قدرة على إزاحته ، فإن لم يكن لدينا قدرة فلا تجوز المنازعة ؛ لأنه ربما إذا نازعنا وليس عندنا قدرة يُقضى على البقية الصالحة ، وتتم سيطرته .

فهذه الشروط شروط للجواز أو للوجوب - وجوب الخروج على ولي الأمر - لكن بشرط أن يكون لدينا قدرة ، فإن لم يكن لدينا قدرة فلا يجوز الخروج ؛ لأن هذا من إلقاء

Marfat.com

النفس فى التهلكة ، أى فائدة إذا خرجنا على هذا الولى الذى رأينا عنده كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان ، ونحن لا نخرج إليه إلا بسكين المطبخ ، وهو معه الدبابات والرشاشات! لا فائدة ، ومعنى هذا أننا خرجنا لنقتل أنفسنا ، نعم لابد أن نتحيل بكل حيلة على القضاء عليه وعلى حكمه ، لكن بالشروط الأربعة التى ذكرها النبى عليه الصلاة والسلام : أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان . عرفنا فيما سبق حق ولاة الأمر على الرعية ، ولكن بقى أن نقول : فما حق الناس على ولاة الأمر ؟

حق الناس على ولاة الأمر أن يعدلوا فيهم ، وأن يتقوا الله تعالى فيهم ، وألا يشقوا عليهم ، وألا يولوا عليهم مَن يجدون خيرًا منه ، فإن النبى - ﷺ -قال : « **اللهم من ولى من أمر أمتى شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه** »[(١)] دعاء من الرسول عليه الصلاة والسلام : أن مَن ولى من أمور المسلمين شيئًا صغيرًا كان أم كبيرًا وشق عليهم ، قال : « **فاشقق عليه** »، وما ظنك بشخص شق الله عليه والعياذ بالله ، إنه سوف يخسر وينحط ، وأخبر النبى عليه الصلاة والسلام أنه : « **ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة** »[(٢)] . لأنه يجب على الأمير أن ينصح للرعية ، ويختار لها الأصلح، وأن يولى على الأمور أهلها ، بدون أى مراعاة ، يَنظر لمصلحة العباد فيولى عليهم مَن هو أولى بهم .

والولايات تختلف ، فإمام المسجد مثلاً أولى الناس به مَن هو أقرأ لكتاب الله ، والأمور الأخرى كالجهاد أولى الناس بها مَن هو أعلم بالجهاد ، وهلم جرًا . المهم أنه يجب على ولى المسلمين أن يولى على المسلمين خيارهم ، ولا يجوز أن يولى على الناس أحدًا وفيهم مَن هو خير منه ؛ لأن هذا خيانة .

وكذلك أخبر النبى عليه الصلاة والسلام أنه : « **ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة** »[(٣)] . والعياذ بالله .

فولاة الأمور عليهم حقوق عظيمة لمن ولاهم الله عليهم ، كما أن على المولى عليهم حقوقًا عظيمة يجب عليهم أن يقوموا بها لولاة الأمر ، فلا يعصونهم حتى وإن استأثر ولاة الأمور بشىء ، فإن الواجب لهم السمع والطاعة فى المنشط والمكره والعسر واليسر ، إلا إذا كان ذلك فى معصية الله ، يعنى لو أمروا بمعصية الله ، فإنه لا يجوز أن يأمروا بمعصية الله

---

(١) مسلم (١٨٢٧) النسائى (٨/ ٢٢١) .

(٢) مسلم (١٨٢٩) .

(٣) البخارى (٧١٥٠) مسلم (١٤٢) .

Marfat.com

ولا يجوز لأحد أن يطيعهم فى معصية الله .

وأما قول بعض الناس السفهاء : إنه لا تجب علينا طاعة ولاة الأمور إلا إذا استقاموا استقامة تامة ، فهذا خطأ وهذا غلط وهذا ليس من الشرع فى شيء ، بل هذا من مذهب الخوارج ، الذين يريدون من ولاة الأمور أن يستقيموا على أمر الله فى كل شيء ، وهذا لم يحصل من زمن فقد تغيرت الأمور .

ويذكر أن أحد ملوك بنى أمية سمع أن أُناسًا يتكلمون فيه وفى خلافته ، فجمع أشراف الناس ووجهائهم وتكلم فيهم ، وقال لهم : إنكم تُريدون منا أن نكون مثل أبى بكر وعمر؟ قالوا : نعم ، أنت خليفة وهم خلفاء ، قال : كونوا أنت مثل رجال أبى بكر وعمر نكن نحن مثل أبى بكر وعمر ، وهذا جواب عظيم ، فالناس إذا تغيروا لابد أن يغير الله ولاتهم ، كما تكونون يولى عليكم . أما أن يريد الناس من الولاة زن يكونوا مثل الخلفاء وهم أبعد ما يكونون عن رجال الخلفاء ، هذا غير صحيح ، والله حكيم عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩] .

وذكروا أن رجلاً من الخوارج الذين خرجوا على على بن أبى طالب جاءوا إلى على ، فقال له : يا على ، ما بال الناس قد تغيروا عليك ولم يتغيروا على أبى بكر وعمر؟! قال: لأن رجال أبى بكر وعمر أنا وأمثالى ، ورجالى أنت وأمثالك وهذا كلام جيد ، يعنى أنك ما فيك خير،ولذلك تغير الناس علينا ،كلن فى عهد أبى بكر وعمر رجالهم مثل على بن أبى طالب،وعثمان بن عفان وغيرهم من الصحابة الفضلاء،فلم يتغيروا على ولاتهم .

فالحاصل أنه يجب علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا فى كل شيء ، إلا فى معصية الخالق ، لأن معصية الخالق ليس لبهم أن يأمروا الناس بها ، فلما لم يكن لهم أن يأمروا الناس بها ، لم يكن للناس عليهم طاعة فى معصية الله عز وجل .

وكذلك أيضًا يجب على الرعية أن ينصحوا لولى الأمر ، ولا يكذبوا عليه ، ولا يخدعوه ، ولا يغشوه ، ومع الأسف الناس اليوم عندهم كذب وتحايل على أنظمة الدولة، ورشاوى وغير ذلك مما لا يليق بالعاقل فضلاً عن المسلم ، إذا كانت الدول الكافرة تعاقب من يأخذ الرشوة ولو كان من أكبر الناس ، فالذى يعاقب الذى يأخذ الرشوة هو الله عز وجل، نحن نؤمن بالله وما جاء على لسان رسول الله ـ ﷺ ـ ، وإذا كان النبى ـ ﷺ ـ **لعن الراشى والمرتشى**(١) . فعقوبة الله أشد من عقوبة الآدميين ، ومع ذلك نجد الرشوة مع

(١) الترمذى (١٣٣٧) ابن ماجه (٢٣١٣) احمد (٢/ ١٦٤) وصححه الالبانى فى صحيح الجامع (٥٠٩٣).

Marfat.com

الأسف موجودة فى جميع قطاعات الدولة إلا أن يشاء الله .

وكذلك تجد الكذب والدجل من الناس على الحكومة ، مثل أن يأتى المزارع يدخل زرع غيره باسمه وهو كاذب ، ولكن من أجل مصلحة ومن أجل أن يأكل بها ، أحيانًا قد تكون الدولة قد استلمت الحب ، ولم يبق إلا الدراهم عند الدولة ، فيأتى الإنسان ويبيعها على آخر ، يبيع دراهم بدراهم مع التفاضل ومع تأخير القبض ، إلى غير ذلك من المعاصى التى يرتكبها الشعب ، ثم يريدون من ولاتهم أن يكونوا مثل أبى بكر وعمر ، فهذا ليس بصحيح .

ومن الأمور التى يهملها كثير من الناس أنهم لا يحترمون أعراض ولاة الأمور ، تجد فاكهة مجالسهم ـ نسأل الله العافية وأن يتوب علينا وعليهم ـ أن يتكلموا فى أعراض ولاة الأمور ، لو كان هذا الكلام مجديًا وتصلح به الحال لقلنا : لا بأس وهذا طيب ، لكن هذا لا يجدى ، ولا تصلح به الحال ، وإنما يوغر الصدور على ولاة الأمور ، سواء كانوا من العلماء أو الأمراء .

تجد الآن بعض الناس همه إذا جلس فى المجلس ما يستأنس إلا إذا مسك عالم من العلماء أو وزير من الوزراء أو أمير من الأمراء ولا من فوقه ليتكلم فى عرضه ، وهذا غير صحيح ، ولو كان هذا الكلام يجدى لكنا أول من يشجع عليه ، ولقلنا : لا بأس ، المنكر يجب أن يزال ، والخطء يجب أن يصحح ، لكنه لا يجدى ، إنما يوغر الصدور ، ويكره ولاة الأمور إلى الناس ، ويكره العلماء إلى الناس ، ولا يحصل فيه فائدة .

وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام كلمة جامعة مانعة ـ جزاه الله عن أمته خيراً ـ : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»[1] والعجب أن بعض الناس من أهل الدين لو أردت أن تتكلم فى شخص عادى قالوا لا تغتبه ، هذا حرام ، لكن لو تكلمت فى واحد من ولاة الأمور تكيّف ، مع أنه فى غير ولاة الأمور ما يرضى أن يتكلم أحد فى عرض أحد عنده ، لكن فى ولاة الأمور يرى أن هذا لا بأس به .

وهذه مسالة مرض بها كثير من الناس ، وأنا أعتبرها مرض ـ نسأل الله أن يعافينا وإياكم من هذا الداء ـ ابتُلى به كثير من الناس.

ولو أن الناس كفوا ألسنتهم ونصحوا لولاة أمورهم ، ولا أقول : اسكت على الخطأ لكن اكتب لولاة الأمور ، اكتب كتاب إن وصل فهذا هو المطلوب ، وإذا انتفعوا به فهذا أحسن ، وإذا لم ينتفعوا به فالإثم عليهم ، إذا كان خطأ صحيحًا ، وإذا لم يصل إليهم

---

(1) البخارى (٦٠١٨) مسلم (٤٧) .

Marfat.com

فالإثم على من منعه عنهم .

قوله ﷺ فيما بايعوا عليه النبى - ﷺ - : « **وأن نقول بالحق أينما كنا** » يعنى أن نقوم بالحق الذى هو دين الإسلام وشرائعه العظام أينما كنا ، يعنى فى أى مكان ، سواء فى البلد ، أو فى البر ، أو فى البحر ، أو فى أى مكان ، وسواء فى بلاد الكفر ، أو فى بلاد الإسلام ، نقوم بالحق أينما كنا ، لا تأخذنا فى الله لومة لائم ، يعنى لا يهمنا إذ لامنا أحد فى دين الله ، لأننا نقوم بالحق .

فمثلاً لو أراد الإنسان أن يطبق سنة يستنكرها العامة ، فإن هذا الاستنكار لا يمنع الإنسان من أن يقوم بهذه السنة ، ولنضرب لهذا مثلاً ، تسوية الصفوف فى صلاة الجماعة، أكثر العوام يستنكر إذا قال الإمام : استووا ، وجعل ينظر إليهم ، ويقول : تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، أو تأخر الإمام عن الدخول فى الصلاة حتى تستوى الصفوف يستنكرون هذا، ويغضبون منه ، حتى إن بعضهم قيل له مرة من المرات : يا فلان ، تأخر إنك متقدم، فقال من الغضب والزعل : إن شئت طلعت من المسجد كله وخليته لك ، فمثل هذا لا ينبغى للإنسان أن تأخذه لومة لائم فى الله ، بل يصبر ويُمَرِّن الناس على السنة ، والناس إذا تمرنوا على السنة أخذوا عليها وهانت عليهم ، لكن إذا رأى أن هؤلاء العوام جفاة جدًا ، ففى هذه الحال ينبغى أن يعلمهم أولاً حتى تستقر نفوسهم ، وتألف السنة إذا طبقت ، فيحصل بذلك الخير .

ومن ذلك أيضًا أن العامة يستنكرون سجود السهو بعد السلام ، ومعلوم أن السنة وردت به إذا كان السهو عن زيادة أو عن شك مترجح به أحد الطرفين فإنهُ يسجد به السلام لا قبل السلام ، هذه هى السنة حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قال: إنه يجب أن يسجد بعد السلام إذا كان السجود بعد السلام ،وقبل السلام إذا كان السجود قبله يعنى لم يجعلهذا على سبيل الأفضلية ، بل على سبيل الوجوب .

سجد أحد الأئمة بعد السلام لسهو سهاه فى صلاته ، زاد أو شك شكًا مترجحًا فيه وبنى على الراجح ، فسجد بعد السلام ، فلما سجد بعد السلام ثار عليه العامة وما هذا الدين الجديد ؟ هذا غلط ، قال رجل من الناس : فقلت لهم : هذا حديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، سلم الرسول عليه الصلاة والسلام من ركعتين ، ثم أخبروه فأكمل صلاته ثم سلم ، ثم سجد للسهو بعد السلام [١] ، قالوا : أبدًا ، ولا نقبل ، قيل: من ترضون من العلماء ؟ قالوا : نرضى فلانًا وفلانًا ، فلما ذهبوا إليه قال لهم : هذا صحيح

(١) انظر ابن ماجه (١٢١٣) وهذا لفظه .

Marfat.com

وهذا هو السنة ، فبعض الأئمة يأنف أن يسجد بعد السلام وهو يعلم أن السنة أن السجود بعد السلام خوفًا من ألسنة العامة ، وهذا خلاف ما بايع النبى عليه الصلاة والسلام أصحابه عليه ، قم بالحق ولا تخف فى الله لومة لائم .

كذلك أيضًا فيما يتعلق بالصدق فى المعاملة ، بعض الناس إذا أخبر الإنسان بما عليه الأمر بحسب الواقع ، قالوا : هذه وساوس ، وليس بلازم أن أعلم الناس بكل شيء، مثلاً عيب فى السلعة ، قالوا : هذا سهل ، والناس يرضونه ، والواجب أن الإنسان يتقى الله عز وجل ويقوم بالعدل ويقوم باللازم ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولكن كما قلت أولاً إذا كان عند عامة جفاة ، فالأحسن أن يبلغهم الشرع قبل أن يطبق ، من أجل أن تهدأ نفوسهم ، وإذا طُبق الشرع بعد ذلك إذا هم قد حصل عندهم علم منه ، ولم يحصل منهم نفور .

* * *

[١٨٧/٤] الرَّابع : عن النعْمان بن بَشير ﷺ عن النبى ﷺ قال : «**مَثَل القَائم فى حُدود اللَّه ، والوَاقع فيها كَمَثَلِ قَوم اسْتَهمُوا على سفينة ، فصار بعَضهُمْ أعْلاهَا وبَعضُهُمْ أسْفَلَها ، وكان الذين فى أسْفلها إذا اسْتَقَوا منَ المَاء مَروا عَلى مَن فَوقَهُمْ فَقَالوا : لَوْ خَرَقْنَا فى نَصيبنَا خَرْقاً وَلَمْ نُؤذ مَنْ فَوقَنَا ، فَإِنْ تَركُوهُم وَمَا أرادُوا هَلَكُوا جَميعاً، وإنْ أخَذُوا عَلى أيْديهِمْ نَجَوا ونَجوْا جَميعاً**» رواه البخارى .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن النعمان بن بشير الأنصارى ـ ﷺ ـ فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : «**مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها**» القائم فيها يعنى الذى استقام على دين الله ، فقام بالواجب ، وترم المحرم ، والواقع فيها أى : فى حدود الله ، أى : الفاعل للمحرم أو التارك للواجب ، كمثل قوم استهموا على سفينة يعنى ضربوا سهمًا ، وهو ما يسمى بالقرعة ، أيهم يكون الأعلى ؟ «**فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا الماء**» يعنى إذا طلبوا الماء ليشربوا منه : «**مروا على من فوقهم**» يعنى الذين فى أعلاها؛ لأن الماء لا يقدر عليه إلا من فوق ، «**فقالوا : لو خرقنا فى نصيبنا**» يعنى لو نخرق خرقًا فى مكاننا نستقى منه ، حتى لا نؤذى من فوقنا ، هكذا قدروا وأرادوا .

[١٨٧/٤] صحيح : أخرجه البخارى (٢٤٩٣) أحمد (٢٦٩/٤) .

Marfat.com

قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا** » ؛ لأنه إذا خرقوا خرقًا في أسفل السفينة دخل الماء ، ثم أغرق السفينة ، « **وإن أخذوا على أيديهم** » ومنعوهم من ذلك « **نجوا ونجوا جميعًا** » يعني نجا هؤلاء وهؤلاء .

وهذا المثل الذي ضربه النبي ـ ﷺ ـ هو من الأمثال التي لها مغزى عظيم ومعنى عال فالناس في دين الله كالذين في سفينة في لجة البحر فهم تتقاذفهم الأمواج، ولابد أن يكون بعضهم إذا كانوا كثيرين في الأسفل وبعضهم في الأعلى ، حتى تتوازن حمولة السفينة ، وحتى لا يضيق بعضهم على بعض ، وفيه أن هذه السفينة المشتركة بين هؤلاء القوم إذا أراد أحد منهم أن يخربها ، فإنه لابد أن يمسكوا على يديه ، وأن يأخذوا على يديه، لينجوا جميعًا ، فإن لم يفعلوا هلكوا جميعًا ، هكذا دين الله ، إذا أخذ العقلاء وأهل العلم والدين على الجهال والسفهاء نجوا جميعًا ، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

وفي هذا المثل :دليل على أنه ينبغي لمعلم الناس أن يضرب لهم الأمثال ، ليقرب لهم المعقول بصورة المحسوس ، قال الله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٣] ، وكم من إنسان تشرح له المعنى شرحًا كثيرًا وتردده عليه فلا يفهم ، فإذا ضربت له مثلاً بشيء محسوس يعرفه ، فَهِم .

وانظر إلى المثل العجيب الذي ضربه النبي ـ ﷺ ـ لرجل من الأعراب ، صاحب بادية إبل جاء إلى النبي ـ ﷺ ـ يقول : يا رسول الله ، إن زوجتي ولدت غلامًا أسود ، يعني وأنا أبيض ، والمرأة بيضاء . من أين جاءنا هذا الأسود ؟ فقال النبي ـ ﷺ ـ : « **هل لك من إبل ؟** » قال : نعم . قال : « **ما ألوانها ؟** » قال : حمر . قال : « **هل فيها من أورق؟** » يعني أسود ببياض . قال : نعم . قال : « **من أين جاءها ذلك ؟** » قال : لعله نزعه عرق ، يعني ربما يكون له أجداد أو جدات سابقة لونها هكذا ، فَنَزَعه هذا العرق ، قال : « **فابنك هذا لعله نزعه عرق** » [(١)] يمكن واحد من أجداده أو جداته أو أخواله أو آبائه لونه أسود ، فجاء الولد عليه ، فاقتنع الأعرابي تمام الاقتناع ، لو جاءه النبي عليه الصلاة والسلام يشرح له شرحًا فهو أعرابي لا يعرف ، لكن أتاه بمثال من حياته التي يعيشها ، فانطلق وهو مقتنع .

وهكذا ينبغي لطالب العلم ، بل ينبغي للمعلم أن يقرب المعاني المعقولة لأذهان الناس بضرب الأمثال المحسوسة ، كما فعل النبي ـ ﷺ ـ .

---

(١)البخاري (٥٣٠٥) مسلم (١٤٩٩) .

Marfat.com

وفى هذا الحديث : إثبات القرعة وأنها جائزة ، وقد وردت الآيات والأحاديث بالقرعة فى موضعين من كتاب الله ، وفى ستة مواضع من سنة الرسول - ﷺ - ، أما الموضعين من كتاب الله ، وكلكم يقرأهما والحمد لله : الموضع الأول فى سورة آل عمران : ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران : ٤٤] . الموضع الثانى فى سورة الصافات : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات : ١٣٩ - ١٤٤] .

يونس أحد الأنبياء ركب مع قوم فى سفينة فضاقت بهم ، وقالوا : إن بقينا كلنا على ظهرها هلكنا وغرقت ، لابد أن نُنَزِّل بعضنا فى البحر ، فمن نُنْزِل ؟ أول راكب ، أم أكبر راكب ، أم أكبر بدنًا ؟ فعملوا قرعة ، فصارت القرعة على جماعة ، منهم يونس ؛ لأن الآية تقول : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ إذن معه ناس ، نزلوهم ، والذين معه الله أعلم بهم لا نعرف ماذا صار لهم .

أما هو فالتقمه حوت عظيم ، أى : ابتلعه بلعًا دون أن يعلكه فصار فى بطن الحوت، فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت إنى كنت من الظالمين ، فلفظه الحوت على سيف البحر، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، يقطين قال العلماء : قرع النجد . قَرع النجد لين وأوراقه لينة كالإبريسم ، ومن خصائصه أنه لا يقع عليه الذباب ، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين حتى ترعرع بعد أن بقى فى بطن الحوت ، ثم أنجاه الله عز وجل.

المهم أن القرعة من الأمور المشروعة الثابتة بالكتابة والسنة ، وقد ذكر ابن رجب - رحمه الله - فى كتابه القواعد الفقهية ، ذكر قاعدة فى الأشياء التى تستعمل فيها القرعة ، من أول الفقه إلى آخره .

***

[١٨٨/٥] الخامسُ : عَنْ أُمِّ الْمُؤمنين أُمِّ سَلَمَةَ هند بنت أبى أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ ﵂ ، عن النبى ﷺ أنه قال : « **إنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِىَ وَتَابَعَ** » قالوا : **يَا رَسُولَ اللهِ ، ألا نُقَاتِلُهُمْ** ؟ قالَ : « **لا ، مَا أقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ** » رواه مسلم .

مَعْنَاهُ : مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ إنكاراً بِيَدٍ وَلا لِسَانٍ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الإثم ، وَأدَّى

[١٨٨/٥] صحيح : رواه مسلم (١٨٥٤) أبو داود (٤٧٦٠) الترمذى (٢٢٦٥) .

Marfat.com

وَظِيفَتَهُ ، وَمَنْ أَنْكَرَ بحَسَبِ طَاقَتِهِ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ هذهِ المَعْصيَةِ ، وَمَنْ رَضِيَ بِفِعْلِهِمْ وَتَابَعَهُمْ ، فَهُوَ العَاصِي .

الشرح

وفى هذا الحديث الذى ذكره المؤلف ، أخبر عليه الصلاة والسلام أنه يستعمل علينا أمراء يعنى يولون علينا من قبل ولى الأمر ، « **فتعرفون وتنكرون** » ، يعنى أنهم لا يقيمون حدود الله ، ولا يستقيمون على أمر الله ، تعرفون منهم وتنكرون ، وهم أمراء لولى الأمر الذى له البيعة ، « **فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع**» يعنى أنه يهلك كما هلكوا . ثم سألوا النبى - ﷺ - : ألا نقاتلهم ؟ قال : « **لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة**» .

فدل هذا على أنهم - أى الأمراء - إذا رأينا منهم ما ننكر ، فإننا نكره ذلك ، وننكر عليهم ، فإن اهتدوا فلنا ولهم ، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم ، وأنه لا يجوز أن نقاتل الأمراء الذين نرى منهم المنكر ؛ لأن مقاتلتهم فيها شر كثير ، ويفوت بها خير كثير ؛ لأنهم إذا قوتلوا أو نوبذوا لم يزدهم ذلك إلا شراً ، فإنهم أمراء يرون أنفسهم فوق الناس ، فإذا نابذهم الناس أو قاتلوهم ازداد شرهم ، إلا أن النبى - ﷺ -شرط ذلك بشرط ، قال: « **ما أقاموا فيكم الصلاة** » . فدل ذلك على أنه إذا لم يقيموا الصلاة فإننا نقاتلهم.

وفى هذا الحديث : دليل على أن ترك الصلاة كفر ، وذلك لأنه لا يجوز قتال ولاة الأمور إلا إذا رأينا كفراً بواحًا عندنا فيه من الله برهان ، فإذا أذن لنا النبى - ﷺ -أن نقاتلهم إذا لم يقيموا الصلاة ، دل ذلك على أن ترك الصلاة كفر بواح عندنا فيه من الله برهان.

وهذا هو القول الحق ، أن تارك الصلاة تركًا مطلقًا ، لا يصلى مع الجماعة ، ولا فى بيته كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، ولم يرد عن النبى - ﷺ -أن تارك الصلاة فى الجنة، أو أنه مؤمن ، أو أنه ناجٍ من النار ، أو ما أشبه ذلك .

فالواجب إبقاء النصوص على عمومها فى كفر تارك الصلاة ، ولم يأت أحد بحجة تدل على أنه لا يكفر ، إلا حججًا لا تنفعهم ؛ لأنها تنقسم إلى خمسة أقسام : إما أنها ليس فيها دليل أصلاً ، وإما أنها مقيدة بوصف لا يمكن معه ترك الصلاة ، وإما أنها مقيدة بحال يعذر فيه من ترك الصلاة ، وإما أنها عامة خصت بنصوص كفر تارك الصلاة .

فالنبى - ﷺ -ضرب مثلاً للقائم فى حدد الله والمتعدى فيها الواقع فيها ، بقوم استهموا على سفينة فكان بعضهم فى أعلاها وبعضهم فى أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها

Marfat.com

يستقون الماء من فوق ، فقالوا : أفلا نخرق فى نصيبنا خرقًا يعنى على الماء ، حتى لا نؤذى من فوقنا ، قال النبى - ﷺ - « **إن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا ، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا** » .

وبينا أنه ينبغى للمعلم إذا كان المعقول بعيدًا عن التصور والأفهام أن يضرب مثلاً بالمحسوس .

وفى هذا الحديث الذى ذكره المؤلف فى درسنا اليوم أخبر عليه الصلاة والسلام أنه سيكون علينا أمراء ، يعنى يولون علينا من قبل ولى الأمر ، يكون فيهم ما نعرف وما ننكر يعنى أنهم لا يقيمون حدود الله ، ولا يستقيمون على أمر الله ، تعرف منهم وتنكر.

وهم أمراء لولى الأمر الذى له البيعة ، فمن أنكر أو كره فقد سلم ، ومن رضى وتابع فإنه يهلك كما هلكوا ، ثم سألوا النبى - ﷺ - : أفلا نقاتلهم ؟ قال : « **لا ما أقاموا فيكم الصلاة** » فدل هذا على أنهم - أى الأمراء - إذا رأينا منهم ما ننكر ، فإننا نكره ذلك وننكر عليهم ، فإن اهتدوا فلنا ولهم ، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم .

وأنه لا يجوز أن نقاتل الأمراء الذين نرى منهم المنكر ، لأن مقاتلتهم فيها شر كثير ، ويفوت بها خير كثير ؛ لأنهم إذا قوتلوا أو نوبذوا لم يزدهم ذلك إلا شرًا ، فإنهم أمراء يرون أنفسهم فوق الناس ، فإذا نابذهم الناس أو قاتلوهم ازداد شرهم ، إلا أن النبى - ﷺ - اشترط لقتالهم شرطًا فقال : « **ما أقاموا فيكم الصلاة** » .

فدل هذا على أنهم إذا لم يقيموا الصلاة ، فإننا نقاتلهم وفى هذا الحديث دليل على أن ترك الصلاة كفر ، وذلك لأنه لا يجوز قتال ولاة الأمور إلا إذا رأينا كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان ، فإذا أذن لنا النبى - ﷺ - أن نقاتلهم إذا لم يقيموا الصلاة ، دل ذلك على أن ترك الصلاة كفر بواح عندنا فيه من الله برهان .

وهذا هو القول الحق ، أن تارك الصلاة تركًا مطلقًا ، لا يصلى مع الجماعة ، ولا فى بيته ، كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ولم يرد عن النبى - ﷺ - أن تارك الصلاة فى الجنة، أو أنه مؤمن ، أو أنه ناج من النار ، أو ما أشبه ذلك .

فالواجب إبقاء النصوص على عمومها فى كفر تارك الصلاة ، ولم يأت أحد بحجة تدل على أنه لا يكفر ، إلا حججًا لا تنفعهم ؛ لأنها تنقسم إلى خمسة أقسام:

١ - إما أنها ليس فيها دليل أصلاً .

٢ - وإما أنها مقيدة بوصف لا يمكن معه ترك الصلاة .

٣ - وإما أنها مقيدة بحال يعذر فيه ترك الصلاة .

Marfat.com

٤ ـ وإما أنها عامة خصت بنصوص كفر تارك الصلاة .

٥ ـ وإما أنها ضعيفة .

فهذه خمسة أقسام لا تخلو أدلة من قال إنه لا يكفر منها أبدًا . فالصواب الذى لا شك فيه عندى : أن تارك الصلاة كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وأنه أشد كفرًا من اليهود والنصارى ؛ لأن اليهود والنصارى يُقرون على دينهم ، أما هو فلا يُقَر ؛ لأنه مرتد ، يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل .

❊ ❊ ❊

[٦/ ١٨٩] السَّادسُ : عَنِ أُمِّ المُؤْمنينَ أُمِّ الحكَمِ زَيْنَبَ بنت جَحْش ﵂ أنَّ النبىَّ ﷺ دَخلَ عَلَيْهَا فَزِعاً يَقُولُ : « **لا إله إلا اللهُ ، ويْلٌ للعَرَب مِنْ شَرٍّ قَد اقْتَربَ ، فُتحَ اليَوْمَ مِن رَدْمِ يأجُوجَ ومَأجُوجَ مثْلُ هذه** » وحَلَّقَ بأصبعَيه الإبهَامِ والَّتى تَليهَا . فَقُلْتُ : يَا رسولَ اللهِ ، أنَهْلكُ وَفينَا الصَّالحُونَ ؟ قال : « **نَعَمْ ، إذَا كَثُرَ الخَبَثُ** » متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن أم المؤمنين زينب بنت جحش ﵂ أن النبى ـ ﷺ ـ دخل عليها محمرًا وجهُه يقول : « **لا إلَهَ إلاَّ الله ، ويْلٌ للعَرَب منْ شرٍّ قَد اقْتَرَب** » دخل عليها بهذه الصفة ، متغير اللون ، محمر الوجه ، يقول : « **لا إلَهَ إلا الله** » تحقيقًا للتوحيد وتثبيتًا له ؛ لأن التوحيد هو القاعدة الذى تبنى عليها جميع الشريعة . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقال تعالى : ﴿وما أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

فتوحيد الله بالعبادة ، والمحبة ، والتعظيم ، والإنابة ، والتوكل ، والاستعانة ، والخشية ، وغير ذلك ، هو أساس الملة .

ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **لا إلَهَ إلا الله** » فى هذه الحال التى كان فيها فزعًا متغير اللون ، تثبيتًا للتوحيد ، وتطمينًا للقلوب . ثم حذر العرب ، فقال : « **ويْلٌ للعَرَب منْ شرٍّ قَد اقْتَرَب** » وحذر العرب ؛ لأن العرب هم حاملوا لواء الإسلام ، فالله تعالى بعث محمدًا ـ ﷺ ـ فى الأميين ، فى العرب : ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة : ٢ ، ٣] . فبين النبى عليه الصلاة والسلام هذا الوعيد للعرب ؛ لأنهم

[٦/ ١٨٩] صحيح : رواه البخارى (٦/ ٣٣٤٦) ، ومسلم (٢٨٨٠) .

Marfat.com

حاملوا لواء الإسلام .

وقوله : « مِنْ شَرٍّ قَد اقْتَرَبَ » الشر هو الذى يحصل بيأجوج ومأجوج ، ولهذا فسره بذلك فقال : « فُتِحَ اليَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأجُوج ومأجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ » وأشار بالسبابة والإبهام، يعنى أنه جزء ضعيف ، ومع ذلك فإنه يهدد العرب .

فالعرب الذين حملوا لواء الإسلام من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ، مُهدَّدون من قبل يأجوج ومأجوج المفسدين فى الأرض ، كما حكى تعالى عن ذى القرنين أنه قيل له : ﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض﴾ فهم أهل الشر وأهل الفساد . ثم قالت زينب : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ! قال : « نعم إذا كثر الخبث » الصالح لا يهلك وإنما هو سالمٌ ناج، لكن إذا كثر الخبث هلك الصالحون ، لقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال : ٢٥] والخبث هنا يراد به شيئان : الأول : الأعمال الخبيثة ، والثانى : البشر الخبيث .

فإذا كثرت الأعمال الخبيثة السيئة فى المجتمع ولو كانوا مسلمين فإنهم عرضوا أنفسهم للهلاك . وإذا كثر فيهم الكفار فقد عرضوا أنفسهم للهلاك أيضًا . ولهذا حذر النبى عليه الصلاة والسلام من بقاء اليهود والنصارى والمشركين فى جزيرة العرب حذر من ذلك فقال: « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب »(١) .

وقال فى مرض موته : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » .

وقال فى آخر حياته : « لئن عشتُ لأخرجت اليهود والنصارى من جزيرة العرب» .

أو قال : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلمًا» هكذا صح عنه عليه الصلاة والسلام . ومع الأسف الشديد الآن تجد الناس كأنما يتسابقون إلى جلب اليهود والنصارى والوثنيين إلى بلادنا للعمالة ، ويدعى بعضهم أنهم أحسن من المسلمين . نعوذ بالله من الخذلان وانتكاس الفطرة .

هكذا يلعب الشيطان بعقول بعض الناس حتى يفضل الكافر على المؤمن ، والله عز وجل يقول : ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة : ٢٢١] فالحذر الحذر من استجلاب اليهود والنصارى والوثنيين والبوذيين وغيرهم إلى هذه الجزيرة لأنها جزيرة إسلام منها بدأ وإليها يعود . فكيف نجعل هؤلاء الخبث بين أظهرنا ، وفى أولادنا ، وفى أهلنا ، وفى مجتمعنا ، هذا مؤذنٌ بالهلاك ولابد.

---

(١) البخارى (٣١٦٨) مسلم (١٦٣٧) .

Marfat.com

ولهذا من تأمل أحوالنا اليوم وقارن بينها وبين أحوالنا بالأمس ، وجد الفرق الكبير ، ولولا الناشئة الطيبة التى منَّ الله عليها بالاستقامة ، والتى نسأل الله أن يثبتها عليه ، لولا هذا لرأيت شرًا كثيرًا ، ولكن لعل الله أن يرحمنا بعفوه ، ثم بهؤلاء الشباب الصالح الذين لهم نهضة طيبة أدام الله عليهم فضله ، وأعاذنا وإياهم من الشيطان الرجيم .

❊ ❊ ❊

[٧/ ١٩٠] السَّابعُ : عَنْ أبى سَعيد الخُدْرىِّ ﷺ عن النبى ﷺ قال : « **إيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ فى الطُرُقَات** » فَقَالُوا : يَا رَسولَ الله ، مَا لَنَا منْ مَجَالسنَا بُدٌّ ؛ نَتَحَدَّثُ فيهَا ! فقال رسول الله ﷺ : « **فَإذَا أَبَيْتُمْ إلا المَجْلسَ فَأعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ** » قالوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ الله ؟ قال : « **غَضُّ البَصَرِ ، وَكَفُّ الأذَى ، وَرَدُّ السَّلامِ ، وَالأمْرُ بالمَعْرُوفِ ، والنَّهْىُ عَنِ المُنْكَر** » متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن النبى ـ ﷺ ـ قال: « **إياكم والجلوس فى الطرقات** » هذه الصيغة صيغة تحذير ، يعنى أحذركم من الجلوس على الطرقات ، وذلك لأن الجلوس على الطرقات يؤدى إلى كشف عورات الناس ، الذاهب والراجع ، وإلى النظر فيما يحملونه من الأغراض التى قد تكون خاصة مما لا يحبون أن يطلع عليها أحد ، وربما يفضى أيضًا إلى الكلام والغيبة فيمن يمر ، إذا مرّ من عند هؤلاء الجالسين أحد أخذوا يتكلمون فى عرضه .

المهم أن الجلوس على الطرقات يؤدى إلى مفاسد ، ولكن لما قال: « **إياكم الجلوس فى الطرقات** » وحذرهم . قالوا : يا رسول الله ، ما لنا من مجالسنا بد ، يعنى أننا نجلس نتحدث ، ويأنس بعضنا ببعض ، ويألف بعضنا بعضًا ، ويحصل فى ذلك خير ؛ لأن كل واحد منا يعرف أحوال الآخر .

فلما رأى النبى عليه الصلاة والسلام أنهم مصممون على الجلوس قال : « **فإن أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه** » ولم يشدد عليهم عليه الصلاة والسلام ، ولم يمنعهم من هذه المجالس التى يتحدث بعضهم فيها إلى بعض ، ويألف بعضهم بعضًا ، ويأنس بعضهم ببعض ، لم يشق عليهم فى هذا وكان عليه الصلاة والسلام من صفته أنه بالمؤمنين رءوف رحيم فقال : « **إن أبيتم إلا المجلس** » يعنى إلا الجلوس « **فأعطوا الطريق حقه** » قالوا: وما

[٧/ ١٩٠] صحيح : رواه البخارى (٦٢٢٩) ، ومسلم (٢١٢١) .

Marfat.com

حقه يا رسول الله ؟ قال : « **غضُّ البصر ، وكفُّ الأذى ، وردُّ السلام ، والأمرُ بالمعروف، والنهى عن المنكر** » خمسة أشياء :

أولاً : غض البصر : أن تغضوا أبصاركم عمن يمر ، سواء كان رجلاً أو امرأة لأن المرأة يجب غض الإنسان من بصره عنها . والرجل كذلك ، تغض البصر عنه ، لا تُحدّ البصر فى حتى تعرف ما معه . وكان الناس فى السابق يأتى الرجل بأغراض البيت يوميًا فيحملها فى يده ، ثم إذا مر بهؤلاء شاهدوها وقالوا : ما الذى معه ؟ وما أشبه ذلك ، وكانوا إلى وقت غير بعيد إذا مر الرجل ومعه اللحم لأهل بيته صاروا يتحدثون : فلان قد أتى اليوم بلحم لأهله ، فلان أتى بكذا ، فلان أتى بكذا ، فلهذا أمر النبى ـ ﷺ ـ أصحابه بغض البصر .

ثانيًا . **كَفُّ الأذى** : أى كف الأذى القولى والفعلى ، أما الأذى القولى فبأن يتكلموا على الإنسان إذا مر ، أو يتحدثوا فيه بعد ذلك بالغيبة والنميمة .

والأذى الفعلى : بأن يضايقوه فى الطريق ، بحيث يملئون الطريق حتى يؤذوا المارة ، ولا يحصل المرور إلا بتعب ومشقة .

ثالثًا : ردُّ السلام : إذا سلم أحد فردوا عليه السلام ، هذا من حق الطريق ؛ لأن السنة أن المارَّ يسلم على الجالس ، فإذا كانت السنة أن يسلم المار على الجالس فإذا سلم ردوا السلام.

رابعًا : **الأمر بالمعروف** : فالمعروف هو كل ما أمر الله تعالى به أو أمر به رسول الله ـ ﷺ ـ فإنك تأمر به ، فإذا رأيتم أحدًا مقصرًا سواء كان من المارين أو من غيرهم فأمروه بالمعروف ، وحثوه على الخير وزينوه له ورغبوه فيه .

خامسًا : **النهى عن المنكر** : فإذا رأيتم أحدًا مر وهو يفعل المنكر ، مثل أن يمر وهو يشرب الدخان أو ما أشبه ذلك من المنكرات ، فانهوه عن ذلك ، فهذا حق الطريق .

ففى هذا الحديث يُحَذّر النبى ـ ﷺ ـ المسلمين من الجلوس على الطرقات ، فإن كان لابد من ذلك ، فإنه يجب أن يعطى الطريق حقَّه .

وحق الطريق خمسة أمور ، بينها النبى عليه الصلاة والسلام ، وهى : « **غضُّ البصر وكف الأذى ، وردُّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر** » هذه حقوق الطريق لمن كان جالسًا فيه كما بينها النبى ـ ﷺ ـ والله الموفق .

* * *

Marfat.com

[٨/ ١٩١] الثَّامنُ : عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً منْ ذَهبٍ فى يَدِ رَجُلٍ ، فَنَزَعَهُ فطَرَحَهُ وقَالَ : « **يَعْمدُ أحدُكُمْ إلى جمْرَةٍ منْ نار فَيجْعَلُهَا فى يَده !** » فقيلَ للرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رسول الله ﷺ : خُذْ خاتَمكَ ؛ انْتَفعْ بِهِ قال : لا وَاَللهِ لا آخُذُهُ أَبَداً وَقَدْ طَرَحَهُ رسول الله ﷺ . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عبد الله بن عباس ﷺ أن النبى - ﷺ - رأى رجلاً وفى يده خاتم من ذهب ، فَنَزَعَهُ النبى - ﷺ -من يده ، وطرحه فى الأرض ، وقال : « **يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها فى يده** » فلما ذهب النبى - ﷺ -قيل للرجل : خذ خاتمك انتفع به ، قال : والله لا آخذ خاتمًا طرحه النبى - ﷺ - .

أتى المؤلف ـ رحمه الله ـ بهذا الحديث فى باب : (**الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**)؛ لأن فيه تغيير المنكر باليد ، فإن لباس الرجل الذهب محرم ومنكر ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام فى الذهب والحرير : إنهما أحلا لنساء أمتى وحرما على ذكورها [(١)] .

فلا يجوز للرجل أن يلبس خاتمًا من ذهب ، ولا أن يلبس قلادة من ذهب ، ولا أن يلبس ثيابًا فيها أزرةٌ من ذهب ، ولا غير ذلك ، يجب أن يتجنب الذهب كله ، وذلك أن الذهب إنما يلبسه من يحتاج إلى الزينة والتجمل ، كالمرأة تتجمل لزوجها حتى يرغب فيها . قال الله عز وجل : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : ١٨] . يعنى : النساء ، النساء ينشأن فى الحلية ويُرَبّين عليها : ﴿ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أى : عَيِيَّة لا تُفصح . على كل حال : الذهب يحتاج إليه النساء للتجمل للأزواج ، والرجل ليس بحاجة إلى ذلك . الرجل يُتجَمَّلُ له ، ولا يتجمَّلُ لغيره ، اللهمّ إلا الرجل فيما بينه وبين زوجه ، كلٌ يتجمل للآخر ، لما فى ذلك من الألفة ، ولكن مهما كان ، فإن الرجل لا يجوز له أن يلبس الذهب بأى حال من الأحوال . وأما لباس الفضة فلا بأس به ، يجوز أن يلبس الرجل خاتمًا من فضة ، ولكن بشرط ألا يكون هناك عقيدة فى ذلك ، كما يفعله بعض الناس الذين اعتادوا عادات النصارى فى مسألة الدبلة ، التى يلبسها البعض عند الزواج . الدبلة يقولون : إن النصارى إذا أراد الرجل منهم أن يتزوج ، جاء إليه القسيس ـ بمنزلة العالم عند المسلمين ـ وأخذ الخاتم ووضعه فى أصابعه : إصبع بعد إصبع ، حتى

[٨/ ١٩١] صحيح : رواه مسلم (٢٠٩٠) البيهقى فى السنن (٢/ ٤٢٤) .

(١) الترمذى (١٧٢٠) النسائى (٥١٤٨) ابن ماجه (٣٥٩٥) وصححه الألبانى فى الإرواء (٢٧٧) .

Marfat.com

ينتهي إلى ما يريد ثم يقول : هذا الرباط بينك وبين زوجتك ، فإذا لبس الرجل هذه الدبلة معتقدًا ذلك فهو تشبه بالنصارى ، مصحوب بعقيدة باطلة ، فلا يجوز حينئذ للرجل أن يلبس هذه الدبلة . أما لو لبس خاتمًا عاديًا بغير عقيدة ، فإن هذا لا بأس به . وليس التختم من الأمور المستحبة ، بل هو من الأمور التى إذا دعت الحاجة إليها فعلت وإلا فلا تفعل ، بدليل أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان لا يلبس الخاتم . لكنه لما قيل له : إن الملوك والرؤساء لا يقبلون الكتاب إلا بختم ، اتخذ خاتمًا نقش فى فصِّه :

« **محمد رسول الله** » حتى إذا انتهى من الكتاب ختمه بهذا الخاتم (١) .

وفى هذا الحديث : دليل على استعمال الشدة فى تغيير المنكر إذا دعت الحاجة إلى ذلك؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ لم يقل له : إن الذهب حرام فلا تلبسه ، أو فاخلعه ، بل هو بنفسه خلعه وطرحه فى الأرض . ومعلوم أن هناك فرقًا بين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبين تغيير المنكر ؛ لأن تغيير المنكر يكون من ذى سلطة قادر ، مثل الأمير ومن جعل له تغييره ، ومثل الرجل فى أهل بيته ، والمرأة فى بيتها وما أشبه ذلك ، فهذا له السلطة أن يغير بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه .

أما الأمر فهو واجب بكل حال ، الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر واجب بكل حال؛ لأنه ليس فيه تغيير ، بل فيه أمر بالخير ونهى عن الشر ، وفيه أيضًا دعوة إلى الخير والمعروف وإلى ترك المنكر ، فهذه ثلاث مراتب : دعوة ، وأمر ونهى ، وتغيير .

اما الدعوة : فمثل أن يقوم الرجل خطيبًا فى الناس ، يعظهم ويذكرهم ويدعوهم إلى الهدى .

وأما الأمر : فأن يأمر أمرًا موجهًا إلى شخص معين ، أو إلى طائفة معينة ، يا فلان ، احرص على الصلاة ، اترك الكذب ، اترك الغيبة وما أشبه ذلك .

وأما التغيير : فأن يغير هذا الشىء ، يزيله من المنكر إلى المعروف ، كما صنع النبى ـ ﷺ ـ حين نزع الخاتم من صاحبه نزعًا ، وطرحه على الأرض طرحًا .

وفيه أيضًا : دليل على جواز إتلاف ما يكون به المنكر ؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام طرحه لما نزعه من يده ولم يقل له : خذه وأعطه أهلك مثلاً ، ولهذا كان من فقه هذا الرجل أنه لما قيل له : خذ خاتمك ، قال : لا آخذ خاتمًا طرحه النبى ـ ﷺ ـ ؛ لأنه فهم أن هذا من باب التعزيز وإتلافه عليه؛ لأنه حصلت به المعصية ، والشىء الذى تحصل

(١) البخارى (٥٨٧٢) مسلم (٢٠٩٢) .

Marfat.com

به المعصية أو ترك الواجب ، لا حرج على الإنسان أن يتلفه انتقامًا من نفسه بنفسه ، كما فعل نبى الله سليمان عليه الصلاة والسلام ، حين عُرضت عليه الخيل الجياد ، ولهى بها حتى غربت الشمس ، فاشتغل بها عن صلاة العصر ففاتته ، ثم دعا بها عليه الصلاة والسلام وجعل يضربها ، يعقرها ويقطع أعناقها ، كما قال تعالى : ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ [ص : ٣٣] . أتلفها انتقامًا من نفسه ، لرضى الله عز وجل .

فإذا رأى الإنسان أن شيئًا من ماله ألهاه عن طاعة الله ، وأراد أن يتلفه انتقامًا من نفسه وتعزيرا لها ... ذلك لا بأس به .

وفى هذا الحديث : دليل على أن لبس الذهب موجب للعذاب بالنار والعياذ بالله ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « **يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها فى يده** » فإن الرسول - ﷺ - جعل هذا جمرة من نار ، يعنى يعذب بها يوم القيامة ، وهو عذاب جزئى أى : على بعض البدن ، على الجزء الذى حصلت به المخالفة . ونظيره قوله - ﷺ - فيمن جرَّ ثوبه أسفل من الكعبين ، قال : « **ما أسفل من الكعبين ففى النار** » [١] ونظيره أيضًا حين قصَّر الصحابة فى غسل أرجلهم ، فقال النبى - ﷺ - : « **ويلٌ للأعقاب من النار** »[٢] . فهذه ثلاثة نصوص من السنة كلها فيها إثبات أن العذاب بالنار قد يكون على جزء معين من البدن .

وفى القرآن أيضًا من ذلك كقوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة : ٣٥] . مواضع معينة ، فالعذاب كما يكون عامًا على جميع البدن ، قد يكون خاصًا ببعض أجزائه وهو ما حصلت به المخالفة .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : بيان كمال صدق الصحابة فى إيمانهم ، فإن هذا الرجل لما قيل له : خذ خاتمك انتفع به . قال : لا آخذ خاتمًا طرحه النبى عليه الصلاة والسلام، وذلك من كمال إيمانه ﷺ ولو كان ضعيف الإيمان ، لأخذه وانتفع به ، ببيع أو بإعطائه أهله أو ما أشبه ذلك .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أن الإنسان يستعمل الحكمة فى تغيير المنكر ، فهذا الرجل كما ترون استعمل معه النبى عليه الصلاة والسلام شيئًا من الشدة . لكن الأعرابى الذى بال فى المسجد لم يستعمل معه النبى عليه الصلاة والسلام الشدة [٣] ، ولعل ذلك

(١) البخارى (٥٧٨٧) .

(٢) البخارى (٦٠) مسلم (٢٤١).

(٣) البخارى (٢٢٠) مسلم (٢٨٤) .

Marfat.com

لأن هذا الذى لبس خاتم الذهب علم النبى عليه الصلاة والسلام أنه كان عالمًا بالحكم والتحريم ولكنه متساهل ، بخلاف الأعرابى ، فإنه كان جاهلاً لا يعرف ، جاء ووجد هذه الفسحة فى المسجد ، فجعل يبول ، يحسب نفسه أنه فى البر !! ولما قام إليه الناس يزجرونه ، نهاهم النبى ـ ﷺ ـ عن ذلك . وكذلك استعمل النبى ـ ﷺ ـ اللين مع معاوية ابن الحكم السلمى حين تكلم فى الصلاة ، وكذلك مع الرجل الذى جامع زوجته فى نهار رمضان ، فلكل مقام مقال . فعليك يا أخى المسلم أن تستعمل الحكمة فى كل ما تفعل وكل ما تقول ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] . نسأل الله أن يجعلنا ممن أوتى الحكمة ، ونال بها خيرًا كثيرًا .

***

[١٩٢/٩] التَّاسعُ : عَنْ أبى سَعيد الحَسَنِ البَصْرِىِّ أنَّ عَائذَ بن عَمْرو رضي الله عنه دَخَلَ علَى عُبَيد الله بن زيَاد فَقَالَ : أىْ بُنىَّ ، إنِّى سَمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « إنَّ شَرَّ الرِّعَاء الحُطَمَةُ » فَإيَّاكَ أنْ تَكُونَ منهُمْ ، فَقَالَ لَهُ : اجلسْ فَإنَّمَا أنتَ منْ نُخَالَة أصْحَاب مُحَمَّد ﷺ ، فقالَ : وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ ، إنَّمَا كَانَت النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ وَفى غَيْرِهِمْ ! رواه مسلم .

[١٩٣/١٠] العَاشرُ : عَنْ حُذَيْفَةَ رضىَ اللهُ عنهُ عن النبى ﷺ قال : « **وَالذى نَفسى بيده ، لَتَأمُرُنَّ بالمَعْرُوف ، وَلَتَنهوُنَّ عَن المُنكَر ، أوْ لَيُوشكَنَّ الله أنْ يَبعَثَ عَلَيكُمْ عقَابَاً منهُ ، ثُمَّ تَدعُونَهُ فَلا يُستَجابُ لَكُمْ** » رواه الترمذى وقال : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **وَالذى نَفسي بيده لتَأمُرُنَّ بالمَعرُوف، ولتَنهوُنَّ عَنِ المُنكَرِ ، أوْ لَيُوشكَنَّ الله أنْ يَبعَثَ عَليكُمْ عقَابًا منهُ ، ثُمَّ تَدعُونَهُ فَلا يُستَجاب لكُمْ** » .

قوله عليه الصلاة والسلام : « **وَالَّذى نَفْسى بيَده** » هذا قسم ، يقسم فيه النبى ـ ﷺ ـ بالله ؛ لأنه هو الذى أنفُس العباد بيده جل وعلا ، يهديها إن شاء ، ويضلها إن شاء ،

[١٩٣/١٠] صحيح : رواه الترمذى (٢١٦٩/٤) ، أحمد (٣٨٩/٥) الطبرانى فى الكبير ١٠/ ١٨٠ وصححه الألبانى فى صحيح الترمذى (١٧٦٢).

Marfat.com

ويميتها إن شاء ، ويبقيها إن شاء ، فالأنفس بيد الله هدايةً وضلالة ، وإحياءً وإماته ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس : ٧ ، ٨]. فالأنفس بيده الله وحده ، ولهذا أقسم النبى - ﷺ - ، وكان يقسم كثيرًا بهذا القسم : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِه » وأحيانًا يقول : « والذى نفسُ محمد بيده » لأن نفس محمد - ﷺ - أطيبَ الأنفسَ ، فَأقسم بها لكونها أطيب الأنفس ، ثم ذكر المقسم عليه ، وهو أن نقوم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أو يعمنا الله بعقاب من عنده حتى ندعُوه فلا يستجيب لنا . نسأل الله العافية . وقد سبق لنا عدة أحاديث كلها تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتحذير من عدمه ، فالواجب علينا جميعًا أن نأمر بالمعروف ، فإذا رأينا أخًا لنا قد قصر فى واجب أمرناه به وحذرناه من المخالفة ، وإذا رأينا أخًا لنا قد أتى منكرًا نهيناه عنه وحذرناه من ذلك، حتى نكون أمة واحدة ، لأننا إذا تفرقنا وصار كل واحد منا له مشرب ، حصل بيننا من النِّزاع والفرقة والاختلاف ما يحصل فإذا اجتمعنا كلنا على الحق حصل لنا الخير والسعادة والفلاح .

وفى هذا الحديث : دليل على جواز القسم بدون أن يُستقسم الإنسان ، أى : جواز القسم دون أن يطلب من الإنسان أن يقسم ، ولكن هذا لا ينبغى إلا فى الأمور التى لها أهمية ولها شأن ، فهذه يقسم عليها الإنسان ، أما الشىء الذى ليس له أهمية ولا شأن ، فلا ينبغى أن تحلف عليه إلا إذا استحلفت للتوكيد فلا بأس . فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أهم واجبات الدين وفروضه ، حتى إن بعض العلماء عده ركنًا سادسًا من أركان الإسلام . والصحيح أنه ليس ركنًا سادسًا ، وإنما هو من أوجب الواجبات . والأمة إذا لم تقم بهذا الواجب ، فإنها سوف تتفرق وتتمزق ، يكون كل قوم لهم منهاج يسيرون عليه ، ولكنهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، اتفق منهاجهم وصاروا أمة واحدة كما أمرهم الله بذلك : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران : ١١٠] ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٠٤ ، ١٠٥] . ولكن على الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يلاحظ مسألة مهمة ، وهى أن يكون قصده بذلك إصلاح أخيه ، لا الانتقام منه والاستثار عليه ؛ لأنه ربما إذا قصد الانتقام منه والاستئثار عليه يُعجب بنفسه وبعمله ، ويحقر أخاه ، وربما يستبعد أن يرحمه الله ، ويقول : هذا بعيد من رحمة الله ، ثم بعد يحبط عمله . كما جاء ذلك فى الحديث الذى صح عن النبى - ﷺ -أن رجلاً قال لرجل آخر مسرف على نفسه : « والله لا يغفر الله لفلان » فقال الله عز وجل : « من ذا الذى

Marfat.com

يتألى علىَّ أن لا أغفر لفلان ، وقد غفرتُ له وأبطلت عملك » [(١)]. فانظر إلى هذا الرجل تكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته ، هلك كل عمله وسعيه ؛ لأنه حمله إعجابه بنفسه ، واحتقاره لأخيه ، واستبعاده رحمة الله على أن يقول هذه المقالة ، فحصل بذلك أن أوبقت هذه الكلمة دنياه وآخرته .

فالمهم أنه يجب على الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر أن يستحضر هذا المعنى ، أن لا يكون قصده الانتصار لنفسه أو الانتقام من أخيه ، بل يكون كالطبيب المخلص الذى قصده دواء هذا المريض ، الذى مرض بالمنكر فيعمل على أن يعالجه معالجة تقيه شر هذا المنكر ، أو ترك واجبًا فيعالجه معالجةً تحمله على فعل الواجب . وإذا علم الله من نيته الإخلاص ، جعل فى سعيه بركة ، وهدى به من شاء من عباده ، فحصل على خير كثير، وحصل منه خير عظيم . والله الموفق .

* * *

[١١/ ١٩٤] الحادى عشَر : عَنْ أبى سَعيد الخُدرىِّ ﷺ عن النبى ﷺ قال : «أفضَلُ الجِهَاد كَلمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائرٍ » رواه أبو داود ، والترمذى وقال : حديثٌ حسنٌ .

[١٢/ ١٩٥] الثَّاني عشَرَ : عَنْ أبى عبد الله طَارق بن شهَاب البَجَلىِّ الأحْمَسىِّ ﷺ أنَّ رَجُلا سَألَ النَّبىَّ ﷺ وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَه فى الغَرْزِ : أىُّ الجِهَاد أفضَلَ ؟ قَالَ : « كَلمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلطان جائرٍ » رواه النسائى بإسناد صحيح.

« الغَرْزُ » بغينٍ مُعْجمةٍ مَفتوحَة ثُمَّ راءٍ ساكنَة ثُم زايٍ ، وهو ركابُ كَوْرِ الجَمَلِ إذا كان من جلدٍ أو خشَبٍ ، وقيل : لا يختصُّ بجلدٍ وخشبٍ .

[١٣/ ١٩٦] الثَّالث عشَرَ : عن ابن مَسْعُود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ أوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقصُ عَلَى بَني إسْرَائيلَ أنه كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ : يا هذَا ، اتَّق الله ، وَدعْ مَا تَصنَعُ ، فَإنَّهُ لا يَحلُّ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ من الغَد وهو عَلى حَاله ، فَلا يَمْنَعُهُ ذلكَ أنْ يَكُونَ أكيلَهُ وَشَريبَهُ وقَعيدَهُ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلكَ ضَرَبَ الله قُلُوبَ بَعْضهِمْ

---

(١) مسلم (٢٦٢١) .

[١١/ ١٩٤] صحيح : رواه أبو داود (٤٣٤٤) ، والترمذى (٢١٧٤) ، وصححه الألبانى فى صحيح ابن ماجه (٤٠١١) والصحيحة برقم (٤٩١) .

Marfat.com

ببعض » ثُمَّ قال : ﴿ لُعنَ الَّذينَ كفرُوا منْ بني إسْرائيل علَىٰ لسَان داوُود وعيسى ابن مريم ذَلكَ بمَا عصَوْا وكَانُوا يعْتدُونَ . كانُوا لا يتَناهوْنَ عن مُنكرٍ فعلُوهُ لبئْس ما كانُوا يفعلُون . ترى كثيراً منْهم يتولَّوْنَ الَّذين كفرُوا لبئْس ما قدَّمتْ لهُم أنفُسهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فاسقُون ﴾ (المائدة: ٧٨ : ٨١) ثُمَّ قَالَ : « كَلا ، وَالله لَتَأمُرُنَّ بالمَعْرُوف ، ولَتَنْهَوُنَّ عَن المُنكَر ، ولَتَأخُذُنَّ عَلَى يَد الظَّالم ، ولَتَأطرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أطْراً ، ولَتَقْصُرُنَّهُ عَلى الحـقِّ قَصْراً ، أَوْ لَيَضْربَنَّ الله بقُلُوب بَعْضكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ » رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن .

هذا لفظ أبي داود ، ولفظ الترمذى ، قال رسول الله ﷺ : « لَمَّا وَقَعتْ بَنُو إسرائيلَ فى المَعاصى نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا ، فَجَالَسُوهُمْ فى مَجَالسهمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ الله قُلُوب بَعْضهمْ ببَعْضٍ ، ولَعَنَهُمْ عَلى لسان دَاوُدَ وَعيسى ابنِ مريَمَ ذلكَ بمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ » فَجَلَسَ رسول الله ﷺ ، وكَانَ مُتَّكئاً فَقَالَ : « لا وَالذى نَفْسى بيَده ، حَتَّى تَأطرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أطْراً » .

قولُهُ : « تَأطرُوهم » أى : تَعطفُوهُمْ . « ولَتَقْصُرُنَّهُ » أيْ : لَتَحْبسُنَّهُ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن أبى سعيد الخدرى ﷺ عن النبى - ﷺ - قال: « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » .

فللسلطان بطانتان : بطانة السوء ، وبطانة الخير .

بطانة السوء : تنظر ماذا يريد السلطان ، ثم تزينه له وتقول : هذا هو الحق ، هذا هو الطيب، وأحسنت وأفدت ، ولو كان والعياذ بالله من أجْوَر ما يكون ، تفعل ذلك مداهنة للسلاطين ، وطلبًا للدنيا .

أما بطانة الحق : فإنها تنظر ما يرضى الله ورسوله ، وتدل الحاكم عليه ، هذه هى البطانة الحسنة . كلمة الباطل عند سلطان جائر ، هذه والعياذ بالله ضد الجهاد ، وكلمة الباطل عند سلطان جائر ، تكون بأن ينظر المتكلم ماذا يريد السلطان فيتكلم به عنده ويزينه له ، وقول كلمة الحق عند سلطان جائر من أعظم الجهاد . وقال : « **عند سلطان جائر** » لأن السلطان العادل ، كلمة الحق عنده لا تضر قائلها ، لأنه يقبل ، أما الجائر فقد ينتقم من صاحبها ويؤذيه . فالآن عندنا أربع أحوال :

Marfat.com

١ ـ كلمة حق عند سلطان عادل ، وهذه سهلة .

٢ ـ كلمة باطل عند سلطان عادل وهذه خطيرة ، لأنك قد تفتن السلطان العادل بكلمتك ، بما تزينه له من الزخارف .

٣ ـ كلمة حق عند سلطان جائر ، وهذه أفضل الجهاد .

٤ ـ كلمة باطل عند سلطان جائر ، وهذه أقبح ما يكون .

فهذه أقسام أربعة ، لكن أفضلها كلمة الحق عند السلطان الجائر ، نسأل الله أن يجعلنا ممن يقول الحق ظاهرًا وباطنًا على نفسه وعلى غيره .

❊ ❊ ❊

[١٤/ ١٩٧] الرَّابِعَ عَشَرَ : عن أبي بكر الصِّدِّيق ﷺ قال : يَأَيُهَا النَّاسُ ، إِنَّكُم لَتَقْرَؤُونَ هذه الآيَةَ : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٥) ، وإني سَمِعتُ رسول الله ﷺ ، يَقُولُ : « **إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُم الله بِعِقَابٍ مِنْهُ** » رواه أبو داود ، والترمذي، والنسائي بأسانيد صحيحة .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبي بكر الصديق ﷺ قال : **أما بعد أيها الناس ، فإنكم تقرؤون هذه الآية** : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ وهذه الآية ظاهرها أن الإنسان إذا اهتدى بنفسه فإنه لا يضره ضلال الناس ، لأنه استقام بنفسه ، فإذا استقام بنفسه فشأن أجره على الله عز وجل فقد يفسرها بعض الناس ويفهم منها معنى فاسدًا ، يظن أن هذا هو المراد بالآية الكريمة وليس كذلك ، فإن الله اشترط لكون من ضل لا يضرنا أن نهتدي فقال : ﴿لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ .

ومن الاهتداء : أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر فإذا كان هذا من الاهتداء ، فلابد أن نسلم من الضرر ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولهذا قال ﷺ : وإني سمعت النبي ـ ﷺ ـ يقول : « **إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أو فلم يأخذوا على يد الظالم ، أو شك أن يعمهم الله بعقاب من عنده** » يعني أنهم يضرهم من ضل ، إذا كانوا

[١٤/ ١٩٧] صحيح: رواه أبو داود (٤٣٣٨) ، والترمذي (٢١٦٨) ، والنسائي في « الكبرى » (١١١٥٧) ، ابن ماجه (٤٠٠٥) وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٢٣٦) .

Marfat.com

يرون الضال ولا يأمرونه بالمعروف ، ولا ينهونه عن المنكر ، فإنه يوشك أن يعمهم الله بالعقاب ، الفاعل والغافل ، الفاعل للمنكر والغافل الذى لم ينْه عن المنكر . وفى هذا دليل على أنه يجب على الإنسان العناية بفهم كتاب الله عز وجل ، حتى لا يفهمه على غير ما أراد الله ، وأن الناس قد يظنون المعنى على خلاف ما أراد الله فى كتابه ، فيضلوا بتفسير القرآن ، ولهذا جاء فى الحديث الوعيد على من قال فى القرآن برأيه ، أى فسره بما يرى ويهوى ، لا بمقتضى اللغة العربية والشريعة الإسلامية ، فإذا فسر الإنسان القرآن بهواه ورأيه فليتبوأ مقعده من النار[(١)] . أما من فسره بمقتضى اللغة العربية ، وهو ممن يعرف اللغة العربية ، فهذا لا إثم عليه ، لأن القرآن نزل باللسان العربى ، فيفسر بما يدل عليه ، وكذلك إذا كانت الكلمات قد نقلت من المعنى اللغوى إلى المعنى الشرعى، وفسرها بمعناها الشرعى فلا حرج عليه . فالمهم أنه يجب على الإنسان أن يكون فاهمًا لمراد الله عز وجل فى كتابه ، وكذلك لمراد النبى- ﷺ - فى سنته ، حتى لا يفسرهما إلا بما أراد الله ورسوله . والله الموفق.

***

(١) الترمذى (٢٩٥٠) أحمد (١/٢٣٣) وضعفه الالبانى فى السلسلة الضعيفة (١٨٨٣) والمشكاة (٢٣٤).

Marfat.com

٢٤ ـ باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف قوله فعله

قال الله تعالى :﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة : ٤٤) ، وقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ٢ ، ٣) ، وقال تعالى إخباراً عَنْ شُعَيْبٍ ﷺ : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ (هود: ٨٨) .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : **(باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف فعله قوله)** لما كان الباب الذى قبله فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كان المناسب ذكر هذا الباب فى تغليظ عقوبة من أمر بمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن منكر وفعله ـ والعياذ بالله ـ وذلك أن مَنْ هذه حاله ، لا يكون صادقًا فى أمره ونهيه؛ لأنه لو كان صادقًا فى أمره ، معتقدًا أن ما أمر به معروف ، وأنه نافع ، لكان هو أول من يفعله لو كان عاقلاً . وكذلك لو نهى عن منكر ، وهو يعتقد أنه ضار ، وأن فعله إثم ، لكان أول من يتركه لو كان عاقلاً . فإذلا أمر بمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن منكر وفعله، علم أن قوله هذا ليس مبنيًا على عقيدة والعياذ بالله .

ولهذا أنكر الله على من فعل ذلك فقال تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] . والاستفهام هنا للإنكار ، يعنى كيف تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم فلا تفعلونه ، وأنتم تتلون الكتاب وتعرفون البر من غير البر : أفلا تعقلون ؟ وهذا الاستفهام للتوبيخ ، يقول لهم : كيف يقع منكم هذا الشيء ؟ أين عقولكم لو كنتم صادقين ؟

مثال ذلك : رجل يأمر بترك الناس للربا ، ولكنه يتعامل به أو يفعل ما هو أعظم منه . فهو يقول للناس مثلاً : لا تأخذوا الربا فى معاملات البنوك ، ثم يذهب هو فيأخذ الربا بالحيلة والمكر والخداع ، ولم يعلم أن ما وقع هو فيه من الحيلة والمكر والخداع ، أكبر ذنبًا، وأعظم إثمًا ممن أتى الأمر على وجهه .

ولهذا قال أيوب السختيانى ـ رحمه الله ـ فى أهل الحيل والمكر : « إنهم يخادعون الله

Marfat.com

كما يخادعون الصبيان ، لو أنهم أتوا الأمر على وجهه لكان أهون » . وصدق رحمه الله .

كذلك أيضًا رجل يأمر الناس بالصلاة ، ولكنه هو نفسه لا يصلى !! فكيف يكون هذا؟ كيف تأمر بالصلاة ، وترى أنها معروف ، ثم لا تصلى ؟ هل هذا من العقل ؟ ليس من العقل فضلاً أن يكون من الدين ، فهو مخالف للعقل ، وسفه فى الدين . نسأل الله العافية .

وقال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٢ ، ٣] . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاطبهم بالإيمان ؛ لأن مقتضى الإيمان سألا يفعل الإنسان هذلا ، وألا يقول ما لا يفعل ، ثم وبَّخهم بقوله : ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾ ثم بين أن هذا الفعل مكروه عند الله ، مُبْغَضٌ لديه أشد البغض ، فقال : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ . والمقت ، قال العلماء: هو أشد البغض فالله تعالى يبغض الرجل الذى هذه حاله ، يقول ما لا يفعل ، وبين الله عز وجل لعباده أن ذلك مما يبغضه من أجل أن يبتعدوا عنه ؛ لأن المؤمن حقًا يبتعد عما نهى الله عنه .

وقال عن شعيب : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : ٨٨] . يعنى أنه يقول لقومه : لا يمكن أن أنهاكم عن الشرك ، وأنهاكم عن نقص المكيال والميزان وأنا أفعله، لا يمكن أبدًا ؛ لأن الرسل عليهم السلام هم أنصح الخلق للخلق ، وهم أشد الناس تعظيمًا لله ، وامتثالاً لأمره واجتنابًا لنهيه ، فلا يمكن أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه فيفعله .

وفى هذا : دليل على أن الإنسان الذى يفعل ما ينهى عنه ، أو يترك ما أمر به ، مخالف لطريقة الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ لأنهم لا يمكن أن يخالفوا الناس إلى ما ينهونهم عنه ، وستأتى الأحاديث إن شاء الله فى بيان عقوبة من ترك ما أمر به أو فعل ما نُهى عنه ، والله الموفق .

* * *

[١٩٨/١] وعن أبى زيد أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بنِ حَارِثَةَ ﷺ قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « **يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَوْمَ القيامَةِ فَيُلْقَى فى النَّار ، فَتَنْدَلِقُ أقْتَابُ بطنه ، فيدورُ بها كَما يدورُ الحمارُ فى الرَّحَى ، فَيَجْتَمِعُ إليه أهلُ النار فيقولون : يا فلانُ ، مَا لَكَ ؟ أَلَمْ تَكُ تَأمُرُ بالمَعْرُوفِ وتَنْهَى عَنِ المُنكَرِ ؟ فَيَقولُ : بَلَى ، كُنتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ وَلا آتيه،**

[١٩٨/١] صحيح : رواه البخارى (٣٢٦٧) ، ومسلم (٢٩٨٩) .

Marfat.com

وأنْهَى عَنِ المنْكَرِ وآتيه » متفق عليه .

قولُهُ : « تَنْدَلِقُ » هُوَ بالدَّالِ المهملةِ ، وَمَعْنَاهُ تَخْرُجُ . وَ « الأقْتَابُ » : الأمْعَاءُ وَاحِدُهَا قِتْبٌ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ـ ﷺ ـ قال: « **يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى ، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه** » فهذا الحديث فيه التحذير الشديد من الرجل الذى يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويخالف قوله فعله .

يقول : « **يؤتى بالرجل يوم القيامة** » أى تأتى به الملائكة ، فيُلقى فى النار إلقاء ، لا يدخلها برفق ، ولكنه يُلقى فيها كما يُلقى الحجر فى اليم ، فتندلق أقتاب بطنه ، يعنى أمعاءه ، الأقتاب : جمع قتب وهو المعى ، ومعنى تندلق : تخرج من بطنه من شدة الإلقاء والعياذ بالله .

« **فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا** » وهذا التشبيه للتقبيح ، شبهه بالحمار الذى يدور على الرحا ، وصفة ذلك : أنه فى المطاحن القديمة قبل أن توجد هذه الآلات والمعدات الحديدية ، كان يُجعل حجران كبيران وينقشان فيما بينهما ـ أى ينقَّران ـ ، ويوضع للأعلى منهما فتحة تدخل فيها الحبوب ، وفيها خشبة تربط بمتن الحمار ، ثم يستدير على الرحا ، وفى استدارته تَطْحَنُ الرحا .

فهذا الرجل الذى يُلقى فى النار يدور على أمعائه والعياذ بالله كما يدور الحمار على رحاه ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون له : مالك ؟ أى شيء جاء بك إلى هنا ، وأنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول مقرًا على نفسه : « **كنت آمر بالمعروف ولا آتيه** » يقول للناس : صلوا ولا يُصلى . ويقول لهم : زكوا أموالكم ولا يزكى . ويقول : بروا الوالدين ، ولا يبر والديه ، وهكذا يأمر بالمعروف ، ولكنه لا يأتيه .

« **وأنهى عن المنكر وآتيه** » يقول للناس : لا تغتابوا الناس ، لا تأكلوا الربا ، لا تغشوا فى البيع ، لا تسيئوا العشرة ، لا تسيئوا الجيرة وما أشبه ذلك من الأشياء المحرمة التى ينهى عنها ، ولكنه يأتيها والعياذ بالله ، يبيع بالربا ، ويغش ، ويسيء العشرة ، ويسيء إلى

Marfat.com

الجيران وغير هذا ، فهو بذلك يأمر بالمعروف ، ولا يأتيه ، وينهى عن المنكر ويأتيه نسأل الله العافية فيعذب هذا العذاب ويخزى هذا الخزى .

فالواجب على المرء أن يبدأ بنفسه فيأمرها بالمعروف ، وينهاها عن المنكر ؛ لأن أعظم الناس حقًا عليك بعد رسول الله - ﷺ - نفسك :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

ابدأ بها ثم حاول نصح إخوانك ، وأمرهم بالمعروف ، وانههم عن المنكر ، لتكون صالحًا مُصلحًا ، نسألَ الله أن يجعلنى وإياكم من الصالحين المصلحين إنه جواد كريم .

* * *

Marfat.com

٢٥ ـ باب الأمر بأداء الأمانة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (النساء: ٥٨) .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ : (باب الأمر بأداء الأمانة) .

الأمانة : تُطلق على معان متعددة ، منها ما ائتمنه الله على عباده من العبادات التى كلفهم بها ، فإنها أمانة ائتمن الله عليها العباد .

ومنها : الأمانة المالية ، وهى الودائع التى تُعطى للإنسان ليحفظها لأهلها ، وكذلك الأموال الأخرى التى تكون بيد الإنسان ، لمصلحته أو مصلحته ومصلحة مالكها ، وذلك أن الأمانة التى بيد الإنسان ؛ إما أن تكون لمصلحة مالكها ، أو لمصلحة من هى بيده ، أو لمصلحتهما جميعًا .

فأما الأول : فالوديعة ، الوديعة تجعلها عند شخص ، تقول مثلاً : هذه ساعتى عندك احفظها لى ، أو هذه دراهم احفظها لى وما أشبه ذلك ، فهذه وديعة المودع فيها بقيت عنده لمصلحة مالكها ، وأما التى لمصلحة مَن هى بيده فالعارية : يُعطيك شخص شيئًا يعيرك إياه ؛ من إناء ، أو فراش ، أو ساعة ، أو سيارة ، فهذه بقيت فى يدك لمصلحتك .

وأما التى لمصلحة مالكها ومَن هى بيده : فالعينُ المستَأجَرَة ، فهذه مصلحتها للجميع، استأجرتَ منى سيارة ، وأخذتها ، فأنت تنتفع بها فى قضاء حاجاتك ، وأنا أنتفع بالأجرة، وكذلك البيت والدكان وما أشبه ذلك ، كل هذه من الأمانات .

ومن الأمانة أيضًا : أمانة الولاية وهى أعظمها مسئولية الولاية العامة والولايات الخاصة ، فالسلطان مثلاً الرئيس الأعلى فى الدولة ، أمين على الأمة كلها ، على مصالحها الدينية ومصالحها الدنيوية ، على أموالها التى تكون فى بيت المال ، لا يبذرها ، ولا ينفقها فى غير مصلحة المسلمين وما أشبه ذلك .

وهناك أمانات أخرى دونها ، كأمانة الوزير مثلاً فى وزارته ، وأمانة الأمير فى منطقته، وأمانة القاضى فى عمله ، وأمانة الإنسان فى أهله ، المهم أن الأمانة باب واسع جدًا، وأصلها أمران :

أمانة فى حقوق الله : وهى أمانة العبد فى عبادات الله عز وجل .

Marfat.com

وأمانة فى حقوق البشر : وهى كثيرة جدًا ، وقد أشرنا إلى شىء منها ، وكلها يؤمر الإنسان بأدائها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] . تأمل هذه الصيغة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ صيغة قوة وسلطان ، لم يقل : أدوا الأمانة ، ولم يقل : إنى آمركم ، ولكن قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ يأمركم بألوهيته العظيمة ، يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، فأقام الخطاب مقام الغائب تعظيمًا لهذا المقام ، ولهذا الأمر .

وهذا كقول السلطان ولله المثل الأعلى : إن الأمير يأمركم ، إن الملك يأمركم ، فهذا أبلغ وأقوى من قوله : إنى آمركم كما قال ذلك علماء البلاغة .

« **أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** » ومن لازم الأمر بأداء الأمانة إلى أهلها ، الأمر بحفظها ؛ لأنه لا يمكن أداؤها إلى أهلها إلا بحفظها ، وحفظها ألا يتعدى فيها ولا يفرط، بل يخفظها حفظًا تامًا ليس فيه تعدٍ ولا تفريط ، حتى يؤديها إلى أهلها .

وأداء الأمانة من علامات الإيمان : فكلما وجدتَ الإنسان أمينًا فيما يؤتمن عليه ، مؤديًا له على الوجه الأكمل ، فاعلم أنه قوى الإيمان ، وكلما وجدته خائنًا فاعلم أنه ضعيف الإيمان .

ومن الأمانات : ما يكون بين الرجل وصاحبه من الأمور الخاصة التى لا يجب أن يطلّع عليها أحد ، فإنه لا يجوز لصاحبه أن يخبر بها .

فلو استأمنك على حديث حدثك به ، وقال لك : هذا أمانة ، فإنه لا يحل لك أن تُخبر به أحدًا من الناس ، ولو كان أقرب الناس إليك ، سواء أوصاك بأن لا تخبر به أحدًا، أو عُلِم من قرائن الأحوال أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد ، ولهذا قال العلماء : إذا حدثك الرجلُ بحديث والتفت فهذه أمانة (١) ، لماذا ؟ لأن كونه يلتفت ، فإنه يخشى بذلك أن يسمع أحدٌ ، إذن فهو لا يحب أن يطلع عليه أحد ، فإذا ائتمنك الإنسان على حديث ، فإنه لا يجوز لك أن تُفشيه .

ومنه ذلك أيضًا : ما يكون بين الرجل وبين زوجته من الأشياء الخاصة ، فإن شر الناس مَنْزِلة عند الله تعالى يوم القيامة ، الرجل يُفضى إلى امرأته وتُفضى إليه ، ثم يروح ينشر سرها ، ويتحدث بما جرى بينهما ، فلا يجوز للإنسان أن يتحدث بما جرى بينه وبين زوجته (٢) .

---

(١) انظر أبو داود (٤٨٦٨) الترمذى (١٩٥٩) احمد (٣/ ٣٥٢ ، ٣٨٠) وحسنه الالبانى فى السلسلة الصحيحة (١٠٨٩) .

(٢) مسلم (١٤٣٧) ابو داود (٤٨٧٠) احمد (٣/ ٦٩) .

Marfat.com

وكثير من الشباب السفهاء يتفكهون فى المجالس بذكر تلك الخصوصيات ، يقول الواحد منهم : فعلت بامرأتى كذاو كذا ، من الأمور التى لا تحب هى أن يطلع عليها أحد، وكذلك كل إنسان عاقل ، له ذوقٌ سليم ، لا يحب أن يطلع أحد على ما جرى بينه وبين زوجته .

إذن علينا أن نحافظ على الأمانات ، وأول شيء أن نحافظ على الأمانات التى بيننا وبين ربنا ؛ لأن حق ربنا أعظم الحقوق علينا ، ثم بعد ذلك ما يكون من حقوق الخلق الأقرب فالأقرب ، والله الموفق .

***

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

الشرح

سبق الكلام على أن الأمانات شاملة لحقوق الله وحقوق العباد ، وأنها أنواع كثيرة ، وذكرنا ما تيسر منها ، وتكلمنا عن قوله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ ثم قال تعالى فى الآية نفسها: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ فأثنى الله عز وجل على ما يعظنا به من الأوامر والنواهى ، من الأوامر التى يريد منها فعلها ، والنواهى التى يريد منا تركها ، ثم ختم الآية بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] سميعًا لما تقولون بصيرًا بما تفعلون ، وختم الآية بهذين الاسمين الكريمين المتضمنين لشامل سمع الله وبصره، يقتضى التهديد ، فهو يهدد عز وجل مَن لم يقم بأداء الأمانات إلى أهلها.

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب : ٧٢] . عرض الله الأمانة وهى التكليف والإلزام بما يجب ، عرضها على السموات والأرض والجبال ، ولكنها أبت أن تحملها ، لما فيها من المشقة ، ولخشية هذه الثلاثة : السموات والأرض والجبال من إضاعتها .

فإذا قال قائل : كيف يعرض الله الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وهى جماد ليس لها عقل ولا تشعر ، فالجواب : أن كلَّ جماد فهو بالنسبة لله عز وجل عاقل يفهم ويمتثل ، أرأيت إلى قوله تعالى فيما أخبر به النبى - ﷺ - : « **إن الله تعالى لما خلق القلم قال له : اكتب** » فخاطب الله القلم وهو جماد ، ورد عليه القلم قال : « **وماذا أكتب؟** » لأن

Marfat.com

الأمر مجمل ولا يمكن الامتثال للأمر المجمل إلا ببيانه ، قال : « **اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة** »(١) فكتب القلم بأمر الله ما هو كائن إلى يوم القيامة ، هذا أمر وتكليف وإلزام.

فهنا بيَّن الله عز وجل أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبت أن تحملها .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت : ١١] فخاطبهما بالأمر وقال : ائتيا طوعًا أو كرهًا ، فقالتا : أتينا طائعين . ففهمت السموات والأرض خطاب الله ، وامتثلتا وقالتا : أتينا طائعين ، وعُصاة بنى آدم يقولون : سمعنا وعصينا .

الأمانة حملها الإنسان ، وكيف حملها ؟ حملها بأمرين : العقل والرسل ، العقل الذى أعطاه الله عز وجل ، وفضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً ، والرسل الذين أرسلهم الله عز وجل للإنسان ، وبينوا له الحق من الضلال ، فلم يبق له عذر ، ولكن مع ذلك وصف الإنسان بأنه ظلوم جهول ، فاختلف العلماء هل « الإنسان » هنا عام ، أم خاصٌ بالكافر ، فقال بعض العلماء : إنه خاص بالكافر ، فهو الظلوم الجهول ، أما المؤمن فهو ذو عدل وعلم وحكمة ورشد ، وقال بعض العلماء : بل هو عام والمراد الإنسان بحسب طبيعته ، أما المؤمن فإن الله منَّ عليه بالهداية ، فيكون مستثنى من هذا وأيّا كان فمن قام بالأمانة انتفى عنه وصف الظلم والجهالة التى فى قوله تعالى : ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

❊ ❊ ❊

[١٩٩/١] عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال : « **آيَةُ المنَافِقِ ثَلاثٌ : إذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإذَا وَعَدَ أخْلَفَ ، وَإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ** » متفقٌ عليه .

وفى رواية : « **وَإنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أنَّهُ مُسْلِمٌ** » .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ـ ﷺ ـ قال :

---

(١) أبو داود (٤٧٠٠) الترمذى (٢١٥٥) احمد (٣١٧/٥) وصححه الالبانى فى السلة الصحيحة (١٣٣).

[١٩٩/١] صحيح : رواه البخارى (٣٣) ، ومسلم (٥٩) .

Marfat.com

« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » الآية : يعنى العلامة ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء : ١٩٧] يعنى أو يكن لهم علامة على صدق ما جاء به النبى - ﷺ - ، وصحة شريعته وأن هذا القرآن حق : ﴿أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ويعلمون أنه هو الذى بشر به عيسى عليه الصلاة والسلام ، وكذلك قوله : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] آية يعنى علامة ، فعلامة المنافق ثلاث .

والمنافق : هو الذى يُسرُّ الشر ويُظهر الخير ، ومن ذلك : أن يُسرَّ الكفر ويظهر الإسلام، وأصله مأخوذ من نافقاء اليربوع ، اليربوع : أو الذى نُسميه الجربوع ، يحفر له جحرًا فى الأرض ويفتح له بابًا ، ثم يحفر فى أقصى الجُحر خرقًا للخروج ؛ لكنه خرق خفى لا يُعلم به ، بحيث إذا حجره أحد من عند الباب ، ضرب هذا الخرق الذى فى الأسفل برأسه ثم هرب منه ، فالمنافق يظهر الخير ويُبطن الشر ، يُظهر الإسلام ويُبطن الكفر.

وقد برز النفاق فى عهد النبى - ﷺ - بعد غزوة بدر ، لما قُتل صناديد قريش فى بدر ، وصارت الغلبةُ للمسلمين ، ظهر النفاق ، فأظهر هؤلاء المنافقون أنهم مسلمون وهم كفار ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة : ١٤] قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة : ١٥] . وقال عنهم أيضًا : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ يؤكدون كلامهم بالشهادة و « بإن » و « اللام » فقال الله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون:١] .

فشهد شهادةً أقوى منها بأنهم لكاذبون فى قولهم : « نشهد إنك لرسول الله » لا فى أن محمدًا رسول الله ولهذا استدرك فقال : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون : ١] .

المنافق له علامات ، يعرفها الذى أعطاه الله فراسة ونورًا فى قلبه ، يعرف المنافق من تَتَبُّع أحواله .

وهناك علامات ظاهرة ما تحتاج إلى فراسه ، منها هذه الثلاث التى بينها النبى - ﷺ - « إذا حدث كذب » يقول مثلاً : فلا فعل كذا وكذا ، فإذا بحثت وجدته كذب ، وهذا الشخص لم يفعل شيئًا ، فإذا رأيت الإنسان يكذب فاعلم أن فى قلبه شعبة من النفاق .

Marfat.com

الثانى « إذا وعد أخلف » يعدك ولكن يخلف ، يقول لك مثلاً : سآتى إليك فى الساعة السابعة صباحًا ، ولكن لا يأتى ، أو يقول : سآتى إليك غدًا بعد صلاة الظهر ، ولكن ما يأتى ، يقول : أعطيك كذا وكذا ، وما يعطيك ، فهو كما قال النبى - ﷺ - : «إذا وعد أخلف » والمؤمن إذا وعد وفى ، كما قال الله تعالى : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة : ١٧٧] . لكن المنافق يعدُك ويغرك ، فإذا وجدت الرجل يغدر كثيرًا بما يعد، ولا يفى ، فاعلم أن فى قلبه شعبة من النفاق والعياذ بالله .

الثالث « إذا ائتمن خان » وهذا الشاهد من هذا الحديث بالباب ، فالمنافق إذا ائتمنته على مال خانك ، وإذا ائتمنته على سر بينك وبينه خاتك ، وإذا ائتمنته على أهلك خانك ، وإذا ائتمنته على بيع أو شراء خانك ، كلما ائتمنته على شىء يخونك والعياذ بالله ، يدل ذلك على أن فى قلبه شعبة من النفاق .

وأخبر النبى - ﷺ - بهذا الخبر لأمرين :

الأمر الأول : أن نحذر من هذه الصفات الذميمة ؛ لأنها من علامات النفاق ، ويخشى أن يكون هذا النفاق العملى مؤديًا إلى نفاق فى الاعتقاد والعياذ بالله ، فيكون الإنسان منافقًا نفاقًا اعتقاديًا فيخرج من الإسلام وهو لا يشعر ، فأخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام لنحذر من ذلك .

الأمر الثانى : لنحذر من يتصف بهذه الصفات ، ونعلم أنه منافق يخدعنا ويلعب بنا ، ويغرنا بحلاوة لفظه وحسن قوله ، إذن عكس ذلك يكون من علامات الإيمان ، فالمؤمن إذا وعد أوفى ، المؤمن إذا ائتمن أدى الأمانة على وجهها هذا هو المؤمن وكذلك إذا حدث كان صادقًا فى حديثه مخبرًا بما هو الواقع فعلاً .

ومن الأسف فإن قومًا من السفهاء عندنا إذا وعدته بوعد يقول : « وعد إنجليزى أم وعد عربى » يعنى أن الإنجليز هم الذين يوفون بالوْعد ، هذا بلا شك أنه سفه وغرور بهؤلاء الكفرة ، الإنجليز فيهم مسلمون ومؤمنون ، ولكن جملتهم كفار ، ووفاؤهم بالوعد لا يبتغون به وجه الله ، لكن يبتغون به أن يُحسنوا صورتهم عند الناس ليغتر الناس بهم . المؤمن فى الحقيقة هو الذى يفى تمامًا ، ولهذا إذا أردت أن تتأكد فقل لصاحبك : تعدنى وعد مؤمن أم وعد منافق ؟ هذا هو الصواب ، فمن أوفى بالوعد فهو مؤمن ومن أخلف الوعد كان فيه من خصال النفاق .

* * *

Marfat.com

[٢/ ٢٠٠]ــ وعن حُذَيْفَةَ بن اليَمَان ﷺ قال : حدثنا رسول الله ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رأيتُ أحَدَهُمَا ، وأنَا أنْتظِرُ الآخرَ : حَدَّثَنَا أنَّ الأمَانَةَ نَزَلَتْ فى جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَال، ثُمَّ نَزَلَ القُرآنُ فَعلَمُوا منَ القُرآن ، وَعَلمُوا منَ السُّنَّة ، ثُمَّ حَدَّثَنا عَنْ رَفْعِ الأمَانة فَقَالَ: « **يَنَامُ الرَّجلِ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمَانَةُ منْ قَلْبه ، فَيَظَلُّ أثَرُها مثْلَ الوَكْت ، ثم يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأمَانَةُ منْ قَلْبه ، فَيَظَلُّ أثَرُهَا مثْلَ أثَرِ المَجْلِ ، كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ على رجْلك، فَنَفطَ فَتَراهُ مُنْتَبراً وَلَيْسَ فيه شَىءٌ » ثُمَّ أخَذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهَا عَلَى رجْله « فَيُصْبحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ ، فلا يَكَادُ أحَدٌ يُؤدِّى الأمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ : إنَّ فى بَنى فُلان رَجُلاً أميناً ، حَتَّى يُقَالَ للرَّجُل : مَا أجْلَدَهُ مَا أظْرَفَهُ ، مَا أعْقَلَهُ ! وَمَا فى قَلْبه مثْقَالُ حَبَّة منْ خَرْدَل منْ إيمَان ، وَلَقَدْ أتَى عَلَىَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالى أيَّكُمْ بَايَعْتُ ؛ لَئنْ كَانَ مُسْلماً لَيَرُدَّنَّهُ عَلَىَّ دينُهُ، وَلَئنْ كَانَ نَصْرانيًا أوْ يَهُوديًا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَىَّ سَاعيه ، وَأمَّا اليَوْمَ فَمَا كُنْتُ أُبَايعُ منْكُمْ إلا فُلاناً وَفُلاناً»** متفق عليه .

قوله: « جَذْرُ » بفتح الجيم وإسكان الذَّال المُعْجَمَة : وَهُوَ أصلُ الشىء . و «الوَكْتُ» بالتَّاء المُثنَّاة منْ فَوق : الأثرُ اليَسيرُ . و « المَجْلُ » بفتح الميم وإسكان الجيم ، وَهُوَ تَنَفُّطٌ فى اليَد وَنَحْوها منْ أثَرِ عَمَلٍ وَغَيْره . قوله:« مُنْتَبراً » :مُرْتَفعاً . قوله «سَاعيه» : الوَالى عَلَيْه.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن حذيفة بن اليمان ﷺ ، قال : حدثنا رسول الله ـ ﷺ ـ حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، وكان النبى ـ ﷺ ـ يحدث أصحابه بما يراه مناسبًا ، والنبى عليه الصلاة والسلام إذا حدث أحدًا بشىء ، فإنه حديث له وللأمة إلى يوم القيامة ، وحذيفة بن اليمان ﷺ يُقال له صاحب السر ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ حدثه عن قوم من المنافقين ، علمهم النبى ـ ﷺ ـ فأخبر بهم حذيفة ، وكانوا نحو ثلاثة عشر رجلاً ، سماهم بأسمائهم .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ لشدة خوفه من الله ، يلتقى بحذيفة فيقول : أنشدك الله هل سمَّانى لك رسول الله ـ ﷺ ـ مع من سماهم من المنافقين ؟ هذا وهو عمر بن الخطاب ﷺ ، الذى هو أفضل هذه الأمة بعد نبيها وأبى بكر ﷺ أجمعين فهو الثانى بعد الرسول

[٢/ ٢٠٠] صحيح : رواه البخارى (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣) .

Marfat.com

عليه الصلاة والسلام فى هذه الأمة ، وله من اليقين والمقامات العظيمة ما هو معلوم ، حتى قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **إن يكن فيكم محدثون فعمر** »[(١)] يعنى إن كان فيكم أحد ملهم للصواب فهو عمر ، يمدحه ويثنى عليه لموافقته للصواب ، وإيمانه ﷺ معروف مشهور ومع ذلك يقول : « أنشدك الله هل سمانى لك رسول الله مع من سماهم من المنافقين ؟ فيقول حذيفة : لا ، ولا أزكى بعدك أحدًا »[(٢)] .

فذكر ﷺ ما حدثه بـه النبى ـ ﷺ ـ من نزع الأمانة من قلوب الرجال ، فقوله ﷺ : « **إن الأمانة نزلت فى جذْر قلوب الرجال** » يعنى فى أصلها ، ثم أنزل عليهم من القرآن والسنة ما يُثبت ويؤيد هذا الأصل ، فجاء القرآن والسنة مؤيدًا للفطرة التى فطر الناس عليها ، وعلموا من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ـ ﷺ ـ فازدادوا بذلك إيمانًا وثباتًا وأداءً للأمانة .

ولكن أخبر بالحديث الثانى أن هذه الأمانة سوف تُنزَعُ من قلوب الرجال والعياذ بالله ، تُنزَع فيصبح الناس يتحدثون أن فى بنى فلان رجلاً أمينًا ، يعنى أنك لا تكاد تجد فى القبيلة رجلاً واحدًا أمينًا ، والباقى كلهم على خيانة ، لم يؤدوا الأمانة .

ولقد شاهد الناس اليوم مصداق هذا الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، فإنك تستعرض الناس رجلاً رجلاً حتى تبلغ إلى حد المائة أو المئات ، لا تجد الرجل الأمين الذى أدى الأمانة كما ينبغى فى حق الله ولا فى حق الناس ، قد تجد رجلاً أمينًا فى حق الله ، يؤدى الصلاة ، يؤدى الزكاة ، يصوم ، يحج ، يذكر الله كثيرًا ، يُسبح ، لكنه فى المال ليس أمينًا ، إن وكل إليه عملٌ حكومى فرط وصار لا يأتى للدوام إلا متأخرًا ، ويخرج قبل انتهاء الوقت ، ويضيع الأيام الكثيرة فى أشغاله الخاصة ، ولا يبالى ، مع أنك تجده فى مقدمة الناس فى المساجد ، وفى الصدقات ، وفى الصيام ، وفى الحج ، لكنه ليس أمينًا من جهة أخرى .

كذلك تجد الرجل يُقيم الصلاة ، ويصوم ، ويحج ، ويتصدق ، لكنه ليس أمينًا فى وظيفته ، يعرف أنه لا يجوز للموظف أن يُتاجر أو يفتح محل تجارة ، ولكنه يُبالى ، ويفتح محل تجارة ، إما باسمه صريحًا ، أو باسم مستعار ، وإما برحل أجنبى يجعله فى هذا الدكان وما أشبه ذلك ، فيكذب ، ويخون الدولة ، ويأكل المال بالباطل ، وهذا الذى يأكله من الحرام مانع لإجابة دعوته والعياذ بالله .

---

(١) البخارى (٣٦٨٩) مسلم (٢٣٩٨) .

(٢) انظر كنز العمال (١٣/ ٣٤٤) .

Marfat.com

قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **إن الله طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** [البقرة : ١٧٢] وقال تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾** [المؤمنون : ٥١] . **ثم ذكر الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر يمدُّ يديه إلى السماء : يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وغُذى بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك** »[(١)] .

يقول النبى - ﷺ - « **أنى يُستجاب لذلك** » بعيد أن يستجيب الله لهذا الرجل ، الذى هو أشعث أغبر ، يمد يديه للسماء : يا رب يا رب ، ومع ذلك يبعد أن الله يستجيب له ؛ لأنه يأكل الحرام ، هذا الذى يكون موظفًا بمقتضى عهد الوظيفة فإنه يمنع من مزاولة التجارة، فكلُّ كسب كسبه من هذه التجارة فهو حرام عليه ، سحت والعياذ بالله ، نقول لمثل هذا : أنت الآن بالخيار ! إن شئت أن تبقى على الوظيفة فاترك التجارة ، وإن رأيت أن التجارة أنسب لك وأكثر فائدة فاترك الوظيفة .

قال الله تعالى : **﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾** [المائدة : ١] **﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾** [الإسراء : ٣٤] يتعلل بعض الناس فيقول : كيف تمنعونى من التجارة وهناك وزراء يتاجرون بالأراضى وعندهم شركات كبيرة ، فنقول : إذا ضل الناس لم يكن ضلالهم هدى ، وإذا كانوا هم ضالين ظالمين بما صنعوا فلا تضل أنت ، فإذا قال مثلاً : هذه النظم جاءت من تحت أيديهم ، هم الذين شرعوها فكيف يخالفونها ؟ نقول : حسابهم على الله سيكونون هم أول من يحزن ويتحسر على ما صنعوا يوم القيامة ، حيث لا مال عندهم يفدون به أنفسهم ، ولا خدم ولا حراس يحجزون عنهم ، ولا نسب ولا قرابة تنفعهم ، فأنت لا تتخذ من مخالفات الناس دليلاً وسلمًا لمعصية الله ، ولكن عليك بالوفاء بما عاهدت غيرك عليه ، وإن كان غيرك يخالف ذلك فليس لك أن تُخالفه أنت .

* * *

[٣/ ٢٠١] وعن حُذَيْفَةَ ، وأبى هريرة رضي الله عنهما قالا :قال رسول الله ﷺ : « **يَجْمَعُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، صَلَوَاتُ اللهُ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُونَ : يَا أَبَانَا ، اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إلا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ ! لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللهِ ،**

(١) مسلم (١٠١٥) الترمذى (٢٩٨٩) .

[٣/ ٢٠١] صحيح : رواه مسلم (١٩٥) .

Marfat.com

قال : فيأتون إبراهيمَ ، فيقولُ إبراهيمُ : لَسْتُ بصاحب ذلك إنَّما كُنْتُ خليلاً من وراءَ وراءَ ، اعمَدُوا إلَى موسَى الَّذى كَلَّمَهُ اللهُ تكليماً ، فيأتون موسَى ، فيَقُولُ : لَسْتُ بصاحب ذلكَ ؛ اذهَبُوا إلى عيسَى كَلمةَ اللهِ ورُوحه . فيَقُولُ عيسَى : لَسْتُ بصاحب ذَلكَ ، فيأتُونَ مُحمَّداً ﷺ ، فيقومُ فيُؤْذَنُ له ، وتُرْسَلُ الأمانةُ والرحمُ فتقومان جَنَبَتَى الصراط يميناً وشمالاً ، فيمرُّ أوَّلُكُمْ كالبَرْق » قُلْتُ : بأبى وأُمى ، أىُّ شَىْءٍ كَمرِّ البَرْق؟ قال : « ألَمْ تروْا كيْف يَمرُّ ويرجعُ فى طَرفَةِ عيْنٍ ؟ ثُمَّ كمَرِّ الريح ، ثُمَّ كمرِّ الطَّيْر ، وشَدِّ الرجال ، تجرى بهمْ أعمالُهُمْ ، ونبيكُمْ قائمٌ علَى الصِّراط يقُولُ : ربِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، حتَّى تعْجزَ أعْمالُ العِبَادِ ، حتَّى يجىءَ الرَّجلُ لا يَستَطيعُ السَّيْرَ إلا زحْفاً ، وفى حافَتَى الصِّراط كَلاليبُ مُعلَّقةٌ مأمُورةٌ بأخذ منْ أُمرتْ به ، فمَخدُوشٌ نَاجٍ ، ومُكرْدسٌ فى النَّار » والَّذى نَفسُ أبى هُرَيرَةَ بيَده إنَّ قَعرَ جهنَّمَ لَسبْعُونَ خَرِيفاً . رواه مسلم .

قوله : « وراءَ وراءَ » هُو بالْفَتْحِ فيهمَا ، وقيلَ : بالضَّمِّ بلا تَنْوينٍ ، ومَعْنَاهُ : لَسْتُ بِتلْكَ الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ ، وهِى كَلمَةٌ تُذْكَرُ عَلَى سَبِيلِ التَّواضُعِ ، وقَدْ بسَطْتُ مَعْنَاهَا فى شَرْحِ صحيح مسلمٍ ، والله أعلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله - فيما نقله عن حذيفة ، وأبى هريرة رضي الله عنهما فى حديث الشفاعة، وذلك أن النبى - ﷺ - وعده ربُّه أن يبعثه مقامًا محمودًا فقال جل وعلا : ﴿ومن اللَّيْلِ فتهجَّدْ به نافلةً لَّك عسَىٰ أن يبعثك ربُّك مقاما مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] ، وإذا جاءت ﴿عسَىٰ﴾ من الله فهى واجبة ، بخلاف عسى من الخلق ، فإنها للترجى فإذا قلت : عسى الله أن يهدينى ، عسى الله أن يغفر له ، عسى الله أن يرحمنى، فهذا رجاء . أما إذا قال الله ﴿عسَىٰ﴾ فهذا وعد ، لذلك قالوا : « عسى من الله واجبة» مثل قوله تعالى : ﴿فأولئك عسَى اللهُ أن يعْفُو عنْهُمْ﴾ [النساء : ٩٩] ، وقوله : ﴿فعسَى اللهُ أن يأْتي بالْفتْحِ أوْ أمْرٍ مِّنْ عنده﴾ [المائدة : ٥٢] . وما أشبه ذلك .

فالله عز وجل وعد نبيه - ﷺ - أن يبعثه مقامًا محمودًا ، أى مقامًا يحمده فيه الأولون والآخرون ، وذلك من عدة أوجه منها حديث الشفاعة[١] ، فإن الناس يُبعثون يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً ، حفاة لا يلبسون النعال ، وعراة ليس عليهم ثياب ، وغرلاً أى غير مختونين ، يعنى أن ما قطع منهم فى الدنيا أثناء الختان سيعود إليهم يوم القيامة كما قال

(١) البخارى (٤٧١٢) مسلم (١٩٤) .

Marfat.com

تعالى : ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

فيجمع الله الخلائق ، والشمس فوقهم قدر ميل ، أهوال عظيمة ، يشاهدون الجبال تمر مرَّ السحاب ، تكون هباءً منثورًا فيلحقهم من الهم والغم ما لا يطيقون ، فيقول بعضهم لبعض : ألا تطلبون مَن يشفع لنا عند الله ، فيذهبون إلى آدم ويطلبونه الشفاعة ، فيذكر خطيئته التى وقعت منه .

والخطيئة التى وقعت منه أن الله سبحانه وتعالى قال له ولزوجه حين أسكنهما الجنة : ﴿وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة : ٣٥] . شجرة عينها الله عز وجل وليس لنا فى معرفة نوعها كبير فائدة ، ولهذا فنحن لا نعرف نوع هذه الشجرة ، هل هى من شجر الزيتون ، أم من الحنطة ، أم من العنب ، أم من النخل ، لا ندرى ، فالواجب أن نبهمها كما أبهمها الله عز وجل ، ولو كان لنا فى تعيينها فائدة لبينها الله عز وجل .

فقال عز وجل لآدم وحواء : ﴿وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فأتاهما الشيطان فوسوس لهما ، ودلاهما بغرور ، وقاسمهما إنى لكم لمن الناصحين ، وهكذا يفعل فى بنى آدم ، يغرهم ويغريهم ويوسوس لهم ويُقسم لهم إنى ناصح وهو كذوب .

فالشاهد من حديثنا أن آدم عليه السلام تذكر خطيئته هو وزوجته ، وهى أكلهما من الشجرة التى حظرها الله عليهما ، ولكنه تاب إلى الله تعالى من ذلك ، فأمره الله سبحانه أن يهبط هو وزوجته إلى الأرض فهبطا وكانت منهما هذه الذرية ، فمنهم الشهداء والرسل والأنبياء والصالحون ، ومنهم غير ذلك من أهل الفساد والكفر والنفاق والإلحاد والضلال.

فعندما يذهب الناس إلى آدم عليه السلام فى هذا الموقف العظيم يوم القيامة يعتذر عن مساعدتهم ويتذكر خطيئته التى أخرجته من الجنة .

أما القصة التى تروى عن ابن عباس رضي الله عنهما فى سبب خروج آدم وحواء من الجنة ، وأن حواء حملت فجاءها الشيطان فقال : سميا الولد عبد الحارث ، أو لأجعلن له قرنًا ، فيخرج من بطنك فيشقه فأبيا أن يطيعا ، فجاءهم فى المرة الثانية ، فأبيا أن يطيعا ، فجاءهم فى المرة الثالثة فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث ، وجعل ذلك تفسيراً لقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٩ ، ١٩٠] . فإن هذه القصة قصة مكذوبة ليست بصحيحة ، وحتى إن صحت عن ابن عباس فإنه رضي الله عنهما ممن

Marfat.com

عرفوا بالأخذ من بنى إسرائيل ، فتكون هذه القصة من الإسرائيليات [١] .

فنحن نعلم من خلال حديث الشفاعة وما تقرر من عصمة الأنبياء أن هذا الفعل لا يصح من آدم أبدًا ؛ لأنه شرك والشرك لا يقع من الأنبياء .

يعتذر آدم عن الشفاعة فيأتى الناس نوحًا عليه السلام وهو أول رسول أرسله الله إلى الأرض ، فيُخاطبه الناس بهذه المنقبة فيقولون له : أنت أول رسول بعثه الله إلى الأرض اشفع لنا عند ربك ، فيعتذر لأنه سأل ربه ما ليس له به علم وذلك حين قال : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥] .

وكان لنوح ولد كافر به ، ولد رسول ولكنه كفر بالرسول والعياذ بالله ؛ لأن النسب لا ينفع الإنسان ، فابن العالم لا يأتى عالمًا ، بل قد يكون جاهلاً ، وكذلك ابن العابد لا يأتى عابدًا ، قد يكون فاسقًا فاجرًا ، ابن الرسول لا يكون مؤمنًا بل هذا ابن نوح عليه السلام أحد أبنائه كان كافرًا ، كان أبوه يقول : ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ [هود : ٤٢] . فيجيبه قائلاً : ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

فيعتذر نوح بأنه سأل ما ليس له به علم ، والشافع لابد ألا يكون بينه وبين المشفوع إليه جفوة ؛ لأن الشافع إذا كان بينه وبين المشفوع إليه جفوة ، فكيف يكون شافعًا ، الشافع لابد أن يكون بينه وبين المشفوع إليه صلة قوية لا يخدشها شيء ، مع أن نوحًا عليه السلام غفر الله له ، وآدم غفر الله له ، اجتباه ربُّه فتاب، فغفر الله له ، ولكن لكمال مرتبتهم وعلو مقامهم ، جعلوا هذا الذنب الذى غُفر لهم مانعًا من الشفاعة ، كل هذا تعظيمًا لله عز وجل ، وحياء منه ، وخجلاً منه .

ثم يأتون إلى إبراهيم خليل الله عز وجل ، فيعتذر ويقول : إنه كذب فى ذات الله ثلاث كذبات [٢] ، وهذه الكذبات التى كذبها ليست كذبًا فى الواقع ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام قد تأول فيها ، والتأول ليس بكذب ، لكن لشدة تعظيمه لله عز وجل ، رأى أن هذا مانع للشفاعة أى من أن يتقدم للشفاعة لأحد .

ثم يأتون موسى ويقولون له : إن الله كلمك ، وكتب لك التوراة بيده ، فيعتذر بأنه قَتَلَ نفسًا لم يؤمر بقتلها ، وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام كان من أشد الرجال وأقواهم ، فمر ذات يوم برجلين يقتتلان : ﴿هذا من شيعته ﴾ يعنى من بنى إسرائيل -

(١) انظر تفسير ابن كثير والطبرى (٦/ ١٩٤) .

(٢) البخارى (٣٣٥٨) مسلم (٢٣٧١) .

Marfat.com

﴿وهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ يعنى من آل فرعون من القبط - ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ يعنى طلب منه أن يغيثه وأن يعينه على هذا الرجل ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ﴾ أى وكز الذى من عدوه ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى أهلكه ومات بوكزة واحدة ؛ لأنه كان قويًا شديدًا عليه الصلاة والسلام ، فقال : ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص : ١٥] .

وفى الصباح وجد صاحبه الذى كان بالأمس وجده يتنازع مع شخص آخر ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص : ١٨]. يعنى بالأمس كنت تُنازع رجلاً واليوم تُنازع آخر فهم موسى أن يبطش بالذى هو عدو لهما فقال له الإسرائيلى : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ﴾ [القصص : ١٩] . وكان الناس يحسون من الذى قتل الرجل بالأمس، ففطن لذلك الفرعونى ، فأخبر الناس أن موسى قاتله ، فالشاهد من ذلك أن موسى عليه السلام يعتذر إلى الخلق يوم القيامة ؛ لأنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها .

ثم يذهبون إلى عيسى ويقولون له : أنت كلمة الله وروحه ، كلمة الله : يعنى أنك خُلقت بكلمة الله وروحه أى : أنك روح من أرواح الله عز وجل التى خلقها ، فيعتذر ولكنه لا يذكر ذنبًا ، أو لا يذكر شيئًا يعتذر به ، فيُحيلهم إلى النبى - ﷺ - ، فيقول : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتون إلى النبى - ﷺ - فيقوم فيؤذن له ، فيشفع ، يشفع فى الناس حتى يُقضى بينهم .

وفى هذا الحديث الذى ذكره المؤلف رحمه الله : أنَّ الأمانة والرحم تقفان على جانبى الصراط ، والصراط : جسر ممدود على متن جهنم ، واختلف العلماء فى هذا الجسر ، هل هو جسر واسع أو هو جسر ضيق ، ففى بعض الروايات أنه أدقُّ من الشعر وأحد من السيف، ولكن الناس يعبرون عليه ، والله على كل شىء قدير .

وعلى هذا الجسر كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن الناس من يُخطف فيلقى فى النار ، ومنهم من يمر سريعًا كلمح البرق ، ومنهم مَن يمر كركاب الإبل ، أو كالريح حسب درجاتهم وأعمالهم ، تجرى بهم أعمالهم ، كل من كان فى هذه الدنيا أسرع إلى التزام صراط الله عز وجل واتباع شريعته ، كان على هذا الصراط أسرع مرورًا ، ومَن كان مُتباطئًا عن الشرع فى الدنيا ، كان سيره هناك بطيئًا ، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم كل يخاف على نفسه ؛ لأن الأمر ليس بهين ، الأمر شديد ، الناس فيه أشد ما يكون خوفًا ووجلاً حتى يعبر المسلمون هذا الصراط إلى الجنة ، ومن الناس مَن يكردس فى نار جهنم ويعذَّب على حسب عمله .

Marfat.com

أما الكفار الخلص فإنهم لا يصعدون هذا الصراط ولا يمرون عليه ، بل يذهب بهم إلى جهنم قبل أن يصعدوا هذا الصراط ، ويذهب بهم إلى جهنم وردًا ، إنما يصعده المؤمنون فقط ، لكن من كان له ذنوب لم تغفر فإنه قد يقع في نار جهنم ، ويعذب بحسب أعماله والله أعلم .

* * *

[٤/٢٠٢] وعن أبي خُبَيْبٍ ـ بضم الخاء المعجمة ـ عبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنه قال : لَمَّا وقفَ الزبير يوم الجَمَلِ دَعَانِي فقمْتُ إلى جَنْبِه ، فقَالَ : يَابُنَيَّ ، إنَّهُ لا يُقتَلُ اليَوْمَ إلا ظَالِمٌ أو مَظلُومٌ ، وإنِّي لا أرانِي إلا سأُقتَلُ اليَوْمَ مَظلُوماً ، وإنَّ من أكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي ، أفَتَرَى دَيْنَنَا يُبقِي مِنْ مَالِنَا شيْئاً ؟ ثُمَّ قَالَ : يَابُنَيَّ ، بِعْ مَا لَنَا وَاقْضِ دَيْنِي ، وأوْصَى بالثُّلُثِ وثُلُثِه لبَنِيه ، يَعْني لِبَنِي عَبْد الله بن الزبير ثُلُثُ الثُّلُث ، قَالَ : فَإنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا بَعْدَ قَضَاء الدَّيْنِ شيْءٌ فَثُلُثُهُ لِبَنِيك ، قال هشام : وكَانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْد الله قَدْ وَازَى بَعْض بَنِي الزبَيْرِ خُبيبٍ وعَبَّادٍ ، ولَهُ يَوْمَئذ تِسْعَةُ بَنِين وتِسْعُ بَنَات ، قَالَ عَبْدُ الله : فَجَعَلَ يُوصِيني بدَيْنِه ويَقُولُ : يا بُنَيَّ ، إنْ عَجَزْتَ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاستَعِنْ عَلَيْه بمَوْلايَ ، قَالَ : فَوَالله مَا دَرَيْتُ مَا أرَادَ حَتَّى قُلْتُ : يَا أبَت ، مَنْ مَوْلاكَ ؟ قال : الله ، قال : فوالله ما وقَعتُ في كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِه إلا قُلْتُ : يا مَوْلَى الزُّبَيْرِ اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ ، فَيَقْضِيَه ، قَالَ : فَقُتِلَ الزُّبَيْرُ وَلَمْ يَدَعْ دِيناراً ولا دِرْهَماً إلا أرَضِينَ ، مِنْهَا الغَابَةُ وإحْدَى عَشْرَةَ داراً بالمَدِينَة ، ودَارَيْنِ بالبَصْرَة ، ودَاراً بالكوفة ودَاراً بمصر ، قال : وإنَّمَا كَانَ دَيْنُهُ الَّذي كَانَ عَلَيْه أنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَأتِيه بالمال ، فَيَسْتَوْدِعُهُ إيَّاهُ ، فَيقُولُ الزُّبَيْرُ : لا وَلَكِنْ هُوَ سَلَفٌ إنِّي أخْشَى عَلَيْه الضَّيْعَة ، وَمَا وَلِيَ إمَارَةً قَطُّ ولا جِبَايَةً ولا خَرَاجاً ولا شيْئاً إلا أنْ يَكُونَ في غَزْوٍ مَعَ رسول الله ﷺ أو مَعَ أبِي بَكْرٍ وعُمَرَ وعُثْمَانَ رضي الله عنهم ، قَالَ عَبْدُ الله : فَحَسَبْتُ مَا كَانَ عَلَيْه مِنَ الدَّيْنِ فَوَجَدْتُهُ ألفَيْ ألفٍ ومائتي ألفٍ ! فَلَقِيَ حكيمُ بن حِزامٍ عَبْدَ الله بن الزُّبَيْر

Marfat.com

فَقَالَ : يَابْنَ أخِى ، كَمْ على أخِى من الدَّيْنِ ؟ فكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ : مائةُ ألْف، فَقَالَ حكيمٌ : واللّه مَا أرى أمْوَالَكُمْ تسَعُ هذه ! فَقَالَ عَبْدُ اللّه : أرأيْتَكَ إنْ كَانَتْ ألْفَىْ ألْف ؟ وَمائتَىْ ألْفٍ ؟ قَالَ : مَا أرَاكُمْ تُطِيقُونَ هذَا ، فَإنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَىْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بى ، قَالَ : وكَانَ الزّبَيرُ قَدِ اشتَرَى الْغَابَةَ بِسَبْعِينَ ومائة ألْف ، فَبَاعَهَا عَبْدُ الله بِألْفِ ألْفٍ وَسِتّمِائة ألْف ، ثُمَّ قَامَ فقال : مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ شَىْءٌ فَلْيُوافِنَا بِالْغَابَةِ ، فَأتَاهُ عَبْدُ اللّهِ بْنُ جعفَرٍ ، وكَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيْرِ أربَعْمائة ألْف ، فَقَالَ لعَبْدِ اللّه : إنْ شئْتُمْ تَرَكْتُها لَكُمْ ؟ قَالَ عَبْدُ اللّه : لا ، قال : فَإنْ شِئْتُمْ جَعَلْتُمُوهَا فيمَا تُؤخرُونَ إنْ أخَرْتُمْ ، فقال عَبْدُ اللّه : لا ، قال : فَاقْطَعُوا لِى قطعَة ، قال عَبْدُ اللّه : لَكَ مِنْ هَهُنَا إلَى ههُنا ، فَبَاعَ عَبْدُ اللّه مِنهَا ، فَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ ، وَأوفَاهُ وَبَقِىَ مِنْهَا أرْبَعَةُ أسْهُمٍ وَنِصْفٌ ، فَقَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ عَمرُو بْنُ عُثْمَانَ ، وَالْمُنْذِرُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَابْنُ زَمْعَةَ ، فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ : كَمْ قُوِّمَت الْغَابَةُ ؟ قال : كُلُّ سَهْمٍ بِمائَةِ ألْفٍ . قال كَمْ بَقِىَ مِنهَا ؟ قال : أرْبَعَةُ أسْهُمٍ ونِصفٌ ، فقال الْمُنْذِرُ بن الزُّبَيْرِ : قَدْ أخَذْتُ مِنهَا سَهْماً بِمائَةِ ألْفٍ ، قال عَمْرُو بْنُ عُثْمَان: قَدْ أخَذْتُ مِنهَا سَهْماً بِمائَةِ ألْفٍ ، وقال ابْن زمْعَةَ : قَدْ أخَذْتُ سَهْماً بِمائَةِ ألْفٍ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ :كَمْ بَقِىَ مِنْهَا ؟ قال : سَهْمٌ ونصف سَهْمٍ ، قَالَ : قَدْ أخَذْتُهُ بخَمْسِينَ ومائة ألْف ، قال : وباع عبد الله بن جَعْفَرٍ نَصِيبَهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بِستّمائةِ ألْفٍ ، فَلَمَّا فَرَغَ ابْنُ الزُّبَيْرِ من قَضاءِ دَيْنِهِ قَالَ بَنُو الزُّبَيْرِ : اقسِمْ بَيْنَنا ميرَاثَنَا ، قَالَ : واللّه لا أقسِمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِىَ بِالْمَوسِمِ أرْبَعَ سِنِين : الا مَنْ كَان له على الزُّبَيْرِ دَيْنٌ فَلْيَأتِنَا فَلْنَقْضِهِ ، فَجَعَلَ كُلَّ سَنَةٍ يُنَادِى فى الْمَوسِمِ ، فَلَمَّا مَضى أرْبَعُ سِنِينَ قَسم بَيْنَهُمْ ودَفَعَ الثُّلث ، وكان للزبير أربَعُ نِسوةٍ ، فأصاب كُلَّ امْرَأةٍ ألْفُ ألف ومِائَتَا ألْفٍ ، فَجَمِيعُ مَالِهِ خَمْسُونَ ألْف ألف ومِائَتَا ألف.

رواه البخارى .

Marfat.com

٢٦ ـ باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم

قال الله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (غافر: ١٨) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (الحج: ٧١) .

وأمَّا الأَحَادِيثُ : فَمِنْهَا حَدِيثُ أبى ذرّ رضي الله عنه الْمُتَقَدّمُ فى آخرِ باب الْمُجَاهَدَة(١) .

[٢٠٣/١] وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **اتَّقُوا الظُّلْمَ ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، واتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ واسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ** » رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ : (**باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم**) ، يعنى إلى أهلها ، هذا الباب يشتمل على أمرين : الأمر الأول : تحريم الظلم ، والأمر الثانى : وجوب رد المظالم ، واعلم أن الظلم هو النقص ، قال الله تعالى : ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف : ٣٣] . يعنى لم تنقص منه شيئًا ، والنقص إما أن يكون بالتجرؤ على ما لا يجوز للإنسان ، وإما بالتفريط فيما يجب عليه ، وبذلك يدور الظلم على هذين الأمرين ، إما ترك واجب ، وإما فعل محرم .

والظلم نوعان : ظلم يتعلق بحقوق الله عز وجل ، وظلم يتعلق بحقوق العباد ، وأعظمهما المتعلق بحقوق الله والإشراك به ، فإن النبى ـ ﷺ ـ سئل : أى الذنب أعظم ؟ فقال : « **أن تجعل الله ندًا وهو خلقك** »(٢) . ويليه الظلم فى الكبائر ، ثم الظلم فى الصغائر .

أما فى حقوق الله فالظلم يدور على ثلاثة أشياء ، بينها النبى ـ ﷺ ـ فى خطبة حجة الوداع ، فقال : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا** »(٣) . الظلم فى النفس هو الظلم فى الدماء ، يكون بأن

---

(١) انظر الحديث رقم ١١١ .

[٢٠٣/١] صحيح : رواه مسلم (٢٥٧٨) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) البخارى (٦٠٠١) مسلم (٨٦) .

Marfat.com

يعتدى الإنسان على حق غيره ، يسفك الدماء أو الجروح أو ما أشبه ذلك ، الظلم فى الأموال بأن يعتدى الإنسان ويظلم غيره فى الأموال ، إما بعدم بذل الواجب ، وإما بإتيان محرم ، وإما بأن يمتنع من واجب عليه ، وإما بأن يفعل شيئًا محرمًا فى مال غيره ، وأما الظلم فى الأعراض ، فيشمل الاعتداء على الغير بالزنى ، واللواط ، والقذف ، وما أشبه ذلك .

وكل الظلم بأنواعه لا يجد الظالم من ينصره أمام الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ أى أنه يوم القيامة ، لا يجد الظالم حميمًا أى صديقًا ينجيه من عذاب الله ، ولا يجد شفيعًا يشفع له فيطاع ؛ لأنه منبوذ بظلمه وغشمه وعدوانه ، وقال تعالى ﴿وما للظالمين من نصير﴾ [البقرة : ٢٧٠] يعنى لا يجدون أنصارًا ينصرونهم ويخرجونهم من عذاب الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم .

ثم ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « اتقوا الظلم » الخطاب للأمة ، يعنى احذروا الظلم ، والظلم كما سبق أنه يكون فى حق الله ويكون فى حق العباد ، فقوله ـ ﷺ ـ : « اتقوا الظلم » أى لا تظلموا لا أنفسكم ولا غيركم ، « فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » يوم القيامة ليس هناك نور إلا لمن أناره الله تعالى له ، وأما من لم يجعل الله له نورًا فما له من نور ، والإنسان إن كان مسلمًا فله نور بقدر إسلامه ، ولكن إن كان ظالمًا فقد من هذا النور بمقدار ما حصل له من الظلم ؛ لقوله ـ ﷺ ـ : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

ومن الظلم : مطل الغنى ، يعنى ألا يوفى الإنسان ما عليه وهو غنى به ، لقوله ـ ﷺ ـ : « مطل الغنى ظلم »(1) وما أكثر الذين يظلمون فى الحقوق بالمماطلة ، يأتى إليه صاحب الحق فيقول : يا فلان أعطنى حقى ، فيقول : غدًا ، فيأتيه من بعد غد فيقول : بعد غد ، وهكذا ، فإن هذا الظلم يكون ظلمات يوم القيامة على صاحبه .

« واتقوا الشح » الشح : الحرص على المال « فإنه أهلك من كان قبلكم » لأن الحرص على المال حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » يسفك الشحيح الدماء إذا لم يتوصل إلى طمعه إلا بالدماء ، كما هو الواقع عند أهل الشح ، يقطعون الطريق على المسلمين ، ويقتلون الرجل ، ويأخذون متاعه ، ويأخذون بعيره ، وكذلك أيضًا يعتدون على الناس فى

---

(1) البخارى (٢٤٠٠) مسلم (١٥٦٤) .

Marfat.com

داخل بيوتهم ، ويهتكون حُجُبَ بيوتهم ، فيأخذون المال بالقوة والغلبة .

فحذر النبى - ﷺ - من أمرين : من الظلم ومن الشح ، فالظلم هو الاعتداء على الغير ، والشح هو الطمع فيما عند الغير ، فكل ذلك حرام ، ولهذا قال الله تعالى فى كتابه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر : ٩] . فدلت الآية على أن مَن لم يوق شُح نفسه فلا فلاح له ، المفلح مَن وقاه الله شحَّ نفسه ، نسأل الله السلامة أن يُعيذنا وإياكم من الظلم ، وأن يقينا شح أنفسنا وشرورها .

❊ ❊ ❊

[٢/ ٢٠٤] وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**»رواه مسلم .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى - ﷺ - قال : « **لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء** » .

ففى هذا الحديث أقسم النبى - ﷺ - وهو الصادق المصدق بغير قسم ، أقسم أن الحقوق ستؤدى إلى أهلها يوم القيامة ، ولا يضيع لأحد حقٌ ، الحق الذى لك إن لم تستوفيه فى الدنيا استوفيته فى الآخرة ، حتى إنه يُقْتَصُّ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء . الجلحاء : التى ليس لها قرن ، والقرناء : التى لها قرن ، والغالب أن التى لها قرن إذا ناطحت الجلحاء التى ليس لها قرن تؤذيها أكثر ، فإذا كان يوم القيامة قضى الله بين هاتين الشاتين واقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ، هذا وهن بهائم لا يعقلن ولا يفهمن ، لكن الله عز وجل حكم عدل ، أراد أن يُرى عباده كمال عدله حتى فى البهائم العجم ، فكيف ببنى آدم !!

وفى هذا الحديث : دليل على أن البهائم تُحشر يوم القيامة ، كذلك تُحشر الدواب ، وكل ما فيه روح يحشر يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنعام : ٣٨] . أمم كثيرة ، أمة الذر ، أمة الطيور ، أمة السباع ، أمة الحيات وهكذا ﴿ **إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وكل شىء مكتوب ، حتى أعمال البهائم والحشرات مكتوبة فى اللوح المحفوظ : ﴿مَا

[٢/ ٢٠٤] صحيح : رواه مسلم (٢٥٨٢) الترمذى (٢٤٢٠) أحمد (٢/ ٢٣٥) .

Marfat.com

فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ على كل حال ففى يوم القيامة يُقتص للمظلوم من الظالم ويؤخذ من حسنات الظالم فتضاف إلى حسنات المظلوم ، إلا إذا نفدت حسناته ، فيؤخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه، قال النبى عليه الصلاة والسلام : « مَن تعدون المفلس فيكم ؟ » قالوا : المفلس مَن لا درهم عنده ولا متاع ، قال : « المفلس مَن يأتى يوم القيامة بحسنات مثل الجبال ، فيأتى وقد ضرب هذا ، وشتم هذا ، وأخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن بقى من حسناته شيء . وإلا أخذ من سيئاتهم فطُرحت عليه ، ثم طرح فى النار» (١) .

لابد أن يقتص للمظلوم من الظالم ، ولكن إذا أخذ المظلوم بحقه فى الدنيا ، فدعا على الظالم بقدر مظلمته واستجاب الله دعاءه فيه ، فقد اقتصَّ لنفسه قبل أن يموت ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ قال لمعاذ : « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» (٢) . فإذا دعا المظلوم على ظالمه فى الدنيا واستُجيب لدعائه فقد اقتص منه فى الدنيا أما إذا سكت فلم يدع عليه ولم يعف عنه ، فإنه يُقتصُّ له منه يوم القيامة .

* * *

[٣/ ٢٠٥] وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كُنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ ، وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أظهُرنا ، ولا نَدرى مَا حَجَّةُ الْوَدَاعِ ، حَتَّى حَمِدَ اللَّهَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَأَطْنَبَ فى ذكْرِه ، وَقَالَ : « مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِى إلا أَنْذَرَهُ أُمَّتَهُ : أَنْذَرَهُ نُوحٌ والنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِه ، وَإِنَّهُ إِنْ يَخْرُجْ فِيكُمْ فَمَا خَفِىَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِه فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، وإنَّهُ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ ، ألا إنَّ الله حَرَّمَ عَلَيْكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هذَا ، فى بَلَدِكُمْ هذا ، فى شَهْرِكُمْ هذا ، ألا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ » قالوا : نَعَمْ ، قَالَ: « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ـ ثَلاثاً ـ وَيْلَكُمْ ، أَوْ وَيْحَكُمْ ، انْظُرُوا : لا تَرْجِعُوا بَعْدِى كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » رواه البخارى، وروى مسلم بعضه .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : كنا

---

(١) مسلم (٢٥٨١) .

(٢) البخارى (١٤٩٦) مسلم (١٩) .

[٣/ ٢٠٥] صحيح : رواه البخارى (٤٤٠٢ ، ٤٤٠٣) ، ومسلم (١٦٩).

Marfat.com

نقول والنبى - ﷺ - حى : ما حَجَّةُ الوداع ؟ وحَجةُ الوداع هى الحجة التى حجها النبى - ﷺ - فى السنة العاشرة من الهجرة ، وودع الناس فيها وقال : « **لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا** » ، ولم يحج النبى - ﷺ - بعد الهجرة إلا هذه المرة فقط ، وقد ذُكر أنه حج قبل الهجرة مرتين ، ولكن الظاهر والله أعلم أنه حجَّ أكثر ؛ لأنه كان هناك فى مكة ، وكان يخرج فى الموسم يدعو الناس والقبائل إلى دين الله عز وجل فيبعد أنه يخرج ولا يحج . وعلى كل حال الذى يهمنا أنه - ﷺ - حجَّ فى آخر عمره فى السنة العاشرة من الهجرة ، ولم يحج قبلها بعد هجرته ، وذلك لأن مكة كانت بأيدى المشركين إلى السنة الثامنة من الهجرة ، ففتحها النبى - ﷺ - فى رمضان فى السنة الثامنة ، ثم خرج بعد ذلك إلى الطائف ، وغزا ثقيفًا وحصلت غزوة الطائف المشهورة ، ثم رجع بعد هذا ونزل فى الجعرانة، وأتى بعمرة ليلاً ، ولم يطلع عليه كثير من الناس ، ثم عاد إلى المدينة هذا فى السنة الثامنة .

وفى السنة التاسعة كانت الوفود تردُ إلى النبى - ﷺ - من كل ناحية ، فبقى فى المدينة، ليتلقى الوفود ، حتى لا يثقل عليهم بطلبه ، حتى إذا جاء الوفود إلى المدينة وجدوا النبى - ﷺ - ولم يتعبوا فى طلبه ويلحقونه يمينًا وشمالاً ، فلم يحجّ فى السنة التاسعة لتلقى الوفود هذا من وجه .

ومن وجه آخر : فى السنة التاسعة حجَّ مع المسلمين المشركون لأنهم لم يُمنعوا من دخول مكة ثم مُنعوا من دخول مكة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] . وأذن مؤذن رسول الله - ﷺ - بألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان [(١)] ، وكان أمير الناس فى تلك الحجة - أعنى حجة سنة تسع - أبا بكر رضي الله عنه ثم أردفه النبى - ﷺ - بعلى ابن أبى طالب فى السنة العاشرة ، وأعلن النبى - ﷺ - أنه سيحج ، وقد المدينة بشرٌ كثير يقدرون نحو مائة ألف ، والمسلمون كلهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا ، أى لم يتخلف من المسلمين إلا القليل ، فحجوا مع النبى - ﷺ - هذه الحجة التى سميت « **حجة الوداع** » لأن النبى - ﷺ - ودع الناس فيها بقوله : « **لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا** » فصاح الأمر كذلك، فإنه تُوفى بعد رجوعه من المدينة فى ربيع الأول ، أى بعد حجه ، فمضى محرم وصفر واثنا عشر يومًا من ربيع الأول صلوات الله وسلامه عليه.

كان - ﷺ - فى حجة الوَداع يخطب الناس ، خطبهم فى عرفة ، وخطبهم فى منى ،

---

(١) البخارى (١٦٢٢) مسلم (١٣٤٧) .

Marfat.com

فذكر المسيح الدجال ، وعظم من شأنه ، وحذر منه تحذيرًا بالغًا ، وفعل ذلك أيضًا فى المدينة ، ذكر الدجال وحذر منه ، وبالغ فى شأنه ، حتى قال الصحابة : كنا نظنُّ أنه فى أفراخ النخل أى قد جاء ودخل ، من شدة قول النبى ـ ﷺ ـ فيه ، ثم أخبر عليه الصلاة والسلام أنه ما من نبى إلا أنذره قومه ، فكل الأنبياء ينذرون قومهم من الدجال، يخوفونهم ويعظمون شأنه عندهم .

وإنما كانوا ينذرون قومهم الدجال مع أن الله يعلم أنه لن يكون إلا فى آخر الدنيا ، من أجل الاهتمام به ، وبيان خطورته ، وأن جميع الملل تحذر منه ؛ لأن هذا الدجال وقانا الله وإياكم فتنته وأمثاله ـ هذا الدجال يأتى إلى الناس ، يدعوهم إلى أن يعبدوه ، ويقول : أنا ربكم ، وإن شئتم أريتكم أنى ربكم ، فيأمر السماء يقول لها : أمطرى فتُمطر ، ويأمر الأرض فيقول لها : أنبتى فتنبت ، أما إذا عَصَوْا أمرَ الأرض فأمحلت والسماء فقحطت ، وأصبح الناس ممحلين ، هذا لا شك أنه خطر عظيم ، لا سيما فى البادية التى لا تعرف إلا الماء والمرعى ، فيتبعه أناسٌ كثيرون إلا من عصم الله .

ومع هذا فله علامات بينة تدل على أنه كذاب :

منها : أنه مكتوب بين عينيه كافر (ك . ف . ر) [1] يقرأها المؤمن فقط وإن كان لا يعرف القراءة ، ويعجز عنها الكافر وإن كان يقرأ ؛ لأن هذه الكتابة ليست كتابة عادية ، إنما هى كتابة إلهية من الله عز وجل .

ومن علاماته : أنه أعور العين اليمنى ، والرب عز وجل ليس بأعور ، الرب عز وجل كامل الصفات ، ليس فى صفاته نقص بوجه من الوجوه ، أمَّا هذا فإنه أعور ، عينه اليمنى كأنها عنبة طافية ، وهذه علامة حسية واضحة كلٌّ يعرفها .

فإن قال قائل : إذا كان فيه العلامة الحسية فكيف يُفتن الناس به ؟ نقول : إن الله قال فى كتابه : ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ١٠١] . الذين أضلهم الله لا تنفعهم علامات الضلال تحذيرًا ، ولا علامات الهدى تبشيرًا ، ولا يستفيدون من آيات الله ودلائل وحدانيته وألوهيته ، وإن كانت العلامات ظاهرة .

ثم بين الرسول ـ ﷺ ـ أن هذه العلامات لا تخفى على أحد ، وبين فى حديث آخر أنه إن خرج والنبى ـ ﷺ ـ فيهم فهو حجيجه دونهم يحجه النبى ـ ﷺ ـ ويكشف زيغه وضلاله قال : « **وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيجُ نفسه والله خليفتى على كل**

---

(١) البخارى (٧) مسلم (١٦٦) .

Marfat.com

مسلم»[١] . فوكل الله عز وجل .

فالحاصل أن الرسول عليه الصلاة والسلام حذر من الدجال تحذيرًا بالغًا ، وأخبر أن الدجال الأكبر يخرج فى آخر الزمان ، ويبقى فى الأرض أربعين يومًا فقط، ولكن اليوم الأول كسنة « اثنا عشر شهرًا » تبقى الشمس فى أوج السماء ستة أشهر من المشرق إلى المغرب ما تغيب هذه الفترة الطويلة ، وتبقى غائبة ليلاً ستة أشهر ، هذا أول يوم ، واليوم الثانى كشهر ، والثالث كجمعة ، وبقية الأيام كسائر الأيام سبعة وثلاثون يومًا كسائر الأيام.

لما حدث النبى - ﷺ - الصحابة بهذا الحديث ، لم يستشكلوا كيف تبقى الشمس سنة كاملة ما تدور على الأرض ، وهى تدور عليها فى كل أربع وعشرين ساعة ، فقدرة الله فوق ذلك ، وأن الله على كل شىء قدير ، والصحابة لا يسألون فى الغالب عن المسائل الكونية والقدرية ؛ لأنهم يعلمون قدرة الله عز وجل ، لكن يسألون عن الأمور التى تهمهم ، وهى الأمور الشرعية ، فلما حدَّثهم بأن اليوم الأول كسنة : قالوا : يا رسول الله اليوم الذى كسنة ، هل تكفينا فيه صلاة واحدة ؟ قال : « **لا ، اقدروا له قدره** »[٢] يعنى قدروا ما بين الصلاتين وصلوا .

مثلاً : إذا طلع الصبح نصلى الصبح ، إذا انقضى الوقت ما بين الصبح والزوال صلينا الظهر ، حتى لو كانت الشمس فى أول المشرق ، وهى تكون أول المشرق ؛ لأنها تبقى ستة أشهر كاملة ، فيقدرون له قدره ، إذن نصلى فى اليوم الأول صلاة سنة ، والصيام نصوم شهرًا ، ونقدر للصوم ، والزكاة كذلك وهذا ربما يلغز بها فيقال : « **مال لم يمض عليه إلا يوم وجبت فيه الزكاة** » .

كذلك اليوم الثانى نقدر فيه صلاة شهر ، والثالث صلاة أسبوع ، وبعده تعود الأيام كما هى ، وفى إلهام الله للصحابة أن يسألوا هذا السؤال عبرة ؛ لأنه يوجد الآن فى شمالى الأرض وجنوبى الأرض ، يوجد أناسٌ تغيب عنهم الشمس ستة أشهر ، وتطلع عليهم ستة أشهر ، لولا هذا الحديث لأشكل على الناس ، كيف يُصلى هؤلاء ، وكيف يصومون ، لكن الآن نطبق هذا الحديث على حال هؤلاء فنقول : هؤلاء الذين تكون الشمس عندهم ستة أشهر كاملة يقدرون للصلاة وقتها ، كما أرشد النبى - ﷺ - الصحابة فى أيام الدجال.

* * *

(١) مسلم (٢٩٣٧) أبو داود (٤٣٢١) أحمد (٤/ ١٨١) .
(٢) مسلم (٢٩٣٧) أبو داود (٤٣٢١) .

Marfat.com

[٢٠٦/٤] وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « **مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ** » متفق عليه .

[٢٠٧/٥] وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ** » ثُمَّ قرأ : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ (هود: ١٠٢) متفقٌ عليه .

الشرح

نقل المؤلف عن عائشة رضي الله عنها أن النبي - ﷺ - قال : « **من ظَلَمَ من الأرض قيد شبر طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين** » هذا الحديث يتناول نوعًا من أنواع الظلم وهو الظلم فى الأراضى ، وظلم الأراضى من أكبر الكبائر ؛ لأن النبى - ﷺ - « **لعن من غير منار الأرض** »[1] قال العلماء : منار الأرض حدودها ؛ لأنه مأخوذ من « المنور » وهو العلامة، فإذا غير الإنسان من هذه الأرض ، بأن أدخل شيئًا من هذه الأرض إلى أرض غيره ، فإنه ملعون على لسان النبى - ﷺ - ، واللعنة : الطرد والإبعاد عن رحمة الله .

وثمةَ عقوبة أخرى ، وهو ما ذكره فى هذا الحديث ؛ أنه إذا ظلم قَيْد شبر طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين ؛ لأن الأرضين سبع ، كما جاءت به السنة صريحًا ، وكما ذكره الله تعالى فى القرآن إشارة فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] . ومعلوم أن المماثلة هاهنا ليست فى الكيفية ؛ لأن بين السماء والأرض من الفرق كما بينهما من المسافة ، السماء أكبر بكثير من الأرض ، وأوسع ، وأعظم ، قال الله تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات : ٤٧] . أى بقوة، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ : ١٢] أى قوية .

فالإنسان إذا ظلم قيد شبر من الأرض فإنه يطوق من سبع أرضين يوم القيامة ، أى يجعل له طوقًا فى عنقه والعياذ بالله ، يحمله أمام الناس أمام العالم ، يخزى به يوم القيامة وقول : « **قيد شبر من الأرض** » ليس هذا على سبيل القيد ، بل هو على سبيل المبالغة يعنى، فإن ظلم ما دونه طُوِّقه أيضًا ، لكن العرب يذكرون مثل هذا للمبالغة ، يعنى ولو كان شيئًا قليلاً فإنه سيطوقه يوم القيامة .

[٢٠٦/٤] صحيح : رواه البخارى (٢٤٥٣) ، ومسلم (١٦١٢) .

[٢٠٧/٥] صحيح : رواه البخارى (٤٦٨٦) ، ومسلم (٢٥٨٣) .

(١) مسلم (١٩٧٨) النسائى (٧/ ٢٣٢) أحمد (١/ ١٠٨ ، ١١٨) .

Marfat.com

وفى هذا الحديث : دليل على أن مَن ملك الأرض ملك قعرها إلى الأرض السابعة ، فليس لأحد أن يضع نفقًا تحت أرضه إلا بإذنه ، يعنى لو فرض أن لك أرضًا مسافتها ثلاثة أمتار بين أرضٍ لجارك ، فأراد جارك أن يفتح نفقًا بين الأرضين ويمر من تحت أرضك، فليس له الحقُّ فى ذلك ؛ لأنك تملك الأرض وما تحتها إلى الأرض السابعة ، كما أن الهواء لك إلى السماء ، فلا أحد يستطيع أن يبنى على أرضك سقفًا إلا بإذنك . ولهذا قال العلماء : الهواء تابع للقرار ، والقرار ثابت إلى الأرض السابعة ، فالإنسان له من فوق ومن تحت ، لا أحد عليه يتجرأ .

قال أهل العلم : ولو كان عند جارك شجرة ، فامتدت أغصانها إلى أرضك ، وصار الغصن إلى أرضك ، فإن الجار يلويه عن أرضك ، وإن لم يمكن ليُّه فإنه يُقطع ، إلا بإذن منك وإقرار ؛ لأن الهواء لك وهو تابع للقرار .

أما حديث أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه فقد قال النبى - ﷺ - : « **إن الله ليُملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته** » يملى له : يعنى يُمهل له حتى يتمادى فى ظلمه والعياذ بالله ، فلا يعجل له العقوبة ، وهذا من البلاء نسأل الله أن يعيذنا وإياكم ، فمن الاستدراج أن يُملى للإنسان فى ظلمه ، فلا يُعاقب له سريعًا حتى يتكدس على الإنسان المظالم ، فإذا أخذه الله لم يُفلته ، أخذه أخذ عزيز مقتدر ، ثم قرأ النبى - ﷺ - ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود : ١٠٢] .

فعلى الإنسان الظالم أن لا يغتر بنفسه ولا بإملاء الله له ، فإن ذلك مُصيبة فوق مصيبته لأن الإنسان إذا عوقب بالظلم عاجلاً ، فربما يتذكر ويتعظ ويدع الظلم ، لكن إذا أملى له واكتسب آثامًا أو ازداد ظلمًا ، ازدادت عقوبته والعياذ بالله فيؤخذ على غرة ، حتى إذا أخذه الله لم يفلته ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الاعتبار بآياته ، وأن يعيذنا وإياكم من ظلم أنفسنا ومن ظلم غيرنا إنه جواد كريم .

* * *

[٦/٢٠٨] وعن معاذ رضي الله عنه قال : بَعثنى رسول الله ﷺ فقال : « **إنَّكَ تَأتى قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكتَاب ، فادْعُهُمْ إلى شَهَادَة أنْ لا إلهَ إلا الله ، وأنِّى رسول الله ، فَإنْ هُمْ أطَاعُوا لذلكَ ، فَأعْلمْهُمْ أنَّ الله قَد افْتَرضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوات فى كل يَوم ولَيْلَة ، فإنْ هُمْ أطَاعُوا لذلكَ فأعْلمْهُمْ أنَّ اللهَ قد افترضَ عَلَيهم صَدَقةً تُؤخَذُ منْ أغنيائهمْ** »

[٦/٢٠٨] صحيح : رواه البخارى (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩) .

Marfat.com

فَتَرَدُّ عَلَى فُقَرائهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطاعُوا لذلك ، فَإِيَّاكَ وَكَرائمَ أمْوالِهِمْ ، واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْس بَيْنَهَا وبَيْنَ الله حِجَابٌ » متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله من حديث معاذ بن جبل ﷺ قال : بعثني رسول الله ـ ﷺ ـ إلى اليمن ، وكانت بعثته إياه في ربيع في السنة العاشرة من الهجرة، بعثه ـ ﷺ ـ إلى اليمن ، وكانوا أهل كتاب ، وقال له : « **إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب**» أخبره بحالهم لكي يكون مستعدًا لهم ؛ لأن الذي يجادل أهل الكتاب لابد أن يكون معه من الحجة أكثر وأقوى مما عند المشرك ؛ لأن المشرك جاهل ، والذي هو من أهل الكتاب عنده علم ، وأيضًا أعلَمَه بحالهم ، لِيُنْزِلهم مَنْزِلتهم ، فيجادلهم بالتي هي أحسن .

ثم وجهه عليه الصلاة والسلام في أن أول ما يدعوهم إليه : التوحيد والرسالة ، قال له : « **ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله** » أن يشهدوا أن لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى : فهو المستحق للعبادة ، وما عداه فلا يستحق العبادة، بل عبادته باطلة ، كما قال تعالى : ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ** الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان : ٣٠] . « **وأني رسول الله** » ، يعني مرسَلَهُ الذي أرسله إلى الإنس والجن ، وختم به الرسالات ، ومن لم يؤمن به فإنه من أهل النار.

ثم قال له : « **فإن هم أطاعوا لذلك** » يعني شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله « **فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كلِّ يوم وليلة**» وهي الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر ، لا يجب شيء من الصلوات اليومية إلا هذه الخمس ، فالسنن الرواتب ليست بواجبة ، والوتر ليس بواجب ، وصلاة الضحى ليست بواجبة ، وأما صلاة العيد والكسوف فإن الراجح هو القول بوجوبهما ؛ وذلك لأمرٍ عارض له سببٌ يختصُّ به .

ثم قال له : « **فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم** » وهذه هي الزكاة ، الزكاة صدقة واجبة في المال تؤخذ من الغني وترد في الفقير ، والغني هنا من يملك نصابًا زكويًا ، وليس الغنى هنا الذي يملك المال الكثير، بل مَنْ يملك نصابًا فهو الغني ، ولو لم يكن عنده إلا نصابًا واحدًا ، فإنه غني ، وقوله : « **تردّ في فقرائهم** » أي تصرف في فقراء البلد ؛ لأن فقراء البلد أحقُ من تصرف إليهم صدقات أهل البلد .

ولهذا يخطئ قوم يُرسلون صدقاتهم إلى بلاد بعيدة ، وفي بلادهم مَن هو محتاج ،

Marfat.com

فإن ذلك حرام عليهم ، لأن النبي ﷺ قال : « لا تؤخذ من أغنيائهم فتُرد في فقرائهم » ولأن الأقربين أولى بالمعروف ، ولأن الفقراء يعرفون المال الذي عندك ، ويعرفون أنك غني ، فإذا لم ينتفعوا بمالك فإنه يقع في قلوبهم من العداوة والبغضاء ، ما تكون أنت النصيب فيه ، وربما إذا رأوا أنك تخرج صدقتك إلى بلاد بعيدة وهم محتاجون ، ربما يعتدون عليك ، ويفسدون أموالك ، ولهذا كان من الحكمة أنه ما دام في أهل بلدك من هو في حاجة ألا تصرف صدقتك إلى غيرهم .

ثم قال له ـ ﷺ ـ « **فإن هم أطاعوا لذلك** » يعني انقادوا ووافقوا ، « **فإياك وكرائم أموالهم** » يعني لا تأخذ من أموالهم الطيب ، ولكن خذ المتوسط ، لا تظلم ولا تُظلم « **واتق دعوة المظلوم** » يعني أنك إذا أخذت من نفائس أموالهم ، فإنك ظالم لهم ، وربما يدعون عليك ، فاتق دعوتهم ، « **فإنه ليس بينها وبين الله حجاب** » تصعد إلى الله تعالى ، ويستجيبها ، وهذا هو الشاهد من هذا الحديث في الباب الذي ذكره المؤلف فيه ، أن الإنسان يجب عليه أن يتقي دعوة المظلوم .

ويستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة ، منها ما يتعلق بهذا الباب ، ومنها ما يتعلق بغيره ، فينبغي أن نعلم أولاً أن الكتاب والسنة نزلا ليحكما بين الناس فيما اختلفوا فيه ، والأحكام الشرعية من الألفاظ ، بما دلت عليه منطوقًا ومفهومًا وإشارة ، والله سبحانه وتعالى يفضل بعض الناس على بعض في فهم كتابه وسنة رسوله ـ ﷺ ـ ولهذا لما سأل أبو جحيفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هل عهد إليكم رسول الله ـ ﷺ ـ شيئًا ؟ قال : لا ، إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى من شاء في كتاب الله ، وما في هذه الصحيفة . وبين له ما في تلك الصحيفة فقال : « العقل ، وفكاك الأسير ، وألا يُقتل مسلمٌ بكافر » (1) الشاهد قوله : إلا فهمًا يؤتيه الله من شاء في كتاب الله .

فالناس يختلفون ، والذي ينبغي لطالب العلم خاصة ، أن يحرص على استنباط الفوائد والأحكام من نصوص الكتاب والسنة ؛ لأنها هي المورد المعين ، فاستنباط الأحكام منهما بمنزلة الرجل يرد على الماء فيستسقي منه في إنائه فمقل ومكثر .

وهذا الحديث العظيم الذي بين فيه معاذ بن جبل رضي الله عنه بماذا بعثه النبي ـ ﷺ ـ على أهل اليمن فيه فوائد كثيرة منها :

أولاً : وجوب بعث الدعاة إلى الله ، وهذا من خصائص ولي الأمر ، فيجب على ولي أمر المسلمين أن يبعث الدعاة إلى الله في كل مكان ، كل مكان يحتاج إلى الدعوة ، فإن

---

(1) البخاري (111) الترمذي (1412) .

Marfat.com

على ولى أمر المسلمين أن يبعث من يدعو الناس إلى دين الله عز وجل ؛ لأن هذا دأب النبى - ﷺ - وهديه أن يبعث الرسل يدعون إلى الله عز وجل .

ومنها : أنه ينبغى أن يُذكر للمبعوث حال المبعوث إليه ، حتى يتأهب لهم ، وينزِلهم منازلهم ، لئلا يأتيهم على غرة ، فيوردون عليه من الشبهات ما ينقطع به ، ويكون فى هذا مضرة عظيمة على الدعوة ، فينبغى على الداعى أن يكون على أُهْبة واستعداد لما يلقيه إليه المدعوون ، حتى لا يأتيه الأمر على غرة ، فيعجز وينقطع وحينئذٍ يكون فى ذلك ضررٌ على الدعوة .

ومنها : أن أول ما يُدعى إليه الناس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وذلك قبل كل شيء ، لا تقل للكفار مثلاً إذا أتيت لتدعوهم : اتركوا الخمر ، اتركوا الزنى، اتركوا الربا ، هذا غلط ، أصل الأصل أولاً ، ثم فرع الفروع ، فأول ما تدعو : أن تدعو إلى التوحيد والرسالة ؛ أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم بعد ذلك عليك ببقية أركان الدين الأهم فالأهم .

ومنها : أنه إذا كان المدعوُّ فاهمًا للخطاب ، فلا يحتاج إلى شرح ، فإنه قال: « **أن تدعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله** » ولم يشرحها لهم ؛ لأنهم يعرفون معناها، لسانهم لسانٌ عربى ، لكن لو كنا نخاطب بذلك مَن لا يعرف المعنى ، وجب أن نُفهمه المعنى ؛ لأنه إذا لم يفهم المعنى لم يستفد من اللفظ ، ولهذا لم يُرسل الله تعالى رسولاً إلا بلسان قومه ولغتهم ، حتى يبين لهم ، فمثلاً إذا كنا نخاطب شخصًا لا يعرف معنى لا إله إلا الله ، فلابد أن نشرحها له ، ونقول : معنى لا إله إلا الله ، أى : لا معبود حقٌّ إلا الله، كلٌّ ما عبد من دون الله فهو باطل ، كما قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ [لقمان : ٣٠] .

كذلك أيضًا : « **أن محمداً رسول الله** » لا يكفى أن يقولها الإنسان بلسانه أو يسمعها بأذنه ، دون أن يفقهها بقلبه ، فيبين له معنى أن محمداً رسول الله ، فيُقال مثلاً : محمد هو ذلك الرجل الذى بعثه الله عز وجل من بنى هاشم ، بعثه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسله بالهدى ودين الحق ، فبين للناس كلَّ خير ، ودعاهم إليه ، وبيّن لهم كل شر وحذرهم منه ، وهو رسول الله الذى يجب أن يصدَّق فيما أخبر ، ويُطاع فيما أمر، ويُترك ما عنه نهى وزجر .

ويبين لنا أيضًا ، بأنه رسول وليس برب ، وليس بكذاب ، بل هو عبدٌ لا يُعبد ، ورسول لا يُكذب صلوات الله وسلامه عليه .

Marfat.com

ويُبين له أيضًا أن هاتين الشهادتين هما مفتاح الإسلام ، ولهذا لا تصح أى عبادة إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

ومن فوائد هذا الحديث : أن أهم شيء بعد الشهادتين هى الصلاة ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة** » .

ومن فوائده : أن الوتر ليس بواجب ، لأن النبى ـ ﷺ ـ لم يذكره ، ولم يذكر إلا خمس صلوات فقط ، وهذا القول هو القول الراجح من أقوال أهل العلم ، ومن العلماء مَن قال : إن الوتر واجب، ومنهم مَن فصل وقال : مَن كان له وِردٌ من الليل وقيام من الليل ، فالوتر عليه واجب ، ومن لا فلا .

والصحيح أنه ليس بواجب مطلقًا ؛ لأنه لو كان واجبًا لبينه الرسول ـ ﷺ ـ .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الزكاة واجبة وهى فرض من فروض الإسلام ، وهى الركن الثالث من أركان الإسلام ، والثانى بعد الشهادتين . ولهذا قال : « **أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم** » .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الزكاة واجبة فى المال لا فى الذمة ، لكن الصحيح أنها واجبة فى المال ، ولها تعلق بالذمة ، ويتفرع على هذا فوائد :

منها : لو قلنا إنها واجبة فى الذمة لسقطت الزكاة على مَن عليه دين ؛ لأن محل الدين الذمة ، وإذا قلنا محل الزكاة الذمة ، وكان عليه ألف وبيده ألف ، لم تجب عليه الزكاة ؛ لأن الحقين تعارضا والصحيح أنها واجبة فى المال لقوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة :١٠٣]. وقال فى هذا الحديث : « **أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة فى أموالهم** » لكن لها تعلق بالذمة ، بمعنى أنها إذا وجبت وفرط الإنسان فيها فإنه يضمن .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أن الزكاة لا تجب على الفقير ، لقوله : « **من أغنيائهم فترد فى فقرائهم** » ولكن مَن هو الغنى ؟ أهو الذى يملك ملايين ؟ الغنى فى هذا الباب هو الذى يملك نصابًا ، إذا ملك الإنسان نصابًا فهو غنى تجب عليه الزكاة ، وإن كان قد يكون فقيرًا من وجه آخر ، لكنه غنى من حيث وجوب الزكاة عليه .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الزكاة تُصرف فى فقراء البلد ؛ لقوله : « **فترُد فى فقرائهم** » ولا تُخرج عن البلد إلا لسبب ، أما ما دام فى البلد مستحقون ، فإنهم أولى من غيرهم . وقد حرم بعض العلماء إخراج الزكاة عن البلد إذا كان فيهم مستحقون ، واستدل بهذا الحديث ، وبأن فقراء البلد تتعلق أنفسُهم بما عند أغنيائهم ، وبأن الأغنياء إذا صرفوها إلى خارج البلد ربما يعتدى الفقراء عليهم ، ويقولون : حرمتمونا من حقنا ، فيتسلطون

Marfat.com

عليهم بالنهب والإفساد ، ولا شك أنه من الخطأ أن يخرج الإنسان زكاة ماله إلى البلاد البعيدة ، مع وجود مستحق فى بلده ؛ لأن الأقارب أولى بالمعروف ، والمراد بالصدقة فى هذا الحديث هى الزكاة ، وهى بذل النصيب الذى أوجبه الله تعالى فى الأموال الزكوية.

وسميت صدقة لأن بذل المال دليل على صدق باذله ، وذلك أن المال محبوب إلى النفوس كما قال الله تعالى : ﴿ وتحبون المال حبًا جمًا ﴾ [الفجر : ٢٠] والإنسان لا يبذل المحبوب إلا لما هو أحب منه ، فإذا كان هذا الرجل أو المرأة بذل المال مع حبه له ، دل ذلك على أنه يحب ما عند الله أكثر من حبه لماله ، وهو دليل على صدق الإيمان ، وفى قوله : « تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » دليل على أن لولى الأمر أن يأخذ الزكاة من أهلها ويصرفها فى مصارفها ، وأنه إذا فعل ذلك برئت الذمة .

ولكن لو قال قائل : أنا لا آمن أن يتلاعب بها من يأخذها ثم يصرفها فى غير مصرفها ، نقول له : أنت إذا أديت ما عليك فقد برئت ذمتك سواء صرفت فى مصارفها أو لم تصرف ، لكن قال الإمام أحمد : إذا رأى أن الإمام لا يصرفها فى مصرفها ، فلا يعطيه إلا إذا طلب منه ذلك ، وألزمه به ، وحينئذ تبرأ ذمته ، وبناء على هذا فلا بأس أن يخفى الإنسان شيئًا من ماله إذا كان الذى يأخذها لا يصرفها فى مصارفها ؛ لأجل أن يؤدى هو نفسه الزكاة الواجبة عليه .

وإذا قُدر أن ولى الأمر أخذ أكثر مما يجب فإن ذلك ظلم لا يحل لولى الأمر ، أما صاحب المال فعليه السمع والطاعة ؛ لقول النبى ـ ﷺ ـ : « اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك »[1] .

وإذا قدر أن ولى الأمر أخذ دون الواجب ، وجب على صاحب المال أن يخرج البقية ، ولا يقول : إنه أخذ منى وبرئت الذمة ؛ لأنه إذا كانت الزكاة ألفًا وأخذ ثمانمائة فعليك أن تكمل المائتين فتخرجها .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه يجوز صرف الزكاة فى صنف واحد من أصناف الزكاة ، وأصناف الزكاة ثمانية : الفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل ، فإذا أداها المزكى إلى صنف من هذه الأصناف أجزأه ، بل إذا أداها إلى فرد من أفراد هذه الأنواع أجزأ . مثل لو أعطى مزكٍّ زكاته كلها فقيرًا واحدًا ، [illegible] ألف ريال [illegible] وكانت مائة ألف ريال [illegible] .

---

(١) مسلم (١٨٤٧/٤٧) .

وعليه فيكون معنى قوله تعالى : ﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ بيان المصارف فقط ، ولا يجب أن تعطي كل الأصناف الثمانية ، ولا يجب أن تعطي ثلاثة من كل صنف ، بل إذا أديتها لواحد من صنف واحد أجزأ ذلك كما في هذا الحديث.

ويُستفاد منه أن الزكاة تُصرف في بلدها أي في بلد المال ، وقد سبق ذكر ذلك وبيان أنه لا يجوز أن تخرج الزكاة عن البلد الذي فيه المال ، إلا إذا كان هناك مصلحة أو حاجة أكثر ، وأما ما دام فيه مستحقون فلا يُخرجها ، بل يؤدى الزكاة في نفس البلد.

وفي الحديث أيضًا : دليل على تحريم الظلم ، وأنه لا يجوز للساعي على الزكاة أن يأخذ أكثر من الواجب ، ولهذا حذر النبي - ﷺ - معاذًا ، فقال له : « إياك وكرائم أموالهم » الكرائم ، جمع كريمة وهي الحسنة المرغوبة.

وفيه دليل على أن دعوة المظلوم مُستجابة لقوله : « فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ».

وفيه دليل على أنه يجب على الإنسان أن يتقي الظلم ويخاف من دعوة المظلوم ؛ لأن الرسول - ﷺ - أمر بذلك ، قال : « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ».

* * *

[٨/ ٢١٠] وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من عرضه أو من شيء ، فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه » رواه البخاري.

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي - ﷺ - قال : « من كان عنده مظلمة لأخيه ، من عرضه أو غيره فليتحلله منه اليوم - يعني في الدنيا - قبل ألا يكون دينار ولا درهم » وذلك يوم القيامة ، فإنه في الدنيا يمكن أن يتحلل الإنسان من المظالم التي عليه بأدائها إلى أهلها ، أو استحلالهم منها ، لكن في الآخرة ليس هناك شيء إلا الأعمال الصالحة ، فإذا كان يوم القيامة اقتص من الظالم للمظلوم من حسناته ، يؤخذ من حسناته التي هي رأس ماله في ذلك اليوم ، فإن بقي منه شيء وإلا أخذ من

[٨/ ٢١٠] صحيح : رواه البخاري (٢٤٤٩) .

Marfat.com

سيئات المظلوم ، وحملت على الظالم والعياذ بالله ، فازداد بذلك سيئات إلى سيئاته .

وظاهر هذا الحديث أنه يجب على الإنسان أن يتحلل من ظلم أخيه حتى فى العرض، سواء علم أم لم يعلم ، وذلك أن المظالم إما أن تكون بالنفس ، أو بالمال، أو بالعرض، لقول النبى - ﷺ - « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم** »(١) .

فإن كانت بالنفس مثل أن يكون قد جنى عليه ، أو ضربه حتى جرحه ، أو قطع عضوًا من أعضائه أو قتل له قتيلاً ، فإنه يتحلل منه بأن يمكن صاحب الحق من القصاص، أو من بذل الذمة ، إذا لم يكن القصاص ، أو اختيرت الدية .

أما إن كانت فى المال فإنه يعطيه ماله ، إذا كان عنده مال لأحد ، فالواجب أن يعطيه صاحبه ، فإن غاب عنه ولم يعرف مكانه وأيس منه فإنه يتصدق به عنه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ويؤدى إلى صاحب الحق حقه ، وإن كان قد مات - أى : صاحب الحق ، فإنه يوصله إلى ورثته ؛ لأن المال بعد الموت ينتقل إلى الورثة ، فلابد أن يسلمه للورثة، فإن لم يعلمهم بأن جهلهم ولم يدر عنهم تصدق به عنهم ، والله تعالى يعلمهم ويعطيهم حقهم .

أما إن كانت فى العرض مثل أن يكون قد [illegible] شخصًا فى مجالس أو اغتابه ، فلابد أن يتحلل منه إذا كان قد علم بأنه سبه ، فيذ[illegible] ، ويقول : أنا فعلت كذا وفعلت كذا، وأنا جئتك معتذرًا ، فإن عذره فهذا من نعمة الله على الجميع ؛ لأن الله يقول : ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] . وإن لم يعف فليعطه مالاً ، يشبعه من المال حتى يحلله ، فإن أبى فإن الله تعالى إذا علم أن توبة الظالم توبة حقيقية ، فإنه سبحانه وتعالى يرضى المظلوم يوم القيامة.

وقال بعض العلماء فى مسألة العرض : إن كان المظلوم لم يعلم فلا حاجة أن يعلمه، مثل أن يكون قد سبه فى مجلس من المجالس ، وتاب فإنه لا حاجة أن يعلمه ، ولكن يستغفر له ويدعو له ، ويثنى عليه بالخير فى المجالس التى كان يسبه فيها ، وبذلك يتحلل منه .

والمهم أن الأمر خطير ، وحقوق الناس لابد أن تعطى لهم ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

* * *

(١) البخارى (٦٧) مسلم (١٦٧٩) .

Marfat.com

[٩/ ٢١١] وعن عبد الله بن عَمْرو بن العَاص رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «المُسْلمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ» متفق عليه.

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي - ﷺ - قال: «المسلم من سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ ويَدِهِ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهى الله عَنْهُ».

والمسلم يطلق على معان كثيرة، منها المستسلم، فالمستسلم لغيره يقال له: مسلم، ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. أي: قولوا استسلمنا، ولم نقاتلكم، والقول الثاني في الآية: إن المراد بالإسلام، الإسلام لله عز وجل وهو الصحيح.

والمعنى الثاني: يطلق الإسلام على الأصول الخمسة التي بينها النبي - ﷺ - لجبريل حين سأله عن الإسلام، فقال: «أن تشهد ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت»[1].

ويطلق الإسلام على السلامة، يعني أن يسلم الناس من شره، فيقال: أسلم بمعنى دخل في السلم، أي: المسالَمة للناس، بحيث بلا يؤذي الناس، ومنه هذا الحديث: «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانه ويَدِه» سلم المسلمون من لسانه فلا يسبهم، ولا يلعنهم، ولا يغتابهم، ولا ينم بينهم، ولا يسعى بينهم بأي نوع من أنواع الشر والفساد، فهو قد كف لسانه، وكف اللسان من أشد ما يكون على الإنسان، وهو من الأمور التي تصعب على المرء وربما يستسهل إطلاق لسانه.

ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل: «أفلا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا»، قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ـ يعني: هل نؤاخذ بالكلام؟ ـ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتِهم»[2].

[٩/ ٢١١] صحيح: رواه البخاري (١/ ١٠)، ومسلم (٤٠).

(١) البخاري (٤٤٤٧) مسلم (٨).

(٢) الترمذي (٢٦١٦) ابن ماجه (٣٩٧٣) وصححه الألباني في الإرواء (٤١٣).

Marfat.com

... من أشد الجوارح خطراً على الإنسان، ولهذا إذا أصبح الإنسان فإن الجوارح: اليدين والرجلين والعينين، كل الجوارح تكفر اللسان، وكذلك أيضاً الفرج؛ لأن الفرج فيه شهوة النكاح، واللسان فيه شهوة الكلام، وقل من سلم من هاتين الشهوتين.

فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه أي: كف عنهم، لا يذكرهم إلا بخير، ولا يسب، ولا يغتاب، ولا ينم، ولا يحرش بين الناس، فهو رجل مسالم، إذا سمع السوء حفظ لسانه، وليس كما يفعل بعض الناس والعياذ بالله، إذا سمع السوء في أخيه المسلم طار به فرحًا، وطار به في البلاد نشرًا وإذاعة، فإن هذا ليس بمسلم.

الثاني: من سلم المسلمون من يده، فلا يعتدى عليهم بالضرب، أو الجرح، أو أخذ المال، أو ما أشبه ذلك، قد كف يده لا يأخذ إلا ما يستحقه شرعًا، ولا يعتدي على أحد، فإذا اجتمع للإنسان سلامة الناس من يده ومن لسانه فهذا هو المسلم.

وعلم من هذا الحديث أن من لم يسلم الناس من لسانه أو يده فليس بمسلم، فمن كان ليس له هم إلا القيل والقال في عباد الله، وأكل لحومهم وأعراضهم، فهذا ليس بمسلم، وكذلك من كان ليس له هم إلا الاعتداء على الناس بالضرب، وأخذ المال وغير ذلك مما يتعلق باليد، فإنه ليس بمسلم.

هكذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام، وليس إخبار النبي ﷺ لمجرد أن نعلم به فقط، بل لنعلم به ونعمل به، وإلا فما الفائدة من كلام لا يعمل به، إذن فاحرص إن كنت تريد الإسلام حقا على أن يسلم الناس من لسانك ويدك، حتى تكون مسلمًا حقًا، أسأل الله أن يكفينا ويكفر عنا، ويعافينا ويعفو عنا، إنه جواد كريم.

* * *

[...] عنهما قال: كان على ثَقَلِ النبيِّ ﷺ رجلٌ يقال له كِرْكِرَةُ، فمات، فقال رسول الله ﷺ: «هو في النار» فذهبوا ينظرون إليه فوجدوا عباءة قد غَلَّها. رواه البخاري.

[٢١٣/١١] وعن أبى بكرة نفيع بن الحارث رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الزَّمانَ قد استدارَ كهيئته يومَ خَلَقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ: السنةُ اثنا عشرَ شهراً، منها أربعةٌ حُرُمٌ: ثلاثٌ متوالياتٌ: ذو القَعْدة، وذو الحجة، والمُحرَّم، ورَجَبُ مُضَرَ الذي بين جُمادَى وشَعْبانَ، أيُّ شهرٍ هذا؟» قُلنا: اللهُ ورسولُه أعلمُ، فسكت

[٢١٣/١١] صحيح: رواه البخاري (٤٦٦٢)، (٧٠٧٨)، ومسلم (١٦٧٩).

حتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ سيُسَمِّيه بغيرِ اسمه ، قَال : « أليْسَ ذَا الحجَّة ؟ » قُلْنَا : بلَى ، قال : «فأيُّ بلَد هذا ؟ » قُلْنَا : اللهُ ورَسُولُه أعلَمُ ، فَسكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أنَّه سيُسَمِّيه بغير اسْمه، قَالَ : « أليْسَ ذا الحجَّة ؟ » قُلنَا : بلَى . قال : « فأيُّ بلد هذا ؟ » قُلْنَا : اللهُ ورسولهُ أعلَم فسكَتَ حتَّى ظننَّا أنَّه سيُسَمِّيه بغير اسمه، قال: « ألَيْسَ البَلْدَةَ ؟ » قُلْنَا : بلَى ، قال : « فأيُّ يومٍ هذا ؟ » قُلْنَا : اللهُ ورَسُولُهُ أعلَمُ ، فَسكَتَ حتَّى ظَنَنَّا أنَّهُ سيُسَمِّيه بغيرِ اسْمه ، قَال : « ألَيْسَ يومَ النَّحر ؟ » قُلْنا : بلَى ، قال : « فإنَّ دماءَكُمْ وأموَالَكُمْ وأعْرَاضكُمْ عليْكُمْ حرَامٌ ، كَحُرْمَة يوْمكُمْ هذا ، في بلَدكُمْ هذا ، في شَهركُمْ هذا ، وستَلْقونَ ربَّكُم فيسألُكُمْ عَن أعمَالكُمْ ، ألا فلا ترْجعُوا بعْدي كُفَّاراً يَضْرِبُ بعْضُكُمْ رقَابَ بعْض ، ألا ليُبَلِّغ الشَّاهدُ الغَائبَ ، فَلَعلَّ بَعْض مَنْ يبْلُغُه أنْ يكُونَ أوْعَى لَه من بَعْض مَنْ سمعه » ثُمَّ قال : « ألا هَلْ بلَّغت ، ألا هَلْ بلَّغْت ؟ » قُلْنَا : نعَمْ ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبى بكرة نفيل بن الحارث ﷺ أن النبى - ﷺ - خطبهم يوم النحر ، وذلك فى حجة الوداع ، فأخبرهم عليه الصلاة والسلام أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، يعنى أن الزمان وإن كان قد غير وبدل فيه لما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، حيث كانوا يفعلون الشيء فيحلون الحرام ويحرمون الحلال ، يعنى يجعلون الأشهر الحرم فى أشهر أخرى ، فيجلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال ، ولكن صادف فى تلك السنة أن النسيء صار موافقًا لما شرعه الله عز وجل فى الأشهر الحرم .

ثم بين عليه الصلاة والسلام أن عدة الشهور اثنا عشر شهرًا ، وهى : المحرم ، وصفر ، وربيع الأول ، وربيع الثانى ، وجمادى الأولى ، وجمادى الثانية ، ورجب ، وشعبان ، ورمضان ، وشوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة . هذه هى الأشهر الاثنا عشر شهرًا ، التى جعلها الله أشهرًا لعباده منذ خلق السموات والأرض ، كانوا فى الجاهلية يحلون المحرم ، ويحرمون صفر .

وبين عليه الصلاة والسلام ، أن هذه الاثنى عشر شهرًا منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية، وواحد منفرد ، الثلاثة المتوالية هى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، جعلها الله تعالى أشهرًا محرمة ، يحرم فيها أحد على أحد ؛ لأن هذه الأشهر هى أشهر سير الناس

Marfat.com

إلى حج بيت الله ، فجعلها الله عز وجل محرمة لئلا يقع القتال فى هذه الأشهر والناس سائرون إلى بيت الله الحرام ، وهذه من حكمة الله عز وجل .

والصحيح أن القتال ما زال محرمًا ، وأنه لم ينسخ إلى الآن ، وأنه يحرم ابتداء القتال فيها ، يقول النبى عليه الصلاة والسلام : « ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » ، وهو الشهر الرابع وكانوا فى الجاهلية يؤدون العمرة فيه ، فيجعلون شهر رجب للعمرة والأشهر الثلاثة للحج ، فصار هذا الشهر محرمًا يحرم فيه القتال، كما يحرم فى ذى القعدة وذى الحجة والمحرم .

إذن الأشهر السنوية التى جعلها الله لعبادة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، كما فى القرآن الكريم : ذى القعدة وذى الحجة ، والمحرم ، ورجب .

ثم سألهم النبى عليه الصلاة والسلام : « أى شهر هذا ؟ وأى بلد هذا ؟ وأى يوم هذا؟» سألهم عن ذلك من أجل استحضار هممهم ، وانتباهم ؛ لأن الأمر أمر عظيم ، فسألهم : « أى شهر هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ لأنهم استبعدوا أن يسأل النبى - ﷺ - عن الشهر وهو معروف أنه ذو الحجة ، ولكن من أدبهم ﷺ أنهم لم يقولوا هذا شهر ذى الحجة ؛ لأن الأمر معلوم ، بل من أدبهم أنهم قالوا : الله ورسوله أعلم.

ثم سكت لأجل أن الإنسان إذا تكلم ثم سكت انتبه الناس : ما الذى أسكته ؟ وهذه طريقة متبعة فى الإلقاء ، أن الإنسان إذا رأى من الناس الذين حوله عدم إنصات يسكت حتى ينتبهوا ؛ لأن الكلام إذا كان مسترسلاً فقد يحصل للسامع غفلة ، لكن إذا توقف فإنهم سينتبهون ، لماذا وقف .

وسكت النبى عليه الصلاة والسلام ، يقول أبو بكرة : حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، ثم قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قالوا : بلى ، ثم قال عليه الصلاة والسلام: « أى بلد هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، هم يعلمون أنه مكة ، لكن لأدبهم واحترامهم لرسول الله- ﷺ - ، لم يقولوا هذا شىء معلوم يا رسول الله . كيف تسأل عنه ؟ بل قالوا : الله ورسوله أعلم . ثم سكت حتى ظننوا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : « أليس البلدة» والبلدة اسم من أسماء مكة . ثم قال : « أى يوم هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم، مثل ما قالوا فى الأول ، قال : « أليس يوم النحر ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، وهم يعلمون أن مكة حرام ، وأن شهر ذى الحجة حرام ، وأن يوم النحر حرام ، يعنى كلها حرم محترمة .

فقال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ

Marfat.com

هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا » فأكد عليه الصلاة والسلام تحريم هذه الثلاثة : الدماء والأموال والأعراض ، فكلها محرمة . والدماء تشمل النفوس وما دونها ، والأموال تشمل القليل والكثير ، والأعراض تشمل الزنى واللواط والقذف ، وربما تشمل الغيبة والسب والشتم ، فهذه الأشياء الثلاثة حرام على المسلم أن ينتهكها من أخيه المسلم .

فلا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاثة : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة [1] .

الأموال أيضًا حرام ، فلا يحل مال امرىء إلا بطيب نفس منه ، وقال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء:٢٩].

والأعراض أيضًا محترمة ، لا يحل للمسلم أن يغتاب أخاه ، أو أن يقذفه ، بل إن القاذف إذا قذف شخصًا عفيفًا بعيدًا عن التهمة ، وقال : يا زانى ، أو أنت زانى ، أو أنت لوطى ، أو ما أشبه ذلك ، فإما أن يأتى بأربعة شهداء يشهدون على الزنى صريحًا ، وإلا فإن هذا القاذف يعاقب بثلاث عقوبات .

العقوبة الأولى : أن يجلد ثمانين جلدة .

والعقوبة الثانية : ألا تقبل له شهادة أبدًا كلما شهد عند القاضى ترد شهادته ، سواء شهد بالأموال ، أو شهد بالدماء ، أو شهد برؤية الهلال ، أو شهد بأى شىء آخر يرفض القاضى شهادته ويردها [2] .

العقوبة الثالثة : الفسق أن يكون فاسقًا بعد أن كان عدلاً ، فلا يزوج ابنته ولا أخته ولا يتقدم إمامًا فى المسلمين عند كثير من العلماء ، ولا يولى أى ولاية ؛ لأنه صار فاسقًا ، هذه عقوبة من يرمى شخصًا بالزنى أو باللواط .

إلا أن يأتى بأربعة شهداء ، قال الله تعالى : ﴿لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور : ١٣] . حتى لو فرض أن هذا الرجل من أصدق الناس ، ولم يأت بالأربعة شهداء ، فإنه يجلد ثمانين جلدة.

ولهذا شهد أربعة من الرجال ، على رجل بأنه زنى عند عمر بن الخطاب ، فجاءهم عمر فسألهم ، قال للأول : تشهد أنه زنى ؟ قال : نعم ، قال : تشهد أنك رأيت ذكره

---

(١) انظر البخارى (٦٨٧٨) مسلم (١٦٧٦) .

(٢) سورة النور (٤) قد جاء فيها ذلك .

Marfat.com

فى فرجها غائبًا كما يغيب المرود فى المكحلة ؟ قال : نعم ، فجاء بالثانى ، قال : نعم، فجاء بالثالث ، قال : نعم ، فجاء بالرابع فتوقف ، قال : أنا لا أشهد بالزنى ، لكنى رأيت أمرًا منكرًا ، قال : رأيت رجلاً على امرأة يتحرك كتحرك المجامع لكن لا أشهد ، فجلد الثلاثة الأولين على ثمانين جلدة ؛ لأنه تبين أنهم كذبة وأطلق الرابع .

فالأعراض من أشد الأشياء حرمة ، ولهذا كما سمعتم قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور : ٤] هذه هى العقوبة الأولى : ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ وهذه هى الثانية :﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٤] وهذه هى الثالثة : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور : ٥] . يعنى : لا يكونون فساقًا ، لكن بشرط التوبة والإصلاح ، ما يكفى أن يقول: أنا تائب حتى ننظر هل الرجل أصلح أم لم يصلح ؟

إذن جدير بمن كانت هذه حاله أن يؤكده النبى ـ ﷺ ـ فى هذه الخطبة العظيمة، فى مشهد الصحابة ، فى يوم النحر فى منى ، يقول عليه الصلاة والسلام : « **إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا** » . ثم قال : « **ألا لا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض** » لأن المسلمين لو صاروا يضرب بعضهم رقاب بعض صاروا كفاراً ؛ لأنه لا يستحل دم المسلم إلا الكافر، فالمسلم لا يمكن أن يشهر السلاح على أخيه ، لكن لا أحد يشهر السلاح على المسلم إلا الكافر ، ولهذا وصف النبى عليه الصلاة والسلام المسلمين إذا اقتتلوا بأنهم كفار ، قال : «**ألا فلا ترجعوا بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقاب بعض** » .

وهذه المسألة بحسب النصوص فيها تفصيل : إن قاتل المسلم مستحلاً لقتله بغير إذن شرعى فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وإن قاتله بتأويل ، أو لقصد رئاسة ، أو لقصد سلطان ، فهذا لا يكفر كفر ردة ، ولكنه كفر دون كفر ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات : ٩ ، ١٠] . وهذا هو الجمع بين هذه الآية وبين الحديث ، فيقال: إن تقاتل المسلمون مستحلاً كل واحد دم أخيه فهو كافر كفراً مخرجًا عن الملة ، وإن كان لرئاسة أو عصبية أو حمية أو ما أشبه ذلك ، فإنه لا يكفر كفر ردة ، بل يكون كفره كفراً دون كفر، وعليه أن يتوب ويستغفر .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟** » يسأل الصحابة

Marfat.com

ﷺ قالوا : نعم ، أى : بلغت ، فتأمل كيف يقرر النبى عليه الصلاة والسلام ، أنه بلغ فى المواطن العظيمة الكثيرة الجمع ، فى عرفة خطبهم عليه الصلاة والسلام قال: « **ألا هل بلغت ؟** » قالوا : نعم فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس ، يقول : اللهم اشهد عليهم أننى بلغتهم ، وكذلك أشهد ربه على أنه بلغ أمته ، وأقروا بذلك فى يوم النحر.

ونحن نشهد ونشهد الله وملائكته ومن سمعنا من خلقه أن النبى - ﷺ - بلغ البلاغ المبين وأنه بلغ الأمانة وأدى الرسالة ونصح الأمة ، فما ترك خيرًا إلا ودل أمته عليه ، ولا شرًا إلا وحذرهم منه ، وأنه ترك أمته على المحجة البيضاء ، وأنه ما بقى شىء من أمور الدين أو الدنيا تحتاجه الأمة إلا بينه عليه الصلاة والسلام ، ولكن الخطأ ممن يبلغه الخبر ، فهو الذى قد يكون قاصرًا فى فهمه ، وقد يكون له نية سيئة فيحرم الصواب ، وقد يكون هناك أسباب أخرى ، وإلا فالرسول عليه الصلاة والسلام بلغ بلاغًا تامًا كاملاً .

والصحابة ﷺ بلغوا جميع ما سمعوه منه عليه الصلاة والسلام ما كتموا من سنته شيئًا وبلغوا ما جاء به من الوحى ، ولم يكتموا منه شيئًا ، فجاءت الشريعة ولله الحمدك كاملة من كل وجه ، بلغها النبى- ﷺ - عن ربه ثم بلغها الصحابة ﷺ ثم التابعون عمن قبلهم وهكذا إلى يومنا هذا ولله الحمد .

ثم أمر عليه الصلاة والسلام أن يبلغ الشاهد الغائب ، يعنى يبلغ من شهده وسمع خطبته أن يبلغ باقى الأمة ، وأخبر عليه الصلاة والسلام أنه ربما يكون مبلغ أوعى للحديث من سامع ، وهذه الوصية من الرسول عليه الصلاة والسلام وصية لمن حضر فى ذلك اليوم، ووصية لمن سمع حديثه إلى يوم القيامة ، فعلينا إذا سمعنا حديثًا عن الرسول عليه الصلاة والسلام أن نبلغه إلى الأمة .

ونحن مُحملون بأن نبلغ ومنهيون بأن نكون كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، وقد وصفهم الله بأبشع وصف ، فقال : ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**﴾ [الجمعة : ٥] . فالْحمار إذا حمل أسفارًا - يعنى كتبًا - فإنه لا ينتفع منها، إذا كان الْحمار يحمل أسفارًا لا ينتفع منها ، فالذى يحمل القرآن أو السنة ولا ينتفع منها كمثل الْحمار يحمل أسفارًا . نسأل الله أن يرزقنى وإياكم العلم النافع والعمل الصالح .

ويستفاد من هذا الحديث : تحذير النبى عليه الصلاة والسلام أمته من قتال بعضهم بعضًا، ولكن مع الأسف أنه وقع بينهم السيف ، وصارت الفتن منذ عهد عثمان بن عفان

Marfat.com

ﷺ إلى يومنا هذا ، وما زالت الفتن قائمة بين الناس ، لكن أحيانًا تشتعل اشتعالاً واسعًا وأحيانا تكون فى مناطق معينة .

ولكن الواجب على المسلم أن يتقى دم أخيه ما استطاع ، نعم إذا بلى الإنسان بنفسه وصيل عليه يريد الصائل نفسه أو ماله أو حرمته ، فله أن يدافع عن نفسه ، ولكن بالأسهل فالأسهل ، فإن لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتله ، فإن قتله فالصائل فى النار ، وإن قُتل الدافع فهو شهيد ، كما جاء ذلك عن النبى - ﷺ - (١) .

وفى هذا الحديث : تحذير من أعراض المسلمين ، وأنه لا يجوز للمسلم أن ينتهك عرض أخيه ، لا صادقًا ولا كاذبًا ، لأنه إن كان صادقًا فقد اغتابه ، وإن كان كاذبًا فقد بهته ، وأنت إذا رأيت من أخيك شيئًا تنتقده فيه فى عباداته أو فى أخلاقه أو فى معاملاته، فعليك بنصيحته ، فهذه من واجبه عليك ، وتنصحه فيما بينك وبينه مشافهة أو مكاتبة ، وبهذا تبرئ ذمتك .

لكن هنا شيء لابد منه ، وهو أنك إذا أردت أن تناصحه بالمكاتبة فلابد أن تذكر اسمك ، ولا تخاف ولا تكن جبانًا ، اذكر وقل من فلان إلى أخيه فلان بن فلان . . . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد . . . فأنا أنتقد عليك كذا وكذا وكذا ، من أجل أنه إذا عرف اسم دعاك أو أتى إليك وناقشك فى الأمر .

أما أن تكون جبانًا ، ترمى من وراء جدار ، فهذا لا يليق بالمسلم ، وليس هذا بنصح، لأنك ستبقى حاملاً عليه فى قلبك فيما تراه أنه أخطأ فيه ، وهو سيبقى ويستمر على ما هو فيه ؛ لأن الذى كتب له بالنصيحة ليس أمامه حتى يشرح له وجهة نظره ، ويستفسر منه عن وجهة نظره هو الآخر ، فيبقى الشر على ما هو عليه ، والخطأ على ما هو عليه ، لكن إذا كتب اسمه كان مشكورًا على هذا ، وكان بإمكان المكتوب إليه المنصوح أن يخاطبه ، وأن يبين له ما عنده ، حتى يقتنع أحد الرجلين بما عند الآخر.

* * *

[١٢/ ٢١٤] وعن أبى أُمَامَةَ إيَاسِ بن ثَعْلَبَةَ الحَارِثِىِّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **مَن اقتَطَعَ حَقَّ امرئٍ مُسْلم بيمينه فَقَدْ أوْجَبَ الله لَهُ النَّارَ ، وَحرَّمَ عَلَيْه الجَنَّةَ** » فقال رَجُلٌ : وَإنْ كَانَ شَيْئاً يَسيراً يَا رَسُولَ الله ؟ فقال : « **وَإنْ قَضِيباً مِنْ أرَاكٍ** » رواه مسلم .

---

(١) سبق تخريجه .

Marfat.com

[٢١٥/١٣] وعن عدى بن عُمَيْرَةَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : «مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ ، فَكَتَمَنَا مِخْيَطاً فَمَا فَوْقَهُ ، كَانَ غُلُولاً يَأْتِي بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ » فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الأَنْصَارِ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ ، فقال : يا رسول الله ، اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ ، قال : « وَمَالَكَ ؟ » قال : سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وكَذَا ، قال : «وَأَنَا أَقُولُهُ الآنَ : مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذ ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى » رواه مسلم .

[٢١٦/١٤] وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لَمَّا كَانَ يَوْمُ خَيْبَرَ أَقْبَلَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالوا : فُلانٌ شَهِيدٌ ، وفُلانٌ شَهِيدٌ ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فقال : فُلانٌ شهيدٌ ، فقال النبيُّ ﷺ : « كَلا إِنِّي رَأَيْتُهُ فِي النَّارِ فِي بُرْدَةٍ غَلَّهَا ـ أو عَبَاءَةٍ ـ» رواه مسلم .

[٢١٧/١٥] وعن أبي قَتَادَةَ الحارث بن رِبعيٍّ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ ، فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الجِهَادَ فِي سَبِيلِ الله ، وَالإِيمَانَ بالله أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ، فَقَامَ رَجُلٌ فقال : يا رسولَ الله ، أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله ، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ لَهُ رسول الله ﷺ : « نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ الله وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ» ثُمَّ قال رسول الله ﷺ : « كَيْفَ قُلْتَ ؟ » قال : أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله ، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نَعَمْ ، وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غَيْرُ مُدْبِرٍ ، إِلا الدَّيْنَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ قَالَ لِي ذَلِكَ » رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ في بيان فضيلة الجهاد في سبيل الله والشهادة ، فالجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام ، كما أخبر بذلك النبي ـ ﷺ ـ ، والشهادة في سبيل الله تكفر كل شيء إلا الدين ، وكذلك إذا غل الإنسان شيئًا مما غنمه فإنه لا يقال له : شهيد.

والبردة : نوع من الثياب ، والعباءة معروفة ، غلها : يعني كتمها ، غنمها من أموال الكفار وقت القتال ، فكتمها يريد أن يختص بها لنفسه فعذب بها في نار جهنم . وانتفت عنه هذه الصفة العظيمة وهي الشهادة ؛ لأن النبي ـ ﷺ ـ قال : « كلا » يعني ليس

[٢١٦/١٤] صحيح : رواه مسلم (١١٣) .

[٢١٧/١٥] صحيح : رواه مسلم (١٨٨٥) .

Marfat.com

بشهيد؛ لأنه غل هذا الشيء البسيط . فأحبط جهاده وصار فى النار ، قال الله تعالى : ﴿وما كان لنبيٍ أن يغُلَّ ومن يغلل يأتِ بما غلَّ يومَ القيامة﴾ [آل عمران : ١٦١] . ففى هذا دليل على أنه لا ينبغى لنا أن نحكم على شخص بأنه شهيد ، وإن قتل فى معركة بين المسلمين والكفار ، لا نقول : فلان شهيد ؛ لاحتمال أن يكون غل شيئًا من الغنائم أو الفيء ولو غل قرشًا واحدًا ، ولو مسمارًا زال عنه اسم الشهادة ، وكذلك لاحتمال أن تكون نيته غير صواب ، بأن ينوى بذلك الحمية أو أن يرى مكانه .

ولهذا سئل النبى عليه الصلاة عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل ليرى مكانه ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** »(١) والنية أمر باطنى فى القلب لا يعلمه إلا الله .

ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله** » أى : ما من مجروح يجرح فى سبيل الله : « **والله أعلم بمن يكلم فى سبيله** » قد نظن أنه يقاتل فى سبيل الله ونحن لا نعلم ، والله أعلم بمن يُكْلَم فى سبيله ، « **إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثغب دمًا ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك** »(٢) .

ولهذا ترجم البخارى - رحمه الله - فى « صحيحه » قال : باب لا يقال : فلان شهيد، يعنى : لا تعين وتقول : فلان شهيد ، إلا إذا عينه الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو ذكر عند الرسول - ﷺ - وأقره ، فحينئذ يحكم بشهادته بعينه ، وإلا فلا تشهد لشخص بعينه .

ونحن الآن فى عصرنا هذا أصبح لقب الشهادة سهلاً ويسيرًا ، كل يعطى هذا الوسام، حتى لو قتل ونحن نعلم أنه قتل حمية وعصبية ونعلم عن حاله بأنه ليس بذلك الرجل المؤمن ، ومع ذلك يقولون : فلان شهيد ، استشهد فلان .

وقد نهى عمر رضي الله عنه أن يقال : فلان شهيد ، قال : إنكم تقولون : فلان شهيد ، فلان قتل فى سبيل الله ، ولعله يكون كذا وكذا ، يعنى : غل ، ولكن قولوا : من قتل فى سبيل الله أو مات فهو شهيد . عمم ، أما قول : فلان شهيد ، وإن كان فى المعركة يتشحط بدمه ، فلا تقل شهيدًا علمه عند الله ، قد يكون فى قلبه شىء لا نعلمه . ثم نحن شهدنا أو لم نشهد إن كان شهيدًا عند الله فهو شهيد ، وإن لم نقل إنه شهيد ، وإن لم يكن شهيدًا عند الله فليس بشهيد ، وإن قلنا : إنه شهيد ، إذن نقول : نرجو أن يكون

(١) البخارى (٢٨١٠) مسلم (١٩٠٤) .

(٢) البخارى (٥٥٣٣) مسلم (١٨٧٦) .

Marfat.com

فلان شهيدًا ، أو نقول من قتل في سبيل الله فهو شهيد وما أشبه ذلك .

أما الحديث الثاني ففيه دليل على أن الشهادة إذا قاتل الإنسان في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر فإن ذلك يكفر عنه خطيئاته وسيئاته إلا الدين إذا كان عليه دين فإنه لا يسقط بالشهادة ؛ لأنه حق آدمي ، وحق الآدمي لا بد من وفائه .

وفي هذا دليل على عظم الدين ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتساهل به ، ومع الأسف أننا في عصرنا الآن يتساهل الكثير منا في الدين ، فتجد البعض يشتري الشيء وهو ليس في حاجة إليه ويجعله من الأمور الكماليات ، يشتريه في ذمته بالتقسيط أو ما أشبه ذلك ولا يهمه هذه الأمور .

وقد تجد إنسانًا فقيرًا يشتري سيارة بثمانين ألفًا أو يزيد ، وهو يمكنه أن يشتري سيارة بعشرين ألفًا ، كل هذا من قلة الفقه في الدين ، وضعف اليقين ، احرص على ألا تأخذ شيئًا بالتقسيط ، وإن دعتك الضرورة إلى ذلك ، فاقتصر على أقل ما يمكن لك الاقتصار عليه بعيدًا عن الدين . نسأل الله أن يحمينا وإياكم مما يغضبه ، وأن يقضي عنا وعنكم دينه ودين عباده .

* * *

[٢١٨/١٦] وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « أتدرون ما المُفْلِسُ ؟ » قالوا : المُفْلِسُ فينا مَنْ لا درهَمَ لَهُ وَلا مَتاعَ ، فقال : « إنَّ المُفْلِس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتَمَ هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإنْ فَنِيَتْ حسناته قبل أن يَقْضي ما علَيْه ، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّار » رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أتدرون من المفلس ؟ » الاستفهام هنا للاستعلام الذي يراد به الإخبار ؛ لأن المستفهم تارة يستفهم عن جهل ولا يدري فيسأل غيره ، وتارة يستفهم لتنبيه المخاطب لما يلقى إليه ، أو لتقرير الحكم له ، فمثال الثاني قول النبي ﷺ وقد سئل عن بيع الرطب بالتمر

[٢١٨/١٦] صحيح : رواه مسلم (٢٥٨١) . الترمذي (٢٤١٨) .

Marfat.com

« أينقص إذا جف؟ » يعنى الرطب ، قالوا : نعم ، فنهى عن ذلك [١] .

أما فى هذا الحديث فسيخير الصحابة عن أمر لا يعلمونه ، أو لا يعلمون مراد النبى - ﷺ - به ، قال : « أتدرون من المفلس ؟ » قالوا : يا رسول الله ، المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع ، يعنى ليس عنده نقول ولا عنده متاع ، أى : أعيان من المال ، أى : إن المفلس يعنى الفقير ، وهذا هو المعروف من المفلس بين الناس، فإذا قالوا : من المفلس؟ يعنى الذى ليس عنده فلوس ، ولا عنده متاع ، بل هو فقير .

فقال النبى - ﷺ - : « المفلس من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة» وفى رواية: « من يأتى بحسنات مثل الجبال » أى : يأتى بحسنات عظيمة ، فهو عنده ثروة من الحسنات لكنه يأتى وقد شتم هذا ، وضرب هذا ، وأخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، أى : اعتدى على الناس بأنواع الاعتداء ، والناس يريدون أخذ حقهم ، ما لا يأخذونه فى الدنيا يأخذونه فى الآخرة ، فيقتص لهم منه ، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ، وهذا من حسناته بالعدل والقصاص بالحق ، فإن فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار ، والعياذ بالله .

تنقضى حسناته ، ثواب الصلاة ينتهى ، وثواب الزكاة ينتهى ، وثواب الصيام ينتهى ، كل ما عنده من حسنات ينتهى ، فيؤخذ من سيئاتهم ويطرح عليه ، ثم يطرح فى النار ، والعياذ بالله .

وصدق النبى - ﷺ - فإن هذا هو المفلس حقًا ، أما مفلس الدنيا فإن الدنيا تأتى وتذهب ، ربما يكون الإنسان فقيراً فيمسى غنيًا ، أو بالعكس ، لكن الإفلاس كل الإفلاس أن يفلس الإنسان من حسناته التى تعب عليها ، وكانت أمامه يوم القيامة يشاهدها ، ثم تؤخذ منه لفلان وفلان .

وفى هذا : التحذير من العدوان على الخلق ، وأنه يجب على الإنسان أن يؤدى ما للناس فى حياته قبل مماته ، حتى يكون القصاص فى الدنيا مما يستطيع ، أما فى الآخرة فليس هناك درهم ولا دينار حتى يفدى نفسه ، ليس فيه إلا الحسنات ، يقول الرسول - ﷺ - « فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم ثم طرح عليه ، وطرح فى النار » .

ولكن هذا الحديث لا يعنى أنه يخلد فى النار ، بل يعذب بقدر ما حصل عليه من سيئات الغير التى طرحت عليه ، ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة ، لأن المؤمن لا يخلد فى

(١) أبو داود (٣٣٥٩) الترمذى (١٢٢٥) ابن ماجه (٢٢٦٤) وصححه الألبانى فى الإرواء (١٣٥٢).

Marfat.com

النار، ولكن النار حرها شديد ، لا يصبر الإنسان على النار ولو للحظة واحدة ، هذا على نار الدنيا فضلاً عن نار الآخرة أجارنى الله وإياكم منها .

***

[٢١٩/١٧] وعن أم سَلَمَةَ رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « **إنَّما أنا بَشَرٌ ، وَإنَّكُمْ تَختَصمُونَ إلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أنْ يَكُونَ ألْحَنَ بِحُجَّتِه من بَعْض فَأقْضى لَهُ بِنحْو ما أسْمعُ ، فَمَنْ قَضيْتُ لَهُ بِحَقِّ أخيهِ فإنَّمَا أقْطَعُ لَهُ قِطعَةً مِنَ النّارِ** » متفق عليه .

«**ألْحَنَ** » أىْ : أعْلَمَ .

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمة الله ـ فى باب تحريم الظلم ووجوب رد المظالم إلى أهلها عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبى - ﷺ - قال : « **إنما أنا بشر مثلكم ، وإنكم تختصمون إلى، ولعل بعضكم أن يكون ألحَنَ بحُجَّته من بعض ، فأقضى له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النَّار** » .

ففى هذا الحديث : دليل على أن الرسول - ﷺ - بشر مثلنا ، ليس ملاكًا من الملائكة، بل هو بشر يعتريه ما يعترى البشر بمقتضى الطبيعة البشرية ، فهو - ﷺ - يجوع ويعطش ، ويبرد ويحتر ، وينام ويستقيظ ، ويأكل ويشرب ، ويذكر وينسى ، ويعلم ويجهل بعض الشىء كالبشر تمامًا . يقول - ﷺ - : « **إنما أنا بشر مثلكم** » .

وهكذا أمره الله عز وجل أن يعلن للملأ فيقول :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف : ١١٠] فلست إلها يعبد ولا ربًا ينفع ويضر ، بل عليه الصلاة والسلام لا يَملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا .

وبهذا تنقطع جميع شبه الذين يتعلقون بالرسول - ﷺ - ممن يدعونه أو يعبدونه أو يؤملونه ؛ لكشف الضر أو يؤملونه لجلب الخير ، فإنه عليه الصلاة والسلام لا يملك ذلك : ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن : ٢١ ـ ٢٣] . لو أراد الله أن يصيبنى بسوء ما أجارنى منه أحد .

وفى قوله : « **إنَّمَا أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم** » تمهيد لقوله : « **وإنكم تختصمون إلى** » يعنى : فإذا

[٢١٩/١٧] صحيح : رواه البخارى (٢٦٨٠) ، ومسلم (١٧١٣) .

Marfat.com

كنت بشرًا مثلكم فإنى لا أعلم من المحق منكم ومن المبطل « تختصمون إلىَّ »(١) . يعني تحاكمون إلى فى الخصومة ، فيكون بعضكم ألحن من البعض الآخر فى الحجة ، أى : أفصح وأقوى كلامًا ، يقال : فلان حجيج وفلان ذو جدل ، يقوى على غيره فى الحجة ، كما قال تعالى : ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص : ٢٣] . أى : غلبنى فى الخطاب والمخاصمة ، فهكذا هنا ألحن يعنى أبين وأفصح وأظهر .

وهذا مشاهد فقد تجد اثنين يتحاكمان إلى القاضي ، أحدهما يكون عنده لسان وعنده بيان وحجة وقوة وجدل ، والثانى دون ذلك وإن كان الحكم معه ، فيحكم القاضى للأول ، ولهذا قال : « وإنما أقضى بنحو ما أسمع » وفى قوله : « أقضى بنحو مما أسمع » فسحة كبيرة للقضاة ، وأنهم لا يكلفون بشيء غاب عنهم ، بل يقضون حسب البيانات التى بين أيديهم ، فإن أخطئوا فلهم أجر ، وإن أصابوا فلهم أجران ، ولا يكلفون ما وراء ذلك ، بل ولا يحل لهم أن يحكموا بخلاف الظاهر ؛ لأنهم لو حكموا بخلاف الظاهر لأدى ذلك إلى الفوضى ، وأدى ذلك إلى الاشتباه وإلى التهمة ، ولقيل القاضي يحكم بخلاف الظاهر لسبب من الأسباب .

لهذا كان الواجب على القاضى أن يحكم بالظاهر ، والباطن يتولاه الله عز وجل ، فلو ادعى شخص على آخر بمائة ريال ، وأتى المدعى بشهود اثنين فعلى القاضى أن يحكم بثبوت المائة فى ذمة المدعى عليه ، وإن كان يشتبه فى الشهود ، إلا أنه فى حال الاشتباه يجب أن يتحرى ، لكن إذا لم يوجد قدح ظاهر فإنه يجب عليه أن يحكم ، وإن غلب على ظنه أن الأمر بخلاف ذلك ، لقوله : « إنما أقضى بنحو مما أسمع » .

ولكن النبى ـ ﷺ ـ توعد من قضى له بغير حق ، فقال : « فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار » يعني أن حكم الحاكم لا يبيح الحرام ، فلو أن الحاكم حكم للمبطل بمقتضى ظاهر الدعوى ، فإن ذلك لا يحل له ما حكم له به ، بل إنه يزداد إثمًا ؛ لأنه توصل إلى الباطل بطريق باطلة ، فيكون أعظم ممن أخذه بغير هذه الطريق .

وفى هذا : الحديث التحذير الشديد من حكم الحاكم بغير ما بين يديه من الوثائق ، مهما كان الأمر ، ولو كان أقرب قريب لك ، واختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ : هل يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه أم لا ؟ فقيل : لا يجوز ؛ لأنه قال : « فأقضى له بنحو ما أسمع » ، ولأنه لو قضى بعلمه لأدى ذلك إلى التهمة ؛ لأن العلم ليس شيئًا ظاهرًا يعرفه الناس حتى يحكم له به ، وقال بعض العلماء : بل يحكم بعلمه مطلقًا ، وقال آخرون : بل يتوقف إذا وصلت البينة إلى ما يخالف علمه .

---

(١) رواه البخارى (٢٦٨٠) ، ومسلم (١٧١٣) .

Marfat.com

والأصح أنه لا يحكم بعلمه إلا فى مسائل خاصة ، ومثال ذلك إذا حكم بعلمه بمقتضى حجة المتخاصمين فى مجلس الحكم ، فمثلاً إذا تحاكم إليه شخصان فأقر أحدهما بالحق ، ثم مع المداولة والأخذ والرد أنكر ما أقر به أولاً ، فهنا للقاضى أن يحكم بعلمه لأنه علمه فى مجلس الحكم .

ومثال آخر إذا كان الأمر مشتهراً ، مثل أن يشتهر أن هذا الملك وقف عام للمسلمين أو يشتهر أنه ملك فلان ويشتهر ذلك بين الناس فهنا له أن يحكم بعلمه ، لأن التهمة فى هذه الحال منتفية ، ولا يتهم القاضى بشىء ، ولا يمكن أن يتجرأ أحد للحكم بعلمه وهو خاطئ بناء على أنه أمر مشهور .

والقول الصحيح فى هذا هو التفصيل ، وإلا فإن الواجب أن يكون القضاء على حسب الظاهر لا على حسب علم القاضى .

وإذا جاء الشىء على خلاف علمه تحول المسألة إلى قاضى آخر ، ويكون هو شاهد من الشهود ، مثل أن يدعى شخص على آخر بمائة ريال فينكر المدعى عليه والقاضى عنده علم بثبوت المائة على المدعى عليه ، فلا يحكم هنا بعلمه ولا يحكم بخلاف علمه ، بل يقول : أحولها على قاض آخر ، وأنا لك أيها المدعى شاهد ، فتحول القضية إلى قاض آخر، ثم يكون القاضى هذا شاهداً ، فيحكم بيمين المدعى وشهادة القاضى.

***

[١٨/ ٢٢٠] عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فى فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَماً حَرَاماً » رواه البخارى .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فى باب تحريم الظلم ووجوب التحلل منه ، قال فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فى فُسْحَةٍ مِنْ دينه مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا » ، « لا يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فى فُسْحَةٍ » أى : فى سعة من دينه ، « مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا » يعنى : ما لم يقتل مؤمنًا أو ذميًا أو معاهدًا أو مستأمنًا ، فهذه هى الدماء المحرمة ، وهى أربعة أصناف ، دم المسلم ، ودم الذمى ، ودم المعاهد ، ودم المستأمن ، وأشدها وأعظمها دم المؤمن ، أما الكافر الحربى فهذا دمه غير حرام، فإذا أصاب الإنسان دمًا حرامًا فإنه يضيق عليه دينه ، أى : أن صدره يضيق به حتى يخرج منه

[١٨/ ٢٢٠] صحيح : رواه البخارى (٦٨٦٢) أحمد (٢/ ٩٤) .

Marfat.com

والعياذ بالله ويموت كافرًا .

وهذا هو السر في قوله تعالى : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء : ٩٣] فهذه خمس عقوبات والعياذ بالله: جهنم ، خالدًا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعدَّ له عذابًا عظيمًا ، لمن قتل مؤمنًا متعمدًا ؛ لأنه إذا قتل مؤمنًا متعمدًا فقد أصاب دمًا حرامًا ، فيضيق عليه دينه ، ويضيق به صدره ، حتى ينسلخ من دينه بالكلية ، ويكون من أهل النار المُخلدين فيها .

وفي هذا :دليل على أن إصابة الدم الحرام من كبائر الذنوب ، ولاشك في هذا ، فإن قتل النفس التي حرم الله بغير حق من كبائر الذنوب .

ولكن إذا تاب الإنسان من هذا القتل فهل تصح توبته ؟

جمهور العلماء على أن توبته تصح لعموم قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾[الفرقان : ٦٨ - ٧٠] . فهنا نص على أن من تاب من قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وآمن وعمل عملاً صالحًا ، فإن الله يتوب عليه .

وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر : ٥٣] .

ولكن بماذا تكون التوبة ؟ قتل المؤمن عمدًا يتعلق به ثلاثة حقوق : الحق الأول: حق الله ، الحق الثاني : حق المقتول ، الحق الثالث : حق أولياء المقتول .

أما حق الله فإذا تاب منه تاب الله عليه ، ولا شك في هذا ، وأما حق المقتول : فالمقتول حقه عنده ، وهو قد قتل الآن ، ولا يمكن التحلل منه في الدنيا ، ولكن هل توبته تقتضي أن يتحمل الله عنه حق المقتول فيؤديه عنه أم لابد من أخذه بالاقتصاص منه يوم القيامة ؟

هذا محل نظر ، فمن العلماء من قال : إن حق المقتول لا يسقط بالتوبة ؛ لأن من شروط التوبة رد المظالم إلى أهلها ، والمقتول لا يمكن رد مظلمته إليه ؛ لأنه قتل ، فلابد أن يقتص من قاتله يوم القيامة ، ولكن ظاهر الآيات الكريمة التي ذكرناها في سورة الفرقان يقتضي أن الله يتوب عليه توبة تامة ، وأن الله جل وعلا إذا علم من عبده صدق التوبة فإنه يتحمل عنه حق أخيه المقتول .

Marfat.com

أما الْحق الثالث فهو حق أولياء الْمقتول ، وهذا لابد من التخلص منه ؛ لأنه يمكن للإنسان أن يتخلص منه ، وذلك بأن يسلم نفسه إليهم ، ويقول لهم : أنا قتلت صاحبكم، فافعلوا ما شئتم ، وحينئذ يخيرون بين أمور أربعة : إما أن يعفو عنه مجانًا ، وإما أن يقتلوه قصاصًا ، وإما أن يأخذوا الدية منه ، وإما أن يصالحوه مصالَحة على أقل من الدية أو على الدية ، وهذا جائز بالاتفاق .

فإن لم يسقط حقهم إلا بأكثر من الدية ففيه خلاف بين أهل العلم ، منهم من يقول : لا بأس أن يصالحوا على أكثر من الدية ؛ لأن الْحق لهم ، فإن شاءوا قالوا : نقتل وإن شاءوا قالوا : لا نعفو إلا بعشر ديات ، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد رحمه الله ، أن يجوز الْمصالحة عن القصاص بأكثر من الدية ، والتعليل هو ما ذكرنا من أن الحق لهم ، أى : لأولياء الْمقتول فلهم أن يمتنعوا عن إسقاطه إلا بما تطيب به نفوسهم عن الْمال .

إذن نقول : توبة القاتل عمدًا تصح للآية التي ذكرناها من سورة الفرقان ، وهى خاصة فى القتل ، وللآية الثانية العامة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر : ٥٣] .

وهذا الحديث يدل على عظم قتل النفس ، وأنه من أكبر الكبائر ، والعياذ بالله ، وأن القاتل عمدًا يخشى أن يسلب دينه .

* * *

[١٩ / ٢٢١] وعن خَوْلَةَ بِنْتِ عَامِرٍ الأَنْصَارِيَّةِ ، وَهِىَ امْرَأَةُ حَمْزَةَ رضي الله عنه وعنها ، قالت: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ : « **إنّ رِجَالاً يَتَخَوّضُونَ فى مَالِ الله بِغَيْرِ حَقٍّ ، فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيامَةِ** » رواه البخارى .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله ـ فيما نقله عن خولة زوجة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن النبى - ﷺ - قال : « **إن رجالاً يتخوضون فى مال الله بغير حق ، فلهم النار يوم القيامة**» هذا أيضًا مما يدل على تحريم الظلم فى الأموال الذى هو خلاف العدل .

وفى قوله : « يتخوضون » : دليل على أنهم يتصرفون تصرفًا طائشًا غير مبنى على أصول شرعية ، فيُفسدون الأموال ببذلها فيما يضر ، مثل مَن يبذل أمواله فى الدخان ، أو فى المخدرات ، أو فى شرب الخمور أو ما أشبه ذلك ، وكذلك أيضًا يتخوضون فيها

[١٩ / ٢٢١] صحيح : رواه البخارى (٣١١٨) .

Marfat.com

بالسرقات والغصب وما أشبه ذلك ، وكذلك يتخوضون فيها بالدعاوى الباطلة ، كأن يدعى ما ليس له وهو كاذب وما أشبه هذا .

فالمهم أن كل مَن يتصرف تصرفًا غير شرعى فى المال ـ سواء ماله أو مال غيره ـ فإن له النار والعياذ بالله يوم القيامة إلا أن يتوب ، فيرد المظالم إلى أهلها ، ويتوب مما يبذل ماله فيه من الحرام ؛ كالدخان وما أشبه ذلك ، فإن مَن تاب تاب الله عليه ، لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٣ ـ ٥٩] .

وفى هذا الحديث : تحذير من بذل المال فى غير ما ينفع والتخوض فيه ؛ لأن المال جعله الله قيامًا للناس تقوم به مصالح دينهم ودنياهم ، فإذا بذله فى غير مصلحة كان من المتخوضين فى مال الله بغير حق .

* * *

Marfat.com

٢٧ - باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ﴾ (الحج : ٣٠) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (الحج : ٣٢) ، وقال تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الحجر : ٨٨) ، وقال تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ (المائدة : ٣٢) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - (**باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم**) ،فالمسلم له حق على أخيه المسلم بل له حقوق متعددة ، بينها النبى - ﷺ - فى مواضع كثيرة .

منها : إذا لقيه فليسلم عليه ، يُلقى عليه السلام ، يقول : السلام عليك أو السلام عليكم ، ولا يحل له أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام (١) .

ولكن لك أن تهجره لمدة ثلاثة أيام ، إذا رأيت فى هذا مصلحة ، ولك أن تهجره أكثر إذا رأيته على معصية أصر عليها ، ولم يتب منها ، فرأيت أن هجره يحمله على التوبة ، وبهذا كان القول الصحيح فى الهجر : إنهم رخصوا فيه فى خلال ثلاثة أيام ، وما زاد على ذلك فينظر فيه للمصلحة ، إن كان فيه خير فليفعل ، وإلا فلا ، حتى لو جهر بالمعصية ، فإذا لم يكن فى هجرة مصلحة فلا تهجره .

ثم ساق المؤلف عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ومن يعظم حرمات الله فهو خيرٌ له عند ربه ﴾ [الحج : ٣٠] .من يعظم حرماته : أى ما جعله محترماً من الأماكن أو الأزمان أو الأشخاص ، فالذى يُعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، ومن كان يكره أو يشق عليه تعظيم هذا المكان كالحرمين مثلا والمساجد ، أو الزمان كالأشهر الحُرُم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وما أشبه ذلك ، فليحمل على نفسه وليكرهها على التعظيم .

---

(١) انظر البخارى (٦٢٣٧) مسلم (٢٥٦٠) .

Marfat.com

ومن ذلك : تعظيم إخوانه المسلمين ، وتنزيلهم منزلتهم ، فإن المسلم لا يحل له أن يحقر أخاه المسلم ، قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** »(١) . بحسب : الباء هنا زائدة والمعنى : حسبه من الشر أن يحقر أخاه المسلم يقلبه ، أو إن يعتدى فوق ذلك بلسانه أو بيده على أخيه المسلم ، فإن ذلك حسبه من الإثم والعياذ بالله وكذلك أيضاً تعظيم ما حرمه الله عز وجل فى المعاهدات التى تكون بين المسلمين وبين الكفار ، فإنه لا يحل لأحد أن ينقض عهداً بينه وبين غيره من الكفار . ولكن المعاهدين ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم : أتموا عهدهم فهؤلاء نتمم عهدهم .

وقسم آخر : خانوا أو نقضوا قال تعالى ﴿**فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**﴾ [التوبة : ٧] فهؤلاء ينتقض عهدهم كما فعلت قريش فى الصلح الذى جرى بينهما وبين النبى - ﷺ - فى الحديبية ، فإنهم وضعوا الحرب بينهم عشر سنين ، ولكن قريشاً نقضوا العهد فهؤلاء ينتقض عهدهم ، ولا يكون بيننا وبينهم عهد ، وهؤلاء قال الله فيهم ﴿**لا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾ [التوبة : ١٣] .

والقسم الثالث : مَن لم ينقض العهد لكن نخاف منه أن ينقض العهد ، فهؤلاء نخبرهم بألا عهد بيننا وبينهم ، كماقال تعالى : ﴿**وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ**﴾ [الأنفال : ٥٨] .

فهذه من حرمات الله عز وجل ، وكل شىء جعله الله محترمًا من زمان أو مكان أو عيان فهو من حرمات الله عز وجل ، فإن الواجب على المسلم أن يحترمه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ** ﴾ [الحج : ٣٠] وقال : ﴿ **وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج : ٣٢] . الشعائر : العبادات الظاهرة سواء كانت كبيرة أم صغيرة ، مثل الطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، والأذن والإقامة وغيرهما من شعائر الإسلام ، فإنها إذا عظمها الإنسان كان ذلك دليلاً على تقواه ، فإن التقوى هى التى تحمل العبد على تعظيم الشعائر .

أما الآية الثالثة : فهى قوله تعالى : ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الحجر : ٨٨] . وفى الآية الأخرى : ﴿ **لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الشعراء ٢١٥] . والمعنى تذلل لهم ولِن لهم فى المقال والفعال ؛لأن المؤمن مع أخيه المؤمن رحيم به ، شفيق به ، كما قال الله

(١) مسلم (٢٥٦٤) أبو داود (٤٨٨٢) ابن ماجه (٣٩٣٣) .

Marfat.com

تعالى فى وصف النبى - ﷺ - ومن نعمه : ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩]. وفى قوله : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن الإنسان مأمور بالتواضع لإخوانه وإن كان رفيع المنزلة ، كما يرتفع الطير بجناحيه ، فإنه وإن كان رفيع المنزلة فليخفض جناحه وليتذلل وليتطامن لإخوانه ، وليعلم أن مَن تواضع لله رفعه الله عز وجل ، والإنسان ربما يقول : لو تواضعت للفقير وكلمت الفقير ، أو تواضعت للصغير وكلمته أو أشبه ذلك ، فربما يكون فى هذا وضع لى ، وتنزيل من رتبتى ، ولكن هذا من وساوس الشيطان ، فالشيطان يدخل على الإنسان فى كل شىء ، قال تعالى عنه : ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧] .

فالشيطان يأتى الإنسان ويقول له : كيف تتواضع لهذا الفقير ؟ كيف تتواضع لهذا الصغير ؟ كيف تُكلم فلانًا ؟ كيف تمشى مع فلان ؟ ولكن مَن تواضع لله رفعه الله عز وجل ، حتى وإن كان عالماً أو كبيراً أو غنياً ، فإنه ينبغى أن يتواضع لمن كان مؤمنًا ، أما من كان كافراً فإن الإنسان لا يجوز له أن يخفض جناحه له ، لكن يجب عليه أن يخضع للحق بدعوته إلى الدين ، ولا يستنكف عنه ، ويستكبر فلا يدعوه ، بل يدعوه ولكن بعزة وكرامة ، دون إهانة له ، فهذا معنى قوله : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر : ٨٨] .

وفى الآية الثالثة : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

فهذه وظيفة المسلم مع إخوانه ، أن يكون هيناً ليناً بالقول وبالفعل ؛ لأن هذا مما يوجب المودة والألفة بين الناس ، وهذه الأُلفة والمودة أمر مطلوب للشرع ، ولهذا نهى النبى عليه الصلاة والسلام عن كل ما يوجب العداوة والبغضاء ، ومثل البيع على بيع المسلم ، والسوم على سوم المسلم[(١)] ، وغير ذلك مما معروف لكثير من الناس والله الموفق .

وقال تعالى : ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة : ٣٢] .

[٢٢٢/١] وعن أبى موسى رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً » وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ . متفق عليه .

(١) البخارى (٢٧٢٣ ، ٢٧٢٧) مسلم (١٤٠٨) .

[١/ ٢٢٢] صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٦) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

Marfat.com

الشرح

سبق ذكر عدة آيات فى بيان تعظيم حُرمات المُسلمين ، والرفق بهم ، والإحسان إليهم، ومن جملة الآيات التى فيها بيان تعظيم حرمة المسلم قوله تعالى :﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة : ٣٢] . بين الله فى هذه الآية أن مَن قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ؛ لأن حرمة المسلمين واحدة ، ومَن انتهك حرمة شخص من المسلمين ، فكأنما انتهك حرمة جميع المسلمين ، كما أن مَن كذَّب رسولاً واحداً من الرسل ، فكأنما كذب جميع الرسل ، ولهذا اقرأ قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] . مع أنهم لم يكذبوا إلا واحداً ، فإنه لم يبعث رسول قبل نوح ، وما بعد نوح لم يدركه قومه ، لكن مَن كذب رسولاً واحداً فكأنما كذب جميع الرسل ومن قتل نفساً مُحرمة، فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأن حرمة المسلمين واحدة ، ومَن أحياها - أى سعى فى إحيائها وإنقاذها من هلكة - فكأنما أحيا الناس جميعاً . وإحياؤها وإنقاذها من الهلكة تارة يكون من هلكة لا قبل للإنسان بها فتكون من الله مثل أن يشبَّ حريق فى بيت رجل فتحاول إنقاذه ،فهذا إحياء للنفس .

وأما القسم الثانى : فهو ما للإنسان فيه قبل ، مثل أن يحاول رجل العدوان على شخص ،ليقتله ، فتحول بينه وبينه وتحميه من القتل ، فأنت الآن أحييت نفسًا ومن فعل ذلك فكأنما أحيا الناس جميعاً ؛ لأن إحياء شخص مسلم كإحياء جميع الناس .

وقوله تعالى عز وجل : ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ يُستفاد منه أن من قتل نفساً بنفس فهو معذور ولا حرج عليه ، قال الله تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة : ٤٥] . فإذا قُتل شخصاً بحق أى بنفس أخرى فلا لوم عليه ولا إثم ، ويرث القاتل من المقتول إذا قتله بحق ، ولا يرث القاتل من المقتول إذا قتله بغير حق .

ولنضرب لهذا مثلاً بثلاثة إخوة قتل الكبير منهم الصغير عمداً فالذى يرث الصغير أخوه الأوسط ، وأخوه الكبير لا يرثه لأنه قتله بغير حق ، ثم طالب الأوسط بدم أخيه الصغير ، فقتل أخاه الكبير قصاصًا ، فهل يرث الأوسط من أخيه الكبير وهو قاتله ؟ نعم يرث لأنه قتله بحق ، والكبير الذى قتل الصغير لا يرث ؛ لأنه قتله بغير حق .

فالقتل بحق لا لوم فيه وليس له أثر ؛ لأنه قصاص ، والله تعالى يقول : ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٩] . وقوله عز وجل : ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ ﴾ والفساد فى الأرض ليس معناه أن يسلط الإنسان الحفّار فيهدم بيتاً ولو كان ذلك

Marfat.com

بغير حق . فهذا وإن كان فساداً ، لكن لا يحل به دم مسلم ، الفساد فى الأرض إنما يكون بنشر الأفكار السيئة ، ء والعقائد الخبيثة ، أو قطع الطريق ، أو ترويج ، المخدرات أو ما أشبه ذلك ، هذا هو الفساد فى الأرض ، فمن أفسد فى الأرض على الوجه فدمه هدر حلال ، يُقتل لأنه ساعٍ فى الأرض بالفساد . بل إن الله قال فى نفس السورة : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ﴾ [المائدة : ٣٣] على حسب جريمتهم ، إن كانت كبيرة فبالقتل وإن كانت دونها فبالصلب ، وإن كانت دونها فتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، تُقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، وإن كان دون ذلك فينفوا من الأرض ، وإما بالحبس مدى الحياة كما قال بذلك بعض أهل العلم ، وإما بالطرد عن المدن كما قاله آخرون ، لكن إذا كان لا يندفع شرهم بطردهم من المدن حُسبوا إلى الموت .

فالحاصل أن مَن قتل نفساً لإفسادها فى الأرض فلا لوم عليه ، بل إن قتل النفس التى تسعى للإفساد واجب ، وقتل النفس بالنفس مباح إلا على رأى الإمام مالك - رحمه الله - وشيخ الإسلام ابن تيمية ، فإن قتل الغيلة واجب فيه القصاص ، يعنى من غافل شخصاً فقتله فإنه يقتل حتى ولو عفا أولياء المقتول ؛لأن الغيلة شر وفساد ، لا يمكن التخلص منها .

مثلاً : يجيء إنسان لشخص أثناء نومه فيقتله ، فهذا يقتل على كل حال ، حتى ولو قال أولياء المقتول : عفونا عنه ولا نبغى شيئًا ، هذا رأى الإمام مالك وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمهما الله - وهو القول الحق ، أنه إذا قتل إنسان غيلة فلا بد من قتل القاتل ولا خيار لأولياء المقتول فى ذلك .فالحاصل أن الله يبين فى هذه الآية أن قتل نفس واحدة بغير نفس أو فساد فى الأرض كقتل جميع الناس ، وإحياء نفس واحدة كإحياء جميع الناس ، وهذا يدل على عظم القتل، ولو أن إنساناً أحصى كم قتل من بنى آدم بغير حق لم يقدر ، ومع ذلك فكل نفس تقتل فعلى ابن آدم الأول الذى قتل أخاه كِفْل منها ، وعليه من إثمه نصيب .

وابن آدم الذى قتل أخاه ، قتله حسداً ، حيث كان أول ما جاء آدم من الأبناء اثنين من بنى آدم ، أول ما جاء آدم من الأبناء ، فى أول بطن ، وقد قربا قرباناً ، قربة إلى الله ، فتقبل الله من واحد ولم يتقبل من الآخر ، فقال الثانى - الذى لم يتقبل الله منه - لأخيه: لأقتلنك ، لماذا يتقبل الله منك ولا يتقبل منى ؟ حسده على فضل الله تعالى عليه ، فقال، له ربه : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٢٧] . يعنى : اتق الله ويقبل الله منك ، ولكن من توعد أخاه بالقتل فليس . بمتق لله . فى النهاية قتله والعياذ بالله ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ

Marfat.com

نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٣٠] . خسر والعياذ بالله بهذه الفعلة الشنيعة التى أقدم عليها . ويُقال : إنه بقى يحمل أخاه الذى قتله أربعين يومًا على ظهره ، ما يدرى ماذا يفعل به ؛ لأن القبور ما عرفت فى ذلك الوقت ، فبعث الله غرابًا يبحث فى الأرض ، يعنى بأظفاره ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، وقيل : إن غرابين اقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر أحدهما للثانى فدفنه ، فاقتدى به هذا القاتل ودفن أخاه ، وهذا من العجائب أن تكون الغربان هى التى علمت بنى آدم الدفن .

فالحاصل أن كل نفس تُقتل بغير حق فعلى القاتل الأول من إثمها نصيب والعياذ بالله . وهكذا أيضًا من سنّ القتل بعد أمن الناس وصار يغتال الناس وما أشبه ذلك ، وتجرأ الناس على ممن أجل فعله ، فإن عليه من الإثم نصيباً ؛ لأنه هو الذى كان سبباً فى هذا ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم الدين . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من دعاة الخير وفاعليه إنه جواد كريم .

***

[٢/٢٢٣] وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَن مَرَّ فى شَىْءٍ من مَسَاجِدِنَا ، أَوْ أَسْوَاقِنَا ، وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ ، أَوْ لِيَقْبِضْ عَلَى نِصَالِهَا بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَداً مِن الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا بِشَىْءٍ** » متفق عليه .

[٣/ ٢٢٤] وعن النُّعْمان بن بَشِيرٍ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى** » متفق عليه .

[٤/ ٢٢٥] وعن أبى هُرَيْرَةَ ﷺ قال : قَبَّلَ النَّبِىُّ ﷺ الحَسَنَ بْنَ عَلِىٍّ ﷺ ، وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ، فقال الأَقْرَعُ : إِنَّ لِى عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحداً ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رسولُ الله ﷺ فقال : « **مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ** » متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله - جملة من أحاديث الرفق بالمسلمين ، منها حديث أبى

[٢/ ٢٢٤] صحيح : رواه البخارى (٧٠٧٥) ، ومسلم (٢٦١٥) .

[٤/ ٢٢٥] صحيح : رواه البخارى (٥٩٩٧) ، ومسلم (٢٣١٨) .

Marfat.com

موسى الأشعرى ﷺ أن النبى ﷺ قال : « **مَن مرَّ فى شىء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفة** » النبل : السهام التى يُرمى بها وأطرافها تكون دائما دقيقة تنفذ فيما تصيبه من المرمى ، فإذا أمسك الإنسان بها وقى الناس وشرها ، وإذا تركها هكذا فربما تؤذى أحداً من الناس ، ربما يأتى أحد بسرعة فتخدشه ، أو يمر الرجل الذى يمسك بها وهى مفتوحة غير ممسكة فتخدشهم أيضًا . ومثل ذلك أيضاً العصى ، إذا كان معك عصاً فأمسكها طولاً ، يعنى اجعل رأسها إلى السماء ولا تجعلها عرضا ، لأنك إذا جعلتها عرضا آذيت الناس الذين وراءك ، وربما تؤذى الذين أمامك .

ومثله الشمسية أيضاً ؛ إذا كان معك شمسية وأنت فى السوق فارفعها ، لئلا تؤذى الناس .

فكل شئ يؤذى المسلمين أو يُخشى من أذيته فإنه يتجنبه الإنسان ؛ لأن أذية المسلمين ليست بالهينة ، قال الله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

ومن الأحاديث التى ذكرها المصنف حديث أبى هريرة ﷺ ، أن النبى - ﷺ - قبّل الحسن بن على بن أبى طالب وكان عنده الأقرع بن حابس ، والحسن بن علىّ بن أبى طالب هو ابن فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - ، فجده من أمه رسول الله - ﷺ - ، وأبوه على ابن أبى طالب ابن عم النبى - ﷺ - ، وكان النبى - ﷺ - يحب الحسن والحسين لأنهما سبطاه ، ويفضل الحسن على الحسين .

فالحسن قال فيه النبى - ﷺ - « **إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**[١] » فكان الأمر كما قال النبى - ﷺ - ، لما حصلت الفتنة فى زمن معاوية ، وآلت الخلافة إلى الحسن بعد أبيه على ابن أبى طالب ﷺ تنازل عنها ﷺ لمعاوية بن أبى سفيان حقناً لدماء المسلمين ؛ لأنه يعلم أن فى الناس أشرار ، وأنهم ربما يأتون إليه ويغرونه كما فعلوا بأخيه الحسين بن على ﷺ ، غرّه أهل العراق وحصل ما حصل من المقتلة العظيمة فى كربلاء وقتل الحسين . أما الحسن ﷺ فإنه تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، فصار ذلك مصداقاً لقول النبى - ﷺ - « **ولعل الله أن يُصلح به بين فئتين من المسلمين** » . كان عند النبى - ﷺ - الأقرع بن حابس من زعماء بنى تميم ، والغالب أن أهل البادية وأشباههم يكون فيهم جفاء ، فقبل النبى - ﷺ - الحسن ، فقال الأقرع : إن

(١) البخارى (٧١٠٩) أبو داود (٢٦٦٢) .

Marfat.com

لى عشرة من الولد ما قبلتُ واحدًا منهم ، أعوذ بالله من قلب قاسٍ ما يقبلهم ولو كانوا صغاراً ، فنظر إليه النبى - ﷺ- وقال : « **مَن لا يرحم لا يُرحم** » يعنى أن الذى لا يرحم عباد الله لا يرحمه الله ، ويُفهم من هذا أن من رحم عباد رحمه الله ، وهو كذلك فقد قال النبى « **الراحمون يرحمهم الرحمن** »(١) .

ففى هذا دليل على أنه ينبغى للإنسان أن يستعمل الرحمة فى معاملة الصغار ونحوهم وأنه ينبغى للإنسان يقبّل أبناءه ، وأبناء بناته ، ويقبّلهم رحمة بهم ، واقتداءً برسول الله ﷺ - : ، وأما ما يفعله بعض الناس من الجفاء والغلظة بالنسبة للصبيان ، فتجده لا يمكن صبيه من أن يحضر إلى مجلسه ، ولا أن يمكن صبيّة من أن يطلب منه شيئًا ، وإذا رآه عند الرجال انتهره فهذا خلاف السنة وخلاف الرحمة .

كان النبى عليه الصلاة والسلام يُصلى بالناس إحدى صلاتى العشى ، إما العصر وإما الظهر ، فجاءته بنت بنته أُمامة ، فكان النبى - ﷺ - يحملها وهو يُصلى بالناس ؛ وإذا قام حملها ، وإذا سجد وضعها(٢) ، أين هذا الخُلُق من أخلاقنا اليوم ؟ الآن لو يجد الإنسان صبيّه فى المسجد أخرجه فضلاً عن كونه يحمله فى الصلاة .

وكان النبى - ﷺ - يومًا من الأيام ساجدًا ، فجاءه الحسن أو الحسين فركب عليه أى جعله راحلة ، فطال النبى- ﷺ - السجود ، فلما سلم قال : « **إن ا بنى ارتحلنى وإنى كرهت أن أقوم حتى يقضى نهمته** »(٣) .

وكان- ﷺ - يخطب الناس يومًا على المنبر ، فأقبل الحسن والحسين وعليهما ثوبان جديدان يعثران بهما ، فنَزَل النبى- ﷺ - وحملهما بين يديه ، وقال : « **صدق الله﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾** [التغابن : ١٥] . **نظرت إلي هذين الصبيّين يعثران فلم أصبر** » يعنى فما طابت نفسه حتى نزل وحملهما(٤) .

ففى هذا كله وأمثاله : دليل على أنه ينبغى للإنسان أن يرحم الصغار ، ويلطف بهم ، وأن ذلك سبب لرحمة الله عز وجل ، نسأل الله أن يعمنا وإياكم برحمته ولطفه وإحسانه .

[٥/٢٢٦] وعن عائشةَ رضى الله عنها قالت : قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرابِ عَلَى رسول

---

(١) أبو داود (٤٩٤١) الترمذى (١٩٢٤) ،وصححه الألبانى الصحيحة (٩٢٢) .

(٢) البخارى (٥١٦) مسلم (٥٤٣) .

(٣) أحمد (٣/ ٤٩٤) النسائى (١١٤١) وصححه الألبانى فى صحيح النسائى .

(٤) الترمذى (٣٧٧٤) ابن ماجة (٣٦٠٠) وصححه الألبانى فى المشكاة (٦١٥٩) .

[٥ / ٢٢٦] صحيح : رواه البخارى (١٠ / ٥٩٩٨) ، ومسلم (٢٣١٧) .

Marfat.com

الله ﷺ ، فقالوا : أتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ ؟ فقال : « نَعَمْ » ، قالوا : لكنَّا والله ما نُقَبِّلُ ! فقال رسول الله ﷺ : « أَوَ أَمْلِكُ إن كَانَ الله نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ ؟ » متفق عليه .

[٦/٢٢٧] وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسَ لا يَرْحَمْهُ الله » متفق عليه .

[٧/٢٢٨] وعن أبي هُريرة رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إذا صلى أَحَدُكُمْ للنَّاس ، فَلْيُخَفِّفْ ، فَإِنَّ فيهِمُ الضَّعِيفَ والسَّقِيمَ وَالكَبِيرَ ، وَإِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِه، فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ » متفق عليه .

وفي رِوَايةٍ : « وَذَا الحَاجَةِ » .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عائشة رضي الله عنها قالت : جاء قوم من الأعراب إلى النبي - ﷺ - فسألوا : هل تقبلون صبيانكم ؟ قال النبي - ﷺ - « نعم » . والأعراب كما نعلم جميعاً جفاة ، وعندهم غلظة وشدة ولا سيما رعاة الإبل منهم ، فإن عندهم من الغلظة والشدة ما يجعل قلوبهم كالحجارة . نسأل الله العافية ، قالوا : إنا لسنا نقبل صبياننا ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة » يعني لا أملك لك شيئاً إذا نزع الله الرحمة من قلوبكم .

وفي هذا : دليل على تقبيل الصبيان شفقة عليهم ورقة لهم ورحمة بهم .

وفيه : دليل على أن الله تعالى قد أنزل في قلب الإنسان الرحمة ، وإذا أنزل الله في قلب الإنسان الرحمة فإنه يرحم غيره ، وإذا رحم الله عز وجل ، كما في الحديث الثاني حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي - ﷺ - قال : « مَن لا يرحم الناس لا يرحمه الله » نسأل الله العافية .

الذى لا يرجم الناس لا يرحمه الله عز وجل ، والمراد بالناس : الذين هم أهل للرحمة كالمؤمنين وأهل الذمة ومن شابههم ، وأما الكفار الحربيون فإنهم لا يُرحمون ، بل يُقتلون لأن الله تعالى قال في وصف النبي - ﷺ - وأصحابه : ﴿أشداء على الكفار رحماء

[٦ / ٢٢٧] صحيح : رواه البخاري (٦٠١٣) ، ومسلم (٢٣١٩) .

[٧ / ٢٢٨] صحيح : رواه البخاري (٧٠٣) ، ومسلم (٤٦٧) .

Marfat.com

بينهم﴾ [الفتح : ٢٩] . وقال الله تعالى للنبى - ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة : ٧٣] ، ذكر الله تعالى هذه الآية فى سورتين من القرآن الكريم بهذا اللفظ نفسه : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم : ٩] . ، ذكرها الله فى سورة التوبة وفى سورة التحريم ، وقال تعالى : ﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

وكذلك أيضاً رحمة الدواب والبهائم فإنها من علامات رحمة الله عز وجل للإنسان ، لأنه إذا رق قلب المرء رحم كل شئ ذى روح ، وإذا رحم كل شئ ذى روح رحمة الله . . قيل : يا رسول الله ، ألنا فى البهائم أجر ؟ قال : « **نعم ، فى كل ذات كبد رطبة أجر** »(١) .

ومن الشفقة والرحمة بالمؤمنين أنه إذا كان الإنسان إماماً لهم ، فإنه لا ينبغى له أن يُطيل عليهم فى الصلاة ، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **إذا أمّ أحدكم الناس فليخفف ، فإنه من ورائه السقيم والضعيف وذا الحاجة والكبير** » يعنى من ورائه أهل الأعذر الذين يحتاجون إلى التخفيف ، والمراد بالتخفيف ما وافق سنة النبى - ﷺ - ، هذا هو التخفيف وليس المراد بالتخفيف ما وافق أهواء الناس ، حتى صار الإمام يركض فى صلاته ولا يطمئن ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : ما صليتُ وراء إمام قطّ أخفّ صلاة ولا أتم صلاة من النبى - ﷺ - ، ومع ذلك فكان يقرأ فى فجر الجمعة « **ألم تَنْزِيل السجدة** » كاملة فى الركعة الأولى . و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ﴾ كاملة فى الركعة الثانية ، وكان يقرأ بسورة الدخان فى المغرب ، ويقرأ فيها المرسلات ، ويقرأ فيها بالطور ، وربما قرأ فيها بالأعراف ، ومع هذا فهى خفيفة ، قال أنس رضي الله عنه : ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من النبى - ﷺ - (٢) وليس هذا الحديث حجة للذين يريدون من الأئمة أن يُخففوا تخفيفا ينقص الأجر ويخالف السنة ، ثم اعلم أنه قد يكون التخفيف عارضاً طارئا ، مثل ما كان النبى - ﷺ - يفعل ، كان يدخل فى الصلاة وعو يُريد أن يُطيل فيها فيسمع بكاء الصبى فيوجز مخافة أن تفتتن أمه (٣) ، فإذا حصل طارئ يوجب أن يخفف الإنسان صلاته فليخفف ، لكن على وجه لا يُخل بالواجب .

(١) البخارى (٢٣٦٣) مسلم (٢٢٤٤) .

(٢) البخارى (٧٠٨) مسلم (٤٦٩) .

(٣) البخارى (٧٠٨) مسلم (٤٧٠) .

Marfat.com

فالتخفيف نوعان :تخفيف دائم : وهو ما وافق سنة النبى - ﷺ - .

وتخفيف طارئ يكون أخفّ : وهـو ما دعت إليه الحاجة ، وهو أيضاً من السنة ، فإن النبى - ﷺ - وهو ما دعت إليه الحاجة ، وهو أيضاً من السنة ، فإن النبى - ﷺ - كان إذا سمع بكاء الصبى خفف الصلاة حتى لا تفتتن أمه ، والمهم أنه ينبغى للإنسان مراعاة أحوال الناس ورحمتهم .

* * *

[٨/ ٢٢٩] وعن عائشة - رضي الله عنها - قَالَتْ : إنْ كَانَ رسول الله - ﷺ - لَيَدَعُ العَمَلَ، وَهُوَ يُحِبُّ أنْ يَعْمَلَ بِهِ ، خَشْيَةَ أنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ. متفق عليه .

[٩/ ٢٣٠] وعَنْهَا - رضي الله عنها - قالت : نَهَاهُمُ النَّبِىُّ - ﷺ - عَنِ الوِصَالِ رَحْمَةً لَهُمْ، فقالوا : إنَّكَ تُواصِلُ ؟ قال : « **إنِّى لَسْتُ كَهَيْئَتِكُم ، إنِّى أبيتُ يُطْعِمُنِى رَبِّى وَيَسْقِينِى** » متفقٌ عليه .

مَعْنَاهُ : يَجْعَلُ فِىَّ قُوَّةَ مَنْ أكَلَ وَشَرِبَ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ فى باب الرفق بالمسلمين والشفقة عليهم ، قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « **إن النبى - ﷺ - ليدع العمل ، وهو يحب أن يعمل به الناس فيفرض عليهم** » . قولها : « إن كان » « إن » هذه مخففة من الثقيلة ، وأصلها « إن » ، ويقول النحويون : إن اسمها محذوف ويسمونه ضمير الشأنِ ، وجملة « كان ليدع » خبرها . فالجملة هنا ثبوتية وليست سلبية ، والمعنى أن النبى - ﷺ - كان يترك العمل وهو يحب أن يفعله ، لئلا يعمل به الناس ، فيُفرض عليهم ، فيشفق عليهم.

ومن ذلك : ما فعله فى رمضان عليه الصلاة والسلام ، صلى فى رمضان ذات ليلة ، فعلم به أناس من الصحابة ، فاجتمعوا إليه وصلوا معه ، وفى الليلة الثانية صلوا أكثر ، وفى الثالثة أكثر وأكثر ، ثم ترك الصلاة فى المسجد ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أما

[٨ / ٢٢٩] صحيح : رواه البخارى (١١٢٨) ، ومسلم (٧١٨) .

[٩/ ٢٣٠] صحيح : رواه البخارى (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥) .

Marfat.com

بعد ، فإنه لم يَخْفَ على مكانكم » يعنى ما جرى منهم من الاجتماع « ولكنى كرهتُ أن تُفرض عليكم فتعجزوا عنها »(١) فترك هذا القيام جماعة خوفاً من تُفرض على الأمة ، وهذا من شفقته ، وكان يقول : « لولا أن أشق على أمتى لفعلت كذا وكذا ، أو لأمرت بكذا وكذا » مثل قوله : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة »(٢) .

ومثله قولهُ - ﷺ - حيني تأخر فى صلاة العشاء حتى ذهب عامة الليل ، فقال : إنه لوَقْتُها » يعنى آخر الوقت . ثم قال : « لولا أن أشق على أمتى » فهو عليه الصلاة والسلام كان يدع العمل ويدع الأمر بالعمل ، خوفًا من أن يشق على الأمة .

ومن ذلك أيضًا : ما روته عائشة ﵂ أنه نهاهم عن الوصال رحمة بهم ، يعنى فهى الصحابة عن الوصال ، والوصال يعنى أن يصل الإنسان يومين فأكثرٍ فى الصيام من غير فطر ، يعنى يصوم الليل والنهار يومبن أو ثلاثة أو أكثر ، فنهاهم النبىّ - ﷺ - عن ذلك ولكنهم ﵃ فهموا أنه نهاهم رحمة بهم لا كراهة للعمل ، فواصلوا ثم واصلوا حتى هلّ شهر شوال ، فقالَ - ﷺ - : « لو تأخر الهلال لزدتكم » (٣) يعنى لأبقيتكم تواصلون قال ذلك تنكيلاً لهم ، حتى يعرفوا ألم الجوع والعطش ، ويكفوا عن الوصال من أنفسهم.

المهم أنه نهاهم عن الوصال رحمة بهم ، فقالوا : إنك تواصل ونحن نقتدى بك . فقال : « إنى لستَ كهيئتكم إنى يطعمنى ربى ويسقينى » يعنى أنه عليه الصلاة والسلام ليس كالأمة ، بل هو يبيت عند ربه يُطعمه ويسقيه ، ومعنى ذلك أنه عليه الصلاة والسلام يتجهد باللّيل ، ويخلوا بالله عز وجل ، بذكره ، وقراءة كلامه ، وغير ذلك مما يغنيه عن الأكل والشرب ؛ لأن الإنسان إذا اشتغل بالشئ نسى الأكل والشرب ، خصوصاً إذا كان الشيء مما يحبه ويرضاه ، ولهذا قال الشاعر فى محبوبته :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها   عن الشراب وتُلهيها عن الزاد

يعنى أنها إذا قعدت تتحدث عن هذا الرجل تُكثر من ذكره حتى يلهيها ذلك عن الطعام والشراب ، وهو أمر واقع واضح ، إن الإنسان قد يكون فى الأشغال يشتغل بها ، فيلهو عن الأكل والشرب ، مثل طالب العلم الذى يكون منهوماً بالعلم شغوفاً به ، ربما يبقى فى مكتبته يُطالع من المساء فينسى الأكل والشرب ،ينسى الغداء والعشاء ، وربما ينسى النوم ، وكذلك طالب الدنيا منهوم لا يشبع ، ربما يبقى فى دفاتره وحساباته فينشغل عن

(١) البخارى (٩٢٤) مسلم (٧٦١) .
(٢) البخارى (٨٨٧) مسلم (٢٥٢) .
(٣) البخارى (٧٢٩٩) مسلم (١١٠٣) .

Marfat.com

الأكل والشرب .

ويذكر أن رجلاً غنيًا كان يشتغل بحساباته وبكتاباته وماله وله زوجة ، وكان له جار فقير متزوج ، وكانوا يشعرون بأن هذا الجار الفقير يعاشر زوجته بالمعروف ، فغارت زوجة الغنى ؛ لأن الغنى غافل عنها ، فقالت له : ألا تنظر إلى جارنا يعاشر زوجته بالمعروف ، ويستأنس مع أهله ، ففطن الرجل الغنى لهذا ، فدعا الرجل الفقير وقال له : إنك رجل فقير تحتاج إلى المال ، وأنا سأعطيك مالاً تتجر به، فأعطاه المال يتجر به ، فانشغل به الفقير عن أهله ، وصار لا يُعاشرهم ولا يؤانسهم ، فصار مثل التاجر .

فالحاصل أن الإنسان إذا انشغل بالشئ المحبوب إليه أنساه كلّ شئ ،ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **إنى أبيت عند ربى يُطعمنى ويسقينى** » فلست كهيئتكم ، وما زعمه بعض أهل العلم من أن المراد بالإطعام والإسقاء ، الإطعام من الجنة والإسقاد من الجنة فليس بصحيح ؛ لأنه لو طعم طعاماً حسيًا ، وشرب شرابا حسيا لم يكن واصلاً ، وإنما المراد بالطعام والسقى ما يشتغل به - ﷺ - من ذكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

***

[١٠/ ٢٣١] وعن أبى قَتَادَةَ الحَارث بن ربْعىٍّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **إنِّى لأقُومُ إلى الصَّلاة ، وأُريدُ أنْ أُطَوِّلَ فيهَا ، فَأسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبىِّ ، فَأتَجَوَّزُ فى صَلاتِى كَرَاهِيَةَ أنْ أشُقَّ عَلَى أُمِّهِ** » رواه البخارى .

[١١/ ٢٣٢] وعن جُنْدُبِ بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فى ذمة الله فلا يَطْلُبَنَّكُمُ الله منْ ذِمَّته بشَىْءٍ ، فَإنَّهُ منْ يَطْلُبْهُ منْ ذمَّته بشَىْءٍ ، يُدْرِكْهُ ، ثُمَّ يَكُبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ فى نَارِ جَهَنَّمَ** » رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فى باب الرفق بالمسلمين فيما نقله عن أبى قتادة الحارث بن ربعى الأنصارى رضي الله عنه عن النبى - ﷺ - أنه قال : « **إنى لأقوم إلى**

[١٠/ ٢٣١] صحيح : رواه البخارى (٧٠٧) أحمد (٥/ ٣٠٥).

[١١/ ٢٣٢] صحيح : رواه مسلم (٦٥٧) أحمد (٤/ ٢١٣).

Marfat.com

الصلاة وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز كراهية أن أشقّ على أمه » هذا الحديث من النماذج التي تدل على رحمة النبي - ﷺ - بأمته و كما وصفه الله تعالى به في قوله﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١٢٨] . فهو يدخل في صلاة الجماعة يريد أن يُطيل فيها ، والمراد الإطالة النسبية ، ليست الإطالة الزائدة عن ما كان يفعله من قبل ، فإذا سمع بكاء الصبى أوجز وخفف مخافة أن يشق على أمه ؛ لأن أمه إذا سمعت بكاءه فإنه يشق عليها أن تسمع بكاء ابنها ، وربما يشغلها كثيراً عن الصلاة ، فيخفف عليه الصلاة والسلام لأجل ذلك .

ففى هذا الحديث فوائد منها :

أولاً : رحمة النبى - ﷺ - بأمته وشفقته عليها .

ثانياً : جواز حضور النساء إلى المسجد ليصلين مع الجماعة ، وهذا ما لم تخرج المرأة على وجه لا يجوز ، مثل أن تخرج .متعطرة أو متبرجة ، فإن ذلك لا يجوز ؛ لأن النبى - ﷺ - قال : « **أيما امرأة أصابت بخوراً فلا تشهد معنا صلاة العشاء** »[(١)]

ثالثاً : جواز إدخال الصبيان للمسجد ، هذا إذا كان صبيُّها معها ، وإن كان خارج المسجد قريباً منه فليس فيه دلالة ، ولكنه يصعب أن تسمع المرأة بكاء صبيها فى البيت وهى فى المسجد ، فالظاهر أن صبيانهنّ كانوا معهن ، فيكون فيه دليل على جواز إدخال الصبيان المساجد لكن بشرط ألا يحصل منهم أذية لا على المسجد ولا على المصلين ، فإن كان يخشى منهم أذية على المسجد كتلويثه بالبول والنجاسة ، فإنهم يمنعون ، وكذلك إذا كان يخشى منهم التشويش على الناس بالصراخ والركض والجبة[(٢)] ، فإنهم يمنعون أيضًا ، أما إذا لم يكن منهم بأس فإنه لا بأس أن يؤتى بهم إلى المسجد .

وأما حديث : « **جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم** »[(٣)] فهو ضعيف .

رابعاً : أنه يجوز للمُصلى أن يسمع ما حوله ولا يلزمه أن يسدّ أذنيه ، بل له أن يسمع لكن إن كان ما حوله يشوس عليه إذا سمعه فلا يصلينّ حوله ، وإنما يبعد كما لو أراد الإنسان أن يُصلى فى المسجد وحوله حلقة ذكر، أو حلقة قرآن ، ويخشى أن يشوشوا عليه إذا دنا منهم ، فليبعد ، وأما إذا لم يشوشوا فلا بأس أن يسمع ، بخلاف الاستماع فإن

---

(١) مسلم (٤٤٤) أبو داود (٤١٧٥) النسائى (٨/ ١٥٤) .

(٢) اللجب ، محركة : الجلبة والصياح ، واضطراب موج البحر .

(٣) ابن ماجة (٧٥٠) وضعفه الألبانى فى الإرواء(٧ / ٣٦٢)

Marfat.com

المصلى لا يستمع إلا إلى قراءة الإمام .

وعلى هذا إذا كنت تُصلى وجاء القارئ يقرأ حديثًا أو موعظة ، فلا تشد سمعك إليه ، لا تستمع إليه ، ولا تجعل تركيزك معه ، أما إذا سمعته ولكنك ماضٍ فى صلاتك لم تهتم به ولم تلتفت إليه فلا بأس .

خامساً : ومن فوائد هذا الحديث أنه يجوز للمصلى أن يغير نيته من تطويل إلى تقصير أو بالعكس ، وإذا وجد سببًا لذلك ؛ لأن النبىُّ ـ ﷺ ـ كان يدخل فى الصلاة ناويًا أن يطيلها فيوجز لما ذكره من السبب .

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله - حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **مَن صلى الفجر فهو فى ذمة الله** » الفجر هى الصلاة الأولى عند بعض العلماء،وعند بعض العلماء أن الصلاة الأولى هى صلاة الظهر ، ولكن الأصح أن الصلاة الأولى : هى صلاة الفجر ، والثانية :الظهر ، والثالثة : العصر ، وهى الوسطى ، والرابعة : المغرب ، والخامسة : العشاء .

وصلاة الفجر تأتى وكثير من الناس نيام ، ولهذا يتكاسل عنها المنافقون . كما قال النبى ـ ﷺ ـ : « **أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً** » (١) .

وهى وصلاة العصر أفضل الصلوات الخمس لقول النبى ـ ﷺ ـ : « **من صلى البردين دخل الجنة** » (٢) .والبردان هما : الفجر والعصر ؛ لأن الفجر براد الليل والعصر براد النهار ، وقوله : « **من صلى الفجر** » ظاهره من صلى فى جماعة أو غير جماعة .

وقولة : « **فهو فى ذمة الله** » أى فى عهده ، يعنى أنه دخل فى عهد الله فكأنه معاهد الله عز وجل ألا يصيبه أحد بسوء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « **فلا يطلبنكم الله من ذمته بشىء** » يعنى لا يترك عهده على من صلى الفجر ؛ لأنه فى ذمة الله وفى عهده ، فإياكم أن يطلبكم الله تعالى من ذمته بشئ ، « **فإنه من يطلبه من ذمته بشىء يدركه ، ثم يكبه على وجهه فى النار** » .

ففى هذا : دليل على أنه يجب احترام المسلمين الذين صدّقوا إسلامهم بصلاة الفجر ؛ لأن صلاة الفجر لا يصليها إلا مؤمن ، فالمنافقون لا يشهدون الجماعة ، ولا يصلون الفجر أبدًا ؛ لأنهم إنما يصلون مراءاةً للناس ، فإذا لم يكن الناس ينتبهون لهم ، فإنهم لا

(١) البخارى (٦٥٧) مسلم (٦٥١) .

(٢) البخارى (٥٧٤) مسلم (٦٣٥) .

Marfat.com

يصلون.

والفجر فى عهد النبى - ﷺ - ليست كالفجر فى يومنا ، بل كان الليل فى عهد النبى - ﷺ - ليلاً حالكا لا يرى الناس فيه ، فيأتى الإنسان ويذهب وهو لا يعرف ، لكن الآن ليلنا - والحمد لله - كنهارنا بما أنعم الله علينا به من هذه الإضاءة بالكهرباء ، لكن فى عهد النبى - ﷺ - لظلمة الليل وعدم وضوح الرؤية ، كان المنافقون لا يصلون الفجر والعشاء جماعة . والمهم أن هذا الحديث يدل على وجوب احترام المسلمين الذين برهنوا على إسلامهم بصلاة الفجر وأنه لا يجوز لأحد أن يعتدى عليهم .

* * *

[١٢/ ٢٣٣] وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنَّ رسول الله - ﷺ - قال : « **المُسْلمُ أخُو المُسْلم ، لا يَظْلمهُ ، ولا يُسْلمُهُ ، مَنْ كانَ فى حَاجَة أخيه كَانَ اللهُ فى حَاجَته ، ومَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلم كُرْبَةً فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيامَة ، ومَنْ سَتَرَ مُسْلماً سَتَرَهُ اللهُ يَومَ القيامَة** » متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف -رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى - ﷺ - قال : « **المسلم أخو المسلم** » يعنى فى الدين ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿**فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [آل عمران : ١٠٣]. وقال الله تعالى : ﴿**فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ**﴾ [الأحزاب . ٥]. وهذه الأخوة هى أوثق الأخوات ، أوثق من أخوة النسب ، فإن أخوة النسب قد يتخلف مقتضاها ، فيكون أخوك من النسب عدواً لك كارهًا لك ، وذلك يكون فى الدنيا وفى الآخرة ،قال الله تعالى : ﴿ **الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف : ٦٧].

أما أخوة الدين فإنها أخوة ثابتة راسخة فى الدنيا وفى الآخرة ، تنفع الإنسان فى حياته وبعد مماته ، لكن هذه الأخوة لا يترتب عليها ما يترتب على أخوة النسب من التوارث ووجوب النفقة وما أشبه ذلك .

ثم قال : « **لا يظلمه ولا يسلمه** » لا يظلمه لا فى ماله ، ولا فى بدنه ، ولا فى عرضه ولافى أهله ، يعنى لا يظلمه بأى نوع من الظلم ، « **ولا يسلمه** » **يعنى لا يسلمه لمن يظلمه ، فهو يدافع عنه ويحميه من شره ، فهو جامع بين أمرين :**

[١٢/ ٢٣٣] صحيح : رواه البخارى (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) .

Marfat.com

الأمر الأول : أنه لا يظلمه .

والأمر الثانى : أنه لا يُسلمه لمن يظلمه ، بل يدافع عنه .

ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - : يجب على الإنسان أن يُدفع عن أخيه فى عرضه وبدنه وماله . **فى عرضه** : يعنى إذا سمع أحدًا يسبه ويغتابه ، يجب عليه أن يُدافع عنه ، **وكذلك أيضاً فى بدنه** : إذا أراد أحد أن يعتدى على أخيك المسلم وأنت قادر على دفعه ، وجب عليك أن تُدافع عنه .

وكذلك فى ماله : لو أراد أحد أن يأخذ ماله ، فإنه يجب عليك أن تُدافع عنه ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **والله فى حاجة العبد ما كان العبد فى حاجة أخيه** » يعنى أنك إذا كنت فى حاجة أخيك تقضيها وتُساعده عليها ، فإن الله تعالى يُساعدك فى حاجتك ويعينك عليها جزاءً وفاقًا .

ويفهم من ذلك : أن الإنسان إذا ظلم أخاه ، فإن أخوته ناقصة ، وإذا أسلمه إلى مَن يَظلمه فإن أخونه ناقصة ، وإذا لم يكن فى حاجته ، فإن هذا يفوته الخير العظيم ، وهو كون اللّٰه تعالى فى حاجته .

ثم قال : « **ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج اللّٰه عنه كربة من كرب يوم القيامة** » الكرب ما يضيق على الإنسان ويُشق عليه ، ويجد له فى نفسه همًا وغمًا ، فإذا فرّجت عن أخيك هذه الكربة فرج اللّٰه عنك كربة من كرب يوم القيامة .

وتفريج الكربات يكون فى أمور متعددة : إن كانت كربة مالية فبإعطائه المال الذى تزول به الكربة ، وإن كانت كربة معنوية فبالحرص على ردٌ معنويته ورد اعتباره حتى تزول عنه الكُربة ، وإذا كانت كُربة هم وغم فبأن تُوسع عليه وتنفس له ، وتبين له أن الأمور لا تدوم ، وأن دوام الحال من المحال ، وتبين له ما فى هذا من الأجر والثواب العظيم ، حتى تهوّن عليه الكربة .

« **ومَن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة** » ستر يعنى غطى عيبه ولم يُبينه ، فإن اللّٰه يستره فى الدنيا والآخرة، وهذا ليس على الإطلاق فهناك نصوص تدل على أنه غير مطلق ، فالستر قد يكون مأموراً به محموداً ، وقد يكون حراماً ، فإذا رأينا شخصاً على معصية ، وهو رجل شرير منهمك فى المعاصى، لا يزيده الستر إلا طغياناً ، فإننا لا نستره،بل نبلغ عنه حتى يُردع ردعًا يحصل به المقصود . أما إذا لم تبدر منه بوارد سيئة ، ولكن حصلت منه هفوة ، فإن من المستحب أن تستره ولا تبينه لأحد ، لا للجهات المسئولة

Marfat.com

ولا لغيرها ، فإذا سترته ستر الله عليك فى الدنيا والآخرة .

ومن ذلك أيضاً : إن تستر عنه العيب الخلقى ، إذا كان فيه عيب فى خلقته كجروح مؤثرة فى جلده أو برص أو بهق أو ما أشبه ذلك ، وهو يتستر ويحب ألا يطلع عليه الناس فإنك تستره ، إذا سترته سترك الله فى الدنيا والآخرة . وكذلك إذا كان سيئ الخلق لكنه يتظاهر للناس بأنه حسن الخلق وواسع الصدر ، وأنت تعرف عنه خلاف ذلك ، فاستره فمن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة . فالستر كما قلت بالنسبة للأعمال السيئة التى يقوم بها الإنسان ينقسم إلى قسمين : يكون من شخص منهمك فى المعاصى مستهتر ، فهذا لا نستر عليه ، وقسم آخر : حصل منه هفوة ، فهذا هو الذى نستر عليه ، أما الأمور الأخرى فالستر فيها أكمل وأفضل . والله المستعان .

***

[١٣/ ٢٣٤] وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **المسلم أخو المسلم لا يَخُونُه وَلا يَكْذِبُهُ وَلا يَخْذُلُهُ ، كُلُّ الْمُسْلِم عَلَى الْمُسْلِم حَرَامٌ عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ، التَّقْوَى ههُنَا ، بِحَسْبِ امْرِئٍ منَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاهُ المَسلم** » رواه الترمذى وقال: حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبى هريرة - ﷺ - أن النبى - ﷺ - قال : « **المسلم أخو المسلم** » وقد تقدم الكلام على هذه الجملة ، وأن هذه الأخوة أخوة الإيمان ، وأنها أقوى رابطة وأوثق من النسب ، وبينا وجه ذلك فيما سبق .

وبيّن هنا فى هذا الحديث أنه « **لا يظلمه ولا يخونه ولا يكذبه** » لايخونه يعنى لا يغدر به فى محل الائتمان ، إذا ائتمنه على شئ أو على مال ، أو على سر ، أو على غير ذلك فإنه لا يخونه ، والخيانة هى الغدر بالشخص فى موضع الائتمان ، ولا يجوز لأحد أن يخون أخاه المسلم حتى وإن خانه ، يعنى وإن خانك أخوك المسلم فلا تخنه لقول النبى - ﷺ - : «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن مَن خانك » فلو فرضنا أن شخصا خانك فى مال ، بأن أقرضته مالاً أى سلفته ، ثم أنكر بعد ذلك، وقال : لم تقرضنى شيئًا ، فإنه لا يحل لك أن تخونه فتقترض منه ثم تنكره ، بل أدِّ إليه أمانته واسأل الله الحق الذى لك؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : « **لا تخن من خانك** » .

[١٣/ ٢٣٤] صحيح : رواه الترمذى (١٩٢٧) . وصححه الألبانى (١٥٧٢ صحيح الترمذى) .

Marfat.com

كذلك أيضًا : لا يكذبه أى لا يحدثه بكذب ، والكذب حرام ، وكلما كانت آثاره أسوأ كان أشد إثمًا ، وليس فى الكذب شيء حلالاً ، وأما ما ادعاه بعض العامة حيث يقولون : إن الكذب نوعان : أسود وأبيض ، فالحرام هو الأسود والحلال هو الأبيض ، فجوابه : أن الكذب كله أسود ، ليس فيه شئ أبيض : لكن يتضاعف إثمه بحسب ما يترتب عليه ، فإذا كان يترتب عليه أكل مال المسلم ، أو غرر على مسلم ،صار أشد إثمًا، وإذا كان لا يترتب عليه أى شئ من الأضرار ، فإنه أخف ولكنه حرام .

لكن ورد عن النبى - ﷺ - : « **أنه رخّص فى الكذب عند الإصلاح بين الناس ، وفى الحرب ، وفى حديث الرجل امرأته ، وحديثها إياه** »[(١)] .

ولكن كثيرًا من العلماء قال : إن المراد بالكذب فى هذا الحديث ليس الكذب الصريح، وإنما هو التورية ، والتورية تُسمى كذبًا ، كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين يأتي الناس له يوم القيامة ليشفع لهم : إنه كذب ثلاث كذبات ، وهو لم يكذب ولكنه ورّى تورية ، يعنى أظهر للمخاطب شيئًا غير الذى يريده هو ، فبعض العلماء يقول : إن هذا الحديث الذى فيه أن الكذب يجوز فى هذه الأشياء الثلاثة ، يُراد به كذب التورية لا الكذب الصريح ، وعلى هذا فلا يُستثنى من الكذب شئ ، وكل الكذب حرام، ثم اعلم أن الكذب يحار فيه الإنسان ويعجز عن معالجته كما قيل :

لى حيلةٌ فى مَن ينمُّ وليس فى الكذابِ حيلة
مَن كان يخلق ما يقولُ فحيلتى فيه قليلة

الذى ينمُّ والذى يُلقى النميمة بين الناس ، لى فيه حيلة ـ أى يمكن أن أحتال وأتخلص منه ومن شره ـ ، لكن الذى يكذب يقول فعلت وفعلت وهو كاذب ، ليس لى فيه حيلة إذا كان يخلق ما يقول وما شاء قاله ، فهذا مشكل ليس لى فيه حيلة ، ولهذا قال هنا: «ولا يكذبه».وفى لفظ : « **ولا يحقره** » يعنى لا يحتقره ولا يستصغره ، حتى وإن كان أكبر منه سنًا ، وإن كان أكثر منه مالاً ، وإن كان أغزر منه علمًا فلا يحقره .

واحتقار الناس من الكِبر والعياذ بالله ، قال النبى - ﷺ - : « **الكبر بطر الحق وغمط الناس** »[(٢)] بطر الحَق يعنى رده ، وغمط الناس يعنى احتقارهم وازدراءهم ، فالمسلم يرى أخاه بعين الإكبار ويحترمه ويعظمه . والعامة يقولون : احترم الناس

---

(١) أبو داود (٣٥٣٤) الترمذى (١٢٦٤) وصححه الألبانى فى المشكاة (٢٩٣٤) .

(٢) مسلم (٩١) الترمذى (١٩٩٩) .

Marfat.com

يحترموك ، واحتقر الناس يحتقروك . يعنى مَن رأى الناس بعين الاحتقار رأوه بعين الاحتقار ، ومَن رآهم بعين الإكبار والإجلال ، رأوه بعين الإكبار والإجلال ، وهذا شئ مُشاهد .

ولهذا تجد الرجل المتواضع اللين الهين محترمًا عند الناس كلهم ، لا أحد يكرهه ، ولا أحد يسبه ، والإنسان الشامخ بأنفه المستكبر المحتقر لغيره ، تجده مكروهًا مذمومًا عند الناس ، ولولا حاجة الناس إليه إذا كانوا يحتاجون إليه ما كلمه أحد . لأنهم يحتقرونه .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « **التقوى هاهنا** » أشار إلى صدره ثلاث مرات ، يعنى أن التقوى فى القلب ، فإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ، وإذا لم يتق القلب لم تتق الجوارح ، وهذا كقوله - ﷺ - : « **ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب** »[(١)] فإذا كان فى قلب الإنسان تقوى لله عز وجل وخوفٌ منه وخشية له ، استقامت أعماله الظاهرة ؛ لأن الأعمال الظاهرة تتبع القلب .

وقد مثل بعض العلماء ومنهم أبو هريرة - رضي الله عنه - القلب بالملك المطاع مع جنوده ، فالملك المطاع مع جنوده إذا أمرهم بشىء أطاعوه ، ولكن بعض العلماء قال : إن هذا المثال أنقص من قول النبى - ﷺ - : « **إذا صلحت صلح الجسد كله** » وذلك لأن الملك مع جنوده وإن كان مُطاعًا فإنهم لا يصلحون بصلاحه ، لكن القلب إذا صلح صلح الجسد ، وإذا اتقى اتقى الجسد .

واعلم أن من الناس مَن يُجادل بالباطل بهذا الحديث ، فإذا أمرته بمعروف ، أو نهيته عن منكر ، قال : التقوى هاهنا ، تقول له : لا تحلق لحيتك ، فحلق اللحية حرام، وحلق اللحية من هدى المجوس والمشركين ، وإعفاء اللحية من هدى النبيين والمرسلين وأولياء الله الصالحين . إذا قلت له هذا قال : التقوى هاهنا ، التقوى هاهنا . نقول له : كذبت ، وإنه ليس فى قلبك تقوى ، لو كان فى قلبك تقوى لاتقيت الله؛ لأن القلب إذا اتقى اتقت الجوارح ، وإذا نهمك فى معصية الله انهمكت الجوارح .

وفى قوله : « **التقوى هاهنا** » وإشارته إلى صدره دليل على أن العقل فى القلب الذى فى الصدر ، وهذا هو المطابق للقرآن تمامًا ، قال الله تعالى : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج : ٤٦] . فقال : ﴿ **قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا** ﴾ ثم قال : ﴿**وَلَكِن**

(١) البخارى (٥٢) مسلم (١٥٩٩) .

Marfat.com

تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ .

وليس القلبُ هو المخُّ كما يظنه بعض الجهال ، فالعقل فى القلب ، ولكن المخ لاشك أن له أثرًا فى أعمال العبد ، فى حركاته ، وفى سكناته ، لكنهم قالوا : إن المخ مثل الخادم ، يهيئ الأشياء ويطبخها ، ثم يبعث بها إلى القلب ، ثم يصدر القلب الأوامر على المخ من أجل أن المخ يدير الأعصاب وبقية الجسم فيكون هذا المخ خادمًا للقلب عند تصدير الأشياء إليه واستصدارها منه ، فالأشياء تمر من القلب ذاهبة وآتية إلى المخ ، والمخ هو الذى يحرك البدن ، ولذلك إذا اختل المخُّ اختل كل شئ .

ثم قال - ﷺ - : « **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** » يعنى لو لم يكن من الشر للمسلم إلا أن يحقر أخاه ويستصغره ويستذله لكان كافيًا فى الإثم ، والعياذ بالله، وفى هذا التحريم أعظم زاجر من احتقار أخيك المسلم وأن الواجب عليك أن تحترمه وتعظمه بما فيه من الإسلام والإيمان .

ثم قال - ﷺ - : « **كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه** » : « **كل المسلم على المسلم حرام دمه** » فلا يعتدى على المسلم بقتل أو جرح أو غير ذلك « **وماله** » فلا يؤخذ ماله ، لا غصبًا ، ولا سرقة ، ولا خيانة ، ولا دعوى ما ليس له ، ولا غير ذلك بأى طريق ، فلا يحل لك أن تأخذ مال أخيك بغير حق فإنه حرام عليك .

« **وعرضه** » بألا تنتهك عرضه ، وتتكلم فيه بين الناس ، سواء كنت صادقًا فيما تقول أو كاذبًا ؛ لأن النبى - ﷺ - لما سئل عن الغيبة فقال : « **ذكرك أخاك بما يكره** » قالوا : يا رسول الله : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ، قال : « **إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته** » فالواجب على المسلم أن يحترم أخاه فى ماله وعرضه ودمه ، كما قال - ﷺ - : « **كل المُسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه**» .

* * *

[٢٣٥/١٤] وعنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **لا تَحَاسَدُوا ، وَلا تَنَاجَشُوا ، وَلا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَدَابَرُوا وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ ، وَكُونُوا عِبادَ الله إِخْوَاناً ، المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم : لا يَظْلِمُه وَلا يَحْقِرُهُ ، وَلا يَخْذُلُهُ ، التَّقْوَى هٰهنَا ــ وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ــ بِحَسْبِ امرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى**

[٢٣٥/١٤] صحيح : رواه مسلم (٢٥٦٤) أحمد (٢/ ٢٧٧) .

Marfat.com

المُسْلِمِ حَرَامٌ ، دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضه » رواه مسلم .

« النَّجَش » : أنْ يَزِيدَ فِي ثَمنِ سِلْعَةٍ يُنادى عَلَيْهَا فِي السُّوق وَنَحْوِهِ ، وَلا رَغْبَة لَه فِي شِرَائِهَا ، بَلْ يَقْصد أنْ يَغُرَّ غَيْرَهُ ، وَهذَا حَرَام . و« التَّدَابُرُ » : أنْ يُعْرِضَ عَن الإنسَانِ وَيَهْجُرهُ وَيَجْعَلَهُ كَالشَّيْءِ الذَّى وَرَاءَ الظهْر وَالدُّبرِ .

الشرح

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ فيما نقله عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **لا تحاسدوا** » أى لا يحسد بعضكم بعضًا ، والحسد أن يكره الإنسان ما أنعم الله به على غيره ، هذا هو الحسد ، ومثاله : أن تكره أن الله أنعم على هذا الرجل بالمال ، أو بالبنين ، أو بالزوجة ، أو بالعلم ، أو بالعبادة ، أو بغير ذلك من النعم ، سواء تمنيت أن تزول أم لم تتمن .

وإن كان بعض العلماء يقول : إن الحسد أن يتمنى زوال نعمة الله على غيره ، لكن هذا أخبثه وأشده ، وإلا فمجرد كراهة الإنسان أن ينعم الله على شخص فهو حسد ، والحسد من خصال اليهود ، فمن حسد فهو متشبه بهم والعياذ بالله ، قال الله تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة:١٠٩] . وقال تعالى فيهم : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] . ولا فرق بين أن تكره ما أنعم الله به على غيرك ليعود هذا الشئ إليك ، أو ليرتفع عن أخيك وإن لم يعد إليك .

واعلم أن فى الحسد مفاسد كبيرة :

منها : أنه تشبه باليهود أخبث عباد الله وأخس عباد الله ، الذين جعل الله منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت .

ومنها : أن فيه دليل على خبث نفس الحسد ، وأنه لا يحب لإخوانه ما يُحب لنفسه؛ لأن مَن أحب لإخوانه ما يحب لنفسه لم يحسد الناس على شيء ، بل يفرح إذا أنعم الله على غيره بنعمة ويقول : اللهم آتنى مثلها ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : ٣٢] .

ومنها : أن فيه اعتراضًا على قدر الله عز وجل وقضائه ، وإلا فمن الذى أنعم على

Marfat.com

هذا الرجل ؟ الله عز وجل ، فإذا كرهت ذلك فقد كرهت قضاء الله وقدره ، ومعلوم أن الإنسان إذا كره قضاء الله وقدره فإنه على خطر فى دينه ـ نسأل الله العافية ـ لأنه يريد أن يزاحم ربَّ الأرباب جل وعلا فى تدبيره وتقديره .

ومن مفاسد الحسد : أنه كلما أنعم الله على عباده نعمة التهبت نار الحسد فى قلبه فصار دائمًا فى حسرة ودائمًا فى غم ؛ لأن نعم الله على العباد لا تحصى ، وهو رجل خبيث كلما أنعم الله على عبده نعمة غلى ذلك الحسد فى قلبه حتى يحرقه .

ومن مفاسد الحسد : أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب كما قال ـ ﷺ ـ : **«إياكم والحسد ؛ فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »** (١) .

ومن مفاسده : أنه يعرقل الإنسان عن السعى فى الأشياء النافعة ؛ لأنه دائمًا يفكر ويكون فى غم ، كيف جاء هذا الرجل مالٌ ؟ كيف جاءه علم ؟ كيف جاءه ولد ؟ كيف جاءه زوجة وما أشبه ذلك ، فتجده دائمًا متحسرًا منطويًا على نفسه ، ليس له هم إلا تتبع نعم الله على العباد واغتمامه بها نسأل الله العافية .

ومن مفاسد الحسد : أنه ينبئ عن نفس شريرة ضيقة ، لا تحب الخير ، وإنما هى نفس أنانية تريد أن يكون كل شئ لها .

ومن مفاسد الحسد أيضًا : أنه لا يمكن أن يغير شيئًا مما قضاه الله عز وجل أبدًا ، مهما عملت ، ومهما كرهت ، ومهما سعيت لإخوانك فى إزالة نعم الله عليهم ، فإنك لا تستطيع شيئًا .

ومن مفاسده : أنه ربما يترقى بالإنسان إلى أن يصل إلى درجة العائن ، والعائن الذى تسميه النحوت يعين الناس ؛ لأن العائن أصله أن نفسه شريرة حاسدة حاقدة ، إذا رأى ما يعجبه انطلق من هذه النفس الخبيثة مثل السهم حتى يصيب بالعين ، فالإنسان إذا حسد وصار فيه نوع من الحسد ، فإنه يرتقى به الأمر حتى يكون من أهل العيون الذين يؤذون الناس بأعينهم ، ولاشك أن العائن عليه من الوبال والنقمة بقدر ما ضرَّ العباد . إن ضرهم بأموالهم فعليه من ذلك إثم أو بأبدانهم أو بمجتمعهم ، ولهذا ذهب كثير من أهل العلم إلى تضمين العائن كل ما أتلف ، يعنى إذا نحت أحدًا وأتلف شيئًا من ماله أو أولاده أو غيرهم فإنه يضمن ، كما أنهم قالوا : إن من اشتهر بذلك فإنه يجب أن يُحبس

(١) ضعيف : رواه أبو داود (٤٩٠٣) فى الأدب ، باب : فى الحسد ، من حديث أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ ، وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف أبى داود (١٠٤٨) ، والضعيفة (١٩٠٢) .

Marfat.com

إلا أن يتوب ، يحبس اتقاء شره ؛ لأنه يؤذى الناس ويضرهم ، فيحبس كفًا لشره .

ومن مفاسد الحسد :أنه يؤدى إلى تفرق المسلمين ؛ لأن الحاسد مكروه عند الناس ، مبغض ، والإنسان الطيب القلب الذى يحب لإخوانه ما يحبه لنفسه ، تجده محبوبًا من الناس ، الكلُ يحبه ، ولهذا دائمًا نقول : والله فلان هذا طيب ما فى قلبه حسد ، وفلان رجل خبيث حسود وحقود وما أشبه ذلك .

فهذه عشر مفاسد كلها فى الحسد ، وبهذا نعرف حكمة النبى ـ ﷺ ـ حيث قال : «**لا تحاسدوا** » أى : لا يحسد بعضكم بعضًا ، فإن قال قائل : ربما يجد الإنسان فى نفسه أنه يحب أن يتقدم على غيره فى الخير ، فهل هذا من الحسد ؟ فالجواب : أن ذلك ليس من الحسد ، بل هذا من التنافس فى الخيرات ، قال الله تعالى : ﴿ **لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ** ﴾ [الصافات : ٦١] . وقال تعالى : ﴿ **وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** ﴾ [المطففين:٢٦] . فإذا أحب الإنسان أن يتقدم على غيره فى الخير ، فهذا ليس من الحسد فى شىء، الحسد أن يكره الخير لغيره .

واعلم أن للحسد علامات :منها ، أن الحاسد يحب دائما أن يخفى فضائل غيره ، فإذا كان إنسان ذو مال ، ينفق ماله فى الخير من صدقات ، وبناء مساجد ، وإصلاح طرق ، وشراء كتب ، يوقفها على طلبة العلم وغير ذلك ، فتجد هذا الرجل الحسود إذا تحدث الناس على هذا المحسن يسكت وكأنه لم يسمع شيئًا ، هذا لاشك أن عنده حسدًا؛ لأن الذى يحب الخير يحب نشر الخير للغير ، فإذا رأيت الرجل إذا تكلم عن أهل الخير بإنصاف وأثنى عليهم وقال : هذا فيه خير وهذا محسن ، وهذا كريم ، فهذا يدل على طيب قلبه وسلامته من الحسد . نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الحسد ومن منكرات الأخلاق والأعمال . .

أما قوله : « **ولا تناجشوا** » فالنجش هو أن يزيد فى السلعة على أخيه وهو لا يريد شرائها ، وإنما يريد أن يضر المشترى أو ينفع البائع أو الأمرين جميعًا .

مثال ذلك : عرضت سلعة فى السوق فصار الناس يتزايدون فيها ، فقام رجل فجعل يزيد فيها وهو لا يريد الشراء ، تسام بمائة فقال : بمائة وعشرة وهو لا يريد أن يشترى ، ولكنه يريد أن يزيد الثمن على المشترى ، أو يريد أن ينفع البائع فيزيد الثمن له أو الأمرين جميعًا ، فهذا حرام ولا يجوز لما فيه من العدوان ، أما إذا زاد الإنسان فى الثمن عن رغبة فى السلعة ؛ ولكن لما ارتفعت قيمتها تركها ، فهذا لا بأس به ، فإن كثيرًا من الناس يزيد فى السلعة لأنه يرى أنها رخيصة ، فإذا زادت قيمتها تركها فهذا ليس عليه بأس . كما أن

Marfat.com

من الناس من يزيد فى السلعة يريدها ويزيد فى ثمنها حتى تخرج عن قيمتها كثيراً .

فالناس على زيادتهم فى السلعة على ثلاثة أقسام : **القسم الأول** : نجش وهو حرام ، **الثانى** : يزيد فيها ؛ لأنه يرى أنها رخيصة ، وأنها ستكسبه ، وليس له قصد فى عين السلعة ولا يريدها بعينها ، لكن لما رأى أنها رخيصة وأنها ستكسبه جعل يزيد ، فلما ارتفعت قيمتها تركها فهذا أيضًا لا بأس به . **الثالث** : أن يكون له غرض فى السلعة ، يريد أن يشترى هذه السلعة، فيزيد حتى يطيب خاطره ويظفر بها، فهذا أيضًا لا بأس به .

وقوله ـ ﷺ ـ : « **ولا تباغضوا** » أى : لا يبغض بعضكم بعضًا ، وهذه بالنسبة للمؤمنين بعضهم مع بعض ، فلا يجوز للإنسان أن يُبغض أخاه أى : يكرهه فى قلبه ؛ لأنه أخوه ، ولكن لو كان هذا الأخ من العصاة الفسقة ، فإنه يجوز لك أن تبغضه من أجل فسقه ، لا تبغضه بغضًا مطلقًا ، لكن أبغضه على ما فيه من المعصية ، وأحبه على ما فيه من الإيمان .

ومن المعلوم أننا لو وجدنا رجلاً مسلمًا يشرب الخمر ويشرب الدخان ويجر ثوبه خيلاء ، فإننا لا نبغضه كما نبغض الكافر ، فمن أبغضه كما يبغض الكافر فقد انقلب على وجهه ، كيف تسوى بين عاصٍ فاسق ، وبين الكافر ؟ هذا خطأ عظيم . ربما بعض الناس يكره المؤمن الذى عنده هذا الفسق أكثر مما يكره الكافر ، وهذا والعياذ بالله من انقلاب الفطرة ، فالمؤمن مهما كان خير من الكافر .

فأنت أبغضه على ما فيه من المعصية وأحبه على ما معه من الإيمان ، فإن قلت : كيف يجتمع حب وكراهية فى شئ واحد ؟ فالجواب : أنه يمكن أن يجتمع حب وكراهية فى شيء واحد ، أرأيت لو أن الطبيب وصف لك دواءً مرًا منتن الرائحة ، ولكنه قال : اشربه وتشفى بإذن الله ، فإنك لا تحب هذا الدواء على سبيل الإطلاق ؛ لأنه مر وخبيث الرائحة ، ولكنك تحبه من جهة أنه سبب للشفاء ، وتكرهه لما فيه من الرائحة الخبيثة والطعم المر .

هكذا المؤمن العاصى ، لا تكرهه بالمرة ، بل تحبه على ما معه من الإيمان وتكرهه على ما معه من المعاصى . ثم إن كراهتك إياه لا توجب أن تعرض عن نصيحته ، بأن تقول : أنا ما أتحمل أن أواجه هذا الرجل لأنى أكره منظره ، بل اغصب نفسك واتصل به وانصحه ، ولعل الله أن ينفعه على يديك ولا تيأس ، كم من إنسان استبعد الإنسان أن يهديه الله فهداه الله عز وجل .

والأمثلة على هذا كثيرة فى وقتنا الحاضر وفيما سبق ، فى وقتنا الحاضر يوجد أناس

Marfat.com

فسقة يسَّر الله لهم من يدعوهم إلى الحق فاهتدوا ، وصاروا أحسن من الذى دعاهم ، وفيما سبق من الزمان أمثلة كثيرة ، فهذا خالد بن الوليد - رضي الله عنه - كان سيفاً مسلولاً على المسلمين ، ومواقفه فى أحد مشهورة حيث كر هو وفرسان من قريش على المسلمين من عند الجبل، وحصل ما حصل من الهزيمة، ثم هداه الله تعالى . وعمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كان من أكره الناس لما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهداه الله ، وكان من أولياء الله ، فكان الثانى فى هذه الأمة .

لذلك فلا تيأس ، ولا تقل : إننى لا أطيق هذا الرجل ، لا منظراً ، ولا مسمعاً ، ولا يمكن أن أذهب إليه ، بل اذهب ولا تيأس ، فالقلوب بيد الله عز وجل ، نسأل الله أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم .

فإن قال قائل : البغضاء هى انفعال فى النفس ، والأشياء الانفعالية قد لا يطيقها الإنسان كالحب مثلاً ، فالحب ما يملك الإنسان أن يحب شخصاً أو أن يقلل من محبته أن يزيد فى محبته إلا بأسباب ، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام ، وهو يقسم بين زوجاته : « **اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلومنى فيما لا أملك** »[(١)] يعنى فى المحبة، ومن المعلوم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحب عائشة - رضي الله عنها - أكثر من غيرها من زوجاته ، لكن هذا بغير اختيار .

فإذا قال قائل : الغضب انفعال لا يمكن للإنسان أن يسيطر عليه ، فالجواب : الانفعال يحصل بفعل ، فأنت مثلاً لا تحب شخصاً إلا لأسباب : إيمانه ، نفعه للخلق ، حسن خلقه ، خدمته لك ، أو غيرها من الأشياء الكثيرة ، تذكر هذه الأسباب فتحبه ، ولا تكره شخصاً إلا لسبب ، تذكر الأسباب التى توجب الكراهة فتكرهه ، لكن مع ذلك ينبغى للإنسان أن يعرض عن الأسباب التى توجب البغضاء مع أخيه ؛ لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « **لا تباغضوا** » .

لكن أقول : إن البغضاء لها أسباب ، والمحبة لها أسباب ، فإذا أعرضت عن أسباب البغضاء وتناسيتها وغفلت عنها زالت بإذن الله ، وهذا هو الذى أراده النبى عليه الصلاة والسلام بقوله : « **لا تباغضوا** » ، وهو نظير قوله للرجل الذى قال : يا رسول الله ، أوصنى ، قال : « **لا تغضب** » قال : أوصنى ، قال : « **لا تغضب** » قال : أوصنى ، قال : « **لا تغضب** » ردد مراراً قال : « **لا تغضب** »[(٢)] .

---

(١) أبو داود (٢١٣٤) أحمد (٦/ ١٤٤) وضعفه الألبانى فى ضعيف أبى داود .

(٢) البخارى (٦١١٦) الترمذى (٢٠٢٠) .

Marfat.com

قد يقول الإنسان : إن الغضب جمرة يلقيها الشيطان فى قلب ابن آدم ، كما جاء فى الحديث [(١)] ، فلا سبيل له إلا إخماده .

ونقول : بل له سبيل ، افعل الأسباب التى تخفف الغضب حتى يزول عنك الغضب .

قال : « ولا تدابروا » فهل المراد ألا يولى بعضكم دبر بعض من التدابر الحسى ؟ بمعنى مثلاً أن تجلس وتخلى الناس وراءك فى المجالس ، نعم هذا من المدابرة ، ومن المدابرة أيضًا المقاطعة فى الكلام حين يتكلم أخوك معك وأنت قد صددت عنه ، أو إذا تكلم وليت وخليته ، فهذا من التدابر ، وهذا التدابر حسى .

وهناك تدابر معنوى ، وهو اختلاف الرأى ، بحيث يكون كل واحد منا له رأى مخالف للآخر ، وهذا التدابر فى الرأى أيضًا نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعندى أن من التدابر ما يفعله بعض الإخوة إذا سلم من الصلاة تقدم على الصف مقدار شبر أو نحوه ، فهذا فيه نوع من التدابر ، ولهذا شكا إلىَّ بعض الناس هذه الحال، قال بعض الناس إذا سلمنا تقدم قليلاً ثم يحول بينى وبين الإمام ، لا سيما إذا كان هناك درس فإنه يحول بينى وبين مشاهدة الإمام ، ومعلوم أن الإنسان إذا كان يرى المدرس كان أنبه له وأقرب للفهم والإدراك ، فبعض الناس يكره هذا الشئ ، لذا أيضًا ينبغى للإنسان أن يكون ذا بصيرة وفطنة فلا تتقدم على إخوانك وتلقيهم وراءك ، إذا كان بودك أن تتوسع فقم وتقدم بعيدًا واجلس إذا كنت فى الصف الأول ، وإن كنت فى الصف الثانى تأخر ، أما أن تتقدم على الناس وتبقى لهم ظهرك فهذا فيه نوع من سوء الأدب ، وفيه نوع من التدابر ، فينبغى فى هذه المسألة وفى غيرها أن يتفطن الإنسان لغيره ، بل لا يكون أنانيًا يفعل فقط ما طرأ على باله فعله ، دون مراعاة للناس ، ودون حذر من فعل ما ينتقد عليه .

أما الجملة الخامسة : فهى قوله : « ولا يبع بعضكم على بيع بعض » لا يبع بعضكم على بيع بعض ؛ لأن هذا يؤدى إلى الكراهية والعداوة والبغضاء . ومثال بيع الإنسان على بيع أخيه : أن يذهب لمن اشترى سلعة من شخص بمائة فيقول : أنا أعطيك مثلها بثمانين ، أو أعطيك أحسن منها بمائة فيرجع المشترى ويفسخ العقد الأول ويعقد مع الثانى، ففى هذا عدوان ظاهر على حق البائع الأول ، وهذا العدوان يوجب العداوة والبغضاء بين المسلمين .

---

(١) انظر أحمد (١٩/٣) .

Marfat.com

ومثل ذلك الشراء على شرائه ، مثل : أن يذهب إلى شخص باع سلعة بمائة فيقول له : أنا أشتريها منك بمائة وعشرين ، فيذهب البائع ويفسخ العقد ويبيع على الثانى ، فهذا أيضًا حرام ؛ لأنه بمعنى البيع على البيع .

ولكن هذا خاص فى زمن الخيار أو عام ؟

الحديث عام أنه لا يحل لك أن تبيع على بيع أخيك سواء فى زمن الخيار أم لا ، وقال بعض العلماء : إنه محمول على ما إذا كان ذلك فى زمن الخيار ؛ لأنه إذا انتهى زمن الخيار فإنه لا يستطيع أن يفسخ العقد ، ومثال ذلك رجل باع على شخص سيارة بعشرة آلاف ريال ، وجعل له الخيار ثلاثة أيام ، فذهب شخص إلى المشترى وقال : أنا أعطيك أحسن منها بعشرة آلاف ريال يسهل على المشترى أن يذهب للبائع ويقول : فسخت العقد ، أو يذهب شخص إلى البائع يقول : سمعت أنك بعت سيارتك على فلان بعشرة آلاف ريال ، أنا أعطيك أحد عشر ألفًا فيفسخ البيع ويرد ويبيعها على الثانى .

أما إذا كان بعد انتهاء المدة فقال بعض العلماء : إنه لا بأس ، يعنى بعد أن باعه وجعل له الخيار ثلاثة أيام وانتهت الأيام الثلاثة فلا بأس أن يذهب إلى الشخص الذى اشتراها ويقول : أنا أعطيك مثلها بأقل ، أو أحسن منها بالثمن الذى اشتريت به ، وعللوا ذلك بأنه لا يمكنه حينئذ أن يفسخ البيع لانتهاء زمن الخيار .

ولكن ظاهر الحديث العموم ؛ وإن كان لا يمكنه أن يفسخ البيع لانتهاء زمن الخيار فإنه قد يحاول أن يوجد مفسدًا للعقد ، أو على الأقل يندم على شرائه ، ويعتقد أن البائع غبنه وأنه لعب عليه ، فيحدث له بذلك العداوة والبغضاء ، وهذا مع قرب المدة ، أما إذا طالت المدة فلا بأس بها ؛ لأنه إذا طالت المدة فإنه من المتعذر أو المتعسر كثيرًا أن يفسخ العقد .

والحاصل أن لدينا ثلاث حالات : **الحالة الأولى** : أن يكون البيع أو الشراء على أخيه فى زمن الخيار ، فلا شك فى أنه حرام . **والحال الثانية** : أن يكون بعد انتهاء زمن الخيار بمدة قريبة ، ففيه خلاف بين العلماء والصحيح أنه حرام ، **والحالة الثالثة** : أن يكون بعد زمن بعيد ، كشهر أو شهرين أو أكثر ، فهذا لا بأس به ، ولا حرج فيه ؛ لأن الناس يتبادلون السلف فيما بينهم على هذا الوجه ، وعلى وجوه أخرى .

ومثل ذلك : الإجارة على إجارته ، مثل أن يذهب شخص إلى آخر استأجر بيتًا من إنسان السنة بألف ريال ، وقال له : أنا عندى لك أحسن منها بثمانمائة ريال ، فهذا حرام؛ لأنه عدوان كالبيع على بيعه ، ومثل ذلك أيضًا السوم على سومه ، وقد جاء

Marfat.com

صريحًا فيما رواه مسلم (١) ، ويسوم على سومه كما إذا سام شخص سلعة من آخر ، وركن إليه صاحب السلعة ، ولم يبق إلا العقد ، مثل أن يقول : بعها على بألف فيركن إليه البائع ، ولكن لم يتم العقد ، بل يجزم أن يبيع عليه ، فيأتى إنسان آخر ويقول : أنا أعطيك بها ألفًا ومائة فإن هذا لا يجوز ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **لا يسم على سوم أخيه** » .

ومثل ذلك أيضًا : فى النكاح ، إذا خطب شخص من آخر فلا يحل لأحد أن يخطب على خطبته ، لقول النبى ـ ﷺ ـ : « **ولا يخطب على خطبة أخيه** » (٢) وكل هذا احترامًا لحقوق المسلمين بعضهم على بعض ، فلا يحل للإنسان أن يعتدى على حق إخوانه ، لا ببيع ولا شراء ولا إجارة ولا سوم ولا نكاح ولا غير ذلك من الحقوق .

بقى الكلام على قوله عليه الصلاة والسلام : « **التقوى هاهنا** » ، ويشير إلى صدره وقد سبق لنا أن المعنى أن التقوى فى القلب ، فإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ، وإذا زاغ القلب زاغت الجوارح ، والعياذ بالله ، قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٨] .

واعلم أن زيغ القلب لا يكون إلا بسبب الإنسان ، فإذا كان الإنسان يريد الشر ولا يريد الخير ، فإنه يزيغ قلبه والعياذ بالله ، ودليل هذا قوله تعالى : ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٠] .

فإذا علم الله من العبد نية صالحة وإرادة للخير يسر الله له ذلك وأعانه عليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥-٧] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم** » يعنى لو لم يكن للإنسان من الشر إلا أن يحقر أخاه المسلم لكان كافيًا ، وهذا يدل على كثرة إثم من حقر إخوانه المسلمين ؛ لأن الواجب على المسلم أن يعظم إخوانه المسلمين ويكبرهم ويعتقد لهم منزلة فى قلبه ، وأما احتقارهم وازدراؤهم فإن فى ذلك من الإثم ما يكفى نسأل الله السلامة .

---

(١) مسلم (١٤٠٨) .

(٢) مسلم (١٤٠٨) .

Marfat.com

ثم قال - ﷺ - : « **كل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه** » يعنى أن المسلم حرام على المسلم فى هذه الأمور الثلاثة ، أى فى كل شىء؛ لأن هذه الأمور الثلاثة تتضمن كل شئ، الدم : كالقتل والجراح ، وما أشبهها ، والعرض : كالغيبة ، والمال : كأكل المال ، وأكل المال له طرق كثيرة ، منها السرقة ، ومنها الغصب - وهو أخذ المال قهرًا - ومنها : أن يجحد ما عليه من الدين لغيره ، ومنها أن يدعى ما ليس له ، وغير ذلك ، وكل هذه أشياء حرام ، ويجب على المسلم أن يحترم أخاه فى ماله ودمه وعرضه .

❊ ❊ ❊

[١٥/ ٢٣٦] وعن أنس - ﷺ - عن النبى - ﷺ - قال : « **لا يُؤمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ** » متفقٌ عليه .

[١٦/ ٢٣٧] وعنه قال : قال رسول الله - ﷺ - « **انْصُرْ أخَاكَ ظَالماً أوْ مَظْلُوماً** » فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رسول الله ، انْصُرُهُ إذَا كَانَ مَظْلُوماً ، أرأيْتَ إنْ كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أنْصُرُهُ؟ .

قال: « **تَحْجُزُهُ - أوْ تَمْنَعُهُ - مِنَ الظلْمِ فَإنَّ ذلكَ نَصْرُهُ** » رواه البخارى .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أنس بن مالك - ﷺ - أن النبى - ﷺ - قال : « **لا يؤمن أحَدُكُمْ حَتَّى يُحبَّ لأخيهِ مَا يُحبُّ لنَفْسه** » لا يؤمن : يعنى لا يكون مؤمنًا حقاً تام الإيمان إلا بهذا الشرط ، أنه يَحب لأخيه ما يَحب لنفسه من الخير ، وما يحب لنفسه من ترك الشر ، يعنى ويكره لأخيه ما يكره لنفسه ، هذا هو المؤمن حقًا ، وإذا كان الإنسان يعامل إخوانه هذه المعاملة فإنه لا يمكن أن يغشهم أو يخونهم ، ولا يكذب عليهم ، ولا يعتدى عليهم ، كما أنه لا يحب أن يُفعل به مثل ذلك .

وهذا الحديث : يدل على أن من كره لأخيه ما يحبه لنفسه ، أو أحب لأخيه ما يكرهه لنفسه فليس بمؤمن ، يعنى ليس بمؤمن كامل الإيمان ، ويدل على أن ذلك من

[١٥/ ٢٣٦] صحيح : تقدم برقم (١٨٣) .

[١٦/ ٢٣٧] صحيح : رواه البخارى (٦٩٥٢) الترمذى (٢٢٥٥) أحمد (٣/ ٩٩) .

Marfat.com

كبائر الذنوب إذا أحببت لأخيك ما تكره لنفسك أو كرهت له ما تحب لنفسك .

وعلى هذا فيجب عليك أخى المسلم أن تربى نفسك على هذا ، على أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك حتى تحقق الإيمان ، وصح عن النبى- ﷺ - أنه قال : « **من أحب أن يزحزح عن النار ويُدخل الجنة ، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويحب أن يأتى إلى الناس ما يؤتى إليه** »[1] الأول : حق الله ، والثانى : حق العباد ، تأتيك المنية وأنت تؤمن بالله وباليوم الآخر ـ نسأل الله يجعلنا وإياكم كذلك ـ وأن تحب أن يأتى لأخيك ما تحب أن يُوتى إليك .

وأما حديث أنس الثانى من قول النبى- ﷺ - : « **انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا** » النصر بمعنى الدفاع عن الغير ، أى : دفع ما يضره ، انصر أخاك أى : ادفع ما يضره ، سواء كان ظالمًا أو مظلومًا ، فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن كان ظالمًا فكيف أنصره ؟ ولم يقل : فلا أنصره ، بل قال : كيف أنصره ؟ يعنى سأنصره ولكن أخبرنى كيف أنصره ، قال : « **تمنعه ـ أو قال : ـ تحجزه من الظلم** ، فإن ذلك نصره » ، فإذا رأيت هذا الرجل يريد أن يعتدى على الناس فتمنعه فهذا نصره ، أى : بأن تمنعه ، أما إذا كان مظلومًا فنصره أن تدفع عنه الظالم .

وفى هذا : دليل على وجوب نصر المظلوم ، وعلى وجوب نصر الظالم على هذا الوجه الذى ذكره النبى- ﷺ - .

❊ ❊ ❊

[٢٣٨/١٧] وعن أبى هريرة- رضي الله عنه - أنَّ رسول الله- ﷺ - قال : « **حَقُّ المُسْلم عَلَى المُسْلم خَمسٌ : ردُّ السَّلام ، وَعِيادَةُ المَرِيضِ ، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ ، وَإجَابَة الدَّعوَةَ ، وَتَشْميتُ الْعَاطِس** » متفقٌ عليه .

وفى رواية لمسلم : « **حَقُّ المُسْلِم ستٌّ : إذَا لَقيتَهُ فَسَلّم عَلَيْه ، وَإذَا دَعاكَ فَأجبْهُ ، وَإذَا اسْتَنْصَحَكَ ، فَانْصحْ لَهُ ، وإذَا عَطَس فَحمِدَ اللهَ ، فَشَمِّتْهُ ، وَإذَا مَرِضَ ، فَعُدْهُ ، وَإذَا مَاتَ ، فَاتْبَعْهُ** » .

الشرح

(١) مسلم (١٨٤٤) أبو داود (٤٢٤٨) النسائى (٧/ ١٥٢) ابن ماجه (٣٩٥٦) .

[٢٣٨/١٧] صحيح : رواه البخارى (٣/ ١٢٤٠) ، ومسلم (٢١٦٢) .

Marfat.com

ذكر المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ هنا ما نقله عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ فى بيان حقوق المسلم على أخيه ، وحقوق المسلم على أخيه كثيرة ، لكن النبى ـ ﷺ ـ أحيانًا يذكر أشياء معينة من أشياء كثيرة عناية بها واحتفاءً بها ، فمن ذلك ما ذكره أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « **حَقُّ الْمُسْلِمِ على المسلمِ خَمْسٌ : رَدُّ السَّلامِ** » يعنى : إذا سلم عليك فرد عليه ، وفى الحديث الثانى : « **حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ : إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ** » .

فهذان أمران : ابتداء السلام المأخوذ من قوله : « **إذا لقيته فسلم عليه** » ، ورد السلام المأخوذ من قوله : « **رد السلام** » ، فابتداء السلام سنة مؤكدة ، وإذا كان الحامل لتركه الهجر كان حرامًا فيما زاد على ثلاثة أيام ، أما فى الثلاثة أيام فأقل فلا بأس أن تهجره ، ومن المعلوم أن الإنسان لـن يهجـر أخاه إلا لسبب ، فأجاز النبى عليه الصلاة والسلام للمسلم أن يهجر أخاه ثلاثة أيام فأقل ؛ لأن الإنسان بشر ، فقد يكون فى النفوس شئ ، ولا يتحمل المرء أن يسلم عليه ، أو أن يرد السلام ، فرُخص له ثلاثة أيام فأقل .

وابتداء السلام يكون من الصغير على الكبير ، ومن الماشى على القاعد ، ومن الراكب على الماشى كل بحسبه ، وصيغة السلام المشروعة أن يقول الإنسان : السلام عليك ، أو السلام عليكم ، كلاهما جائز ، والرد المشروع أن يقول : عليك السلام ، أو : وعليكم السلام .

بهذا يتضح لنا أن النبى ـ ﷺ ـ بين أن من الحقوق التى للمسلم على أخيه السلام ردًا وابتداءًا . وحكم السلام أن ابتداءه سنة ورده فرض ، فرض عين على من قُصد به ، وفرض كفاية إذا قُصد به جماعة ، فإنه يجزئ رد أحدهم ، والسلام حسنة من الحسنات إذا قام به الإنسان فله عشر أمثاله ؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها ، يعنى إذا سلمت على أخيك وقلت: السلام عليك ، فلك عشر حسنات أجرًا باقيًا تجده أحوج ما تكون إليه .

ونحن نعلم أنه لو قيل لشخص كلما لقيت أحدًا فسلمت عليه فلك بكل تسليمة درهم واحد ، لوجدت الإنسان يطلب الناس ليسلم عليهم ابتغاء هذا الدرهم الواحد ، مع أن الدراهم الواحد يفنى ويزول ، والأجر والثواب الباقى نجدنا ـ عاملنا الله وإياكم بعفوه ـ فاترين فيه ، متهاونين به .

فالذى ينبغى لك كلما لقيك أحد من إخوانك المسلمين أن تسلم عليه ، أما غير المسلم فلا تسلم عليه ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام** .

Marfat.com

وإذا وجدتموهم فى طريق فاضطروهم إلى أضيقه »(١) فاليهودى والنصرانى والمشرك والملحد والمرتد كالذى لا يصلى ، والمبتدع بدعة يكفر بها ، كل هؤلاء لا يحل ابتداء السلام عليهم ، ولو كانوا أقرب الناس إليك ، لكن إذا سلموا فرد عليهم بمثل ما سلموا به ، إذا قالوا : أهلاً ومرحبًا ، فقل : أهلاً ومرحبًا ، وإذا قالوا : السلام عليك ، قل : وعليكم السلام ، وإذا شككت : هل هو يقول : السلام عليكم ، أو يقول : السام عليكم ، فقل : وعليكم بل إذا لم تتيقن أنه قال : السلام عليكم باللام فقل : وعليكم ، وذلك أن اليهود كانوا يمرون بالنبى ـ ﷺ ـ وأصحابه فيسلمون عليه لكن يقولون : السام عليكم يدغمونها ، والسام يعنى : الموت ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : « **إن اليهود إذا لقوكم قالوا : السام عليكم ، فقولوا : وعليكم** »(٢) أى : إن كانوا يدعون لنا بالسلام فعليهم السلام ، وإن كانوا يدعون علينا بالموت فعليهم الموت ، وهذا من العدل : ﴿ وإذا حُيِّيتُم بتحيَّةٍ فحيُّوا بأحْسَنَ منهَا أوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : ٨٦] . فهذا من العدل ، ولهذا ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى كتابه : « أحكام أهل الذمة » أنهم إذا قالوا : السلام عليكم بكلام بين فلك أن تقول : عليكم السلام .

وأما أهل المعاصى فإن كان فى هجرهم فائدة فاهجرهم ، والفائدة أن يقلعوا عن معصيتهم ، وإن لم يكن فى هجرتهم فائدة فهجرهم حرام ، لأنهم من المؤمنين ، وإذا كانوا من المؤمنين فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **لا يحل لأحد أن يهجر أخاه المؤمن فوق ثلاث ، يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا وخيرهما الذى يبدأ بالسلام** »(٣) ، أما إذا كان يفيد بحيث يرتدعون عن المعصية وينتهون عنها فهجرهم مطلوب ، إما واجب وإما مستحب .

وانظر إلى ما حصل من فائدة هجر كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وصاحبيه ، حين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فخُلفوا عن قبول عذرهم ، انظر ماذا حصل لهم من قوة الإيمان والصبر على ما حصل ، وانتظار الفرج من الله عز وجل ما نالوا به ما هو من أعظم المثوبات ، نالوا به كلام رب العالمين ، الذى يُقرأ فى الليل والنهار من كل مسلم حتى فى الصلوات. مَن من الناس يثنى عليه فى الصلوات الفريضة والنافلة ؟! ﴿ وعلى الثَّلاثة الَّذين خُلِّفُوا حتى إذا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجأَ من الله إلاَّ إليه ثُمَّ

---

(١) مسلم (٢١٦٧) الترمذى (١٦٠٢) احمد (٢/٢٦٦) .

(٢) البخارى (٦٢٥٨) مسلم (٢١٦٤) .

(٣) البخارى (٦٢٣٧) مسلم (٢٥٦٠) .

Marfat.com

تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ [التوبة : ١١٨] . وهذا نص ، وإن كانوا لم يذكروا بأسمائهم ، لكن ذكروا بوصف لا ينطبق على من سواهم .

وأما ما ذهب إليه كثير من المفسرين في قوله تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى (٢٠) ولسوف يرضى ﴾ [الليل : ١٩ ـ ٢١] . بأن هذا هو أبو بكر فهذا ليس كالنص الحاصل لهؤلاء الثلاثة ، ولذلك لا نعلم أن أحدًا من الصحابة أُثنى عليه بهذا النص مثل ما أُثنى على هؤلاء الثلاثة .

وقد هجرهم النبى عليه الصلاة والسلام أربعين ليلة لا يكلمهم ، وقال للناس : لا تكلمونهم ، فلم يكلمهم أحد ، وبعد تمام الأربعين أمرهم أن يعتزلوا نساءهم ، ولما جاء الرسول إلى كعب بن مالك ـ الرسول الذى أرسله النبى ﷺ - بأن يعتزل امرأته ـ قال له كعب : أأطلقها ؟ ـ يعنى فأنا مستعد ـ أما ماذا؟ قال الرسول : لا أدرى ، إن النبى ﷺ أمرك أن تعتزل امرأتك ولا أدرى ، فانظر كيف كان هذا الامتثال العظيم مع هذه المحنة العظيمة التى لا ترد على قلب فينجو منها إلا من عصمه الله عز وجل[١] .

فالمهم أن الهجر إذا كان ينفع فى تقليل المعصية ، أو التوبة منها فإنه مطلوب ، إما على سبيل الوجوب أو على سبيل الاستحباب ، أما إذا كان لا ينفع ، وإنما يزيد العاصى عتوًا ونفورًا من أهل الخير فلا تهجره ؛ لأن الإنسان مهما كان عنده من المعاصى وهو مسلم فهو مؤمن ، لكنه ناقص الإيمان .

أما الحق الثانى فهو عيادة المريض : المريض إذا مَرِض وانقطع فى بيته فإن له حقًا على إخوانه المسلمين أن يعودوه ويذكروه ما ينبغى أن يذكروه به ، من التوبة والوصية وكثرة الذكر والاستغفار وقراءة القرآن وغير ذلك من الأعمال الصالحة ، وكذلك يدعوه له بالشفاء ، مثل أن يقولوا : لا بأس طهور إن شاء الله[٢] ، وما أشبه ذلك .

وعيادة المريض فرض كفاية ، لابد أن يعود المسلمون أخاهم وإذا عاده واحد منهم حصلت به الكفاية ، وقد تكون فرض عين إذا كان المريض من الأقارب ، وعُدت عيادته من الصلة ، فإن صلة الأرحام واجبة فتكون فرض عين .

واعلم أن العلماء ـ رحمهم الله ـ ذكروا لعيادة المريض آدابًا ، منها : ألا يكثر العائد للمريض محادثته بالسؤال عن حاله وعن نومه وأكله وشربه وما أشبه ذلك ، إلا إذا كان يأنس بهذا ويُسر به ، أما إذا كان يتضجر ولا يحب أن يكثر أحد الكلام معه كما هو حال

---

(١) انظر الحديث عند البخارى (٤٤١٨) مسلم (٢٧٦٩) .
(٢) البخارى (٧٤٧٠) .

Marfat.com

بعض المرضى ، فإنك لا تتبع معه الكلام ولا تضجره بالمساءلات .

لذلك قالوا : ينبغى ألا يكثر المقام عنده ويطيل ؛ لأنه قد يكون له حاجة مع أهله أو فى نفسه ، ولا يحب أن يطيل الجلوس عنده أحد ، لكن إذا علمت أنه يستأنس بهذا ويفرح ، فإنك تنظر ما فيه المصلحة .

قالوا : ينبغى أيضًا ألا يزوره فى الأوقات التى يكون الغالب فيها النوم والراحة كالقيلولة والليل وما أشبه هذا ؛ لأن ذلك يضجره وينكد عليه ، بل يكون بكرة وعشيًا حسب ما تقتضيه الحال .

قالوا : ولا ينبغى أيضًا أن يكثر من عيادته ، بحيث يأتيه صباحًا ومساءً ، إلا إذا اقتضت الحاجة ذلك .

والحاصل أن العائد للمريض ينبغى أن يراعى المصلحة فى كل ما يكون مع المريض وفى كل ما يترك ، ثم إنه إذا كان المرض مما يُعلم أن له دواءً معينًا فينبغى أن تذكر له هذا الدواء ؛ لأن الدواء مباح ، بل هو سنة إذا رُجى نفعه وغلب على الظن ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **تداووا ، ولا تداووا بحرام** » (١) .

وكذلك ينبغى أن يسأله كيف يصلى ؟ لأن كثيرًا من المرضى يجهل هل يصلى بالماء أو بالتيمم ؟ وهل يصلى كل صلاة فى وقتها أو يجمع ؟ لأن هذا أمر مهم قد يخفى على بعض المرضى .

حتى إن بعض المرضى يظنون أنه إذا جاز لهم الجمع جاز لهم القصر وهم فى بلادهم، وهذه من الأشياء التى يجب التنبه لها ، نعم إذا كان المريض مسافرًا إلى مستشفى فى غير بلده فله أن يقصر ويجمع ، أما إذا كان فى بلده فلا يقصر ، لكن إن شق عليه أن يصلى كل صلاة فى وقتها فله الجمع ولو كان فى بلده ، لكنه جمع بلا قصر؛ لأن الجمع والقصر لا يتلازمان ، قد يشرع القصر دون الجمع ، وقد يشرع الجمع دون القصر ، وقد يشرعان جميعًا ، فالمسافر الذى يشق عليه أن يصلى كل صلاة فى وقتها بحيث يكون قد جد به السير يُشرع له الجمع والقصر ، والمسافر المقيم يشرع له القصر دون الجمع ، وإن جمع فلا بأس .

أما الحق الثالث فهو اتباع الجنائز وتشييعها : فإن من حق المسلم على أخيه أن يتبع جنازته من بيته إلى المصلى ـ سواء فى المسجد أو فى مكان آخر ـ إلى المقبرة ، وقد ثبت

---

(١) أبو داود (٣٨٧٤) وضعفه الألبانى فى المشكاة (٤٥٣٨) .

Marfat.com

عن النبي - ﷺ - أنه قال : « **من شهد الجنازة حتى يُصلى عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان** » . قيل : وما القيراطان يا رسول الله ؟ قال : « **مثل الجبلين العظيمين** »[(١)] وفي رواية : « **أصغرهما مثل أحد** »[(٢)] وهذا فضل عظيم وأجر كبير .

ولما بلغ عبد الله بن عمر - ﷺ - هذا الحديث قال : لقد فرطنا في قراريط كثيرة ، ثم صار بعد ذلك لا يرى جنازة إلا تبعها - ﷺ - لأن هذه غنيمة غنيمة أن يحصل الإنسان مثل الجبلين العظيمين في عمل يسير ، وهذا الأجر متى يلقاه ؟ يلقاه في يوم هو أحوج ما يكون إليه ، في يوم ليس عنده درهم ، ولا دينار ولا متاع ، ولا قرابة ولا زوجة تنفعه يوم القيامة ، إلا العمل الصالح ، فهو إذا تبع الجنازة حتى يصلى عليها ، ثم حتى تدفن فله قيراطان مثل الجبلين العظيمين أصغرهما مثل أحد .

وينبغي لمن اتبع الجنازة أن يكون خاشعًا ، مفكرًا في مآله ، يقول لنفسه : يا نفسي، أنت مآلك كمآل هذا الذي فوق أعناقنا ، عن قريب أو بعيد ، وربما يكون عن قريب ، ويتذكر هذا الرحيل ، يتذكر أن أقرب الناس إليه وأولى الناس به ، وأشفق الناس عليه ، من يسلمه إلى حفرته ، ويدفنه ، ويرمسه ، ويتخلى عنه ، وأقرب الناس إليك الذي يحملك إلى مدفنك ثم ينصرف عنك ، ويدعك في هذا اللحد ، وحيدًا بأعمالك ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، ولهذا قال العلماء : يكره للإنسان المتبع للجنازة أن يتحدث في شئ من أمور الدنيا أو أن يبتسم ويضحك .

وكذلك أيضًا إذا وصلت إلى المقبرة ، وجلست تنتظر دفنها ، فينبغي أن تفكر في مآلك ، وأنك سوف ينتظر دفنك كما انتظر دفن هذا الرجل ، وإذا كان حولك أناس وحدثتهم بما حدث به النبي - ﷺ - أصحابه ، حينما خرج في جنازة رجل من الأنصار، فانتهى إلى القبر ولمَّا يُلحد ، فجلس عليه الصلاة والسلام وحوله أصحابه ، وفي يده مخصرة ، أي : عود ينكت به الأرض ، يعتبر عليه الصلاة والسلام ويفكر ويحدث أصحابه بما يكون عند الاحتضار ، وعند الدفن ، حتى يكون جامعًا بين الموعظة وبين تشييع الجنازة[(٣)] .

ولكن ليست هذه الموعظة كما يفعله بعض إخواننا الآن في بعض المحلات ، حيث يقوم الرجل خطيبًا يعظ الناس ، فإن هذا ليس معروفًا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام

---

(١) البخاري (١٣٢٥) مسلم (٩٥٤) .

(٢) مسلم (٩٥٤) .

(٣) أبو داود (٤٧٥٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود .

Marfat.com

ولا عهد أصحابه ، لكن لما جلس النبى ـ ﷺ ـ ينتظر لحد هذا الميت وجلس أصحابه حدثهم حديث المجالس بما ينفعهم وبما يناسبهم .

وكذلك كان عليه الصلاة والسلام حاضرًا دفن إحدى بناته ، وكان على شفير القبر وعيناه تدمعان ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار** » قالوا : يا رسول الله ، أفلا ندع العمل ، ونتكل على ما كتب لنا ؟ قال : « **لا ، اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة** » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [1] [الليل : ٥ : ١٠] . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل السعادة ، الذى يسروا لليسرى وجنبوا العسرى .

فإذا شرعوا فى الدفن فينبغى للإنسان أن يشارك فى الدفن ، بأن يحثو بيديه ثلاث حثيات ثم ينصرف ، وإن شاء شارك إلى انتهاء الدفن ، فإذا فرغوا من دفنه وقف عليه ، وإذا كان مطاعًا كالعالم ، قال للناس : استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل ، فإن النبى ـ ﷺ ـ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه ، وقال : « **استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسأل** »[2] الآن حين فُرغ من دفنه وانتهى الناس منه وسلموه لعالم الآخرة يأتيه عالم الآخرة ، يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ، فيجيب المؤمن قائلاً : ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبيى محمد ـ أسأل الله أن يجعلنى وإياكم ممن يجيب بهذا الجواب ـ .

أما غير المؤمن المرتاب الشاك ، فيقول : ها ها لا أدرى ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته ، يعنى : ولم يصل الإيمان إلى قلبه ، ـ والعياذ بالله ـ ، فينبغى لك أن تقف بعد انتهاء الدفن ، وتقول : اللهم اغفر له ، اللهم ثبته ، اللهم اغفر له اللهم ثبته ؛ لأن النبى ـ ﷺ ـ كان إذا دعا ثلاثًا[3] فتدعو ثلاثًا ثم تنصرف ولا حاجة إلى إطالة الوقوف .

وإذا انصرف الناس عن الميت حتى إنه ليسمع قرع نعالهم وهم ينصرفون عنه ، يسمع قرع النعال ، أى : ضربه بالأرض وهم ينصرفون عنه ، جاءه ملكان ، فأجلساه وسألاه

---

(١) البخارى (٤٩٤٥) مسلم (٢٦٤٧) .

(٢) أبو داود (٣٢٢١) وصححه الالبانى فى صحيح الجامع (٩٤٥) .

(٣) البخارى (٢٤٠) مسلم (١٧٩٤) .

Marfat.com

عن ربه ودينه ونبيه ، ويجلسانه فى القبر ، وإن كان القبر ضيقًا ، لكنه يجلس ، كما أن النائم الآن يرى نفسه أنه قائم ، وأنه ماشٍ ، وأنه قاعد ، وهو ملتحف فى فراشه لم يتحرك منه ؛ لأن أحوال البرزخ أبلغ من أحوال الدنيا وأعظم ، ففيه أشياء لا تنطبق على أحوال الدنيا ، فها هو الميت المؤمن يُفسح له فى قبره مد البصر ، والمقبرة كلها ليست بشىء ، فهى ليست مد البصر ، لكن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا ، وواجبنا فيما جاء فى كتاب الله أو صح عن رسول الله - ﷺ - من أمور الآخرة أن نقول : سمعنا، وصدقنا ، وآمنا ، وكل من عند ربنا ، والله على كل شئ قدير .

الحق الرابع إجابة الدعوة : فمن حق المسلم على أخيه إذا دعاه أن يجيبه ، والإجابة إلى الدعوة مشروعة بلا خلاف بين العلماء فيما نعلم ، إذا كان الداعى مسلمًا ، ولم يكن مجاهرًا بالمعصية ، ولم تكن الدعوة مشتملة على معصية لا يستطيع إزالتها ، ولكنها لا تجب عند جمهور العلماء إلا فى دعوة العرس ، إذا دعاه الزوج أول مرة فى اليوم الأول، فإن الإجابة واجبة إذا عينه بالشروط السابقة التى ذكرناها .

فإن كان الداعى غير مسلم فلا تجب الإجابة ، بل ولا تشرع الإجابة ، إلا إذا كان فى ذلك مصلحة ، فإذا كان فى ذلك مصلحة كرجاء إسلامه ، والتأليف فلا بأس بإجابة غير المسلم ؛ لأن النبى - ﷺ - أجاب دعوة يهودى دعاه فى المدينة .

وإن كان الداعى مسلمًا مجاهرًا بالمعصية كحلق اللحية مثلاً ، أو شرب الدخان علنًا فى الأسواق ، أو غير ذلك من المحرمات ، فإن إجابته ليست بواجبة ، ولكن إن كان فى إجابته مصلحة أجابه ، وإن كان ليست فى إجابته مصلحة نظرت ، فإن كان فى عدم إجابته مصلحة بحيث إذ رأى نفسه بأنه قد هُجر ، وأن الناس لا يجيبون دعوته تاب وأناب ، فلا تجب دعوته لعل الله يهديه ، وإن كلن لا فائدة من ذلك فأنت بالخيار ، إن شئت فأجب وإن شئت فلا تجب .

وإذا كان فى الدعوة منكر فإن كان الإنسان قادرًا على التغيير وجبت عليه بالإجابة ، من وجهين :الوجه الأول : إزالة المنكر ، والوجه الثانى : إجابة دعوة أخيه ، إذا كان فى العرس ، وكان ذلك فى أول يوم ، وأما إذا كان فى الدعوة منكر لا تستطيع تغييره كما لو كان فى الدعوة شرب دخان ، أو شيشة ، أو كان هناك أغانى محرمة ، فإنه لا يجوز لك أن تجيب .

قال أهل العلم : إلا إذا كان المنكر فى محل آخر ، وأنت تجيب إلى محل ليس فيه منكر ، وكان الداعى من أقاربك الذين لو تركت إجابتهم لعد ذلك قطيعة ، فلا بأس

Marfat.com

بالإجابة فى هذه الحال ، وإن كان الهجر يترتب عليه ترك هذه المعصية فاهجره ، يعنى مثلاً لو دعاك قريبك وأنت تعلم أنه سيكون فى الدعوة محرم ، وقلت له : أنا لا أجيبك إلا بشرط ألا يكون فى الدعوة محرم ، وقبل بذلك فأجب ، وأما إن أصر على وجود المحرم فلا تجب ؛ لأن حضور المحرم ولو مع كراهة الإنسان له بقلبه يكون فيه الإنسان مشاركًا للفاعل ، لقول الله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠] . هذا حكم إجابة الدعوة .

فهذه الحقوق التى بينها النبى كلها إذا قام بها الناس بعضهم مع بعض ، حصل بذلك الإلفة والمودة وزال ما فى القلوب ، والنفوس من الضغائن ، والأحقاد .

والحق الخامس تشميت العاطس : يعنى أن من حقوق المسلم على المسلم أن يشمته إذا عطس ، هكذا فى الرواية الأولى التى أخرجها البخارى ومسلم ، وفى الرواية الثانية التى أخرجها مسلم : « **إذا عطس فحمد الله فشمته** » فقيد ذلك بما إذا حمد الله .

فإذا عطس الرجل وحمد الله وسمعته فشمته ، يعنى قل : يرحمك الله ، فإذا قلت: يرحمك الله ، وجب عليه أن يقول : يهديكم الله ويصلح بالكم ، هكذا جاء الحديث عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه يقول فى الجواب : « **يهديكم الله ويصلح بالكم** » [(١)] .

لكن هل تشميت العاطس إذا حمد فرض عين أو فرض كفاية ؟ يعنى : هل يكفى واحد من الجماعة إذا شمته عن الجماعة ، أم لابد على كل من سمعه أن يشمته ؟ والجواب : أنه ذهب بعض العلماء إلى أن التشميت فرض كفاية ، فإذا كنا جماعة وعطس رجل وقال : الحمد لله ، فقال أحدنا له : يرحمك الله ، كفى .

وقال بعض العلماء : بل تشميته فرض عين ، على كل من سمعه ؛ لأن النبى ﷺ قال : « **كان حقًا على كل من سمعه أن يقول : يرحمك الله** » وظاهر هذا أنه فرض عين، فعلى هذا كل من سمعه يقول له : يرحمك الله ، ويقول هو : يهديكم الله ويصلح بالكم ، ويكفى منه رد واحد على الجميع ، إذا نواه للجميع كفى .

فإن عطس ولم يحمد الله فلا تقل : يرحمك الله ، تعزيرًا له على عدم حمده عز وجل ، يعنى كما أنه لم يحمد الله فاحرمه هذا الدعاء ، فلا تقل له : يرحمك الله ، ثم

(١) البخارى (٦٢٢٤) أبو داود (٥٠٣٣) .

Marfat.com

هل تذكره وتقول : قل الحمد لله أولا تذكره ؟ والجواب : من المعلوم أنه يحتمل أنه قد ترك الحمد تهاونًا ، ويحتمل أنه تركه نسيانًا ، فإن كان تركه نسيانًا فذكره وقل له : احمد الله ، وإن كان تركه تهاونًا فلا تذكره ، ولكن أين لى العلم بذلك ؟ وكيف أعلم أنه نسيان أو أنه تهاون ؟ ظاهر الحديث « الحمد لله » فإذا لم يحمد لا تشمته ولا تذكره مطلقًا .

ولكن يمكنك فيما بعد أن تعلمه وتقول له : إن الإنسان إذا عطس فإنه يحمد الله على هذا العطاس ؛ لأن العطاس من الله ، والتثاؤب من الشيطان ، العطاس دليل على نشاط جسم الإنسان ، ولهذا يجد الإنسان بعد العطاس خفة .

ثم إن التشميت بقول : يرحمك الله ، مقيد بثلاث ، إذا شمته ثلاث مرات يعنى عطس فحمد الله ، فقلت : يرحمك الله ، ثم عطس فحمد الله ، فقلت : يرحمك الله ، ثم عطس فحمد الله فقلت : يرحمك الله ، ثم عطس الرابعة ، فقل : عافاك الله ، إنك مزكوم . تدعو له بالعافية وتبين أنه مزكوم ؛ لئلا يقول : لماذا لا تقول : يرحمك الله ، كما كنت بالأول تقول : يرحمك الله ، فتبين العلة حين تقول : إنك مزكوم .

وفى هذا تنبيه له على أن يحاول الاحتراز مما يزيد الزكام ، وإلا فإن الزكام فى الغالب لا دراء له إذا أصاب الإنسان ، وأنه لا يذهب عنه حتى ينتهى منه . لكن من أسباب تخفيف هذا الزكام عدم التعرض للهواء البارد ، وعدم شرب الماء البارد ، وعدم التعرض للبرد بعد الدفء ، والإنسان طبيب نفسه .

ثم إن ما يقوله بعض العامة إذا قلت له : يرحمك الله ، حيث يقول : يهدينا ويهديكم الله ، فهذا ليس بصحيح ؛ لأن الرجل دعا لك أنت فقال : يرحمك الله ، فكيف تقول : يهدينا ويهديكم الله ، فتدعوا لنفسك قبله ، نعم لو قال : يرحمنا ويرحمك الله ، فقل : يهدينا ويهديهكم الله ، لكن هو قال : يرحمك الله ، كما أمر، فأنت أجبه كما أمرت ، فقل : يهديكم الله ويصلح بالكم .

وذكر أن اليهود كانوا يتعاطسون عند النبى عليه الصلاة والسلام - يتعاطسون يعنى يتكلفون العطاس - من أجل أن يقول لهم : يرحمكم الله ؛ لأنهم يعلمون أنه نبى ، وأن دعاءه بالرحمة قد ينفعهم ، ولكنه لا ينفعهم ؛ لأن الكفار لو دعوت لهم بالرحمة لا ينفعهم ذلك ، ولا يحل لك أن تدعو لهم بالرحمة إذا ماتوا ولا بالمغفرة [١] ، لقول الله

(١) انظر أبو داود (٥٠٣٨) الترمذى (٢٧٣٩) وصححه الألبانى فى المشكاة (٤٧٤٠) .

Marfat.com

تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] .

فإن قيل : أليس إبراهيم استغفر لأبيه وإبراهيم على الحنيفية وعلى التوحيد ، والجواب يتضح فى قوله الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

* * *

[١٨/ ٢٣٩] وعن أبى عُمَارَةَ الْبَراءِ بن عازبٍ ـ رضي الله عنه ـ قال : أمَرَنَا رسول الله ﷺ بسبْعٍ ، ونَهَانَا عَنْ سَبْعٍ : أمَرنَا بعِيادَةِ الْمَرِيضِ ، واتّبَاعِ الْجَنَازَةِ ، وتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ ، وإبْرَارِ الْمُقْسِمِ ، ونَصْرِ الْمَظْلُومِ ، وإجَابَةِ الدَّاعِى ، وإفْشَاءِ السَّلامِ ، ونَهَانَا عَنْ خَوَاتِيمٍ أوْ تَخَتُّمٍ بِالذَّهَبِ ، وعَنْ شُرْبٍ بِالْفِضَّةِ ، وعَنِ الْمَيَاثِرِ الْحُمْرِ ، وعَنِ الْقَسِّىِّ ، وعَنْ لُبْسِ الْحَرِيرِ وَالإسْتَبْرَقِ وَالدِّيبَاجِ . متفقٌ عليه .

وفى روايةٍ : وإنْشَادِ الضَّالَّةِ فِى السَّبْعِ الأوَلِ .

« الميَاثِرِ » بيَاءٍ مُثَنَّاةٍ قَبْلَ الألف ، وثَاءٍ مُثَلَّثَةٍ بَعْدَهَا ، وَهِىَ جَمْعُ مِيثَرَةٍ ، وَهِىَ شَىْءٌ يُتَّخَذُ مِنْ حَرِيرٍ وَيُحْشَى قُطْناً أوْ غَيْرَهُ ، وَيُجْعَلُ فِى السَّرْجِ وَكُورِ الْبَعِيرِ ، يَجْلِسُ عَلَيْهِ الرَّاكِبُ . « الْقَسِّىُّ » بفتح القاف وكسر السينِ المهملة المشدَّدَةِ : وَهِىَ ثِيَابٌ تُنْسَجُ مِنْ حَرِيرٍ وكَتَّانٍ مُخْتَلِطَيْنِ . و « إنْشَادُ الضَّالَّةِ » : تَعْرِيفُهَا .

الشرح

ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فى بيان حقوق المسلم على أخيه حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ ، أن النبى ـ ﷺ ـ : « **أمرنا بسَبْعٍ ، ونَهَانَا عنْ سَبْعٍ** » ، وقد تقدم الكلام على خمس من هذه الأمور التى أمر بها رسول الله ـ ﷺ ـ فى هذا الحديث ، تقدم الكلام عليها فى الحديث السابق فلا حاجة إلى إعادتها ، وفى هذا الحديث من الزيادة على ما سبق قوله : « **نصر المظلوم** » .

الحق السادس من حقوق المسلم على أخيه المسلم : « **نصر المظلوم** » يعنى دفع الظلم عنه ، سواء كان ظلمه فى المال أو فى العرض أو فى النفس ، فيجب على المسلم أن ينصر أخاه المسلم ولقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا** »

[١٨/ ٢٣٩] صحيح : رواه البخارى (٣/ ١٢٣٩) ، ومسلم (٢٠٦٦) .

Marfat.com

قال يا رسول الله ، هذا المظلوم - يعنى ندفع عنه الظلم - فكيف نصر الظالم ؟! قال : «**تمنعه من الظلم فذلك نصره**»[(١)] ؛ لأن الظالم قد غلبته نفسه حتى ظلم فتنصره أنت على نفسه حتى تمنعه من الظلم .

فإذا رأيت شخصًا يظلم جاره بالإساءة إليه وعدم المبالاة به ، فإنه يجب عليك أن تنصر هذا وهذا ، الظالم والمظلوم فتذهب إلى الظالم الجار ، الذى أخل بحقوق جاره وتنصحه وتبين له ما فى إساءة الجوار من الإثم والعقوبة ، وما فى حسن الجوار من الأجر والمثوبة ، وتكرر عليه حتى يهديه الله فيرتدع ، وتنصر المظلوم الجار وتقول له : أنا سوف أنصح جارك وأكلمه ، فإن هداه الله فهذا هو المطلوب ، وإن لم يهتد فأخبرنى حتى نكون أنا وأنت عند القاضى أو الحاكم سواءً نتعاون على دفع ظلم هذا الظالم .

وكذلك إذا وجدت شخصًا جحد لأخيه حقًا تدرى أنه جحده ، وأن لأخيه عليه هذا الحق ، فتذهب إلى هذا الظالم الذى جحد حق أخيه وتنصحه وتبين له ما فى أكل المال بالباطل من العقوبة ، وأنه لا خير فى أكل المال بالباطل لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل هو شر ، حتى يؤدى ما عليه ، وتذهب إلى صاحب الحق وتقول له : أنا معك واصبر ، ها نحن ننصحه ، ها نحن نوبخه ، وهكذا بقية المظالم لم تنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا والظالم نصرك إياه أن تمنعه عن الظلم .

الحق السابع إبرار القسم : يعنى إذا أقسم عليك أخوك بشئ فبره ووافقه على ما قسم عليه ، فإذا حلف قال : والله لتفعلن كذا وكذا ، فإن من حقه عليك أن تبر بيمينه وأن توافقه ، إلا إذا كان فى ذلك ضرر عليك ، مقل لو حلف عليك أن تخبره عما فى بيتك من الأشياء التى لا تحب أن يطلع عليها أحد فلا تخبره ؛ لأنه معتد جزاؤه أن يُترك ولا يوافق على اعتدائه .

لكن إذا لم يكن عدوان وحلف عليك فإن من حقه أن تبر بيمينه ، وتعطيه ما حلف عليه ، إلا إذا كان معصية ، فإذا كان معصية لا تجبه ، مثل لو أقسم عليك أن تعطيه دراهم يشترى بها دخان ، فهذا لا يلزمك ، بل لا يجوز لك أن توافقه لأنك تعينه على الإثم والعدوان .

أو كان فى ذلك ضرر عليك كما مثلنا بمن حلف عليك أن تخبره بما فى سر البيت من الأمور التى لا تحب أن يطلع عليها أحد .

أو حلف عليك بشئ يضرك ، مثل أن يحلف عليك بشئ يضرك إذا وافقته عليه ،

(١) البخارى (٢٤٤٤) الترمذى (٢٢٥٥) .

Marfat.com

كأن يقول أبوك مثلاً : والله لا تحج البيت ، والحج واجب عليك ، فإنك لا تطيعه ؛ لأن في هذا تركًا للواجب ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، أو حلف عليك ألا تزور أمك وقد طلقها ، وصار بينه وبينها مشاكل فكرهها ، فقال لك : والله لا تذهب إلى أمك ، فهذا لا تطعه ، وذلك لأنه آثم بكونه يحول بينك وبين صلة الرحم ، وصلة الرحم واجبة ، وبر الوالدين واجب ، فلا تطعه .

ومن ذلك أيضًا إذا حلف ألا تزور أحدًا من إخوانك أو أعمامك أو أقاربك فلا تطعه، ولا تبر يمينه ، ولو كان أباك ؛ لأن صلة الرحم واجبة ، ولا يحل له أن يحلف مثل هذا الحلف ، وصلة الرحم إذا قام بها الإنسان فإن الله تعالى يصله ، فقد تعهد الله للرحم أن يصل من وصلها وأن يقطع من قطعها (١) ، فإذا انتفت الموانع فإن الأولى أن تبر بهن .

وها هنا مسألة وهى أنه ربما يحلف هو وتحلف أنت ، وهذا يقع كثيرًا فى الضيف إذا نزل عليك ، قال : والله ما تذبح لى ، فتحلف أنت وتقول : والله لأذبح لك ، فهنا من الذى يبر ، الأول أما الثانى ؟ يبر الأول ؛ لأن حقه ثابت ، ونقول للثاني صاحب البيت الذي حلف أن يذبح ، نقول : لا تذبح وكفر عن يمينك ؛ لأن الأو أحق بالبر وأسبق.

وهنا مسألة يجب أن يتفطن لها أيضًا في هذا الأمر ، وهو أن بعض السفهاء إذا نزل به ضيف ؛ طلق الضيق ألا يذبح له ، قال : على الطلاق من امرأتي أو من نسائي إن كان له أكثر من امرأة ألا تذبح لي ، فيقول صاحب البيت : وأنا على الطلاق أن أذبح لك ، وهذا غلط ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « **من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت** » أما الطلاق فلا ، ما ذنب المرأة حتى تطلقها ! وهو من الخطأ العظيم.

وأقول لكم : إن المفتين اليوم ـ وأنا منهم ـ نفتي بأن الإنسان إذا أراد بذلك التهديد أو التأكيد فإنه لا طلاق ، وعليه كفارة يمين ، يعني أن حكمه حكم اليمين ، ولكني أقول لكم : إن أكثر أهل العلم ، ومنهم أصحاب المذاهب الأربعة على أن هذا طلاق ، وعلى أنه إذا لم يف بما قال طلقت امرأته ، فالمسألة خطيرة ، لا تظنوا أن الناس إذا أفتوا بالأمر السهل أن المسألة سهلة ، بل هي خطيرة جدًا ، إذا كان أصحاب المذاهب الأربعة : المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي كلهم يرون أن مثل هذا يكون طلاقًا ، وأنه إذا طلق

(١) انظر البخارى (٥٩٨٧ ، ٥٩٨٨) مسلم (٢٥٥٢) .

(٢) البخارى (٦٦٤٦) مسلم (٨) .

Marfat.com

ألا تذبح وذبحت طلقت زوجته ، وإذا طلقت أن تذبح طلقت زوجتك ، وهذه المذاهب الأربعة ليست بهينة ، والخلاف في هذا ليس بهين ، فلا تستهينوا بهذا الأمر ، فهو خطير جدًا .

وأنت الآن مثلاً إذا رجعت إلى زوجتك وكانت هذه آخر طلقة ، فأنت تطؤها على المذاهب الأربعة وطئًا حرامًا ، وعلى القول : إنه يمين تكفر عن يمينك وتحل لك ، فالمسألة خطيرة للغاية ؛ لذلك يجب علينا أن نتناهى عنها ، وألا نقول إذا حصل : اذهب لابن باز أو لابن عثيمين أو الثاني أو الثالث فهذا ما ينفعك ، فهناك علماء أجلاء أكبر منهم يرون أن هذا طلاق ، وأنه إذا كان هذا آخر طلقة ،فإن المرأة تبين بها ، ولا تحل لزوجها إلا بعد زوج آخر . أقول : هذا من أجل ألا تتهاونوا في هذا الأمر ، فهذا الأمر خطير جدًا ، فمن كان حالفًا فليحلف بالله ، يقول : والله .

ثم إني أشير عليكم بأمر هام ، أنك إذا حلفت على يمين فقل : إن شاء الله ، ولو لم يسمعها صاحبك ، لأنك إذا قلت : إن شاء الله يسر الله لك الأمر حتى تبر بيمينك ، وإذا قُدر أنه ما حصل الذى تريد فلا كفارة عليك ، وهذه فائدة عظيمة .

فلو قلت لواحد مثلاً : والله ما تذبح لى ، ثم قلت بينك وبين نفسك : إن شاء الله - بينك وبين نفسك - ثم ذبح فلا عليك شئ ، ولا عليك كفارة يمين ، وكذلك أيضًا بالعكس ، لو قلت : والله لأذبح ، ثم قلت - بينك وبين نفسك - : إن شاء الله ، وهو ما سمع صاحبك ، فإنه إذا لم تذبح ليس عليك كفارة ، لقول النبى- ﷺ - : « **من حلف على يمين فقال : إن شاء الله لم يحنث** »[1] وهذه فائدة عظيمة اجعلها على لسانك دائمًا ، اجعل الاستثناء بـ« **إن شاء الله** » على لسانك دائمًا ، حتى يكون فيه فائدتان : **الفائدة الأولى** : أن تُيسر لك الأمور . **والفائدة الثانية** : أنك إذا حنثت ما يلزمك الكفارة.

أما السبع التى نهى عنها عليه الصلاة والسلام فى حديث البراء ، فمنها التختم بالذهب ، والتختم بالذهب خاص بالرجال ، فالرجال لا يحل له أن يلبس الذهب وأن يتختم بالذهب ، ولا أن يلبس سوارًا من ذهب ، ولا أن يلبس قلادة من ذهب ، ولا أن يلبس خرصًا من ذهب ، ولا أن يلبس على رأسه شيئًا من الذهب ، كل الذهب حرام على الرجل ؛ لأن النبى- ﷺ - قال فى رجل رأى عليه خاتمًا من ذهب ، قال : « **يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها فى أصبعه أو قال فى يده** »[2] ثم نزع النبى- ﷺ -

---

(١) الترمذى (١٥٣٢) أبو داود (٣٢٦٢) ابن ماجه (٢١٠٤) وصححه الألبانى فى الإرواء (٢٥٧٠) .

(٢) مسلم (٢٠٩٠) .

Marfat.com

الخاتم فرمى به ، فلما انصرف النبى - ﷺ - قالوا للرجل : خذ خاتمك ، انتفع به ، قال: والله لا آخذ خاتمًا طرحه النبى - ﷺ - . وقال عليه الصلاة والسلام فى حديث على بن أبى طالب : « **أحل الذهب والحرير لإناث أمتى ، وحرم على ذكورها** »(١) .

وأما تختم المرأة بالذهب فلا بأس به ، ولا حرج فيه ، فيجوز لهن التختم بالذهب والتسور به ، وأن يلبسن ما شئن منه ، إلا إذا بلغ حد الإسراف ، فإن الإسراف لا يحل لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

وقد حكى بعض العلماء إجماع أهل العلم على جواز لباس المرأة للخاتم والسوار ونحوهما ، وأما الأحاديث الواردة فى النهى عن الذهب المحلق للنساء فهى أحاديث إما ضعيفة،وإما شاذة تُرك العمل بها،وتواترت الأحاديث الكثيرة التى فيها إقرار النبى - ﷺ - النساء على لبس المحلق من الأسورة ، وكذلك من الخواتم .

ولكن يجب على المرأة إذا كان عندها ما يبلغ النصاب من الحلى من الذهب أداء زكاته ، بأن تقومه كل سنة بما يساويه وتخرج منه ربع العشر ؛ لأن النبى - ﷺ - رأى امرأة وفى يد ابنتها مسكتان غليظتان من الذهب ، يعنى سوارين غليظين ، فقال : «**أتؤدين زكاة هذا ؟** » قالت : لا ، قال : « **أيسر أن يسورك الله بهما سوارين من نار يوم القيامة** » فخلعتهما وأعطتهما النبى - ﷺ - وقالت : هما لله ورسوله(٢) .

ونهى أيضًا فى هذا الحديث : « **وعن الشرب فى آنية الفضة** » يعنى نهانا أن نشرب فى آنية الفضة ، سواء كان الشراب ماءً أو لبنًا أو مرقًا أو غير ذلك .

وسواء كان الشارب رجلاً أو امرأة ؛ لأن تحريم الأوانى من الذهب والفضة شامل للرجال والنساء ، ولا فرق بين الفضة الخالصة وبين المموه بالفضة ، كل ذلك حرام .

وأما آنية الذهب فهى أشد وأشد ، وقد ثبت النهى عنها عن النبى - ﷺ - حيث قال: « **لا تشربوا فى آنية الذهب ، ولا تأكلوا فى صحافهما ، فإنها لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة** »(٣) .

أما المياثر الحمر فهى مثل المخدة ، يجعل فى حشوها قطن ويجعل على هذا القطن خرقة من الحرير ، وتربط فى سرج الفرس أو فى كوز البعير من أجل أن يجلس عليها

---

(١) الترمذى (١٧٢٠) وابن ماجه (٣٥٩٥) وصححه الألبانى فى الإرواء (٢٧٧) .

(٢) أبو داود (١٥٦٣) النسائى (٢٤٧٩) وصححه الألبانى .

(٣) البخارى (٥٤٢٦) مسلم (٢٠٦٧) .

Marfat.com

الراكب فيستريح .

وكذلك القسى وغيرها ، فإنها كلها من أنواع الحرير ، وهى حرام على الرجل ؛ لأنه لا يجوز للرجل أن يلبس الحرير ، ولا أن يجلس عليه ، ولا أن يفترشه ، ولا أن يلتحفه .

وأما المرأة فيجوز لها لبس الحرير ؛ لأنها محتاجة إلى الزينة والتجمل كما قال الله تعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [الزخرف : ١٨] . يعنى : أو من يُرفه فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين كمن ليس كذلك وهم الرجال ، فالرجال لا يرفهون فى الحلية ولا يُنشَّئون فيها لأنهم مستغنون ببطولتهم ورجولتهم عن التزين والتجمل بهذه الأشياء .

وأما افتراش المرأة للحرير والتحافها به وجلوسها عليه ، فقد اختلف فيه العلماء ، منهم من منع وحرم واستدل بعموم هذا الحديث ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام نهى عن المياثر الحمر وشبهها ، وقال : إن المرأة يباح لها أن تلبس الحرير لاحتياجها إليه ، أما أن تفترشه فلا حاجة لها إلى أن تفترش الحرير ، وهذا القول أقرب من القول بالحل مطلقًا أى : بحل الحرير للنساء مطلقًا ؛ لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا .

بقى الكلام على قوله : « **وإنشاء الضالة** » يعنى مما أمرهم به إنشاد الضالة ، يعنى أن الإنسان إذا وجد ضالة وجب عليه إنشادها ، أى : طلب من هى له ، والضالة هى ما ضاع من البهائم ، وقد قسم العلماء ـ رحمهم الله ـ الضالة إلى قسمين :

الأول : قسم يمتنع من الذئاب ونحوها من صغار السباع ، فهذا لا يجوز التقاطه ولا إيواؤه ، ومن آوى ضالة فهو ضال ، مثل الإبل ، أو ما يمتنع بطيرانه مثل الطيور كالصقور والحمام وشبهها ، أو ما يمتنع بعدوه كالظباء ونحوها .

فالذى يمتنع من صغار السباع كالذئاب وشبهها ثلاثة أنواع : ما يمتنع من السباع لكبر جثته وقوته مثل الإبل ، وما يمتنع من السباع لطيرانه كالصقور والحمام ، وما يمتنع من السباع لعدوه وسرعة سعيه كالظباء .

فهذه لا يجوز للإنسان أن يلتقطها ، ولا يجوز له أن يؤويها بل يطردها من إبله ، ويطردها من حمامه إذا أوت إلى حمامه ، فإن النبى ـ ﷺ ـ سُئل عن ضالة الإبل فقال : « **ما لك ولها ، معها سقاؤها وحذاؤها ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها** » (١)

---

(١) البخارى (٢٣٧٢) مسلم (١٧٢٢) .

Marfat.com

معها سقاؤها : يعنى بطنها تملؤه ماءً ، وحذاؤها : يعنى خفها تمشى عليه ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها .

فلا يجوز لك أن تؤوى هذه الضالة ولا أن تلتقطها ، ولو كنت تريد الخير ، اللهم إلا إذا كنت فى أرض فيها قُطاع طريق تخشى أن يأخذوها ويضيعوها على صاحبها ، فلا بأس أن تأخذها حينئذ ، أو إذا كنت تعرف صاحبها فتأخذها لتردها عليه ، فهذا لا بأس به .

الثانى : ما لا يمتنع من صغار السباع يعنى الذى يعجز أن يفك نفسه مثل الغنم أو الماعز أو الشياه أو ما أشبه ذلك ، فإنك تأخذها ، كما قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **هى لك ، أو لأخيك ، أو للذئب** »[1] ولكن يجب عليك أن تبحث عن صاحبها .

وقوله : « **هى لك** » يعنى إن لم تجد صاحبها ، « **أو لأخيك** » يعنى صاحبها إذا عرفته ، « **أو للذئب** » إذا لم يجدها أحد أكلها الذئب .

فهذه تؤخذ ويُبحث عن صاحبها ، فإذا تمت السنة ولم يُوجد صاحبها فهى لمن وجدها .

وإنشاد الضالة له معنيان :

المعنى الأول : ما ذكرنا وهذا واجب على الإنسان .

المعنى الثانى : منهى عنه ، وذلك مثل ما يقع فى المساجد ، وهو أن يطلب الإنسان الضالة فيه ، مثل أن يقول : من عين كذا وكذا ؟ أو يا أيها الناس قد ضاع لى كذا وكذا فمن وجدها ؟

فهذا لا يجوز فى المسجد ، قال النبى عليه الصلاة والسلام : « **إذا سمعتم أحداً ينشد ضالة فى المسجد فقولوا له : لا ردها الله عليك ، فإن المساجد لم تُبن لهذا** »[2] .

إنسان يقف فى المسجد ويقول : يا جماعة ، من عين لى شاة ؟ من عين لى عَنْزَة ؟ من عين لى كذا ؟ فهذا حرام ، والمساجد ما بنيت لهذا ، ونحن مأمورون أن ندعو الله عليه ، فنقول : لا ردها الله عليك ، كما أننا إذا سمعنا شخصًا يبيع ويشترى فى المسجد فإننا نقول : لا أربح الله تجارتَك ؛ لأن المساجد لم تُبن للبيع والشراء .

فهذه الأوامر التى أمر بها النبى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كلها خير ،

---

(١) البخارى (٢٣٧٢) .

(٢) مسلم (٥٦٨) أبو داود (٤٧٣) ابن ماجه (٧٦٧) .

Marfat.com

والنواهى التى نهى عنها كلها شر ؛ لأن قاعدة شريعة تأمر بالمصالح وتنهى عن المفاسد ، وإذا اجتمع فى الشيء مفسدة ومصلحة غُلب الأقوى منهما والأكثر ، فإن كان الأكثر المصلحة غلبت ، وإن كانت المفسدة غُلبت ، وإن تساوى الأمران غُلبت المفسدة ؛ لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح .

❊ ❊ ❊

Marfat.com

الفهرس

Marfat.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة المحقق	٣
ترجمة الإمام النووى	٣
ترجمة الشيخ ابن عثيمين	٥
مقدمة الإمام النووى	١٠
١ ـ باب الإخلاص	
١ - حديث: « إنما الأعمال بالنيات . . »	١٤
٢ - حديث: « يغزو جيش الكعبة . . »	٢١
٣ - حديث: « لا هجرة بعد الفتح . . »	٢٣
٤ - حديث: « إن بالمدينة لرجالاً . . »	٢٦
٥ - حديث: « لك ما نويت يا يزيد . . »	٢٨
٦ - حديث: « جاءنى رسول الله- ﷺ - يعودنى عام حجة الوداع . . »	٣٠
٧ - حديث: « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم . . »	٤٢
٨ - حديث: « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا . . »	٤٤
٩ - حديث: « إذا التقى المسلمان بسيفيهما . . »	٤٨
١٠ - حديث: « صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى سوقه . . »	٤٩
١١ - حديث: « إن الله كتب الحسنات والسيئات . . »	٥١
١٢ - حديث: « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار . . »	٥٣
٢ ـ باب التوبة	
١٣ - حديث: « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه . . »	٦٥
١٤ - حديث: « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه . . »	٦٥
١٥ - حديث: « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم . . »	٦٧
١٦ - حديث: « إن الله تعالى يبسط يده بالليل . . »	٦٩
١٧ - حديث: « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها . . »	٦٩
١٨ - حديث: « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر . . »	٦٩

Marfat.com

١٩ ـ حديث: « أتيت صفوان بن عسال أسأله عن المسح على الخفين . . » ٧١
٢٠ ـ حديث: « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا . . » ٧٦
٢١ ـ حديث: « سمعت كعب بن مالك ـ ﷺ ـ يحدث بحديث حين تخلف . . » ٧٨
٢٢ ـ حديث: « عن أبى نجيد أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ ـ . » ٨٣
٢٣ ـ حديث: « لو أن لابن آدم واديًا من ذهب أحب أن يكون له واديان . . » ٨٦
٢٤ ـ حديث: « يضحك الله سبحانه وتعالى إلى رجلين . . » ٨٦

٣ ـ باب الصبر

٢٥ ـ حديث: « الطهور شطر الإيمان . . » ٩٧
٢٦ ـ حديث: « ما يكن عندى من خير فلن أدخره عنكم . . » ١٠٣
٢٧ ـ حديث: « عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير . . » ١٠٥
٢٨ ـ حديث: « لما ثقل النبى ـ ﷺ ـ جعل يتغشاه الكرب . . » ١٠٧
٢٩ ـ حديث: « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى . . » ١١٠
٣٠ ـ حديث: « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر . . » ١١٣
٣١ ـ حديث: « مر النبى ـ ﷺ ـ بامرأة تبكى عند قبر . . » ١٢١
٣٢ ـ حديث: « يقول الله تعالى : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا . . » ١٢٤
٣٣ ـ حديث: « عائشة ـ ﵂ ـ أنها سألت الرسول ـ ﷺ عن الطاعون. . » ١٢٥
٣٤ ـ حديث: « إن الله عز وجل قال : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه . . » ١٢٥
٣٥ ـ حديث: « ألا أريك امرأة من أهل الجنة . . » ١٢٧
٣٦ ـ حديث: « كأنى أنظر إلى رسول الله ـ ﷺ يحكى نبيًا من الأنبياء. . » ١٣٠
٣٧ ـ حديث: « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب . . » ١٣٢
٣٨ ـ حديث: « دخلت على النبى ـ ﷺ ـ وهو يوعك . . » ١٣٢
٣٩ ـ حديث: « من يرد الله به خيرًا يصب منه . . » ١٣٣
٤٠ ـ حديث: « لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه . . » ١٣٤
٤١ ـ حديث: « شكونا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو متوسد بردة له . . » ١٣٧
٤٢ ـ حديث: « لما كان يوم حنين آثر رسول الله ـ ﷺ ناسًا فى القسمة. . » ١٣٩
٤٣ ـ حديث: « إذا أراد الله بعبده خيرًا عجّل له العقوبة فى الدنيا . . » ١٤٢
٤٤ ـ حديث: « كان ابن لأبى طلحة ـ ﵁ ـ يشتكى . . » ١٤٣
٤٥ ـ حديث: « ليس الشديد بالصرعة . . » ١٥٠

Marfat.com

٤٦ -حديث: « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد . . » ١٥٠
٤٧ -حديث: « من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه . . » ١٥٢
٤٨ -حديث: « أن رجلاً قال للنبى - ﷺ - أوصنى . . » ١٥٢
٤٩ -حديث: « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة . . » ١٥٢
٥٠ -حديث: « قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس. . » ١٥٣
٥١ -حديث: « إنها ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها . . » ١٥٦
٥٢ -حديث: « إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا . . » ١٥٦
٥٣ -حديث : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو . . » ١٥٨

٤ ـ باب الصدق

٥٤ -حديث: « إن الصدق يهدى إلى البر . . » ١٨٧
٥٥ -حديث: « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك . . » ١٩٠
٥٦ -حديث قصة هرقل: قال أبو سفيان قلت يقو: «اعبدوا الله وحده. . » ١٩٢
٥٧ -حديث: « من سأل الله تعالى الشهادة بصدق . . » ١٩٦
٥٨ -حديث: « غزا نبى من الأنبياء . . » ١٩٨
٥٩ -حديث: « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا . . » ٢٠٢

٥ ـ باب المراقبة

٦٠ -حديث: «بينما نحن جلوس عند رسول الله - ﷺ - إذ دخل علينا رجل. . » ٢١٦
٦١ -حديث: « اتق الله حيثما كنت . . » ٣٠٠
٦٢ -حديث: « يا غلام إنى أعلمك كلمات . . » ٣٠٢
٦٣ -حديث: « إنكم لتعملون أعمالاً هى أدق فى أعينكم من الشعر . . » ٣٠٦
٦٤ -حديث: « إن الله تعالى يغار . . » ٣٠٦
٦٥ -حديث: « إن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى . . » ٣٠٩
٦٦ -حديث: « الكيس من دان نفسه . . » ٣١٥
٦٧ -حديث: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . . » ٣١٦
٦٨ -حديث: « لا يُسأل الرجل فيما ضرب امرأته . . » ٣١٦

٦ ـ باب التقوى

٦٩ -حديث: « قيل : يا رسول الله ، من أكرم الناس . . » ٣٢٣
٧٠ -حديث: « إن الدنيا حلوة خضرة . . » ٣٢٤

Marfat.com

٧١ - حديث: « اللَّهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى . . » ٣٢٧
٧٢ - حديث: « من حلف على يمين ثم رأى أتقى لله منها فليأت التقوى. . » ٣٢٨
٧٣ - حديث: « اتقوا الله وصلوا خمسكم . . » ٣٣٠
٧ - باب فى اليقين والتوكل
٧٤ - حديث: « عرضت على الأمم ، فرأيت النبى ومعه الرهيط . . » ٣٣٩
٧٥ - حديث: « اللَّهم لك أسلمت وبك آمنت . . » ٣٤٤
٧٦ - حديث: « حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم - ﷺ - حين ألقى فى النار » ٣٤٤
٧٧ - حديث: « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير . . » ٣٤٦
٧٨ - حديث: «عن جابر رضي الله عنه أنه غزا مع رسول الله - ﷺ - قبل نجد. . » ٣٤٦
٧٩ - حديث: « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم . . » ٣٤٧
٨٠ - حديث: « يا فلان إذا أويت إلى فراشك . . » ٣٤٩
٨١ - حديث: «نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤوسنا.» ٣٥١
٨٢ - حديث: « بسم الله توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك . . » ٣٥٢
٨٣ - حديث: «من قال يعنى إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله.» ٣٥٣
٨٤ - حديث: « كان أخوان على عهد النبى - ﷺ - وكان أحدهما يأتى النبى. » ٣٥٣
٨ - باب الاستقامة
٨٥ - حديث: « قل : آمنت بالله ، ثم استقم . . » ٣٥٦
٨٦ - حديث: « قاربوا وسددوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله. » ٣٥٧
٩ - باب التفكير فى عظيم مخلوقات الله تعالى
١٠ - باب المبادرة إلى الخيرات ، وحث من توجه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردد
١/٨٧ - حديث: « بادروا بالأعمال فتنًا . . » ٣٧٦
٢/٨٨ - حديث: « ذكرت شيئًا من تبر عندنا . . » ٣٧٩
٣/٨٩ - حديث: « أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . . » ٣٨٢
٤/٩٠ - حديث: « أن تصدق وأنت صحيح شحيح . . » ٣٨٤
٥/٩١ - حديث: « من يأخذ منى هذا . . » ٣٨٥
٦/٩٢ - حديث: « اصبروا فإنه لا يأتى زمان . . » ٣٨٨

Marfat.com

٧/٩٣ - حديث: « بادروا بالأعمال سبعًا . . » ٣٩١
٨/٩٤ - حديث: « لأعطين هذه الراية رجلاً . . » ٣٩٤
١١ ـ باب المجاهدة
٩٥ - حديث: « إن الله تعالى قال : من عادى لى وليًا . . » ٤٠٣
٩٦ - حديث: « إذا تقرب البعد إلىَّ شبرًا . . » ٤٠٧
٩٧ - حديث: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس . . » ٤٠٧
٩٨ - حديث: « أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا ؟ . . » ٤٠٩
٩٩ - حديث: « كان رسول الله- ﷺ - إذا دخل العشر . . » ٤١٢
١٠٠ - حديث: « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله . . » ٤١٣
١٠١ - حديث: « حجبت النار بالشهوات . . » ٤٢٠
١٠٢ - حديث: « صليت مع النبى- ﷺ - ذات ليلة ، فافتتح البقرة . . » ٤٢٣
١٠٣ - حديث: « صليت مع النبى- ﷺ - ليلة ، فأطال القيام . . » ٤٢٦
١٠٤ - حديث: « يتبع الميت ثلاثة . . » ٤٢٦
١٠٥ - حديث: « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله . . » ٤٢٨
١٠٦ - حديث: « كنت أبيت مع رسول الله- ﷺ - . . » ٤٢٩
١٠٧ - حديث: « عليك بكثرة السجود . . » ٤٣١
١٠٨ - حديث: « خير الناس من طال عمره وحسن عمله . . » ٤٣٢
١٠٩ - حديث: « أنس بن النَّضر وقتاله يوم أحد . . » ٤٣٣
١١٠ - حديث: « نزول الآية :﴿ والذين يلمزون المطوعين ﴾ » ٤٣٥
١١١ - حديث: « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى . . » ٤٣٧
١٢ ـ باب الحث على الازدياد من الخير فى أواخر العمر
١١٢ - حديث: « أعذر الله إلى امرئ . . » ٤٥٥
١١٣ - حديث ابن عباس : « كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر . . » ٤٥٧
١١٤ - حديث ما صلى رسول الله- ﷺ - صلاة إلا يقول فيها : « سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » ٤٥٩
١١٥ - حديث: « إن الله عز وجل تابع الوحى على رسولهﷺ قبل وفاته ٤٦٠
١١٦ - حديث: « يبعث كل عبد على ما مات عليه . . » ٤٦٠

Marfat.com

١٣ ـ باب بيان كثرة طرق الخير

١١٧ ـ حديث: « أى الأعمال أفضل ؟ . . »	٤٦٣
١١٨ ـ حديث: « يصبح على كل سلامى من أحدكم . . »	٤٦٥
١١٩ ـ حديث: « عرضت عليَّ أعمال أمتى . . »	٤٦٦
١٢٠ ـ حديث: « أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ . . »	٤٦٨
١٢١ ـ حديث: « لا تحقرن من المعروف شيئًا »	٤٧٢
١٢٢ ـ حديث: « كل سلامى من الناس عليه صدقة »	٤٧٢
١٢٣ ـ حديث: « من غدا إلى المسجد أو راح . . »	٤٧٣
١٢٤ ـ حديث: « يا نساء المسلمات لا تحقرن جارة . . »	٤٧٣
١٢٥ ـ حديث: « الإيمان بضع وسبعون . . »	٤٧٣
١٢٦ ـ حديث: « بينما رجل يمشى بطريق . . »	٤٧٥
١٢٧ ـ حديث: « لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة . . »	٤٧٧
١٢٨ ـ حديث: « من توضأ فأحسن الوضوء . . »	٤٧٩
١٢٩ ـ حديث: « إذا توضأ العبد المسلم . . »	٤٨١
١٣٠ ـ حديث: « الصلوات الخمس . . »	٤٨٣
١٣١ ـ حديث: « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا . . »	٤٨٣
١٣٢ ـ حديث: « من صلى البردين دخل الجنة . . »	٤٨٥
١٣٣ ـ حديث: « إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل . . »	٤٨٥
١٣٤ ـ حديث: « كل معروف صدقة . . »	٤٨٧
١٣٥ ـ حديث: « ما من مسلم يغرس غرسًا . . »	٤٩٠
١٣٦ ـ حديث: « إنه قد بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا . . »	٤٩١
١٣٧ ـ حديث: « قد جمع الله لك ذلك كله . . »	٤٩٢
١٣٨ ـ حديث: « أربعون خصلة أعلاها منيحة العنز . . »	٤٩٤
١٣٩ ـ حديث: « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه . . »	٤٩٤
١٤٠ ـ حديث: « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة . . »	٤٩٥
١٤١ ـ حديث: « على كل مسلم صدقة . . »	٤٩٧

١٤ ـ باب الاقتصاد فى العبادة

١٤٢/١ ـ حديث: « مه عليكم بما تطيقون . . »	٥٠١

Marfat.com

٢/ ١٤٣ ـ حديث: « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ . . » ٥٠٣
٣ / ١٤٤ ـ حديث: « هلك المتنطعون » ٥٠٤
٤ / ١٤٥ ـ حديث: « إن الدين يسر . . » ٥٠٧
٥/ ١٤٦ ـ حديث: « ما هذا الحبل . . » ٥١٠
٦/ ١٤٧ ـ حديث: « إذا نعس أحدكم وهو يصلى . . » ٥١١
٧/ ١٤٨ ـ حديث: « كنت أصلى مع النبى - ﷺ - الصلوات . . » ٥١٢
٨/ ١٤٩ ـ حديث: « صدق سلمان . . » ٥١٢
٩/ ١٥٠ ـ حديث: « أنت الذى تقوب ذلك » ٥١٣
١٠/ ١٥١ـ حديث: « والذى نفسى بيده لو تدومون . . » ٥١٥
١١/ ١٥٢ـ حديث: « بينما النبى - ﷺ - يخطب . . » ٥١٧

١٥ ـ باب المحافظة على الأعمال

١/ ١٥٣ ـ حديث: « من نام عن حزبه من الليل . . » ٥٢١
٢/ ١٥٤ ـ حديث: « يا عبد الله لا تكن مثل فلان . . » ٥٢٣
٣/ ١٥٥ ـ حديث: « كان رسول الله - ﷺ - إذا فاتته الصلاة من الليل . » ٥٢٣

١٦ ـ باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها

١/ ١٥٦ ـ حديث: « دعونى ما تركتكم . . » ٥٣٧
٢/ ١٥٧ ـ حديث: « أوصيكم بتقوى الله . . » ٥٤١
٥/ ١٦٠ ـ حديث: « لتسون صفوفكم . . » ٥٤٩
٦/ ١٦١ ـ حديث: « إن هذه النار عدو لكم . . » ٥٥١
٧/ ١٦٢ ـ حديث: « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى . . » ٥٥٣
٨/ ١٦٣ ـ حديث: « مثل ومثلكم . . » ٥٥٤
٩/ ١٦٤ ـ حديث: « إنكم لا تدرون فى أيها البركة . . » ٥٥٦
١٠/ ١٦٥ ـ حديث: « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله . . » ٥٥٧
١١/ ١٦٦ ـ حديث: « إنه لا يقتل الصيد . . » ٥٦٤
١٢/ ١٦٧ ـ قول عمر : إنى أعلم أنك حجر ما تنفع ولا تضر . ٥٦٦

١٧ ـ باب وجوب الانقياد لحكم الله تعالى

١/ ١٦٨ ـ حديث: « أتريدون أن تقولوا كما قال . . » ٥٦٩

Marfat.com

١٨ ـ باب النهى عن البدع ومحدثات الأمور
١/ ١٦٩ ـ حديث: « من أحدث فى أمرنا هذا .. » ٥٧٦
٢/ ١٧٠ ـ حديث: « صبحكم ومساكم .. » ٥٧٧
١٩ ـ باب فيمن سن سنة حسنة أو سيئة
١/ ١٧١ ـ حديث: « من سن فى الإسلام سنة حسنة .. » ٥٨٣
٢٠ ـ باب الدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة
١/ ١٧٣ ـ حديث: « من دل على خير .. » ٥٩٠
٢/ ١٧٤ ـ حديث: « من دعا إلى هدى كان له من الأجر .. » ٥٩٥
٣/ ١٧٥ ـ حديث: « لأعطين الراية غدا .. » ٥٩٥
٤/ ١٧٦ ـ حديث: « ائت فلانًا فإنه قد كان تجهز فمرض .. » ٦٠٠
٢١ ـ باب التعاون على البر والتقوى
١/ ١٧٧ ـ حديث: « من جهز غازيًا .. » ٦٠٣
٢/ ١٧٨ ـ حديث: « لينبعث من كل رجلين أحدهما .. » ٦٠٤
٣/ ١٧٩ ـ حديث: « من القوم ؟ » ٦٠٥
٤/ ١٨٠ ـ حديث: « الخازن المسلم الأمين .. » ٦٠٧
٢٢ ـ باب النصيحة
١/ ١٨١ ـ حديث: « الدين النصيحة .. » ٦١٠
٢/ ١٨٢ ـ حديث: « بايعت رسول الله ﷺ ـ على إقام الصلاة .. » ٦١٨
٣/ ١٨٣ ـ حديث: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه .. » ٦١٩
٢٣ ـ باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر
٣/ ١٨٦ ـ حديث: « بايعنا رسول الله ﷺ ـ على السمع والطاعة .. » ٦٣١
٤/ ١٨٧ ـ حديث: « مثل القائم فى حدود الله .. » ٦٣٨
٥/ ١٨٨ ـ حديث: « إنه يستعمل عليكم أمراء .. » ٦٤٠
٦/ ١٨٩ ـ حديث: « لا إله إلا الله ، ويل للعرب .. » ٦٤٣
٧/ ١٩٠ ـ حديث: « إياكم والجلوس فى الطرقات .. » ٦٤٥
٨/ ١٩١ ـ حديث: « يعمد أحدكم إلى جمرة .. » ٦٤٧
٩/ ١٩٢ ـ حديث: « إن شر الدعاء الحطمة » ٦٥٠
١٠/ ١٩٣ ـ حديث: « والذى نفسى بيده لتأمرون بالمعروف .. » ٦٥٠

Marfat.com

١١/ ١٩٤ ـ حديث: « أفضل الجهاد كلمة عدل .. » ٦٥٢
١٢/ ١٩٥ ـ حديث: « أى الجهاد أفضل ... » ٦٥٢
١٣/ ١٩٦ ـ حديث: « إن أول ما دخل النقص ... » ٦٥٢
١٤/ ١٩٧ ـ قول أبي بكر: « يا أيها الناس إنكم لتقرؤُون هذه الآية .. » ٦٥٤

٢٤ ـ باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف قوله فعله

١/ ١٩٨ ـ حديث: « يؤتى بالرجل يوم القيامة .. » ٦٥٧

٢٥ ـ باب الأمراء بأداء الأمانة

١/ ١٩٩ ـ حديث: « آية المنافق ثلاث .. » ٦٦٣
٢/ ٢٠٠ ـ حديث: « أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال .. » ٦٦٦
٣/ ٢٠١ ـ حديث: « يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة .. » ٦٦٨

٢٦ ـ باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم

١/ ٢٠٢ ـ حديث: « لما وقف الزبير يوم الجمل ... » ٦٧٣
٢/ ٢٠٣ ـ حديث: « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات .. » ٦٧٥
٣/ ٢٠٤ ـ حديث: « لتؤدن الحقوق إلى أهلها .. » ٦٧٧
٤/ ٢٠٥ ـ حديث: « ما بعث الله من نبى إلا أنذره أمته .. » ٦٧٨
٥/ ٢٠٦ ـ حديث: « من ظلم قيد شبر .. » ٦٨٢
٦/ ٢٠٧ ـ حديث: « إن الله ليملى للظالم .. » ٦٨٢
٧/ ٢٠٨ ـ حديث: « إنك تأتى قومًا من أهل الكتاب .. » ٦٨٣
٨/ ٢١٠ ـ حديث: « من كانت عنده مظلمة لأخيه .. » ٦٨٩
٩/ ٢١١ ـ حديث: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .. » ٦٩١
١٠/ ٢١٢ ـ حديث: « هو فى النار » ٦٩٢
١١/ ٢١٣ ـ حديث: « إن الزمان قد استدار كهيئته .. » ٦٩٢
١٢/ ٢١٤ ـ حديث: « من اقتطع حق امرئ مسلم ... » ٦٩٨
١٣/ ٢١٥ ـ حديث: « من استعملناه منكم على عمل ... » ٦٩٩
١٤/ ٢١٦ ـ حديث: « كلا إنى رأيته فى النار .. » ٦٩٩
١٥/ ٢١٧ ـ حديث: « نعم إن قتلت فى سبيل الله .. » ٦٩٩

Marfat.com

١٦/ ٢١٨ ـ حديث: « أتدرون من المفلس .. » ٧٠١
١٧/ ٢١٩ ـ حديث: « إنما أنا بشر .. » ٧٠٣
١٨/ ٢٢٠ ـ حديث: « لن يزال المؤمن .. » ٧٠٥
١٩/ ٢٢١ ـ حديث: « إن رجالاً يتخوضون .. » ٧٠٧
٢٧ ـ باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم
١/ ٢٢٢ ـ حديث: « المؤمن للمؤمن كالبنيان .. » ٧١١
٢/ ٢٢٣ ـ حديث: « من مر فى شيء من مساجدنا .. » ٧١٤
٣/ ٢٢٤ ـ حديث: « مثل المؤمنين فى توادهم ... » ٧١٤
٤/ ٢٢٥ ـ حديث: « من لا يرحم لا يرحم » ٧١٤
٥/ ٢٢٦ ـ حديث: « أو أملك إن كان الله نزع .. » ٧١٦
٦/ ٢٢٧ ـ حديث: « من لا يرحم الناس .. » ٧١٧
٧/ ٢٢٨ ـ حديث: « إذا صلى أحدكم للناس .. » ٧١٧
٨/ ٢٢٩ ـ حديث: « إن كان رسول الله ـ ﷺ ـ ليدع العمل .. » ٧١٩
٩/ ٢٣٠ ـ حديث: « إنى لست كهيئتكم .. » ٧١٩
١٠/ ٢٣١ ـ حديث: « إنى لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول .. » ٧٢١
١١/ ٢٣٢ ـ حديث: « من صلى صلاة الصبح .. » ٧٢١
١٢/ ٢٣٣ ـ حديث: « المسلم أخو المسلم لا يظلمه .. » ٧٢٤
١٣/ ٢٣٤ ـ حديث: « المسلم أخو المسلم لا يخونه .. » ٧٢٦
١٤/ ٢٣٥ ـ حديث: « لا تحاسدوا ولا تناجشوا .. » ٧٢٩
١٥/ ٢٣٦ ـ حديث: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه .. » ٧٣٨
١٦/ ٢٣٧ ـ حديث: « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا .. » ٧٣٨
١٧/ ٢٣٨ ـ حديث: « حق المسلم على المسلم خمس .. » ٧٣٩
١٨/ ٢٣٩ ـ حديث: « أمرنا رسول الله بسبع .. » ٧٤٩
الفهرس ٧٥٧

Marfat.com

Marfat.com